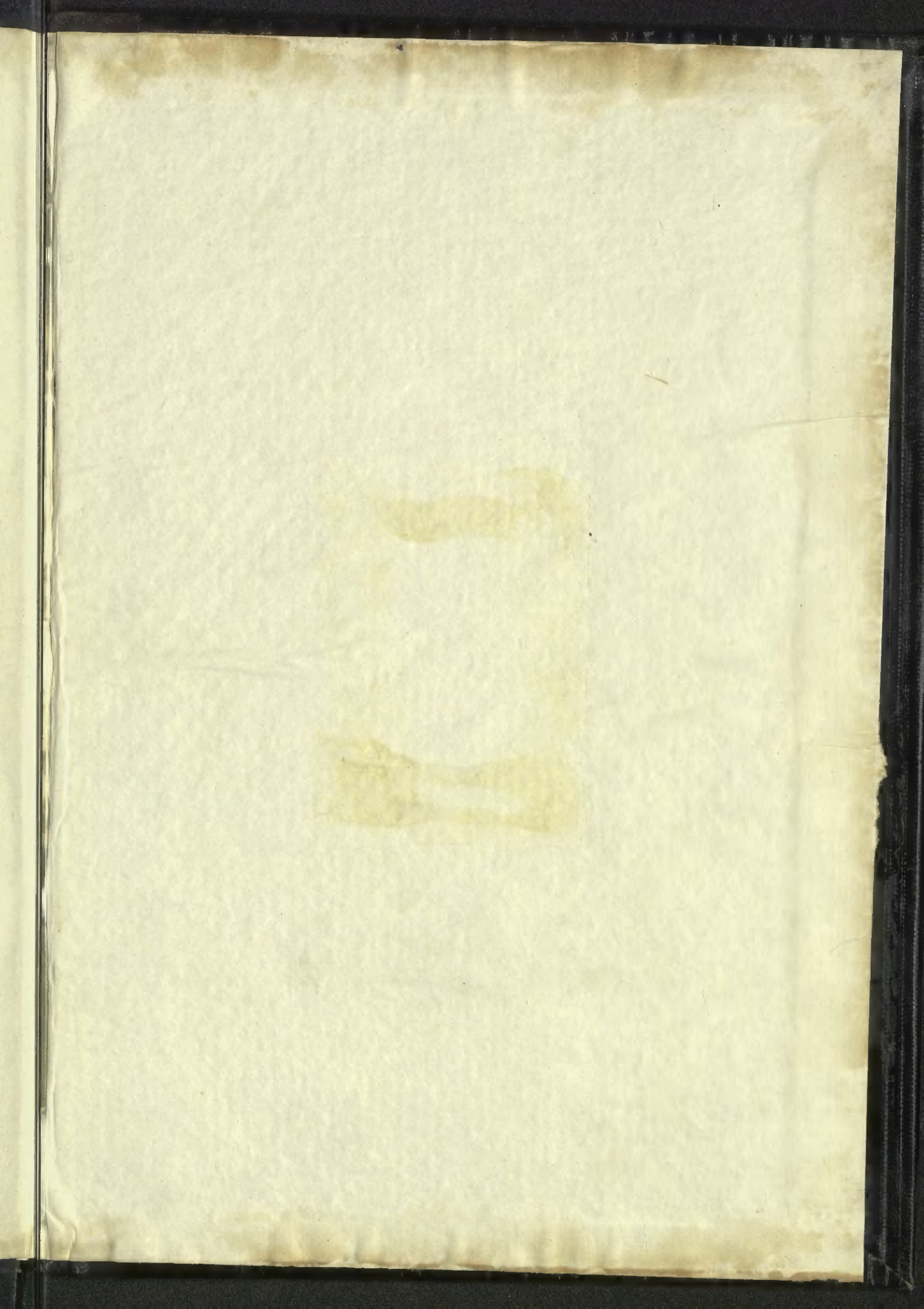
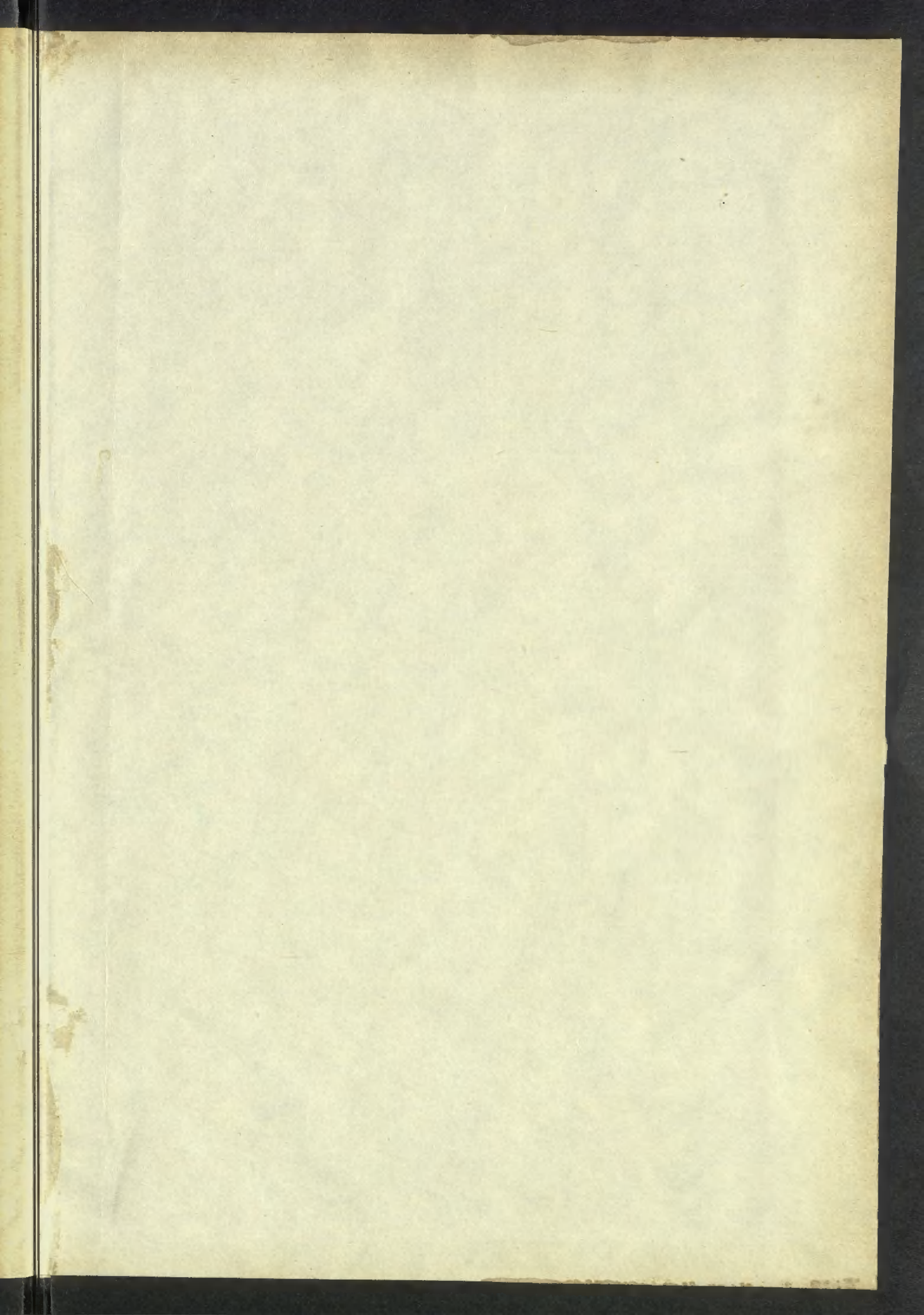






تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معاني التنزيل

لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

وبهامشه

تفسير البغوى

المعروف بمعالم التنزيل

لأبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى

المتوفى سنة ٥١٦ هـ

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

ملتزم الطبع والنشر
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

﴿سورة المائدة﴾ مدنية كلها إلا قوله «اليوم أكملت لكم دينكم» الآية فانها نزلت بعرفات وهي مائة وعشرون آية .

(بسم الله الرحمن الرحيم) روى عن أبي ميسرة قال أنزل الله تعالى في هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها في غيرها قوله «أحلت لكم بهيمة الأنعام» وقوله «والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام - وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» وتمام الطهور في قوله «إذا قمتم إلى الصلاة - والسارق والسارقة - ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم» الآية «وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام» وقوله «شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت» قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) أي بالعهود قال الزجاج هي أوكد العهود يقال عاقدت فلانا وعقدت عليه أي ألزمته ذلك باستئناف وأصله من عقد الشيء بغيره ووصله به كما يعقد الحبل بالحبل إذا وصل واختلفوا في هذه العقود قال ابن جريج هذا خطاب لأهل الكتاب يعني يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة أوفوا بالعهود التي عهدتها إليكم في شأن محمد ﷺ وهو قوله «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس» وقال الآخرون هو عام قال قتادة أراد بها الحلف الذي تعاقدوا عليه في الجاهلية. قال ابن مسعود رضي الله عنه : هي عهود الإيمان والقرآن ، وقيل هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم بعضهم

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المائدة

نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم» فانها نزلت بعرفة في حجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته وقال «يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها» . فان قلت لم خص النبي ﷺ هذه السورة من بين سور القرآن بقوله فأحلوا حلالها وحرموا حرامها وكل سور القرآن يجب أن يحل حلالها ويحرم حرامها . قلت هو كذلك وإنما خص هذه السورة لزيادة الاعتناء بها فهو كقوله تعالى «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم» فأكد اجتناب الظلم في هذه الأربعة أشهر وإن كان لا يجوز الظلم في شيء من جميع أشهر السنة وإنما أفرد هذه الأربعة الأشهر بالذكر لزيادة الاعتناء بها ، وقيل إنما خص النبي صلى الله عليه وسلم هذه السورة لأن فيها ثمانية عشر حكما لم تنزل في غيرها من سور القرآن . قال البغوي روى عن ميسرة قال : إن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها في غيرها وهي قوله «والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام وما علمتم من الجوارح مكلبين وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب» وتمام بيان الطهر في قوله إذا قمتم إلى الصلاة - والسارق والسارقة - ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم - ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام» وقوله «شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت» .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) يعني العهود قال الجماعة . اختلفوا في المراد بهذه العقود التي أمر الله تعالى بوفائها فقال ابن جريج هذا خطاب لأهل الكتاب والمعنى يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة ، أوفوا بالعقود التي عهدتها إليكم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به وقيل هو خطاب للمؤمنين أمرهم بالوفاء بالعقود قال ابن عباس هي عهود الإيمان وما أخذه على عباده في القرآن فيما أحل وحرم وقيل هي العقود التي كانت في الجاهلية كان يعاقد

(أحلت لكم بهيمة الأنعام) قال الحسن وقتادة هى الأنعام كلها وهى الإبل والبقر والغنم ، وأراد تحليل ماحرم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام وروى أبوظبيان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال بهيمة الأنعام هى الأجنة ومثله عن الشعبى قال هى الأجنة التى توجد ميتة فى بطون أمهاتها إذا ذبحت أونحرت ذهب أكثر أهل العلم إلى تحليله قال الشيخ رحمه الله تعالى قرأت على أبى عبدالله محمد بن الفضل الخرقى فقلت قرأ على أبى سهل محمد بن عمر بن طرفة الشجرى (٣) وأنت حاضر فقيل له حدثكم أبو سليمان الخطابى أنا أبو بكر بن داسة أنا أبو داود السجستانى أنا مسدد أنا هشيم عن مجالد عن أبى الوداك عن أبى مسعود رضى الله عنهم قال « قلنا يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة فنجد فى بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله ؟ فقال كلوه إن شئتم فان ذكاته ذكاة أمه» وروى أبو الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ قال « ذكاة الجنين ذكاة أمه » وشرط بعضهم الإشعار قال ابن عمر ذكاة ما فى بطنها فى ذكاتها إذا تم خلقه ونبت شعره ومثله عن سعيد بن المسيب وعن أبى حنيفة رضى الله عنه لايحل أكل الجنين إذا خرج ميتا بعد ذكاة الأم وقال الكلبى بهيمة الأنعام وحشها ، وهى الظباء وبقر الوحش وحمر الوحش سميت بهيمة لأنها أبهمت عن التمييز وقيل لأنها لانطق لها (إلا مايتلى عليكم) أى ماذكر فى قوله «حرمت عليكم الميتة» إلى قوله «وماذبح على النصب» (غير محلى الصيد) وهو نصب على الحال أى لامحلى الصيد ومعنى الآية أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشيا فانه صيد لايحل لكم فى حال الإحرام فلذلك قوله تعالى (وأنتم حرم إن الله يحكم مايريد ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله) نزلت فى الحطم واسمه شريح بن ضبيعة البكرى أتى المدينة وخلف خيله خارج المدينة ودخل وحده على النبى ﷺ فقال له إلام تدعو

بعضهم بعضا على النصرة والمؤازرة على من حاول ظلمه أو بغاه بسوء وذلك هو معنى الحلف الذى كانوا يتعاقدونه بينهم قال قتادة ذكر لنا إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول أوفوا بعقد الجاهلية ولاتحدثوا عقدا فى الإسلام » وقيل بل هى العقود التى يتعاقدها الناس بينهم وما يعقده الإنسان على نفسه والعقود خمس : عقد اليمين وعقد النكاح وعقد العهد وعهد البيع وعقد الشركة زاد بعضهم وعقد الحلف قال الطبرى : وأولى الأقوال عندنا بالصواب ما قاله ابن عباس أن معناه أوفوا ياأيها المؤمنون بعقود الله التى أوجبها عليكم وعقدها فيما أحل وحرم عليكم وألزمكم فرضه وبين لكم حدوده وإنما قلنا إن هذا القول أولى بالصواب لأن الله تعالى اتبعه بالبيان عما أحل لعباده وحرم عليهم فقال تعالى (أحلت لكم بهيمة الأنعام) وهو خطاب للمؤمنين خاصة والبهيمة اسم لكل ذى أربع من الحيوان لكن خص فى التعارف بما عدا السباع والضوارى من الوحوش وإنما سميت بهيمة لأنها أبهمت عن العقل والتمييز قال الزجاج كل حى لايميز فهو بهيمة والأنعام جمع النعم وهى الإبل والبقر والغنم ولا يدخل فيها ذوات الحافر فى قول جميع أهل اللغة واختلفوا فى معنى الآية فقال الحسن وقتادة بهيمة الأنعام الابل والبقر والغنم والمعز وعلى هذا القول إنما أضاف البهيمة إلى الأنعام على جهة التوكيد وقال الكلبى بهيمة الأنعام وحشيها كالظباء وبقر الوحش وحمر الوحش وعلى هذا إنما أضاف البهيمة إلى الأنعام ليعرف جنس الأنعام وما أحل منها لأنه لو أفردها فقال البهيمة لدخل فيه مايحل ويحرم من البهائم فلهذا قال تعالى «أحلت لكم بهيمة الأنعام» وقال ابن عباس هى الأجنة التى توجد ميتة فى بطون أمهاتها إذا ذبحت أو نحرت ذهب أكثر العلماء إلى تحليلها وهو مذهب الشافعى ويدل عليه ماروى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال فى الجنين ذكاته ذكاة أمه أخرجه الترمذى وابن ماجه وفى رواية أبى داود قال «قلنا يارسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة ونجد فى بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله قال كلوه إن شئتم فان ذكاته ذكاة أمه» وروى الطبرى عن ابن عمر فى قوله أحلت لكم بهيمة الأنعام قال مافى بطنها قال عطية العوفى قلت إن خرج ميتا آكله؟ قال نعم هو بمنزلة رئتها وكبدها وعن ابن عباس قال الجنين من بهيمة الأنعام وعنه أن بقرة نحرت فوجد فى بطنها جنين فأخذ ابن عباس بذنب الجنين وقال هذا من بهيمة الأنعام وشرط بعضهم الإشعار وتمام الخلق وقال ابن عمر ذكاة مافى بطنها ذكاتها إذا تم خلقه ونبت شعره ومثله عن سعيد بن المسيب وقال أبو حنيفة لايحل أكل الجنين إذا خرج ميتا بعد ذكاة الأم . وقوله تعالى (إلا مايتلى عليكم) يعنى فى القرآن تحريمه وأراد به قوله تعالى «حرمت عليكم الميتة» إلى آخر الآية فهذا من المتلو علينا وهو مااستثنى الله عز وجل من بهيمة الأنعام (غير محلى الصيد وأنتم حرم) يعنى أحلت لكم الأنعام كلها والوحشية أيضا من الظباء والبقر والحمر غير محلى صيدها وأنتم محرمون فى حال الإحرام فلا يجوز للمحرم أن يقتل صيدا فى حال إحرامه (إن الله يحكم مايريد) يعنى أن الله يقضى فى خلقه مايشاء ، من تحليل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه وفرض مايشاء أن يفرضه عليهم من أحكامه وفرائضه مما فيه مصلحة لعباده . قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله) نزلت فى الحطم واسمه شريح بن هند

الناس فقال له إلى شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقال حسن إلا أن لى أمراء لاأقطع أمرا دونهم ولعلى أسلم وآتى بهم وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان الشيطان ثم خرج شريح من عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر وما الرجل بمسلم فمر بسرح المدينة فاستاقه وانطلق فاتبعوه فلم يدركوه فلما كان العام القابل خرج حاجا فى حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلدوا الهدى فقال المسلمون للنبى صلى الله عليه وسلم هذا الحطم قد خرج حاجا فخل بيننا وبينه فقال (٤)

النبى صلى الله عليه وسلم إنه قلد الهدى فقالوا يارسول الله هذا شىء كنا نفعله فى الجاهلية فأبى النبى ﷺ فأنزل الله عز وجل «ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله» قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد هى مناسك الحج وكان المشركون يحجون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك . وقال أبو عبيدة شعائر الله هى الهدايا المشعرة والأشعرة من الشعار وهى العلامة وإشعارها إعلامها بما يعرف أنها هدى والإشعار هاهنا أن يطعن فى صفحة سنان البعير بحديدة حتى يسيل الدم ، فيكون ذلك علامة أنها هدى وهى سنة فى الهدايا إذا كانت من الإبل لما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبونعيم أنا أفلح عن القاسم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت «فتلت قلائد بدن النبى صلى الله عليه وسلم بيدى ثم قلدها وأشعرها وأهداها فما حرم عليه شىء كان أحل له» وقاس الشافعى البقر على الإبل فى الأشعار وأما الغنم فلا تشعر بالجرح فانها لاتحتمل الجرح لضعفها وعند أبى حنيفة رضى الله عنه لايشعر الهدى وقال عطية عن ابن عباس رضى الله عنهما لاتحلوا شعائر الله هى أن تصيد وأنت محرم بدليل قوله تعالى «وإذا حللتم فاصطادوا» وقال السدى أراد حرم الله وقيل المراد منه النهى عن القتل فى الحرم وقال عطاء شعائر الله حرمات الله واجتناب سخطه واتباع الطاعة قوله (ولا الشهر الحرام)

فيقول

ابن ضبيعة البكرى أتى المدينة وحده وخلف خيله خارج المدينة ودخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم إلام تدعو الناس فقال إلى شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقال حسن إلا أن لى أمراء لاأقطع أمرا دونهم ولعلى أسلم وآتى بهم فخرج من عنده وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان فلما خرج شريح قال النبى صلى الله عليه وسلم لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر وما الرجل بمسلم فمر بسرح من سرح المدينة فاستاقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول

لقد لفها بالليل سواق حطم ليس براعى إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم باتوا نياما وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزلم خدلج الساقين ممسوح القدم

فتبعوه فلم يدركوه فلما كان العام القابل خرج شريح حاجا مع حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلد الهدي فقال المسلمون يارسول الله هذا الحطم قد خرج حاجا فخل بيننا وبينه فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنه قد قلد الهدى فقالوا يارسول الله هذا شىء كنا نفعله فى الجاهلية فأبى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله» . قال ابن عباس هي المناسك كان المشركون يحجون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك وقيل الشعائر الهدايا المشعرة وأشعارها أن يطعن فى صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه فيكون ذلك علامة أنها هدى وهو سنة فى الإبل والبقر دون الغنم ، ويدل عليه ماروى عن عائشة «فتلت قلائد بدن النبى صلى الله عليه وسلم ثم أشعرها وقلدها ثم بعث بها إلى البيت فما حرم عليه شىء كان له حلالا أخرجاه فى الصحيحين (م) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بذى الحليفة ثم دعا بناقته فأشعرها فى صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم عنها وقلدها نعلين ثم ركب راحلته فلما استوت به على البيداء أهل بالحج وعند أبى حنيفة لايجوز إشعار الهدى بل قال يكره ذلك وقال ابن عباس(١) فى معنى الآية لاتحلوا شعائر الله هى أن تصيد وأنت محرم وقيل شعائر الله شرائع الله ومعالم دينه والمعنى لاتحلوا شيئا من فرائضه التى افترض عليكم واجتنبوا نواهيه التى نهى عنها (ولا الشهر الحرام) أى ولا تحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه والشهر الحرام هو الذى كانت العرب تعظمه وتحرم القتال فى الجاهلية فيه فلما جاء الإسلام لم ينقض هذا الحكم بل أكده والمراد بالشهر الحرام هنا ذو القعدة وقيل رجب ذكرهما ابن جرير وقيل المراد باحلال الشهر الحرام النسيء قال مقاتل كان جنادة بن عوف يقوم فى سوق عكاظ

(١) قوله وقال ابن عباس الخ كأن هذا قول ثان له رضى الله عنه إذ تقدم له غير هذا اه .

فيقول إنى قد أحللت كذا وحرمت كذا يعنى به الأشهر فنهى الله عن ذلك وسيأتى تفسير النسيء فى سورة براءة (ولا الهدى ولا القلائد) الهدى مايهدى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة أو غير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى ، والقلائد جمع قلادة وهى التى تشد فى عنق البعير وغيره والمعنى ولا الهدى ذوات القلائد قال الشاعر :

حلفت برب مكة والمصلى ... وأعناق هدين مقلدات

فعلى هذا القول إنما عطف القلائد على الهدى مبالغة فى التوصية لأنها من أشرف البدن المهداة والمعنى ولا تستحلوا الهدى خصوصا المقلدات منها وقيل أراد أصحاب القلائد وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا أرادوا الخروج من الحرم قلدوا أنفسهم وإبلهم من لحاء شجر الحرم فكانوا يأمنون بذلك فلا يتعرض لهم أحد فنهى الله المؤمنين عن ذلك الفعل ونهاهم عن استحلال نزع شىء من شجر الحرم (ولا آمين البيت الحرام) يعنى ولا تستحلوا القاصدين إلى البيت الحرام وهو الكعبة شرفها الله وعظمها (يبتغون) يعنى يطلبون (فضلا من ربهم) يعنى الرزق والأرباح فى التجارة (ورضوانا) يعنى ويطلبون رضا الله عنهم بزعمهم لأن الكافر لاحظ له فى الرضوان لكن يظن أن فعله ذلك طلب الرضوان فيجوز أن يوصف به بناء على ظنه وقيل إن المشركين كانوا يقصدون بحجهم ابتغاء رضوان الله وإن كانوا لاينالونه فلا يبعد أن يحصل لهم بسبب ذلك القصد نوع من الحرمة وهو الأمن على أنفسهم وقيل كان المشركون يلتمسون فى حجهم مايصلح لهم دنياهم ومعاشهم وقيل ابتغاء الفضل هو للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة وذلك أنهم كانوا يحجون جميعا .

(فصل)

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآية فقال قوم هذه الآية منسوخة إلى هاهنا لأن قوله تعالى لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام يقتضى حرمة القتل فى الشهر الحرام وفى الحرم وذلك منسوخ بقوله تعالى «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وقوله تعالى «ولا آمين البيت الحرام» يقتضى حرمة منع المشركين عن البيت الحرام وذلك منسوخ بقوله تعالى «فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» فلا يجوز أن يحج مشرك ولا يأمن بالهدى والقلائد كافر وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر المفسرين قال الشعبى لم ينسخ من سورة المائدة إلا هذه الآية وقيل المنسوخ منها قوله ولا آمين البيت الحرام نسختها آية براءة «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وقوله «فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم» هذا قال ابن عباس كان المؤمنون والمشركون يحجون البيت جميعا فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا أن يحج البيت أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله بعد هذا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وقال آخرون لم ينسخ من ذلك شىء سوى القلائد التى كانت فى الجاهلية يتقلدونها من لحاء شجر الحرم . قال الواحدي وذهب جماعة إلى أنه لامنسوخ فى هذه السورة وأن هذه الآية محكمة قالوا ماندبنا إلى أن نخيف من يقصد بيته من أهل شريعتنا فى الشهر الحرام ولا فى غيره وفصل الشهر الحرام عن غيره بالذكر تعظيما وتفضيلا وحرم علينا أخذ الهدى من المهدين وصرفه عن بلوغ محله وحرم علينا القلائد التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية وهذا غير مقبول ، والظاهر ماعليه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية لإجماع العلماء على أن الله عز وجل قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم وغيرها وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه وذراعيه جميع لحاء الشجر لم يكن ذلك له أمانا من القتل إذا لم يكن قد تقدم له عهد ذمة أو أمان وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو

أى بالقتال فيه وقال ابن زيد هو النسيء وذلك أنهم كانوا يحلونه عاما ويحرمونه عاما (ولا الهدي) هو كل مايهدى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة (ولا القلائد) أى الهدايا المقلدة يريد ذوات القلائد وقال عطاء أراد أصحاب القلائد وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية إذا أرادوا الخروج من الحرم قلدوا أنفسهم وإبلهم بشىء من لحاء شجر الحرم كيلا يتعرض لهم فنهى الشرع عن استحلال شىء منها وقال مطرف بن الشخير هى القلائد نفسها وذلك أن المشركين كانوا يأخذون من لحاء شجر مكة ويتقلدونها فنهوا عن نزع شجرها قوله تعالى (ولا آمين البيت الحرام) أى قاصدين البيت الحرام يعنى الكعبة فلا تتعرضوا لهم (يبتغون) يطلبون (فضلا من ربهم) يعنى الرزق بالتجارة (ورضوانا) أى على زعمهم لأن الكافرين لانصيب لهم فى الرضوان وقال قتادة هو أن يصلح معايشهم فى الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها ؛ وقيل ابتغاء الفضل للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة لأن المسلمين والمشركين كانوا يحجون وهذه الآية إلى هاهنا منسوخة بقوله «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وبقوله «فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا فلا يجوز أن يحج مشرك ولا يأمن كافر بالهدى والقلائد»

قوله عز وجل (وإذا حللتم) أى من إحرامكم (فاصطادوا) أمر إباحة أباح للحلال أخذ الصيد كقوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض (ولا يجرمنكم) قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة لا يحملنكم يقال جرمنى فلان على أن صنعت كذا أى حملنى وقال الفراء لا يكسبنكم يقال جرم أى كسب فلان جريمة أهله أى كاسبهم وقيل لا يدعونكم (شنآن قوم) أى بغضهم وعداوتهم وهو مصدر شنأت قرأ ابن عامر (٦) وأبو بكر شنئان قوم بسكون النون الأولى وقرأ الآخرون بفتحها وهما لغتان والفتح أجود لأن المصادر أكثرها فعلان بفتح العين مثل الضربان والسيلان والنسلان ونحوها (أن صدوكم عن المسجد الحرام) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الآخرون بفتح الألف أى لأن صدوكم ومعنى الآية ولا يحملنكم عداوة قوم على الاعتداء لأنهم صدوكم وقال محمد بن جرير لأن هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية وكان الصد قد تقدم (أن تعتدوا) عليهم بالقتل وأخذ الأموال (وتعاونوا) أى ليعن بعضكم بعضا (على البر والتقوى) قيل البر متابعة الأمر والتقوى مجانبة النهى وقيل البر الإسلام والتقوى السنة (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) قيل الإثم الكفر والعدوان الظلم وقيل الإثم المعصية والعدوان البدعة أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيرى أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبى طاهر الدقاق ببغداد أخبرنا أبو الحسن على بن محمد بن الزبير القرشى أنا الحسن على بن عفان أنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير بن مالك الحضرمى عن أبيه عن النواس بن سمعان الأنصارى قال سئل رسول الله ﷺ عن البر والإثم قال «البر حسن الخلق والإثم ماحاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» (واتقوا الله إن الله شديد العقاب حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) أى ماذكر على ذبحه غير اسم الله تعالى (والمنخنقة) وهى التى تخنق فتموت

عمرة من المشركين لقوله تعالى «إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» والله أعلم. وقوله تعالى (وإذا حللتم) يعنى من إحرامكم (فاصطادوا) هذا أمر إباحة لأن الله حرم الصيد على المحرم حالة إحرامه بقوله تعالى «غير محلى الصيد وأنتم حرم» وإذا حل من إحرامه بقوله وإذا حللتم فاصطادوا وإنما قلنا إنه أمر إباحة لأنه ليس واجبا على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد ومثله قوله تعالى «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض» معناه أنه قد أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة (ولا يجرمنكم) قال ابن عباس لا يحملنكم وقيل معناه لا يكسبنكم ولا يدعونكم (شنآن قوم) يعنى بغض قوم وعداوتهم (أن صدوكم) يعنى لأن صدوكم (عن المسجد الحرام) والمعنى لا يحملنكم عداوة قوم على الاعتداء لأن صدوكم عن المسجد الحرام لأن هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية، فكان الصد قد تقدم (أن تعتدوا) عليهم يعنى بالقتل وأخذ المال (وتعاونوا على البر والتقوى) يعنى ليعن بعضكم بعضا على مايكسب البر والتقوى قال ابن عباس البر متابعة السنة (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) يعنى ولا يعن بعضكم بعضا على الإثم وهو الكفر والعدوان هو الظلم وقيل الإثم المعاصى والعدوان البدعة (م) عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال البر «حسن الخلق والإثم ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» (واتقوا الله) أى احذروا الله أن تعتدوا ماأمركم به أو تجاوزوا إلى مانهاكم عنه (إن الله شديد العقاب) يعنى لمن خالف أمره ففيه وعيد وتهديد عظيم. قوله عز وجل (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) بين الله تعالى فى أول السورة ماأحل لنا من بهيمة الأنعام بقوله أحلت لكم بهيمة الأنعام ثم إنه تعالى استثنى من ذلك بقوله إلا مايتلى عليكم فذكر ذلك المستثنى بقوله حرمت عليكم الميتة فكل مافارقته الروح مما يذبح بغير ذكاة فهو ميتة وسبب تحريم الميتة أن الدم لطيف جدا فاذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس ذلك الدم وبقى فى العروق فيفسد ويحصل منه ضرر عظيم والدم هو المسفوح الجارى، وكانت العرب فى الجاهلية تجعل الدم فى المصارين وتشويه وتأكله فحرم الله ذلك كله ولحم الخنزير أراد به جميع أجزائه وأعضائه وإنما خص اللحم بالذكر لأنه المقصود بالأكل وقد تقدم فى سورة البقرة أحكام هذه الثلاثة أشياء وما استثنى الشارع من الميتة والدم وهو السمك والجراد والكبد والطحال وذكرنا الدليل على إباحة ذلك واختلاف العلماء فى ذلك. وقوله تعالى (وما أهل لغير الله به) يعنى ماذكر على ذبحه غير اسم الله وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح فحرم الله ذلك بهذه الآية وبقوله: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه (والمنخنقة) قال ابن عباس كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها فحرم الله ذلك والمنخنقة جنس الميتة لأنها لما ماتت لم يسل دمها والفرق بينهما أن الميتة تموت بلا سبب أحد والمنخنقة تموت بسبب الخنق

(والموقوذة)

(والموقوذة) يعنى المقتولة بالخشب وكانت العرب فى الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها فحرم الله ذلك (والمتردية) يعنى التى تتردى من مكان عال فتموت أو فى بئر فتموت والتردى هو السقوط من سطح أومن جبل ونحوه وهذه المتردية تلحق بالميتة فيحرم أكلها ويدخل فى هذا الحكم إذا رمى بسهمه صيدا فتردى ذلك الصيد من جبل أومن مكان عال فمات فانه يحرم أكله لأنه لايعلم هل مات بالتردى أو بالسهم (والنطيحة) يعنى التى تنطحها شاة أخرى حتى تموت وكانت العرب فى الجاهلية تأكل ذلك فحرمها الله تعالى لأنها فى حكم الميتة فأما الهاء فى الكلمات التى تقدمت أعنى المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة فانما دخلت عليها لأنها صفات لموصوف مؤنث وهو الشاة كأنه قال حرمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة والمتردية وخصت الشاة لأنها من أعم ما يأكله الناس والكلام إنما يخرج على الأعم الأغلب ثم يلحق به غيره . فان قلت لم أثبتت الهاء فى النطيحة مع أنها فى الأصل منطوحة فعدلوا بها إلى النطيحة وفى مثل هذا الموضع تكون الهاء محذوفة تقول كف خضيب وعين كحيل يعنى كف مخضوبة وعين مكحولة . قلت إنما تحذف الهاء من الفعيلة إذا كانت صفة لموصوف يتقدمها فاذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة وضعتها موضع الموصوف تقول رأيت قبيلة بنى فلان بالهاء لأنك إن لم تدخل الهاء لم يعرف أرجل هو أم امرأة فعلى هذا إنما دخلت الهاء فى النطيحة لأنها صفة لموصوف غير مذكور وهو الشاة وقال ابن السكيت قد تأتى فعيلة بالهاء وهى فى تأويل مفعول بها تخرج مخرج الأسماء ولا يذهب بها مذهب النعوت نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع ومررت بقبيلة بنى فلان وقوله تعالى (وما أكل السبع) قال قتادة كان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئا فقتله أو أكل منه أكلوا ما بقى منه فحرمه الله تعالى والسبع اسم يقع على كل حيوان له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترس بنابه كالأسد والذئب والنمر والفهد ونحوه وفى الآية محذوف تقديره وما أكل السبع منه لأن ما أكله السبع فقد فقد فلا حكم له . إنما الحكم للباقى منه (إلا ماذكيتم) يعنى إلا ما أدركتموه وقد بقيت فيه حياة مستقرة من هذه الأشياء المذكورة والظاهر أن هذا الاستثناء يرجع إلى جميع المحرمات المذكورة فى الآية من قوله تعالى والمنخنقة إلى وما أكل السبع وهذا قول على بن أبى طالب وابن عباس والحسن وقتادة قال ابن عباس يقول الله تعالى ما أدركتم من هذا كله وفيه روح فاذبحوه فهو حلال وقال الكلبى هذا الاستثناء مما أكل السبع خاصة والقول هو الأول وأما كيفية إدراكها فقال أكثر أهل العلم من المفسرين إن أدركت ذكاته بأن توجد له عين تطرف أو ذنب يتحرك فأكله جائز قال ابن عباس إذا طرفت بعينها أو ركضت برجلها أو تحركت فاذبح فهو حلال وذهب بعض أهل العلم إلى أن السبع إذا جرح فأخرج الحشوة أو قطع الجوف قطعا تيأس معه الحياة فلا ذكاة لأن ذلك وإن كان به حركة ورمق إلا أنه قد صار إلى حالة لايؤثر فى حياته الذبح وهو مذهب مالك واختاره الزجاج وابن الأنبارى لأن معنى التذكية أن يلحقها وفيها بقية تشخب معها الأوداج وتضطرب اضطراب المذبوح لوجود الحياة فيه قبل ذلك وإلا فهو كالميتة وأصل الذكاة فى اللغة تمام الشىء فالمراد من التذكية تمام قطع الأوداج وإنهار الدم ويدل عليه ماروى عن رافع بن خديج عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر «وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة» أخرجاه فى الصحيحين وأقل الذبح فى الحيوان المقدور عليه قطع المرىء والحلقوم

قال ابن عباس كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها (والموقوذة) هى المقتولة بالخشب . قال قتادة كانوا يضربونها بالعصا فاذا ماتت أكلوها (والمتردية) هى التى تتردى من مكان عال أو فى بئر فتموت (والنطيحة) هى التى تنطحها أخرى فتموت وهاء التأنيث تدخل فى الفعيل إذا كان بمعنى الفاعل فاذا كان بمعنى المفعول استوى فيه المذكر والمؤنث نحو عين كحيل وكف خضيب فاذا حذفت الاسم وأفردت الصفة أدخلوا الهاء فقالوا رأينا كحيلة وخضيبة وهنا أدخل الهاء لأنه لم يتقدمها الاسم فلو أسقط الهاء لم يدر أنها صفة مؤنث أم مذكر ومثله الذبيحة والنسيكة وأكيلة السبع (وما أكل السبع) يريد ما بقى مما أكل السبع وكان أهل الجاهلية يأكلونه (إلا ما ذكيتم) يعنى إلا ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء وأصل التذكية الإتمام يقال ذكيت النار إذا أتممت اشتعالها والمراد هنا إتمام فرى الأوداج وإنهار الدم قال النبى صلى الله عليه وسلم «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلو غير السن والظفر» وأقل الذكاة فى الحيوان المقدور عليه قطع المرىء والحلقوم وكماله أن يقطع

الودجين معهما ويجوز بكل محدد يقطع من حديد أوقصب أو زجاج أو حجر إلا السن والظفر فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الذبح بهما وإنما يحل ماذكيته بعد ماجرحه السبع وأكل شيئا منه إذا أدركته والحياة فيه مستقرة فذبحته، فأما ماصار بجرح السبع إلى حالة المذبوح فهو فى حكم الميتة فلا يكون حلالا وإن ذبحته، وكذلك المتردية والنطيحة إذا أدركتها حية قبل أن تصير إلى حالة المذبوح فذبحتها تكون حلالا، ولو رمى إلى صيد فى الهواء فأصابه فسقط على الأرض ومات كان حلالا لأن الوقوع على الأرض من ضرورته فان سقط على جبل أو شجر ثم تردى منه فمات فلا يحل وهو من المتردية إلا أن يكون السهم أصاب مذبحه فى الهواء فيحل

كيفما ماوقع لأن الذبح قد حصل باصابة السهم المذبح (وما ذبح على النصب) قيل النصب جمع واحده نصاب وقيل هو واحد وجمعه أنصاب مثل عنق وأعناق وهو الشىء المنصوب واختلفوا فيه فقال مجاهد وقتادة كانت حول البيت ثلثمائة وستون حجرا منصوبة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويعظمونها ويذبحون لها وليست هى بأصنام إنما الأصنام هى المصورة المنقوشة وقال الآخرون هى الأصنام المنصوبة ومعناه وما ذبح على اسم النصب قال ابن زيد وما ذبح على النصب وما أهل لغير الله به هما واحد قال قطرب على بمعنى اللام أى وما ذبح لأجل النصب (وأن تستقسموا بالأزلام) أى وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام : والاستقسام هو طلب القسم والحكم من الأزلام والأزلام هى القداح التى لاريش لها ولا نصل واحدها زلم وزلم بفتح الزاى وضمها كانت أزلامهم سبعة قداح مستوية من شوحط، يكون عند سادن الكعبة مكتوب على واحد نعم وعلى واحد لا وعلى واحد منكم وعلى واحد من غيركم وعلى واحد ملصق وعلى واحد العقل وواحد غفل ليس عليه شىء فكانوا إذا أرادوا أمرا من سفر أو نكاح أو ختان أو غيره أو تداوروا فى نسب أو اختلفوا فى تحمل عقل جاءوا إلى هبل وكان أعظم أصنام قريش بمكة وجاءوا بمائة درهم أعطوها صاحب القداح حتى يجيل القداح ويقولون ياإلهنا إنا أردنا كذا وكذا فان خرج نعم فعلوا وإن خرج لا لم يفعلوا ذلك حولا ثم عادوا إلى القداح ثانية فاذا أجالوا على نسب فان خرج منكم كان وسيطا منهم وإن خرج من غيركم كان حليفا وإن خرج ملصق كان على منزلته لانسب له ولاحلف

وأكمله قطع الودجين مع ذلك والحلقوم بعد الفم ، وهو موضع النفس والمرىء مجرى الطعام والودجان عرقان يقطعان عند الذبح وأما آلة الذبح فكل ماأنهر الدم وفرى الأوداج من حديد وغيره إلا السن والظفر لما تقدم من نهى النبى ﷺ عن ذلك . قوله تعالى (وما ذبح على النصب) يعنى وحرم ماذبح على النصب والنصب يحتمل أن يكون جمعا واحده نصاب وأن يكون واحدا وجمعه أنصاب وهو الشىء المنصوب قيل كان حول الكعبة ثلثمائة وستون حجرا منصوبة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويعظمونها ويذبحون لها وليست هذه الحجارة بأصنام إنما الأصنام الصور المنقوشة وقال ابن عباس هى الأصنام المنصوبة والمعنى وما ذبح على اسم النصب أو لأجل النصب فهو حرام (وإن تستقسموا بالأزلام) يعنى وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام وهو طلب القسم والحكم من الأزلام وهي القداح وكانت أزلامهم سبع قداح مستوية مكتوب على واحد منها أمرنى ربى وعلى واحد نهانى وعلى واحد منكم وعلى واحد من غيركم وعلى واحد ملصق وعلى واحد العقل وعلى واحد غفل أى ليس عليه شىء وكانت العرب فى الجاهلية إذا أرادوا سفرا أو تجارة أو نكاحا أو اختلفوا فى نسب أو أمر قتيل أو تحمل عقل أو غير ذلك من الأمور العظام جاؤا إلى هبل وكانت أعظم صنم لقريش بمكة وجاءوا بمائة درهم وأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم فان خرج أمرنى ربى فعلوا ذلك الأمر وإن خرج نهانى ربى ولم يفعلوه وإن أجالوا على نسب فان خرج منكم كان وسطا فيهم وإن خرج من غيركم كان حلفا فيهم وإن خرج ملصق كان على حاله وإن اختلفوا فى العقل وهو الدية فمن خرج عليه قدح العقل تحمله وإن خرج الغفل أجابوا ثانيا حتى يخرج المكتوب عليه فنهاهم الله عن ذلك وحرمه وسماه فسقا . وقيل الأزلام كعاب فارس والروم التى كانوا يقامرون بها وقيل كانت الأزلام للعرب والكعاب للعجم وهى النرد وكلها حرام لايجوز اللعب بشىء منها . عن قطن بن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «العيافة والطيرة والطرق من الجبت» أخرجه أبوداود وقال الطرق الزجر والعيافة الخط وقيل العيافة زجر الطير والطرق الضرب بالحصى والجبت كل ماعبد من دون الله عز وجل وقيل الجبت الكاهن وروى البغوى بسند الثعلبى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تكهن أو استقسم بالأزلام أو تطير طيرة ترده عن سفره لم ينظر إلى

إلى الدرجات العلى يوم القيامة وقوله تعالى (ذلكم فسق) يعني ماذكر من هذه المحرمات في هذه الآية لأن المعنى حرم عليكم تناول كذا وكذا فإنه فسق والفسق ماخرج من الحلال إلى الحرام وقيل إن الإشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام والأول أصح (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) يعني يئسوا أن ترجعوا عن دينكم إلى دينهم كفارا وذلك أن الكفار كانوا يطمعون في أن يعود المسلمون إلى دينهم فلما قوي الإسلام أيسوا من ذلك وذلك هو اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام حجة الوداع فعند ذلك يئس الكفار من بطلان دين الإسلام وقيل إن ذلك هو يوم عرفة فنزلت هذه الآية والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة وقيل لم يرد يوما بعينه وإنما المعنى الآن يئس الذين كفروا من دينكم فهو كما تقول اليوم قد كبرت تريد الآن قد كبرت وتقول فلان كان يزورنا وهو اليوم يجفونا ولم ترد يوما بعينه يعني وهو الآن يجفونا ولم تقصد به اليوم قال الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر

أراد فزمان علينا وزمان لنا ولم يقصد اليوم واحدا معين (فلا تخشوهم) فلا تخافوا الكفار أيها المؤمنون الذين آمنوا أن يظهروا على دينكم فقد زال الخوف عنكم بإظهار دينكم (واخشون) أي وخافوا مخالفة أمري وأخلصوا الخشية لي . قوله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم) نزلت هذه الآية في يوم الجمعة بعد العصر في يوم عرفة والنبي صلى الله عليه وسلم وقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق وبركت لثقل الوحي وذلك في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة (ق) عن طارق بن شهاب قال جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال فأي آية؟ قال «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» فقال عمر إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات في يوم الجمعة أشار عمر إلى ذلك اليوم يوم عيد لنا وعن ابن عباس أنه قرأ «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» وعنده يهودي فقال لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذناها عيدا فقال ابن عباس «فإنها نزلت في يوم عيدين في يوم جمعة ويوم عرفة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال ابن عباس كان في ذلك اليوم خمسة أعياد يوم جمعة ويوم عرفة وعيد لليهود وعيد للنصارى وعيد للمجوس ولم تجتمع أعياد لأهل الملل في يوم واحد قبله ولابعده وروي أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «مايبكيك ياعمر فقال أبكاني إنا كنا في زيادة من ديننا . فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص قال صدقت» فكانت هذه الآية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعدها أحدا وثمانين يوما ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول وقيل لاثنتي عشرة ليلة وهو الأصح سنة إحدى عشرة من الهجرة. وأما تفسير الآية فقوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم» يعني بالفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولاحرام ولاشيء من الفرائض هذا معنى قول ابن عباس وقال سعيد بن جبير وقتادة معنى أكملت لكم دينكم أي حيث لم يحج معكم مشرك وخلا الموسم

عز وجل عن ذلك وحرمه وقال (ذلكم فسق) قال سعيد بن جبير الأزلام حصى بيض كانوا يضربون بها وقال مجاهد هي كعاب فارس والروم التي يتقامرون بها وقال الشعبي وغيره الأزلام للعرب والكعاب للعجم وقال سفيان بن وكيع هي الشطرنج وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «العيافة والطرق والطيرة من الجبت» والمرا من الطرق الضرب بالحصا أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه أنا فضل الكندي أخبرنا الحسن ابن داود الخشاب أنا سويد بن سعيد أنا أبو المختار عن عبد الملك ابن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تكهن أو استقسم أو تطير طيرة ترده عن سفره لم ينظر إلى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة» (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) يعني أن ترجعوا إلى دينهم كفارا وذلك أن الكفار كانوا يطمعون في عود المسلمين إلى دينهم، فلما قوي الإسلام أيسوا ويئس وأيس بمعنى واحد (فلا تخشوهم واخشوني اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) نزلت هذه الآية يوم الجمعة يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدثني الحسن بن الصباح سمع جعفر بن عون أنا أبو العميس أنا قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر

بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلا من اليهود قال له يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال أية آية؟ قال «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» قال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيدا لنا قال ابن عباس كان في ذلك اليوم خمسة أعياد: جمعة وعرفة وعيد اليهود والنصارى والمجوس ولم تجتمع أعياد أهل الملل في يوم قبله ولا بعده وروى هارون بن عنترة عن أبيه قال لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم مايبكيك ياعمر فقال أبكاني إنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذا كمل فانه لم يكمل شيء إلا نقص قال صدقت وكانت هذه الآية نعي النبي صلى الله عليه وسلم وعاش بعدها إحدى وثمانين يوما ومات يوم الاثنين بعد مازاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة وقيل توفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وكانت هجرته في الثاني عشر من شهر ربيع الأول أما تفسير الآية قوله عز وجل «اليوم أكملت لكم دينكم» يعني يوم نزول هذه الآية أكملت لكم دينكم يعني الفرائض والسنن والحدود والجهاد والأحكام والحلال والحرام

لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين وقيل معناه إني أظهرت دينكم على الأديان وأمنتكم من عدوكم بأن كفيتكم ما كنتم تخافونه وقيل إكمال الدين لهذه الأمة أنه لا يزول ولا ينسخ وإن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة وقيل إكمال الدين لهذه الأمة إنهم آمنوا بكل نبي وكل كتاب ولم يكن هذا لغير هذه الأمة وقال ابن الأنباري اليوم أكملت شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت وذلك أن الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشيء في وقت ثم يزيد عليه في وقت آخر فيكون الوقت الأول تاما في وقته وكذلك الوقت الثاني تاما في وقته فهو كما يقول القائل عندي عشرة كاملة ومعلوم أن العشرين أكمل منها والشرائع التي تعبد الله عز وجل بها عباده في الأوقات المختلفة مختلفة وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبد بها فكمل الله عز وجل الشرائع في اليوم الذي ذكره وهو يوم عرفة ولم يوجب ذلك أن الدين كان ناقصا في وقت من الأوقات ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن القفال واختاره أن الدين ما كان ناقصا البتة بل كان أبدا كاملا كانت الشرائع النازلة من عند الله كافية في ذلك الوقت إلا أنه تعالى كان عالما في أول وقت البعثة بأن ماهو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد لا يصلح فيه لا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيل بعد التحتم. وأما في آخر زمان البعثة فأنزل الله شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبدا كان كاملا إلا أن الأول كمال إلى يوم مخصوص والثاني كمال إلى يوم القيامة فلأجل هذا المعنى قال اليوم أكملت لكم دينكم ثم قال تعالى (وأتممت عليكم نعمتي) يعني بإكمال الدين والشريعة لأنه لا نعمة أتم من الإسلام وقال ابن عباس حكم لهم بدخول الجنة وقيل معناه أنه تعالى أنجز لهم ما وعدهم في قوله ولأتم نعمتي عليكم فكان من تمام النعمة إن دخلوا مكة آمنين وحجوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين (ورضيت لكم الإسلام دينا يعني واخترت لكم الإسلام دينا من بين الأديان وقيل معناه ورضيت لكم الإسلام لأمري والانقياد لطاعتي فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم وإنما قال تعالى ورضيت لكم الإسلام دينا يوم نزلت هذه الآية وإن كان الله تعالى لم يزل راضيا بدين الإسلام فيما مضى قبل نزول هذه الآية لأنه لم يزل يصرف نبيه صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين من حال إلى حال وينقلهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها حتى أكمل لهم شرائع الدين ومعالمه وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه ثم أنزل عليهم هذه الآية ورضيت لكم الإسلام دينا يعني بالصفة التي هو اليوم بها وهي نهاية الكمال وأنتم الآن عليه فالزموه ولا تفارقوه روى البغوي بسنده عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال جبريل قال الله عز وجل «هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه» وروى الطبري عن قتادة قال ذكر لنا أنه يمثل لكل أهل دين دينهم يوم القيامة فأما الإيمان فيبشر أصحابه وأهله ويعدهم في الخير حتى يجيء الإسلام فيقول

يارب

فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض والسنن والحدود والأحكام هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وروى عنه أن آية الربا نزلت بعدها وقال سعيد بن جبير وقتادة أكملت لكم دينكم فلم يحج معكم مشرك وقيل أظهرت دينكم وأمنتكم من العدو وقوله عز وجل وأتممت عليكم نعمتي يعني وأنجزت وعدي في قولي ولأتم نعمتي عليكم فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وعليها ظاهرين وحجوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين ورضيت لكم الإسلام دينا سمعت عبد الواحد قال سمعت عبد الواحد المليحي قال سمعت أبا محمد بن حاتم

قال سمعت أبا بكر النيسابوري سمعت أبا بكر محمد بن الحسن بن المسيب المروزي سمعت أبا حاتم محمد بن إدريس الحنظلي سمعت عبد الملك بن مسلمة أنا مروان المصري سمعت إبراهيم بن أبي بكر بن المنكدر رضي الله عنه سمعت عمي محمد بن المنكدر سمعت جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال جبريل قال الله تعالى هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه» قوله عز وجل (فمن اضطر في مخمصة) أي جهد في مجاعة والمخمصة خلو البطن من الغذاء يقال رجل خميص البطن إذا كان طاويا خاويا (غير متجانف لإثم) أي مائل إلى إثم وهو أن يأكل فوق الشبع وقال قتادة غير متعرض لمعصية في مقصده (فان الله غفور رحيم) وفيه إضمار أي فأكله فان الله غفور رحيم أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسن المروزي أنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحان أنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أنا أبو الحسن علي بن عبد العزيز المكي أنا أبو عبيد القاسم بن سلام أنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن أبي واقد الليثي «قال رجل يارسول الله إنا نكون بالأرض فتصيبنا بها المخمصة فمتى تحل لنا الميتة فقال مالم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تحتفئوا بها بقلا فشأنكم بها» قوله (يسئلونك ماذا أحل لهم) الآية قال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير قالا يارسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحل لنا منها فنزلت

يارب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول إياك اليوم» قبل وبك اليوم أجزي. وقوله تعالى (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم) هذه الآية من تمام ماتقدم ذكره في المطاعم التي حرمها الله تعالى ومتصل بها، والمعنى أن المحرمات وإن كانت محرمة إلا أنها قد تحل في حالة الاضطرار إليها ومن قوله تعالى ذلكم فسق إلى هنا اعتراض وقع بين الكلامين والغرض منه تأكيد ماتقدم ذكره من معنى التحريم لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام الذي هو المرضي عند الله ومعنى الآية فمن اضطر أي أجهد وأصيب بالضر الذي لايمكنه معه الامتناع من أكل الميتة وهو قوله تعالى في مخمصة يعني في مجاعة والمخمصة خلو البطن من الغذاء عند الجوع غير متجانف لإثم يعني غير مائل إلى إثم أو منحرف إليه والمعنى فمن اضطر إلى أكل الميتة أو إلى غيرها في المجاعة فليأكل غير متجانف لإثم وهو أن يأكل فوق الشبع وهو قول فقهاء العراق وقيل معناه غير متعرض لمعصية في مقصد وهو قول فقهاء الحجاز (فان الله غفور رحيم) يعني لمن أكل من الميتة في حال الجوع والاضطرار. قوله عز وجل (يسئلونك ماذا أحل لهم) روى الطبري بسنده عن أبي رافع قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم «يستأذن عليه فأذن له فلم يدخل فقال قد أذنا لك يارسول الله قال أجل ولكنا لاندخل بيتا فيه كلب» قال أبو رافع فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة ففعلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها فتركته رحمة لها ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأمرني بقتله فرجعت إلى الكلب فقتلته فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله مايحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين» وروى عن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا رافع في قتل الكلاب فقتل حتى بلغ العوالي فدخل عاصم وسعد ابن أبي خيثمة وعويمر بن ساعدة على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ماذا أحل لنا فنزلت «يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين» قال ابن الجوزي وأخرج حديث أبي رافع الحاكم في صحيحه قال البغوي فلما نزلت هذه الآية أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ونهى عن إمساك مالا نفع فيه منها (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أمسك كلبا فانه ينقص كل يوم من عمله قيراط إلا كلب حرث أو ماشية» ولمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اقتنى

هذه الآية وقيل سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل الكلاب قالوا يارسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها فنزلت هذه الآية فلما نزلت أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ونهى عن إمساك مالا نفع فيه منها أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الزيادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «من اتخذ كلبا (١٢) إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط» والأول أصح في سبب نزول الآية (قد أحل لكم الطيبات) يعني الذبائح على اسم الله تعالى، وقيل كل ما تستطيبه العرب وتستلذه من غير أن ورد بتحريمه نص من كتاب أو سنة (وما علمتم من الجوارح) يعني وأحل لكم صيد ماعلمتم من الجوارح، واختلفوا في هذه الجوارح فقال الضحاك والسدي هي الكلاب دون غيرها ولا يحل ما صاده غير الكلب إلا أن تدرك ذكاته، وهذا غير معمول به بل عامة أهل العلم على أن المراد من الجوارح الكواسب من سباع البهائم كالفهد والنمر والكلب ومن سباع الطير كالبازي والعقاب والصقر ونحوها مما يقبل التعليم فيحل صيد جميعها سميت جارحة لجرحها أربابها أقواتهم من الصيد أي كسبها يقال فلان جارحة أهله أي كاسبهم (مكلبين) والمكلب الذي يغري الكلاب على الصيد. ويقال للذي يعلمها أيضا مكلب والكلاب صاحب الكلاب ويقال للصائد بها أيضا كلاب ونصب مكلبين على الحال، أي في حال تكليبكم هذه الجوارح أي إغرائكم إياها على الصيد وذكر الكلاب لأنها أكثر وأعم والمراد جميع جوارح الصيد (تعلمونهن) تؤدبوهن آداب أخذ الصيد (مما علمكم الله) أي من العلم الذي علمكم الله. قال السدي أي كما علمكم الله من بمعنى الكاف

كلبا ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينقص من أجره قيراطان كل يوم وقال سعيد ابن جبير نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير قالا يارسول الله أنا قوم نصيد بالكلاب وبالبزاة فماذا يحل لنا فنزلت هذه الآية قال البغوي وهذا القول أصح في سبب نزولها. وأما التفسير فقوله تعالى يسألونك يعني يسألك أصحابك يا محمد ماالذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل كأنهم لما تلا عليهم من خبائث المآكل ماتلا سألوا عما أحل لهم (قل أحل لكم الطيبات) يعني قل لهم يا محمد أحل لكم الطيبات يعني ما ذبح على اسم الله عز وجل وقيل الطيبات كل ماتستطيبه العرب وتستلذه من غير أن ورد بتحريمه نص من كتاب أو سنة واعلم أن العبرة في الاستطابة والاستلذاذ بأهل المروءة والأخلاق الجميلة من العرب فإن أهل البادية منهم يستطيبون أكل جميع الحيوانات فلا عبرة بهم لقوله تعالى «ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث» فإن الخبيث غير مستطاب فصارت هذه الآية الكريمة نصا فيما يحل ويحرم من الأطعمة. وقوله تعالى (وما علمتم من الجوارح مكلبين) يعني وأحل صيد ماعلمتم من الجوارح فحذف ذكر الصيد وهو مراد في الكلام لدلالة الباقي عليه ولأنهم سألوا عن الصيد وقيل أن قوله وماعلمتم من الجوارح ابتداء كلام خبره فكلوا مما أمسكن عليكم وعلى هذا القول يصح معنى الكلام من غير إضمار والجوارح جمع جارحة وهي الكواسب من: السباع والطير كالفهد والنمر والكلب والبازي والصقر والعقاب والشاهين والباشق من الطير مما يقبل التعليم سميت جوارح من الجرح لأنها تجرح الصيد عند إمساكه وقيل سميت جوارح لأنها تكسب والجوارح الكواسب من جرح واجترح إذا اكتسب ومنه قوله تعالى «الذين اجترحوا السيئات» يعني اكتسبوا وقوله ويعلم ماجرحتم بالنهار أي اكتسبتم مكلبين يعني معلمين والمكلب هو الذي يغري الكلاب على الصيد وقيل هو مؤدب الجوارح ومعلمها وإنما اشتق له هذا الاسم من الكلب لأنه أكثر احتياجا إلى التعليم من غيره من الجوارح (تعلمونهن) يعني تعلمون الجوارح الاصطياد (مما علمكم الله) يعني من العلم الذي علمكم الله، في الآية دليل على أنه لا يجوز صيد جارحة مالم تكن معلمة وصفة التعليم هو أن الرجل يعلم جارحة الصيد وذلك أن يوجد فيها

أمور

(فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) أراد أن الجارحة المعلمة إذا خرجت بإرسال صاحبها فأخذت الصيد وقتلته كان حلالا والتعليم هو أن يوجد فيها ثلاثة أشياء: إذا أشليت استشلت وإذا زجرت انزجرت وإذا أخذت الصيد أمسكت ولم تأكل وإذا وجد ذلك منه مرارا وأقلها ثلاث مرات كانت معلمة يحل قتيلها إذا خرجت بإرسال صاحبها أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل

أنا موسى بن إسماعيل أنا ثابت ابن زيد عن عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال «إذا أرسلت كلبك المعلم وسميت فأمسك وقتل فكل وإن أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه وإذا خالط كلابا لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن فلا تأكل فإنك لا تدري أيها قتل وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكل وإن وقع في الماء فلا تأكل» واختلفوا فيما إذا أخذت الصيد وأكلت منه شيئا فذهب أكثر أهل العلم إلى تحريمه روى ذلك عن ابن عباس وهو قول عطاء وطاوس والشعبي وبه قال الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وهو أصح قولي الشافعي لقوله صلى الله عليه وسلم «وإن أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه» ورخص بعضهم في أكله روى ذلك عن ابن عمر وسلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وبه قال مالك لما روى عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله تعالى فكل وإن أكل منه وأما غير المعلم من الجوارح إذا أخذ صيدا أو المعلم إذا جرح بغير إرسال صاحبه فأخذ وقتل فلا يكون حلالا إلا أن يدركه صاحبه حيا فيذبحه فيكون حلالا» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا عبد الله بن يزيد

أمور منها: أنه إذا أشليت (١) على الصيد استشلت وإذا زجرت انزجرت وإذا أخذت الصيد أمسكت ولم تأكل منه شيئا ومنها أن لا ينفر منه إذا أراده وأن يجيبه إذا دعاه فهذا هو تعليم جميع الجوارح فإذا وجد ذلك منها مرارا كانت معلمة وأقلها ثلاث مرات فإنه يحل قتلها إذا جرحت بإرسال صاحبها (ق) عن عدي بن حاتم قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إنا قوم نصيد بهذه الكلاب؟ فقال «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه وإن خالط كلابا لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره» وفي رواية فإنك لا تدري أيها قتل وسألته عن الصيد المعراض فقال إذا أصبت بحده فكل وإذا أصبت بعرضه فقتل فإنه وقيذ فلا تأكل وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكل فإن وقع في الماء فلا تأكل واختلف العلماء فيما إذا أخذت الكلاب الصيد وأكلت منه شيئا فذهب أكثر أهل العلم إلى تحريمه ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول عطاء وطاوس الشعبي وبه قال الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وهو أصح قول الشافعي ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم وإن أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه ورخص بعضهم في أكله يروى ذلك عمر وسلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وبه قال مالك لما روى عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في صيد الكلب إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه أخرجه أبو داود. وأما غير المعلم من الجوارح إذا أخذت صيدا أو المعلم إذا خرج بغير إرسال صاحبه فأخذ وقتل فإنه لا يحل إلا أن يدركه حيا فيذبحه فيحل (ق) عن أبي ثعلبة الخشني قال: قلت يا رسول الله أنا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم فما يصلح لي؟ قال: أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا غيرها فاغسلوها وكلوا فيها وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل وقوله تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم) دخلت من في قوله مما للتبعيض لأنه إنما أحل أكل بعض الصيد وهو اللحم دون الفرث والدم وقيل من زائدة فهو كقوله تعالى «كلوا من ثمره إذا أثمر» (واذكروا اسم الله عليه) قال ابن عباس يعني إذا أرسلت جارحك

(١) قوله إذا أشليت قال في الصحاح وقول الناس أشليت الكلب على الصيد خطأ وقال أبو زيد أشليت الكلب دعوته وقال ابن السكيت يقال أوسدت الكلب بالصيد وآسدته إذا أغريته به ولا يقال أشليته إنما الإشلاء الدعاء اه.

أنا حيوة أخبرني ربيعة ابن يزيد الدمشقي عن أبي إدريس عن أبي ثعلبة الخشني . قال قلت يانبي الله إنا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم فما يصلح لي؟ قال: أما ماذكرت من آنية أهل الكتاب فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل (واتقوا الله إن الله سريع الحساب) ففيه بيان أن ذكر اسم الله عز وجل على الذبيحة شرط حالة مايذبح وفي الصيد حالة مايرسل الجارحة أو السهم أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن خاوية الجرهري قال أنا ابن أبو العباس محمد بن أحمد ابن الأثرم المقري بالبصرة أنا عمر بن شبة ، أنا ابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن أنس قال ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر ؟ قال رأيته واضعا قدمه على صفاحهما ويذبحهما بيده ويقول بسم الله والله أكبر قوله عز وجل (اليوم أحلت لكم الطيبات) يعني الذبائح على اسم الله عز وجل (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) يريد ذبائح اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث محمد الطعام صلى الله عليه وسلم حلال لكم. فأما من دخل في دينهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فلاتحل ذبيحته ولو ذبح يهودي أو نصراني على اسم غير الله كالنصراني يذبح باسم المسيح فاختلفوا فيه قال ابن عمر لايحل وهو قول ربيعة وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحل وهو قول الشعبي وعطاء والزهري ومكحول سئل الشعبي وعطاء عن النصراني يذبح باسم المسيح قالا يحل

فقل بسم الله وإن نسيت فلا حرج ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لعدي إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل فعلى هذا يكون الضمير في عليه عائد إلى ماعلمتم من الجوارح أي سموا الله عليه عند إرساله وقيل الضمير عائد إلى ماأمسكن عليكم والمعنى سموا الله عليه إذا أدركتم ذكاته وقيل يحتمل أن يكون الضمير عائد إلى الأكل يعني واذكروا اسم الله عليه عند الأكل فعلى هذا تكون التسمية شرطا عند إرسال الجوارح وعند إرسال الذبيحة وعند الأكل وسيأتي بيان هذه المسألة (١) في سورة الأنعام عند قوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه (واتقوا الله) يعني واحذروا مخالفة الله يعني فيما أحل لكم وحرم عليكم (إن الله سريع الحساب) يعني إذا حاسب عباده يوم القيامة ففيه تخويف لمن خالف أمره وفعل مانهاه عنه . قوله عز وجل (اليوم أحل لكم الطيبات) إنما كرر إحلال الطيبات للتأكيد كأنه قال اليوم أحل لكم الطيبات التي سألتم عنها ويحتمل أن يراد باليوم اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية أو اليوم الذي تقدم ذكره في قوله اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ليوم أكملت لكم دينكم ويكون الغرض من ذكر هذا الحكم أنه تعالى قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي فبين أنه كما أكمل الدين وأتم النعمة فكذلك أتم النعمة بإحلال الطيبات وقيل ليس المراد باليوم يوما معينا وقد تقدم الكلام في ذلك اليوم وفي معنى الطيبات في الآية المتقدمة . وقوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) يعني وذبائح أهل الكتاب حل لكم وهم اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . فأما من دخل في دينهم بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهم متنصر والعرب من بني تغلب فلا تحل ذبيحته روي عن علي بن أبي طالب قال لاتأكل من ذبائح نصارى العرب بني تغلب فإنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر وبه قال ابن مسعود ومذهب الشافعي أن من دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن فإنه لاتحل ذبيحته سئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب فقال لابأس به ثم قرأ ومن يتولهم منكم فإنه منهم وهذا قول الحسن وعطاء بن أبي رباح والشعبي وعكرمة وقتادة والزهري والحكم وحماد وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وإحدى الروايتين عن أحمد والرواية الأخرى مثل مذهب الشافعي وأجمعوا على تحريم ذبائح المجوس وسائر أهل الشرك من مشركي العرب وعبدة الأصنام ومن لاكتاب له وأجمعوا على أن المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم خاصة لأن ماسوى الذبائح فهي محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب وبعد إن صارت لهم فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة ولأن ماقبل هذه الآية في بيان حكم الصيد والذبائح فحمل هذه الآية عليه أولى ولأن سائر

(١) قوله وسيأتي بيان هذه المسألة الخ لم يتعرض لما ذكره هنا عند الآية الآتية في سورة الأنعام اهـ مصححه .

فان الله تعالى قد أحل ذبائحهم وهو يعلم مايقولون وقال الحسن إذ ذبح اليهودي أو نصراني فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكله فاذا غاب عنك فكل فقد أحل الله لك قوله عز وجل (وطعامكم حل لهم) فان قيل كيف شرع لهم حل طعامنا وهم كفار ليسوا من أهل الشرع قال الزجاج معناه حلال لكم أن تطعموهم فيكون خطاب الحل مع المسلمين وقيل لأنه ذكر عقيبه حكم النساء ولم يذكر حل المسلمات لهم فكأنه قال حلال لكم أن تطعموهم حرام عليكم أن تزوجوهم قوله عز وجل (والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) هذا راجع إلى الأول منقطع عن قوله وطعامكم حل لهم اختلفوا فى معنى المحصنات فذهب أكثر العلماء إلى أن المراد منهن الحرائر وأجازوا نكاح كل حرة مؤمنة كانت أو كتابية فاجرة كانت أو عفيفة وهو قول مجاهد وقال هؤلاء لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات جوز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة وجوز أكثرهم نكاح الأمة الكتابية الحربية وقال ابن عباس لا يجوز وقرأ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله إلى قوله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه ومن لم يعطها فلا يحل لنا نساؤه وذهب قوم إلى أن المراد من المحصنات فى الآية العفائف من الفريقين حرائر كن أو إماء وأجازوا نكاح الأمة الكتابية وحرموا البغايا من المؤمنات والكتابيات وهو قول الحسن وقال الشعبى إحصان الكتابية أن تستعف من

الطعام لا يختلف من تولاه من كتابى أو غيره وإنما تختلف الذكاة فلما خص أهل الكتاب بالذكر دل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم واختلف العلماء فيما لو ذبح يهودى أو نصرانى على غير اسم الله فقال ابن عمر لا يحل ذلك وهو قول ربيعة وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحل سئل الشعبى وعطاء عن النصرانى يذبح باسم المسيح فقال يحل فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم مايقولون وقال الحسن إذا ذبح اليهودى والنصرانى وذكر غير اسم الله وأنت تسمع فلا تأكل وإذا غاب عنك فكل فقد أحله الله لك وقد زعم قوم أن هذه الآية اقتضت إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقا وإن ذكروا غير اسم الله فيكون هذا ناسخا لقوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وليس الأمر كذلك ولا نسخ لأن الأصل أنهم يذكرون الله عند الذبح فيحمل أمرهم على هذا فان تيقنا أنهم ذبحوا على غير اسم الله لم تأكل ولا وجه للنسخ . وقوله تعالى (وطعامكم حل لهم) يعنى أن ذبائحنا لهم حلال وهذا يدل على أنهم مخاطبون بشريعتنا وقال الزجاج معناه ويحل لكم أن تطعموهم من طعامكم فجعل الخطاب للمؤمنين على معنى أن التحليل يعود إلى إطعامنا إياهم لا إليهم لأنه لا يمتنع أن يحرم الله تعالى أن تطعمهم من ذبائحنا وقيل إن الفائدة فى ذكر ذلك أن إباحة المناكحة غير حاصلة من الجانبين وإباحة الذبائح كانت حاصلة من الجانبين لا جرم ذكر الله تعالى ذلك تنبيها على التمييز بين النوعين ثم قال تعالى (والمحصنات من المؤمنات) قال مجاهد هن الحرائر فعلى هذا القول لا تدخل الأمة المؤمنة فى هذا التحليل ومن أجاز نكاحهن أجازه بشرطين : خوف العنت وعدم طول الحرة وقال ابن عباس المحصنات العفائف فعلى هذا القول لا يحل نكاح الزانية لأنها لم تدخل فى هذا التحليل وأباح العلماء نكاحها إذا تابت وحسنت توبتها روى طارق بن شهاب أن رجلا أراد أن يزوج أخته فقالت إنى أخشى أن أفضحك إنى قد بغيت فأتى عمر فذكر ذلك له منها فقال أليس قد تابت؟ قال بلى قال فزوجها وقيل إنما خص المحصنات بالذكر وهن الحرائر أو العفائف ليحث المؤمنين على تخير النساء ليكون الولد كريم الأصل من الطرفين . وقوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعنى وأحل لكم المحصنات من أهل الكتاب اليهود والنصارى قال ابن عباس يعنى الحرائر من أهل الكتاب وقال الحسن والشعبى والنخعى والضحاك يريد العفائف من أهل الكتاب فعلى قول ابن عباس لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية وهو مذهب الشافعى قال لأنه اجتمع فى حقها نوعان من النقصان الكفر والرق وعلى قول الحسن ومن وافقه يجوز التزويج بالأمة الكتابية وهو مذهب أبى حنيفة لعموم هذه الآية واختلف العلماء فى حكم هذه المسئلة فذهب جمهور الفقهاء إلى جواز التزويج بالذميات من اليهود والنصارى روى أن عثمان بن عفان تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه وهى نصرانية وأن طلحة بن عبيد الله تزوج يهودية وروى عن ابن عمر كراهية ذلك ويحتج بقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن وكان يقول لا أعلم شركا أعظم من قولها أن ربها عيسى وأجاب الجمهور عن قوله ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن بأنه عام خص بهذه الآية فأباح الله تعالى المحصنات من أهل الكتاب وحرم من سواهن من أهل الشرك وقال

الزنا وتغتسل من الجنابة (إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين) غير ملاعنين بالزنا (ولا متخذى أخدان) أى غير مسرين تسرونهن بالزنا قال الزجاج حرم الله الجماع على جهة السفاح وعلى جهة اتخاذ الصديقة وأحله على جهة الإحصان وهو التزوج (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) قال مقاتل بن حيان يقول : ليس إحصان المسلمين إياهن بالذى يخرجهن من الكفر أو يغنى عنهن شيئا وهى للناس عامة ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين قال ابن عباس ومجاهد فى معنى قوله تعالى «ومن يكفر بالإيمان» أى بالله الذى يجب الإيمان به وقال الكلبى بالإيمان أى بكلمة التوحيد وهى شهادة أن لا إله إلا الله وقال مقاتل بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن وقيل من يكفر بالإيمان أى يستحل الحرام ويحرم الحلال فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين قال ابن عباس خسر الثواب قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة كقوله تعالى «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله» أى إذا أردت القراءة وظاهر الآية يقتضى وجوب الوضوء عند كل مرة يريد القيام إلى الصلاة لكن علمنا ببيان السنة وفعل النبى صلى الله عليه وسلم أن المراد من الآية إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهر قال النبى ﷺ «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» وقد جمع النبى ﷺ يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد

أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفى أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهرى أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حكيم أنا أبو الموجه محمد بن عمرو ابن الموجه أنا عبدان أنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سلمان بن بريدة عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى يوم فتح مكة الصلوات بوضوء واحد ومسح على خفيه وقال زيد بن أسلم معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة من النوم وقال بعضهم هو أمر على طريق الندب ندب من قام إلى الصلاة أن يجدد لها طهارة وإن كان على طهر روى ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات» وروى عبد الله بن حنظلة بن عامر أن

سعيد بن المسيب والحسن يجوز التزويج بالذميات والحربيات من أهل الكتاب لعموم قوله تعالى «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» وأجاب جمهور العلماء بأن ذلك مخصوص بالذميات دون الحربيات من أهل الكتاب قال ابن عباس من نساء أهل الكتاب من تحل لنا ومنهن من لا تحل لنا وقرأ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله إلى قوله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون والمراد بهم أهل الذمة دون أهل الحرب من أهل الكتاب. وقوله تعالى (إذا آتيتموهن أجورهن) يعنى مهورهن وهو العوض الذى يبذله الزوج للمرأة (محصنين غير مسافحين) يعنى متعففين بالتزوج غير زانين (ولا متخذى أخدان) يعنى ولا منفردين ببغى واحدة قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا واتخاذ الصديق وهو الخدن وأحله على جهة الإحصان وهو التزويج بعقد صحيح (ومن يكفر بالإيمان) يعنى ومن يجحد ما أمر الله به من توحيده ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله (فقد حبط عمله) يعنى فقد بطل ثواب عمله الذى كان عمله فى الدنيا وخاب وخسر فى الدنيا والآخرة وقيل فى معنى الآية ومن يكفر بشرائع الإيمان وتكاليفه فقد خاب وخسر وقال قتادة ذكر لنا إن ناسا من المسلمين قالوا كيف نتزوج نساءهم؟ يعنى نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا فأنزل الله تعالى ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين وقيل لما أباح الله تعالى نكاح الكتابيات قلن فيما بينهن لولا أن الله قد رضى أعمالنا لم يبح للمؤمنين تزويجنا فأنزل الله هذه الآية والمعنى أن تزوج المسلمين إياهن ليس بالذى يخرجهن من الكفر وقيل إن أهل الكتاب وإن حصلت لهم فى الدنيا فضيلة بإباحة ذبائحهم ونكاح نسائهم إلا أن ذلك غير حاصل لهم فى الآخرة لأن كل من كفر بالله وجحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين وقيل إن من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله أو جحد بشىء مما أنزل الله فقد كفر بالله وحبط عمله المتقدم (وهو فى الآخرة من الخاسرين) إذا مات على ذلك وهذا الشرط لا بد منه لأنه إذا تاب وآمن قبل الموت قبلت توبته وصح إيمانه. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) يعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة ومثله قوله تعالى «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله» أى إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله ومثله من الكلام إذا اتجرت فاتجر فى البر أى إذا أردت التجارة وهذا القول يقتضى وجوب الوضوء عند كل صلاة وهو ظاهر الآية ومذهب داود الظاهرى وذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم إلى أنه يجزئ عدة صلوات بوضوء

رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالوضوء عند كل صلاة طاهرا أو غير طاهر فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك لكل صلاة وقال بعضهم هذا إعلام من الله سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لاوضوء عليه إلا إذا قام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال فأذن له أن يفعل بعد الحدث مابدا له من الأفعال غير الصلاة أخبرنا أبو القاسم الحنفى

أنا أبوالحارث الطاهرى أنا الحسن بن محمد بن حكيم أنا أبو الموجة أنا صدقة أنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار سمع سعيد بن الحويرث سمع ابن عباس رضى الله عنهما يقول «كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فرجع من الغائط فأتى بطعام فقيل له ألا تتوضأ؟ فقال لم أصل فأتوضأ» قوله عز وجل (فاغسلوا وجوهكم) وحد الوجه من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولا وما بين الأذنين عرضا يجب غسل جميعه فى الوضوء ويجب أيضا إيصال الماء إلى ماتحت الحاجبين وأهداب العينين والشارب والعذار والعنفقة وإن كانت كثيفة وأما العارض واللحية فان كانت كثيفة لاترى البشرة من تحتها لايجب غسل باطنها فى الوضوء بل يجب غسل ظاهرها. وهل يجب إمرار الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية عن الذقن؟ فيه قولان: أحدهما لايجب وبه قال أبوحنيفة رضى الله عنه لأن الشعر النازل عن حد الرأس لايكون حكمه حكم الرأس فى جواز المسح عليه كذلك النازل عن حد الوجه لايكون حكمه حكم الوجه فى وجوب غسله. والقول الثانى يجب إمرار الماء على ظاهره لأن الله تعالى أمر بغسل الوجه والوجه مايقع به المواجهة من هذا العضو ويقال فى اللغة بقل وجه فلان وخرج وجهه إذا نبتت لحيته. قوله تعالى (وأيديكم إلى المرافق) أى مع المرافق كما

واحد وأجيب عن ظاهر الآية بأن المعنى إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهر فحذف ذلك لدلالة المعنى عليه وهذا أحد اختصارات القرآن وهو كثير جدا ولأن النبى صلى الله عليه وسلم جمع يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» أخرجاه فى الصحيحين وقيل فى معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة من النوم وقيل هو أمر ندب ندب من قام إلى الصلاة أن يجدد لها طهارة وإن كان على طهر ويدل عليه ماروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات» أخرجه الترمذى وقيل هذا إعلام من الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لاوضوء عليه إلا إذا قام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال ويدل عليه ماروى عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا ألا نأتيك بوضوء فقال إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة» أخرجه مسلم. والقول الأول هو المختار فى معنى الآية وفروض الوضوء المذكورة فى هذه الآية أربعة: الأول غسل الوجه وهو قوله تعالى (فاغسلوا وجوهكم) واستدل الشافعى على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية وحجته أن الوضوء مأمور به وكل مأمور به يجب أن يكون منويا ولما روى فى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب أن النبى صلى الله عليه وسلم «قال إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى» والوضوء من الأعمال فيجب أن يكون منويا وإنما قلنا أن الوضوء مأمور به وأنه من أعمال الدين لقوله تعالى «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» والإخلاص عبارة عن النية الخالصة ومتى كانت النية الخالصة معتبرة كان أصل النية فى جميع الأعمال التى يتقرب بها إلى الله تعالى معتبرا واستدل أبو حنيفة لعدم وجوب النية فى الوضوء بهذه الآية قال إن النية ليست شرطا لصحة الوضوء لأن الله تعالى أوجب غسل الأعضاء الأربعة فى هذه الآية ولم يوجب النية فيها فإيجاب النية زيادة على النص والزيادة على النص نسخ ونسخ القرآن بخبر الواحد وبالقياس غير جائز وأجيب عنه بأنا إنما أوجبنا النية فى الوضوء بدلالة القرآن وهو قوله تعالى «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» وأما حد الوجه فمن منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولا ومن الأذن إلى الأذن عرضا لأنه مأخوذ من المواجهة فيجب غسل جميع الوجه فى الوضوء ويجب إيصال الماء إلى ماتحت الحاجبين وأهداب العينين والعذارين والشارب والعنفقة وإن كانت كثة. وأما اللحية فان كانت كثة لاترى البشرة من تحتها لايجب غسل ماتحتها ويجب غسل ماتحت اللحية الخفيفة وهل يجب إمرار الماء على ظاهر مانزل من اللحية عن الذقن؟ فيه قولان: أحدهما وبه قال أبو حنيفة لايجب لأن الشعر النازل عن حد الرأس لا يكون حكمه حكم الرأس فى المسح فكذلك حكم الشعر النازل عن حد الوجه لايجب غسله. والقول الثانى يجب إمرار الماء على ظاهره لأن الوجه مأخوذ من المواجهة فتدخل جميع اللحية فى حكم الوجه. الفرض الثانى قوله تعالى (وأيديكم إلى المرافق) يعنى واغسلوا

قال الله تعالى «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم» أي مع أموالكم وقال «من أنصاري إلى الله» أي مع الله وأكثر العلماء على أنه يجب غسل المرفقين وفي الرجل يجب غسل الكعبين وقال الشعبي ومحمد بن جرير لا يجب غسل المرفقين والكعبين في غسل اليد والرجل لأن حرف إلى للغاية والحد فلا يدخل في المحدود قلنا ليس هذا بحد ولكنه بمعنى مع كما ذكرنا وقيل الشيء إذا حد إلى جنسه يدخل فيه الغاية وإذا حد إلى غير جنسه لا يدخل كقوله تعالى «ثم أتموا الصيام إلى الليل» لم يدخل الليل فيه لأنه ليس من جنس النهار. قوله تعالى (وامسحوا برءوسكم) اختلف العلماء في قدر الواجب من مسح الرأس فقال مالك يجب مسح جميع الرأس كما يجب مسح جميع الوجه في التيمم وقال أبو حنيفة يجب مسح ربع الرأس وعند الشافعي رحمه الله يجب قدر ما يطلق عليه اسم المسح واحتج من أجاز مسح بعض الرأس بما أخبرنا عبد الوهاب ابن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا يحيى بن حسان عن حماد بن زيد وابن علية عن أيوب السختياني عن ابن سيرين عن عمرو ابن وهب الثقفي عن المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ فمسح بناصيته وعلى عمامته وخفيه فأجاز بعض أهل العلم المسح على العمامة بهذا الحديث، وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحاق ولم يجوز أكثر أهل العلم المسح على العمامة بدلا عن مسح الرأس وقال في حديث المغيرة إن فرض المسح سقط عنه بمسح الناصية وفيه دليل على أن مسح جميع الرأس غير واجب. قوله عز وجل (وأرجلكم إلى الكعبين) قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص

أيديكم إلى المرافق والمرفق بالكسر هو من الإنسان أعلى الذراع وأسفل العضد وذهب جمهور العلماء إلى وجوب إدخال المرفقين في الغسل ونقل عن مالك والشافعي وزفر وأبي بكر بن داود الظاهري أنه لا يجب إدخال المرفقين في الغسل واختاره ابن جرير الطبري ونقل عن مالك وقد سئل عن قول الله عز وجل «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق» فقال الذي أمر به أن يبلغ المرفقين في الغسل لا يجاوزهما وحجة أصحاب هذا القول أن كلمة إلى لانتهاء الغاية وما يجعل غاية للحكم يكون خارجا عنه كما في قوله تعالى «ثم أتموا الصيام إلى الليل» ولأن الحد لا يدخل في المحدود فوجب أن لا يجب غسل المرفقين في الوضوء وحجة الجمهور أن كلمة إلى هنا بمعنى مع ومنه قوله تعالى «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم» أي مع أموالكم ويعضده من السنة ما صح من حديث أبي هريرة أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل اليمنى حتى أشرع في العضد ثم يده اليسرى حتى أشرع في العضد ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ والجواب عن الحجة المتقدمة إن الحد إذا كان من جنس المحدود دخل فيه كما في هذه الآية لأن المرفق من جنس اليد وإذا لم يكن من جنس المحدود لم يدخل فيه كما في قوله تعالى «ثم أتموا الصيام إلى الليل» لأن النهار من غير جنس الليل فلا يدخل فيه. الفرض الثالث قوله تعالى (وامسحوا برءوسكم) اختلف العلماء في القدر الذي يجب مسحه من الرأس فقال مالك يجب مسح جميعه وهو إحدى الروايتين عن أحمد والرواية الأخرى عنه أنه يجب مسح أكثره وقال أبو حنيفة يجب مسح ربعه وفي رواية أخرى عنه يجب مسح قدر ثلاثة أصابع منه وقال الشافعي الواجب مسح ما ينطلق عليه اسم المسح والمراد إلصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح بالرأس فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب وأخذ الشافعي باليقين فأوجب مسح ما يقع عليه اسم المسح وأخذ أبو حنيفة ببيان السنة وهو ما روي عن المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة والخفين متفق عليه وقدر الناصية بربع الرأس. الفرض الرابع: قوله تعالى (وأرجلكم إلى الكعبين) اختلف العلماء في هذا الحكم. وهل فرض الرجلين المسح أو الغسل؟ فروي عن ابن عباس أنه قال الوضوء غسلتان ومسحتان ويروى ذلك عن قتادة أيضا ويروى عن أنس أنه قال نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل وعن عكرمة قال ليس في الرجلين غسل إنما نزل فيهما المسح وعن الشعبي أنه قال إنما هو المسح على الرجلين ألا ترى إن ما كان عليه الغسل جعل عليه التيمم وما كان عليه المسح أهمل ومذهب الإمامية من الشيعة أن الواجب في الرجلين المسح وقال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم والأئمة الأربعة وأصحابهم أن فرض الرجلين هو الغسل وقال داود الظاهري يجب الجمع بينهما وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري المكلف مخير بين الغسل والمسح وسبب هذا الاختلاف في اختلاف القراء في هذا الحرف فقرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم وأرجلكم بفتح اللام عطفا

أرجلكم بنصب اللام وقرأ الآخرون وأرجلكم بالخفض فمن قرأ وأرجلكم بالنصب فيكون عطفا على قوله فاغسلوا وجوهكم وأيديكم أى واغسلوا أرجلكم ومن قرأ بالخفض فقد ذهب قليل من أهل العلم إلى أنه يمسح على الرجلين وروى عن ابن عباس أنه قال الوضوء غسلتان ومسحتان ويروى ذلك عن عكرمة وقتادة وقال الشعبي نزل جبريل بالمسح وقال : ألا ترى المتيمم يمسح ما كان غسلا ويلغى ما كان مسحا وقال محمد ابن جرير الطبرى يتخير المتوضئ بين المسح على الخفين وبين غسل الرجلين وذهب جماعة من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى وجوب غسل الرجلين وقالوا خفض اللام فى الأرجل على مجاورة اللفظ لا على موافقة الحكم كما قال تبارك وتعالى «عذاب يوم أليم» فالأليم صفة العذاب ولكنه أخذ إعراب اليوم للمجاورة وكقولهم جحر ضب خرب فالخرب نعت الجحر وأخذ إعراب الضب للمجاورة والدليل على وجوب غسل الرجلين ما أخبرنا أبو سعيد أحمد ابن محمد بن العباس الحميدى الخطيب أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب أنا يحيى بن محمد ابن يحيى أنا الحجبى ومسدد قالا أخبرنا أبو عوانة عن أبى بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال تخلف عنا رسول الله ﷺ فى سفر سافرناه فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادانا بأعلى صوته «ويل للأعقاب من النار» أخبرنا عبد الواحد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله أنا معمر حدثنى الزهرى عن عطاء بن يزيد عن حمران مولى عثمان قال رأيت عثمان رضى الله عنه توضأ فأفرغ على

عطفا على الغسل فيكون من المؤخر الذى معناه التقديم ويكون المعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برءوسكم وقال أصحاب هذه القراءة إنما أمر الله عباده بغسل الأرجل دون مسحها ويدل عليه أيضا فعل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين فمن بعدهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وأرجلكم بكسر اللام عطفا على المسح. أما قراءة النصب فالمعنى فيها ظاهر لأنه عطف على المغسول لوجوب غسل الرجلين على مذهب الجمهور ولا يقدح فيه قول من خالف. وأما قراءة الكسر فقد اختلفوا فى معناها والجواب عنها فقال أبو حاتم وابن الأنبارى وأبو على الكسر عطف على الممسوح، غير أن المراد بالمسح فى الأرجل الغسل وقال أبو زيد المسح خفيف الغسل لقول العرب تمسحت للصلاة بمعنى توضأت لها وهات ما أتمسح به للصلاة بمعنى أتوضأ قال أبو حاتم وذلك أن المتوضئ لا يرضى بصب الماء على أعضائه حتى يمسحها مع الغسل فسمى الغسل مسحا بهذا الاعتبار فعلى هذا الرأس والرجل ممسوحا إلا أن مسح الرأس أخف والذى يدل على أن المراد بالمسح فى الرجل الغسل ذكر التحديد وهو قوله تعالى إلى الكعبين لأن التحديد إنما جاء فى المغسول ولم يجئ فى الممسوح فلما وقع التحديد مع المسح علم أنه فى حكم الغسل وقال جماعة من العلماء إن الأرجل معطوفة على الرءوس فى الظاهر والمراد فيها الغسل لأنه قد ينسق بالشىء على غيره والحكم فيهما مختلف كما قال الشاعر :

ياليت بعلك قد غدا ... متقلدا سيفا ورمحا

والمعنى وحاملا رمحا لأن الرمح لا يتقلد به وكذلك قول الآخرين . علفتها تبنا وماء باردا . يعنى وسقيتها ماء باردا وكذلك المعنى فى الآية وامسحوا برءوسكم واغسلوا أرجلكم فلما لم يذكر الغسل وعطفت الأرجل على الرءوس فى الظاهر اكتفى بقيام الدليل على أن الأرجل مغسولة من مفهوم الآية والأحاديث الصحيحة الواردة بغسل الرجلين فى الوضوء. وأما من جعل كسر اللام فى الأرجل على مجاورة اللفظ دون الحكم واستدل بقولهم جحر ضب خرب وقال الخرب نعت للجحر لا للضب وإنما أخذ إعراب الضب للمجاورة فليس بجيد لأن الكسر على المجاورة إنما يحمل لأجل الضرورة فى الشعر أو يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس لأن الخرب لا يكون نعتا للضب بل للجحر ولأن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف. أما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب وقوله تعالى «إلى الكعبين» فيه دليل قاطع على وجوب غسل الكعبين كما فى وجوب غسل الرجلين كما فى قوله تعالى «وأيديكم إلى المرافق» والمعنى واغسلوا أرجلكم مع الكعبين وقد تقدم اختلاف العلماء فى ذلك عند قوله إلى المرافق والكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم هذا قول جمهور العلماء من أهل الفقه واللغة وشذت الشيعة ومن قال بمسح الرجلين فقال الكعب عبارة عن عظم مستدير على ظهر القدم ويدل على بطلان

بديه ثلاثا ثم تمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثا ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثا ثم غسل يده اليسرى إلى المرفق ثلاثا ثم مسح برأسه ثم غسل رجله اليمنى ثلاثا ثم غسل رجله اليسرى ثلاثا ثم قال رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لايحدث نفسه فيهما

بشىء غفر له ما تقدم من ذنبه وقال بعضهم أراد بقوله وأرجلكم المسح على الخفين كما روى أن النبى ﷺ كان إذا ركع وضع يديه على ركبتيه وليس المراد منه أنه لم يكن بينهما حائل ويقال قبل فلان رأس الأمير ويده وإن كان العمامة على رأسه ويده فى كمه أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم زكريا عن عامر عن عروة بن المغيرة عن أبيه رضى الله عنهما قال «كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فى سفر فقال أمعك ماء؟ فقلت نعم فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى عنى فى سواد الليل ثم جاء فأفرغت عليه من الإداوة فغسل وجهه ويديه وعليه جبة من صوف فلم يستطع أن يخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجبة فغسل ذراعيه ثم مسح برأسه ثم أهويت لأنزع خفيه فقال دعهما فانى أدخلتهما طاهرتين فمسح عليهما» قوله تعالى «إلى الكعبين» فالكعبان هما العظمان الناتئان من جانبى القدمين وهما مجمع مفصل الساق والقدم فيجب غسلهما مع القدمين كما ذكرنا فى المرفقين. وفرائض الوضوء غسل الأعضاء الثلاثة كما ذكر الله تعالى ومسح الرأس. واختلف أهل العلم فى وجوب النية فذهب أكثرهم إلى وجوبها لأن الوضوء عبادة فيفتقر إلى النية كسائر العبادات وذهب بعضهم إلى أنها غير واجبة وهو قول الثورى. واختلفوا فى وجوب

هذا القول أن الكعب لو كان على ماذكروه لكان فى كل رجل كعب واحد فكان ينبغى أن يقال وأرجلكم إلى الكعاب كما فى قوله تعالى «وأيديكم إلى المرافق» فلما قال إلى الكعبين علم أن لكل رجل كعبين فبطل ماقالوه وثبت قول الجمهور.

(فصل)

قد تقدم أن الفروض المذكورة فى هذه الآية أربعة: وهي غسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين وقد تقدم استدلال الشافعى بهذه الآية على وجوب النية فى الوضوء فصارت فرضا خامسا وذهب الشافعى ومالك وأحمد إلى وجوب الترتيب فى الوضوء وهو أن يغسل الأعضاء فى الوضوء على الولاء كما ذكره الله فى هذه الآية فيغسل أولا وجهه ثم يده ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه فصار الترتيب فرضا سادسا وذهب أبو حنيفة إلى أن الترتيب فى الوضوء غير واجب احتج الشافعى على وجوب الترتيب بهذه الآية وذلك أن الله تعالى أمر بغسل الوجه ثم بغسل اليدين ثم بمسح الرأس ثم بغسل الرجلين فوجب أن يقع الفعل مرتبا كما أمر الله تعالى ولقوله ﷺ فى حديث حجة الوداع «أبدأ بما بدأ الله به» وهذا الحديث وإن ورد فى قصة السعى بين الصفا والمروة فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ولأن أفعال النبى صلى الله عليه وسلم فى الوضوء ماوردت إلا مرتبة كما ورد فى نص الآية ولم ينقل عنه ولا عن غيره من الصحابة أنه توضأ منكسا أو غير مرتب فثبت أن ترتيب أفعال الوضوء كما أمر الله تعالى ونص عليه فى هذه الآية واجب واحتج. أبو حنيفة لمذهبه بهذه الآية أيضا. وذلك أن الواو لاتوجب الترتيب فاذا قلنا بوجوب الترتيب صار ذلك زيادة على النص وذلك غير جائز وأجيب عنه بأنه لم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه توضأ إلا مرتبا كما ذكر وبيان الكتاب إنما يؤخذ من السنة.

(فصل فى ذكر الأحاديث التى وردت فى صفة الوضوء وفضله)

(ق) عن حمران مولى عثمان بن عفان «أن عثمان دعا باناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما ثم أدخل يمينه فى الإناء فمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثا ويديه إلى المرفقين ثلاثا ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال: من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لايحدث فيهما نفسه غفر له ماتقدم من ذنبه» (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصارى «قيل له توضأ لنا وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا باناء فأفرغ منه على يديه ثلاثا ثم أدخل يده فاستخرجها فمضمض واستنشق من كف واحد فعل ذلك ثلاثا ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل وجهه ثلاثا ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل يديه إلى المرفقين مرتين مرتين ثم أدخل يده فاستخرجها فمسح برأسه فأقبل بيديه وأدبر ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثم قال هكذا كان

وضوء

الترتيب وهو أن يغسل أعضاءه على الولاء كما ذكر الله تبارك وتعالى فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول مالك والشافعى وأحمد وإسحاق رحمهم الله ويروى ذلك عن أبى هريرة رضى الله عنه واحتج الشافعى بقول الله تعالى «إن الصفا والمروة من شعائر الله» وبدأ النبى ﷺ بالصفا وقال «نبدأ بما بدأ الله به» وكذلك هاهنا بدأ الله تعالى بذكر غسل الوجه فيجب علينا أن نبدأ فعلا بما بدأ الله تعالى بذكره وذهب جماعة إلى أن الترتيب سنة وقالوا الواوات المذكورة فى الآية للجمع لا للترتيب كما قال الله تعالى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» الآية واتفقوا على أنه لا تجب مراعاة الترتيب فى صرف الصدقات إلى أهل السهمان ومن أوجب الترتيب أجاب بأنه لم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه راعى الترتيب بين أهل السهمان وفى الوضوء لم ينقل أنه توضأ إلا مرتبا كما ذكر الله تعالى وبيان الكتاب يؤخذ من السنة كما قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا» لما قدم ذكر الركوع على السجود ولم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه فعل إلا كذلك فكان مراعاة الترتيب فيه واجبة كذلك

وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم» زاد فى رواية بعد قوله «فأقبل بيديه وأدبر بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذى بدأ منه» عن عبد خير قال أتانا على كرم الله وجهه وقد صلى فدعا بطهور فقلنا مايضنع بالطهور وقد صلى ما يريد إلا ليعلمنا فأتى باناء فيه ماء وطست فأفرغ من الإناء على يمينه فغسل يده ثلاثا ثم تمضمض واستنشق ثلاثا فمضمض ونثر من كف يأخذ منه ثم غسل وجهه ثلاثا وغسل يده اليمين ثلاثا وغسل الشمال ثلاثا ثم جعل يده فى الإناء فمسح رأسه مرة واحدة ثم غسل رجله اليمنى ثلاثا ورجله الشمال ثلاثا ثم جعل يده فى الإناء فمسح رأسه مرة واحدة ثم غسل رجله اليمنى ثلاثا ورجله الشمال ثلاثا ثم قال «من سره أن يعلم وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو هذا» أخرجه أبو داود عن عبد الله ابن عمرو بن العاص «أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كيف الطهور فدعا بماء فى إناء فغسل كفيه ثلاثا ثم غسل وجهه ثلاثا ثم غسل ذراعيه ثلاثا ثم مسح برأسه فأدخل أصبعيه السباحتين فى أذنيه ومسح بابهاميه على ظاهر أذنيه ثم غسل رجليه ثلاثا ثلاثا ثم قال هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم أو قال ظلم وأساء» أخرجه أبو داود وعن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح برأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما» أخرجه الترمذى وصححه (ق) عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا لم يغسل عقبه فقال «ويل للأعقاب من النار» (م) عن جابر قال أخبرنى عمر بن الخطاب «أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبى صلى الله عليه وسلم فقال ارجع وأحسن وضوءك قال فرجع فتوضأ ثم صلى أخرجه مسلم عن خالد عن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم «أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يصلى وفى قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء والصلاة» أخرجه أبو داود (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادانا بأعلى صوته «ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثا» عن ابن عباس «أن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ مرة» أخرجه البخارى عن أبى هريرة «أن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ مرتين مرتين أخرجه أبو داود والترمذى وقال وقد روى عن أبى هريرة «أن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ ثلاثا ثلاثا» (م) عن عقبة بن عامر قال كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتى فروحتها بعشى فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يحدث الناس فأدركت من قوله «مامن مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة» فقلت ما أجود هذا فاذا قائل بين يدى يقول التى قبلها أجود فنظرت فاذا عمر قال إنى قد رأيتك جئت آنفا قال «مامنكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» (م) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فاذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فاذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب» (ق) عن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»

الترتيب هنا قوله عز وجل (وإن كنتم جنبا فاطهروا) أى اغتسلوا أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة ثم يدخل أصابعه فى الماء فيخلل بها أصول شعره ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه ثم يفيض الماء على جلده كله. قوله تعالى (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) فيه دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب (ما يريد الله ليجعل عليكم) (٢٢) بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم (من حرج) ضيق (ولكن يريد ليطهركم) من الأحداث والجنابات والذنوب (وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) قال محمد بن كعب القرظى: إتمام النعمة تكفير الخطايا بالوضوء كما قال الله تعالى «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فجعل تمام نعمته غفران ذنوبه أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن حمران «أن عثمان توضأ بالمقاعد ثلاثا ثلاثا ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من توضأ وضوئى هذا خرجت خطاياه من وجهه ويديه ورجليه» أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن حمران مولى عثمان «أن عثمان بن عفان رضى الله عنه جلس على المقاعد يوما فجاءه المؤذن فأذنه بصلاة العصر فدعا بماء فتوضأ ثم قال والله لأحدثنكم حديثا لولا آية فى كتاب الله ما حدثتكموه ثم قال إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من امرئ مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يصلى الصلاة إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها» قال مالك أراه يريد هذه الآية أقم الصلاة لذكرى ورواه ابن شهاب وقال عروة الآية إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيى ابن بكير أنا الليث عن خالد عن سعيد بن أبى هلال عن نعيم المجمر قال رقيت مع أبى هريرة رضى الله عنه على ظهر المسجد

وفى رواية قال: رأيت أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع فى العضد ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع فى الساق ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع فى الساق ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله» وفى رواية لمسلم قال سمعت خليلى رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات» أخرجه الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» أخرجه أبو داود وابن ماجه. وقوله تعالى (وإن كنتم جنبا فاطهروا) أى اغتسلوا أمر الله بالإغتسال من الجنابة وذلك يجب على الرجل والمرأة بأحد شيئين: إما بخروج المنى على أى صفة كان من احتلام أو غيره أو بالتقاء الختانين وإن لم يكن معه إنزال فاذا حصل وجب الغسل (ق) عن عائشة «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ثم يدخل أصابعه فى الماء يخلل بهما أصول شعره ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيده ثم يفيض الماء على سائر جسده» أما قوله تعالى (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) فقد تقدم تفسيره وأحكامه فى تفسير سورة النساء وفى قوله تعالى منه دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب. وقوله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) يعنى من ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم عند عدم الماء (ولكن يريد ليطهركم) يعنى من الأحداث والذنوب والخطايا لأن الوضوء تكفير للذنوب (وليتم نعمته عليكم) يعنى ببيان الشرائع والأحكام وما تحتاجون إليه من أمر دينكم (لعلكم تشكرون) يعنى تشكرون نعمة الله عليكم بأن طهركم من الأحداث والذنوب وما جعل عليكم فى الدين من حرج. قوله تعالى (واذكروا

فتوضأ قال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع أن يطيل منكم غرته فليفعل » قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم) يعنى النعم كلها (وميثاقه الذى واثقكم به) عهده الذى عاهدكم به أيها المؤمنون (إذ قلتم سمعنا وأطعنا) وذلك حين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فيما أحبوا وكرهوا وهو قول أكثر المفسرين وقال مجاهد ومقاتل يعنى الميثاق الذى أخذ عليهم حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام (واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور) بما فى القلوب من خير وشر. قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) أى كونوا له قائمين بالعدل قوالين بالصدق أمرهم بالعدل والصدق فى أعمالهم

وأقوالهم (ولا يجرمنكم) ولا يحملنكم (شنآن قوم) بغض قوم (على أن لاتعدلوا) أى على ترك العدل فيهم لعدواتهم ثم قال (اعدلوا) يعنى فى أوليائكم وأعدائكم (هو أقرب للتقوى) يعنى إلى التقوى (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) وهذا فى موضع النصب لأن فعل الوعد واقع على المغفرة ورفعها على تقدير أى وقال لهم مغفرة وأجر عظيم (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم) بالدفع عنكم (إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم) بالقتل وقال قتادة نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخل فأراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا به وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة فأطلع الله تبارك وتعالى نبيه على ذلك وأنزل الله صلاة الخوف وقال الحسن كان النبى صلى الله عليه وسلم محاصرا غطفان بنخل : فقال رجل من المشركين هل لكم فى أن أقتل محمدا قالوا وكيف تقتله قال أفتك به قالوا وددنا أنك قد فعلت ذلك فأتى النبى صلى الله عليه وسلم والنبى صلى الله عليه وسلم متقلد سيفه فقال يامحمد أرنى سيفك فأعطاه إياه فجعل الرجل يهز السيف وينظر مرة إلى السيف ومرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك منى يامحمد قال الله فتهدده أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشام السيف ومضى فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مجاهد

(واذكروا نعمة الله عليكم) يعنى ماأنعم به عليكم من النعم كلها لأن كثرة النعم وذكرها يوجب مزيد الشكر من المنعم عليه والاشتغال بطاعة المنعم بها والانقياد لأمره وهو الله تعالى (وميثاقه الذى واثقكم به) يعنى واذكروا عهده الذى عاهدكم به أيها المؤمنون (إذ قلتم سمعنا وأطعنا) وذلك حين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فيما أحبوا وكرهوا وقيل الميثاق هو الذى أخذه عليهم فى يوم ألست بربكم قالوا بلى (واتقوا الله) يعنى فيما أخذه عليكم من الميثاق فلا تنقضوه (إن الله عليم بذات الصدور) يعنى إن الله تعالى عالم بما فى قلوب عباده من خير وشر . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله) قال ابن عباس يريد أنهم يقومون لله بحقه ومعنى ذلك هو أن يقوم لله بالحق فى كل مايلزمه القيام به من العمل بطاعته واجتناب نواهيه (شهداء بالقسط) يعنى وتشهدون بالعدل يقول لاتحاب فى شهادتك أهل ودك وقرابتك ولا تمنع شهادتك أهل بغضك وأعداءك أقم شهادتك لهم وعليهم بالصدق والعدل (ولا يجرمنكم شنآن قوم) ولا يحملنكم بغض قوم (على ألا تعدلوا) على ترك العدل فيهم لعدوانهم (اعدلوا) أمر الله بالعدل فى كل أحد القريب والبعيد والصديق والعدو (هو أقرب للتقوى) أى العدل أقرب للتقوى (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) يعنى أن الله تعالى خبير بجميع أعمالكم مطلع عليها وخبير بمن عدل ومن لم يعدل . قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يعنى عملوا بما واثقهم الله به وأوفوا بالعهود التى عاهدهم عليها (لهم مغفرة وأجر عظيم) هذا بيان للوعد كأنه لما تقدم ذكر الوعد فقيل أى شىء هذا الوعد فقال لهم مغفرة وأجر عظيم وإذا وعدهم أنجز لهم الوعد فانه تعالى لايخلف الميعاد (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) يعنى والذين جحدوا وحدانية الله ونقضوا عهوده ومواثيقه وكذبوا بما جاءت به الرسل من عنده (أولئك) يعنى من هذه صفته (أصحاب الجحيم) هذه الآية نص قاطع فى أن الخلود فى النار ليس إلا للكفار لأن المصاحبة تقتضى الملازمة كما يقال فلان صاحب فلان يعنى الملازم له . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم) يعنى اذكروا نعمة الله عليكم بالدفع عنكم مع سائر نعمه التى أنعم بها عليكم ثم وصف تلك النعمة التى ذكرهم بها وأمرهم بالشكر عليها فقال تعالى (إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم) يعنى بالقتل والبطش بكم فصرفهم عنكم وحال بينكم وبين ماأرادوه بكم اختلف أهل التفسير فى سبب نزول هذه

وعكرمة والكلبي وابن يسار عن رجاله بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو الساعدى وهو أحد النقباء ليلة
العقبة فى ثلاثين راكبا من المهاجرين والأنصار إلى بنى عامر بن صعصعة فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة وهى
من مياه بنى عامر واقتتلوا فقتل المنذر ابن عمرو وأصحابه إلا ثلاثة نفر كانوا فى طلب ضالة لهم: أحدهم عمرو
بن أمية الضمرى فلم يرعهم إلا الطير تحوم فى السماء يسقط من بين خراطيمها علق الدم فقال أحد النفر قتل أصحابنا ثم تولى يشتد حتى لقى رجلا فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه وقال الله أكبر الجنة ورب العالمين فرجع صاحباه فلقيا رجلين من بنى سليم وكان بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة فانتسبا لهما إلى بنى عامر فقتلاهما وقدم قومهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلبون الدية فخرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنهم حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبنى النضير يستعينهم فى عقلهما وكانوا قد عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم على ترك القتال وعلى أن يعينوه فى الديات قالوا نعم يا أبا القاسم
قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك يقال
الذى تسألنا فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخلا بعضهم ببعض وقالوا إنكم لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن
فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه فقال عمر بن جحاش أنا فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك

الآية وفى صفة هذه النعمة التى أمر الله تعالى أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم بذكرها والشكر عليها فقال قتادة نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخلة حين أراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا برسول الله ﷺ وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك وأنزل صلاة الخوف وقال الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم محاصرا غطفان بنخل فقال رجل من المشركين هل لكم أن أقتل محمدا قالوا وكيف تقتله قال أفتك به قالوا وددنا أنك فعلت ذلك فأتى النبى صلى الله عليه وسلم والنبى صلى الله عليه وسلم متقلد سيفه فقال يا محمد أرنى سيفك فأعطاه إياه فجعل الرجل يهز السيف وينظر إليه مرة وإلى النبى صلى الله عليه وسلم مرة ثم قال من يمنعك منى يا محمد قال الله فتهدده أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأغمد السيف ومضى فأنزل الله هذه الآية وقال مجاهد وعكرمة والكلبى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو الساعدى وهو أحد النقباء ليلة العقبة فى ثلاثين راكبا من المهاجرين والأنصار إلى بنى عامر بن صعصعة فخرجوا فلقوا عامر ابن الطفيل على بئر معونة وهى من مياه بنى عامر فاقتتلوا فقتل المنذر وأصحابه إلا ثلاثة نفر كانوا فى طلب ضالة لهم: أحدهم عمرو بن أمية الضمرى فلم يرعهم إلا الطير تحوم فى السماء يسقط من بين مناقيرها علق الدم فقال أحد النفر الثلاثة قتل أصحابنا ثم تولى يشتد حتى لقى رجلا من المشركين فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه فقال الله أكبر الجنة ورب العالمين ورجع صاحباه فلقيا رجلين من بنى سليم وكان بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة فانتسبا إلى بنى عامر فقتلاهما وقدم قومهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلبون الدية فخرج النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبنى النضير يستعينهم فى عقلهما وكانوا قد عاهدوا النبى ﷺ على ترك القتال وعلى أن يعينوه فى الديات وقيل أراد أن يستقرض منهم دية رجلين فقالوا نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذى سألته فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخلا بعض اليهود ببعض وقالوا إنكم لم تجدوا محمدا أقرب منه الآن فمن يظهر منكم على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه فقال عمرو بن جحاش أنا فعمد إلى رحى عظيمة ليطرحها على النبى صلى الله عليه وسلم فأمسك الله يده ونزل جبريل فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فخرج النبى صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة قال وخرج معه على بن أبى طالب فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى لا تبرح مكانك حتى يخرج إليك أصحابى فمن خرج إليك منهم وسألك عنى فقل توجه إلى المدينة ففعل ذلك حتى تناهوا إليه ثم اتبعوه إلى المدينة وأنزل الله عز وجل هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم» يعنى اليهود «أن يبسطوا إليكم أيديهم»

الله تعالى يده وجاء جبريل وأخبره فخرج النبي صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة ثم دعا عليا فقال لاتبرح مكانك ، فمن خرج علمك من أصحابي فسألك عني فقل توجه إلى المدينة ففعل ذلك على رضى الله عنه حتى تناهوا إليه ثم تبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال (فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) وذلك أن الله عز وجل وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون فلما استقرت لبني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحاء من أرض الشام وهي الأرض المقدسة وكان لها ألف قرية في كل قرية ألف بستان وقال ياموسى إني كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فاني ناصرك عليهم وخذ من قومك اثني عشر نقيبا من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به فاختار موسى النقباء وسار موسى ببني إسرائيل حتى قربوا من أريحاء بعث هؤلاء النقباء يتجسسون له الأخبار ويعلمون علمها فلقيهم رجل من الجبارين يقول له عوج بن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاث وثلاثين ذراعا وثلث ذراع وكان يحتجز بالسحاب ويشرب منه ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله ويروى أن الماء في زمن نوح عليه السلام طبق ماعلى الأرض من جبل وما جاوز ركبتي عوج وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله

(٢٥)

يقال بسط يده إليه إذا بطش به وهو إذا مدها إلى المبطوش به ليقتله (فكف أيديهم عنكم) يعني أنه تعالى منعهم مما أرادوه بكم (واتقوا الله) يعني فيما أمركم به ونهاكم عنه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أمر الله تعالى المؤمنين بالتوكل عليه لأنه هو الكافي عباده جميع أمورهم فاذا فعلوا ذلك وتوكلوا عليه حفظهم ورعاهم ممن أرادهم بسوء كما كف أيدي اليهود عنهم لما أرادوا أن يفتكوا بهم وهذه القصة أولى بالصواب لأنه عقب الآية بذم اليهود وذكر قبيح أفعالهم وخيانتهم وذلك قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) لما ذكر الله في الآية المتقدمة بعض غدرات اليهود وما أرادوه من كيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أتبعه بذكر أسلافهم وما نقضوه من المواثيق والعهود ومعنى الآية أن الله أخذ ميثاقهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وأن يعملوا بما في التوراة من الأحكام والتكاليف (وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) اختلف العلماء في معنى النقيب فقال ابن عباس النقيب الضمين وقال قتادة هو الشهيد على قومه وقيل هو الأمين الكفيل وقيل هو الباحث عن القوم وعن أحوالهم .

(ذكر القصة في ذلك)

قال أصحاب الأخبار والسير : إن الله عز وجل وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون فأمر الله موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة وقال إني كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فاني ناصرك عليهم وخذ من قومك اثني عشر نقيبا من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به فاختار موسى النقباء وسار ببني إسرائيل حتى قربوا من أريحاء وهي مدينة الجبارين فبعث هؤلاء النقباء يتجسسون له الأخبار ويعلمون علمها فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج بن عنق وعنق أمه وهي إحدى بنات آدم عليه السلام وكان طوله ثلاث آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع هكذا نقله البغوي وفيه نظر لأن آدم عليه السلام كان طوله على ماورد في الأحاديث الصحيحة ستين ذراعا قال وكان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب من مائه ويتناول الحوت من قعر البحر ويشويه في عين الشمس ويروى أن الماء لما طبق على الأرض من جبل وغيره مابلغ ركبتي عوج وقال لنوح عليه السلام احملني معك في السفينة فقال نوح عليه السلام أخرج عني ياعدو الله فاني لم أومر بك وعاش عوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله تعالى على يد موسى عليه السلام وذلك أنه اقتلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى ، وكان فرسخا في فرسخ وحملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فنقب الصخرة وقورها بمنقاره فوقعت في عنقه فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله قال ، فلما لقي عوج النقباء أخذهم وجعلهم في حجزته وكان على رأسه حزمة حطب وانطلق بهم إلى امرأته وقال لها انظري إلى هؤلاء الذين يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها وقال لأطحنهم برجلي فقالت امرأته بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا منك وقيل إنه جعلهم في كمه وأتى بهم إلى الملك فنثرهم بين يديه فقال

على يدى موسى عليه السلام وذلك أنه جاء وقلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى عليه السلام وكان فرسخا فى فرسخ وحملها ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فقور الصخرة بمنقاره فوقعت فى عنقه فصرعته ، فأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله وكانت أمه عنق إحدى بنات آدم وكان مجلسها جريبا من الأرض ، فلما لقى عوج النقباء وعلى رأسه حزمة حطب أخذ الاثنى عشر وجعلهم فى حجزته وانطلق بهم إلى امرأته وقال أنظرى إلى هؤلاء الذين

يزعمون أنهم يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها وقال ألا أطحنهم برجلى فقالت امرأته لابل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل ذلك وروى أنه جعلهم فى كمه وأتى بهم إلى الملك فنثرهم بين يديه فقال الملك ارجعوا فأخبروهم بما رأيتم وكان لايحمل عنقودا من عنبهم إلا خمسة أنفس منهم فى خشبة ويدخل فى شطر الرمانة إذ نزع منها حبها خمسة أنفس فرجع النقباء وجعلوا يتعرفون أحوالهم وقال بعضهم لبعض ياقوم إنكم إن أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم ارتدوا عن نبى الله ولكن اكتموا وأخبروا موسى وهارون فيريان رأيهما وأخذ بعضهم على بعضهم الميثاق بذلك ، ثم إنهم نكثوا العهد وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى إلا رجلان فذلك قوله تعالى «ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم إثنى عشر نقيبا» (وقال الله إنى معكم) من ناصركم على عدوكم ثم ابتدأ الكلام فقال (لئن أقمتم الصلاة) يامعشر بنى إسرائيل (وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم) نصرتموهم وقيل وقرتموهم وعظمتموهم (وأقرضتم الله قرضا حسنا) قيل هو إخراج الزكاة : وقيل هو النفقة على الأهل (لأكفرن عنكم سيئاتكم) لأمحون عنكم سيئاتكم (ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) أى أخطأ قصد السبيل يريد طريق الحق وسواء كل شىء وسطه (فبما نقضهم) أى فبنقضهم وما صلة (ميثاقهم)

لهم الملك ارجعوا إلى قومكم فأخبروهم بما رأيتم وكان مما رأوا أن العنقود العنب لايحمله إلا خمسة أنفس منهم بينهم فى خشبة ويدخل فى شطر الرمانة إذا نزع منها حبها خمسة أنفس فرجع النقباء وقال بعضهم لبعض ياقوم إنكم إذا أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم رجعوا عن نبى الله موسى ولا يقاتلونهم معه اكتموا عن بنى إسرائيل خبر القوم وأخبروا موسى وهارون بما رأيتم فيريان رأيهما وأخذ بعض النقباء على بعض الميثاق بذلك فلما رجعوا إلى بنى إسرائيل نكثوا العهد والميثاق وأخبر كل رجل سبطه بما رأى إلا رجلان منهم وهم يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فانهم أوفيا بالعهود ولم ينكثا الميثاق فذلك قوله تعالى «ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا» (وقال الله إنى معكم) فيه حذف تقديره وقال للنقباء إنى معكم يعنى بالنصر والمعونة وقيل هو خطاب لعامة بنى إسرائيل والقول الأول أولى لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور فكان عوده إلى النقباء أولى ثم ابتدأ الكلام فقال مخاطبا لبنى إسرائيل (لئن أقمتم الصلاة) هذه جملة شرطية والشرط مركب من خمسة أمور وهى قوله لئن أقمتم الصلاة (وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا) وجزاء الشرط قوله تعالى (لأكفرن عنكم سيئاتكم) وذلك إشارة إلى إزالة العذاب . وقوله تعالى (ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) إشارة إلى إيصال الثواب ومعنى الآية لئن أقمتم الصلاة المكتوبة وآتيتم الزكاة المفروضة وآمنتم برسلى يعنى جميع رسلى وإنما أخر ذكر الإيمان بالرسل لأن اليهود كانوا مقرين باقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان ببعض الرسل فقال الله لهم أنه لايتم لكم ذلك ولا يحصل المقصود إلا بالإيمان بجميع الرسل وقوله تعالى وعزرتموهم يعنى ونصرتموهم وأصل التعزير فى اللغة الردع فمعنى وعزرتموهم نصرتموهم بأن تردوا أعداءهم عنهم وقيل معناه وقرتموهم وعظمتموهم والقول هو الأول وأقرضتم الله قرضا حسنا يعنى به الصدقات المندوبة لأن الزكاة تقدم ذكرها فلا فائدة فى تفسير هذا القرض بالزكاة فان قلت كيف قال وأقرضتم الله قرضا حسنا ولم يقل إقراضا حسنا لأن مصدر أقرضتم الإقراض قلت أن قوله قرضا أخرج مصدرا من معناه لامن لفظه وذلك أن أقرض بمعنى قرض فكان معنى الكلام وأقرضتم الله فقرضتم قرضا حسنا ونظير ذلك قوله تعالى «والله أنبتكم من الأرض نباتا» إذ كان معناه فنبتم نباتا وقوله «لأكفرن عنكم سيئاتكم» يعنى إذا فعلتم سائر ما أمرتكم به لأمحون عنكم سيئاتكم وأغفرها لكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار (فمن كفر بعد ذلك منكم) يعنى بعد أخذ العهد والميثاق (فقد ضل سواء السبيل) يعنى فقد أخطأ الطريق المستقيم وهو طريق الدين الذى شرعه والهدى الذى أمر باتباعه قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم) أى بسبب نقضهم الميثاق ؛ وذلك أن بنى إسرائيل نقضوا ميثاق الله وعهده بأن كذبوا الرسل الذين جاءوا

قال قتادة نقضوه من وجوه لأنهم كذبوا الرسل الذين جاءوا بعد موسى، وقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيعوا فرائضه (لعناهم) قال عطاء أبعدناهم من رحمتنا قال الحسن ومقاتل عذبناهم بالمسخ (وجعلنا قلوبهم قاسية) قرأ حمزة والكسائي قسية بتشديد الياء من غير ألف وهما لغتان مثل الذاكية والذكية قال ابن عباس رضي الله عنهما قاسية أي يابسة وقيل غليظة لا تلين وقيل معناه أن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق ومنه الدراهم القاسية وهي الردية المغشوشة (يحرفون الكلم عن مواضعه) قيل هو تبديلهم نعت النبي صلى الله عليه وسلم وقيل تحريفهم بسوء التأويل (ونسوا حظا مما ذكروا به) أي وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته (ولا تزال) يا محمد (تطلع على خائنة منهم) أي على خيانة فاعلة بمعنى المصدر كالكاذبة واللاغية وقيل هو بمعنى الفاعل والهاء للمبالغة مثل راوية ونسابة وعلامة وحسابة وقيل على فرقة خائنة قال ابن عباس رضي الله عنهما على خائنة أي على معصية وكانت خيانتهم نقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمهم بقتله وسمه ونحوها من خياناتهم التي ظهرت منهم (إلا قليلا منهم) لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم الذين أسلموا من أهل الكتاب (فاعف عنهم واصفح) أي أعرض عنهم ولا تعرض لهم (إن الله يحب المحسنين) وهذا منسوخ بآية السيف قوله عز وجل (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم) قيل أراد بهم اليهود والنصارى فاكتفى بذكر أحدهما والصحيح أن الآية في النصارى خاصة لأنه قد تقدم ذكر اليهود وقال الحسن فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى أخذنا ميثاقهم في التوحيد والنبوة (فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) بالأهواء المختلفة والجدال في الدين قال مجاهد وقتادة يعني بين اليهود والنصارى وقال

من بعد موسى وقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيعوا فرائضه (لعناهم) يعني جازيناهم على ذلك بأن أبعدناهم وطردناهم عن رحمتنا وأصل اللعنة الإبعاد عن الرحمة (وجعلنا قلوبهم قاسية) يعني غليظة يابسة لا تلين لأن القسوة خلاف اللين والرقة وقيل معناه إن قلوبهم ليست خالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق (يحرفون الكلم عن مواضعه) يعني يغيرون حدود التوراة وأحكامها وقيل هو تبديلهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته من التوراة وقيل هو تحريفهم معاني الألفاظ بسوء التأويل (ونسوا حظا مما ذكروا به) يعني وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته وصفته (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) قال ابن عباس يعني على معصية منهم وكانت خيانتهم نقض العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب محمد صلى الله عليه وسلم وهمهم بقتله وسمه ونحوها من خياناتهم التي ظهرت (إلا قليلا منهم) يعني أنهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل الكتاب (فاعف عنهم واصفح) أي فاعف عن زلاتهم يا محمد واصفح عن جرمهم ومؤاخذتهم وهذا الأمر بالعفو والصفح عن أهل الكتاب منسوخ بقوله تعالى «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» الآية التي نزلت في سورة براءة قاله قتادة وقيل إنها غير منسوخة بل نزلت في قوم كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فغدروا ونقضوا ذلك العهد فأظهر الله تعالى نبيه ﷺ على ذلك وأنزل هذه الآية ولم تنسخ وذلك أنه يجوز أن يعفو عن غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حربا ولم يمتنعوا من أداء الجزية والصغار وعلى هذا القول بأنها غير منسوخة يكون معنى الآية فاعف عن مؤمنيهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم قبل ذلك وقيل معناه فاعف عن صغائر زلاتهم ما داموا باقين على العهد (إن الله يحب المحسنين) يعني إذا عفوت عنهم فإنك تحسن والله يحب المحسنين قوله عز وجل (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم) لما ذكر نقض اليهود الميثاق اتبعه بذكر نقض النصارى الميثاق وأن سبيل النصارى مثل سبيل اليهود في نقض العهد والميثاق وإنما قال تعالى «ومن الذين قالوا إنا نصارى» ولم يقل من النصارى لأنهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسموا به أنفسهم لأن الله تعالى سماهم به أخذنا ميثاقهم يعني كتبنا عليهم في الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (فنسوا حظا مما ذكروا به) يعني فتركوا ما أمروا به من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (فأغرينا) يعني فألقينا وأوقعنا (بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) قال قتادة لما تركوا العمل بكتاب الله وعصوا رسله وضيعوا فرائضه وعطلوا حدوده ألقى الله العداوة والبغضاء بينهم وقيل العداوة والبغضاء هي الأهواء المختلفة وفي الهاء والميم من قوله تعالى بينهم قولان: أحدهما أن المراد بهم اليهود والنصارى فإن العداوة والبغضاء حاصلة بينهم إلى يوم القيامة. والقول الثاني

الربيع هم النصارى وحدهم صاروا فرقا منهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية وكل فرقة تكفر الأخرى (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) فى الآخرة قوله عز وجل (يا أهل الكتاب) يريد يا أهل الكتابين (قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) أى من التوراة والإنجيل مثل صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك (ويعفو عن كثير) أى يعرض عن كثير مما أخفيتم فلا يتعرض له ولا يؤاخذكم به (قد جاءكم من الله نور) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم وقيل الإسلام (وكتاب مبين) أى بين، وقيل مبين وهو القرآن (يهدى به الله من اتبع رضوانه) رضاه (سبل السلام) قيل السلام هو الله عز وجل وسبيله دينه الذى شرع لعباده وبعث به رسله وقيل السلام هو السلامة كاللذاذ واللذاذة بمعنى واحد والمراد به طرق السلامة (ويخرجهم من الظلمات إلى النور) أى من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان (بإذنه) بتوفيقه وهدايته (ويهديهم إلى صراط مستقيم) وهو الإسلام قوله تبارك وتعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وهم اليعقوبية من النصارى يقولون المسيح هو الله تعالى (قل فمن يملك من الله شيئا) أى من يقدر أن يدفع من أمر الله شيئا إذا قضاه (إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) قيل أرادوا إن الله تعالى لنا كالأب فى الحنو والعطف ونحن كالأبناء له فى القرب والمنزلة وقال إبراهيم النخعى أن اليهود وجدوا فى التوراة يا أبناء أحبارى فبدلوا يا أبناء أبكارى فمن ذلك

أن المراد بهم فرق النصارى، فإن كل فرقة منهم تكفر الأخرى (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) يعنى أن الله تعالى يخبرهم فى الآخرة بأعمالهم التى عملوها فى الدنيا ففيه وعيد وتهديد لهم. قوله تعالى (يا أهل الكتاب) يعنى اليهود والنصارى (قد جاءكم رسولنا) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) يعنى أن محمدا ﷺ يظهر كثيرا مما أخفوا وكتموا من أحكام التوراة والإنجيل وذلك أنهم أخفوا آية الرجم وصفة محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ذلك وأظهره وهذا معجزة النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لم يقرأ كتابهم ولم يعلم ما فيه فكان إظهاره ذلك معجزة له (ويعفوا عن كثير) يعنى مما يكتمونه فلا يتعرض له ولا يؤاخذهم به لأنه لا حاجة إلى إظهاره والفائدة فى ذلك أنهم يعلمون كون النبى ﷺ عالما بما يخفونه وهو معجزة له أيضا فيكون ذلك داعيا لهم إلى الإيمان به (قد جاءكم من الله نور) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم إنما سماه الله نورا لأنه يهتدى به كما يهتدى بالنور فى الظلام وقيل النور هو الإسلام (وكتاب مبين) يعنى القرآن (يهدى به الله) يعنى يهدى الله بالكتاب المبين (من اتبع رضوانه) أى اتبع ما رضيه الله وهو دين الإسلام لأنه مدحه وأثنى عليه (سبل السلام) قال ابن عباس يريد دين الله وهو الإسلام فسبله دينه الذى شرع لعباده وبعث به رسله وأمر عباده باتباعه وقيل سبل السلامة طرق السلام وقيل سبل السلام دار السلام فيكون من باب حذف المضاف (ويخرجهم من الظلمات إلى النور) يعنى من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان (بإذنه) يعنى بتوفيقه وهدايته (ويهديهم إلى صراط مستقيم) يعنى دين الإسلام قوله عز وجل (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) قال ابن عباس هؤلاء نصارى نجران فإنهم قالوا هذه المقالة وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى لأنهم يقولون فى المسيح أنه الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وإنما قالوا هذه المقالة الخبيثة لأنهم يقولون بالحلول وأن الله قد حل فى بدن عيسى فلما كان اعتقادهم ذلك لا جرم حكم الله عليهم بالكفر ثم ذكر الله ما يدل على فساد مذهبهم فقال تعالى (قل) يعنى يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة (فمن يملك) يعنى يقدر أن يدفع (من الله شيئا) يعنى من أمر الله شيئا (إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه) يعنى يعدم المسيح وأمه (ومن فى الأرض جميعا) ووجه الاحتجاج على النصارى بهذا أن المسيح لو كان إلها كما يقولون لقدر على دفع أمر الله إذا أراد إهلاكه وإهلاك أمه وغيرها (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) إنما قال وما بينهما ولم يقل وما بينهن لأنه أراد ما بين هذين النوعين أو الصنفين من الأشياء فإنها ملكه وأهلها عبيده وعيسى وأمه من جملة عبيده (يخلق ما يشاء) يعنى من غير اعتراض عليه فيما يخلق لأنه خلق آدم من غير أب وأم وخلق عيسى من أم بلا أب وخلق سائر الخلق من أب وأم (والله على كل شىء قدير) يعنى أن الله تعالى لا يعجزه شىء أراده فلا اعتراض لأحد من خلقه عليه قوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) قال ابن عباس أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان وابن أصار وبحرى

ابن عمرو

ابن عمرو وشاس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا ماتخوفنا يامحمد نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى فأنزل الله عز وجل فيهم «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه» الآية وسبب هذه المقالة ماحكاه السدي قال أما اليهود فانهم قالوا إن الله أوحى إلى إسرائيل إني أدخل من ولدك النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادي مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فيخرجون فذلك قوله تعالى لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وأما النصارى فان فرقا منهم يقولون المسيح ابن الله وكذبوا فيما قالوا على الله تعالى فأما وجه قول اليهود فانهم يعنون أنه من عطفه عليهم كالأب الشفيق على الولد وأما وجه قول النصارى فانهم لما قالوا في المسيح أنه ابن الله وادعوا أنه منهم فكأنهم قالوا نحن أبناء الله لهذا السبب وقيل أن اليهود إنما قالوا هذه المقالة من باب حذف المضاف والمعنى نحن أبناء رسول الله وأما النصارى فانهم تأولوا قول المسيح اذهب إلى أبي وأبيكم وقوله إذا صليتم فقولوا يا أبانا الذي في السماء لتقدس اسمك فذهبوا إلى ظاهر هذه المقالة ولم يعلموا ماأراد المسيح عليه السلام إن صحت هذه المقالة عنه فان تأويلها أنه في بره ورحمته وعطفه على عباده الصالحين كالأب الرحيم لولده وجملة الكلام في ذلك أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلا على من سواهم بسبب أسلافهم الأفاضل حتى انتهوا في تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه فأبطل الله عز وجل دعواهم وكذبهم فيما قالوا بقوله تعالى (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) معناه إذا كان الأمر كما تزعمون فلم يعذبكم الله وأنتم قد أقررتم على أنفسكم أنه يعذبكم أربعين يوما وهل رأيتم والدا يعذب ولده بالنار وهل تطيب نفس محب أن يعذب حبيبه في النار (بل أنتم بشر ممن خلق) يعني بل أنتم يامعشر اليهود والنصارى كسائر بني آدم مجزيون بالإساءة والإحسان. قوله تعالى (يغفر لمن يشاء) يعني لمن تاب من اليهودية والنصرانية (ويعذب من يشاء) يعني من مات على اليهودية والنصرانية وقيل معناه يهدي من يشاء فيغفر له ويميت من يشاء على كفره فيعذبه (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) يعني أنه تعالى يملك ذلك لاشريك له في ذلك فيعارضه وهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء والتعذيب لمن يشاء وفيه دليل على أنه تعالى لاولد له لأن من يملك السموات والأرض يستحيل أن يكون له شبيه من خلقه أو شريك في ملكه (وإليه المصير) يعني وإلى الله مرجع العباد في الآخرة فيجازيهم بأعمالهم. قوله تعالى (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) قال ابن عباس قال معاذ بن جبل وسعد ابن عبادة وعقبة بن وهب لليهود يامعشر اليهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهودا ماقلنا ذلك لكم وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده فأنزل الله هذه الآية ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يعني محمدا ﷺ يبين لكم يعني أحكام الدين والشرائع على فترة من الرسل قال ابن عباس يعني على انقطاع من الرسل واختلف العلماء في قدر مدة الفترة فروى عن سلمان قال فترة مابين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة أخرجه البخاري وقال قتادة كانت الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة وما شاء الله من ذلك وعنه إنها خمسمائة سنة وستون سنة وقال ابن السائب خمسمائة وأربعون سنة وقال الضحاك إنها أربعمائة وبضع وثلاثون سنة ونقل ابن الجوزي عن ابن عباس على فترة من

قالوا نحن أبناء الله وقيل معناه نحن أبناء الله يعني أبناء رسل الله قوله تعالى (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) يريد إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه فإن الأب لايعذب ولده والحبيب لايعذب حبيبه وأنتم مقرون أنه معذبكم وقيل فلم يعذبكم أي لم عذب من قبلكم بذنوبهم فمسخهم قردة وخنازير (بل أنتم بشر ممن خلق) كسائر بني آدم مجزيون بالإساءة والإحسان (يغفر لمن يشاء) فضلا (ويعذب من يشاء) عدلا (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا) محمد ﷺ (يبين لكم) أعلام الهدى وشرائع الدين (على فترة من الرسل) أي انقطاع من الرسل واختلفوا في مدة الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم قال أبو عثمان النهدي ستمائة سنة وقال قتادة خمسمائة وستون سنة وقال معمر والكلبي خمسمائة وأربعون سنة وسميت فترة لأن الرسل كانت تترى بعد موسى عليه السلام من غير انقطاع إلى زمن

الرسل قال على انقطاع منهم قال وكان بين ميلاد عيسى وميلاد محمد صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وتسعة وستون سنة وهى الفترة وكان بين عيسى ومحمد أربعة من الرسل فذلك قوله «إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث» قال والرابع لاأدرى من هو فكانت تلك السنون مائة وأربعا وثلاثين سنة نبوة وسائرها فترة قال أبو سليمان الدمشقى والرابع والله أعلم خالد بن سنان الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى ضيعه قومه قال الإمام فخر الدين الرازى والفائدة فى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم عند فترة الرسل هى أن التحريف والتغيير كان قد تطرق إلى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها وسبب ذلك اختلاط الحق بالباطل والكذب بالصدق فصار ذلك عذرا ظاهرا فى إعراض الخلق عن العبادات لأن لهم أن يقولوا إننا عرفنا أنه لابد من عبادتك ولكنا ماعرفنا كيف نعبدك فبعث الله فى هذا الوقت محمدا صلى الله عليه وسلم لإزالة هذا العذر فذلك قوله عز وجل (أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير) يعنى لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فى هذا الوقت (فقد جاءكم بشير ونذير) يعنى فقد أرسلت إليكم محمدا صلى الله عليه وسلم لإزالة هذا العذر (والله على كل شىء قدير) يعنى أنه قادر على بعثة الرسل فى وقت الحاجة إليهم . قوله عز وجل (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم) قال ابن عباس اذكروا عافية الله وقيل معناه اذكروا أيادى الله عندكم وأيامه التى أنعم فيها عليكم قال الطبرى هذا تعريف من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بتمادى هؤلاء فى الغى وبعدهم عن الحق وسوء اختيارهم لأنفسهم وشدة مخالفتهم لأنبيائهم مع كثرة نعم الله عليهم وتتابع أياديه وآلائه لديهم سلى بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم عما نزل به من مقاساتهم ومعالجتهم فى ذات الله عز وجل (إذ جعل فيكم أنبياء) يعنى أن موسى عليه السلام ذكر قومه بنى إسرائيل بأيام الله عندهم وبما أنعم به عليهم فقال اذكروا نعمة الله عليكم إذ فضلكم بأن جعل فيكم أنبياء قال الكلبى هم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه وانطلق بهم إلى الجبل وأيضا كان أنبياء بنى إسرائيل من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهؤلاء لاشك أنهم من أكابر الأنبياء وأولاد يعقوب وهم الأسباط أنبياء على قول الأكثرين وموسى وهرون عليهما السلام وأيضا فان الله تعالى أعلم موسى أنه يبعث من بعده فى بنى إسرائيل أنبياء فانه لم يبعث فى أمة مابعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء فكان هذا شرفا عظيما لهم ونعمة ظاهرة عليهم (وجعلكم ملوكا) يعنى وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيدا فى أيدى القبط قال ابن عباس يعنى جعلكم أصحاب خدم وحشم قال قتادة كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم وروى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكا ذكره البغوى بغير سند وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال ألسنا من فقراء المهاجرين فقال له عبد الله ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال نعم قال لك مسكن تسكنه قال نعم ؟ قال أنت من الأغنياء قال فان لى خادما قال فأنت من الملوك وقال الضحاك كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية ومن كان مسكنه واسعا وفيه ماء جار فهو ملك (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعنى من عالمى زمانكم يذكرهم ماأنعم الله به عليهم من

عيسى عليه السلام ولم يكن بعد عيسى عليه السلام سوى رسولنا صلى الله عليه وسلم (أن تقولوا) كيلا تقولوا (ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاء بشيركم ونذير والله على كل شىء قدير) قوله عز وجل (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء) أى منكم أنبياء (وجعلكم ملوكا) أى فيكم ملوكا قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى أصحاب خدم وحشم قال قتادة كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكا وقال أبو عبد الرحمن الحبلى سمعت عبد الله ابن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال ألسنا من فقراء المهاجرين فقال له عبد الله ألك امرأة تأوى إليها قال نعم قال ألك مسكن تسكنه قال نعم قال فأنت من الأغنياء قال فان لى خادما قال فأنت من الملوك . قال السدى وجعلكم ملوكا أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدى القبط يستعبدونكم وقال الضحاك كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمن كان مسكنه واسعا وفيه نهر جار فهو ملك (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعنى عالمى زمانكم قال مجاهد يعنى المن والسلوى والحجر وتظليل

فلق

الغمام قوله تعالى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) اختلفوا في الأرض المقدسة. قال مجاهد هي الطور وما حولها وقال الضحاك إيليا وبيت المقدس وقال عكرمة والسدي هي أريحاء وقال الكلبي هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن وقال قتادة هي الشام كلها قال كعب وجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله من أرضه وبها أكثر عباده قوله عز وجل كتب الله لكم يعني كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم وقال ابن إسحاق وهب الله لكم وقيل جعلها لكم

وقال السدي أمركم الله بدخولها وقال قتادة أمروا بها كما أمر بالصلاة أي فرض عليكم (ولا ترتدوا على أدباركم) أعقابكم بخلاف أمر الله (فتنقلبوا خاسرين) قال الكلبي صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك (قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين) وذلك أن النقباء الذين خرجوا يتجسسون الأخبار لما رجعوا إلى موسى وأخبروه بما عاينوا قال لهم موسى اكتموا شأنهم ولا تخبروا به أحدا من أهل العسكر فيفشلوا فأخبر كل رجل منهم قريبه وابن عمه إلا رجلان وفيا بما قال لهما موسى أحدهما يوشع ابن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهم السلام فتى موسى والآخر كالب ابن يوفنا ختن موسى عليه السلام على أخته مريم بنت عمران وكان من سبط يهود وهما النقباء فعلمت جماعة من بني إسرائيل ذلك ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا ياليتنا متنا في أرض مصر أوليتنا نموت في هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمة لهم وجعل الرجل يقول لصاحبه تعال نجعل علينا رأسا وننصرف إلى مصر فذلك قوله تعالى إخبارا عنهم قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين (وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) أصل الجبار المتعظم

فلق البحر لهم وإهلاك عدوهم وإنزال المن والسلوى عليهم وإخراج الماء من الحجر لهم وتظليل الغمام فوقهم إلى غير ذلك من النعم التي أنعم الله بها عليهم . قوله تعالى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) لما ذكر موسى قومه ما أنعم الله به عليهم أمرهم بالخروج إلى جهاد عدوهم فقال ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة يعني المطهرة سميت مقدسة لأنها طهرت من الشرك وصارت مسكنا للأنبياء والمؤمنين وقيل المقدسة المباركة قال الكلبي صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك والأرض هي الطور وما حوله وقيل هي أريحاء وفلسطين وبعض الأردن وقيل هي دمشق وقيل هي الشام كلها قال كعب الأحبار ووجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده التي كتب الله لكم يعني كتب الله في اللوح المحفوظ إنها لكم مساكن وقيل فرض الله عليكم دخولها وأمركم بسكناها وقيل وهبها لكم . فان قلت كيف قال الله تعالى ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم؟ وقال فانها محرمة عليهم وكيف الجمع بينهما؟ قلت فيه وجوه أحدها أنها كانت هبة من الله ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم. الوجه الثاني: أن اللفظ وإن كان عاما لكن المراد منه الخصوص فصار كأنه مكتوب لبعضهم وحرام على بعضهم فان يوشع بن نون وكالب بن يوفنا دخلاها وكانا ممن خوطب بهذا الخطاب. الوجه الثالث: إن هذا الوعد كان مشروطا بالطاعة فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط. الوجه الرابع: أنه قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الأربعون دخلوها وكانت مساكن لهم كما وعدهم الله تعالى (ولا ترتدوا على أدباركم) يعني ولا ترجعوا القهقرى مرتدين على أعقابكم إلى ورائكم ولكن امضوا لأمر الله الذي أمركم به وإن فعلتم خلاف ما أمركم الله به (فتنقلبوا خاسرين) يعني فترجعوا خائبين لأنكم رددتم أمر الله قوله عز وجل (قالوا) يعني قوم موسى (ياموسى إن فيها) يعني في الأرض المقدسة (قوما جبارين) يعني قوما عاتين لا طاقة لنا بهم ولا قوة لنا بقتالهم وسموا أولئك القوم جبارين لشدة بطشهم وعظم خلقهم وكانوا ذوي أجسام عظيمة وأشكال هائلة وهم العمالقة بقية قوم عاد وأصل الجبار في صفة الإنسان فعال من جبره على الأمر يعني أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد وقيل أنه مأخوذ من قولهم نخلة جبارة إذا كانت طويلة مرتفعة لا تصل الأيدي إليها ويقال رجل جبار إذا كان طويلا عظيما قويا تشبيها بالجبار من النخل (وإنا لن ندخلها) يعني أرض الجبارين التي أمرهم الله بدخولها (حتى يخرجوا منها) حتى يخرج الجبارون من الأرض المقدسة وإنما قالوا ذلك استبعاد الخروج الجبارين من أرضهم (فان يخرجوا منها فانا داخلون) يعني إليها قال العلماء بالأخبار أن النقباء لما خرجوا يتجسسون الأخبار لموسى عليه السلام ورجعوا إليه وأخبروه خبر القوم وما عاينوه منهم قال لهم موسى لا تخبروا بني

الممتنع عن القهر يقال نخلة جبارة إذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الأيدي إليها وسمي أولئك القوم جبارين ، لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم وكانوا من العمالقة وبقية قوم عاد ، فلما قال بنو إسرائيل ما قالوا وهموا بالانصراف إلى مصر خر موسى وهارون ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما في قوله (قال رجلان من الذين يخافون) أي يخافون الله تعالى قرأ سعيد بن جبير يخافون بضم الياء وقال الرجلان كانا من الجبارين فأسلما واتبعا موسى (أنعم الله عليهما) بالتوفيق والعصمة قالا (ادخلوا عليهم الباب) يعني قرية الجبارين (فاذا دخلتموه فانكم غالبون) لأن الله منجز وعده وإنا رأيناهم فكانت أجسامهم عظيمة ، وقلوبهم ضعيفة فلا تخشوهم (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوهما (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم أنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال لانقول كما قال قوم موسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره ما قال فلما فعلت بنو إسرائيل مافعلت من مخالفتهم أمر ربهم وهمهم بيوشع وكالب غضب موسى عليه السلام ودعا عليهم

رب

إسرائيل بهذا فيجبنوا ويضعفوا عن قتالهم وقيل إن النقباء الاثنى عشر لما خرجوا من أرض الجبارين قال بعضهم لبعض لاتخبروا بني إسرائيل بما رأيتم فلما رجعوا وأخبروا موسى أمرهم أن لايخبروا بني إسرائيل بذلك فخالفوا أمره ونقضوا العهد وأخبر كل رجل النقباء سبطه بما رأى إلا يوشع بن نون وكالب فانهما كتما ووفيا بالعهد فلما علم بنو إسرائيل بذلك وفشا ذلك فيهم رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا ليتنا متنا في أرض مصر ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم وجعل الرجل من بني إسرائيل يقول لصاحبه تعالوا نجعل لنا رأسا وننصرف إلى مصر فلما قال بنو إسرائيل ذلك هموا بالانصراف إلى مصر خر موسى وهرون ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبرنا الله عنهما بقوله (قال رجلان من الذين يخافون) يعني يخافون الله ويراقبونه (أنعم الله عليهما) يعني بالهداية والوفاء (ادخلوا عليهم الباب) يعني قال الرجلان وهما يوشع بن نون وكالب ابن يوفنا لبني إسرائيل ادخلوا على الجبارين باب مدينتهم (فاذا دخلتموه فانكم غالبون) لأن الله وعدكم بالنصر وأن الله ينجز لكم وعده (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) يعني يقول الرجلان لقوم موسى ثقوا بالله فانه معكم وناصركم إن كنتم مصدقين بأن الله ناصركم لا يهولنكم عظم أجسامهم فانا قد رأيناهم فكانت أجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فلما قالا ذلك أراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوا أمرهما وقالوا ماأخبر الله عنهم بقوله تعالى (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا) يعني قال قوم موسى لموسى إنا لن ندخل مدينة الجبارين أبدا يعني مدة حياتنا (ماداموا فيها) يعني مقيمين فيها (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) إنما قالوا هذه المقالة لأن مذهب اليهود التجسيم فكانوا يجوزون الذهاب والمجيء على الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قال بعض العلماء إن كانوا قالوا هذا على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر وإن كانوا قالوه على وجه الخلاف لأمر الله وأمر نبيه فهو فسق وقال بعضهم إنما قالوه على وجه المجاز والمعنى اذهب أنت وربك معين لك لكن قوله فقاتلا يفسد هذا التأويل وقال بعضهم إنما أرادوا بقولهم وربك أخاه هرون لأنه كان أكبر من موسى والأصح أنهم إنما قالوا ذلك جهلا منهم بالله تعالى وصفاته ومنه قوله تعالى وماقدروا الله حق قدره (خ) عن ابن مسعود قال شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين يوم بدر فقال يارسول الله إلا لانقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن أمض ونحن معك فكأنه سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية لكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسر . قوله تعالى (قال) يعني موسى عليه السلام

(رب) أى يارب (إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) يعنى إنى لا أملك إلا نفسى وأخى لا يملك إلا نفسه وقيل معناه لا أملك إلا نفسى ونفس أخى لأنه كان يطيعه وإذا كان كذلك فقد ملكه وإنما قال موسى لا أملك إلا نفسى وأخى وإن كان معه فى طاعته يوشع بن نون وكالب بن يوفنا لاختصاص هرون به ولمزيد الاعتناء بأخيه ويحتمل أن يكون معناه وأخى فى الدين ومن كان على دينه وطاعته فهو أخوه فى الدين فعلى هذا الاحتمال يدخل الرجلان فى قوله وأخى ثم قال (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) أى افصل وقيل احكم بيننا وبين القوم الفاسقين يعنى الخارجين عن طاعتك وإنما قال موسى ذلك لأنه لما رأى بنى إسرائيل وما فعلوه من مخالفة أمر الله وهمهم بيوشع وكالب غضب لذلك ودعا عليهم فأجاب الله تعالى دعاء موسى عليه السلام (قال) الله عز وجل (فانها محرمة عليهم) يعنى فان الأرض المقدسة محرمة عليهم ومعناه أن تلك البلدة محرمة عليهم أبدا ولم يرد تحريم تعبد وإنما أراد تحريم منع فأوحى الله تعالى إلى موسى «بى حلفت لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع وكالب ولأتيهنهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الأيام التى كانوا يتجسسون فيها سنة ولألقين جيفهم فى هذه القفار. وأما أبناؤهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها» فذلك قوله تعالى فانها يعنى الأرض المقدسة محرمة عليهم قال أكثر أهل العلم هذا تحريم منع لا تحريم تعبد وقيل يحتمل أن يكون تحريم تعبد فيجوز أن يكون الله تعالى أمرهم بأن يمكثوا فى تلك المفازة فى الشدة والبلية عقابا لهم على سوء صنيعهم (أربعين سنة) فمن قال إن الكلام تم عند قوله فانها محرمة عليهم قال أربعين سنة يتيهون فى الأرض فأما الحرمة فانها مؤبدة حتى يموتوا ويدخلها أبناؤهم وقيل معناه أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة ثم يدخلونها وتفتح لهم . وقوله تعالى (يتيهون فى الأرض) يعنى يتحيرون فيها يقال تاه يتيه إذا تحير واختلفوا فى مقدار الأرض التى تاهوا فيها فقيل مقدار ستة فراسخ وقيل ستة فراسخ فى اثنى عشر فرسخا وقيل تسع فراسخ فى ثلاثين فرسخا وكان القوم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يرحلون ويسيرون يومهم أجمع فاذا أمسوا إذا هم فى الموضع الذى رحلوا منه وكان ذلك التيه عقوبة لبنى إسرائيل ما خلا موسى وهارون ويوشع وكالب فان الله تعالى سهله عليهم وأعانهم عليه كما سهل على إبراهيم النار وجعلها بردا وسلاما . فان قلت كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم فى هذا المقدار الصغير من الأرض أربعين سنة بحيث لم يخرج منه أحد . قلت هذا من باب خوارق العادات وخوارق العادات فى أزمان الأنبياء غير مستبعدة فان الله على كل شىء قدير وقيل إن فسرنا ذلك التحريم بتحريم التعبد زال هذا الإشكال لاحتمال أن الله ما حرم عليهم الخروج من تلك الأرض بل أمر بالمكث أربعين سنة فى المشقة والمحنة جزاء لهم على سوء صنيعهم ومخالفتهم أمر الله ولما حصل بنو إسرائيل فى التيه شكوا إلى موسى عليه السلام حالهم فأنزل الله عليهم المن والسلوى وأعطوا من الكسوة ما هى قائمة لهم فينشأ الناشئ منهم فتكون معه على مقداره وهيئته وسأل موسى ربه أن يسقيهم فأتى بحجر أبيض من جبل الطور فكان إذا نزل ضربه بعصاه فيخرج منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط منهم عين وأرسل الله عليهم الغمام يظلهم فى التيه ومات فى التيه كل من دخله ممن جاوز عشرين سنة غير يوشع بن نون وكالب ابن يوفنا ولم يدخل أريحاء ممن قال إنا لن ندخلها أبدا واختلفوا فى أن موسى عليه السلام مات فى التيه أم خرج منه فقيل إن موسى وهارون ماتا فى التيه جميعا .

قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) قيل معناه لا يملك إلا نفسه وقيل معناه لا يطيعنى إلا نفسى وأخى (فافرق) فافصل (بيننا) قيل فاقض بيننا (وبين القوم الفاسقين) العاصين (قال) الله تعالى (فانها محرمة عليهم) قيل هاهنا تم الكلام، معناه تلك البلد محرمة عليهم أبدا لم يرد به تحريم تعبد وإنما أراد تحريم منع فأوحى الله تعالى إلى موسى: لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع وكالب ولأتيهنهم فى هذه البرية (أربعين سنة) مكان كل يوم من الأيام التى تجسسوا فيها سنة ولألقين جيفهم فى هذه القفار وأما بنوهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها فذلك قوله تعالى «فانها محرمة عليهم أربعين سنة» (يتيهون) يتحيرون (فى الأرض

فأما هارون فانه كان أكبر من موسى بسنة. قال السدى أوحى الله عز وجل إلى موسى إنى متوفى هارون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فاذا بشجرة لم ير مثلها وإذا ببيت مبنى وفيه سرير عليه فراش وفيه رائحة طيبة فلما رأى هارون ذلك البيت أعجبه وقال ياموسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير قال نم قال إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب على قال لاتخف إنى أكفيك رب هذا البيت فنم قال ياموسى فنم أنت معى فان جاء رب هذا البيت غضب على وعليك جميعا فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد مسه قال ياموسى خدعتنى فلما قبض هارون رفع البيت والسرير إلى السماء وهارون عليه وذهبت الشجرة فرجع موسى إلى بنى إسرائيل وليس هارون معه فقال بنو إسرائيل حسد موسى هارون فقتله لحبنا إياه قال موسى ويحكم إن هارون كان أخى أفترونى أقتله فلما أكثروا عليه قام موسى فصلى ركعتين ثم دعا الله عز وجل فنزل السرير وعليه هارون فنظروا إليه وهو بين السماء والأرض فصدقوه ثم رفع وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه صعد موسى عليه السلام وهارون إلى الجبل فمات هارون وبقى موسى فقال بنو إسرائيل لموسى أنت قتلته وآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على بنى إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته فصدقت بنو إسرائيل أنه مات وبرأ الله موسى مما قالوه ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه ولم يطلع على موضع قبره أحد إلا الرخم فجعله الله أصم أبكم. وأما وفاة موسى عليه السلام فقال ابن إسحاق كان صفى الله موسى عليه السلام قد كره الموت وأعظمه فأراد الله أن يحبب إليه الموت فنبأ يوشع بن نون فكان موسى يغدو ويروح إليه ويقول له يانبى الله ماأحدث الله إليك فيقول له يوشع يانبى الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شىء مما أحدث الله إليك حتى كنت أنت تبتدئ به وتذكره لى ولا يذكر له شيئا فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أرسل ملك الموت إلى موسى فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت فرد الله إليه عينه وقال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ماغطت يده من شعرة سنة قال أى رب ثم مه قال ثم الموت قال فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر قال رسول الله ﷺ فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» وفى رواية لمسلم «قال جاء ملك الموت إلى موسى فقال أجب ربك قال فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها» ثم ذكر معنى ماتقدم قال الشيخ محيى الدين النووى قال المازرى وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوره قالوا كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت. وأجاب عنه العلماء بأجوبة أحدها أنه لا يمتنع أن يكون الله قد أذن لموسى فى هذه اللطمة ويكون ذلك امتحانا للملطوم والله تعالى يفعل فى خلقه مايشاء ويمتحنهم بما أراد. الثانى(٣) أن موسى لم يعلم أنه ملك من عند الله وظن أنه رجل قصده يريد نفسه فدافعه عنها فأدت المدافعة إلى فقء عينه لأنه قصدها بالفقء وتؤيده رواية صكه وهذا جواب الإمام أبى بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين واختاره المازرى والقاضى عياض قالوا وليس فى الحديث تصريح بأنه قصد فقء عينه. فان قيل فقد اعترف موسى حين جاء ثانيا بأنه ملك الموت. فالجواب أنه أتاه فى المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم

(٣) قوله والثانى الخ هذا هو الجواب الثالث فى شرح النووى على مسلم ونص الجواب الثانى فيه والثانى أن هذا على المجاز والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه بالحجة ويقال فقأ فلان عين فلان إذا غلبه بالحجة ويقال عورت الشىء إذا أدخلت فيه نقصا قال وفى هذا ضعف لقوله صلى الله عليه وسلم «فرد الله عينه» فان قيل أراد رد حجته كان بعيدا والثالث الخ اه.

له بخلاف المرة الأولى وأما سؤال موسى الإدناء من الأرض المقدسة فلشرفها وفضلها وفضل من بها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم وفيه دليل على استحباب الدفن فى المواضع الفاضلة والمواطن المباركة والقرب من مدافن الصالحين قال بعض العلماء وإنما سأل موسى الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لأنه خاف أن يكون قبره مشهورا عندهم فيفتتن به الناس والله أعلم.

قال وهب بن منبه خرج موسى لبعض حاجته فمر برهط من الملائكة وهم يحفرون قبرا لم ير شيئا أحسن منه ولا مثل مافيه من الخضرة والنضرة والبهجة فقال لهم ياملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد كريم على ربه فقال إن هذا العبد من الله بمنزلة ما رأيت كاليوم قط فقالت الملائكة ياصفى الله تحب أن يكون لك قال وددت قالوا فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك فنزل واضطجع وتوجه إلى ربه عز وجل ثم تنفس أسهل تنفس فقبض الله روحه ثم سوت الملائكة عليه التراب، وقيل إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه وكان عمر موسى عليه السلام مائة سنة وعشرين سنة فلما مات موسى عليه السلام انقضت الأربعون سنة وبعث الله يوشع إلى بنى إسرائيل فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبارين فصدقوه وتابعوه فتوجه ببنى إسرائيل إلى أريحاء وهى مدينة الجبارين ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر فلما كان فى السابع نفخوا فى القرون وضجوا فى الشعب ضجة واحدة فسقط سور المدينة فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم فكانت العصابة من بنى إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل من الجبابرة يضربونها حتى يقطعونها وكان القتال والفتح يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت فقال اللهم اردد على الشمس وقال للشمس إنك فى طاعة الله وأنا فى طاعة الله وسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقف حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فرد الله عليه الشمس وزيد فى النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت كلها لبنى إسرائيل وفرق عماله نواحيها وجميع الغنائم فجاءت النار لتأكلها فلم تطعمها فقال إن فيكم غاولا فليبايعنى من كل قبيلة رجل ففعلوا فلصقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فجاءوا برأس ثور من ذهب مكلل بالياقوت والجوهر قد غله رجل منهم فجعله فى القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان. وفى الحديث الصحيح مايدل على صحة هذا وهو ماروى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه لايتبعنى رجل مالك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولم يبن بها ولا أحد بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها ولا رجل اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليه فجمع الغنائم فجاءت يعنى النار لتأكلها فلم تطعمها فقال إن فيكم غاولا فليبايعنى من كل قبيلة رجل فلزقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعها فجاءت النار فأكلتها» زاد فى رواية «فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا» أخرجه البخارى ومسلم. شرح غريب هذا الحديث. قوله لايتبعنى رجل ملك بضع امرأة، البضع بضم الباء كناية عن فرج المرأة ولم يبن بها أى لم يدخل عليها، والخلفات النوق الحوامل قوله

فلا تأس على القوم الفاسقين) أى لاتحزن على مثل هؤلاء القوم فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ وهم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يسيرون كل يوم جادين فاذا أمسوا كانوا فى الموضع الذى ارتحلوا عنه وقيل إن موسى وهارون عليهما السلام لم يكونا فيهم والأصح أنهما كانا فيهم ولم يكن لهما عقوبة إنما كانت العقوبة لأولئك القوم ومات فى التيه كل من دخلها ممن جاوز عشرين سنة غير يوشع وكالب ولم يدخل أريحاء أحد ممن قالوا إنا لن ندخلها أبدا ، فلما هلكوا وانقضت الأربعون سنة ونشأت النواشىء من ذراريهم ساروا إلى حرب الجبارين واختلفوا فيمن تولى تلك الحرب وعلى يدى من كان الفتح فقال قوم إنما فتح موسى أريحاء وكان يوشع على مقدمته فسار موسى عليه السلام إليهم ممن بقى من بنى إسرائيل فدخلها يوشع فقاتل الجبابرة ثم دخلها موسى عليه السلام فأقام (٣٦) فيها ماشاء الله تعالى ثم قبضه الله تعالى إليه ولا يعلم قبره أحد وهذا أصح الأقاويل لاتفاق العلماء أن عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام وقال الآخرون إنما قاتل الجبارين يوشع ولم يسر إليهم إلا بعد موت موسى عليه السلام وقالوا مات موسى وهارون جميعا فى التيه .

(فصل : فى ذكر وفاة هارون)

قال السدى أوحى الله عز وجل إلى موسى إنى متوفى هارون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون عليهما السلام نحو ذلك الجبل فاذا هما بشجرة لم ير مثلها وإذا ببيت مبنى وفيه سرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه فقال ياموسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير قال فنم عليه فقال إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب على قال له موسى لاترهب إنى أكفيك أمر رب هذا البيت فنم قال ياموسى نم أنت معى فان جاء رب البيت غضب على وعليك جميعا فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد مسه قال ياموسى خدعتنى فلما قبض رفع البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل وليس معه هارون قالوا إن موسى قتل هارون وحسده لحب بنى إسرائيل له فقال موسى عليه السلام ويحكم كان أخى فكيف أقتله فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى ونزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه ، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال صعد موسى وهارون عليهما السلام الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلته فآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على

للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا قال الشيخ محيي الدين قال القاضى عياض : اختلف الناس فى حبس الشمس المذكور هنا فقيل ردت إلى ورائها وقيل وقفت ولم ترد وقيل بطء حركتها وكل ذلك من معجزات النبوة قال ويقال إن الذى حبست عليه الشمس يوشع ابن نون قال القاضى. وقد روى أن نبينا محمدا ﷺ حبست له الشمس مرتين إحداهما يوم الخندق حين شغلوا عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فردها الله عليه حتى صلى العصر ذكر ذلك الطحاوى وقال رواته ثقات والثانية صبيحة ليلة الإسراء حين انتظر العير لما أخبر بوصولها مع شروق الشمس ذكره يونس بن بكير فى زياداته عن سيرة بن إسحاق. وقال وهب ثم مات يوشع بن نون ودفن فى جبل أفرائيم وكان عمره مائة سنة وستا وعشرين سنة وكان تدبيره أمر بنى إسرائيل بعد موسى سبعا وعشرين سنة وقيل إن الذى فتح أريحاء هو موسى عليه السلام وكان يوشع بن نون على مقدمته فسار إليهم بمن بقى من بنى إسرائيل فدخلها يوشع وقاتل الجبابرة ثم دخلها موسى وأقام بها ماشاء الله تعالى ثم قبضه الله إليه ولا يعلم أحد قبره وهذا أصح الأقاويل لاتفاق العلماء أن موسى عليه السلام هو الذى قتل عوج بن عنق وهذا القول هو اختيار الطبرى ونقل عن السدى قال غضب موسى على قومه فدعا عليهم فقال رب إنى لاأملك إلا نفسى وأخى الآية فقال الله عز وجل فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلما ضرب عليهم التيه ندم موسى وأتاه قومه الذين كانوا يطيعونه فقالوا له ماصنعت بنا يا موسى فمكثوا فى التيه فلما خرجوا منه رفع المن والسلوى والبقول والتقى موسى وعوج فنزا موسى فى السماء عشر أذرع وكانت عصاه عشرة أذرع وكان طوله عشرة فأصاب كعب عوج فقتله قال الطبرى ولو كان قتل موسى إياه قبل مصيره فى التيه لم يجزع بنو إسرائيل لأنه كان من أعظم الجبارين وروى عن نون قال كان سرير عوج ثمانمائة ذراع وقال وإن أهل العلم بأخبار الأولين مجمعون على أن بلعم بن باعوراء كان ممن أعان الجبارين بالدعاء على موسى لأنه كان يعلم الاسم الأعظم فدعا عليه وسترد قصته فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقوله تعالى (فلا تأس على القوم الفاسقين) يعنى لاتحزن عليهم لأنهم أهل مخالفة وخروج عن الطاعة

بنى إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه قد مات فبرأه الله تعالى مما قالوا ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه فلم يطلع على موضع قبره أحد إلا الرخم فجعله الله أصم وأبكم وقال عمرو بن ميمون مات هارون قبل موت موسى عليه السلام فى التيه وكانا قد خرجا إلى بعض الكهوف فمات هارون ودفنه موسى وانصرف إلى بنى إسرائيل فقالوا قتلته لحبنا إياه وكان محببا فى بنى إسرائيل فتضرع موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره فانى باعثه فانطلق بهم إلى قبره فناداه هارون فخرج من قبره ينفض رأسه فقال أنا قتلتك قال لا ولكنى مت قال فعد إلى مضجعك وانصرفوا. وأما وفاة موسى عليه السلام قال ابن إسحاق كان موسى عليه الصلاة والسلام قد كره الموت وأعظمه فأراد الله أن يحبب إليه الموت فنبأ يوشع بن نون فكان يغدو ويروح عليه قال فيقول له موسى عليه السلام يا نبى الله ما أحدث الله إليك فيقول له يوشع يانبى الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة ؟ فهل كنت أسألك عن شىء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذى تبتدئ به وتذكره ولا يذكر له شيئا فلما رأى ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت. أخبرنا أبو على حسان بن سعيد المنيعى أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه قال أخبرنا أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران فقال له أجب ربك قال فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها قال فرجع ملك الموت إلى الله تعالى فقال إنك أرسلتنى إلى عبد لك لا يريد الموت وقد فقأ عينى قال فرد الله إليه عينه وقال ارجع إلى عبدى فقل له الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعرة فانك تعيش بها سنة قال ثم مه قال ثم تموت قال فالآن من قريب رب أدننى من الأرض المقدسة رمية بحجر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لو أنى عنده لأريتكم قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر» وقال وهب خرج موسى لبعض حاجته فمر برهط من الملائكة يحفرون قبرا لم ير شيئا قط أحسن منه ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة فقال لهم يا ملائكة الله لم تحفرون هذا القبر قالوا لعبد كريم على ربه فقال إن هذا العبد لمن الله له بمنزلة ما رأيت كاليوم مضجعا فقالت الملائكة يا صفى الله تحب أن يكون لك قال وددت قالوا فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك قال فاضطجع فيه وتوجه إلى ربه ثم تنفس أسهل تنفس فقبض الله تبارك وتعالى روحه ثم سوت عليه الملائكة وقيل إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة فلما مات موسى عليه السلام وانقضت الأربعون سنة بعث الله يوشع نبيا فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبابرة فصدقوه وتابعوه فتوجه ببنى إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر فلما كان السابع نفخوا فى القرون وضج الشعب ضجة واحدة فسقط سور المدينة ودخلوا فقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم وكانت العصابة من بنى إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها حتى يقطعوها فكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم بقية ، وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت فقال اللهم اردد الشمس على وقال للشمس إنك فى طاعة الله سبحانه وتعالى وأنا فى طاعته فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله تعالى قبل دخول السبت فردت عليه الشمس وزيدت فى النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت الشام كلها لبنى إسرائيل وفرق عماله فى نواحيها وجمع الغنائم فلم تنزل النار فأوحى الله إلى يوشع إن فيها غلولا فمرهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال هلم ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل باليواقيت والجواهر كان قد غله فجعله فى القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان ثم مات يوشع ودفن فى جبل إفرائيم وكان عمره مائة وستا وعشرين سنة وتدبيره أمر بنى إسرائيل من بعد موسى عليه السلام سبعا وعشرين سنة. قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق)

الطاعة وقيل لما ندم موسى على ما دعاه على قومه أوحى الله إليه فلا تأس على القوم الفاسقين قال الزجاج وجائز أن يكون خطابا لمحمد صلى الله عليه وسلم أى لا تحزن يا محمد على قوم لم يزل شأنهم المعاصى ومخالفة الرسل . قوله عز وجل (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) يعنى اذكر لقومك وأخبرهم خبر ابنى آدم وهما هابيل وقابيل فى قول جمهور المفسرين ونقل عن الحسن والضحاك أن ابنى آدم اللذين قربا القربان ما كانا ابنى آدم لصلبه وإنما كانا رجلين من بنى إسرائيل ويدل عليه قوله تعالى فى آخر القصة «من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس» الآية والصحيح ما ذهب إليه جمهور المفسرين لأن الله تعالى قال

وهما هابيل وقابيل ويقال له قابين (إذ قربا قربانا) وكان سبب قربانهما على ماذكره أهل العلم أن حواء كانت تلد لآدم عليه السلام فى كل بطن غلاما وجارية وكان جميع ماولدته أربعين ولدا فى عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبدالمغيث وتوأمته أمة المغيث ثم بارك الله عز وجل فى نسل آدم عليه السلام قال ابن عباس لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا. واختلفوا فى مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم غشى آدم وحواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته إقليما فى بطن واحد ثم هابيل وتوأمته لبودا فى بطن وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت فيها بقابيل وتوأمته إقليما فلم تجد عليهما وحما ولا وصبا ولا طلقا حتى ولدتهما ولم تر معهما دما فلما هبط إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته وجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم وكان آدم إذا شب أولاده يزوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى، فكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء إلا توأمته التى ولدت معه لأنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم فلما ولد قابيل وتوأمته إقليما ثم هابيل وتوأمته لبودا وكان بينهما سنتان فى قول الكلبى وأدركوا أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن ينكح قابيل لبودا أخت هابيل وينكح هابيل إقليما أخت قابيل وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل فذكر ذلك آدم لولده فرضى هابيل وسخط قابيل وقال هى أختى أنا أحق بها ونحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض فقال له أبوه إنها لاتحل لك فأبى أن يقبل ذلك وقال إن الله لم يأمره بهذا وإنما هو من رأيه فقال لهما آدم عليه السلام فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نار من السماء بيضاء فأكلتها وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلته الطير والسباع فخرجا ليقربا قربانا وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام من أردأ زرعه وأضمر فى نفسه ماأبالى يقبل منى أم لا لايتزوج أختى أبدا

فى آخر الآية «فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض» لأن القاتل جهل مايصنع بالمقتول حتى تعلم من فعل الغراب بالحق أى أخبرهم خبرا ملتبسا بالحق والصدق لأنه من عند الله وموافقا لما فى الكتب المتقدمة وهم يعلمون صحته ومقصود هذا الخبر هو تقبيح الحسد لأن المشركين وأهل الكتاب كانوا يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذ قربا قربانا) القربان اسم لما يتقرب به إلى الله عز وجل من صدقة أو ذبيحة أو غير ذلك مما يتقرب به.

(ذكر قصة القربان وسببه وقتل قابيل هابيل)

ذكر أهل العلم بالأخبار والسير أن حواء كانت تلد لآدم فى كل بطن غلاما وجارية فكان جميع ماولدته أربعين ولدا فى عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبدالمغيث وتوأمته أم المغيث ثم بارك الله فى نسل آدم قال ابن عباس لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا واختلفوا فى مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم غشى آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته إقليما فى بطن ثم هابيل وتوأمته لبودا فى بطن. وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت بقابيل وأخته فلم تجد عليهما وحما ولا صبا ولا طلقا ولم تر دما وقت الولادة فلما هبط إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم وكان إذا كبر أولاده زوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى وكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء غير توأمته التى ولدت معه لأنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم فكبر قابيل وأخوه هابيل وكان بينهما سنتان فلما بلغوا أمر الله آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل ويزوج هابيل إقليما وكانت إقليما أحسن من لبودا فذكر آدم ذلك لهما فرضى هابيل وسخط قابيل وقال هى أختى وأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض فقال أبوه آدم إنها لاتحل لك فأبى أن يقبل ذلك وقال إن الله لم يأمرك بهذا وإنما هو من رأيك فقال لهما آدم قربا لله قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها وإن لم تكن مقبولة لم تنزل النار بل تأكلها الطير والسباع فخرجا من عند آدم ليقربا القربان وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام ردىء وأضمر فى نفسه لاأبالى أيتقبل منى أم لا لايتزوج أختى أحد غيرى وكان هابيل صاحب غنم فعدل إلى أحسن كبش فى غنمه فقربه وأضمر فى نفسه رضا الله فوضعا قربانهما على جبل ثم دعا آدم فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان

وكان هابيل صاحب غنم فعمد إلى أحسن كبش فى غنمه فقرب به وأضمر فى نفسه رضا الله عز وجل فوضعا قربانهما على الجبل ثم دعا آدم عليه السلام فنزلت نار من السماء وأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل فذلك قوله عز وجل (فتقبل من أحدهما) يعنى هابيل (ولم يتقبل من الآخر) يعنى قابيل فنزلوا عن الجبل وقد غضب قابيل لرد قربانه وكان يضمر الحسد فى نفسه إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت فلما غاب آدم أتى قابيل هابيل (٣٩) وهو فى غنمه (قال لأقتلنك)

قال ولم قال لأن الله تعالى قبل قربانك ورد قربانى وتنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس أنك خير منى ويفتخر ولدك على ولدى (قال) هابيل وما ذنبى (إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت) أى مددت (إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) قال عبد الله بن عمر وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده وهذا فى الشرع جائز لمن أريد قتله أن ينقاد ويستسلم طلبا للأجر كما فعل عثمان رضى الله عنه قال مجاهد كتب الله عليهم فى ذلك الوقت إذا أراد رجل قتل رجل أن يمتنع ويصبر (إنى أريد أن تبوء) ترجع وقيل تحتمل (بإثمى وإثمك) أى بإثم قتلى إلى إثمك أى إثم معاصيك التى عملت من قبل هذا قول أكثر المفسرين وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال معناه إنى أريد أن يكون عليك خطيئتى التى عملتها أنا إذا قتلتنى وإثمك فتبوء بخطيئتى ودمى جميعا ، وقيل معناه أن ترجع بإثم قتلى وإثم معصيتك التى لم يتقبل لأجلها قربانك أو إثم حسدك. فان قيل كيف قال إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك وإرادة القتل والمعصية لا تجوز قيل ذلك ليس بحقيقة إرادة ولكنه لما علم أنه يقتله لا محالة وطن نفسه على الاستسلام طلبا للثواب فكأنه صار مريدا لقتله مجازا وإن لم يكن مريدا حقيقة وقيل معناه إنى أريد أن تبوء بعقاب قتلى فيكون إرادة صحيحة لأنها موافقة لحكم الله عز وجل فلا يكون هذا إرادة

قابيل فذلك قوله تعالى (فتقبل من أحدهما) يعنى هابيل (ولم يتقبل من الآخر) يعنى قابيل فغضب قابيل إذ لم يتقبل قربانه فأضمر لأخيه الحسد إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت وغاب عنهم فأتى قابيل هابيل وهو فى غنمه (قال لأقتلنك قال) قال هابيل ولم تقتلنى ؟ قال قابيل لأن الله تقبل قربانك ورد قربانى وتريد أن تنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس بأنك خير منى ويفخر ولدك على ولدى فقال هابيل وما ذنبى (إنما يتقبل الله من المتقين) يعنى أن حصول التقوى شرط فى قبول الأعمال فلذلك كان أحد القربانين مقبولا دون الآخر ولأن التقوى من أعمال القلوب وكان قد أضمر فى قلبه الحسد لأخيه على تقبل قربانه وتوعده بالقتل فقال له إنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى وإنما يتقبل الله من المتقين فأجابه بجواب مختصر وقيل يحتمل أن يكون خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى بين للنبى صلى الله عليه وسلم أنه إنما لم يتقبل قربانه لأنه لم يكن متقيا وإنما يتقبل الله من المتقين ثم قال تعالى إخبارا عن هابيل (لئن بسطت إلى يدك) يعنى لئن مددت إلى يدك (لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك) يعنى ما أنا بمنتصر لنفسى بل أستسلم لأمر الله وقيل معناه ما كنت بمبتدئك بالقتل وذلك أن الله كان قد حرم عليهم قتل نفس بغير نفس ظلما وقال مجاهد كان قد كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلا تركه ولا يمتنع منه وقيل إن المقتول كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكنه تحرج عن قتل أخيه فاستسلم له خوفا من الله فذلك قوله (إنى أخاف الله رب العالمين) والمعنى إنى أخاف الله فى بسط يدى إليك إن أبسطها لقتلك أن يعاقبنى على ذلك.

قوله عز وجل إخبارا عن هابيل (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) يعنى ترجع بإثم قتلى إلى إثم معاصيك التى عملتها من قبل . فان قلت كيف قال هابيل إنى أريد وإرادة القتل والمعصية من الغير لا تجوز . قلت أجاب ابن الأنبارى عن هذا بأن قال إن قابيل لما قال لأخيه هابيل لأقتلنك وعظه هابيل وذكره الله واستعطفه وقال لئن بسطت إلي يدك الآية فلم يرجع فلما رآه هابيل قد صمم على القتل وأخذ له الحجارة ليرميه بها قال له هابيل عند ذلك إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك أى إذا قتلتنى ولم يندفع قتلك إياى إلا بقتلى إياك فحينئذ يلزمك إثم قتلى إذا قتلتنى فكان هذا عدلا من هابيل وإليه أشار الزجاج فقال معناه إن قتلتنى فما أنا مريد ذلك فهذه الإرادة منه بشرط أن يكون قاتلا له والإنسان إذا تمنى أن يكون إثم دمه على قاتله لم يلم على ذلك وعلى هذا التأويل قال بعضهم معناه إنى أريد أن تبوء بعقاب إثمى وإثمك فحذف المضاف وما باء بإثم باء بعقاب ذلك الإثم ذكره الواحدى وقال الزمخشرى ليس ذلك بحقيقة الإرادة لكنه لما علم أنه يقتله لا محالة ووطن نفسه على الاستسلام للقتل طلبا للثواب فكأنه صار مريدا لقتله

للقتل بل لموجب القتل من الإثم والعقاب (فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) قوله عز وجل (فطوعت له نفسه) أى طاوعته وشايعته وعاونته (قتل أخيه) فى قتل أخيه وقال مجاهد فشجعته وقال قتادة فزينت له نفسه وقال يمان سهلت له ذلك أى جعلته سهلا تقديره صورت له نفسه أن قتل أخيه طوع له أى سهل عليه فقتله فلما قصد قابيل قتله لم يدر كيف يقتله قال ابن جريج فتمثل له إبليس (٤٠) وأخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم شدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر إليه فعلمه القتل فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين قيل قتل وهو مستسلم وقيل اغتاله وهو فى النوم فشدخ رأسه فقتله وذلك قوله تعالى (فقتله فأصبح من الخاسرين) وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة. واختلفوا فى موضع قتله قال ابن عباس رضى الله عنهما على جبل ثور وقيل عند عقبة حراء فلما قتله تركه بالعراء ولم يدر مايصنع به لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بنى آدم وقصدته السباع فحمله فى جراب على ظهره أربعين يوما وقال ابن عباس سنة حتى أروح وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له ثم ألقاه فى الحفرة وواراه وقابيل ينظر إليه فذلك قوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه) فلما رأى قابيل أنه ذلك (قال ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) أى جيفته وقيل عورته لأنه قد سلب ثيابه (فأصبح من النادمين) على حمله على عاتقه لاعلى قتله وقيل على فراق أخيه وقيل ندم لقلة النفع بقتله فإنه أسخط والديه وما انتفع بقتله شيئا ولم يكن ندمه على القتل وركوب الذنب قال المطلب بن عبد الله بن حطب لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما يشرب الماء فناداه آدم أين أخوك هابيل قال ماأدرى ما كنت عليه رقيبا فقال

مجازا وإن لم يكن مريدا حقيقة (فتكون من أصحاب النار) يعنى الملازمين لها (وذلك جزاء الظالمين) يعنى جهنم جزاء من قتل أخاه ظلما . قوله تعالى (فطوعت له نفسه قتل أخيه) يعنى زينت له وسهلت عليه القتل وذلك أن الإنسان إذا تصور أن قتل النفس من أكبر الكبائر صار ذلك صارفا له عن القتل فلا يقدم عليه فاذا سهلت عليه نفسه هذا الفعل فعله بغير كلفة فهذا هو المراد من قوله تعالى «فطوعت له نفسه قتل أخيه» (فقتله) قال ابن جريج لما قصد قابيل قتل هابيل لم يدر كيف يقتله فتمثل له إبليس وقد أخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم رضخه بحجر آخر وقابيل ينظر فعلمه القتل فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر وقيل بل اغتاله وهو نائم فقتله. واختلف فى موضع قتله فقال ابن عباس على جبل ثور وقيل على عقبة حراء وقيل بالبصرة عند مسجدها الأعظم وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة . وقوله تعالى (فأصبح من الخاسرين) قال ابن عباس خسر دنياه وآخرته أما دنياه فاسخاط والديه وبقى بلا أخ وأما آخرته فأسخط ربه وصار إلى النار (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» . قوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه) قال أصحاب الأخبار لما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء ولم يدر مايصنع به لأنه أول ميت من بنى آدم على وجه الأرض فقصدته السباع لتأكله فحمله قابيل على ظهره فى جراب أربعين يوما وقال ابن عباس سنة حتى أروح وأنتن فأراد الله أن يرى قابيل سنته فى موتى بنى آدم فى الدفن فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه حفرة ثم ألقاه فيها وواراه بالتراب وقابيل ينظر فذلك قوله تعالى فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض يعنى يحفرها وينثر ترابها ليريه كيف يوارى سوأة أخيه يعنى ليرى الله أو يرى الغراب قابيل كيف يوارى ويستر جيفة أخيه فلما رأى ذلك قابيل من فعل الغراب (قال ياويلتا) أى لزمه الويل وحضره وهى كلمة تحسر وتلهف وتستعمل عند وقوع الداهية العظيمة وذلك أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول فلما علم ذلك من فعل الغراب علم أن الغراب أكثر علما منه وعلم أنه إنما ندم على قتل أخيه بسبب جهله وعدم معرفته فعند ذلك تلهف وتحسر على مافعله فقال ياويلتا وفيه اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) يعنى مثل هذا الغراب الذى وارى الغراب الآخر (فأوارى سوأة أخي) يعنى فأستر جيفته وعورته عن الأعين (فأصبح من النادمين) يعنى على حمله على ظهره مدة سنة لاعلى قتله وقيل إنه ندم على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله وسخط عليه أبواه وإخوته فندم لأجل ذلك لا لأجل

آدم إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك؟ قال فأين دمه إن كنت قتلته: فحرم الله عز وجل على الأرض يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا وقال مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما لما قتل قابيل هابيل وآدم عليه السلام بمكة اشتاك الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه وأمر الماء واغبرت الأرض فقال آدم عليه السلام قد حدث فى الأرض حدث فأتى الهند فاذا قابيل قد قتل هابيل فأنشأ يقول وهو أول من قال الشعر :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون ... (٤١) ... وقل بشاشة الوجه المليح

وروى عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال من قال إن آدم عليه السلام قال شعرا فقد كذب على الله ورسوله فان محمدا صلى الله عليه وسلم والأنبياء كلهم عليهم السلام فى النهي عن الشعر سواء ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سريانى فلما قال آدم مرثيته قال لشيث يابنى إنك وصيى احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرق الناس عليه فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول من خط بالعربية وكان يقول الشعر فنظر فى المرثية فرد المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعرا وزاد فيه أبيات منها:

ومالى لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة على غما ... فهل أنا من حياتى مستريح

فلما مضى من عمر آدم عليه السلام مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمس سنين ولدت له حواء شيثا، واسمه هبة الله يعنى أنه خلف من هابيل علمه الله تعالى ساعات الليل والنهار وعلمه عبادة الخلق فى كل ساعة منها وأنزل عليه خمسين صحيفة فصار وصى آدم وولى عهده . وأما قابيل فقيل له إذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لاتأمن من تراه فأخذ بيد أخته

أنه جنى جناية واقترف ذنبا عظيما بقتله فلم يكن ندمه ندم توبة وخوف وإشفاق من فعله فلأجل ذلك لم ينفعه الندم، قال المطلب بن عبدالله بن حطب لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بمن عليها سبعة أيام وشربت دم المقتول كما تشرب الماء فناداه تعالى أين أخوك هابيل؟ فقال ماأدرى ما كنت عليه رقيبا: فقال الله تعالى إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك؟ قال فأين دمه إن كنت قتلته! فحرم الله على الأرض يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا ويروى عن ابن عباس قال لما قتل قابيل هابيل كان آدم بمكة فاشتاك الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه واغبرت الأرض فقال آدم قد حدث فى الأرض حدث فأتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل وقيل لما رجع آدم سأل قابيل عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا فقال بل قتلته ولذلك اسود جلدك وقيل إن آدم مكث بعد قتل هابيل مائة سنة لايضحك وأنه رثاه بشعر فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه المليح

ويروى عن ابن عباس أنه قال من قال إن آدم قال شعرا فقد كذب وأن محمدا صلى الله عليه وسلم والأنبياء كلهم فى النهى سواء. ولكن لما قتل هابيل رثاه آدم وهو سريانى فلما قال آدم مرثيته قال لشيث يابنى أنت وصيي احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرثى الناس عليه فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول من خط العربية وكان يقول الشعر فنظر فى المرثية فرد المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعرا وزاد فيه أبياتا منها :

ومالى لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة على غما ... فهل أنا من حياتى مستريح

قال الزمخشرى ويروى أنه رثاه بشعر وهو كذب بحت وما الشعر إلا منحول ملحون وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر قال الإمام فخر الدين الرازى ولقد صدق صاحب الكشاف فيما قال فان ذلك الشعر فى غاية الركاكة لايليق إلا بالحمقى من المعلمين فكيف ينسب إلى من جعل الله علمه حجة على الملائكة؟ قال أصحاب الأخبار فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ولدت له حواء شيثا وتفسيره هبة الله يعنى أنه خلف من هابيل وعلمه الله تعالى ساعات الليل والنهار وعلمه عبادة الخلق

إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس فقال له إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبد النار فانصب أيضا أنت نارا تكون لك ولعقبك (٤٢) فبنى بيتا للنار فهو أول من عبد النار وكان لايمر به أحد من ولده إلا رماه فأقبل ابن له أعمى ومعه ابن له فقال للأعمى ابنه هذا أبوك قابيل فرمى الأعمى أباه فقتله فقال ابن الأعمى قتلت أباك فرفع يده ولطم ابنه فمات فقال الأعمى ويل لى قتلت أبى برميتى وقتلت إبنى بلطمتى وقال مجاهد فعلقت إحدى رجلى قابيل إلى فخذها وساقها وعلقت منها فهو معلق إلى يوم القيامة ووجهه إلى الشمس مادارت عليه فى الصيف حظيرة من نار وفى الشتاء حظيرة من ثلج قال واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان أيام نوح عليه السلام وبقى نسل شيث أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا عمر ابن حفص بن غياث ثنا أبى ثنا الأعمش ،حدثنى عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لاتقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل قوله عز وجل (من أجل ذلك) قرأ أبو جعفر من أجل ذلك بكسر النون موصولا وقراءة العامة بجزم النون وفتح الهمزة مقطوعا أى من جراء ذلك القاتل وجنايته يقال أجل يأجل أجلا إذا جنى مثل أخذ يأخذ أخذا (كتبنا على بنى إسرائيل ولما

فى كل ساعة وأنزل عليه خمسين صحيفة وصار وصى آدم وولى عهده وأما قابيل فقيل له اذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لاتأمن من تراه فأخذ بيد أخته إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس وقال له إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها فانصب أنت نارا تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من عبد النار وكان قابيل لايمر به أحد إلا رماه بالحجارة فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابنه فقال ابن الأعمى لأبيه هذا أبوك قابيل فرماه بحجارة فقتله فقال ابن الأعمى لأبيه قتلت أباك قابيل فرفع الأعمى يده ولطم ابنه فمات فقال الأعمى ويل لى قتلت أبى برميتى وقتلت ابنى بلطمتى فلما مات قابيل علقت إحدى رجليه بفخذه وعلق بها فهو معلق بها إلى يوم القيامة ووجهه إلى الشمس حيث دارت وعليه حظيرة من نار فى الصيف وحظيرة من ثلج فى الشتاء فهو يعذب بذلك إلى يوم القيامة قالوا واتخذ أولاد قابيل آلات للهو من الطبول والزمور والعيدان والطنابير وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والفواحش حتى أغرقهم الله تعالى جميعا بالطوفان فى زمن نوح عليه السلام فلم يبق من ذرية قابيل أحد وأبقى الله ذرية شيث ونسله إلى يوم القيامة . قوله تعالى (من أجل ذلك) يعنى بسبب ذلك القتل الذى حصل وقيل الأجل فى اللغة الجناية يقال أجل عليهم شرا أى جنى عليهم شرا (كتبنا) أى فرضنا وأوجبنا (على بنى إسرائيل). فان قلت من أجل ذلك معناه من أجل مامر من قصة قابيل وهابيل كتبنا على بنى إسرائيل وهذا مشكل لأنه لامناسبة بين واقعة قابيل وهابيل وبين وجوب القصاص على بنى إسرائيل. قلت قال بعضهم هو من تمام الكلام الذى قبله والمعنى فأصبح من النادمين من أجل ذلك أى من أجل أنه قتل هابيل ولم يواره ويروى عن نافع أنه كان يقف على قوله من أجل ذلك ويجعله تمام الكلام الأول فعلى هذا يزول الإشكال لكن جمهور المفسرين وأصحاب المعانى على أن قوله من أجل ذلك ابتداء كلام وليس يوقف عليه . فعلى هذا قال بعضهم إن قوله من أجل ذلك ليس هو إشارة إلى قصة قابيل وهابيل، بل هو إشارة إلى مامر ماذكره فى هذه القصة من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب هذا القتل الحرام منها قوله «فأصبح من الخاسرين» وفيه إشارة إلى أنه حصلت له خسارة فى الدين والدنيا والآخرة. ومنها قوله «فأصبح من النادمين» وفيه إشارة إلى أنه حظر فى أنواع الندم والحسرة والحزن مع أنه لادافع لذلك البتة فقوله من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أى من أجل ذلك الذى ذكرنا فى أثناء القصة من أنواع المفاسد المتولدة من القتل العمد المحرم شرعنا القصاص على القاتل . فان قلت فعلى هذا تكون شريعة القصاص حكما ثابتا فى جميع الأمم، فما الفائدة بتخصيصه ببنى إسرائيل . قلت إن وجوب القصاص وإن كان عاما فى جميع الأديان والملل إلا أن التشديد المذكور هاهنا فى حق بنى إسرائيل غير ثابت فى جميع الأديان والملل لأنه تعالى حكم فى هذه الآية بأن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا ولا يشك أن المقصود منه المبالغة فى عقاب قاتل النفس عدوانا وأن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على قساوة قلوبهم وبعدهم عن الله عز وجل

انه من قتل نفسا بغير نفس) قتلها فيقاد منه (أو فساد فى الأرض) يريد بغير نفس وبغير فساد فى الأرض من كفر أو زنا
أو قطع طريق أو نحو ذلك (فكأنما قتل الناس جميعا) اختلفوا فى تأويلها . (٤٣) قال ابن عباس رضى الله
عنهما فى رواية عكرمة من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ومن شد عضد نبى أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعا قال مجاهد من قتل نفسا محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلى لو قتل الناس جميعا ومن أحياها من سلم من قتلها فقد سلم من قتل الناس جميعا قال قتادة أعظم الله أجرها وعظم وزرها معناه من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما قتل الناس جميعا فى الإثم لأنهم لايسلمون منه (ومن أحياها) وتورع عن قتلها (فكأنما أحيا الناس جميعا) فى الثواب لسلامتهم منه قال الحسن فكأنما قتل الناس جميعا يعنى أنه يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذى يجب عليه لو قتل الناس جميعا ومن أحياها أى عفا عمن وجب عليه القصاص له فلم يقتله فكأنما أحيا الناس جميعا قال سليمان بن على قلت للحسن يا أبا
سعيد أهى لنا كما كانت لبنى إسرائيل قال أى والذى لا إله غيره ما كانت دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا ؟ (ولقد
جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله

ولما كان الغرض من ذكر هذه القصة تسلية النبى صلى الله عليه وسلم على ما أقدم عليه اليهود بالفتك بالنبى صلى الله عليه وسلم وبأصحابه فتخصيص بنى إسرائيل فى هذه القصة بهذه المبالغة مناسب للكلام وتوكيد للمقصود والله أعلم بمراده . قوله عز وجل (أنه من قتل نفسا) يعنى من قتل نفسا ظلما (بغير نفس) يعنى بغير قتل نفس لا على وجه الاقتصاص فيقاد من قاتل النفس على وجه العدوان المحرم (أو فساد فى الأرض) هو عطف على بغير نفس يعنى وبغير فساد فى الأرض فيستحق به القتل لأن القتل على أسباب كثيرة منها القصاص وهو المراد من قوله قتل نفسا بغير نفس ومنها الشرك والكفر بعد الإيمان ومنها قطع الطريق ونحو ذلك وهو المراد من قوله أو فساد فى الأرض (فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) قال مجاهد من قتل نفسا محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلاها بقتل الناس جميعا ومن سلم من قتلها فكأنما سلم من قتل الناس جميعا وقال ابن عباس من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ومن شد عضد نبى أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعا وقيل معناه أن من قتل نفسا محرمة يجب عليه من القصاص مثل الذى يجب عليه لو قتل الناس جميعا ومن أحياها يعنى من غرق أو حرق أو وقوع فى هلكة فكأنما أحيا الناس جميعا يعنى أن له من الثواب مثل ثواب من أحيا الناس جميعا وقيل معناه من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما استحل قتل الناس جميعا لأنهم لا يسلمون منه ومن تورع عن قتل مسلم فكأنما تورع عن قتل جميع الناس فقد سلموا منه قال أهل المعانى قوله ومن أحياها على المجاز لأن المحيى هو الله تعالى فى الحقيقة فيكون المعنى ومن نجاها من الهلاك فكأنما نجى جميع الناس منه سئل الحسن عن هذه الآية أهى لنا كما كانت لبنى إسرائيل فقال أى والذى لا إله غيره ما كانت دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا . وقوله تعالى (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) يعنى ولقد جاءت بنى إسرائيل رسلنا ببيان الأحكام والشرائع والدلالات الواضحات (ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك) يعنى بعد مجيء الرسل وبعد ما كتبنا عليهم تحريم القتل (فى الأرض لمسرفون) يعنى بالقتل لا ينتهون عنه وقيل معناه لمجاوزون حد الحق وإنما قال تعالى وإن كثيرا منهم لأنه تعالى علم أن منهم من يؤمن بالله ورسوله وهم قليل من كثير . قوله عز وجل (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) قال ابن عباس نزلت فى قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض فخير الله رسوله صلى الله عليه وسلم إن يشأ يقتل وإن يشأ يصلب وإن يشأ يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وهذا قول الضحاك أيضا وقال الكلبى نزلت فى قوم هلال بن عويمر وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن مر بهلال إلى النبى ﷺ فهو آمن لا يهاج فمر قوم من بنى كنانة يريدون الإسلام بقوم هلال ولم يكن هلال شاهدا فشدوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضاء فيهم بهذه الآية وقال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية فى قوم من عرينة وعكل أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الإسلام وهم كذبة فاستوخموا المدينة فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إبل الصدقة فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل (ق) عن أنس بن مالك إن ناسا

ويسعون فى الأرض فسادا) الآية قال الضحاك نزلت فى قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا فى الأرض وقال الكلبى نزلت فى قوم هلال بن عويمر وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وادع هلال ابن عويمر وهو أبو بردة الأسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن مر بهلال ابن عويمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو آمن لا يهاج فمر قوم من بنى كنانة يريدون الإسلام بناس من أسلم من قوم هلال ابن عويمر ، ولم يكن هلال شاهدا فشدوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضية فيهم وقال سعيد بن جبير نزلت فى ناس من عرينة وعكل أتوا النبى صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الإسلام وهم كذبة فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى إبل الصدقة فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا على بن عبد الله ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعى

من عكل وعرينة قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم وتكلموا بالإسلام فقالوا يا نبى الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف واستوخموا المدينة فأمر لهم النبى صلى الله عليه وسلم بذود وراع وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد الإسلام وقتلوا راعى النبى صلى الله عليه وسلم واستاقوا الذود فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم قال قتادة بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعد ذلك يحث على الصدقة وينهى عن المثلة زاد فى رواية قال: قتادة فحدثنى ابن سيرين إن ذلك قبل أن تنزل الحدود وفى رواية للبخارى إن ناسا من عرينة اجتووا المدينة فرخص لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها فقتلوا الراعى واستاقوا الذود فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وتركهم فى الحرة يعضون الحجارة زاد فى رواية قال أبو قلابة وأى شىء أشد مما صنع هؤلاء ارتدوا عن الإسلام وقتلوا وسرقوا وفى رواية أبى داود إن قوما من عكل أو قال من عرينة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتووا المدينة فأمر لهم النبى صلى الله عليه وسلم بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستاقوا النعم فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم من أول النهار فأرسل فى آثارهم فما ارتفع النهار حتى جىء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون قال أبو قلابة فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله زاد فى رواية له وأنزل الله عز وجل «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا» الآية . شرح غريب هذا الحديث وحكمه قوله إنا كنا أهل ضرع يعنى أهل ماشية وبادية نعيش باللبن ولسنا من أهل المدن والريف هو الأرض التى فيها زرع وخصب والجمع أرياف قوله استوخموا المدينة يعنى أنها لم توافق مزاجهم وكذا قوله فاجتووا المدينة وهو معناه والذود من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة والحرة هى أرض ذات حجارة سود وهى هنا اسم لأرض بظاهر المدينة معروفة وقوله فسمر أعينهم معناه أنه حمى مسامير الحديد وكحل بها أعينهم حتى ذهب بصرها وقوله وينهى عن المثلة أن تقطع أطراف الحيوان وتشوه خلقته ومثلة القتيل أن يقطع أنفه وأذنيه ومذاكيره ونحو ذلك واختلف العلماء فى حكم هذا الحديث فقيل هو منسوخ لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن المثلة وقيل حكمه ثابت غير السمل والمثلة وقيل إن هذه الآية ناسخة لما فعله النبى ﷺ بهم وقيل كان ذلك قبل أن تنزل الحدود فلما نزلت الحدود وجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها وقيل نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليما من الله تعالى إياه عقوبتهم وما يجب عليهم فقال تعالى «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله» واعلم أن المحاربة لله غير ممكنة وفى معناها للعلماء قولان: أحدهما أن المحاربين لله هم المخالفون أمره الخارجون عن طاعته لأن كل من خالف أمر إنسان فهو حرب له فيكون المعنى يخالفون الله ورسوله ويعصون أمرهما. والقول الثانى معناه يحاربون أولياء الله وأولياء رسوله فهو من باب حذف المضاف (ويسعون فى الأرض فسادا) يعنى بحمل السلاح والخروج على الناس وقتل النفس وأخذ الأموال وقطع الطريق.

حدثني يحيى بن أبي كثير حدثني أبو قلابة الجرمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نفر من عكل فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصحوا فارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في آثارهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم لم يحسمهم حتى ماتوا ورواه أيوب عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال فقطع أيديهم وأرجلهم ثم أمر بمسامير فكحلهم بها وطرحهم بالحرة يستسقون فما يسقون حتى ماتوا قال أبو قلابة قتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا واختلفوا في حكم هؤلاء العرنيين فقال بعضهم هي منسوخة لأن المثلة لا تجوز وقال بعضهم حكمه ثابت إلا السمل والمثلة وروى قتادة عن ابن سيرين أن ذلك كان قبل (٤٥) أن ينزل الحد وقال أبو الزناد لما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بهم أنزل الله الحدود ونهاه عن المثلة فلم يعد وعن قتادة قال بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة وقال سليمان التيمي عن أنس إنما سمل النبي صلى الله عليه وسلم أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة وقال الليث بن سعد نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليما منه إياه عقوبتهم وقال إنما جزاؤهم هذا لا المثلة ولذلك ما قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا إلا نهى عن المثلة واختلفوا في المحاربين الذين يستحقون هذا الحد فقال قوم هم الذين يقطعون الطريق ويحملون السلاح على المسلمين والمكابرون في الأمصار وهو قول الأوزاعي ومالك والليث بن سعد والشافعي رحمهم الله وقال قوم هم المكابرون في الأمصار ليس لهم حكم المحاربين في استحقاق هذا الحد وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه وعقوبة المحاربين ما ذكر الله سبحانه وتعالى (أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) فذهب قوم إلى أن الإمام بالخيار في أمر المحاربين بين القتل والقطع والصلب والنفي كما هو ظاهر الآية وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والنخعي ومجاهد وذهب الأكثرون إلى أن هذه العقوبات على ترتيب الجرائم لا على التخيير لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قطاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف فإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا

واختلفوا في حكم هؤلاء المحاربين الذين يستحقون هذا الحد فقال قوم هم الذين يقطعون الطريق ويحملون السلاح والمكابرون في البلاد وهذا قول الأوزاعي ومالك والليث بن سعد والشافعي وقال أبو حنيفة المكابرون في الأمصار ليس لهم حكم المحاربين في استحقاق هذا الحد ثم ذكر الله تعالى عقوبة هؤلاء المحاربين وما يستحقونه فقال تعالى (أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) وللعلماء في لفظة أو المذكورة في هذه الآية قولان: أحدهما أنها للتخيير وهو قول ابن عباس في رواية عنه وبه قال الحسن وسعيد ابن المسيب والنخعي ومجاهد وهو أن الإمام مخير في أمر المحاربين فإن شاء قتل وإن شاء صلب وإن شاء قطع وإن شاء نفى من الأرض كما هو ظاهر الآية ، والقول الثاني أن لفظة أو للبيان وليست للتخيير وهو الرواية الثانية عن ابن عباس وهو قول أكثر العلماء لأن الأحكام تختلف فترتبت هذه العقوبات على ترتيب الجرائم وهذا كما روى عن ابن عباس في قطاع الطريق قال إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا لم يأخذوا المال قتلوا وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وإذا أخافوا السبيل ولم يقتلوا ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض ، وهذا قول قتادة والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي واختلفوا في كيفية الصلب فقيل يصلب حيا ثم يطعن في بطنه برمح حتى يموت قال الشافعي يقتل أولا ويصلى عليه ثم يصلب وإنما يجمع بين القتل والصلب إذا قتل وأخذ المال ويصلب على الطريق في ممر الناس ليكون ذلك زاجرا لغيره عن الإقدام على مثل هذه المعصية واختلفوا في تفسير النفي من الأرض المذكور في الآية فقيل إن الإمام يطلبهم ففي كل بلد وجدوا نفوا عنه وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز وقيل يطلبون حتى تقام عليهم الحدود وهو قول ابن عباس والليث بن سعد والشافعي وقال أبو حنيفة وأهل الكوفة النفي هو الحبس لأنه نفي من الأرض لأن المحبوس لا يرى أحدا من أحبابه ولا ينتفع بلذات الدنيا وطيباتها فهو منفي من الأرض في الحقيقة إلا من تلك البقعة الضيقة التي هو فيها . قال مكحول إن عمر بن الخطاب أول من حبس في السجون يعني من هذه الأمة وقال أحبسه حتى أعلم منه التوبة

مالا تقوا من الأرض وهو قول قتادة والأوزاعى والشافعى وأصحاب الرأى رحمهم الله تعالى وإذا قتل قاطع الطريق يقتل حتماً حتى لا يسقط بعفو ولى الدم وإذا أخذ من المال نصابا وهو ربع دينار تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى وإذا قتل وأخذ المال يقتل ويصلب واختلفوا فى كيفيته فظاهر مذهب الشافعى رضى الله عنه أنه يقتل ثم يصلب وقيل يصلب حيا ثم يطعن حتى يموت مصلوبا وهو قول الليث بن سعد وقيل يصلب ثلاثة أيام حيا ثم ينزل فيقتل وإذا أخاف السبيل ينفى واختلفوا فى النفى فذهب قوم إلى أن الإمام يطلبه ففى كل بلد يوجد ينفى عنه وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز وقيل يطلبون لتقام عليهم الحدود وهو قول ابن عباس والليث ابن سعد وبه قال الشافعى وقال أهل الكوفة النفى هو الحبس وهو نفى من الأرض وقال محمد بن جرير ينفى من بلده إلى غيره ويحبس فى السجن فى البلد الذى نفى إليه حتى تظهر توبته وقال مكحول أن عمر بن الخطاب أول من حبس فى السجون وقال أحبسه حتى أعلم منه التوبة ولا أنفيه إلى بلد فيؤذيهم (ذلك) الذى ذكرت من الحد (لهم خزى) عذاب وهوان وفضيحة (فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) فمن ذهب إلى أن الآية نزلت فى الكفار قال معناه إلا الذين تابوا من شركهم وأسلموا قبل القدرة عليهم فلا سبيل عليهم بشىء من الحدود ولا تبعة عليهم فيما أصابوا فى حال الكفر من دم أو مال، وأما المسلمون المحاربون فمن تاب منهم قبل القدرة عليهم وهو قبل أن يظفر به الإمام تسقط عنه كل عقوبة وجبت حقا لله ولا يسقط ما كان من حقوق العباد فان كان قد قتل فى قطع الطريق يسقط عنه بالتوبة قبل القدرة عليه تحتم القتل ويبقى عليه القصاص لولى القتيل فان شاء عفا عنه وإن شاء استوفى وإن كان قد أخذ المال يسقط عنه القطع وإن كان قد جمع بينهما يسقط عنه تحتم القتل والصلب ويجب ضمان المال وهو قول الشافعى رضى الله عنه وقال بعضهم إذا جاء تائبا قبل القدرة عليه لا يكون لأحد عليه تبعة

ولا أنفيه إلى بلد آخر فيؤذيهم ثم قال تعالى (ذلك) يعنى الذى ذكر فى هذه الآية من الحدود (لهم) يعنى للمحاربين (خزى فى الدنيا) أى عذاب وهوان وفضيحة (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) هذا الوعيد فى حق الكفار الذين نزلت الآية فيهم، فأما من أجرى حكم الآية على المحاربين من المسلمين فينفى العذاب العظيم عنهم فى الآخرة لأن المسلم إذا عوقب بجناية فى الدنيا كانت عقوبته كفارة له وإن لم يعاقب فى الدنيا فهو فى خطر المشيئة إن شاء عذبه بجنايته ثم يدخله الجنة وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة هذا مذهب أهل السنة. وقوله تعالى (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) يعنى لكن الذين تابوا من شركهم وحربهم لله ورسوله ومن السعى فى الأرض بالفساد من قبل أن تقدروا عليهم. يعنى فلا سبيل لكم عليهم بشىء من العقوبات المذكورة فى الآية المتقدمة (فاعلموا أن الله غفور) يعنى لمن تاب من الشرك (رحيم) يعنى به إذا رجع عما يسخط الله عز وجل وهذا قول معظم أهل التفسير أن المراد بهذا الاستثناء المشرك المحارب إذا آمن وأصلح قبل القدرة عليه سقط عنه جميع الحدود التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية وأنه لا يطالب بشىء مما أصاب من مال أو دم قال أبو إسحاق جعل الله التوبة للكفار تدرأ عنهم الحدود التى وجبت عليهم فى كفرهم ليكون ذلك داعيا لهم إلى الدخول فى الإسلام فهذا حكم المشرك المحارب إذا آمن وأصلح وكذلك لو آمن بعد القدرة عليه لم يطالب بشىء بالاجماع، وأما المسلم المحارب إذا تاب واستأمن قبل القدرة عليه فقال السدى هو كالكافر إذا آمن لم يطالب بشىء إلا إذا أصيب عنده مال بعينه فانه يرده على أهله وهذا مذهب مالك والأوزاعى غير أن مالكا قال يؤخذ بالدم إذا طلب به وليه، فأما ما أصاب من الدماء والأموال ولم يطلبها أولياؤها فلا يتبعه الإمام بشىء من ذلك وهذا حكم على بن أبى طالب فى حارثة بن زيد وكان قد خرج محاربا فتاب قبل أن يقدر عليه فآمنه على على نفسه وكذلك جاء رجل من مراد إلى أبى موسى الأشعرى وهو على الكوفة فى خلافة عثمان بعد ما صلى المكتوبة فقال يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك أنا فلان بن فلان المرادى كنت قد حاربت الله ورسوله وسعيت فى الأرض بالفساد وإنى قد تبت من قبل أن يقدر على فقام أبو موسى فقال هذا فلان المرادى وأنه كان حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادا وأنه قد تاب من قبل أن يقدر عليه فلا يتعرض له أحد إلا بخير وقال الشافعى يسقط عنه بتوبته قبل القدرة عليه حد الله ولا يسقط عنه بها ما كان من حقوق بنى آدم من قصاص أو مظلمة من مال أو غيره وأما إذا تاب بعد القدرة عليه فظاهر الآية أن التوبة لا تنفعه وتقام عليه الحدود

وقال

في دم ولا مال إلا أن يوجد معه مال بعينه فيرده إلى صاحبه روى عن علي رضي الله عنه في حارثة بن زيد كان قد خرج محاربا فسفك الدماء وأخذ المال ثم جاء تائبا قبل أن يقدر عليه فلم يجعل عليه علي رضي الله عنه تبعة ، أما من تاب بعد القدرة عليه فلا يسقط عنه شيء منها وقيل كل عقوبة تجب حقا لله عز وجل من عقوبات قطع الطريق وقطع السرقة وحد الزنا والشرب تسقط بالتوبة بكل حال والأكثرون على أنها لا تسقط (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا) اطلبوا (إليه الوسيلة) أي القربة فعيلة من توسل إلى فلان بكذا أي تقرب إليه وجمعها وسائل (وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون (٤٧) إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم) أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها ومثلها معها ثم فدى بذلك نفسه من العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء (ولهم عذاب أليم يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) فيه وجهان: أحدهما أنهم يقصدون ويطلبون المخرج منها كما قال الله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها والثاني أنهم يتمنون ذلك بقلوبهم كما قال الله تعالى إخبارا عنهم «ربنا أخرجنا منها» (ولهم عذاب مقيم والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) أراد به أيمانهما وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود وجملة الحكم أن من سرق نصابا من المال من حرز لا شبهة له فيه تقطع يده اليمنى من الكوع ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب عند عامة أهل العلم حكي عن ابن الزبير أنه كان يقطع في الشيء القليل وعامة العلماء على خلافه واختلفوا في القدر الذي يقطع فيه فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقطع في أقل من ربع دينار فإن سرق ربع دينار أو متاعا قيمته ربع دينار يقطع وهو قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم وبه قال عمر بن عبد العزيز والأوزاعي والشافعي لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا ابن عيينة عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال القطع

وقال الشافعي ويحتمل أن يسقط كل حد لله عز وجل بالتوبة . قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أي خافوا الله بترك المنهيات (وابتغوا إليه الوسيلة) يعني واطلبوا إليه القرب بطاعته والعمل بما يرضى وإنما قلنا ذلك لأن مجامع التكاليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما أحد النوعين ترك المنهيات وإليه الإشارة بقوله اتقوا الله والثاني التقرب إلى الله تعالى بالطاعات وإليه الإشارة بقوله وابتغوا إليه الوسيلة والوسيلة فعيلة من وسل إليه إذا تقرب ومنه قول الشاعر :

* إن الرجال لهم إليك وسيلة * أي قربة وقيل معنى الوسيلة المحبة أي تحببوا إلى الله عز وجل (وجاهدوا في سبيله) أي وجاهدوا العدو في طاعته وابتغاء مرضاته (لعلكم تفلحون) يعني لكي تسعدوا بالخلود في جنته لأن الفلاح اسم جامع للخلاص من كل مكروه والفوز بكل محبوب قوله عز وجل (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم) يعني أن الكافر لو ملك الدنيا ودنيا أخرى مثلها معها ثم فدى نفسه من العذاب يوم القيامة لم يقبل منه ذلك الفداء (ولهم عذاب أليم) المقصود من هذا أن العذاب لازم للكفار وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه بوجه من الوجوه (ق) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى لأدون أهل النار عذابا لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتديا بها فيقول نعم فيقول قد أردت منك أيسر من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك» هذا لفظ مسلم وفي رواية البخاري قال يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدي به فيقول نعم فيقال له لقد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك أن لا تشرك بي (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) فيه وجهان: أحدهما أنهم يقصدون الخروج من النار ويطلبونه ولكن لا يستطيعون ذلك قيل إذا حملهم لهب النار إلى فوق طلبوا الخروج منها فلا يقدرون عليه. والوجه الثاني أنهم يتمنون الخروج من النار بقلوبهم (ولهم عذاب مقيم) يعني ولهم عذاب دائم ثابت لا يزول عنهم ولا ينتقل أبدا . قوله عز وجل (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) قال ابن السائب نزلت في طعمة بن أبيرق وقدمنا قصته في سورة النساء وإنما سمي السارق سارق لأنه يأخذ الشيء الذي ليس له أخذه في خفاء ومنه استرق السمع مستخفيا والسارق هنا مرفوع بالابتداء لأنه لم يقصد واحد بعينه إنما هو كقولك من سرق فاقطع يده والمراد باليد المذكورة هنا اليمين قاله الحسن والشعبي والسدي وكذلك هو في قراءة عبد الله بن مسعود فاقطعوا أيمانهما وإنما قال أيديهما ولم يقل يديهما لأنه أراد يمينا من هذا ويمينا من هذه فجمع فإنه ليس للإنسان إلا يمين واحدة وكل شيء موحد من

في ربع دينار فصاعدا أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقا في مجن قيمته ثلاثة دراهم وروى عن عثمان أنه قطع سارقا في أترجة قومت بثلاثة دراهم من صرف إثني عشر درهما بدينار وهذا قول مالك رحمه الله تعالى أنه يقطع في ثلاثة دراهم وذهب قوم إلى أنه لاتقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم ويروى ذلك عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي وقال قوم لايقطع إلا في خمسة دراهم ويروى ذلك عن ابي هريرة رضي الله عنه وبه قال بن أبي ليلى أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث أخبرني أبي أنا الأعمش قال سمعت أباصالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده» وقال الأعمش كانوا يرون أنه بيض الحديد والحبل يرون أن منها مايساوي ثلاثة دراهم ويحتج بهذا الحديث من يرى القطع في الشيء القليل وهو عند الأكثرين محمول على ماقاله الأعمش لحديث عائشة رضي الله عنها، وإذا سرق شيئا من غير حرز كثمر في حائط لاحارث له أو حيوان في برية لاحافظ له أو متاع في بيت منقطع عن البيوت لاقطع عليه» وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «لاقطع في ثمر معلق ولا في حريسة جبل ، فإذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن» وروى عن ابن جريج عن الزبير عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ليس على خائن أو منتهب ولا مختلس قطع وإذا سرق مالاله فيه شبهة كالعبد يسرق من مال سيده أو الولد صلى يسرق من مال والده أو الوالد يسرق من مال ولده أو أحد الشريكين يسرق من مال المشترك شيئا لاقطع عليه وإذا سرق السارق أول مرة تقطع يده اليمنى من الكوع ثم إذا سرق ثانيا تقطع رجله اليسرى من مفصل القدم» واختلفوا فيما إذا سرق ثالثا فذهب أكثر إلى أنه تقطع يده اليسرى وإذا سرق رابعا تقطع رجله اليمنى ثم إذا سرق بعده شيئا يعزر ويحبس حتى تظهر توبته وهو المروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو قول قتادة وبه قال مالك والشافعي لما روى عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في السارق إنه سرق فاقطعوا يده ثم إن سرق فاقطعوا رجله ثم ان سرق فاقطعوا يده ثم إن سرق فاقطعوا رجله» وذهب قوم إلى أنه إن سرق ثالثا بعد ماقطعت يده اليمنى ورجله اليسرى لايقطع بل يحبس وروى ذلك عن علي رضي الله عنه وقال إني لأستحي أن لا أدع له يدا يستنجي بها ولا رجلا يمشي بها وهو قول الشعبي والنخعي وبه قال الأوزاعي وأحمد وأصحاب الرأي قوله تعالى (جزاء بما كسبا) نصب على الحال والقطع ومثله (نكالا) أي عقوبة (من الله والله عزيز حكيم)

أعضاء الإنسان إذا ذكر مضافا إلى اثنين فصاعدا جمع والمراد باليد هنا الجارحة وحدها عند جمهور أهل اللغة من رءوس الأصابع إلى الكوع فيجب قطعها في حد السرقة من الكوع . وقوله تعالى (جزاء بما كسبا) يعني ذلك القطع جزاء على فعلهم (نكالا من الله) يعني عقوبة من الله (والله عزيز) في انتقامه ممن عصاه (حكيم) يعني فيما أوجبه من قطع يد السارق .

(فصل في بيان حكم الآية : وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى) اقتضت هذه وجوب القطع على كل سارق وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في السرقة (ق) عن عائشة أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتشفع في حد من حدود الله ثم قام فاختطب ثم قال إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» وعن عائشة قالت «أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسارق فقطعه فقالوا ما كنا نراك تبلغ به هذا قال لو كانت فاطمة لقطعتها» أخرجه النسائي (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده» قال الأعمش يرون أنه بيض الحديد وأن من الحبال مايساوي دراهم أخرجه البخاري ومسلم ، أما السارق الذي يجب عليه القطع فهو البالغ العاقل العالم بتحريم السرقة فلو كان حديث عهد بالإسلام ولا يعلم أن السرقة . حرام فلا قطع عليه

(المسئلة الثانية) اختلف العلماء في قدر النصاب الذي يقطع به فذهب أكثر العلماء إلى أنه ربع دينار فان سرق ربع دينار أو متاعا قيمته ربع دينار يقطع وهذا قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبه قال عمر بن العزيز والأوزاعي والشافعي ويدل عليه ما روى عن عائشة أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال «لاتقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا» أخرجاه فى الصحيحين وذهب مالك وأحمد وإسحاق إلى أنه ثلاثة دراهم أو قيمتها لما روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقا فى مجن قيمته ثلاثة دراهم أخرجه الجماعة المجن الترس وروى عن أبى هريرة أن قدر النصاب الذى تقطع به اليد خمسة دراهم وبه قال ابن أبى ليلى لما روى عن أنس قال قطع أبو بكر فى مجن قيمته خمسة دراهم وفى رواية قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه النسائى وقال الرواية الأولى أصح وذهب قوم إلى أنه لاقطع فى أقل من دينار أو عشرة دراهم يروى ذلك عن ابن مسعود وإليه ذهب سفيان الثورى وأبو حنيفة لما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من قطع فى مجن قيمته دينار أو عشرة دراهم أخرجه أبو داود فاذا سرق نصابا من المال من حرز لاشبهة له فيه قطعت يده اليمنى من الكوع ولا يجب القطع بسرقة مادون النصاب وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن القدر غير معتبر فيجب القطع فى القليل والكثير وكذا الحرز غير معتبر أيضا عندهم وإليه ذهب داود الظاهرى واحتجوا بعموم الآية فان قوله تعالى «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» يتناول القليل والكثير وسواء سرقه من حرز أو غير حرز .

(المسئلة الثالثة) الحرز هو ماجعل للسكنى وحفظ الأموال كالدور والمضارب والخيم التى يسكنها الناس ويحفظون أمتعتهم فيها فكل حرز وإن لم يكن فيه حافظ ولا عنده وسواء سرق من ذلك وهو مفتوح الباب أو مغلق ، فأما ماكان فى غير بناء ولا خيمة فانه ليس بحرز إلا أن يكون عنده من يحفظه أما نباش القبور فانه يقطع وهو قول مالك والشافعى وأحمد وقال ابن أبى ليلى والثورى والأوزاعى وأبو حنيفة لاقطع عليه فان سرق شيئا من غير حرز كثمر من بستان لاحارس له أو حيوان فى برية ولاراعى له أو متاع فى بيت منقطع عن البيوت فلاقطع عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الثمر المعلق فقال من أصاب بفيه منه من ذى حاجة غير متخذ خبنة فلا شىء عليه أخرجه الترمذى وأبو داود والنسائى وزاد فيه ومن خرج بشىء منه فعليه غرامة مثله والعقوبة ومن سرق منه شيئا بعد أن يؤويه الجرين فبلغ ثمن المجن فعليه القطع ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثله والعقوبة . قوله غير متخذ خبنة الخبنة بالخاء المعجمة وبعدها باء موحدة من تحت ثم نون وهو مايحمله الإنسان فى حضنه وقيل هو مايأخذه فى خبنة ثوبه وهو ذيله وأسفله والجرين موضع التمر الذى يجفف فيه مثل البيدر للحنطة وروى مالك فى الموطأ عن أبى حسين المكى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاقطع فى ثمر معلق ولا فى حريسة الجبل فاذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن هكذا رواه مالك منقطعا وهو رواية من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم فان هذه الرواية عن أبى حسين عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده وجده هو عبد الله بن عمرو بن العاص قوله ولا فى حريسة الجبل من العلماء من يجعل الحريسة السرقة نفسها يقال حرس يحرس حرسا إذا سرق ومنهم من يجعلها المحروسة ومعنى الحديث أنه ليس فيما يحرس فى الجبل إذا سرق قطع لأنه ليس بحرز وقيل حريسة الجبل هى الشاة التى يدركها الليل قبل أن تصل مأواها والمراح بضم الميم هو الموضع الذى تأوى إليه الماشية بالليل عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس قطع أخرجه الترمذى والنسائى .

(المسئلة الرابعة) إذا سرق مالا له فيه شبهة كالولد يسرق من مال والده أو الوالد يسرق من مال ابنه أو العبد يسرق من مال سيده أو الشريك يسرق من مال شريكه فلا قطع على أحد من هؤلاء فيه .

(المسئلة الخامسة) إذا سرق أول مرة قطعت يده اليمنى من الكوع وإذا سرق ثانية قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم واختلفوا فيما إذا سرق مرة ثالثة فذهب أكثرهم إلى أنه تقطع يده اليسرى فان سرق مرة رابعة قطعت رجله اليمنى ثم إذا سرق بعد ذلك يعذر ويحبس حتى تظهر توبته يروى عن هذا عن أبي بكر وهو قول قتادة وبه قال مالك والشافعى لما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «فى السارق إن سرق فاقطعوا يده ثم إن سرق فاقطعوا يده ثم إن سرق فاقطعوا رجله ذكره البغوى بغير سند وذهب قوم إلى أنه إن سرق بعد ما قطعت يده ورجله فلا قطع عليه بل يحبس» وبروى عن على أنه قال إنى أستحى أن لا أدع له يدا يستنجى بها ولا رجلا يمشى بها وهذا قول الشعبى والنخعى والأوزاعى وبه قال أحمد وأصحاب الرأى . قوله تعالى (فمن تاب من بعد ظلمه) يعنى من بعد ما ظلم نفسه بالسرقة (وأصلح) يعنى وأصلح العمل فى المستقبل (فان الله يتوب عليه) يعنى فان الله يغفر له ويتجاوز عنه (إن الله غفور) يعنى لمن تاب (رحيم) به .

(فصل)

وهذه التوبة مقبولة فيما بينه وبين الله فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند أكثر العلماء لأن الحد جزاء على الجناية ولا بد من التوبة بعد القطع وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه فى المستقبل عن أبى أمية المخزومى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بلص قد اعترف اعترافا ولم يوجد معه متاع فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخالك سرقت فقال بلى فأعاد عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يعترف فأمر به فقطع ثم جئ به فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر الله وتب إليه فقال رجل أستغفر الله وأتوب إليه فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم تب عليه أخرجه أبو داود والنسائى بمعناه وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم وقال الثورى وأصحاب الرأى لا غرم عليه فلو كان المسروق باقيا عنده يجب عليه أن يرده إلى صاحبه وتقطع يده لأن القطع حق الله والغرم حق الآدمى فلا يمتنع أحدهما بالآخر والله أعلم . قوله عز جل (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) الخطاب للنبى ﷺ والمراد به جميع الناس وقيل معناه : ألم تعلم أيها الإنسان فيكون الخطاب لكل فرد من الناس أن الله له ملك السموات والأرض ، يعنى أن الله مدبر أمره فى السموات والأرض ومصرفه وخالق من فيهما ومالكه لا يمتنع عليه شئ مما أراده فيهما لأن ذلك كله فى ملكه وإليه أمره (يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) قال ابن عباس يعذب من يشاء على الصغيرة ويغفر لمن يشاء على الكبيرة وقيل يعذب من يشاء على معصيته وكفره بالقتل والقطع وغير ذلك فى الدنيا ، ويغفر لمن يشاء بالتوبة عليه فينقذه من الهلكة والعذاب وإنما قدم التعذيب على المغفرة لأنه فى مقابلة قطع السرقة على التوبة وهذه الآية فاضحة للقدرية والمعتزلة فى قولهم بوجوب الرحمة للمطيع والعذاب للعاصى لأن الآية دالة على أن التعذيب والرحمة مفوضان إلى المشيئة والوجوب ينافى ذلك وجواب آخر وهو أنه تعالى أخبر أن له ملك السموات والأرض والمالك له أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء وأراد لا اعتراض لأحد عليه فى ملكه ويؤكد ذلك قوله (والله على كل شئ قدير) يعنى أنه تعالى قادر على

(فمن تاب من بعد ظلمه) أى سرقته (وأصلح) العمل (فان الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) هذا فيما بينهم وبين الله تعالى فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الأكثرين قال مجاهد السارق لا توبة له فاذا قطعت حصلت التوبة والصحيح أن القطع للجزاء على الجناية كما قال الجزاء بما كسبا ولا بد من التوبة بعده وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه فى المستقبل وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم وقال سفيان الثورى وأصحاب الرأى لا غرم عليه وبالاتفاق إن كان المسروق قائما عنده يسترده وتقطع يده لأن القطع حق الله تعالى والغرم حق العبد فلا يمنع أحدهم الآخر كاسترداد العين (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به الجميع وقيل معناه ألم تعلم أيها الانسان فيكون خطابا لكل واحد من الناس (يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) قال السدى والكلبى يعذب من يشاء من مات على كفره ويغفر لمن يشاء من تاب من كفره وقال ابن عباس رضى الله عنهما يعذب من يشاء على الصغيرة ، ويغفر لمن يشاء على الكبيرة (والله على كل شئ قدير)

قوله تعالى (يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر) أى فى موالاة الكفار فانهم لم يعجزوا الله (من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) وهم المنافقون (ومن الذين هادوا) يعنى اليهود (سماعون) أى قوم سماعون (للكذب) أى قابلون للكذب كقول المصلى سمع الله لمن حمده أى قبل الله وقيل معناه سماعون لأجل الكذب أى يسمعون منك ليكذبوا عليك وذلك أنهم كانوا يسمعون من الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يخرجون ويقولون

سمعنا منه كذا ولم يسمعوا ذلك منه (سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) أى هم جواسيس يعنى بنى قريظة لقوم آخرين هم أهل خيبر وذلك أن رجلا وامرأة من أشراف أهل خيبر زنيا وكانا محصنين وكان حدهما الرجم فى التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما فقالوا إن هذا الرجل الذى بيثرب ليس فى كتابه الرجم ولكنه الضرب فأرسلوا إلى إخوانكم بنى قريظة فانهم جيرانه وصلح له فليسألوه عن ذلك فبعثوا رهطا منهم مستخفين وقالوا لهم سلوا محمدا عن الزانيين إذا أحصنا ماحدهما؟ فان أمركم بالجلد فاقبلوا منه وإن أمركم بالرجم فاحذروا ولا تقبلوا منه وأرسلوا معهم الزانيين فقدم الرهط حتى نزلوا على بنى قريظة والنضير فقال لهم إنكم جيران هذا الرجل ومعه فى بلده وقد حدث فينا حدث فلان وفلانة قد فجرا وقد أحصنا فنحب أن تسألوا لنا محمدا عن قضائه فيه فقالت لهم قريظة والنضير إذا والله يأمركم بما تكرهون ثم انطلق قوم منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبى الحقيق وغيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد أخبرنا عن الزانى والزانية إذا أحصنا ماحدهما فى كتابك؟ فقال هل ترضون بقضائى قالوا نعم فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل عليه السلام

على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه وغفران ذنوب من أراد إسعاده وإنقاذه من الهلكة من خلقه لأن الخلق كلهم عبيده وفى ملكه . قوله تعالى (يا أيها الرسول) هذا خطاب للنبى ﷺ وهو خطاب تشريف وتكريم وتعظيم ، وقد خاطبه الله عز وجل بيا أيها النبى فى مواضع من كتابه وبيا أيها الرسول فى موضعين : هذا أحدهما والآخر قوله تعالى : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» . وقوله (لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر) يعنى لاتهتم بموالاتهم الكفار ولاتبال بهم فانى ناصرك عليهم وكافيك شرهم (من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) يعنى المنافقين لأنهم أظهروا الإيمان بالقول وكتموا الكفر وهذه صفة المنافقين (ومن الذين هادوا) أى وطائفة من اليهود قال الزجاج وهذا يحتمل وجهين : أحدهما أن الكلام تم عند قوله ومن الذين هادوا ثم ابتدأ الكلام بقوله (سماعون للكذب) ويكون تقدير الكلام «لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من المنافقين ومن الذين هادوا» ثم وصف الكل بكونهم سماعين للكذب. والوجه الثانى أن الكلام تم عند قوله «ولم تؤمن قلوبهم» ثم ابتدأ فقال تعالى «ومن الذين هادوا سماعون للكذب» أى ومن «الذين هادوا قوم سماعون للكذب» والمعنى أنهم قائلون الكذب . أى يسمعون الكذب من رؤسائهم ويقبلونه منهم والسمع يستعمل والمراد منه القبول كما تقول لاتسمع من فلان أى لاتقبل منه وقيل معناه سماعون لأجل أن يكذبوا عليك وذلك أنهم كانوا يسمعون من رسول الله ﷺ ثم يخرجون من عنده ويقولون سمعنا منه كذا وكذا ولم يسمعوا ذلك منه بل كذبوا عليه . وقوله تعالى (سماعون) يعنى بنى قريظة يعنى أنهم جواسيس وعيون (لقوم آخرين) وهم أهل خيبر (لم يأتوك) يعنى أهل خيبر لم يأتوك ولم يحضروا عندك يامحمد .

(ذكر القصة فى ذلك)

قال علماء التفسير إن رجلا وامرأة من أشراف يهود خيبر زنيا وكانا محصنين وكان حدهما الرجم عندهم فى حكم التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما فقالوا إن هذا الرجل بيثرب يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وليس فى كتابه الرجم ولكن الضرب فأرسلوا إلى إخوانكم بنى قريظة فانهم جيرانه وصلح معه فليسألوه عن ذلك فبعثوا رهطا منهم مستخفين وقالوا لهم اسألوا محمدا عن الزانيين إذا أحصنا ماحدهما؟ فان أمركم بالحد فاقبلوا منه ، وإن أمركم بالرجم فاحذروه ولاتقبلوا منه وأرسلوا معهم الزانيين فقدم الرهط حتى نزلوا على بنى قريظة والنضير وقالوا لهم إنكم جيران هذا الرجل ومعه فى بلده وقد حدث فينا حدث وذلك أن فلان وفلانة قد زنيا وقد أحصنا فنحب أن تسألوه عن قضائه فى ذلك فقالت لهم بنو قريظة والنضير إذا والله يأمركم بما تكرهون ثم انطلق قوم منهم فيهم كعب بن الأشرف وكعب ابن أسد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبى الحقيق وغيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يامحمد

اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعرفون شابا أمرد أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا نعم قال فأى رجل هو فيكم؟ فقالوا هو أعلم يهودى بقى على وجه الأرض بما أنزل الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام فى التوراة قال صلى الله عليه وسلم فأرسلوا إليه ففعلوا فأتاهم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا؟ قال نعم قال أنت أعلم اليهود؟ قال كذلك يزعمون قال أتجعلونه بينى وبينكم؟

قالوا نعم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنشدك بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى عليه السلام وأخرجكم من مصر وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذى ظلل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المن والسلوى وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن؟ قال ابن صوريا نعم والذى ذكرتنى به لولا خشية أن تحرقنى التوراة إن كذبت أو غيرت ما اعترفت لك ولكن كيف هى فى كتابك يامحمد؟ قال إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليه الرجم فقال ابن صوريا والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله عز وجل فى التوراة على موسى عليه السلام فقال له النبى صلى الله عليه وسلم فماذا كان أول ما ترخصتم به أمر الله؟ قال كنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فكثر الزنا فى أشرافنا حتى زنا ابن عم ملك لنا فلم نرجمه الحجارة ثم زنى رجل آخر فى أسوة من الناس فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه فقالوا والله لا يرجم حتى يرجم فلان لابن عم الملك فقلنا تعالوا نجتمع فلنصنع شيئا دون الرجم يكون على الوضيع والشريف فوضعنا الجلد والتحميم وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلى بالقار ثم يسود وجههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما فجعلوا هذا

خبرنا عن الزانى والزانية إذا أحصنا ماحدهما فى كتابك؟ فقال هل ترضون بقضائى قالوا نعم فنزل جبريل عليه السلام بآية الرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصفه لهم فقال لهم النبى ﷺ هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا نعم قال فأى رجل هو فيكم؟ فقالوا هو أعلم يهودى بقى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى عليه السلام فى التوراة قال فأرسلوا إليه ففعلوا فلما جاء قال له النبى ﷺ أنت ابن صوريا؟ قال نعم قال أنت أعلم يهودى؟ قال كذلك يقولون فقال النبى صلى الله عليه وسلم لليهود تجعلونه بينى وبينكم قالوا نعم فقال النبى ﷺ لابن صوريا «ناشدتك بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى وأخرجكم من مصر وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وبالذى ظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه هل تجدون فى كتابكم الرجم على المحصن؟» فقال ابن صوريا اللهم نعم والذى ذكرتنى به لولا خشيت أن ينزل علينا العذاب إن كذبت وغيرت مااعترفت لك ولكن كيف هى فى كتابكم يامحمد؟ قال إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليهما الرجم فقال ابن صوريا والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى فقال له النبى ﷺ فما كان أول ما ترخصتم به فى أمر الله تعالى؟ فقال ابن صوريا كنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فكثر الزنا فى أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه ثم زنى رجل آخر فى امرأة من قومه فأراد الملك رجمه فقام قومه دونه وقالوا والله لا ترجمه حتى ترجم فلانا لابن عم الملك فقلنا تعالوا نجتمع فلنضع شيئا دون الرجم يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلى بقار ثم تسود وجوههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما فجعلوا ذلك مكان الرجم فقالت اليهود لابن صوريا ماأسرع ماأخبرته وما كنت لما أثنينا عليك بأهل ولكنك كنت غائبا فكرهنا أن نغتابك فقال لهم ابن صوريا إنه قد ناشدنى بالتوراة ولولا خشيت أن ينزل علينا العذاب ماأخبرته فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بهما فرجما عند باب المسجد وقال «اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذا أماتوه» فأنزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر قال إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن امرأة منهم ورجلا زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ فقالوا نفضحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ماقبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فاذا فيها آية الرجم فقالوا صدق يامحمد فيها آية الرجم فأمر بهما النبى صلى الله عليه وسلم فرجما قال فرأيت الرجل ينحنى على المرأة يقيها

مكان الرجم فقالت اليهود لابن صوريا ماأسرع ماأخبرته به وما كنت لما أثنينا عليك بأهل ولكنك كنت غائبا فكرهنا أن نغتابك فقال لهم إنه قد أنشدنى بالتوراة ولولا خشية التوراة أن تهلكنى لما أخبرته به فأمر بهما النبى صلى الله عليه وسلم فرجما عندباب مسجده وقال «اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأنزل الله عز وجل «ياأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر» أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهم قال إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتجدون فى التوراة فى شأن الرجم فقالوا نفضحهم ويجلدون قال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الآية الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله ارفع يدك فرفع يده فاذا فيها آية الرجم قالوا صدق يامحمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما فقال عبد الله بن عمر فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة وقيل سبب نزول هذه الآية القصاص وذلك أن بنى النضير كان لهم فضل على بنى قريظة فقال بنو قريظة يامحمد إخواننا بنو النضير أبونا واحد وديننا واحد ونبينا واحد وإذا قتلوا منا قتيلا لم يقيدونا وأعطونا ديته سبعين وسقا من تمر وإذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقا من تمر وإن كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منا وبالرجل منهم الرجلين منا وبالعبد حرا منا وجراحتنا على التضعيف من جراحاتهم فاقض بيننا وبينهم فأنزل الله تعالى هذه الآية والأول أصح لأن الآية فى الرجم قوله ومن الذين هادوا سماعون للكذب قيل اللام بمعنى إلى وقيل هى لام كى أى يسمعون لكى يكذبوا عليك واللام فى قوله لقوم أى لأجل قوم آخرين لم يأتوك وهم أهل خيبر (يحرفون الكلم) جمع كلمة (من بعد مواضعه) أى من بعد وضعه موضعه وإنما ذكر الكناية ردا على لفظ الكلم

الحجارة وفى رواية أخرى لهما قال «أتى النبى صلى الله عليه وسلم برجل وامرأة من اليهود قد زنيا فقال لليهود ماتصنعون بهما قال نفحم وجوههما ونخزيهما قال فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فجاءوا بها فقال لرجل ممن يرضون أعورا قرأ فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليها فقال ارفع يدك فرفع يده فاذا آية الرجم تلوح فقال يامحمد إن فيها الرجم ولكنا نتكاتمه بيننا فأمر بهما فرجما فرأيته يحنى» زاد فى رواية أخرى «فرجما قريبا موضع الجنائز قرب المسجد»

(م) عن البراء بن عازب قال «مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودى محمم مجلود فدعاهم فقال هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قالوا نعم فدعا رجلا من علمائهم فقال أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم قال لا ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك بحد الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم فأنزل الله ياأيها الرسول» لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر إلى قوله إن أوتيتم هذا فخذوه يقول ائتوا محمدا فان أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أمركم بالرجم فاحذروه فأنزل الله تبارك وتعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون فى الكفار كلها التحميم هو تسويد الوجه بالحمم وهو الفحم وقوله ماتجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ قال العلماء هذا السؤال من النبى صلى الله عليه وسلم ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم وإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه فى كتابهم ولعله صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى إليه أن الرجم فى التوراة الموجودة فى أيديهم لم يغيروه كما غيروا شيئا منها أو أخبروه بذلك من أسلم من أهل الكتاب وهو عبد الله بن سلام كما فى حديث بن عمر المتفق عليه ولذلك لم يخف عليه صلى الله عليه وسلم حين كتموه . قوله تعالى (يحرفون الكلم) يعنى يغيرون حدود الله التى أوجبها عليهم فى التوراة وذلك أنهم بدلوا الرجم بالجلد والتحميم وقال الحسن إنهم يغيرون مايسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم بالكذب عليه وقال ابن جرير الطبرى يحرفون حكم الكلم فحذف ذكر الحكم لمعرفة السامعين به (من بعد مواضعه) يعنى من بعد أن وضعه الله مواضعه وفرض فروضه وأحل حلاله وحرم حرامه فان قلت قد قال الله عز وجل هنا يحرفون الكلم من بعد مواضعه وقال فى موضع آخر يحرفون الكلم عن مواضعه فهل من فرق بينهما؟ قلت نعم بينهما فرق وذلك

(يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه) أى إن أفتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بالجلد والتحميم فاقبلوا (وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته) كفره وضلالته . قال الضحاك هلاكه وقال قتادة عذابه (فلن تملك له من الله شيئا) فلن تقدر على دفع أمر الله فيه (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) وفيه رد على من ينكر القدر (لهم فى الدنيا خزى) أى للمنافقين واليهود فخزى المنافقين الفضيحة وهتك الستر باظهار نفاقهم وخزى اليهود الجزية أو القتل أو السبى أو النفى ورؤيتهم من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيهم ما يكرهون (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) (٥٤) الخلود فى النار (سماعون للكذب أكالون للسحت) قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة والكسائى السحت بضم الحاء والآخرون بسكونها وهو الحرام وأصله الهلاك والشدة قال الله تعالى «فيسحتكم بعذاب» نزلت فى حكام اليهود كعب بن الأشرف وأمثاله كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم قال الحسن كان الحاكم منهم إذا أتاه أحد برشوة جعلها فى كمه فيريها إياه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه فيسمع الكذب ويأكل الرشوة وعنه أيضا قال إنما ذلك فى الحكم إذا رشوته ليحق لك باطلا أو يبطل عنك حقك فاما أن يعطى الرجل الوالى يخاف ظلمه ليدرأ به عن نفسه فلا بأس فالسحت هو الرشوة فى الحكم على قول الحسن ومقاتل وقتادة والضحاك وقال ابن مسعود هو الرشوة فى كل شىء قال ابن مسعود من يشفع تعرض شفاعة ليرد بها حقا أو يدفع بها ظلما فأهدى له فقبل فهو سحت فقيل له يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم فقال الأخذ على الحكم كفر قال الله تعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الرحمن بن أبى شريح أنا أبو القاسم البغوى ثنا على بن الجعد أنا ابن أبى ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال لعنة الله على الراشى والمرتشى قال الأخفش السحت كل كسب لا يحل قوله عز وجل (فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن

إنا إذا فسرنا يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويلات الباطلة فيكون معنى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه أنهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص وليس فيه بيان أنهم يحرفون تلك اللفظة من الكتاب وأما قوله يحرفون الكلم من بعد مواضعه ففيه دلالة على أنهم جمعوا بين الأمرين يعنى أنهم كانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يحرفون اللفظة من الكتاب فى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه إشارة إلى التأويل الباطل وفى قوله من بعد مواضعه إشارة إلى إخراجه من الكتاب بالكلية وقوله تعالى (يقولون) يعنى اليهود (إن أوتيتم هذا فخذوه) يعنى إن أفتاكم محمد بالجلد والتحميم فاقبلوا منه (وإن لم تؤتوه فاحذروا) يعنى وإن لم يفتكم بذلك وأفتاكم بالرجم فاحذروا أن تقبلوه (ومن يرد الله فتنته) يعنى كفره وضلالته (فلن تملك له من الله شيئا) يعنى فلن تقدر على دفع أمر الله فيه (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) قال ابن عباس معناه أن يخلص نياتهم وقيل معناه لم يرد الله أن يهديهم وفى هذه الآية دلالة على أن الله تعالى لم يرد إسلام الكافر وإنه لم يطهر قلبه من الشك والشرك ولو فعل ذلك لآمن وهذه الآية من أشد الآيات على القدرية (لهم فى الدنيا خزى) يعنى للمنافقين واليهود أما خزى المنافقين فبالفضيحة وهتك ستارهم باظهار نفاقهم وكفرهم وأما خزى اليهود فبأخذ الجزية والقتل والسبى والإجلاء من أرض الحجاز إلى غيرها (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) يعنى الخلود فى النار للمنافقين واليهود . قوله عز وجل (سماعون للكذب أكالون للسحت) نزلت فى حكام اليهود مثل كعب ابن الأشرف ونظرائه كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم قال الحسن كان الحاكم منهم إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها فى كمه ثم يريها إياه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه فيسمع الكذب ويأكل الرشوة وهى السحت وأصل السحت الاستئصال يقال سحته إذا استأصلته وسميت الرشوة فى الحكم سحتا لأنها تستأصل دين المرتشى والسحت كله حرام يحمل عليه شدة الشره وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذى لا تكون له بركة ولا لآخذه مروءة ويكون فى حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة ومعلوم أن حالة الرشوة كذلك فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «لعن الراشى والمرتشى فى الحكم» أخرجه الترمذى وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال الحسن إنما ذلك فى الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلا أو يبطل عنك حقا وقال ابن مسعود الرشوة فى كل شىء فمن شفع شفاعة ليرد بها حقا أو يدفع بها ظالما فأهدى بها إليه فقبل فهو سحت فقيل له يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم قال الأخذ على الحكم كفر قال الله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . قوله عز وجل (فان جاءوك) يعنى اليهود (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن

نعرض عنهم فلن يضروك شيئا) خير الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فى الحكم بينهم إن شاء حكم وإن شاء ترك واختلفوا فى حكم الآية اليوم هل للحاكم الخيار فى الحكم بين أهل الذمة إذا تحاكموا إلينا؟ فقال أكثر أهل العلم هو حكم ثابت وليس فى سورة المائدة حكم منسوخ وحكام المسلمين بالخيار فى الحكم بين أهل الكتاب إن شاءوا حكموا وإن شاءوا لم يحكموا وإن حكموا حكموا بحكم الإسلام وهو قول النخعى والشعبى وعطاء وقتادة وقال قوم يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بينهم والآية منسوخة نسخها قوله تعالى «وإن احكم بينهم بما أنزل الله» وهو قول مجاهد وعكرمة وروى ذلك عن ابن عباس وقال لم ينسخ من المائدة إلا آيتان قوله تعالى «لا تحلوا شعائر الله» نسخها قوله تعالى «أقتلوا المشركين» وقوله «فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم» نسخها قوله تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» فأما إذا تحاكم إلينا مسلم وذمى فيجب علينا الحكم بينهما لا يختلف القول فيه لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة قوله (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) أى بالعدل (إن الله يحب المقسطين) أى العادلين روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «المقسطون عند الله على منابر من نور» قوله تعالى (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة) هذا تعجيب للنبى صلى الله عليه وسلم وفيه اختصار أى

تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) خير الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى الحكم بينهم فان شاء حكم وإن شاء ترك قال الحسن ومجاهد والسدى نزلت فى اليهوديين اللذين زنيا وقال قتادة نزلت فى رجلين من قريظة والنضير قتل أحدهما الآخر قال ابن زيد كان حيي بن أخطب قد جعل للنضيرى ديتين وللقرظى دية واحدة لأنه كان من بنى النضير فقالت قريظة لا نرضى بحكم حيي ونتحاكم إلى محمد فأنزل الله هذه الآية يخير نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى الحكم بينهم .

(فصل)

اختلف علماء التفسير فى حكم هذه الآية على قولين : أحدهما أنها منسوخة وذلك إن أهل الكتاب كانوا إذا ترافعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم كان مخيرا فان شاء حكم بينهم وإن شاء عرض عنهم ثم نسخ ذلك بقوله «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» فلزمه الحكم بينهم وزال التخيير هذا القول مروى عن ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والسدى والقول الثانى إنها محكمة وحكام المسلمين بالخيار إذا ترافعوا اليهم فان شاؤا حكموا بينهم وإن شاؤا أعرضوا عنهم وهذا القول مروى عن الحسن والشعبى والنخعى والزهرى وبه قال أحمد لانه لا منافاة بين الآيتين. أما قوله فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ففيه التخيير بين الحكم والإعراض. وأما قوله «وإن احكم بينهم بما أنزل الله» ففيه كيفية الحكم إذا حكم بينهم قال الإمام فخر الدين الرازى ومذهب الشافعى إنه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليه لأن إمضاء حكم الإسلام صغارا لهم. فأما المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهد إلى مدة فليس بواجب على الحاكم أن يحكم بينهم بل يتخير فى ذلك وهذا التخيير المذكور فى هذه الآية مخصوص بالمعاهدين وأما إذا تحاكم مسلم وذمى وجب على الحاكم بينهم لا يختلف القول فيه لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة والله أعلم . وقوله تعالى (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) يعنى بالعدل والاحتياط (إن الله يحب المقسطين) يعنى العادلين فيما ولوا وحكموا فيه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» هذا من أحاديث الصفات فمن العلماء من قال فيه وفى أمثاله نؤمن بها ولا نتكلم فى تأويلها ولا نعرف معناها لكن نعتقد أن ظاهرها غير مراد وأن لها معنى يليق بالله هذا مذهب جماهير السلف وطوائف من المتكلمين ومنهم من قال إنها تؤول بتأويل يليق بها وهذا قول أكثر المتكلمين فعلى هذا قال القاضى عياض المراد بكونهم عن اليمين الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة والعرب تنسب الفعل المحمود والإحسان إلى اليمين وضده إلى اليسار قالوا واليمين مأخوذة من اليمن وقوله وكلتا يديه يمين مبنى على أنه ليس المراد باليمين الجارحة تعالى الله عن ذلك فانها مستحيلة فى حقه تعالى وقوله «وما ولوا» بفتح الواو وضم اللام المخففة هكذا ذكره الشيخ محيى الدين فى شرح مسلم قال ومعناه وما كانت لهم عليه ولاية وهذا الفضل لمن عدل فيما تقلده من الأحكام والله أعلم . قوله تعالى (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة) هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى تحكيم اليهود إياه مع علمهم بما فى التوراة تركهم قبول

وكيف يجعلونك حكما بينهم فيرضون بحكمك وعندهم التوراة (فيها حكم الله) وهو الرجم (ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أى بمصدقين لك قوله عز وجل (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) أى أسلموا وانقادوا لأمر الله تعالى . كما أخبر عن إبراهيم عليه السلام، إذ قال له ربه أسلم «قال أسلمت لرب العالمين» وكما قال «وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها» وأراد بهم النبيين الذين بعثوا من بعد موسى عليه السلام ليحكموا بما فى التوراة وقد أسلموا لحكم التوراة وحكموا بها فإن من النبيين من لم يؤمر بحكم التوراة منهم عيسى عليه السلام قال الله سبحانه وتعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقال الحسن والسدى أراد به محمدا صلى الله عليه وسلم حكم على اليهود بالرجم ذكر بلفظ الجمع كما قال «إن إبراهيم كان أمة قانتا» وقوله تعالى (للذين هادوا) قيل فيه تقديم وتأخير تقديره فيها هدى ونور للذين هادوا ثم قال يحكم بها النبيون الذين أسلموا والربانيون وقيل هو على موضعه ومعناه يحكم بها النبيون الذين أسلموا على الذين هادوا كما قال وإن أسأتم فلها أى فعليها وكما قال أولئك لهم اللعنة أى عليهم وقيل فيه حذف كأنه قال للذين هادوا وعلى الذين هادوا فحذف أحدهما اختصارا (والربانيون والأحبار) يعنى العلماء واحدها حبر وحبر بفتح الحاء وكسرها والكسر أفصح وهو العالم المحكم فى الشيء قال الكسائى وأبو عبيدة هو من الحبر الذى يكتب به، وقال قطرب هو من الحبر الذى هو بمعنى الجمال بفتح الحاء

ذلك الحكم مع اعتقادهم صحته وعدولهم إلى حكم من يجحدون نبوته طلبا للرخصة لاجرم إن الله تعالى أظهر جهلهم وعنادهم لأنهم حكموا النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر الزانين ثم أعرضوا عن حكمه فى الآية لتقريع اليهود والمعنى وكيف يجعلونك حكما بينهم ويرضون بحكمك وعندهم التوراة (فيها حكم الله) يعنى الرجم الذى تحاكموا إليك من أجله (ثم يتولون من بعد ذلك) يعنى ثم يعرضون عن حكمك الموافق لما فى كتابهم (وما أولئك) يعنى اليهود (بالمؤمنين) يعنى بكتابهم كما يزعمون وقيل معناه وما أولئك بالمصدقين. قوله عز وجل (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) سبب نزول هذه الآية استفتاء اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر الزانيين وقد سبق بيانه والهدى هو البيان لأن التوراة مبينة صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومبينة ماتحاكموا فيه والنور هو الكاشف للشبهات الموضح للمشكلات والتوراة كذلك وقيل الفرق بين الهدى والنور أن الهدى محمول على بيان الأحكام والشرائع والنور محمول على بيان أحكام التوحيد والنبوات والمعاد (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) أراد بالنبيين الذين بعثوا بعد موسى عليه السلام وذلك إن الله بعث فى بنى إسرائيل ألوفا من الأنبياء وليس معهم كتاب إنما بعثوا باقامة التوراة وأحكامها ومعنى أسلموا أى انقادوا لأمر الله تعالى والعمل بكتابه وهذا على سبيل المدح لهم وفيه تعريض باليهود لأنهم بعدوا عن الإسلام الذى هو دين الأنبياء عليهم السلام وقال الحسن والزهرى وعكرمة وقتادة والسدى يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو محمد صلى الله عليه وسلم وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيما وتشريفا له صلى الله عليه وسلم لأن النبى صلى الله عليه وسلم حكم على اليهود بالرجم وكان هذا الحكم فى التوراة قال ابن الأنبارى هذا رد على اليهود والنصارى لأن الأنبياء عليهم السلام ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لأمره ونهيه للذين هادوا يعنى لليهود يعنى يحكم بالتوراة لهم وفيما بينهم ويحملهم على أحكامها كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حملهم على حكم الرجم كما هو فى التوراة ولم يوافقهم على ما أرادوه من الجلد وقال الزجاج وجائز أن يكون المعنى على التقديم والتأخير على معنى إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا (والربانيون والأحبار) أما الربانيون فتقدم تفسيره فى سورة آل عمران وأما الأحبار فقال ابن عباس هم الفقهاء وقيل هم العلماء الأحبار واحده حبر بفتح الحاء وكسرها لغتان وقال الفراء إنما هو حبر بكسر الحاء وإنما سمى به لمكان الحبر الذى يكتب به وذلك لأنه صاحب كتاب وقال أبو عبيد إنما هو حبر بفتح الحاء والحبر العالم لما يبقى من أثر علومه فى قلوب الناس وأفعاله الحسنة التى يقتدى بها وجمعه أحبار ومنه كعب الأحبار وقيل الحبر الأثر المستحسن ومنه الحديث يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره أى جماله وبهاؤه وإنما سمى العالم حبرا لما عليه من أثر جمال العلم وهل فرق بين الربانيين والأحبار أم لا فيه خلاف فقيل لافرق والربانيون والأحبار بمعنى واحد وهم العلماء والفقهاء وقيل الربانيون أعلى درجة من الأحبار لأن الله تعالى قدمهم فى الذكر على الأحبار وقيل الربانيون هم الولاة والحكام

وكسرها وفى الحديث يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره أى حسنه وهيأته ومنه التحبير وهو التحسين فسمى العالم حبرا لما عليه من جمال العلم وبهائه وقيل الربانيون هاهنا من النصارى والأحبار من اليهود قوله عز وجل

والحكام والأحبار هم العلماء وقيل الربانيون علماء النصارى والأحبار علماء اليهود ومعنى الآية يحكم بأحكام التوراة النبيون وكذلك يحكم بها الربانيون والأحبار. وقوله تعالى (بما استحفظوا من كتاب الله) يعنى بما استودعوا من كتاب الله وقيل هو أن يحفظوا كتاب الله فلا ينسوه وقيل هو أن يحفظوه فلا يضيعوا أحكامه وشرائعه وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين معا وذلك بأن يحفظوا كتاب الله فى صدورهم ويدرسونه بألسنتهم لئلا ينسوه وأن لايضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه فاذا فعلوا ذلك كانوا قائمين بحفظه (وكانوا عليه شهداء) يعنى أن هؤلاء النبيين والربانيين والأحبار كانوا شهداء على كتاب الله تعالى ويعلمون أنه حق وصدق وأنه من عند الله (فلا تخشوا الناس واخشون) هذا خطاب لحكام اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى لاتخافوا أحدا من الناس فى إظهار صفة محمد صلى الله عليه وسلم والعمل بالرجم واخشون يعنى فى كتمان ذلك (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) يعنى ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ثمنا قليلا يعنى الرشوة فى الأحكام والجاه عند الناس ورضاهم والمعنى كما نهيتكم عن تغير الأحكام لأجل خوف الناس كذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لأجل الطمع فى المال والجاه وأخذ الرشوة فان كل متاع الدنيا قليل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) بمعنى أن اليهود لما أنكروا حكم الله تعالى المنصوص عليه فى التوراة وقالوا إنه غير واجب عليهم فهم كافرون على الإطلاق بموسى والتوراة وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآيات الثلاث وهى قوله «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» فقال جماعة من المفسرين الآيات الثلاث نزلت فى الكفار ومن غير حكم الله من اليهود لأن المسلم وإن ارتكب كبيرة لايقال أنه كافر وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك ويدل على صحة هذا القول ماروى عن البراء بن عازب قال أنزل الله تبارك وتعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» فى الكفار كلها أخرجه مسلم وعن ابن عباس قال «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون إلى قوله الفاسقون» هذه الآيات الثلاث فى اليهود خاصة قريظة والنضير أخرجه أبو داود وقال مجاهد فى هذه الآيات الثلاث من ترك الحكم بما أنزل الله ردا لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق وقال عكرمة ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق وهذا قول ابن عباس أيضا واختار الزجاج لأنه قال من زعم إن حكما من أحكام الله تعالى التى أتانا بها الأنبياء باطل فهو كافر وقال طاوس قلت لابن عباس أكافر من لم يحكم بما أنزل الله؟ فقال به كفر وليس بكفر ينقل عن الملة كمن كفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ونحو هذا روى عن عطاء قال هو كفر دون الكفر وقال ابن مسعود والحسن والنخعي هذه الآيات الثلاث عامة فى اليهود وفى هذه الأمة فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق وإليه ذهب السدى لأنه ظاهر الخطاب وقيل هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عيانا عمدا وحكم بغيره وأما من خفى عليه النص أو أخطأ فى التأويل فلا يدخل فى هذا

(بما استحفظوا من كتاب الله) أى استودعوا من كتاب الله (وكانوا عليه شهداء) أنه كذلك (فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال قتادة والضحاك نزلت هذه الآية الثلاث فى اليهود دون من أساء من هذه الأمة روى عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى قوله «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والظالمون والفاسقون» كلها فى الكافرين وقيل هى على الناس كلهم وقال ابن عباس وطاوس ليس بكفر ينقل عن الملة بل إذا فعله فهو به كافر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر قال عطاء هو كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق وقال عكرمة معناه ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق وسئل عبد العزيز بن يحيى الكنانى عن هذه الآيات فقال إنها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه

وكل من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق فأما من حكم بما أنزل الله من التوحيد وترك الشرك ثم لم يحكم ببعض ما أنزل الله من الشرائع لم يستوجب حكم هذه الآيات وقال العلماء هذا إذا

ورد نص حكم الله عيانا عمدا فأما من خفى عليه أو أخطأ فى تأويل فلا. قوله تعالى (وكتبنا عليهم فيها) أى أوحينا على بنى إسرائيل فى التوراة (أن النفس بالنفس) (٥٨) يعنى من نفس القاتل بنفس المقتول وفاء يقتل به (والعين بالعين) تفقأ بها (والأنف بالأنف) يجدع به (والأذن بالأذن) تقطع بها قال ابن عباس أخبر الله تعالى بحكمه فى التوراة وهو أن النفس بالنفس واحدة بواحدة إلى آخرها فما بالهم يخالفون فيقتلون بالنفس النفسين ويفقأون بالعين العينين وخفف نافع الأذن فى جميع القرآن، ونقلها الآخرون (والسن بالسن) تقلع بها وسائر الجوارح قياس عليها فى القصاص (والجروح قصاص) فهذا تعميم بعد تخصيص لأنه ذكر العين والأنف والأذن والسن ثم قال والجروح قصاص أى فيما يمكن الاقتصاص منه كاليد والرجل واللسان ونحوها وأما مالا يمكن الاقتصاص منه من كسر عظم أو جرح لحم كالجائفة ونحوها فلا قصاص فيه لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته وقرأ الكسائى والعين وما بعدها بالرفع وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر وأبو عمرو والجروح بالرفع فقط وقرأ الآخرون كلها بالنصب كالنفس قوله تعالى (فمن تصدق به) أى بالقصاص (فهو كفارة له) قيل الهاء فى له كناية عن المجروح وولى قال

الوعيد والله أعلم بمراده. قوله تعالى (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) يعنى وفرضنا على بنى إسرائيل فى التوراة أن نفس القاتل بنفس المقتول وفاقا فيقتل به وذلك أن الله تعالى حكم فى التوراة أن على الزانى المحصن الرجم وأخبر أن اليهود بدلوه وغيروه وأخبر أيضا أن فى التوراة أن النفس بالنفس وأن هؤلاء اليهود غيروا هذا الحكم وبدلوه ففضلوا بنى النضير على بنى قريظة فكان بنو النضير إذا قتلوا من بنى قريظة أدوا إليهم نصف الدية وإذا قتل بنو قريظة من بنى النضير أدوا إليهم الدية كاملة فغيروا حكم الله الذى أنزل فى التوراة قال ابن عباس أخبر الله بحكمه فى التوراة وهو أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص قال فما لهم يخالفون فيقتلون النفسين بالنفس ويفقأون العينين بالعين ومعنى الآية أن قاتل النفس يقتل بها إذا تكافأ الدمان ومذهب الشافعى أنه لا يقتل مسلم بكافر لما صح من حديث على بن أبى طالب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لا يقتل مسلم بكافر» الحديث أخرجاه فى الصحيحين وقوله تعالى (والعين بالعين) يعنى تفقأ بها (والأنف بالأنف) يعنى يجدع به (والأذن بالأذن) يعنى تقطع بها (والسن بالسن) يعنى تقلع بها وأما سائر الأطراف والأعضاء فيجرى فيها القصاص كذلك، وقوله تعالى (والجروح قصاص) يعنى فيما يمكن أن يقتص منه وهذا تعميم بعد التخصيص لأن الله تعالى ذكر النفس والعين والأنف والأذن فخص هذه الأربعة بالذكر ثم قال تعالى والجروح قصاص على سبيل العموم فيما يمكن أن يقتص منه كاليد والرجل والذكر والأنثيين وغيرها وأما مالا يمكن القصاص فيه كرض فى لحم أو كسر فى عظم أو جراحة فى بطن يخاف منها التلف فلا قصاص فى ذلك وفيه الأرش والحكومة واعلم أن هذه الآية دالة على أن هذا الحكم كان شرعا فى التوراة فمن قال شرع من قبلنا يلزمنا إلا ما نسخ منه بالتفصيل قال هذه الآية حجة فى شرعنا ومن أنكره قال إنها ليست بحجة علينا وأصل هذه المسئلة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأمته بعد البعثة هل هم متعبدون بشرع من تقدم من الأنبياء عليهم السلام؟ فنقل عن أصحاب أبى حنيفة وبعض أصحاب الشافعى وعن أحمد فى أحد الروايتين عنه أنه كان متعبدا بما صح من شرائع من قبله بطريق الوحى إليه لا من جهة كتبهم المبدلة ونقل أربابها واختار ابن الحاجب من المتأخرين هذا المذهب وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان بعد البعثة متعبدا بشرع من قبله فيم لم ينسخ من الأحكام الباقية قبل شريعته لكنه لم يعتبر فيه قيد الوحى وهو الحق وإلا لم يبق للنزاع معنى إذ لا ينكر أحد كون النبى صلى الله عليه وسلم متعبدا بعد البعثة بما أوحى إليه سواء كان من شريعة من قبله أم لا وذهبت الأشاعرة والمعتزلة إلى المنع من ذلك وهو اختيار الآمدى من المتأخرين واحتج الأولون لصحة مذهبهم بأن الإجماع منعقد على صحة الاستدلال بقوله «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس» الآية مع أنه من شريعة من تقدم لأنه مذكور فى التوراة ومكتوب على بنى إسرائيل ولولا أنا متعبدون بشريعة من قبلنا لما صح هذا الاستدلال، وقوله تعالى (فمن تصدق به) يعنى بالقصاص فلم يقتص من الجانى (فهو كفارة له) فى هاء له قولان: أحدهما إن الهاء فى له كناية عن المجروح وولى المقتول وذلك أن المجروح أو ولى المقتول إذا تصدق بالقصاص كان ذلك كفارة لذنوبه وهذا قول ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص والحسن ويدل عليه ماروى عن أبى الدرداء

قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما من رجل يصاب بشيء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة» أخرجه الترمذي وعن أنس قال «ما رأيت رسول الله ﷺ رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو» أخرجه أبو داود والنسائي. والقول الثاني أن الضمير في قوله له يعود إلى الجارح والقاتل يعني أن المجني عليه إذا عفا عن الجاني كان ذلك العفو كفارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل كما أن القصاص كفارة له فأما أجر العافي فعلى الله تعالى. وقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) يعني لأنفسهم حيث لم يحكموا بما أنزل الله عز وجل. قوله عز وجل (وقفينا على آثارهم) يعني وعقبنا على آثار النبيين الذين أسلموا (بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة) يعني أن عيسى عليه السلام كان مصدقا بأن التوراة منزلة من عند الله عز وجل وكان العمل بها واجبا قبل ورود النسخ عليها فان عيسى عليه السلام نسخ بعض أحكام التوراة وخالفها (وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) يعني فيه هدى من الجهالة وضياء من عمى البصيرة (ومصدقا لما بين يديه من التوراة) هذا ليس بتكرار للأول لأن في الأول الإخبار بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة وفي الثاني الإخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة فظهر الفرق بين اللفظين وأنه ليس بتكرار (وهدى وموعظة للمتقين) إنما قال وهدى مرة أخرى لأن الإنجيل يتضمن البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فيكون سببا لاهتداء الناس إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأما كون الإنجيل موعظة فلما فيه من المواعظ البليغة والزواجر والأمثال وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ. قوله تعالى (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) قال أهل المعاني قوله وليحكم يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون المعنى وقلنا ليحكم أهل الإنجيل فيكون هذا إخبارا عما فرض عليهم في وقت إنزاله عليهم من الحكم بما تضمنه الإنجيل ثم حذف القول لأن ما قبله من قوله وكتبنا وقفينا يدل عليه وحذف القول كثير. والوجه الثاني أن يكون قوله وليحكم ابتداء وفيه أمر للنصارى بالحكم بما في كتابهم وهو الإنجيل. فان قلت فعلى هذا الوجه كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن قلت إن المراد بهذا الحكم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن ذكره في الإنجيل ووجوب التصديق بنبوته موجود فاذا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد حكموا بما في الإنجيل. وقوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) يعني فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل. قوله عز وجل (وأنزلنا إليك الكتاب) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وأنزلنا إليك يا محمد القرآن (بالحق) يعني بالصدق الذي لا شك فيه أنه من عند الله (مصدقا لما بين يديه من الكتاب) يعني أنه يصدق جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه (ومهيمنا عليه) قال ابن عباس يعني شاهدا على الكتب التي قبله ومنه قول حسان:

إن الكتاب مهيمن لنبينا ... والحق يعرفه ذوو الألباب

القتيل أي كفارة للمتصدق وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص والحسن والشعبي وقتادة. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله الحسين بن محمد الدينوري أنا عمر بن الخطاب أنا عبد الله ابن الفضل أخبرنا أبو خيثمة أنا جرير عن مغيرة عن الشعبي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تصدق من جسده بشيء كفر الله عنه بقدره من ذنوبه» وقال جماعة هي كناية عن الجارح والقاتل يعني إذا عفا المجني عليه عن الجاني فعفوه كفارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة كما أن القصاص كفارة له فأما أجر العافي فعلى الله عز وجل قال الله تعالى «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو قول إبراهيم ومجاهد وزيد بن أسلم (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون وقفينا على آثارهم) أي على آثار النبيين الذين أسلموا (بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه) أي في الإنجيل (هدى ونور ومصدقا) يعني الإنجيل (لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) قرأ الأعمش وحمزة وليحكم بكسر اللام ونصب الميم أي لكي يحكم وقرأ الآخرون بسكون اللام وجزم الميم على الأمر قال مقاتل بن حيان أمر الله الربانيين والأحبار أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة وأمر القسيسين والرهبان أن يحكموا بما في الإنجيل فكفروا وقالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) الخارجون عن أمر الله عز وجل قوله سبحانه وتعالى (وأنزلنا إليك) يا محمد (الكتاب) القرآن (بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب) أي من الكتب المنزلة من قبل (ومهيمنا عليه) روى الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما

ى شاهدا عليه وهو قول مجاهد وقتادة والسدى والكسائى قال حسان : إن الكتاب مهيمن لنبينا والحق يعرفه ذوو الألباب
يريد شاهدا ومصدقا وقال عكرمة دالا وقال سعيد بن جبير وأبو عبيدة مؤتمنا عليه وقال الحسن أمينا
وقيل أصله مؤيمن مفيعل من أمين كما قالوا مبيطر من البيطار فقلبت الهمزة هاء كما قالوا أرقت الماء وهرقته وأيهات وهيهات ونحوها ومعنى أمانة القرآن ماقال ابن جريج القرآن أمين على ماقبله من الكتب فما أخبر أهل الكتاب عن كتابهم فان كان فى القرآن فصدقوا وإلا فكذبوا وقال سعيد بن المسيب والضحاك قاضيا وقال الخليل رقيبا وحافظا والمعانى متقاربة ومعنى الكل أن الكل كتاب يشهد بصدق القرآن فهو كتاب الله تعالى وإلا فلا (فاحكم) يامحمد (بينهم) بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك (بما أنزل الله) تعالى بالقرآن (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) أى لاتعرض عما جاءك من الحق ولاتتبع أهواءهم (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال ابن عباس والحسن ومجاهد أى سبيلا وسنة فالشرعة والمنهاج الطريق الواضح وكل ماشرعت فيه فهو شريعة وشرعة ومنه شرائع الإسلام لشروع أهلها فيها وأراد بهذا أن الشرائع مختلفة ولكل أهل ملة شريعة قال قتادة الخطاب للأمم الثلاث أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين فالتوراة شريعة والإنجيل شريعة

يريد أنه شاهد ومصدق لنبينا صلى الله عليه وسلم وإنما كان القرآن مهيمنا على الكتب التى قبله لأنه الكتاب الذى لاينسخ ولا يغير ولا يبدل وإذا كان القرآن كانت شهادته على التوراة والإنجيل والزبور وجميع الكتب المنزلة حقا وصدقا وقيل المهيمن الأمين وإنما كان القرآن أمينا على الكتب التى قبله فما أخبر أهل الكتب عن كتبهم فان قالوا ذلك فى القرآن فقد صدقوا وإلا فلا (فاحكم بينهم بما أنزل الله) يعنى إذا ترافع أهل الكتاب إليك يامحمد فاحكم بينهم بالقرآن الذى أنزله الله إليك (ولا تتبع أهواءهم) يعنى ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود فى الحكم وقال ابن عباس لاتأخذ بأهوائهم فى جلد المحصن (عما جاءك من الحق) يعنى ولا تنحرف عن الحق الذى جاءك من عند الله متبعا أهواءهم، وقوله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق وإن كان خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم لكن المراد به غيره لأنه ﷺ لم يتبع أهواءهم قط. وقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) الخطاب فى قوله منكم للأمم الثلاثة أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين بدليل أن الله عز وجل قال قبل هذه «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور» ثم قال بعد ذلك «وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم» ثم قال «وأنزلنا إليك الكتاب» ثم جمع فقال «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» والشرعة الشريعة يعنى لكل أمة شريعة فللتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة والدين واحد وهو التوحيد وأصل الشريعة من الشرع وهو البيان والإظهار فمعنى شرع بين وأوضح وقيل هو من الشروع فى الشىء والشريعة فى كلام العرب المشرعة التى يشرعها الناس فيشربون ويسقون منها وقيل الشريعة الطريقة ثم استعير ذلك للطريقة الإلهية المؤدية إلى الدين والمنهاج الطريق الواضح وقال بعضهم الشريعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد والتكرير للتأكيد والمراد بهما الدين وقال آخرون بينهما فرق لطيف وهو إن الشريعة هى التى أمر الله بها عباده والمنهاج الطريق الواضح المؤدى إلى الشريعة قال ابن عباس فى قوله شرعة ومنهاجا سنة وسبيلا وقال قتادة سبيلا وسنة فالسنن مختلفة للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة يحل الله عز وجل فيها مايشاء ويحرم مايشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه والدين الذى لايقبل غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذى جاءت به جميع الرسل عليهم السلام وقال على بن أبى طالب الإيمان منذ بعث آدم عليه السلام شهادة أن لاإله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله ولكل قوم شريعة ومنهاج قال العلماء وردت آيات دالة على عدم التباين فى طريقة الأنبياء والرسل منها: قوله «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا» إلى قوله «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» ومنها قوله «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» ووردت آيات دالة على حصول التباين بينهم منها هذه الآية وهى قوله «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» وطريق الجمع بين هذه الآيات أن كل آية دلت على عدم التباين فهى دالة على أصول الدين من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ذلك جاءت به الرسل من عند الله ولم يختلفوا فيه. وأما الآيات الدالة على حصول التباين بينهم فمحمولة على الفروع وما يتعلق بظواهر العبادات فجائز أن يتعبد الله عباده

عباده فى كل وقت بما يشاء فهذه طريق الجمع بين هذه الآيات والله أعلم بأسرار كتابه واحتج بهذه من قال إن شرع من قبلنا لايلزمنا لأن قوله لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا يدل على أن كل رسول جاء بشريعة خاصة فلا يلزم أمة رسول الاقتداء بشريعة رسول آخر ثم قال تعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) يعنى جماعة متفقة على شريعة واحدة ودين واحد لااختلاف فيه (ولكن ليبلوكم) يعنى ولكن أراد أن يختبركم (فيما آتاكم) يعنى من الشرائع المختلفة هل تعملون بها أم لا؟ فيتبين بذلك المطيع من العاصى والموافق من المخالف (فاستبقوا الخيرات) هذا خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يعنى فبادروا ياأمة محمد بالأعمال الصالحات التى تقربكم إلى الله تعالى (إلى الله مرجعكم جميعا) يعنى المطيع والعاصى والموافق والمخالف (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعنى فيخبركم فى الآخرة بما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين والدنيا والمعنى فيخبركم فى الآخرة بما لا تشكون معه فيفصل بين المحق والمبطل والطائع والعاصى بالثواب والعقاب . قوله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) قال ابن عباس إن كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا يامحمد قد عرفت إنا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم وإنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود ولم يخالفونا وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فاقض لنا عليهم نؤمن بك ونصدقك فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» يعنى احكم بينهم يامحمد بالحكم الذى أنزله الله فى كتابه (ولا تتبع أهواءهم) يعنى فيما أمروك به قال العلماء ليس فى هذه الآية تكرار لما تقدم وإنما أنزلت فى حكمين مختلفين أما الآية الأولى فنزلت فى شأن رجم المحصن وأن اليهود طلبوا منه أن يجلده وهذه الآية نزلت فى شأن الدماء والديات حين تحاكموا إليه فى أمر قتيل كان بينهم قال بعض العلماء هذه الآية ناسخة للتخيير فى قوله «فاحكم بينهم أو أعرض عنهم» . وقوله تعالى (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) يعنى واحذر يامحمد هؤلاء اليهود الذين جاءوا إليك أن يصرفوك ويصدوك بمكرهم وكيدهم فيحملوك على ترك العمل ببعض ما أنزل الله إليك فى كتابه واتباع أهوائهم (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عن الإيمان بك والرضا بالحكم بما أنزل الله عليك (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) يعنى فاعلم يامحمد أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة فى الدنيا ببعض ذنوبهم وإنما خص بعض الذنوب لأن الله جازاهم فى الدنيا على بعض ذنوبهم بالقتل والسبى والجلاء وأخر مجازاتهم على باقى ذنوبهم إلى الآخرة (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) يعنى اليهود لأنهم ردوا حكم الله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون) يعنى أفحكم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود قال ابن عباس يعنى بحكم الجاهلية ما كانوا عليه من الضلال والجور فى الأحكام وتحريفهم إياها عما أمر الله به وقال مقاتل كانت بين بنى النضير وقريظة دماء وهما حيان من اليهود وذلك قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فلما بعث وهاجر إلى المدينة تحاكموا إليه فقالت بنو قريظة بنو النضير إخواننا أبونا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد فان قتل بنو النضير منا قتيلا أعطونا سبعين وسقا من تمر وإن قتلنا منهم قتيلا أخذوا منا مائة وأربعين وسقا وأرش جراحتنا على النصف من جراحتهم فاقض بيننا وبينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانى أحكم أن

والفرقان شريعة والدين واحد وهو التوحيد (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) أى على ملة واحدة (ولكن ليبلوكم) ليختبركم (فيما آتاكم) من الكتب وبين لكم من الشرائع فيبين المطيع من العاصى والموافق من المخالف (فاستبقوا الخيرات) فبادروا إلى الأعمال الصالحة (إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) قوله عز وجل (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) إليك (ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) قال ابن عباس رضى الله عنهما قال كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من رؤساء اليهود بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا : يامحمد قد عرفت إنا أحبار اليهود وأشرافهم وإنا إن اتبعناك لم يخالفنا اليهود وأن بيننا وبين الناس خصومات فنحاكمهم إليك فاقض لنا عليهم نؤمن بك ويتبعنا غيرنا ولم يكن قصدهم الإيمان وإنما كان قصدهم التلبيس ودعوته إلى الميل فى الحكم فأنزل الله عز وجل هذه الآية (فان تولوا) أى أعرضوا عن الإيمان والحكم بالقرآن (فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة فى الدنيا ببعض ذنوبهم (وإن كثيرا من الناس) يعنى اليهود (لفاسقون، أفحكم الجاهلية يبغون؟)

قرأ ابن عامر تبغون بالتاء وقرأ الآخرون بالياء أى يطلبون (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ، ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا
اليهود والنصارى أولياء) اختلفوا فى نزول هذه الآية وإن كان حكمها عاما لجميع المؤمنين فقال قوم: نزلت
فى عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبى بن سلول وذلك أنهما اختصما فقال عبادة إن لى أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم وأنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم وولاية اليهود ولا مولى لى إلا الله ورسوله فقال عبد الله لكنى لاأبرأ من ولاية اليهود لأنى أخاف الدوائر ولابد لى منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم ياأبا الحباب مانفست به من ولاية اليهود على عبادة ابن الصامت فهو لك دونه قال إذا أقبل فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال السدى لما كانت وقعة أحد اشتدت على طائفة من الناس وتخوفوا أن يدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين أنا ألحق بفلان اليهودى وآخذ منه أمانا إنى أخاف أن يدال علينا اليهود وقال رجل آخر أما أنا فألحق بفلان النصرانى من أهل الشام وآخذ منه أمانا فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهما وقال
عكرمة نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة حين حاصرهم فاستشاروه أمر
فى النزول وقالوا ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟ فجعل أصبعه على حلقه أنه الذبح أى يقتلكم فنزلت هذه الآية (بعضهم أولياء بعض)
فى العون والنصرة ويدهم واحدة على المسلمين (ومن يتولهم منكم) فيوافقهم ويعينهم (فانه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين

دم القرظى وفاء من دم النضيرى ودم النضيرى وفاء من دم القرظى ليس لأحدهما فضل على الآخر فى دم ولا عقل ولا جراحة فغضبت بنو النضير وقالوا لانرضى بحكمك فانك لنا عدو وإنك ماتألوا فى وضعنا وتصغيرنا فأنزل الله أفحكم الجاهلية يبغون وقرئ بالتاء على الخطاب والمعنى قل لهم يامحمد أفحكم الجاهلية تبغون (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) يعنى أى حكم أحسن من حكم الله إن كنتم موقنين إن لكم ربا وإنه عدل فى أحكامه . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية وإن كان حكمها عاما لجميع المؤمنين لأن خصوص السبب لايمنع من عموم الحكم فقال قوم نزلت هذه الآية فى عبادة بن الصامت رضى الله عنه وعبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وذلك أنهما اختصما فقال عبادة أن لى أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم ولا مولى لى إلا الله ورسوله فقال عبد الله بن أبى لكنى لاأبرأ من ولاية اليهود فانى أخاف الدوائر ولا بد لى منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم ياأبا الحباب مانفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه فقال إذن أقبل فأنزل الله هذه الآية وقال السدى لما كانت وقعة أحد اشتد الأمر على طائفة من الناس وتخرفوا أن يدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين أنا ألحق بفلان اليهودى وآخذ منه أمانا إنى أخاف أن يدال علينا اليهود وقال رجل آخر أنا ألحق بفلان النصرانى من أهل الشام وآخذ منه أمانا فأنزل الله هذه الآية ينهاهم عن موالاة اليهود والنصارى وقال عكرمة نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر لما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة حين حاصرهم فاستشاروه فى النزول وقالوا ماذا يصنع بنا إذا نزلنا فجعل أصبعه فى حلقه أشار إلى أنه الذبح وأنه يقتلكم فأنزل الله «ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء» فنهى الله المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وأعوانا على أهل الإيمان بالله ورسوله وأخبر أنه من اتخذهم أنصارا وأعوانا وخلفاء من دون الله ورسوله والمؤمنين فانه منهم وإن الله ورسوله والمؤمنين منه براء (بعضهم أولياء بعض) يعنى أن بعض اليهود أنصار لبعض على المؤمنين وأن النصارى كذلك يد واحدة على من خالفهم فى دينهم وملتهم (ومن يتولهم منكم فانه منهم) يعنى ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم لأنه لايتولى مولى أحد إلا وهو راض به وبدينه وإذا رضيه ورضى دينه صار منهم وهذا تعليم من الله تعالى وتشديد عظيم فى مجانبة اليهود والنصارى وكل من خالف دين الإسلام (إن الله لايهدى القوم الظالمين) يعنى أن الله لايوفق من وضع الولاية فى غير موضعها فتول اليهود والنصارى مع علمه بعداوتهم لله ولرسوله وللمؤمنين ، روى أن أبا موسى الأشعرى قال قلت لعمر بن الخطاب إن لى كاتبا نصرانيا فقال مالك وله قاتلك الله ألا اتخذت حنيفا يعنى مسلما أما سمعت قول الله عز وجل « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض» قلت له دينه ولى كتابته فقال لاأكرمهم إذا أهانهم الله ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذا أبعدهم الله قلت أنه لايتم

فترى الذين فى قلوبهم مرض) أى نفاق يعنى عبد الله بن أبى وأصحابه من المنافقين الذين يوالون اليهود (يسارعون فيهم) فى معونتهم وموالاتهم (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) دولة يعنى أن يدول الدهر دولته فنحتاج إلى نصرهم إيانا وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه نخشى أن لا يتم أمر محمد فيدور الأمر علينا وقيل نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه من جدب وقحط ولا يعطونا الميرة والقرض (فعسى الله أن يأتى بالفتح) قال قتادة ومقاتل بالقضاء الفصل من نصر محمد صلى الله عليه وسلم على من خالفه وقال الكلبى والسدى فتح مكة وقال الضحاك فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك (أو أمر من عنده) قيل باتمام أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقيل عذاب لهم وقيل إجلاء بنى النضير (فيصبحوا) يعنى هؤلاء المنافقين (على ما أسروا فى أنفسهم) من موالاة اليهود ودس الأخبار إليهم (نادمين و) حينئذ (يقول الذين آمنوا) قرأ أهل الكوفة: ويقول بالواو والرفع على الاستئناف وقرأ أهل البصرة بالواو ونصب اللام عطفا على أن يأتى أى وعسى أن يقول الذين آمنوا وقرأ الآخرون بحذف الواو ورفع اللام وكذلك هو فى مصاحف أهل العالية استغناء عن حرف العطف لملابسة هذه الآية بما قبلها يعنى يقول الذين آمنوا فى وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين (أهؤلاء الذين أقسموا بالله) حلفوا بالله (جهد أيمانهم) أى حلفوا بأغلظ الأيمان (إنهم لمعكم؟) أى إنهم لمؤمنون يريد أن المؤمنين حينئذ يتعجبون من كذبهم وحلفهم بالباطل قال الله تعالى (حبطت أعمالهم) بطل كل خير عملوه (فأصبحوا خاسرين) خسروا الدنيا بافتضاحهم والآخرة بالعذاب وفوات الثواب قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه

أمر البصرة إلا به فقال مات النصرانى والسلام يعنى هب أنه مات فما تصنع بعده فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره من المسلمين. قوله تعالى (فترى الذين فى قلوبهم مرض) يعنى فترى يا محمد الذين فى قلوبهم شك ونفاق (يسارعون فيهم) يعنى يسارعون فى مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار فكانوا يغشونهم ويخالطونهم لأجل ذلك نزلت فى عبد الله بن أبى المنافق وفى أصحابه من المنافقين (يقولون) يعنى المنافقين (نخشى أن تصيبنا دائرة) الدائرة من دوائر الدهر كالدولة التى تدول والمعنى يقول المنافقون إنما نخالط اليهود لأنا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه ويعنون بذلك المكروه الهزيمة فى الحرب والقحط والجدب والحوادث المخوفة قال ابن عباس معناه نخشى أن لا يتم أمر محمد فيدور علينا الأمر كما كان قبل محمد (فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده) قال المفسرون عسى من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع فى خير فعله وهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له والمعنى فعسى الله أن يأتى بالفتح لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار دينه على الأديان كلها وإظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى وقد فعل الله ذلك بمنه وكرمه فأظهر دينه ونصر عبده وقيل أراد بالفتح فتح مكة وقيل فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك ونحوهما من بلادهم «أو أمر من عنده» يعنى أنه تعالى يقطع أصل اليهود من أرض الحجاز ويخرجهم من بلادهم بلا كلفة وتعب ولا يكون للناس فيه فعل البتة كما ألقى فى قلوبهم الرعب فأخلوا ديارهم وخربوها بأيديهم ورحلوا إلى الشام. وقوله تعالى (فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) يعنى فيصبح المنافقون الذين كانوا يوالون اليهود نادمين على ما حدثوا به أنفسهم إن أمر محمد لا يتم وقيل ندموا على دس الأخبار إلى اليهود (ويقول الذين آمنوا) يعنى ويقول الذين آمنوا فى وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين (أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم) وذلك أن المؤمنين كانوا يتعجبون من حال المنافقين عند ما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى ويقولون إن المنافقين حلفوا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعنا ومن أنصارنا والآن كيف صاروا موالين لأعدائنا من اليهود محبين للاختلاط بهم فبان كذب المنافقين فى أيمانهم الباطلة (حبطت أعمالهم) أى بطل كل خير عملوه لأجل ما أظهروا من النفاق وموالاة اليهود (فأصبحوا خاسرين) يعنى أنهم خسروا فى الدنيا بافتضاحهم وخسروا فى الآخرة باحباط ثواب أعمالهم وحصلوا بالعذاب الدائم المقيم. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) يعنى من يرجع منكم عن دينه الحق الذى هو عليه وهو دين الإسلام فيبدله ويغيره بدخوله فى الكفر بعد الإيمان فيختار: إما اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من أصناف الكفر فلن يضر الله شيئا وإنما ضر نفسه برجوعه عن الدين الصحيح الذى هو دين الإسلام قال الحسن علم الله تعالى أن قوما سيرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ فأخبر أنه سيأتى

فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قرأ أهل المدينة والشام يرتدد بدالين على إظهار التضعيف عن دينه فيرجع إلى الكفر
قال الحسن علم الله تبارك وتعالى أن قوما يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم صلى الله عليه وسلم فأخبر أنه سيأتى بقوم
يحبهم الله ويحبونه واختلفوا فى أولئك القوم من هم قال على بن أبى طالب رضى الله عنه والحسن وقتادة هم أبو بكر وأصحابه
الذين قاتلوا أهل الردة ومانعى الزكاة، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قبض ارتد عامة العرب إلا أهل
مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس ومنع بعضهم الزكاة وهم أبو بكر رضى الله عنه بقتالهم فكره ذلك أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقال عمر رضى الله عنه كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال أنس بن مالك رضى الله عنه كرهت الصحابة قتال مانعى الزكاة وقالوا أهل القبلة فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره قال ابن مسعود كرهنا ذلك فى الابتداء ثم حمدناه عليه فى الانتهاء
قال أبو بكر ابن عياش سمعت أبا حصين يقول ماولد بعد النبيين مولود أفضل من أبى بكر رضى الله عنه على
لقد قام مقام نبى من الأنبياء فى قتال أهل الردة وقد كان قد ارتد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث فرق منهم بنو
مدلج ورئيسهم ذو الحمار عيهلة بن كعب العنسى ويلقب بالأسود وكان كاهنا مشعبذا فتنبأ باليمن واستولى على بلاده فكتب
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل ومن معه من المسلمين، وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسك بدينهم وعلى

بقوم يحبهم ويحبونه وذكر صاحب الكشاف أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت ثلاث
فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسى
وكان كاهنا فتنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج منها عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم
فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن فأهلكه الله تعالى
على يد فيروز الديلمى فى بيته فقتله فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بقتله ليلة
قتل فسر المسلمون بذلك وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد وأتى خبر قتله فى آخر
ربيع الأول وبنو حنيفة وهم قوم مسيلمة الكذاب تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. أما بعد فان الأرض نصفها لى ونصفها لك فكتب
إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد فان
الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» وستأتى قصة قتله فيما بعد وبنو أسد وهم
قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقاتله فانهزم
بعد القتال إلى الشام ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وارتد سبع فرق فى خلافة أبى بكر الصديق
وهم فزارة قوم عيينة بن حصن الفزارى وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيرى وبنو سليم قوم
الفجاءة بن عبد ياليل وبنو يربوع قوم مالك ابن نويرة اليربوعى وبعض تميم قوم سجاح بنت
المنذر المتنبئة التى زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب وكندة قوم الأشعث بن قيس الكندى
وبنو بكر بن وائل قوم الحطم بن زيد فكفى الله أمرهم على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه
وفرقة واحدة ارتدت فى خلافة عمر بن الخطاب وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم واختلف العلماء
فى المعنى بقوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) فقال على بن أبى طالب والحسن
وقتادة هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ومانعى الزكاة وذلك أن النبى صلى الله عليه
وسلم لما قبض ارتد عامة العرب (١) كما تقدم تفصيله إلا أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين
من بنى عبد القيس فانهم ثبتوا على الإسلام ونصر الله بهم الدين ولما ارتد من ارتد من العرب ومنعوا
الزكاة هم أبو بكر بقتالهم وكره ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عمر كيف
تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله
إلا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ودمه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال أبو بكر والله لأقاتلن من
فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا أو قال عقالا كانوا يؤدونها إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها وقال أنس بن مالك كرهت الصحابة قتال
مانعى الزكاة وقالوا هم أهل القبلة فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدا من الخروج

(١) قوله «ارتد عامة العرب» الخ الذين تقدم ارتدادهم فى زمن أبى بكر سبع فرق لا غير. اهـ

النهوض الى حزب الأسود فقتله فيروز الديلمي على فراشه قال ابن عمر رضى الله عنه فأتى الخبر النبى صلى الله عليه وسلم من السماء الليلة التى قتل فيها فقال صلى الله عليه وسلم قتل الأسود البارحة قتله رجل مبارك قيل ومن هو ؟ قال فيروز فبشر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بهلاك الأسود وقبض صلى الله عليه وسلم من الغد وأتى خبر مقتل العنسى المدينة فى آخر شهر ربيع الأول بعد ما خرج أسامة وكان ذلك أول فتح جاء أبو بكر رضى الله عنه والفرقة الثانية بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذاب وكان قد تنبأ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر سنة عشر وزعم أنه أشرك مع محمد صلى الله عليه وسلم فى النبوة وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فان الأرض نصفها لى ونصفها لك وبعث إليه مع رجلين من أصحابه فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» ثم أجاب «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فان

الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» ومرض رسول الله ﷺ وتوفى فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب فى جيش كثير حتى أهلكه الله على يدى وحشى غلام مطعم ابن عدى الذى قتل حمزة ابن عبد المطلب بعد حرب شديد وكان وحشى يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الإسلام والفرقة الثانية بنو أسد ورئيسهم طليحة ابن خويلد وكان طليحة آخر من ارتد وادعى النبوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأول من قوتل بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الردة فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إليه فهزمهم خالد بعد قتال شديد وأفلت طليحة فمر على وجهه هاربا نحو الشام ثم إنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وارتد بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه خلق كثير حتى كفى الله المسلمين أمرهم ونصر دينه على يدى أبى بكر رضى الله عنه . قالت عائشة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب واشرأب النفاق ونزل بأبى مالو نزل بالجبال الراسيات لهاضها وقال قوم المراد بقوله فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه هم الأشعريون روى عن عياض بن غنم الأشعرى قال لما نزلت هذه الآية «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم قوم هذا وأشار إلى أبى موسى الأشعرى وكانوا من اليمن أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن الطيسفونى أنا أبو عبد الله عمر الجوهرى أنا أحمد ابن على الكشميهنى أخبرنا على بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى موسى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبا وأرق أفئدة الإيمان يمان والحكمة يمانية وقال

على أثر» فقال ابن مسعود كرهنا ذلك فى الابتداء ثم حمدناه عليه فى الانتهاء وقال أبو بكر بن عياش سمعت أبا حصين يقول ما ولد بعد النبيين أفضل من أبى بكر الصديق لقد قام مقام نبى من الأنبياء فى قتال أهل الردة وقالت عائشة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب واشرأب النفاق ونزل بأبى بكر مالو نزل بالجبال الراسيات لهاضها وبعث أبو بكر الصديق خالد بن الوليد فى جيش كثير إلى بنى حنيفة باليمامة وهم قوم مسيلمة الكذاب فأهلك الله مسيلمة على يد وحشى غلام مطعم بن عدى الذى قتل حمزة فكان وحشى يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الإسلام أراد بذلك وحشى أنه فى حال الجاهلية قتل حمزة وهو خير الناس وفى حال إسلامه قتل مسيلمة الكذاب وهو شر الناس وقال قوم المراد بقوله تعالى «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه» الأشعريون قوم أبى موسى الأشعرى روى عن عياض ابن غنم الأشعرى قال لما نزلت هذه الآية «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم قوم هذا يعنى أبا موسى الأشعرى أخرجه الحاكم فى المستدرك وقيل هم أهل اليمن (ق) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا الإيمان يمان والحكمة يمانية» وقال السدى نزلت فى الأنصار لأنهم هم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوه على إظهار الدين وقيل هم أحياء من أهل اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من أهل كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا فى سبيل الله يوم القادسية فى خلافة عمر وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية إخبارا عن الغيب وقد وقع الخبر على وفقه بحمد الله تعالى فتكون هذه الآية معجزة . وأما معنى المحبة فيقال أحببت فلانا بمعنى جعلت قلبى معرضا بأن يحبه والمحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيرا ومحبة الله تعالى العبد إنعامه عليه وتوفيقه وهدايته إلى طاعته والعمل بما يرضى به عنه وإن يثيبه أحسن الثواب على طاعته

الكلبي هم أحياء من اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أفناء الناس فجاهدوا فى سبيل الله يوم القادسية فى أيام عمر رضى الله عنه قوله عز وجل (أذلة على المؤمنين) يعنى أرقاء رحماء لقوله عز وجل «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» ولم يرد به الهوان بل أراد أن جانبهم لين على المؤمنين وقيل هو الذل من قولهم دابة ذلول يعنى أنهم متواضعون قال الله تعالى «وعباد الرحمن (٦٦) الذين يمشون على الأرض هونا» (أعزة على الكافرين) أى أشداء غلاظ على الكفار يعادونهم ويغالبونهم من قولهم عزه أى غلبه. قال عطاء أذلة على المؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده أعزة على الكافرين كالسبع على فريسته نظيره قوله تعالى «أشداء على الكفار رحماء بينهم» (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) يعنى لا يخافون فى الله لومة الناس وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم وروينا عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى محبتهم لله ولين جانبهم للمسلمين وشدتهم على الكافرين من فضل الله عليهم (والله واسع عليم إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبى بن سلول حين تبرأ من عبادة اليهود وقال أتولى الله ورسوله والذين آمنوا؟ فنزل فيهم من قوله «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء إلى قوله إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» يعنى عبادة بن الصامت وأصحاب رسول الله ﷺ وقال جابر بن عبد الله جاء عبد الله بن سلام إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله أن قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا

وأن يثنى عليه ويرضى عنه ومحبة العبد لله عز وجل أن يسارع إلى طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعل مايوجب سخطه وعقوبته وأن يتحبب إليه بما يوجب له الزلفى لديه جعلنا الله ممن يحبهم ويحبونه بمنه وكرمه. وقوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) هذه من صفات الذين اصطفاهم الله تعالى ووصفهم بقوله يحبهم ويحبونه يعنى أنهم أرقاء رحماء لأهل دينهم ولإخوانهم من المؤمنين ولم يرد ذل الهوان بل أراد لين جانبهم لإخوانهم المؤمنين وهم مع رقتهم ورحمتهم ولين جانبهم أشداء أقوياء غلظاء على أعدائهم الكافرين. قال على بن أبى طالب أذلة على المؤمنين يعنى أهل رقة على أهل دينهم أعزة على الكافرين أهل غلظة على من خالفهم فى دينهم وقال ابن عباس تراهم كالولد لوالده والعبد لسيده وهم فى الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته وقال ابن الأنبارى أثنى الله على المؤمنين بأنهم يتواضعون للمؤمنين إذا لقوهم ويعنفون الكافرين إذا لقوهم وقيل إن الذل بمعنى الشفقة والرحمة كأنه قال راحمين للمؤمنين مشفقين عليهم على وجه التذلل والتواضع وإنما أتى بلفظة على حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم لا لأجل كونهم ذليلين فى أنفسهم بل ذلك التذلل لأجل أنهم ضموا إلى علو منصبهم فضيلة التواضع ويدل على صحة هذا سياق الآية وهو قوله «أعزة على الكافرين» يعنى أنهم أشداء أقوياء فى أنفسهم وعلى أعدائهم (يجاهدون فى سبيل الله) يعنى أنهم ينصرون دين الله (ولا يخافون لومة لائم) يعنى لا يخافون عدل عاذل فى نصرهم الدين وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم فبين الله تعالى فى هذه الآية أن من كان قويا فى الدين فانه لا يخاف فى نصره لدين الله بيده أو بلسانه لومة لائم وهذه صفة المؤمنين المخلصين إيمانهم لله تعالى (ق) عن عبادة بن الصامت قال بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره على أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم ثم قال تعالى (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ذلك إشارة إلى ماتقدم ذكره من وصفهم بمحبة الله ولين جانبهم للمؤمنين وشدتهم على الكافرين وأنهم يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم كل ذلك من فضل الله تعالى تفضل به عليهم ومن إحسانه إليهم (والله واسع عليم) يعنى أنه تعالى واسع الفضل عليم بمن يستحقه. قوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى عبادة بن الصامت حين تبرأ من موالاة اليهود وقال أوالى الله ورسوله والمؤمنين يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال جابر بن عبد الله نزلت فى عبد الله ابن سلام وذلك أنه جاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إن قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا فنزلت هذه الآية فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله بن سلام رضينا بالله ربا وبرسوله نبيا وبالمؤمنين أولياء وقيل الآية عامة فى حق

نزلت هذه الآية فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء وعلى هذا التأويل أراد بقوله وهم راكعون صلاة التطوع بالليل والنهار وقاله ابن عباس رضي الله عنهما وقال السدي قوله والذين آمنوا (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) أراد به علي

بن أبي طالب رضي الله عنه مر به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه وقال جويبر عن الضحاك في قوله «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» قال هم المؤمنون بعضهم أولياء بعض وقال أبو جعفر محمد بن علي الباقر إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا نزلت في المؤمنين فقيل له إن أناسا يقولون إنها نزلت في علي رضي الله عنه فقال هو من المؤمنين (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا) يعني يتول القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد المهاجرين والأنصار (فإن حزب الله) يعني أنصار دين الله (هم الغالبون) قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا) الآية قال ابن عباس: كان رفاعة ابن زيد بن التابوت وسويد ابن الحارث قد اظهرا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله عز وجل هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا» باظهار ذلك بألسنتهم قولا وهم مستبطنون الكفر (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعني اليهود (والكفار) قرأ أهل البصرة والكسائي الكفار بخفض الراء يعني ومن الكفار ، وقرأ الآخرون بالنصب أي لا تتخذوا الكفار (أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا

في حق جميع المؤمنين لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فعلى هذا يكون قوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) صفة لكل مؤمن ويكون المراد بذكر هذه الصفات تمييز المؤمنين عن المنافقين لأن المنافقين كانوا يدعون أنهم مؤمنون إلا أنهم لم يكونوا يداومون على فعل الصلاة والزكاة فوصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة يعني بتمام ركوعها وسجودها في مواقيتها ويؤتون الزكاة يعني ويؤدون زكاة أموالهم إذا وجبت عليهم. أما قوله تعالى وهم راكعون فعلى هذا التفسير فيه وجوه: أحدها أن المراد من الركوع هنا الخضوع والمعنى أن المؤمنين يصلون ويزكون وهم منقادون خاضعون لأوامر الله ونواهيه. الوجه الثاني أن يكون المراد منه أن من شأنهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإنما خص الركوع بالذكر تشريفا له. الوجه الثالث قيل أن هذه الآية نزلت وهم ركوع وقيل نزلت في شخص معين وهو علي بن أبي طالب قال السدي مر بعلي سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه فعلى هذا قال العلماء العمل القليل في الصلاة لا يفسدها والقول بالعموم أولى وإن كان قد وافق وقت نزولها صدقة علي بن أبي طالب وهو راكع ويدل على ذلك ماروى عن عبد الملك بن سليمان قال سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عن هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» من هم؟ فقال المؤمنون فقلت إن ناسا يقولون هو علي فقال علي من الذين آمنوا. وقوله تعالى (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا) يعني ومن يتول القيام بطاعة الله ونصر رسوله والمؤمنين قال ابن عباس يريد المهاجرين والأنصار ومن يأتي بعدهم (فإن حزب الله) يعني أنصار دين الله (هم الغالبون) لأن الله ناصرهم على عدوهم والحزب في اللغة أصحاب الرجل الذين يكونون معه على رأيه وهم القوم الذين يجتمعون لأمر حزبه يعني أهمه. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا) قال ابن عباس كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعنى اتخذوا دينكم هزوا ولعبا هو إظهارهم الإسلام بألسنتهم قولا وهم على ذلك يبطنون الكفر ويسرونه (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعني اليهود (والكفار) يعني عبدة الأصنام وإنما فصل بين أهل الكتاب والكفار وإن كان أهل الكتاب من الكفار لأن كفر المشركين من عبدة الأصنام أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب (أولياء) يعني لا تتخذوهم أولياء والمعنى أن أهل الكتاب والكفار اتخذوا دينكم يا معشر المؤمنين هزوا وسخرية فلا تتخذوهم أنتم أولياء وأنصارا (واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) يعني مؤمنين حقا لأن المؤمن يأبى موالاة أعداء الله عز وجل. قوله تعالى (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) قال الكلبي كان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها قالت اليهود قد قاموا لاقاموا وصلوا لاصلوا ويضحكون على طريق الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية وقال السدي نزلت هذه الآية في رجل من النصارى كان بالمدينة فكان إذا سمع المؤذن

ذلك بأنهم قوم لايعقلون) قال الكلبي كان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها قالت اليهود قد قاموا لاقاموا وصلوا لاصلوا على طريق الاستهزاء وضحكوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقال السدى نزلت فى رجل من النصارى بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله قال حرق الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار هو وأهله نيام فتطايرت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله وقال الآخرون إن الكفار لما سمعوا الآذان حسدوا المسلمين فدخلوا (٦٨) على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يامحمد لقد أبدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم فان كنت تدعى النبوة فقد خالفت فيما أحدثت الأنبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء فمن أين لك صياح كصياح العير فما أقبح من صوت وما أسمج من أمر؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله» الآية قوله عزوجل (قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا) الآية قرأ الكسائى هل تنقمون بادغام اللام فى التاء وكذلك يدغم لام هل فى التاء والثاء والنون ووافقه حمزة فى التاء والثاء وأبو عمرو فى هل ترى فى موضعين قال ابن عباس أتى النبى صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود أبو ياسر ابن أخطب ورافع بن أبى رافع وغيرهما فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله ونحن له مسلمون فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوته وقالوا والله مانعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم ولادينا شرا من دينكم فأنزل الله تعالى هذه الآية «قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا» أى تكرهون منا (إلا إن آمنا بالله وما أنزل إلينا وماأنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون) أى هل تكرهون منا إلا إيماننا وفسقكم أى إنما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنا على حق لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم لحب الرياسة وحب الأموال ثم قال (قل) يامحمد (هل أنبئكم) أخبركم (بشر من ذلك) للذى ذكرتم يعنى قولهم لم نر أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة

يقول أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله يقول حرق الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وهو وأهله نيام فطارت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله وقيل إن الكفار والمنافقين كانوا إذا سمعوا حسدوا المسلمين على ذلك فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يامحمد لقد أبدعت شيئا لم يسمع بمثله فيما مضى من الأمم قبلك فان كنت تدعى النبوة فقد خالفت الأنبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء فمن أين لك صياح كصياح العير فما أقبح هذا الصوت وما أسمج هذا الأمر؟ فأنزل الله عز وجل «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله» الآية وأنزل «وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا» (ذلك بأنهم قوم لايعقلون) يعنى أن هزؤهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لاعقل لهم . قوله تعالى (قل ياأهل الكتاب) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى قل يامحمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا دينك هزوا ولعبا (هل تنقمون منا) يعنى هل تكرهون منا أو تعيبون علينا (إلا أن آمنا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل من قبل) وهذا على سبيل التعجب من فعل أهل الكتاب والمعنى هل تجدون علينا فى الدين إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وبما أنزل على جميع الأنبياء من قبل وهذا ليس مما ينكر أو ينتقم منه وهذا كما قال بعضهم .

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

يعنى أنه ليس فيهم عيب إلا ذلك وهذا ليس بعيب بل هو مدح عظيم لهم قال ابن عباس أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبى رافع وعازوراء وزيد وخالد وأزار ابن أبى أزار وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط إلى قوله ونحن له مسلمون الآية فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا والله لانؤمن بمن آمن به فأنزل الله هذه الآية وقيل إنهم قالوا والله مانعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم ولادينا شرا من دينكم فأنزل الله هذه الآية «قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل من قبلك» وهذا هو ديننا الحق وطريقنا المستقيم فلم تنقمونه علينا (وأن أكثركم فاسقون) يعنى إنما كرهتم إيماننا ونقمتموه علينا مع علمكم بأنا على الحق بسبب فسقكم وإقامتكم على الدين الباطل لحب الرياسة وأخذ الأموال بالباطل وإنما قال أكثركم لأن الله لم أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله وبرسوله . قوله عز وجل (قل هل أنبئكم بشر من ذلكم) هذا

جواب

منكم ولا دينا شرا من دينكم فذكر الجواب بلفظ الابتداء وإن لم يكن الابتداء شرا لقوله تعالى «أفأنبئكم بشر من ذلكم النار» (مثوبة) ثوابا وجزاء نصب على التفسير (عند الله من لعنه الله) أى هو من لعنه الله (وغضب عليه) يعنى اليهود (وجعل منهم القردة والخنازير) فالقردة أصحاب السبت والخنازير كفار مائدة عيسى عليه السلام . وروى عن على ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الممسوخين كلاهما من أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير (وعبد الطاغوت) أى جعل منهم من عبد الطاغوت أى أطاع الشيطان فيما سول له وتصديقها قراءة ابن مسعود ومن عبدوا الطاغوت وقرأ حمزة وعبد بضم الباء الطاغوت بجر التاء أراد العبد وهما لغتان : عبد بجزم الباء وعبد بضم الباء مثل سبع وسبع وقيل هو جمع العباد وقرأ الحسن وعبد الطاغوت على الواحد (أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل) عن طريق الحق (وإذا جاءوكم قالوا) يعنى هؤلاء المنافقين وقيل هم الذين قالوا آمنا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره دخلوا على النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا (آمنا) بك وصدقناك فيما قلت وهم يسرون الكفر (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) يعنى دخلوا كافرين وخرجوا كافرين (والله أعلم بما كانوا يكتمون وترى كثيرا منهم) يعنى من اليهود (يسارعون

جواب لليهود لما قالوا مانعرف دينا شرا من دينكم والمعنى قل يامحمد لهؤلاء اليهود الذين قالوا هذه المقالة هل أخبركم بشر من ذلك الذى ذكرتم ونقمتم علينا من إيماننا بالله وبما أنزل علينا (مثوبة عند الله) يعنى جزاء . فان قلت المثوبة مختصة بالإحسان لأنها فى معنى الثواب فكيف جاءت فى الإساءة؟ قلت وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله . تحية بينهم ضرب وجيع . ومنه قوله تعالى «فبشرهم بعذاب أليم» والمعنى قل هل أنبئكم بشر من أهل ذلك الدين مثوبة . فان قلت هذا يقتضى أن الموصوفين بذلك الدين محكوم عليهم بالشر لأنه تعالى قال بشر من ذلك ومعلوم أن الأمر ليس كذلك فما جوابه ؟ . قلت جوابه أن الكلام خرج على حسب قولهم واعتقادهم فان اليهود حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر فقال لهم هب إن الأمر كذلك لكن من لعنه الله وغضب عليه ومسخ صورته شر من ذلك . وقوله تعالى (من لعنه الله) معناه هل أنبئكم بمن لعنه الله أو هو من لعنه الله ومعنى لعنه الله أبعده وطرده عن رحمته (وغضب عليه) يعنى وانتقم منه لأن الغضب إرادة الانتقام من العصاة (وجعل منهم القردة والخنازير) يعنى من اليهود من لعنه الله وغضب عليه ومنهم من جعلهم قردة وخنازير قال ابن عباس أن الممسوخين كلاهما أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير . وقيل إن مسخ القردة كان فى أصحاب السبت من اليهود ومسخ الخنازير كان فى الذين كفروا بعد نزول المائدة فى زمن عيسى عليه السلام ولما نزلت هذه الآية عير المسلمون اليهود وقالوا لهم ياإخوان القردة والخنازير وافتضحوا بذلك (وعبد الطاغوت) يعنى وجعل منهم عبد الطاغوت يعنى من أطاع الشيطان فيما سول له والطاغوت هو الشيطان وقيل هو العجل وقيل هو الكهان والأحبار وجملته أن كل من أطاع أحدا فى معصية الله فقد عبده وهو الطاغوت (أولئك) يعنى الملعونين والمغضوب عليهم والممسوخين (شر مكانا) يعنى من غيرهم ونسب الشر إلى المكان والمراد به أهله فهو من باب الكناية وقيل أراد أن مكانهم سقر ولا مكان أشد شرا منه (وأضل عن سواء السبيل) يعنى وأخطأ عن قصد طريق الحق . قوله تعالى (وإذا جاءوكم قالوا آمنا) قال قتادة نزلت فى أناس من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه إنهم مؤمنون راضون بالذى جاء به وهم متمسكون بضلالتهم وكفرهم فكان هؤلاء يظهرون الإيمان وهم فى ذلك منافقون فأخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بحالهم وشأنهم (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) يعنى إنهم دخلوا كافرين وخرجوا كما دخلوا كافرين لم يتعلق بقلوبهم شىء من الإيمان فهم كافرون فى حالتى الدخول والخروج (والله أعلم بما كانوا يكتمون) يعنى من الكفر الذى فى قلوبهم . قوله عزوجل (وترى كثيرا منهم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وترى يامحمد كثيرا من اليهود وكلمة من يحتمل أن تكون للتبعيض ولعل هذه الأفعال المذكورة فى هذه الآية ما كان يفعلها كل اليهود فلذا قال تعالى وترى كثيرا منهم (يسارعون) المسارعة فى الشىء المبادرة إليه بسرعة لكن لفظة المسارعة إنما تستعمل فى الخير ومنه قوله تعالى يسارعون فى الخيرات وضدها العجلة وتقال فى الشر فى الأغلب وإنما ذكرت لفظة فى قوله يسارعون

فى الإثم والعدوان) قيل الإثم المعاصى والعدوان الظلم وقيل الإثم ما كتموا من التوراة والعدوان ما زادوا فيها (وأكلهم السحت) الرشا (لبئس ما كانوا يعملون لولا) (٧٠) هلا (ينهاهم الربانيون والأحبار) يعنى العلماء قيل الربانيون علماء النصارى والأحبار علماء اليهود (عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون وقالت اليهود يد الله مغلولة) قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله فى محمد ﷺ وكذبوا به كف الله عنهم ما بسط عليهم من السعة فعند ذلك، قال فنحاص بن عازوراء يد الله مغلولة أى محبوسة مقبوضة عن الرزق نسبوه إلى البخل قيل إنما قال هذه المقالة فنحاص فلما لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله فيها وقال الحسن معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا إلا ما يبر به قسمه قدر ما عبد آباؤنا العجل والأول أولى لقوله ينفق كيف يشاء (غلت أيديهم) أى أمسكت أيديهم عن الخيرات وقال الزجاج أجابهم الله تعالى فقال أنا الجواد وهم البخلاء وأيديهم هى المغلولة الممسكة وقيل هو من الغل فى النار يوم القيامة لقوله تعالى «إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل» (ولعنوا) عذبوا فقد (بما قالوا) فمن لعنهم أنهم مسخوا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة فى الدنيا وفى الآخرة بالنار (بل يداه مبسوطتان)

(فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت) لفائدة وهى أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيها والإثم اسم جامع لجميع المعاصى والمنهيات فيدخل تحته العدوان وأكل السحت، فلهذا ذكر الله العدوان وأكل السحت بعد الإثم والمعاصى وقيل الإثم ما كتموه من التوراة والعدوان ما زادوا فيها والسحت هو الرشا وما يأكلونه من غير وجهه (لبئس ما كانوا يعملون) يعنى لبئس العمل كان هؤلاء اليهود يعملون وهو مسارعتهم إلى الإثم والعدوان وأكلهم السحت. قوله تعالى (لولا) يعنى هلا وهى هنا بمعنى التحضيض والتوبيخ (ينهاهم الربانيون والأحبار) قال الحسن الربانيون علماء أهل الإنجيل والأحبار علماء أهل التوراة وقال غيره كلهم من اليهود لأنه متصل بذكرهم (عن قولهم الإثم) يعنى الكذب (وأكلهم السحت) والمعنى هلا نهى الأحبار والرهبان، اليهود عن قولهم الإثم وأكلهم السحت (لبئس ما كانوا يصنعون) يعنى الأحبار والرهبان إذ لم ينهوا غيرهم عن المعاصى وهذا يدل على أن تارك النهى عن المنكر بمنزلة مرتكبه لأن الله تعالى ذم الفريقين فى هذه الآية قال ابن عباس ما فى القرآن أشد توبيخا من هذه الآية وقال الضحاك ما فى القرآن آية أخوف عندى منها. قوله عز وجل (وقالت اليهود يد الله مغلولة) نزلت هذه الآية فى فنحاص اليهودى قال ابن عباس إن الله قد بسط على اليهود حتى كانوا أكثر الناس أموالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله ومحمدا صلى الله عليه وسلم وكذبوا به كف عنهم ما بسط عليهم من السعة. فعند ذلك قال فنحاص يد الله مغلولة يعنى محبوسة مقبوضة عن الرزق والبذل والعطاء فنسبوا الله تعالى إلى البخل والقبض تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، ولما قال هذه المقالة الخبيثة فنحاص ولم ينهه بقية اليهود ورضوا بقوله لاجرم لأن الله تعالى أشركهم معه فى هذه المقالة فقال تعالى إخبارا عنهم وقالت اليهود يد الله مغلولة يعنى نعمته مقبوضة عنا وقيل معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا إلا بقدر ما يبر به قسمه وذلك قدر ما عبد آباؤنا العجل. والقول الأول أصح لقوله تعالى ينفق كيف يشاء واعلم أن غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود بدليل قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط» والسبب أن اليد آلة لكل الأعمال لاسيما لدفع المال وإنفاقه وإمساكه فأطلقوا اسم السبب على المسبب وأسندوا الجود والبخل إلى اليد مجازا فقيل للجواد الكريم فياض اليد ومبسوط اليد وقيل للبخيل مقبوض اليد. وقوله تعالى (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) يعنى أمسكت أيديهم عن كل خير وطردوا عن رحمة الله قال الزجاج رد الله عليهم فقال أنا الجواد الكريم وهم البخلاء وأيديهم هى المغلولة الممسوكة وقيل هذا دعاء على اليهود علمنا الله كيف ندعوا عليهم فقال غلت أيديهم أى فى نار جهنم فعلى هذا هو من الغل حقيقة أى شدت أيديهم إلى أعناقهم وطرحوا فى النار جزاء لهم على هذا القول ومعنى لعنوا بما قالوا عذبوا بسبب ما قالوا فمن لعنتهم أنهم مسخوا فى الدنيا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة والجزية وفى الآخرة لهم عذاب النار. وقوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) يعنى أنه تعالى جواد كريم ينفق كيف يشاء وهذا جواب لليهود ورد عليهم ما افتروه واختلقوه على الله تعالى عن قولهم علوا كبيرا وإنما أجيبوا بهذا الجواب على قدر كلامهم. وأما الكلام فى اليد

فقد اختلف العلماء فى معناها على قولين: أحدهما وهومذهب جمهور السلف وعلماء أهل السنة وبعض المتكلمين أن يد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه فيجب علينا الإيمان بها والتسليم ونمرها كما جاءت فى الكتاب والسنة بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل قال الله تعالى «لما خلقت بيدى» وقال النبى صلى الله عليه وسلم «عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين». والقول الثانى قول جمهور المتكلمين وأهل التأويل فانهم قالوا اليد تذكر فى اللغة على وجوه أحدها الجارحة وهى معلومة. وثانيها النعمة يقال لفلان عندى يدا شكره عليهما. وثالثها القدرة قال الله تعالى «أولى الأيدى والأبصار» فسروه بذوى القوى والعقول ويقال لا يد لك بهذا الأمر والمعنى سلب كمال القدرة. ورابعها الملك يقال هذه الضيعة فى يد فلان أى فى ملكه ومنه قوله تعالى «الذى بيده عقدة النكاح» أى يملك ذلك، أما الجارحة فمنتفية فى صفة الله عز وجل لأن العقل دل على أنه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الأجزاء والأبعاض تعالى الله عن الجسمية والكيفية والتشبيه علوا كبيرا فامتنع بذلك أن تكون يد الله بمعنى الجارحة وأما سائر المعانى التى فسرت اليد بها فحاصلة لأن أكثر العلماء من المتكلمين زعموا أن اليد فى حق الله عبارة عن القدرة وعن الملك وعن النعمة وهاهنا إشكالان: أحدهما أن اليد إذا فسرت بمعنى القدرة فقدرة الله واحدة ونص القرآن ناطق باثبات اليدين فى قوله تعالى بل يداه مبسوطتان وأجيب عن هذا الإشكال بأن اليهود لما جعلوا قولهم «يد الله مغلولة» كناية عن البخل أجيبوا على وفق كلامهم فقال بل يداه مبسوطتان أى ليس الأمر على ما وصفتموه من البخل بل هو جواد كريم على سبيل الكمال فان من أعطى بيديه فقد أعطى على أكمل الوجوه. الإشكال الثانى أن اليد إذا فسرت بالنعمة فنص القرآن ناطق بتثنية اليد ونعم الله غير محصورة ولا معدودة ومنه قوله تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» وأجيب عن هذا الإشكال بأن التثنية بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع لا نهاية لها مثل: نعمة الدنيا ونعمة الدين ونعمة الظاهر ونعمة الباطن ونعمة النفع ونعمة الدفع فالمراد بالتثنية المبالغة فى وصف النعمة أجاب أصحاب القول عن هذا بأن قالوا إن الله تعالى أخبر عن آدم أنه خلقه بيديه ولو كان معنى خلقه لآدم بقدرته أو بنعمته أو بملكه لم يكن لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم لأن جميع خلقه مخلوقون بقدرته وجميعهم فى ملكه ومتقلبون فى نعمه فلما خص الله آدم عليه السلام بقوله تعالى لما خلقت بيدى دون خلقه علم بذلك اختصاصه وتشريفه على غيره ونقل الإمام فخر الدين الرازى عن أبى الحسن الأشعرى قولا أن اليد صفة قائمة بذات الله وهى صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الإصطفاء قال والذى يدل عليه إنه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه على سبيل الكرامة لآدم واصطفائه له فلو كانت اليد عبارة عن القدرة امتنع كون آدم مصطفى بذلك لأن ذلك حاصل فى جميع المخلوقات فلا بد من إثبات صفة أخرى وراء القدرة يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الإصطفاء هذا آخر كلامه وأجيب عن قولهم أن التثنية بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع كثيرة بأن الاسم إذا ثنى لا يؤدى فى كلام العرب إلا عن اثنين بأعيانهما دون الجمع ولا يؤدى عن الجنس أيضا قالوا وخطأ فى كلام العرب أن يقال ما أكثر الدرهمين فى أيدى الناس بمعنى ما أكثر الدراهم فى أيديهم لأن الدرهم إذا ثنى لا يؤدى فى كلام العرب إلا عن اثنين بأعيانهما ولكن الواحد يؤدى عن جنسه كما تقول العرب ما أكثر الدرهم فى أيدى الناس بمعنى ما أكثر الدراهم فى أيديهم

وبد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه وقال جل ذكره لما خلقت بيدى وقال النبى صلى الله عليه وسلم كلتا يديه يمين والله أعلم بصفاته فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم، وقال أئمة السلف من أهل السنة فى هذه الصفات أمروها كما

أى كلما أنزلت آية كفروا بها فازدادوا طغيانا وكفر (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء) يعنى بين اليهود والنصارى قاله الحسن ومجاهد قيل وبين طوائف اليهود جعلهم مختلفين فى دينهم متباغضين (إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) يعنى اليهود أفسدوا وخالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين وقيل كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأوقدوا نار المحاربة أطفأها الله فردهم وقهرهم ونصر نبيه ودينه هذا معنى قول الحسن وقال قتادة هذا عام فى كل حرب طلبته اليهود فلا تلقى اليهود فى بلد إلا وجدتهم من أذل الناس (ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين ولو أن أهل الكتاب آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم (واتقوا) الكفر (لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو أنهم قاموا التوراة والإنجيل)

لأن الواحد يؤدى عن الجمع فثبت بهذا البيان قول من قال إن اليد صفة لله تعالى تليق بجلاله وإنها ليست بجارحة كما تقول المجسمة تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا (ينفق كيف يشاء) يعنى أنه تعالى يرزق كما يريد ويختار فيوسع على من يشاء ويقتر على من يشاء لا اعتراض عليه فى ملكه ولا فيما يفعله (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تبارك وتعالى لما أنفق عليك وقال يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم ينقص ما بيده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يرفع ويخفض وهذا الحديث أيضا أحد أحاديث الصفات فيجب الإيمان به وأمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تكييف . وقوله تعالى (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) يعنى كلما نزلت عليك آية من القرآن كفروا بها فازدادوا شدة فى كفرهم وطغيانا مع طغيانهم والمراد بالكثير علماء اليهود وقيل إقامتهم على كفرهم زيادة منهم فيه (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) يعنى ألقينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى وقيل ألقى ذلك بين طوائف اليهود فجعلهم مختلفين فى دينهم متعادين متباغضين إلى يوم القيامة فان بعض اليهود جبرية وبعضهم قدرية وبعضهم مشبهة وكذلك النصارى فرق كالملكانية والنسطورية واليعقوبية والمارونية . فان قلت فهذا المعنى أيضا حاصل بين فرق المسلمين فكيف يكون ذلك عيبا على اليهود والنصارى حتى يذموا به . قلت هذه البدع التى حصلت فى المسلمين إنما حدثت بعد عصر النبى ﷺ وعصر الصحابة والتابعين . أما فى الصدر الأول فلم يكن شىء من ذلك حاصلا بينهم فحسن جعل ذلك عيبا على اليهود والنصارى فى ذلك العصر الذى نزل فيه القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) يعنى كلما أفسد اليهود وخالفوا حكم الله يبعث الله عليهم من يهلكهم . أفسدوا فبعث الله عليهم بختنصر البابلى ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس وهم الفرس ثم أفسدوا وقالوا يد الله مغلولة فبعث الله المسلمين فلا تزال اليهود فى ذله أبدا وقال مجاهد معنى الآية كلما مكروا مكرا فى حرب محمد ﷺ أطفأه الله تعالى وقال السدى كلما أجمعوا أمرهم على شىء ليفسدوا به أمر محمد صلى الله عليه وسلم فرقه الله تعالى وكلما أوقدوا نارا فى حرب محمد صلى الله عليه وسلم أطفأها الله وأخمد نارهم وقذف فى قلوبهم الرعب وقهرهم ونصر نبيه ودينه (ويسعون فى الأرض فسادا) يعنى ويجتهدون فى دفع الإسلام ومحو ذكر محمد صلى الله عليه وسلم من كتبهم وقيل إنهم يسعون بالمكر والكيد والحيل وليس يقدرون على غير ذلك (والله لا يحب المفسدين) يعنى أن الله لا يحب من كانت هذه صفته قال قتادة لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس فيها وهم أبغض خلق الله إليه . قوله تعالى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقوه فيما جاء به (واتقوا) يعنى اليهودية والنصرانية (لكفرنا عنهم سيئاتهم) يعنى لمحونا عنهم ذنوبهم التى عملوها قبل الإسلام لأن الإسلام يجب ما قبله (ولأدخلناهم جنات النعيم) يعنى مع المسلمين يوم القيامة (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) يعنى أقاموا أحكامهما بحدودهما وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن نعته وصفته موجودان فيهما . فان قلت كيف يأمر أهل الكتاب باقامة التوراة والإنجيل مع أنهما نسخا وبدلا . قلت :

يعنى أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما (وما أنزل إليهم من ربهم) يعنى القرآن وقيل كتب أنبياء بنى إسرائيل (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) قيل من فوقهم هو المطر ومن تحت أرجلهم نبات الأرض قال ابن عباس رضى الله عنهما لأنزلت عليهم القطر وأخرجت لهم من نبات الأرض قال الفراء أراد به التوسعة فى الرزق كما يقال فلان فى الخير من قرنه إلى قدمه نظيره قوله تعالى «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» (منهم أمة مقتصدة) يعنى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه (٧٣) مقتصدة أى عادلة غير غالية ولا مقصرة جافية ومعنى الاقتصاد فى اللغة الاعتدال فى العمل من غير غلو ولا تقصير (وكثير منهم) كعب بن الأشرف وأصحابه (ساء مايعملون) بئس ما يعملون بئس شيئا عملهم قال ابن عباس رضى الله عنهما عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبى صلى الله عليه وسلم قوله عز وجل (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) روى عن مسروق قال قالت عائشة رضى الله عنها من حدثك إن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل الله فقد كذب وهو يقول «ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك» الآية روى عن الحسن أن الله تعالى لما بعث رسوله ضاق ذرعا وعرف أن من الناس من يكذبه فنزلت هذه الآية وقيل نزلت فى عيب اليهود وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزءون به فيقولون تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا فلما رأى النبى ﷺ ذلك سكت فنزلت هذه الآية وأمره أن يقول لهم «ياأهل الكتاب لستم على شىء» الآية وقيل بلغ ماأنزل إليك من الرجم والقصاص نزلت فى قصة اليهود وقيل نزلت فى أمر زينب بنت جحش ونكاحها وقيل فى الجهاد وذلك أن المنافقين كرهوه كما قال الله تعالى «فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت» كرهه بعض المؤمنين قال الله تعالى «ألم تر إلى الذين قيل

إنما أمرهم الله تعالى باقامة مافيهما من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباع شريعته وهذا غير منسوخ لأنه موافق لما فى القرآن . وقوله تعالى (وما أنزل إليهم من ربهم) فيه قولان أحدهما أن المراد به كتب أنبيائهم القديمة مثل كتاب شعياء وكتاب أرمياء وزبور داود وفى هذه الكتب أيضا ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فيكون المراد باقامة هذه الكتب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . والقول الثانى أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم هو القرآن لأنهم مأمورون بالإيمان به فكأنه نزل إليهم من ربهم (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعنى أن اليهود لما أصروا على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وثبتوا على كفرهم ويهوديتهم أصابهم الله بالقحط والشدة حتى بلغوا إلى حيث قالوا «يد الله مغلولة» فأخبر الله أنهم لو تركوا اليهودية والكفر الذى هم عليه لانقلبت تلك الشدة بالخصب والسعة وهو قوله تعالى «لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» قال ابن عباس معناه لأنزلت عليهم المطر وأخرجت لهم النبات والمراد من ذلك توسعة الرزق عليهم (منهم أمة مقتصدة) أى عادلة والاقتصاد الاعتدال فى العمل من غير غلو ولا تقصير أصله من القصد لأن من عرف مقصودا طلبه من غير اعوجاج عنه والمراد بالأمة المقتصدة من آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشى وأصحابه الذين أسلموا (وكثير منهم) يعنى من أهل الكتاب الذين أقاموا على كفرهم مثل كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود (ساء مايعملون) يعنى بئس مايعملون من إقامتهم على كفرهم قال ابن عباس عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبى صلى الله عليه وسلم . قوله عز وجل (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك) الآية روى عن الحسن أن الله تعالى لما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم ضاق ذرعا وعرف أن من الناس من يكذبه فأنزل هذه الآية وقيل نزلت فى عيب اليهود وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزءون به ويقولون تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك منهم سكت فأنزل الله هذه الآية وأمره بأن يقول لهم «ياأهل الكتاب لستم على شىء» الآية وقيل نزلت هذه الآية فى أمر الجهاد وذلك أن المنافقين كرهوه فكان النبى صلى الله عليه وسلم يمسك فى بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما علم من كراهية بعضهم له . فأنزل الله هذه الآية وقيل نزلت فى قصة الرجم والقصاص وما سألت عنه اليهود ومعنى الآية «ياأيها الرسول بلغ جميع ماأنزل إليك من ربك» مجاهرا به ولا تراقبن أحدا ولا تترك شيئا مما أنزل إليك من

لم كفوا أيديكم» الآية فكان النبى ﷺ يمسك فى بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما يعلم من كراهة بعضهم فأنزل الله هذه
الآية قوله تعالى (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر ويعقوب رسالاته على الجمع والباقون رسالته
على التوحيد ومعنى الآية إن لم تبلغ الجميع وتركت بعضه فما بلغت شيئا أى جرمك فى ترك تبليغ البعض
كجرمك فى ترك تبليغ الكل كقوله «نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا» أخبر أن كفرهم بالبعض محبط للإيمان بالبعض وقيل بلغ ما أنزل إليك أى أظهر تبليغه كقوله «فاصدع بما تؤمر. وإن لم تفعل. فان لم تظهر تبليغه فما بلغت رسالته» أمره بتبليغ ما أنزل إليه مجاهرا محتسبا صابرا غير خائف فان أخفيت منه شيئا لخوف يلحقك فما بلغت رسالته (والله يعصمك من الناس) يحفظك ويمنعك من الناس فان قيل أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته وأوذى بضروب من الأذى قيل معناه يعصمك من القتل فلا يصلون إلى قتلك وقيل نزلت هذه الآية بعد ما شج رأسه لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن وقيل والله يخصك بالعصمة من بين الناس لأن النبى صلى الله عليه وسلم معصوم (إن الله لايهدى القوم الكافرين)
أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسمعيل أنا أبو اليمان أنا
أبو شعيب عن الزهرى، أنا سنان بن أبى سنان الدولى وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله، أخبره أنه غزا مع

ربك وإن أخفيت شيئا من ذلك فى وقت من الأوقات فما بلغت رسالته، وهو قوله تعالى (وإن
لم تفعل فما بلغت رسالته) وقرئ رسالاته قال ابن عباس يعنى إن كتمت آية مما أنزل إليك من
ربك لم تبلغ رسالتى يعنى أنه صلى الله عليه وسلم لو ترك إبلاغ البعض كان كمن لم يبلغ شيئا
مما أنزل الله إليه وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتم شيئا مما أوحى إليه روى مسروق
عن عائشة قالت من حدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل إليه فقد كذب؟
ثم قرأت «ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» أخرجاه فى الصحيحين بزيادة فيه. وقوله
تعالى (والله يعصمك من الناس) يعنى يحفظك يامحمد ويمنعك منهم والمراد بالناس هنا الكفار
فان قلت أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد وقد أوذى بضروب من الأذى
فكيف يجمع بين ذلك وبين قوله والله يعصمك من الناس. قلت المراد منه أنه يعصمه من
القتل فلا يقدر عليه أحد أراده بالقتل ويدل على صحة ذلك ماروى عن جابر أنه غزى مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه فأدركتهم
القائلة فى واد كثير العضاه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر
فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق بها سيفه ونمنا معه نومة فاذا رسول الله
صلى الله عليه وسلم يدعونا وإذا عنده أعرابى قال إن هذا اخترط على سيفى وأنا نائم فاستيقظت
وهو فى يده صلتا فقال من يمنعك منى؟ فقلت (الله) ثلاثا ولم يعاقبه وجلس وفى رواية أخرى «قال
جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فاذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم
معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافنى». فقال لا فقال من يمنعك منى؟ قال الله فتهدده أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجاه فى الصحيحين وزاد البخارى فى رواية له أن اسم ذلك
الرجل غورث بن الحارث (ق) عن عائشة رضى الله عنها «قالت سهر رسول الله صلى الله عليه
وسلم مقدمه المدينة ليلة فقال ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة قال فبينما نحن كذلك
سمعنا خشخشة السلاح فقال من هذا؟ قال سعد بن أبى وقاص فقال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم ماجاء بك؟ فقال وقع فى نفسى خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت
أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام» وعن عائشة قالت «كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يحرس ليلا حتى نزلت «والله يعصمك من الناس» فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
رأسه من القبة فقال لهم أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله» أخرجه الترمذى وقال حديث
غريب وقيل فى الجواب عن هذا إن هذه الآية نزلت بعد ما شج رأسه فى يوم أحد لأن سورة
المائدة من آخر القرآن نزولا وقوله (إن الله لايهدى القوم الكافرين) قال ابن عباس معناه
لايرشد من كذبك وأعرض عنك وقال ابن جرير الطبرى معناه إن الله لايوفق للرشد من حاد
عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ماجئت به من عند الله ولم يهده إلى أمر الله
وطاعته

رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه وأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه ونمنا نومة فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا وإذا عنده أعرابى فقال إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتا فقال من يمنعك منى؟ فقلت الله ثلاثا ولم يعاقبه وجلس» وروى محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن الأعرابى سل سيفه وقال من يمنعك منى يامحمد ؟ قال الله فرعدت يد الأعرابى وسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه فأنزل الله تعالى هذه الآية» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل بن خليل أخبرنا على بن مسهر أنا يحيى ابن سعيد أنا عبدالله بن عامر ابن ربيعة قال سمعت عائشة رضى الله عنها تقول «كان النبى صلى الله عليه وسلم سهر فلما قدم المدينة قال ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة إذ سمعنا صوت سلاح فقال من هذا؟ قال أنا سعد بن أبى وقاص جئت لأحرسك ونام النبى صلى الله عليه وسلم» وقال عبدالله ابن شقيق عن عائشة رضى الله عنها «قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية والله يعصمك من الناس فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله سبحانه وتعالى» قوله عزوجل (قل ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) أى تقيموا أحكامهما وما يجب عليكم فيهما (وليزيدن كثيرا منهم ماأنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس) فلا تحزن (على القوم الكافرين إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) وكان حقه والصابئين وقد ذكرنا فى سورة البقرة وجه ارتفاعه وقال سيبويه فيه تقديم وتأخير

وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه . قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب لستم على شىء) يعنى قل يامحمد لهؤلاء اليهود والنصارى لستم على شىء من الدين الحق المرتضى عندالله ولستم على شىء مما تدعون أنكم عليه مما جاءكم به موسى عليه السلام يامعشر اليهود ولا مما جاءكم به عيسى يامعشر النصارى فانكم أحدثتم وغيرتم قال ابن عباس «جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة فقالوا يامحمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها حق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم مافيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ماأمرتم أن تبينوه للناس فأنا برىء من إحداثكم قالوا فانا نأخذ بما فى أيدينا فانا على الحق والهدى ولا نؤمن لك ولانتبعك فأنزل الله «قل ياأهل الكتاب لستم على شىء» (حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) الآية وقد تقدم معنى إقامة التوراة والإنجيل وأنه يلزمهم العمل بما فيهما وهو الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد تقدم تفسير ماأنزل إليكم من ربكم (وليزيدن كثيرا منهم ماأنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) وقوله تعالى (فلا تأس على القوم الكافرين) يعنى فلا تحزن يامحمد على هؤلاء اليهود الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك فانما يعود ضرر ذلك الكفر عليهم . قوله عزوجل (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) لما بين الله عز وجل أن أهل الكتاب ليسوا على شىء مالم يؤمنوا بين فى هذه الآية إن هذا الحكم عام فى كل أهل الملل وأنه لايحصل لأحد منهم فضيلة ولا منقبة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا يرضاه الله ومن العمل الصالح الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لايتم الإيمان إلا به وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة وقوله تعالى «والصابئون» ظاهر الإعراب يقتضى أن يقال والصابئين وكذا قراءة أبى بن كعب وابن مسعود وابن كثير من السبعة وقرأ الجمهور بالرفع ومذهب الخليل وسيبويه أنه ارتفع الصابئون بالابتداء على نية التأخير كأنه قيل «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون» والصابئون كذلك فحذف خبره والحكمة فى عطف الصابئين على من قبلهم هى أن الصابئين أشد الفرق المذكورة فى هذه الآية ضلالا فكأنه قال كل هؤلاء الفرق إذا آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئون فانهم إذا آمنوا كانوا أيضا كذلك وإنما سموا صابئين لأنهم صبئوا عن الأديان كلها بمعنى خرجوا لأنهم صبئوا إلى اتباع الهوى والشهوات فى دينهم ولم يتبعوا ماجاءت به الرسل من عند الله . فان قلت قد قال الله تعالى فى أول الآية إن الذين آمنوا ثم قال فى آخر الآية فمن آمن فما فائدة هذا التكرار . قلت

فائدته إن المنافقين كانوا يظهرون الإسلام ويزعمون أنهم مؤمنون، ففي هذا التكرار إخراجهم من قبيل المؤمنين فيكون معنى إن الذين آمنوا أي بألسنتهم لا بقلوبهم ثم قال من آمن يعني من ثبت على إيمانه ورجع عن نفاقه منهم وقيل فيه فائدة أخرى وهي أن الإيمان يدخل تحته أقسام كثيرة وأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر ففائدة التكرار التنبيه على أشرف أقسام الإيمان هذان القسمان وفي قوله (من آمن بالله) حذف تقديره من آمن بالله (واليوم الآخر) منهم وإنما حسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامعين (وعمل صالحا) يعني وضم إلى إيمانه العمل الصالح وهو الذي يراد به وجه الله تعالى (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يعني في الآخرة. قوله عز وجل (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل) يعني أخذنا العهود عليهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها من التوحيد والعمل بما أمرناهم به والانتهاء عما نهيناهم عنه (وأرسلنا إليهم رسلا) يعني لبيان الشرائع والأحكام (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) يعني بما يخالف أهواءهم ويضاد شهواتهم من ميثاق التكليف والعمل بالشرائع (فريقا كذبوا) يعني من الرسل الذين جاءتهم (وفريقا يقتلون) يعني من الرسل فكان فيمن كذبوا عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وكان فيمن قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام وإنما فعلوا ذلك نقضا للميثاق وجراءة على الله عز وجل ومخالفة لأمره. قوله تعالى (وحسبوا) يعني وظن هؤلاء الذين كذبوا الرسل وقتلوا الأنبياء (أن لا تكون فتنة) يعني أن لا يعذبهم الله ولا يبتليهم بذلك الفعل الذي فعلوه وإنما حملهم على هذا الظن الفاسد أنهم كانوا يعتقدون أن كل رسول جاءهم بشرع آخر غير شرعهم يجب عليهم تكذيبه وقتله. فلهذا السبب حسبوا أن لا يكون فعلهم ذلك فتنة يبتلون بها وقيل إنما قدموا على ذلك لاعتقادهم أن آباءهم وأسلافهم يدفعون عنهم العذاب في الآخرة (فعموا وصموا) يعني أنهم عموا عن الحق فلم يبصروه وصموا عنه فلم يسمعوه وهذا العمى هو كناية عن عمى البصيرة لا البصر وكذلك الصمم هو كناية عن منع نفوذ الحق إلى قلوبهم وسبب ذلك شدة جهلهم وقوة كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق قال بعض المفسرين سبب هذا العمى والصمم عبادتهم العجل في زمن موسى عليه السلام (ثم تاب الله عليهم) يعني أنهم لما تابوا من عبادتهم العجل تاب الله عليهم (ثم عموا وصموا) يعني في زمان زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام لأنهم كذبوا عيسى وقتلوا زكريا ويحيى وقيل إن العمى والصمم الأول كان بعد موسى ثم تاب الله عليهم يعني ببعثة عيسى عليه السلام ثم عموا وصموا يعني بسبب الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم (كثير منهم) من اليهود لأن بعضهم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن سلام وأصحابه (والله بصير بما يعملون) يعني من قتل الأنبياء وتكذيب الرسل. قوله عز وجل (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) لما حكى الله عن اليهود ما حكاه من نقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل وغير ذلك شرع في الأخبار عن كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد فقال تعالى «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم» وهذا قول اليعقوبية والملكانية من النصارى لأنهم لا يقولون إن مريم ولدت إلها ولأنهم يقولون أن الإله جل وعلا حل في ذات عيسى واتحد به فصار إلها تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا «وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم» يعني وقد كان المسيح قال هذا لبني إسرائيل عند مبعثه إليهم وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى ذلك لأنه عليه السلام لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية والإقرار لله بالربوبية وإن دلائل الحدوث ظاهرة عليه (أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) يعني أنه من يجعل له

آمنوا» أي باللسان وقوله «من آمن بالله» أي بالقلب وقيل الذين آمنوا على حقيقة الإيمان (من آمن بالله) أي ثبت على الإيمان (واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قوله تعالى (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل) في التوحيد والنبوة (وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا) عيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهما (وفريقا يقتلون) يحيى وزكريا (وحسبوا) ظنوا (أن لا تكون فتنة) أي عذاب وقتل وقيل ابتلاء واختبار أي ظنوا أن لا يبتلوا ولا يعذبهم الله قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي تكون برفع النون على معنى أنها لا تكون ونصبها الآخرون كما لو لم يكن قبله لا (فعموا) عن الحق فلم يبصروه (وصموا) عنه فلم يسمعوه يعني عموا وصموا بعد موسى صلوات الله وسلامه عليه (ثم تاب الله عليهم) ببعث عيسى عليه السلام (ثم عموا وصموا كثير منهم) بالكفر بمحمد ﷺ (والله بصير بما يعملون لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) وهم الملكانية واليعقوبية منهم (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة

له شريكا من خلقه فقد حرم الله عليه الجنة يعنى إذا مات على شركه (ومأواه النار) يعنى أنه يصير إلى النار فى الآخرة (وما للظالمين) يعنى وما للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك (من أنصار) يعنى مالهم من أنصار ينصرونهم ويمنعونهم من العذاب يوم القيامة . قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) وهذا قول المرقوسية والنسطورية من النصارى ولتفسير قول النصارى طريقان : أحدهما وهو قول أكثر المفسرين إنهم أرادوا بهذه المقالة إن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة وأن الإلهية مشتركة بينهم وأن كل واحد منهم إله ويبين ذلك قوله تعالى للمسيح «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله»؟ فقوله ثالث ثلاثة فيه إضمار تقديره إن الله أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة آلهة قال الواحدى ولا يكفر من يقول إن الله ثالث ثلاثة ولم يرد به أنه ثالث ثلاثة آلهة لأنه مامن اثنين إلا والله ثالثهما بالعلم ويدل عليه قوله تعالى فى سورة المجادلة «مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم» وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «ياأبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما؟» والطريق الثانى أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون إنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم أب وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة وعنوا بالأب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة وأثبتوا الذات والكلمة والحياة قالوا إن الكلمة التى هى كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء باللبن وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد واعلم أن هذا الكلام معلوم البطلان لبديهة العقل فان الثلاثة لاتكون واحدا والواحد لايكون ثلاثة ولا ترى فى الدنيا مقالة أشد فسادا ولا أظهر بطلانا من مقالة النصارى وعلى هذا أخبر الله عنهم فى قوله «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة» فهذا معنى مذهبهم وإن لم يصرحوا بأنه واحد من ثلاثة آلهة فذلك لازم لهم وإنما يمتنعون من هذه العبارة لأنهم إذا قالوا إن كل واحد من الأقانيم إله فقد جعلوه ثالث ثلاثة وقولهم بعد هذا هو إله واحد فيه مناقضة لما قالوا أولا فهذا بيان فساد قول النصارى ثم رد الله عليهم فقال تعالى (وما من إله إلا إله واحد) يعنى أنه ليس فى الوجود إله واحد موصوف بالوحدانية لاثانى له ولا شريك له ولا والد له ولا ولد له ولا صاحبة له إلا الله تعالى (وإن لم ينتهوا عما يقولون) يعنى وإن لم ينته النصارى عن هذه المقالة الخبيثة (ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) يعنى ليصيبن الذين أقاموا على هذا القول الخبيث وهذا الدين الذى ليس بمرضى عذاب وجيع فى الآخرة وإنما قال تعالى منهم لعلمه السابق أن من النصارى من سيؤمن ويخلص ويترك هذا القول ويعلم أنه فاسد ثم ندب سائر النصارى إلى التوبة من هذه المقالة الخبيثة فقال تعالى (أفلا يتوبون إلى الله) يعنى من قولهم بالتثليث (ويستغفرونه) وهذا استفهام بمعنى الأمر أى توبوا إلى الله واستغفروه من هذا الذنب العظيم فانه تعالى يغفر الذنوب (والله غفور) يعنى لمن استغفره وتاب إليه (رحيم) به وبسائر خلقه . قوله عز وجل (ماالمسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) يعنى أن المسيح رسول من الله عز وجل ليس باله كما أن الرسل الذين كانوا من قبله لم يكونوا آلهة وقد أتى عيسى عليه السلام بالمعجزات الدالة على صدقه كما أن الذين من قبله أتوا بالمعجزات الدالة على صدقهم (وأمه صديقة) يعنى أنها كثيرة الصدق وقيل سميت مريم صديقة لأنها صدقت بآيات ربها وكتبه

ثالث ثلاثة الآلهة لأنهم يقولون الآلهية مشتركة بين الله تعالى ومريم وعيسى وكل واحد من هؤلاء إله فهم ثلاثة آلهة يبين هذا قوله عز وجل للمسيح «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله» ومن قال إن الله ثالث ثلاثة ولم يرد به الآلهية لايكفر فان الله يقول «مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم» وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه ماظنك باثنين الله ثالثهما ثم قال ردا عليهم (وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن) ليصيبن (الذين كفروا منهم عذاب أليم)خص الذين كفروا لعلمه أن بعضهم يؤمنون (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه) قال الفراء هذا أمر بلفظ الاستفهام لقوله تعالى « فهل أنتم منتهون »؟ أى انتهوا والمعنى أن الله يأمركم بالتوبة والاستغفار من هذا الذنب العظيم (والله غفور رحيم ماالمسيح بن مريم إلا رسول قد خلت) مضت (من قبله الرسل) أى ليس هو باله كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة (وأمه صديقة) أى كثيرة الصدق وقيل سميت

صديقة لأنها صدقت بآيات الله كما قال عز وجل فى وصفها وصدقت بكلمات ربها (كانا يأكلان الطعام) أى كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين (٧٨) فكيف يكون إلها من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟ وقيل هذا كناية عن الحدث وذلك أن من أكل وشرب لابد له من البول والغائط، ومن هذه صفته كيف يكون إلها؟ ثم قال (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) أى يصرفون عن الحق (قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم) (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق) أى لا تجاوزوا الحد والغلو والتقصير كل واحد منهما مذموم فى الدين وقوله غير الحق أى فى دينكم المخالف للحق وذلك أنهم خالفوا الحق فى دينهم ثم غلوا فيه بالإصرار عليه (ولا تتبعوا أهواء قوم) والأهواء جمع الهوى وهو ما تدعو إليه شهوة النفس (قد ضلوا من قبل) يعنى رؤساء الضلالة من فريقى اليهود والنصارى والخطاب للذين كانوا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم (وأضلوا كثيرا) يعنى من اتبعهم على أهوائهم (وضلوا عن سواء السبيل) عن قصد الطريق أى بالإضلال فالضلال الأول من الضلالة والثانى بإضلال من اتبعهم (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود) يعنى أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت وقال داود عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة وخنازير (وعيسى ابن مريم) أى على لسان عيسى عليه السلام يعنى كفار أصحاب المائدة لما لم يؤمنوا

وقوله تعالى (كانا يأكلان الطعام) فيه احتجاج على فساد قول النصارى بإلهية المسيح يعنى أن المسيح وأمه مريم كانا بشرين يأكلان الطعام ويعيشان به كسائر بنى آدم فكيف يكون إلها من يحتاج إلى الطعام ولا يعيش إلا به وقيل معناه أنه لو كان إلها كما يزعمون لدفع عن نفسه ألم الجوع وألم العطش ولم يوجد ذلك فكيف يكون إلها وقيل هذا كناية عن الحدث وذلك أن كل من أكل وشرب لابد له من الغائط والبول ومن كانت هذه صفته فكيف يكون إلها؟ وبالجملة فان فساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج إلى إقامة دليل عليه ثم قال تعالى (انظر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى انظر يا محمد (كيف نبين لهم الآيات) يعنى الدالة على بطلان قولهم (ثم انظر أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن استماع الحق وقبوله. قوله تعالى (قل أتعبدون من دون الله) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل يا محمد لهؤلاء النصارى أتعبدون من دون الله (مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا) يعنى لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب فى الأنفس والأموال ولا يقدر أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان وسعة الأرزاق فان الضار والنافع هو الله تعالى لا من تعبدون من دونه ومن لم يقدر على النفع والضر لا يكون إلها (والله هو السميع العليم) يعنى أنه تعالى سميع لأقوالكم وكفركم عليم بما فى ضمائركم. قوله عز وجل (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم) الغلو مجاوزة الحد وذلك أن الحق بين طرفى الإفراط والتفريط فمجاوزة الحد والتقصير مذمومان فى الدين (غير الحق) يعنى لا تغلوا فى دينكم غلوا باطلا غير الحق وذلك أنهم خالفوا الحق فى دينهم ثم غلوا فى الإصرار عليه وكلا الفريقين من اليهود والنصارى غلوا فى عيسى عليه السلام، أما غلو اليهود فالتقصير فى حقه حتى نسبوه إلى غير رشدة، وأما غلو النصارى فمجاوزة الحد فى حقه حتى جعلوه إلههم وكلا الغلوين مذموم (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) الأهواء جمع هوى وهو ما تدعو شهوة النفس إليه قال الشعبى ما ذكر الله تعالى الهوى فى القرآن إلا وذمه وقال أبو عبيدة لم نجد الهوى يوضع إلا موضع الشر لأنه لا يقال فلان يهوى الخير إنما يقال فلان يحب الخير ويريده والخطاب فى قوله ولا تتبعوا أهواء قوم لليهود والنصارى الذين كانوا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهوا عن إتباع أسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم وهو المراد بقوله أهواء قوم قد ضلوا من قبل فبين الله تعالى أنهم كانوا على ضلالة (وأضلوا كثيرا) يعنى من اتبعهم على ضلالتهم وأهوائهم (وضلوا عن سواء السبيل) يعنى وأخطئوا عن قصد طريق الحق. قوله تعالى (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود) قال أكثر المفسرين هم أصحاب السبت لما اعتدوا فى السبت واصطادوا الحيتان فيه قال داود عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم قردة فمسخوا قردة وستأتى قصتهم فى سورة الأعراف (وعيسى ابن مريم) يعنى وعلى لسان عيسى ابن مريم وهم كفار أصحاب المائدة لما أكلوا منها وادخروا ولم يؤمنوا قال عيسى عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم خنازير فمسخوا خنازير وستأتى قصتهم وقال بعض العلماء أن اليهود كانوا يفتخرون بآبائهم ويقولون نحن من أولاد الأنبياء عليهم السلام فأخبر الله تعالى بأنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام وقيل إن داود

وعيسى

وعيسى بشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ولعنا من يكفر به (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) يعنى ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ثم فسر الاعتداء والمعصية فقال تعالى (كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه) أى لاينهى بعضهم بعضا عن منكر وقيل معناه لايتناهون عن معاودة منكر فعلوه ولا عن الإصرار عليه (لبئس ما كانوا يفعلون) اللام فى لبئس لام القسم أى أقسم لبئس ما كانوا يفعلون يعنى من ارتكاب المعاصى والعدوان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أول مادخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فانه لايحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال «لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم إلى قوله فاسقون» ثم قال «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا» زاد فى رواية «أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم» أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذى عنه فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم «ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئا فقال «لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا» قال الترمذى هذا الحديث حسن غريب قوله أكيله وشريبه وقعيده هو المؤاكل والمشارب والمقاعد فعيل بمعنى فاعل وقوله لتأطرنه الأطر العطف يعنى لتعطفنه ولتردنه إلى الحق الذى خالفه والقصر القهر على الشىء. قوله عز وجل (ترى كثيرا منهم) يعنى من اليهود مثل كعب ابن الأشرف وأصحابه (يتولون الذين كفروا) يعنى يوالون المشركين من أهل مكة وذلك حين خرجوا إليهم ليجيشوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس معناه ترى كثيرا من المنافقين يتولون اليهود (لبئس ماقدمت لهم أنفسهم) يعنى بئس ماقدموا من العمل لمعادهم فى الآخرة (أن سخط الله عليهم) يعنى بما فعلوا من موالاة الكفار (وفى العذاب هم خالدون) يعنى فى الآخرة (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى) يعنى ولو كان هؤلاء الذين يتولون الكفار يؤمنون بالله ويصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه نبى مبعوث إلى كافة الخلق (وما أنزل إليه) يعنى ويؤمنون بالقرآن الذى أنزل إليه من ربه (ما اتخذوهم أولياء) يعنى ما اتخذوا الكفار أنصارا وأعوانا من دون المؤمنين (ولكن كثيرا منهم فاسقون) يعنى ولكن أكثرهم خارجون عن طاعة الله وأمره وإنما قال كثيرا لأنه علم

قال عيسى اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا خنازير (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه) أى لاينهى بعضهم بعضا (لبئس ما كانوا يفعلون) أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو الحسن محمد بن الحسين أنا أحمد بن محمد بن إسحاق أنا أبو يعلى الموصلى أنا وهب بن بقية أنا خالد (٧٩) يعنى ابن عبد الله الواسطى عن العلاء بن المسيب عن عمرو ابن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة نهاه الناهى تعذيرا فإذا كان من الغد جالسه وآكله وشاربه كأنه لم يره على الخطيئة بالأمس فلما رأى الله تبارك وتعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض وجعل منهم القردة والخنازير ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك «بما عصوا وكانوا يعتدون» «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم» قوله تعالى (ترى كثيرا منهم) قيل من اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه (يتولون الذين كفروا) مشركى مكة حين خرجوا إليهم يجيشون على النبى ﷺ قال ابن عباس ومجاهد والحسن منهم يعنى من المنافقين يتولون اليهود (لبئس ماقدمت لهم أنفسهم) بئس ماقدموا من العمل لمعادهم الآخرة (أن سخط الله عليهم) غضب الله عليهم (وفى العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى) محمد ﷺ (وما أنزل إليه) يعنى القرآن (ما اتخذوهم) يعنى الكفار (أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون)

خارجون عن أمر الله سبحانه وتعالى قوله عز وجل (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) يعنى مشركى العرب (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) لم يرد به جميع النصارى، لأنهم فى عداوتهم المسلمين كاليهود فى قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم لاولا كرامة لهم بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشى وأصحابه وقيل نزلت فى جميع اليهود وجميع النصارى لأن اليهود أقسى قلبا ، والنصارى ألين قلبا منهم وكانوا أقل مظاهرة للمشركين من اليهود قال أهل التفسير ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء ومنع الله تعالى رسوله بعمه أبى طالب فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة وقال إن بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا وأراد به النجاشى واسمه أصحمة وهو بالحبشة عطية وإنما النجاشى اسم الملك كقولهم قيصر وكسرى فخرج إليها سرا أحد عشر رجلا وأربع نسوة وهم عثمان ابن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير ابن العوام وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل ابن عمرو ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبى أمية وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبى خيثمة وحاطب ابن عمرو وسهيل بن بيضاء رضى الله عنهم فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك فى رجب فى السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الهجرة الأولى ثم خرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون إليها وكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فلما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى النجاشى وبطارقته ليردوهم إليهم فعصمه الله وذكرت القصة فى سورة آل عمران فى قوله تعالى «أن أولى الناس بإبراهيم» إلى آخر الآية فلما انصرفا خائبين أقام المسلمون هناك بخير دار وأحسن جوار إلى أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلا أمره وذلك فى سنة ست من الهجرة كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى على يد عمرو بن أمية الضمرى ليزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وكانت قد هاجرت إليه مع زوجها فمات زوجها ويبعث إليه من عنده من المسلمين فأرسل النجاشى إلى أم حبيبة جارية يقال لها أبرهة تخبرها بخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها فأعطتها أوضاحا لها سرورا بذلك فأذنت خالد بن سعيد بن العاص حتى أنكحها على صداق أربعمائة دينار وكان الخاطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشى رحمه الله فأنفذ إليها النجاشى أربعمائة دينار على يد أبرهة فلما جاءتها بها أعطتها خمسين دينارا فردته وقالت أمرنى الملك أن لا آخذ منك شيئا وقالت أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله وآمنت به وحاجتى منك أن تقرئيه منى السلام قالت نعم قالت أبرهة وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من عود وعنبر فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه عندها فلا ينكر . قالت أم حبيبة فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر فخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قدم النبى صلى الله عليه وسلم فدخلت عليه وكان يسألنى عن النجاشى فقرأت عليه من أبرهة السلام فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عز وجل «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة» يعنى أبا سفيان

أن منهم من سيؤمن مثل عبد الله بن سلام وأصحابه . قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) اللام فى قوله لتجدن لام القسم تقديره والله يا محمد إنك لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا بك وصدقوك اليهود والذين أشركوا وصف الله شدة عداوة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق وجعلهم قرناء المشركين عبدة الأصنام فى العداوة للمؤمنين وذلك حسدا منهم للمؤمنين (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) ووصف لين عريكة النصارى وسهولة قبولهم الحق قال بعضهم مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر والأذى إلى من خالفهم فى الدين بأى طريق كان مثل القتل ونهب المال بأنواع المكر والكيد والحيل ومذهب النصارى خلاف اليهود فان الإيذاء فى مذهبهم حرام فحصل الفرق بين اليهود والنصارى وقيل إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرياسة ومن كان كذلك كان شديد العداوة لغيره . وأما النصارى فان فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذتها وترك طلب الرياسة ومن كان كذلك فانه لا يحسد أحدا ولا يعاديه بل يكون لين العريكة فى طلب الحق

فلهذا

مودة يعنى بتزويج أم حبيبة ولما جاء أبا سفيان تزوج أم حبيبة قال ذلك الفحل لا يجدع أنفه وبعث النجاشى بعد قدوم جعفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه أزهى بن أصحمة بن أبجر فى ستين رجلا من الحبشة وكتب إليه يارسول الله أشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت إليك ابنى أزهى وإن شئت أن آتيك بنفسى فعلت والسلام عليك يارسول الله فركبوا سفينة فى أثر جعفر وأصحابه (٨١) حتى إذا كانوا فى وسط البحر غرقوا ووافى جعفر وأصحابه رسول الله ﷺ فى سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس إلى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وقالوا آمنا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى» يعنى وفد النجاشى الذين قدموا مع جعفر وهم السبعون وكانوا أصحاب الصوامع وقال مقاتل والكلبى كانوا أربعين رجلا اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وقال عطاء كانوا ثمانين رجلا أربعون من أهل نجران من بنى الحرث ابن كعب واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية روميون من أهل الشام وقال قتادة

فلهذا قال تعالى (ذلك بأن منهم) يعنى من النصارى (قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون) ولم يرد به كل النصارى فان معظم النصارى فى عداوة المسلمين كاليهود بل الآية نزلت فيمن آمن من النصارى مثل النجاشى وأصحابه والقس والقسيس اسم رئيس النصارى والجمع قسيسون وقال قطرب القس والقسيس العالم بلغة الروم وهذا مما وقع الوفاق بين اللغتين يعنى العربية والرومية وأما الرهبان فهو جمع راهب وقيل الرهبان واحد وجمعه رهابين وهم سكان الصوامع . فان قلت كيف مدحهم الله بذلك مع قوله «ورهبانية ابتدعوها» قلت إنما مدحهم الله فى مقابلة ذم اليهود ووصفهم بشدة العداوة للمؤمنين ولا يلزم من هذا القدر أن يكون مدحا على الإطلاق وقيل إنما مدح من آمن منهم بمحمد ﷺ فوصفهم بالتمسك بدين عيسى إلى أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمنوا به واتبعوه فان قلت كفر النصارى أشد وأغلظ من كفر اليهود وأقبح فان النصارى ينازعون فى الإلهيات فيدعون أن لله ولدا واليهود ينازعون فى النبوات فيقرون ببعض النبيين وينكرون بعضهم والأول أقبح فلم ذم اليهود ومدح النصارى قلت إنما هو مدح فى مقابلة ذم وليس بمدح على الإطلاق وقد تقدم الفرق بين شدة عداوة اليهود ولين النصارى فلذلك ذم اليهود ومدح النصارى الذين آمنوا منهم واختلف العلماء فى من نزلت هذه الآية فقيل نزلت فى النجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة وأصحابه الذين أسلموا معه .

(ذكر قصة الهجرة الأولى وسبب نزول هذه)

قال ابن عباس وغيره من المفسرين فى قوله «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى» إن قريشا ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم فأذوهم وعذبوهم فافتتن من افتتن منهم وعصم الله من شاء منهم ومنع الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بعمه أبى طالب فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين ولم يؤمر بعد بالجهاد أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة وقال إن بها ملكا صالحا لايظلم ولايظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا فخرج إليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة سرا وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام وعبد الله ابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عقبة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة بنت أمية وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبى خيثمة وحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة بنصف دينار إلى أرض الحبشة وذلك فى رجب فى السنة الخامسة من مبعث النبى ﷺ وهذه الهجرة الأولى ثم

 نزلت فى ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم صدقوه وآمنوا به فأثنى الله عز وجل بذلك عليهم (ذلك بأن منهم قسيسين) أى علماء قال قطرب القس والقسيس العالم بلغة الروم (ورهبانا) الرهبان العباد أصحاب الصوامع واحدهم راهب مثل فارس وفرسان وراكب وركبان وقد يكون واحدا وجمعه رهابين مثل قربان وقرابين (وأنهم لايستكبرون) لايتعظمون عن الإيمان

خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون فكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فلما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص وجماعة بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ليردهم إليهم فدخل إليه عمرو وقال له أيها الملك إنه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها وزعم أنه نبي وأنه قد بعث إليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم وأن قومهم يسألونك أن تردهم إليهم فقال حتى نسألهم فأمر بهم فأحضروا فلما أتوا باب النجاشي قالوا يستأذن أولياء الله فقال ائذنوا لهم فمرحبا بأولياء الله فلما دخلوا عليه سلموا فقال الرهط من المشركين أيها الملك ألا ترى أنا قد صدقناك إنهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها فقال لهم الملك مامنعكم أن تحيوني بتحيتي فقالوا له إنا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة فقال لهم النجاشي مايقول صاحبكم في عيسى وأمه فقال جعفر بن أبي طالب يقول هو عبد الله ورسوله وكلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم العذراء ويقول في مريم أنها العذراء البتول قال فأخذ النجاشي عودا من الأرض وقال والله مازاد صاحبكم على ماقال عيسى قدر هذا العود فكره المشركون قوله وتغيرت وجوههم فقال هل تعرفون شيئا مما أنزل على صاحبكم قالوا نعم قال اقرءوا فقرأ جعفر سورة مريم وهنالك قسيسون ورهبان وسائر النصارى فعرفوا ماقرأ فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق فأنزل الله فيهم «ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون» إلى آخر الآيتين فقال النجاشي لجعفر وأصحابه اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي يعني أنكم آمنون فرجع عمرو وأصحابه خائبين وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار وخير جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وعلا أمره وقهر أعداءه وذلك في سنة ست من الهجرة وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قد هاجرت مع زوجها ومات عنها فأرسل النجاشي جارية يقال لها أبرهة إلى أم حبيبة يخبرها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطبها فسرت بذلك وأعطت الجارية أوضاحا كانت لها وأذنت لخالد بن سعيد في نكاحها فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم على صداق مبلغه أربعمائة دينار وكان الخاطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي فأرسل إليها بجميع الصداق على يد جاريته أبرهة فلما جاءتها بالدنانير وهبتها منها خمسين دينارا فلم تأخذها وقالت إن الملك أمرني أن لا آخذ منك شيئا وقالت أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنت به وحاجتي إليك أن تقرئيه مني السلام قالت نعم فقالت قد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من دهن وعود وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه عندها فلاينكره قالت أم حبيبة فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ يحاصر خيبر فخرج من خرج إليه ممن قدم من الحبشة وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت عليه فكان يسألني عن النجاشي وقرأت عليه السلام من أبرهة جارية الملك فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها السلام وأنزل الله عز وجل «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة» يعني أبا سفيان وذلك بتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة ولما بلغ أبا سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أم حبيبة قال ذلك الفحل لايجدع أنفه وبعث النجاشي بعد خروج جعفر وأصحابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ابنه أزهي في ستين رجلا من أصحابه وكتب إليه يارسول الله إني أشهد

إنك

أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت بن عمك جعفرا وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت إليك ابنى أزهى وإن شئت أن آتيك بنفسى فعلت والسلام عليك يارسول الله فركبوا فى سفينة فى أثر جعفر حتى إذا كانوا فى وسط البحر غرقوا ووافى جعفر وأصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر ووافى مع جعفر سبعون رجلا عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون رجلا من الحبشة وثمانية من الشأم فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس إلى آخرها فبكى القوم حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام فأنزل الله هذه الآية فيهم وهى قوله «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى» يعنى وفد النجاشى الذين قدموا مع جعفر وهم السبعون وكانوا من أصحاب الصوامع وقيل نزلت فى ثمانين رجلا أربعين من نصارى نجران من بنى الحرث بن كعب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية روميين من أهل الشام وقال قتادة نزلت فى ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق بما جاء به عيسى عليه السلام فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا به وصدقوه فأثنى الله عليهم بقوله «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون» يعنى لايتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق . قوله عز وجل (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول) يعنى وإذا سمعوا القرآن الذى أنزل إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم (ترى أعينهم تفيض من الدمع) يقال فاض الإناء إذا امتلأ حتى يخرج منه ما فيه وصفهم الله تعالى بسيل الدمع عند البكاء ورقة القلب عند سماع القرآن قال ابن عباس يريد النجاشى وأصحابه لما قرأ عليهم جعفر بن أبى طالب سورة مريم قال فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة (مما عرفوا من الحق) يعنى الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو الحق (يقولون) يعنى القسيسين والرهبان الذين سمعوا القرآن من جعفر عند النجاشى (ربنا آمنا) يعنى بالقرآن وشهدنا أنه حق وصدق (فاكتبنا مع الشاهدين) يعنى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون بالحق (ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق) قال ابن عباس لما رجع الوفد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لامهم قومهم على ترك دينهم وقيل أن اليهود عيروهم وقالوا تركتم دينكم فأجابوهم بهذا الجواب ومعنى الآية ومالنا لانؤمن بوحدانية الله وما جاءنا من الحق من عنده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم (ونطمع) يعنى ونرجو بذلك الإيمان (أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) يعنى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (فأثابهم الله بما قالوا) يعنى بالتوحيد الذى قالوه وإنما علق الثواب وهو قوله تعالى (جنات تجرى من تحتها الأنهار) بمجرد القول لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم فيما قالوا وهو المعرفة والبكاء المؤذنان بحقيقة الإخلاص واستكانة القلب لأن القول إذا اقترن بالمعرفة فهو الإيمان الحقيقى الموعود عليه بالثواب وقال ابن عباس بما قالوا يريد بما سألوا يعنى قولهم فاكتبنا مع الشاهدين (خالدين فيها) يعنى فى الجنات (وذلك جزاء المحسنين) يعنى المؤمنين الموحدين المخلصين فى إيمانهم (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) لما ذكر الله عزوجل الوعد لمؤمنى أهل الكتاب وما أعد لهم من الجنات ذكر الوعيد لمن أقام منهم على كفره وتكذيبه وأطلق القول بذلك ليكون هذا الوعيد لهم ولمن جرى مجراهم فى الكفر والتكذيب فقال والذين كفروا وكذبوا بآياتنا (أولئك أصحاب الجحيم) قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا

والإذعان للحق (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول) محمد ﷺ (ترى أعينهم تفيض) تسيل (من الدمع مما عرفوا من الحق) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء يريد النجاشى وأصحابه قرأ عليهم جعفر بالحبشة «كهيعص» فمازالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة (يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) يعنى أمة محمد ﷺ دليله قوله تعالى «لتكونوا شهداء على الناس» (ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق) وذلك أن اليهود عيروهم وقالوا لهم لم آمنتم فأجابوهم بهذا (ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) أى فى أمة محمد ﷺ بيانه أن الأرض يرثها عبادى الصالحون (فأثابهم الله) أعطاهم الله (بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) وإنما أنجح قولهم وعلق الثواب بالقول لاقترانه بالإخلاص بدليل قوله (وذلك جزاء المحسنين) يعنى الموحدين المؤمنين وقوله من قبل ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يدل على أن الإخلاص والمعرفة بالقلب مع القول يكون إيمانا (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا

لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم) الآية قال أهل التفسير ذكر النبى ﷺ الناس يوما ووصف القيامة فرق له الناس وبكوا ، فاجتمع عشرة من أصحابه فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى وهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد ابن الأسود وسلمان الفارسى ومعقل ابن مقرن رضى الله عنهم وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويجبوا مذاكيرهم ويصوموا الدهر ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويسيحوا فى الأرض فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه

فقال لامرأته أم حكيم بنت أبى أمية واسمها الحولاء وكانت عطارة أحق مابلغني عن زوجك وأصحابه فكرهت أن تكذب رسول الله ﷺ وكرهت أن تبدى على زوجها فقالت يا رسول الله إن كان أخبرك عثمان فقد صدقك فانصرف رسول الله ﷺ فلما دخل عثمان أخبرته بذلك فأتى رسول الله ﷺ هو وأصحابه فقال لهم رسول الله ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا قالوا بلى يارسول الله وما أردنا إلا الخير فقال ﷺ إنى لم أومر بذلك ثم قال إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وافطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ثم جمع الناس وخطبهم فقال مابال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات النساء أما إنى لست

لامانع

آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فانه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتهم الجهاد اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فانما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم فى الديارات والصوامع فأنزل الله عز وجل هذه الآية أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبى توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائى أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن رشد بن سعد حدثنى أبو نعيم

لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم) قال علماء التفسير أن النبى ﷺ ذكر الناس يوما ووصف القيامة فرق الناس وبكوا فاجتمع عشرة من الصحابة فى بيت عثمان بن مظعون الجمحي وهم أبو بكر وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسى ومعقل بن مقرن وتشاوروا واتفقوا على أنهم يترهبون ويلبسون المسوح ويجبون مذاكيرهم ويصومون الدهر ويقومون الليل ولاينامون على الفرش ولا يأكلون اللحم والودك ولا يقربون النساء ولا الطيب ويسيحون فى الأرض فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه فقال لامرأته أحق مابلغنى عن زوجك وأصحابه فكرهت أن تكذب وكرهت أن تبدى سر زوجها فقالت يارسول الله إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدق فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء عثمان أخبرته بذلك فأتى هو وأصحابه العشرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم رسول الله ﷺ «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا فقالوا بلى يارسول الله وما أردنا إلا الخير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى لم أومر بذلك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ثم جمع الناس وخطبهم فقال: مابال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب وشهوات الدنيا فانى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فانه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتهم الجهاد اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فانما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الديار والصوامع فأنزل الله عز وجل هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم» يعنى الطيبات اللذيذات التى تشتهيها الأنفس وتميل إليها القلوب من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة فأعلم الله عز وجل بهذه الآية أن شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم غير ماعزموا عليه من ترك الطيبات وأنه لاينبغى أن تجتنب الطيبات المباحات ومعنى لاتحرموا لا تعتقدوا تحريم الطيبات المباحات فان من أعتقد تحريم شىء أحله الله فقد كفر أما ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله والتفرغ لعبادته من غير إضرار بالنفس ولاتفويت حق الغير ففضيلة

عن سعد بن مسعود أن عثمان بن مظعون رضى الله عنه أتى النبي ﷺ فقال ائذن لنا فى الاختصاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس منا من خصى ولا من اختصى خصاء أمتى الصيام فقال يارسو ل الله ائذن لنا فى السياحة فقال إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله فقال يارسول الله ائذن لنا فى الترهب فقال إن ترهب أمتى الجلوس فى المساجد وانتظار الصلاة» وروى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن رجلا قال يارسول الله إنى أصبت من اللحم فانتشرت وأخذتنى شهوة فحرمت اللحم فأنزل الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم» يعنى اللذات (٨٥) التى تشتهيها النفوس مما أحل الله لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة (ولا تعتدوا) ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام وقيل جب المذاكير (إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) قال عبد الله بن المبارك الحلال ما أخذته من وجهه والطيب ما غذى وأنمى فأما الجوامد كالطين والتراب ومالا يغذى فمكروه إلا على وجه التداوى (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) أخبرنا أبو محمد عبدالله ابن عبدالصمد الجورجانى أنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذى أخبرنا أحمد بن إبراهيم الدورقى وسلمة بن شبيب ومحمود ابن غيلان قالوا أخبرنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل، قوله عزوجل (لايؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم قالوا يارسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها، وكانوا حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله لايؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان) قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عقدتم بالتخفيف وقرأ ابن عامر عاقدتم بالألف وقرأ الآخرون عقدتم بالتشديد أى وكدتم والمراد من الآية قصدتم وتعمدتم (فكفارته) أى كفارة ما عقدتم الإيمان إذا حنثتم (إطعام عشرة مساكين) واختلفوا فى قدره فذهب قوم إلى أنه يطعم كل

لامانع منها بل مأمور بها. وقوله تعالى (ولا تعتدوا) يعنى ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام وقيل معناه ولا تجبوا أنفسكم فسمى جب المذاكير اعتداء وقيل معناه ولاتعتدوا بالإسراف فى الطيبات (إن الله لايحب المعتدين) يعنى المجاوزين الحلال إلى الحرام. وقوله تعالى (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) يعنى وكلوا أيها المؤمنون من رزق الله الذى رزقكم وأحله لكم من المطاعم والمشارب قال عبدالله ابن المبارك الحلال ما أخذته من وجهه والطيب ما غذى وأنمى فأما الجامد كالطين والتراب ومالا يغذى فمكروه إلا على وجه التداوى وعن ابن عباس أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنى إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتنى شهوتى فحرمت على اللحم فأنزل الله «ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وله عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل وله عن أبى هريرة قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها قالت عائشة ما كان الذراع أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن كان لايجد اللحم إلا غبا وكان يعجل إليه الذراع لأنه أعجلها نضجا أخرجه الترمذى. وقوله تعالى (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) هذا تأكيد للوصية بما أمر الله تعالى به وزاد التأكيد بقوله الذى أنتم به مؤمنون لأن الإيمان به يوجب التقوى فى الانتهاء إلى ما أمر الله به وعما نهى عنه وفى الآية دليل على أن الله عزوجل قد تكفل برزق كل أحد من عباده فانه تعالى لولم يتكفل بذلك لما قال وكلوا مما رزقكم الله وإذا تكفل برزق العبد وجب أن لايبالغ فى الطلب والحرص على الدنيا وأن يعول على وعده الله وتكفل به فانه تعالى أكرم من أن يخلف الوعد. قوله تعالى (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) قال ابن عباس «لما نزلت ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم - قالوا يارسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها وكانوا قد حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية لايؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم» وقد تقدم تفسير اللغو فى الأيمان فى سورة البقرة وقوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) يعنى ولكن يؤاخذكم بما تعمدتم وقصدتم به اليمين ومنه قول الفرزدق.

واست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمد عاقدات العزائم

وفى الآية حذف تقديره ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم فحذفه لأنه معلوم عند السامعين (فكفارته) يعنى فكفارة إيمانكم التى عقدتموها إذا حنثتم (إطعام عشرة مساكين

مسكين مدا من الطعام بمد النبي صلى الله عليه وسلم وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد وكذلك فى جميع الكفارات وهو قول زيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم وسليمان بن يسار وعطاء والحسن وقال أهل العراق لكل مسكين مدان وهو نصف صاع يروى ذلك عن عمر وعلى رضى الله عنهما وقال أبو حنيفة رضى الله عنه إن أطعم من الحنطة فنصف صاع وإن أطعم من غيرها فصاع وهو ، قول الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير ومجاهد والحكم ولو غداهم وعشاهم لايجوز وجوزه أبو حنيفة رضى الله عنه وروى ذلك عن على رضى الله عنه ولا تجوز الدراهم والدنانير ولا الخبز ولا الدقيق بل يجب إخراج الحب إليهم وجوز أبو حنيفة رضى الله عنه كل ذلك ولو صرف الكل إلى مسكين واحد لا يجوز وجوز أبو حنيفة أن يصرف طعام عشرة إلى مسكين واحد فى عشرة أيام ، ولا يجوز أن يصرف إلا إلى مسلم حر محتاج فان صرف إلى ذمى أو عبد أو غنى لايجوز وجوز أبو حنيفة رضى الله عنه صرفها إلى أهل الذمة واتفقوا على أن صرف الزكاة إلى أهل الذمة لايجوز قوله تعالى (من أوسط ماتطعمون أهليكم) أى من خير قوت عيالكم وقال أبو عبيدة السلمانى الأوسط الخبز والخل والأعلى الخبز واللحم والأدنى الخبز البحت والكل مجز ، قوله تعالى (أوكسوتهم) كل من لزمته كفارة اليمين فهو فيها مخير إن شاء أطعم عشرة من المساكين وإن شاء كساهم وإن شاء أعتق رقبة فان اختار الكسوة فاختلفوا فى قدرها فذهب قوم إلى أنه يكسو كل مسكين ثوبا واحدا مما يقع عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو كساء أو نحوها وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس وإليه ذهب الشافعى رحمه الله تعالى وقال مالك يجب لكل إنسان ماتجوز فيه صلاته فيكسو الرجال ثوبا واحدا والنساء ثوبين درعا وخمارا وقال سعيد بن المسيب لكل مسكين ثوبان قوله عز وجل (أو تحرير رقبة) وإذا اختار العتق يجب إعتاق رقبة مؤمنة وكذلك جميع الكفارات مثل كفارة القتل والظهار

من أوسط ماتطعمون أهليكم) يعنى من أقصد ذلك لأن من الناس من يسرف فى إطعام أهله ومنهم من يقتر عليهم فأمر الله بالعدل فى أداء الكفارة وقيل أراد بالأوسط فى القيمة فلا يكون غاليا من أعلى الموجود ولا خسيس الثمن من أردإ الموجود بل الوسط فى القيمة وقيل أراد بالأوسط الأفضل قال ابن عباس كل شىء فى كتاب الله أوسط فهو أفضل فعلى هذا يكون المعنى من خير ماتطعمون أهليكم وأفضله (أو كسوتهم) هو معطوف على محل أوسط أى كما تطعمون المساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم فكذلك فاكسوهم من أوسط الكسوة (أو تحرير رقبة) يعنى عتق رقبة والمراد جملة الشخص .

(فصل فى حكم الآية وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى) فى بيان الكفارة وهى أربعة أنواع : النوع الأول من الكفارة الإطعام فيجب إطعام عشرة مساكين واختلفوا فى قدر مايطعم لكل مسكين فذهب قوم إلى أنه يطعم لكل مسكين مد من الطعام بمد النبى ﷺ وهو رطل وثلث بالبغدادى من غالب قوت البلد وكذلك سائر الكفارات وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وسليمان بن يسار وعطاء والحسن وإليه ذهب مالك والشافعى وروى عن عمر وعلى وعائشة أنه يطعم لكل مسكين مدان من بر وهو نصف صاع وبه قال أهل العراق وقال أبو حنيفة إن أطعم من الحنطة فنصف صاع وإن أطعم من غيرها فصاع وهو قول الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير ومجاهد وقال أحمد بن حنبل يطعم لكل مسكين مد من البر أو نصف صاع من غيرها مثل التمر والشعير ومن شرط الإطعام تمليك الطعام للمساكين فلو عشاهم وغداهم لم يجزه وقال أبو حنيفة يجزيه ذلك ولا يجوز إخراج القيمة فى الكفارة كالدراهم والدنانير وقال أبو حنيفة يجوز ذلك ولا إخراج الدقيق والخبز فى الكفارة بل يجب إخراج الحب وجوزه أبو حنيفة ولا يجوز صرف الكل إلى مسكين واحد فى عشرة أيام . النوع الثانى من الكفارات الكسوة واختلف العلماء فى قدرها فذهب قوم إلى أنه يكسو كل مسكين ثوبا واحدا مما يقع عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء ونحو ذلك وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس وإليه ذهب الشافعى وقال مالك يجب أن يكسو كل مسكين ماتجوز به الصلاة فيكسو الرجل ثوبا والمرأة ثوبين درعا وخمارا وقال أحمد للرجال ثوبا وللمرأة ثوبين درعا وخمارا وهو أدنى مايجزى فى الصلاة وقال ابن عمر يجب قميص وإزار ورداء وقال أبو موسى الأشعرى يجب ثوبان وهو قول سعيد بن المسيب وابن سيرين

والجماع فى نهار رمضان يجب فيها إعتاق رقبة مؤمنة وأجاز أبو حنيفة رضى الله عنه والثورى رضى الله عنه إعتاق الرقبة الكافرة فى جميعها إلا فى كفارة القتل لأن الله تعالى قيد الرقبة فيها بالإيمان قلنا المطلق يحمل على المقيد، كما أن الله تعالى قيد الشهادة بالعدالة فى موضع فقال «وأشهدوا ذوى عدل منكم» وأطلق فى موضع فقال «واستشهدوا شهيدين من رجالكم» ثم العدالة شرط فى جميعها حملا للمطلق على المقيد كذلك هذا ولا يجوز إعتاق المرتد بالإنفاق عن الكفارة ويشترط أن يكون سليم الرق حتى لو أعتق عن كفارته مكاتبا أو أم ولد أو عبد اشترى بشرط العتق أو اشترى قريبه الذى يعتق عليه بنية الكفارة يعتق ولكن لا يجوز عن الكفارة وجوز أصحاب الرأى عتق المكاتب إذا لم يكن أدى شيئا من النجوم وعتق القريب عن الكفارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل ضررا بينا حتى لا يجوز مقطوع إحدى اليدين أو إحدى الرجلين ولا الأعمى ولا الزمن ولا المجنون المطبق ويجوز الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف لأن هذه العيوب لا تضر بالعمل ضررا بينا وعند أبى حنيفة رضى الله عنه كل عيب يفوت جنسا من المنفعة يمتنع الجواز حتى جوز مقطوع إحدى اليدين ولم يجوز مقطوع الأذنين قوله عز وجل (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) إذا عجز الذى لزمته كفارة اليمين عن الطعام والكسوة وتحرير الرقبة يجب عليه صوم ثلاثة أيام والعجز أن لا يفضل من ماله عن قوته وقوت عياله وحاجته ما يطعم أو يكسو أو يعتق

وابن سيرين وقال إبراهيم النخعي يجب ثوب جامع كالملحفة. النوع الثالث من الكفارات العتق فيجب إعتاق رقبة مؤمنة وكذلك يجب فى جميع الكفارات وأجاز أبو حنيفة والثورى إعتاق الرقبة الكافرة فى جميع الكفارات إلا كفارة القتل فان الله قيد الرقبة بالإيمان فى كفارة القتل ومذهب الشافعى أن المطلق يحمل على المقيد ولا يجوز إعتاق المرتد فى الكفارات بالإجماع ويشترط أن تكون الرقبة سليمة الرق حتى لو أعتق فى الكفارة مكاتبا أو أم ولد أو عبدا اشتراه بشرط العتق أو اشترى قريبه الذى يعتق عليه فكل هؤلاء لا يجزى فى إعتاق الكفارة وجوز أصحاب الرأى عتق المكاتب فى الكفارة إذا لم يؤد من نجوم الكتابة شيئا وجوزوا عتق القريب فى الكفارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل فلا يجزى مقطوع اليد أو الرجل ولا الأعمى ولا الزمن ولا المجنون المطبق ويجوز عتق الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف لأن هذه العيوب كلها لا تضر بالعمل وعند أبى حنيفة كل عيب يفوت جنسا من المنفعة يمنع الجواز فيجوز عتق مقطوع إحدى اليدين ولا يجوز عتق مقطوع الأذنين فى الكفارة. النوع الرابع من الكفارات الصوم وهو قوله تعالى (فمن لم يجد) يعنى الكفارة (فصيام ثلاثة أيام) يعنى فاذا عجز من لزمته كفارة اليمين عن الإطعام أو الكسوة أو العتق وجب عليه صيام ثلاثة أيام وهو قوله تعالى فصيام ثلاثة أيام يعنى فعليه صيام ثلاثة أيام قال الشافعى إذا كان عنده قوته أو قوت عياله يومه وليلته وفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالإطعام وإن لم يكن عنده هذا القدر جاز له الصيام وقال أبو حنيفة يجوز له الصيام إذا لم يكن عنده من المال ما تجب فيه الزكاة فجعل من لا زكاة عليه عادما وقال الحسن إذا لم يجد درهمين صام وقال سعيد ابن جبير ثلاثة دراهم واختلفوا فى وجوب التتابع فى الصيام عن كفارة اليمين على قولين: أحدهما أنه يجب التتابع فيه قياسا على كفارة الظهار والقتل وهو قول ابن عباس ومجاهد وطاوس وعطاء وقتادة وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد وأحد قولى الشافعى والقول الثانى لا يجب التتابع فى كفارة اليمين فان شاء تابع وإن شاء فرق والتتابع أفضل وبه قال الحسن ومالك وهذا القول الثانى للشافعى.

(المسئلة الثانية) كلمة أو للتخيير بين الإطعام والكسوة والعتق فان شاء أطعم وإن شاء كسا وإن شاء أعتق فبأيها أخذ المكفر فقد أصاب وخرج عن العهدة.

(المسئلة الثالثة) لا يجوز صرف شيء من الكفارات إلا إلى مسلم حر محتاج فلو صرف إلى ذمى أو عبد أو غنى لا يجزيه وجوز أبو حنيفة صرفها الى أهل الذمة واتفقوا على أن صرف الزكاة إلى أهل الذمة لا يجوز.

(المسئلة الرابعة) اختلفوا فى تقديم الكفارة على الحنث فذهب قوم إلى جوازه لما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال من حلف على يمينه فرأى خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير» أخرجه الترمذى (ق) عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله

فانه يصوم ثلاثة أيام وقال بعضهم إذا ملك مايمكنه الإطعام وإن لم يفضل عن كفايته فليس له الصيام هو قول الحسن وسعيد ابن جبير واختلفوا فى وجوب التتابع فى هذا الصوم فذهب جماعة إلى أنه لايجب فيه التتابع ، بل إن شاء تابع وإن شاء فرق والتتابع أفضل وهو أحد قولى الشافعى وذهب قوم إلى أنه يجب فيه التتابع قياسا على كفارة القتل والظهار وهو قول الثورى وأبى حنيفة ويدل عليه قراءة ابن مسعود رضى الله عنه صيام ثلاثة أيام متتابعات (ذلك) أى ذلك الذى ذكرت كفارة أيمانكم إذا حلفتم) وحنثتم فان الكفارة لاتجب إلا بعد الحنث واختلفوا فى تقديم الكفارة على الحنث فذهب قوم إلى جوازه لما روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من

حلف «على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير» وهو قول عمر وابن عباس وعائشة رضى الله عنها وبه قال الحسن وابن سيرين وإليه ذهب مالك والأوزاعى والشافعى إلا أن الشافعى يقول إن كفر بالصوم قبل الحنث لا يجوز لأنه بدنى إنما يجوز بالإطعام أو الكسوة أو العتق كما يجوز تقديم الزكاة على الحول ولايجوز تعجيل صوم رمضان قبل وقته وذهب قوم إلى أنه لايجوز تقديم الكفارة على الحنث وبه قال أبو حنيفة رضى الله عنه قوله عز وجل (واحفظوا أيمانكم) قيل أراد به ترك الحلف أى لاتحلفوا وقيل هو الأصح أراد به إذا حلفتم فلا تحنثوا فالمراد منه حفظ اليمين عن الحنث هذا إذا لم يكن يمينه على ترك مندوب أوفعل مكروه فان حلف على فعل مكروه أو ترك مندوب فالأفضل أن يحنث نفسه ويكفر لما أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا حجاج بن منهال أنا جرير بن حازم عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم ياعبد الرحمن بن سمرة «لاتسأل الإمارة فانك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وأت الذى هو خير» (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) أى القمار (والأنصاب) يعنى الأوثان ، سميت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها واحدها نصب بفتح النون وسكون الصاد ونصب بضم النون مخففا ومثقلا (والأزلام) يعنى القداح التى يستقسمون بها واحدها زلم وزلم (رجس) خبيث مستقذر

من عمل

صلى الله عليه وسلم «ياعبدالرحمن لاتسأل الأمارة فانها إن أتتك عن مسألة وكلت إليها وإن أتتك من غير مسألة أعنت عليها وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » وهذا قول عمر وابن عباس وعائشة وعامة الفقهاء وبه قال الحسن وابن سيرين وإليه ذهب مالك والأوزاعى والشافعى إلا أن الشافعى قال إن كفر بالصوم قبل الحنث لايجوز لأنه بدنى إنما يجوز الطعام أو الكسوة أو العتق وقال أبو حنيفة لايجوز تقديم الكفارة على الحنث وقوله (ذلك) إشارة إلى ماتقدم ذكره من الإطعام أو الكسوة أو العتق أو الصوم عند العجز (كفارة أيمانكم إذا حلفتم) يعنى وحنثتم لأن الكفارة لاتجب بمجرد اليمين إنما تجب بالحنث بعد اليمين وفيه إشارة إلى تقديم الكفارة على اليمين لايجوز ، بل بعد اليمين وقبل الحنث كما تقدم (واحفظوا أيمانكم) يعنى قللوا أيمانكم ففيه النهى عن كثرة الحلف ومنه قول الشاعر . قليل الألايا حافظ ليمينه . وصفه بأنه لايحلف وقيل فى معنى الآية واحفظوا أيمانكم عن الحنث إذا حلفتم لئلا تحتاجوا إلى التكفير وهذا إذا لم يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه فان حلف على ذلك فالأفضل ، بل الأولى أن يحنث نفسه ويكفر لما روى عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنى والله إن شاء الله لاأحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير» أخرجاه فى الصحيحين قوله تعالى (كذلك يبين الله لكم آياته) يعنى كما بين لكم كفارة أيمانكم إذا حنثتم كذلك يبين لكم جميع ماتحتاجون إليه فى أمر دينكم (لعلكم تشكرون) يعنى نعمه التى أنعم بها عليكم أن بين لكم آياته ومعالم شريعته قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس) لما أنزل الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم» وقوله «وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا» وكانت الخمر والميسر مما يستطاب عندهم بين الله تعالى فى هذه الآية أن الخمر والميسر غير داخلين فى جملة الطيبات المحللات ، بل هما من جملة المحرمات والخمر كل ماخامر العقل وغطاه والميسر القمار وقد تقدم تفسيرهما فى سورة البقرة والأنصاب هى الحجارة التى كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها والأزلام هى القداح التى كانوا يستقسمون بها وتقدم تفسير ذلك والرجس فى اللغة الشىء الخبيث المستقذر

(من عمل الشيطان) يعنى من تزيينه وإغوائه ودعائه إياكم إليها وليس المراد أنها من عمل يديه (فاجتنبوه) يعنى كونوا جانبا منه والضمير فى قوله فاجتنبوه عائد إلى الرجس لأنه اسم جامع للكل كأنه قال إن هذه الأربعة الأشياء كلها رجس فاجتنبوه (لعلكم تفلحون) يعنى لكى تدركوا الفلاح إذا اجتنبتم هذه المحرمات التى هى رجس قوله تعالى (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر) اختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فروى أبو ميسرة أن عمر بن الخطاب قال اللهم بين لنا فى الخمر والميسر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى سورة البقرة «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير» الآية فدعى عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا فى الخمر والميسر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى سورة النساء «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» فدعا عمر فقرئت عليه ثم قال اللهم بين لنا فى الخمر والميسر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى المائدة «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر إلى قوله فهل أنتم منتهون» فدعى عمر فقرئت عليه فقال انتهينا انتهينا أخرجه الترمذى من طريقين وقال رواية أبى ميسرة هذه أصح وأخرجه أبو داود والنسائى وروى مصعب بن سعيد عن أبيه قال صنع رجل من الأنصار طعاما فدعانا فشربنا وذلك قبل أن تحرم زاد حتى انتشينا فتفاخرت الأنصار وقريش فقالت الأنصار نحن أفضل منكم فقال سعد بن أبى وقاص المهاجرون خير منكم فأخذ رجل من الأنصار لحى جمل فضرب به أنف سعد ففزره فأتى سعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فنزلت هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر إلى قوله فهل أنتم منتهون» وقال ابن عباس نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا حتى ثملوا وعبث بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول فعل بى هذا فلان أخى وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن فأنزل الله تعالى تحريم الخمر فى هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر إلى قوله فهل أنتم منتهون» وأما تفسير الآية فقوله تعالى إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر يعنى إنما يزين لكم الشيطان شرب الخمر والقمار بالقداح وهو الميسر ويحسن ذلك لكم إرادة أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء بسبب شرب الخمر لأنها تزيل عقل شاربها فيتكلم بالفحش وربما أفضى ذلك إلى المقاتلة وذلك سبب إيقاع العداوة والبغضاء بين شاربيها . وأما الميسر فقال قتادة كان الرجل فى الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقمر فيقعد حزينا سليبا ينظر إلى ماله فى يد غيره فيورثه ذلك العداوة والبغضاء فنهى الله عن ذلك وتقدم مافيه والله أعلم بما يصلح خلقه فظهر بذلك أن الخمر والميسر سببان عظيمان فى إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس وهذا فيما يتعلق بأمر الدنيا وفيهما مفاسد تتعلق بأمر الدين وهى قوله تعالى (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) لأن شرب الخمر يشغل عن ذكر الله وعن فعل الصلاة وكذلك القمار يشغل صاحبه عن ذكر الله وعن الصلاة . فان قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام فى الآية الأولى ثم أفرد الخمر والميسر فى هذه الآية . قلت لأن الخطاب مع المؤمنين بدليل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا والمقصود نهيهم عن شرب الخمر واللعب بالقمار وإنما ضم الأنصاب والأزلام إلى الخمر والميسر لتأكيد تحريم الخمر والميسر فلما كان المقصود من الآية النهى عن شرب الخمر والميسر لاجرم أفردهما بالذكر فى آخر الآية والله أعلم . قوله تعالى (فهل أنتم منتهون)

(من عمل الشيطان) من تزيينه (فاجتنبوه) رد الكناية إلى الرجس (لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر) أما العداوة فى الخمر إن الشاربين إذا سكروا عربدوا وتشاجروا كما فعل الأنصارى الذى شج سعد بن أبى وقاص بلحى الجمل. وأما العداوة فى الميسر قال قتادة كان الرجل يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزينا مسلوب الأهل والمال مغتاظا على حرفائه (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وذلك أن من اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن ذكر الله وشوش عليه صلاته كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف وتقدم رجل ليصلى بهم صلاة المغرب بعد ماشربوا فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد بحذف لا (فهل أنتم منتهون) أى انتهوا لفظه استفهام

ومعناه أمر كقوله تعالى «فهل أنتم شاكرون» (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا) المحارم والمناهي (فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وفي وعيد شارب الخمر أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الفوراني أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني ثنا أبو الحسن محمد بن محمود المحمودي أنا أبو العباس الماسرجسي بنيسابور أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي أخبرنا صالح بن قدامة حدثنا أخي عبدالملك بن قدامة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مسكر حرام وأن حتما على الله أن لا يشربه عبد في الدنيا إلا سقاه الله تعالى يوم القيامة من طينة الخبال هل تدرون ما طينة الخبال؟ قال عرق أهل النار وأخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة» وأخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أحمد ابن أبي أخبرنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن إسحاق الصنعاني حدثنا أبو نعيم حدثنا عبدالعزيز بن عمر ابن عبد العزيز عن عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي من أهل مصر عن عبد الله بن عمر أنه قال أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها» قوله عز وجل (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية سبب نزول هذه الآية أن الصحابة رضوان الله عليهم قالوا لما نزل تحريم الخمر يارسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر

لفظه استفهام ومعناه الأمر أي انتهوا وهذا من أبلغ ماينهى به لأنه تعالى ذم الخمر والميسر وأظهر قبحهما للمخاطب كأنه قيل قد تدلى عليكم مافيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم منتهون مع هذه الأمور أم أنتم على ما كنتم عليه كأنكم لم توعظوا ولم تنزجروا؟ وفي هذه الآية دليل على تحريم شرب الخمر لأن الله تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأصنام وعدد أنواع المفاسد الحاصلة بهما ووعد بالفلاح عند اجتنابهما وقال فهل أنتم منتهون ومعناه الأمر وقد صح من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «كل شراب أسكر فهو حرام» أخرجاه في الصحيحين وزاد الترمذي وأبو داود ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام الفرق بالتحريك إناء يسع ستة عشر رطلا عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فان عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فان عاد لن يقبل الله له صلاة أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فان عاد الرابعة لم يقبل الله له أربعين صباحا فان تاب لم يتب الله عليه وسقاه الله من نهر الخبال» قالوا ياأبا عبد الرحمن وما نهر الخبال؟ قال صديد أهل النار أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وأخرجه النسائي وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه» أخرجه أبو داود. قوله عز وجل (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) يعني فيما أمركم به ونهاكم عنه (واحذروا) أي واحذروا مخالفة الله ومخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمركم به ونهاكم عنه (فان توليتم) يعني فان أعرضتم عما أمركم به ونهاكم عنه (فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وهذا وعيد وتهديد لمن أعرض عن أمر الله ونهيه كأنه قال فاعلموا أنكم بسبب توليكم وإعراضكم قد استحققتم العذاب والسخط. قوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية عن البراء بن عازب قال مات ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم يشربون الخمر فلما نزل تحريم الخمر قال ناس من أصحاب النبي ﷺ كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ قال فنزلت «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح عن ابن عباس قال قالوا يارسول الله أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر لما نزل تحريم الخمر فنزلت «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ومعنى الآية «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» أي لا حرج ولا إثم عليهم فيما شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار في وقت الإباحة قبل التحريم قال ابن قتيبة يقال لم أطعم خبزا ولا ماء ولا نوما قال الشاعر:

فان شئت حرمت النساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

النقاخ

ويأكلون من مال الميسر؟ فأنزل الله تعالى «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» وشربوا من الخمر وأكلوا من مال الميسر (إذا ما اتقوا) الشرك (وآمنوا) وصدقوا (وعملوا الصالحات (٩١) ثم اتقوا) الخمر والميسر بعد تحريمهما (وآمنوا ثم اتقوا) ما حرم الله عليهم كله (وأحسنوا والله يحب المحسنين) وقيل معنى الأول إذا ما اتقوا الشرك وآمنوا وصدقوا ثم اتقوا أى داوموا على ذلك التقوى وآمنوا وازدادوا إيمانا ثم اتقوا المعاصى كلها وأحسنوا وقيل أى اتقوا بالإحسان وكل محسن متق والله يحب المحسنين قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد) الآية نزلت عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد وكانت الوحوش تغشى رحالهم كثيرة فهموا بأخذها فنزلت «يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله» ليختبرنكم الله وفائدة البلوى إظهار المطيع من العاصى وإلا فلا حاجة له إلى البلوى بشيء من الصيد وإنما بعض فقال بشيء لأنه ابتلاهم بصيد البر خاصة (تناله أيديكم) يعنى الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفر من صغار الصيد (ورماحكم) يعنى الكبار من الصيد (ليعلم الله) ليرى الله لأنه قد علمه (من يخافه بالغيب) أى يخاف الله ولم يره وكقوله تعالى «الذين يخشون ربهم بالغيب» أى يخافه فلا يصطاد فى حال الإحرام (فمن اعتدى بعد ذلك) أى صاد بعد تحريمه (فله عذاب أليم) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال يوجع ظهره وبطنه جلدا ويسلب ثيابه قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) أى محرمون

النقاخ الماء والبرد النوم (إذا ما اتقوا) يعنى إذا ما اتقوا الشرك وقيل اتقوا ما حرم الله عليهم (وآمنوا) يعنى بالله ورسوله (وعملوا الصالحات) أى وازدادوا من عمل الصالحات (ثم اتقوا وآمنوا) يعنى اتقوا الخمر والميسر بعد التحريم فعلى هذا تكون الأولى إخبارا عن حال من مات وهو يشربها قبل التحريم أنه لا جناح عليه. والثانية خطاب لمن بقى بعد التحريم أمروا باتقائها والإيمان بتحريمها (ثم اتقوا) يعنى ما حرم عليهم فى المستقبل (وأحسنوا) يعنى العمل وقيل المراد بالاتقاء الأول فعل التقوى وبالثانى المداومة عليها وبالثالث اتقاء الظلم مع ضم الإحسان إليه وقيل إن المقصود من التكرير التأكيد والمبالغة فى الحث على الإيمان والتقوى وضم الإحسان إليهما ثم قال تعالى (والله يحب المحسنين) يعنى أنه تعالى يحب المتقربين إليه بالإيمان والأعمال الصالحة والتقوى والإحسان وهذا ثناء ومدح لهم على الإيمان والتقوى والإحسان لأن هذه المقامات من أشرف الدرجات وأعلاها (م) عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إلى آخر الآية» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لى أنت منهم ومعناه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له أن ابن مسعود منهم يعنى من الذين آمنوا وعملوا الصالحات والتقوى والإحسان. قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد) نزلت هذه الآية عام الحديبية وكانوا محرمين فابتلاهم الله بالصيد فكانت الوحوش تغشى رحالهم من كثرتها فهموا بأخذها وصيدها فأنزل الله هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله» الآية اللام فى ليبلونكم لام القسم أى ليختبرن طاعتكم من معصيتكم والمعنى يعاملكم معاملة المختبر بشيء من الصيد يعنى بصيد البر دون البحر وقيل أراد الصيد فى حالة الإحرام دون الإحلال وإنما قال بشيء من الصيد ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التى تزل عندها أقدام الثابتين ويكون التكليف فيها صعبا شاقا كالابتلاء ببذل الأموال والأرواح وإنما هو ابتلاء سهل كما ابتلى أصحاب السبت بصيد السمك فيه لكن الله عز وجل بفضله وكرمه عصم أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يصطادوا شيئا فى حالة الابتلاء ولم يعصم أصحاب السبت فمسخوا قردة وخنازير. وقوله تعالى (تناله أيديكم) يعنى الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفر من صغار الصيد (ورماحكم) يعنى كبار الصيد مثل حمر الوحش ونحوها وقال ابن عباس فى قوله تناله أيديكم ورماحكم هو الضعيف من الصيد وصغيره يبتلى الله به عباده فى إحرامهم حتى لو شاءوا نالوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه (ليعلم الله) أى ليرى الله فإنه قد علمه فهو مجاز لأنه تعالى عالم لم يزل والمعنى يعاملكم معاملة المختبر وقيل معناه ليظهر المعلوم وهو خوف الخائف وقيل هو من باب حذف المضاف والتقدير ليعلم أولياء الله (من يخافه بالغيب) يعنى من يخاف الله ولم يره فلا يصطاد فى حالة الإحرام شيئا بعد النهى (فمن اعتدى بعد ذلك) يعنى فصاد فى حالة الإحرام بعد النهى (فله عذاب أليم) يعنى فى الدنيا قال ابن عباس هو أن يوجع ظهره وبطنه جلدا وتسلب ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين فى معنى هذه الآية لأنه قد سمى الجلد عذابا وهو قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين. وقوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) جمع حرام أى لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بالحج

الرجل إذا عقد الإحرام وأحرم إذا دخل الحرم نزلت فى رجل يقال له أبو اليسر شد على حمار وحش وهو محرم فقتله قوله تعالى (ومن قتله منكم متعمدا) اختلفوا فى هذا العمد فقال قوم هو العمد لقتل الصيد مع نسيان الإحرام. أما إذا قتله عمدا وهو ذاكر لإحرامه فلا حكم عليه وأمره إلى الله لأنه أعظم من أن يكون له كفارة هذا قول مجاهد والحسن وقال الآخرون هو أن يعمد المحرم قتل الصيد ذاكرا لإحرامه فعليه الكفارة واختلفوا فيما لو قتله خطأ فذهب أكثر الفقهاء إلى أن العمد والخطأ سواء فى لزوم الكفارة وقال الزهرى على المتعمد بالكتاب وعلى المخطىء بالسنة وقال سعيد بن جبير لا تجب كفارة الصيد بقتل الخطأ، بل يختص بالعمد قوله عز وجل (فجزاء مثل) قرأ أهل الكوفة ويعقوب فجزاء منون مثل رفع على البدل من الجزاء وقرأ الآخرون بالإضافة فجزاء مثل (ماقتل من النعم) معناه أنه يجب عليه مثل ذلك الصيد من النعم وأراد به مايقرب من الصيد

والعمرة وقيل المراد منه دخول الحرم يقال أحرم إذا عقد الإحرام وأحرم إذا دخل الحرم وقيل هما مرادان بالآية فلا يجوز قتل الصيد للمحرم ولا فى الحرم نزلت هذه الآية فى أبى اليسر شد على حمار وحش فقتله وهو محرم ثم صار هذا الحكم عاما فلا يجوز قتل الصيد ولا التعرض له مادام محرما ولا فى الحرم والمراد بالصيد كل حيوان متوحش مأكول اللحم وهذا قول الشافعى وقال أبو حنيفة هو كل حيوان متوحش سواء كان مأكولا أو لم يكن فيجب عنده الضمان على من قتل سبعا أو نمرا أو نحو ذلك واستثنى الشارع خمس فواسق فأجاز قتلهن (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «خمس من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور» وفى رواية خمس لاجناح على من قتلهن فى الحرم والإحرام (ق) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن فى الحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور» ولمسلم خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم وذكر نحوه وفى رواية النسائى قال خمس يقتلن المحرم: الحية والعقرب والفأرة والغراب الأبقع والكلب العقور قال ابن عيينة الكلب العقور كل سبع ضار يعقر وقاس الشافعى عليها جميع مالا يؤكل لحمه قال لأن الحديث يشتمل على أشياء بعضها سباع ضارية وبعضها هوام قاتلة وبعضها طير لايدخل في معنى السباع ولا فى معنى الهوام وإنما هو حيوان مستخبث اللحم وتحريم الأكل يجمع الكل فاعتبره ورتب عليه الحكم وذهب أصحاب الرأى إلى وجوب الجزاء فى كل مالا يؤكل لحمه إلا الأعيان المذكورة فى الحديث وقاسوا عليها الذئب فلم يوجبوا فيه كفارة. قوله تعالى (ومن قتله منكم متعمدا) قال مجاهد والحسن وابن زيد هو الذى يتعمد قتل الصيد مع نسيان الإحرام فعليه الجزاء. أما إذا تعمد قتل الصيد ذكرا لإحرامه فلا جزاء عليه لأنه أعظم من أن يكون له كفارة وقال ابن عباس والجمهور يحكم عليه بالجزاء وإن تعمد القتل مع ذكر الإحرام وهذا مذهب عامة الفقهاء، أما إذا قتل الصيد خطأ بأن قصد غيره بالرمى فأصابه فهو كالعمد فى وجوب الجزاء وهذا مذهب جمهور المفسرين والفقهاء قال الزهرى نزل القرآن بالعمد وجرت السنة فى الخطأ يعنى ألحقت المخطىء بالمتعمد فى وجوب الجزاء وقال سعيد بن جبير لاأرى فى الخطأ شيئا وهذا قول شاذ لايؤخذ به (فجزاء مثل ماقتل من النعم) يعنى فعليه جزاء من النعم مثل ماقتل والمثل والشبه واحد واختلفوا فى هذه المماثلة أهى بالخلقة أم بالقيمة والذى عليه جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أن المماثلة فى الخلقة معتبرة لأن ظاهر الآية يدل على ذلك ومالا مثل له فالقيمة وقال أبو حنيفة المثل الواجب فى قتل الصيد هو القيمة لأن الصيد المقتول إذا لم يكن له مثل فانه يضمن بالقيمة وهذا لانزاع فيه فكان المراد بالمثل هو القيمة فى هذه الصورة فوجب أن يكون فى سائر الصور كذلك لأن اللفظ الواحد لايجوز حمله إلا على معنى واحد وأجيب عنه بأن حقيقة المماثلة أمر معلوم فيجب رعايتها بأقصى الإمكان وإن لم تمكن رعايتها إلا بالقيمة وجب الاكتفاء بها للضرورة وحجة الشافعى ومن وافقه فى اعتبار المماثلة بالخلقة أن الصحابة حكموا فى بلدان شتى وأزمان مختلفة بالمثل من النعم فحكموا فى النعامة ببدنة وهى لاتساوى بدنة وحكموا فى حمار الوحش ببقرة وهو لايساوي بقرة وكذا فى الضبع بكبش فدل ذلك على أنهم إنما نظروا إلى مايقرب من الصيد شبها من حيث الخلقة فحكموا به ولم يعتبروا القيمة فيجب فى الظبى شاة وفى الأرنب سخل وفى الضب سخلة وفى اليربوع

جفرة

المقتول شبها من حيث الخلقة لامن حيث القيمة (يحكم به ذوا عدل منكم) أى يحكم بالجزاء رجلان عدلان ويلبغى ان يكونا فقيهين ينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به وممن ذهب إلى إيجاب المثل من النعم عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن ابن عوف وابن عمر وابن عباس وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم : حكموا فى بلدان مختلفة وأزمان شتى بالمثل من النعم فحكم حاكمهم فى النعامة ببدنة وهى لاتساوى بدنة وفى حمار الوحش ببقرة وهو لايساوى بقرة وفى الضبع بكبش وهو لايساوى كبشا فدل أنهم نظروا إلى مايقرب من الصيد شبها من حيث الخلقة وتجب (٩٣) فى الحمام شاة وهو كل ماعب وهدر من الطير كالفاخته والقمرى والدبسى وروى عن عمر وعثمان وابن عباس رضى الله عنهم أنهم قضوا فى حمام مكة بشاة أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن أبى الزبير المكى عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قضى فى الضبع بكبش وفى الغزال بعنز وفى الأرنب بعناق وفى اليربوع بجفرة قوله تعالى (هديا بالغ الكعبة) أى يهدى تلك الكفارة إلى الكعبة فيذبحها بمكة ويتصدق بلحمها على مساكين الحرم (أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) قال الفراء رحمه الله العدل بالكسر المثل من جنسه والعدل بالفتح المثل من غير جنسه وأراد به أنه فى جزاء الصيد مخير بين أن يذبح المثل من النعم فيتصدق بلحمه على مساكين الحرم وبين أن يقوم المثل دراهم والدراهم طعاما فيتصدق بالطعام على مساكين الحرم أو يصوم عن كل مد من الطعام يوما وله أن يصوم حيث شاء ، لأنه لانفع فيه للمساكين وقال مالك إن لم يخرج المثل يقوم الصيد ثم يجعل القيمة طعاما فيتصدق به أو يصوم وقال أبو حنيفة رضى الله عنه لايجب المثل من النعم بل يقوم الصيد فان شاء صرف تلك القيمة إلى شىء من النعم وإن شاء إلى الطعام فيتصدق به وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من شعير يوما وقال الشعبى والنخعى جزاء الصيد على الترتيب والآية حجة لمن ذهب

جفرة ويجب فى الحمامة وكل ماعب وهدر كالفواخت والقمرى وذوات الأطواق شاة وما سواه من الطير ففيه القيمة فى المكان الذى أصيب فيه وروى عن عثمان وابن عباس أنهما حكما فى حمام الحرم بشاة وروى عن عمر أنه قضى فى الضبع بكبش وفى الغزال بعنز وفى الأرنب بعناق وفى اليربوع بجفرة . وقوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) يعنى يحكم بالجزاء فى قتل الصيد رجلان صالحان عدلان من أهل ملتكم ودينكم وينبغى أن يكونا فقيهين فينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به. قال ميمون بن مهران جاء أعرابى إلى أبى بكر الصديق فقال إنى أصبت من الصيد كذا وكذا فسأل أبو بكر أبى بن كعب فقال الأعرابى إنى أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر وما أنكرت من ذلك قال الله تعالى يحكم به ذوا عدل منكم فشاورت صاحبى فاذا اتفقنا على شىء أمرناك به وقوله تعالى (هديا بالغ الكعبة) يعنى أن الكفارة هدى يساق إلى الكعبة وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها والعرب تسمى كل بيت مرتفع كعبة وإنما أريد الكعبة كل الحرم لأن الذبح لايقع فى الكعبة وعندها ملاقيا لها إنما يقع فى الحرم وهو المراد بالبلوغ فيذبح الهدى بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم هذا مذهب الشافعى وقال أبو حنيفة له أن يتصدق به حيث شاء إذا وصل الهدى إلى الكعبة (أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) ذهب الشافعى ومالك وأبو حنيفة إلى أن كلمة أو فى هذه الآية للتخيير وقال أحمد وزفر من أصحاب أبى حنيفة إنها للترتيب وهما روايتان عن ابن عباس قال الشافعى إذا قتل صيدا له مثل فهو مخير بين ثلاثة أشياء: إن شاء ذبح المثل من النعم وتصدق به على مساكين الحرم وإن شاء قوم المثل دراهم والدراهم طعاما ثم يتصدق به على مساكين الحرم وإن شاء صام عن كل مد من الطعام يوما وقال أبو حنيفة يصوم عن كل نصف صاع يوما وعن أحمد روايتان كالقولين وأصل هذه المسئلة إن الصوم مقدر بطعام اليوم فعند الشافعى مقدر بالمد وعند أبى حنيفة مقدر بنصف صاع وله أن يصوم حيث شاء لأنه لانفع فيه للمساكين وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخيار فى تعيين أحد هذه الثلاثة الأشياء إلى قاتل الصيد الذى وجب عليه الكفارة لأن الله أوجب عليه أحد هذه الثلاثة على التخيير فوجب أن يكون هو المخير بين أيها شاء وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبى حنيفة التخيير إلى الحكمين لأن الله تعالى قال «يحكم به ذوا عدل منكم» ومن قال إن كلمة أو للترتيب قال إن لم يجد الهدى اشترى طعاما وتصدق به فان كان معسرا صام وقال مالك إن لم يخرج المثل من النعم يقوم الصيد ثم يجعل القيمة طعاما فيتصدق به أو يصوم وقال أبو حنيفة

إلى التخيير قوله تعالى (ليذوق وبال أمره) أى جزاء معصيته (عفا الله عما سلف) يعنى قبل التحريم ونزول الآية قال السدى عفا الله عما سلف فى الجاهلية (ومن عاد فينتقم الله منه) فى الآخرة (والله عزيز ذو انتقام) وإذا تكرر من المحرم قتل الصيد فيتعدد عليه الجزاء عند عامة أهل العلم قال ابن عباس رضى الله عنهما إذا قتل المحرم صيدا متعمدا يسأل هل قتلت قبله شيئا من الصيد؟ فان قال نعم لم يحكم عليه وقيل له إذهب ينتقم الله منك وإن قال لم أقتل قبله شيئا حكم عليه فان عاد بعد ذلك لم يحكم عليه ولكن يملأ ظهره وصدره ضربا وجيعا وكذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وج وهو واد بالطائف واختلفوا فى المحرم هل يجوز له أكل لحم الصيد؟ فذهب قوم إلى أنه لا يحل له بحال ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول طاوس وبه قال سفيان الثورى واحتجوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن الصعب بن جثامة الليثى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حمارا وحشيا وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فى وجهى قال إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم وذهب الأكثرون إلى أنه يجوز للمحرم أكله إذا لم يصطد بنفسه ولا اصطيد لأجله أو باشارته وهو قول عمر وعثمان وأبى هريرة وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى وإنما رد النبى صلى الله عليه وسلم على الصعب ابن جثامة لأنه ظن أنه صيد من أجله والدليل على جوازه ما أخبرنا أبو الحسن بن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله التيمى عن نافع مولى أبى قتادة عن أبى قتادة بن ربعى الأنصارى رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان ببعض طريق مكة تخلف مع أصحابه محرمين وهو غير محرم فرأى حمارا وحشيا فاستوى على فرسه وسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا فسألهم رمحه فأبوا فأخذه ثم شد على الحمار فقتله فأكل منه بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بعضهم فلما أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه عن ذلك؟ فقال إنما هى طعمة أطعمكموها الله تعالى أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أنا الشافعى أنا إبراهيم بن محمد عن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب بن حنطب عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال لحم الصيد لكم فى الإحرام حلال ما لم تصيدوه أو يصاد لكم قال أبو عيسى المطلب لا نعرف له سماعا من جابر بن عبد الله رضى الله عنه وإذا أتلف المحرم شيئا من الصيد لا مثل له من النعم مثل بيض أو طائر دون الحمام ففيه قيمة يصرفها إلى الطعام فيتصدق به أو يصوم عن كل مد يوما واختلفوا فى الجراد فرخص فيه قوم للمحرم وقالوا هو من صيد البحر روى ذلك عن

لا يجب المثل من النعم ، بل يقوم الصيد فان شاء صرف تلك القيمة إلى شىء من النعم وإن شاء إلى الطعام فيتصدق به وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوما واختلفوا فى موضع التقويم فقال جمهور الفقهاء يقوم فى المكان الذى قتل فيه الصيد وقال الشعبى يقوم بمكة بثمن مكة لأنه يصرف بها . وقوله تعالى (ليذوق وبال أمره) يعنى جزاء ذنبه والوبال فى اللغة الشىء الثقيل الذى يخاف ضرره يقال مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة وإنما سمى ذلك الله وبالا لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس لأن فيه تنقيصا للمال وهو ثقيل على النفس وكذا الصوم أيضا ثقيل على النفس لأن فيه إنهاك البدن (عفا الله عما سلف) يعنى قبل التحريم (ومن عاد) يعنى إلى قتل الصيد مرة ثانية (فينتقم الله منه) يعنى فى الآخرة والانتقام المبالغة فى العقوبة وهذا الوعيد لا يمنع إيجاب الجزاء فى المرة الثانية والثالثة فاذا تكرر من المحرم قتل الصيد تكرر عليه الجزاء وهذا قول جمهور العلماء وقد روى عن ابن عباس والنخعى وداود الظاهرى أنه إذا قتل الصيد مرة ثانية فلا جزاء عليه لأنه وعد بالانتقام منه قال ابن عباس إذا قتل المحرم صيدا متعمدا سئل هل قتل شيئا من الصيد فان قال نعم لم يحكم عليه ويقال له اذهب فينتقم الله منك وإن قال لم أقتل قبله شيئا حكم عليه فان عاد بعد ذلك لم يحكم عليه ولكن يملأ ظهره وصدره ضربا وكذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صيد وج وهو واد بالطائف (والله عزيز ذو انتقام) يعنى ممن عصاه وإذا أتلف المحرم شيئا من الصيد الذى لا مثل له من النعم مثل البيض وطائر صغير دون الحمام ففيه القيمة فيقوم ثم يشترى بقيمته طعاما ويتصدق به على محاويج الحرم أو يصوم عن كل مد يوما . قوله تعالى (أحل

كعب الأحبار والأكثرون على أنها لاتحل فان أصابها فعليه صدقة قال عمر فى الجراد تمرة وروى عنه وعن ابن عباس قبضة من طعام قوله عز وجل (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) والمراد بالبحر جميع المياه قال عمر رضى الله عنه صيده مااصطيد وطعامه مارمى به وعن ابن عباس وبن عمر وأبى هريرة طعامه ماقذفه الماء إلى الساحل ميتا وقال قوم هو المالح منه وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعى وقال مجاهد صيده طريه وطعامه مالحه متاعا لكم أى منفعة لكم وللسيارة يعنى المارة وجملة حيوانات الماء على قسمين : سمك وغيره . أما السمك فميتته حلال مع اختلاف أنواعها قال النبى صلى الله عليه وسلم « أحلت لنا ميتتان السمك والجراد » فلافرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب وعند أبى حنيفة لايحل إلا أن يموت بسبب من وقوع على حجر أو إنحسار الماء منه ونحو ذلك ، أما غير السمك فقسمان : قسم يعيش فى البر كالضفدع والسرطان فلا يحل أكله وقسم يعيش فى الماء ولا يعيش فى البر إلا عيش المذبوح فاختلف القول فيه فذهب قوم إلى أنه لايحل شئ منها إلا السمك وهو قول أبى حنيفة رضى الله عنه وذهب قوم إلى أن ميت الماء كلها حلال

لأن كلها سمك وإن اختلف صورتها كالجريث يقال له حية الماء وهو على شكل الحية وأكله مباح بالإتفاق وهو قول عمر وأبى بكر وابن عباس وزيد بن ثابت وأبى هريرة وبه قال شريح والحسن وعطاء هو قول مالك وظاهر مذهب الشافعى وذهب قوم إلى أن ماله نظير فى البر يؤكل فميتته من حيوانات البحر حلال مثلا بقر الماء ونحوه ومالايؤكل نظيره فى البر لايحل ميتته من حيوانات البحر مثل كلب الماء والخنزير والحمار ونحوها وقال الأوزاعى كل شيء عيشه فى الماء فهو حلال قيل فالتمساح؟ قال نعم وقال الشعبى لو أن أهلى أكلوا الضفادع لأطعمتهم وقال سفيان الثورى أرجو أن لايكون بالسرطان بأس وظاهر الآية حجة لمن أباح جميع حيوانات البحر وكذلك الحديث أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن صفوان بن سلمان عن سعيد بن سلمة من آل بنى الأزرق أن المغيرة ابن أبى بردة وهو من بنى عبد الدار أخبره أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنا نركب فى البحر ونحمل معنا القليل من الماء فان توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيى عن ابن جريج أخبرنى عمى أنه سمع جابر رضى الله عنه يقول غزوت جيش الخبط وأمر أبو عبيدة فجعنا جوعا شديدا فألقى البحر حوتا ميتالم نر مثله يقال له العنبر فأكلنا منه نصف شهر فأخذ أبو عبيدة عظما من عظامه فمر الراكب تحته وأخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابرا يقول قال أبو عبيدة كلوا فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال كلوا رزقا أخرجه الله إليكم أطعمونا إن كان معكم فأتاه بعضهم بشيء منه فأكلوه قوله تعالى (وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما

(أحل لكم صيد البحر وطعامه) المراد بالصيد ماصيد من البحر والمراد جميع المياه العذبة والمالحة . فأما طعامه فاختلفوا فيه فقيل هو ماقذفه البحر ورمى به إلى الساحل يروى ذلك عن أبى بكر وعمر وابن عمر وأبى أيوب وقتادة وقيل صيد البحر طريه وطعامه مالحه يروى ذلك عن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب والسدى وروى عن ابن عباس ومجاهد كالقولين وجملة حيوان الماء على قسمين : سمك وغير سمك فأما السمك فجميعه حلال على اختلاف أجناسه وأنواعه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته» أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى ولافرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب فيحل أكله وقال أبو حنيفة لايحل إلا أن يموت بسبب وما عدا السمك فقسمان : قسم يعيش فى البر والبحر كالضفدع والسرطان فلا يحل أكلهما وقال سفيان أرجو أن لايكون بالسرطان بأس واختلفوا فى الجراد فقيل هو من صيد البحر فيحل أكله للمحرم وذهب جمهور العلماء إلى أنه من صيد البر وأنه لايحل للمحرم أكله فى حال الإحرام فان أصاب جرادة فعليه صدقة قال عمر فى الجرادة تمرة وعنه وعن ابن عباس قبضة من طعام وكذلك طير الماء فهو من صيد البر أيضا وقال أحمد يؤكل كل مافى البحر إلا الضفدع والتمساح قال لأن التمساح يفترس ويأكل الناس وقال ابن أبى ليلى ومالك يباح كل مافى البحر وذهب جماعة إلى أن ماله نظير من البر يؤكل فيؤكل نظيره من حيوان البحر مثل بقر الماء ونحوه ولايؤكل مالايؤكل نظيره فى البر مثل كلب الماء وخنزير الماء فلا يحل أكله . قوله تعالى (متاعا لكم وللسيارة) يعنى ينتفع به المقيمون والمسافرون فيتزودون منه . قوله تعالى (وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما) ذكر الله عز وجل تحريم الصيد على المحرم فى ثلاثة مواضع من هذه السورة أحدها فى أول السورة

واتقوا الله الذى إليه تحشرون) صيد البحر حلال للمحرم كما هو حلال لغير المحرم . أما صيد البر فحرام على المحرم فى الحرم والصيد هو الحيوان الوحشى الذى يحل أكله . أما مالا يحل أكله فلا يحرم بسبب الإحرام ويحرم أخذه وقتله ولا جزاء على من قتله إلا المتولد بين مالا يؤكل لحمه وما يؤكل كالمتولد بين الذئب والظبى لا يحل أكله ويجب بقتله الجزاء على المحرم لأن فيه جزاء من الصيد أخبرنا أبو الحسن السرخسى (٩٦) أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «خمس من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جناح : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور» وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقتل المحرم السبع العادى وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «خمس قتلهن حلال فى الحرم» الحية والعقرب والحدأة والفأرة والكلب العقور» وقال سفيان بن عيينة الكلب العقور كل سبع يعقر ومثله عن مالك رحمه الله وذهب أصحاب الرأى إلى وجوب الجزاء فى قتل مالا يؤكل لحمه كالفهد والنمر والخنزير ونحوها إلا الأعيان المذكورة فى الخبر وقاسوا عليها الذئب فلم يوجبوا فيه الكفارة وقاس الشافعى رحمه الله عليها جميع مالا يؤكل لحمه لأن الحديث يشتمل على أعيان : بعضها سباع ضارية وبعضها هوام قاتلة وبعضها طير لا يدخل فى معنى السباع ولا هى من جملة الهوام ، وإنما هى حيوان مستخبث اللحم وتحريم الأكل يجمع الكل فاعتبره ورتب الحكم عليه قوله عز وجل (جعل الله الكعبة البيت الحرام) قال مجاهد سميت كعبة لتربيعها والعرب تسمى كل بيت مربع كعبة قال مقاتل سميت كعبة لانفرادها من البناء وقيل سميت كعبة لارتفاعها

صيده

وهو قوله غير محلى الصيد. وأنتم حرم والثانى قوله «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم» والثالث هذه الآية وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما كل ذلك لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم واختلف العلماء هل يجوز للمحرم أن يأكل من لحم صيد صاده غيره؟ فذهب قوم إلى أنه لا يحل ذلك بحال يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول طاوس وإليه ذهب الثورى واحتجوا على ذلك بما روى عن الصعب بن جثامة الليثى أنه أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم حمارا وحشيا وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى ما فى وجهه من الكراهة قال إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم أخرجاه فى الصحيحين وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه، ولا صيد له ولا باشارته ولا أعان عليه . وهذا قول عمر وعثمان وأبى هريرة وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد وأصحاب الرأى ويدل عليه ماروى عن أبى قتادة الأنصارى قال كنت جالسا مع رجال من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى منزل فى طريق مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمامنا والقوم محرمون وأنا غير محرم عام الحديبية فأبصروا حمارا وحشيا وأنا مشغول أخصف نعلا فلم يؤذنونى وأحبوا لو أنى أبصرته فالتفت فأبصرته فقمت إلى الفرس فأسرجته ثم ركبت ونسيت السوط والرمح فقلت لهم ناولونى السوط والرمح قالوا لا والله لا نعينك عليه فغضبت ونزلت فأخذتهما ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته ثم جئت به وقد مات فوقعوا فيه يأكلون ثم إنهم شكوا فى أكلهم إياه وهم حرم فرحنا وخبأت العضد فأدركنا رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال هل معكم منه شىء؟ فقلت نعم فناولته العضد فأكل منها وهو محرم وزاد فى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم إنما هى طعمة أطعمكموها الله وفى رواية هو حلال فكلوه وفى رواية قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها قالوا لا؟ قال كلوا ما بقى من لحمها أخرجاه فى الصحيحين وأجاب أصحاب هذا المذهب عن حديث الصعب ابن جثامة بأنه إنما رده النبى صلى الله عليه وسلم لأنه ظن أنه إنما صيد لأجله والمحرم لا يأكل ما صيد لأجله (واتقوا الله) يعنى فلا تستحلوا الصيد فى حال الإحرام ولا فى الحرم ثم حذرهم بقوله (الذى إليه تحشرون) يعنى فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم . قوله عز وجل (جعل الله الكعبة البيت الحرام) جعل بمعنى صير وقيل معناه بين وحكم وقال مجاهد سمى البيت كعبة لتربيعه وقيل لارتفاعه عن الأرض وسمى البيت الحرام لأن الله حرمه وعظمه وشرفه وعظم حرمته وحرم أن يصطاد عنده وأن يختلى خلاه وأن يعضد شجره وأراد بالبيت الحرام جميع الحرم لما صح من حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب يوم فتح مكة فقال «إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر

من الأرض وأصلها من الخروج والارتفاع وسمى الكعب كعبا لنتوه وخروجه من جانبي القدم ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرج ثديها تكعبت وسمى البيت الحرام لأن الله تعالى حرمه وعظم حرمته قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض (قياما للناس) قرأ ابن عامر قيما بلا (٩٧) ألف والآخرون قياما بالألف

صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه. وقوله تعالى (قياما للناس) أصله قواما لأنه سبب لقوام مصالح الناس فى أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم. أما فى أمر الدين فانه به يقوم الحج وتتم المناسك، وأما فى أمر الدنيا فانه تجبى إليه ثمرات كل شيء ويأمنون فيه من النهب والغارة فلو لقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه فى الحرم لم يهجه، وأما فى أمر الآخرة فان البيت جعل لقيام المناسك عنده وجعلت تلك المناسك التى تقام عنده أسبابا لعلو الدرجات وتكفير الخطيئات وزيادة الكرامات والمثوبات فلما كانت الكعبة الشريفة سببا لحصول هذه الأشياء كانت سببا لقيام الناس (والشهر الحرام) يعنى وجعل الشهر الحرام قياما للناس وأراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم الأربعة وهى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد يعنى وكذلك جعل الأشهر الحرم يأمنون فيها من القتال وذلك أن العرب كان يقتل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض وكانوا إذا دخلت الأشهر الحرم أمسكوا عن القتال والغارة فيها فكانوا يأمنون فى الأشهر الحرم فكانت سببا لقيام مصالح الناس «(والهدى والقلائد) يعنى وكذلك جعل الهدى والقلائد سببا لقيام مصالح الناس وذلك أنهم كانوا يأمنون بسوق الهدى إلى البيت الحرام على أنفسهم وكذلك كانوا يأمنون إذا قلدوا أنفسهم من لحاء شجر الحرام فلا يتعرض لهم أحد (ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض) يعنى أنه تعالى علم فى الأزل بمصالح العباد وما يحتاجون إليه فجعل الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد يأمنون بها لأنه يعلم مصالح العباد كما يعلم مافى السموات وما فى الأرض لأنه تعالى علم جميع المعلومات الكليات والجزئيات وهو قوله تعالى (وأن الله بكل شيء عليم) يعنى أنه تعالى لا تخفى عليه خافية (٩٨) (اعلموا أن الله شديد العقاب) يعنى لمن انتهك محارمه واستحلها (وإن الله غفور رحيم) يعنى لمن تاب وآمن ولما ذكر الله أنواع رحمته بعباده ذكر بعدها أنه شديد العقاب لأن الإيمان لا يتم إلا بحصول الرجاء والخوف ثم ذكر بعده مايدل على سعة رحمته وأنه غفور رحيم. قوله تعالى (ما على الرسول إلا البلاغ) يعنى ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم إلا التبليغ ما أرسل به من الإنذار بما فيه قطع الحجج، ففى الآية تشديد عظيم فى إيجاب القيام بما أمر الله وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت الحجة عليكم بذلك ولزمتكم الطاعة فلا عذر فى التفريط (والله يعلم ماتبدون وما تكتمون) يعنى أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ظاهرا وباطنا (قل لا يستوى الخبيث والطيب) يعنى الحلال والحرام فى الدرجة والرتبة ولا يعتدل الردىء والجيد ولا المسلم والكافر ولا الصالح والطالح (ولو أعجبك كثرة الخبيث) يعنى ولو سرك كثرة الخبيث لأن عاقبته عاقبة سوء والمعنى أن أهل الدنيا يعجبهم كثرة المال وزينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى لأن زينة الدنيا ونعيمها يزول وما عند الله يدوم وقال ابن الجوزى روى جابر بن عبد الله أن رجلا قال يارسول الله إن الخمر كانت تجارتى فهل ينفعنى ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب» وقال مقاتل نزلت فى شريح

أى قوامالهم فى أمر دينهم ودنياهم. أما الدين لأن به يقوم الحج والمناسك وأما الدنيا فما يجبى إليه من الثمرات وكانوا يأمنون فيه من النهب والغارة فلا يتعرض لهم أحد فى الحرم قال الله تعالى «أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم» (والشهر الحرام) أراد به الأشهر الحرم وهى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب أراد أنه جعل الأشهر الحرم قياما للناس يأمنون فيها القتال (والهدى والقلائد) أراد أنهم كانوا يأمنون بتقليد الهدى فذلك القوام فيه (ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شيء عليم) فان قيل أى اتصال لهذا الكلام بما قبله؟ قيل أراد الله عز وجل جعل الكعبة قياما للناس لأن الله تعالى يعلم صلاح العباد كما يعلم مافى السموات وما فى الأرض وقال الزجاج قد سبق فى هذه السورة الإخبار عن الغيوب

والكشف عن الأسرار مثل قوله سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ومثل «إخباره بتحريفهم الكتب ونحو ذلك فقوله ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض» راجع إليه وقوله عزوجل (اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ما على الرسول إلا البلاغ) التبليغ (والله يعلم ماتبدون وما تكتمون قل لا يستوى الخبيث والطيب) أى الحلال والحرام (ولو أعجبك) سرك (كثرة الخبيث) نزلت فى شريح بن ضبعة البكرى وحجاج بن بكر بن وائل

(فاتقوا الله) ولا تتعرضوا للحجاج وإن كانوا مشركين وقد مضت القصة فى أول السورة (يا أولى الألباب لعلكم تفلحون
يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشيا إن تبد لكم تسؤكم) الآية أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا محمد بن عبد الله النعيمى
أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا حفص بن عمر أنا هشام عن قتادة عن أنس رضى الله عنه سألوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسئلة فغضب فصعد المنبر فقال لاتسألونى اليوم عن شىء إلا بينته لكم
فجعلت أنظر يمينا وشمالا (٩٨) فاذا كان رجل لاف رأسه فى ثوبه يبكى فاذا رجل كان إذالاحى الرجال يدعى لغير
أبيه فقال يا رسول الله من أبى؟ قال حذافة ثم أنشأ عمر فقال رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا نعوذ بالله من الفتن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مارأيت فى الخير والشر كاليوم قط إن صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط»، وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» قال يونس عن ابن شهاب أخبرنى عبيدالله ابن عبد الله قال قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة ماسمعت بابن قط أعق منك آمنت أن تكون أمك قد قارفت بعض ماتقارفت نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس قال عبدالله بن حذافة والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقته
وروى عن عمر قال يارسول الله أنا حديث عهد بجاهلية فاعف عنا يعف الله سبحانه وتعالى عنك فسكن غضبه أخبرنا
عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الفضل بن سهل أخبرنا
أبوالنضر أنا أبوخيثمة أنا أبو جويرية عن ابن عباس قال كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء فيقول الرجل من أبى ويقول
الرجل ضلت ناقته أين ناقتى فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» حتى فرغ من الآية
كلها وروى عنه على رضى الله عنه قال لما نزلت «ولله على الناس حج البيت» قال رجل يارسول الله أفى كل عام؟ فأعرض عنه فعاد

ابن ضبعة البكرى وحجاج بن بكر وقد تقدمت القصة فى أول السورة (فاتقوا الله) يعنى فيما أمركم
به أو نهاكم عنه ولاتعتدوه (ياأولى الألباب) يعنى ياذوى العقول السليمة (لعلكم تفلحون)
قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم) اختلفوا فى سبب
نزول هذه الآية فروى عن أنس بن مالك قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة
ماسمعنا مثلها قط فقال «لوتعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» قال فغطى أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبى فقال فلان فنزلت هذه الآية
«لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم» وفى رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج
حين زاغت الشمس فصلى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة فذكر فيها أمورا عظاما ثم
قال من أحب أن يسألنى عن شىء فليسأل فلا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به مادمت
فى مقامى فأكثر الناس البكاء وأكثر أن يقول سلوا فقام عبد الله بن حذافة السهمى فقال من
أبى فقال أبوك حذافة ثم أكثر أن يقول سلونى فبرك عمر على ركبتيه فقال «رضينا بالله ربا
وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا» فسكت ثم قال عرضت على الجنة والنار آنفا فى عرض هذا الحائط
فلم أر كاليوم فى الخير والشر قال ابن شهاب فأخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال قالت أم
عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة ماسمعت بابن قط أعق منك أمنت أن تكون أمك قارفت
بعض ماتقارف أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ فقال عبدالله بن حذافة لو ألحقنى بعبد
أسود للحقته زاد فى رواية أخرى قال قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية «لاتسألوا عن أشياء
أن تبدلكم تسؤكم» أخرجاه فى الصحيحين (خ) عن ابن عباس قال كان قوم يسألون رسول الله
صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل من أبى ويقول الرجل تضل ناقته أين ناقتى؟ فأنزل الله
فيهم هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم» الآية كلها وقيل نزلت
هذه الآية فى شأن الحج عن على بن أبى طالب قال لما نزلت «ولله على الناس حج البيت من استطاع
إليه سبيلا» قالوا يارسول الله فى كل عام؟ فسكت فقالوا يارسول الله أفى كل عام؟ قال لا ولو قلت نعم
لوجبت فأنزل الله عز وجل «ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم» أخرجه
الترمذى وقال حديث غريب (م) عن أبى هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
ياأيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل أفى كل عام؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ثم قال
ذرونى ماتركتكم ولو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم «

واختلافهم

مرتين أو ثلاثا فقال النبي ﷺ مايؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت مااستطعتم فاتركونى ماتركتكم فانما
هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بشىء فأتوا منه مااستطعتم وإذا نهيتكم
عن شىء فاجتنبوه فأنزل
الله تعالى «يا أيها الذين
آمنوا لاتسألوا عن أشياء
إن تبد لكم تسؤكم» أى
إن تظهر لكم تسؤكم
أى إن أمرتم بالعمل بها
فان من سأل عن الحج لم
يأمن أن يؤمر به فى كل
عام فيسوءه ومن سأل
عن نسبه لم يأمن من أن
يلحقه بغيره فيفتضح
وقال مجاهد نزلت حين
سألوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن البحيرة
والسائبة والوصيلة والحام
ألا تراه ذكره بعد ذلك
(وإن تسألوا عنها حين
ينزل القرآن تبد لكم)
معناه إن صبرتم حتى ينزل
القرآن بحكم من فرض
أو نهى أو حكم وليس فى
ظاهره شرح مابكم إليه
حاجة ومست حاجتكم
إليه فاذا سألتم عنها حينئذ
تبد لكم (عفا الله عنها
والله غفور حليم قد سألها
قوم من قبلكم) كما سألت
ثمود صالحا الناقة وسأل
قوم عيسى المائدة (ثم
أصبحوا بها كافرين)
فأهلكوا قال أبو ثعلبة الخشنى إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا
تعتدوها وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها، قوله عز وجل (ماجعل الله من بحيرة) أى ماأنزل الله ولا أمر به

واختلافهم على أنبيائهم إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه مااستطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه» وروى مجاهد عن ابن عباس لاتسألوا عن أشياء قال هى البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى أنه يقول بعد ذلك ماجعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا وقال عكرمة إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ومعنى الآية «ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء» جمع شىء إن تبد لكم أى تظهر لكم وتبن لكم تسؤكم يعنى إن أمرتم بالعمل بها فان من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به فلا يقدر عليه فيسوءه ذلك ومن سأل عن نسبه لم يأمن أن يلحقه النبى صلى الله عليه وسلم بغير أبيه فيفتضح ويسوءه ذلك (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) معناه إن صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهى أو حكم وليس فى ظاهره شرح ماتحتاجون إليه ومست حاجتكم إليه فاذا سألتم عنه فحينئذ يبدى لكم، ومثال هذا: أن الله عز وجل لما بين عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها والحامل ولم يكن فى عدد هؤلاء دليل على عدة التى ليست ذات قرء ولا حامل فسألوا عنها فأنزل الله عز وجل جوابهم فى قوله «واللائى يئسن من المحيض من نسائكم» الآية (عفا الله عنها) يعنى عن مسئلتكم عن الأشياء التى سألتم عنها رسول الله ﷺ التى كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ولم يعاقبكم عليها (والله غفور) يعنى لمن تاب منكم (حليم) فلا يعجل بعقوبتكم وقال عطاء غفور يعنى لما كان فى الجاهلية حليم يعنى عن عقابكم منذ آمنتم وصدقتم وقال بعض العلماء الأشياء التى يجوز السؤال عنها هى مايترتب عليها أمر الدين والدنيا من مصالح العباد وما عدا ذلك فلا يجوز السؤال عنه (ق) عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسئلته (ق) عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية أن النبى صلى الله عليه وسلم «كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال» عن معاوية أن النبى صلى الله عليه وسلم «نهى عن الأغلوطات» أخرجه أبو داود الأغلوطات صعاب المسائل التى تزل فيها أقدام العلماء ويؤيد ذلك قول أبى هريرة شرار الناس الذين يسألون عن شرار المسائل كى يغلطوا بها العلماء عن سلمان قال سئل رسول الله ﷺ عن أشياء فقال الحلال ماأحل الله فى كتابه والحرام ماحرمه الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه فلا تتكلفوا، وعن أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدود أفلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تقربوها وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها» هذان الحديثان أخرجهما فى جامع الأصول ولم يعزهما إلى الكتب الستة ثم قال تعالى (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) قال المفسرون يعنى قوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها فأصبحوا بها كافرين وقوم موسى قالوا أرنا الله جهرة فكان هذا السؤال وبالا عليهم وقوم عيسى سألوا نزول المائدة عليهم ثم كذبوها كأنه تعالى يقول إن أولئك سألوا فلما أعطوا سؤلهم كفروا به فلا تسألوا أنتم شيئا فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك. قوله تعالى (ماجعل الله) أى ما أنزل الله ولا حكم به ولا شرعه ولا أمر به (من بحيرة) البحيرة من البحر وهو الشق يقال بحر ناقته

(ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) قال ابن عباس فى بيان هذه الأوضاع البحيرة هى الناقة التى كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها أى شقوها وتركوا الحمل عليها ولم يركبوها ولم يجزوا وبرها ولم يمنعوها الماء والكلأ ثم نظروا إلى خامس ولدها فان كان ذكرا نحروه وأكله الرجال والنساء وإن كان أنثى بحروا أذنها أى شقوها وتركوها وحرم على النساء لبنها ومنافعها وكانت منافعها خاصة للرجال فاذا ماتت حلت للرجال والنساء وقيل كانت الناقة إذا تابعت إثنتى عشرة سنة إناثا سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم خلى سبيلها مع أمها فى الإبل فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها فهى البحيرة بنت السائبة وقال أبو عبيدة السائبة البعير الذى يسيب وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أوغاب له قريب نذر فقال إن شفانى الله تعالى أو شفى مريضى أو عاد غائبى فناقتى (١٠٠) هذه سائبة ثم يسيبها فلا تحبس عن رعى ولا ماء ولا يركبها أحد فكانت بمنزلة البحيرة وقال علقمة هى العبد يسيب على أن لاولاء عليه ولا عقل ولاميراث وقال صلى الله عليه وسلم إنما الولاء لمن أعتق والسائبة فاعلة بمعنى المفعولة وهى المسيبة كقوله تعالى «ماء دافق» أى مدفوق وعيشة راضية . وأما الوصيلة فمن الغنم كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فان كان السابع ذكرا ذبحوه فأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تركوها فى الغنم وإن كان ذكرا وأنثى استحيوا الذكر من أجل الأنثى وقالوا وصلت أخاها فلم يذبحوه وكان لبن الأنثى حراما على النساء فان مات منهما شىء أكله الرجال والنساء جميعا وأما الحام فهو الفحل إذا ركب ولد ولده ويقال إذا نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من كلأ ولا ماء فاذا مات أكله الرجال والنساء

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لايحمل عليها شىء . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار وكان أول من سيب السوائب روى محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكثم بن جون الخزاعى يا أكثم رأيت عمرو بن لحى ابن قمعة بن خندق يجر قصبه فى النار فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك وذلك أنه أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوثان

إذا شق أذنها فهى فعيلة بمعنى مفعوله (ولا سائبة) يعنى المسيبة المخلاة (ولا وصيلة) الوصيلة الشاة وكانت العرب فى الجاهلية إذا ولدت لهم ذكرا أو أنثى قالوا وصلت أخاها (ولا حام) الحام هو الفحل من الإبل يحمى ظهره فلا يركب ولا ينتفع به قال ابن عباس فى بيان هذه الأوصاف البحيرة هى الناقة إذا ولدت خمسة أبطن لم يركبوها ولم يجزوا وبرها ولم يمنعوها الماء والكلأ ثم نظروا إلى خامس ولدها فان كان ذكرا نحروه وأكله الرجال والنساء وإن كانت أنثى شقوا أذنها وتركوها وحرموا على النساء منافعها وكانت منافعها للرجال خاصة فاذا ماتت حلت الرجال والنساء وقيل كانت الناقة إذا تابعت اثنتى عشرة سنة إناثا سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم سيبت مع أمها ويفعل بها كما يفعل بأمها وقيل السائبة البعير الذى يسيب لآلهتهم وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أوغاب له قريب نذر فقال إن شفانى الله أو شفى الله مريضى أوقدم غائبى فناقتى هذه سائبة ثم يسيبها فلا تحبس عن ماء ولا مرعى ولا يركبها أحد فهى بمنزلة البحيرة والوصيلة من الغنم كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فان كان السابع ذكر ذبحوه وأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تركوها فى الغنم وإن كانت ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها واستحيوا الذكر فلم يذبحوه من أجل الأنثى والحامى هو الفحل إذا ركب ولد ولده وقيل هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى فاذا مات أكله الرجال والنساء (ق) عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لايحمل عليها شىء قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار ولمسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف أخا بنى كعب وهو يجر قصبه فى النار (خ) عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت

وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى فلقد رأيته فى النار يؤذى أهل النار بريح قصبه فقال أكثم أيضرنى شبه يارسول الله؟ فقال لا لأنك مؤمن وهو كافر (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) فى قولهم الله أمرنا بها (وأكثرهم لايعقلون وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول) فى تحليل الحرث والأنعام وبيان الشرائع والأحكام (قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا) من الدين قال الله تعالى (أو لو كان آباؤهم ولا يعلمون شيئا ولا يهتدون) قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال ياأيها الناس أنكم تقرءون هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» وتضعونها فى غير موضعها ولاتدرون ماهى وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه» وفى رواية «لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله سبحانه وتعالى عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون الله عز وجل خياركم فلا يستجاب لكم» قال أبو عبيدة خاف الصديق أن يتأول الناس الآية غير متأولها، فيدعوهم إلى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأعلمهم أنها ليست كذلك وإن الذى

أذن الإمساك عن تغييره من المنكر هو الشرك الذى ينطق به المعاهدون من أجل أنهم يتدينون به وقد صولحوا عليه فأما الفسوق والعصيان والذنب من أهل الإسلام فلا فيه وقال مجاهد وسعيد ابن جبير الآية فى اليهود والنصارى يعنى عليكم أنفسكم لايضركم من ضل من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم وعن ابن عباس قال فى هذه الآية مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ماقبل منكم فان رد عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال إن القرآن نزل منه أى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزل ومنه أى وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه أى وقع تأويلهن بعد رسول الله ومنه أى يقع تأويلهن فى آخر الزمان ومنه أي يقع تأويلهن يوم القيامة ماذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا أبو جعفر أحمد بن محمد العنبرى أخبرنا أبو عيسى ابن نصر: أنا عبد الله بن المبارك أنا عتبة بن أبى حكيم حدثنى عمرو بن جارية اللخمى أنا أبو أمية الشعبانى قال أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت ياأبا ثعلبة كيف تصنع فى هذه الآية قال أية آية قلت قول الله عز وجل «عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» فقال أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ورأيت أمرا لابد لك فعليك نفسك ودع أمر العوام فان وراءكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثله قال ابن المبارك وزادنى غيره قالوا يارسول الله أجر خمسين منهم قال أجر خمسين منكم وقيل نزلت فى أهل الأهواء قال أبو جعفر الرازى دخل على صفوان بن محرز شاب من

جهنم تحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب القصب بضم القاف وسكون الصاد المهملة الأمعاء كانت الجاهلية تفعل هذا فى جاهليتهم فلما بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أبطل ذلك بقوله ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام يعنى ما بحر الله من بحيرة ولا سيب من سائبة ولا وصل من وصيلة ولا حمى من حام ولا أذن فيه ولا أمر به ولكنكم أنتم فعلتم ذلك من عند أنفسكم (خ) عن ابن مسعود أن أهل الإسلام لايسيبون وأن أهل الجاهلية كانوا يسيبون. وقوله تعالى (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) يعنى بقولهم أن الله أمرنا بها (وأكثرهم لايعقلون) أراد بالأكثر الاتباع يعنى أن الاتباع لاتعقل أن هذا كذب وافتراء من الرؤساء على الله عز وجل (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول) يعنى وإذا قيل لهؤلاء الذين بحروا البحائر وفعلوا هذه الأشياء أضافوها إلى الله كذبا تعالوا إلى ماأنزل الله يعنى فى كتابه وإلى الرسول يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه كتابه ليبين لكم كذب ماتضيفونه إلى الله ويبين لكم الشرائع والأحكام وإن الذى تفعلونه ليس بشىء (قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا) يعنى قد اكتفينا بما أخذنا عنهم من الدين ونحن لهم تبع قال الله ردا عليهم (أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون) يعنى إنما يصح الاقتداء بالعالم المهتدى الذى يبنى قوله على الحجة والبرهان والدليل وأن آباءهم ما كانوا كذلك فيصح اقتداؤهم بهم

قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) قال بعض العلماء هذا أمر من الله تعالى ومعناه احفظوا أنفسكم من ملابسة الذنوب والإصرار على المعاصى لأنك إذا قلت عليك زيدا معناه ألزم زيدا وقيل معناه عليكم أنفسكم فأصلحوها واعملوا فى خلاصها من عذاب الله عز وجل وانظروا لها مايقربها من الله عز وجل لايضركم من ضل إذا اهتديتم يعنى لايضركم كفر من كفر إذا كنتم مهتدين وأطعتم الله عز وجل فيما أمركم به ونهاكم عنه قال سعيد بن جبير ومجاهد نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب اليهود والنصارى يعنى عليكم أنفسكم لايضركم من ضل من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم وقيل لما قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض فنزلت هذه الآية وقيل إن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم فقيل لهم عليكم أنفسكم واجتهدوا فى صلاحها لايضركم ضلال الضالين ولاجهل الجاهلين إذا كنتم مهتدين . فان قلت هل يدل ظاهر هذه الآية على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قلت لايدل على ذلك والذى عليه أكثر الناس أن المطيع لربه عزوجل لايكون مؤاخذ بذنوب أصحاب المعاصى فأما وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فثابت بدليل الكتاب والسنة عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» ولاتضعونها مواضعها ولا تدرون ماهى وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الناس إذا رأوا ظالما فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وأخرجه أبوداود زاد فيه «مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب» وقال قوم فى معنى الآية عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم قال ابن مسعود مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ماقبل منكم فان رد عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال إن القرآن نزل منه أى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه أى وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه أى وقع تأويلهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير ومنه أى يقع تأويلهن فى آخر الزمان ومنه أى يقع تأويلهن يوم القيامة وهو ماذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة لم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فاذا اختلفت قلوبكم وأهواؤكم وألبستم شيعا وأذيق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية وقيل لابن عمر لو جلست فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فان الله يقول «عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» فقال ابن عمر أنها ليست لى ولا لأصحابى لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا ليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنت الغائب ولكن هذه الآية لأقوام يجيءون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم وعن أبى أمية الشعبانى قال أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له كيف نصنع بهذه الآية قال آية آية قلت «ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» قال أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فان من ورائكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر

أهل الأهواء فذكر شيئا من أمره فقال صفوان ألا أدلك على خاصة الله التى خص بها أولياءه (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)

للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم» وفى رواية «قيل يارسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم قال لابل أجر خمسين منكم» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وقيل فى معنى الآية إن العبد إذا عمل بطاعة الله واجتنب نواهيه لايضره من ضل وقال ابن عباس قوله «عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» يقول إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته من الحلال والحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به وعن صفوان بن محرز قال دخل على شاب من أصحاب الأهواء فذكر شيئا من أمره فقلت له ألا أدلك على خاصة الله التى خص بها أولياءه «ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» وقال الحسن لم يكن مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقى إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله وقيل فى معنى الآية لايضركم من كفر بالله وحاد عن قصد السبيل من أهل الكتاب إذا اهتديتم أنتم قال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب وقال ابن زيد كان الرجل إذا أسلم قالوا له سفهت أباءك وضللتهم وفعلت وفعلت وكان ينبغى لك أن تنصرهم وتفعل وتفعل فقال الله عز وجل «ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» قال الطبرى وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا فى هذه الآية ماروى عن أبى بكر الصديق وهو العمل بطاعة الله وأداء مالزم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأخذ على يد الظالم لأن الله تعالى يقول «وتعاونوا على البر والتقوى» ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه وقال عبد الله بن المبارك هذه الآية أوكد آية فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الله تعالى قال عليكم أنفسكم يعنى أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضا ويرغبه فى الخيرات وينفره عن القبائح والمكروهات والذى يؤكد ذلك أن معنى قوله عليكم أنفسكم أى احفظوا أنفسكم وهذا أمر بأن نحفظ أنفسنا ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والله أعلم . وقوله تعالى (إلى الله مرجعكم جميعا) يعنى فى الآخرة الطائع والعاصى والضال والمهتدى (فينبئكم بما كنتم تعملون) يعنى فيخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها . قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم) سبب نزول هذه الآية ماروى أن تميم بن أوس الدارى وعدى بن بداء خرجا من المدينة فى تجارة إلى الشام وهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع مامعه من المتاع وألقاه فى متاعه ولم يخبر صاحبيه بذلك فلما اشتد وجعه أوصى إلى تميم وعدى وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله إذا رجعا إلى المدينة ومات بديل ففتشا متاعه فوجدا فيه إناء من فضة منقوشا بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فغيباه ثم إنهما قضيا حاجتهما وانصرفا إلى المدينة فدفعا المتاع إلى أهل البيت ففتشوه فأصابوا الصحيفة وفيها تسمية ما كان معه فجاء أهل الميت إلى تميم وعدى فقالوا هل باع صاحبنا شيئا من متاعه قالا لا قالوا فهل اتجر تجارة قالا لا قالوا فهل طال مرضه فأنفق شيئا على نفسه قالا لا قالوا إنا وجدنا فى متاعه صحيفة فيها تسمية ما كان معه وإنا فقدنا إناء من فضة منقوشا بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فضة قالا لاندرى إنما أوصى إلينا بشىء وأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه وما لنا علم بالإناء فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأصرا على الإنكار وحلفا فأنزل الله هذه الآية هذا قول المفسرين وروى الترمذى عن ابن عباس عن تميم الدارى فى هذه الآية

قوله عز وجل (إلى الله مرجعكم جميعا) الضال والمهتدى (فينبئكم بما كنتم تعملون) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم) سبب نزول هذه الآية ماروى أن تميم بن أوس الدارى وعدى بن زيد قد خرجا من المدينة للتجارة إلى أرض الشام وهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع مامعه من المتاع وألقاه فى جوالقه ولم يخبر صاحبيه بذلك فلما اشتد وجعه أوصى إلى تميم وعدى وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله ومات بديل ففتشا متاعه وأخذا منه إناء من فضة منقوشا بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضة فغيباه ثم قضيا حاجتهما فانصرفا إلى المدينة فدفعا المتاع إلى أهل البيت ففتشوا وأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه فجاءوا تميما وعديا فقالوا هل باع صاحبنا شيئا من متاعه؟ قالا لا قالوا فهل اتجر تجارة؟ قالا لا قالوا هل طال مرضه فأنفق على نفسه قالا لا فقالوا إنا وجدنا فى متاعه صحيفة فيها تسمية مامعه وإنا قد فقدنا منها إناء من فضة مموها بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضة؟ قالا ماندرى إنما أوصى لنا بشىء فأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه وما لنا علم بالإناء فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم

قاصرا على الإنكار وحلفا فأنزل الله عز وجل هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم» (إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان) أي ليشهد اثنان لفظه خبر ومعناه أمر وقيل إن معناه أن الشهادة فيما بينكم على الوصية عند الموت اثنان واختلفوا في هذين الاثنين فقال قوم هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي وقال الآخرون هما الوصيان لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان ولا يلزم الشاهد يمين وجعل الوصي اثنين تأكيدا فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك شهدت وصية فلان بمعنى حضرت قال الله تعالى «وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين» يريد الحضور (ذوا عدل) أي أمانة وعقل (منكم) أي من أهل دينكم يامعشر المؤمنين (أو آخران من غيركم) أي من غير دينكم وملتكم في قول أكثر المفسرين قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري وهو قول سعيد ابن المسيب وإبراهيم النخعي وسعيد ابن جبير ومجاهد وعبيدة ثم اختلف هؤلاء في حكم الآية فقال النخعي وجماعة هي منسوخة وكانت شهادة أهل الذمة مقبولة في الابتداء ثم نسخت وذهب قوم إلى أنها ثابتة وقالوا إذا لم نجد مسلمين فلنشهد كافرين قال شريح من كان بأرض غربة ولم يجد مسلما يشهده على وصيته فأشهد كافرين على أي دين كانا من دين أهل الكتاب أو عبدة الأوثان فشهادتهم جائزة ولا يجوز شهادة كافر على مسلم إلا على وصية في سفر وعن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا ولم يجد مسلما يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة بتركته وأتيا الأشعري فأخبراه بتركته ووصيته فقال الأشعري هذا أمر لم يكن بعد الذي كان

ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت قال تميم برئ الناس منها غيري وغير عدي ابن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام بتجارتهما قبل الإسلام فأتيا إلى الشام بتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم ولما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي فلما أتينا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقد الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا ولا دفع إلينا غيره قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم على أهل دينه فحلف فأنزل الله «ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت إلى قوله أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم» فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي قال الترمذي هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه قال ابن عباس خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم قال وفيهم نزلت هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرج هذه الرواية الأخيرة البخاري في صحيحه فأما التفسير فقوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم» يعني ليشهد ما بينكم لأن الشهادة إنما يحتاج إليها عند وقوع التنازع والتشاجر (إذا حضر أحدكم الموت) يعني إذا قارب وقت حضور الموت (حين الوصية اثنان) لفظه خبر ومعناه الأمر يعني ليشهد اثنان منكم عند حضور الموت وأردتم الوصية (ذوا عدل منكم) يعني من أهل دينكم وملتكم يامعشر المؤمنين واختلفوا في هذين الاثنين فقيل هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي وقيل هما الوصيان لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال تعالى «فيقسمان بالله» والشاهد لا يلزمه يمين وجعل الوصي اثنين تأكيدا فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك شهدت وصية فلان بمعنى حضرت (أو آخران من غيركم) يعني من غير أهل دينكم وملتكم وهذا قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير والنخعي والشعبي وابن سيرين وابن شريح وأكثر المفسرين وقيل معناه من غير عشيرتكم وقبيلتكم وهم مسلمون واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال إبراهيم النخعي وجماعة هي منسوخة كانت شهادة أهل الذمة مقبولة في الابتداء ثم نسخت بقوله تعالى «واستشهدوا شهيدين

من

من رجالكم لأن إجماع الأمة على أن شهادة الفاسق لاتجوز فشهادة الكفار وأهل الذمة لاتجوز بطريق الأولى وذهب قوم إلى أنها ثابتة لم تنسخ وهو قول ابن عباس وأبى موسى الأشعرى وسعيد بن المسيب وابن جبير وابن سيرين وبه قال أحمد بن حنبل قالوا إذا لم يجد مسلمين يشهدان على وصيته وهو فى أرض غربة فليشهد كافرين أو ذميين أومن أى دين كانا لأن هذا موضع ضرورة قال شريح من كانا بأرض غربة لم يجد مسلما يشهد وصيته فليشهد كافرين على أى دين كانا من أهل الكتاب أومن عبدة الأصنام فشهادتهم جائزة فى هذا الموضع ولا تجوز شهادة كافر على مسلم بحال إلا على وصيته فى سفر لايجد فيه مسلما عن الشعبى أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه ولم يجد أحدا من المسلمين حضر يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة فأتيا أباموسى فأخبراه وقدما بتركته ووصيته فقال أبو موسى هذا أمر لم يكن بعد الذى كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحلفهما بعد العصر بالله ماخانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وأنها لوصية الرجل وتركته فأمضى شهادتهما أخرجه أبو داود وقال قوم فى قوله ذوا عدل منكم يعنى من عشيرتكم وحيكم أو آخران من غيركم من غير عشيرتكم وحيكم وأن الآية كلها فى المسلمين وهذا قول الحسن والزهرى وعكرمة وقالوا لاتجوز شهادة كافر فى شىء من الأحكام وهذا مذهب الشافعى ومالك وأبى حنيفة غير أن أباحنيفة أجاز شهادة أهل الذمة فيما بينهم بعضهم على بعض واحتج من قال بأن هذه الآية محكمة بأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا وليس فيها منسوخ واحتج من أجاز شهادة غير المسلم فى هذا الموضع بأن الله تعالى قال فى أول الآية «ياأيها الذين آمنوا» فعم بهذا الخطاب جميع المؤمنين ثم قال بعده ذوا عدل منكم أوآخران من غيركم «فعلم بذلك أنهما من غير المؤمنين» ولأن الآية دالة على وجوب الحلف على هذين الشاهدين وأجمع المسلمون على أن الشاهد المسلم لايجب عليه يمين ولأن الميت إذا كان فى أرض غربة ولم يجد مسلما يشهده على وصيته ضاع ماله وربما كان عليه ديون أو عنده وديعة فيضيع ذلك كله. وإذا كان ذلك كذلك احتاج إلى إشهاد من حضر من أهل الذمة وغيرهم من الكفار حتى لايضيع ماله وتنفذ وصيته فهذا كالمضطر الذى أبيح له أكل الميتة فى حال الاضطرار والضرورات قد تبيح شيئا من المحظورات واحتج من منع ذلك بأن الله تعالى قال «ممن ترضون من الشهداء» والكفار ليسوا مرضيين ولا عدولا فشهادتهم غير مقبولة فى حال من الأحوال . وقوله تعالى (إن أنتم ضربتم فى الأرض) يعنى إن أنتم سافرتم فى الأرض (فأصابتكم مصيبة الموت) يعنى نزل بكم أسباب الموت فأوصيتم إليهما ودفعتم مالكم إليهما (تحبسونهما) يعنى إن اتهمهما بعض الورثة وادعوا عليهما خيانة فالحكم فيه أن يوقفوهما (من بعد الصلاة) يعنى من بعد صلاة العصر لأن جميع أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقيل من بعد صلاة أهل دينهما لأنهما إذا كانا كافرين لايحترمان صلاة العصر (فيقسمان بالله) يعنى فيحلفان بالله قال الشافعى الأيمان تغلظ فى الدماء والطلاق والعتاق والمال إذا بلغ مائتى درهم بالزمان والمكان فيحلف بعد صلاة العصر إن كان بمكة بين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر وإن كان فى بيت المقدس فعند الصخرة وفى سائر البلاد فى أشرف المساجد وأعظمها بها (إن ارتبتم) يعنى إن شككتم أيها الورثة فى قول الشاهدين وصدقهما فحلفوهما وهذا إذا كانا كافرين أما إذا كانا مسلمين فلا يمين عليهما لأن تحليف الشاهد المسلم غير مشروع (لانشترى به ثمنا) يعنى لانبيع

فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فأحلفهما وأمضى شهادتهما وقال آخرون قوله ذوا عدل منكم أى من حى الموصى أوآخران من غيركم أى من غير حيكم وعشيرتكم وهو قول الحسن والزهرى وعكرمة وقالوا لاتجوز شهادة كافر فى شىء من الأحكام (إن أنتم ضربتم) سرتم وسافرتم (فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت) فأوصيتم إليهما ودفعتم إليهما مالكم فاتهمتهما بعض الورثة وادعوا عليهما خيانة فالحكم فيه أن (تحبسونهما) أى تستوقفونهما (من بعد الصلاة) أى بعد الصلاة ومن صلة يريد بعد صلاة العصر هذا قول الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير وقتادة وعامة المفسرين لأن جميع أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب. وقال الحسن أراد من بعد الصلاة الظهر. وقال السدى من بعد صلاة أهل دينهما وملتهما لأنهما لايباليان بصلاة العصر (فيقسمان) يحلفان (بالله إن ارتبتم) أى شككتم ووقعت لكم الريبة فى قول الشاهدين وصدقهما أى فى قول اللذين ليسا من أهل ملتكم فان كانا مسلمين فلا يمين عليهما (لانشترى به ثمنا) أى لانحلف بالله كاذبين على عوض نأخذه أومال نذهب به أوحق

بجحده (ولو كان ذا قربى) ولو كان المشهود له ذا قرابة منا (ولا نكتم شهادة الله) أضاف الشهادة إلى الله لأنه أمر باقامتها ونهى عن كتمانها وقرأ يعقوب شهادة بتنوين آلله ممدودوجعل الاستفهام عوضا عن حرف القسم ويروى عن أبى جعفر شهادة منونة الله بقطع الألف وكسر الهاء من غير استفهام على ابتداء اليمين أى والله (إنا إذا لمن الآثمين) أى إن كتمناها كنا من الآثمين فلما نزلت هذه الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا تميما وعديا فاستحلفهما عند المنبر بالله الذى لا إله إلا هو أنهما لم يختانا شيئا مما دفع إليهما فحلفا على ذلك وخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ثم ظهر الإناء واختلفوا فى كيفية ظهوره فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أنه وجد بمكة فقالوا إنا اشتريناه من تميم وعدى . وقال الآخرون لما طالت المدة أظهروه (١٠٦) فبلغ ذلك بنى سهم فأتوهما فى ذلك فقالا إنا كنا قد اشتريناه منه هذا فقالوا ألم تزعما أن صاحبنا لم يبع شيئا من متاعه قالا لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر لكم به فكتمناه لذلك فرفعهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (فان عثر) أى اطلع على خيانتهما وأصل العثور الوقوع على الشىء (على أنهما) يعنى الوصيين (استحقا) استوجبا (إثما) بخيانتهما وبأيمانهم الكاذبة (فآخران) من أولياء الميت (يقومان مقامهما) يعنى مقام الوصيين (من الذين استحق) بضم التاء على المجهول هذا قراءة العامة يعنى الذين استحق (عليهم) أى فيهم ولأجلهم الإثم وهم ورثة الميت استحق الحالفان بسببهم الإثم وعلى بمعنى فى كما قال الله «على ملك سليمان» وقرأ حفص استحق بفتح التاء والحاء وهى قراءة على والحسن أى حق ووجب عليهم الإثم يقال حق واستحق بمعنى واحد (الأوليان) نعت للآخران أى فآخران الأوليان وإنما جاز ذلك والأوليان معرفة والآخران نكرة لأنه لما وصف الآخران فقال من الذين صار كالمعرفة فى المعنى والأوليان تثنية الأولى والأولى هو أقرب وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ويعقوب الأولين بالجمع فيكون بدلا من الذين والمراد منهم أيضا أولياء الميت ومعنى الآية إذا ظهرت خيانة الحالفين يقوم اثنان آخران من أقارب الميت (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) يعنى يميننا أحق من يمينهما نظيره قوله تعالى فى اللعان فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله والمراد بها الأيمان فهو كقول القائل أشهد بالله أى أقسم بالله (وما اعتدينا) فى أيماننا وقولنا إن شهادتنا أحق من شهادتهما (إنا إذا لمن الظالمين) فلما نزلت هذه الآية

عهد الله بشىء من الدنيا ولا نحلف بالله كاذبين لأجل عوض نأخذه أو حق نجحده (ولو كان ذا قربى) يعنى ولو كان المشهود له ذا قرابة منا وإنما خص القربى بالذكر لأن الميل إليهم أكثر من غيرهم (ولا نكتم شهادة الله) إنما أضاف الشهادة إليه لأنه أمر باقامتها ونهى عن كتمانها (إنا إذا لمن الآثمين) يعنى إن كتمنا الشهادة أو خنا فيها ولما نزلت هذه الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا تميما وعديا وحلفهما عند المنبر بالله الذى لا إله إلا هو أنهما لم يخونا شيئا مما دفع إليهما فحلف على ذلك فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ثم ظهر الإناء من بعد ذلك قال ابن عباس وجد الإناء بمكة فقالوا اشتريناه من تميم وعدى وقيل لما طالت المدة أظهروه فبلغ ذلك بنى سهم فأتوهما فى ذلك فقالا إنا كنا اشتريناه منه فقالوا لهما ألم تزعما أن صاحبنا لم يبع شيئا من متاعه قالا لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر لكم به فكتمناه لذلك فرفعوهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم (فان عثر) يعنى فان أطلع وظهر والعثور الهجوم على أمر لم يهجم عليه غيره وكل من اطلع على أمر كان قد خفى عليه قيل له قد عثر عليه (على أنهما استحقا إثما) يعنى الوصيين ومعنى الآية فان حصل العثور والوقوف على أن الوصيين كانا استوجبا الإثم بسبب خيانتهما وأيمانهما الكاذبة (فآخران) يعنى من أولياء الميت وأقربائه (يقومان مقامهما) يعنى مقام الوصيين فى اليمين (من الذين استحق عليهم) يعنى من الذين استحق عليهم الإثم وهم الورثة والمعنى إذا ظهرت خيانة الحالفين وبان كذبهما يقوم اثنان آخران من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته (الأوليان) يعنى بأمر الميت وهم أهله وعشيرته (فيقسمان بالله) يعنى فيحلفان بالله (لشهادتنا أحق من شهادتهما) يعنى أيماننا أحق وأصدق من أيمانهما (وما اعتدينا) يعنى فى أيماننا وقولنا إن شهادتنا أحق من شهادتهما (إنا إذا لمن الظالمين) ولما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهميان وهما من أهل الميت وحلفا بالله بعد العصر ودفع الإناء إليهما وإنما ردت اليمين على أولياء الميت لأن الوصيين ادعيا أن الميت باعهما الإناء وأنكر ورثة الميت ذلك ومثل هذا أن الوصى إذا أخذ شىء من مال الميت وقال إنه أوصى له به وأنكر ذلك الورثة ردت اليمين عليه ولما أسلم تميم الدارى بعد هذه القصة كان يقول صدق الله وصدق رسوله

رسوله أنا أخذت الإناء فأنا أتوب إلى الله وأستغفره . وقوله تعالى (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) يعني ذلك الذي حكمنا به من رد اليمين على أولياء الميت بعد أيمانهم أدنى أي أجدر وأحرى أن يأتوا بالشهادة على وجهها يعني أن يأتي الوصيان وسائر الناس بالشهادة على وجهها فلا يخونوا فيها (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أي وأقرب أن يخاف الوصيان أن ترد الأيمان على أولياء الميت فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرموا فربما لا يحلفون كاذبين إذا خافوا هذا الحكم (واتقوا الله) يعني وخافوا الله أن تحلفوا أيمانا كاذبة أو تخونوا أمانة (واسمعوا) يعني المواعظ والزواجر وقيل معناه واسمعوا سمع إجابة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) يعني والله لا يرشد من كان على معصية وهذا تهديد وتخويف ووعيد لمن خالف حكم الله تعالى أو خان أمانته أو حلف أيمانا كاذبة وهذه الآية الكريمة من أصعب ما في القرآن من الآيات نظما وإعرابا وحكما والله أعلم بأسرار كتابه . قوله عز وجل (يوم يجمع الله الرسل) قال الزجاج هي متصلة بما قبلها تقديرها «واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل» وقيل تقديره «والله لا يهدي القوم الفاسقين يوم يجمع الله الرسل» أي لا يهديهم إلى الجنة في ذلك اليوم وهو يوم القيامة وقيل أنها منقطعة عما قبلها وتقديره اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل ذلك يوم القيامة (فيقول ماذا أجبتم) يعني فيقول الله تبارك وتعالى للرسل ماذا أجابكم أممكم وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم في دار الدنيا إلى توحيدي وطاعتي وفائدة هذا السؤال توبيخ أمم الأنبياء الذين كذبوهم (قالوا) يعني الرسل (لا علم لنا) قال ابن عباس معناه لا علم لنا كعلمك فيهم لأنك تعلم ما أضمروا وما أظهروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا وأبلغ . فعلى هذا القول إنما نفوا العلم عن أنفسهم وإن كانوا علماء لأن علمهم صار كلا علم عند علم الله. وقال في رواية أخرى معناه لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا وهذا القول قريب من الأول وقيل معناه لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا وقيل معناه لا حقيقة لعلمنا بعاقبة أمرهم لأنا كنا نعلم ما كان من أفعالهم وأقوالهم وقت حياتنا ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا ولا نعلم ما أحدثوا من بعدنا ومنه ما أخبر الله عن عيسى عليه السلام بقوله «وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » ومنه ما روي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إلى اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» زاد في رواية «فأقول سحقا لمن بدل بعدي » أخرجاه في الصحيحين وقال جمع من المفسرين إن للقيامة أهوالا وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها فيفزعون من هول ذلك ويذهلون عن الجواب ثم إذا ثابت إليهم عقولهم يشهدون على أممهم بالتبليغ . وهذا فيه ضعف ونظر لأن الله تعالى قال في حق الأنبياء «لا يحزنهم الفزع الأكبر» وذكر الإمام فخر الدين الرازي وجها آخر وهو أن الرسل

قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر فدفع الإناء إليهما وإلى أولياء الميت وكان تميم الداري بعد ما أسلم يقول صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله وأستغفره ، وإنما انتقل اليمين إلى الأولياء لأن الوصيين ادعيا أنهما ابتاعاه والوصي إذا أخذ شيئا من مال الميت وقال إنه أوصى لي به حلف الوارث إذا أنكر ذلك وكذلك لو ادعى رجل سلعة في يد رجل فاعترف ثم ادعى أنه اشتراها من المدعي حلف المدعي أنه لم يبعها منه ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن تميم الداري قال كنا بعنا الإناء بألف درهم فقسمتها أنا وعدي فلما أسلمت تأثمت فأتيت موالي الميت فأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف عمرو والمطلب فنزعت الخمسمائة من عدي ورددت أنا الخمسمائة فذلك قوله تعالى (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) ذلك الذي حكمنا به من رد اليمين أجدر وأحرى أن يأتي الوصيان بالشهادة على وجهها وسائر الناس أمثالهم أي أقرب إلى الإتيان بالشهادة على ما كانت (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أي أقرب إلى أن يخافوا رد اليمين بعد يمينهم على المدعين فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرموا فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا هذا الحكم (واتقوا الله) أن تحلفوا أيمانا كاذبة وتخونوا الأمانة (واسمعوا) الموعظة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) قوله عز وجل (يوم يجمع الله الرسل) وهو يوم القيامة (فيقول) لهم (ماذا أجبتم) أي ما الذي أجابتكم أمتكم وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي (قالوا) أي فيقولون (لا علم لنا) قال ابن عباس

معناه لاعلم لنا إلا العلم الذى أنت أعلم به منا وقيل لاعلم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا وقال ابن جريج لاعلم لنا بعاقبة أمرهم وبما (إنك أنت علام الغيوب) أى أنت الذى تعلم ماغاب ونحن لانعلم إلاما شاهد أخبرنا عبد الواحد (١٠٨) المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل نا مسلم بن إبراهيم أنا وهيب أنا عبد العزيز عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ليردن على ناس من أصحابى الحوض حتى إذا عرفتهم اختلجوا دونى فأقول أصحابى » فيقال لاتدرى ماأحدثوا بعدك وقال ابن عباس والحسن ومجاهد والسدى أن للقيامة أهوالا وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها فيفزعون من هول ذلك اليوم ويذهلون عن الجواب ثم بعد ما ثابت إليهم عقولهم ويشهدون على أممهم قوله تعالى (إذ قال الله ياعيسى ابن مريم أذكر نعمتى عليك) قال الحسن ذكر النعمة شكرها وأراد بقوله نعمتى أى نعمى لفظه واحد ومعناه جمع كقوله تعالى «وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها» (وعلى والدتك) مريم ثم ذكر النعم فقال (إذ أيدتك) قويتك (بروح القدس) يعنى جبريل عليه السلام (تكلم الناس) يعنى وتكلم الناس (فى المهد) صبيا (وكهلا) نبيا قال ابن عباس أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة فمكث فى رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله إليه (وإذ علمتك الكتاب) يعنى الخط (والحكمة) يعنى العلم والفهم (والتوراة والإنجيل وإذ تخلق) تجعل وتصور (من الطين كهيئة الطير) كصورة الطير (باذنى) (فتنفخ

عليهم السلام لما علموا أن الله تعالى عالم لايجهل وحليم لايسفه وعادل لايظلم علموا أن قولهم لايفيد خيرا ولايدفع شرا فرأوا أن الأدب فى السكوت وفى تفويض الأمر إلى الله تعالى وعدله فقالوا لاعلم لنا (إنك أنت علام الغيوب) يعنى إنك تعلم ماغاب عنا من بواطن الأمور ونحن نعلم مانشاهد ولانعلم مافى البواطن وقيل معناه إنك لايخفى عليك ماعندنا من العلوم وأن الذى سألتنا عنه ليس يخاف عليك لأنك أنت علام الغيوب ومعناه العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها ليس تخفى عليه خافية وبناء فعال بناء التكثير ودلت الآية على جواز إطلاق العلام على الله تعالى كما يجوز إطلاق الخلاق عليه . قوله عز وجل (إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك) قال بعضهم إن إذ قال الله تعالى ياعيسى صلة لماذا أجبتم ولما كان المراد بقوله للرسل ماأجبتم توبيخ الأمم ومن تمرد منهم على الله وكان أشد الأمم احتياجا وافتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ووجه ذلك أن جميع الأمم إنما كان طعنهم فى أنبيائهم بالتكذيب لهم وطعن هؤلاء النصارى تعدى إلى جلال الله تعالى حيث وصفوه بما لايليق بجلاله من اتخاذ الزوجة والولد ذكر الله فى هذه الآية أنواع نعمه على عيسى عليه السلام التى تدل على أنه عبد وليس باله والفائدة فى ذكر هذه الحكاية تنبيه النصارى على قبح مقالتهم وفساد اعتقادهم وتوكيد الحجة عليهم وقيل فائدة ذلك إسماع الأمم يوم القيامة ماخص الله عيسى عليه السلام به من الكرامة وقيل موضع إذ رفع بالابتداء على القطع ومعناه اذكر إذ قال الله ياعيسى وإنما خرج قوله إذ قال الله على لفظ الماضى دون المستقبل لأنه ورد على سبيل حكاية الحال وقيل تقديره إذ يقول الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك لفظه واحد والمراد به الجمع لأن الله تعالى عدد نعمه عليه فى هذه الآية والمراد من ذكرها شكرها (وعلى والدتك) يعنى بنعمته على مريم عليها السلام أنه تعالى «أنبتها نباتا حسنا وطهرها واصطفاها على نساء العالمين » ثم ذكر نعمه على عيسى عليه السلام فقال تعالى (إذ أيدتك بروح القدس) يعنى بجبريل عليه السلام لأن القدس هو الله تعالى وأضافه إليه على سبيل التشريف والتعظيم كاضافة بيت الله وناقة الله وقيل أراد بروح القدس الروح المطهرة لأن الأرواح تختلف باختلاف الماهية فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية فخص الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرقة (تكلم الناس فى المهد) يعنى تكلمهم طفلا فى حال الصغر (وكهلا) يعنى وفى حالة الكهولة من غير أن يتفاوت كلامك فى هذين الوقتين وهذه معجزة عظيمة وخاصة شريفة ليست لأحد قبله قال ابن عباس أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة فمكث فى رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله إليه (وإذ علمتك الكتاب والحكمة) يعنى الكتابة وهى الخط والحكمة الفهم والاطلاع على أسرار العلوم (والتوراة والإنجيل) أى وعلمتك التوراة التى أنزلتها على موسى والإنجيل الذى أنزلته عليك (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى) يعنى وإذ تجعل وتصور من الطين كصورة (الطير باذنى)

فتنفخ فيها فتكون طيرا) حيا يطير (باذنى وتبرئ) وتصحح (الأكمه والأبرص باذنى وإذ تخرج الموتى) من قبورهم أحياء (باذنى وإذ كففت) منعت وصرفت (بنى إسرائيل) يعنى اليهود (عنك) حين هموا بقتلك (إذ جئتهم بالبينات) يعنى بالدلالات الواضحات والمعجزات وهى التى ذكرنا وسميت بالبينات لأنها مما يعجز عنها سائر الخلق الذين

لبسوا بمرسلين (فقال الذين كفروا منهم إن هذا) ماهذا (إلا سحر مبين) يعنى ماجاءهم به من البينات قرأ حمزة والكسائى ساحر مبين هاهنا وفى سورة هود والصف فيكون راجعا إلى عيسى عليه السلام وفى هود يكون راجعا إلى محمد ﷺ (وإذ أوحيت إلى الحواريين) ألهمتهم وقذفت فى قلوبهم وقال أبو عبيدة يعنى أمرت وإلى صلة والحواريون خواص أصحاب عيسى عليه السلام (أن آمنوا بى وبرسولى) عيسى (قالوا) حين وفقتهم (آمنا وأشهد بأننا مسلمون إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك) قرأ الكسائى هل يستطيع بالتاء ربك بنصب الباء وهو قراءة على وعائشة وابن عباس ومجاهد أى هل تستطيع أن تدعو وتسأل

(فتنفخ فيها) ذكر هنا فيها سورة آل عمران فيه يعنى بالضمير فى قوله فيها يعود إلى الهيئة بجعلها مصدرا كما يقع اسم الخلق على المخلوق وذلك لأن النفخ لايكون فى الهيئة إنما يكون فى المهيأ وذى الهيئة ويجوز أن يعود الضمير إلى الطير لأنها مؤنثة قال الله تعالى «أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات». وأما الضمير المذكور فى آل عمران فى قوله فيه فيعود إلى الكاف يعنى فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير (فتكون طيرا باذنى) وإنما كرر قوله باذنى تأكيدا لكون ذلك الخلق واقعا بقدرة الله تعالى وتخليقه لابقدرة عيسى عليه السلام وتخليقه لأن المخلوق لايخلق شيئا إنما خالق الأشياء كلها هو الله تعالى لاخالق لها سواه وإنما كان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى عليه السلام أكرمه الله تعالى بها وكذا قوله تعالى (وتبرئ الأكمه والأبرص باذنى) يعنى وتشفى الأكمه وهو الأعمى المطموس البصر والأبرص معروف ظاهر (وإذ تخرج الموتى) يعنى من قبورهم أحياء (باذنى) تفعل ذلك كله بدعائك والفاعل لهذه الأشياء كلها فى الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو المبرئ للأكمه والأبرص وهو محيى الموتى وهو على كل شىء قدير وإنما كانت هذه الأشياء معجزات لعيسى عليه السلام ووقعت باذن الله تعالى وقدرته . وقوله تعالى (وإذ كففت بنى إسرائيل عنك) يعنى واذكر نعمتى عليك إذ كففت وصرفت عنك اليهود ومنعتك منهم حين أرادوا قتلك (إذ جئتهم بالبينات) يعنى بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التى ذكرت فى هذه الآية وذلك أن عيسى عليه السلام لما أتى بهذه المعجزات العجيبة الباهرة قصد اليهود قتله فخلصه الله منهم ورفعه إلى السماء (فقال الذين كفروا منهم) يعنى فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا بهذه المعجزات (إن هذا إلا سحر مبين) يعنى ماجاءهم به عيسى عليه السلام من المعجزات . قوله عز وجل (وإذ أوحيت إلى الحواريين) يعنى ألهمتهم وقذفت فى قلوبهم فهو وحى إلهام كما أوحى إلى أم موسى وإلى النحل والحواريون هم أصحاب عيسى وخواصه (أن آمنوا بى وبرسولى) يعنى عيسى عليه السلام (قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) لما وفقهم الله للإيمان قالوا آمنا وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام لأن الإيمان من أعمال القلوب والإسلام هو الانقياد والخضوع فى الظاهر والمعنى أنهم آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم قوله تعالى (إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك) قال المفسرون هذا على المجاز ولا يجوز لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكوا فى قدرة الله تعالى لكنه كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تقوم معى مع علمه بأنه يقدر على القيام وإنما قصد بقوله هل تستطيع هل يسهل عليك وهل يخف أن تقوم معى فكذلك معنى الآية لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ومعترفين بكمال قدرته وإنما قالوا ذلك ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن قلبى ولاشك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة فى القلب ولهذا السبب قالوا وتطمئن قلوبنا وقال بعضهم هو على ظاهره وقال غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان

ربك وقرأ الآخرون يستطيع بالياء وربك برفع الباء ولم يقولوا شاكين بقدرة الله عز وجل ولكن معناه هل ينزل ربك أم لا؟ كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تنهض معى؟ وهو يعلم أنه يستطيع وإنما يريد هل يفعل ذلك أم لا؟ وقيل يستطيع بمعنى يطيع يقال أطاع واستطاع بمعنى واحد كقوله أجاب واستجاب معناه هل يعطيك ربك باجابة سؤالك؟ وفى الآثار من

اطاع الله اطاعه الله وأجرى بعضهم على الظاهر فقالوا غلط القوم وقالوه قبل استحكام المعرفة وكانوا بشرا فقال لهم عيسى عليه السلام عند الغلط استعظاما لقولهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين أى لاتشكوا فى قدرته (أن ينزل علينامائدة من السماء) المائدة الخوان الذى عليه الطعام وهى فاعلة من ماده يميده إذا أعطاه وأطعمه كقوله ماره يميره وامتار افتعل منه والمائدة هى الطعمة للآكلين وسمى الطعام أيضا مائدة على الجوار لأنه يؤكل على المائدة وقال أهل الكوفة سميت مائدة لأنها تميد بالآكلين أى تميل وقال أهل البصرة فاعلة بمعنى المفعولة يعنى ميد بالآكلين إليها كقوله تعالى «عيشة راضية» أى مرضية (قال) عيسى عليه السلام مجيبا لهم (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين (١١٠)) فلا تشكوا فى قدرته وقيل اتقوا الله إن تسألوه شيئا لم يسأله الأمم قبلكم فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الأيمان (قالوا نريد) أى إنما سألنا لأنا نريد (أن نأكل منها) أكل تبرك لا أكل حاجة فنستيقن قدرته (وتطمئن) وتسكن (قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا) بأنك رسول الله أى نزداد إيمانا ويقينا وقيل إن عيسى عليه السلام أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوما فاذا فطروا لا يسألون الله شيئا إلا أعطاهم ففعلوا وسألوا المائدة وقالوا ونعلم إن قد صدقتنا فى قولك إنا إذا صمنا ثلاثين يوما لانسأل الله تعالى شيئا إلا أعطانا (ونكون عليها من الشاهدين) لله بالوحدانية والقدرة ولك بالنبوة والرسالة وقيل ونكون من الشاهدين لك عند بنى إسرائيل إذا رجعنا إليهم (قال عيسى بن مريم) عند ذلك (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) وقيل إنه اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وغض بصره وبكى ثم قال اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء (تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) أى عائدة من الله علينا حجة وبرهانا والعيد يوم السرور سمى به للعود من الترح إلى الفرح وهو اسم لما اعتدته ويعود إليك وسمى يوم الفطر والأضحى عيدا لأنهما يعودان فى كل سنة قال السدى معناه نتخذ اليوم الذى أنزلت فيه عيدا لأولنا وآخرنا أى نعظمه نحن ومن بعدنا وقال سفيان نصلى فيه قوله لأولنا أى لأهل زماننا وآخرنا أى لمن يجىء بعدنا وقال ابن عباس يأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم (وآية منك) دلالة وحجة (وارزقنا

والمعرفة فى قلوبهم وكانوا بشرا فقالوا هذه المقالة فرد الله عليهم عند غلطهم بقوله «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين» يعنى اتقوا الله إن كنتم مؤمنين يعنى اتقوا الله أن تشكوا فى قدرة الله عز وجل والقول الأول أصح وقيل فى معنى الآية هل يقبل ربك دعاءك ويعطيك باجابة دعائك وسؤالك إنزال المائدة فقد ورد فى الآثار من أطاع الله أطاعه كل شىء (أن ينزل علينا مائدة من السماء) المائدة الخوان الذى عليه الطعام ولا يسمى مائدة إن لم يكون عليه طعام إنما يقال خوان أو طبق وأصلها من ماد يميد إذا تحرك كأنها تميد بما عليها من الطعام (قال) يعنى عيسى مجيبا للحواريين (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) يعنى اتقوا الله فى هذا السؤال إن كنتم مؤمنين لأنه سؤال تعنت وقيل أمرهم بالتقوى ليحصل لهم هذا السؤال ومعنى إن كنتم مؤمنين مصدقين فلا تشكوا فى قدرة الله تعالى وقيل معناه اتقوا الله أن تسألو شيئا لم يسأله أحد من الأمم قبلكم فنهاهم عن اقتراح الآية بعد الأيمان (قالوا نريد أن نأكل منها) يعنى قال الحواريون مجيبين لعيسى عليه السلام إنما نطلب نزول المائدة علينا لأن نأكل منها فان الجوع قد غلب علينا وقيل معناه نريد أن نأكل منها للتبرك بها لا لأكل حاجة (وتطمئن قلوبنا) يعنى وتسكن قلوبنا ونستيقن قدرة الله تعالى لأنا وإن علمنا قدرة الله بالدليل فاذا شاهدنا نزول المائدة ازداد اليقين وقويت الطمأنينة (ونعلم أن قد صدقتنا) يعنى ونزداد إيمانا ويقينا بأنك رسول الله (ونكون عليها من الشاهدين) يعنى لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة وقيل معناه ونكون لك عليها من الشاهدين عند بنى إسرائيل إذا رجعنا إليهم فلما قالوا ذلك أمرهم عيسى أن يصوموا ثلاثين يوما وقال لهم إنكم إذا صمتم ذلك وأفطرتم فلا تسألون الله شيئا إلا أعطاكم ففعلوا ذلك وسألوا نزول المائدة فعند ذلك (قال عيسى ابن مريم اللهم) قيل إنه اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وبكى ثم دعا فقال اللهم (ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) يعنى عائدة من الله علينا وحجة وبرهانا والعيد يوم السرور وأصله من عاد يعود إذا رجع والمعنى نتخذ ذلك اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيدا لعظمه ونصلى فيه نحن ومن يجىء من بعدنا فنزلت فى يوم الأحد فاتخذه النصارى عيدا وقال ابن عباس معناه يأكل منها أول الناس كما يأكل آخرهم (وآية منك) أى وتكون المائدة دلالة على قدرتك ووحدانيتك وحجة بصدق رسولك (وارزقنا)

وأنت خير الرازقين) قال الله تعالى مجيبا لعيسى عليه السلام (إني منزلها عليكم) يعني المائدة وقرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم منزلها بالتشديد لأنها نزلت مرات والتفعيل يدل على التكرير مرة بعد أخرى وقرأ الآخرون بالتخفيف لقوله أنزل علينا (فمن يكفر بعد منكم) أي بعد نزول المائدة (فاني أعذبه عذابا) أي جنس عذاب (لاأعذبه أحدا من العالمين) يعني عالمي زمانه فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة فمسخوا قردة وخنازير قال عبد الله بن عمر إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون واختلف العلماء فى المائدة هل نزلت أم لا؟ فقال مجاهد والحسن لم تنزل فان الله عزوجل لما أوعدهم على كفرهم بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لانريدها فلم تنزل وقوله «إني منزلها عليكم» يعني إن سألتم والصحيح الذي عليه الأكثرون أنها نزلت لقوله تعالى «إني منزلها عليكم» ولاخلف فى خبره

لتواتر الأخبار فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين واختلفوا فى صفتها فروى خلاس بن عمرو عن عمار بن ياسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها نزلت خبزا ولحما وقيل لهم إنها مقيمة لكم مالكم تخونوا وتخبئوا فما مضى يومهم حتى خانوا وخبئوا فمسخوا قردة وخنازير وقال ابن عباس رضى الله عنهما إن عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ماشئتم يعطكموه فصاموا فلما فرغوا قالوا ياعيسى إنالو عملنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا الله المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم قال كعب الأحبار نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام إلااللحم وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس أنزل على المائدة كل شيء إلاالخبز واللحم قال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء وقال الكلبي كان عليها خبز رز وبقل وقال وهب بن منبه أنزل الله أقرصة من شعير وحيتانا وكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوا جميعهم وفضل وعن الكلبي ومقاتل أنزل الله خبزا وسمكا وخمسة أرغفة فأكلوا ماشاء الله تعالى والناس ألف ونيف فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد قالوا ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرته ومن أراد فتنته رجع إلى كفره ومسخوا خنازير ليس فيهم صبي ولا امرأة فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ وقال قتادة

أي ارزقنا ذلك من عندك وقيل ارزقنا الشكر على هذه النعمة (وأنت خير الرازقين) يعني وأنت خير من تفضل ورزق (قال الله) عزوجل مجيبا لعيسى (إني منزلها عليكم) يعني المائدة (فمن يكفر بعد منكم) يعني بعد نزول المائدة (فاني أعذبه عذابا) يعني جنسا من العذاب (لاأعذبه أحدا من العالمين) يعني من عالمي زمانهم فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة فمسخوا خنازير قال الزجاج ويجوز أن يكون هذا العذاب معجلا فى الدنيا ويجوز أن يكون مؤخرا إلى الآخرة قال عبد الله بن عمر إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون واختلف العلماء فى نزول المائدة فقال الحسن ومجاهد لم تنزل المائدة لأن الله لما أوعدهم على كفرهم بالعذاب بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لانريدها فلم تنزل عليهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى «إني منزلها عليكم» إن سألتم نزولها والصحيح الذي عليه جمهور العلماء والمفسرين أنها نزلت لأن الله تعالى قال «إني منزلها عليكم» وهذا وعد من الله بانزالها ولاخلف فى خبره ووعده ولما روى عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا أن لايخونوا ولايدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير أخرجه الترمذي وقال قد روى عن عمار من غير طريق موقوفا وهو أصح وقال ابن عباس إن عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم اسألوا الله ماشئتم يعطيكموه فصاموا فلما فرغوا قالوا ياعيسى إنا لو عملنا عملا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم وقال سلمان الفارسي لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى صوفا وبكى وقال اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوي إليهم منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة واليهود ينظرون إلى شيء لم ينظروا مثله ولم يجدوا ريحا أطيب من ريحه فقال

كانت تنزل عليهم بكرة وعشيا حيث كانوا كالمن والسلوى لبني إسرائيل وقال عطاء بن أبي رباح عن سلمان الفارسي لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى عليه السلام صوفا وبكى وقال «اللهم أنزل علينا مائدة من السماء» الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوي خافضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى وقال اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة واليهود ينظرون إلى شيء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحا أطيب من ريحه فقال عيسى عليه السلام ليقم أحسنكم عملا فيكشف عنها ويذكر اسم الله تعالى فقال شمعون الصفار رأس الحواريين أنت أولى بذلك منا فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيرا ثم كشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين فاذا هو سمكة مشوية

ليس عليها فلوسها ولا شوك عليها تسيل من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ماخلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون ياروح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شيء افتعله الله تعالى بالقدرة الغالبة «كلوا مما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله» فقالوا ياروح الله كن أول من يأكل منها فقال عيسى عليه السلام معاذ الله إن آكل منها ولكن يؤكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمقعدين والمبتلين فقال كلوا من رزق الله ولكم الهنأ ولغيركم البلاء فأكلوا وصدر عنها ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزمن ومبتلى كلهم شبعان وإذا السمكة كهيئتها حين نزلت ثم طارت المائدة صعدا وهم ينظرون إليها حتى توارت بالحجاب فلم يأكل منها زمن ولا مريض ولا مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى وندم من لم يأكل منها فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى فاذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صعدا وهم ينظرون إليها في ظلها حتى توارت عنهم وكانت تنزل غبا تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة ثمود فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها وقالوا أترون المائدة حقا تنزل من السماء فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام إني شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين فقال عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام ليقم أحسنكم عملا فليكشف عنها ويسم الله فقال شمعون الصفار رأس الحواريين أنت أولى بذلك منا فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيرا ثم كشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين فاذا هو بسمكة مشوية ليس فيها شوك ولا عليها فلوس تسيل من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ماخلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون ياروح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة ولكنه شيء اخترعه الله بقدرته العالية كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم ويزدكم من فضله فقالوا ياروح الله كن أول من يأكل منها فقال عيسى معاذ الله أن آكل منها يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها أهل الفاقة والمرض والبرص والجذام والمقعدين فقال كلوا من رزق الله لكم الشفاء ولغيركم البلاء فأكلوا منها وهم ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزمن ومبتلى وصدروا عنها وهم شباع وإذا السمكة بحالها حين أنزلت ثم طارت المائدة صعودا وهم ينظرون إليها حتى توارت ولم يأكل منها مريض أو زمن أو مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى وندم من لم يأكل منها وقيل مكثت أربعين صباحا تنزل ضحى فاذا نزلت اجتمع إليها الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يأكلون منها ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى يفيء الفيء فاذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم وكانت تنزل غبا يوما ويوما لا تنزل فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها وقالوا ترون المائدة حقا تنزل من السماء فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام إني شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين فقال عيسى عليه السلام عند ذلك «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» فمسخ الله منهم ثلثمائة وثلاثين رجلا باتوا

ليلتهم

إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلا باتوا من ليلتهم على فرشهم مع نسائهم فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون القذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف بعيسى عليه السلام وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برءوسهم ويبكون ولا يقدرون على الكلام (١١٣) فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا

قوله عز وجل (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) واختلفوا فى أن هذا القول متى يكون: فقال السدى قال الله تعالى هذا القول لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء لأن حرف إذ يكون للماضى. وقال سائر المفسرين إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله «من قبل يوم يجمع الله الرسل». وقال من بعد هذا «يوم ينفع الصادقين صدقهم» وأراد بهما يوم القيامة وقد تجىء إذ بمعنى إذا كقوله عز وجل «ولو ترى إذ فزعوا» أى إذا فزعوا يوم القيامة والقيامة وإن لم تكن بعد ولكنها كالكائنة لأنها آتية لامحالة قوله «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله» فان قيل فما وجه هذا السؤال عنه مع علم الله عز وجل أن عيسى لم يقله قيل هذا السؤال عنه لتوبيخ قومه وتعظيم أمر هذه المقالة كما يقول القائل لآخر أفعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله إعلاما واستعظاما لا استخبارا واستفهاما وأيضا أراد الله عز وجل أن يقر عيسى عليه السلام عن نفسه بالعبودية فيسمع قومه منه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك قال أبو روق إذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب أرعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة على جسده عين من دم ثم يقول مجيبا لله عز وجل

ليلتهم مع نسائهم على فرشهم ثم أصبحوا خنازير يسعون فى الطرق يأكلون العذرة من الكناسات والحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى عليه السلام يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا وقال كعب أنزلت المائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل شىء إلا اللحم وقال ابن عباس أنزل على المائدة كل شىء إلا الخبز واللحم وقال الكلبى كان عليها خبز بر وبقل وقال وهب بن منبه أنزل الله أقرصة من شعير وحيتانا فكان القوم يأكلون ويخرجون ثم يجىء آخرون فيأكلون حتى أكلوا بأجمعهم وفضل وقال قتادة كانت تنزل عليهم بكرة وعشيا حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى إسرائيل وقال الكلبى ومقاتل أنزل الله سمكا وخمسة أرغفة فأكلوا منها ماشاء الله والناس ألف ونيف فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك من لم يشهد منهم وقالوا ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به خيرا ثبته ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا خنازير وليس فيهم صبى ولا امرأة فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ. قوله عز وجل (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) الآية اختلف المفسرون فى وقت هذا القول فقال السدى قال الله لعيسى هذا القول حين رفعه إلى السماء بدليل أن حرف إذ يكون للماضى وقال سائر المفسرين إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله «يوم يجمع الله الرسل» وذلك يوم القيامة وبدليل قوله «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» وذلك يوم القيامة وأجيب عن حرف إذ بأنها قد تجىء بمعنى إذا كقوله «ولو ترى إذ فزعوا» يعنى إذا فزعوا وقال الراجز ثم جزاك الله عنى إذ جزى. جنات عدن فى السموات العلى ولفظ الآية فى قوله أأنت قلت للناس لفظ استفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى عليه السلام من النصارى لأن عيسى عليه السلام لم يقل هذه المقالة فان قلت إذا كان عيسى عليه السلام لم يقلها فما وجه هذا السؤال له مع علم الله بأنه لم يقله؟ قلت وجه هذا السؤال تثبيت الحجة على قومه وإكذاب لهم فى ادعائهم ذلك عليه وأنه أمرهم به فهو كما يقول القائل لآخر أفعلت كذا وهو يعلم أنه لم يفعله وإنما أراد تعظيم ذلك الفعل فنفى عن نفسه هذه المقالة وقال ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم فاعترف بالعبودية وأنه ليس باله كما زعمت وادعت فيه النصارى فان قلت إن النصارى لم يقولوا بالهية مريم فكيف قال اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قلت إن النصارى لما ادعت فى عيسى أنه إله ورأوا أن مريم ولدته لزمهم بهذه المقالة على سبيل التبعية وقوله تعالى إخبارا عن عيسى

(قال سبحانك) تنزيها وتعظيما لك (مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) قال ابن عباس تعلم مافى غيبى ولا أعلم مافى غيبك وقيل تعلم سرى ولا أعلم سرك وقال أبو روق تعلم ماكان منى فى دار الدنيا ولا أعلم مايكون منك فى الآخرة وقال الزجاج النفس عبارة عن جملة الشىء وحقيقته يقول تعلم جميع ما أعلم من حقيقة أمرى ولا أعلم حقيقة أمرك (إنك أنت علام الغيوب) ماكان ومايكون (ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم) وحده ولا تشركوا به شيئا (وكنت عليهم شهيدا مادمت) أقمت (فيهم فلما توفيتنى) قبضتنى ورفعتنى إليك (كنت أنت الرقيب عليهم) الحفيظ عليهم تحفظ أعمالهم (وأنت على كل شىء شهيد إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) فان قيل كيف طلب المغفرة لهم وهم كفار، وكيف قال «وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» وهذا لا يليق بسؤال المغفرة؟ قيل أما الأول فمعناه إن تعذبهم بإقامتهم على كفرهم وإن تغفر لهم بعد الإيمان وهذا يستقيم على قول السدى إن هذا السؤال قبل يوم القيامة لأن الإيمان لاينفع فى القيامة وقيل هذا فى الفريقين منهم معناه أن تعذب من كفر منهم إن وأن تغفر لمن آمن منهم وقيل ليس هذا على وجه طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال أنت الغفور الرحيم ولكنه على تسليم الأمر وتفويضه إلى مراده وأما السؤال الثانى فكان ابن مسعود رضى الله عنه يقرأ وأن تغفر لهم فانك أنت الغفور الرحيم

عليه السلام (قال سبحانك) يعنى تنزيها لك عن النقائص وبراءة لك من العيوب قال أبو روق إذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب وهو قوله «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله» ارتعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة من جسده عين من دم وقال مجيبا لله تعالى سبحانك (مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) أى كيف أقول هذا الكلام ولست بأهل ولست أستحق العبادة حتى ادعو الناس إليها ولما بين أنه ليس له أن يقول هذه المقالة وهذا المقام مقام التواضع والخشوع لعظمة الله تعالى شرع فى بيان هل وقع ذلك منه أم لا؟ فقال (إن كنت قلته فقد علمته) أسند العلم إلى الله تعالى وهذا هو غاية الأدب وإظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الأمر إلى علمه ثم قال (تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) يعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ماتعلم وقال ابن عباس تعلم مافى غيبى ولا أعلم مافى غيبك وقيل معناه تعلم ما أخفى ولا أعلم ماتخفى وقيل معناه تعلم ما كان منى فى دار الدنيا ولا أعلم مايكون منك فى دار الآخرة وقيل معناه تعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ماتقول وتفعل والنفس عبارة عن ذات الشىء يقال نفس الشىء وذاته بمعنى واحد وقال الزجاج النفس عبارة عن جملة الشىء وحقيقته يقال تعلم جميع حقيقة أمرى ولا أعلم حقيقة أمرك وقيل معناه تعلم معلومى ولا أعلم معلومك وإنما ذكر هذا الكلام على طريقة المشاكلة والمطابقة وهو من فصيح الكلام ثم قال (إنك أنت علام الغيوب) يعنى أنك تعلم ما كان وما سيكون وهذا تأكيد لما تقدم من قوله تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك. قوله تعالى إخبارا عن عيسى (ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به) يعنى ماقلت لهم إلا قولا أمرتنى به (أن اعبدوا الله) يعنى قلت لهم اعبدوا الله (ربى وربكم) يعنى وحده ولا تشركوا به شيئا (وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم) يعنى وكنت أشهد مايفعلون وأحصره مادمت مقيما فيهم (فلما توفيتنى) يعنى فلما رفعتنى إلى السماء فالمراد به وفاة الرفع لا الموت (كنت أنت الرقيب عليهم) يعنى الحفيظ عليهم المراقب لأعمالهم وأحوالهم والرقيب الحافظ الذى لايغيب عنه شىء (وأنت على كل شىء شهيد) يعنى أنت شهدت مقالتى التى قلتها لهم وأنت الشهيد عليهم بعد مارفعتنى إليك لاتخفى عليك خافية فعلى هذا الشهيد هنا بمعنى الشاهد لما كان وما يكون أن يجوز أن يكون الشهيد هنا بمعنى العليم يعنى أنت العالم بكل شىء فلايعزب عن علمك شىء. قوله عز وجل إخبارا عن عيسى عليه السلام (إن تعذبهم) يعنى أن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة بأن تميتهم على كفرهم (فانهم عبادك) لايقدرون على دفع ضر نزل بهم ولا جلب نفع لأنفسهم وأنت العادل فيهم لأنك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا (وإن تغفر لهم) يعنى لمن تاب من كفره منهم بأن تهديه إلى الإيمان فان ذلك بفضلك ورحمتك (فانك أنت العزيز) يعنى فى الانتقام ممن تريد الانتقام منه لايمتنع عليك ماتريده (الحكيم) فى أفعالك كلها وهذا التفسير إنما يصح على قول السدى لأنه قال كان سؤال الله عز وجل لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء قبل يوم القيامة. أما على قول جمهور المفسرين

وكذلك هو فى مصحفه . وأما على القراءة المعروفة قيل فيه تقديم وتأخير تقديره «إن تغفر لهم فانهم عبادك وإن تعذبهم فانك أنت العزيز الحكيم » وقيل معناه إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز فى الملك الحكيم فى القضاء لاينقص من عزك شىء ولا يخرج من حكمك ويدخل فى حكمته ومغفرته وسعة رحمته ومغفرته الكفار ولكنه أخبر أنه لايغفر وهو لايخلف خبره أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد (١١٥) الفارسى ثنا محمد بن عيسى الجلودى حدثنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج حدثنى يونس بن عبد الأعلى الصيرفى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن النبى ﷺ تلا قول الله تعالى فى إبراهيم «رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى» الآية وقول عيسى عليه السلام « إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» فرفع يديه وقال اللهم أمتى وبكى فقال الله عز وجل يا جبريل إذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيه فأتاه جبريل فسأله فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال فقال الله تعالى يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) قرأ نافع يوم بنصب الميم يعنى تكون هذه الأشياء فى يوم فحذف فى فانتصب وقرأ الآخرون بالرفع على أنه خبر هذا أى ينفع الصادقين فى الدنيا صدقهم فى الآخرة ، ولو كذبوا ختم الله على أفواههم ونطقت به جوارحهم فافتضحوا وقيل أراد بالصادقين النبيين وقال الكلبى ينفع المؤمنين إيمانهم . قال قتادة متكلمان لايخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام وهو ماقص الله وعدو الله إبليس وهو قوله وقال الشيطان « لما قضى الأمر » الآية فصدق عدو الله يومئذ وكان قبل ذلك كاذبا فلم ينفعه صدقه . وأما عيسى عليه السلام فكان صادقا فى الدنيا والآخرة

إن هذا السؤال إنما يقع يوم القيامة فى قوله «وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » إشكال وهو أنه يليق بعيسى عليه السلام طلب المغفرة لهم مع علمه بأن الله تعالى لايغفر لمن يموت على الشرك والجواب عن هذا الإشكال من وجوه أحدها أنه ليس هذا على طريق طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال فانك أنت الغفور الرحيم ولكنه على تسليم الأمر إلى الله وتفويضه إلى مراده فيهم لأنه العزيز فى ملكه الحكيم فى فعله ويجوز فى حكمته وسعة مغفرته ورحمته أن يغفر للكفار ، لكنه تعالى أخبر أنه لايفعل ذلك بقوله «إن الله لايغفر أن يشرك به» الوجه الثانى قيل معناه أن تعذبهم يعنى إقامتهم على كفرهم إلى الموت وإن تغفر لهم يعنى لمن آمن منهم وتاب ورجع عن كفره ، الوجه الثالث قال ابن الأنبارى لما قال الله لعيسى «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله» لم يتع لعيسى إلا أن النصارى حكت عنه الكذب لأنه لم يقل ذلك وقول الكذب ذنب فيجوز أن يسأل له المغفرة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم «رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى » الآية وقول عيسى «إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» فرفع يديه وقال اللهم أمتى أمتى فبكى فقال الله تعالى ياجبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فاسأله مايبكيك فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال ياجبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك فى أمتك ولانسوءك عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حتى أصبح بآية والآية «إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» أخرجه النسائى قوله عز وجل (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) اتفق جمهور العلماء على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة والمعنى أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم فى الآخرة لأنه يوم الإثابة والجزاء وما تقدم من صدقهم فى الدنيا يتبين نفعه يوم القيامة والمراد بالصادقين النبيون والمؤمنون لأن الكفار لاينفعهم صدقهم يوم القيامة قال قتادة متكلمان لايخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام لأنه يقوم فيقول ماقص الله عنه ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به الآية فكان صادقا فى الدنيا والآخرة فينفعه صدقه. وأما المتكلم الآخر فابليس فانه يقوم فيقول وقال الشيطان لما قضى الأمر الآية فصدق عدو الله فيما قال ولم ينفعه صدقه وقال عطاء هو يوم من أيام الدنيا لأن الآخرة دار جزاء لادار عمل وذهب فى هذا القول إلى ظاهر الآية من أن الصدق النافع إنما يكون فى الدنيا وهذا القول موافق لمذهب السدى حيث يقول إن هذه المخاطبة جرت مع عيسى عليه السلام حين رفع إلى السماء والوجه ماذهب إليه الجمهور ثم ذكر الله تعالى مالهم

فنفعه صدقه وقال بعضهم هذا يوم من أيام الدنيا لأن الدار الآخرة دار جزاء لادار عمل ثم بين ثوابهم فقال (لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) ثم عظم نفسه فقال (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير). (١١٦)

﴿سورة الأنعام﴾

مكية وهى مائة وخمس وستون آية نزلت بمكة جملة ليلا معها سبعون ألف ملك قد سدوا مابين الخافقين ، لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد فقال النبى صلى الله عليه وسلم «سبحان ربى العظيم «سبحان ربى العظيم وخر ساجدا» وروى مرفوعا من قرأ سورة الأنعام يصلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره . وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت سورة الأنعام بمكة إلا قوله «وماقدروا الله حق قدره إلى آخر ثلاث آيات ، وقوله تعالى « قل تعالوا إلى قوله لعلكم تتقون فهذه الست آيات مدنيات» .

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) قال كعب الأحبار هذه الآية أول آية فى التوراة وآخر آية فى التوراة قوله « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا» الآيه وقال ابن عباس رضى الله عنهما افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وختمه بالحمد فقال وقضى بينهم بالحق أى بين الخلائق وقيل الحمد لله رب العالمين قوله الحمد لله حمد الله نفسه تعليما لعباده أى احمدوا الله الذى خلق السموات والأرض خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد وفيهما العبر

من الثواب على صدقهم فقال تعالى (لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) فهذا إشارة إلى مايحصل هم من الثواب الدائم الذى لاانقطاع له ولاانتهاء (رضى الله عنهم) يعنى بطاعتهم له (ورضوا عنه) يعنى بما أعطاهم من ثوابه وجزيل كرامته (ذلك) إشارة إلى ماذكره من ثوابهم (الفوز العظيم) يعنى أنهم فازوا بالجنة وبرضوانه عنهم ونجوا من النار (لله ملك السموات والأرض ومافيهن) عظم الله عزوجل نفسه عما قال فيه النصارى يعنى أن الذى له ملك السموات والأرض هو الذى يستحق الإلهية لاما قالت النصارى من إلهة المسيح وأمه لأنهما جملة من فى السموات والأرض فهما عبيده وفى ملكه، وقيل هو جواب لسؤال مضمر فى الكلام كأنه لما وعد الصادقين بالثواب العظيم قيل من يعطيهم ذلك قال الذى له ملك السموات والأرض ومن فيهن (وهو على كل شيء قدير) والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة الأنعام)

(فصل فى ذكر نزولها)

روى مجاهد عن ابن عباس أن سورة الأنعام مما نزل بمكة وهذا قول الحسن وقتادة وجابر بن زيد وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال نزلت سورة الأنعام جملة ليلا بمكة وحولها سبعون ألف ملك وروى أبو صالح عن ابن عباس قال هى مكية نزلت جملة واحدة نزلت ليلا وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فانها مدنيات وهى قوله تعالى «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم إلى آخر الثلاث آيات» وقوله تعالى «وماقدروا الله حق قدره» الآية وقوله تعالى «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا» أوقال «أوحى إلى ولم يوح إليه شيء إلى آخر الآيتين» وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين وهما قوله تعالى «والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق» الآية وقوله تعالى «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» الآية وروى عن ابن عباس أيضا وقتادة أنهما قالا هى مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة قوله «وما قدروا الله حق قدره» وقوله «وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات» الآية ولما نزلت سورة الأنعام ومعها سبعون ألف ملك قد سدوا مابين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد قال النبى صلى الله عليه وسلم «سبحان ربى العظيم سبحان ربى العظيم وخر ساجدا» قال البغوى وروى عنه مرفوعا من قرأ سورة الأنعام صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وذكره بغيره سند والله سبحانه وتعالى أعلم .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) قال كعب الأحبار هذه الآية أول آية فى التوراة وآخر آية فى التوراة قوله تعالى «وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا» الآية

وفى

والمنافع للعباد (وجعل الظلمات والنور) والجعل بمعنى الخلق وقال الواقدى كل ما فى القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان إلا فى هذه الآية فانه يريد بهما الليل والنهار وقال الحسن وجعل الظلمات والنور يعنى الكفر والإيمان وقيل أراد بالظلمات الجهل وبالنور العلم وقال قتادة يعنى الجنة والنار وقيل معناه خلق الله السموات والأرض وقد جعل الظلمات والنور لأنه خلق السموات والنور قبل السموات والأرض قال قتادة خلق الله السموات قبل الأرض وخلق الظلمة قبل النور والجنة قبل النار وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون أى يشركون وأصله من مساواة الشىء بالشىء ومنه العدل أى يعدلون بالله غير الله تعالى يقال عدلت هذا بهذا إذا ساويته وبه قال النضر بن شميل الباء بمعنى عن أى عن ربهم يعدلون أى يميلون وينحرفون من العدول قال الله تعالى «عينا يشرب بها عباد الله» أى منها وقيل تحت قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون معنى لطيف وهو مثل قول القائل أنعمت عليكم بكذا وتفضلت عليكم بكذا ثم تكفرون بنعمتى قوله عز وجل (هو الذى خلقكم من طين) يعنى آدم عليه السلام خاطبهم به إذ كانوا من ولده قال السدى بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها فقالت الأرض إنى أعوذ بالله منك أن تنقص منى فرجع جبريل ولم يأخذ وقال يارب إنها عاذت بك فبعث ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله فقال وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره فأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بنى آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر كذا اختلفت أخلاقهم فقال الله تعالى لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها لاجرم أخرج أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه خلق الله آدم عليه السلام من تراب وجعله طينا ثم تركه حتى كان حمئا مسنونا ثم خلقه وصوره وتركه حتى كان صلصالا كالفخار ثم نفخ فيه روحه

وفى رواية عنه أن آخر آية فى التوراة آخر سورة هود قال ابن عباس افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وختمه بالحمد فقال تعالى «وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين» وفى قوله الحمد لله تعليم لعباده كيف يحمدونه أى قولوا الحمد لله وقال أهل المعانى لفظه خبر ومعناه الأمر أى احمدوا الله وإنما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر لأنه أبلغ فى البيان من حيث إنه جمع الأمرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الأمرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وقد تقدم معنى الحمد فى تفسير سورة فاتحة الكتاب بما فيه مقنع الذى خلق السموات والأرض أى احمدوا الله خلق السموات والأرض وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد لأن السماء بغير عمد ترونها وفيها العبر والمنافع والأرض مسكن الخلق وفيها أيضا العبر والمنافع (وجعل الظلمات والنور) الجعل هنا بمعنى الخلق أى وخلق الظلمات والنور قال السدى يريد بالظلمات ظلمات الليل والنهار وبالنور نور النهار وقال الحسن يعنى بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان وقيل يعنى بالظلمات الجهل وبالنور العلم وقيل الجنة والنار وقال قتادة خلق الله السموات قبل الأرض وخلق الظلمات قبل النور وخلق الجنة قبل النار روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه ضل» ذكره البغوى بغير سند (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) يعنى والذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يشركون وأصل العدل مساواة الشىء بالشىء والمعنى أنهم يعدلون بالله غير الله ويجعلون له عديلا من خلقه فيعبدون الحجارة مع إقرارهم بأن الله خالق السموات والأرض وقال النضر بن شميل الباء فى قوله بربهم بمعنى عن أى عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشىء وقيل دخول ثم فى قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو أنه تعالى دل به على إنكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك: أن تقول لرجل أكرمتك وأحسنت إليك وأنت تنكرنى وتجحد إحسانى إليك فتقول ذلك منكرا عليه ومتعجبا من فعله قوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين) يعنى أنه تعالى خلق آدم من طين وإنما خاطب ذريته بذلك لأنه أصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا من يحيى العظام وهى رميم أعلمهم بهذه الآية أنه خلقهم من طين وهو القادر على إعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت

قال السدى لما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بقبضة منها فقالت الأرض إنى أعوذ بالله منك أن تقبض منى فراجع ولم يأخذ منها شيئا فقال يارب عاذت بك فبعث الله ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره وأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء؛ فلذا اختلفت ألوان بنى آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم قال الله لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها لاجرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك عن أبى موسى الأشعرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود» وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب أخرجه أبو داود والترمذى وأما قوله تعالى (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) فاختلف العلماء فى معنى ذلك فقال الحسن وقتادة والضحاك الأجل الأول من وقت الولادة إلى وقت الموت والأجل الثانى من وقت الموت إلى البعث وهو البرزخ ويروى نحو ذلك عن ابن عباس قال لكل أحد أجلان : أجل إلى الموت وأجل من الموت إلى البعث فان كان الرجل برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر وإن كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله «وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب» وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الأجل الأول أجل الدنيا والأجل الثانى أجل الآخرة وقيل الأجل هو الوقت المقدر فأجل كل إنسان مقدر معلوم عند الله لايزيد ولا ينقص. والأجل الثانى هو أجل القيامة وهو أيضا معلوم مقدر عند الله لايعلمه إلا الله تعالى وقال ابن عباس فى رواية عطاء عنه ثم قضى أجلا يعنى النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند الانتباه وأجل مسمى عنده هو أجل الموت وقيل هما واحد ومعناه ثم قضى أجلا يعنى قدر مدة لأعماركم تنتهون إليها وهو أجل مسمى عنده يعنى أن ذلك الأجل عنده لايعلمه إلا هو والمراد بقوله عنده يعنى فى اللوح المحفوظ الذى لايطلع عليه غيره (ثم أنتم تمترون) يعنى ثم أنتم تشكون فى البعث . قوله عز وجل (وهو الله فى السموات وفى الأرض) يعنى وهو إله السموات وإله الأرض وقيل معناه وهو المعبود فى السموات وفى الأرض وقال محمد بن جرير الطبرى معناه وهو الله فى السموات (يعلم سركم وجهركم) فى الأرض وقال الزجاج فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض وقيل معناه وهو المنفرد بالتدبير فى السموات وفى الأرض لاشريك له فيهما والمراد بالسر مايخفيه الإنسان فى ضميره فهو من أعمال القلوب وبالجهر مايظهره الإنسان فهو من أعمال الجوارح والمعنى أن الله لايخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض (ويعلم ماتكسبون) يعنى من خير أو شر بقى فى الآية سؤال وهو أن الكسب إما أن يكون من أعمال القلوب وهو المسمى بالسر أو من أعمال الجوارح وهو المسمى بالجهر فالأفعال لاتخرج عن هذين النوعين يعنى السر والجهر فقوله ويعلم ماتكسبون يقتضى عطف الشىء على نفسه وذلك غير جائز فما معنى ذلك وأجيب عنه بأنه يجب حمل قوله ويعلم ماتكسبون على مايستحقه الإنسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب والحاصل فيه أنه محمول على المكتسب فهو كما يقال هذا المال

قوله عز وجل (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) قال الحسن وقتادة والضحاك الأجل الأول من الولادة إلى الموت والأجل الثانى من الموت إلى البعث وهو البرزخ وروى ذلك عن ابن عباس وقال لكل أحد أجلان أجل من الولادة إلى الموت وأجل من الموت إلى البعث فان كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وإن كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وقال مجاهد وسعيد ابن جبير الأجل الأول أجل الدنيا والأجل الثانى أجل الآخرة وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ثم قضى أجلا يعنى النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند اليقظة وأجل مسمى عنده هو أجل الموت وقيل هما واحد معناه ثم قضى أجلا يعنى جعل لأعماركم مدة تنتهون إليها وأجل مسمى عنده يعنى وهو أجل مسمى عنده لا يعلمه غيره (ثم أنتم تمترون) تشكون فى البعث قوله عز وجل (وهو الله فى السموات وفى الأرض) يعنى وهو إله السموات والأرض كقوله «وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله» وقيل هو المعبود فى السموات وقال محمد بن جرير معناه «وهو الله فى السموات يعلم سركم وجهركم فى الأرض» وقال الزجاج فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله (يعلم سركم وجهركم) فى السموات والأرض (ويعلم ماتكسبون) (تعملون من الخير والشر

كسب

(وما تأتيهم) يعنى أهل مكة (من آية من آيات ربهم) مثل انشقاق القمر وغيره وقال عطاء يريد من آيات القرآن (إلا كانوا عنها معرضين) لها تاركين وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق) بالقرآن وقيل بمحمد ﷺ (لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون) أى إخبار استهزائهم وجزاؤه أى سيعلمون عاقبة استهزائهم إذا عذبوا وقوله عز وجل ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن) يعنى الأمم الماضية والقرن الجماعة من الناس وجمعه قرون وقيل القرن مدة من الزمان يقال ثمانون سنة وقيل ستون سنة وقيل أربعون سنة وقيل ثلاثون سنة ويقال مائة سنة لما روى أن النبى ﷺ قال لعبد الله بن بشر المازنى إنك تعيش قرنا فعاش مائة سنة فيكون معناه على هذه الأقاويل من أهل قرن (مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم) أى أعطيناهم مالم نعطكم وقال ابن عباس أمهلناهم فى العمر مثل قوم نوح وعاد وثمود يقال مكنته ومكنت له (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) يعنى المطر مفعال من الدر قال ابن عباس مدرارا أى متتابعا فى أوقات الحاجات وقوله مالم نمكن لكم من خطاب التلوين رجع من الخبر من قوله ألم يروا إلى الخطاب كقوله حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم وقال أهل البصرة أخبر عنهم بقوله ألم يروا وبهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم خاطبهم معهم والعرب تقول قلت لعبد الله ما أكرمه وقلت لعبد الله ما أكرمك (وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا) خلقنا وابتدأنا (من بعدهم قرنا آخرين) قوله عز وجل (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس) الآية قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحارث وعبد الله ابن أبى أمية ونوفل بن خويلد قالوا يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه

كسب فلان أى مكتسبه ولا يجوز حمله على نفس الكسب وإلا لزم عطف الشىء على نفسه ذكره الإمام فخر الدين (وما تأتيهم) يعنى أهل مكة (من آية من آيات ربهم) يعنى من المعجزات الباهرات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك وقيل المراد بالآيات آيات القرآن (إلا كانوا عنها معرضين) يعنى إلا كانوا لها تاركين وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق) يعنى بآيات القرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أتى به من المعجزات (لما جاءهم) يعنى لما جاءهم الحق من عند ربهم كذبوا به (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون) يعنى فسوف يأتيهم أخبار استهزائهم إذا عذبوا فى الآخرة . قوله تعالى (ألم يروا) الخطاب لكفار مكة يعنى ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتى (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) يعنى مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم الماضية والقرون الخالية والقرن الأمة من الناس وأهل كل زمان قرن سموا بذلك لاقترانهم فى الوجود فى ذلك الزمان وقيل سمى قرنا لأنه زمان بزمان وأمة بأمة واختلفوا فى مقدار القرن فقيل ثمانون سنة وقيل ستون سنة وقيل أربعون سنة وقيل مائة وعشرون وقيل مائة سنة وهو الأصح لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله ابن بشر المازنى إنك تعيش قرنا فعاش مائة سنة فعلى هذا القول المراد بالقرن أهله الذين وجدوا فيه ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يعنى أصحابى وتابعيهم وتابعى التابعين (مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم) يعنى أعطيناهم مالم نعطكم ياأهل مكة وقيل أمددناهم فى العمر والبسطة فى الأجسام والسعة فى الأرزاق مثل إعطاء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) مفعال من الدر يعنى وأرسلنا المطر متتابعا فى أوقات الحاجة إليه والمراد بالسماء المطر سمى بذلك لنزوله منها (وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم) يعنى وفجرنا لهم العيون تجرى من تحتهم والمراد منه كثرة البساتين (فأهلكناهم بذنوبهم) يعنى بسبب ذنوبهم وكفرهم (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) يعنى وخلقنا من بعد هلاك أولئك أهل قرن آخرين وفى هذه الآية مايوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عددا وعددا وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة . قوله عز وجل (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس) الآية قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحارث وعبد الله بن أمية ونوفل ابن خويلد قالوا يامحمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وإنك رسوله فأنزل الله تعالى هذه الآية «ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس» يعنى من عندى يعنى مكتوبا فى قرطاس وهو الكاغد والصحيفة التى يكتب فيها

أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله عز وجل «ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس مكتوبا من عنده» (فلمسوه بأيديهم) أى عاينوه ومسوه بأيديهم وذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لأن اللمس أبلغ فى إيقاع العلم من المعاينة فان السحر يجرى على المرئى ولا يجرى على الملموس (لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) معناه أنه لاينفع معهم شىء لما سبق فيهم من علمى (وقالوا لولا أنزل عليه) على محمد صلى الله عليه وسلم (ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) أى لوجب العذاب وفرغ من الأمر وهذا سنة الله فى الكفار أنهم متى اقترحوا آية فأنزلت (١٢٠) ثم لم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب (ثم لاينظرون) أى لايؤجلون ولا يمهلون . وقال قتادة لو أنزلنا ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب ولم يؤخروا طرفة عين وقال مجاهد لقضى الأمر أى لقامت القيامة وقال الضحاك لو أتاهم ملك فى صورته لماتوا (ولو جعلناه ملكا) يعنى لو أرسلنا إليهم ملكا (لجعلناه رجلا) يعنى فى صورة رجل آدمى لأنهم لايستطيعون النظر إلى الملائكة وكان جبريل عليه السلام يأتى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية الكلبى وجاء الملكان إلى داود فى صورة رجلين قوله عز وجل (وللبسنا عليهم مايلبسون) أى خلطنا عليهم مايخلطون وشبهنا عليهم فلايدرون أملك هو أو آدمى وقيل معناه شبهوا على ضعفائهم فشبه عليهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال هم أهل الكتاب فرقوا دينهم وحرفوا الكلم عن مواضعه فلبس الله عليهم مالبسوا على أنفسهم وقرأ الزهرى للبسنا بالتشديد على التكرير والتأكيد (ولقد استهزئ الثانى برسل من قبلك) كما استهزئ بك يا محمد فعزى نبيه صلى الله عليه وسلم (فحاق) قال الربيع بن أنس فنزل وقال عطاء حل وقال الضحاك أحاط (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) أى جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة (قل) يا محمد لهؤلاء المكذبين المستهزئين (سيروا فى الأرض) معتبرين يحتمل هذا السير بالعقول والفكر ويحتمل السير بالأقدام (ثم انظروا

(فلمسوه بأيديهم) يعنى فعاينوه ومسوه بأيديهم وإنما ذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لأنه أبلغ فى إيقاع العلم بالشىء من الرؤية لأن المرئيات قد يدخلها التخيلات كالسحر ونحوه بخلاف الممسوس (لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) يعنى لو أنزلنا عليهم كتابا كما سألوه لما آمنوا به ولقالوا هذا سحر مبين كما قالوا فى انشقاق القمر وأنه لاينفع معهم شىء لما سبق فيهم من علمى بهم (وقالوا) يعنى مشركى مكة (لولا) يعنى هلا (أنزل عليه) يعنى على محمد (ملك) يعنى نراه عيانا (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) يعنى لفرغ الأمر ولوجب العذاب وهذه سنة الله فى الكفار أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به (ثم لاينظرون) يعنى أنهم لايمهلون ولايؤخرون طرفة عين بل يعجل لهم العذاب (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يعنى ولو أرسلنا إليهم ملكا لجعلناه فى صورة رجل وذلك أن البشر لايستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة فى صورهم التى خلقوا عليها ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ولذلك كانت الملائكة تأتى الأنبياء فى صورة الأنس كما جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية الكلبى وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام فى صورة رجلين وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ولما رأى النبى ﷺ جبريل فى صورته التى خلق عليها صعق لذلك وغشى عليه . وقوله تعالى (وللبسنا عليهم مايلبسون) يقال لبست الأمر على القوم إذا أشبهته عليهم وجعلته مشكلا ولبست عليه الأمر إذا خلطته عليه حتى لايعرف جهته ومعنى الآية وخالطنا عليهم مايخلطون على أنفسهم حتى يشكوا فلايدروا أملك هو أم آدمى وقيل فى معنى الآية إنا لو جعلنا الملك فى صورة البشر لظنوه بشرا فتعود المسألة بحالها أنا لانرضى برسالة البشر ولو فعل الله عز وجل ذلك صار فعل الله مثل فعلهم فى التلبيس وإنما كان تلبيسا لأنهم يظنون أنه ملك وليس بملك أو يظنون أنه بشر وليس هو بشرا وإنما كان فعلهم تلبيسا لأنهم لبسوا على ضعفتهم فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا إنما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل مالحق بضعفائهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط فى السؤال واللبس على الضعفاء . قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) يعنى كما استهزئ بك يا محمد وفى هذه الآية تعزية للنبى صلى الله عليه وسلم وتسلية له عما كان من تكذيب المشركين إياه واستهزائهم به إذ جعل له أسوة فى ذلك بالأنبياء الذين كانوا قبله (فحاق) أى فنزل وقيل أحاط وقيل حل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) والمعنى فنزل العذاب بهم ووجب عليهم من النقمة والعذاب جزاء استهزائهم أو فى هذه الآية تحذير للمشركين أن يفعلوا بنبيهم كما فعل من كان قبلهم بأنبيائهم فينزل بهم مثل ما نزل بهم (قل سيروا فى الأرض) أى قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سيروا فى الأرض معتبرين ومتفكرين وقيل هو سير الأقدام (ثم انظروا) فعلى القول الأول يكون النظر نظرة فكرة وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر وعلى القول

كيف كان عاقبة المكذبين) أى جزاء أمرهم وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك يحذر كفار مكة عذاب الأمم الخالية قوله عز وجل (قل لمن مافى السموات والأرض) فان أجابوك وإلا فـ(قل) أنت (لله) أمره بالجواب عقيب السؤال ليكون أبلغ فى التأثير وآكد فى الحجة (كتب) أى قضى (على نفسه الرحمة) هذا استعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بالعباد لايعجل بالعقوبة ويقبل الإنابة والتوبة أخبرنا أبو على حسان بن سعيد المنيعى أخبرنا أبو طاهر

الزيادى أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه قال ثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما قضى الله الخلق كتب كتابا فهو عند الله فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى» وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم «إن رحمتى سبقت غضبى» أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله ابن على الكركانى أنا أبو طاهر الزنادى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا عبد الرحمن المروزى أخبرنا عبد الله بن المبارك أنا عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم

الثانى يكون المراد بالنظر نظر العين والمعنى ثم انظروا بأعينكم إلى آثار الأمم الخالية والقرون الماضية السالفة وهو قوله تعالى (كيف كان عاقبة المكذبين) يعنى كيف كان جزاء المكذبين وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك فحذر كفار مكة عذاب الأمم الخالية. قوله عز وجل (قل لمن مافى السموات والأرض قل لله) هذا سؤال وجواب والمعنى قل يامحمد لهؤلاء المكذبين العادلين بربهم لمن ملك مافى السموات والأرض فان أجابوك وإلا فأخبرهم أن ذلك لله الذى قهر كل شىء وملك كل شىء واستعبد كل شىء لا للأصنام التى تعبدونها أنتم فانها موات لاتملك شيئا ولا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا وإنما أمره بالجواب عقب السؤال ليكون أبلغ فى التأكيد وآكد فى الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه فى سائر مخلوقاته أردفه بكمال رحمته وإحسانه إليهم فقال تعالى (كتب على نفسه الرحمة) يعنى أنه تعالى أوجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتولين عنه الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بعباده وأنه لايعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة والإنابة ممن تاب وأناب (ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى» وفى البخارى «أن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق إن رحمتى سبقت غضبى فهو مكتوب عنده فوق العرش» وفى رواية لهما أن الله لما خلق الخلق، وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده، زاد البخارى على العرش ثم اتفقا إن رحمتى تغلب غضبى» (ق) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» زاد البخارى فى رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب ولمسلم إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (م) عن سلمان الفارسى قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق مابين السماء والأرض فجعل منها فى الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة» (ق) عن عمر قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبى فاذا امرأة من السبى تبتغى إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قلنا لا والله وهى تقدر أن تطرحه فقال صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من

 والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا ابن أبى مريم ثنا أبو غسان حدثنى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم قال قدم على النبى صلى الله عليه وسلم سبى فاذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسعى إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبى ﷺ أترون هذه طارحة ولدها فى النار فقلنا لا وهى تقدر على أن لاتطرحه فقال لله أرحم بعباده من هذه بولدها

قوله عز وجل (ليجمعنكم) اللام فيه لام القسم والنون نون التأكيد مجازه والله ليجمعنكم (إلى يوم القيامة) أى فى يوم القيامة وقيل معناه ليجمعنكم فى قبوركم إلى يوم القيامة (لاريب فيه الذين خسروا) غبنوا (أنفسهم فهم لايؤمنون وله ماسكن فى الليل والنهار) أى استقر قيل أراد ماسكن وما تحرك كقوله سرابيل تقيكم الحر أى الحر والبرد وقيل إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر وقال محمد بن جرير كل ماطلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار والمراد منه جميع مافى الأرض وقيل معناه وله مايمر عليه الليل والنهار (وهو السميع) لأصواتهم (العليم) بأسرارهم قوله تعالى (قل أغير الله أتخذ وليا) وهذا حين دعى إلى دين آبائه فقال تعالى قل يا محمد أغير الله أتخذ وليا ربا ومعبودا وناصرا ومعينا (فاطر السموات والأرض) أى خالقهما ومبدعهما ومبتدئهما (وهو يطعم ولا يطعم) أى وهو يرزق ولا يرزق كما قال «ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون» (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) يعنى من هذه الأمة والإسلام بمعنى الاستسلام لأمر الله وقيل أسلم أخلص (ولا تكونن) يعنى وقيل لى ولا تكونن (من المشركين قل إنى أخاف إن عصيت ربى) فعبدت غيره (عذاب يوم عظيم) يعنى عذاب يوم القيامة (من يصرف عنه) يعنى من يصرف العذاب عنه قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر يعنى عن عاصم ويعقوب يصرف بفتح الياء وكسر الراء أى من يصرف الله عنه العذاب فقد رحمه وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء (يومئذ) يعنى يوم القيامة (فقد رحمه وذلك الفوز المبين) أى النجاة البينة قوله عز وجل (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف) لارافع له (إلا هو وإن يمسسك بخير) عافية ونعمة (فهو على كل شىء قدير) من الخير والضر أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو عبد الله السلمى

هذه المرأة بولدها . وقوله تعالى (ليجمعنكم) اللام فى قوله ليجمعنكم لام القسم تقديره والله ليجمعنكم (إلى يوم القيامة) يعنى فى يوم القيامة وقيل معناه فى قبوركم إلى يوم القيامة (لاريب فيه) أى لاشك فيه أنه آت (الذين خسروا أنفسهم) يعنى بالشرك بالله أو غبنوا أنفسهم باتخاذهم الأصنام فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه فكانوا كمن خسر شيئا وأصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل إذا غبن فى بيعه (فهم لايؤمنون) يعنى لما سبق عليهم القضاء بالخسران فهو الذى حملهم على الامتناع عن الإيمان . قوله تعالى (وله ماسكن فى الليل والنهار) يعنى وله مااستقر وقيل ماسكن وما تحرك فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر وقال ابن جرير كل ماطلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار فيكون المراد منه جميع ماحصل فى الأرض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما فى البر والبحر وهذا يفيد الحصر والمعنى أن جميع الموجودات ملك لله تعالى لالغيره (وهو السميع) لأقوالهم وأصواتهم (العليم) بسرائرهم وأحوالهم . قوله عز وجل (قل أغير الله أتخذ وليا) قال مقاتل لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دين آبائه أنزل الله هذه الآية فقال كلهم يامحمد أغير الله اتخذ وليا يعنى ربا ومعبودا وناصرا ومعينا وهو استفهام ومعناه الإنكار أى لاأتخذ غير الله وليا (فاطر السموات والأرض) أى خالق السموات والأرض ومبدعهما ومبدئهما (وهو يطعم ولايطعم) يعنى وهو يرزق ولايرزق وصف الله عز وجل نفسه بالغنى عن الخلق وباحتياج الخلق إليه لأن من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم إليه وهو لايطعم لاستغنائه سبحانه وتعالى عن الإطعام فهو غنى عن الخلق ومن كان كذلك وجب أن يتخذ رباً وناصراً ووليا ومعبوداً (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) يعنى من هذه الأمة والإسلام بمعنى الاستسلام يعنى أمرت أن استسلم لأمر الله وأنقاد إلى طاعته (ولا تكونن من المشركين) يعنى وقيل لى يامحمد لاتكونن من المشركين (قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) يعنى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى عبادة غيرى إن ربى أمرنى أن أكون أول من أسلم ونهانى عن عبادة شىء سواه وإنى أخاف إن عصيت ربى فعبدت شيئا سواه عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة (من يصرف عنه) يعنى العذاب (يومئذ) يعنى يوم القيامة (فقد رحمه) يعنى بأن أنجاه من العذاب ومن أنجاه من العذاب فقد رحمه وأناله الثواب لامحالة وإنما ذكر الرحمة من صرف العذاب لئلا يتوهم أنه صرف العذاب فقط بل تحصل الرحمة مع صرف العذاب عنه (وذلك الفوز المبين) يعنى أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين . قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر) يعنى بشدة وبلية والضر اسم جامع لما ينال الإنسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو فى معناه (فلا كاشف له إلا هو) يعنى فلا يدفع ذلك الضر إلا الله عز وجل (وإن يمسسك بخير) يعنى بعافية ونعمة والخير اسم جامع لكل ما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك (فهو على كل شىء قدير)

يعنى من دفع الضر وجلب الخير وهذه الآية خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى لاتتخذ وليا سوى الله لأنه هو القادر على أن يمسك بضر وهو القادر على دفعه عنك وهو القادر على إيصال الخير إليك وأنه لايقدر على ذلك إلا هو فاتخذه وليا وناصرا ومعينا وهذا الخطاب وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم فهو عام لكل أحد والمعنى وإن يمسسك الله بضر أيها الإنسان فلا كاشف لذلك الضر إلا هو وإن يمسسك بخير أيها الإنسان فهو على كل شيء قدير من دفع الضر وإيصال الخير عن ابن عباس قال «كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقيل لى ياغلام إنى أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» أخرجه الترمذى زاد فيه رزين تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة وفيه «وإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان الصبر على ماتكره خير كثير واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين» قال ابن الأثير وقد جاء نحو هذا أو مثله بطوله فى مسند أحمد بن حنبل. قوله عز وجل (وهو القاهر فوق عباده) يعنى وهو الغالب لعباده القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته والقاهر والقهار معناه الذى يدبر خلقه بما يريد فيقع فى ذلك مايشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه فلا يستطيع أحد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وهذا معنى القاهر فى صفة الله تعالى لأنه القادر والقاهر الذى لايعجزه شيء أراده ومعنى فوق عباده هنا أن قهره قد استعلى على خلقه فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذى لايقدر أحد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيئا فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة وقال ابن جرير الطبرى معنى القاهر المتعبد خلقه العالى عليهم وإنما قال فوق عباده لأنه تعالى وصف نفسه بقهره إياهم ومن صفة كل قاهر شيئا أن يكون مستعليا عليه فمعنى الكلام إذا والله الغالب عباده المذلل لهم العالى عليهم بتذليله إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه وقيل فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذى تفرد به الله عز وجل (وهو الحكيم) يعنى فى أمره وتدبير عباده (الخبير) يعنى بأعمالهم وما يصلحهم. قوله عز وجل (قل أى شيء أكبر شهادة) قال الكلبى أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد أرنا من يشهد أنك رسول الله فانا لانرى أحدا يصدقك ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر فأنزل الله عز وجل قل يعنى يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك أى شيء أكبر شهادة يعنى أعظم شهادة فان هم أجابوك وإلا (قل) أنت يامحمد (الله شهيد بينى وبينكم) قال مجاهد أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشا أى شيء أكبر شهادة ثم أمره أن يخبرهم فيقول الله شهيد بينى وبينكم يعنى يشهد لى بالحق وعليكم بالباطل الذى تقولونه والحاصل أنهم طلبوا شاهدا مقبول القول يشهد له بالنبوة فبين الله تعالى

أ أبو العباس الأصم أنا أحمد بن شيبان الرملى أنا عبد الله بن ميمون القداح أنا شهاب بن خراش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس قال «أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفنى خلفه ثم سار بى مليا ثم التفت إلى فقال ياغلام فقلت لبيك يارسول الله قال احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله تعالى لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله تعالى عليك ماقدروا عليه فان استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ماتكره خيرا كثيرا وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرا» (وهو القاهر فوق عباده) القاهر الغالب وفى القهر زيادة معنى على القدرة وهو منع غيره عن بلوغ المراد: وقيل هو المنفرد بالتدبير يجبر الخلق على مراده فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذى تفرد به الله عز وجل (وهو الحكيم) فى أمره (الخبير) بأعمال عباده

قوله عز وجل (قل أى شيء أكبر شهادة) الآية قال الكلبى أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أرنا من يشهد أنك رسول الله فانا لانرى أحدا يصدقك ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس عندهم ذكر فأنزل الله تعالى قل أى شيء أكبر أعظم شهادة فان أجابوك وإلا (قل الله شهيد بينى وبينكم) على ما أقول ويشهد لى بالحق وعليكم بالباطل

(وأُحى إلى هذا القرآن لأنذركم به) لأخوفكم به يا أهل مكة (ومن بلغ) ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن زياد الحنفى أنا محمد بن بشر بن محمد المزنى أنا أبو بكر محمد بن الحسين بن بشر النباش أنا أبو شعيب الحرانى أنا يحيى بن عبدالله بن الضحاك البابلى أنا الأوزاعى حدثنى حسان بن عطية عن أبى كبشة السلولى عن عبد الله ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» أخبرنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك ابن عمير عن عبدالرحمن ابن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «نضر الله عبداً سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم أبدا إخلاص العمل لله والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» قال مقاتل من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له وقال محمد ابن كعب القرظى من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا صلى الله عليه وسلم وسمع منه (أئنكم لتشهدون إن مع الله آلهة أخرى) ولم يقل آخر لأن الجمع يلحقه التأنيث كقوله عز وجل «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» وقال «فما بال القرون الأولى» (قل) يا محمد إن شهدتم أنتم (لا أشهد) أنا إن معه إلها (قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون)

بهذه الآية أن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى ثم بين أنه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به) يعنى أن الله عز وجل يشهد لى بالنبوة لأنه أوحى إلى هذا القرآن وهو معجزة لأنكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته فكان معجزا وإذا كان معجزا كان نزوله على شهادة من الله بأنى رسوله وهو المراد بقوله لأنذركم به يعنى أوحى إلى هذا القرآن لأخوفكم به وأحذركم مخالفة أمر الله عز وجل (ومن بلغ) يعنى وأنذر من بلغه القرآن ممن يأتى بعدى إلى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الأمم فكل من بلغ إليه القرآن وسمعه فالنبى صلى الله عليه وسلم نذير له قال محمد ابن كعب القرظى من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم وكلمه وقال أنس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

(شرح مايتعلق بهذا الحديث)

فيه الأمر بإبلاغ ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم إلى من بعده من قرآن وسنة وقوله وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج الحرج الضيق والإثم ومعنى الحديث أنه مهما قلتم عن بنى إسرائيل فإنهم كانوا فى حال أكثر مما قلتم وأوسع وليس هذا فيه إباحة الكذب والإخبار عن بنى إسرائيل لكن معناه الرخصة فى الحديث عنهم على بعض البلاغ وإن لم يتحقق ذلك بنقل لأنه أمر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع» أخرجه الترمذى وله عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه» عن ابن عباس قال «تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم» أخرجه أبو داود موقوفا. وقوله تعالى (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيرى إنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى يعنى الأصنام التى كانوا يعبدونها وإنما قال أخرى لأن الجمع يلحقه التأنيث كما قال تعالى «ولله الأسماء الحسنى فما بال القرون الأولى» ولم يقل الأول ولا الأولين (قل لا أشهد) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون به أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره (قل إنما هو إله واحد) يعنى قل لهم إنما الله إله واحد ومعبود واحد لاشريك له وبذلك أشهد (وإننى برىء مما تشركون) يعنى وأنا برىء من كل شىء تعبدونه سوى الله وفى هذه الآية دليل على إثبات التوحيد لله عز وجل وإبطال كل معبود سواه لأن كلمة إنما تفيد الحصر ولفظة

الواحد صريح فى التوحيد ونفى الشريك فثبت بذلك إيجاب التوحيد وسلب كل شريك والتبرء من كل معبود سوى الله تعالى قال العلماء يستحب لكل من أسلم أن يأتى بالشهادتين ويبرأ من كل دين خالف الإسلام لقوله تعالى «وإننى برىء مما تشركون» . قوله عز وجل (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) المراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن كفار مكة لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم إنا سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر وأنكروا معرفته بين الله عز وجل أن شهادته له كافية على صحة نبوته وبين فى هذه الآية أنهم يعرفونه وأنهم كذبوا فى قولهم إنهم لا يعرفونه وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله ابن سلام قال له عمر بن الخطاب إن الله عز وجل أنزل على نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمكة «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم منى بابنى فقال عمر وكيف ذاك؟ قال أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدرى ما يصنع النساء . وقوله تعالى (الذين خسروا أنفسهم) يعنى أهلكوا أنفسهم وغبنوها وأوبقوها فى نار جهنم بإنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى الذين خسروا أنفسهم قولان: أحدهما أنه صفة الذين الأولى ويكون المقصود من ذلك وعيد المعاندين الذين يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم ويجحدون نبوته وهم كفار أهل الكتابين (فهم لا يؤمنون) يعنى به . والقول الثانى إنه كلام مبتدأ ولا تعلق له بالأول وهم كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا فى معنى الخسار وجهين: أحدهما أنه الهلاك الدائم الذى حصل لهم بسبب كفرهم وإنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . والوجه الثانى أنه جعل لكل واحد من بنى آدم منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التى فى الجنة وجعل للكفار منازل المؤمنين التى فى النار فذلك هو الخسران . قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى ومن أشد عنادا وأخطأ فعلا وأعظم كفرا ممن اختلق على الله كذبا فزعم أن له شريكا من خلقه وإلها يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأصنام أو ادعى أن له صاحبة وولدا كما قالت النصارى (أو كذب بآياته) يعنى كذب بحجته وأعلام أدلته التى أعطاها رسله كما كذبت اليهود بمعجزات الأنبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم (أنه لا يفلح الظالمون) يعنى أنه لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل (ويوم نحشرهم جميعا) أى اذكر يوم نحشر العابدين والمعبودين وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) يعنى أنها تشفع لكم عند ربكم . قوله عز وجل (ثم لم تكن فتنتهم) يعنى قولهم وجوابهم وقال ابن عباس معذرتهم والفتنة التجربة ، فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار ما فى قلوبهم قيل له فتنة قال الزجاج فى قوله ثم لم تكن فتنتهم معنى لطيف وذلك أن الرجل يفتتن بمحبوب ثم تصيبه فيه محنة فيبرأ من محبوبه فيقال لم تكن فتنته إلا بذلك المحبوب فكذلك الكفار فتنوا بمحبة الأصنام ثم لما رأوا العذاب تبرءوا منها يقول الله تبارك وتعالى ثم لم تكن فتنتهم ومحبتهم للأصنام إلا أن تبرءوا منها

قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب والتوراة والإنجيل) يعنى (يعرفونه) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته (كما يعرفون أبناءهم) من بين الصبيان (الذين خسروا) غبنوا (أنفسهم فهم لا يؤمنون) وذلك أن الله جعل لكل آدمى منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار فى الجنة ولأهل النار منازل أهل الجنة فى النار وذلك الخسران قوله تعالى (ومن أظلم) أكفر (ممن افترى) اختلق (على الله كذبا) فأشرك به غيره (أو كذب بآياته) يعنى القرآن (إنه لا يفلح الظالمون) الكافرون (ويوم نحشرهم جميعا) أى العابدين والمعبودين يعنى يوم القيامة قرأ يعقوب يحشرهم هنا وفى سبأ بالياء ووافق حفص فى سبأ وقرأ الآخرون بالنون (ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) إنها تشفع لكم عند ربكم (ثم لم تكن فتنتهم) قرأ حمزة والكسائى ويعقوب يكن بالياء لأن الفتنة بمعنى الافتتان فجاز تذكيره وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الفتنة ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم فتنتهم بالرفع جعلوه اسم كان وقرأ الآخرون بالنصب فجعلوا الاسم قوله إن قالوا وفتنتهم الخبر ومعنى

فتنتهم أى قولهم وجوابهم وقال ابن عباس وقتادة معذرتهم والفتنة التجربة فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار مافى قلوبهم قيل له فتنة وقال الزجاج فى قوله ثم لم تكن فتنتهم معنى لطيف، وذلك مثل الرجل يفتن بمحبوب ثم يصيبه فيه محنة فيتبرأ من محبوبه فيقال لم تكن فتنتهم إلا هذا كذلك الكفار فتنوا بمحبة الأصنام ولما رأوا العذاب تبرءوا منها يقول الله عز وجل ثم لم تكن فتنتهم ومحبتهم للأصنام (إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين) قرأ حمزة والكسائى ربنا بالنصب على نداء المضاف وقرأ الآخرون بالخفض على نعت والله وقيل إنهم إذا رأوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى وتجاوزه عن أهل التوحيد قالوا بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجوا مع أهل التوحيد فيقولون والله ربنا ماكنا مشركين فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالكفر فقال عز وجل (أنظر كيف كذبوا على أنفسهم) باعتذارهم بالباطل وتبريهم عن الشرك (وضل عنهم ماكانوا يفترون) أى زال وذهب عنهم ماكانوا يفترون من الأصنام وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها فبطل كله فى ذلك اليوم قوله عز وجل (ومنهم من يستمع إليك) الآية قال الكلبى اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة إبنا ربيعة وأمية وأبى إبنا خلف والحارث ابن عامر يستمعون القرآن فقالوا للنضر ياأبا قبيلة مايقول محمد؟ قال ماأدرى مايقول إلا أنى أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ماكنت أحدثكم فعلى عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها فقال أبو سفيان إنى أرى بعض مايقول حقا فقال أبو جهل كلا لاتقر بشيء من هذا، وفى رواية الموت أهون علينا من هذا فأنزل الله عز وجل ومنهم من يستمع إليك وإلى كلامك (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية جمع كنان كالأعنة جمع عنان (أن يفقهوه) أن يعلموه قيل معناه أن لايفقهوه وقيل كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) صمما وثقلا وهذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى ويجعل بعضها فى أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن (وإن يروا كل آية) من المعجزات والدلالات (لايؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) يعنى أحاديثهم وأقاصيصهم والأساطير جمع أسطورة وإسطارة، وقيل الأساطير

وهو قوله تعالى (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وذلك إذا شاهدوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى لأهل التوحيد فيقول بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجوا مع أهل التوحيد فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (أنظر كيف كذبوا على أنفسهم) يعنى انظر يامحمد بعين البصيرة والتأمل إلى حال هؤلاء المشركين كيف كذبوا على أنفسهم يعنى اعتذارهم بالباطل وتبرؤهم من الأصنام والشرك الذى كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه فى دار الدنيا وذلك لاينفعهم وهو قوله (وضل عنهم) يعنى زال عنهم وذهب (ما كانوا يفترون) يعنى ما كانوا يكذبون وهو قولهم إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله فى ذلك اليوم. قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك) الآية قال الكلبى اجتمع أبو سفيان صخر بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد ابن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبى ابنا خلف والحارث ابن عامر يستمعون القرآن فقالوا للنضر ياأبا قتيبة مايقول محمد؟ قال ماأدرى مايقول إلا أنى أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها فقال أبو سفيان إنى لأرى بعض مايقول حقا فقال أبو جهل كلا لاتقر بشيء من هذا وفى رواية للموت أهون علينا من هذا فأنزل الله تعالى «ومنهم من يستمع إليك» يعنى إلى كلامك وقراءتك يامحمد (وجعلنا على قلوبهم أكنة) يعنى أغطية جمع كنان (أن يفقهوه) يعنى لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) يعنى وجعلنا فى آذانهم صمما وثقلا وفى هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى والإيمان فتقبله ويجعل بعضها فى أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به (وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها) يعنى كل معجزة من المعجزات الدالة على صدقك لايؤمنوا بها يعنى لايصدقوا بها ولا يقروا إنها دالة على صدقك (حتى إذا جاءوك يجادلونك) يعنى أنهم إذ رأوا الآيات واستمعوا القرآن إنما جاءوا ليجادلوك ويخاصموك لالإؤمنوا بها (يقول الذين كفروا إن هذا) أى ما هذا القرآن (إلا أساطير الأولين) يعنى أحاديث الأولين من الأمم الماضية وأخبارهم وأقاصيصهم وما سطروا يعنى وما كتبوا والأساطير جمع أسطورة وأسطارة وقيل واحدها سطر وأسطار جمع وأساطير جمع الجمع

هى الترهات والأباطيل وأصلها من سطرت أى كتبت (وهم ينهون عنه) أى ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ (وينأون عنه) أى يتباعدون عنه بأنفسهم نزلت فى كفار مكة قاله محمد بن الحنفية والسدى والضحاك وقال قتادة ينهون عن القرآن وعن النبى صلى الله عليه وسلم ويتباعدون عنه وقال ابن عباس ومقاتل نزلت فى أبى طالب كان ينهى الناس عن أذى النبى صلى الله عليه وسلم ويمنعهم وينأى عن الإيمان به أى يبعد حتى روى أنه اجتمع إليه رءوس المشركين وقالوا خذ شابا من أصبحنا وجها وادفع إلينا محمدا فقال أبو طالب ما أنصفتمونى أدفع إليكم ولدى لتقتلوه وأربى ولدكم وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإيمان فقال لولا أن تعيرنى قريش لأقررت بها عينك ولكن أذب عنك ماحييت وقال فيه أبيات شعر :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة ... وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتنى وعرفت أنك ناصحى ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد علمت بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أوحذار مسبة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

(وأن يهلكون) أى ما يهلكون (إلا أنفسهم) أى لا يرجع وبال فعلهم إلا إليهم وأوزار الذين يصدونهم عليهم (وما يشعرون) قوله عزوجل (ولو ترى إذ وقفوا على النار) يعنى فى النار كقوله تعالى «على ملك سليمان» أى فى ملك سليمان وقيل عرضوا على النار وجواب لو محذوف ، معناه لو تراهم فى تلك الحالة لرأيت عجبا (فقالوا ياليتنا نرد) يعنى إلى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) قراءة العامة كلها بالرفع على معنى ياليتنا نرد نحن ولانكذب ونكون من المؤمنين وقرأ حمزة وحفص ويعقوب ولانكذب بنصب الباء والنون على جواب التمنى أى ليت ردنا وقع وأن لانكذب ونكون والعرب تنصب جواب التمنى بالواو كما تنصب بالفاء وقرأ ابن عامر نكذب بالرفع ونكون بالنصب لأنهم تمنوا أن يكونوا من المؤمنين وأخبروا

فعلى هذا لو قال قائل لم عابوا القرآن وجعلوه أساطير الأولين وقد سطر الأولون فى كتبهم الحكم والعلوم النافعة وما لايعاب قائله أجيب عنه بأنهم إنما نسبوا القرآن إلى أساطير الأولين بمعنى أنه ليس بوحى من الله تعالى وإنما هو أخبار مجردة كما تروى أخبار الأولين وقيل فى معنى أساطير الأولين إنها الترهات وهى عند العرب طرق غامضة ومسالك وعرة مشكلة يقول قائلهم أخذنا فى الترهات بمعنى عدلنا عن الطريق الواضح إلى الطريق المشكل الذى لايعرف فجعلت الترهات مثلا لما لايعرف ولايتضح من الأمور المشكلة الغامضة التى لاأصل لها . قوله عز وجل (وهم ينهون عنه) يعنى ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم (وينأون عنه) يعنى ويتباعدون عنه بأنفسهم نزلت فى كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن الاجتماع به وينهونهم عن استماع القرآن وكانوا هم كذلك وقال ابن عباس نزلت فى أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى المشركين عن أذى النبى صلى الله عليه وسلم ويمنعه منهم وينأى هو بنفسه عن الإيمان به بمعنى يبعد حتى روى أنه اجتمع إليه رءوس المشركين وقالوا له خذ شابا من أصبحنا وجها وادفع إلينا محمدا فقال ماأنصفتمونى أدفع إليكم ابنى محمدا لتقتلوه وأربى لكم ابنكم وروى أن النبى ﷺ دعا أبا طالب إلى الإيمان فقال لولا أن تعيرنى قريش لأقررت بها عينك ولكن أذب عنك ماحييت وقال فى ذلك أبياتا :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة ... وأبشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وعرفت إنك ناصحى ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد علمت بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وقوله تعالى (وأن يهلكون إلا أنفسهم) يعنى لايرجع وبال كفرهم وفعلهم إلا عليهم (وما يشعرون) يعنى بذلك . قوله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار) يعنى فى النار فوضع على موضع فى كقوله «على ملك سليمان» أى فى ملك سليمان وقيل معناه إذ عرضوا على النار وجواب لو محذوف والمعنى ولو ترى الكفار الذين ينهون عنك وينأون عنك يامحمد فى تلك الحالة لرأيت أمرا عجيبا وموقفا فظيعا (فقالوا) يعنى الكفار (ياليتنا نرد) يعنى إلى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) تمنوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى حتى يؤمنوا ولا يكذبوا بآيات ربهم فرد الله

عن أنفسهم أنهم لايكذبون بآيات ربهم إن ردوا إلى الدنيا (بل بدا لهم) قوله بل تحته رد لقولهم أى ليس الأمر على ماقالوا إنهم لوردوا لآمنوا بل بدا لهم ظهر لهم (ما كانوا يخفون) يسرون (من قبل) فى الدنيا من كفرهم ومعاصيهم وقيل ما كانوا يخفون وهو قولهم والله ربنا ما كنا مشركين فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدت عليهم جوارحهم بما

كتموا وستروا لأنهم كانوا لايخفون كفرهم فى الدنيا إلا أن تجعل الآية فى المنافقين وقال المبرد بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون وقال النضر بن شميل بل بدا لهم بدا عنهم ثم قال (ولو ردوا) إلى الدنيا (لعادوا لما) يعنى إلى ما (نهوا عنه) من الكفر (وإنهم لكاذبون) فى قولهم لو ردوا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) هذا إخبار إنكارهم البعث وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا من قولهم لو ردوا لقالوا قوله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) أى على حكمه وقضائه ومسئلته وقيل عرضوا على ربهم (قال) لهم وقيل تقول لهم الخزنة بأمر الله (أليس هذا بالحق) يعنى أليس هذا البعث والعذاب بالحق (قالوا بلى وربنا) إنه حق قال ابن عباس هذا فى موقف وقولهم والله ربنا ما كنا مشركين فى موقف آخر وفى القيامة مواقف ففى موقف يقرون وفى موقف ينكرون (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله والبعث بعد الموت (حتى إذا جاءتهم الساعة) أى القيامة (بغتة) أى فجأة (قالوا ياحسرتنا) ندامتنا ذكر على وجه النداء للمبالغة قال سيبويه كأنه يقول أيتها الحسرة هذا أوانك (على مافرطنا) أى قصرنا (فيها)

عليهم ذلك فقال تعالى (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) يعنى ليس الأمر كما قالوا لو ردوا إلى الدنيا لآمنوا بل ظهر لهم ما كانوا يسرون فى الدنيا من الكفر والمعاصى وقيل ظهر لهم ما كانوا يخفون من قولهم والله ربنا ما كنا مشركين أخفوا شركهم وكتموه فأظهره الله عليهم حين شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا من شركهم وقيل ظهر لهم ما أخفوا من الكفر فعلى هذا تكون الآية فى المنافقين (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) يعنى فى قولهم لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وهذا خبر عن حال منكرى البعث وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أخبر الكفار عن أحوال القيامة وأهوالها وما أعد الله فى الآخرة من الثواب للمؤمنين المطيعين وما أعد الله من العقاب للكفار والعاصين قالوا يعنى الكفار إن هى أى ما هى إلا حياتنا الدنيا أى ليس لنا غير هذه الدنيا التى نحن فيها وما نحن بمبعوثين يعنى بعد الموت وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا خبر من الله عن هؤلاء الكفار الذين وقفوا على النار أنهم لو ردوا إلى الدنيا لقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . قوله عز وجل (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) يعنى على حكم ربهم وقضائه ومسئلته وقال مقاتل عرضوا على ربهم (قال أليس هذا بالحق) أى يقول الله يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا وتكذبون به وتقولون لا بعث ولا نشور حقا (قالوا بلى وربنا) يعنى أنهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه فأجابوا وقالوا بلى والله إنه لحق وقيل تقول لهم خزنة النار بأمر الله أليس هذا بالحق يعنى البعث حقا فأجابوا بقولهم بلى وربنا قال ابن عباس للقيامة مواقف ففى موقف ينكرون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وفى موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه فى الدنيا (قال فذوقوا العذاب) أى يقول الله لهم ذلك أو الخزنة تقول لهم ذلك بأمر الله تعالى وإنما خص لفظ الذوق لأنهم فى كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق فى شدة الإحساس (بما كنتم تكفرون) يعنى هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت . قوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعنى خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالمصير إلى الله تعالى وبالبعث بعد الموت وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم فى دار النعيم المقيم وحصول العذاب الأليم ، فى دركات الجحيم (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) يعنى جاءتهم القيامة فجأة وسميت القيامة ساعة : لأنها تفجأ الناس بغتة فى ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تبارك وتعالى وقيل سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون فى ساعة أو أقل من ذلك (قالوا) يعنى منكرى البعث وهم كفار قريش ومن سلك سبيلهم فى الكفر والاعتقاد (ياحسرتنا) يعنى ياندامتنا والحسرة التلهف على الشىء الفائت وذكرت على وجه النداء للمبالغة والمراد تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة (على ما فرطنا) يعنى قصرنا (فيها) يعنى فى الدنيا لأنها موضع التفريط فى الأعمال الصالحة والمعنى ياحسرتنا على الأعمال الصالحة التى فرطنا فيها

أى فى الطاعة وقيل تركنا فى الدنيا من عمل الآخرة وقال محمد بن جرير الهاء راجعة إلى الصفقة وذلك أنه لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الآخرة بالدنيا قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها أى فى الصفقة فترك ذكر الصفقة اكتفاء بذكره بقوله قد خسر لأن الخسران إنما يكون فى صفقة بيع والحسرة شدة الندم حتى يحسر الندم النادم كما يحسر الذى تقوم به دابته فى السفر البعيد (وهم يحملون أوزارهم) أثقالهم وآثامهم (على ظهورهم) قال السدى وغيره إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شىء صورة وأطيبه ريحا فيقول هل تعرفنى؟فيقول لافيقول أنا عملك الصالح فاركبنى فقد طالما ركبتك فى الدنيا فذلك قوله عز وجل «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا» أى ركبانا . وأما الكافر فيستقبله أقبح شىء صورة وأنتنه ريحا فيقول هل تعرفنى؟فيقول لافيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتنى فى الدنيا فأنا اليوم أركبك فهذا معنى قوله «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم» (ألا ساء ما يزرون) يحملون .قال ابن عباس أى بئس الحمل حملوا (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) باطل

فى دار الدنيا وقال محمد بن جرير الطبرى الهاء والألف فى قوله فيها تعود إلى الصفقة ولكن اكتفى بدلالة قوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله عليها من ذكرها إذ كان معلوما أن الخسران لا يكون إلا فى صفقة بيع قد جرى ومعنى الآية قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم الإيمان الذى يستوجبون به رضوان الله وجنته بالكفر الذى يستوجبون به سخط الله وعقوبته وهم لا يشعرون بذلك حتى تقوم الساعة. فإذا جاءتهم الساعة بغتة ورأوا مالحقهم من الخسران فى بيعهم قالوا حينئذ ياحسرتنا على مافرطنا فيها وروى الطبرى بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله ياحسرتنا . قال يرى أهل النار منازلهم فى الجنة فيقولون ياحسرتنا . وقوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم) يعنى أثقالهم (على ظهورهم) و لأوزار الخطايا والذنوب وأصل الوزر الثقل والحمل يقال وزرته إذا حملته وإنما قيل للذنوب أوزار لأنها تثقل ظهر من يحملها قال قتادة والسدى إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شىء صورة وأطيبه ريحا فيقول هل تعرفنى؟ فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبنى فقد طالما ركبتك فى الدنيا فذلك قوله «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا» يعنى ركبانا. وأما الكافر فيستقبله أقبح شىء صورة وأنتنه ريحا فيقول هل تعرفنى؟فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتنى فى الدنيا فأنا اليوم أركبك فذلك معنى قوله «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم» . وقال عمر بن هانئ يحشر مع كل كافر عمله فى صورة رجل قبيح كلما رأى هو صورته وقبحه زاده الله خوفا فيقول له بئس الجليس أنت فيقول أنا عملك طالما ركبتنى فلأركبنك اليوم حتى أخزيك على رءوس الخلائق فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدى ربه تعالى فذلك قوله تعالى «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم» وقال الزجاج الثقل كما يذكر فى الوزن فقد يذكر فى الحال والصفة يقال ثقل على كلام فلان بمعنى كرهته فالمعنى أنهم يقاسون من ألم عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل ذلك عليهم فعلى هذا القول يكون قوله وهم «يحملون أوزارهم على ظهورهم» مجازا عما يقاسونه من شدة العذاب وقيل فى معنى الآية أوزارهم لا تزايلهم كما تقول شخصه نصب عينى أى ذكره ملازم لى (ألا ساء ما يزرون) يعنى بئس الشىء شيئا يحملونه . وقال ابن عباس بئس الحمل حملوا . قوله عز وجل (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أى باطل وغرور لا بقاء لها وهذا فيه رد على منكرى البعث فى قولهم «إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين» فقال الله ردا عليهم ومكذبا لهم «وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو» وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن أو الكافر قولان: أحدهما إن المراد بها حياة الكافر لأن المؤمن لا يزداد بحياته فى الدنيا إلا خيرا لأنه يحصل فى أيام حياته من الأعمال الصالحة والطاعة مايكون سببا لحصول السعادة فى الآخرة؛ وأما الكافر فان كل حياته فى الدنيا وبال عليه قال ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق . والقول الثانى إن هذا عام فى حياة المؤمن والكافر لأن الإنسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لأن الذى كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لا بقاء له فبان بهذا التقرير أن المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر وأنه عام فيهما وإنما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشىء الذى يلعب به وقيل معناه إن أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وإن كان وقوعه فى الدنيا وقيل معناه وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو

وغرور لابقاء لها (وللدار الآخرة) قرأ ابن عامر ولدار الآخرة مضافا أضاف الدار إلى الآخرة ويضاف الشيء إلى نفسه عند اختلاف اللفظين كقوله «وحب الحصيد» وقولهم ربيع الأول ومسجد الجامع سميت الدنيا لدنوها وقيل لدناءتها وسميت الآخرة لأنها بعد الدنيا (خير للذين يتقون) الشرك (أفلا تعقلون) أى أن الآخرة أفضل من الدنيا قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب أفلا تعقلون بالتاء هاهنا وفى الأعراف وسورة يوسف ويس ووافق أبو بكر فى سورة يوسف ووافق حفص إلا فى سورة يس وقرأ الآخرون بالياء فيهن قوله (١٣٠) عز وجل (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) قال السدى التقى الأخنس ابن شريق وأبو جهل ابن هشام فقال الأخنس لأبى جهل يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد بن عبد الله أصادق هو أم كاذب؟ فانه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيرى قال أبو جهل والله إن محمداً الصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقال ناجية ابن كعب قال أبو جهل للنبى ﷺ لانتهمك ولا نكذبك ولكننا نكذب الذى جئت به فأنزل الله تعالى «قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون بأنك كاذب» (فانهم لايكذبونك) قرأ نافع والكسائى بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد من التكذيب والتكذيب هو أن تنسبه إلى الكذب وتقول له كذبت وإلا كذاب هو أن تجده كاذبا تقول العرب أجدبت الأرض وأخصبتها إذا وجدتها جدبة ومخصبة (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) يقول إنهم لايكذبونك فى السر لأنهم عرفوا صدقك فيما مضى وإنما يكذبون وحيى ويجحدون آياتى كما قال وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم (ولقد كذبت رسل من قبلك) كذبهم قومهم كما كذبتك قريش (فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) بتعذيب من كذبهم (ولا مبدل لكلمات الله) لاناقض لما حكم به وقد حكم فى كتابه بنصر أنبيائه عليهم السلام فقال «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون» وقال «إنا لننصر رسلنا» وقال «كتب الله

لأنه لايجدى شيئا ولاشتغالهم عما أمروا به ونسبوا إلى اللعب وقوله تعالى (وللدار الآخرة) يعنى الجنة واللام فيه لام القسم تقديره والله لدار الآخرة (خير) يعنى من الدنيا وأفضل لأن الدنيا سريعة الزوال والانقطاع (للذين يتقون) يعنى الشرك وقيل يتقون اللعب واللهو (أفلا تعقلون) إن الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها . قوله تعالى (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) يعنى قد نعلم يامحمد إنه ليحزنك الذى يقوله المشركون لك قال السدى التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل ابن هشام فقال الأخنس لأبى جهل ياأبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيرى؟ فقال أبو جهل والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله هذه الآية وقال ناجية بن كعب قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم مانتهمك ولا نكذبك ولكننا نكذب الذى جئت به فأنزل الله هذه الآية عن على بن أبى طالب أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم إنا لانكذبك ولكن نكذب بما جئت به فأنزل الله فيهم «فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون» أخرجه الترمذى من طريقين وقال فى أحدهما وهذا أصح، فى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية عما يواجهه به قومه لأنهم كانوا يعتقدون صدقه وأنه ليس بكذاب وإنما حملهم على تكذيبه فى الظاهر الحسد والظلم (فانهم لايكذبونك) يعنى أنهم لايكذبونك فى السر، لأنهم قد عرفوا أنك صادق (ولكن الظالمين) يعنى الكافرين (بآيات الله يجحدون) يعنى فى العلانية وذلك أنهم جحدوا القرآن بعد معرفة الصدق الذى أنزل عليه لعنادهم وكفرهم كما قال الله تعالى فى حق غيرهم، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وقيل ظاهر الآية يدل على أنهم لم يكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وإنما جحدوا آيات الله وهى القرآن الدال على صدقه فعلى هذا يكون المعنى فانهم لايكذبونك لأنهم قد عرفوا صدقك وإنما جحدوا صحة نبوتك ورسالتك، قوله عز وجل (ولقد كذبت رسل من قبلك) يعنى ولقد كذبت الأمم الخالية رسلهم كما كذبك قومك (فصبروا على ما كذبوا وأوذوا) يعنى أن الرسل عليهم السلام صبروا على تكذيب قومهم إياهم وصبروا على أذاهم . فاصبر أنت يامحمد على تكذيب قومك وأذاهم لك كما صبر من كان قبلك من الرسل وهذا فيه تسلية للنبى ﷺ وإزالة حزنه على تكذيب قومه له وأذاهم إياه (حتى أتاهم نصرنا) يعنى باهلاك من كذبهم (ولا مبدل لكلمات الله) يعنى ولاناقض لما حكم الله به من إهلاك المكذبين ونصر المسلمين كما قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون «وإن جندنا لهم الغالبون» وقال الله تعالى «كتب الله

لأغلبن أنا ورسلى» وقال الحسن بن الفضل لأخلف لعدته (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) ومن صلة كما تقول أصابنا من مطر (وإن كان كبر عليك إعراضهم) أى عظم عليك وشق أن أعرضوا عن الإيمان بك وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص وكانوا إذا سألوا آية أحب أن يريهم الله تعالى ذلك طمعا فى إيمانهم فقال الله عز وجل (فان استطعت أن تبتغى نفقا) تطلب وتتخذ نفقا سربا (فى الأرض) ومنه نافقاء اليربوع وهو أحد جحريه فتذهب فيه (أو سلما) أى درجا ومصعدا (فى السماء) فتصعد فيه (فتأتيهم بآية) فافعل (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) فآمنوا كلهم (فلا تكونن من الجاهلين) أى بهذا الحرف وهو قوله ولو شاء الله لجمعهم على الهدى وإن من يكفر لسابق علم الله فيه (إنما يستجيب الذين يسمعون) يعنى المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه (والموتى) يعنى الكفار (يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) فيجزيهم بأعمالهم قوله عز وجل (وقالوا) يعنى رؤساء قريش (لولا) هلا (نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لايعلمون) ماعليهم فى إنزالها قوله عز وجل (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه) قيد الطيران بالجناح تأكيدا كما يقال نظرت بعينى وأخذت بيدى (إلا أمم أمثالكم) قال مجاهد أصناف مصنفة تعرف بأسمائها

لأغلبن أنا ورسلى ولا خاف فيما وعد الله به» . وقوله تعالى (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) يعنى ولقد أنزلت عليك فى القرآن من أخبار المرسلين مافيه تسلية لك وتسكين لقلبك وقال الأخفش من هنا صلة كما تقول أصابنا من مطر وقال غيره بل هى للتبعيض لأن الواصل إلى رسول الله ﷺ قصص بعض الأنبياء وأخبارهم كما قال تعالى «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك». قوله تعالى (وإن كان كبر عليك إعراضهم) ذكر ابن الجوزى فى سبب نزول هذه الآية أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ فى نفر من قريش فقال ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتى قومها بالآيات فان فعلت آمنا بك فنزلت هذه الآية رواه أبو صالح عن ابن عباس ومعنى الآية وإن كان عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك : وعن تصديقك والإيمان بك وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص وكان إذا سألوه آية أحب أن يريهم الله ذلك طمعا فى إيمانهم فقال الله عز وجل (فان استطعت أن تبتغى) يعنى تطلب وتتخذ (نفقا فى الأرض) يعنى سربا فى الأرض والنفق سرب فى الأرض تخلص منه إلى مكان آخر (أو سلما فى السماء) يعنى أو تتخذ مصعدا إلى السماء والسلم المصعد وهو مشتق من السلامة (فتأتيهم بآية) يعنى بالآية التى سألوا عنها ومعنى الآية وإن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك فان قدرت أن تذهب فى الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية تدلهم على صدقك فافعل وإنما حسن حذف جواب الشرط لأنه معلوم عند السامع والمقصود من هذا أن يقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعه عن إيمانهم ولايتأذى بسبب إعراضهم عنه وعن الإيمان به ويدل عليه قوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أخبر الله عز وجل نبيه ﷺ أنهم إنما تركوا الإيمان وأعرضوا عنه وأقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذ قضائه فيهم وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى (فلا تكونن من الجاهلين) يعنى بأن لو شاء الله لجمعهم على الهدى وأنه يؤمن بك بعضهم دون بعض وقيل معناه لايشتد تحسرك على تكذيبهم إياك ولا تجزع من إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لاصبر لهم وإنما نهاه عن هذه الحالة وغلظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة . قوله عز وجل (إنما يستجيب الذين يسمعون) يعنى المؤمنين الذين فتح الله أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله (والموتى) يعنى الكفار الذين لايسمعون ولا يستجيبون (يبعثهم الله) يعنى يوم القيامة (ثم إليه يرجعون) فيجزيهم بأعمالهم (وقالوا) يعنى رؤساء كفار قريش (لولا) يعنى هلا (نزل عليه آية من ربه) يعنى الملك ليشهد لمحمد بالنبوة وقيل الآية المعجزة الباهرة كمثل معجزات الأنبياء (قل) يعنى قل لهم يا محمد (إن الله قادر على أن ينزل آية) يعنى أنه تعالى قادر على إيجاد ماطلبوه وإنزال ما اقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات (ولكن أكثرهم لايعلمون) يعنى ماذا عليهم فى إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها وقيل معناه إنهم لايعلمون أن الله قادر على إنزال الآيات وقيل إنهم لايعلمون وجه المصلحة فى إنزالها قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) قال العلماء جميع ماخلق الله عز وجل لايخرج عن هاتين الحالتين إما أن يدب على الأرض أو يطير فى الهواء حتى ألحقوا حيوان الماء بالطير

يريد أن كل جلس من الحيوان أمة فالطير أمة والهوام أمة والذباب أمة والسباع أمة تعرف بأسمائها ، مثل بنى آدم يعرفون بأسمائهم يقال الإنس والناس أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو عبد الرحمن بن أبى شريح أنا أبو القاسم البغوى أنا على بن الجعد أنا المبارك هو ابن فضالة عن الحسن عن عبد الله بن مغفل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لولا إن الكلاب (١٣٢) أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم وقيل أمم أمثالكم يفقه بعضهم عن بعض وقيل أمم أمثالكم فى الخلق والموت والبعث» وقال عطاء أمم أمثالكم فى التوحيد والمعرفة قال ابن قتيبة أمم أمثالكم فى الغذاء وابتغاء الرزق وتوقى المهالك (مافرطنا فى الكتاب) أى فى اللوح المحفوظ (من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) قال ابن عباس والضحاك حشرها موتها وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شىء فيقتص للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فحينئذ يتمنى الكافر ويقول ياليتنى كنت ترابا أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن الطيسفونى أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهرى أنا أحمد بن على الكشمهينى أنا على ابن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن لتردن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء قوله عز وجل (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم) لايسمعون الخير ولا يتكلمون به (فى الظلمات) فى ضلالات الكفر (من يشأ الله يضلله) فيموت على الكفر (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) هو الإسلام قوله تعالى (قل أرأيتكم) هل رأيتم والكاف فيه للتأكيد وقال الفراء رحمه الله العرب تقول أرأيتك

لأن الحيتان تسبح فى الماء كما أن الطير يسبح فى الهواء وإنما خص مافى الأرض بذكر دون مافى السماء وإن كان مافى السماء مخلوقا لأن الاحتجاج بالشاهد أظهر وأولى مما لايشاهد وإنما ذكر الجناح فى قوله بجناحيه للتوكيد كقولك كتبت بيدى ونظرت بعينى إلا أمم أمثالكم . قال مجاهد أى أصناف مصنفة تعرف بأسمائها يريدون أن كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة والسباع أمة تعرف بأسمائها مثل بنى آدم يعرفون بأسمائهم كما يقال الإنس والناس ويدل على أن كل جنس من الدواب أمة ماروى عن عبد الله بن مغفل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم» أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى. فان قلت ثبت بالآية والحديث أن الدواب والطير أمم أمثالنا وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فيما يظهر لنا فما وجه هذه المماثلة . قلت اختلف العلماء فى وجه هذه المماثلة فقيل إن هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبحه وتصلى له كما أنكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلون له وقيل إنها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله عز وجل وقيل إنها يفهم بعضها عن بعض ويألف بعضها بعضا كما أن جنس الإنسان يألف بعضهم بعضا ويفهم بعضهم عن بعض وقيل أمثالكم فى طلب الرزق وتوقى المهالك ومعرفة الذكر والأنثى وقيل أمثالكم فى الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب حتى يقتص للجماء من القرناء وهو قوله تعالى (مافرطنا فى الكتاب من شىء) يعنى فى اللوح المحفوظ لأنه يشمل جميع أحوال المخلوقات وقيل إن المراد بالكتاب القرآن يعنى أن القرآن مشتمل على جميع الأحوال (ثم إلى ربهم يحشرون) يعنى الدواب والطير قال ابن عباس حشرها موتها وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شىء فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا (م) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء. قوله عز وجل (والذين كذبوا بآياتنا) يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل كذبوا بحجج الله وأدلته على توحيده (صم) يعنى عن سماع الحق (وبكم) يعنى عن النطق به والمعنى أنهم فى حال كفرهم وتكذيبهم كمن لايسمع ولايتكلم ، ولهذا شبه الكفار بالموتى لأن الميت لايسمع ولا يتكلم (فى الظلمات) يعنى فى ظلمات الكفر ، حائرين مترددين فيها لايهتدون سبيلا (من يشأ الله يضلله) يعنى عن الإيمان (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) يعنى ومن يشأ يجعله على دين الإسلام وفى هذا دليل على أن الهادى والمضل هو الله تعالى فمن أحب هدايته وفقه بفضله وإحسانه للإيمان به ومن أحب ضلالته تركه على كفره وهذا عدل منه لأنه تعالى هو الفاعل المختار لايسئل عما يفعل وهم يسئلون . قوله تعالى (قل أرأيتكم) يعنى قل يامحمد لهؤلاء الكفار الذين تركوا عبادة الله عز وجل وعبدوا غيره من الأصنام أخبرونى تقول العرب أرأيتك بمعنى أخبرنا بحالك وأصله أرأيتم والكاف فيه للتأكيد

وهم يريدون أخبرنا كما يقول أرأيتك إن فعلت كذا ماذا تفعل أي أخبرني وقرأ أهل المدينة أرأيتكم وأرأيتم وأرأيت بتليين الهمزة الثانية والكسائي بحذفها . قال ابن عباس قل يا محمد لهؤلاء المشركين أرأيتكم (إن أتاكم عذاب الله) قبل الموت (أو أتتكم الساعة) يعني يوم القيامة (أغير الله تدعون) في صرف العذاب عنكم (إن كنتم صادقين) وأراد أن الكفار يدعون الله في أحوال الاضطرار كما أخبر الله عنهم وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ثم قال (بل إياه تدعون) أي تدعون الله ولا تدعون غيره (فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) قيد الإجابة بالمشيئة والأمور كلها بمشيئته (وتنسون) وتتركون (ما تشركون ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء) بالشدة والجوع (والضراء) المرض والزمانة (لعلهم يتضرعون) أي يتوبون ويخضعون والتضرع السؤال بالتذلل (فلولا) فهلا (إذ جاءهم بأسنا) عذابنا (تضرعوا) آمنوا فيكشف عنهم أخبر الله عز وجل أنه قد أرسل إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أنهم أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم، فلم يخضعوا ولم يتضرعوا فذلك قوله (ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) من الكفر والمعاصي (فلما نسوا ما ذكروا به) تركوا ما وعظوا وأمروا به (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) قرأ أبو جعفر فتحنا بالتشديد في كل القرآن وقرأ ابن عامر كذلك إذا كان عقيبه جمعا والباقون بالتخفيف وهذا فتح استدراج ومكر أي بدلنا مكان البلاء والشدة الرخاء والصحة (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) وهذا فرح بطر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا (أخذناهم بغتة) فجأة آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم

(إن أتاكم عذاب الله) يعني قبل الموت مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة من: الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب (أو أتتكم الساعة) يعني القيامة (أغير الله تدعون) يعني في كشف العذاب عنكم (إن كنتم صادقين) يعني في دعواكم، ومعنى الآية أن الكفار كانوا إذا نزل بهم شدة وبلاء رجعوا إلى الله بالتضرع والدعاء وتركوا الأصنام فقيل لهم أترجعون إلى الله في حال الشدة والبلاء ولا تعبدونه ولا تطيعونه في حال اليسر والرخاء (بل إياه تدعون) يعني بل تدعون الله، ولا تدعون غيره في كشف ما نزل بكم (فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) يعني فيكشف الضر الذي من أجله دعوتموه وإنما قيد الإجابة بالمشيئة رعاية للمصلحة وإن كانت الأمور كلها بمشيئة الله تعالى (وتنسون ما تشركون) يعني وتتركون دعاء الأصنام التي تعبدونها فلا تدعونها لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع وقيل معناه أنكم في ترككم دعاء الأصنام بمنزلة من قد نسيها؛ وهذا معنى قول الحسن لأنه قال وتعرضون عنها إعراض الناسي لها . قوله تعالى (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) في الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك يا محمد رسلا فخالفوهم وكفروا وحسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامع (فأخذناهم بالبأساء) يعني بالفقر الشديد وأصله من البؤس وهو الشدة والمكروه وقيل البأساء شدة الجوع (والضراء) يعني الأمراض والأوجاع والزمانة (لعلهم يتضرعون) يعني يخضعون ويتوبون والتضرع التخشع والتذلل والانقياد وترك التمرد وأصله من الضراعة وهي الذلة ومقصود الآية إن الله تعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أنه قد أرسل من قبله رسلا إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالبأساء والضراء وهي الشدة في النفس والمال فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم (فلولا) يعني فهلا (إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) معناه نفي التضرع فلم يتضرعوا (ولكن قست قلوبهم) يعني ولكن غلظت قلوبهم فلم تضرع ولم تخشع بل أقاموا على كفرهم وتكذيبهم رسلهم (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) يعني من الكفر والتكذيب وتزيين الشيطان إغواؤه بما في المعصية من اللذة قال ابن عباس يريد زين الشيطان الضلالة التي كانوا عليها فأصروا على معاصي الله عز وجل . قوله عز وجل (فلما نسوا ما ذكروا به) أي تركوا ما وعظوا به وقيل تركوا العمل بما أمرتهم به الرسل وإنما كان النسيان بمعنى الترك لأن التارك للشيء معرضا عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) يعني بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في الرزق والعيش ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام وذلك استدراج منه لهم وقيل فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الخير كان مغلقا عنهم (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) يعني فرحوا بما أوتوا من السعة والرخاء والصحة في الأبدان والمعيشة وظنوا أن ما كان نزل بهم من الشدة لم يكن انتقاما من الله تعالى فانهم لما فتح الله عليهم ما فتح من الخير والسعة فرحوا به وظنوا أن ذلك باستحقاقهم وهذا فرح بطر كما فرح قارون بما أوتي من الدنيا (أخذناهم بغتة) يعني جاءهم عذابنا فجأة من حيث لا يشعرون قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة، وقال أهل المعاني: إنما أخذوا في حال الرخاء والسلامة ليكون أشد

(فاذاهم مبلسون) آيسون من كل خير وقال أبو عبيدة المبلس النادم الحزين وأصل الإبلاس الإطراق من الحزن والندم روى عقبة ابن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا رأيت الله يعطى العبد مايحب وهو مقيم على معصيته فانما ذلك استدراج ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به الآية (١٣٤) (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى آخرهم الذين يدبرهم يقال دبر فلان القوم يدبرهم دبرا ودبورا إذا كان آخرهم ومعناه أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم يبق منهم باقية (والحمد لله رب العالمين) حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم لأنه نعمة على رسله فذكر الحمد لله تعليما لهم ولمن آمن بهم أن يحمدوا الله على كفايته شر الظالمين وليحمد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ربهم إذ أهلك المكذبين قوله تعالى (قل أرأيتم) أيها المشركون (إن أخذ الله سمعكم) حتى لاتسمعوا شيئا أصلا (وأبصاركم) حتى لاتبصروا شيئا أصلا (وختم على قلوبكم) حتى لاتفقهوا شيئا ولاتعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا شيئا (من إله غير الله يأتيكم به) ولم يقل بها مع أنه ذكر أشياء قيل معناه يأتيكم بما أخذ منكم وقيل الكناية ترجع الى السمع الذى ذكر أولا ولا يندرج غيره تحته كقوله تعالى «والله ورسوله أحق أن يرضوه» فالهاء راجعة إلى الله ورضى رسوله يندرج فى رضا الله الى (أنظر كيف نصرف الآيات) أى نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة (ثم هم يصدفون) يعرضون يعنى عنها مكذبين (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة) فجأة (أو جهرة) معاينة ترونه عند نزوله قال ابن عباس والحسن ليلا ونهارا (هل يهلك إلا القوم الظالمون) المشركون قوله عز وجل (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح)

لتحسرهم على مافاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف فى ضروب اللذة ، فأخذناهم فى آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم (فاذا هم مبلسون) أى آيسون من كل خير ، وقال الفراء المبلس اليائس المنقطع رجاؤه ولذلك يقال لمن يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون له جواب قد أبلس وقال الزجاج المبلس الشديد الحزن والحسرة وقال أبو عبيدة المبلس النادم الحزين والإبلاس هو الإطراق من الحزن والندم روى عقبة بن عامر أن النبى ﷺ قال «إذا رأيت الله تعالى يعطى العبد مايحب وهو مقيم على معصيته فانما ذلك استدراج ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به» الآية ذكره البغوى بغير سند وأسنده الطبرى. وقوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى آخرهم الذى يدبرهم يقال دبر فلان القوم إذا كان آخرهم والمعنى أنهم استوصلوا بالعذاب فلم تبق منهم باقية (والحمد لله رب العالمين) قال الزجاج حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم ومعنى هذا أن قطع دابرهم نعمة أنعم الله بها على الرسل الذين أرسلوا إليهم فكذبوهم فذكر الحمد تعليما للرسل ولمن آمن بهم ليحمدوا الله على كفايتهم إياهم شر الذين ظلموا وليحمد محمد ﷺ وأصحابه ، ربهم إذ أهلك المشركين المكذبين وقيل معناه الثناء الكامل والشكر الدائم لله رب العالمين على إنعامه على رسله وأهل طاعته باظهار حجتهم على من خالفهم وإهلاك أعدائهم واستئصالهم العذاب . قوله تعالى (قل أرأيتم) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين (إن أخذ الله سمعكم) يعنى الذى تسمعون به فأصمكم حتى لاتسمعوا شيئا (وأبصاركم) يعنى وأخذ أبصاركم التى تبصرون بها فأعماكم حتى لاتبصروا شيئا أصلا (وختم على قلوبكم) يعنى لاتفقهوا شيئا أصلا ولا تعرفوا شيئا مما تعرفون من أمور الدنيا وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة لأنها أشرف أعضاء الإنسان فاذا تعطلت هذه الأعضاء اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه فى الدين والدنيا ومقصود هذا الكلام ذكر مايدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره أن القادر على إيجاد هذه الأعضاء وأخذها هو الله تعالى المستحق للعبادة لا الأصنام التى تعبدونها وهو قوله تعالى (من إله غير الله يأتيكم به) يعنى يأتيكم بما أخذ الله منكم لأن الضمير فى به يعود على معنى الفعل ويجوز أن يعود على السمع الذى ذكر أولا ويندرج تحته غيره (أنظر) الخطاب للنبى ﷺ ويدخل معه غيره أي أنظر يامحمد (كيف نصرف الآيات) يعنى كيف نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة (ثم هم يصدفون) يعنى يعرضون عنها مكذبين لها (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة) يعنى فجأة (أو جهرة) يعنى معاينة ترونه عند نزوله ، وقال ابن عباس ليلا أو نهارا (هل يهلك إلا القوم الظالمون) يعنى المشركين لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك . قوله عز وجل (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) يعنى لمن آمن بالثواب (ومنذرين) يعنى لمن أقام على كفره بالعقاب والمعنى ليس فى إرسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات إنما أرسلوا بالبشارة والنذارة (فمن آمن وأصلح)

يعني آمن بهم وأصلح العمل لله (فلاخوف عليهم) يعني حين يخاف أهل النار (ولا هم يحزنون) أي إذا حزن غيرهم (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) يعني يصيبهم العذاب (بما كانوا يفسقون) يعني بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة. قوله تعالى (قل لا أقول لكم) الخطاب للنبي ﷺ يعني قل يامحمد لهؤلاء المشركين لاأقول لكم (عندي خزائن الله) نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم إنما بعثت بشيرا ونذيرا ولا أقول لكم عندي خزائن الله جـ ع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه بحيث لاتناله الأيدي والمعنى ليس عندي خزائن رزق الله فأعطيكم منها ماتريدون لأنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع علينا عيشنا ويغني فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لابيدي (ولاأعلم الغيب) يعني فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل وذلك أنهم قالوا له أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار فأجابهم بقوله ولاأعلم الغيب فأخبركم بما تريدون (ولاأقول لكم إني ملك) وذلك أنهم قالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء فأجابهم بقوله ولا أقول لكم إني ملك لأن الملك يقدر على مالا يقدر عليه البشر ويشاهد مالا يشاهدون فلست أقول شيئا من ذلك ولا أدعيه فتنكرون قولي وتجحدون أمري وإنما نفي عن نفسه الشريفة هذه الأشياء تواضعا لله تعالى واعترافا له بالعبودية وأن لايقترحوا عليه الآيات العظام (إن أتبع إلا مايوحى إلي) يعني ماأخبركم إلا بوحي من الله أنزله علي ومعنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم أنه لايملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي وأنه لايعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون وأنه ليس بملك حتى يطلع على مالا يطلع عليه البشر إنما يتبع مايوحى إليه من ربه عز وجل فما أخبر عنه من غيب بوحي الله إليه وظاهر الآية يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ماكان يجتهد في شيء من الأحكام بل جميع أوامره ونواهيه إنما كانت بوحي من الله إليه (قل هل يستوي الأعمى والبصير)؟ يعني: المؤمن والكافر والضال والمهتدي والعالم والجاهل (أفلاتتفكرون) يعني أنهما لايستويان. قوله عز وجل (وأنذر به) يعني وخوف بالقرآن والإنذار إعلام مع تخويف (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) قال ابن عباس يريد المؤمنين لأنهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الأهوال، وقيل معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كل معترف بالبعث من مسلم وكتابي وإنما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وإن كان إنذاره صلى الله عليه وسلم لجميع الخلائق لأن الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر وقيل المراد بهم الكفار لأنهم لايعتقدون صحة ولذلك قال يخافون أن يحشروا إلى ربهم. وقيل المراد بالإنذار جميع الخلائق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له لأنه ليس أحد إلاوهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه أو كان يشك فيه ولأن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وإنذاره لجميع الخلق (ليس لهم من دونه) يعني من دون الله (ولي) أي قريب ينفعهم (ولاشفيع) يعني يشفع لهم ثم إن فسرنا الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم أن المراد بهم الكفار فلاإشكال فيه لقوله تعالى «ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع» وإن فسرنا الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم أن المراد بهم المؤمنون ففيه إشكال، لأنه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للمذنبين من أمته وكذلك تشفع الملائكة والأنبياء والمؤمنون بعضهم لبعض والجواب عن هذا

يصيبهم (العذاب بما كانوا يفسقون) يكفرون (قل لاأقول لكم عندي خزائن الله) نزل حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم لاأقول لكم عندي خزائن الله أي خزائن رزقه فأعطيكم ماتريدون (ولاأعلم الغيب) فأخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون (ولا أقول لكم إني ملك) قال ذلك لأن الملك يقدر على مالا يقدر عليه الآدمي ويشاهد مالا يشاهده الآدمي يريد لاأقول لكم شيئا من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري (إن أتبع إلا مايوحى إلي) أي ما آتيكم به فمن وحي الله تعالى وذلك غير مستحيل في العقل مع قيام الدليل والحجج البالغة (قل هل يستوي الأعمى والبصير) قال قتادة الكافر والمؤمن وقال مجاهد الضال والمهتدي وقيل الجاهل والعالم (أفلا تتفكرون) أي أنهما لايستويان قوله عز وجل (وأنذر به) خوف به أي بالقرآن (الذين يخافون أن يحشروا) يجمعوا ويبعثوا (إلى ربهم) وقيل يخافون أن يعلمون لأن خوفهم إنما كان من علمهم (ليس لهم من دونه) من دون الله (ولي) قريب ينفعهم (ولا شفيع) يشفع لهم

(لعلهم يتقون) فينتهون عما نهو عنه وإنما نفى الشفاعة لغيره مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون لأنهم لايشفعون إلا باذنه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) قرأ ابن عامر بالغداة بضم الغين وسكون الدال وواو بعدها هاهنا وفى سورة الكهف وقرأ الآخرون بفتح الغين والدال وألف بعدها قال سلمان وخباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية جاء الأقرع بن حابس التيمى وعيينة بن حصن الفزارى، وذووهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم قاعدا مع بلال وصهيب وعمار وخباب فى ناس من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فقالوا يارسول الله لو جلست فى صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم وكان عليهم جباب صوف لها رائحة لم يكن عليهم غيرها لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبى صلى الله عليه وسلم لهم «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا فانا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال نعم قالوا اكتب لنا عليك بذلك كتابا قال فدعا بالصحيفة ودعا عليا ليكتب قالوا ونحن قعود فى ناحية إذ نزل جبريل بقوله «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه إلى قوله بالشاكرين» فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعانا فأتينا وهو يقول : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله عز وجل «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه» فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد وندنوا منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فاذا بلغ الساعة التى يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال «الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات» وقال الكلبى قالوا له اجعل لنا يوما ولهم يوما فقال لاأفعل فقالوا فاجعل المجلس واحدا فأقبل علينا وول ظهرك عليهم فأنزل الله تعالى هذه الآية «ولا تطرد الذين» قال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد لبايعنا محمدا فأنزل الله هذه الآية «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى» يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس وذلك أن أناسا من الفقراء كانوا مع النبى عليه السلام فقال ناس من الأشراف إذا صلينا فأخر هؤلاء فليصلوا خلفنا فنزلت هذه الآية وقال مجاهد صليت الصبح مع سعيد بن المسيب فلما سلم الإمام ابتدر الناس القاص فقال سعيد ما أسرع الناس إلى هذا المجلس قال مجاهد فقلت يتأولون قوله «يدعون ربهم بالغداة والعشى» قال أفى هذا هو؟ إنما ذلك فى الصلاة التى انصرفنا عنها الآن وقال إبراهيم النخعى يعنى يذكرون ربهم وقيل المراد منه حقيقة الدعاء (يريدون وجهه) أى يريدون الله بطاعتهم قال ابن عباس

الإشكال أن الشفاعة لاتكون إلا باذن الله لقوله عز وجل «من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه» وإذا كانت الشفاعة باذن الله صح قوله «ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع» يعنى حتى يأذن الله لهم فى الشفاعة فاذا أذن فيها كان للمؤمنين ولى وشفيع (لعلهم يتقون) يعنى مانهيتم عنه . قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) قال سلمان وخباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية جاء الأقرع بن حابس التيمى وعيينة بن حصن الفزارى وهما من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم قاعدا مع صهيب وبلال وعمار وخباب فى نفر من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فقالوا : يارسول الله لو جلست فى صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبى صلى الله عليه وسلم «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا فانا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتابا قال فأتى بالصحيفة ودعا عليا ليكتب قال ونحن قعود فى ناحية إذ نزل جبريل عليه السلام بقوله «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى إلى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين» فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تبارك وتعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى» الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فاذا بلغ الساعة التى يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال لنا «الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات» وروى عن سعد بن أبى وقاص قال كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم أطرد هؤلاء لايجترءون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان

لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عزوجل «ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه» أخرجه مسلم. وقال الكلبى قالوا له يعنى أشراف قريش اجعل لنا يوما ولهم يوما قال لاأفعل قالوا فاجعل المجلس واحدا وأقبل علينا وول ظهرك إليهم فأنزل الله هذه الآية وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعنى ابن مسعود لبايعناك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود مر ملأ من قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يامحمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعا لهؤلاء أطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية . وقال عكرمة جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحارث بن نوفل فى أشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر إلى أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ياأبا طالب لوأن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانهم عبيدنا وعسفاؤنا ، كان أعظم فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له فأتى أبو طالب النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلموه به فقال عمر بن الخطاب لو فعلت ذلك حتى ننظر ماالذى يريدون وإلى ماذا يصيرون فأنزل الله عز وجل هذه الآية «وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين» فجاء عمر فاعتذر من مقالته قلت بين هذه الروايات والرواية الأولى التى عن سلمان وخباب بن الأرت فرق كثير وبعد عظيم وهو أن إسلام سلمان كان بالمدينة وكان إسلام المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وسورة الأنعام مكية والصحيح ماروى عن ابن مسعود والكلبى وعكرمة فى ذلك ويعضده حديث سعد بن أبى وقاص المخرج فى صحيح مسلم من أن المشركين قالوا للنبى ﷺ أطرد هؤلاء يعنى ضعفاء المسلمين والله أعلم. وأما معنى الآية فقوله «ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى» الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى ولا تطرد هؤلاء الضعفاء لك ولاتبعدهم عن مجلسك لأجل ضعفهم وفقرهم ثم وصفهم فقال تعالى الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس وإنما ذكر هذين الوقتين تنبيها على شرفهما ولأنهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات ، ولأن الصلوات تشتمل على القراءة والدعاء والذكر فعبر بالدعاء عن الصلاة لهذا المعنى قال مجاهد صليت الصبح مع سعيد بن المسيب فلما سلم الإمام ابتدر الناس القاص فقال سعيد بن المسيب ماأسرع الناس إلى هذا المجلس؟ فقال مجاهد يتأولون قوله تعالى يدعون ربهم بالغداة والعشى قال أوفى هذا إنما هو فى الصلاة التى انصرفنا عنها الآن وقال ابن عباس أن ناسا من الفقراء كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال ناس من أشراف الناس نؤمن لك وإذا صلينا فأخر هؤلاء الذين معك فايصلوا خلفنا ، وقيل المراد منه حقيقة الدعاء والذكر والمعنى أنهم كانوا يذكرون ربهم ويدعونه طرفى النهار يريدون وجهه يعنى يطلبون بعبادتهم وطاعتهم وجه الله مخلصين فى عبادتهم له وقال ابن عباس يطلبون ثواب الله تعالى (ماعليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء) يعنى لاتتكلف أمرهم ولايتكلفون أمرك وقيل ماعليك حسابهم رزقهم فتملهم وتطردهم عنك ولا رزقك عليهم إنما الرازق لجميع الخلق هو الله تعالى فلا تطردهم عنك (فتطردهم فتكون من الظالمين) يعنى بطردهم عنك وعن مجلسك فقوله فتطردهم

عباس رضى الله عنهما يطلبون ثواب الله فقال (ماعليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء) أى لاتتكلف أمرهم ولا يتكلفون أمرك وقيل ليس رزقهم عليك فتملهم (فتطردهم) ولا رزقك عليهم قوله فتطردهم جواب لقوله ماعليك من حسابهم من شىء وقوله (فتكون من الظالمين) جواب لقوله ولا تطرد أحدهما جواب النفى والآخر جواب النهى

(وكذلك فتنا) أى ابتلينا (بعضهم ببعض) أراد ابتلى الغنى بالفقير والشريف بالوضيع وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له فذلك قوله (ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) فقال الله تعالى (أليس الله بأعلم بالشاكرين) فهو جواب لقوله أهؤلاء من الله عليهم من بيننا فهو استفهام بمعنى التقرير أى الله أعلم بمن شكر الإسلام إذ هداه الله عز وجل أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو العباس عبد الله بن محمد هرون الطيسفونى أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابى ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام ثنا أبو الحسن بن أحمد ابن سيار القرشى أنا مسدد أنا جعفر بن سليمان عن المعلى بن زياد عن العلاء ابن بشير المزنى عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال جلست فى نفر من ضعفاء المهاجرين وأن بعضهم ليستتر ببعض من العرى وقارئ يقرأ علينا إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت القارئ فسلم رسول الله ﷺ وقال ماكنتم تصنعون؟ قلنا يارسول الله كان قارئ يقرأ علينا فكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى فقال رسول الله ﷺ «الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم» قال ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتحلقوا وبرزت وجوههم له قال فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف منهم أحدا غيرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أبشروا يامعشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة» (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) قال عكرمة نزلت فى الذين نهى الله عز وجل نبيه عن طردهم وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال عطاء نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وبلال وسالم وأبى عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والأرقم بن أبى الأرقم وأبى سلمة بن عبد الأسد رضى الله عنهم أجمعين (كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى قضى على نفسه الرحمة

جواب النفى وهو قوله ما عليك من حسابهم من شىء وقوله فتكون من الظالمين جواب النهى وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم واحتج الطاعنون فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا إن النبى ﷺ لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الأشراف عاتبه الله على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك يقدح فى العصمة وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين والجواب عن هذا الاحتجاج أن النبى صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولا هم بطردهم، لأجل استخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما كان هذا الهم لمصلحة وهى التلطف بهؤلاء الأشراف فى إدخالهم فى الإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه فأعلمه الله تعالى أن إدناء هؤلاء الفقراء أولى من الهم بطردهم فقربهم منه وأدناهم وأما قوله فتطردهم فتكون من الظالمين فان الظلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه فيكون المعنى أن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشىء فى غير موضعه فهو من باب ترك الأفضل والأولى لا من باب ترك الواجبات والله أعلم. قوله عز وجل (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) يعنى وكذلك ابتلينا الغنى بالفقير والفقير بالغنى والشريف بالوضيع والوضيع بالشريف فكل أحد مبتلى بضده فكان ابتلاء الأغنياء فالشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول فى الإسلام لذلك فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم وأما فتنة الفقراء بالأغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم فكان ذلك فتنة لهم (ليقولوا) يعنى الأغنياء والشرفاء والرؤساء (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) يعنى من على الفقراء والضعفاء بالإسلام ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى فأجابهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) يعنى أنه تعالى أعلم بخلقه وبأحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين. قوله تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) قال عكرمة نزلت فى الذين نهى الله نبيه عن طردهم فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال عطاء نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وبلال وسالم بن أبى عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والأرقم بن أبى الأرقم وأبى سلمة بن عبد الأسد وقيل إن الآية على إطلاقها فى كل مؤمن وقيل لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التى تقدمت فى رواية عكرمة وقال ما أردت إلا الخير نزلت وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم (كتب ربكم) يعنى فرض ربكم وقضى ربكم (على نفسه الرحمة) وهذا يفيد الوجوب وسبب هذا أنه تعالى يتصرف فى عباده كيف يشاء وأراد فأوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم

(أنه من عمل منكم سوءا بجهالة) قال مجاهد لا يعلم حلالا من حرام فمن جهالته ركب الذنب وقيل جاهل بما يورثه ذلك الذنب وقيل جهالته من حيث إنه آثر المعصية على الطاعة ، والعاجل القليل على الآجل الكثير (ثم تاب من بعده) رجع عن ذنبه (وأصلح) عمله وقيل أخلص توبته (فانه غفور رحيم) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب أنه من عمل صالحا فانه غفور رحيم بفتح الألف فيهما بدلا من الرحمة أى كتب على نفسه أنه من عمل منكم ثم جعل الثانية بدلا عن الأولى كقوله تعالى «أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون» وفتح أهل المدينة الأولى منهما وكسر الثانية على الاستئناف وكسرهما الآخرون على الاستئناف (وكذلك نفصل الآيات) أى وهكذا وقيل معناه وكما فصلنا لك فى هذه السورة دلائلنا وإعلامنا على المشركين كذلك نفصل الآيات أى نميز ونبين لك حجتنا فى كل حق ينكره أهل الباطل (ولتستبين سبيل المجرمين) أى طريق المجرمين وقرأ أهل المدينة ولتستبين بالتاء سبيل المجرمين نصب على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم أى ولتعرف يا محمد سبيل المجرمين يقال استبنت الشىء وتبينته إذا عرفته وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر وليستبين بالياء سبيل بالرفع وقرأ الآخرون ولتستبين بالتاء سبيل رفع أى ليظهر وليتضح السبيل يذكر ويؤنث فدليل التذكير قوله تعالى «وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا» ودليل التأنيث قوله تعالى «لم تصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا» قوله عز وجل (قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم) فى عبادة الأوثان وطرد الفقراء (قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) يعنى إن فعلت ذلك فقد تركت سبيل الحق وسلكت غير طريق الهدى (قل إنى على بينة أى على بيان وبصيرة وبرهان من ربى وكذبتم به) أى ما جئت به

والكرم لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين (أنه من عمل منكم سوء بجهالة) قال مجاهد كل من عمل ذنبا أو خطيئة فهو بها جاهل واختلفوا فى سبب هذا الجهل فقيل لأنه جاهل بمقدار ما استحقه من العقاب وما فاته من الثواب وقيل إنه وإن علم أن عاقبة ذلك السوء والفعل القبيح مذمومة إلا أنه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل ومن آثر القليل على الكثير فهو جاهل وقيل أنه لما فعل فعل الجهال نسب إلى الجهل وإن لم يكن جاهلا (ثم تاب من بعده) يعنى من بعد ارتكابه ذلك السوء ورجع عنه (وأصلح) يعنى أصلح العمل فى المستقبل ، وقيل أخلص توبته وندم على فعله (فانه غفور) يعنى لمن تاب من ذنوبه (رحيم) بعباده قال خالد بن دينار كنا إذا دخلنا على أبى العالية قال «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة» الآية عن أبى سعيد الخدرى قال جلست فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستتر ببعض من العرى وقارئ يقرأ علينا إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا فلما قام علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت القارئ فسلم ثم قال ما كنتم تصنعون؟ قلنا يا رسول الله كان قارئ لنا يقرأ علينا وكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم» وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بنفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتحلقوا وبرزت وجوههم ، قال فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف منهم أحدا غيرى ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة عام أخرجه أبو داود . وقوله عز وجل (وكذلك نفصل الآيات) يعنى وكما فصلنا لك يا محمد فى هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وإبطال ما هم عليه من الشرك كذلك نميز ونبين لك أدلة حججنا وبراهيننا على تقرير كل حق ينكره أهل الباطل (ولتستبين) قرأ بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وليظهر لك الحق يا محمد ويتبين لك (سبيل المجرمين) يعنى طريق هؤلاء المجرمين وقرأ بالياء على الغيبة ومعناه وليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة إذا صاروا إلى النار . قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) يعنى نهيت أن أعبد الأصنام التى تعبدونها أنتم من دون الله وقيل تدعونها عند شدائدكم من دون الله لأن الجمادات أخس من أن تعبد أو تدعى وإنما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى وهو قوله تعالى (قل لا أتبع أهواءكم) يعنى فى عبادة الأصنام وطرد الفقراء (قد ضللت) يعنى (إذ) عبدتها (وما أنا من المهتدين) يعنى لو عبدتها (قل) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (إنى على بينة من ربى) قال ابن عباس يعنى على يقين من ربى ، وقيل البينة الدلالة التى تفصل بين الحق والباطل والمعنى إنى على بيان وبصيرة فى عبادة ربى (وكذبتم به) يعنى وكذبتم بالبيان الذى جئت به من عند ربى وهو القرآن والمعجزات الباهرات والبراهين الواضحات التى تدل على صحة التوحيد

(ماعندى ماتستعجلون به) قيل أراد به استعجالهم بالعذاب كانوا يقولون إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة الآية وقيل أراد به القيامة قال الله يستعجل الذين لايؤمنون بها (إن الحكم إلا لله يقص الحق) قرأ أهل الحجاز وعاصم يقص بضم القاف والصاد مشددا أى يقول

الحق لأنه فى جميع المصاحف بغير ياء ولأنه قال الحق ولم يقل بالحق وقرأ الآخرون يقضى بسكون القاف والضاد مكسورة من قضيت أى يحكم بالحق بدليل أنه قال (وهو خير الفاصلين) والفصل يكون فى القضاء وإنما حذفوا الياء لاستثقال الألف واللام كقوله تعالى صال الجحيم ونحوها ولم يقل بالحق لأن الحق صفة المصدر كأنه قال يقضى القضاء الحق (قل لو أن عندى) وبيدى (ماتستعجلون به) من العذاب (لقضى الأمر بينى وبينكم) أى فرغ من العذاب وأهلكتم أى لعجلته حتى أتخلص منكم (والله أعلم بالظالمين) قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) مفاتح الغيب خزائنه جمع مفتح واختلفوا فى مفاتح الغيب أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن الطيسفونى أنا عبدالله بن عمر الجوهرى أنا أحمد بن على الكشميهنى أنا على ابن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول قال رسول الله ﷺ «مفاتح الغيب خمس لايعلمها إلا الله لايعلم ماتغيض الأرحام أحد إلا الله تعالى، ولايعلم مافى الغد إلا الله عز وجل، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله، ولاتدرى نفس بأى أرض تموت، ولايعلم متى تقوم الساعة أحد إلا الله» وقال الضحاك ومقاتل مفاتح الغيب خزائن الأرض وعلم نزول العذاب وقال عطاء ماغاب عنكم من الثواب والعقاب وقيل انقضاء الآجال وقيل أحوال

وفساد الشرك (ماعندى ماتستعجلون به) يعنى العذاب، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم وكانوا يستعجلون به استهزاء وكانوا يقولون يامحمد ائتنا بما تعدنا يعنى من نزول العذاب فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ماعندى ماتستعجلون به لأن إنزال العذاب لايقدر عليه إلا الله تعالى ولا يقدر أحد على تقديمه ولا تأخيره وقيل كانوا يستعجلون بالآيات التى طلبوها واقترحوها فأعلم الله أن ذلك عنده ليس عند أحد من خلقه وقيل كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى يستعجل بها الذين لايؤمنون بها (إن الحكم إلا لله) يعنى الحكم الذى يفصل به بين الحق والباطل والثواب للطائع والعقاب للعاصى أى ما الحكم المطلق إلا لله ليس معه حكم فهو يفصل بين المختلفين ويقضى بإنزال العذاب إذا شاء (يقص الحق) قرئ بالصاد المهملة ومعناه يقول الحق لأن كل ما أخبر به فهو حق وقرئ يقض بالضاد المعجمة من القضاء يعنى أنه تعالى يقضى القضاء الحق (وهو خير الفاصلين) يعنى وهو خير من بين وفصل وميز بين المحق والمبطل لأنه لايقع فى حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه (قل لو أن عندى ماتستعجلون به) يعنى من إنزال العذاب والاستعجال المطالبة بالشىء قبل وقته : فلذلك كانت العجلة مذمومة والإسراع تقديم الشىء فى وقته فلذلك كانت السرعة محمودة والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو أن عندى ماتستعجلون به لم أمهلكم ساعة ولكن الله حليم ذو أناة لايعجل بالعقوبة. وقوله تعالى (لقضى الأمر بينى وبينكم) يعنى لانفصل مابينى وبينكم ولأتاكم ماتستعجلون به من العذاب (والله أعلم بالظالمين) يعنى أنه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذى يستحقونه فيه وقيل علم أنه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب فلذلك أخره عنهم قال والله أعلم بالظالمين وبأحوالهم قوله عز وجل (وعنده مفاتح الغيب) المفتاح الذى يفتح به المغلاق جمعه مفاتيح ويقال فيه مفتح بكسر الميم وجمعه مفاتح والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهى مفتح وجمعه مفاتح فقوله وعنده مفاتح الغيب يحتمل أن يكون المراد منه المفاتيح التى يفتح بها ويحتمل أن يكون المراد منه الخزائن فعلى التفسير الأول فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأن المفاتيح هى التى يتوصل بها إلى مافى الخزائن المستوثق منها بالإغلاق فمن علم كيف يفتح بها ويتوصل إلى مافيها فهو عالم وكذلك هاهنا لأن الله تعالى لما كان عالما بجميع المعلومات ماغاب منها ومالم يغب عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة وعلى التفسير الثانى يكون المعنى وعنده خزائن الغيب والمراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات ثم اختلفت أقوال المفسرين فى قوله وعنده مفاتح الغيب (لايعلمها إلا هو) فقيل مفاتيح الغيب خمس وهى ماروى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال مفاتح الغيب خمس لايعلمها إلا الله تعالى لايعلم أحد ما يكون فى غد إلا الله ولا يعلم أحد مايكون فى الأرحام إلا الله ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ولايدرى أحد متى يجىء المطر وفى رواية أخرى لايعلم

العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم وقيل هى مالم يكن بعد أنه يكون أم لايكون وما يكون كيف يكون ومالا يكون أن لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود أوتى نبيكم علم كل شىء إلا علم مفاتيح الغيب (ويعلم مافى البر والبحر) قال مجاهد البر المفاوز والقفار والبحر القرى والأمصار لايحدث فيهما بشىء إلا يعلمه وقيل هو البر والبحر المعروف (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) يريد ساقطة وثابتة يعنى يعلم عدد مايسقط من ورق الشجر ومايبقى عليه وقيل يعلم كم انقلبت ظهر البطن إلى أن سقطت على الأرض (ولا حبة فى ظلمات الأرض) قيل هو الحب المعروف فى بطون الأرض، وقيل هو تحت الصخرة التى فى أسفل الأرضين (ولارطب ولايابس) قال ابن عباس رضى الله عنهما الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ماينبت وما لاينبت وقيل ولا حى ولا موات وقيل هو عباره عن كل شىء (إلا فى كتاب مبين) يعنى أن الكل مكتوب فى اللوح المحفوظ قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل (ويعلم ماجرحتم) كسبتم (بالنهار ثم يبعثكم فيه) أى يوقظكم فى النهار (ليقضى أجل مسمى) يعنى أجل الحياة إلى الممات يريد استيفاء العمر على التمام (ثم إليه مرجعكم) فى الآخرة (ثم ينبئكم)

أحد ماتغيض الأرحام ولا يعلم مافى غد إلا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى الساعة إلا الله أخرجه البخارى وقال الضحاك ومقاتل مفاتح الغيب خزائن الأرض وعلم نزول العذاب وقال عطاء هو ماغاب عنكم من الثواب والعقاب وقيل هو انقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم وقيل هو علم مالم يكن بعد أن يكون إذ يكون كيف يكون ومالا يكون أن لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شىء إلا مفاتح الغيب وقال ابن عباس إنها خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق (ويعلم مافى البر والبحر) قال مجاهد: البر المفاوز والقفار والبحر القرى والأمصار لايحدث فيها شىء إلا وهو يعلمه وقال جمهور المفسرين هو البر والبحر المعروفان لأن جميع الأرض إما بر وإما بحر وفى كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته مايدل على عظيم قدرته وسعة علمه (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) يريد ساقطة وثابتة والمعنى أنه يعلم عدد مايسقط من الورق وما بقى على الشجر من ذلك ويعلم كم انقلبت ظهراً لبطن إلى أن تسقط على الأرض (ولا حبة فى ظلمات الأرض) قيل هو الحب المعروف يكون فى بطن الأرض قبل إن ينبت وقيل هى الحبة التى فى الصخرة التى فى أسفل الأرضين (ولا رطب ولا يابس) قال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ماينبت ومالا ينبت وقيل المراد بالرطب الحى واليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شىء لأن جميع الأشياء إما رطبة وإما يابسة. فان قلت أن جميع هذه الأشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح الغيب فلما أفرد هذه الأشياء بالذكر وما فائدة ذلك؟. قلت لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على سبيل الإجمال ذكر من بعد ذلك الإجمال مايدل على التفصيل فذكر هذه الأشياء المحسوسة ليدل بها على غيرها فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة مافيها من المعادن والحيوان وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها ثم ذكر بعد ذلك ماهو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد، لكن لايعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ماهو أصغر من الورقة وهى الحبة ثم ذكر بعد ذلك مثالا يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لايخرج شىء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير. قوله تعالى (إلا فى كتاب مبين) فيه قولان: أحدهما أن الكتاب المبين هو علم الله الذى لايغير ولايبدل. والثانى أن المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ لأن الله كتب فيه علم مايكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والأرض وفائدة إحصاء الأشياء كلها فى هذا الكتاب لتقف الملائكة على إنفاذ علمه ونبه بذلك على تعظيم الحساب وأعلم عباده أنه لايفوته شىء مما يصنعونه لأن من أثبت مالاثواب فيه ولاعقاب فى كتاب فهو إلى إثبات مافيه ثواب وعقاب أسرع.

قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) يعنى يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل (ويعلم ماجرحتم) ماكسبتم (بالنهار ثم يبعثكم فيه) أى يوقظكم فيه أى فى النهار (ليقضى أجل مسمى) يعنى أجل الحياة إلى الممات يريد استيفاء العمر على التمام (ثم إليه مرجعكم) فى الآخرة (ثم ينبئكم)

يخبركم (بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) يعنى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم وهو جمع حافظ نظيره «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين» (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته) قرأ حمزة توفيه واستهواه بالياء وإمالتهما (رسلنا) يعنى أعوان ملك الموت

يقبضونه فيدفعونه إلى ملك الموت فيقبض روحه كما قال «قل يتوفاكم ملك الموت» وقيل الأعوان يتوفونه بأمر ملك الموت فكان ملك الموت توفيه لأنهم يصدرون عن أمره ، وقيل أراد بالرسل ملك الموت وحده فذكر الواحد بلفظ الجمع وجاء فى الأخبار أن الله تعالى جعل الدنيا بين يدى ملك الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من هاهنا ومن هاهنا فاذا كثرت الأرواح يدعو الأرواح فتجيب له (وهم لايفرطون) لايقصرون (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) يعنى الملائكة وقيل يعنى العباد يردون بالموت إلى الله مولاهم الحق فان قيل الآية فى المؤمنين والكفار جميعا ، وقد قال فى آية أخرى «وأن الكافرين لامولى لهم» فكيف وجه الجمع فقيل المولى فى تلك الآية بمعنى الناصر ولاناصر للكفار والمولى هاهنا بمعنى المالك الذى يتولى أمورهم والله عز وجل مالك الكل ومتولى الأمور وقيل أراد هنا المؤمنين خاصة يردون إلى مولاهم والكفار فيه تبع (ألا له الحكم) أى القضاء دون خلقه (وهو أسرع الحاسبين) أى إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لايحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد قوله تعالى (قل من ينجيكم) قرأ يعقوب بالتخفيف وقرأ العامة بالتشديد (من ظلمات البر والبحر) أى من شدائدهما

أى يخبركم (بما كنتم تعملون) قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) يعنى وهو العالى عليهم بقدرته لأن كل من قهر شيئا وغلبه فهو مستعل عليه بالقهر والقدرة فهو كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان يعنى أنه أقدر منه وأغلب هذا مذهب أهل التأويل فى معنى لفظة فوق فى قوله «وهو القاهر فوق عباده» وأما مذهب السلف فيها فامرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا إطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو القاهر لخلقه وقهر كل شىء بضده فقهر الحياة بالموت والإيجاد بالإعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة . وقوله تعالى (ويرسل عليكم حفظة) يعنى أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم من الخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الأقوال والأفعال قيل إن مع كل إنسان ملكين ملكا عن يمينه وملكا عن شماله فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر عليه لعله يتوب منها فان لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال وفائدة جعل الملائكة موكلين بالإنسان أنه إذا علم أن له حافظا من الملائكة موكلا به يحفظ عليه أقواله وأفعاله فى صحائف تنشر له وتقرأ عليه يوم القيامة على رءوس الأشهاد كان ذلك زاجرا له عن فعل القبيح وترك المعاصى وقيل المراد بقوله ويرسل عليكم حفظة هم الملائكة الذين يحفظون بنى آدم ويحفظون أجسادهم قال قتادة حفظة يحفظون على ابن آدم رزقه وأجله وعمله (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) يعنى أعوان ملك الموت الموكلين بقبض أرواح البشر . فان قلت قال الله تعالى فى آية «الله يتوفى الأنفس حين موتها» وقال فى آية أخرى «قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم» وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟ قلت وجه الجمع بين هذه الآيات أن المتوفى فى الحقيقة هو الله تعالى ، فاذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فاذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه فحصل الجمع بين الآيات وقيل المراد من قوله توفته رسلنا ملك الموت وحده وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له وقال مجاهد جعلت الأرض لملك الموت مثل الطشت يتناول من حيث شاء وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم وقال أيضا مامن أهل بيت شعر ولا مدر إلا وملك الموت يطيف بهم كل يوم مرتين وقيل إن الأرواح إذا كثرت عليه يدعوها فتستجيب له وقوله (وهم لايفرطون) يعنى الرسل لايقصرون فيما أمروا به ولايضيعونه . قوله عز وجل (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) يعنى ثم رد العباد بالموت إلى الله فى الآخرة وإنما قال مولاهم الحق لأنهم كانوا فى الدنيا تحت أيدى موال بالباطل والله مولاهم وسيدهم ومالكهم بالحق (ألا له الحكم) يعنى لاحكم إلا له (وهو أسرع الحاسبين) يعنى أنه تعالى أسرع من حسب لأنه لايحتاج إلى فكر وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لايشغله حساب بعضهم عن بعض . قوله تعالى (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) يعنى يا محمد قل لهؤلاء الكفار الذين

يعبدون

وأهوالهما كانوا إذا سافروا فى البر والبحر فضلوا الطريق وخافوا الهلاك دعوا الله مخلصين له الدين فينجيهم فذلك قوله تعالى (تدعونه تضرعا وخفية) أى علانية وسرا قرأ أبو بكر عن عاصم وخفية بكسر الخاء هنا وفى الأعراف وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان (لئن أنجيتنا) أى يقولون لئن أنجيتنا وقرأ أهل الكوفة لئن أنجانا أى أنجانا الله (من هذه) يعنى من هذه الظلمات (لنكونن من الشاكرين) والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها (قل الله ينجيكم منها) قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر ينجيكم بالتشديد مثل قوله تعالى «قل من ينجيكم» وقرأ الآخرون هذا بالتخفيف (ومن كل) **(١٤٣)** كرب والكرب غاية الغم الذى يأخذ النفس (ثم أنتم تشركون) يريد أنهم يقرون أن الذى يدعونه عند الشدة هو الذى ينجيهم ثم يشركون معه الأصنام التى قد علموا أنها لاتضر ولاتنفع قوله عز وجل (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال الحسن وقتادة نزلت الآية فى أهل الإيمان وقال قوم نزلت فى المشركين قوله عذابا من فوقكم يعنى الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح (أو من تحت أرجلكم) يعنى الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون وعن ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم السلاطين الظلمة ومن تحت أرجلكم العبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أى من أسفل منكم (أو يلبسكم شيعا) أى يخلطكم فرقا ويبث فيكم الأهواء المختلفة (ويذيق بعضكم بأس بعض) يعنى السيوف المختلفة يقتل بعضكم بعضا أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر، قال لما نزلت هذه الآية «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بوجهك الكريم قال أو من تحت أرجلكم» قال أعوذ بوجهك قال «أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أهون أو هذا أيسر أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى

يعبدون الأصنام من دون الله من ذا الذى ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه وتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذى ينجيكم من ظلمات البحر إذا ركبتم فيه فأخطأتم الطريق وأظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل ظلمات البر والبحر مجاز عما فيهما من الشدائد والأهوال وقيل الحمل على الحقيقة أولى فظلمات البر هى ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع فى الهلاك فالمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لايرجع الإنسان فيها إلا إلى الله سبحانه وتعالى لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة الشدائد وهو المراد من قوله (تدعونه تضرعا وخفية) يعنى فإذا اشتد بكم الأمر تخلصون له الدعاء تضرعا منكم إليه واستكانة جهرا وخفية يعنى سرا حالا وحالا (لئن أنجيتنا من هذه) يعنى قائلين فى حال الدعاء والتضرع لئن أنجيتنا من هذه الظلمات وخلصتنا من الهلاك (لنكونن من الشاكرين) يعنى لك على هذه النعمة والشكر وهو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها (قل الله ينجيكم منها) يعنى من الظلمات والشدائد التى أنتم فيها (ومن كل كرب) يعنى وهو الذى ينجيكم من كل كرب أيضا والكرب هو الغم الشديد الذى يأخذ بالنفس (ثم أنتم تشركون) يريد أنهم يقرون بأن الذى أنجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى ثم إنهم بعد ذلك الإقرار يشركون معه الأصنام التى لاتضر ولاتنفع. قوله عز وجل (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) أى قل يا محمد لقومك إن الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم يعنى الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط (أو من تحت أرجلكم) يعنى الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون وقال ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم يعنى أئمة السوء والسلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم يعنى عبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم يعنى من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم يعنى السفلة (أو يلبسكم شيعا) الشيع جمع شيعة وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة وأشياع وأصله من التشيع ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضا وقيل الشيعة هم الذين يتقوى بهم الإنسان قال الزجاج فى قوله أو يلبسكم شيعا يعنى يخلط أمركم خلط اضطراب لاخلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفين يقاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن عباس قوله أو يلبسكم شيعا يعنى الأهواء المختلفة ويذيق بعضكم بأس

أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا أبو جعفر محمد بن على بن دحيم الشيبانى أخبرنا أحمد بن حازم بن أبى عرفة أنا يعلى بن عبيد الطنافسى أنا عثمان بن حكيم (١٤٤) عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مررنا على مسجد بنى معاوية فدخل فصلى ركعتين وصلينا معه فناجى ربه طويلا ثم قال سألت ربى ثلاثا سألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها أخبرنا الإمام أبو على الحسين ابن محمد القاضى أنا السيد أبو الحسن محمد الحسين بن داود العلوى أنا أبو بكر محمد ابن أحمد بن دلويه الدقاق ثنا محمد بن إسماعيل البخارى ثنا إسماعيل ابن أبى أويس حدثنى أخى عن سليمان بن بلال عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأنصارى أن عبد الله ابن عمر جاءهم ثم قال إن النبى صلى الله عليه وسلم «دعا فى مسجد فسأل الله ثلاثا فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة سأله أن لا يسلط على أمته عدوا من غيرهم يظهر عليهم فأعطاه ذلك وسأله أن لا يهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك وسأله أن لا يجعل بأس بعضهم على بعض فمنعه ذلك» قوله تعالى (أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون وكذب به قومك) أى بالقرآن وقيل بالعذاب (وهو الحق قل لست عليكم بوكيل) برقيب وقيل بمسلط ألزمكم الإسلام شئتم أو أبيتم إنما أنا رسول (لكل نبأ) خبر من أخبار القرون (مستقر)

بعض يعنى أنه يقتل بعضكم بيد بعض وقال مجاهد يعنى أهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف وقال ابن زيد هو الذى فيه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء وسفك بعضهم دماء بعض ثم اختلف المفسرون فيمن عنى بهذه الآية فقال قوم عنى بها المسلمون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم نزلت هذه الآية قال أبو العالية فى قوله «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم» الآية قال هن أربع وكلهن عذاب فجاءت اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعا وأذيق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان وهما لابد واقعتان يعنى الخسف والمسخ وعن أبى بن كعب نحوه وهن أربع خلال وكلهن واقع قبل يوم القيامة مضت ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعا وأذيق بعضهم بأس بعض وثنتان واقعتان لامحالة الخسف والرجم وقال مجاهد فى قوله من فوقكم أو من تحت أرجلكم لأمة محمد فأعفاهم منه أو يلبسكم شيعا ما كان بينهم من الفتن والاختلاف زاد غيره ويذيق بعضكم بأس بعض يعنى ما كان فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (خ) عن جابر قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال هذا أهون أو هذا أيسر (م) عن سعد بن أبى وقاص أنه أقبل مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال «سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها وسألت ربى أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألت ربى أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها عن خباب بن الأرت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فأطالها فقالوا يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال أجل أنها صلاة رغبة ورهبة إنى سألت الله فيها ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألته أن لا تهلك أمتى بسنة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها» أخرجه الترمذي وقوله تعالى (أنظر كيف نصرف الآيات) أى انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحججنا لهؤلاء المكذبين (لعلهم يفقهون) يعنى يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب. قوله تعالى (وكذب به قومك) يعنى بالقرآن (وهو الحق) يعنى فى كونه كتابا منزلا من عند الله وقيل الضمير فى به يرجع إلى العذاب وهو الحق يعنى أنه نازل بهم أن أقاموا على كفرهم وتكذيبهم وقيل الضمير يرجع إلى تصريف الآيات وهو الحق لأنهم كذبوا كونها من عند الله (قل لست عليكم بوكيل) أى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الحق بل إنما أنا منذر والله هو المجازى لكم على أعمالكم وقيل معناه إنى إنما أدعوكم إلى الله وإلى الإيمان به ولم أومر بحربكم فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف وقيل فى معنى الآية قل لست عليكم بوكيل يعنى حفيظا إنما أطالبكم بالظاهر من الإقرار والعمل لا بما تحويه الضمائر والأسرار فعلى هذا تكون الآية محكمة (لكل نبأ مستقر) أى لكل خبر من أخبار القرآن حقيقة ومنتهى ينتهى إليه

حقيقة ومنتهى ينتهى إليه فيتبين صدقه من كذبه وحقه من باطله إما فى الدنيا وإما فى الآخرة (وسوف تعلمون) وقال مقاتل لكل خبر يخبره الله وقت وقته ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير . وقال الكلبي لكل قول وفعل حقيقة إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وسوف تعلمون ما كان فى الدنيا فستعرفونه وما كان فى الآخرة فسوف يبدوا لكم قوله عز وجل (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) يعنى فى القرآن بالاستهزاء (فأعرض عنهم) فاتركهم (١٤٥) ولا تجالسهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك) قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد السين وقرأ الآخرون بسكون النون وتخفيف السين (الشيطان) نهينا (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) يعنى إذا جلست معهم ناسيا فقم من عندهم بعد ما تذكرت (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) روى عن ابن عباس أنه قال لما نزلت هذه الآية وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم قال المسلمون كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا؟ وفى رواية قال المسلمون فانا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم فأنزل الله عز وجل «وما على الذين يتقون الخوض من حسابهم» أى من إثم الخائضين من شىء (ولكن ذكرى) أى ذكروهم وعظوهم بالقرآن والذكر والذكرى واحد يريد ذكروهم ذكرى فيكون فى محل النصب (لعلهم يتقون) الخوض إذا وعظتموهم فرخص فى مجالستهم على الوعظ لعلهم يمنعهم من ذلك الخوض وقيل لعلهم يستحيون قوله عز وجل (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) يعنى الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزءوا بها وتلاعبوا عند ذكرها وقيل إن الله تعالى جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم أى عيدهم لعبا ولهوا وعيد المسلمين الصلاة وتكبيراتها ، وفعل الخير مثل

إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وقيل لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير فكان ما وعدهم به من العذاب فى الدنيا وقع يوم بدر (وسوف تعلمون) يعنى صحة هذا الخبر إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . قوله تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) الخطاب فى وإذا رأيت للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وإذا رأيت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوضون فى آياتنا يعنى القرآن الذى أنزلناه إليك والخوض فى اللغة هو الشروع فى الماء والعبور فيه ويستعار للأخذ فى الحديث والشروع فيه يقال تخاوضوا فى الحديث وتفاوضوا فيه لكن أكثر ما يستعمل الخوض فى الحديث على وجه اللعب والعبث وما يذم عليه ومنه قوله «وكنا نخوض مع الخائضين» وقيل الخطاب فى وإذا رأيت لكل فرد من الناس والمعنى وإذا رأيت أيها الإنسان الذين يخوضون فى آياتنا وذلك أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا فى الاستهزاء بالقرآن وبمن أنزله وبمن أنزل عليه فنهاهم الله أن يقعدوا معهم فى وقت الاستهزاء بقوله (فأعرض عنهم) يعنى فاتركهم ولا تجالسهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره) يعنى حتى يكون خوضهم فى غير القرآن والاستهزاء به (وإما ينسينك الشيطان) يعنى فقعدت معهم (فلا تقعد بعد الذكرى) يعنى إذا ذكرت فقم عنهم ولا تقعد (مع القوم الظالمين) يعنى المشركين قوله تعالى (وما على الذين يتقون من حساب من شىء) قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم» قال المسلمون كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا؟ وفى رواية قال المسلمون إنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم فأنزل الله هذه الآية «وما على الذين يتقون» يعنى يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من حساب المشركين من شىء يعنى ليس عليهم شىء من حسابهم ولا آثامهم (ولكن ذكرى) يعنى ولكن ذكروهم ذكرى وقيل معناه ولكن عليكم أن تذكروهم (لعلهم يتقون) يعنى لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء .

(فصل)

قال سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل هذه الآية منسوخة بالآية التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى «وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها» وذهب الجمهور إلى أنها محكمة لا نسخ فيها لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ لأنها إنما دلت على أن كل إنسان إنما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره ، وقيل إنما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة فلا تكون منسوخة قوله عز وجل (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وذر يا محمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم الذى أمروا به ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعبا ولهوا وذلك حيث سخروا به واستهزءوا به وقيل إنهم اتخذوا عبادة الأصنام لعبا ولهوا وقيل إن الكفار كانوا إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه وقيل إن الله جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم يعنى عيدهم لعبا ولهوا يلعبون ويلهون فيه إلا المسلمين

فانهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيرا وفعل الخير فيه مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى أنهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق واتخذوا دينهم لعبا ولهوا ومعنى الآية وذر يامحمد الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا واتركهم ولاتبال بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضى الإعراض عنهم ثم نسخ ذلك الإعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدى وقيل إنه خرج مخرج التهديد فهو كقوله «ذرنى ومن خلقت وحيدا» وهذا قول مجاهد فعلى هذا تكون الآية محكمة وقيل المراد بالإعراض عنهم ترك معاشرتهم ومخالطتهم لاترك الإنذار والتخويف ويدل عليه قوله (وذكر به) يعنى وذكر بالقرآن وعظ به هؤلاء المشركين (أن تبسل نفس بما كسبت) أى لئلا تبسل نفس وأصل البسل فى اللغة التحريم وضم الشىء ومنعه وهذا عليك بسل أى حرام ممنوع فمعنى تبسل نفس بما كسبت ترتهن وتحبس فى جهنم وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام وقال ابن عباس تبسل تهلك وقال قتادة تحبس يعنى فى جهنم وقال الضحاك تحرق بالنار وقال ابن زيد تؤخذ يعنى بما كسبت وقيل تفضح والمعنى وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكى لاتهلك نفس وترتهن فى جهنم بسبب الجنايات التى اكتسبت فى الدنيا وتحرم الثواب فى الآخرة (ليس لها) يعنى لتلك النفس التى هلكت (من دون الله ولى) أى قريب يلى أمرها (ولاشفيع) يعنى يشفع لها فى الآخرة (وأن تعدل كل عدل) يعنى وإن تفتد بكل فداء والعدل الفداء (لايؤخذ منها) يعنى العدل وتلك الفدية (أولئك الذين) إشارة إلى الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا (أبسلوا بما كسبوا) يعنى أسلموا إلى الهلاك بسبب ما اكتسبوا (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ذلك لهم بسبب كفرهم . قوله تعالى (قل أندعوا من دون الله مالاينفعنا ولايضرنا) يعنى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى دين آبائك أندعوا يعنى أنعبد من دون الله يعنى الأصنام التى لاتنفع من عبدها ولاتضر من ترك عبادتها (ونرد على أعقابنا) يعنى ونرد إلى الشرك (بعد إذ هدانا الله) يعنى إلى دين الإسلام والتوحيد (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض) يعنى كالذى ذهبت به الشياطين فألقته فى هوية من الأرض وأصله من الهوى وهو النزول من أعلى إلى أسفل (حيران) يقال حار فلان فى الأمر إذا تردد فيه فلم يهتد إلى الصواب ولامخرج منه (له أصحاب يدعونه إلى الهدى) يعنى لهذا المتحير الذى استهوته الشياطين أصحاب على الطريق المستقيم (ائتنا) يعنى يقولون له ائتنا وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو إلى عبادة الأصنام التى لاتضر ولاتنفع ولمن يدعو إلى عبادة الله عز وجل الذى يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل فى رفقة ضل به الغول والشيطان عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه ورفقته يدعونه إليهم يقولون هلم إلى الطريق المستقيم وجعل الغيلان يدعونه إليهم فبقى حيران لايدرى أين يذهب فان أجاب الغيلان ضل وهلك

الجمعة والفطر والنحر (وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به) أى وعظ بالقرآن (أن تبسل) أى لأن لاتبسل أى لاتسلم (نفس) للهلاك (بما كسبت) قال مجاهد وعكرمة والسدى قال ابن عباس تهلك وقال قتادة أن تحبس وقال الضحاك تحرق . وقال ابن زيد تؤخذ ومعناه ذكرهم ليؤمنوا كيلا تهلك نفس بما كسبت وقال الأخفش تبسل تجازى وقيل تفضح وقال الفراء ترتهن وأصل الإبسال التحريم والبسل الحرام ثم جعل نعتا لكل شدة تتقى وتترك (ليس لها) لتلك النفس (من دون الله ولى) قريب (ولا شفيع) يشفع لها فى الآخرة (وإن تعدل كل عدل) أى تفد كل فداء (لا يؤخذ منها) هنا (أولئك الذين أبسلوا) أسلموا للهلاك (بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا) إن عبدناه (ولا يضرنا) إن تركناه، يعنى الأصنام ليس إليها نفع ولاضر (ونرد على أعقابنا) إلى الشرك مرتدين (بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين) أى يكون مثلنا كمثل الذى استهوته الشياطين أى أضلته (فى الأرض حيران) قال ابن عباس كالذى استغوته الغيلان فى المهامه فأضلوه فهو حائر بائر والحيران المتردد فى الأمر لايهتدى إلى مخرج منه (له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا) وإن هذا مثل ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى الآلهة ولمن يدعو إلى الله تعالى كمثل رجل فى رفقة ضل به الغول عن الطريق يدعوه أصحابه من أهل الرفقة هلم إلى الطريق ويدعوه الغول فيبقى حيران لايدرى أين يذهب فان أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه

إلى الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى (قل إن هدى الله هو الهدى) يزجر عن عبادة الأصنام كأنه يقول لا تفعل ذلك فان الهدى هدى الله لا يهدى غيره (وأمرنا لنسلم) أى أن نسلم (لرب العالمين) والعرب تقول أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) أى وأمرنا باقامة الصلاة والتقوى (وهو الذى إليه تحشرون) أى تجمعون فى الموقف للحساب (وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) قيل الباء بمعنى اللام أى إظهارا للحق لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته (ويوم يقول كن فيكون) قيل هو راجع إلى خلق السموات والأرض والخلق بمعنى القضاء والتقدير أى كل شىء قضاه وقدره قال له كن فيكون، وقيل يرجع إلى القيامة يدل على سرعة أمر البعث والساعة كأنه قال ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا فيقومون (قوله الحق) أى الصدق الواقع لا محالة يريد أن ما وعده حق كائن (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) يعنى ملك الملوك يومئذ زائل كقوله مالك يوم الدين وكما قال والأمر يومئذ لله والأمر لله فى كل وقت ولكن لا أمر فى ذلك اليوم لأحد مع أمر الله والصور قرن ينفخ فيه قال مجاهد كهيئة البوق وقيل هو بلغة أهل اليمن وقال أبو عبيدة الصور هو الصور وهو جمع الصورة وهو قول الحسن والأول أصح والدليل عليه ما أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبى توبة أنا أبو طاهر المحاربى أنا محمد بن يعقوب الكسائى أنا أبو عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمى عن أسلم عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء إعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور؟ قال قرن ينفخ فيه أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفى أنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله الصفار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرقى أنا أبو حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن عطية بن سعد العوفى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وأصغى سمعه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر؟ فقالوا يارسول الله وما تأمرنا؟ قال «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» وقال أبو العلاء عن عطية متى يؤمر بالنفخ فينفخ

وإن أجاب أصحابه اهتدى وسلم (قل إن هدى الله هو الهدى) يعنى أن طريق الله الذى أوضحه لعباده ودينه الذى شرعه لهم هو الهدى والنور والاستقامة لا عبادة الأصنام ففيه زجر عن عبادتها كأنه يقول لا تفعل ذلك فان هدى الله هو الهدى لا هدى غيره (وأمرنا لنسلم) أى وأمرنا أن نسلم ونخلص العبادة (لرب العالمين) لأنه هو الذى يستحق العبادة لا غيره (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) يعنى وأمرنا باقامة الصلاة والتقوى لأن فيهما ما يقرب إليه (وهو الذى إليه تحشرون) يعنى فى يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم. قوله عز وجل (وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) يعنى إظهارا للحق فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته وقيل خلقها بكمال قدرته وشمول علمه واتقان صنعه وكل ذلك حق وقيل خلقها بكلامه الحق وهو قول كن وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق (ويوم يقول كن فيكون) وقيل إنه راجع إلى خلق السموات والمعنى اذكر يوم قال للسموات والأرض كن فيكون وقيل يرجع إلى القيامة ويدل عليه سرعة البعث والحساب كأنه قال ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا للحساب فيقومون أحياء (قوله الحق) يعنى أن قول الله تبارك وتعالى للشىء إذا أراده كن فيكون حق وصدق وهو كائن لا محالة (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) إنما أخبر عن ملكه يومئذ وإن كان الملك له سبحانه وتعالى خالصا فى كل وقت فى الدنيا والآخرة لأنه لا منازع يومئذ يدعى الملك وأنه المنفرد بالملك يومئذ وأن من كان يدعى الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا فى الدنيا قد زال ملكهم واعترفوا بأن الملك لله الواحد القهار وإنه لا منازع له فيه واعلموا أن الذى كانوا يدعونه من الملك فى الدنيا باطل وغرور واختلف العلماء فى الصور المذكور فى الآية فقال قوم هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن قال مجاهد الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء إعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور؟ «قال قرن ينفخ فيه» أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على أصحابه» فقالوا كيف نفعل يارسول الله وكيف نقول؟ قال «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا، وربما قال توكلنا على الله» أخرجه الترمذى وقال أبو عبيدة الصور جمع صورة والنفخ فيه إحياؤها بنفخ الروح فيها وهذا قول الحسن ومقاتل

قوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) يعني يعلم ماغاب عن العباد وما يشاهدونه لايغيب عن علمه شيء (وهو الحكيم الخبير) قوله عز وجل (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) قرأ يعقوب آزر بالرفع يعني آزر والقراءة المعروفة بالنصب وهو اسم أعجمي لاينصرف فينصب في موضع الخفض قال محمد بن إسحاق والضحاك والكلبي آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارخ أيضا مثل إسرائيل ويعقوب وكان من كوثى قرية من سواد

الكوفة وقال مقاتل بن حيان وغيره آزر لقب لأبي إبراهيم واسمه تارخ وقال سليمان التيمي هو سب وعيب ومعناه في كلامهم المعوج وقيل معناه الشيخ الهرم بالفارسية وقال سعيد ابن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم فعلى هذا يكون في محل النصب تقديره أتتخذ آزر إلها قوله (أصناما آلهة) دون الله (إني أراك وقومك في ضلال مبين) أي في خطأ بين (وكذلك نري إبراهيم) أي كما أريناه البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه كذلك نريه (ملكوت السموات والأرض) والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالجبروت والرحموت والرهبوت قال ابن عباس يعني خلق السموات والأرض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعني آيات السموات والأرض ، وذلك أنه أقيم على صخرة وكشف له عن ملكوت السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين ونظر إلى مكانه في الجنة ، فذلك قوله تعالى «وآتيناه أجره في الدنيا» يعني أريناه مكانه في الجنة

في دينه

وروى عن سلمان رضي الله عنه ورفعه بعضهم عن علي رضي الله عنه لما أرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له الرب عز وجل يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خصال: إما أن يتوب إلي فأتوب عليه وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني وإما أن يبعث إلي فإن شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته وفي رواية وإما أن يتولى

والقول الأول أصح لماتقدم في الحديث ولقوله تعالى في آية أخرى ثم نفخ فيه أخرى ولإجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب . وقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) يعني أنه تعالى يعلم ماغاب عن عباده ومايشاهدونه فلا يغيب عن علمه شيء (وهو الحكيم) يعني في جميع أفعاله وتدبير خلقه (الخبير) يعني بكل مايفعلونه من خير أوشر . قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) اختلف العلماء في لفظ آزر فقال محمد بن إسحاق والكلبي والضحاك آزر إسم أبي إبراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة فعلى هذا يكون لأبي إبراهيم إسمان آزر وتارح مثل يعقوب وإسرائيل إسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه الأصلي آزر وتارح لقب له وبالعكس والله سماه آزر وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو إبراهيم من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة وقال سليمان التيمي آزر سب وعيب ومعناه في كلامهم المعوج وقيل الشيخ الهرم وهو بالفارسية وهذا على مذهب من يجوز أن في القرآن ألفاظا قليلة فارسية وقيل هو المخطىء فكان إبراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم كان والد إبراهيم يعبده وإنما سماه بهذا الإسم لأن من عبد شيئا أوأحبه جعل اسم ذلك المعبود أوالمحبوب اسما له فهو كقوله «يوم ندعوا كل أناس بإمامهم» وقيل معناه وإذ قال إبراهيم لأبيه ياعابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والصحيح هو الأول أن آزر اسم لأبي إبراهيم لأن الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارح ففيه نظر لأنهم إنما نقلوه عن أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم وقد أخرج البخاري في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة» الحديث فسماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر أيضا ولم يقل أباه تارح فثبت بهذا أن اسمه الأصلي آزر لاتارح والله أعلم. وقوله تعالى (أتتخذ أصناما آلهة) معناه اذكر لقومك يامحمد قول إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك والأصنام جمع صنم وهو التمثال الذي يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان وهو الوثن أيضا (إني أراك وقومك في ضلال مبين) يعني يقول إبراهيم لأبيه آزر إني أراك وقومك الذين يعبدون الأصنام معك ويتخذونها آلهة في ضلال يعني عن طريق الحق مبين يعني بين لمن أبصر ذلك فانه لايشك أن هذه الأصنام لاتضر ولا تنفع وهذه الآية احتجاج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم ومحاجته لأبيه وقومه لأنهم كانوا يعظمون إبراهيم صلى الله عليه وسلم ويعترفون بفضله فلا جرم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في معرض الاحتجاج على المشركين قوله عزوجل (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض) معناه وكما أرينا إبراهيم البصيرة

فان جهنم من ورائه وقال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار (وليكون من الموقنين) عطف على المعنى ومعناه نريه ملكوت السموات والأرض ليستدل به وليكون من الموقنين (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا) الآية قال أهل التفسير ولد إبراهيم عليه السلام فى زمن نمرود بن كنعان وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له أنه يولد فى بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال إنهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء عليهم السلام فقال السدى رأى نمرود فى منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد فى ناحيتك فى هذه السنة فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه قالوا فأمر بذبح كل غلام يولد فى ناحيته فى تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلا فاذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لأنهم كانوا لا يجامعون فى الحيض فاذا طهرت حال بينهما فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بابراهيم عليه السلام وقال محمد بن إسحاق بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقرية فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم عليه السلام فانه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية حديثة السن لم يعرف الحبل فى بطنها وقال السدى خرج نمرود بالرجال من المعسكر ونحاهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود أن يكون فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأتمن عليها أحدا من قومه إلا آزر فبعث إليه ودعاه وقال له إن لى حاجة أريد أن أوصيك بها ولا أبعثك إلا لثقتى بك

فى دينه والحق فى خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال فى عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل فى قوله وكذلك نرى إبراهيم لأنه تعالى كان أراه بعين البصيرة إن أباه وقومه على غير الحق فخالفهم فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السموات والأرض فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة قال ابن عباس يعنى خلق السموات والأرض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعنى آيات السموات والأرض وذلك أنه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسى وما فى السموات من العجائب وحتى رأى مكانه فى الجنة فذلك قوله «وآتيناه أجره فى الدنيا» يعنى أريناه مكانه فى الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين ورأى ما فيها من العجائب قال البغوى وروى عن سلمان ورفعه بعضهم عن على قال لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى «يا إبراهيم أنت رجل مجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فانما أنا من عبدى على ثلاث خلال: إما أن يتوب إلى فأتوب عليه وإما أن أخرج منه نسمة تعبدنى وإما أن يبعث إلى فان شئت عفوت وإن شئت عاقبت» وفى رواية وإن تولى فان جهنم من ورائه قال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار واختلف فى هذه الرؤية هل كانت بعين البصر أو بعين البصيرة على قولين: أحدهما إنها كانت بين البصر الظاهر فشق لإبراهيم السموات حتى رأى العرش وشق له الأرض حتى رأى ما فى بطنها. والقول الثانى إن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لأن ملكوت السموات والأرض عبارة عن الملك وذلك لا يعرف إلا بالعقل فبان بهذا أن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة إلا أن يقال المراد بملكوت السموات والأرض نفس السموات والأرض. وقوله تعالى (وليكون من الموقنين) عطف على المعنى ومعناه «وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض» ليستدل به «وليكون من الموقنين» واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة لأن الإنسان فى أول الحال لا ينفك عن شبهة وشك فاذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة فى القلب وزالت الشبهة عند ذلك قال ابن عباس فى وليكون من الموقنين جلا له الأمر سره وعلانيته فلم يخف عليه شىء من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى إنك لا تستطيع هذا فرده الله كما كان قبل ذلك فمعنى الآية على هذا القول وكذلك أريناه ملكوت السموات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شىء حسا وخبرا. وقوله تعالى (فلما جن عليه الليل) يقال جن الليل وأجن إذا أظلم وغطى كل شىء وأجنه الليل وجن عليه إذا ستره بسواده (رأى كوكبا

فأقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك فقال آزر أنا أشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجته ثم قال لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلما نظر إلى أم إبراهيم عليه السلام لم يتمالك حتى واقعها فحملت بإبراهيم عليه السلام وقال ابن عباس رضي الله عنهما لما حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملته أمه الليلة فأمر نمرود بقتل الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم عليه السلام وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء فرجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا وكذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سربا عند نهر فواراه فيه وسد عليه بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه وقال محمد بن إسحاق لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه لتنظر ما فعل فتجده حيا يمص إبهامه وقال أبو روق قالت أم إبراهيم ذات يوم لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ومن أصبع لبنا ومن أصبع عسلا ومن أصبع تمرا ومن أصبع سمنا وقال محمد بن إسحاق كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت قد ولدت غلاما فمات فصدقها فسكت عنها وكان اليوم على إبراهيم في النشوء كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهرا حتى قال لأمه أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض

وقال إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي الذي ما لي إله غيره ثم نظر إلى السماء. فرأى كوكبا فقال هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين ثم رأى القمر بازغا قال هذا ربي ثم أتبعه ببصره حتى غاب ثم طلعت الشمس هكذا إلى آخره ثم رجع إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه وبرئ من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك فأخبره أنه إبنه

قال هذا ربي) . (ذكر القصة في ذلك)

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار والسير ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان الملك وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته وكان له كهان منجمون فقالوا له إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء وقال السدي رأى نمرود في منامه كأن كوكبا قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك أهل دينك على يديه فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة في ناحيته وأمر بعزل النساء عن الرجال وجعل على كل عشرة رجلا يحفظهم فإذا حاضت المرأة خلي بينها وبين زوجها لأنهم كانوا لا يجامعون في المحيض فإذا طهرت من الحيض حالوا بينهم قالوا فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت وأخبرته أم إبراهيم أنه إبنه وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه فسر آزر بذلك وفرح فرحا شديدا وقيل إنه كان في السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة قالوا فلما شب إبراهيم عليه السلام وهو في السرب قال لأمه من ربي؟ قالت أنا. قال فمن ربك؟ قالت أبوك. قال فمن رب أبي؟ قالت نمرود. قال فمن ربه؟ قالت له اسكت فسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه إبنك، ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه آزر فقال له إبراهيم عليه السلام يا أبتاه من ربي؟ قال أمك. قال فمن رب أمي؟ قال أنا. قال فمن ربك؟ قال نمرود. قال فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمة وقال له اسكت، فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكبا قال هذا ربي ويقال إنه قال لأبويه أخرجاني فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم فسأل أباه ما هذه؟ فقال إبل وخيل وغنم ما لهذه بد من أن يكون لها رب وخالق ثم نظر فإذا المشترى قد طلع ويقال الزهرة فكان تلك الليلة في آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فيها فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل «فلما جن عليه الليل» أي دخل الليل يقال جن الليل وأجن الليل وجنه الليل وأجن عليه الليل يجن جنونا وجنانا إذا أظلم وغطى كل شيء وجنون الليل سواده رأى كوكبا قرأ أبو عمرو رأى بفتح الراء وكسر الألف ويكسرهما ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر فإن اتصل بكاف أوهاء فتحهما ابن عامر وإن لقيهما ساكن كسر الراء وفتح الهمزة حمزة وأبو بكر وفتحهما الآخرون (قال هذا ربي) واختلفوا في قوله : ذلك فأجراه

بعضهم على الظاهر وقالوا كان إبراهيم مسترشدا طالبا للتوحيد حتى وفقه الله وآتاه رشده فلم يضره ذلك في حال الاستدلال وأيضا كان ذلك في حال طفوليته قبل قيام الحجة عليه فلم يكن كفرا وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه برئ وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأخبره عنه وقال إذ جاء ربه بقلب سليم وقال وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكبا قال هذا ربي معتقدا فهذا مالا يكون أبدا ثم قال فيه أربعة أوجه من التأويل: أحدها إن إبراهيم أراد أن يستدرج القوم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ماعظموه وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويرون أن الأمور كلها إليها فأراهم أنه معظم ماعظموه وملتمس الهدى من حيث ماالتمسوه فلما أفل أراهم النقص الداخل على النجوم ليثبت خطأ مايدعون ومثل هذا مثل الحواري الذي ورد على قوم يعبدون الصنم فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدروا في كثير من الأمور عن رأيه إلا أن دهمهم عدو فشاوروه في أمره فقال الرأي أن ندعو

فحملت بابراهيم وقال محمد بن إسحاق بعث نمرود إلى كل رجل امرأة حبلى بقربه فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم فانه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحبل في بطنها وقال السدى فخرج نمرود بالرجال إلى العسكر وعزلهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود فمكث بذلك ماشاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأمن عليها أحدا من قومه إلا آزر فبعث إليه فأحضره عنده وقال له إن لي إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك فيها إلا لثقتي بك فأقسمت عليك ألا تدنو من أهلك فقال آزر أنا أشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك ثم قال لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلما دخل على أم إبراهيم ونظر إليها لم يتمالك حتى واقعها فحملت من ساعتها بابراهيم قال ابن عباس لما حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة فأمر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها قالوا فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ثم رجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا فانطلق إليه أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سربا في النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه وقال محمد بن إسحاق لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه مايصنع بالمولود ثم سدت عليها باب المغارة ثم رجعت إلى بيتها وكانت تختلف إليه لتنظر مافعل فتجده حيا وهو يمص إبهامه قال أبو روق قالت أم إبراهيم لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ومن أصبع لبنا ومن أصبع سمنا ومن أصبع عسلا ومن أصبع تمرا وقال محمد بن إسحاق كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها وسكت عنها وكان إبراهيم يشب في اليوم كالشهر وفي الشهر كالسنة فلم يمكث في المغارة إلا خمسة عشر شهرا حتى قال أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض وقال إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي الذي مالي إله غيره ونظر في السماء فرأى كوكبا قال هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي وأتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب ثم طلعت الشمس قال هكذا إلى آخره ثم رجعت به إلى أبيه آزر قد استقامت وجهته وعرف ربه وبرئ من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك فلما رجعت به أمه أخبرته أنه ابنه وأخبرته بما صنعت به فسر بذلك وفرح فرحا شديدا وقيل إنه مكث في السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة قالوا فلما شب إبراهيم وهو في السرب قال لأمه من ربي؟ قالت أنا. قال فمن ربك؟ قالت أبوك. قال فمن رب أبي؟ قالت أسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض فانه ابنك ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه آزر فقال إبراهيم ياأبتاه من ربي؟ قال أمك. قال فمن رب أمي؟ قال أنا. قال فمن ربك؟ قال نمرود. قال فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمة وقال اسكت. فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكبا قال هذا ربي ويقال إنه قال لأبويه أخرجاني فأخرجاه من باب السرب حين غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم فسأل أباه ماهذه؟ قال إبل وخيل وغنم فقال إبراهيم مالهذه بد من أن يكون لها إله وهو ربها وخالقها ثم نظر فاذا المشترى قد طلع ويقال إنها الزهرة

وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل «فلما جن عليه الليل» يعنى ستره بظلامه رأى كوكبا قال «هذا ربى» ثم اختلف العلماء فى وقت هذه الرؤية وفى وقت هذا القول هل كان قبل البلوغ أو بعده على قولين: أحدهما أنه كان قبل البلوغ فى حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة عليه فلم يكن لهذا القول الذى صدر من إبراهيم فى هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لأن الأحكام إنما تثبت بعد البلوغ وقيل إن إبراهيم لما خرج من السرب فى حال صغره ونظر إلى السماء وما فيها من العجائب ونظر إلى الأرض وما فيها من العجائب وكان قد خصه الله بالعقل الكامل والفطرة السليمة تفكر فى نفسه وقال لابد لهذا الخلق من خالق مدبر وهو إله الخلق ثم نظر فى حال تفكره فرأى الكوكب وقد أزهر فقال هذا ربى على ماسبق إلى وهمه وذلك فى حال طفوليته وقبل استحكام النظر فى معرفة الرب سبحانه وتعالى واستدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين» قالوا وهذا يدل على نوع تحير وذلك لايكون إلا فى حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة وهذا القول ليس بسديد ولا مرضى لأن الأنبياء معصومون فى كل حال من الأحوال وأنه لايجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو بالله عارف وله موحد وله من كل منقصة منزه ومن كل معبود سواه برىء وكيف يتوهم هذا على إبراهيم وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوت السموات والأرض أفبرؤية الكوكب يقول معتقدا هذا ربى حاشا إبراهيم صلى الله عليه وسلم من ذلك لأن منصبه أعلى وأشرف من ذلك صلى الله عليه وسلم. والقول الثانى الذى عليه جمهور المحققين إن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم وحين شرفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة ثم اختلف أصحاب هذا القول فى تأويل الآية ومعناها فذكروا فيها وجوها: الوجه الأول أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم فى تعظيم النجوم وعبادتها لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها فأراهم إبراهيم أنه معظم ماعظموه فلما أفل الكوكب والقمر والشمس أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأفول ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية ومثل هذا كمثل الحوارى الذى ورد على قوم كانوا يعبدون صنما فأظهر تعظيمه فأكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رأيه فى كثير من أمورهم إلى أن دهمهم عدو لاقبل لهم به فشاوروه فى أمر هذا العدو فقال الرأى عندى أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنا مانزل بنا فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون إليه فلم يغن شيئا فلما تبين لهم أنه لاينفع ولا يضر ولا يدفع دعاهم الحوارى وأمرهم أن يدعوا الله عز وجل ويسألوه أن يكشف مانزل بهم فدعوا الله مخلصين فصرفت عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا جميعا. الوجه الثانى أن إبراهيم عليه السلام قال هذا القول على سبيل الاستفهام وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه وتقديره أهذا ربى الذى تزعمون وإسقاط حرف الاستفهام كثير فى كلام العرب ومنه قوله تعالى «أفإن مت فهم الخالدون» يعنى أفهم الخالدون والمعنى أيكون هذا ربا ودلائل النقص فيه ظاهرة. الوجه الثالث أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول هذا ربى بزعمكم فلما غاب قال لو كان إلها كما تزعمون لما غاب فهو كقوله «ذق إنك أنت العزيز الكريم» يعنى عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى

هذا الصنم حتى يكشف عنا ماقد أظلنا فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبين له أنه لاينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعوا الله فدعوه فصرفت عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا. والوجه الثانى من التأويل أنه قاله على وجه الاستفهام تقديره أهذا ربي كقوله تعالى «أفإن مت فهم الخالدون» أى أفهم الخالدون وذكره على وجه التوبيخ منكرا لفعلهم يعنى أمثل هذا يكون ربا أى ليس هذا ربى والوجه الثالث أنه ذكره على وجه الاحتجاج عليهم يقول هذا ربى بزعمكم فلما غاب قال: لو كان إلها لما غاب كما قال «ذق إنك أنت العزيز الكريم» أى عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى أنه قال «وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه» يريد إلهك بزعمك والوجه الرابع فيه إضمار وتقديره يقولون هذا ربى كقوله تعالى «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا» أى يقولان ربنا تقبل منا

(فلما افل قال لاأحب الآفلين) ومالا يدوم (فلما رأى القمر بازغا) طالعا (قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى) قيل لئن لم يثبتنى ربى على الهدى ليس أنه لم يكن مهتديا والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان وكان إبراهيم يقول «واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام» (لأكونن من القوم الضالين) أى عن الهدى (فلما رأى الشمس بازغة) طالعة (قال هذا ربى هذا أكبر) أى أكبر من الكوكب والقمر ولم يقل هذه مع أن الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع أورده إلى المعنى وهو الضياء والنور لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر (فلما أفلت) غربت (قال ياقوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان) ولما رجع إبراهيم عليه السلام إلى أبيه وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذباحين وضمه آزر إلى نفسه جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها فيذهب إبراهيم عليه السلام وينادى من يشترى مايضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوب فيه رءوسها وقال اشربى استهزاء بقومه وبماهم فيه من الضلالة حتى فشا استهزاؤه بها فى قومه وأهل قريته فحاجه أى خاصمه وجادله قومه فى دينه قال «أتحاجونى فى الله» قرأ أهل المدينة وابن عامر بتخفيف النون

« أنظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا » يريد إلهك بزعمك الوجه الرابع إن فى هذه الآية إضمارا تقديره يقولون «هذا ربى» وإضمار القول كثير فى كلام العرب ومنه قوله تعالى «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا» أى يقولان «ربنا تقبل منا» . الوجه الخامس إن الله تعالى قال فى حقه «وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين» ثم قال بعده «فلما جن عليه الليل» والفاء تقتضى التعقيب فدل هذا إن هذه الواقعة كانت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض وبعض الإيقان ومن كان معه بهذه المنزلة العالية الشريفة لا يليق بحاله أن يعبد الكواكب ويتخذها ربا. فأما الجواب عن قوله «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين» فان الأنبياء عليهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبيت ومنه قوله «واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام» قوله تعالى (فلما أفل) يعنى غاب والأفول غيبة النيرات (قال) يعنى إبراهيم (لاأحب الآفلين) يعنى لاأحب ربا يغيب ويطلع لأن أمارات الحدوث فيه ظاهرة قوله تعالى (فلما رأى القمر بازغا) يعنى طالعا منتشر الضوء (قال هذا ربى) معناه ماتقدم من الكلام فى الكوكب (فلما أفل) يعنى غاب (قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) يعنى إن لم يثبتنى ربى على الهدى وليس المراد أنه لم يكن مهتديا لأن الأنبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة وفى الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى لأن إبراهيم أضاف الهداية لله تعالى (فلما رأى الشمس بازغة) يعنى طالعة (قال هذا ربى) يعنى هذا الطالع أو أنه إشارة إلى الضياء والنور لأنه رأى الشمس أضوأ من الكوكب والقمر وقيل إنما قال هذا ولم يقل هذه لأن تأنيث الشمس غير حقيقى فلهذا أتى بلفظ التذكير (هذا أكبر) يعنى من الكوكب والقمر (فلما أفلت) يعنى فلما غابت الشمس (قال ياقوم إنى برىء مما تشركون) يعنى أنه لما أثبت إبراهيم عليه السلام بالدليل القطعى أن هذه النجوم ليست بآلهة ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه أنه برىء مما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ماهو عليه من الدين الحق فقال (إنى وجهت وجهى) يعنى إنى صرفت وجه عبادتى وقصرت توحيدى (للذى فطر السموات والأرض) يعنى للذى خلقهما وابتدعهما (حنيفا) يعنى مائلا عن عبادة كل شىء سوى الله تعالى وأصل الحنف الميل وهو ميل عن طريق الضلال إلى طريق الاستقامة وقيل الحنيف هو الذى يستقبل الكعبة فى صلاته (وما أنا من المشركين) تبرأ من الشرك الذى كان عليه قومه . قوله عز وجل (وحاجه قومه) يعنى وخاصمه قومه وذلك لما أظهر إبراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التى كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عز وجل خاصمه قومه وجادلوه فى ذلك فقال أتحاجونى فى الله يعنى تجادلونى فى توحيدى له وقد هدانى وقد بين لى طريق الهداية إلى توحيده ومعرفته وقال البغوى لما رجع إبراهيم إلى أبيه وصار من الشباب بحالة تسقط عنه طمع الذابحين وضمه آزر إلى نفسه جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها فيذهب إبراهيم وينادى من يشترى مايضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوب فيه رءوسها وقال اشربى استهزاء بقومه وبماهم فيه من الضلالة حتى فشا استهزاؤه بها فى قومه وأهل قريته حاجه قومه يعنى خاصمه وجادله قومه فى دينه (قال) يعنى إبراهيم (أتحاجونى فى الله وقد هدان) يعنى إلى توحيده ومعرفته

وقرأ الآخرون بتشديدها إدغاما لإحدى النونين فى الأخرى ومن خفف حذف إحدى النونين تخفيفا يقول أتجادلوننى فى توحيد الله وقد هدانى للتوحيد والحق (ولا أخاف ماتشركون به) وذلك أنهم قالوا له احذر الأصنام فانا نخاف أن تمسك بسوء من خبل أو جنون لعيبك إياها فقال لهم ولا أخاف ماتشركون به (إلا أن يشاء ربى شيئا) وليس هذا باستثناء من الأول بل هو استثناء منقطع معناه لكن إن يشأ ربى شيئا أى سوءا فيكون ماشاء (وسع ربى كل شىء علما) أى أحاط علمه بكل شىء (أفلا تتذكرون وكيف أخاف ماأشركتم) يعنى الأصنام وهى لاتبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا) حجة وبرهانا وهو القاهر القادر على كل شىء (فأى الفريقين أحق) أولى (بالأمن) أنا وأهل دينى أم أنتم؟ (إن كنتم تعلمون) فقال الله تعالى قاضيا بينهما (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) لم يخلطوا إيمانهم بشرك (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد ابن إسماعيل ثنا إسحاق ثنا عيسى بن يونس أنا الأعمش أنا إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» من شق ذلك على المسلمين فقالوا يارسول الله فأينا لا يظلم نفسه؟ فقال ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا إلى ماقال لقمان لابنه وهو يعظه «يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» قوله عز وجل (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) حتى خصمهم

(ولا أخاف ماتشركون به) وذلك أنهم قالوا له احذر الأصنام فانا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون لعيبك إياها فأجابهم بقوله ولا أخاف ماتشركون به فانها جمادات لاتضر ولا تنفع وإنما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله (إلا أن يشاء ربى شيئا) يعنى لكن أن يشأ ربى شيئا كان مايشاء لأنه قادر على النفع والضر وإنما قال إبراهيم ذلك لاحتمال إن الإنسان قد يصيبه فى بعض حالاته وأيام عمره مايكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه إلى الأصنام فنفى هذه الشبهة بقوله «إلا أن يشاء ربى شيئا» وهذا استثناء منقطع وليس هو من الأول فى شىء والمعنى ولكن إن شاء ربى شيئا كان (وسع ربى كل شىء علما) يعنى أحاط علمه بكل شىء فلا يخرج شىء عن علمه (أفلا تتذكرون) يعنى أفلا تعتبرون أن هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع وأن الضار هو الذى خلق السموات والأرض ومن فيهما (وكيف أخاف ماأشركتم) يعنى وكيف أخاف الأصنام التى أشركتم بها لأنها جمادات لاتبصر ولاتسمع ولاتضر ولاتنفع (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) يعنى وأنتم لاتخافون وقد أشركتم بالله وهو من أعظم الذنوب (مالم ينزل به عليكم سلطانا) يعنى ما ليس لكم فيه حجة وبرهان (فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) يعنى يقول من أولى بالأمن من العذاب فى يوم القيامة الموحد أم المشرك (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وهذا فصل قضاه الله بين إبراهيم وبين قومه يعنى أن الذين يستحقون الأمن يوم القيامة هم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم وقيل هو من تمام كلام إبراهيم فى المحاجة لقومه والمعنى إن الذين يحصل لهم الأمن يوم القيامة هم الذين آمنوا يعنى آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيئا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم يعنى ولم يخلطوا إيمانهم بشرك (ق) عن ابن مسعود قال لما نزلت «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» شق ذلك على المسلمين وقالوا أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه «يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» وفى رواية ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه وذكره وقيل فى معنى قوله ولم يلبسوا إيمانهم بظلم يعنى ولم يخلطوا إيمانهم بشىء من معانى الظلم وذلك بأن يفعل بعض مانهى الله عنه أو يترك ماأمر الله به فعلى هذا القول تكون الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معانى الظلم دون غيره والصحيح أن الظلم المذكور فى هذه الآية هو الشرك لما تقدم من حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم فسر الظلم هنا بالشرك وفى الآية دليل على أن من مات لايشرك بالله شيئا كانت عاقبته الأمن من النار لقوله (أولئك) يعنى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم (لهم الأمن) يوم القيامة من عذاب النار (وهم مهتدون) يعنى إلى سبيل الرشاد. وقوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) يعنى ماجرى بين إبراهيم وبين قومه وما تدل على حدوث الكوكب والقمر والشمس بالأفول وقيل لما قالوا لإبراهيم إنا نخاف عليك من آلهتنا لسبك إياها قال أفلا تخافون أنتم منها إذ سويتم بين الصغير والكبير فى العبادة أن يغضب الكبير عليكم وقيل إنه خاصم قومه المشركين فقالوا أى الفريقين أحق بالأمن

وغلبهم بالحجة قال مجاهد هى قوله الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وقيل أراد به الحجاج الذى حاج به نمرود على ماسبق فى سورة البقرة (نرفع درجات من نشاء) بالعلم قرأ أهل الكوفة ويعقوب درجات بالتنوين هاهنا وفى سورة يوسف أى نرفع درجات من نشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاج قومه فى التوحيد (إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا) وفقنا وأرشدنا (ونوحا هدينا من قبل)

أى من قبل إبراهيم (من ذريته) أى من ذرية نوح عليه السلام ولم يرد من ذرية إبراهيم لأنه ذكر فى جملتهم يونس ولوطا ولم يكونا من ذرية إبراهيم (داود) هو داود بن إيشا (وسليمان) يعنى إبنه (وأيوب) وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم ابن عيص ابن إسحاق بن إبراهيم (ويوسف) هو يوسف ابن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليه السلام (وموسى) وهو موسى ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (وهارون) هو أخو موسى أكبر منه بسنة (وكذلك) أى كما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولادا أنبياء أتقياء كذلك (نجزى المحسنين) على إحسانهم وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم (وزكريا) هو زكريا ابن آذن (ويحيى) وهو إبنه (وعيسى) وهو ابن مريم بنت عمران (وإلياس) واختلفوا فيه قال ابن مسعود هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل والصحيح أنه غيره لأن الله تعالى ذكره فى ولد نوح وإدريس جد أبى نوح وهو إلياس بن بشر بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران (كل من الصالحين وإسماعيل) وهو ولد إبراهيم (واليسع) وهو ابن أخطوب بن العجوز وقرأ حمزة والكسائى والليسع بتشديد اللام وسكون الياء هنا وفى ص (ويونس) وهو يونس بن متى (ولوطا) وهو لوط

من يعبد إلها واحدا مخلصا له الدين والعبادة ثم من يعبد أربابا كثيرة فإن قالوا من يعبد إلها واحدا فقد ضموا على أنفسهم فكانت هذه حجة إبراهيم عليه (نرفع درجات من نشاء) يعنى بالعلم والفهم والعقل والفضيلة كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى إلى محاجة قومه وقيل نرفع درجات من نشاء فى الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة وفى الآخرة بالثواب على الأعمال الصالحة (إن ربك حكيم عليم) يعنى أنه تعالى حكيم فى جميع أفعاله عليم بجميع أحوال خلقه لايفعل شيء إلا بحكمة وعلم. قوله عز وجل (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) لما أظهر إبراهيم عليه السلام دينه وغلب خصمه بالحجج القاطعة والبراهين القوية والدلائل الصحيحة التى فهمه الله تعالى إياه وهداه إليها عدد الله نعمه عليه وإحسانه إليه بأن رفع درجته فى عليين وأبقى النبوة فى ذريته إلى يوم الدين فقال تعالى «ووهبنا له» يعنى لإبراهيم إسحاق يعنى ابنا لصلبه ويعقوب يعنى ابن إسحاق وهو ولد الولد (كلا هدينا) يعنى هدينا جميعهم إلى سبيل الرشاد ووفقناهم إلى طريق الحق والصواب (ونوحا هدينا من قبل) يعنى من قبل إبراهيم أرشدنا نوحا ووفقناه للحق والصواب ومننا عليه بالهداية (ومن ذريته) اختلفوا فى الضمير إلى من يرجع فقيل يرجع إلى إبراهيم يعنى ومن ذرية إبراهيم (داود وسليمان) وقيل يرجع إلى نوح وهو اختيار جمهور المفسرين لأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور ولأن الله ذكر فى جملة هذه الذرية لوطا وهو ابن أخي إبراهيم ولم يكن من ذريته فثبت بهذا أن هاء الكناية ترجع إلى نوح وقال الزجاج كلا القولين جائز لأن ذكرهما جميعا قد جرى وداود هو ابن إيشا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة وكذلك سليمان بن داود (وأيوب) هو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم (ويوسف) هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (وموسى) هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب (وهرون) هو أخو موسى وكان أكبر منه بسنة (وكذلك نجزى المحسنين) يعنى وكما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه كذلك نجزى المحسنين على إحسانهم (وزكريا) هو ابن آذن بن بركيا (ويحيى) هو ابن زكريا (وعيسى) هو ابن مريم بنت عمران (وإلياس) قال ابن مسعود هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل وقال محمد بن إسحاق هو إلياس بن سنا بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران وهذا هو الصحيح لأن أصحاب الأنساب يقولون إن إدريس جد نوح لأن نوحا ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس ولأن الله تعالى نسب إلياس فى هذه الآية إلى نوح وجعله من ذريته (كل من الصالحين) يعنى أن كل من ذكرنا وسمينا من الصالحين (وإسمعيل) هو ابن إبراهيم وإنما أخر ذكره إلى هنا لأنه ذكر إسحاق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر إسماعيل إلى هنا (واليسع) هو ابن أخطوب بن العجوز (ويونس) هو ابن متى (ولوطا) هو ابن أخى إبراهيم

لأن آباء بعضهم كانوا مشركين (وذرياتهم) أى ومن ذرياتهم وأراد ذرية بعضهم لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان فى ذرية بعضهم من كان كافرا (وإخوانهم واجتبيناهم) اخترناهم واصطفيناهم (وهديناهم) أرشدناهم (إلى صراط مستقيم ذلك هدى الله) دين الله (يهدى به) يرشد به (من يشاء من عباده ولو أشركوا) أى هؤلاء الذين سميناهم (لحبط) لبطل وذهب (عنهم ماكانوا يعملون أولئك الذين آتيناهم الكتاب) أى الكتب المنزلة عليهم (والحكم) يعنى العلم والفقه (والنبوة فان يكفر بها هؤلاء) يعنى أهل مكة (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) يعنى الأنصار وأهل المدينة قاله ابن عباس ومجاهد وقال قتادة فان يكفر بها هؤلاء الكفار فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين يعنى الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله هاهنا وقال أبو رجاء العطاردي معناه فان يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء وهم الملائكة قوما ليسوا بها بكافرين (أولئك الذين هدى الله) أى هداهم الله يعنى

(وكلا فضلنا على العالمين) يعنى على عالمي زمانهم ويستدل بهذه الآية من يقول إن الأنبياء أفضل من الملائكة لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه الملك فيقتضى أن الأنبياء أفضل من الملائكة. واعلم أن الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبيا من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لأن الواو لا تقتضى الترتيب ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب وهى أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل فذكر أولا نوحا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول الأنبياء وإليهم ترجع أنسابهم جميعا ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان قد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظا وافرا ومن المراتب: الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب عليه السلام ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف عليه السلام فانه صبر على البلاء والشدة إلى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله تعالى موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا والإعراض عنها وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى والياس عليهم السلام ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط فاذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شىء يذكر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. قوله تعالى (ومن آبائهم) يعنى ومن آباء الذين سميناهم ومن هنا للتبعيض لأن من آباء بعضهم من لم يكن مسلما (وذرياتهم) يعنى ومن ذرياتهم أى بعضهم لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان فى ذرية بعضهم من هو كافر كابن نوح (وإخوانهم) يعنى ومن إخوانهم والمعنى أن الله تعالى وفق من آباء المذكورين ومن إخوانهم وذرياتهم للهداية وخالص الدين وهو قوله تعالى (واجتبيناهم) يعنى اخترناهم واصطفيناهم (وهديناهم) يعنى وأرشدناهم (إلى صراط مستقيم) أى إلى دين الحق (ذلك هدى الله) قال ابن عباس ذلك دين الله الذى كان عليه هؤلاء الأنبياء وقيل المراد بهدى الله معرفة الله وتنزيهه عن الشركاء والاضداد والأنداد (يهدى به من يشاء من عباده) يعنى يوفق من يشاء من عباده) يعنى يوفق من يشاء من عباده ويرشده إلى دينه وطاعته وخلع الاضداد والشركاء (ولو أشركوا) يعنى هؤلاء الذين سميناهم (لحبط) يعنى لبطل وذهب (عنهم ما كانوا يعملون) من الطاعات قبل ذلك لأن الله تعالى لا يقبل مع الشرك من الأعمال شيئا. قوله عز وجل (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) يعنى أولئك الذين سميناهم من الأنبياء أعطيناهم الكتب التى أنزلناها عليهم وآتيناهم العلم والفهم وشرفناهم بالنبوة وإنما قدم ذكر الكتاب والحكمة على النبوة وإن كانت النبوة هى الأصل لأن منصب النبوة أشرف المراتب والمناصب فذكروا أولا الكتاب والحكم لأنهما يدلان على النبوة (فان يكفر بها هؤلاء) يعنى فان يجحد بدلائل التوحيد والنبوة كفار قريش (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) قال ابن عباس هم الأنصار وأهل المدينة وقيل هم المهاجرون والأنصار وقال الحسن وقتادة هم الأنبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال والدليل عليه قوله «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» وقال رجاء العطاردى هم الملائكة وفيه بعد لأن اسم القوم لا ينطلق إلا على بنى آدم وقيل هم الفرس قال ابن زيد كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أو نبيا أو من الصحابة أو التابعين وفى الآية دليل على أن الله تعالى ينصر نبيه صلى الله عليه وسلم ويقوى دينه ويجعله عاليا على الأديان كلها وقد جعل ذلك فهو إخبار عن الغيب. قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله)

يعنى النبيين الذين تقدم ذكرهم لأنهم هم المخصوصون بالهداية (فبهداهم اقتده) إشارة إلى النبى صلى الله عليه وسلم يعنى فبشرائعهم وسننهم إعمل وأصل الاقتداء فى اللغة طلب مرافقة الثانى للأول فى فعله وقيل أمره أن يقتدى بهم فى أمر الدين الذى أمرهم أن يجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن جميع النقائص التى لاتليق بجلاله فى الأسماء والصفات والأفعال وقيل أمره الله أن يقتدى بهم فى جميع الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية والصفات الرفيعة الكاملة مثل: الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم وقيل أمره أن يقتدى بشرائعهم إلا ماخصه دليل آخر فعلى هذا القول يكون فى الآية دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا.

(فصل)

احتج العلماء بهذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بيانه أن جميع خصال الكمال وصفات الشرف وكانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة فى الله عز وجل وكان إسحاق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود عليه السلام وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة قال الله فيهم «إعملوا آل داود شكرا» وكان أيوب صاحب صبر على البلاء قال الله فيه «إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب» وكان يوسف قد جمع بين الحالتين يعنى الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزات الباهرة، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد فى الدنيا وكان إسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع وإخبات ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقتدى بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرقة فيهم فثبت بهذا البيان أنه ﷺ كان أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التى كانت متفرقة فى جميعهم والله أعلم. وقوله تعالى (قل لاأسألكم عليه أجرا) يعنى قل يامحمد لاأطلب على تبليغ الرسالة جعلا قيل لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هداهم عدم طلب الأجر على إيصال الدين وإبلاغ الشريعة لاجرم اقتدى بهم فقال لاأسألكم عليه أجرا (إن هو) يعنى ماهو يعنى القرآن (إلا ذكرى للعالمين) يعنى أن القرآن موعظة وذكرى لجميع العالم من الجن والإنس وفيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى جميع الخلق من الجن والإنس وإن دعوته عمت جميع الخلائق. قوله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) قال ابن عباس لما عظموا الله حق عظمته وعنه أن معناه ما آمنوا أن الله على كل شىء قدير وقال أبو العالية ماوصفوا الله حق وصفه وقال الأخفش ماعرفوا الله حق معرفته يقال قدر الشىء إذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقداره يقال قدره يقدره بالضم قدرا ثم يقال لمن عرف شيئا هو يقدره قدره وإذا لم يعرفه بصفاته يقال فيه إنه لايقدر قدره فقوله «وما قدروا الله حق قدره» يصح فيه جميع الوجوه المذكورة فى معناه (إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء) يعنى الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ماقدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته إذ لو عرفوه حق معرفته لما قالوا هذه المقالة، ثم اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على قولين: أحدهما أنها نزلت فى كفار قريش وهذا على قول من يقول إن جميع هذه السورة مكية وهو قول السدى وروى ذلك عن مجاهد وصححه الطبرى قال لأن من أول السورة إلى هذا الموضع هو خبر عن المشركين من عبدة الأصنام وكان قوله «وماقدروا الله حق قدره» موصولا بذلك غير مفصول عنه فلا يكون قوله إذ قالوا «ماأنزل الله على بشر من شىء» خبرا عن غيرهم وأورد فخر الدين الرازى على هذا القول إشكالا وهو أن كفار قريش

(فبهداهم) فبسننهم وسيرتهم (اقتده) الهاء فيها هاء الوقف وحذف حمزة والكسائى ويعقوب الهاء فى الوصل والباقون باثباتها وصلا ووقفا وقرأ ابن عامر «اقتده» باشباع الهاء كسرا (قل لاأسألكم عليه أجرا إن هو) ماهو (إلا ذكرى) أى تذكرة وموعظة (للعالمين) قوله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) أى ماعظموه حق عظمته وقيل ما وصفوه حق وصفه (إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء) قال سعيد بن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبى صلى الله عليه وسلم بمكة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا فغضب فقال والله

ينكرون نبوة جميع الأنبياء فكيف يمكن إلزامهم بنبوة موسى وأيضا فما بعد هذه الآية لايليق بكفار قريش إنما يليق بحال اليهود وأجاب عنه بأن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالتوراة وبالمعجزات الباهرات وإنما أنكر كفار قريش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيمكن إلزامهم بقوله «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» وأجاب عن كون سياق الآية لايليق إلا بحال اليهود بأن كفار قريش واليهود لما كانوا مشتركين فى إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يبعد أن بعض الآية يكون خطابا لكفار قريش وبعضها خطابا لليهود. والقول الثانى فى سبب نزول هذه الآية وهو قول جمهور المفسرين أنها نزلت فى اليهود وهذا على قول من يقول إن هذه الآية نزلت بالمدينة وأنها من الآيات المدنيات التى فى السور المكية قال ابن عباس نزلت سورة الأنعام بمكة إلا ست آيات منها قوله «وما قدروا الله حق قدره» فانها نزلت بالمدينة ثم اختلف القائلون بهذا القول فى اسم من نزلت هذه الآية فيه فقال سعيد بن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أما تجدون فى التوراة إن الله يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا فغضب وقال والله ما أنزل الله على بشر من شىء فقال أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى فقال والله ما أنزل الله على بشر من شىء فأنزل الله «وما قدروا الله حق قدره» «إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء» «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» نورا وهدى للناس الآية قال البغوى وفى القصة إن مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا أليس الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت ما أنزل الله على بشر من شىء فقال مالك بن الصيف أغضبنى محمد فقلت ذلك فقالوا له وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب الأشرف وقال السدى لما نزلت هذه الآية فى فنحاص بن عازوراء اليهودى وهو القائل هذه المقالة وقال ابن عباس قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتابا؟ قال نعم فقالوا والله ما أنزل الله من السماء كتابا فأنزل الله «وما قدروا الله حق قدره» «إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء» «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» الآية وقال محمد بن كعب القرظى جاء ناس من اليهود إلى النبى ﷺ وهو محتب؟ فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحا يحملونها من عند الله فأنزل الله «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء» الآية التى فى سورة النساء فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة جثا رجل منهم وقال ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئا فأنزل الله «وما قدروا الله حق قدره» إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء وأورد الرازى على هذا القول إشكالا أيضا وهو أنه قال إن اليهود مقرون بانزال التوراة على موسى فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شىء مع اعترافهم بانزال التوراة ولم يجب عن هذا الإشكال بشىء وأجيب عنه بأن مراد اليهود إنكار إنزال القرآن على محمد ﷺ فقط ولهذا ألزموا بما لابد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى فقال تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) أى قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين أنكروا إنزال القرآن عليك بقولهم ما أنزل الله على بشر من شىء من أنزل التوراة على موسى وفى هذا الإلزام توبيخ اليهود بسوء جهلهم وإقدامهم على إنكار الحق الذى لاينكر (نورا وهدى للناس) يعنى التوراة ضياء من ظلمة الضلالة

ما أنزل الله على بشر من شىء وقال السدى نزلت فى فنحاص بن عازوراء وهو قائل هذه المقالة وفى القصة أن مالك ابن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا أليس إن الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت ما أنزل الله على بشر من شىء؟ قال فقال مالك بن الصيف أغضبنى محمد فقلت ذلك فقالوا له وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه من الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف وقال ابن عباس رضى الله عنهما قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتابا؟ قال نعم قالوا والله ما أنزل الله من السماء كتابا فأنزل الله «وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء» ، قال الله (قل) لهم (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس) يعنى التوراة

وبيانا يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن تبدل وتغير (تجعلونه قراطيس) يكتبونه فى قراطيس مقطعة (تبدونها) يعنى القراطيس المكتوبة (وتخفون كثيرا) يعنى ويخفون كثيرا مما كتبوه فى القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد ﷺ ونعته فى التوراة ومما أخفوه أيضا آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) أكثر المفسرين على أن هذا خطاب لليهود ومعناه أنكم علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من قبل قال الحسن جعل لهم علم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فضيعوه ولم ينتفعوا به وقال مجاهد هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (قل الله) هذا راجع إلى قوله «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» فان أجابوك يا محمد وإلا فقل أنت الله الذى أنزله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) يعنى دعهم يا محمد فيما هم فيه يخوضون من باطلهم وكفرهم بالله ومعنى يلعبون يستهزءون ويسخرون وقيل معناه يا محمد إنك إذا أقمت الحجة عليهم وبلغت فى الأعذار والإنذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شىء فذرهم فيما هم فيه من الخوض واللعب وفيه وعيد وتهديد للمشركين وقال بعضهم هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد لأنه مذكور لأجل التهديد والوعيد. قوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعنى وهذا القرآن كتاب أنزلناه من عندنا عليك يا محمد كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير (مصدق الذى بين يديه) يعنى من الكتب الإلهية المنزلة من السماء على الأنبياء يعنى أنه موافق لما فى التوراة والإنجيل وسائر الكتب لأنها اشتملت جميعها على التوحيد والتنزيه لله من كل عيب ونقيصة وتدل على البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقا لجميع الكتب المنزلة (ولتنذر) قرئ بالتاء يعنى ولتنذر يا محمد وبالياء ومعناه ولينذر الكتاب (أم القرى) يعنى مكة وفيه حذف تقديره ولتنذر أهل القرى وسميت مكة أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها قاله ابن عباس وقيل لأنها أقدم القرى وأعظمها بركة وقيل لأنها قبلة أهل الأرض (ومن حولها) يعنى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) يعنى والذين يصدقون بقيام الساعة وبالمعاد والبعث بعد الموت يصدقون بها الكتاب وأنه منزل من عند الله عز وجل وقيل ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك أن الذى يؤمن بالآخرة يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ومن كان كذلك فانه يرغب فى تحصيل الثواب ورد العقاب عنه وذلك لا يحصل إلا بالنظر التام فاذا نظر وتفكر علم بالضرورة أن دين محمد أشرف الأديان وشريعته أعظم الشرائع (وهم على صلواتهم يحافظون) يعنى يداومون عليها فى أوقاتها والمعنى أن الإيمان بالآخرة يحمل على الإيمان بمحمد ﷺ وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة، وفائدة تخصيص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات التنبيه على أنها أشرف العبادات بعد الإيمان بالله تعالى فاذا حافظ العبد عليها يكون محافظا على جميع العبادات والطاعات

(تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) أى تكتبون عنه دفاتر وكتبا مقطعة تبدونها أى تبدون ما تحبون وتخفون كثيرا من نعت محمد ﷺ وآية الرجم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يجعلونه ويبدونها ويخفونها بالياء جميعا لقوله تعالى «وما قدروا الله» وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى وقوله (وعلمتم مالم تعلموا) الأكثرون على أنها خطاب لليهود يقول علمتم على لسان محمد ﷺ مالم تعلموا (أنتم ولا آباؤكم) قال الحسن جعل لهم علم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فضيعوه ولم ينتفعوا به وقال مجاهد هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان محمد ﷺ (قل الله) هذا راجع إلى قوله «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» فان أجابوك وإلا فقل أنت الله أى قل أنزله الله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك) أى القرآن كتاب مبارك أنزلناه (مصدق الذى بين يديه ولتنذر) يا محمد قرأ أبو بكر عن عاصم ولينذر بالياء أى ولينذر الكتاب (أم القرى) يعنى مكة سميت أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها فهى أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل وأراد أهل أم القرى (ومن حولها) أى أهل الأرض كلها شرقا وغربا (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) بالكتاب (وهم على صلواتهم) يعنى الصلوات الخمس (يحافظون) يداومون يعنى المؤمنين قوله عز وجل

(ومن أظلم ممن افترى) اختلق (على الله كذبا) فزعم أن الله تعالى بعثه نبيا (أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء) قال قتادة نزلت في مسيلمة الكذاب وكان يسجع ويتهكن فادعى النبوة وزعم أن الله أوحى إليه وكان قد أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهما أتشهدان أن مسيلمة نبي قالا نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم

قوله عز وجل (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني ومن أعظم خطأ وأجهل فعلا ممن اختلق على الله كذبا فزعم أن الله بعثه نبيا وهو في زعمه كذاب مبطل (أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء) قال قتادة نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب بن ثمامة وقيل مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات وكهانة وسجع ادعى النبوة باليمن وزعم أن الله أوحى إليه وكان قد أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم رسولين: فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدان أن مسيلمة نبي؟ قالا نعم فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا علي وأهماني فأوحي إلي أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة» وفي لفظ الترمذي قال رسول الله ﷺ رأيت في المنام كأن في يدي سوارين فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي، يقال لأحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء قوله فأوحي إلي أن أنفخهما يروى بالحاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفحت الدابة برجلها إذا دفعت ورمحت ويروى بالخاء المعجمة من النفخ يريد أنه نفخهما فطارا عنه وهو قريب من الأول فأما مسيلمة الكذاب فانه ادعى النبوة باليمامة من اليمن وتبعه قوم من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغتر قومه بذلك وقتل مسيلمة الكذاب في زمن خلافة أبي بكر الصديق قتله وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب وكان وحشي يقول قتلت خير الناس يعني حمزة وقتلت شر الناس يعني مسيلمة وأما الأسود العنسي بالنون فهو عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الحمار ادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقتل والنبي صلى الله عليه وسلم حي لم يمت وذلك قبل موته بيومين وأخبر أصحابه بقتله وقتله فيروز الديلمي فقال النبي صلى الله عليه وسلم فاز فيروز يعني بقتله الأسود العنسي فمن قال إن هذه الآية يعني قوله تعالى «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء» أنزلت في مسيلمة الكذاب والأسود العنسي يقول إن هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة وهو قول لبعض علماء التفسير تقدم ذكره في أول السورة ومن قال إن هذه الآية مكية وقال إنها نزلت في شأنهما يقول أنها خبر عن غيب قد ظهر ذلك فيما بعد والله أعلم. وقوله تعالى (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قال السدي نزلت في عبد الله بن أبي سرح القرشي وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي ﷺ فكان إذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما وإذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما فلما نزلت «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» أملاها عليه رسول الله ﷺ فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله بن أبي سرح وقال: لئن كان محمد صادقا فقد أوحي إلي مثل ما أوحي إليه فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبد الله بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم قبل فتح مكة والنبي صلى الله عليه وسلم نازل بمر الظهران وقال ابن عباس نزل قوله، ومن قال سأنزل مثل

لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا علي وأهماني فأوحي إلي أن أنفخهما فنفختهما فذهبا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة» أراد بصاحب صنعاء الأسود العنسي وبصاحب اليمامة مسيلمة الكذاب (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قيل نزلت في عبد الله ابن سعد بن أبي سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وكان إذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما وإذا قال عليما حكيما كتب غفورا رحيما فلما نزلت ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين أملاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إلي

ما أنزل

كما أوحى إليه فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبد الله إلى الإسلام قبل فتح مكة ، إذ نزل النبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وقال ابن عباس قوله ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله يريد المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قوله عز وجل (ولو ترى) يا محمد (إذ الظالمون فى غمرات الموت) (١٦١) سكراته وهى جمع غمرة كل شىء

ما أنزل الله فى المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل فى حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا فى ذلك الزمان وبعده لأنه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت) يعنى ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الظالمين إذا نزل بهم الموت لرأيت أمرا عظيما وغمراته شدائده وسكراته وغمرة كل شىء معظمه وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ثم وضعت فى موضع الشدائد والمكاره (والملائكة باسطوا أيديهم) يعنى بالعذاب يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم (أخرجوا أنفسكم) يعنى يقولون لهم أخرجوا أنفسكم . فان قلت إنه لا قدرة لأحد على إخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا الكلام . قلت معناه يقولون لهم أخرجوا أنفسكم كرها لأن المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل معناه يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب إن قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخا لهم لأنهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب فى ذلك الوقت (اليوم تجزون عذاب الهون) يعنى الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) يعنى ذلك العذاب الذى تجزونه بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق (وكنتم عن آياته تستكبرون) يعنى وبسبب ما كنتم تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه . قوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى) يعنى وحدانا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم وهذا خبر من الله عزوجل عن حال الكافرين يوم القيامة وكيف يحشرون إليه وماذا يقول لهم فى ذلك اليوم وفى قوله للكافرين ولقد جئتمونا فرادى تقريع وتوبيخ لهم لأنهم صرفوا هممهم فى الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه وأفنوا أعمارهم فى عبادة الأصنام فلم يغن عنهم كل ذلك شيئا يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه فى الدنيا (كما خلقناكم أول مرة) يعنى جئتمونا حفاة عراة غرلا يعنى قلفا كما ولدتهم أمهاتهم فى أول مرة فى الدنيا لا شىء عليهم ولا معهم (ق) عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا» «كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين» (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «تحشر الناس حفاة عراة غرلا» قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك روى الطبرى بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، فقالت يا رسول الله واسوأتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لكل امرئ منهم يومئذ شىء يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض» . وقوله تعالى (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) يعنى وتركتم الذى أعطيناكم وملكناكم من الأموال والأولاد والخدم والخول وكل ما أعطى الله العبد خوله فيه من المال والعبيد وراء ظهوركم يعنى فى الدنيا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) يعنى أن المشركين زعموا أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام ، لأنها تشفع لهم عند الله يوم القيامة لأنها شركاء الله تعالى الله عن ذلك فاذا كان يوم القيامة وبخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية ثم قال تعالى (لقد تقطع بينكم) قرئ بنصب النون من بينكم ومعناه لقد تقطع ما بينكم من الوصل

معظمه وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ثم وضعت فى موضع الشدائد والمكاره (والملائكة باسطوا أيديهم) بالعذاب والضرب يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل بقبض الأرواح (أخرجوا) أى يقولون أخرجوا (أنفسكم) أى أرواحكم كرها لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربه والجواب محذوف يعنى ولو تراهم فى هذه الحال لرأيت عجبا (اليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه (ولقد جئتمونا فرادى) هذا خبر من الله أنه يقول للكفار يوم القيامة ولقد جئتمونا فرادى وحدانا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم وفرادى جمع فردان مثل سكران وسكارى وكسلان وكسالى وقرأ الأعرج فردى بغير ألف مثل سكرى (كما خلقناكم أول مرة) عراة حفاة غرلا (وتركتم) وخلفتم (ما خولناكم) أعطيناكم من الأموال والأولاد والخدم (وراء ظهوركم) خلف ظهوركم فى الدنيا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) وذلك أن المشركين زعموا أنهم يعبدون الأصنام لأنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده (لقد تقطع بينكم) قرأ أهل المدينة والكسائى وحفص عن عاصم بنصب النون على معنى لقد تقطع ما بينكم من الوصل

أو يكون معناه لقد تقطع الأمر بينكم وقرئ بينكم برفع النون ، ومعناه لقد تقطع وصلكم والبين من الأضداد يكون وصلا ويكون هجرا (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) يعنى وذهب وبطل ما كنتم تكذبون فى الدنيا . قوله عز وجل (إن الله فالق الحب والنوى) لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة أردفه بذكر الدلائل على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيها بذلك على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله وأنه مبدع الأشياء وخالقها ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التى كانوا يعبدونها وتعريفا منه خطأ ما كانوا عليه من الإشراك الذى كانوا عليه والمعنى أن الذى يستحق العبادة دون غيره هو الله الذى فلق الحب عن النبات والنواة عن النخلة وفى معنى فلق قولان : أحدهما أنه بمعنى خلق ومعنى الآية على هذا القول «أن الله خالق الحب والنوى» وهو قول ابن عباس فى رواية العوفى عنه وبه قال الضحاك ومقاتل قال الواحدى ذهبوا بفالق مذهب فاطر وأنكر الطبرى هذا القول وقال لا يعرف فى كلام العرب فلق الله الشىء بمعنى خلق ونقل الأزهرى عن الزجاج جوازه فقال وقيل الفلق الخلق وإذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انفلاق ومعنى هذا الكلام أن جميع الأشياء كانت قبل الوجود فى العدم فلما أوجدها الله تعالى وأخرجها من العدم إلى الوجود فكأنه فلقها وأظهرها . والقول الثانى وهو قول الأكثرين إن الفلق هو الشق ثم اختلفوا فى معناه على قولين : أحدهما وهو مروى عن ابن عباس قال فلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة وهو قول الحسن والسدى وابن زيد قال الزجاج يشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منها ورقا أخضر . والقول الثانى وهو قول مجاهد أنه الشقان اللذان فى الحب والنوى والحب هو الذى ليس له نوى كالحنطة والشعير والأرز وما أشبه ذلك والنوى جمع نواة وهى ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما أشبه ذلك ومعنى قوله «فالق الحب والنوى» أنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ثم مر على ذلك قدر من الزمان أظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقا أخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب ويظهر من النواة شجرة صاعدة فى الهواء وعروقا ضاربة فى الأرض فسبحان من أوجد جميع الأشيا بقدرته وإبداعه وخلقه . وقوله تعالى (يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) قال ابن عباس فى رواية عنه يخرج من النطفة بشرا حيا ويخرج النطفة الميتة من الحى وهذا قول الكلبى ومقاتل قال الكلبى يخرج النسمة الحية من النطفة الميتة ويخرج الفرخة من البيضة ويخرج النطفة الميتة والبيضة الميتة من الحى وقال ابن عباس فى رواية أخرى يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن فجعل الإيمان بمنزلة الحياة والكفر بمنزلة الموت وهذا قول الحسن وقيل معناه يخرج الطائع من العاصى والعاصى من الطائع وقال السدى يخرج النبات من الحب والحب من النبات وهذا اختيار الطبرى لأنه قال عقب قوله «إن الله فالق الحب والنوى» . فان قلت كيف قال ومخرج الميت من الحى بلفظ اسم الفاعل بعد قوله «يخرج الحى من الميت» وما السبب فى عطف الاسم على الفعل . قلت قوله «ومخرج الميت من الحى» عطف على قوله «فالق الحب والنوى» وقوله «يخرج الحى من الميت» كالبيان والتفسير لقوله «فالق الحب والنوى» لأن فلق الحب والنوى اليابس وإخراج النبات والشجر منه من جنس إخراج الحى من الميت لأن النامى من النبات فى حكم الحيوان وقوله (ذلكم الله) يعنى ذلكم الله المدبر الخالق الصانع لهذه الأشياء المحيى المميت لها (فأنى تؤفكون) يعنى فأنى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله

أو تقطع الأمر بينكم برفع النون أى لقد تقطع وصلكم وذلك مثل قوله «وتقطعت بهم الأسباب» أى الوصلات والبين من الأضداد يكون وصلا ويكون هجرا (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) قوله عز وجل (إن الله فالق الحب والنوى) الفلق الشق قال الحسن وقتادة والسدى معناه يشق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة فيخرجها منها والحب ج ع الحبة وهى اسم لجميع البذور والحبوب من البر والشعير والذرة وكل ما لم يكن له نوى وقال الزجاج يشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منهما ورقا أخضر وقال مجاهد يعنى الشقين اللذين فيهما أى يشق عن النبات ويخرجه منه ويشق النوى عن النخل ويخرجها منه والنوى جمع النواة وهى كل ما لم يكن له حب كالتمر والمشمش والخوخ ونحوها وقال الضحاك فالق الحب والنوى يعنى خالق الحب والنوى (يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون) تصرفون عن الحق

الذى هو خالق الأشياء كلها وفيه دليل أيضا على صحة البعث بعد الموت لأن القادر على إخراج البدن من النطفة قادر على إخراجه من التراب للحساب قوله تعالى (فالق الإصباح) أى شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده والإصباح مصدر سمى به الصبح وقال الزجاج الإصباح والصبح واحد وهما أول النهار . فإن قلت ظاهر الآية يدل على أنه تعالى فلق الصبح ، والظلمة هى التى تنفلق بالصبح فما معنى ذلك ؟ قلت ذكر العلماء فيه وجوها : الأول أن يكون المراد فالق ظلمة الصبح وذلك لأن الصبح صبحان : فالصبح الأول هو البياض المستطيل الصاعد فى الأفق كذنب السرحان وهو الذئب ثم تعقبه ظلمة بعد ذلك ويسمى هذا الصبح الفجر الكاذب لأنه يبدوا فى الأفق الشرقى ثم يضمحل ويذهب ثم يطلع بعده الصبح الثانى ، وهو الضوء المستطير فى جميع الأفق الشرقى ويسمى الفجر الصادق لأنه ليس بعده ظلمة والحاصل من هذا أن يكون المعنى فالق ظلمة الصبح الأول بنور الصبح الثانى . الوجه الثانى أنه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار فيكون معنى قوله «فالق الإصباح» أى فالق الصباح بنور النهار. الوجه الثالث أن يراد فالق ظلمة الإصباح وهى الغبش فى آخر الليل الذى يلى الصبح . الوجه الرابع أن يكون المعنى فالق الإصباح الذى هو عمود الفجر إذا انصدع الفجر وانفلق وسمى الفجر فلقا بمعنى مفلوق. الوجه الخامس الفاق بمعنى الخلق يعنى خالق الإصباح. وعلى هذا القول يزول الإشكال والصبح هو الضوء الذى يبدو أول النهار والمعنى أنه تعالى مبدى ضوء الصبح وخالقه ومنوره . وقوله تعالى (وجعل الليل سكنا) السكن ماسكنت إليه واسترحت به يريد أن الناس يسكنون فى الليل سكون راحة لأن الله جعل الليل لهم كذلك قال ابن عباس إن كل ذى روح يسكن فيه لأن الإنسان قد أتعب نفسه فى النهار فاحتاج إلى زمان يستريح فيه ويسكن عن الحركة وذلك هو الليل (والشمس والقمر حسبانا) يعنى أنه تعالى قدر حركة الشمس والقمر فى الفلك بحسبان معين قال ابن عباس يجريان إلى أجل جعل لهما يعنى عدد الأيام والشهور والسنين وقال الكلبى منازلهما بحسبان لايجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما (ذلك) إشارة إلى ماتقدم ذكره فى هذه الآية من الأشياء التى خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله (تقدير العزيز العليم) فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه . قوله عز وجل (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) جعل هنا بمعنى خلق يعنى والله الذى خلق لكم هذه النجوم أدلة لتهتدوا بها إذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه ، فامتن الله على عباده بأن جعل لهم النجوم ليهتدوا بها فى المسالك والطرق فى البر والبحر إلى حيث يريدون ويستدلون بالنجوم أيضا على القبلة فيستدلون على مايريدون فى النهار بحركة الشمس وفى الليل بحركة الكواكب ومن منافعها أيضا أنه تعالى خلقها زينة للسماء ورجوما للشياطين كما قال «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين» (قد فصلنا الآيات) يعنى قد بينا الآيات الدالة على توحيدنا وكمال قدرتنا (لقوم يعلمون) أن ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال علمه وقدرته . قوله تعالى (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) يعنى والله الذى ابتدأ خلقكم أيها الناس من آدم عليه السلام فهو أبو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى أيضا لأن ابتداء خلقه من مريم وهى من بنات آدم فثبت أن جميع الخلق من آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) قرئ فمستقر بكسر القاف وفتحها

كالإقبال والإدبار وهو الإضاءة وأراد به الصبح وهو أول مايبدو من النهار يريد ومبدى الصبح وموضحه (وجعل الليل سكنا) يسكن فيه خلقه وقرأ أهل الكوفة وجعل على الماضى الليل نصب اتباعا للمصحف وقرأ إبراهيم النخعى فلق الإصباح وجعل الليل سكنا (والشمس والقمر حسبانا) أى جعل الشمس والقمر بحساب معلوم لايجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما والحسبان مصدر كالحساب وقيل جمع حساب (ذلك تقدير العزيز العليم) قوله عز وجل (وهو الذى جعل لكم النجوم) أى خلقها لكم (لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) والله تعالى خلق النجوم لفوائد: أحدها هذا وهو أن راكب السفينة والسائر فى القفار يهتدى بها فى الليالى إلى مقاصدهم . والثانى أنها زينة للسماء كما قال «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح» ومنها رمى الشيطان كما قال « وجعلناها رجوما للشياطين» (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم) خلقكم وابتدأكم (من نفس واحدة) يعنى آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) قرأ ابن كثير وأهل البصرة فمستقر بكسر القاف يعنى فمنكم مستقر ومنكم مستودع وقرأ الآخرون بفتح

القاف أى فلكم مستقر ومستودع ، واختلفوا فى المستقر والمستودع . قال عبد الله بن مسعود فمستقر فى الرحم إلى أن يولد ومستودع فى القبر إلى أن يبعث وقال سعيد بن جبير وعطاء فمستقر فى أرحام الأمهات ، ومستودع فى أصلاب الآباء وهو رواية عكرمة عن ابن عباس قال سعيد ابن جبير قال لى ابن عباس هل تزوجت؟ قلت لا. قال أما أنه ما كان مستودعا فى ظهرك فسيخرجه الله عز وجل وروى عن أبى أنه قال مستقر فى أصلاب الآباء ومستودع فى أرحام الأمهات وقيل مستقر فى الرحم ومستودع فوق الأرض. قال الله تعالى «ونقر فى الأرحام ما نشاء» وقال مجاهد مستقر على ظهر الأرض فى الدنيا ومستودع عند الله فى الآخرة ويدل عليه قوله تعالى «ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين» وقال الحسن المستقر فى القبر والمستودع فى الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت وديعة فى أهلك ويوشك أن تلحق بصاحبك وقيل المستودع القبر والمستقر الجنة والنار لقوله عز وجل فى صفة أهل الجنة والنار «حسنت مستقرا ومقاما» وفى صفة أهل النار «ساءت مستقرا ومقاما» (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) أى بالماء (نبات كل شىء فأخرجنا منه) من الماء وقيل من النبات (خضرا) يعنى أخضر مثل العور والأعور يعنى ما كان رطبا أخضر مما ينبت من القمح والشعير ونحوهما (نخرج منه حبا متراكبا) سمى أى متراكبا بعضه على بعض مثل: سنابل البر والشعير والأرز وسائر الحبوب (ومن النخل من طلعها) والطلع أول ما يخرج من ثمر النخل (قنوان) جمع قنو وهو العذق مثل: صنو وصنوان ولا نظير لهما فى الكلام (دانية) أى قريبة المتناول ينالها القائم والقاعد

يقال قر فى مكانه واستقر فمن كسر القاف قال المستقر بمعنى القار والمعنى منكم مستقر يعنى فى الأرحام ومن فتح القاف جعله مكانا فالمستقر نفس المقر فيكون المعنى لكم مقر. وأما المستودع فهو مثل أودع فيجوز أن يكون إسما للإنسان الذى استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المكان نفسه. فمن قرأ فمستقر بفتح القاف جعل المستودع مكانا ، والمعنى فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن كسر القاف جعل المعنى منكم مستقر ومنكم مستودع يعنى منكم من استقر ومنكم من استودع والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب إلى الثبات من المستودع ، لأن المستقر من القرار والمستودع معرض لأن يرد. ولهذا اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذين اللفظين فروى عن ابن عباس أنه قال المستقر فى أرحام الأمهات والمستودع فى أصلاب الآباء ثم قرأ «ونقر فى الأرحام ما نشاء» ويؤيد هذا القول أن النطفة لا تبقى فى صلب الأب زمانا طويلا والجنين يبقى فى بطن الأم زمانا طويلا ، ولما كان المكث فى بطن الأم أكثر من صلب الأب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب وروى عنه أنه قال بالعكس يعنى أن المستقر صلب الأب والمستودع رحم الأم ووجه هذا القول أن النطفة حصلت فى صلب الأب قبل رحم الأم فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم وقال ابن مسعود المستقر فى الرحم إلى أن يولد والمستودع فى القبر إلى أن يبعث وقال مجاهد المستقر على ظهر الأرض فى الدنيا لقوله «ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين» والمستودع عند الله فى الآخرة وقال الحسن المستقر فى القبر والمستودع فى الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت مستودع فى أهلك إلى أن تلحق بصاحبك يعنى القبر وقيل المستودع فى القبر والمستقر إما فى الجنة والنار ، لأن المقام فيهما يقتضى الخلود والتأبيد (قد فصلنا الآيات) قد بينا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة (لقوم يفقهون) يعنى لقوم يفهمون عن الله آياته ودلائله الدالة على توحيده لأن الفقه هو الفهم قوله عز وجل (وهو الذى أنزل من السماء ماء) يعنى المطر وقيل إن الله ينزل المطر من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض (فأخرجنا به) يعنى بالماء الذى أنزلناه من السماء (نبات كل شىء) يعنى كل شىء ينبت وينموا من جميع أصناف النبات ، وقيل معناه أخرجنا بالماء الذى أنزلناه من السماء غذاء كل شىء من: الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بنى آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون (فأخرجنا منه خضرا) يريد أخضر مثل عور وأعور والأخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة (نخرج منه حبا متراكبا) يعنى يخرج من ذلك الأخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل: سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب وفى تقديم الزرع على النخل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر لأنه القوت المألوف (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) يعنى من ثمرها يقال أطلعت النخلة إذا أخرجت طلعها وطلعها كفراها قبل أن ينشق عن الإغريض والإغريض يسمى طلعا أيضا وهو ما يكون فى قلب الطلع والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فاذا شق عنه كيزانه

سمى عذقا وهو القنو وجمعه قنوان مثل : صنو وصنوان دانية أى قريبة التناول ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد متدلية وقال الضحاك قصار ملتصقة بالأرض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ماقنوانها دانية قريبة ومنها ماهى بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولا من البعيدة لأن البعيدة تحتاج إلى كلفة (وجنات من أعناب) يعنى وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب (والزيتون والرمان) يعنى وأخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان (مشتبها) قال قتادة مشتبه ورقها مختلفا ثمرها لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان (وغير متشابه) يعنى ومنها غير متشابه فى الورق والطعم واعلم أن الله تعالى ذكر فى هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار لأن الزرع غذاء وثمار أشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وإنما قدم النخلة على غيرها لأن ثمرتها تجرى مجرى الغذاء ، وفيها من المنافع والخواص ماليس فى غيرها من الأشجار وإنما ذكر العنب عقب النخلة ؛ لأنها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة فى الأكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه الرمان لما فيه من المنافع أيضا لأنه فاكهة ودواء ثم قال تعالى (أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) يعنى ونضجه وإدراكه والمعنى أنظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله تعالى هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) يعنى يصدقون أن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم وإنما احتج الله عليهم بتصريف ماخلق ونقله من حال إلى حال وهو مايعلمونه قطعا ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها وإخراج سائر أنواع النبات والثمار منها وأنه لايقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم ويبعثهم يوم القيامة فاحتج عليهم بهذه الأشياء لأنهم كانوا ينكرون البعث قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) قال الحسن معناه طاعوا الجن فى عبادة الأوثان وهو اختيار الزجاج قال معناه إنهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله وقال الكلبى نزلت فى الزنادقة أثبتوا الشرك لاثنين فى الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ونقل هذا القول ابن الجوزى عن ابن السائب ونقله الرازى عن ابن عباس قال الإمام فخر الدين وهذا مذهب المجوس وإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة لأن المجوس يلتبسون بالزندقة ، لأن الكتاب الذى زعم زردشت أنه نزل من السماء سماه بالزند والمنسوب إليه زندى ثم عرب : فقيل زنديق فاذا جمع قيل زنادقة ثم إن المجوس قالوا كل مايكون فى هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعنى النور وجميع مافى العالم من الشر فهو من الظلمة يعنى إبليس ثم اختلف المجوس فالأكثرون منهم على أن إبليس محدث ولهم فى كيفية حدوثه أقوال عجيبة والأقلون منهم قالوا إنه قديم وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على أنه شريك الله فى تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وماكان من شر فمن إبليس تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . فإن قلت فعلى هذا القول إنما أثبتوا لله شريكا واحدا وهو إبليس فكيف حكى الله أنهم جعلوا له شركاء قلت إن إبليس له أعوان من جنسه وحزبه وهم شياطين الجن يعملون أعماله فصح ماحكاه الله عنهم من أنهم جعلوا له شركاء الجن ومعنى الآية وجعلوا الجن شركاء لله واختلفوا فى معنى هذه الشركة فمن قال إن الآية فى كفار العرب قال إنهم لما أطاعوا الجن فيما أمروهم به من عبادة الأصنام فقد جعلوهم

وقال مجاهد متدلية وقال الضحاك قصار ملتزقة بالأرض وفيه اختصار معناه ومن النخل ما قنوانها دانية ومنها ما هى بعيدة فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لسبقه إلى الأفهام كقوله تعالى «سرابيل تقيكم الحر» يعنى الحر والبرد فاكتفى بذكر أحدهما (وجنات من أعناب) أى وأخرجنا منه جنات وقرأ الأعمش عن عاصم وجنات بالرفع نسقا على قوله «قنوان» وعامة القراء على خلافه (والزيتون والرمان) يعنى وشجر الزيتون وشجر الرمان (مشتبها وغير متشابه) قال قتادة معناه مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان وقيل مشتبه فى المنظر مختلف فى الطعم (أنظروا إلى ثمره) قرأ حمزة والكسائى بضم الثاء والميم هذا وما بعده وفى يس على جمع الثمار وقرأ الآخرون بفتحهما على جمع الثمرة مثل بقرة وبقر (إذا أثمر وينعه) ونضجه وإدراكه (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) قوله عز وجل (وجعلوا لله شركاء الجن) يعنى الكافرين جعلوا لله

فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب وهذا كقوله وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وإبليس من الجن (وخرقوا) قرأ أهل المدينة وخرقوا بتشديد الراء على التكثير وقرأ الآخرون بالتخفيف أى اختلقوا (له بنين وبنات بغير علم) وذلك مثل قول اليهود عزير ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله وقول كفار مكة الملائكة بنات الله ثم نزه نفسه فقال (سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض) أى مبدعهما لا على مثال سبق (أنى يكون له ولد) أى كيف يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) زوجة (وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه) فأطيعوه (وهو على كل شىء وكيل) بالحفظ له والتدبير (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) يتمسك أهل الاعتزال بظاهر هذه الآية فى نفى رؤية الله عز وجل عيانا ومذهب أهل السنة إثبات رؤية الله عز وجل عيانا

شركاء لله ومن قال إنها فى المجوس قال إنهم أثبتوا إلهين اثنين النور والظلمة ، وقيل إن كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لأنهم مستورون عن الأعين . وقوله (وخلقهم) فى معنى الكناية قولان: أحدهما أنها تعود إلى الجن فيكون المعنى والله خلق الجن فكيف يكون شريك الله من هو محدث مخلوق . والقول الثانى أن الكناية تعود إلى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا لله الذى خلقهم شركاء لا يخلقون شيئا . وهذا كالدليل القاطع بأن المخلوق لا يكون شريكا لله وكل ما فى الكون محدث مخلوق والله تعالى هو الخالق لجميع ما فى الكون فامتنع أن يكون لله شريك فى ملكه (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أى اختلقوا وكذبوا يقال اختلق واخترق على فلان إذا كذب عليه وذلك أن النصارى وطائفة من اليهود ادعوا أن لله ابنا ، وكفار العرب ادعوا أن الملائكة بنات الله وكذبوا على الله جميعا فيما ادعوه وقوله «بغير علم» كالتنبيه على ما هو الدليل القاطع على فساد هذا القول لأن الولد جزء من الأب والله سبحانه وتعالى لا يتجزأ فثبت بهذا فساد قول من يدعى أن لله ولدا ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد وعن هذه الأقاويل الفاسدة فقال تعالى (سبحانه وتعالى عما يصفون) فقوله سبحانه فيه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وقوله تعالى يعنى هو المتعالى عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد ، أو يكون المعنى المتعالى عن اتخاذ الولد والشريك وقوله «عما يصفون» يعنى عما يصفونه به من الكذب . قوله عز وجل (بديع السموات والأرض) الإبداع عبارة عن تكوين الشىء على غير مثال سبق والله تعالى خلق السموات والأرض على غير مثال سبق (أنى يكون له ولد) يعنى من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) لأن الولد لا يكون إلا من صاحبة أنثى ولا ينبغى أن تكون لله صاحبة لأنه ليس كمثله شىء (وخلق كل شىء) يعنى أن الصاحبة والولد فى جملة من خلق لأنه خالق كل شىء وليس كمثله شىء فكيف يكون الولد لمن لا مثل له وإذا نسب الولد والصاحبة إليه فقد جعل له مثل والله تعالى منزه عن المثلية وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى (وهو بكل شىء عليم) يعنى أنه تعالى عالم بجميع خلقه لا يعزب عن علمه شىء وعلمه محيط بكل شىء . قوله تعالى (ذلكم الله ربكم) يعنى ذلكم الله الذى من صفته أنه خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سبق «وأنه بكل شىء عليم» هو ربكم الذى يستحق العبادة لا من تدعون من دونه من الأصنام لأنها جمادات لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم والله تعالى هو الخالق الضار النافع (لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه) يعنى أنه هو الذى يستحق العبادة فاعبدوه وأطيعوه (وهو على كل شىء وكيل) يعنى أنه هو تعالى على كل شىء خلق رقيب حفيظ ، يقوم بأرزاق جميع خلقه . قوله عز وجل (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال جمهور المفسرين معنى الإدراك الإحاطة بكنه الشىء وحقيقته فالأبصار ترى البارى جل جلاله ولا تحيط به كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به وقال سعيد بن المسيب فى تفسيره قوله لا تدركه الأبصار لا تحيط به الأبصار وقال ابن عباس كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به .

(فصل)

تمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا إن الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وأن رؤيته مستحيلة عقلا لأن الله أخبر أن الأبصار لا تدركه وإدراك البصر عبارة عن الرؤية ، إذ لا فرق بين قوله أدركته ببصرى ورأيته ببصرى فثبت بذلك أن قوله لا تدركه الأبصار بمعنى لا تراه الأبصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة أن المؤمنين

يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة وأن رؤيته غير مستحيلة عقلا واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة قال الله تبارك وتعالى «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» ففي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» قال الشافعي رحمه الله حجب الله قوما بالمعصية وهي الكفر فثبت أن قوما يرونه بالطاعة وهي الإيمان وقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكفار بالحجاب وقال تعالى «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» وفسروا هذه الزيادة بالنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى يوم القيامة. وأما دلائل السنة فما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة «أن ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون في القمر ليلة البدر؟ قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا لا يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ترونه» كذلك أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي وليس عنده في أوله أن أناسا سألوا ولا في آخره ليس دونها سحاب عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك من خلقه؟ قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به قلت بلى قال «فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل وأعظم» أخرجه أبو داود وأما الدلائل العقلية، فقد احتج أهل السنة أيضا بهذه الآية على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وتقريره أنه تعالى تمدح بقوله لا تدركه الأبصار فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل هذا التمدح لأن المعدوم لا يصح التمدح به فثبت أن قوله لا تدركه الأبصار يفيد المدح، وهذا يدل على أنه تعالى جائز الرؤية وتحقيق هذا أن الشيء إذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم. أما إذا كان في نفسه جائز الرؤية ثم إنه قدر على حجب الأبصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائز الرؤية وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة لأن موسى صلى الله عليه وسلم سأل الرؤية بقوله أرني أنظر إليك وذلك يدل على جواز الرؤية إذ، لا يسأل نبي مثل موسى ما لا يجوز ويمتنع وقد علق الله الرؤية على استقرار الجبل بقوله فإن استقر مكانه فسوف تراني استقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز وأما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية في نفي الرؤية فاعلم أن الإدراك غير الرؤية لأن الإدراك هو الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته والرؤية المعاينة للشيء من غير إحاطة وقد تكون الرؤية بغير إدراك كما قال تعالى في قصة موسى قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لكن قاربوا إدراكهم إياهم فنفى موسى الإدراك مع إثبات الرؤية بقوله كلا والله تعالى يجوز أن يرى في الآخرة من غير إدراك ولا إحاطة لأن الإدراك هو الإحاطة بالمرئي وهو ما كان محدودا وله جهات والله تعالى منزه عن الحد والجهة لأنه القديم الذي لا نهاية لوجوده فعلى هذا أنه تعالى يرى ولا يدرك وقال قوم إن الآية مخصوصة بالدنيا قال ابن عباس في معنى الآية لا تدركه الأبصار في الدنيا

قال الله تعالى «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» وقال «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» قال مالك رضي الله عنه لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» وفسره بالنظر إلى وجه الله عز وجل أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف ابن موسى ثنا عاصم بن يوسف اليربوعي أنا أبو شهاب عن إسماعيل ابن أبي خالد عن قيس ابن حازم عن جرير بن عبد الله قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم «إنكم سترون ربكم عيانا» وأما قوله «لا تدركه الأبصار» علم أن الإدراك غير الرؤية لأن الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء والإحاطة به والرؤية المعاينة وقد تكون الرؤية بلا إدراك قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا وقال «لا تخاف دركا ولا تخشى» فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية فالله عز وجل يجوز أن يرى من غير إدراك وإحاطة كما يعرف في الدنيا ولا يحاط به قال الله تعالى «ولا يحيطون به علما» فنفى الإحاطة

مع ثبوت العلم قال سعيد بن المسيب لاتحيط به الأبصار وقال عطاء كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به وقال ابن عباس ومقاتل لاتدركه الأبصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة قوله «وهو يدرك الأبصار» أى لايخفى على الله شىء ولا يفوته (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس رضى الله عنهما اللطيف بأوليائه الخبير بهم وقال الزهرى معنى اللطيف الرفيق بعباده ، وقيل اللطيف الموصل للشىء باللين والرفق وقيل اللطيف الذى ينسى العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا وأصل اللطف دقة النظر فى الأشياء قوله عز وجل (قد جاءكم بصائر من ربكم) يعنى الحجج البينة التى تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل (فمن أبصر) أى فمن عرفها وآمن بها (فلنفسه) عمله ونفعه له (ومن عمى فعليها) أى من عمى عنها فلم يعرفها ولم يصدقها فعليها أى بنفسه ضرر وبال العمى عليه (وما أنا عليكم بحفيظ) برقيب أحصى عليكم أعمالكم إنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى وهو الحفيظ عليكم الذى لا يخفى عليه شىء من أفعالكم (وكذلك نصرف الآيات) نفصلها ونبينها فى كل وجه (وليقولوا) قيل معناه لئلا يقولوا (درست) وقيل اللام لام العاقبة أى عاقبة أمرهم أن يقولوا درست أى قرأت على غيرك ، وقيل قرأت كتب أهل الكتاب كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ومعلوم أنهم لم يلتقطوه لذلك ولكن أراد أن عاقبة أمرهم أن كان عدوا لهم قال ابن عباس وليقولوا يعنى أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درست أى تعلمت من يسار وجبر كانا عبدين من سبى الروم

وهو يرى فى الآخرة وعلى هذا القول فلا فرق بين الإدراك والرؤية قالوا ويدل على هذا التخصيص قوله «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» فقوله «يومئذ ناضرة» مقيد بيوم القيامة وعلى هذا يمكن الجمع بين الآيتين وقال السدى البصر بصران: بصر معاينة وبصر علم فمعنى قوله «لاتدركه الأبصار» لايدركه علم العلماء ونظيره ولا يحيطون به علما وهذا وجه حسن أيضا والله أعلم. وقوله تعالى «وهو يدرك الأبصار» يعنى أنه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لايخفى عليه شىء منها ويعلم حقيقتها ومطلع على ماهيتها فهو تعالى لاتدركه أبصار المبصرين وهو يدركها (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس بأوليائه الخبير بهم وقال الزهرى معنى اللطيف الرفيق بعباده وقيل هو الموصل الشىء إليك برفق ولين وقيل هو الذى ينسى عباده ذنوبهم لئلا يخجلوا وأصل اللطف دقة النظر فى الأشياء وقال أبو سليمان الخطابى اللطيف هو اللين بعباده يلطف بهم من حيث لايعلمون ويوصل إليهم مصالحهم من حيث لايحتسبون وقال الأزهرى اللطيف فى أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده وقيل هو اللطيف حيث لم يأمر عباده بفوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم وقيل هو اللطيف بعباده حيث يثنى عليهم عند الطاعة ولم يقطع عنهم بره وإحسانه عند المعصية وقيل هو الذى لطف عن أن تدركه الأبصار وهو يدركها. قوله تعالى (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر جمع البصيرة وهى الدلالة التى توجب البصر بالشىء والعلم به والمعنى قد جاءكم القرآن الذى فيه البيان والحجج التى تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل وقيل إن الآيات والبراهين ليست فى أنفسها بصائر إلا أنها لقوتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين أسبابا لحصول البصائر سميت بصائر (فمن أبصر) يعنى فمن عرف الآيات واهتدى بها إلى الحق (فلنفسه) يعنى فلنفسه أبصر ولها عمل لأنه يعود نفع ذلك عليه (ومن عمى) يعنى ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها إلى الطريق (فعليها) يعنى فعلى نفسه عمى ولها ضر وكان وبال ذلك العمى عليه لأن الله تعالى غنى عن خلقه (وما أنا عليكم بحفيظ) يعنى وما أنا عليكم برقيب أحصى عليكم أعمالكم وأفعالكم إنما أنا رسول من ربكم إليكم أبلغكم ما أرسلت به إليكم والله هو الحفيظ عليكم لايخفى عليه شىء من أعمالكم وأحوالكم وقيل معناه لاأقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم وقيل معناه لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ الوكيل وهذا كان قبل الأمر بقتال المشركين فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآيات السيف وعلى القول الأول ليست منسوخة والله أعلم. قوله عز وجل (وكذلك نصرف الآيات) يعنى وكذلك نبين الآيات ونفصلها فى كل وجه كما صرفناها وبيناها من قبل (وليقولوا درست) يعنى وكذلك نصرف الآيات لتلزمهم الحجة وليقولوا درست وقيل معناه لئلا يقولوا درست وقيل اللام فيه لام العاقبة ومعناه عاقبة أمرهم أن يقولوا درست يعنى قرأت على غيرك يقال درس الكتاب يدرسه دراسة إذا أكثر قراءته وذلله للحفظ قال ابن عباس وليقولوا يعنى أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درست يعنى تعلمت من يسار وجبر وكانا عبدين من سبى الروم

ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله من قولهم درست الكتاب أدرس درسا ودراسة وقال الفراء رحمه الله يقولون تعلمت من اليهود وقرأ ابن كثير وأبو عمرو دارست بالألف أي قارأت أهل الكتاب من المدارسة بين الاثنين يقول قرأت عليهم وقرءوا عليك وقرأ ابن عامر ويعقوب درست بفتح السين وسكون التاء ، أي هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة قد درست وانمحت من قولهم درس الأثر يدرس دروسا (ولنبينه لقوم يعلمون) أي القرآن وقيل نصرف الآيات لقوم يعلمون قال ابن عباس يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد وقيل يعني أن (١٦٩) تصريف الآيات ليشقى بها قوم ويسعد بها قوم آخرون فمن قال درست فهو شقي ومن تبين له الحق فهو سعيد (اتبع ما أوحى إليك من ربك) يعني القرآن اعمل به (لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) فلا تجادلهم (ولو شاء الله ما أشركوا) أي ولو شاء لجعلهم مؤمنين (وما جعلناك عليهم حفيظا) رقيبا قال عطاء وما جعلناك عليهم حفيظا تمنعهم مني أي لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب إنما بعثت مبلغا (وما أنت عليهم بوكيل ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) الآية قال ابن عباس لما نزلت «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم وقال قتادة كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فنهاهم الله عز وجل عن ذلك لئلا يسبوا الله فإنهم قوم جهلة . وقال السدي لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر ابن الحارث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وأن محمدا قد آذانا وآلهتنا فنحب أن تدعوه وتنهاه عن ذلك وعن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه : فدعاه فقال يا محمد هؤلاء قومك يقولون نريد أن تدعنا وآلهتنا

ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله وقال الفراء معناه تعلمت من اليهود وقرئ دارست بالألف يعني قارأت أهل الكتاب من المدارسة التي هي بين اثنين يعني يقولون قرأت على أهل الكتاب وقرءوا عليك وقرئ درست بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء ومعناه أن هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة فدرست وانمحت من قولهم درس الأثر إذا محي وذهب أثره (ولنبينه لقوم يعلمون) يعني القرآن وقيل معناه نصرف الآيات لقوم يعلمون قال ابن عباس يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد وقيل معنى الآية وكذلك نصرف الآيات يسعد بها قوم ويشقى بها آخرون فمن أعرض عنها وقال النبي صلى الله عليه وسلم درست أو درست فهو شقي ومن تبين له الحق وفهم معناها وعمل بها فهو سعيد وقال أبو إسحاق أن السبب الذي أداهم إلى أن قالوا درست هو تلاوة الآيات عليهم وهذه اللام تسميها أهل اللغة لام الصيرورة يعني صار عاقبة أمرهم أن قالوا دارست فصار ذلك سببا لشقاوتهم وفي هذا دليل على أن الله تعالى جعل تصريف الآيات سببا لضلالة قوم وشقاوتهم وسعادة قوم وهدايتهم قوله تعالى (اتبع ما أوحي إليك من ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه إلى عبادي ولا تلتفت إلى قول من يقول دارست أو درست وفي قوله اتبع ما أوحي إليك من ربك تعزية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست ونبه بقوله تعالى (لا إله إلا هو) أنه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له وإذا كان كذلك فإنه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين وقوله تعالى (وأعرض عن المشركين) قيل المراد منه في الحال لا الدوام وإذا كان كذلك لم يكن النسخ وقيل المراد ترك مقاتلتهم فعلى هذا يكون الأمر بالإعراض منسوخة بآية القتال قوله عز وجل (ولو شاء الله ما أشركوا) قال الزجاج معناه لو شاء الله لجعلهم مؤمنين وهذا نص صريح في أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى لا كما قالت المعتزلة في قولهم لم يرد من أحد الكفر والشرك فالآية رد عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) يعني وما جعلناك يا محمد على هؤلاء المشركين رقيبا ولا حافظا تحفظ عليهم أعمالهم وقال ابن عباس في رواية عطاء وما جعلناك عليهم حفيظا تمنعهم مني ومعناه إنك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب وإنما بعثت مبلغا فلا تهتم بشركهم فإن ذلك بمشيئة الله تعالى (وما أنت عليهم بوكيل) يعني وما أنت عليهم بقيم تقوم بأرزاقهم وما أنت عليهم بمسيطر فعلى التفسير الأول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى قول ابن عباس لا تكون منسوخة . قوله عز وجل (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله

وندعك وإلهك وقد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم؟ فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها قال فما هي؟ قال «قولوا لا إله إلا الله فأبوا وتفرقوا» فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخي: فقال ياعم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي فقالوا له لتكفن عن سبك آلهتنا أو لنشتمنك وتشتمن من يأمرك فأنزل الله عز وجل «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله» يعني الأوثان (فيسبوا الله عدوا) أي اعتداء وظلما (بغير علم) قرأ يعقوب عدوا بضم العين والدال وتشديد الواو فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه «لاتسبوا ربكم فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم» وظاهر الآية وإن كان نهيا عن سب الأصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى لأنه سبب لذلك (كذلك زينا لكل أمة عملهم) أي كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية (ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم) ويجازيهم (بما كانوا يعملون) قوله عز وجل (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الآية قال محمد بن كعب القرظي والكلبي قالت قريش يامحمد أنك تخبرنا أن موسى عليه السلام كان معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر

فيسبوا الله عدوا بغير علم) الآية قال ابن عباس لما نزلت «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم وقال قتادة كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار فير دون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله لأنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل وقال السدي لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا بنا لندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وأن محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه فدعاه فجاء النبي ﷺ وسلم فقال له أبو طالب إن هؤلاء قومك وبنو عمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يريدون؟ قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك فقال له أبو طالب قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيتم إن أعطيتكم هذا فهل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وأدت لكم الخراج؟ فقال أبو جهل نعم وأبوك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي؟ فقال قولوا لا إله إلا الله «فأبوا ونفروا» فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخي فقال ياعم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها إرادة أن يؤيسهم فقالوا لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك فأنزلت «ولا تسبوا الذين تدعون من دون الله» يعني ولا تسبوا أيها المؤمنون الأصنام التي يعبدها المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم يعني فيسبوا الله ظلما بغير علم لأنهم جهلة بالله عز وجل قال الزجاج نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الأصنام التي كانت تعبدها المشركون وقال ابن الأنباري هذه الآية منسوخة أنزلها الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة فلما قواه بأصحابه نسخ هذه الآية ونظائرها بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم «وقيل إنما نهوا» عن سب الأصنام وإن كان في سبها طاعة وهو مباح لما يترتب على ذلك من المفاسد التي هي أعظم من ذلك وهو سب الله عز وجل وسب رسوله وذلك من أعظم المفاسد فلذلك نهوا عن سب الأصنام وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لاتسبوا آلهتهم فيسبوا ربكم فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم فظاهر الآية وإن كان نهيا عن سب الأصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى لأنه سبب لذلك. وقوله تعالى (كذلك زينا لكل أمة عملهم) يعني كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لايحسن من الله خلق الكفر وتزيينه. وقوله تعالى (ثم إلى ربهم مرجعهم) يعني المؤمن والكافر والطائع والعاصي (فينبئهم بما كانوا يعملون) يعني في الدنيا ويجازيهم على ذلك. قوله عز وجل (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قال محمد بن كعب القرظي والكلبي قالت قريش يا محمد إنك تخبرنا أن موسى كانت له عصا يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى فأتنا بآية حتى نصدقك ونؤمن بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي شيء

منه الماء اثنتا عشرة عينا وتخبرنا أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شىء تحبون؟ قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا حتى نسأله عنك أحق ماتقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان فعلت بعض ماتقولون أتصدقونني ؟ قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله ﷺ يدعو الله أن يجعل الصفا ذهبا فجاءه جبريل عليه السلام فقال له ما شئت إن شئت أصبح ذهبا ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فأنزل الله عز وجل «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» أى حلفوا بالله جهد أيمانهم أى بجهد أيمانهم يعنى أوكد ماقدروا عليه من الأيمان وأشدها قال الكلبي ومجاهد إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه (لئن جاءتهم آية) كما جاءت من قبلهم من الأمم (ليؤمنن بها قل) يامحمد (إنما الآيات عند الله) والله قادر على إنزالها (وما يشعركم) ومايدريكم واختلفوا فى المخاطبين بقوله وما يشعركم فقال بعضهم الخطاب للمشركين الذين أقسموا وقال بعضهم الخطاب للمؤمنين وقوله تعالى (أنها إذا جاءت لايؤمنون) قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم إنها بكسر الألف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله ومايشعركم ثم من جعل الخطاب للمشركين قال معناه ومايشعركم أيها المشركون إنها لو جاءت آمنتم ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه ومايشعركم أيها المؤمنون أنها لو جاءت آمنوا لأن المسلمين كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله حتى يريهم مااقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم بقوله ومايشعركم ثم ابتدأ فقال جل ذكره إنها إذا جاءت لايؤمنون وهذا فى قوم مخصوصين حكم الله عليهم بأنهم لايؤمنون

تحبون قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ماتقول أم باطل؟ وأرنا الملائكة يشهدون لك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فعلت بعض ماتقولون أتصدقوني؟ قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يدعو الله عز وجل أن يجعل الصفا ذهبا فجاءه جبريل فقال ماشئت إن شئت أصبح ذهبا ولكن إن لم يصدقوك لنعذبنهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فأنزل الله عز وجل «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» يعنى وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعنى وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعنى أوكد ماقدروا عليه من الأيمان وأشدها قال الكلبي ومقاتل إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه (لئن جاءتهم آية) يعنى كما جاءت من قبلهم من الأمم (ليؤمنن بها) يعنى ليصدقن بها (قل) يعنى قل يامحمد (إنما الآيات عند الله) يعنى أن الله تعالى قادر على إنزالها (وما يشعركم) يعنى وما يدريكم ثم اختلف فى المخاطبين بقوله وما يشعركم فقيل هو خطاب للمشركين الذين أقسموا بالله وقيل هو خطاب للمؤمنين واختلفوا فى قوله (أنها إذا جاءت لايؤمنون) فقرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم إنها بكسر الألف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله وما يشعركم على معنى وما يدريكم مايكون منهم ثم ابتدأ فقال «إنها إذا جاءت لايؤمنون» فمن جعل الخطاب للمشركين قال معناه وما يشعركم أيها المشركون إنها يعنى الآيات إنها إذا جاءت أمنتم ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه وما يشعركم أيها المؤمنون إذا جاءت آمنوا لأن المؤمنين كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله أن يريهم مااقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم الله بقوله «ومايشعركم» ثم ابتدأ فقال تعالى إنها «إذا جاءت لايؤمنون» وهذا فى قوم مخصوصين حكم الله عز وجل عليهم بأنهم لايؤمنون وذلك لسابق علمه فيهم وقرأ الباقون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب فى ذلك للمؤمنين لأن المؤمنين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزال الآيات حتى يؤمن المشركون بها إذا رأوها لأن المشركين كانوا حلفوا أنهم إذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب أصحاب رسول الله ﷺ إنزال الآيات لذلك فقال الله تعالى «ومايشعركم أيها المؤمنون أن الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لايؤمنون فعلى هذا اختلفوا فى لفظة لا من قوله لايؤمنون» فقيل هى صلة والمعنى وما يشعركم إنها إذا جاءت يؤمنون وقيل هى على بابها وفيه حذف والمعنى وما يشعركم أنها إذا جاءتهم يؤمنون أو لايؤمنون وقيل إن بمعنى لعل فى قوله أنها إذا جاءت وكذلك هو فى قراءة أبى بن كعب لعلها إذا جاءت وهذا سائغ فى كلام العرب تقول العرب: ائت السوق أنك تشترى لنا شيئا بمعنى لعلك

وقرأ الآخرون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب للمؤمنين واختلفوا فى قوله لايؤمنون ، فقال الكسائى لاصلة ومعنى الآية وما يشعركم أيها المؤمنون أن الآيات إذا جاءت المشركين يؤمنون كقوله وحرام على قرية أهلكناها إنهم لايرجعون أى يرجعون وقيل إنها بمعنى لعل وكذلك هو فى قراءة أبى تقول العرب إذهب إلى السوق إنك تشترى شيئا أى لعلك ، وقال عدى بن زيد :

أعاذل مايدريك أن منيتى ... إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

أى لعل منيتى وقيل فيه حذف وتقديره وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو لايؤمنون وقرأ ابن عامر وحمزة لاتؤمنون بالتاء على الخطاب للكفار واعتبروا بقراءة أبى إذا جاءتكم لا تؤمنون وقرأ الآخرون بالياء على الخبر دليلها قراءة الأعمش أنها إذا جاءتهم لايؤمنون (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) قال ابن عباس يعنى ونحول بينهم وبين الإيمان فلو جئناهم بالآيات التى سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا به أول مرة أى كما لم يؤمنوا بما قبلها من الآيات من انشقاق القمر وغيره وقيل كما لم يؤمنوا به أول مرة يعنى معجزات موسى وغيره من الأنبيا عليهم السلام كقوله تعالى «أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل» وفى الآية محذوف تقديره فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس المرة الأولى دار الدنيا يعنى لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا فى الدنيا قبل مماتهم كما قال ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) قال عطاء نخذلهم وندعهم حتى فى ضلالتهم يتمادون (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) فرأوهم عيانا (وكلمهم الموتى) باحيائنا إياهم فشهدوا لك بالنبوة كما سألوا (وحشرنا) وجمعنا (عليهم كل شىء قبلا) قرأ أهل المدينة وابن عامر قبلا بكسر القاف وفتح الباء أى معاينة وقرأ الآخرون بضم القاف والباء قيل هو جمع قبيل وهو الكفيل مثل : رغيف ورغف وقضيب وقضب أى ضمناء وكفلاء وقيل هو جمع قبيل وهو القبيلة أى فوجا فوجا وقيل هو بمعنى المقابلة والمواجهة من قولهم أتيتك قبلا لادبرا إذا أتاه من قبل وجهه (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) ذلك

ومنه قول عدى بن زيد: أعاذل مايدريك أن منيتى ... إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

يعنى لعل منيتى . قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) قال ابن عباس يعنى ونحول بينهم وبين الإيمان فلو جئناهم بالآيات التى سألوها لما آمنوا بها والتقليب هو تحويل الشىء وتحريكه عن وجه إلى وجه آخر لأن الله تعالى إذا صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر (كما لم يؤمنوا به أول مرة) يعنى كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التى جاء بها رسول الله ﷺ مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات وقيل أول مرة يعنى الآيات التى جاء بها موسى وغيره من الأنبياء وقال ابن عباس المرة الأولى دار الدنيا يعنى لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم وفى الآية دليل على أن الله تعالى «يهدى من يشاء ويضل من يشاء» وأن القلوب والأبصار بيده وفى تصريفه فيقيم ماشاء منها ويزيغ ما أراد منها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» فمعنى قوله بقلب أفئدتهم نزيغها عن الإيمان ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وإن جاءتهم الآية التى سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله فعلى هذا تكون الكناية فى به عائدة على الإيمان بالقرآن وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل سؤالهم الآيات التى اقترحوها . وقوله تعالى (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) يعنى ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق علم الله أنهم لايؤمنون فى تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لايهتدون إلى الحق . قوله عز وجل (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) قال ابن جريج نزلت فى المستهزئين وذلك أنهم أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من قريش فقالوا يامحمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ماتقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدن لك أنك رسول الله أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا فنزلت هذه الآية جوابا لهم والمعنى ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة (وكلمهم الموتى) يعنى كما سألوا (وحشرنا عليهم كل شىء قبلا) يعنى وجمعنا عليهم كل شىء قبلا قبيلا قبيلا قيل القبيل الكفيل بصحة ماتقول ما آمنوا وهو قوله (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) يعنى إلا أن يشاء الله الإيمان منهم وفيه دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى حتى الإيمان والكفر وموضع المعجزة أن الأشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت فاذا أنطق الله الكل

(ولكن أكثرهم يجهلون) قوله عز وجل (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) أى أعداء فيه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم يعني كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء ثم فسرهم فقال (شياطين الإنس والجن) قال عكرمة والضحاك والسدي والكلبي معناه شياطين الإنس التي مع الإنس وشياطين الجن التي مع الجن وليس للإنس شياطين وذلك أن إبليس جعل جنده فريقين فبعث فريقا منهم إلى الإنس وفريقا منهم إلى الجن ، وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأوليائه وهم يلتقون في كل حين فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثله ويقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك فذلك يوحي بعضهم إلى بعض قال قتادة ومجاهد والحسن إن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين والشيطان العاتي المتمرد من كل شيء قالوا إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه يدل عليه ما روي عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس» ؟ فقلت : يارسول الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال نعم هم شر من شياطين الجن وقال مالك بن دينار أن شياطين الإنس أشد علي من شياطين الجن وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شياطين الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانا قوله تعالى

حتى يشهدوا له بصحة مايقول كان ذلك في غاية الإعجاز وقيل قبلا من المقابلة والمواجهة والمعنى وحشرنا عليهم كل شيء مواجهة ومعاينة «ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» أخبر الله أن الإيمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاءوا آمنوا ومتى شاءوا لم يؤمنوا وقال ابن عباس ما كانوا ليؤمنوا هم أهل الشقاء إلا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أنهم يدخلون في الإيمان وصحح الطبري قول ابن عباس قال لأن الله عم بقوله ما كانوا ليؤمنوا القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها» ثم استثنى منهم أهل السعادة وهم الذين شاء لهم الإيمان . قوله تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) يعني يجهلون أن ذلك كذلك ويحسبون أن الإيمان إليهم متى شاءوا آمنوا ومتى شاءوا كفروا وليس الأمر كذلك بل الإيمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفي هذا دليل لمذهب أهل السنة أن الأشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة في قولهم إن الله أراد الإيمان من جميع الكفار . قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) قيل هو منسوق على قوله تعالى كذلك زينا لكل أمة عملهم أي كما فعلنا ذلك كذلك جعلنا لكل نبي عدوا وقيل معناه كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء كذلك جعلنا لك أعداء وفيه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى «كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك عدوا ليعظم ثوابه على ما يكابده من أذى أعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعني جعلنا لكل نبي أعداء (شياطين الإنس والجن) اختلف العلماء في معنى شياطين الإنس والجن على قولين : أحدهما أن المراد شياطين من الإنس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والإنس وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء وهو قول مجاهد وقتادة قالوا وشياطين الإنس أشد تمردا من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن اغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه ويدل على صحة هذا القول ماروي عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل تعوذت بالله من شيطان الجن والإنس قلت يارسول الله وهل للإنس من شيطان؟ قال نعم هم شر من شياطين الجن» ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري وقال مالك بن دينار إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي . القول الثاني إن الجميع من ولد إبليس وأضيف الشياطين إلى الإنس على معنى أنهم يغوونهم وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبي والسدي ورواية عن ابن عباس قالوا والمراد بشياطين الإنس التي مع الإنس وبشياطين الجن التي مع الجن وذلك أن إبليس قسم جنده قسمين فبعث فريقا منهم إلى الجن وفريقا منهم إلى الإنس فالفريقان شياطين الجن والإنس بمعنى أنهم يغوونهم ويضلونهم وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأوليائه من المؤمنين والصالحين ومن ذهب إلى هذا القول قال يدل على صحته أن لفظ الآية يقتضي إضافة الشياطين إلى الإنس والجن والإضافة تقتضي المغايرة فعلى هذا يكون في الشياطين نوع

(يوحى بعضهم إلى بعض) أى يلقى (زخرف القول) وهو قول مموه مزين مزخرف بالباطل لامعنى تحته (غرورا) يعنى هؤلاء الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبنى آدم ويغرونهم غرورا والغرور القول الباطل (ولو شاء ربك مافعلوه) أى ماألقوه من الوسوسة فى القلوب (فذرهم وما يفترون (١٧٤) ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) أى تميل إليه والصغو الميل يقال صغو فلان معك أى ميله والفعل منه صغى يصغى صغا وصغى يصغى ويصغو صغوا، والهاء راجعة إلى زخرف القول (وليرضوه وليقترفوا) ليكتسبوا (ماهم مقترفون) يقال اقترف فلان مالا إذا اكتسبه وقال تعالى «ومن يقترف حسنة» وقال الزجاج أى ليعملوا من الذنوب ماهم عاملون قوله عز وجل (أفغير الله) فيه إضمار أى قل لهم يامحمد أفغير الله (أبتغى) أطلب (حكما) قاضيا بينى وبينكم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما فأجابهم به (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) مبينا فيه أمره ونهيه يعنى القرآن وقيل مفصلا أى خمسا خمسا وعشرا عشرا كما قال لنثبت به فؤادك (والذين آتيناهم الكتاب) يعنى علماء اليهود والنصارى الذين آتيناهم التوراة والإنجيل وقيل هم مؤمنوا أهل الكتاب وقال عطاء هم رءوس أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمراد من الكتاب هو القرآن (يعلمون أنه منزل) يعنى القرآن أن قرأ ابن عامر وحفص منزل بالتشديد من التنزيل لأنه أنزل نجوما متفرقة وقرأ الآخرون بالتخفيف من الإنزال، لقوله تعالى وهو الذى أنزل إليكم الكتاب (من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) من الشاكين أنهم يعلمون ذلك قوله عز وجل

مغاير للانس والجن وهم أولاد إبليس. وقوله تعالى (يوحى بعضهم إلى بعض) يعنى يلقى ويسر بعضهم إلى بعض ويناجى بعضهم بعضا وهو الوسوسة التى يلقيها إلى من يريد إغوائه فعلى القول الأول أن شياطين الإنس والجن يسر بعضهم إلى بعض مايفتنون به المؤمنين والصالحين وعلى القول الثانى إن أولاد إبليس يلقى بعضهم بعضا فى كل حين فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبى بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك فذلك وحى بعضهم إلى بعض. وقوله (زخرف القول) يعنى باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذى قد زين ووشى بالكذب وكل شىء حسن مموه فهو زخرف (غرورا) يعنى أن الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غرورا وذلك أن الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبنى آدم ويغرونهم بها غرورا (ولو شاء ربك مافعلوه) يعنى مافعلوا الوسوسة التى يلقيها الشياطين فى قلوب بنى آدم والمعنى أن الله تعالى لو شاء لمنع الشياطين من إلقاء الوسوسة إلى الإنس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم أنه الأجزل له فى الثواب إذا صبر على المحنة (فذرهم وما يفترون) يعنى فخلهم يامحمد ومازين لهم إبليس وغرهم به من الكفر والمعاصى فانى من ورائهم. قوله تعالى (ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) قال ابن عباس ولتميل إليه وأصل الصغو فى اللغة الميل يقال أصغى إلى كذا مال إليه ويقال صغوت أصغو وصغيت أصغى لغتان قال ابن الأنبارى اللام فى ولتصغى متعلقة بفعل مضمر معناه وفعلناهم ذلك لكى تصغى إلى الباطل أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وقال غيره اللام متعلقة بيوحى تقديره يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروا بذلك ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة والضمير فى إليه يرجع إلى زخرف القول والمعنى أن قلوب الكفار تميل إلى زخرف القول وباطله وتحبه وترضى به وهو قوله (وليرضوه) يعنى يرضون ذلك القول المزخرف الباطل (وليقترفوا ماهم مقترفون) يعنى وليكتسبوا من الأعمال الخبيثة ماهم مكتسبون. قوله عز وجل (أفغير الله أبتغى حكما) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين أفغير الله أطلب حكما قاضيا يقضى بينى وبينكم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما فأمره الله تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب والحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة، غير أن بعض أهل المعانى قال الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم من شأنه أن يحكم والحكم أهل أن يتحاكم إليه وهو الذى لايحكم إلا بالحق فالله تعالى حكم لايحكم إلا بالحق فلما أنزل الله على محمد القرآن فقد حكم له بالنبوة وهو قوله تعالى (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) يعنى مبينا فيه أمره ونهيه ووعده ووعيده وفيه الحكم بينى وبينكم (والذين آتيناهم الكتاب) يعنى علماء اليهود والنصارى (يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) يعنى يشهدون أن هذا القرآن منزل من عند الله وذلك لما ثبت عندهم بالدلائل الدالة على ذلك وقيل المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم مثل: أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ونظرائهم يعلمون أن هذا القرآن منزل من ربك الحق فآمنوا به وصدقوه (فلاتكونن من الممترين) يعنى فلا تكونن يامحمد من الشاكين

أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله وقيل معناه فلا تكونن في شك مما قصصنا عليك أنه حق وصدق فهو من باب التهييج لأنه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط وقيل الخطاب وإن كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به غيره والمعنى فلا تكونن أيها الإنسان السامع لهذا القرآن فى شك أنه منزل من عند الله لما فيه من الإعجاز الذى لا يقدر على مثله إلا الله تبارك وتعالى . قوله تعالى (وتمت كلمة ربك) وقرئ كلمات ربك على الجمع فمن قرأ على التوحيد قال الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم قال الشاعر فى كلمته يعنى فى قصيدته وكذلك القرآن كلمة واحدة لأنه شيء واحد فى إعجاز النظم وكونه حقا وصدقا ومعجزا ومن قرأ بالجمع قال لأن الله قال فى سياق الآية «لا مبدل لكلماته» فوجب الجمع فى اللفظ الأول إتباعا للثانى (صدقا وعدلا) يعنى صدقا فيما وعد وعدلا فيما حكم وقيل إن القرآن مشتمل على الأخبار والأحكام فهو صادق فيما أخبر عن القرون الماضية والأمم الخالية وعما هو كائن إلى قيام الساعة. وفيما أخبر عن ثواب المطيع فى الجنة وعقاب العاصى فى النار وهو عدل فيما حكم من الأمر والنهى والحلال والحرام وسائر الأحكام (لا مبدل لكلماته) يعنى لا مغير لقضائه ولا راد لحكمه ولا خلف لمواعيده وقيل لما وصف كلماته بالتمام فى قوله وتمت كلمة ربك والتمام فى كلام الله لا يقبل النقص والتغيير والتبديل. قال الله تعالى «لا مبدل لكلماته» لأنها مصونة عن التحريف والتغيير والتبديل باقية إلى يوم القيامة وفى قوله «لا مبدل لكلماته» دليل على أن السعيد لا ينقلب شقيا ولا الشقى ينقلب سعيدا، فالسعيد من سعد فى الأزل والشقى من شقى فى الأزل وأورد على هذا أن الكافر يكون شقيا بكفره فيسلم فينقلب سعيدا باسلامه وأجيب عنه بأن الاعتبار بالخاتمة فمن ختم له بالسعادة كان قد كتب سعيدا فى الأزل ومن ختم له بالشقاوة كان شقيا فى الأزل والله أعلم. وقوله تعالى (وهو السميع) يعنى لما يقول العباد (العليم) بأحوالهم قوله عز وجل (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) قال المفسرون إن المشركين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى أكل الميتة وذلك أنهم قالوا للمسلمين كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم؟ فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وإن تطع أكثر من فى الأرض فى أكل الميتة وكان الكفار يومئذ أكثر أهل الأرض يضلوك عن سبيل الله يعنى يضلوك عن دين الله الذى شرعه لك وبعثك به وقيل معناه لا تطعهم في معتقداتهم الباطلة فانك إن تطعهم يضلوك عن سبيل الله يعنى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم أخبر عن حال الكفار وما هم عليه فقال تعالى (إن يتبعون إلا الظن) يعنى أن هؤلاء الكفار الذين يجادلونك ما يتبعون فى دينهم الذى هم عليه إلا الظن وليسوا على بصيرة وحق فى دينهم وليسوا بقاطعين أنهم على حق لأنهم اتبعوا أهواءهم وتركوا التماس الصواب والحق واقتصروا على إتباع الظن والجهل (وإن هم إلا يخرصون) يعنى يكذبون وأصل الخرص الحزر والتخمين ومنه خرص النخلة إذا حزر كمية ثمرتها على الظن من غير يقين ويسمى الكذب خرصا لما يدخله من الظنون الكاذبة وقيل إن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص لأن قائله لم يقله عن علم ويقين (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يا محمد إن ربك هو أعلم

بالكلمات أمره ونهيه ووعده ووعيده (صدقا وعدلا) أى صدقا فى الوعد والوعيد وعدلا فى الأمر والنهى قال قتادة ومقاتل صدقا فيما وعد وعدلا فيما حكم (لا مبدل لكلماته) قال ابن عباس لا راد لقضائه ولا مغير لحكمه ولا خلف لوعده (وهو السميع العليم) قيل أراد بالكلمات القرآن لا مبدل له يريد لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله عن دين الله وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة وقيل أراد أنهم جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فى أكل الميتة وقالوا تأكلون ما تقتلون ولا تأكلون ما قتله الله عز وجل فقال وإن تطع أكثر من فى الأرض أى وإن تطعهم فى أكل الميتة يضلوك عن سبيل الله (إن يتبعون إلا الظن) يريد أن دينهم الذى هم عليه ظن وهوى لم يأخذوه عن بصيرة (وإن هم إلا يخرصون) يكذبون (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) قيل موضع من نصب بنزع حرف الصفة أى بمن يضل وقال الزجاج موضعه رفع بالابتداء ولفظها لفظ الاستفهام والمعنى إن ربك هو أعلم

أى الناس يضل عن سبيله (وهو أعلم بالمهتدين) أخبر أنه أعلم بالفريقين بالضالين والمهتدين ، فيجازى كلا بما يستحقون قوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) أى كلوا مما ذبح على اسم الله (إن كنتم بآياته مؤمنين) وذلك أنهم كانوا يحرمون أصنافا من النعم ويحلون الأموات فقيل لهم أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله ثم قال (ومالكم) يعنى أى شىء لكم (أن لاتأكلوا) وما يمنعكم من أن تأكلوا (مما ذكر اسم الله عليه) من الذبائح (وقد فصل لكم ماحرم عليكم) قرأ أهل المدينة ويعقوب وحفص فصل وحرم بالفتح فيهما أى فصل الله ماحرمه عليكم لقوله «اسم الله» وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو عمرو بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء على غير تسمية الفاعل لقوله ذكر وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر فصل بالفتح وحرم بالضم وأراد بتفصيل المحرمات ماذكر فى قوله تعالى «حرمت عليكم الميتة والدم» (إلا ما اضطررتم إليه) من هذه الأشياء فانه حلال لكم عند الاضطرار (وإن كثيرا ليضلون) قرأ أهل الكوفة بضم الياء وكذلك قوله ليضلوا فى سورة يونس لقوله تعالى «يضلوك عن سبيل الله» وقيل أراد به عمرو بن لحى فمن دونه من المشركين الذين اتخذوا البحائر والسوائب وقرأ الآخرون بالفتح لقوله من يضل (بأهوائهم بغير علم) حين امتنعوا من أكل ماذكر اسم الله عليه ودعوا إلى أكل الميتة (إن ربك هو أعلم بالمعتدين) الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) يعنى الذنوب كلها لأنها لاتخلو من هذين الوجهين قال قتادة علانيته وسره وقال مجاهد ظاهره مايعمله الإنسان بالجوارح من الذنوب وباطنه ماينويه ويقصده بقلبه كالمصر على الذنب القاصد له قال الكلبى

منك ومن جميع خلقه أى الناس يضل عن سبيله (وهو أعلم بالمهتدين) يعنى وهو أعلم أيضا بمن كان على هدى واستقامة وسداد لايخفى عليه شىء من أحوال خلقه فأخبر تعالى أنه أعلم بالفريقين الضال والمهتدى وأنه يجازى كلا بما يستحق . قوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين أتأكلون مما قتلتم ولاتأكلون مما قتل ربكم ؟ فقال الله تعالى للمسلمين فكلوا أنتم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح (إن كنتم بآياته مؤمنين) وقيل كانوا يحرمون أصنافا من النعم ويحلون الميتة فقيل أحلوا ماأحل الله وحرموا ماحرم الله فعلى هذا القول تكون الآية خطابا للمشركين. وعلى القول الأول تكون الآية خطابا للمسلمين وهو الأصح لقوله فى آخر الآية « إن كنتم بآياته مؤمنين » (وما لكم أن لاتأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يعنى وأى شىء لكم فى أن لاتأكلوا ومايمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهذا تأكيد فى إباحة ماذبح على اسم الله دون غيره (وقد فصل لكم ماحرم عليكم) يعنى وقد بين لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون وقال جمهور المفسرين المراد بقوله وقد فصل لكم ماحرم عليكم المحرمات المذكورة فى قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به» وأورد الإمام فخر الدين الرازى ههنا إشكالا فقال في سورة الأنعام مكية وسورة المائدة من آخر ماأنزل الله تعالى بالمدينة وقوله وقد فصل يجب أن يكون ذلك المفصل متقدما على هذا المحل والمدنى متأخر على المكى فيمتنع كونه متقدما ثم قال بل الأولى أن يقال قوله تعالى بعد هذه الآية « قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير» وهذه الآية وإن كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من المتأخر لايمنع أن يكون هو المراد قال كاتبه ولما ذكره المفسرون وجه وهو أن الله لما علم أن سورة المائدة متقدمة على سورة الأنعام فى الترتيب لافى النزول حسن عود الضمير فى قوله وقد فصل لكم ماحرم عليكم إلى ماهو متقدم فى الترتيب وهو قوله «حرمت عليكم الميتة» الآية والله أعلم بمراده. وقوله تعالى (إلا ما اضطررتم إليه) يعنى إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة فيباح لكم ذلك عند الاضطرار (وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) يعنى وإن كثيرا من الذين يجادلونكم فى أكل الميتة ويحتجون عليكم فى ذلك بقولهم أتأكلون ماتذبحون ولاتأكلون مايذبحه الله وإنما قالوا هذه المقالة جهلا منهم بغير علم منهم بصحة مايقولون بل يتبعون أهواءهم ليضلوا أنفسهم وأتباعهم بذلك وقيل المراد به عمرو بن لحى فمن دونه من المشركين لأنه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وأباح الميتة وغير دين إبراهيم عليه السلام (إن ربك هو أعلم بالمعتدين) يعنى إن ربك يامحمد هو أعلم بمن تعدى حدوده فأحل ماحرم الله وحرم ماأحل الله فهو يجازيهم على سوء صنيعهم . قوله عز وجل (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) يعنى وذروا أيها الناس مايوجب الإثم وهى الذنوب والمعاصى

والمعاصى كلها سرها وعلانيتها قليلها وكثيرها قال الربيع ابن أنس نهى الله عن ظاهر الإثم وباطنه أن يعمل به سرا وعلانية وقال سعيد بن جبير فى هذه الآية الظاهر منه قوله «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف» ونكاح المحارم من الأمهات والبنات والأخوات والباطن الزنا وقال السدى أما الظاهر فالزوانى فى الحوانيت وهن أصحاب الرايات . وأما الباطن فالمرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سرا وقال الضحاك كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون أن ذلك حلالا ما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية وقال ابن زيد ظاهر الإثم التجرد من الثياب والتعرى فى الطواف والباطن الزنا وقال الكلبى ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك إلى أن جاء الإسلام فنهى الله عن ذلك كله وقيل إن هذا النهى عام فى جميع المحرمات التى نهى الله عنها وهو الأصح لأن تخصيص العام بصورة معينة من غير دليل لا يجوز ، فعلى هذا القول يكون معنى الآية وذروا ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها قال ابن الأنبارى وذروا الإثم من جميع جهاته وقيل المراد بظاهر الإثم الإقدام على الذنوب من غير مبالاة وباطنه ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا لخوف الناس وقيل المراد بظاهر الإثم أفعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب فيدخل فى ذلك الحسد والكبر والعجب إرادة السوء للمسلمين ونحو ذلك . وقوله تعالى (إن الذين يكسبون الإثم) يعنى إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويرتكبون ما حرم عليهم من المعاصى وغيرها (سيجزون) يعنى فى الآخرة (بما كانوا يقترفون) يعنى بما كانوا يكسبون فى الدنيا من الآثام وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب أنه مخصوص بمن لم يتب لأن المسلمين أجمعوا على أنه إذا تاب العبد من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وزاد أهل السنة فى ذلك فقالوا المذنب إذا لم يتب فهو فى خطر المشيئة إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه بفضله وكرمه ، قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ابن عباس الآية فى تحريم الميتات وما فى معناها من المنخنقة وغيرها وقال عطاء الآية فى تحريم الذبائح التى كانوا يذبحونها على اسم الأصنام اهـ .

(فصل)

اختلف العلماء فى ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها فذهب قوم إلى تحريمها سواء تركها عامدا أو ناسيا وهو قول ابن سيرين والشعبى ونقله الإمام فخر الدين الرازى عن مالك ونقل عن عطاء أنه قال كل ما لم يذكر اسم الله عليه من طعام أو شراب فهو حرام احتجوا فى ذلك بظاهر هذه الآية وقال الثورى وأبو حنيفة إن ترك التسمية عامدا لا تحل وإن تركها ناسيا تحل وقال الشافعى تحل الذبيحة سواء ترك التسمية عامدا أو ناسيا ونقله البغوى عن ابن عباس ومالك ونقل ابن الجوزى عن أحمد روايتين فيما إذا ترك التسمية عامدا وإن تركها ناسيا حلت فمن أباح أكل الذبيحة التى لم يذكر اسم الله عليها قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم الأصنام بدليل أنه قال تعالى فى سياق الآية (وإنه لفسق) وأجمع العلماء على أن

ظاهره الزنا وباطنه المخالفة وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم الإعلان بالزنا وهم أصحاب الرايات وباطنه الاستسرار به وذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا وكان الشريف منهم يتشرف فيسر به وغير الشريف لا يبالى به فيظهره فحرمهما الله عز وجل وقال سعيد ابن جبير ظاهر الاسم نكاح المحارم وباطنه الزنا وقال ابن زيد إن ظاهر الإثم التجرد من الثياب والتعرى فى الطواف والباطن الزنا وروى حيان عن الكلبى ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة (إن الذين يكسبون الإثم سيجزون) فى الآخرة (بما كانوا يقترفون) يكتسبون فى الدنيا قوله عز وجل (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ابن عباس رضى الله عنهما الآية فى تحريم الميتات وما فى معناها من المنخنقة وغيرها وقال عطاء الآية فى تحريم الذبائح التى كانوا يذبحونها على اسم الأصنام واختلف أهل العلم فى ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها فذهب قوم إلى تحريمها سواء ترك التسمية عامدا أو ناسيا وهو قول ابن سيرين والشعبى واحتجوا بظاهر هذه الآية وذهب قوم إلى تحليلها روى ذلك عن ابن عباس وهو قول مالك والشافعى وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين وذهب قوم إلى أنه إن ترك التسمية عامدا لا يحل وإن تركها ناسيا يحل حكى الخرقى من أصحاب أحمد أن هذا مذهبه وهو قول الثورى وأصحاب الرأى ومن أباحها قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم غير الله بدليل أنه قال (وإنه لفسق) والفسق فى ذكر اسم غير الله كما قال فى آخر السورة

«قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم إلى قوله أوفسقا أهل لغير الله به» واحتج من أباحها بما أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن موسى ثنا أبو خالد الأحمر قال سمعت هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت إن قوما قالوا يارسول الله إن هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك يأتون بلحمان لاندرى يذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا ولو كانت التسمية شرطا للإباحة لكان الشك فى وجودها مانعا من أكلها كالشك فى أصل الذبح قوله (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم وذلك أن المشركين قالوا يامحمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها قالوا فتزعم أن ماقتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر والفهد حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله هذه الآية (وإن أطعتموهم) فى أكل الميتة (إنكم لمشركون) قال الزجاج وفيه دليل على أن من أحل شيئا مما حرم الله أو حرم ما أحل الله فهو مشرك قوله (أومن كان ميتا فأحييناه) قرأ نافع ميتا ولحم أخيه ميتا والأرض الميتة أحييناها بالتشديد فيهن وقرأ الآخرون بالتخفيف فأحييناه أى كان ضالا فهديناه كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإيمان (وجعلنا له نورا) الله يستضىء به (يمشى به فى الناس) على قصد السبيل قيل النور هو الإسلام لقوله تعالى «يخرجهم من الظلمات إلى النور» وقال قتادة هو كتاب الله بينة من الله مع المؤمن بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهى (كمن مثله فى الظلمات) المثل صلة أى كمن هو فى الظلمات (ليس بخارج منها) يعنى من ظلمة الكفر قيل نزلت هذه الآية فى رجلين بأعيانهما ثم اختلفوا فيهما قال ابن عباس جعلنا له نورا يريد حمزة بن عبد المطلب «كمن مثله فى الظلمات» يريد أبا جهل بن هشام، وذلك أن أبا جهل رمى

آكل ذبيحة المسلم التى ترك التسمية عليها لايفسق واحتجوا أيضا فى إباحتها بما روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قلت يارسول الله إن هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فما ندرى يذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا» قالوا لو كانت التسمية شرطا للإباحة لكان الشك فى وجودها مانعا من أكلها كالشك فى أصل الذبح وقول الشافعى فى أول الآية وإن كان عاما بحسب الصيغة إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة وهى قوله وإنه لفسق وأن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم أنكم لمشركون علمنا أن المراد من هذا العموم هو الخصوص والفسق ذكر اسم غير الله فى الذبح كما قال فى آخر السورة «قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلى قوله أوفسقا أهل لغير الله به» فصار هذا الفسق الذى أهل لغير الله به مفسرا لقوله «وإنه لفسق» وإذا كان كذلك كان قوله «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق» مخصوصا بما «أهل لغير الله به» والله أعلم. وقوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) يعنى أن الشياطين يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم ويخاصموا محمدا صلى الله عليه وسلم وذلك أن المشركين قالوا يامحمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها قالوا فتزعم أن ماقتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية فى تحريم الميتة كتبت فارس ، وهم المجوس إلى مشركى قريش أن خاصموا محمدا وقولوا له إن ماذبحت فهو حلال ، وما ذبحه الله فهو حرام فأنزل الله وأن الشياطين يعنى مردة الإنس وهم المجوس ليوحون إلى أوليائهم يعنى مشركى قريش وكان بين فارس والعرب موالاة ومكاتبة على الروم ، فعلى هذا يكون المراد بالوحى المكاتبة فى خفية (وإن أطعتموهم) يعنى فى أكل الميتة ، وما حرم الله عليكم (إنكم لمشركون) يعنى أنكم إذا مثلهم فى الشرك قال الزجاج فيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أحل الله فهو مشرك إنما سمى مشركا لأنه أثبت حاكما غير الله عز وجل ومن كان كذلك فهو مشرك . قوله عز وجل (أو من كان ميتا فأحييناه) يعنى أو من كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإيمان وإنما جعل الكفر موتا لأنه جعل الإيمان حياة لأن الحى صاحب بصر يهتدى به إلى رشده ولما كان الإيمان يهدى إلى الفوز العظيم والحياة الأبدية شبهه بالحياة (وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس) يعنى وجعلنا له نورا يستضىء به فى الناس ويهتدى به إلى قصد السبيل قيل النور هو الإسلام لأنه يخلص من ظلمات الكفر لقوله يخرجهم من الظلمات إلى النور . وقال قتادة هو كتاب الله القرآن لأنه بينة من الله مع المؤمن بما يعمله (كمن مثله فى الظلمات) يعنى كمن هو فى ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة (ليس بخارج منها) يعنى من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه

الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين أن المؤمن المهتدى بمنزلة من كان ميتا فأحياه وأعطاه نورا يهتدى به فى مصالحه وأن الكافر بمنزلة من هو فى ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيرا على الدوام ثم اختلف المفسرون فى هذين المثالين هل هما مخصوصان بانسانين معينين أو هما عامان فى كل مؤمن وكافر؟ فذكروا فى ذلك قولين: أحدهما أن الآية فى رجلين معينين ثم اختلفوا فيهما فقال ابن عباس فى قوله وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس يريد حمزة بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ كمن مثله فى الظلمات يريد بذلك أبا جهل بن هشام وذلك أن أبا جهل رمى النبي ﷺ بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، وكان حمزة قد رجع من صيد وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل حمزة غضبان حتى علا أبا جهل وجعل يضربه بالقوس وجعل أبو جهل يتضرع إلى حمزة ويقول يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن أسفه منكم عقولا تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فأسلم حمزة يومئذ فأنزل الله هذه الآية وقال الضحاك نزلت فى عمر ابن الخطاب وأبى جهل وقال عكرمة والكلبي نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل وقال مقاتل نزلت فى النبي صلى الله عليه وسلم وأبى جهل وذلك أن أبا جهل قال زاحمنا بنو عبدمناف فى الشرف حتى إذا صرنا نحن وهم كفرسى رهان، قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن حتى يأتينا وحى كما يأتيه فنزلت هذه الآية. والقول الثانى وهو قول الحسن فى آخرين أن هذه الآية عامة فى حق كل مؤمن وكافر وهذا هو الصحيح لأن المعنى إذا كان حاصلا فى الكل دخل فيه كل أحد. وقوله تعالى (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله زينا لهم أعمالهم ولأن حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعى وحصوله لا يكون إلا بخلق الله تعالى فدل ذلك على أن المزين هو الله تعالى وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ويرده ما تقدم. وقوله تعالى (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) يعنى وكما جعلنا فى مكة أكابر وعظماء جعلنا فى كل قرية أكابر وعظماء وقيل هو معطوف على ما قبله ومعناه كما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا فى كل قرية أكابر جمع الأكبر ولا يجوز أن يكون مضافا لأنه لا يتم المعنى فى بل الآية تقديم وتأخير تقديره فى وكذلك جعلنا كل قرية أكابر «مجرميها» وإنما جعل المجرمين أكابر لأنهم أقدر على المكر والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم «وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم وذلك سنة الله أنه جعل فى كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فساقهم أكابرهم (ليمكروا فيها) قال أبو عبيدة المكر: الخديعة والحيلة والغدر والفجور زاد بعضهم والغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة وترويج الباطل قال ابن عباس معناه ليقولوا فيها الكذب وقال مجاهد جلس على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقولوا هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم (وما يمكرون إلا بأنفسهم) يعنى ما يحيق هذا المكر إلا بهم لأن وبال مكرهم يعود عليهم (وما يشعرون) يعنى أن وبال ذلك المكر يعود عليهم ويضرهم. قوله عز وجل (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) يعنى النبوة وذلك أن

رسول الله ﷺ بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل غضبان حتى رمى أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه ويقول يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فأنزل الله هذه الآية وقال الضحاك نزلت فى عمر بن الخطاب وأبى جهل وقال عكرمة والكلبي نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) من الكفر والمعصية قال ابن عباس يريد زين لهم الشيطان عبادة الأصنام قوله عز وجل (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) أى كما أن فساق مكة أكابرها كذلك جعلنا فساق كل قرية أكابرها أى عظماءها جمع أكبر مثل أفضل وأفاضل وأسود وأساود وذلك سنة الله تعالى أنه جعل فى كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم كما قال فى قصة نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الأرذلون وجعل فساقهم أكابرهم (ليمكروا فيها) وذلك أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ يقولون لكل من يقدم إياك وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذاب (وما يمكرون إلا بأنفسهم) لأن وبال مكرهم يعود عليهم (وما يشعرون) أنه كذلك قوله تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) يعنى مثل ما أوتى رسل الله من النبوة وذلك أن الوليد بن المغيرة

قال لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سنا وأكثر منك مالا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مقاتل نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لانؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فأنزل الله عز وجل «وإذا جاءتهم آية» حجة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم قالوا يعني أبا جهل لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ثم قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) قرأ ابن كثير وحفص رسالته على التوحيد وقرأ الآخرون رسالاته بالجمع يعني الله أعلم بمن هو أحق بالرسالة (سيصيب الذين أجرموا صغار) ذل وهوان (عند الله) أي من عند الله (وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) قيل صغار في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة قوله عز وجل (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أي يفتح قلبه وينوره حتى يقبل الإسلام ولما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر

الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أولى بها منك لأني أكبر منك سنا وأكثر منك مالا فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت في أبي جهل ، وذلك أنه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لانؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فأنزل الله هذه الآية وإذا جاءتهم آية ، يعني حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم . قالوا يعني الوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام أو كل واحد من رؤساء الكفر ويدل عليه الآية التي قبلها وهي قوله وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها فكان من مكر كفار قريش أن قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني النبوة وإنما قالوا هذه المقالة الخبيثة حسدا منهم للنبي صلى الله عليه وسلم وفي قولهم لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله قولان : أحدهما وهو المشهور أن القوم أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يكونوا متبوعين لا تابعين ، القول الثاني وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس أن المعنى وإذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد ﷺ قالوا لن نؤمن لك يعني لن نصدقك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل بصدقك بأنك رسول الله ، فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوة وإنما طلبوا أن تخبرهم الملائكة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من الله تعالى وعلى القول الأول أنهم طلبوا أن يكونوا أنبياء ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) يعني أنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها ويعلم من لا يستحقها ومن ليس بأهل لها وأنتم لستم لها بأهل وأن النبوة لا تحصل لمن يطلبها ، خصوصا لمن عنده حسد ومكر وغدر وقال أهل المعاني الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعثة مطاعين في قومهم ؛ لأن الطعن كان يتوجه عليهم فيقال إنما كانوا رؤساء مطاعين فاتبعهم قومهم لأجل ذلك فكان الله تعالى أعلم بمن يستحق الرسالة فجعلها ليتيم أبي طالب دون أبي جهل والوليد وغيرهما من أكابر قريش ورؤسائها وقوله تعالى (سيصيب الذين أجرموا صغار) أي ذلة وهوان وقيل الصغار هو الذل الذي تصغر إلى المرء نفسه فيه (عند الله) يعني هذا من عند الله وقيل إن هذا الصغار ثابت لهم عند الله فعلى هذا القول إنما يحصل لهم الصغار في الآخرة وقيل معناه سيصيبهم صغار بحكم الله حكم به عليهم في الدنيا (وعذاب شديد) يعني في الآخرة (بما كانوا يمكرون) يعني إنما حصل لهم هذا الصغار والعذاب بسبب مكرهم وحسدهم وطلبهم ما لا يستحقون . قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أي الإيمان يقال شرح الله صدره فانشرح أي وسعه لقبول الإيمان والخير فتوسع وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر مال بطبعه إليه وقويت رغبته فيه فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر وقيل الشرح الفتح والبيان يقال شرح فلان أمره إذا : أوضحه وأظهره وشرح المسئلة إذا كانت مشكلة فأوضحها وبينها فقد ثبت أن للشرح معنيين : أحدهما الفتح ومنه يقال شرح الكافر بالكفر صدرا أي فتحه لقبوله ومنه قوله تعالى «ولكن من شرح بالكفر صدرا» وقوله «أفمن شرح الله صدره للإسلام» يعني فتحه ووسعه لقبوله

قال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفسح » قيل فهل لذلك أمارة قال «نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت » قوله تعالى (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا) قرأ ابن كثير ضيقا بالتخفيف هاهنا وفى الفرقان والباقون بالتشديد وهما لغتان مثل : هين وهين ولين ولين (حرجا) قرأ أهل المدينة وأبو بكر بكسر الراء والباقون بفتحها وهما لغتان أيضا مثل الدنف والدنف قال سيبويه الحرج بالفتح المصدر كالطلب ومعناه ذا حرج وبالكسر الاسم وهو أشد الضيق يعنى يجعل قلبه ضيقا حتى لا يدخله الإيمان وقال الكلبى ليس للخير فيه منفذ قال ابن عباس إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه وإذا ذكر شىء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك وقرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الآية فسأل أعرابيا من كنانة ما الحرجة فيكم قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التى لاتصل إليها راعية ولا وحشية ولا شىء، فقال عمر رضى الله عنه كذلك قلب المنافق لايصل إليه شىء من الخير (كأنما يصعد فى السماء) وقرأ ابن كثير يصعد بالتخفيف وسكون الصاد وقرأ أبو بكر عن عاصم يصاعد بالألف أى يتصاعد وقرأ الآخرون يصعد بتشديد الصاد والعين أى يتصعد يعنى يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء وأصل الصعود المشقة ومنه قوله تعالى «سأرهقه صعودا» أى عقبة شاقة (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون) قال ابن عباس الرجس هو الشيطان أى يسلط عليه، وقال الكلبى هو المأثم ، وقال مجاهد الرجس مالاخير فيه وقال عطاء الرجس العذاب مثل الرجز وقيل هو النجس روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

والثانى أن الشرح نور يقذفه الله فى قلب العبد فيعرف بذلك النور الحق ، فيقبله وينشرح صدره له ومعنى الآية «فمن يرد الله أن يهديه للإيمان بالله» وبرسوله وبما جاء به من عنده يوفقه له ويشرح صدره لقبوله ويهونه عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به وإحسانه إليه فعند ذلك يستنير الإسلام فى قلبه فيضىء به ويتسع له صدره ولما نزلت هذه الآية سئل النبى ﷺ عن شرح الصدر فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفسح قيل فهل لذلك أمارة قال نعم «الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت» وأسنده الطبرى عن ابن مسعود قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه هذه الآية «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» قال إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا فهل لذلك من آية يعرف بها قال «الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» . وقوله تعالى (ومن يرد) أى الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) يعنى يجعل صدره ضيقا حتى لايدخله الإيمان وقال الكلبى ليس للخير فيه منفذ ، وقال ابن عباس إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه وإذا سمع ذكر الأصنام ارتاح إلى ذلك وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وعنده إعرابى من كنانة فقال له ماالحرجة فيكم قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التى لاتصل إليها راعية ولا وحشية ولا شىء فقال عمر كذلك قلب المنافق لايصل إليه شىء من الخير وأصل الحرج الضيق وهو مأخوذ من الحرجة وهى الأشجار الملتف بعضها على بعض حتى لايصل إليه شىء وقرأ ابن عباس هذه الآية فقال هل هنا أحد من بنى بكر قال رجل نعم قال ماالحرجة فيكم قال الوادى الكثير الشجر المستمسك الذى لاطريق فيه فقال ابن عباس كذلك قلب الكافر قال أهل المعانى لما كان القلب محلا للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالانشراح والانفساح ونوره فقبل ماأودعه من الإيمان بالله ورسوله ووصف قلب من يريد ضلالته بالضيق الذى هو خلاف الشرح والانفساح فدل ذلك على أن الله تعالى صير قلب الكافر بحيث لايعى علما ولا استدلالا على توحيد الله تعالى والإيمان به وفى الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وإرادته حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر . وقوله تعالى (كأنما يصعد فى السماء) يعنى أن الكافر إذا دعى إلى الإسلام كأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء ولا يقدر على ذلك وقيل يجوز أن يكون المعنى كأن قلب الكافر يصعد إلى السماء نبوا عن الإسلام وتكبرا ، وقيل ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعد إلى السماء وليس يقدر على ذلك وقيل هو من المشقة وصعوبة الأمر فيكون المعنى أن الكافر إذا دعى إلى الإسلام فانه يتكلف مشقة وصعوبة فى ذلك كمن يتكلف إلى السماء وليس يقدر على ذلك (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون) الكاف فى كذلك تفيد التشبيه وفيه وجهان : الأول معناه أن

جعله الرجس عليهم كجعله صدورهم ضيقة حرجة والمعنى كما جعلنا صدورهم ضيقة حرجة كذلك يجعل الله الرجس عليهم. الوجه الثانى قال الزجاج أى مثل ماقصصنا عليك كذلك يجعل الله الرجس قال ابن عباس الرجس الشيطان أى فيسلطه الله عليهم وقال مجاهد الرجس ما لا خير فيه وفى رواية عن ابن عباس أن الرجس العذاب وقال الزجاج الرجس فى الدنيا اللعنة وفى الآخرة العذاب. قوله عز وجل (وهذا صراط ربك مستقيما) يعنى وهذا الذى بينا لك يا محمد فى هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعنى دينه الذى شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه قال ابن عباس فى قوله وهذا صراط ربك مستقيما يعنى الإسلام وقال ابن مسعود يعنى القرآن لأنه يؤدى من تبعه وعمل به إلى طريق الاستقامة والسداد (قد فصلنا الآيات) يعنى قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والأمر والنهى وغير ذلك من أحكام القرآن (لقوم يذكرن) يعنى لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر. قال عطاء يعنى أصحاب النبى ﷺ ومن تبعهم باحسان (لهم دار السلام عند ربهم) يعنى الجنة فى قول جميع المفسرين قال الحسن والسدى السلام هو الله تعالى وداره الجنة معنى السلام فى أسماء الله تعالى ذو السلام وهو جمع سلامة لأنه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقائص فعلى هذا القول أضيفت الدار إلى السلام الذى هو اسم الله تعالى إضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبى صلى الله عليه وسلم عبد الله فى قوله « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » واحتج لصحة هذا بأن فى إضافة الدار إلى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الإضافة مبالغة فى تعظيم أمرها وقيل إن السلام صفة للدار لأنها دار السلامة الدائمة التى لا تنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كأنه قال دار السلامة التى لا يلاقون فيها شيئا يكرهونه وقيل سميت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى فى وصفها « أدخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » وقال « تحيتهم فيها سلام » وقال « سلام قولا من رب رحيم » « لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما » وقوله « عند ربهم » يعنى أن الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم إليها (وهو وليهم بما كانوا يعملون) يعنى أنه تعالى يتولى أمرهم وإيصال المنافع إليهم ويدفع المضار عنهم وقيل معناه أنه يتولاهم فى الدنيا بالتوفيق والهداية وفى الآخرة بالجزاء والجنة وقيل الولى هو الناصر والقريب يعنى أنه تعالى ينصرهم فى الدنيا ويقربهم فى الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة التى كانوا يتقربون بها إليه فى الدنيا قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا) أى أذكر يا محمد يوم نحشر المعادلين بالله الأصنام مع أوليائهم من الشياطين يعنى نحشر المشركين والشياطين جميعا يوم القيامة (يامعشر الجن) فيه حذف تقديره يقول لهم يامعشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين (قد استكثرتم من الإنس) يعنى من إضلالهم وإغوائهم وقال ابن عباس معناه أضللتم كثيرا من الإنس وهذا التفسير لابد له من تأويل آخر لأن الجن لا يقدرون على إضلال الإنس وإغوائهم بأنفسهم لأنه لا يقدر على الإجبار أحد إلا الله لأنه هو المتصرف فى خلقه بما شاء فوجب أن يكون المعنى قد استكثرتم من الدعاء إلى الإضلال

كان إذا دخل الخلاء قال « اللهم إنى أعوذ بك من الرجس » النجس، وقال الزجاج الرجس اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة قوله عز وجل (وهذا صراط ربك مستقيما) أى هذا الذى بينا وقيل هذا الذى أنت عليه يا محمد طريق ربك ودينه الذى ارتضاه لنفسه مستقيما لا عوج فيه وهو الإسلام (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون لهم دار السلام عند ربهم) يعنى الجنة قال أكثر المفسرين السلام هو الله وداره الجنة وقيل السلام هو السلامة أى لهم دار السلامة من الآفات وهى الجنة وسميت دار السلام لأن كل من دخلها سلم من البلايا والرزايا وقيل سميت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلام فقال فى الابتداء « ادخلوها بسلام آمنين »، « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم »، وقال « لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما » وقال « تحيتهم فيها سلام »، « سلام قولا من رب رحيم » (وهو وليهم بما كانوا يعملون) قال الحسين بن الفضل يتولاهم فى الدنيا بالتوفيق وفى الآخرة بالجزاء قوله عز وجل (ويوم يحشرهم) قرأ حفص يحشرهم بالياء (جميعا) يعنى الجن والإنس يجمعهم فى موقف القيامة فيقول: (يامعشر الجن) والمراد بالجن الشياطين (قد استكثرتم من الإنس) أى استكثرتم من الإنس بالإضلال

والإغواء أى أضللتم كثيرا (وقال أولياؤهم من الإنس) يعنى أولياء الشياطين الذين أطاعوهم من الإنس (ربنا استمتع بعضنا ببعض) قال الكلبى استمتاع الإنس بالجن هو أن الرجل إذا كان سافر ونزل بأرض قفر وخاف على

نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه فيبيت فى جوارهم وأما استمتاع الجن بالإنس هو أنهم قالوا قد سدنا الإنس مع الجن حتى عادوا بنا فيزدادون شرفا فى قومهم وعظما فى أنفسهم وهذا كقوله تعالى «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا» وقيل استمتاع الإنس بالجن، ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التى يهوونها حتى يسهل فعلها عليهم، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصى قال محمد ابن كعب «وطاعة بعضهم بعضا وموافقة بعضهم لبعض (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) يعنى القيامة والبعث (قال) الله تعالى (النار مثواكم) مقامكم (خالدين فيها إلا ماشاء الله) اختلفوا فى هذا الاستثناء كما اختلفوا فى

الإضلال مع مصادفة القبول من الإنس (وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا لبعض) يعنى استمتع الجن بالإنس والإنس بالجن فأما استمتاع الإنس بالجن فقال الكلبى كان الرجل فى الجاهلية إذا سافر فنزل بأرض قفراء وخاف على نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه فيبيت فى جوارهم. وأما استمتاع الجن بالإنس فهم أنهم قالوا سدنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفا فى قومهم وعظما فى أنفسهم وقيل استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الأمور التى كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس للجن، فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصى وقيل استمتاع الإنس بالجن فيما كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وأصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالإنس هى طاعة الإنس للجن، فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم فصاروا كالرؤساء للإنس والإنس كالأتباع وقيل إن قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض هو من كلام الإنس خاصة لأن استمتاع الجن بالإنس وبالعكس أمر نادر لايكاد يظهر، أما استمتاع الإنس بعضهم ببعض فهو ظاهر فوجب حمل الكلام عليه (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) يعنى أن ذلك الاستمتاع كان إلى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة الندامة قال الحسن والسدى لأجل الموت وقيل هو وقت البعث للحساب فى يوم القيامة (قال) يعنى قال الله لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والإنس (النار مثواكم) يعنى أن النار مقامكم ومقركم فيها ومصيركم إليها (خالدين فيها) يعنى مقيمين فى نار جهنم أبدا (إلا ماشاء الله) اختلفوا فى معنى هذا الاستثناء فقيل معناه خالدين فيها إلا قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب إلى حين دخولهم إلى النار فان هذا الوقت ليسوا بخالدين فيه فى النار وقيل المراد من الاستثناء هو أوقات نقلتهم من عذاب إلى عذاب آخر وذلك أنهم يستغيثون من النار فينقلون إلى الزمهرير ثم يستغيثون منه فينقلون إلى النار فكانت مدة نقلتهم هى المراد من هذا الاستثناء ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس أنه قال: إن هذا الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون ويصدقون النبى صلى الله عليه وسلم فيخرجون من النار قالوا فعلى هذا التأويل تكون ما فى قوله إلا ماشاء الله بمعنى من يعنى إلا من شاء الله ونقل الطبرى عن ابن عباس أنه كان يتأول هذا الاستثناء بأن الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم فى مبلغ عذابهم إلى مشيئته وقال فى هذه الآية إنه لاينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه أن لاينزلهم جنة ولا نارا قال الزجاج والقول الأول أولى لأن معنى الاستثناء إنما هو من يوم القيامة لأن قوله «ويوم نحشرهم جميعا» هو يوم القيامة ثم قال «خالدين فيها» منذ يبعثون «إلا ماشاء الله» من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدة محاسبتهم.

قوله «خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك» قيل أراد إلا قدر مدة مابين بعثهم إلى دخولهم جهنم يعنى هم خالدون فى النار إلا هذا المقدار وقيل الاستثناء يرجع إلى العذاب وهو قوله «النار مثواكم» أي خالدين فى النار سوى ماشاء الله من أنواع العذاب وقال ابن عباس الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار وما بمعنى

من على هذا التأويل (إن ربك حكيم عليم) قيل حكيم بمن استثنى عليم بما فى قلوبهم من البر والتقوى (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) قيل أى كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض نولى بعض الظالمين بعضا أى نسلط بعض الظالمين (١٨٤) على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء من أعان ظالما سلطه الله عليه وقال قتادة نجعل بعضهم أولياء بعض فالمؤمن ولى المؤمن أين كان والكافر ولى الكافر حيث كان وروى معمر عن قتادة نتبع بعضهم بعضا فى النار من الموالاة وقيل معناه نولى ظلمة الإنس ظلمة الجن ونولى ظلمة الجن ظلمة الإنس أى نكل بعضهم إلى بعض كقوله تعالى نوله ماتولى وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسيرها هو أن الله تعالى إذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم قوله عز وجل (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) واختلفوا فى أن الجن هل أرسل إليهم منهم رسول فسئل الضحاك عنه فقال بلى ألم تسمع الله يقول «ألم يأتكم رسل منكم» يعنى بذلك رسلا من الإنس ورسلا من الجن قال الكلبى كانت الرسل من قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يبعثون إلى الجن والإنس جميعا ومحمد الرسول صلى الله عليه وسلم يبعث إلى الجن والإنس كافة قال مجاهد الرسل من الإنس والنذر من الجن ثم قرأ ولوا إلى قومهم منذرين وهم قوم يسمعون كلام الرسل فيبلغون الجن ماسمعوا وليس للجن رسل

(إن ربك حكيم) يعنى فى تدبير خلقه وتصريفه إياهم فى مشيئته من حال إلى حال وغير ذلك من أفعاله وقيل حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصى وفى سائر وجوه المجازاة (عليم) يعنى بعواقب أمور خلقه وماهم إليه صائرون كأنه قال إنما حكمت لهؤلاء الكفار بالخلود فى النار لعلمى بأنهم يستحقون ذلك . قوله عز وجل (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) الكاف فى كذلك كاف التشبيه تقتضى شيئا تقدم ذكره فالتقدير كما أنزلت العذاب بالجن والإنس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولى بعض الظالمين بعضا أى نسلط بعضهم على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء فى الأثر «من أعان ظالما سلطه الله عليه» وقال قتادة نجعل بعضهم أولياء بعض فالمؤمن ولى المؤمن حيث كان وأين كان والكافر ولى الكافر حيث كان وأين كان وفى رواية أخرى عن قتادة قال يتبع بعضهم بعضا فى النار من الموالاة وقيل معناه نولى ظلمة الإنس ظلمة الجن وظلمة الجن ظلمة الإنس يعنى نكل بعضهم إلى بعض وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية وأن الله تعالى إذا أراد بقوم خيرا ولى عليهم خيارهم وإذا أراد بقوم شرا ولى عليهم شرارهم فعلى هذا القول أن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالما مثلهم فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم . وقوله تعالى (بما كانوا يكسبون) يعنى يسلط عليهم من يظلمهم بسبب أعمالهم الخبيثة التى اكتسبوها . قوله تعالى : (يامعشر الجن والإنس) المعشر كل جماعة أمرهم واحد والجمع معاشر (ألم يأتكم رسل منكم) اختلف العلماء فى معنى هذه الآية وهل كان من الجن رسل أم لا فذهب أكثر العلماء إلى أنه لم يكن من الجن رسول وإنما كانت الرسل من الإنس وأجابوا عن قوله رسل منكم يعنى من أحدكم وهم الإنس فحذف المضاف فهو كقوله «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع فى قوله «مرج البحرين» وهو جائز فى كل ما اتفق فى أصله فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين وهم الإنس وهذا قول الفراء والزجاج ومذهب جمهور أهل العلم قال الواحدى وعليه دل كلام ابن عباس لأنه قال يريد أنبياء من جنسهم ولم يكن من جنس الجن أنبياء وذهب قوم إلى أنه أرسل إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس رسلا منهم قال الضحاك من الجن رسل كما من الإنس رسل وظاهر الآية يدل على ذلك لأنه تعالى قال «ألم يأتكم رسل منكم» فخاطب الفريقين جميعا وأجيب عن ذلك بأن الله تعالى قال «يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم» وهذا يقتضى كون الرسل بعضا من أبعاض هذا المجموع وإذا كان الرسل من الإنس كان الرسل بعضا من أبعاض هذا المجموع وكان هذا القول أولى من حمل لفظ الآية على ظاهرها فثبت بذلك كون الرسل من الإنس لا من الجن ويحتمل أيضا أن يقال إن كافة الرسل كانوا من الإنس لكن الله تعالى يلقى الداعية فى قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل من الإنس ثم يأتوا قومهم من الجن فيخبروهم بما سمعوا من الرسول ينذرهم به كما قال تعالى «وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون

القرآن

القرآن إلى فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين فكان أولئك النفر من الجن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومهم وهذا مذهب مجاهد فانه قال الرسل من الإنس والنذر من الجن ونحو ذلك قال ابن جريج وأبو عبيدة وقيل كانت الرسل يبعثون إلى الجن من الجن ، ولكن بواسطة رسل الإنس والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . وقوله تعالى (يقصون عليكم آياتي) يعني يخبرونكم بما أوحى إليهم من آياتي الدالة على توحيدي وتصديق رسلي (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) يعني ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء عذابي في يومكم هذا وهو يوم القيامة وذلك أن الله تعالى يقول يوم القيامة لكفار الجن والإنس على سبيل التقريع والتوبيخ ما أخبر في كتابه ، وهو قوله تعالى «يامعشر الجن والإنس» الآية فيجيبون بما أخبر عنهم في قوله تعالى (قالوا) يعني كفار الجن والإنس (شهدنا على أنفسنا) اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذروهم لقاء يومهم هذا وأنهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) إنما كان ذلك بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا إليها (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) في الدنيا . فان قلت كيف أقروا على أنفسهم بالكفر في هذه الآية وجحدوا الشرك والكفر في قوله «والله ربنا ما كنا مشركين» . قلت يوم القيامة يوم طويل والأحوال فيه مختلفة فاذا رأوا ماحصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة أنكروا الشرك لعل ذلك الإنكار ينفعهم ، وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر فذلك قوله تعالى «وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين» . فان قلت لم كرر شهادتهم على أنفسهم . قلت شهادتهم الأولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفي قوله «وشهدوا على أنفسهم ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والمقصود من شرح حالهم تحذير السامعين وزجر لهم عن الكفر والمعاصي وقوله عز وجل (ذلك) إشارة إلى ماتقدم ذكره من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة وقال الزجاج معناه ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذبهم (إن لم يكن ربك) يعني لأنه لم يكن ربك (مهلك القرى بظلم) قال الكلبي معناه لم يكن ليهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل فتنهاهم فان رجعوا وإلا أتاهم العذاب وهذا قول جمهور المفسرين قال الفراء يجوز أن يكون المعنى لم يكن ليهلكهم بظلم منه (وأهلها غافلون) أي وهم غافلون فعلى قول الجمهور يكون الظلم فعلا للكفار وهو شركهم وذنوبهم التي عملوها وعلى قول الفراء إنه لو أهلكهم قبل بعثة الرسل لكان ظالما والله عز وجل يتعالى عن الظلم . والقول الأول أصح لأنه تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، غير أنه أخبر أنه لايعذب قبل بعثة الرسل ولو فعل ذلك لم يكن ظلما منه قوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) يعني ولكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات ، يعني منازل يبلغها بعمله إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر . وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والإنحطاط كتفاضل الدرج وهذا إنما يكون في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا فمنهم من هو أعظم ثوابا ومنهم من هو أشد عقابا وهو قول جمهور المفسرين وقيل إن

فعلى هذا قوله «رسل منكم» ينصرف إلى أحد الصنفين وهم الإنس كما قال يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وإنما يخرج من الملح دون العذب وقال وجعل القمر فيهن نورا وإنما هو في سماء واحدة (يقصون عليكم) أي يقرءون عليكم (آياتي) كتبي (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) وهو يوم القيامة (قالوا شهدنا على أنفسنا) أنهم قد بلغوا قال مقاتل وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله عز وجل (وغرتهم الحياة الدنيا) حتى لم يؤمنوا (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) أي ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أي لم يكن يهلكهم بظلم أي بشرك من أشرك (وأهلها غافلون) لم ينذروا حتى يبعث إليهم رسلا ينذرونهم وقال الكلبي لم يهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل وقيل معناه لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل فيكون قد ظلمهم وذلك أن الله تعالى أجرى السنة أن لايأخذ أحدا إلا بعد وجود الذنب وإنما يكون مذنبا إذا أمر فلم يأتمر أو نهي فلم ينته وذلك يكون بعد إنذار الرسل (ولكل درجات مما عملوا) يعني في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا فمنهم من هو

قوله تعالى «ولكل درجات مما عملوا» مختص بأهل الطاعة لأن لفظ الدرجة لايليق إلا بهم . وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما يعملون) مختص بأهل الكفر والمعاصى ففيه وعيد وتهديد لهم. والقول الأول أصح لأن علمه تعالى شامل لكل المعلومات فيدخل فيه المؤمن والكافر والطائع والعاصى وأنه عالم بأعمالهم على التفصيل التام فيجزى كل عامل على قدر عمله ومايليق به من ثواب أوعقاب . قوله عزوجل (وربك الغنى) يعنى عن خلقه وذلك أنه تعالى لما بين أن لكل عامل بطاعة أو معصية درجة على قدر عمله بين أن تخصيص المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب ليس لأنه محتاج إلى طاعة المطيع أو منتقص بمعصية العاصى بل هو الغنى على الإطلاق وأن جميع الخلق فقراء إليه (ذو الرحمة) قال ابن عباس بأوليائه وأهل طاعته وقال الكلبى بخلقه ذو التجاوز عنهم فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون (إن يشأ يذهبكم) يعنى يهلككم الخطاب لأهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف) يعنى وينشئ ويخلق (من بعدكم) يعنى من بعد إهلاككم (مايشاء) يعنى خلقا غيركم أمثل وأطوع منكم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) اختلف عبارات المفسرين فى هذه اللفظة فقال البغوى يعنى آباءهم الماضين قرنا بعدقرن ونحوه قال الواحدى وصاحب الكشاف يعنى من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام وقال الإمام فخر الدين الرازى فى قوله تعالى «ويستخلف من بعدكم» يعنى من بعد إذهابكم لأن الاستخلاف لايكون إلا على طريق البدل من فائت. وأما قوله «مايشاء» فالمراد منه خلق ثالث أو رابع واختلفوا فيه فقال بعضهم خلقا آخر من أمثال الجن والإنس قال القاضى وهو الوجه الأقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فمتى كل خلق ثالث ورابع يكون أقوى فى دلالة القدرة فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التى هى الثواب فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء الأقوام الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل منهم سواهم ثم بين الله تعالى قوة قدرته على ذلك فقال «كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين» لأن المرء إذا تفكر علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة وإذا كان كذلك فكما قدر على تصوير هذه الأجسام بهذه الخاصة فكذلك يقدر على تصويرهم خلقا آخر مخالفا لها هذا آخر كلامه وقال الطبرى فى قوله «كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين» يقول كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم ومعنى من فى هذا الموضع التعقيب كما يقال فى الكلام أعطيتك من دينارك ثوبا يعنى مكان الدينار ثوبا لا أن الثوب من الدينار بعض كذلك الذين خوطبوا بقوله «كما أنشأكم» لم يرد بأخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين ولكن معنى ذلك ماذكرنا أنهم أنشئوا مكان قوم آخرين قد أهلكوا قبلهم . قوله تعالى (إن ماتوعدون) به من مجىء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة (لآت) يعنى أنه كائن قريب (وما أنتم بمعجزين) يعنى بفائتين حيثما كنتم يدرككم الموت (قل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل يامحمد (ياقوم) أى قل لقومك من كفار قريش (اعملوا على مكانتكم) وقرئ مكاناتكم على الجمع والمكانة تكون مصدرا يقال مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة كما يقال مقام ومقامة فقوله اعملوا على مكانتكم

أشد عذابا ومنهم من هول أجزل ثوابا (وما ربك بغافل عما يعملون) قرأ ابن عامر تعملون بالتاء والباقون بالياء (وربك الغنى) عن خلقه (ذو الرحمة) قال ابن عباس بأوليائه وأهل طاعته وقال الكلبى بخلقه ذو التجاوز (إن يشأ يذهبكم) يهلككم وعيد لأهل مكة (ويستخلف) ويخلف وينشئ (من بعدكم ما يشاء) خلقا غيركم أمثل وأطوع (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى من نسل آبائهم الماضين قرنا بعد قرن (إن ماتوعدون) أى ماتوعدون من مجىء الساعة والحشر (لآت) كائن (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين يعنى يدرككم الموت حيث ما كنتم (قل) يامحمد (ياقوم اعملوا على مكاناتكم) قرأ أبو بكر عن عاصم مكاناتكم بالجمع حيث كان أى على تمكنكم .قال عطاء على حالاتكم التى أنتم عليها قال الزجاج اعملوا على ماأنتم عليه يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله على مكانتك يافلان أى اثبت على ماأنت عليه وهذا أمر وعيد عن المبالغة يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم يحتمل

يحتمل أن يكون معناه اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ويحتمل أن
يكون معناه اعملوا على حالتكم التى أنتم عليها كما يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله
مكانتك يافلان أى اثبت على ماأنت عليه لاتتغير عنه وقال ابن عباس معناه اعملوا على ناحيتكم
(إنى عامل) يعنى إنى عامل على مكانتى التى أنا عليها وما أمرنى به ربى والمعنى أثبتوا على ماأنتم
عليه من الكفر والعداوة فإنى ثابت على الإسلام والمصابرة. فإن قلت ظاهر الآية يدل على
أمر الكفار بالإقامة على ماهم عليه من الكفر وذلك لايجوز. قلت معنى هذا الأمر الوعيد
والتهديد والمبالغة فى الزجر عماهم عليه من الكفر فكأنه قال أقيموا على ماأنتم عليه من الكفر
إن رضيتم لأنفسكم بالعذاب الدائم فهو كقوله تعالى «اعملوا ماشئتم» ففيه تفويض أمر العمل
إليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه إطلاق لهم فى عمل ماأرادوه من الكفر والمعاصى.
وقوله تعالى (فسوف تعلمون) يعنى لمن تكون العاقبة المحمودة لنا أو لكم وقيل معناه فسوف
تعلمون عند نزول العذاب بكم أينا كان على الحق فى عمله نحن أم أنتم (من تكون له عاقبة
الدار) يعنى فسوف تعلمون غدا القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهى الجنة (إنه لايفلح
الظالمون) قال ابن عباس معناه أنه لايسعد من كفر بى وأشرك ثم فى هذه الآية قولان: أحدهما
أنها محكمة وهذا على قول من يقول إن المراد بقوله اعملوا على مكانتكم الوعيد التهديد. والقول
الثانى أنها منسوخة بآية السيف وهذا على قول من يقول إن المراد بها ترك القتال. قوله تعالى
(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) الآية لما بين الله عز وجل قبح طريقة الكفار
وما كانوا عليه من إنكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم
الفاسدة تنبيها على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه فى الجاهلية فقال تعالى «وجعلوا لله مما
ذرأ» يعنى مما خلق من الحرث يعنى الزرع والثمر والأنعام يعنى ومن الأنعام وهى الإبل والبقر
والغنم نصيبا يعنى قسما وجزءا قال المفسرون كان المشركون فى الجاهلية يجعلون لله من حروثهم
وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبا وللأصنام نصيبا فما جعلوه من ذلك لله صرفوه إلى
الضيفان والمساكين وماجعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها فإن سقط شىء مما جعلوه لله
فى نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غنى عن هذا وإن سقط شىء من نصيب الأوثان
فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان وقالوا إنها محتاجة إليه وكانوا إذا هلك شىء مما جعلوه لله لم يبالوا به
وإذا انتقص شىء مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله فذلك قوله «وجعلوا لله مما ذرأ
من الحرث والأنعام نصيبا» وفيه اختصار تقديره وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام
نصيبا وللأصنام نصيبا (فقالوا هذا لله بزعمهم) يعنى قولهم الذى هو بغير حقيقة لأن معنى
زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب ولذلك لايجىء إلا فى موضع ذم لقائليه وإنما نسبوا إلى
الكذب فى قولهم هذا لله بزعمهم وإن كانت الأشياء كلها لله لإضافتهم نصيب الأصنام مع
نصيب الله وهو قولهم (وهذا لشركائنا) يعنى الأصنام وإنما سموا الأصنام شركاء لأنهم جعلوا
لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها (فما كان لشركائهم) يعنى وماجعلوا لها من الحرث والأنعام
(فلا يصل إلى الله) يعنى فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو
يصل إلى شركائهم) والمعنى أنهم كانوا يقرون ماجعلوه للأصنام مما جعلوه لله ولا يقرون

قل لهم اعملوا ما أنتم عاملون (إنى عامل) ما أمرنى به ربى عز وجل (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أى الجنة
قرأ حمزة والكسائى يكون بالياء هنا وفى القصص وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث العاقبة (إنه لايفلح الظالمون)
قال ابن عباس معناه لايسعد من كفر بى وأشرك قال الضحاك لايفوز قوله عز وجل (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) الآية كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبا وللأوثان نصيبا فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها فإن سقط شىء مما جعلوه لله تعالى فى نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غنى عن هذا وإن سقط شىء من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان وقالوا إنها محتاجة وكان إذا هلك أو انتقص شىء مما جعلوه لله لم يبالوا به وإذا هلك أو انتقص شىء مما جعلوا للأصنام جبروه بما جعلوه لله فذلك قوله تعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من خلق الحرث والأنعام نصيبا» وفيه اختصار مجازه وجعلوا لله نصيبا ولشركائهم نصيبا (فقالوا هذا لله بزعمهم) قرأ
الكسائى بزعمهم بضم الزاى والباقون بفتحها وهما لغتان وهو القول من غير حقيقة (وهذا لشركائنا) يعنى الأوثان (فما كان
لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) ومعناه ماقلنا أنهم كانوا يتمون ماجعلوا للأوثان مما جعلوه لله

ولا يقدون ماجعلوه لله مما جعلوه للأوثان وقال قتادة كانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جزءوا لله وأكلوا منه فوفروا ماجزءوا لشركائهم ولم يأكلوا منه (ساء مايحكمون) أى بئس مايقضون (وكذلك زين لكثير من المشركين) أى كما زين لهم تحريم الحرث والأنعام كذلك زين لكثير من المشركين (قتل أولادهم شركاؤهم) قال مجاهد شركاؤهم أى شياطينهم زينوا وحسنوا لهم وأد البنات خيفة العيلة سميت الشياطين شركاء لأنهم طاعوهم فى معصية الله وأضيف شركاء إليهم لأنهم اتخذوها وقال الكلبى شركاؤهم سدنة آلهتهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل الأولاد وكان الرجل منهم يحلف لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب على إبنه عبد الله وقرأ ابن عامر زين بضم الزاى وكسر الياء قتل رفع أولادهم نصب شركائهم بالخفض على التقديم كأنه قال زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم فصل بين الفعل وفاعله بالمفعول به وهو الأولاد كما قال الشاعر :

فزججته متمكنا
زج القلوص أبى مزادة

أى زج أبى مزادة القلوص فأضيف الفعل وهو القتل إلى الشركاء وإن لم يتولوا ذلك لأنهم هم الذين زينوا ذلك ودعوا إليه فكأنهم فعلوه قوله عز وجل (ليردوهم) ليهلكوهم (وليلبسوا عليهم) ليخلطوا عليهم (دينهم) قال ابن عباس ليدخلوا عليهم من الشك فى دينهم وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه بلبس الشياطين (ولو شاء الله مافعلوه) أى لو شاء الله لعصمهم حتى مافعلوا ذلك من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد (فذرهم) يامحمد (وما يفترون) يختلقون من الكذب فان الله تعالى لهم بالمرصاد (وقالوا) يعنى المشركين (هذه أنعام وحرث حجر) أى حرام يعنى ماجعلوا لله ولآلهتهم من الحرث والأنعام على مامضى ذكره

ماجعلوه لله مما جعلوه للأصنام وقال قتادة كانوا إذا أصابتهم سنة قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا ماجعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئا وقال الحسن والسدى كانوا إذا هلك ماجعلوه لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم فلذلك ذمهم الله تعالى فقال (ساء مايحكمون) يعنى بئس مايحكمون ويقضون وذلك أنهم رجحوا جانب الأصنام على جانب الله تعالى فى الرعاية والحفظ وهذا سفه منهم وقيل إن الأشياء كلها لله عز وجل وهو خلقها فلما جعلوا للأصنام جزءا من المال وهى لاتملك ولاتخلق ولا تضر ولا تنفع نسبوا إلى الإساءة فى الحكم والمقصود من ذلك بيان ماكانوا عليه فى الجاهلية من هذه الأحكام الفاسدة التى لم يرد بها شرع ولانص ولايحسنها عقل . قوله عز وجل (وكذلك) عطف على قوله «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا» يعنى كما فعلوا ذلك جهلا منهم كذلك زين لكثير منهم قتل أولادهم شركاؤهم والمعنى أن جعلهم لله نصيبا من أموالهم ولشركائهم نصيبا فى غاية الجهل بمعرفه الخالق المنعم لأنهم جعلوا الأصنام مثله فى استحقاق النصيب وكذلك إقدامهم على قتل أولادهم فى نهاية الجهالة أيضا فكأنه قال ومثل ذلك الذى فعلوه فى القسم جهلا وخطأ وضلالا كذلك (زين) يعنى حسن (لكثير من المشركين قتل أولادهم) يعنى به وأد البنات أحياء مخافة الفقر والعيلة (شركاؤهم) يعنى شياطينهم أمروهم أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الأولاد فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم وأضيف الشركاء إلى المشركين لأنهم أطاعوهم واتخذوهم أربابا وقال الكلبى شركاؤهم سدنة آلهتهم يعنى خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الأولاد وكان الرجل فى الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول الشركاء هم السدنة وخدام الأصنام سموا شركاء لأنهم أشركوهم فى الطاعة (ليردوهم) يعنى ليهلكوهم بذلك الفعل الذى أمروهم به والارداء فى اللغة الإهلاك قال ابن عباس ليردوهم فى النار (وليلبسوا عليهم دينهم) يعنى وليخلطوا عليهم دينهم قال ابن عباس ليدخلوا عليهم الشك فى دينهم وكانوا على دين إسماعيل عليه السلام فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين ، وإنما فعلوا ذلك ليزيلوهم عن الدين الحق الذى كان عليه إسماعيل وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فوضعوا لهم هذه الأوضاع الفاسدة وزينوها لهم (ولو شاء الله مافعلوه) يعنى ولو شاء الله لعصمهم من ذلك الفعل القبيح الذى زين لهم من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد أخبر الله عز وجل أن جميع الأشياء بمشيئته وإرادته إذ لو لم يشأ مافعلوا ذلك (فذرهم) يعنى فاتركهم يامحمد (وما يفترون) يعنى وما يختلقون من الكذب على الله فان الله لهم بالمرصاد . قوله تعالى (وقالوا) يعنى المشركين (هذه أنعام وحرث حجر) أى حرام وأصله المنع لأنه منع من الانتفاع منه بتحريمه وقيل هو

وقال مجاهد يعنى بالأنعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحام (لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يعنون الرجال دون النساء (وأنعام حرمت ظهورها) يعنى الحوامى كانوا لايركبونها (وأنعام لايذكرون اسم الله عليها) أى يذبحونها باسم الأصنام لاباسم الله وقال أبووائل معناه لايحجون عليها ولايركبونها لفعل الخير لأنه لما جرت العادة بذكر اسم الله على فعل الخير عبر بذكر الله تعالى عن فعل الخير (افتراء عليه) يعنى أنهم يفعلون ذلك ويزعمون أن الله أمرهم به افتراء (سيجزيهم بما كانوا يفترون وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) أى نسائنا قال ابن عباس وقتادة والشعبى أراد أجنة البحائر والسوائب فما ولد منها حيا فهو خالص للرجال دون النساء وماولد ميتا أكله الرجال والنساء جميعا وأدخل الهاء فى الخالصة للتأكيد كالخاصة والعامة كقولهم نسابة وعلاعة وقال الفراء رحمه الله أدخلت الهاء لتأنيث الأنعام لأن ما فى بطونها مثلها فأنث لتأنيثها وقال الكسائى خالص وخالصة واحد مثل وعظ وموعظة (وإن يكن ميتة) قرأ ابن عامر وأبوجعفر تكن بالتاء ميتة رفع ذكر الفعل بعلامة التأنيث لأن الميتة فى اللفظ مؤنثة وقرأ أبو بكر عن عاصم تكن بالتاء ميتة نصب أى وإن تكن الأجنة ميتة وقرأ ابن كثير وإن يكن بالياء ميتة رفع لأن المراد بالميتة الميت أى وإن يقع مافى البطون ميتا وقرأ الآخرون وإن يكن بالياء ميتة نصب رده إلى ما أى وإن يكن مافى البطون ميتة يدل عليه أنه قال (فهم فيه شركاء) ولم يقل فيها وأراد أن الرجال والنساء فيه شركاء (سيجزيهم وصفهم) أى بوصفهم أو على وصفهم الكذب على الله (إنه حكيم عليم قد خسر الذين قتلوا أولادهم) قرأ ابن عامر وابن كثير قتلوا بتشديد التاء على التكثير وقرأ الآخرون بالتخفيف (سفها) جهلا (بغير علم) نزلت فى ربيعة

من التضييق والحبس لأنهم كانوا يحبسون أشياء من أنعامهم وحروثهم لآلهتهم قال مجاهد يعنى بالأنعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى (لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يعنى بأكلها خدام الأصنام والرجال دون النساء (وأنعام حرمت ظهورها) يعنى الحوامى وهى الأنعام التى حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لايركبونها (وأنعام لايذكرون اسم الله عليها) يعنى لايذكرون اسم الله عليها عند الذبح وإنما كانوا يذكرون عليها أسماء الأصنام وقيل معناه لايحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير لأنه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير (افتراء عليه) يعنى أنهم كانوا يفعلون هذه الأفعال ويزعمون أن الله أمرهم بها وذلك اختلاق وكذب على الله عز وجل (سيجزيهم بما كانوا يفترون) فيه وعيد وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب. قوله عز وجل (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) يعنى نساءنا قال ابن عباس وقتادة والشعبى أراد جنة البحائر والسوائب فما ولد منها حيا فهو خالص للرجال دون النساء وماولد منها ميتا أكله الرجال والنساء جميعا وهو قوله تعالى (وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء) ودخلت الهاء فى خالصة للتأكيد والمبالغة كقولهم رجل علامة ونسابة وقال الفراء دخلت الهاء لتأنيث الأنعام لأن مافى بطونها مثلها فأنث بتأنيثها وقال الكسائى خالص وخالصة واحد مثل وعظ وموعظة وقيل إذا كان اللفظ عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى وتذكيره على اللفظ كما فى هذه الآية فانه أنث خالصة على المعنى وذكر ومحرم على اللفظ (سيجزيهم وصفهم) يعنى سيكافئهم بسبب وصفهم على الله الكذب (إنه حكيم عليم) فيه وعيد وتهديد يعنى أنه تعالى حكيم فيما يفعله عليم بقدر استحقاقهم. قوله تعالى (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم) قال عكرمة نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر وكان الرجل يقاضى الرجل على أن يستحى جارية ويئد أخرى فاذا كانت الجارية التى تؤد غدا الرجل أوراح من عند امرأته وقال لها أنت على كظهر أمى إن رجعت إليك ولم تئديها فتخدلها فى الأرض خدا وترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها بينهن حتى إذا أبصرته راجعا دستها فى حفرتها ثم سوت عليها التراب وقال قتادة هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنه مخافة السبى والفاقة ويغذو كلبه. أما سبب الخسران المذكور فى قوله قد خسر الذين قتلوا أولادهم أن الولد نعمة عظيمة أنعم الله بها على الوالد فإذا تسبب الرجل فى إزالة هذه النعمة عنه وإبطالها فقد استوجب الذم وخسر فى الدنيا والآخرة، أما خسارته فى الدنيا فقد سعى فى نقص عدده وإزالة ماأنعم الله به عليه. وأما خسارته فى الآخرة فقد استحق بذلك العذاب العظيم وقوله «سفها بغير علم» يعنى فعلوا ذلك للسفاهة وهى الخفة والجهالة المذمومة وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه لأن الجهل كان هو الغالب عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا سموا جاهلية وقوله تعالى

ذلك (وحرموا مارزقهم الله) يعني البحيرة والسائبة والوصيلة والحام (افتراء على الله) حيث قالوا إن الله أمرهم بها (قد ضلوا وما كانوا مهتدين) قوله تعالى (وهو الذى أنشأ جنات) بساتين (معروشات وغير معروشات) أى مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات وقال ابن عباس معروشات ما انبسط على وجه الأرض، فانتشر مما يعرش مثل: الكرم والقرع والبطيخ وغيرها وغير معروشات ماقام على ساق ونسق مثل: النخل والزرع وسائر الأشجار وقال الضحاك كلاهما من الكرم خاصة منها ماعرش ومنها مالم يعرش (والنخل والزرع) أى وأنشأ النخل والزرع (مختلفا أكله) ثمره وطعمه منها الحلو والحامض والجيد والردىء (والزيتون والرمان متشابها) فى النظر (وغير متشابه) فى المطعم مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف (كلوا من ثمره إذا أثمر) هذا أمر إباحة (وآتوا حقه يوم حصاده)

(وحرموا مارزقهم الله) يعنى البحائر والسوائب والحامى وبعض الحروث وبعض مافى بطون الأنعام وهذا أيضا من أعظم الجهالة (افتراء على الله) يعنى أنهم فعلوا هذه الأفعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بذلك وهذا افتراء على الله وكذب وهذا أيضا من أعظم الجهالة لأن الجرأة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ولهذا قال تعالى (قد ضلوا) يعنى فى فعلهم عن طريق الحق والرشاد (وما كانوا مهتدين) يعنى إلى طريق الحق والصواب فى فعلهم (خ) عن ابن عباس قال إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم إلى قوله «قد ضلوا وما كانوا مهتدين» . قوله عز وجل (وهو الذى أنشأ جنات معروشات) يعنى والله الذى ابتدع وخلق جنات يعنى بساتين معروشات (وغير معروشات) يعنى مسموكات مرتفعات وغير مرتفعات وأصل العرش فى اللغة شىء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم أعرشه عرشا وعرشته تعريشا إذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش إذا علاه وركبه واختلفوا فى معنى قوله «معروشات وغير معروشات» فقال ابن عباس المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك وغير معروشات ماقام على ساق ونسق كالنخل والزرع وسائر الشجر وقال الضحاك كلاهما فى الكرم خاصة لأن منه مايعرش ومنه مالم يعرش بل يلقى على وجه الأرض منبسطا وقيل المعروشات ماغرسه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير معروشات هو ما أنبته الله فى البرارى والجبال من كرم أو شجر (والنخل والزرع) يعنى وأنشأ النخل والزرع وهو جميع الحبوب التى تقتات وتدخر (مختلفا أكله) يعنى به اختلاف الطعوم فى الثمار كالحلو والحامض والجيد والردىء ونحو ذلك (والزيتون والرمان متشابها) يعنى فى المنظر (وغير متشابه) يعنى فى المطعم كالرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف وقيل إن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرتهما مختلفة فى الجنس والطعم (كلوا من ثمره إذا أثمر) لما ذكر ما أنعم الله به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع من الثمار ذكر ماهو المقصود الأصلى وهو الانتفاع بها فقال تعالى كلوا من ثمره إذا أثمر وهذا أمر إباحة وتمسك بهذا بعضهم فقال الأمر قد يرد إلى غير الوجوب لأن هذه الصيغة مفيدة لدفع الحرج وقال بعضهم المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق لأنه تعالى لما أوجب الزكاة فى الحبوب والثمار كان يحتمل أن يحرم على المالك أن يأكل منها شيئا قبل إخراج الواجب فيها لمكان شركة الفقراء والمساكين معه فأباح الله أن يأكل قبل إخراجه لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير وقيل إنما قال تعالى كلوا من ثمره إذا أثمر بصيغة الأمر ليعلم أن المقصود من خلق هذه الأشياء التى أنعم الله بها على عباده وهو الأكل (وآتوا حقه يوم حصاده) يعنى يوم جذاذه وقطعه واختلفوا فى هذا الحق المأمور باخراجه فقال ابن عباس وأنس بن مالك هو الزكاة المفروضة وهذا قول طاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد ابن المسيب ومحمد بن الحنفية وقتادة قال قتادة فى قوله «وآتوا حقه يوم حصاده» أى من الصدقة المفروضة ذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم سن فيما سقت السماء والعين السائحة أو سقاه النيل والندى أو كان بعلا العشر كاملا وإن سقى بنضح أو سانية فنصف العشر وهذا فيما يكال من الثمرة أو الزرع وبلغ خمسة أوسق وذلك ثلثمائة صاع

قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم حصاده بفتح الحاء وقرأ الآخرون بكسرها ومعناهما

فقد

فقدوجب فيها حق الزكاة وفى رواية عن ابن عباس فى قوله تعالى «وآتوا حقه يوم حصاده» قال هو العشر ونصف العشر . فان قلت على هذا التفسير إشكال وهو أن فرض الزكاة كان بالمدينة وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل قوله وآتوا حقه يوم حصاده على الزكاة المفروضة قلت ذكر ابن الجوزى فى تفسيره عن ابن عباس وقتادة إن هذه الآية نزلت بالمدينة فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت فى حكم الزكاة وإن قلنا أن هذه الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة لأنه قد روى عن ابن عباس أنه قال نسخت آية الزكاة كل صدقة فى القرآن وقيل فى قوله تعالى «وآتوا حقه يوم حصاده» أنه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد وهو إطعام من حضر وترك ماسقط من الزرع والثمر وهذا قول على بن الحسن وعطاء ومجاهد وحماد قال إبراهيم هو الضغث وقال الربيع هو لقاط السنبل وقال مجاهد كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر وقال يزيد بن الأصم كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيعلقونه فى جانب المسجد فيجىء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله فعلى هذا القول هل هذا الأمر أمر وجوب أو استحباب وندب فيه قولان : أحدهما أنه أمر وجوب فيكون منسوخا بآية الزكاة . وبقوله ﷺ فى حديث الأعرابى هل على غيرها قال إلا أن تطوع . والقول الثانى إنه أمر ندب واستحباب فتكون الآية محكمة وقال سعيد بن جبير كان هذا حقا يؤمر باخراجه فى ابتداء الإسلام ثم صار منسوخا بايجاب العشر ولقول ابن عباس نسخت آية الزكاة كل صدقة فى القرآن واختار هذا القول الطبرى وصححه واختار الواحدى والرازى القول الأول وصححاه . فان قلت فعلى القول الأول كيف تؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب فى السنبل وإنما يجب الإخراج بعد التصفية والجفاف قلت معناه قدروا أداء إخراج الواجب منه يوم الحصاد فانه قريب من زمان التنقية والجفاف ولأن النخل يجب إخراج الحق منه يوم حصاده وهو الصرام والزرع محمول عليه إلا أنه لايمكن إخراج الحق منه إلا بعد التصفية وقيل معناه وآتوا حقه الذى وجب يوم حصاده بعد التصفية وقيل إن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لايجب بنفس الزرع وبلوغه إنما يجب يوم حصاده وحصوله فى يد مالكه لافيما يتلف من الزرع قبل حصوله فى يد مالكه . وقوله تعالى (ولاتسرفوا) الإسراف تجاوز الحد فيما يفعله الإنسان وإن كان فى الإنفاق أشهر وقيل السراف تجاوز ماحد لك وسرف المال إنفاقه فى غير منفعة . ولهذا قال سفيان ماأنفقت فى غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلا قال ابن عباس فى رواية عنه عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة فقسمها فى يوم واحد ولم يترك لأهله شيء فأنزل الله هذه الآية «ولاتسرفوا» قال السدى معناه لاتعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء قال الزجاج فعلى هذا لو أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئا فقد أسرف لأنه قد صح فى الحديث «ابدأ بمن تعول» وقال سعيد بن المسيب معناه لاتمنعوا الصدقة فتأويل الآية على هذا القول لاتجاوزوا الحد فى البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وهذان القولان يشتركان فى أن المراد من الإسراف مجاوزة الحد إلا أن الأول فى البذل والإعطاء والثانى فى الإمساك والبخل وقال مقاتل معناه لاتشركوا الأصنام فى الحرث والأنعام وهذا القول أيضا يرجع إلى مجاوزة الحد لأن من شرك الأصنام فى الحرث والأنعام فقد جاوز ماحد له وقال الزهرى معناه لاتنفقوا فى معصية الله عزوجل وقال مجاهد الإسراف ماقصرت به فى حق

واحدكالصرام والصرام والجذار والجذار واختلفوا فى هذا الحق فقال ابن عباس وطاوس والحسن وجابر ابن زيد وسعيد ابن المسيب إنها الزكاة المفروضة من العشر ونصف العشر وقال على ابن الحسين وعطاء ومجاهد وحماد والحكم هو حق فى المال سوى الزكاة أمر باتيانه لأن الآية مكية وفرضت الزكاة بالمدينة قال إبراهيم هو الضغث وقال الربيع لقاط السنبل وقال مجاهد كانوا يعلقون العذق عند الصرام فيأكل منه من مر وقال يزيد بن الأصم كان أهل المدينة إذا أصرموا يجيئون بالعذق فيعلقونه فى جانب المسجد فيجئ المسكين يضربه بعصاه فيسقط منه فيأخذه وقال سعيد بن جبير كان هذا حقا يؤمر باتيانه فى ابتداء الإسلام فصار منسوخا بايجاب العشر قال مقسم عن ابن عباس نسخت الزكاة كل نفقة فى القرآن (ولا تسرفوا

إنه لا يحب المسرفين) قيل أراد بالإسراف إعطاء الكل قال ابن عباس فى رواية الكلبى عمد ثابت بن قيس ابن شماس فصرم خمسمائة نخلة وقسمها فى يوم واحد ولم يترك لأهله شيء فأنزل الله تعالى هذه الآية قال السدى لا تسرفوا أى لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء قال الزجاج على هذا إذا أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئا فقد أسرف لأنه جاء فى الخبر ابدأ بمن تعول وقال سعيد بن المسيب معناه لا تمنعوا الصدقة فتأول هذه الآية على هذا لا تتجاوزوا الحد فى البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وقال مقاتل لا تشركوا الأصنام فى الحرث والأنعام وقال الزهرى لا تنفقوا فى المعصية وقال مجاهد الإسراف ما قصرت به عن حق الله عز وجل

وقال لو كان أبو قبيس ذهبا لرجل فأنفقه فى طاعة الله لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما أو مدا فى معصية الله كان مسرفا وقال إياس بن معاوية ما جاوزت به أمر الله فهو سرف وإسراف وروى ابن وهب عن أبى زيد قال الخطاب للسلاطين يقول لا تأخذوا فوق حقكم قوله عز وجل (ومن الأنعام) أى وأنشأ من الأنعام (حمولة) وهى كل ما يحمل عليها من الإبل (وفرشا) وهى الصغار من الإبل التى لا تحمل (كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان) لا تسلكوا طريقة آثاره فى تحريم الحرث والأنعام (إنه لكم عدو مبين) ثم بين الحمولة والفرش فقال (ثمانية أزواج) نصبها على البدل من الحمولة والفرش أى وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج أصناف (من الضأن اثنين) أى الذكر والأنثى فالذكر زوج والأنثى زوج والعرب تسمى الواحد زوجا إذا كان لا ينفك عن الآخر والضأن النعاج وهى ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والأنثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز اثنين) قرأ ابن كثير وابن عامر وأهل البصرة من المعز بفتح العين والباقون بسكونها والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه وهى ذوات الشعر من الغنم وجمع الماعز معزى وجمع الماعزة مواعز (قل) يا محمد (آلذكرين حرم) الله عليكم يعنى ذكر الضأن والمعز (أم الأنثيين) يعنى أنثى الضأن والمعز (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) منهما فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى (نبئونى) أخبرونى (بعلم) قال الزجاج فسروا ما حرمتم بعلم (إن كنتم صادقين) إن الله تعالى حرم هذا

الله تعالى ولو كان أبو قبيس ذهبا فأنفقته فى طاعة الله لم تكن مسرفا ولو أنفقت درهما أو مدا فى معصية الله كنت مسرفا وقال ابن زيد إنما خوطب بهذا السلطان نهى أن يأخذ من رب المال فوق الذى ألزم الله ماله يقول الله عز وجل للسلاطين لا تسرفوا أى لا تأخذوا بغير حق فكانت الآية بين السلطان وبين الناس . وقوله تعالى (إنه لا يحب المسرفين) فيه وعيد وزجر عن الإسراف فى كل شيء لأن من لا يحبه الله فهو من أهل النار قوله تعالى (ومن الأنعام) يعنى وأنشأ من الأنعام (حمولة) وهى كل ما يحمل عليها من الإبل (وفرشا) يعنى صغار الإبل التى لا تحمل قال ابن عباس الحمولة هى الكبار من الإبل والفرش هى الصغار من الإبل وقال فى رواية أخرى عنه ذكرها الطبرى. أما الحمولة: فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه وأما الفرش فالغنم وقال الربيع بن أنس الحمولة: الإبل والبقر والفرش المعز والضأن فالحمولة كل ما يحمل عليها من الأنعام والفرش ما لا يصلح للحمل سمى فرشا لأنه يفرش للذبح ولأنه قريب من الأرض لصغره (كلوا مما رزقكم الله) يعنى كلوا مما أحله الله لكم من هذه الأنعام والحرث (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) يعنى لا تسلكوا طريقه وآثاره فى تحريم الحرث والأنعام كما فعله أهل الجاهلية (إنه) يعنى الشيطان (لكم عدو مبين) يعنى أنه مبين العداوة لكم ثم بين الحمولة والفرش فقال عز وجل (ثمانية أزواج) يعنى وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج يعنى ثمانية أصناف والزوج فى اللغة الفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج (من الضأن اثنين) يعنى الذكر والأنثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والأنثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز اثنين) يعنى الذكر والأنثى والمعز ذوات الشعر من الغنم والواحد ماعز والجمع معزى (قل آلذكرين حرم أم الأنثيين) استفهام إنكار أى قل يا محمد لهؤلاء الجهلة الذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الأنثيين منهما فإن كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام وإن كان حرم الأنثيين منهما فكل إناثهما حرام (أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) يعنى أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى (نبئونى) أى أخبرونى وفسروا لى ما حرمتم (بعلم إن كنتم صادقين) يعنى أن الله

(ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) وذلك أنهم كانوا يقولون هذه أنعام وحرث حجر وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام كانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال فلما قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالك بن عوف أبو الأحوص الجشمي قالوا يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان آباؤنا يفعلونه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم قد حرمتم أصنافا من النعم على غير أصل وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها فمن أين جاء هذا التحريم من قبل الذكر أم من قبل الأنثى ؟ فسكت مالك بن عوف وتحير فلم يتكلم فلو قال جاء هذا التحريم بسبب الذكور وجب أن يحرم جميع الذكور وإن كان بسبب الأنوثة وجب أن يحرم جميع الإناث وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر أو أنثى فأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو بالبعض دون البعض فمن أين ؟ ويروى أن النبي ﷺ قال لمالك مالك يا مالك لا تتكلم قال له مالك بل تكلم وأسمع منك (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) قيل أراد عمرو بن لحي

حرم ذلك عليكم (ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين) وهذه أربعة أزواج أخر بقية الثمانية (قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) وتفسير هذه الآية نحو ما تقدم وفى هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله تعالى لأهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله وذلك أنهم كانوا يقولون هذه أنعام وحرث حجر وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال كما أخبر الله عنهم فى كتابه فلما جاء الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي فقال يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان آباؤنا يفعلونه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمتم أصنافا من النعم على غير أصل وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع فمن أين جاء هذا التحريم من قبل الذكر أم من قبل الأنثى ؟ فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لمالك يا مالك ألا تتكلم فقال بل أنت تتكلم وأسمع منك قال المفسرون فلو قال جاء التحريم من قبل الذكر بسبب الذكورة وجب أن يحرم جميع الذكور ولو قال بسبب الأنوثة وجب أن يحرم جميع الإناث وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر أو أنثى . وأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو بالبعض دون البعض فمن أين ذلك التحريم ؟ فاحتج الله على بطلان دعواهم بهاتين الآيتين وأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أن كل ما قالوه من ذلك وأضافوه إلى الله فهو كذب على الله وأنه لم يحرم شيئا من ذلك وأنهم اتبعوا فى ذلك أهواءهم وخالفوا أمر ربهم . وذكر الإمام فخر الدين فى معنى الآية وجهين آخرين ونسبهما إلى نفسه فقال إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار يعني إنكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم . والوجه الثاني أنكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى مخصوصا بالإبل فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة وهى : الضأن والمعز والبقر والإبل فلم لم تحكموا بهذه الأحكام فى هذه الأنواع الثلاثة وهى الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم دون هذه الأنواع الثلاثة . قوله تعالى (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين يزعمون أن الله حرم عليهم ما حرموا على أنفسهم من الأنعام والحرث هل شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به فإنكم لا تقرون بنبوة أحد من الأنبياء فكيف تثبتون هذه الأحكام وتنسبونها إلى الله عز وجل ولما احتج الله عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا مستند لهم فى ذلك قال تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) يعني فمن أشد ظلما وأبعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم ما لم يحرمه الله إلى الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله جهلا منه إذ ليس هو على بصيرة وعلم فى ذلك الذى ابتدعه ونسبه إلى الله ويقول إن الله أمرنا بهذا قيل أراد به عمرو بن لحي لأنه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام ويدخل فى هذا الوعيد كل من كان على طريقته

أو ابتدع شيئا لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص فكل من أدخل فى دين الله ماليس فيه فهو داخل فى هذا الوعيد (إن الله لايهدى القوم الظالمين) يعنى أن الله لايرشده ولايوفق من كذب على الله وأضاف إليه مالم يشرعه لعباده. قوله عز وجل (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) اعلم أنه لما بين الله تعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وماكانوا عليه من التضليل والتحريم من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح فى ذلك وبين أن التحريم والتحليل لايكون إلابوحى سماوى وشرع نبوى فقال تعالى قل أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم لاأجد فيما أوحى إلى، وقيل إنهم قالوا فما المحرم إذا فنزل؟ وقل لاأجد فيما أوحى إلى محرما، يعنى شيئا محرما على طاعم يطعمه يعنى على آكل يأكله (إلاأن يكون ميتة أودماً مسفوحاً) يعنى سائلا مصبوبا (أولحم خنزير فانه رجس) أى نجس (أو فسقا أهل لغير الله به) يعنى ماذبح على غير اسم الله تعالى فبين الله تعالى فى هذه الآية أن التحريم والتحليل لايكون إلابوحى منه وأن المحرمات محصورة فى الأربعة الأشياء المذكورة فى هذه الآية وهى: الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وماذبح على غيراسم الله وهذا مبالغة فى أن التحريم لايخرج عن هذه الأربعة وذلك إنه ثبت أنه لاطريق إلى معرفة المحرمات إلا بالوحى وثبت أن الله تعالى نص فى هذه الآية على هذه الأربعة الأشياء ولهذا اختلف العلماء فى حكم هذه الآية فذهب بعضهم إلى ظاهرها وأنه لايحرم شىء من سائر المطعومات والحيوان إلاماذكر فى هذه الآية، يروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيدبن جبير وهوظاهرمذهب مالك واحتجوا على ذلك بأن هذه الآية محكمة لأنها خبر والخبر لايدخله النسخ واحتجوا بأن هذه الآية وإن كانت مكية لكن يعضدها آية مدنية وهى قوله تعالى فى سورة البقرة «إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله» وكلمة إنما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية فى الحكم وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لايختص بهذه الأشياء المنصوص عليها فى هذه الآية فان المحرم بنص الكتاب هو ماذكر فى هذه الآية. وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها: منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير، عن المقدام بن معدى كرب قال: قال رسول الله ﷺ «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهومتكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإنما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله تعالى» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب ولأبى داود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألاإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ألايوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وماوجدتم فيه من حرام فحرموه ألالايحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولالقطة معاهد إلاأن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه»

ومن جاء بعده على طريقته (إن الله لايهدى القوم الظالمين) ثم بين أن التحريم والتحليل يكون بالوحى والتنزيل فقال (قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما) أى شيئا محرما وروى أنهم قالوا فما المحرم إذا فنزل «قل» يامحمد لاأجد فيما أوحى إلى محرما (على طاعم يطعمه) أكل يأكله (إلاأن يكون ميتة) ابن عامر وأبوجعفر تكون بالتاء ميتة رفع أى إلا أن تقع ميتة وقرأ ابن كثير وحمزة تكون بالياء ميتة نصب على تقدير اسم مؤنث أى إلا أن تكون النفس أى الجثة ميتة وقرأ الباقون بالياء ميتة نصب يعنى إلا أن يكون المطعوم ميتة (أو دما مسفوحا) أى مهراقا سائلا قال ابن عباس يريد ما خرج من الحيوان وهن أحياء وما يخرج من الأوداج عند الذبح ولا يدخل فيه الكبد والطحال لأنهما جامدان وقد جاء الشرع بإباحتهما ولا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل قال عمران بن جرير سألت أبامجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال لا بأس به إنما نهى عن الدم المسفوح وقال إبراهيم لا بأس بالدم فى عرق أو مخ إلا المسفوح الذى يعمد ذلك وقال عكرمة لولا هذه الآية لاتبع المسلمون من العروق ماتتبع اليهود (أو لحم خنزير فانه رجس أوفسقا أهل لغير الله به) وهو عن ماذبح على غير اسم الله تعالى فذهب بعض أهل العلم إلى أن التحريم مقصور على هذه الأشياء، يروى ذلك عن عائشة وابن عباس قالوا ويدخل فى الميتة المنخنقة والموقوذة وما ذكر فى أول سورة المائدة وأكثر العلماء على أن التحريم لايختص بهذه الأشياء،

بل المحرم بنص الكتاب ما ذكرهنا وذلك معنى قوله تعالى «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما» وقد حرمت السنة أشياء يجب القول بها منها ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودى

ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج قال ثنا عبيد الله بن معاذ العنبرى أخبرنا أبى أنا شعبة عن الحكم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال « نهى رسول الله ﷺ عن أكل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير » أخبرنا أبو الحسن السرخسى ثنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحاق الهاشمى ثنا أبو مصعب عن مالك عن إسماعيل بن أبى حكيم عن عبيدة بن سفيان الحضرمى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أكل كل ذى ناب من السباع حرام » والأصل عند الشافعى أن ما لم يرد فيه نص تحريم أو تحليل فان كان مما أمر الشرع بقتله كما قال «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم» أو نهى عن قتله كما روى «أنه نهى عن قطع النخلة وقتل النملة فهو حرام » وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادات العرب فما يأكله الأغلب منهم فهو حلال وما لا يأكله الأغلب منهم فهو حرام لأن الله تعالى خاطبهم بقوله « قل أحل لكم الطيبات » فثبت أن ما استطابوه فهو حلال (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) أباح الله أكل هذه المحرمات عند الاضطرار فى غير العدوان . قوله عز وجل

عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو معفو وتلا « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة » الآية أخرجه أبو داود (م) عن ابن عباس قال « نهى النبى ﷺ عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير » (م) عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية » (ق) عن جابر « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل » وفى رواية : « أكلنا من خيبر الخيل وحمر الوحش » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمار الأهلى » عن جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه » وقد استثنى الشارع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال وأباح أكل ذلك وقد تقدم دليله . والأصل فى ذلك عند الشافعى أن كل ما لم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل فما كان أمر الشرع بقتله كما ورد فى الصحيح «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم وهى الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور» وروى عن سعد بن أبى وقاص «أن النبى ﷺ أمر بقتل الوزغ » أخرجه البخارى ومسلم وسماه فويسقا وعن ابن عباس قال «نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد» أخرجه أبو داود فهذا كله حرام لا يحل أكله وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادة العرب فما يستطيبه الأغلب منهم فهو حلال وما يستخبثه الأغلب منهم ولا يأكلونه فهو حرام لأن الله خاطبهم بقوله «أحل لكم الطيبات» فما استطابوه فهو حلال فهذا تقرير ما يحل ويحرم من المطعومات . وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه : أحدها أن يكون المعنى لا أجد محرما مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها إلا ما أوحى إلى فى هذه الآية . الوجه الثانى أن يكون المراد وقت نزول هذه الآية لم يكن محرما غير ما ذكر ونص عليه فى هذه الآية ثم حرم بعد نزولها أشياء أخر . الوجه الثالث يحتمل أن هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر ، وهو ما ورد فى السنة . الوجه الرابع أن ما ذكر فى هذه الآية محرم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما ورد فى السنة من المحرمات والله أعلم . بقى فى الآية أحكام فى قوله تعالى «أو دما مسفوحا» وهو ما سال من الحيوان فى حال الحياة أو عند الذبح فان ذلك الدم حرام نجس وما سوى ذلك كالكبد والطحال فانهما حلال لأنهما دمان جامدان وقد ورد الحديث بإباحتهما وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل قال عمران بن جرير سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال لا بأس بذلك إنما نهى عن الدم المسفوح وقال إبراهيم النخعى لا بأس بالدم فى عرق أو مخ إلا المسفوح وقال عكرمة لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود . وقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) لما بين الله المحرمات فى هذه الآية أباح أكلها عند الاضطرار من غير بغى ولا عدوان ، وفى قوله (فان ربك غفور رحيم)

(وعلى الذين هادوا حرمنا) يعنى اليهود (كل ذى ظفر) وهو مالم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والأوز والبط قال القتيبى هو كل ذى مخلب من الطير وكل ذى حافر من الدواب وحكاه عن بعض المفسرين سمى الحافر ظفرا على الاستعارة (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) يعنى شحوم الجوف وهى الثروب وشحم الكليتين (إلا ما حملت ظهورهما) أى إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما (أو الحوايا) وهى المباعر واحدتها حاوية وحوية أى ما حملته الحوايا من الشحم (أو ما اختلط بعظم) يعنى شحم الألية هذا كله داخل فى الاستثناء والتحريم مختص بالثرب وشحم الكلية أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة أنا الليث عن يزيد ابن أبى حبيب عن عطاء ابن أبى رباح عن جابر ابن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح وهو بمكة «إن الله ورسوله حرما بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام قيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فانه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستضىء بها الناس فقال لا هو حرام ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود إن الله عز وجل لما حرم شحومهما جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه» (ذلك جزيناهم) أى ذلك التحريم عقوبة لهم (ببغيهم) أى بظلمهم يعنى من قتلهم الأنبياء وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلال أموال الناس بالباطل (وإنا لصادقون) فى الإخبار عما حرمنا عليهم وعن بغيهم (فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) بتأخير العذاب عنكم (ولا يرد بأسه) عذابه (عن القوم المجرمين) إذا جاء وقته (سيقول الذين أشركوا) لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم مالم يحرمه الله قالوا (لو شاء الله ما أشركنا) نحن (ولا آباؤنا) من قبل (ولا حرمنا من شىء) من البحائر والسوائب وغيرهما

دليل على الرخصة والإباحة عند الاضطرار . قوله تعالى (وعلى الذين هادوا) يعنى اليهود (حرمنا كل ذى ظفر) قال ابن عباس هو البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب وقيل كل مالم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل: البعير والنعامة والإوز والبط قال القتيبى هو كل ذى مخلب من الطير وكل ذى حافر من الدواب وسمى الحافر ظفرا على الاستعارة (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) يعنى شحم الجوف وهى الثروب وشحم الكليتين (إلا ما حملت ظهورهما) يعنى إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم فانه غير محرم عليهم وقال السدى وأبو صالح الألية مما حملت ظهورهما وهذا القول مختص بالغنم لأن البقر ليس لها ألية (أو الحوايا) وهى المباعر فى قول ابن عباس وجمهور المفسرين واحدتها حاوية وحوية وقيل الحوايا المباعر والمصارين وهى الدوائر التى تكون فى بطن الشاة والمعنى أن الشحم الملتصق بالمباعر والمصارين غير محرم على اليهود (أو ما اختلط بعظم) يعنى من شحم الألية لأنه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التى تكون فى الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال على اليهود فحاصل هذا أن الذى حرم عليهم شحم الثرب وشحم الكلية وما عدا ذلك فهو حلال عليهم (ق) عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فانها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال لا هو حرام ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومهما جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه» قوله جملوه يعنى أذابوه يقال أجملت الشحم وجملته إذا أذبته وجملته أكثر وأفصح . وقوله تعالى (ذلك جزيناهم) أى ذلك التحريم جزيناهم عقوبة (ببغيهم) يعنى بسبب بغيهم وظلمهم وهو قتل الأنبياء وأخذ الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل (وإنا لصادقون) يعنى فى الإخبار عن بغيهم وفى الإخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم (فان كذبوك) يعنى فان كذبك اليهود يا محمد فيما أخبرناك أنا حرمنا عليهم وأحللنا لهم مما بيناه فى هذه الآية المتقدمة (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) يعنى بتأخير العقوبة عنكم فان رحمته تسع المسىء والمحسن فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به أو عصاه (ولا يرد بأسه) يعنى ولا يرد عذابه ونقمته إذا جاء وقتهما (عن القوم المجرمين) يعنى الذين كذبوا الأنبياء وهم الكفار واليهود . وقوله عز وجل (سيقول الذين أشركوا) لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم مالم يحرمه الله أخبر الله تعالى عنهم بما سيقولونه فقال تعالى «سيقول الذين أشركوا» يعنى مشركى قريش والعرب (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) يعنى من قبل قال المفسرون جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة على إقامتهم على الكفر والشرك وقالوا إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله فلولا أنه رضى ما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك (ولا حرمنا من شىء)

أرادوا أن يجعلوا قوله لو شاء الله ماأشركنا حجة لهم على إقامتهم على الشرك وقالوا إن الله تعالى قادر على أن يحول بيلنا وبين مانحن عليه حتى لانفعله فلولا أنه رضى بما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك فقال الله تعالى تكذيبا لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) من كفار الأمم الخالية (حتى ذاقوا بأسنا) عذابنا ويستدل أهل القدر بهذه الآية يقولون إنهم لما قالوا لو شاء الله ماأشركنا كذبهم الله ورد عليهم فقال كذلك كذب الذين من قبلهم قلنا التكذيب

ليس فى قولهم لو شاء الله ما أشركنا بل ذلك القول صدق ولكن فى قولهم إن الله تعالى أمرنا بها ورضى بما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها» فالرد عليهم فى هذا كما قال تعالى «قل إن الله لايأمر بالفحشاء» والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لافى قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله «كذلك كذب الذين من قبلهم» بالتشديد ولو كان ذلك خبرا من الله عز وجل عن كذبهم فى قولهم لو شاء الله ما أشركنا لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان نسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب وقال الحسن ابن الفضل لو ذكروا هذه المقالة تعظيما وإجلالا لله عز وجل ومعرفة منهم به لما عابهم بذلك لأن

يعنى ماحرموه من البحائر والسوائب وغير ذلك فقال الله عز وجل ردا وتكذيبا لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعنى من كفار الأمم الخالية الذين كانوا قبل قومك كذبوا أنبياءهم وقالوا مثل قول هؤلاء (حتى ذاقوا بأسنا) يعنى عذابنا .

(فصل)

استدل القدرية والمعتزلة بهذه الآية فقالوا إن القوم لما قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم بقوله «كذلك كذب الذين من قبلهم» وأيضا فان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لو شاء الله منا أن لانشرك لم نشرك ولمنعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت أنه مريد له وإذا أراده منا امتنع تركه منا وأجيب عن هذا بأن الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا لو شاء الله ماأشركنا ثم ذكر عقيبه كذلك كذب الذين من قبلهم وهذا التكذيب ليس هو فى قولهم لو شاء الله ماأشركنا، بل ذلك القول حق وصدق ولكن الكذب فى قولهم إن الله أمرنا به ورضى مانحن عليه كما أخبر عنهم فى سورة الأعراف «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها» فرد الله تعالى عليهم بقوله «قل إن الله لايأمر بالفحشاء» والدليل أن التكذيب فى قولهم إن الله أمرنا بهذا ورضيه منا لافى قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله «كذلك كذب الذين من قبلهم» بالتشديد ولو كان خبرا من الله عن كذبهم فى قولهم لو شاء الله ماأشركنا لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب وقال الحسن بن الفضل لو قالوا هذه المقالة تعظيما لله وإجلالا له ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيبا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون وقيل فى معنى الآية إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة وهو قوله «لو شاء الله ماأشركنا» إلا أنهم كانوا يعدونه عذرا لأنفسهم ويجعلونه حجة لهم فى ترك الإيمان والرد عليهم فى ذلك أن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته فان الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع مايريد، فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فان مشيئته لاتكون عذرا لأحد عليه فى فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولايرضى به ولا يأمر به ومع هذا فيبعث الرسل إلى العبد ويأمر بالإيمان وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع . فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى فى شركهم وكفرهم فأخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسد باطل فانه لايلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى فى كل الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام والله أعلم . وقوله تعالى (قل هل عندكم من علم) أى قل لمحمد لهؤلاء المشركين القائلين لو شاء الله ما أشركنا ولكنه رضى مانحن عليه من الشرك هل عندكم

الله تعالى قال «ولو شاء الله ماأشركوا» وقال «وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» والمؤمنون يقولون ذلك ولكنهم قالوه تكذيبا وتخرصا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون نظيره قوله عز وجل «وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم» قال الله تعالى «مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون» وقيل فى معنى الآية إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلا أنهم كانوا يعدونه عذرا لأنفسهم ويجعلونه حجة لأنفسهم فى ترك الإيمان ورد عليهم فى هذا لأن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته فانه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع مايريد وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فان مشيئته لاتكون عذرا لأحد (قل هل عندكم من علم)

اى كتاب وحجة من الله (تخرجوه لنا) حتى يظهر ماتدعون على الله تعالى من الشرك وتحريم ماحرمتموه (إن تتبعون) ماتتبعون فيما أنتم عليه (إلا الظن) من غير علم ويقين (وإن أنتم إلا تخرصون) تكذبون (قل فلله الحجة البالغة) التامة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان (فلو شاء لهداكم أجمعين) فهذا يدل على أنه لم يشأ إيمان الكافر ولوشاء لهداه (قل هلم) يقال للواحد والاثنين والجمع هلم (شهداءكم الذين يشهدون) أى ائتوا بشهدائكم الذين يشهدون (أن الله حرم هذا) هذا راجع إلى ماتقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودعواهم أن الله أمرهم به (فان شهدوا) وهم كاذبون (فلاتشهد) أنت (معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) أى يشركون . قوله عز وجل (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئا)وذلك أن المشركين سألوا وقالوا أى شىء الذى حرم الله تعالى فقال عز وجل قل تعالوا أتل أقرأ ماحرم ربكم عليكم حقا ويقينا لاظنا وكذبا كما تزعمون. فان قيل مامعنى قوله حرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئا والمحرم هو الشرك لاترك الشرك قيل موضع أن رفع معناه هو أن لاتشركوا وقيل محله نصب واختلفوا فى وجه ويكون انتصابه قيل معناه حرم عليكم أن تشركوا ولا صلة كقوله تعالى ومامنعك أن لاتسجد، أى منعك أن تسجد وقيل تم الكلام عند قوله حرم ربكم ثم قال عليكم أن لاتشركوا به شيئا على وجه الإغراء قال الزجاج يجوز أن يكون هذا محمولا على المعنى

يعنى بدعواكم ماتدعون من علم يعنى من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم (فتخرجوه لنا) يعنى فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه كما بينا لكم خطأ قولكم وفعلكم وتناقض ذلك واستحالته فى العقول (إن تتبعون إلا الظن) يعنى فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم مالم يحرمه الله عليكم وتحسبون أنكم على حق وإنما هو باطل (وإن أنتم إلا تخرصون) يعنى وما أنتم فى ذلك كله إلا تكذبون وتقولون على الله الباطل وقوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) يعنى قل يامحمد لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن إظهار علم أو حجة لهم فلله الحجة البالغة يعنى التامة على خلقه بإنزال الكتاب وإرسال الرسل قال الربيع بن أنس لاحجة لأحد عصى الله أو أشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده (فلو شاء لهداكم أجمعين) يعنى فلو شاء الله لوفقكم أجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على أنه تعالى لم يشأ إيمان الكافر ولو شاء لهداه لايسئل عما يفعل وهم يسئلون (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون) يعنى هاتوا وادعوا شهداءكم وهلم كلمة دعوة إلى الشىء يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والذكر والأنثى وفيها لغة أخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا وللأنثى هلمى واللغة الأولى أفصح (إن الله حرم هذا) وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ماحرموه على أنفسهم وقالوا إن الله أمرنا به ليظهر أن لاشاهد لهم على ذلك وإنما اختلقوه من عند أنفسهم (فان شهدوا فلا تشهد معهم) وهذا تنبيه أيضا على كونهم كاذبين فى شهادتهم فلا تشهد أنت يامحمد معهم لأنهم فى شهادتهم كاذبون (ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) يعنى إن وقع منهم شهادة فانما هى باتباع الهوى فلا تتبع أنت يامحمد أهواءهم ولكن اتبع ماأوحى إليك من كتابى الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (والذين لايؤمنون بالآخرة) أى «ولاتتبع أهواء الذين لايؤمنون بالآخرة» (وهم بربهم يعدلون) يعنى يشركون . قوله عز وجل (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم) لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا إن الله أمرهم بتحريم ماحرموه على أنفسهم فكأنهم سألوا وقالوا أى شىء حرم الله فأمر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تعالوا تعال من الخاص الذى صار عاما وأصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم وقيل أصله أن تدعو الإنسان إلى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاه إلى مافيه رفعة وشرف ثم كثر فى الاستعمال والمعنى تعالوا وهلموا أيها القوم أتل عليكم يعنى اقرأ ماحرم ربكم عليكم يعنى الذى حرم ربكم عليكم حقا يقينا لاشك فيه ولاظنا ولا كذبا كما تزعمون أنتم بل هو وحى أوحاه الله إلى (أن لاتشركوا به شيئا) . فان قلت ترك الإشراك واجب فامعنى قوله أن لاتشركوا به شيئا لأنه كالتفصيل لما أجمله فى قوله حرم ربكم عليكم وذلك لايجوز . قلت الجواب عنه من وجوه : الوجه الأول أن يكون موضع أن رفع معناه هو أن لاتشركوا له الوجه الثانى أن يكون محل النصب واختلفوا فى وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم أن تشركوا وتكون لا صلة وقيل أن حرف لاعلى أصلها ويكون المعنى أتل عليكم تحريم الشرك أى لا تشركوا

أى أتل عليكم تحريم الشرك وجائز أن يكون على معنى أوصيكم ألا تشركوا (وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) فقر (نحن نرزقكم وإياهم) أى تئدوا بناتكم خشية العيلة فانى رازقكم وإياهم (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ماظهر يعنى العلانية وما بطن يعنى السر وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولا يرون به بأسا فى السر فحرم الله تعالى الزنا فى العلانية والسر وقال الضحاك ماظهر الخمر وما بطن الزنا (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) حرم الله تعالى قتل المؤمن والمعاهد إلا بالحق لا بما أبيح قتله من ردة أوقصاص أو زنا يوجب الرجم أخبرنا أحمد ابن عبد الله الصالحي ثنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى ثنا حاجب ابن أحمد الطوسى ثنا محمد بن حماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايحل دم أمرى يشهد أن لا إله إلا الله وإنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» (ذلكم) الذى ذكرت (وصاكم به) أمركم به (لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) يعنى بما فيه صلاحه وتثميره وقال مجاهد هو التجارة فيه

ويكون المعنى أوصيكم أن لاتشركوا لأن قوله وبالوالدين إحسانا محمول على أوصيكم بالوالدين إحسانا . الوجه الثالث أن يكون الكلام قد تم عند قوله حرم ربكم ثم قال عليكم أن لاتشركوا على الإغراء أو بمعنى فرض عليكم أن لاتشركوا به شيئا ومعنى هذا الإشراك الذى حرمه الله ونهى عنه هو أن يجعل لله شريكا من خلقه أو يطيع مخلوقا فى معصية الخالق أو يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله «ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» . وقوله عز وجل (وبالوالدين إحسانا) أى وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين إحسانا وإنما ثنى بالوصية بالإحسان إلى الوالدين لأن أعظم النعم على الإنسان نعمة الله لأنه هو الذى أخرجه من العدم إلى الوجود وخلقه وأوجده بعد أن لم يكن شيئا ثم بعد نعمة الله نعمة الوالدين لأنهما السبب فى وجود الإنسان ولما لهما عليه من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك فى حال صغره (ولاتقتلوا أولادكم من إملاق) يعنى من خوف الفقر والإملاق الإقتار والمراد بالقتل وأد البنات وهن أحياء فكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم (نحن نرزقكم وإياهم) يعنى لاتئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فانى رازقكم وإياهم لأن الله تعالى إذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال فى أمر الرزق على الله عز وجل (ولاتقربوا الفواحش) يعنى الزنا (ماظهر منها وما بطن) يعنى علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولايرون به بأسا فى السر فحرم الله تعالى الزنا فى السر والعلانية وقيل إن الأولى حمل لفظ الفواحش على العموم فى جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لأن المعنى الموجب لهذا النهى هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش وأيضا فان السبب إذا كان خاصا لايمنع من حمل اللفظ على العموم وفى قوله ماظهر منها وما بطن دقيقة وهى أن الإنسان إذا احترز عن المعاصى فى الظاهر ولم يحترز منها فى الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه، ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم ومن كان كذلك استحق العقاب ومن ترك المعصية ظاهرا وباطنا لأجل خوف الله وتعظيما لأمره استوجب رضوان الله وثوابه (ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) حرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحق وقتلها من جملة الفواحش المتقدم ذكرها فى قوله تعالى «ولاتقربوا الفواحش» وإنما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيما لأمر القتل وإنه من أعظم الفواحش والكبائر وقيل إنما أفرده بالذكر لأنه تعالى أراد أن يستثنى منه ولايمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش إلا بالإفراد فلذلك قال «ولاتقتلوا النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق» وهى التى أبيح قتلها من ردة أوقصاص أو زنا بعد إحصان وهو الذى يوجب الرجم (ق) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «لايحل دم امرئ مسلم يشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» . وقوله تعالى (ذلكم) يعنى ماذكر من الأوامر والنواهى المحرمات (وصاكم به) يعنى أمركم به وأوجبه عليكم (لعلكم تعقلون) يعنى لكى تفهموا مافى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها قوله تعالى (ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) يعنى ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له قال مجاهد هو التجارة فيه

وقال الضحاك هو أن يبتغى له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئا (حتى يبلغ أشده) قال الشعبي ومالك : الأشد الحلم حتى يكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات قال أبو العالية حتى يعقل وتجتمع قوته وقال الكلبي الأشد ما بين الثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة وقيل إلى أربعين سنة وقيل إلى ستين سنة وقال الضحاك عشرون سنة وقال السدى ثلاثون سنة وقال مجاهد الأشد ثلاث وثلاثون سنة والأشد جمع شد مثل قد وأقد وهو استحكام قوة شبابه وسنه ومنه شد النهار وهو ارتفاعه وقيل بلوغ الأشد أن يؤنس رشده بعد البلوغ وتقدير الآية «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن» على الأبد حتى يبلغ أشده فادفعوا إليه ماله إن كان رشيدا (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) بالعدل (لا نكلف نفسا إلا وسعها) أى طاقتها فى إيفاء الكيل والميزان لم يكلف المعطى أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه « حتى لا تضيق نفسه عنه » بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه (وإذا قلتم فاعدلوا) فاصدقوا فى الحكم والشهادة (ولو كان ذا قربى) ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قرابة (وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) تتعظون قرأ حمزة والكسائى وحفص تذكرون خفيفة الذال كل القرآن والآخرون بتشديدها . قال ابن عباس هذه الآيات محكمات فى جميع الكتب لم ينسخهن شيء وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار (وأن هذا) أى هذا الذى وصاكم به فى هاتين الآيتين (صراطى) طريقى ودينى (مستقيما) مستويا قويما (فاتبعوه) قرأ حمزة والكسائى وإن بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الآخرون بفتح الألف قال الفراء والمعنى وأتل عليكم إن هذا صراطى مستقيما وقرأ ابن عامر ويعقوب بسكون النون (ولا تتبعوا السبل) أى الطرق المختلفة التى عدا هذا الطريق مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل وقيل الأهواء والبدع (فتفرق) فتميل (بكم) وتشتت (عن سبيله)

وقال الضحاك هو أن يسعى له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئا هذا إذا كان القيم بالمال غنيا غير محتاج فلو كان الوصى فقيرا فله أن يأكل بالمعروف (حتى يبلغ أشده) يعنى احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله. فأما الأشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى فى الشباب إلى حد الرجال قال الشعبي ومالك الأشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات وقال أبو العالية حتى يعقل وتجتمع قوته وقال الكلبي الأشد هو ما بين ثمان عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وقيل إلى أربعين وقيل إلى ستين سنة وقال الضحاك الأشد عشرون سنة وقال السدى الأشد ثلاثون سنة وقال مجاهد الأشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الأقوال التى نقلت عن المفسرين فى هذه الآية إنما هى نهاية الأشد لا ابتداؤه والمراد بالأشد فى هذه الآية هو ابتداء بلوغ الحلم مع إيناس الرشد وهذا هو المختار فى تفسير هذه الآية . وقوله تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) يعنى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان (لا نكلف نفسا إلا وسعها) يعنى طاقتها وما يسعها فى إيفاء الكيل والميزان وإتمامه لم يكلف المعطى أن يعطى أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه ، بل أمر كل واحد بما يسعه مما لا حرج عليه فيه (وإذا قلتم فاعدلوا) يعنى فى الحكم والشهادة (ولو كان ذا قربى) يعنى المحكوم عليه وكذا المشهود عليه وقيل إن الأمر بالعدل فى القول هو أعم من الحكم والشهادة ، بل يدخل فيه كل قول حتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان وأداء الأمانة وغير ذلك من جميع الأقوال التى يعتمد فيها العدل والصدق (وبعهد الله أوفوا) يعنى ما عهد إلى عباده ووصاهم به وأوجبه عليهم أو ما أوجبه الإنسان على نفسه كنذر ونحوه فيجب الوفاء به (ذلكم) يعنى الذى ذكر فى هذه الآيات (وصاكم به) يعنى بالعمل به (لعلكم تذكرون) يعنى لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما أمرتكم به . قوله عز وجل (وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) يعنى وأن هذا الذى وصيتكم به وأمرتكم به فى هاتين الآيتين هو صراطى يعنى طريقى ودينى الذى ارتضيته لعبادى مستقيما يعنى قويما لا اعوجاج فيه فاتبعوه يعنى فاعملوا به وقيل إن الله تعالى لما بين فى الآيتين المتقدمتين ما وصى به مفصلا أجمله فى هذه الآية إجمالا يقتضى دخول جميع ما تقدم ذكره فيه ويدخل فيه أيضا جميع أحكام الشريعة وكل ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من دين الإسلام هو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين وأمرهم باتباع جملته وتفصيله (ولا تتبعوا السبل) يعنى الطرق المختلفة والأهواء المضلة والبدع الرديئة وقيل السبل المختلفة مثل : اليهودية والنصرانية وسائر الملل والأديان المخالفة لدين الإسلام (فتفرق بكم عن سبيله) يعنى فتميل بكم هذه الطرق

المختلفة

عن طريقه ودينه الذى ارتضى وبه أوصى (ذلكم) الذى ذكرنا (وصاكم به لعلكم تتقون) أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابى المعروف بأبى بكر بن الهيثم أخبرنا الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادى ثنا أبو بكر محمد بن يحيى بن خالد ثنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلى ثنا عبد الرحمن بن مهدى عن حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبى وائل عن عبد الله قال خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال هذا (٢٠١) سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه» الآية قوله عز وجل (ثم آتينا موسى الكتاب) فان قيل لم قال ثم آتينا وحرف ثم للتعقيب وإيتاء موسى الكتاب كان قبل مجىء القرآن قيل معناه ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب فأدخل ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول (تماما على الذى أحسن) اختلفوا فيه قيل تماما على المحسنين من قومه فيكون الذى بمعنى من أى على من أحسن من قومه وكان منهم محسن ومسىء يدل عليه قراءة ابن مسعود على الذين أحسنوا وقال أبو عبيدة معناه على كل من أحسن أى أتممنا فضيلة موسى بالكتاب على المحسنين يعنى أظهرنا فضله عليهم والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وقيل الذى أحسن هو موسى والذى بمعنى ما أى على ما أحسن موسى تقديره آتيناه الكتاب يعنى التوراة إتماما عليه النعمة لإحسانه فى الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر وقيل الإحسان بمعنى العلم وأحسن بمعنى علم ومعناه تماما على الذى أحسن موسى من العلم والحكمة أى آتيناه الكتاب زيادة على ذلك وقيل معناه تماما منى على إحسانى إلى موسى (وتفصيلا) بيانا (لكل شىء) يحتاج إليه من شرائع الدين (وهدى ورحمة) هذا فى صفة التوراة (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) قال ابن عباس كى يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب (وهذا) يعنى القرآن (كتاب أنزلناه) إليك (مبارك فاتبعوه) فاعملوا بما فيه

المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذى ارتضاه لعباده روى البغوى بسنده عن ابن مسعود قال خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية (ذلكم وصاكم به) يعنى باتباع دينه وصراطه الذى لا اعوجاج فيه (لعلكم تتقون) يعنى الطرق المختلفة والسبل المضلة قال ابن عباس هذه الآيات محكمات فى جميع الكتب لم ينسخهن شىء وهن من محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن ابن مسعود قال من سره أن ينظر إلى الصحيفة التى عليها خاتم محمد صلى الله عليه وسلم فليقرأ هؤلاء الآيات «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الآيات إلى قوله لعلكم تتقون» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب . قوله تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة. فان قلت إتيان موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن وحرف ثم للتعقيب فما معنى ذلك؟ قلت دخلت ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول والمعنى «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» وهو كذا وكذا إلى قوله تعالى لعلكم تتقون ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب وقيل إن المحرمات المذكورة فى قوله تعالى «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» محرمات على جميع الأمم وجميع الشرائع فتقدير الكلام ذلكم وصاكم به يابنى آدم قديما وحديثا ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب يعنى بعد إيجاب هذه المحرمات وقيل معناه «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» ثم قل بعد ذلك يامحمد إنا آتينا موسى الكتاب فحذف لفظة قل لدلالة الكلام عليها . وقوله تعالى (تماما على الذى أحسن) اختلف أهل التفسير فيه فقيل معناه تماما على المحسنين من قومه فيكون الذى بمعنى من أى تماما على من أحسن من قومه لأنه كان منهم محسن ومسىء وعلى قراءة ابن مسعود تماما على الذين أحسنوا وقيل معناه تماما على كل من أحسن أى أتممنا فضيلة موسى على المحسنين وهم الأنبياء والمؤمنون أى أتممنا فضله عليهم بالكتاب وقيل الذى أحسن هو موسى فيكون الذى بمعنى ما أى على ما أحسن وتقديره وآتينا موسى الكتاب إتماما للنعمة عليه لإحسانه فى الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر وقيل الإحسان بمعنى العلم وتقديره آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن موسى من العلم والحكمة زيادة له على ذلك وقيل معناه تماما منى على إحسانى إلى موسى (وتفصيلا لكل شىء) يعنى وفيه بيان لكل شىء يحتاج إليه من شرائع الدين وأحكامه (وهدى) يعنى وفيه هدى من الضلالة (ورحمة) يعنى إنزاله عليهم رحمة منى عليهم (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) قال ابن عباس لكى يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب . قوله عز وجل (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعنى القرآن لأنه كثير الخير والنفع والبركة ولا يتطرق إليه نسخ (فاتبعوه)

(واتقوا) وأطيعوا (لعلكم ترحمون أن تقولوا) يعنى لئلا تقولوا كقوله تعالى «يبين الله لكم أن تضلوا» أى لئلا تضلوا وقيل معناه أنزلناه كراهية أن تضلوا أن تقولوا. قال الكسائى معناه واتقوا أن تقولوا يا أهل مكة (إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) يعنى اليهود والنصارى (وإن كنا) وقد كنا (عن دراستهم) قراءتهم (لغافلين) لانعلم ماهى معناه أنزلنا عليكم القرآن لئلا تقولوا إن الكتاب أنزل على من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف مافيه وغفلنا عن دراسته فتجعلوه عذرا لأنفسكم (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) وقد كان جماعة من الكفار قالوا ذلك لو أنا أنزل علينا ما أنزل على اليهود والنصارى لكنا خيرا منهم قال الله تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم) حجة واضحة بلغة تعرفونها (وهدى) بيان (ورحمة) ونعمة لمن اتبعه (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف) أعرض (عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) أى شدة العذاب (بما كانوا يصدفون) يعرضون قوله تعالى (هل ينظرون) أى هل ينتظرون بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن (إلا أن تأتيهم الملائكة) لتقبض أرواحهم وقيل بالعذاب قرأ حمزة والكسائى يأتيهم بالياء هنا وفى النحل والباقون بالتاء (أو يأتى ربك) بلا كيف لفصل القضاء بين خلقه فى موقف القيامة (أو يأتى بعض آيات ربك) يعنى طلوع الشمس

يعنى فاعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام (واتقوا) يعنى مخالفته (لعلكم ترحمون) يعنى ليكن الغرض بالتقوى رحمة الله وقيل معناه لكى ترحموا على جزاء التقوى (أن تقولوا) يعنى لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا يعنى أنزلنا إليكم الكتاب كراهية أن تقولوا (إنما أنزل الكتاب) وقيل يجوز أن تكون أن متعلقة بما قبلها فيكون المعنى واتقوا أن تقولوا وهذا خطاب لأهل مكة والمعنى واتقوا يا أهل مكة أن تقولوا إنما أنزل الكتاب والكتاب اسم جنس لأن المراد به التوراة والإنجيل (على طائفتين من قبلنا) يعنى اليهود والنصارى (وإن كنا) أى وقد كنا وقيل وإنه كنا (عن دراستهم) يعنى قراءتهم (لغافلين) يعنى لا علم لنا بما فيها لأنها ليست بلغتنا والمراد بهذه الآية إثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ بلغتهم والمعنى وأنزلنا القرآن بلغتهم لئلا يقولوا يوم القيامة أن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيهما فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم بلغتهم (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) وذلك أن جماعة من الكفار قالوا لو أنزل علينا ما أنزله على اليهود والنصارى لكنا خيرا منهم وأهدى وإنما قالوا ذلك لاعتمادهم على صحة عقولهم وجودة فطنتهم وذهنهم قال الله عز وجل (فقد جاءكم بينة من ربكم) يعنى هذا القرآن فيه بيان وحجة واضحة تعرفونها (وهدى) يعنى من الضلالة (ورحمة) يعنى وهو رحمة ونعمة أنعم الله بها عليكم (فمن أظلم) أى لا أحد أظلم وأكفر (ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) يعنى وأعرض عنها (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) يعنى أسوأ العذاب وأشده (بما كانوا يصدفون) أى ذلك العذاب جزاؤهم بسبب إعراضهم وتكذيبهم بآيات الله قوله تعالى (هل ينظرون) يعنى هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله وهو استفهام معناه النفى وتقدير الآية أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءتهم إحدى هذه الأمور الثلاث فإذا جاءتهم إحداها آمنوا وذلك حين لا ينفعهم إيمانهم (إلا أن تأتيهم الملائكة) يعنى لقبض أرواحهم وقيل أن تأتيهم بالعذاب (أو يأتى ربك) يعنى للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة وقد تقدم الكلام فى معنى الآية فى سورة البقرة عند قوله «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام» بما فيه كفاية وإن المجىء والذهاب على الله محال فيجب إمرارها بلا تكييف (أو يأتى بعض آيات ربك) قال جمهور المفسرين هو طلوع الشمس من مغربها ويدل على ذلك ما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» أخرجه مسلم عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله «أو يأتى بعض آيات ربك» قال طلوع الشمس من مغربها أخرجه الترمذى وقال حديث غريب (م) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه» عن صفوان بن عسال المرادى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أو قال يسير الراكب فى عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن

حسن صحيح (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها» وفي رواية «فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» (م) عن حذيفة بن أسد الغفاري قال اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ماتذكرون قلنا الساعة فقال «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر: الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم» (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بادروا بالأعمال قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة» (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا» وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية قال «تصبحون والشمس والقمر من هاهنا من قبل المغرب كالبعير بن القرينين» زاد في رواية عنه «فذلك حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» وبسنده عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما «أتدرون أين تذهب هذه الشمس قالوا الله ورسوله أعلم قال إنها تذهب إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي فارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لاتنكر الناس منها شيئا حتى تنتهي فتخر ساجدة في مستقرها تحت العرش فيقال لها اطلعي من مغربك فتصبح طالعة من مغربها» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتدرون أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم. قال ذلك يوم لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» وبسنده عن أبي ذر قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم على حمار «فنظر إلى الشمس حين غربت فقال إنها تغرب في عين حمئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها فاذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول يارب إن مسيري بعيد فيقول لها اطلعي من حيث غربت فذلك حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» وروى بسنده عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية من العشيات فقال لهم «عباد الله توبوا إلى الله قبل أن يأتيكم بعذاب فانكم توشكون أن تروا الشمس من قبل المغرب فاذا فعلت حبست التوبة وطوي العمل» فقال الناس هل لذلك من آية يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقص ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه فاذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم فاذا أصبحوا فطال عليهم رأت أعينهم طلوع الشمس فبينما هم ينظرونها إذ طلعت عليهم من قبل المغرب فاذا فعلت ذلك لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» قال ابن عباس لاينفع مشركا إيمانه عند الآيات وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيرا قبل ذلك

من مغربها عليه أكثر المفسرين ورواه أبوسعيد الخدري مرفوعا

(يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) أي لاينفع الإيمان عند ظهور الآية التى تضطرهم إلى الإيمان (أو كسبت فى إيمانها خيرا) يريد لايقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق (قل انتظروا) ياأهل مكة (إنا منتظرون) بكم العذاب أخبرنا أبو على حسان بن سعيد المنيعى ثنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى ثنا أبو بكر محمد بن الحسن القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمى ثنا عبدالرزاق ثنا معمر عن همام بن منبه ثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن (٢٠٤) آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا» أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحى أخبرنا أبو بكر أحمد ابن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا محمد بن جماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبيدة عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يدالله يبسطان (١) لمسيء الليل ليتوب بالنهار ولمسيء النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها» أخبرنا عبدالواحد المليحى ثنا أبو منصور محمد بن محمد ابن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتى أنا حميد بن زنجويه أنا النضر ابن شميل أنا هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الرياتى أنا حميد ابن زنجويه أنا أحمد بن عبد الله أنا حماد بن زيد أنا عاصم ابن أبى النجود عن زر بن حبيش قال أتيت صفوان بن عسال المرادى فذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن الله عز وجل جعل بالمغرب بابا مسيرة عرضه سبعون عاما للتوبة لايغلق مالم تطلع الشمس من قبله» وذلك قول الله تعالى يوم «يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» وروى أبو حازم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث إذا خرجن لاينفع نفسا

وقال ابن الجوزى قيل إن الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها أن الملحدة المنجمين زعموا أن ذلك لايكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاث: الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها روى عن ابن مسعود أنه قال التوبة معروضة على ابن آدم إن قبلها مالم تخرج إحدى ثلاث: الدابة وطلوع الشمس من مغربها أو يأجوج ومأجوج وروى عن عائشة قالت إذا خرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال وروى عن أبى هريرة فى قوله تعالى أو يأتى بعض آيات ربك قال هى مجموع الآيات الثلاث: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض ورواه مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث إذا خرجن لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض وأصح الأقوال فى ذلك ماتظاهرت عليه الأحاديث الصحيحة وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) يعنى لاينفع من كان مشركا إيمانه ولاتقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة (أو كسبت فى إيمانها خيرا) يعنى أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيرا من عمل صالح وتصديق قال الضحاك من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدقوا فانهم لاينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة وقوله (قل انتظروا) يعنى ماوعدتم به من مجىء الآية ففيه وعيد وتهديد (إنا منتظرون) يعنى ماوعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة أو قبله فى الدنيا قال بعض المفسرين وهذا إنما ينتظره من تأخر فى الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم الى ذلك الوقت والمراد بهذا أن المشركين إنما يمهلون قدر مدة الدنيا فاذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان وحلت بهم العقوبة اللازمة أبدا وقيل إن قوله «قل انتظروا إنا منتظرون» المراد به الكف عن قتال الكفار فتكون

(١) يد الله يبسطان كذا فى نسخة وفى أخرى يبسطتان والذى فى الجامع الصغير عن أبى موسى الأشعرى أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل فليحرر اهـ مصححه.

فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الأول تكون الآية محكمة . قوله عزوجل (إن الذين فرقوا) وقرئ فارقوا (دينهم وكانوا شيعا) يعنى أحزابا متفرقة فى الضلالة ومعنى فرقوا دينهم أنهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه فمن قرأ وفرقوا دينهم يعنى جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السهلة أديانا مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة ومن قرأ فارقوا دينهم قال معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشىء وقيل إن معنى القراءتين يرجع إلى شىء واحد فى الحقيقة وهو أن من فرق دينه فآمن ببعض وأنكر بعضا فقد فارق دينه فى الحقيقة ثم اختلفوا فى المعنى بهذه الآية فقال الحسن هم جميع المشركين لأن بعضهم عبدوا الأصنام وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا إنهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم وقال مجاهد هم اليهود وقال ابن عباس وقتادة والسدى والضحاك هم اليهود والنصارى لأنهم تفرقوا فكانوا فرقا مختلفة وقال أبو هريرة فى هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة وروى ذلك مرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة» أسنده الطبرى فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا فى الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة وروى عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة» ذكره البغوى بغير سند عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل يارسول الله كأن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا فقال «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ؛ تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » أخرجه أبو داود والترمذى عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة زاد فى رواية وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله» أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلها فى النار إلا ملة واحدة قالوا من هى يارسول الله قال من كان على ما أنا عليه وأصحابى» أخرجه الترمذى قال الخطابى فى هذا الحديث دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين إذ جعلهم من أمته وقوله تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه التجارى تفاعل من الجرى وهو الوقوع فى الأهواء الفاسدة والبدع المضلة تشبيها بجرى الفرس والكلب قال ابن مسعود «إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها» ورواه جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا .

عز وجل (إن الذين فرقوا دينهم) قرأ حمزة والكسائى فارقوا بالألف هنا وفى سورة الروم أى خرجوا من دينهم وتركوه وقرأ الآخرون فرقوا مشددا أى جعلوا دين الله وهو واحد دين إبراهيم عليه السلام الحنيفية أديانا مختلفة فتهود قوم وتنصر قوم يدل عليه قوله عز وجل (وكانوا شيعا) أى صاروا فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى فى قول مجاهد وقتادة والسدى وقيل هم أصحاب البدع والشبهات من هذه الأمة وروى عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة ياعائشة «إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع والشبهات من هذه الأمة» حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن زياد الحنفى أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأنصارى أنا أبو عبيد الله محمد بن عقيل الأزهرى البلخى أنا الزيادى أنا أحمد بن منصور أنا الضحاك ابن مخلد أنا ثور بن يزيد أنا خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمر السلمى عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب وقال قائل يارسول الله

كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا فان من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة » وروى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن بنى إسرائيل تفرقت على اثنين وسبعين ملة وتفرق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا واحدة ، قالوا من هى يارسول الله ؟ قال ما أنا عليه وأصحابى » قال عبد الله بن مسعود فان أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها» ورواه جابر مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله عز وجل (لست منهم فى شىء) قيل لست من قتالهم فى شىء نسختها آية القتال وهذا على قول من يقول المراد منه اليهود والنصارى ومن قال أراد بالآية أهل الأهواء قال

المراد من قوله : لست منهم فى شىء أى أنت منهم برىء وهم منك برآء يقول العرب إن فعلت كذا فلست منى ولست منك أى كل واحد منا برىء من صاحبه (إنما أمرهم إلى الله) يعنى فى الجزاء والمكافآت (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) إذا وردوا للقيامة ، قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أى له عشر حسنات أمثالها وقرأ يعقوب عشر منون أمثالها بالرفع (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) أخبرنا حسان بن سعيد المنيعى ثنا أبو طاهر محمد ابن محمد بن محمش الزيادى ، ثنا أبو بكر محمد بن الحسن القطان ثنا محمد بن يوسف السلمى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه ثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله عز وجل» وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجانى ثنا عبد الغافر بن محمد الفارسى ثنا محمد ابن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبى شيبة ثنا وكيع ، ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة بمثلها أو أغفر ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة» قال ابن عمر الآية

وقوله تعالى (لست منهم فى شىء) يعنى فى قتال الكفار فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال وهذا على قول من يقول إن المراد من الآية اليهود والنصارى والكفار ومن قال المراد من الآية أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة قال معناه لست منهم فى شىء أى أنت منهم برىء وهم منك برآء تقول العرب إن فعلت كذا فلست منك ولست منى أى كل واحد منا برىء من صاحبه (إنما أمرهم إلى الله) يعنى فى الجزاء والمكافأة (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) يعنى إذا وردوا القيامة . قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) يعنى مثلها فى مقابلتها واختلفوا فى هذه الحسنة والسيئة على قولين : أحدهما أن الحسنة قول لا إله إلا الله والسيئة هى الشرك بالله وأورد على هذا القول إن كلمة التوحيد لا مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها وأجيب عنه بأن جزاء الحسنة قدر معلوم عند الله فهل يجازى على قدر إيمان المؤمن بما يشاء من الجزاء وإنما قال عشر أمثالها للترغيب فى الإيمان لا للتحديد وكذلك جزاء السيئة بمثلها من جنسها . والقول الثانى أن اللفظ عام فى كل حسنة يعملها العبد أو سيئة وهذا أولى لأن حمل اللفظ على العموم أولى قال بعضهم التقدير بالعشرة ليس التحديد لأن الله يضاعف لمن يشاء فى حسناته إلى سبعمائة ويعطى من يشاء بغير حساب وإعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه وتعالى وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) يعنى لا ينقص من ثواب الطائع ولا يزاد على عذاب العاصى (ق) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى» (م) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة » (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى وإذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا

فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فان عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة» لفظ البخارى وفى لفظ مسلم عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «قال الله تبارك وتعالى إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة مالم يعملها فاذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها وإذا تحدث عبدى بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له مالم يعملها فاذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فان عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة فانما تركها من أجلى زاد الترمذى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . قوله عز وجل (قل) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك (إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم) يعنى قل لهم إننى أرشدنى ربى إلى الطريق القويم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين (دينا قيما) يعنى هدانى صراطا مستقيما دينا قيما وقيل يحتمل أن يكون محمولا على المعنى تقديره وعرفنى دينا قيما يعنى دينا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ وقيل قيما ثابتا مقوما لأمور معاشى ومعادى وقيل هو من قام وهو أبلغ من القائم (ملة إبراهيم) والملة بالكسر الدين والشريعة يعنى هدانى وعرفنى دين إبراهيم وشريعته (حنيفا) الأصل فى الحنيف الميل وهو ميل عن الضلالة إلى الاستقامة والعرب تسمى كل من اختتن أوحج حنيفا تنبيها على أنه على دين إبراهيم عليه السلام (وما كان من المشركين) يعنى إبراهيم صلى الله عليه وسلم وفيه رد على كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم فأخبر الله تعالى إن إبراهيم لم يكن من المشركين وممن يعبد الأصنام (قل إن صلاتى) أى قل يا محمد إن صلاتى (ونسكى) قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والسدى أراد بالنسك فى هذا الموضع الذبيحة فى الحج والعمرة وقيل النسك العبادة والناسك العابد وقيل المناسك أعمال الحج وقيل النسك كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة وحج وذبح وعبادة ونقل الواحدى عن ابن الأعرابى قال النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة وقيل للمتعبد ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث وفى قوله إن صلاتى ونسكى دليل على أن جميع العبادات يؤديها العبد على الإخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله رب العالمين لاشريك له وفيه دليل على أن جميع العبادات لاتؤدى إلا على وجه التمام والكمال لأن ما كان لله لاينبغى أن يكون إلا كاملا تاما مع إخلاص العبادة له فما كان بهذه الصفة من العبادات كان مقبولا (ومحياى ومماتى) أى حياتى وموتى بخلق الله وقضائه وقدره أى هو يحيينى ويميتنى وقيل معناه إن محياى بالعمل الصالح ومماتى إذا مت على الإيمان لله وقيل معناه إن طاعتى فى حياتى لله وجزائى بعد مماتى من الله وحاصل هذا الكلام له أن الله أمر رسوله ﷺ أن يبين أن صلاته ونسكه وسائر عباداته وحياته وموته كلها واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وهو المراد بقوله (لله رب العالمين لاشريك له) يعنى فى العبادة والخلق والقضاء والقدر وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه (وبذلك أمرت) يعنى قل يا محمد وبهذا التوحيد أمرت (وأنا أول المسلمين) قال قتادة يعنى من هذه الأمة وقيل معناه وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره . قوله عز وجل (قل أغير الله أبغى ربا) أى قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك أغير الله أطلب سيدا أو إلها (وهو رب كل شىء) يعنى وهو سيد كل شىء ومالكه لايشاركه فيه أحد وذلك أن الكفار قالوا

فى غير الصدقات من الحسنات فأما الصدقات تضاعف سبعمائة ضعف قوله تعالى (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما) قرأ أهل الكوفة والشام قيما بكسر القاف وفتح الياء خفيفة وقرأ الآخرون بفتح القاف وكسر الياء مشددا ومعناهما واحد وهو القويم المستقيم وانتصابه على معنى هدانى دينا قيما (ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قل إن صلاتى ونسكى) قيل أراد بالنسك الذبيحة فى الحج والعمرة وقال مقاتل نسكى حجى وقيل دينى (ومحياى ومماتى) أى حياتى ووفاتى (لله رب العالمين) أى هو يحيينى ويميتنى وقيل محياى بالعمل الصالح ومماتى إذا مت على الإيمان لله رب العالمين وقيل طاعتى فى حياتى لله وجزائى بعد مماتى من الله رب العالمين قرأ أهل المدينة محياى بسكون الياء، ومماتى بفتحها وقراءة العامة محياى بفتح الياء لئلا يجتمع ساكنان قوله تعالى (لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) قال قتادة وأنا أول المسلمين من هذه الأمة (قل أغير الله أبغى ربا) قال ابن عباس رضى الله عنهما سيداً وإلها (وهو رب كل شىء) وذلك أن الكفار كانوا يقولون للنبى ﷺ

ارجع إلى ديننا . قال ابن عباس كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلى أحمل عنكم أوزاركم فقال الله تعالى (ولا تكسب
كل نفس إلا عليها) لاتجنى كل نفس إلا ماكان من إثمه على الجانى (ولا تزر وازرة وزر أخرى)

للنبى صلى الله عليه وسلم ارجع إلى ديننا قال ابن عباس كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلى أحمل عنكم أوزاركم فقال الله عز وجل ردا عليه (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) يعنى أن إثم الجانى عليه لاعلى غيره (ولا تزر وازرة وزر أخرى) يعنى لاتؤاخذ نفس آثمة بإثم أخرى ولا تحمل نفس حاملة حمل أخرى ولايؤاخذ أحد بذنب آخر (ثم إلى ربكم مرجعكم) يعنى يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعنى فى الدنيا من الأديان والملل . قوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) يعنى والله الذى جعلكم ياأمة محمد خلائف فى الأرض فإن الله أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم فى الأرض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم وذلك لأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وهو آخرهم وأمته آخر الأمم (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) يعنى أنه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض فى الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل فجعل منهم الحسن والقبيح والغنى والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوى والضعيف وهذا التفاوت بين الخلق فى الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل فان الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان وهو قوله تعالى (ليبلوكم فيما آتاكم) يعنى يعاملكم معاملة المبتلى والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده والمعنى يبتلى الغنى بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم مايكون عليه الثواب والعقاب لأن العبد إما أن يكون مقصرا فيما كلف به وإما أن يكون موفيا ماأمره به فان كان مقصرا كان نصيبه التخويف والترغيب وهو قوله تعالى (إن ربك سريع العقاب) يعنى لأعدائه باهلاكهم فى الدنيا وإنما وصف العقاب بالسرعة لأن كل ماهو آت فهو قريب إن كان العبد موفيا حقوق الله تعالى فيما أمره به أو نهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم وهو قوله تعالى (وإنه لغفور) يعنى لذنوب أوليائه وأهل طاعته (رحيم) يعنى بجميع خلقه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة الأعراف)

نزلت بمكة روى ذلك عن ابن عباس وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة وروى عن ابن عباس أيضا أنها مكية إلا خمس آيات أولها واسألهم عن القرية التى كانت وبه قال قتادة وقال مقاتل ثمان آيات فى سورة الأعراف مدنية أولها واسألهم عن القرية إلى قوله وإذ أخذ ربك من بنى آدم وهى مائتان وست آيات وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وأربعة عشرة ألف حرف عشرة أحرف.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (المص) قال ابن عباس معناه أنا الله أفصل وعنه أنا الله أعلم وأفصل وعنه أن المص قسم أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله تعالى ، وقال قتادة المص اسم من أسماء القرآن وقال الحسن هو اسم للسورة وقال السدى هو بعض اسمه تعالى المصور وقال أبو العالية الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور

أى لاتحمل حمل أخرى أى لايؤاخذ أحد بذنب غيره (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) يعنى أهلك القرون الماضية وأورثكم الأرض ياأمة محمد صلى الله عليه وسلم من بعدهم فجعلكم خلائف منهم فيها تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم والخلائف جمع خليفة كالوصائف جمع وصيفة وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة لأنه يخلفه (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أى خالف بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض فى الخلق والرزق والمعاش والقوة والفضل (ليبلوكم فيما آتاكم) ليختبركم فيما رزقكم يعنى يبتلى الغنى والفقير والشريف والوضيع والحر والعبد ليظهر منكم ما يكون عليه من الثواب والعقاب (إن ربك سريع العقاب) لأن ماهو آت فهو سريع قريب قيل هو الهلاك فى الدنيا (وإنه لغفور رحيم) قال عطاء سريع العقاب لأعدائه غفور لأوليائه رحيم بهم .

(تفسير سورة الأعراف)

مكية كلها إلا خمس آيات [illegible] أولها واسألهم عن القرية التى كانت :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المص كتاب) وقيل

وقيل هى حروف مقطعة استأثر الله تعالى بعلمها وهى سره فى كتابه العزيز وقيل هى حروف اسمه الأعظم وقيل هى حروف تحتوى معانى دل الله بها خلقه على مراده وقد تقدم بسط الكلام على معانى الحروف المقطعة أوائل السور فى أول سورة البقرة . وقوله تعالى (كتاب أنزل إليك) يعنى هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن (فلا يكن فى صدرك حرج منه) يعنى فلا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به إلى الناس (لتنذر به) يعنى أنزلت إليك الكتاب يا محمد لتنذر به من أمرتك بانذاره (وذكرى للمؤمنين) يعنى ولتذكر وتعظ به المؤمنين وهذا من المؤخر الذى معناه التقديم تقديره كتاب أنزلناه إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه قال ابن عباس فلا تكن فى شك منه لأن الشك لا يكون إلا من ضيق الصدر وقلة الاتساع لتوجيه ما حصل له . قوله تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) أى قل يا محمد لقومك اتبعوا أيها الناس ما أنزل إليكم من ربكم يعنى من القرآن الذى فيه الهدى والنور والبيان قال الحسن يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم والله ما نزلت آية إلا ويجب أن تعلم فيما أنزلت وما معناها وبنحو هذا قال الزجاج أى اتبعوا القرآن وما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم فانه مما أنزل لقوله تعالى «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» ومعنى الآية أن الله تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالإنذار فى قوله لتنذر به كان معنى الكلام أنذر القوم «وقل لهم اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك وقيل معناه لتنذر به وتذكر به المؤمنين فتقول لهم « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » ، وقيل هو خطاب للكفار أى اتبعوا أيها المشركون ما أنزل إليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك ويدل عليه قوله تعالى (ولا تتبعوا من دونه أولياء) يعنى ولا تتخذوا الذين يدعونكم إلى الكفر والشرك أولياء فتتبعوهم والمعنى ولا تتولوا من دونه شياطين الإنس والجن فيأمروكم بعبادة الأصنام واتباع البدع والأهواء الفاسدة (قليلا ما تذكرون) يعنى ما تتعظون إلا قليلا . قوله تعالى (وكم من قرية أهلكناها) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالإنذار والإبلاغ ، وأمر أمته باتباع ما أنزله إليهم حذرهم نقمته وبأسه إن لم يتبعوا ما أمروا به فذكر فى هذه الآية ما فى ترك المتابعة والإعراض عن أمره من الوعيد فقال تعالى «وكم من قرية أهلكناها » ، قيل فيه حذف تقديره وكم من أهل قرية لأن المقصود بالإهلاك أهل القرية لا القرية وقيل ليس فيه حذف لأن إهلاك القرية إهلاك لأهلها (فجاءها بأسنا) يعنى عذابنا . فان قلت مجىء البأس وهو العذاب إنما يكون قبل الإهلاك فكيف قال أهلكناها فجاءها بأسنا . قلت معناه وكم من قرية حكمنا باهلاكها فجاءها بأسنا وقال الفراء الهلاك والبأس قد يقعان معا كما يقال أعطيتنى فأحسنت إلى فلم يكن الإحسان قبل الإعطاء ولا بعده وإنما وقعا معا وقال غيره لا فرق بين قولك أعطيتنى فأحسنت إلى أو أحسنت إلى فأعطيتنى فيكون أحدهما بدلا من الآخر (بياتا) يعنى فجاءها عذابنا ليلا قبل أن يصبحوا (أو هم قائلون) من القيلولة وهى نوم نصف النهار أو استراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم والمعنى فجاءها بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلا وهم نائمون أو نهارا وهم قائلون وقت الظهيرة وكل ذلك وقت الغفلة ومقصود الآية أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم

للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة وقال أبو العالية حرج أى ضيق معناه لا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به (لتنذر به) أى كتاب أنزل إليك لتنذر به (وذكرى للمؤمنين) أى عظة لهم وهو رفع مردود على الكتاب (اتبعوا) أى وقل لهم اتبعوا (ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) أى لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم فى معصية الله تعالى (قليلا ما تذكرون) تتعظون وقرأ ابن عامر يتذكرون بالياء والتاء (وكم من قرية أهلكناها) بالعذاب وكم للتكثير ورب للتقليل (فجاءها بأسنا) عذابنا (بياتا) ليلا (أو هم قائلون) من القيلولة تقديره فجاءها بأسنا ليلا وهم نائمون أو نهارا وهم قائلون أو نائمون ظهيرة والقيلولة استراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم ومعنى الآية أنهم جاءهم بأسنا وهم غير متوقعين إما ليلا أو نهارا قال الزجاج وأو لتصريف العذاب أى مرة ليلا ومرة نهارا وقيل معناه من أهل القرى من أهلكناهم ليلا ومنهم من أهلكناهم نهارا أى حكمنا بهلاكها . فان قيل ما معنى أهلكناها فجاءها بأسنا فكيف يكون مجىء البأس بعد الهلاك ، قيل معنى أهلكنا

حكمنا بهلاكها فجاءها بأسنا وقيل فجاءها بأسنا هو بيان قوله أهلكناها مثل قول القائل : أعطيتني فأحسنت إلى لا أفرق بينه وبين قوله أحسنت إلى فأعطيتني فيكون أحدهما بدلا من الآخر (فما كان دعواهم) أى قولهم ودعاؤهم وتضرعهم والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء قال سيبويه تقول العرب اللهم أشركنا فى صالح دعوى المسلمين أى فى دعائهم (إذ جاءهم بأسنا) عذابنا (إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) معناه لم يقدروا على رد العذاب وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية حين لا ينفع الاعتراف (فلنسألن الذين أرسل إليهم) يعنى الأمم عن إجابتهم الرسل وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استعلام يعنى نسألهم عما عملوا فيما بلغتهم الرسل (ولنسألن المرسلين) عن الإبلاغ (فلنقصن عليهم بعلم) أى نخبرنهم عن علم قال ابن عباس رضى الله عنهما ينطق عليهم كتاب أعمالهم كقوله تعالى «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق» (وما كنا غائبين) عن الرسل فيما بلغوا عن الأمم فيما أجابوا قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) يعنى يوم السؤال قال مجاهد معناه والقضاء يومئذ العدل وقال الأكثرون أراد به وزن الأعمال بالميزان وذلك أن الله تعالى ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة بقدر ما بين المشرق والمغرب واختلفوا فى كيفية الوزن فقال بعضهم توزن صحائف الأعمال وروينا أن رجلا ينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيخرج له بطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وقيل توزن الأشخاص وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ليأتى الرجل العظيم

لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة فان عذاب الله إذا نزل نزل دفعة واحدة (فما كان دعواهم) يعنى فما كان دعاء أهل القرية التى جاءها بأسنا والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء قال سيبويه تقول العرب اللهم أشركنا فى صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله تعالى «دعواهم فيها سبحانك اللهم» (إذ جاءهم بأسنا) يعنى عذابنا (إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) يعنى أنهم لم يقدروا على رد العذاب عنهم وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية وذلك حين لا ينفع الاعتراف (فلنسألن الذين أرسل إليهم) يعنى نسأل الأمم الذين أرسلنا إليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل (ولنسألن المرسلين) يعنى ولنسألن الرسل الذين أرسلناهم إلى الأمم هل بلغتم رسالاتنا وأديتم إلى الأمم ما أمرتم بتأديته إليهم أم قصرتم فى ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى هذه الآية يسأل الله تعالى الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا وعنه أنه قال يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وقال السدى يسئل الأمم ماذا عملوا فيما جاءت به الرسل ويسئل الرسل هل بلغوا ما أرسلوا به . فان قلت قد أخبر عنهم فى الآية الأولى بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم فى قوله إنا كنا ظالمين فما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على أنفسهم بذلك . قلت لما اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار . فان قلت فما الفائدة فى سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم من الأمم . قلت إذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فكان مسئلة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا إليهم من الأمم أنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليه من الأمم فتكون هذه المسئلة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضا لأنهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم . وقوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم) يعنى فلنخبرن الرسل ومن أرسلوا إليهم بعلم ويقين بما عملوا فى الدنيا (وما كنا غائبين) يعنى عنهم وعن أفعالهم وعن الرسل فيما بلغوا وعن الأمم فيما أجابوا . فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى «فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين» وبين قوله «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين» وإذا كان عالما فما فائدة هذا السؤال . قلت فائدة سؤال الأمم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات التقريع والتوبيخ للكفار لأنهم إذ أقروا على أنفسهم كان أبلغ فى المقصود فأما سؤال الاسترشاد والاستثبات فهو منفى عن الله عز وجل لأنه عالم بجميع الأشياء قبل كونها وفى حال كونها وبعد كونها فهو العالم بالكليات والجزئيات وعلمه بظاهر الأشياء كعلمه بباطنها . قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) يعنى والوزن يوم سؤال الأمم والرسل وهو يوم القيامة العدل وقال مجاهد المراد بالوزن هنا القضاء ومعنى الحق العدل وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالوزن وزن الأعمال بالميزان وذلك أن الله عز

عز وجل ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة مابين المشرق والمغرب قال ابن الجوزى جاء فى الحديث «أن داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه إياه فقال إلهى من يقدر أن يملأ كفتيه حسنات فقال ياداود إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة» وقال حذيفة جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل زن بينهم ورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظالم ماوجد له من حسنة فان لم يكن له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل. فان قلت أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد فما الحكمة فى وزنها. قلت فيه حكم منها إظهار العدل وأن الله عز وجل لايظلم عباده ومنها امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى ومنها تعريف العباد مالهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ ثم فى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى ثم اختلف العلماء فى كيفية الوزن فقال بعضهم توزن صحائف الأعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله عز وجل سيخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لايارب فيقول الله تبارك وتعالى بلى إن لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول أحضر وزنك فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فانه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كافة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولايثقل مع اسم الله شىء» أخرجه الترمذى وأحمد بن حنبل وقال ابن عباس يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان فعلى قول ابن عباس أن الأعمال تتصور صورا وتوضع تلك الصور فى الميزان ويخلق الله فى تلك الصور ثقلا وخفة ونقل البغوى عن بعضهم أنها توزن الأشخاص واستدل لذلك بما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة» أخرجاه فى الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ماذكر من وزن الأشخاص فى الميزان لأن المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لاوزن جسده ولحمه والصحيح قول من قال إن صحائف الأعمال توزن أو نفس الأعمال تتجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك. وقوله تعالى (فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان وأورد على هذا أنه ميزان واحد فما وجه الجمع وأجيب عنه بأن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل إنه ينصب لكل عبد ميزان وقيل إنما جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ولايتم الوزن إلا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعنى من رجحت أعماله بالحسنة الموزونة التى لها وزن وقدر (فأولئك هم المفلحون) يعنى هم الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه (ومن خفت موازينه) يعنى موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) يعنى غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته (بما كانوا بآياتنا يظلمون) يعنى سبب ذلك الخسران أنهم كانوا بحجج الله وأدلة توحيده يجحدون

السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقيل توزن الأعمال. روى ذلك عن ابن عباس فيؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان والحكمة فى وزن الأعمال امتحان الله عباده بالإيمان فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى (فمن ثقلت موازينه) قال مجاهد حسناته (فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) يجحدون وقال أبو بكر رضى الله عنه حين حضره الموت فى وصيته لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا فان قيل فقد قيل من ثقلت موازينه ذكر بلفظ الجمع والميزان واحد قيل يجوز أن يكون لفظه جمعا ومعناه واحد كقوله يا أيها الرسل وقيل لكل عبد ميزان وقيل الأصل ميزان واحد عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلق به وقيل جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ولايتم الوزن إلا باجتماعها

قوله تعالى (ولقد مكناكم فى الارض) أى ملكناكم والمراد من التمكين التمليك والقدرة (وجعلنا لكم فيها معايش) أى أسبابا
تعيشون بها أيام حياتكم من التجارات والمكاسب والمآكل والمشارب والمعايش جمع المعيشة (قليلا
ماتشكرون) فيما صنعت
إليكم قوله عز وجل
(ولقد خلقناكم ثم
صورناكم) قال ابن عباس
خلقناكم أى أصولكم
وآباءكم ثم صورناكم فى
أرحام أمهاتكم وقال قتادة
والضحاك والسدى أما
خلقناكم فآدم وأما
صورناكم فذريته وقال
مجاهد خلقناكم آدم، ثم
صورناكم فى ظهر آدم
بلفظ الجمع لأنه أبو البشر
فى خلقه خلق من يخرج
من صلبه وقيل خلقناكم
فى ظهر آدم ثم صورناكم
يوم الميثاق حين أخرجكم
كالذر وقال عكرمة
خلقناكم فى أصلاب الرجال
وصورناكم فى أرحام النساء
وقال يمان خلق الإنسان
فى الرحم ثم صوره فشق
سمعه وبصره وأصابعه
وقيل الكل آدم خلقه
وصوره وثم بمعنى الواو
(ثم قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم) فان قيل الأمر بسجود
الملائكة كان قبل خلق بنى
آدم فما وجه قوله ثم قلنا
وثم للترتيب والتراخى،
قيل على قول من يصرف
الخلق والتصوير إلى آدم
وحده يستقيم الكلام
أما على قول من يصرفه إلى الذرية فعنه أجوبة أحدها ثم بمعنى الواو أى وقلنا للملائكة فلا تكون للترتيب (فسجدوا
والتعقيب وقيل أراد ثم أخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره ولقد خلقناكم يعنى آدم ثم قلنا للملائكة

ولا يقرون بها روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه حين حضره الموت قال فى وصيته لعمر
ابن الخطاب إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم
وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة
باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا قوله عز وجل
(ولقد مكناكم فى الأرض) يعنى ولقد مكناكم أيها الناس فى الأرض والمراد من التمكين التمليك
وقيل معناه جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو قدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش)
جمع معيشة يعنى به جميع وجوه المنافع التى تحصل بها الأرزاق وتعيشون بها أيام حياتكم
وهى على قسمين: أحدهما ما أنعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وأنواع المآكل
والمشارب. والثانى ما يتحصل من المكاسب والأرباح فى أنواع التجارات والصنائع وكلا
القسمين فى الحقيقة إنما يحصل بفضل الله وإنعامه وإقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك
أن جميع معايش العالم إنعام من الله تعالى على عباده وكثرة الإنعام توجب الطاعة للمنعم
بها والشكر له عليها ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال على عباده وإنعامه عليهم لا يقومون بشكره
كما ينبغى فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) يعنى على ما صنعت إليكم وأنعمت به عليكم
وفيه دليل على أنهم قد يشكرون لأن الإنسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو فى
بعض الأوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر
وهو نسيان النعمة وسترها. قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) يعنى ولقد خلقناكم
أيها الناس المخاطبون بهذا الخطاب وقت نزوله فى ظهر أبيكم آدم ثم صورناكم فى أرحام
النساء صورا مخلوقة. فان قلت على هذا التفسير يكون قوله «ثم قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم» يقتضى الأمر بالسجود كان وقع بعد خلق المخاطبين بهذا الخطاب وتصويرهم لأن
كلمة ثم للتراخى ومعلوم أن الأمر ليس كذلك بل كان السجود لآدم عليه الصلاة والسلام قبل
خلق ذريته. قلت يحتمل أن يكون المعنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم أيها المخاطبون ثم أخبرناكم
أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فتكون كلمة ثم تفيد ترتيب خبر على خبر ولا تفيد ترتيب
المخبر به على الخبر وقيل فى معنى الآية ولقد خلقناكم يعنى آدم ثم صورناكم يعنى ذريته
وهذا قول ابن عباس وقال مجاهد ولقد خلقناكم يعنى آدم ثم صورناكم يعنى فى ظهره وعلى
هذين القولين إنما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم أو لأنه أبو البشر فكان فى خلقه خلق
من يخرج من صلبه وقيل إن الخلق والتصوير يرجع إلى آدم عليه الصلاة والسلام وحده والمعنى
ولقد خلقناكم يعنى آدم حكمنا بخلقه ثم صورناكم يعنى آدم صورة من طين (ثم قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم) يعنى بعد إكمال خلقه وقد تقدم فى سورة البقرة الكلام فى معنى هذا السجود وأنه كان على سبيل
التحية والتعظيم لآدم لا حقيقة السجود وقيل بل كان حقيقة السجود وأن المسجود له هو الله تعالى
وإنما كان آدم كالقبلة للساجدين وقيل بل كان المسجود له وكان ذلك بأمر الله تعالى وهل كان هذا الأمر
بالسجود لجميع الملائكة أو لبعضهم فيه خلاف تقدم ذكره فى سورة البقرة. وقوله تعالى

(فسجدوا) يعنى الملائكة (إلا إبليس) يعنى فسجد الملائكة لآدم إلا إبليس (لم يكن من الساجدين) يعنى له وظاهر الآية يدل على أن إبليس كان من الملائكة لأن الله تعالى استثناه منهم وكان الحسن يقول إن إبليس لم يكن من الملائكة لأنه خلق من نار والملائكة من نور وإنما استثناه من الملائكة لأنه كان مأمورا بالسجود لآدم مع الملائكة فلما لم يسجد أخبر الله تعالى عنه أنه لم يكن من الساجدين لآدم فلهذا استثناه منهم . قوله تعالى (قال ما منعك أن تسجد إذ أمرتك) يعنى قال الله عز وجل لإبليس أى شىء منعك من السجود لآدم إذ أمرتك به فعلى هذا التأويل تكون كلمة لا فى قوله أن لا تسجد صلة زائدة وإنما دخلت للتوكيد والتقدير ما منعك أن تسجد فهو كقوله «لا أقسم» وقوله «وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون» أى يرجعون وقوله «لئلا يعلم أهل الكتاب» أى يعلم أهل الكتاب وهذا قول الكسائى والفراء والزجاج والأكثرين وقيل إن كلمة لا هنا على أصلها مفيدة وليست زائدة لأنه لا يجوز أن يقال إن كلمة من كتاب الله زائدة أو لا معنى لها وعلى هذا القول حكى الواحدى عن أحمد بن يحيى أن لا فى هذه الآية ليست زائدة ولا توكيدا لأن معنى قوله «ما منعك أن لا تسجد» من قال لك لا تسجد فحمل نظم الكلام على معناه وهذا القول حكاه أبو بكر عن الفراء وقال الطبرى الصواب فى ذلك أن يقال إن فى الكلام محذوفا تقديره ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد فترك ذكر أحوجك استغناء عنه بمعرفة السامعين به ونقل الإمام فخر الدين الرازى عن القاضى قال ذكر الله تعالى المنع وأراد الداعى فكأنه قال ما دعاك إلى أن لا تسجد لأن مخالفة الله تعالى عظيمة يتعجب منها ويسئل عن الداعى إليها . فان قلت لم سأله عن المانع له من السجود وهو أعلم به . قلت إنما سأله للتوبيخ والتقريع له ولإظهار معاندته وكفره وافتخاره بأصله وحسده لآدم عليه الصلاة والسلام ولذلك لم يتب الله عليه (قال) يعنى قال إبليس مجيبا لله تعالى عما سأله عنه (أنا خير منه) . فان قلت قوله أنا خير منه ليس بجواب عما سأله عنه فى قوله تعالى «ما منعك أن لا تسجد» فلم يجب بما منعه من السجود فانه كان ينبغى له أن يقول منعنى كذا وكذا ولكنه قال أنا خير منه . قلت استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وفيها دليل على موضع الجواب وهو قوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار خير من الطين وأنور وإنما قال أنا خير منه لما رأى أنه أشد منه قوة وأفضل منه أصلا وذلك لفضل الجنس الذى خلق منه وهو النار على الطين الذى خلق منه آدم عليه الصلاة والسلام فجهل عدو الله إبليس وجه الحق وأخطأ طريق الصواب لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب وهذا الذى حمل الخبيث إبليس مع الشقاء الذى سبق له من الله تعالى فى الكتاب السابق على الاستكبار على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام والاستخفاف بأمر ربه فأورده ذلك العطب والهلاك ومن المعلوم أن فى جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت وهذا كان الداعى لآدم عليه الصلاة والسلام مع السعادة السابقة التى سبقت له من الله تعالى فى الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان أول من قاس إبليس فأخطأ وقال ابن سيرين أيضا ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس وأصل هذا القياس الذى قاسه إبليس لعنه الله تعالى لما رأى أن النار أفضل من الطين وأقوى فقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين

اسجدوا ثم صورنا ثم قوله تعالى (فسجدوا) يعنى الملائكة (إلا إبليس لم يكن من الساجدين) لآدم (قال) الله تعالى يا إبليس (ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك) أى ما منعك أن تسجد ولا زائدة كقوله تعالى وحرام على قرية أهلكناهم أنهم لا يرجعون (قال) إبليس مجيبا له (أنا خير منه) لأنك (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار خير وأنور من الطين قال ابن عباس أول من قاس إبليس فأخطأ القياس فمن قاس الدين بشىء من رأيه قرنه الله مع إبليس قال ابن سيرين ما عبدت الشمس إلا بالقياس قال محمد بن جرير ظن الخبيث أن النار خير من الطين ولم يعلم أن الفضل لمن جعل الله له الفضل وقد فضل الطين على النار وقالت الحكماء للطين فضل على النار من وجوه منها أن من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعى لآدم بعد السعادة التى سبق له إلى التوبة والتواضع والتضرع فأورثه الاجتباء والتوبة والهداية ومن جوهر النار الخفة والطيش والجرأة والارتفاع وهو الداعى لإبليس بعد الشقاوة التى سبقت له إلى الاستكبار والإصرار فأورثه اللعنة والشقاوة ولأن الطين سبب جمع الأشياء

والنار سبب تفرقها ولأن التراب سبب الحياة لأن حياة الأشجار والنبات به والنار سبب الهلاك قوله تعالى (قال فاهبط منها) أى من الجنة وقيل من السماء إلى الأرض وكان له ملك الأرض فأخرجه منها إلى جزائر البحر وعرشه فى البحر الأخضر فلا يدخل الأرض إلا خائفا على هيئة السارق مثل شيخ عليه أطمار يروع فيها حتى يخرج منها قوله تعالى (فما يكون لك أن تتكبر) بمخالفة الأمر (فيها) أى فى الجنة ولا ينبغى أن يسكن الجنة ولا السماء متكبر مخالف لأمر الله (فاخرج إنك من الصاغرين) من الأذلاء والصغار الذل والمهانة (قال) إبليس عند ذلك (أنظرنى) أخرنى وأمهلنى فلا تمتنى (إلى يوم يبعثون) من قبورهم وهو النفخة الآخرة عند قيام الساعة أراد الخبيث أن لا يذوق الموت (قال) الله تعالى (إنك من المنظرين) المؤخرين وبين مدة النظر والمهلة فى موضع آخر فقال «إلى يوم الوقت المعلوم» وهو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم (قال فبما أغويتنى) اختلفوا فى ما قيل هو استفهام يعنى فبأى شىء أغويتنى ثم ابتدأ فقال لأقعدن لهم وقيل هو ما الجزاء أى لأجل أنك أغويتنى أقعدن لهم وقيل هو ما المصدر موضع القسم تقديره فباغوائك إياى لأقعدن لهم كقوله بما غفر لى ربى يعنى بغفران ربى والمعنى بقدرتك على ونفاذ سلطانك وقال ابن الأنبارى أى فبما أوقعت فى قلبى من الغى الذى كان سبب هبوطى من السماء أغويتنى أى أضللتنى عن الهدى وقيل أهلكتنى وقيل خيبتنى (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أى لأجلسن لبنى آدم على طريقك القويم وهو الإسلام بطريق

ولم يدر أن الفضل لمن جعله الله فاضلا وأن الأفضلية والخيرية لا تحصل بسبب فضيلة الأصل والجوهر وأيضا الفضيلة إنما تحصل بسبب الطاعة وقبول الأمر، فالمؤمن الحبشى خير من الكافر القرشى فالله تعالى خص صفيه آدم عليه الصلاة والسلام بأشياء لم يخص بها غيره وهو أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية إلى غير ذلك مما خص الله تعالى به آدم عليه الصلاة والسلام للعناية التى سبقت له فى القدم وأورث إبليس كره اللعنة والطرد للشقاوة التى سبقت له فى القدم. وقوله تعالى (قال فاهبط منها) يعنى قال الله تعالى لإبليس لعنه الله اهبط من الجنة وقيل من السماء إلى الأرض والهبوط الإنزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف (فما يكون لك أن تتكبر فيها) يعنى فليس لك أن تستكبر فى الجنة عن أمرى وطاعتى لأنه لا ينبغى أن يسكن فى الجنة أو فى السماء متكبر مخالف لأمر الله عز وجل فأما غير الجنة والسماء فقد يسكنها المستكبر عن طاعة الله تعالى وهم الكفار الساكنون فى الأرض (فاخرج إنك من الصاغرين) يعنى إنك من الأذلاء المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الأرض فأخرجه الله تعالى منها إلى جزائر البحر الأخضر وعرشه عليه فلا يدخل الأرض إلا خائفا كهيأة السارق مثل شيخ عليه أطمار رثة يروع فيها حتى يخرج منها (قال) يعنى قال إبليس عند ذلك (أنظرنى) يعنى أخرنى وأمهلنى فلا تمتنى (إلى يوم يبعثون) يعنى من قبورهم وهى النفخة الآخرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة الخبيث إبليس لعنه الله لأنه سأل ربه الإمهال وقد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله تعالى إلى البقاء فى الدنيا ولكنه كره أن يكون ذائقا للموت فطلب البقاء والخلود فلم يجب إلى ما سأل بل (قال) الله تعالى له (إنك من المنظرين) يعنى من المؤخرين الممهلين وقد بين الله تعالى مدة النظرة والمهلة فى سورة الحجر فقال تعالى «إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» وذلك هو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم. فان قلت فما وجه قولك إنك من المنظرين وليس أحد ينظر سواه. قلت معناه إن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بآجالهم فهو منهم (قال) يعنى إبليس (فبما أغويتنى) يعنى فبأى شىء أضللتنى فعلى هذا تكون ما استفهامية وتم الكلام عند قوله أغويتنى ثم ابتدأ فقال (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقيل هى باء القسم تقديره فباغوائك إياى وقيل معناه فبما أوقعت فى قلبى الغى الذى كان سبب هبوطى إلى الأرض من السماء وأضللتنى عن الهدى لأقعدن لهم صراطك المستقيم يعنى لأجلسن على طريقك القويم وهو طريق الإسلام وقيل المراد بالصراط المستقيم الطريق الذى يسلكونه إلى الجنة وذلك بأن أوسوس إليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم وقيل المراد بالصراط المستقيم هنا طريق مكة يعنى يمنعهم من الهجرة وقيل المراد به الحج والقول الأول أولى لأنه يعم الجميع ومعنى الآية لأردن بنى آدم عن عبادتك وطاعتك ولأغوينهم ولأضلنهم كما أضللتنى عن سبرة بن أبى الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة فقعد له فى طريق الإسلام فقال تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك فعصاه وأسلم وقعد له

بطريق الهجرة فقال تهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول فعصاه
فهاجر وقعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة
ويقسم المال فعصاه فجاهد قال فمن فعل ذلك كان حقا على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان
حقا على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة » أخرجه النسائى
وقوله تعالى إخبارا عن إبليس (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم)
قال ابن عباس من بين أيديهم يعنى من قبل الآخرة فأشككهم فيها ومن خلفهم يعنى من قبل
الدنيا فأرغبهم فيها وعن أيمانهم يشبه عليهم أمر دينهم وعن شمائلهم أشهى لهم المعاصى وإنما
جعل الآخرة من بين أيديهم فى هذا القول لأنهم منقلبون إليها وصائرون إليها فعلى هذا
الاعتبار فالدنيا خلفهم لأنهم وراء ظهورهم وقال ابن عباس فى رواية عنه من بين أيديهم
من قبل دنياهم يعنى أزينها فى قلوبهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فأقول لابعث ولانشور ولا
جنة ولانار وعن أيمانهم من قبل حسناتهم وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم وإنما جعل الدنيا
من بين أيديهم فى هذا القول لأن الإنسان يسعى فيها ويشاهدها فهى حاضرة بين يديه والآخرة
غائبة عنه فهى خلفه وقال الحكم بن عتبة من بين أيديهم يعنى من قبل الدنيا فأزينها لهم ومن
خلفهم من قبل الآخرة فأثبطهم عنها وعن إيمانهم يعنى من قبل الحق فأصدهم عنه وعن
شمائلهم من قبل الباطل فأزينه لهم وقال قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لابعث ولا
جنة ولانار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن إيمانهم من قبل حسناتهم
فبطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها أتاك يا ابن آدم من كل
وجه غير أنه لم يأتك من فوقك فلم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله تعالى وقال مجاهد
يأتيهم من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لايبصرون
ومعنى هذا من حيث يخطئون ويعلمون أنهم يخطئون ومن حيث لايبصرون أنهم يخطئون ولا
يعلمون أنهم يخطئون وقيل من بين أيديهم يعنى فيما بقى من أعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة
ومن خلفهم يعنى ما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عما أسلفوا فيه من معصية عن أيمانهم يعنى
من قبل الغنى فلا ينفقون ولايشكرون ومن خلفهم يعنى من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من
محظور نالوه وقال شقيق البلخى ما من صباح إلا ويأتينى الشيطان من الجهات الأربع من بين
يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى أما بين يدى فيقول لاتخف إن الله غفور رحيم فأقرأ
وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وأما من خلفى فيخوفنى من وقوع أولادى
فى الفقر فأقرأ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها وأما من قبل يمينى فيأتينى من الثناء
فأقرأ والعاقبة للمتقين وأما عن قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ وحيل بينهم وبين
مايشتهون وقيل إن ذكر هذه الجهات الأربع إنما أريد بها التأكيد والمبالغة فى إلقاء الوسوسة
فى قلب ابن آدم وأنه لايقصر فى ذلك ومعنى الآية على هذا القول ثم لآتينهم من جميع الوجوه
الممكنة لجميع الاعتبارات وقوله (ولاتجد أكثرهم شاكرين) يعنى ولاتجد يارب أكثرهم
بنى آدم شاكرين على نعمك التى أنعمت بها عليهم وقال ابن عباس معناه ولاتجد أكثرهم
موحدين . فان قلت كيف علم الخبيث إبليس ذلك حتى قال ولاتجد أكثرهم شاكرين .

(ثم لآتينهم من بين أيديهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس من بين أيديهم أى من قبل الآخرة فأشككهم فيها (ومن خلفهم) أرغبهم فى دنياهم (وعن أيمانهم) أشبه عليهم أمر دينهم (وعن شمائلهم) أشهى لهم المعاصى وروى عطية عن ابن عباس من بين أيديهم من قبل دنياهم يعنى أزينها فى قلوبهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فأقول لابعث ولا جنة ولا نار وعن أيمانهم من قبل حسناتهم وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم وقال الحكم من بين أيديهم من قبل الدنيا يزينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة يثبطهم عنها وعن أيمانهم من قبل الحق يصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل يزينه لهم وقال قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لابعث ولا جنة ولانار ومن خلفهم من أمور الدنيا يزينها لهم ويدعوهم إليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله وقال مجاهد من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم من حيث لايبصرون وقال ابن جريج معنى قوله حيث لايبصرون أى لايخطئون حيث يعلمون أنهم يخطئون وحيث لايبصرون أى لايعلمون أنهم يخطئون (ولاتجد أكثرهم شاكرين)

مؤمنين فان قيل كيف علم الخبيث ذلك قيل قاله ظنا فأصاب قال الله ولقد صدق عليهم إبليس ظنه (قال) الله تعالى لإبليس (اخرج منها مذءوما مدحورا) أى معيبا والذأم والذام أشد العيب يقال ذأمه يذأمه ذأما فهو مذءوم وذامه يذيمه ذاما فهو مذيم مثل سار يسير سيرا والمدحور المبعد المطرود يقال دحره يدحره دحرا إذا أبعده وطرده قال ابن عباس مذءوما أى ممقوتا قال قتادة مذءوما مدحورا أى لعينا شقيا وقال الكلبى مذءوما مدحورا مقصيا من الجنة ومن كل خير (لمن تبعك منهم) من بنى آدم (لأملأن جهنم) اللام لام القسم (منكم أجمعين) أى منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم أجمعين (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان) أى إليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان فى قلب الإنسان (ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما) أى ليظهر لهما ماغطى وستر عنهما من عوراتهما قيل اللام فيه لام العاقبة وذلك أن إبليس لم يوسوس لهذا ولكن كان عاقبة أمرهم ذلك وهو ظهور عورتهما كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ثم بين الوسوسة فقال

قلت قاله ظنا فأصاب ومنه قوله تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه وقيل أنه كان عازما على المبالغة فى تزيين الشهوات وتحسين القبائح وعلم ميل بنى آدم إلى ذلك فقال هذه المقالة وقيل أنه رآه مكتوبا فى اللوح المحفوظ فقال هذه المقالة على سبيل اليقين والقطع والله أعلم بمراده. قوله عز وجل (قال اخرج منها) أى قال الله تعالى لإبليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وذلك بسبب مخالفته وعصيانه أخرج منها يعنى من الجنة فانه لاينبغى أن يسكن فيها العصاة (مذؤما) يعنى معيبا والذام أشد العيب (مدحورا) يعنى مطرودا مبعدا وقال ابن عباس صغيرا ممقوتا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال الكلبى ملوما مقصيا من الجنة ومن كل خير (لمن اتبعك منهم) يعنى من بنى آدم (لأملأن جهنم منكم أجمعين) اللام لام القسم أقسم الله تعالى أن من تبع إبليس من بنى آدم وأطاعه منهم. قوله تعالى (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وذلك بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه وطرده من الجنة (فكلا من حيث شئتما) يعنى فكلا من ثمار الجنة من رأى مكان شئتما. فان قلت قال فى سورة البقرة وكلا بالواو وقال هنا فكلا بالفاء فما الفرق. قلت قال الإمام فخر الدين الرازى إن الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولامنافاة بين النوع والجنس ففى سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) تقدم فى سورة البقرة الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى. قوله تعالى (فوسوس لهما الشيطان) يعنى فوسوس إليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان فى قلب الإنسان يقال وسوس إذا تكلم كلاما خفيا مكررا وأصله من صوت الحلى ومعنى وسوس لهما فعل الوسوسة وألقاها إليهما. فان قلت كيف وسوس إليهما وآدم وحواء فى الجنة وإبليس قد أخرج منها. قلت ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى الجواب عن هذا السؤال عن الحسن أنه قال كان يوسوس فى الأرض إلى السماء إلى الجنة بالقوة القوية التى جعلها الله تعالى له قوله وقال أبو مسلم الأصبهانى بل كان آدم وإبليس فى الجنة لأن هذه الجنة كانت بعض جنات الأرض والذى يقوله بعض الناس من أن إبليس دخل فى جوف الحية فدخلت به الحية إلى الجنة فقصة مشهورة ركيكة وقال آخرون أن آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة وكان إبليس واقفا من خارج الجنة على بابها فقرب أحدهما من الآخر فحصلت الوسوسة هناك. فان قلت إن آدم عليه الصلاة والسلام قد عرف مابينه وبين إبليس من العداوة فكيف قبل قوله. قلت يحتمل أن يقال أن إبليس لقى آدم مرارا كثيرة ورغبة فى أكل هذه الشجرة بطرق كثيرة منها رجاء نيل الخلد ومنها قوله وقاسمهما «إنى لكما لمن الناصحين» فلأجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلام إبليس فى آدم حتى أكل من الشجرة (ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما) يعنى ليظهر لهم ماغطى وستر عوراتهما وقوله ماورى مأخوذ من المواراة وهى الستر يقال واريته بمعنى سترته والسوأة فرج الرجل والمرأة سمى بذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان وفى الآية دليل على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات واللام فى قوله ليبدى لهما لام العاقبة وذلك لأن إبليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما وإنما كان حملهما على المعصية فقط فكان عاقبة أمرهما إن بدت عوراتهما

(وقال) إبليس لآدم وحواء (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين) يعنى إلا كراهية أن تكونا من الملائكة يعلمان الخير والشر (أو تكونا من الخالدين) من الباقين الذين لايموتون كما قال فى موضع آخر هل أدلك على شجرة الخلد (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) أى وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التى تختص بالواحد وقال قتادة حلف لهما بالله حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال إنى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتباعانى ورشدكما وإبليس أول من حلف بالله كاذبا فلما حلف ظن آدم أن أحدا لايحلف بالله إلا صادقا فاغتر به (فدلاهما بغرور) أى خدعهما يقال مازال إبليس يدل فلانا بالغرور يعنى مازال يخدعه ويكلمه بزخرف باطل من القول وقيل حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية ولا يكون التدلى إلا من علو إلى أسفل والتدلية إرسال الدلو فى البئر يقال تدلى بنفسه ودعا غيره وقال الأزهرى أصله من تدلية العطشان فى البئر ليروى من الماء ولايجد الماء فيكون تدلى بالغرور عن إظهار النصح مع إبطان الغش (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما) قال الكلبى فلما أكلا منها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قبل أن ازدردا أخذتهما العقوبة والعقوبة إن بدت ظهرت لهما سوآتهما عوراتهما وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ماوورى عنه من عورة صاحبه وكان لايريان ذلك . قال وهب كان لباسهما من النور وقال قتادة كان ظفرا ألبسهما الله من الظفر لباساً فلما وقعا فى الذنب بدت لهما سوآتهما فاستحيا (وطفقا) أقبلا وجعلا (يخصفان) يرقعان ويلزقان ويصلان (عليهما من ورق الجنة) وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب . قال الزجاج يجعلان

(وقال) يعنى وقال إبليس لآدم وحواء (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة) يعنى عن الأكل من هذه الشجرة (إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) يعنى إنما نهاكما عن هذه الشجرة لكى لا تكونا ملكين من الملائكة تعلمان الخير والشر أو تكونا من الباقين الذين لايموتون وإنما أطمع إبليس آدم بهذه الآية لأنه علم أن الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش فاستشرف لذلك آدم وأحب أن يعيش مع الملائكة لطول أعمارهم أو يكون مع الخالدين الذين لايموتون أبدا . فان قلت ظاهر الآية يدل على أن الملك أفضل من الأنبياء لأن آدم عليه الصلاة والسلام طلب أن يكون من الملائكة وهذا يدل على فضلهم عليه . قلت ليس فى ظاهر الآية مايدل على ذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام لما طلب أن يكون من الملائكة كان ذلك الطلب قبل أن يتشرف بالنبوة وكانت هذه الواقعة قبل نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فطلب أن يكون من الملائكة أومن الخالدين وعلى تقدير أن تكون هذه الواقعة فى زمان النبوة بعد أن شرف بها آدم إنما طلب أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم لا لأنهم أفضل منه حتى يلتحق بهم فى الفضل لأنه طلب إما أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم أو من الخالدين الذين لايموتون أبدا وقوله تعالى (وقاسمهما) أى وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التى تختص بالواحد (إنى لكما لمن الناصحين) قال قتادة حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال إنى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشدكما وقال بعض العلماء من خادعنا بالله خدعنا له (فدلاهما بغرور) يعنى فخدعهما بغرور يقال مازال فلان يدلى فلانا بغرور يعنى مازال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل قال الأزهرى وأصله أن الرجل العطشان يتدلى فى البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لافائدة فيه والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش وهو أن إبليس حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية لأن التدلى لايكون إلا من عاو إلى أسفل ومعنى الآية أن إبليس لعنه الله تعالى غر آدم باليمين الكاذبة وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن أن أحدا لايحلف بالله كاذبا وإبليس أول من حلف بالله كاذبا فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغتر به (فلما ذاقا الشجرة) يعنى طعما من ثمرة الشجرة وفيها دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك قصد إلى معرفة طعمه لأن الذوق يدل على الأكل اليسير (بدت لهما سوآتهما) يعنى ظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس رضى الله عنهما قبل أن ازدردا أخذتهما العقوبة والعقوبة أن ظهرت وبدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما لبسهما حتى أبصر كل واحد منهما ماوورى عنه من عورة صاحبه وكانا لايريان ذلك وقال وهب كان لباسهما من النور لايرى هذا عورة هذه ولاهذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما وقال قتادة كان لباس آدم فى الجنة ظفرا كله فلما وقع فى الذنب قشط عنه وبدت سوآته (وطفقا) يعنى وأقبلا وجعلا (يخصفان عليهما من ورق الجنة) يعنى أنهما لما بدت لهما

ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما وروى عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فى الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها فانطلق هاربا فى الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها أرسلينى قالت لست بمرسلتك فناداه ربه يا آدم أتفر منى قال لا يارب ولكن استحييتك (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) يعنى عن الأكل منها (وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين) أى بين العداوة قال محمد ابن قيس ناداه ربه يا آدم أكلت منها وقد نهيتك قال رب أطعمتنى حواء قال لحواء لم أطعمتيه قالت أمرتنى الحية قال للحية لم أمرتيها قالت أمرنى إبليس فقال الله أما أنت ياحواء فكما أدميت الشجرة فتدمين كل شهر وأما أنت ياحية فأقطع قوائمك فتمشين على بطنك ووجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا إبليس فملعون مدحور (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) ضررناها بالمعصية (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الهالكين

سوآتهما جعلا يرقعان ويلزقان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب وقال الزجاج جعلا ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما وفى الآية دليل على أن كشف العورة من ابن آدم قبيح ألا ترى أنهما بادرا إلى ستر العورة لما تقرر فى عقلهما من قبيح كشفها . روى أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ قال «كان آدم صلى الله عليه وسلم رجلا طويلا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فى الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها فى الجنة فانطلق فارا فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها ارسلينى قالت لست بمرسلتك فناداه ربه يا آدم أمنى تفر قال لا يارب ولكنى استحييتك» ذكره البغوى بغير سند وأسنده الطبرى من طريقين موقوفا ومرفوعا . قوله تعالى (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) يعنى أن الله تعالى نادى آدم وحواء وخاطبهما فقال ألم أنهكما عن أكل ثمرة هذه الشجرة (وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين) يعنى أعلمكما أن الشيطان قد بانت عداوته لكما بترك السجود حسدا وبغيا قال ابن عباس رضى الله عنهما لما أكل آدم من الشجرة قيل له لم أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء أمرتنى قال فانى أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها قال فرنت حواء عند ذلك رنة فقيل لها الرنة عليك وعلى بناتك وقال محمد بن قيس ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال أطعمتنى حواء فقال لحواء لم أطعمتيه قالت أمرتنى الحية فقال للحية لم أمرتها قالت أمرنى إبليس قال الله تعالى أما أنت ياحواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر وأما أنت ياحية فأقطع رجليك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا إبليس فلعون مطرود مدحور يعنى عن الرحمة وقيل ناداه ربه يا آدم أما خلقتك بيدى أما نفخت فيك من روحى أما أسجدت لك ملائكتى أما أسكنتك جنتى فى جوارى . قوله عز وجل (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) وهذا خبر من الله عز وجل عن آدم عليه الصلاة والسلام وحواء عليها السلام واعترافهما على أنفسهما بالذنب والندم على ذلك والمعنى قالا يا ربنا إنا ظلمنا أنفسنا من الإساءة إليها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك مالم يكن لنا أن نطيعه فيه من أكل الشجرة التى نهيتنا عن أكلها (وإن لم تغفر لنا) يعنى وأنت ياربنا إن لم تستر علينا ذنبنا (وترحمنا) يعنى وتتفضل علينا برحمتك (لنكونن من الخاسرين) يعنى من الهالكين . قال قتادة قال آدم يارب أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك قال إذا أدخلك الجنة . وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله أن ينظره فأعطى كل واحد منهما ماسأل وقال الضحاك فى قوله «ربنا ظلمنا أنفسنا» قال هى الكلمات التى تلقاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه عز وجل .

(فصل)

وقد استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية وأجيب عنه بأن درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله عز وجل مما حملهم على الخوف منه والإشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخذ به غيرهم وأنهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهى ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم وسيئات بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصى غيرهم فكان ماصدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحى السماوى والذكر القدسى

وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله عز وجل ذنوبا وهى حسنات بالنسبة إلى غيرهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين يعنى أنهم يرونها بالنسبة إلى أحوالهم كالسيئات وهى حسنات لغيرهم وقد تقدم فى سورة البقرة أن أكل آدم من الشجرة هل كان قبل النبوة أو بعدها ؟ والخلاف فيه فأغنى عن الإعادة والله أعلم . قوله تعالى (قال اهبطوا) قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله إن الذى تقدم ذكره هو آدم وحواء وإبليس فقوله اهبطوا يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة وقال الطبرى قال الله تعالى لآدم وحواء وإبليس والحية اهبطوا يعنى من السماء إلى الأرض قال السدى رحمه الله قوله تعالى «اهبطوا» يعنى إلى الأرض آدم وحواء وإبليس والحية (بعضكم لبعض عدو) يعنى أن العداوة ثابتة بين آدم وإبليس والحية وذرية كل واحد من آدم وإبليس (ولكم فى الأرض مستقر) يعنى موضع قرار تستقرون فيه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى «ولكم فى الأرض مستقر» يعنى القبور (ومتاع إلى حين) يعنى ولكم فيها متاع تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا أو إلى انقضاء آجالكم ومعنى الآية أن الله عز وجل أخبر آدم وحواء وإبليس والحية أنه إذا أهبطهم إلى الأرض فان بعضهم لبعض عدو وأن لهم فى الأرض موضع قرار يستقرون فيه إلى انقضاء آجالهم ثم يستقرون فى قبورهم إلى انقطاع الدنيا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى «ومتاع إلى حين» يعنى إلى يوم القيامة وإلى انقطاع الدنيا (قال فيها تحيون) يعنى قال الله عز وجل لآدم وذريته وإبليس وأولاده فيها تحيون يعنى فى الأرض تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) يعنى وفى الأرض تكون وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) يعنى ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة . قوله عز وجل (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم) اعلم أن الله عز وجل لما أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعلها مستقرا لهم أنزل عليهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح الدين والدنيا فكان مما أنزل عليهم اللباس الذى يحتاج إليه فى الدين والدنيا فأما منفعته فى الدين فانه يستر العورة وسترها شرط فى صحة الصلاة وأما منفعته فى الدنيا فانه يمنع الحر والبرد فامتن الله على عباده بأن أنزل عليهم لباسا يوارى سوآتهم فقال تعالى «يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم» يعنى لباسا تسترون به عوراتكم . فان قلت ما معنى قوله قد أنزلنا عليكم لباسا . قلت ذكر العلماء فيه وجوها أحدها أنه بمعنى خلق أى خلقنا لكم لباسا أو بمعنى رزقناكم لباسا. الوجه الثانى أن الله تعالى أنزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكأنه أنزله عليهم. الوجه الثالث أن جميع بركات الأرض تنسب إلى السماء وإلى الإنزال كما قال تعالى وأنزلنا الحديد (وريشا) الريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للإنسان فاستعير للإنسان لأنه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسين لباسا يوارى سوآتكم ولباسا لزينتكم لأن التزين غرض صحيح كما قال تعالى «لتركبوها وزينة» وقال «ولكم فيها جمال» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال» واختلفوا فى معنى الريش المذكور فى الآية فقال ابن عباس رضى الله عنهما وريشا يعنى مالا وهو قول مجاهد والضحاك والسدى لأن المال مما يتزين به ويقال تريش الرجل إذا تمول وقال ابن زيد الريش

(قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون) يعنى فى الأرض تعيشون (وفيها تموتون ومنها تخرجون) أى من الأرض تخرجون من قبوركم للبعث ■ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى تخرجون بفتح التاء هاهنا وفى الزخرف وافق يعقوب هاهنا وزاد حمزة والكسائى وكذلك تخرجون فى أول الروم والباقون بضم التاء وفتح الراء فيهن قوله تعالى (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم) أى خلقنا لكم (لباساً) وقيل إنما قال أنزلنا لأن اللباس يكون من نبات الأرض والنبات يكون بما ينزل من السماء فمعنى قوله أنزلنا أى أنزلنا أسبابه وقيل كل بركات الأرض منسوبة إلى السماء كما قال تعالى «وأنزلنا الحديد» وإنما يستخرج الحديد من الأرض وسبب نزول هذه الآية أنهم كانوا فى الجاهلية يطوفون بالبيت عراة يقولون لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة قال قتادة كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله

وما بدا منه فلا أحله

فأمر الله سبحانه بالستر فقال قد أنزلنا عليكم لباسا (يوارى سوآتكم) يستر عوراتكم واحدتها سوأة سميت بها لأنه يسوء صاحبها انكشافها فلا تطوفوا عراة (وريشا) يعنى مالا فى قول ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى يقال تريش الرجل

قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائى ولباس بنصب السين عطفا على قوله لباسا وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره خير وجعلوا ذلك صلة فى الكلام ولذلك قرأ ابن مسعود وأبى بن كعب «ولباس التقوى خير» واختلفوا فى لباس التقوى قال قتادة والسدي التقوى هو الإيمان وقال الحسن هو الحياء لأنه يبعث عن التقوى وقال عطاء عن ابن عباس هو العمل الصالح وعن عثمان بن عفان أنه هو السمت الحسن وقال عروة بن الزبير لباس التقوى خشية الله وقال الكلبي هو العفاف والمعنى لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به مما خلق له من اللباس التجمل وقال ابن الأنبارى لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخبار أن ستر العورة خير من التعرى فى الطواف وقال زيد بن على لباس التقوى الآلات التى يتقى بها فى الحرب كالدرع والمغفر والساعد والساقين وقيل لباس التقوى هو الصوف والثياب الخشنة التى يلبسها أهل الورع (ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يابنى آدم لايفتننكم الشيطان) لايضلنكم الشيطان (كما أخرج أبويكم) أى كما فتن أبويكم آدم وحواء فأخرجهما (من الجنة ينزع عنهما لباسهما

الجمال وهو يرجع إلى الزينة أيضا وقيل إن الرياش فى كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب والمتاع مما يلبس أو يفرش والريش أيضا المتاع والأموال عندهم وربما استعملوه فى الثياب والكسوة دون سائر المال يقال أنه لحسن الريش أو لحسن الثياب وقيل الريش والرياش يستعمل أيضا فى الخصب ورفاهية العيش (ولباس التقوى) اختلف العلماء فى معناه فنهم من حمله على نفس الملبوس وحقيقته، ومنهم من حمله على المجاز أما من حمله على نفس الملبوس فاختلفوا أيضا فى معناه فقال ابن الأنبارى لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخبارا إن ستر العورة من التقوى وذلك خير. وقيل إنما أعاده لأجل أن يخبر عنه بأنه خير لأن العرب فى الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعرى وخلع الثياب فى الطواف بالبيت فأخبر أن ستر العورة فى الطواف هو لباس التقوى وذلك خير وقال زيد بن على رحمه الله تعالى لباس التقوى آلات الحرب التى يتقى بها فى الحروب كالدروع والمغفر ونحو ذلك وقيل لباس التقوى هو الصوف والخشن من الثياب التى يلبسها أهل الزهد والورع وقيل هو ستر العورة فى الصلاة وأما من حمل لباس التقوى على المجاز فاختلفوا فى معناه فقال قتادة والسدى لباس التقوى هو الإيمان لأن صاحبه يتقى به من النار وقال ابن عباس رضى الله عنهما لباس التقوى هو العمل الصالح وقال الحسن رضى الله عنه هو الحياء لأنه يحث على التقوى وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لباس التقوى هو السمت الحسن وقال عروة بن الزبير رضى الله عنه لباس التقوى خشية الله وقال الكلبي هو العفاف فعلى هذه الأقوال أن لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به مما خلق الله له من لباس التجمل وزينة الدنيا وهو قوله تعالى (ذلك خير) يعنى لباس التقوى خير من لباس الجمال والزينة وأنشدوا فى المعنى.

إذا أنت لم تلبس ثيابا من التقى عريت وإن وارى القميص قميص

وقوله تعالى (ذلك من آيات الله) يعنى أنزل اللباس عليكم يابنى آدم من آيات الله الدالة على معرفته وتوحيده (لعلهم يذكرون) يعنى لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكرونها. قوله تعالى (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) قيل هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم فى الطواف وإنما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة إبليس له ليحذر بذلك أولاد آدم فقال تعالى «يا بنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة» يعنى آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام والمعنى أن من قدر على إخراج أبويكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته فبأن يقدر على فتنتكم بطريق الأولى فحذر الله عز وجل بنى آدم وأمرهم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه القبائح وتحسينه الأفعال الرديئة فى قلوب بنى آدم فهذه فتنته التى نهى الله تعالى عباده عنها وحذرهم منها. قوله تعالى (ينزع عنهما لباسهما) إنما أضاف نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك لأن نزع لباسهما كان بسبب وسوسة الشيطان وغروره فأسند إليه، واختلفوا فى اللباس الذى نزع عنهما فقال ابن عباس رضى الله عنهما كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وبقيت الاظفار تذكرة وزينة ومنافع وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى كان لباس آدم وحواء نورا وقال مجاهد كان لباسهما التقى. وفى رواية عنه التقوى وقيل أن لباسهما

من ثياب الجنة وهذا القول أقرب لأن إطلاق اللباس ينصرف إليه ولأن النزع لا يكون إلا بعد اللبس (ليريهما سوآتهما) يعني ليرى آدم عورة حواء ويرى حواء عورة آدم وكان قبل ذلك لا يرى بعضهم سوءة بعض (إنه يراكم هو وقبيله) يعني أن إبليس يراكم يابني آدم هو وقبيله إنما أعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضا وقال الليث كل جيل من جن أو إنس قبيل ومعنى يراكم هو وقبيله أي من هو من نسله وحكى أبو عبيد عن أبي يزيد القبيل: ثلاثة فصاعدا من قوم شتى والجمع قبل والقبيلة بنو أب واحد وقال الطبري قبيله يعني صنفه وجيله الذي هو منهم وهو واحد يجمع على قبل وهم الجن وقال مجاهد الجن والشياطين وقال ابن يزيد قبيله نسله وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو ولده وقوله (من حيث لا ترونهم) يعني أنتم يا بني آدم قال العلماء رحمهم الله إن الله تعالى خلق في عيون الجن إدراكا يرون بذلك الإدراك الإنس ولم يخلق في عيون الإنس هذا الإدراك فلم يروا الجن وقالت المعتزلة الوجه في أن الإنس لا يرون الجن رقة أجسام الجن ولطافتها والوجه في رؤية الجن للإنس كثافة أجسام الإنس والوجه في رؤية الجن بعضهم بعضا أن الله تعالى قوى شعاع أبصار الجن وزاد فيها حتى يرى بعضهم بعضا ولو جعل في أبصارنا هذه القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى» كما قال تعالى الذي يوسوس في صدور الناس فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم وقال مجاهد قال إبليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله تعالى (إنا جعلنا الشياطين أولياء) يعني أعوانا وقرناء (الذين لا يؤمنون) قال الزجاج يعني سلطناهم عليهم يزيدون في غيهم. قوله عز وجل (وإذا فعلوا فاحشة) قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد هي طوافهم بالبيت عراة الرجال والنساء وقال عطاء هي الشرك والفاحشة اسم لكل قبيح فيدخل فيه جميع المعاصي والكبائر فيمكن حملها على الإطلاق وإن كان السبب مخصوصا بما ورد من طوافهم عراة ولما كانت هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها ويعتقدون أنها طاعات وهي في نفسها فواحش ذمهم الله تعالى عليها ونهاهم عنها فاحتجوا عن هذه الأفعال بما أخبر الله عنهم وهو قوله تعالى (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) فذكروا لأنفسهم عذرين أحدهما محض التقليد وهو قولهم وجدنا على هذا الفعل آباءنا وهذا التقليد باطل لأنه لا أصل له والعذر الثاني قولهم والله أمرنا بها وهذا العذر أيضا باطل وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) والمعنى أن هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكرة فكيف يأمر الله تعالى بها والله لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بما فيه مصالح العباد ثم قال تعالى ردا عليهم (أتقولون على الله ما لا تعلمون) يعني أنكم ما سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون. قوله تعالى (قل أمر ربي بالقسط) أي قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون أمر ربي بالقسط يعني بالعدل

ليريهما سوءاتهما) أي ليرى كل واحد سوأة الآخر (إنه يراكم) يعني أن الشيطان يراكم يابني آدم (هو وقبيله) جنوده قال ابن عباس هو وولده وقال قتادة قبيلة الجن والشياطين (من حيث لا ترونهم) قال مالك بن دينار إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله (إنا جعلنا الشياطين أولياء) قرناء وأعوانا (للذين لا يؤمنون) قال الزجاج سلطناهم عليهم يزيدون في غيهم كما قال «إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا» (وإذا فعلوا فاحشة) قال ابن عباس ومجاهد هي طوافهم بالبيت عراة وقال عطاء: الشرك والفاحشة اسم لكل فعل قبيح بلغ النهاية في القبح (قالوا وجدنا عليها آباءنا) وفيه إضمار معناه وإذا فعلوا فاحشة فنهوا عنها قالوا وجدنا عليها آباءنا وإذا قيل ومن أين أخذ آباؤكم؟ قالوا (والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربي بالقسط)

قال ابن عباس بلا إله إلا الله وقال الضحاك بالتوحيد وقال مجاهد والسدى بالعدل (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) قال مجاهد والسدى يعنى توجهوا حيث ما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة وقال الضحاك إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلى فى مسجدى وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصا (وادعوه) واعبدوه (مخلصين له الدين) الطاعة والعبادة (كما بدأكم تعودون) قال ابن عباس إن الله بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا كما قال «هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنا (٢٢٢) وكافرا قال جابر: يبعثون على ما ماتوا عليه أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى حدثنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفى أنبأنا محمد بن عبد الله الصفار حدثنا أحمد ابن محمد بن عيسى البرتى حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان الثورى عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يبعث كل عبد على ما مات عليه المؤمن على إيمانه والكافر على كفره» وقال أبو العالية عادوا على علمه فيهم قال سعيد بن جبير كما كتب عليكم تكونون. قال محمد بن كعب: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل أعمال أهل السعادة كما أن إبليس كان يعمل بأعمال أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها، وإن عمل بعمل أهل الشقاوة وكما أن السحرة كانت تعمل بعمل أهل الشقاوة فصاروا إلى السعادة أخبرنا عبد الواحد المليحى أنبأنا عبد الرحمن بن أبى شريح أنبأنا أول أبو القاسم البغوى حدثنا على بن الجعد حدثنا أبو غسان عن أبى حازم قال سمعت سهل بن سعد يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن العبد يعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وأنه من أهل النار وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وأنه من أهل الجنة وإنما الأعمال بالخواتيم» وقال الحسن ومجاهد كما بدأكم وخلقكم فى الدنيا ولم تكونوا شيئا كذلك تعودون أحياء يوم القيامة كما بدأنا أول خلق نعيده قال قتادة بدأهم من التراب وإلى التراب يعودون فنظيره قوله تعالى «منها خلقناكم وفيها نعيدكم»

وهذا قول مجاهد والسدى وقال ابن عباس رضى الله عنهما بلا إله إلا الله فالأمر بالقسط فى هذه الآية يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله وأنه واحد لا شريك له (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) فان قلت قل أمر ربى بالقسط خبر وقوله وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد أمر وعطف الأمر على الخبر لا يجوز فما معناه. قلت فيه إضمار وحذف تقديره قل أمر ربى بالقسط وقال «وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد» فحذف فقال لدلالة الكلام عليه ومعنى الآية فى قول مجاهد والسدى: وجهوا وجوهكم حيثما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة وقال الضحاك معناه إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلى فى مسجدى أو فى مسجد قومى وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصا (وادعوه مخلصين له الدين) أى واعبدوه مخلصين العبادة والطاعة والدعاء لله عز وجل لا لغيره (كما بدأكم تعودون) قال ابن عباس رضى الله عنهما إن الله عز وجل بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى «هو الذى خلقكم فمنكم كافرا ومنكم مؤمن» ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا وحجة هذا القول قوله فى سياق الآية «فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة» فانه كالتفسير له ويدل على صحة ذلك ما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يبعث كل عبد على ما مات عليه» أخرجه مسلم زاد البغوى فى روايته المؤمن على إيمانه والكافر على كفره وقال محمد بن كعب من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة كما أن إبليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بأعمال أهل الشقاوة كما أن السحرة كانوا يعملون بعمل أهل الشقاوة ثم صاروا إلى السعادة ويصحح هذا القول ما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة» أخرجه مسلم وقال الحسن ومجاهد فى معنى الآية كما بدأكم فخلقكم فى الدنيا ولم تكونوا شيئا فأحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون أحياء يوم القيامة ويشهد لصحة هذا القول ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا

أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين» أخرجه البخارى ومسلم. وقوله تعالى (فريقا هدى) يعنى هداهم إلى الإيمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته (وفريقا حق عليهم الضلالة) يعنى وخذل فريقا حتى وجبت عليهم الضلالة للسابقة التى سبقت لهم فى الأزل بأنهم أشقياء وفيه دليل على أن الهدى والضلالة من الله عز وجل ولما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» أخرجه الترمذى. وقوله تعالى (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) يعنى أن الفريق الذى حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء وأعوانا أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصى وادعى أن الداعى الذى دعاهم إلى الكفر والمعاصى هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لأن الشياطين لا يقدرون على إضلال أحد. وقوله (ويحسبون أنهم مهتدون) يعنى أنهم مع ضلالتهم يظنون ويحسبون أنهم على هداية وحق وفيه دليل على أن الكافر الذى يظن أنه فى دينه على الحق والجاحد والمعاند فى الكفر سواء. قوله عز وجل (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال «كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة فتقول من يعيرنى تطوافا تجعله على فرجها وهى تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية «خذوا زينتكم عند كل مسجد» أخرجه مسلم وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل» وذكر الحديث زاد فى رواية أخرى عنه فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا وقال مجاهد كان حى من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجا أو معتمرا يقول لا ينبغى لى أن أطوف فى ثوب قد عصيت فيه فيقول من يعيرنى مئزرا فان قدر عليه وإلا طاف عريانا فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون خذوا زينتكم عند كل مسجد وقال الزهرى أن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس وهم قريش وأحلافهم فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه وطاف فى ثوب أحمسى ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه فان لم يجد من يعيره من الحمس فانه يلقى ثيابه ويطوف عريانا وإن طاف فى ثياب نفسه ألقاها إذا قضى طوافه وحرمها أى جعلها حراما عليه فلذلك قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد والمراد من الزينة لبس الثياب التى تستر العورة قال مجاهد ما يورى عوراتكم ولو عباءة وقال الكلبى الزينة ما يوارى العورة عند كل مسجد لطواف وصلاة وقوله تعالى خذوا زينتكم أمر وظاهره الوجوب وفيه دليل على أن ستر العورة واجب فى الصلاة والطواف وفى كل حال. وقوله تعالى (وكلوا واشربوا) قال الكلبى كانت بنو عامر لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يارسول الله فأنزل الله عز وجل وكلوا واشربوا يعنى الدسم واللحم (ولا تسرفوا) يعنى بتحريم مالم يحرمه الله من أكل اللحم والدسم قال ابن عباس رضى الله عنهما «كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة» وقال على بن الحسين بن واقد قد جمع الله الطب كله فى نصف آية فقال «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» وفى الآية دليل على أن جميع المطعومات والمشروبات حلال إلا ما خصه الشرع دليل فى التحريم لأن الأصل فى جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل منفصل (إنه لا يحب المسرفين) يعنى أن الله تعالى لا يحب من

قوله عز وجل (فريقا هدى) أى هداهم الله (وفريقا حق) وجب (عليهم الضلالة) أى بالإرادة السابقة (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) فيه دليل على أن الكافر الذى يظن أنه فى دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء قوله تعالى «يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» قال أهل التفسير كانت بنو عامر يطوفون بالبيت عراة أنزل الله عز وجل يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد يعنى الثياب قال مجاهد ما يوارى عورتك ولو عباءة قال الكلبى الزينة ما يوارى العورة عند كل مسجد لطواف وصلاة (وكلوا واشربوا) قال الكلبى كانت بنو عامر لا يأكلون فى أيام حجهم من الطعام إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يارسول الله فأنزل الله عز وجل وكلوا يعنى اللحم والدسم واشربوا (ولا تسرفوا) بتحريم ما أحل الله لكم من اللحم والدسم (إنه لا يحب المسرفين) الذين يفعلون ذلك قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة قال على بن الحسين بن واقد قد جمع الله الطب كله فى نصف آية فقال «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»

قوله عز وجل (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) يعنى لبس الثياب فى الطواف (والطيبات من الرزق) يعنى اللحم والدسم فى أيام الحج وعن ابن عباس وقتادة والطيبات من الرزق ماحرم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) فيه حذف تقديره هى للذين آمنوا وللمشركين فى الحياة الدنيا فان أهل الشرك يشاركون المؤمنين فى طيبات الدنيا وهى فى الآخرة خالصة للمؤمنين لاحظ للمشركين فيها وقيل هى خالصة يوم القيامة من التنغيص والغم للمؤمنين فانها لهم فى الدنيا مع التنغيص والغم وقرأ نافع خالصة رفع أى قل هى للذين آمنوا مشتركة فى الدنيا خالصة يوم القيامة وقرأ الآخرون بالنصب على القطع (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) يعنى الطواف عراة ماظهر طواف الرجال بالنهار وما بطن طواف النساء بالليل وقيل هو الزنا سرا وعلانية أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد ابن إسماعيل حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى وائل عن عبد الله عنه

إسراف المأكول والمشروب والملبوس وفى هذه الآية وعيد وتهديد لمن أسرف فى هذه الأشياء لأن محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وإيصال الثواب إليه وإذا لم يحبه علم أنه تعالى ليس هو راض عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد فى الإسراف قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم عليكم زينة الله التى خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتلبسوها فى الطواف وغيره ثم فى تفسير الزينة قولان: أحدهما وهو قول جمهور المفسرين أن المراد من الزينة هنا اللباس الذى يستر العورة. والقول الثانى ذكر الإمام فخر الدين الرازى أنه يتناول جميع أنواع الزينة فيدخل تحته جميع أنواع الملبوس والحلى ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا فى هذا العموم ولكن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال دون النساء (والطيبات من الرزق) يعنى ومن حرم الطيبات من الرزق التى أخرجها الله لعباده وخلقها لهم ثم ذكروا فى معنى الطيبات فى هذه الآية أقوالا: أحدها أن المراد بالطيبات اللحم والدسم الذى كانوا يحرمونه على أنفسهم أيام الحج يعظمون بذلك حجهم فرد الله تعالى بقوله «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» والقول الثانى وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقتادة أن المراد بذلك ما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب قال ابن عباس رضى الله عنهما إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله تعالى من الرزق وغيرها وهو قول الله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وهو هذا وأنزل الله قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق. والقول الثالث أن الآية على العموم فيدخل تحته كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات إلا ما نهى عنه وورد نص بتحريمه (قل هى للذين آمنوا) يعنى قل يا محمد أن الطيبات التى أخرج الله من رزقه للذين آمنوا (فى الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لأنه يشركهم فيها المشركون (خالصة) لهم (يوم القيامة) يعنى لا يشركهم فيها أحد لأنه لاحظ للمشركين يوم القيامة فى الطيبات من الرزق وقيل خالصة لهم يوم القيامة من التكدير والتنغيص والغم لأنه قد يقع لهم فى الحياة الدنيا فى تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص فاعلمهم أنها خالصة لهم فى الآخرة من ذلك كله (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى كذلك نبين الحلال مما أحللت والحرام مما حرمت لقوم علموا إنى أنا الله وحدى لاشريك لى فاحلوا حلالى وحرموا حرامى. قوله عز وجل (قل إنما حرم ربى الفواحش) جمع فاحشة وهى ما قبح وفحش من قول أو فعل والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب ويطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات مما أحل الله لهم إن الله لم يحرم ما تحرمونه أنتم بل أحله الله لعباده وطيبه لهم وإنما حرم ربى الفواحش من الأفعال والأقوال (ما ظهر منها وما بطن) يعنى علانيته وسره (ق) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا أحد أغير من الله» من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه. أصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة فيما يختص به الإنسان ومنه غيرة أحد الزوجين على الآخر لاختصاص كل واحد منهما بصاحبه ولا يرضى أن يشاركه أحد فيه فلذلك يذب

عنه ويمنعه من غيره وأما الغيرة في وصف الله تعالى فهو منعه من ذلك وتحريمه له ويدل على ذلك قوله ومن غيرته حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن وقد يحتمل أن تكون غيرته تغيير حال فاعل ذلك بعقاب والله أعلم . وقوله تعالى (والإثم) يعنى وحرم الإثم واختلفوا فى الفرق بين الفاحشة والإثم فقيل الفواحش الكبائر لأنه قد تفاحش قبحها وتزايد والإثم عبارة عن الصغائر من الذنوب فعلى هذا يكون معنى الآية قل إنما حرم ربى الكبائر والصغائر وقيل الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والإثم اسم لما لايجب فيه الحد وهذا القول قريب من الأول واعترض على هذين القولين بأن الإثم فى أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر وقيل إن الفاحشة اسم للكبيرة والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيرا أوصغيرا والفائدة فيه أن يقال لما حرم الله الكبيرة بقوله «قل إنما حرم ربى الفواحش» أردفه بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم متوهم أن التحريم مقصور على الكبائر فقط وقيل إن الفاحشة وإن كانت بحسب اللغة اسما لكل ماتفاحش من قول أو فعل لكنه قد صار فى العرف مخصوصا بالزنا لأنه إذا أطلق لفظ الفاحشة لم يفهم منه إلا ذاك فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا وأما الإثم فقد قيل إنه اسم من أسماء الخمر وهو قول الحسن وعطاء قال الجوهرى وقد تسمى الخمر إثما واستدل عليه بقول الشاعر :

شربت الاثم حتى ضل عقلى كذاك الاثم يذهب بالعقول

وقال ابن سيده صاحب المحكم وعندى أن تسمية الخمر بالاثم صحيح لأن شربها إثم وبهذا المعنى يظهر الفرق بين اللفظين وأنكر أبو بكر بن الأنبارى تسمية الخمر بالاثم قال لأن العرب ما سمته إثما قط فى جاهلية ولا فى إسلام ولكن قد يكون الخمر داخلا تحت الإثم لقوله قل فيهما إثم كبير . وقوله تعالى (والبغى) أى وحرم البغى (بغير الحق) والبغى هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس ومجاوزة الحد فى ذلك كله ومعنى البغى بغير الحق هو أن يطلب ما ليس له بحق فاذا طلب ماله بحق خرج من أن يكون بغيا (وأن تشركوا) أى وحرم أن تشركوا (بالله لم ينزل به سلطانا) هذا فيه تهكم بالمشركين والكفار لأنه لا يجوز أن ينزل حجة وبرهانا بأن يشرك به غيره لأن الإقرار بشىء ليس على ثبوته حجة ولا برهانا ممتنع فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك وجب أن يكون باطلا على الإطلاق فان قلت البغى والإشراك داخلان تحت الفاحشة والاثم لأن الشرك من أعظم الفواحش وأعظم الإثم وكذا البغى أيضا من الفواحش والإثم . قلت إنما أفردهما بالذكر للتنبيه على عظم قبحهما كأنه قال من الفواحش المحرمة البغى والشرك فكأنه بين جملته ثم تفصيله وقوله (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) تقدم تفسيره . قوله تعالى (ولكل أمة أجل) الأجل : الوقت الموقت لانقضاء وقت المهلة ثم فى هذا الأجل المذكور فى الآية قولان أحدهما أنه أجل العذاب والمعنى أن لكل أمة كذبت رسلها وقتا معينا وأجلا مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت (فاذا جاء أجلهم) يعنى إذا حل وقت عذابهم (لا يستأخرون ساعة ولايستقدمون) يعنى فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة وإنما ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الوقت فى العرف وهذا حين سألوا نزول العذاب فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتا إذا جاء ذلك الوقت هو وقت إهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون والقول الثانى أن المراد بهذا الأجل هو أجل

قال قلت أنت سمعت هذا من عبدالله قال نعم رفعه قال لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدحة من الله فلذلك مدح نفسه قوله عز وجل (والإثم) يعنى الذنب والمعصية وقال الضحاك الذنب الذى لاحد فيه قال الحسن الإثم الخمر قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلى
كذاك الإثم يذهب بالعقول

(والبغى) الظلم والكبر (بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) حجة وبرهانا (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) فى تعليم الحرث والأنعام فى قول مقاتل وقال غيره هو عام فى تحريم القول فى الدين من غير يقين (ولكل أمة أجل) مدة وأكل وشرب وقال ابن عباس وعطاء والحسن يعنى وقتا لنزول العذاب بهم (فاذا جاء أجلهم) وانقطع أكلهم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى لايتقدمون وذلك حين سألوا العذاب فأنزل الله هذه الآية قوله تعالى

الحياة والعمر فاذا انقضى ذلك الأجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لايقع فيه تقديم ولا تأخير وإنما قال تعالى لكل أمة لتقارب أعمار أهل كل عصر فكأنهم كانوا حد فى مقدار العمر وعلى هذا القول أيضا يكون المقتول متا بأجله خلافا لمن يقول القاتل قطع عليه أجله . قوله عز وجل (يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم) هى إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء وهو قوله فمن اتقى وأصلح يعنى منكم وإنما قال رسل بلفظ الجمع وإن كان المراد به واحد وهو النبى صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الأنبياء وهو مرسل إلى كافة الخلق فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم فعلى هذا يكون الخطاب فى قوله يابنى آدم لأهل مكة ومن يلحق بهم وقيل أراد جميع الرسل وعلى هذا فالخطاب فى قوله يابنى آدم عام فى كل بنى آدم وإنما قال منكم يعنى من جنسكم ومثلكم من بنى آدم لأن الرسول إذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم لأنهم يعرفونه ويعرفون أحواله فاذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذى أتى به معجزة له وحجة على من خالفه (يقصون عليكم آياتى) يعنى يقرؤن عليكم كتابى وأدلة أحكامى وشرائعى التى شرعت لعبادي (فمن اتقى) يعنى فمن اتقى الشرك ومخالفة رسلى (وأصلح) يعنى العمل الذى أمرته به رسلى فعمل بطاعتى وتجنب معصيتى ومانهيته عنه (فلا خوف عليهم) يعنى حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب (ولا هم يحزنون) يعنى على مافاتهم من دنياهم التى تركوها (والذين كذبوا بآياتنا) يعنى ومن جحدوا آياتنا وكذبوا رسلنا (واستكبروا عنها) يعنى واستكبروا عن الإيمان بها وبما جاءت به رسلنا (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى لا يخرجون منها أبدا . قوله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى فمن أعظم ظلما ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكا من خلقه وهو منزه عن الشريك والولد (أو كذب بآياته) يعنى أو كذب بالقرآن الذى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يعنى ينالهم حظهم مما قدر لهم وكتب فى اللوح المحفوظ واختلفوا فى ذلك النصيب على قولين أحدهما : أن المراد به هو العذاب المعين لهم فى الكتاب ثم اختلفوا فيه فقال الحسن والسدى ما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون وقال ابن عباس فى رواية عنه كتب لمن يفترى على الله كذبا أن وجهه أسود وقال الزجاج هو المذكور فى قوله فأنذرتكم نارا تلظى وفى قوله إذ الأغلال فى أعناقهم فهذه الأشياء هى نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم فى كفرهم .
والقول الثانى أن المراد بالنصيب المذكور فى الكتاب هو شىء سوى العذاب ثم اختلفوا فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية أخرى عنه وعن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية فى قوله ينالهم نصيبهم من الكتاب قالوا هو السعادة والشقاوة وقال ابن عباس ماكتب عليهم من الأعمال وقال فى رواية أخرى عنه من عمل خيرا جوزى به ومن عمل شرا جوزى به وقال قتادة جزاء أعمالهم التى عملوها وقيل معنى ذلك ينالهم نصيبهم مما وعدوا فى الكتاب من خير أوشر قاله مجاهد والضحاك وهو رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا وقال الربيع بن أنس ينالهم ماكتب لهم فى الكتاب من الرزق وقال محمد بن كعب القرظى عمله ورزقه وعمره وقال ابن زيد ينالهم نصيبهم من الكتاب من الأعمال والأرزاق والأعمار فاذا

(يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم) أى إن يأتكم قيل أراد جميع الرسل وقال مقاتل أراد بقوله يابنى آدم مشركى العرب وبالرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وحده (يقصون عليكم آياتى) قال ابن عباس فرائضى وأحكامى (فمن اتقى وأصلح) أى اتقى الشرك وأصلح عمله وقيل أخلص مابينه وبين ربه (فلا خوف عليهم) إذا خاف الناس (ولاهم يحزنون) أى إذا حزنوا (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) تكبروا عن الإيمان بها ذكر الاستكبار لأن كل مكذب وكافر متكبر قال الله تعالى «إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون» (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) قوله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) جعل له شريكا (أو كذب بآياته) القرآن (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) نصيبهم أى حظهم ، مما كتب لهم فى اللوح المحفوظ واختلفوا فيه قال الحسن والسدى ماكتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون قال عطية عن ابن عباس كتب لمن يفترى على الله أن وجهه مسود قال الله تعالى «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» وقال

سعيد بن جبير ومجاهد ماسبق لهم من الشقاوة والسعادة وقال ابن عباس وقتادة والضحاك يعني أعمالهم التي عملوها وكتب عليهم من خير وشر يجرى عليها وقال محمد ابن كعب القرظى ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال فاذا فنيت (حتى

إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) يقبضون أرواحهم يعنى ملك الموت وأعوانه (قالوا) يعنى يقول الرسل للكفار (أينما كنتم تدعون) تعبدون (من دون الله) سؤال تبكيت وتقريع (قالوا ضلوا عنا) بطلوا وذهبوا عنا (وشهدوا على أنفسهم) اعترفوا عند معاينة الموت (أنهم كانوا كافرين قال ادخلوا فى أمم) يعنى يقول الله لهم يوم القيامة ادخلوا فى أمم أى مع جماعات (قد خلت) مضت (من قبلكم من الجن والإنس فى النار) يعنى كفار الأمم الخالية (كلما دخلت أمة لعنت أختها) يريد أختها فى الدين لافى النسب، فتلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى وكل فرقة تلعن أختها ويلعن الاتباع القادة ولم يقل أخاها لأنه عنى الأمة والجماعة (حتى إذا اداركوا فيها) أى تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا فى النار (جميعا قالت أخراهم) قال مقاتل يعنى أخراهم دخولا النار وهم الأتباع (لأولاهم) أى لأولاهم دخولا وهم القادة لأن القادة يدخلون النار أولا وقال ابن عباس يعنى آخر كل أمة لأولاها وقال السدى أهل الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين (ربنا هؤلاء) الذين (أضلونا) عن الهدى يعنى القادة

فرغ هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم وصحح الطبرى هذا القول الآخر وقال لأن الله تعالى أتبع ذلك بقوله حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم فأبان أن الذى ينالهم هو ما قدر لهم فى الدنيا فاذا فرغ توفتهم رسل ربهم قال الإمام فخر الدين رحمه الله تعالى وإنما حصل الاختلاف لأن لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه وقال بعض المحققين حمله على العمر والرزق أولى لأنه تعالى بين أنهم وإن بلغوا فى الكفر ذلك المبلغ العظيم فانه ليس بمانع أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلا من الله سبحانه وتعالى لكى يصلحوا ويتوبوا . قوله تعالى (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) يعنى حتى إذا جاءت هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب رسلنا يعنى ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم لأن لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى (قالوا) يعنى قال الرسل وهم الملائكة للكفار (أينما كنتم تدعون من دون الله) وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت لاسؤال استعلام والمعنى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل إن هذا يكون فى الآخرة والمعنى حتى إذا جاءتهم رسلنا يعنى ملائكة العذاب يتوفونهم يعنى يستوفون عددهم عند حشرهم إلى النار قالوا أينما كنتم تدعون يعنى شركاء وأولياء تعبدونهم من دون الله فادعوهم ليدفعوا عنكم ماجاءكم من أمر الله (قالوا) يعنى الكفار مجيبين للرسل (ضلوا عنا) يعنى بطلوا وذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) يقول الله تعالى وشهد هؤلاء الكفار عند معاينة العذاب أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله واعترفوا على أنفسهم بذلك . قوله عز وجل (قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس) يقول الله عز وجل يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب وجعل له شريكا من خلقه ادخلوا فى أمم يعنى فى جملة أمم قد خلت يعنى قد مضت وسلفت وإنما قال قد خلت ولم يقل قد خلوا لأنه أطلق الضمير على الجماعة يعنى فى جملة جماعة قد خلت من قبلكم يعنى من الجن والإنس (فى النار) أى ادخلوا جميعا فى النار التى هى مستقركم ومأواكم وإنما عنى بالأمم الجماعات والأحزاب وأهل الملل الكفرة من الجن والإنس (كلما دخلت أمة) يعنى كلما دخلت جماعة النار (لعنت أختها) يعنى كلما دخلت أمة النار لعنت أختها من أهل ملتها فى الدين لافى النسب قال السدى كلما دخلت أهل ملة النار لعنوا أصحابهم على ذلك الدين فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الأولى (حتى إذا اداركوا) يعنى تداركوا وتلاحقوا (فيها جميعا) يعنى تلاحقوا واجتمعوا فى النار جميعا وأدرك بعضهم بعضا واستقروا فى النار (قالت أخراهم لأولاهم) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى قال آخر كل أمة لأولها وقال السدى قالت أخراهم الذين كانوا فى آخر الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين وقال مقاتل يعنى قال آخراهم دخولا النار وهم الأتباع لأولاهم دخولا وهم القادة لأن القادة يدخلون النار أولا (ربنا هؤلاء أضلونا) يعنى تقول الأتباع ربنا هؤلاء القادة والرؤساء أضلونا عن الهدى وزينوا لنا طاعة الشيطان وقيل إنما قال المتأخرون ذلك لأنهم كانوا يعتقدون تعظيم المتقدمين من

أسلافهم فسلكوا سبيلهم فى الضلالة واتبعوا طريقتهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلالة فلما كان يوم القيامة وتبين لهم فساد ما كانوا عليه قالوا ربنا هؤلاء أضلونا لأنا اتبعنا سبيلهم (فآتهم عذابا ضعفا من النار) أى أضعف عليهم العذاب قال أبو عبيدة الضعف هو مثل الشىء مرة واحدة قال الأزهرى والذى قاله أبو عبيدة هو مايستعمله الناس فى مجاز كلامهم وأما كتاب الله فهو عربى مبين فيرد تفسيره إلى موضع كلام العرب والضعف فى كلامهم مازاد وليس بمقصور على مثلين وجائز فى كلام العرب هذا ضعفه أى مثلاه وثلاثة أمثاله لأن الضعف فى الأصل زيادة غير محصورة وأولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فأقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور وقال الزجاج فى تفسير هذه الآية فآتهم عذابا ضعفا أى مضاعفا لأن الضعف فى كلام العرب على ضربين أحدهما المثل والآخر أن يكون فى معنى تضعيف الشىء أى زيادته (قال) يعنى قال الله تعالى (لكل ضعف) يعنى لأولاكم ضعف ولأخراكم ضعف وقيل معناه للتابع ضعف وللمتبوع ضعف لأنهم قد دخلوا فى الكفر جميعا (ولكن لاتعلمون) يعنى ماأعد الله لكل فريق من العذاب وقرىء بالياء ومعناه ولكن لايعلم كل فريق ماأعد الله تعالى من العذاب للفريق الآخر (وقالت أولاهم) يعنى فى الكفر وهم القادة (لأخراهم) يعنى الأتباع (فما كان لكم علينا من فضل) يعنى قد ضللتم كما ضللنا وكفرتم كما كفرنا وقيل فى معنى الآية وقالت كل أمة سلفت فى الدنيا لأخراها الذين جاءوا من بعدهم فسلكوا سبيل من مضى قبلهم فما كان لكم علينا من فضل وقد علمتم ماحل بنا من عقوبة الله بسبب كفرنا ومعصيتنا إياه وجاءتكم بذلك الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم (فذوقوا العذاب) وهذا يحتمل أن يكون من قول القادة للإتباع والأمة الأولى للأخرى التى بعدها ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى يعنى يقول الله للجميع فذوقوا العذاب (بما كنتم تكسبون) يعنى بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والأعمال الخبيثة . قوله عز وجل (إن الذين كذبوا بآياتنا) يعنى كذبوا بدلائل التوحيد فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا (واستكبروا عنها) أى وتكبروا عن الإيمان بها والتصديق لها وأنفوا عن اتباعها والإنقياد لها والعمل بمقتضاها تكبرا (لاتفتح لهم أبواب السماء) يعنى لاتفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم ولايصعد لهم إلى الله عز وجل فى وقت حياتهم قول ولا عمل لأن أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلها خبيثة وإنما يصعد إلى الله تعالى الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتفتح أبواب السماء لأرواح الكفار وتفتح لأرواح المؤمنين وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا قال لايصعد لهم قول ولا عمل وقال ابن جريج لاتفتح أبواب السماء لأعمالهم ولا لأرواحهم وروى الطبرى بسنده عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة قال فيقولون فلان بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فلايفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط» وقيل فى معنى الآية لا تنزل عليهم البركة والخير لأن ذلك لاينزل إلا من السماء فإذا لم تفتح لهم أبواب السماء فلاينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شىء . وقوله تعالى

(فآتهم عذابا ضعفا من النار) أى ضعف عليهم العذاب (قال) الله تعالى (لكل ضعف) يعنى للقادة والأتباع ضعف من العذاب (ولكن لاتعلمون) مالكل فريق منكم من العذاب وقرأ أبو بكر لايعلمون بالياء أى لايعلم الأتباع ماللقادة ولا القادة ما للأتباع (وقالت أولاهم) يعنى القادة (لأخراهم) للاتباع (فما كان لكم علينا من فضل) لأنكم كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم فى الكفر سواء وفى العذاب سواء (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح) بالتاء خفف أبو عمرو وبالياء خفف حمزة والكسائى والباقون بالتاء والتشديد (لهم أبواب السماء) لأدعيتهم ولا لأعمالهم وقال ابن عباس لأرواحهم لأنها خبيثة لايصعد بها بل يهوى بها إلى سجين إنما تفتح أبواب السماء لأرواح المؤمنين وأدعيتهم وأعمالهم

(ولا

(ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) والولوج الدخول والجمل معروف وهو الذكر من الإبل وسم الخياط ثقب الإبرة قال الفراء الخياط والمخيط مايخاط به والمراد به الإبرة فى هذه الآية وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبر من سائر الحيوانات جسما عند العرب قال الشاعر . جسم الجمال وأحلام العصافير . وصف من هجاء بهذا بعظم الجسم مع صغر العقل فجسم الجمل من أعظم الأجسام وثقب الإبرة من أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه فى ثقب الإبرة الضيق محالا فكذلك دخول الكفار الجنة محال ولما وصف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان وقوع هذا الشرط محالا ثبت أن الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة مأيوس منه قطعا وقال بعض أهل المعانى لما علق الله تعالى دخولهم الجنة بولوج الجمل فى سم الخياط وهو خرق الإبرة كان ذلك نفيا لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك لأن العرب إذا علقت مايجوز كونه بما لايجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك لا آتيك حتى يشيب الغراب وببيض القار ومنه قول الشاعر : إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

قوله تعالى (وكذلك نجزى المجرمين) أى ومثل الذى وصفنا نجزى المجرمين يعنى الكافرين لأنه تقدم من صفتهم أنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على أنهم الكفار ولما بين الله عز وجل أن الكفار لايدخلون الجنة أبدا بين أنهم من أهل النار ووصف ما أعد لهم فيها فقال تعالى (لهم من جهنم مهاد) يعنى لهم من نار جهنم فراش وأصل المهاد التمهد الذى يقعد عليه ويضطجع عليه كالفراش والبساط (ومن فوقهم غواش) جمع غاشية وهى الغطاء كاللحاف ونحوه ومعنى الآية أن النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم قال محمد بن كعب القرظى والضحاك والسدى المهاد الفراش والغواشى اللحف (وكذلك نجزى الظالمين) يعنى وكذلك نكافىء ونجازى المشركين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها . قوله عز وجل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا إلا وسعها) لما ذكر الله تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم فى الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم فى الآخرة فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات يعنى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله إليه وتنزيله عليه من شرائع دينه وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه فى ذلك وتجنبوا مانهاهم عنه لانكلف نفسا إلا وسعها يعنى لانكلف نفسا إلا مايسعها من الأعمال ومايسهل عليها ويدخل فى طوقها وقدرتها ومالا حرج فيه عليها ولا ضيق قال الزجاج الوسع مايقدر عليه وقال مجاهد معناه إلا ماافترض عليها يعنى الذى افترض عليها من وسعها الذى تقدر عليه ولا تعجز عنه وقد غلط من قال أن الوسع بذل المجهود قال أكثر أصحاب المعانى أن قوله تعالى لانكلف نفسا إلا وسعها اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) لانكلف نفسا إلا وسعها وإنما يحسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر لأنه من جنس هذا الكلام لأنه تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكر إن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها ومحلها يتوصل إليها بالعمل الصالح السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة وقال قوم من أصحاب المعانى هو من تمام الخبر موضعه رفع والعائد محذوف كأنه قال لانكلف نفسا منهم إلا وسعها فحذف العائد للعلم به . قوله تعالى (ونزعنا مافى صدورهم من غل) يعنى

(ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) أى حتى يدخل البعير فى ثقب الإبرة والخياط والمخيط واحد وهو الإبرة والمراد منه أنهم لايدخلون الجنة أبدا لأن الشىء إذا علق بما يستحيل كونه دل ذلك على تأكيد المنع كما يقال لا أفعل ذلك حتى يشيب الغراب أو يبيض القار يريد لا أفعله أبدا (وكذلك نجزى المجرمين . لهم من جهنم مهاد) أى فراش (ومن فوقهم غواش) أى لحف وهى جمع غاشية يعنى ماغشاهم وغطاهم يريد إحاطة النار بهم من كل جانب، كما قال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل (وكذلك نجزى الظالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا إلا وسعها) أى طاقتها ومالا حرج فيه ولا تضييق عليه (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا) أخرجنا (مافى صدورهم من غل) من غش وعداوة كانت بينهم فى الدنيا فجعلناهم إخوانا على سرر متقابلين لايحسد

بعضهم بعضا على شيء خص الله به بعضهم (تجرى من تحتهم الأنهار) روى الحسن عن على رضى الله عنهم قال فينا والله أهل بدر نزلت «ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين» (٢٣٠) وقال على رضى الله عنهم أيضا إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال لهم الله عز وجل «ونزعنا مافى صدورهم من غل» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا الصلت بن محمد حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا» وقال السدى فى هذه الآية أن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع مافى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبدا (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) أى إلى هذا يعنى طريق الجنة وقال سفيان الثورى معناه هدانا لعمل هذا ثوابه (وما كنا) قرأ ابن عامر ما كنا بلا واو (لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل ماوعدهم

وقلعنا وأخرجنا مافى صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم فى الدنيا ومعنى الآية أزلنا تلك الأحقاد التى كانت لبعضهم على بعض فى الدنيا فجعلناهم إخوانا على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضا على شيء خص الله به بعضهم دون بعض ومعنى نزع الغل تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ودفعها عن أن ترد على القلب روى عن على رضى الله عنه قال فينا والله أهل بدر نزلت «ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سررا متقابلين» وروى عنه أيضا أنه قال إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم «ونزعنا مافى صدورهم من غل» وقيل أن الحسد والغل يزول بدخولهم الجنة (خ) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا، وقال السدى فى هذه الآية إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع مافى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبدا وقيل إن درجات أهل الجنة متفاوتة فى العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض وأخرج الله عز وجل الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب العالية وأورد على هذا القول كيف يعقل أن الإنسان يرى الدرجات العالية والنعم العظيمة وهو محبوس عنها لا يصل إليها ولا يميل بطبعه إليها ولا يغتم بسبب حرمانه منها وإن كان فى لذة ونعيم وأجيب عن هذا بأن الله تعالى قد وعد بإزالة الحقد والحسد من قلوب أهل الجنة حتى تكمل لهم اللذة والسرور حتى إن أحدهم لا يرى نفسه إلا فى كمال وزيادة فى النعيم الذى هو فيه فيرضى بما هو فيه ولا يحسد أحدا أبدا وبهذا تم نعيمه ولذته وكمل سروره وبهجته. وقوله تعالى (تجرى من تحتهم الأنهار) لما أخبر الله تعالى بما أنعم به على أهل الجنة من إزالة الغل والحسد والحقد من صدورهم أخبرنا بما أنعم به عليهم من اللذات والخيرات والمسرات (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) يعنى أن المؤمنين إذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى وفقنا وأرشدنا للعمل الذى هذا ثوابه وتفضل علينا رحمة منه وإحسانا وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) يعنى وما كنا لنرشد لذلك العمل الذى هذا ثوابه لولا أنه أرشدنا الله إليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه وفى الآية دليل على أن المهتدى من هداه الله ومن لم يهده الله فليس بمهتد (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) يعنى أن أهل النعيم إذا دخلوها ورأوا ما أعد الله لهم فيها من النعيم قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق يعنى أنهم رأوا

عيانا (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) قيل هذا النداء إذا رأوا الجنة من بعيد نودوا أن تلكم الجنة وقيل هذا النداء يكون فى الجنة أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبى توبة الخطيب أنبأنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائى أنبأنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال حدثنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبى إسحاق عن الأغر عن أبى سعيد وعن أبى هريرة قالا «ينادى مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج عن إسحاق بن إبراهيم وعبد الرحمن بن حميد عن عبد الرزاق عن سفيان الثورى بهذا الإسناد مرفوعا وروى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن أحد إلا وله منزلة فى الجنة ومنزلة فى النار فأما الكافر فانه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة قوله تعالى:

ماوعدهم به الرسل عيانا (ونودوا أن تلكم الجنة) يعنى ونادى مناديا أهل الجنة إن هذه الجنة التى كانت الرسل وعدتكم بها فى الدنيا واختلفوا فى المنادى فقيل هو الله عز وجل وقيل الملائكة ينادون بأمر الله عز وجل وقيل هذا النداء يكون فى الجنة (م) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل "ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» . وقوله تعالى (أورثتموها بما كنتم تعملون) روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «مامن أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار فأما الكافر فانه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» زاد فى رواية فذلك قوله تعالى «أورثتموها بما كنتم تعملون» قال بعضهم لما سمى الله الكافر ميتا بقوله أموات غير أحياء وسمى المؤمن حيا بقوله لينذر من كان حيا وفى الشرع أن الأحياء يرثون الأموات فقال أورثتموها يعنى أن المؤمن حى وهو يرث الكافر منزله من الجنة لأنه فى حكم الميت وقيل معناه أن أمرهم يؤول إلى الجنة كما أن الميراث يؤول إلى الوارث وقيل أورثتموها عن الأعمال الصالحة التى عملتموها لأن الجنة جعلت لهم جزاء وثوابا على الأعمال ويعارض هذا القول ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه «قال لن يدخل الجنة أحد بعمله وإنما يدخلها برحمة الله» فان دخول الجنة برحمة الله وانقسام المنازل والدرجات بالأعمال وقيل أن العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه إلا برحمة الله تعالى وتوفيقه وإذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة فى الحقيقة برحمة الله تعالى وجعلها الله ثوابا وجزاء لهم على تلك الأعمال الصالحة التى عملوها فى دار الدنيا والله أعلم . قوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) يعنى ونادى أهل الجنة أهل النار وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار تقول أهل الجنة ياأهل النار (أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا) يعنى ماوعدنا فى الدنيا على السنة رسله من الثواب على الإيمان به وبرسله وطاعته حقا (فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا) يعنى من العذاب على الكفر (قالوا نعم) يعنى قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقا . فان قلت هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض . قلت ظاهر قوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار يفيد العموم والجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار فى دار الدنيا . فان قلت إذا كانت الجنة فى السماء والنار فى الأرض فكيف يمكن أن يبلغ هذا النداء أو كيف يصح أن يقع . قلت إن الله تعالى قادر على أن يقوى الأصوات والأسماء فيصير البعيد كالقريب . وقوله تعالى (فأذن مؤذن بينهم) يعنى نادى مناد وأعلم لأن أصل الأذان فى اللغة الإعلام والمعنى نادى مناد أسمع الفريقين وهذا المنادى من الملائكة وقيل أنه إسرافيل صاحب الصور ذكره الواحدى (أن لعنة الله على الظالمين) يعنى يقول المؤذن أن

(ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا) من الثواب (حقا) أى صدقا (فهل وجدتم ماوعد ربكم) من العذاب (حقا قالوا نعم) قرأ الكسائى بكسر العين حيث كان والباقون بفتحها وهما لغتان (فأذن مؤذن بينهم) أى نادى مناد أسمع الفريقين (أن لعنة الله على الظالمين) قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم أن خفيف لعنة رفع وقرأ الآخرون بالتشديد لعنة الله نصب

على الظالمين أي الكافرين (الذين يصدون) أي يصرفون الناس (عن سبيل الله) طاعة الله (ويبغونها عوجا) أي يطلبونها زيغا وميلا أي يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد قال ابن عباس يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله والعوج بكسر العين في الدين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائما وبالفتح في كل ما كان قائما كالحائط والرمح ونحوهما (وهم بالآخرة كافرون وبينهما حجاب) يعني بين الجنة والنار وقيل بين أهل الجنة وأهل النار حجاب وهو السور الذي ذكر الله في قوله فضرب بينهم بسور له باب قوله تعالى (وعلى الأعراف رجال) هي ذلك السور الذي بين الجنة والنار وهي جمع عرف وهو اسم للمكان المرتفع ومنه عرف الديك لارتفاعه على ماسواه من جسده وقال السدي سمي ذلك السور أعرافا لأن أصحابه يعرفون الناس واختلفوا في الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف فقال حذيفة وابن عباس هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته وهم آخر من يدخل الجنة أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث ثنا محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله ابن محمود ثنا إبراهيم ابن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير يحدث عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ وإذا قوله فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم » ثم قال أن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح قال من استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذ نورا فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة فلما رأى أهل الجنة مالقي المنافقون قالوا ربنا أتمم لنا نورنا فأما أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من بين أيديهم ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا فبقي في قلوبهم الطمع إذ لم ينزع النور من بين أيديهم فهنالك يقول الله لم يدخلوها وهم يطمعون

لعنة الله على الظالمين ثم فسر الظالمين من هم فقال تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) يعني الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام (ويبغونها عوجا) يعني ويحاولون أن يغيروا دين الله وطريقته التي شرع لعباده ويبدلونها وقيل معناه أنهم يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله وذلك أنهم طلبوا سبيل الله بالصلاة لغير الله وتعظيم ما لم يعظمه الله فأخطؤوا الطريق وضلوا عن السبيل (وهم بالآخرة كافرون) يعني وهم بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها. قوله عز وجل (وبينهما حجاب) يعني بين الجنة والنار وقيل بين أهل الجنة وأهل النار حجاب وهو المذكور في قوله تعالى «فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب» قال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار وقال السدي وبينهما حجاب هو السور وهو الأعراف وقوله (وعلى الأعراف رجال) الأعراف جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض ومنه قيل عرف الديك لارتفاعه على ماسواه من الجسد سمي بذلك لأنه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض وقال السدي إنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس وقال ابن عباس رضي الله عنهما الأعراف الشيء المشرف وعنه قال الأعراف سور كعرف الديك وعنه أن الأعراف جبل بين الجنة والنار يحبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار واختلف العلماء في صفة الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك فروي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله تعالى فيهم قال بعضهم إنما جعلوا على الأعراف لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار فهم لا من أهل الجنة ولا من أهل النار لكن الله تعالى يدخلهم الجنة بفضله ورحمته لأنه ليس في الآخرة دار إلا الجنة أو النار وقال ابن مسعود رضي الله عنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار وإن الميزان يخف ويثقل بمثقال حبة من خردل ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الأعراف فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم

وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فهنالك يقول الله تعالى «لم يدخلوها وهم يطمعون» فكان الطمع دخولا قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إذا عمل العبد حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب له إلا واحدة ثم قال هلك من غلب أحاده عشراته وقال ابن عباس رضى الله عنهما الأعراف سور بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئآتهم فهم بذلك المكان حتى إذا أراد الله تعالى أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو فى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ماشئتم فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفا فيدخلون الجنة ذكره ابن جرير فى تفسيره وقال شرحبيل بن سعد أصحاب الأعراف قوم خرجوا فى الغزو من غير إذن آبائهم ورواه الطبرى بسنده إلى يحيى بن غيل مولى لبنى هاشم عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال هم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فمنعهم قتلهم فى سبيل الله عن النار ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة زاد فى رواية فهم آخر من يدخل الجنة وذكر ابن الجوزى أنهم قوم رضى آباؤهم دون أمهاتهم وأمهاتهم دون آبائهم ورواه عن إبراهيم وذكر عن أبى صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم أولاد الزنا وقيل إنهم الذين ماتوا فى الفترة وفيه بعد لأن آخر أمر أصحاب الأعراف إلى الجنة وهؤلاء الذين ماتوا فى الفترة والله أعلم بحالهم وهو يتولى أمرهم وقيل أنهم أولاد المشركين الذين ماتوا أطفالا وهذا القول يرجع معناه إلى القول الذى قبله لأنه داخل فى حكمه فهذه الأقوال تدل على أن أصحاب الأعراف دون أهل الجنة فى الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى وقال مجاهد أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول إنما يكون لبثهم على الأعراف على سبيل النزهة أو ليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وقيل إنهم أنبياء حكاه ابن الأنبارى وإنما أجلسهم الله على ذلك المكان العالى تمييزا لهم على سائر أهل القيامة وإظهارا لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار وقال أبو مجلز أصحاب الأعراف ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم يعنى يعرفون أهل الجنة وأهل النار فقيل لأبى مجلز إن الله تعالى يقول وعلى الأعراف رجال وأنت تقول إنهم ملائكة فقال إن الملائكة ذكور ليسوا بأناث وضعف الطبرى قول أبى مجلز قال لأن لفظ الرجال فى لسان العرب لا يطلق إلا على الذكور من بنى آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق وحاصل هذه الأقوال أن أصحاب الأعراف أفضل من أهل الجنة لأنهم أعلى منهم منزلة وأفضل وقيل إنما أجلسهم الله فى ذلك المكان العالى ليميزوا بين أهل الجنة وبين أهل النار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . قوله عز وجل (يعرفون كلا بسيماهم) يعنى أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم وذلك ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم ويعرفون أهل النار بسيماهم وذلك بسواد وجوههم وزرقة عيونهم والسيما العلامة الدالة على الشىء وأصله من السمة قال ابن عباس رضى الله عنهما أصحاب الأعراف إذا رأوا أصحاب الجنة عرفوا ببياض الوجوه وإذا رأوا أصحاب النار عرفوهم بسواد الوجوه . فان قلنا أن أصحاب الأعراف من

وكان الطمع للنور الذى بين أيديهم ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولا . وقال شرحبيل بن سعد أصحاب الأعراف قوم خرجوا فى الغزو بغير إذن آبائهم ورواه مقاتل فى تفسيره مرفوعا قال هم رجال غزوا فى سبيل الله عصاة لآبائهم فقتلوا فأعتقوا من النار بقتلهم فى سبيل الله وحبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم فهم آخر من يدخل الجنة . وروى عن مجاهد أنهم أقوام رضى عنهم أحد الأبوين دون الآخر يحبسون على الأعراف إلى أن يقضى الله بين الخلق ثم يدخلون الجنة وقال عبد العزيز بن يحيى الكنانى هم الذين ماتوا فى الفترة ولم يبدلوا دينهم وقيل هم أطفال المشركين وقال الحسن هم أهل الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف فيطلعون على أهل الجنة وأهل النار جميعا ويطالعون أحوال الفريقين قوله تعالى (يعرفون كلا بسيماهم) أى يعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم وأهل النار بسواد وجوههم

استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم دون أهل الجنة في الدرجة كان وقوفهم على الأعراف ليكونوا درجة متوسطة بين الجنة والنار فاذا رأوا أهل الجنة وعرفوهم ببياض وجوههم نادوهم أن سلام عليكم وهو قوله تعالى (ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم) يعنى نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم يعنى سلمتم من الآفات وحصل لكم الأمن والسلامة وإذا رأوا أهل النار يعرفونهم بسواد وجوههم «قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين» وإن قلنا أن أصحاب الأعراف هم الأشراف والأفاضل من أهل الجنة كان جلوسهم على الأعراف ليطلعوا على أهل الجنة وأهل النار ثم لينقلهم الله عز وجل إلى الدرجات العلية فى الجنة. وقوله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) يعنى فى دخول الجنة قال الحسن ماجعل الله ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم. قوله تعالى (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) يعنى وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار يعنى وجاههم وحيالهم فنظروا إليهم وإلى سواد وجوههم وماهم فيه من العذاب (قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) يعنى الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وقال ابن عباس رضى الله عنهما أن أصحاب الأعراف إذا نظروا لأهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين والمعنى أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وماهم فيه من العذاب تضرعوا إلى الله تعالى وسألوه أن لايجعلهم منهم. قوله تعالى (ونادى أصحاب الأعراف رجالا) يعنى ونادى أصحاب الأعراف رجالا كانوا عظماء فى الدنيا وهم من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم) يعنى سيما أهل النار (قالوا) يعنى أصحاب الأعراف لهؤلاء الذين عرفوهم فى النار (ماأغنى عنكم جمعكم) يعنى ما كنتم تجمعون من الأموال والعدد فى الدنيا (وما كنتم تستكبرون) يعنى وما أغنى عنكم تكبركم عن الإيمان شيئا قال الكلبى ينادونهم وهم على السور ياوليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يافلان ويافلان ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزءون بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار (أهؤلاء) لفظ استفهام يعنى أهؤلاء الضعفاء (الذين أقسمتم) بالله (لاينالهم الله برحمة) يعنى أنكم حلفتم أنهم لايدخلون الجنة وقد دخلوا الجنة ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف (ادخلوا الجنة) بفضلى ورحمتى (لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقيل أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأصحاب النار ماأخبر الله عنهم قال لهم أهل النار إن أولئك دخلوا الجنة وأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون أنهم لايدخلون الجنة ولاينالهم الله برحمة فتقول الملائكة لأهل النار أهؤلاء يعنى أصحاب الأعراف الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون قوله عز وجل (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا)

(ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم) أى إذا رأوا أهل الجنة قالوا سلام عليكم (لم يدخلوها) يعنى أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة (وهم يطمعون) فى دخولها قال أبو العالية ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم قال الحسن الذى جعل الطمع فى قلوبهم يوصلهم إلى مايطمعون (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) تعوذوا بالله (قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) يعنى الكافرين فى النار (ونادى أصحاب الأعراف رجالا) كانوا عظماء فى الدنيا من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) فى الدنيا من المال والولد (وما كنتم تستكبرون) عن الإيمان قال الكلبى ينادون وهم على السور ياوليد بن المغيرة وياأبا جهل بن هشام ويافلان ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزءون بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار (أهؤلاء) يعنى هؤلاء الضعفاء (الذين أقسمتم) حلفتم (لاينالهم الله برحمة) أى حلفتم أنهم لايدخلون الجنة ثم يقال لأهل الأعراف (ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وفيه قول آخر أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار ماقالوا قال لهم أهل النار إن دخل أولئك الجنة فأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون أنهم يدخلون النار فتقول الملائكة الذين حبسوا أصحاب الأعراف على الصراط لأهل النار أهؤلاء يعنى أصحاب الأعراف الذين أقسمتم ياأهل النار أنه لاينالهم الله برحمة ثم قالت الملائكة لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون فيدخلون الجنة قوله تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا) أى صبوا (علينا من الماء أو مما رزقكم الله)

قال

قال ابن عباس رضى الله عنهما لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار فى الفرج فقالوا يا ربنا إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم فينظرون إلى قرابتهم فى الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر أهل الجنة إلى قرابتهم من أهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم فينادون أى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم فينادى الرجل أباه وأخاه فيقول قد احترقت أفض على من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون إن الله حرمهما على الكافرين ومعنى الآية أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة إذا استقروا فيها وذلك عند نزول البلاء بأهل النار وما يلقون من شدة العطش والجوع عقوبة لهم من الله على ما سلف منهم فى الدنيا من الكفر والمعاصى يقول أهل النار لأهل الجنة يا أهل الجنة أفيضوا علينا من الماء يعنى صبوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله يعنى أو أطعمونا مما رزقكم الله ووسعوا علينا من طعام الجنة فيجيبهم أهل الجنة بقولهم (إن الله حرمهما على الكافرين) وهذا الجواب يفيد الحرمان وقال بعضهم لما كانت شهواتهم فى الدنيا فى لذة الأكل والشرب عذبهم الله فى الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه فى الدنيا من طلب الأكل والشرب فأجيبوا بأن الله حرمهما على الكافرين يعنى طعام الجنة وشرابها ثم وصف الكافرين فقال تعالى (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) يعنى أنهم تلاعبوا بدينهم الذى شرع لهم ولهوا عنه وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه يقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا أى اشتغلت عنه قال ابن عباس رضى الله عنهما هم المستهزءون وذلك أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزءوا به استهزاء بالله عز وجل وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية وقيل معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهوا ولعبا لا يذكرون الله فيه (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسله وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك والغرة غفلة فى اليقظة وهو طمع الإنسان فى طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فاذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لأنه غريق فى الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال (فاليوم) يوم القيامة (ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) يعنى فاليوم نتركهم فى العذاب المهين جياعا عطاشا كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدى قال ابن عباس رضى الله عنهما نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر وقيل معناه نعاملهم معاملة من نسى فنتركهم فى النار كما تركوا العمل وأعرضوا عن الإيمان إعراض الناسى سمى الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لأن الله تعالى لا ينسى شيئا فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فيكون المراد من هذا النسيان أن الله تعالى لا يجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وذلتهم بل يتركهم فى النار كما تركوا الإيمان والعمل (وما كانوا بآياتنا يجحدون) يعنى ونتركهم فى النار كما كانوا بدلائل وحدانيتنا يكذبون . قوله تعالى (ولقد جئناهم بكتاب) يعنى ولقد جئنا هؤلاء الكفار بالقرآن الذى أنزلناه عليك يا محمد (فصلناه على علم) أى بيناه على علم منا بما نفصله ونبينه (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى جعلنا القرآن هاديا وذا رحمة لقوم يؤمنون (هل ينظرون) يعنى هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا

الجنة طمع أهل النار فى الفرج وقالوا يارب إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فينظروا إلى قرابتهم فى الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم ولم يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم فينادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وأخبروهم بقراباتهم أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله (قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) يعنى الماء والطعام (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة وأخواتها والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية وقيل دينهم أى عيدهم (وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم) نتركهم فى النار (كما نسوا لقاء يومهم هذا) أى كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا (وما كانوا بآياتنا يجحدون ولقد جئناهم بكتاب) يعنى القرآن (فصلناه) بيناه (على علم) منا لما يصلحهم (هدى ورحمة) أى جعلنا القرآن هاديا وذا رحمة (لقوم يؤمنون هل ينظرون) أى هل

بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها (إلا تأويله) يعني هل ينظرون ويتوقعون إلا ماوعدوا به على ألسنة الرسل من العذاب وأن مصيرهم إلى النار والتأويل مايؤول إليه الشيء (يوم يأتي تأويله) يعني يوم القيامة لأنه يوم الجزاء وما تؤول إليه أمورهم (يقول الذين نسوه من قبل) يعني يقول الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به يوم القيامة عند معاينة العذاب (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أقروا على أنفسهم واعترفوا حين لاينفعهم ذلك الاعتراف والإقرار والمعنى أن الكفار أقروا بأن الذي جاءت به الرسل من الإيمان والتصديق والحشر والنشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب حق وصدق وإنما أقروا بهذه الأشياء لأنهم شاهدوها معاينة وذلك حين لاينفعهم ولما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) يعني أنه ليس لنا طريق إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب إلا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا فيقبل شفاعته فينا فيخلصنا من هذا العذاب أو نرد إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالتوحيد والإيمان والمعاصي بالطاعة والإنابة (قد خسروا أنفسهم) يعني أن الذي طلبوه لايحصل لهم فتبين خسرانهم وإهلاكهم أنفسهم لأنهم كانوا في الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله تعالى فيهم (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعني وبطل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون في الدنيا من أن الأصنام تشفع لهم فلما أفضوا إلى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعلموا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين . قوله عز وجل (إن ربكم الله) يعني إن سيدكم ومالككم ومصلح أموركم وموصل الخيرات إليكم والذي يدفع عنكم المكاره وهو الله (الذي خلق السموات والأرض) أصل الخلق في اللغة التقدير ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم فقوله خلق السموات والأرض يعني أبدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق وقدر أحوالهما (في ستة أيام) فان قلت اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار هو من طلوع الشمس إلى غروبها فكيف قال في ستة أيام ولم يكن شمس ولا سماء قلت معناه في مقدار ستة أيام فهو كقوله « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » يعني على مقادير البكر والعشي في الدنيا لأن الجنة لاليل فيها ولا نهار واختلف العلماء في اليوم الذي ابتدأ الله عز وجل بخلق الأشياء فيه فقيل في يوم السبت وهو قول محمد بن إسحاق وغيره ويدل على صحة هذا القول ماروى مسلم في إفراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » وهذا الحديث وإن كان في صحيح مسلم ففيه مقال وقد أنكره بعض العلماء لما فيه من المخالفة للآية الكريمة لأن الله تعالى يقول خلق السموات والأرض في ستة أيام وقال في آخر آية أخرى ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام فدل بهذين النصين على أن جميع الخلق تم وكمل في ستة أيام والذي في الحديث أن بعض الخلق وقع في سبعة أيام وذلك مجموع أيام الأسبوع فلهذا السبب أنكره من أنكره من العلماء وقد ذكر الأزهري في كتابه تهذيب اللغة مايقوي الحديث فقال وقال ابن الأنباري السبت القطع وسمي يوم السبت

لأن

ينظرون (إلا تأويله) قال مجاهد جزاءه وقال السدي عاقبته ومعناه هل ينتظرون إلا ما يئول إليه أمرهم من العذاب ومصيرهم إلى النار (يوم يأتي تأويله) أي جزاؤه وما يئول إليه أمرهم (يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) اعترفوا به حين لاينفعهم الاعتراف (فهل لنا) اليوم (من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد) إلى الدنيا (فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم) أهلكوها بالعذاب (وضل) وبطل (عنهم ما كانوا يفترون) قوله تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) أراد به في مقدار ستة أيام لأن اليوم من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء وقيل ستة أيام كأيام الآخرة وكل يوم كألف سنة وقيل كأيام الدنيا قال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة

لأن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والأرض وقيل أن ابتداء الخلق كان يوم الأحد وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري قال الطبري خلق الله السموات والأرض في ستة أيام وذلك يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وروى بسنده عن مجاهد قال بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الأرض من الماء وبدأ الخلق يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وجمع الخلق في يوم الجمعة وتهودت اليهود في يوم السبت ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون ويعضد هذا القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال وسمى سابع الأسبوع سبتا لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق قال أصحاب الأخبار والسير والتواريخ إن الله تعالى خلق التربة التي هي الأرض بلا دحو ولا بسط في يوم الأحد والاثنين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما الثلاثاء والأربعاء، ثم دحا الأرض وبسطها وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقيل خلق الله عز وجل التربة يوم الأحد ثم استوى إلى السماء فخلقها وجميع ما فيها يوم الاثنين والثلاثا، ثم مد الأرض ودحاها يوم الأربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة وقيل أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق إلى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولا ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا . فان قلت إن الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» فما الفائدة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وما الحكمة في ذلك . قلت إن الله سبحانه وتعالى وإن كان قادرا على خلق جميع الأشياء في لحظة واحدة إلا أنه تعالى جعل لكل شيء حدا محدودا ووقتا معلوما فلا يدخل في الوجود إلا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الأمور وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الأمور كما في الحديث « التأني من الله والعجلة من الشيطان » وقيل إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم إن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الاتفاق فاذا أحدث شيئا بعد شيء على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة وقيل أن الله تعالى أراد أن يوقع في كل يوم أمرا من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده وقيل إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكمة فأراد الله تعالى إظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن فيكون . وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) العرش في اللغة السرير وقيل هو ما علا فأظل وسمى مجلس السلطان عرشا اعتبارا

فخلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الأمور وقد جاء في الحديث «التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان» (ثم استوى على العرش) قال الكلبي ومقاتل استقر وقال أبو عبيدة صعد وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء فأما أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى فأطرق رأسه مليا وعلاه الرحضاء ثم قال

بعلوه ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز يقال فلان فل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه قال الراغب فى كتابه مفردوات القرآن وعرش الله عز وجل مما لايعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم أنه الفلك الاعلى والكرسى فلك الكواكب وأما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقى فى كتابه الأسماء والصفات برواية كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها وقال أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لايفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم فى أمثال ذلك وروى بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال ياأبا عبدالله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه قال فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولايقال له كيف وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه فأخرج الرجل وفى رواية يحيى ابن يحيى قال كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه فأطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا مبتدعا فأمر به أن يخرج وروى البيهقى سنده عن ابن عيينة قال كل ماوصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه قال البيهقى والآثار عن السلف فى مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وإليه ذهب أحمد بن حنبل والحسن بن الفضل البجلى ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابى قال البغوى أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به إلى الله عز وجل وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل الذى سأله عن الاستواء وقد تقدم وروى عن سفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وسفيان بن عيينه وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة اقرؤها كما جاءت بلا كيف وقال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله بعد ذكره الدلائل العقلية والسمعية أنه لايمكن حمل قوله تعالى ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان الأول القطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة ولا نخوض فى تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله تعالى وهو الذى قررنا فى تفسير قوله «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به» وهذا المذهب هو الذى نختاره ونقول به ونعتمد عليه والمذهب الثانى أنا نخوض فى تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصان الأول ماذكره القفال فقال العرش فى كلامهم هو السرير الذى يجلس عليه الملك ثم جعل ثل العرش كناية عن نقض الملك يقال ثل عرشه أى انتقض ملكه وإذا استقام له ملكه وأطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه هذا ما قاله القفال والذى قاله القفال حق وصواب ثم قال الله تعالى دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم واستقر فى قلوبهم تلبيها على عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفى التشبيه والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة قال ويدل على صحة هذا قوله فى سورة يونس ثم استوى على العرش يدبر فقوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله ثم استوى على

الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك إلا ضالا ثم أمر به فأخرج وروى عن سفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهات أمروها كما جاءت بلا كيف والعرش فى اللغة هو السرير وقيل هو ما علا فأظل ومنه عرش الكروم وقيل العرش الملك

العرش وأورد على هذا القول أن الله تعالى لم يكن مستوياعلى الملك قبل خلق السموات والأرض والله تعالى منزه عن ذلك وأجيب عنه بأن الله تعالى كان قبل خلق السموات والأرض مالكها لكن لايصح أن يقال شبع زيد إلابعد أكله الطعام فاذا فسر العرش بالملك صح أن يقال أنه تعالى إنما استوى على ملكه بعد خلق السموات والأرض والقول الثانى أن يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقول الشاعر : قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا القول إنما خص العرش بالأخبار عنه بالاستيلاء عليه لأنه أعظم المخلوقات ورد هذا القول بأن العرب لاتعرف استوى بمعنى استولى وإنما يقال استولى فلان على كذا إذا لم يكن فى ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكا للأشياء كلها ومستوليا عليها ، فأى تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات ونقل البيهقى عن أبى الحسن الأشعرى أن الله تعالى فعل فى العرش فعلا سماه استواء كما فعل فى غيره فعلا سماه رزقا ونعمة وغيرهما من أفعاله ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى ثم استوى على العرش وثم للتراخى والتراخى إنما يكون فى الأفعال وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة وحكى الأستاذ أبو بكر بن فورك عن بعض أصحابنا أنه قال استوى بمعنى علا من العلو قال ولا يريد بذلك علوا بالمسافة والتحيز والكون فى المكان متمكنا فيه ولكن يريد معنى نفى التحيز عنه وأنه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطر ووصف الله تعالى بذلك طريقة الخبر ولا يتعدى ماورد به الخبر قال البيهقى رحمه الله تعالى وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلمة ثم تعلقت بالمستوى عليه لابالاستواء قال وقد أشار أبو الحسن الأشعرى إلى هذه الطريقة حكاية فقال بعض أصحابنا أنه صفة ذات قال وجوابى هو الأول وهو أن الله تعالى مستو على عرشه وأنه فوق الأشياء بائن منها بمعنى أنه لاتحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علوا كبيرا وقد قال بعض أصحابنا أن الاستواء صفة الله تعالى تنفى الاعوجاج عنه وروى أن ابن الأعرابى جاءه رجل فقال يا أبا عبدالرحمن مامعنى قوله تعالى الرحمن على العرش استوى قال أنه مستو على عرشه كما أخبر فقال الرجل إنما معنى قوله استوى أى استولى فقال له ابن الأعرابى مايدريك أن العرب لاتقول استولى فلان على الشىء حتى يكون له فيه مضاد فأيهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لامضاد له فهو على عرشه كما أخبر لا كما تظنه البشر والله أعلم . وقوله تعالى (يغشى الليل النهار) يعنى أنه تعالى يأتى بالليل على النهار فيغطيه ويلبسه حتى يذهب بنوره وفيه حذف تقديره ويغشى النهار الليل وإنما لم يذكر النهار لدلالة الكلام عليه (يطلبه حثيثا) يعنى سريعا وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه حكى الإمام فخر الدين الرازى عن القفال أنه قال إن الله تعالى لما أخبر عباده باستوائه على العرش أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدونه منها لينضم العيان إلى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات قال الإمام واعلم أنه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة فان الإنسان إذا كان فى أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاث آلاف ميل وهى ألف فرسخ فلهذا قال تعالى يطلبه حثيثا لسرعة حركته (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) معنى

(يغشى الليل النهار) قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر ويعقوب يغشى بالتشديد هاهنا وفى سورة الرعد والباقون بالتخفيف أى يأتى الليل على النهار فيغطيه وفيه حذف أى ويغشى النهار الليل ولم يذكره لدلالة الكلام عليه وذكر فى آية أخرى فقال : يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل (يطلبه حثيثا) أى سريعا وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهم الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) قرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر والباقون بالنصب وكذلك فى سورة النحل عطفا على قوله خلق السموات والأرض أى خلق هذه الأشياء مسخرات أى مذللات (بأمره

بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر (تبارك الله) أى تعالى الله وتعظم: وقيل ارتفع والمبارك المرتفع وقيل تبارك تفاعل من البركة وهى النماء والزيادة أى البركة تكتسب وتنال بذكره وعن ابن عباس قال جاء بكل بركة وقال الحسن تجىء البركة من عنده وقيل تبارك تقدس والقدس الطهارة وقيل تبارك الله أى باسمه يتبرك فى كل شئ وقال المحققون معنى هذه الصفة ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال وأصل البركة الثبوت ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لأنه لم يرد به التوقيف (ربّ العالمين ادعوا ربكم تضرعا) تذللا واستكانة (وخفية) أى سرا قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ذلك أن الله سبحانه يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية وأن الله ذكر عبدا صالحا ورضى فعله فقال: «إذ نادى ربه نداء خفيا»

التسخير التذليل وقال الزجاج وخلق هذه الأشياء جارية فى مجاريها بأمره وقال المفسرون يعنى بتسخيرهن تذليلهن لما يرادمنها من طلوع وغروب وسير ورجوع إذ ليس هى قادرات بأنفسهن وإنما هن يتصرفن فى متصرفاتهن على إرادة المدبر لهن الحكيم فى تدبيرهن وتصريفهن على ما أراد منهن والمراد بالأمر فى قوله بأمره نفاذ إرادته لأن الغرض من هذه الآية تبيين عظمة قدرته ومنهم من حمل الأمر على الأمر الذى هو الكلام وقال إنه تعالى أمر هذه الاجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم. فإن قلت إن الشمس والقمر من النجوم فلم أفردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم. قلت إنما أفردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الإشراق والنور وسيرهما فى المنازل لتعرف الأوقات فهو كقوله من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فعطف جبريل وميكال على ذكر الملائكة وإن كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما من الملائكة وقوله تعالى (ألا له الخلق والأمر) يعنى له الخلق لأنه خلقهم وله أن يأمر فيهم بما أراد وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الأمر هنا الذى هو نقيض النهى واستخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر يعنى أن من جعل الأمر الذى هو كلامه تعالى من جملة ماخلقه فقد كفر لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله وقيل معناه أن جميع مافى العالم لله عز وجل والخلق له لأنه خلقهم وجميع الأمور تجرى بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشئها فلا يبقى بعد هذا لأحد شىء وقيل المراد بالأمر هنا الإرادة لأن الغرض من الآية تعظيم القدرة وفى الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ففيه رد على من يقول أن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات فى هذا العالم. فأخبر الله أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب وله الأمر المطلق وليس لأحد أمر غيره فهو الآمر والناهى الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه (تبارك الله) يعنى تمجد وتعظم وارتفع، وقال الزجاج تبارك تفاعل من البركة ومعنى البركة الكثرة من كل خير وقيل معناه تعالى وتعظم الله (رب العالمين) يعنى أنه هو الذى يستحق التعظيم وذلك أن الله تعالى لما افتتح هذه الآية بقوله «أن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض» وذكر أشياء من عظيم خلقه وأن له الخلق والأمر والنهى والقدرة عليهم ختم الآية بالثناء عليه لأنه هو المستحق للمدح المطلق والثناء والتعظيم. وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه جاء بكل بركة وقيل تبارك معناه تقدس والتقديس الطهارة وقيل معناه باسمه يتبرك فى كل شىء وقال المحققون معنى هذه الصفة ثبت ودام كما لم يزل ولا يزال، وأصل البركة الثبوت ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لأنه لم يرد به التوقيف. قوله عز وجل (ادعوا ربكم) قيل معناه اعبدوا ربكم لأن معنى الدعاء طلب الخير من الله تعالى وهذه الصفة العبادة ولأنه تعالى عطف عليه قوله وادعوه خوفا وطمعا والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه وقيل المراد به حقيقة الدعاء هو الصحيح لأن الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لأن الداعى لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته، وهو قادر على إيصالها إلى الداعى فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى (تضرعا) يعنى ادعوا ربكم تذللا واستكانة، وهو إظهار الذل فى النفس والخشوع

والخشوع يقال ضرع فلان لفلان إذا أذل له وخشع وقال الزجاج تضرعا يعنى تملقا وحقيقته أن تدعوه خاضعين خاشعين متعبدين بالدعاء له تعالى (وخفية) يعنى سرا فى أنفسكم وهو ضد العلانية والأدب فى الدعاء أن يكون خفيا لهذه الآية قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية وأن الله تعالى ذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال تعالى «إذ نادى ربه نداء خفيا» (ق) وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم والذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» قال أبو موسى رضى الله عنه وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فى نفسى فقال يا عبد الله بن قيس «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» قوله صلى الله عليه وسلم «اربعوا على أنفسكم» يعنى ارفقوا بها وأقصروا عن الصياح فى الدعاء. وقوله تعالى (إنه لا يحب المعتدين) يعنى فى الدعاء وقال أبو مجلز هم الذين يسألون منازل الأنبياء عن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنه يقول اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها قال أى بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء» أخرجه أبو داود وقال ابن جريج الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء وقيل الاعتداء مجاوزة الحد فى كل شىء فكل من خالف أمر الله ونهيه فقد اعتدى ودخل تحت قوله تعالى «إنه لا يحب المعتدين» وفرع بعض أرباب الطريقة على قوله تعالى «ادعوا ربكم تضرعا وخفية» هل الأفضل إظهار العبادات أم لا فذهب بعضهم إلى أن إخفاء الطاعات والعبادات أفضل من إظهارها لهذه الآية ولكونها أبعد عن الرياء وذهب بعضهم إلى أن إظهارها أفضل ليقتدى به الغير فيعمل مثل عمله وتوسط الشيخ محمد بن عبد الحكيم الترمذى فقال إن كان خائفا على نفسه من الرياء، فالأولى إخفاء العبادات صونا لعمله عن البطلان وإن كان قد بلغ فى الصفاء وقوة اليقين إلى التمكين بحيث صار مباينا شائبة الرياء كان الأولى فى حقه الإظهار لتحصل فائدة الاقتداء به؛ وذهب بعضهم إلى أن إظهار العبادات المفروضات أفضل من إخفائها فالصلاة المكتوبة فى المسجد أفضل من صلاته فى بيته وصلاة النفل فى البيت أفضل من صلاته فى المسجد وكذا إظهار الزكاة أفضل من إخفائها وإخفاء صدقة التطوع أفضل من إظهارها ويقاس على هذا سائر العبادات قوله تعالى (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) يعنى ولا تفسدوا أيها الناس فى الأرض بالمعاصى والكفر والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع والدعاء إلى طاعة الله تعالى وهذا معنى قول الحسن والسدى والضحاك والكلبى قال ابن عطية لا تعصوا فى الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بسبب معاصيكم فعلى هذا يكون معنى قوله بعد إصلاحها يعنى بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب وقيل معنى الآية ولا تفسدوا فى الأرض شيئا بعد أن أصلحه الله تعالى فيدخل فيه المنع من إتلاف النفس بالقتل أو إفسادها بقطع بعض الأعضاء وإفساد الأموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بوجوه الحيل وإفساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء المضلة

(إنه لا يحب المعتدين) قيل المعتدين فى الدعاء وقال أبو مجلز هم الذين يسألون منازل الأنبياء عليهم السلام أخبرنا عمر بن عبد العزيز الفاشانى أنبأنا القاسم بن جعفر الهاشمى أنبأنا أبو على محمد بن أحمد اللؤلؤى ثنا أبو داود السجستانى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد يعنى ابن سلمة أنبأنا سعيد الجريرى عن أبى نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء» وقيل أراد به الاعتداء بالجهر قال ابن جريج من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح روينا عن أبى موسى قال لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا» وقال عطية هم الذين يدعون على المؤمنين فيما لا يحل فيقولون اللهم اخزهم اللهم العنهم (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها)

أى لاتفسدوا فيها بالمعاصى والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله وهذا معنى قول الحسن والسدى والضحاك والكلبي وقال عطية لاتعصوا فى الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم فعلى هذا معنى قوله بعد إصلاحها أى بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب (وادعوه خوفا وطمعا) أى خوفا منه ومن عذابه وطمعا فيما عنده من مغفرته وثوابه وقال ابن جريج خوف العدل وطمع الفضل (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ولم يقل قريبة قال سعيد ابن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله «وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه» ولم يقل منها لأنه أراد الميراث والمال وقال الخليل بن أحمد القريب والبعيد يستوى فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع قال أبو عمرو ابن العلاء القريب فى اللغة يكون بمعنى القرب وبمعنى المسافة تقول العرب هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة وقريب منك إذا كانت بمعنى المسافة قوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا) قرأ عاصم بالباء وضمها وسكون الشين ههنا وفى الفرقان وسورة النمل يعنى أنها تبشر بالمطر بدليل قوله تعالى الرياح مبشرات وقرأ حمزة والكسائى نشرا بالنون وفتحها وهى الريح الطيبة اللينة قال الله تعالى والناشرات نشرا وقرأ المطر ابن عامر بضم النون وسكون الشين وقرأ الآخرون بضم النون والشين جمع نشور مثل صبور وصبر ورسول ورسل أى متفرقة وهى الرياح التى تهب من كل ناحية (بين يدى رحمته) أى قدام المطر أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنبأنا عبد العزيز بن أحمد

وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنا وإفساد العقول بسبب شرب المسكر وذلك لأن المصالح المعتبرة فى الدنيا هى هذه الخمسة فمنع الله من إدخال الفساد فى ماهيتها . وقوله تعالى (وادعوه خوفا وطمعا) أصل الخوف انزعاج فى الباطن لما لا يؤمن من المضار وقيل هو توقع مكروه يحصل فيما بعد والطمع توقع محبوب يحصل له والمعنى وادعوه خوفا منه ومن عقابه وطمعا فيما عنده من جزيل ثوابه وقال ابن جريج معناه خوف العدل والطمع الفضل وقيل معناه أدعوه خوفا من الرياء فى الذكر والدعاء طمعا فى الإجابة . فإن قلت قال فى أول الآية ادعوا ربكم تضرعا وخفية وقال هنا وادعوه وهذا هو عطف الشىء على نفسه فما فائدة ذلك قلت الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى ادعوا ربكم أى ليكن الدعاء مقرونا بالتضرع والإخبات وقوله وادعوه خوفا وطمعا أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين فكانت الآية الأولى فى بيان شرط صحة الدعاء والآية الثانية من بيان فائدة الدعاء وقيل معناه كونوا جامعين فى أنفسكم بين الخوف والرجاء فى أعمالكم كلها ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء وإن اجتهدتم فيهما (إن رحمة الله) أصل الرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم وتستعمل تارة فى الرقة المجردة عن الإحسان وتارة فى الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها البارى جل وعز فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والإنعام على عباده وإيصال الخير إليهم وقيل هى إرادة إيصال الخير والنعمة إلى عباده فعلى القول الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال وعلى القول الثانى تكون من صفات الذات (قريب من المحسنين) قال سعيد ابن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ وقيل أن تأنيث الرحمة ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وكون الرحمة قريبة من المحسنين لأن الإنسان فى كل ساعة من الساعات فى إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التى هى الثواب فى الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان . قوله عز وجل (وهو الذى يرسل الرياح) هذا عطف على ما قبله والمعنى أن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض وهو الذى يرسل الرياح (بشرا) قرئ نشرا بالنون أراد جمع نشور وهى الريح الطيبة الهبوب التى تهب من كل ناحية وقيل هو جمع ناشر يقال أنشر الله الريح بمعنى أحياها وقال الفراء النشر الريح الطيبة اللينة التى تنشئ السحاب وقال ابن الأنبارى النشر المنتشرة الواسعة الهبوب وقيل النشر خلاف الطى فيحتمل أنها كانت بانقطاعها كالمطوية فانتشرت بمعنى أرسلت وقرئ بشرا بالباء جمع بشيرة وهى التى تبشر بالمطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة والرياح أربعة الصبا وهى الشرقية والدبور وهى الغربية والشمال وهى التى تهب من تحت القطب الشمالى والجنوب وهى القبلية وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن الرياح ثمان : أربع منها عذاب وهى القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربع منها رحمة وهى الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات (بين يدى رحمته) يعنى أمام

المطر الذي هو رحمته وإنما سماه رحمة لأنه سبب لحياة الأرض الميتة قال أبو بكر بن الأنباري رحمه الله تعالى : اليدان تستعملهما العرب في المجاز على معنى التقدمة تقول هذه تكون في الفتن بين يدي الساعة يريدون قبل أن تقوم الساعة تشبيها وتمثيلا بما إذا كانت يد الإنسان تتقدمانه كذلك الرياح تتقدم المطر وتؤذن به عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله مابلغكم في الريح فلم يرجعوا إليه شيئا وبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركت عمر وكنت في مؤخر الناس فقلت ياأمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها» رواه الشافعي رضي الله عنه بطوله وأخرجه أبو داود في المسند عنه، وقال كعب الأحبار لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر أهل الأرض وقوله تعالى (حتى إذا أقلت سحابا ثقالا) يقال أقل فلان الشيء إذا حمله واشتقاق الإقلال من القلة فان من يرفع شيئا يراه قليلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمي سحابا لانسحابه في الهواء. والمعنى حتى إذا حملت هذه الرياح سحابا ثقالا بما فيه من الماء قال السدي : أن الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والأرض حيث يلتقيان فتخرجه من ثم ثم تنشره فتبسطه في السماء كيف يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك وقيل إن الله تعالى دبر بحكمته أن الرياح تتحرك تحريكا شديدا فتثير السحاب ثم ينضم بعضه إلى بعض فيتراكم وينعقد ويحمل الماء ثم تسوقه إلى حيث يشاء الله عز وجل وهو قوله تعالى (سقناه لبلد ميت) يعني إلى بلد فتكون اللام بمعنى إلى وقيل معناه لأجل حياة بلد ميت وإنما قال سقناه لأن لفظ السحاب مذكر وإن كان جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزا نظرا إلى اللفظ قال الأزهري رحمه الله تعالى : قال الليث البلد كل موضع من الأرض عامرا أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد زاد غيره والمفازة تسمى بلدة ، لكونها مسكن الوحش والجن . قال الأعشى :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة ... للجن بالليل في حافاتها زجل

ومعنى الآية : إنا سقنا السحاب إلى بلد ميت محتاج لإنزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم تنبت فيه خضرة (فأنزلنا به الماء) اختلفوا في الضمير في قوله تعالى به إلى ماذا يعود ؟ فقال الزجاج رحمه الله وابن الأنباري جائز أن يكون المعنى فأنزلنا بالبلد الميت الماء وجائز أن يكون المعنى وأنزلنا بالسحاب الماء لأن السحاب آلة لنزول الماء (فأخرجنا به) يعني بذلك الماء لأن إنزال الماء كان سببا لإخراج الثمرات وقيل يحتمل أن يكون المعنى فأخرجنا بذلك الماء (من كل الثمرات) يعني وأخرجنا بذلك البلد بعد موته وجد به من أصناف الثمار والزروع (كذلك نخرج الموتى) يعني كما أحيينا البلد الميت كذلك نخرج الموتى أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم واختلفوا في وجه التشبيه فقيل إن الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال المطر كذلك يحيي الموتى بواسطة إنزال المطر أيضا قال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما إن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحيوان أربعين سنة

الحلال أنبأنا أبو العباس الأصم أنبأنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا الثقة عن الزهري عن ثابت بن قيس عن أبي هريرة قال : أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر رضي الله عنه لمن حوله ما بلغكم في الريح فلم يرجعوا إليه شيئا فبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركت عمر وكنت في مؤخر الناس فقلت ياأمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الريح من روح الله تأتي بالرحمة وبالعذاب فلا تسبوها وسلوا الله من خيرها وتعوذوا به من شرها » ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري باسناده (حتى إذا أقلت) حملت الرياح (سحابا ثقالا) بالمطر (سقناه) ورد الكناية إلى السحاب (لبلد ميت) أي إلى بلد ميت محتاج إلى الماء ، وقيل معناه لإحياء بلد ميت لانبات فيه (فأنزلنا به) أي بالسحاب وقيل بذلك البلد (الماء) يعني من المطر (فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى) استدل باحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى

فينبتون كما ينبت الزرع من الماء، وفى رواية «أربعين يوما فينبتون فى قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون فى قبورهم فإذا نفخ فى الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم وهم يجدون طعم النوم فى رءوسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستوقظ من نومه فعند ذلك يقولون: «ياويلنا من بعثنا من مرقدنا» فيناديهم المنادى هذا «ماوعد الرحمن وصدق المرسلون» قال مجاهد: إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الأرض ثم يرسل الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها فكذلك يحيى الله الموتى بالمطر كأحيائه الأرض به وقيل إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء والمعنى أنه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه وموته فأنبت فيه الزرع والشجر وجعل فيه الثمر كذلك يحيي الله الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن كانوا أمواتا ورمما بالية لأن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ويخرجهم من قبورهم إلى حشرهم ونشرهم (لعلكم تذكرون) الخطاب لمنكرى البعث يقول إنكم شاهدتم الأشجار وهى مزهرة مورقة مثمرة فى أيام الربيع والصيف ثم إنكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الأزهار والأوراق والثمار ثم إن الله تعالى أحياها مرة أخرى فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها والمعنى: إنما وصفت ماوصفت من التشبيه والتمثيل لكى تعتبروا وتتذكروا وتعلموا أن من فعل ذلك كان هو الذى يعيد ويحيي. قوله تعالى (والبلد الطيب) يعنى والأرض الطيبة التربة السهلة السمحة (يخرج نباته باذن ربه) يعنى إذا أصابه المطر أخرج نباته باذن الله عز وجل (والذى خبث لايخرج) يعنى والبلد الذى خبث أرضه فهى سبخة لايخرج يعنى لايخرج نباته (إلا نكدا) يعنى عسرا بمشقة وكلفة قال الشاعر فى المعنى يذم إنسانا:

لاتنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت أعطيت تافها نكدا

يعنى بالتافه القليل وبالنكد العسير ومعناه إنك إن أعطيت أعطيت القليل بعسر ومشقة قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالأرض الحرة الطيبة وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة فاذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الأزهار والثمار وكذلك المؤمن إذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهرت منه الطاعات والعبادات وأنواع الأخلاق الحميدة وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة التى لاينتفع بها وإن أصابها المطر فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لاينتفع به ولايصدقه ولا يزيده إلا عتوا وكفرا وإن عمل الكافر حسنة فى الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها فى الآخرة قال ابن عباس رضى الله عنهما: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب كما أن البلد الطيب ثمره طيب ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التى خرجت منها البركة فالكافر خبيث وعمله خبيث وقال مجاهد هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن مثل مابعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله عز وجل ونفعه مابعثنى الله

(لعلكم تذكرون) قال أبو هريرة وابن عباس إذا مات الناس كلهم فى النفخة الأولى أرسل الله عليهم مطرا كمنى الرجال من ماء تحت العرش يدعى ماء الحيوان فينبتون فى قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون فى قبورهم ثم يحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم فى رءوسهم وأعينهم فعند ذلك يقولون ياويلنا من بعثنا من مرقدنا قوله تعالى (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه) هذا مثل ضربه الله للمؤمنين والكافرين فمثل المؤمن مثل البلد الطيب يصيبه المطر فيخرج نباته باذن ربه (والذى خبث) يريد الأرض السبخة التى (لايخرج) نباتها (إلا نكدا) قرأ أبو جعفر بفتح الكاف وقرأ الآخرون بكسرها أى عسرا قليلا بعناء ومشقة فالأول مثل المؤمن الذى إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به والثانى مثل الكافر

تعالى

الذى يسمع القرآن فلا يؤثر فيه كالبلد الخبيث الذى لا يتبين أثر المطر فيه (كذلك نصرف الآيات) نبينها (لقوم يشكرون) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله عن أبى بردة عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» قوله تعالى (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس وهو أول نبى بعثه الله بعد إدريس وكان نجارا بعثه الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة وقال ابن عباس ابن أربعين سنة وقيل بعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقال مقاتل ابن مائة سنة وقال ابن عباس سمى نوحا لكثرة ما ناح على نفسه واختلفوا فى سبب نوحه فقال بعضهم لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه فى شأن ابنه كنعان وقيل لأنه مر بكلب مجذوم فقال اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه أعبتنى أم عبت الكلب (فقال) لقومه (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) قرأ أبو جعفر والكسائى من إله غيره بكسر الراء حيث كان على نعت الإله وافق حمزة فى سورة فاطر هل من خالق غير الله وقرأ الآخرون برفع الراء على التقدم تقديره ما لكم غيره من إله (إنى أخاف عليكم) إن لم تؤمنوا (عذاب يوم عظيم

تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذى أرسلت به» أخرجاه فى الصحيحين . وقوله تعالى (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) يعنى كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية وحيث جنبهم سبيل الضلالة وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن . قوله عز وجل (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) اعلم أن الله تبارك وتعالى لما ذكر فى الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعته الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم مع أممهم وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ لأنه لم يكن إعراض قومه فقط عن قبول الحق بل قد أعرض عنه سائر الأمم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على أن عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت إلى الخسار والهلاك فى الدنيا وفى الآخرة إلى العذاب العظيم فمن كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الأمم المكذبة وفى ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحدا من علماء زمانه فلما أتى بمثل هذه القصص والأخبار عن القرون الماضية والأمم الخالية مما لم ينكره عليه أحد علم بذلك أنه إنما أتى به من عند الله عز وجل وإنه أوحى إليه ذلك فكان دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى «لقد أرسلنا نوحا إلى قومه» لقد أرسلنا نوحا جواب قسم محذوف تقديره والله لقد أرسلنا نوحا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه الصلاة والسلام ومعنى أرسلنا بعثنا وهو أول نبى بعثه الله تعالى بعد إدريس وكان نوح عليه الصلاة والسلام نجارا وقيل معنى الإرسال أن الله تعالى حمله رسالة ليؤديها إلى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة تكون متضمنة للبعث أيضا ويكون البعث كالتابع لأنه أصل قال ابن عباس رضى الله عنهما بعثه الله وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين خمسين سنة وقيل هو ابن مائة سنة وقال ابن عباس رضى الله عنهما سمى نوحا لكثرة نوحه على نفسه واختلفوا فى سبب نوحه فقيل لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه فى شأن ابنه كنعان وقيل لأنه مر بكلب مجذوم فقال له إخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه أعبتنى أم عبت الكلب؟ (فقال) يعنى نوحا لقومه (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) يعنى اعبدوا الله تعالى فانه هو الذى يستحق العبادة لا غيره فانه ليس لكم إله معبود سواه فانه هو الذى يستوجب أن يعبد (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) يعنى إن لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته واليوم الذى خافه عليهم وهو إما يوم الطوفان

قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال) خطأ وزوال عن الحق (مبين) بين (قال) نوح (ياقوم ليس بى ضلالة) ولم يقل ليست لأن معنى الضلالة الضلال أو على تقديم الفعل (ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم) قرأ أبو عمرو أبلغكم بالتخفيف حيث كان من الإبلاغ لقوله لقد أبلغتكم (رسالات ربى) ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وقرأ الآخرون بالتشديد من التبليغ لقوله تعالى بلغ ما أنزل إليك . رسالات ربى (وأنصح لكم) يقال نصحته ونصحت له والنصح أن يريد لغيره من الخير ما يريد لنفسه (وأعلم من الله ما لا تعلمون) إن عذابه لا يرد عن القوم المجرمين (أو عجبتم) ألف استفهام دخلت على واو العطف (أن جاءكم ذكر من ربكم) قال ابن عباس رضى الله عنهما موعظة وقيل بيان وقيل رسالة (على رجل منكم لينذركم) عذاب الله إن لم تؤمنوا (ولتتقوا) أى لكى تتقوا الله (ولعلكم ترحمون) لكى ترحموا (فكذبوه) يعنى كذبوا نوحا (فأنجيناه) من الطوفان (والذين معه فى الفلك) فى السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين) أى كفارا قال ابن عباس رضى الله عنهما عميت قلوبهم عن معرفة الله . قال الزجاج عموا عن الحق والإيمان يقال رجل عم عن الحق وأعمى فى البصر وقيل العمى والأعمى كالخضر والأخضر قال مقاتل عموا عن نزول العذاب وهو الغرق قوله تعالى (وإلى عاد أخاهم هودا) أى وأرسلنا إلى عاد وهو عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وهى عاد الأولى أخاهم فى النسب لا فى الدين وهو هود

وإهلاككم فيه أو يوم القيامة وإنما قال أخاف على الشك وإن كان على يقين من حلول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به لأنه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة (قال الملأ) وهم الجماعة الأشراف (من قومه إنا لنراك) يعنى يا نوح (فى ضلال مبين) يعنى فى خطأ وزوال عن الحق بين (قال) يعنى نوحا (ياقوم ليس بى ضلالة) يعنى ما بى ما تظنون من الضلال (ولكنى رسول من رب العالمين) يعنى هو أرسلنى إليكم لأنذركم وأخوفكم إن لم تؤمنوا به وهو قوله (أبلغكم رسالات ربى) يعنى بتحذيرى إياكم عقوبة على كفركم إن لم تؤمنوا به (وأنصح لكم) يقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له والنصح إرادة الخير لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح تحرى قول أو فعل فيه صلاح للغير وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه والمعنى أنه قال أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وأرشدكم إلى الوجه الأصلح والأصوب لكم وأدعوكم إلى ما دعانى إليه وأحب لكم ما أحب لنفسى قال بعضهم والفرق بين إبلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى أوجبها الله تعالى عليهم . وأما النصيحة فهو أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم عقابه إن عصوه (وأعلم من الله ما لا تعلمون) يعنى وأعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان والغرق فى الدنيا ويعذبكم فى الآخرة عذابا عظيما وقيل أعلم أن مغفرة الله تعالى لمن تاب وعقوبته لمن أصر على الكفر وقيل لعل الله تعالى أطلعه على سر من أسراره فقال وأعلم من الله ما لا تعلمون (أو عجبتم) الألف ألف استفهام والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وهذا الاستفهام استفهام إنكار معناه أكذبتم وعجبتم (أن جاءكم ذكر من ربكم) يعنى وحيا من ربكم (على رجل منكم) تعرفونه وتعرفون نسبه وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب وقيل المراد بالذكر الكتاب الذى أنزله الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام سماه ذكرا كما سمى القرآن ذكرا وقيل المراد بالذكر المعجزة التى جاء بها نوح عليه السلام فعلى هذا تكون على بمعنى مع أى مع رجل منكم قال الفراء على هنا بمعنى مع (لينذركم) يعنى جاءكم لأجل أن ينذركم (ولتتقوا) أى ولأجل أن تتقوا (ولعلكم ترحمون) لأن المقصود من إرسال الرسل الإنذار والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغى والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة فى الدار الآخرة (فكذبوه) يعنى فكذبوا نوحا (فأنجيناه) يعنى من الطوفان والغرق (والذين معه) يعنى من آمن من قومه معه (فى الفلك) يعنى فى السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين) قال ابن عباس رضى الله عنهما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى وقال الزجاج عموا عن الحق والإيمان يقال رجل عم فى البصيرة وأعمى فى البصر وانشدوا قول زهير :

واعلم ما فى اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غد عم

قال مقاتل عموا عن نزول العذاب بهم وهو الغرق . قوله تعالى (وإلى عاد أخاهم هودا) أى

وأرسلنا إلى عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وهى عادا الأولى أخاهم هودا يعنى أخاهم فى النسب لا فى الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وقال ابن إسحاق هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح واتفقوا على أن هودا عليه الصلاة والسلام لم يكن أخاهم فى الدين ثم اختلفوا فى سبب الأخوة من أين حصلت فقيل إنه كان واحدا من القبيلة فيتوجه قوله أخاهم لأنه واحد منهم وقيل أنه لم يكن من القبيلة ثم ذكروا فى تفسير هذه الإخوة وجهين: الأول قال الزجاج أنه كان من بنى آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفى هذا القدر فى تسمية الأخوة والمعنى إنا أرسلنا إلى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون الفهم والأنس بكلامه أتم وأكمل ولم نبعث إليهم من غير جنسهم مثل الملك أو الجن والثانى إنه أخاهم يعنى صاحبهم والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالأحقاف باليمن والأحقاف الرمل الذى عند عمان وحضر موت (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه إلها آخر فانه ليس لكم إله غيره والفرق بين قوله فى قصة نوح وهنا قال إن نوحا كان مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها لأن الفاء تدل على التعقيب. وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح فى المبالغة فى الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله «قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره» (أفلا تتقون) يعنى أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره ولما كانت هذه القصة منسوقة على قصة قوم نوح وقد علموا ماحل بهم من الغرق حسن قوله هنا أفلا تتقون يعنى أفلا تخافون مانزل بهم من العذاب ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح شىء حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) يعنى إنا لنراك ياهود فى حمق وجهالة وضلالة عن الحق والصواب أخبر الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا له إنا لنراك فى ضلال مبين وأخبر عن قوم هود أنهم قالوا إنا لنراك فى سفاهة والفرق بينهما أن نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق فى عمل السفينة قال له قومه عند ذلك إنا لنراك فى ضلال مبين حيث تتعب في إصلاح سفينة فى أرض ليس فيها من الماء شىء وأما هود عليه السلام فانه لما زيف عبادة الأصنام ونسب من عبدها إلى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا إنا لنراك فى سفاهة (وإنا لنظنك من الكاذبين) يعنى فى أدعائك أنك رسول من عند الله (قال) يعنى قال هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه إلى السفه (ياقوم ليس بى سفاهة) يعنى ليس الأمر كما تدعون أن بى سفاهة (ولكنى رسول من رب العالمين) يعنى إليكم (أبلغكم رسالات ربى) يعنى أؤدى إليكم ماأرسلنى به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه (وأنا لكم ناصح) يعنى فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل وترك عبادة ماسواه (أمين) يعنى على تبليغ الرسالة وأداء النصح والأمين الثقة على ماائتمن عليه حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال وأنصح لكم وحكى عن هود عليه الصلاة والسلام أنه قال وأنا لكم ناصح فالأول بصيغة الفعل والثانى بصيغة اسم الفاعل والفرق بينهما أن صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة فكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما أخبر الله عنه بقوله قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وأنا لكم ناصح أمين والمدح للنفس بأعظم صفات

ابن عبد الله بن رباح ابن الجلود بن عاد بن عوص وقال ابن إسحاق هو ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون) أفلا تخافون نقمته (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك) ياهود (فى سفاهة) فى حمق وجهالة قال ابن عباس رضى الله عنهما تدعو إلى دين لانعرفه (وإنا لنظنك من الكاذبين) أنك رسول الله إلينا (قال) هود (ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) ناصح أدعوكم إلى التوبة أمين

على الرسالة . قال الكلبي كنت فيكم قبل اليوم أمينا (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) يعنى نفسه (لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء) يعنى فى الأرض (من بعد قوم نوح) أى من بعد إهلاكهم (وزادكم فى الخلق بسطة) أى طولا وقوة قال الكلبي والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستون ذراعا وقال أبو حمزة الثمالى سبعون ذراعا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ثمانون ذراعا وقال مقاتل كان طول كل رجل إثنى عشر ذراعا وقال وهب كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل يفرخ فيها الضباع وكذلك مناخرهم (فاذكروا آلاء الله) نعم الله واحدها ألى وإلى مثل معى وأمعاء وقفا وأقفاء ونظيرها آناء الليل واحدها أنى وإنى (لعلكم تفلحون قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) من الأصنام (فأتنا بما تعدنا) من العذاب (إن كنت من الصادقين قال) هود (قد وقع) وجب ونزل (عليكم من ربكم رجس) أى عذاب والسين مبدلة من الزاى (وغضب) أى سخط (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها) وضعتموها (أنتم وآباؤكم) قال أهل التفسير كانت لهم أصنام يعبدونها سموها أسماء مختلفة (ما نزل الله بها من سلطان) حجة وبرهان (فانتظروا) نزول العذاب (إنى معكم فهم من المنتظرين فأنجيناه) يعنى هودا عند نزول العذاب (والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) أى استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم (وما كانوا مؤمنين) .

﴿ قصة عاد ﴾

ماذكره محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا ينزلون اليمن وكانت مساكنهم بالأحقاف ، وهى رمال بين عمان وحضرموت

المدح غير لائق بالعقلاء وإنما فعل هود ذلك وقال هذا القول لأنه كان يجب عليه إعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم فى قولهم وإنا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالأمانة وأنه أمين فى تبليغ ماأرسل به من عند الله ففيه تقرير للرسالة والنبوة وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه فى موضع الضرورة إلى مدحها (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) يعنى أعجبتم أن أنزل الله وحيه على رجل تعرفونه لينذركم بأس ربكم ويخوفكم عقابه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) يعنى واذكروا نعمة الله عليكم إذا أهلك قوم نوح وجعلكم تخلفونهم فى الأرض (وزادكم فى الخلق بسطة) يعنى طولا وقوة قال الكلبي والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا وقيل سبعين ذراعا عن ابن عباس رضى الله عنهما ثمانين ذراعا وقال مقاتل اثنى عشر ذراعاوقال وهب كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة (فاذكروا آلاء الله) يعنى نعم الله وفيه إضمار تقديره فاذكروا نعمة الله عليكم واعملوا عملا يليق بذلك الإنعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ماأنتم عليه من عبادة الأصنام (لعلكم تفلحون) يعنى لكى تفوزوا بالفلاح وهو البقاء فى الآخرة (قالوا) يعنى قال قوم هود مجيبين له (أجئتنا) ياهود (لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) يعنى من الأصنام (فأتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (إن كنت من الصادقين) يعنى فى قولك إنك رسول الله (قال) يعنى قال هود مجيبا لهم (قد وقع) يعنى نزل ووجب (عليكم من ربكم رجس وغضب) أى عذاب وسخط (أتجادلوننى) يعنى أتخاصموننى(فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) يعنى وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار عليهم لأنهم سموا الأصنام بالآلهة وذلك معدوم فيها (ما نزل الله بها من سلطان) يعنى من حجة وبرهان على هذه التسمية وإنما سميتموها أنتم من عند أنفسكم بغير دليل (فانتظروا) يعنى العذاب (إنى معكم من المنتظرين) يعنى نزول العذاب بكم (فأنجيناه) يعنى فأنجينا هودا عند نزول العذاب بقومه (والذين معه برحمة منا) يعنى وأنجينا أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه لأنهم كانوا مستحقين للرحمة (وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) يعنى وأهلكنا الذين كذبوا هودا من قومه وأراد بالآيات معجزات هود عليه الصلاة والسلام الدالة على صدقه وهذا هلاك استئصال فهلكوا جميعا ولم يبق منهم واحد (وما كانوا مؤمنين) يعنى لأنهم لم يكونوا مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه الصلاة والسلام :

(ذكر قصة عاد على ماذكره محمد بن إسحاق وأصحاب السير والأخبار)

قالوا جميعا كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى إليهم هودا عليه الصلاة والسلام الأحقاف والأحقاف الرمل فيما بين عمان وحضرموت من أرض اليمن وكانوا قد فسقوا فى الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى جعلها الله فيهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له صداء وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله عز وجل

وكانوا قد فشوا فى الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله عز وجل وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها صنم يقال له صدأ وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله إليهم هودا نبيا وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا فأمرهم أن يوحدوا الله ويكفوا عن ظلم الناس لم يأمرهم بغير ذلك فكذبوه وقالوا من أشد منا قوة وبنو المصانع وبطشوا بطشة الجبارين فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء فطلبوا الفرج كانت طلبتهم إلى الله عز وجل عند بيته الحرام بمكة مسلمهم ومشركهم فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم وكلهم معظم لمكة وأهل مكة يومئذ العماليق سموا عماليق لأن أباهم عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجل يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخيبرى رجل من عاد فلما قحط المطر عن عاد وجهدوا قالوا جهزوا وفدا منكم إلى مكة فليستسقوا لكم فبعثوا قيل ابن عنز ونعيم ابن هزال من هزيل وعقيل بن صندين ابن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما يكتم إسلامه وجلهمة بن الخيبرى خال معاوية بن بكر ثم بعثوا لقمان بن عاد الأصغر بن صندين بن عاد الأكبر فانطلق كل رجل من هؤلاء ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية ابن بكر وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوثون بهم من البلاء الذى أصابهم شق ذلك عليه وقال : هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى والله ما أدرى كيف أصنع بهم أستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه فيظنون أنه ضيق منى بمقامهم عندى وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعرا نغنهم به لا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال معاوية بن بكر :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غماما

فيسقى أرض عاد إن عادا ... قد امسوا لا يبينون الكلاما

فيهم هودا عليه الصلاة والسلام وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك فيما ذكر فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس فآمنوا به وهم يسير يكتمون إيمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له مرثد بن سعد بن عفير وكان يكتم إيمانه فلما عتوا على الله وكذبوا نبيهم وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد يطلبون الفرج من الله عز وجل وذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم ومشركهم وكان يجتمع بمكة ناس كثير مختلفة أديانهم وكل معظم مكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عز وجل وكان البيت معروفا مكانه من الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وإنما سموا العماليق لأن أباهم كان عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيد العماليق يومئذ رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخيبرى وهو رجل من عاد وكانت عاد أخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقل عنهم المطر قالوا جهزوا منكم وفدا إلى مكة ليستسقوا لكم فانكم قد هلكتم فبعثوا قيل بن عنز ونعيم ابن هزال من هزيل وعقيل بن صنديد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما يكتم إسلامه وجلهمة بن الخيبرى خال معاوية بن بكر سيد العماليق ولقمان بن عاد فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذى أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى نازلون على والله ما أدرى كيف أصنع فانى أستحى أن آمرهم بالخروج لما بعثوا إليه فيظنوا أنه ضيق منى بمكانهم عندى وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا قال

من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش تأتيهم جهارا فلا تخشى لعادى سهاما وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركمو وليلكمو تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما فلما غنتهم الجرادتان هذا قال بعضهم لبعض ياقوم
إنما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم فقال مرثد
ابن سعد بن عفير وكان قد آمن بهود سراً إنكم والله لاتسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سقيتم فأظهر
إسلامه عند ذلك وقال شعرا : (٢٥٠) عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشا ماتبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود
يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد
فأبصرنا الهدى وجلى العماء
وأن إله هود هو إلهى
على الله التوكل والرجاء
فقالوا لمعاوية بن بكر أحبس عنا مرثد بن سعد فلا يقدمن معنا بمكة فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا إلى مكة يستسقون لعاد فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا الله بشىء مما خرجوا له فلما انتهى إليهم قام يدعو الله وبها

وشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال معاوية :

ألا ياقيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد إن عاداً قد أمسوا لايبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمو بخير فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشى لعادى سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركمو وليلكمو تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ماغنتابه قال بعضهم لبعض ياقوم إنما بعثكم قومكم ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد بن عفير إنكم والله لاتسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم سقيتم وأظهر إسلامه عند ذلك وقال فى ذلك :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشا ماتبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد فأبصرنا الهدى وجلا العماء
وأن إله هود هو إلهى على الله التوكل والرجاء

زاد فى رواية :

لقد حكم الإله وليس جورا وحكم الله إن غلب الهواء
على عاد وعاد شر قوم فقد هلكوا وليس لهم بقاء
وإنى لن أفارق دين هود طوال الدهر أو يأتى الفناء

فقال جلهمة بن الخيبرى مجيبا لمرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف أنه اتبع دين هود وآمن به :

ألا

وفد عاد يدعون فقال اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شىء مما يدعوك
به وفد عاد وكأن قيل ابن عنز رأس وفد عاد فقال وفد عاد اللهم أعط قيلا ماسألك واجعل سؤلنا مع سؤله وكان قد تخلف
عن وفد عاد حين دعوا لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى إذا فرغوا من دعوتهم فقال اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى
فأعطنى سؤلى وسأل الله طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر وقال قيل بن عنز حين دعا ياإلهنا إن كان هود صادقا فاسقنا
فانا قد هلكنا فأنشأ الله سحائب ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السحاب ياقيل اختر لنفسك وقومك من هذه
السحائب ماشئت فقال قيل اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمددا لايبقى من آل
عاد أحدا وساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث

فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله تعالى ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ أي كل شيء مرت به وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا لها ماذا رأيت قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فلم تدع من عاد حدا إلا هلك واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس وأنها لتمر من عاد

بالظعن فتحملهم بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه . فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة في ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر فقالوا له فأين فارقت هودا وأصحابه فقال فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هزيلة بنت بكر صدق ورب مكة وذكروا أن مرثد ابن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم قد أعطيتم مناكم فاختاروا لأنفسكم إلا أنه لا سبيل إلى الخلود ولا بد من الموت : فقال مرثد اللهم أعطني صدقا وبرا فأعطي ذلك وقال لقمان أعطني يارب عمرا فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسر . فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذ الذكر منها لقوته حتى إذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانون سنة وكان آخرها لبدا فلما مات لبد مات لقمان معه وأما قيل فأنه قال أختار أن يصيبني ما أصاب قومي فقيل له أنه الهلاك فقال لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعدهم فأصابه الذي أصاب عادا من البلاء والعذاب فهلك قال السدي بعث الله على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلما رأوها تبادروا البيوت فدخلوها وأغلقوا

ألا يا سعد إنك من قبيل ... ذوي كرم وأمك من ثمود

فانا لا نطيعك ما بقينا ... ولسنا فاعلين لما تريد

أتأمرنا لنترك دين وفد ... ورمل والصداء مع الصمود

ونترك دين آباء كرام ... ذوي رأي ونتبع دين هود

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبسا عنا مرثدا فلا يقدمن معنا مكة فانه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد ابن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعو الله بشيء مما خرجوا إليه فلما انتهى إليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعونه فقال مرثد اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني فيما يدعوك به وفد عاد وقام قيل بن عنز رأس وفد عاد يدعو فقال اللهم أعط قيلا ما سألك وقال الوفد معه واجعل سؤلنا مع سؤله وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى إذا فرغوا من دعواتهم قام لقمان فقال اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي وسأل طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر وقال قيل بن عنز حين دعا يا إلهنا إن كان هود صادقا فاسقنا فانا قد هلكنا فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء ياقيل اختر لقومك ولنفسك من هذه السحائب فقال قيل قد اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمددا لا يبقي من آل عاد أحدا وساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عز وجل ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء﴾ أي كل شيء مرت به بأمر ربها وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما عرفت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما أن أفاقت قالوا لها ماذا رأيت قالت رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فلم تدع من آل عاد أحدا إلا أهلكه واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ به الأنفس وإنها في قوتها لتمر بالظعن من عاد فتحملهم بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل إليه رجل على ناقة في ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر فقالوا له أين فارقت هودا وأصحابه

أبوابهم فجاءت الريح فقلعت أبوابهم فدخلت عليهم فأهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت فلما أهلكهم الله أرسل عليهم طيرا سوداء فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه وروى أن الله عز وجل أمر الريح فأهالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم فى البحر ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فانها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفى الحديث أنها خرجت على قدر خرق الخاتم وروى عن على أن قبر هود بحضرموت فى كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن سابط بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسمعيل فى تلك البقعة وروى أن النبى من الأنبياء إذا هلك قومه جاء هو والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله فيها حتى يموتوا قوله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحا) وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وأراد ههنا القبيلة قال أبو عمرو بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى أخاهم صالحا أى أرسلنا إلى ثمود أخاهم فى النسب لا فى الدين صالحا وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن خادر بن ثمود (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره   العلماء قدجاءتكم بينة) حجة (من ربكم) على صدقى (هذه ناقة الله) أضافها إليه على التفضيل والتخصيص كما يقال بيت الله (لكم آية)

فقال فارقتهم بساحل البحر وكأنهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر صدق ورب الكعبة. وقال السدى بعث الله عز وجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلما رأوها تبادروا إلى البيوت فدخلوها وأغلقوا الأبواب فجاءت الريح فقلعت أبوابهم ودخلت عليهم فأهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت فلما أهلكتهم أرسل الله تعالى عليهم طيرا أسود فنقلهم إلى البحر فألقاهم فيه وقيل إن الله تعالى أمر الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم فى البحر ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فانها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفى الحديث « إنما خرجت على مثل خرق الخاتم » وقيل إن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل ابن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم أعطيتم مناكم فاختاروا لأنفسكم غير أنه لاسبيل إلى الخلود ولابد من الموت فقال مرثد اللهم أعطنى برا وصدقا فأعطى ذلك وقال لقمان اللهم أعطنى عمرا فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة وكان يأخذ الذكر لقوته فيربيه حتى يموت فاذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان السابع من النسور اسمه لبد فلما مات لبد مات لقمان معه . وأما قيل فانه اختار لنفسه مايصيب قومه فقيل له إنه الهلاك فقال لا أبالى لاحاجة لى فى البقاء بعد قومى فأصابه الذى أصاب عادا فهلك ومن معه من الوفد الذين خرجوا يستسقون لعاد فأتت الريح لما خرجوا من الحرم فأهلكتهم جميعا فلما أهلك الله عادا ارتحل هود ومن معه من المؤمنين من أرضهم بعد هلاك قومه إلى موضع يقال له الشجر من أرض اليمن فنزل هناك ثم أدركه الموت فدفن بأرض حضرموت روى عن على أبى طالب كرم الله وجهه أن قبر هود عليه الصلاة والسلام بحضرموت فى كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن شبابة بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وأن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام فى تلك البقعة وروى أن كل نبى من الأنبياء كان إذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه إلى مكة يعبدون الله تعالى حتى يموتوا بها . قوله عز وجل (وإلى ثمود أخاهم صالحا) يعنى وأرسلنا إلى ثمود وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس ابن عابر وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وماحوله ومعنى الكلام وإلى بنى ثمود أخاهم صالحا لأن ثمود قبيلة قال أبو عمرو بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وقيل سموا ثمود باسم أبيهم الذى ينسبون إليه أخاهم صالحا يعنى فى النسب لا فى الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) يعنى قال لهم صالح حين أرسله الله تعالى إليهم ياقوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئا فما لكم من إله يستحق أن يعبد سواه (قد جاءتكم بينة من ربكم) يعنى جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ماأقول وأدعو إليه من عبادة الله تعالى وأن لاتشركوا به شيئا وعلى تصديق بأنى رسول الله إليكم ثم فسر تلك البينة فقال (هذه ناقة الله لكم آية) يعنى علامة على صدقى قال

نصب على الحال (فذروها تأكل) العشب (فى أرض الله ولا تمسوها بسوء) لاتصيبوها بعقر (فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم) أسكنكم وأنزلكم (فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا) كانوا ينقبون فى الجبال البيوت ففى الصيف يسكنون بيوت الطين وفى الشتاء بيوت الجبال : وقيل كانوا ينحتون البيوت فى الجبل لأن بيوت الطين ما كانت تبقى مدة أعمارهم لطول أعمارهم (فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) والعثو أشد الفساد (قال الملأ) قرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو (الذين استكبروا من قومه) يعنى الأشراف والقادة الذين تعظموا عن الإيمان بصالح (للذين استضعفوا) يعنى الأتباع (لمن آمن منهم) يعنى قال الكفار للمؤمنين (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) إليكم (قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون) جاحدون (فعقروا الناقة) قال الأزهرى العقر هو قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا لأن ناحر البعير يعقر، ثم ينحره (وعتوا عن أمر ربهم) والعتو الغلو فى الباطل يقال عتا يعتو عتوا إذا استكبر والمعنى عصوا الله وتركوا أمره فى الناقة وكذبوا نبيهم (وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا) أى من العذاب (إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة) وهى زلزلة الأرض وحركتها

العلماء رحمهم الله تعالى ووجه كون هذه الناقة آية على صدق صالح ومعجزة له خارقة للعادة أنها خرجت من صخرة فى الجبل وكونها لا من ذكر ولا من أنثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج لأنها خلقت فى ساعة وخرجت من الصخرة وقيل لأنه كان لها شرب يوم وللجميع قبيلة ثمود شرب يوم وهذا من المعجزة أيضا لأن ناقة تشرب ماتشربه قبيلة معجزة وكانوا يحلبونها فى يوم شربها قدر مايكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء وهذا أيضا معجزة وقيل إن سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء فى يوم شرب الناقة وتشرب الحيوانات الماء فى غير يوم الناقة وهذا أيضا معجزة وإنما أضافها إلى الله تعالى فى قوله هذه ناقة الله على سبيل التفضيل والتشريف كما يقال بيت الله وقيل لأن الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى وقيل لأنه لم يملكها أحد إلا الله تعالى وقيل لأنها كانت حجة الله على قوم صالح (فذروها تأكل فى أرض الله) يعنى فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله فان الأرض لله والناقة أيضا لله وليس لكم فى أرض الله شىء لأنه هو الذى أنبت العشب فيها (ولا تمسوها بسوء) يعنى ولا تطردوها ولا تقربوها بشىء من أنواع الأذى ولا تعقروها (فيأخذكم عذاب أليم) يعنى بسبب عقرها وأذاها (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) يعنى أن الله أهلك عادا وجعلكم تخلفونهم فى الأرض وتعمرونها (وبوأكم) يعنى وأسكنكم وأنزلكم (فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا) يعنى تبنون القصور من سهولة الأرض لأن القصور إنما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين (وتنحتون الجبال بيوتا) يعنى وتشقون بيوتا من الجبال وقيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف والجبال فى الشتاء وهذا يدل على أنهم كانوا متمتعين مترفهين (فاذكروا آلاء الله) أى فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) قال قتادة معناه ولا تسيروا فى الأرض مفسدين فيها والعثو أشد الفساد وقيل أراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهى عن جميع أنواع الفساد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعنى قال الأشراف الذين تعظموا عن الإيمان بصالح (للذين استضعفوا) يعنى المساكين (لمن آمن منهم) يعنى قال الأشراف المتعظمون فى أنفسهم لأتباعهم الذين آمنوا بصالح وهم الضعفاء من قومه (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) يعنى أن الله أرسله إلينا وإليكم (قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) يعنى قال الضعفاء إنا بما أرسل الله به صالحا من الدين والهدى مصدقون (قال الذين استكبروا) يعنى عن أمر الله والإيمان به وبرسوله صالح (إنا بالذى آمنتم به كافرون) أى جاحدون منكرون (فعقروا الناقة) يعنى فعقرت ثمود الناقة والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره (وعتوا عن أمر ربهم) أى تكبروا عن أمر ربهم وعصوه والعتو الغلو فى الباطل والتكبر عن الحق والمعنى أنهم عصوا الله وتركوا أمره فى الناقة وكذبوا نبيهم صالحا عليه الصلاة والسلام (وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (إن كنت من المرسلين) يعنى إن كنت كما تزعم أنك رسول الله فان الله تعالى ينصر رسله على أعدائه وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا مكذبين فى كل ما أخبرهم به من العذاب فعجل الله لهم ذلك فقال تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج الرجفة

وأهلكوا للصيحة والرجفة (فأصبحوا فى دارهم) قيل أراد الديار وقيل أراد فى أرضهم وبلدتهم ولذلك وحد الدار (جاثمين) خامدين ميتين قيل سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم (فتولى) أعرض صالح (عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين) فان قيل كيف خاطبهم بقوله لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم بعد ما أهلكوا بالرجفة قيل كما خاطب النبى صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقاهم فى القليب فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم « أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فانا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا فقال عمر يارسول الله ماتكلم من أجساد لا أرواح لها فقال النبى ﷺ والذى نفس محمد بيده ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لايجيبون » وقيل خاطبهم ليكون عبرة لمن خلفهم وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديرها فتولى عنهم وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى فأخذتهم الرجفة . وكان قصة ثمود على ماذكره محمد بن إسحاق ووهب وغيرهما ان عادا لما هلكت وتقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا فى الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل أحدهم يبنى المسكن من المدر فينهدم والرجل منهم حى فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا فى سعة من معاشهم فعثوا وأفسدوا فى الأرض وعبدوا غير الله فبعث الله فيهم صالحا وكانوا قوما عربا وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا وموضعا فبعثه الله إليهم غلاما شابا فدعاهم وسألوها

الزلزلة الشديدة العظيمة وقال مجاهد والسدى هى الصيحة فيحتمل أنهم أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا وهو قوله تعالى (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) يعنى فأصبحوا فى أرضهم وبلدهم جاثمين ولذلك وحد الدار كما يقال دار الحرب أى بلد الحرب ودار بنى فلان بمعنى موضعهم ومجمعهم وجمع فى آية أخرى فقال فى ديارهم لأنه أراد مالكل واحد منهم من الديار والمساكن وقوله جاثمين يعنى باركين على الركب والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئا بالأرض فى حال نومه وسكونه بالليل والمعنى أنهم أصبحوا جاثمين على وجوههم موتى لايتحركون (فتولى عنهم) يعنى فأعرض عنهم صالح وفى وقت هذا التولى قولان : أحدهما أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله « فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم » والفاء للتعقيب فدل على أنه جعل هذا التولى بعد جثومهم وهو موتهم والقول الثانى أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين) وهذا الخطاب لايليق إلا بالأحياء فعلى هذا القول يحتمل أن يكون فى الآية تقديم وتأخير تقديره فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا أنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخا وتقريعا كما خاطب النبى صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا فى القليب فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث فى الصحيح وفيه فقال عمر يارسول الله كيف تكلم أقواما قد جيفوا فقال ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لايجيبون وقيل إنما خاطبهم صالح بذلك ليكون عبرة لمن يأتى من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التى كانوا عليها .

﴿ ذكر قصة ثمود على ماذكره محمد بن إسحاق ووهب بن منبه وغيرهما من أصحاب السير والأخبار ﴾

قالوا جميعا إن عادا لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا فى الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى إن أحدهم ليبنى المسكن من المدر فينهدم والرجل حى فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا فى سعة من العيش والرخاء فعثوا وأفسدوا فى الأرض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى إليهم صالحا نبيا وكانوا قوما عربا وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم بيتا وحسبا فبعثه الله تعالى إليهم وهو غلام فلم يزل يدعوهم إلى الله تعالى و إلى عبادته حتى شمط وكبر فلم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا على مايقول فقال صالح أى آية تريدون فقالوا تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه أصنامهم . وذلك فى يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو إلهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم

إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا لما يقول فقال لهم أى آية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم فى يوم معلوم من السنة فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شىء مما يدعوا به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود ياصالح أخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ماشاكل البخت من الإبل : فان فعلت صدقناك وآمنا بك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقنى ولتؤمنن بى قالوا نعم فصلى صالح ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها عظما إلا الله وهم ينظرون ثم نتجت سقبا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فنهاهم ذؤاب بن عمر بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمعر وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة قال لهم صالح هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء فكانت ترد الماء غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها فى بئر فى الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ماء فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتفتح حتى تفجج لهم فيحلبون ماشاءوا من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملئوا أوانيهم كلها ثم تصدر من غير الفج الذى وردت منه لا تقدر أن تصدر من حيث ترد يضيق عنها حتى إذا كان يومهم فيشربون ما شاءوا من الماء ويدخرون ماشاءوا ليوم الناقة فهم من ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منها المواشى أغنامهم وبقرهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادى فى حره وجدبه وذلك أن المواشى تنفر منها إذا رأتها وتشتو ببطن الوادى إذا كان الشتاء فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود إحداهما يقال لها عنيزة بنت غنم بن مجلز تكنى بأم غنم وكانت امرأة ذؤاب ابن عمرو وكانت عجوز مسنة وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوف بنت المحيا وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بهما من مواشيهما فتحيلتا فى عقر الناقة فدعت صدوف رجلا من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل

وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شىء مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود ياصالح أخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ماشاكلت البخت من الإبل فان فعلت آمنا بك وصدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقنى ولتؤمنن بى قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير أنه لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله عز وجل عظما وهم ينظرون إليها ثم نتجت سقبا مثلها فى العظم فآمن به جندع ابن عمرو ورهط معه من قومه وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فنعهم ذؤاب ابن عمرو بن لبيد والحباب وكان صاحبا أوثانهم ورباب بن ضمير وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غبا فاذا كان يوم ورودها وضعت رأسها فى بئر فى الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم فيحلبون ماشاءوا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملئوا أوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذى وردت منه ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت حتى إذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربوا ماشاء الله من الماء ويدخرون ماشاءوا ليوم الناقة فهم على ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منها مواشيهم الإبل والبقر والغنم فتهبط إلى بطن الوادى فتكون

فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع ابن مهرج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالا فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا يزعمون أنه كان لزانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراش سالف فقالت أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة وكان قدارا عزيزا منيعا فى قومه أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد ابن يوسف حدثنا محمد ابن إسماعيل حدثنا موسى ابن إسماعيل حدثنا وهيب حدثنا هشام عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذى عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى قومه مثل أبى زمعة» رجعنا إلى القصة قالوا فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة ثمود فأتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار فى أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع فى طريق آخر فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به فى عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فأسفرت لقدار ثم زمرته فشد على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فتحدر سقبها ثم طعن فى لبتها فنحرها وخرج أهل البلد واقتسموا لحمها وطبخوه فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتى

فى حره وجدبه وإذا كان الشتاء فتشتو الناقة فى بطن الوادى فتهرب المواشى إلى ظهره فتكون فى البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذى يريده الله بهم والبلاء والاختبار ، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لإحداهما عنيزة بنت غنم بن مخلد وتكنى بأم غنم وكانت عجوزا مسنة وهى امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم ، والمرأة الأخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بمواشيهما فتحيلتا فى عقر الناقة فدعت صدقة رجلا من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهزج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وجها وأكثرهم مالا فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه فقالت عنيزة لقدار أى بناتى شئت أعطيتك على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا منيعا فى قومه (ق) عن عبد الله بن زمعة رضى الله تعالى عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذى عقرها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى رهطه مثل أبى زمعة» قوله انبعث أى قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع الممتنع ممن أراده قال أصحاب الأخبار فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهزج ، فاستنفروا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار فى أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع فى أصل صخرة أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم فى عضلة ساقها فخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها فسفرت عن وجهها وكانت من أحسن الناس وجها لبراها قدار ثم حثته على عقرها وأغرته فشد قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرجت ورغت رغاة واحدة فتحدر سقبها من الجبل ثم طعن قدار فى لبتها فنحرها فخرج أهل البلد فاقتسموا لحمها فلما رأى ثقبها ذلك انطلق هاربا حتى أتى جبلا منيعا يقال له صور وقيل قارة وأتى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل نحوها وخرج أهل البلد يتلقونه ويتعذرون إليه ويقولون يا نبى الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح أنظروا هل تدركون فصيلها فان أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا فى طلبه فرأوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالى إلى الجبل أن تطاول فتطاول حتى ما تناله الطير وجاء صالح عليه السلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن إسحاق تبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم

مصدع

جبلا منيعا يقال له صنو وقيل اسمه قارة وأتى صالح فقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يانبي الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فان أدركتموه فعسى أن يرفع الله عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله إلى الجبل فتطاول فى السماء حتى لاتناله الطير وجاء صالح فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا وانفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن إسحاق اتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه ذؤاب بن مهرج فرماه مصدع بسهم

فانتظم قلبه ثم جر برجله فأنزله فألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزءون به ومتى ذلك ياصالح وما آية ذلك ؟ وكانوا يسمون الأيام فيهم الأحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنسا والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح حين قالوا ذلك تصبحون غداة يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول . فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة هلم فلنقتل صالحا فان كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا قد كنا ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه فى أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطئوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم والله لاتقتلونه أبدا فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث فان كان صادقا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ماتريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فعند ذلك أيقنوا العذاب وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه وخرج صالح هاربا منهم حتى جاء إلى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم

مصدع بن مهرج وأخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فأصاب قلبه ثم جذبه فأنزله وألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزءون به ومتى ذلك ياصالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الأيام فى ذلك الوقت الأحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام حين قالوا ذلك تصبحون غدا يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة هلموا فلنقتل صالحا فان كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه فى أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطئوا على أصحابهم أتوا منزل صالح عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لاتقتلوه أبدا فانه قد وعدكم العذاب أنه نازل بكم بعد ثلاث فان كان صادقا لم تزيدوا ربكم إلا غضبا عليكم وإن كان كاذبا فأنتم وراء ماتريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فيما قال فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحى من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبى هدب وهو مشرك فمنع صالحا فلم يقدروا عليه وكانوا عمدوا إلى أصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يا نبي الله إنهم يعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم عليك قال نعم فدلوهم عليه فأتوا أبو هدب فكلموه فى أمر صالح فقال هو عندى وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم مانزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون فى وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا فى اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وأيقنوا أنه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا فى اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من بين أظهرهم إلى

رجل يقال له نفيل ويكنى بأبى هدب وهو مشرك فغيبه عنهم ولم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يانبى الله إنهم ليعذبوننا لنهديهم عليك أفندلهم قال نعم فدلهم عليه وأتوا أبا هدب فكلموه فى ذلك فقال نعم عندى صالح وليس لكم عليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون فى وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء فصاحوا وبكوا . فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا اليوم

الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا بأجمعهم ألا قد حضركم العذاب فلما أن كانت ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا وألقوا أنفسهم بالأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لايدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء له صوت فى الأرض فقطعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال الله تعالى فأصبحوا فى دارهم جاثمين إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح فأطلق الله رجليها بعد ماعاينت العذاب فخرجت كأسرع ما رئى شىء قط حتى أتت قزح وهو واد القرى من حد ما بين الحجاز والشام فأخبرتهم بما عاينته من العذاب وما أصاب ثمود ثم استقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت وذكر السدى فى عقر الناقة وأوحى الله إلى صالح عليه السلام أن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك فقالوا ما كنا نفعل فقال صالح إنه يولد فى شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لايولد لنا ولد فى هذا الشهر إلا قتلناه قال فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك وكان ابنه أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا وكان إذا مر بالتسعة قالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا

الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبحوا فى اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا وألقوا بأنفسهم إلى الأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لايدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء له صوت فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وهلكوا جميعا إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام فأطلق الله تعالى رجليها بعد ماعاينت العذاب وما أصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى أتت وادى القرى فأخبرتهم بما عاينت من العذاب الذى بثمود ثم استقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت فى الحال وذكر السدى فى عقر الناقة فقال أوحى الله عز وجل إلى صالح عليه الصلاة والسلام إن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ما كنا لنفعل فقال صالح إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لايولد لنا فى هذا الشهر ولد إلا قتلناه قال فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر أولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فأبى أن يذبحه لأنه كان لم يولد له قبل ذلك ولد وكان الولد الذى ولد له أحمر أزرق فنبت نباتا سريعا فكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله يعنى فتحالفوا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا نخرج فنرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتى الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع إلى الغار فنكون فيه حتى ننصرف إلى رحلنا فنقول ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا فيظنون أنا قد خرجنا إلى سفر وكان صالح لاينام معهم فى القرية بل كان يبيت فى مسجد له خارج القرية فاذا أصبح أتاهم فيعظهم ويذكرهم فاذا أمسى خرج إلى مسجده فيتعبد فيه قال فانطلق التسعة إلى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلوا فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على أمرهم لينظروا ما فعل أولئك النفر فرأوهم وهم رضخ فرجعوا إلى القرية يصيحون مارضى صالح بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة وقال ابن اسحاق كان التسعة قد تقاسموا على تبييت صالح بعد عقر الناقة وقال السدى وغيره لما ولد للعاشر ولد سماه بقدار فكان يشب سريعا فلما كبر جلس مع أناس يشربون الخمر فأرادوا ماء يمزجوا به

شرابهم

فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله قالوا نخرج فنرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم رجعنا إلى الغار فكنا فيه ثم انصرفنا إلى رحلنا فقلنا ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا يظنون أنا قد خرجنا إلى سفر وكان صالح لاينام معهم فى القرية وكان يبيت فى مسجد يقال له مسجد صالح فاذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكر وإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه فانطلقوا فدخلوا الغار فسقط عليهم الغار فقتلهم فانطلق رجال ممن قد اطلع على ذلك منهم فاذا هم رضخ فرجعوا يصيحون فى القرية أى عباد الله مارضى صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة وقال ابن إسحاق كان تقاسم التسعة على تبييت صالح بعد عقرهم الناقة كما ذكرنا قال السدى وغيره فلما ولد ابن العاشر يعنى قدار شب فى اليوم شباب غيره فى الجمعة وشب فى شهر شباب غيره فى السنة فلما كبر جلس مع أناس (٢٥٩) يصيبون من الشراب فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن باللبن لو كنا نأخذ هذا الماء الذى تشربه هذه الناقة المسقيه أنعامنا وحروثنا كان خيرا لنا فقال ابن العاشر هل لكم فى أن أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها أخبرنا عبدالواحد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن مسكين ثنا يحيى ابن حسان بن حيان أبو زكريا ثنا سليمان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر « أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر فى غزوة تبوك أمرهم أن لايشربوا من بئر ها ولا يسقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء » وقال نافع عن ابن عمر فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من آبارها وأن يعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة وروى عن الزبير عن جابر قال « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه لا يدخل أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائهم ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم ثم قال أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الناقة فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتقى الفصيل من الجبل فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم فى مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا واحدا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان فى حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ودفن معه غصن من ذهب وأراهم قبر أبى رغال فنزل القوم فابتدروا

شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن بلبن هذه الناقة ولو كنا نأخذ هذا الماء الذى تشربه الناقة فنسقيه لأنعامنا وزروعنا كان خيرا لنا. وقال ابن العاشر هل لكم أن أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما « قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى » وفى رواية لمسلم « لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين » ثم ذكر مثله ولهما عنه أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهرقوا ما استقوه ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة « وللبخارى » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر فى غزوة تبوك أمرهم أن لايشربوا من آبارها ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء وفى بعض الأحاديث قال رسول الله ﷺ لا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآيات فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتقى الفصيل من القارة فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم فى مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا واحدا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان فى حرم الله تعالى فمنعه حرم الله تعالى من عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أبى رغال فنزل القوم وابتدروه بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن « وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت فلما دخلوها مات صالح

بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن» ، وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف : خرج بهم صالح إلى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمي حضرموت ثم بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها حاضوراء قال قوم من أهل العلم توفى صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة قوله تعالى (ولوطا) أى وأرسلنا لوطا وقيل معناه واذكر لوطا وهو لوط بن هاران ابن تارخ بن أخى إبراهيم (٢٦٠) (إذ قال لقومه) وهم أهل سدوم وذلك أن لوطا شخص من أرض بابل مع عمه إبراهيم عليه السلام مؤمنا مهاجرا معه إلى الشام فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوطا الأردن فأرسله الله عزوجل إلى أهل سدوم فقال لهم (أتأتون الفاحشة) يعنى إتيان الذكر (ماسبقكم بها من أحد من العالمين) قال عمرو بن دينار مانزا ذكر على ذكر فى الدنيا إلا كان من قوم لوط (أئنكم) قرأ أهل المدينة وحفص إنكم بكسر الألف على الخبر وقرأ الآخرون على الاستئناف (لتأتون الرجال) فى أدبارهم (شهوة من دون النساء) فسر تلك الفاحشة يعنى أدبار الرجال أشهى إليكم من فروج النساء (بل أنتم قوم مسرفون) مجاوزون الحلال إلى الحرام قال محمد بن إسحاق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الأرض مثلها فقصدهم الناس لينالوا من ثمارهم فآذوهم فعرض لهم إبليس فى صورة شيخ فقال إن فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم فأبوا فلما ألح عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا صباحا فأخذوهم وقهروهم على أنفسهم وأخبثوا بهم فاستحكم ذلك فيهم قال الحسن كانوا لاينكحون إلا الغرباء وقال الكلبى إن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان فتمثل لهم إبليس فى صورة شاب ثم دعا إلى دبره فنكح فى دبره فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم (وما كان جواب قومه

فسمى حضرموت ثم بنوا أربعة آلاف مدينة وسموها حاضوراء وقال قوم من أهل العلم توفى صالح عليه الصلاة والسلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام فى قومه عشرين سنة . قوله تعالى (ولوطا) يعنى وأرسلنا لوطا وقيل معناه واذكر يامحمد لوطا وهو لوط بن هاران ابن تارخ وهو ابن أخى إبراهيم وإبراهيم عمه (إذ قال لقومه) يعنى أهل سدوم وإليهم كان قد أرسل وذلك أن لوطا عليه الصلاة والسلام لما هاجر مع عمه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلى الشام فنزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أرض فلسطين ونزل لوط الأردن أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى (أتأتون الفاحشة) يعنى أتفعلون الفعلة الخسيسة التى هى غاية فى القبح وكانت فاحشتهم إتيان الذكران فى أدبارهم (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) من الأولى زائدة لتوكيد النفى وإفادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والمعنى ما سبقكم أيها القوم بهذه الفعلة الفاحشة أحد من العالمين قبلكم وفى هذا الكلام توبيخ لهم وتقريع على فعلهم تلك الفاحشة قال عمرو بن دينار مانزا ذكر على ذكر فى الدنيا إلا كان من قوم لوط (أئنكم لتأتون الرجال) يعنى فى أدبارهم (شهوة من دون النساء) يعنى أن أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء (بل أنتم) يعنى أيها القوم (قوم مسرفون) أى مجاوزون الحلال إلى الحرام وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا وجعل النساء محلا للشهوة وموضع النسل فاذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فكأنما قد أسرف وجاوز واعتدى لأنه وضع الشىء فى غير محله وموضعه الذى خلق له لأن أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصودة بتلك الشهوة المركبة فى الإنسان وكانت قصة قوم لوط على ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار والسير أنه كانت قرى قوم لوط مخصبة ذات زروع وثمار لم يكن فى الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم وضيقوا عليهم فعرض لهم إبليس فى صورة شيخ وقال لهم إذا فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما ألح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا حسانا صباحا فأخبثوا واستحكم ذلك فيهم قال الحسن كانوا لاينكحون إلا الغرباء وقيل استحكم ذلك الفعل فيهم حتى نكح بعضهم بعضا وقال الكلبى إن أول من عمل به عمل قوم لوط إبليس وذلك لأن بلادهم أخصبت فقصدها أهل البلدان فتمثل لهم إبليس فى صورة شاب أمرد فدعا إلى نفسه فكان أول من نكح فى دبره فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم . قوله عز وجل (وما كان جواب قومه) يعنى وما كان جواب قوم لوط للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ما حرم الله تعالى

إلا أن قالوا) قال بعضهم لبعض (أخرجوهم) يعنى لوطا وأهل دينه (من قريتكم إنهم اناس يتطهرون) يتنزهون عن ادبار الرجال (فأنجيناه) يعنى لوطا (وأهله) المؤمنين وقيل أهله ابنتاه (إلا امرأته كانت من الغابرين) يعنى الباقين فى العذاب وقيل معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل فهلكت مع من هلك من قوم لوط وإنما قال من الغابرين لأنه أراد ممن بقى من الرجال فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قال من الغابرين (وأمطرنا عليهم مطرا) يعنى حجارة من سجيل قال وهب الكبريت والنار (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) قال أبو عبيدة يقال فى العذاب أمطر وفى الرحمة مطر قوله تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيبا) أى وأرسلنا إلى ولد مدين وهو مدين بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام وهم أصحاب الأيكة أخاهم شعيبا فى النسب لا فى الدين قال عطاء هو شعيب بن توبة ابن مدين بن إبراهيم وقال ابن إسحاق هو شعيب بن ميكائيل بن يسجر بن مدين بن إبراهيم وأم ميكائيل بنت لوط وقيل هو شعيب بن يثرون بن مدين بن إبراهيم وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان (قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) فان قيل ما معنى قوله تعالى قد جاءتكم بينة من ربكم ولم يكن لهم آية مذكورة قيل قد كانت لهم هذه الآية إلا أنها لم تذكر وليست كل الآيات مذكورة فى القرآن وقيل أراد بالبينة مجىء شعيب (فأوفوا الكيل) أتموا الكيل (والميزان

تعالى عليهم من العمل الخبيث (إلا أن قالوا) يعنى قال بعضهم لبعض (أخرجوهم من قريتكم يعنى أخرجوا لوطا وأتباعه وأهل دينه من بلدكم (إنهم أناس يتطهرون) يعنى أنهم أناس يتنزهون عن فعلكم وعن أدبار الرجال لأنها موضع النجاسة ومن تركها فقد تطهر وقيل إن البعد عن المعاصى والآثام يسمى طهارة فمن تباعد عنهما فقد تطهر فلهذا قال إنهم أناس يتطهرون أى من فعل المعاصى والآثام (فأنجيناه وأهله) يعنى فأنجينا لوطا ومن آمن به واتبعه على دينه وقيل المراد بأهله المتصلون به بسبب النسب أو المراد بأهله ابنتاه (إلا امرأته) يعنى زوجته (كانت من الغابرين) يعنى كانت من الباقين فى العذاب لأنها كانت كافرة وقيل معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل ثم هلكت مع من هلك من قوم لوط وإنما قال من الغابرين ولم يقل من الغابرات لأنها هلكت مع الرجال فغلب ذكر الرجال فقال من الغابرين (وأمطرنا عليهم مطرا) يعنى حجارة من سجيل قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت وقال أبو عبيدة يقال فى العذاب أمطرت وفى الرحمة مطرت (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) يعنى انظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله وعملوا الفواحش كيف أهلكناهم قال مجاهد نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها إلى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة وقوله فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وإن كان هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لكن المراد به غيره من أمته ليعتبروا بما جرى على أولئك فينزجروا بذلك الاعتبار عن الأفعال القبيحة والفواحش الخبيثة . قوله عز وجل (وإلى مدين أخاهم شعيبا) يعنى وأرسلنا إلى مدين أكثر المفسرين على أن مدين اسم رجل وهو مدين بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فعلى هذا يكون المعنى وأرسلنا إلى ولد مدين ومدين اسم للقبيلة كما يقال بنو تميم بنو عدي وبنو أسد وقيل مدين اسم للماء الذى كانوا عليه وقيل هو اسم للمدينة وعلى هذين القولين يكون المعنى وأرسلنا إلى أهل مدين والصحيح هو الأول لقوله أخاهم شعيبا يعنى فى النسب لا فى الدين وشعيب هو ابن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قاله عطاء وقال محمد بن اسحاق وهو شعيب بن ميكيل بن يشجر ابن مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأم ميكيل بنت لوط عليه السلام وقيل هو شعيب ابن يثرون بن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس فى المكيال والميزان (قال) يعنى شعيبا (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) يعنى قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقية ما أقول وصدق ما أدعى من النبوة والرسالة إليكم لأنه لابد لكل نبى من معجزة تدل على صدق ما جاء به من عند الله غير أن تلك المعجزة التى كانت لشعيب لم تذكر فى القرآن وليست كل آيات الأنبياء مذكورة فى القرآن وقيل أراد بالبينة مجىء شعيب بالرسالة إليهم وقيل أراد بالبينة الموعظة وهى قوله (فأوفوا الكيل والميزان) يعنى فأتموا الكيل

والميزان واعطو الناس حقوقهم وهو قوله (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) يعنى لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها فتطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان فى الكيل والوزن إذا نقصه وطففه (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) يعنى بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة الرسل وإقامة العدل وكل نبى يبعث إلى قوم فهو صلاحهم (ذلكم) يعنى الذى ذكرت لكم وأمرتكم به من الإيمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس (خير لكم) يعنى مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (إن كنتم مؤمنين) يعنى إن كنتم مصدقين بما أقول (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) يعنى أن شعيبا قال لقومه الكفار ولا تقعدوا على كل طريق من الدين والحق تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من يريد الإيمان بالله وبرسوله شعيب وهو قوله تعالى (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) يعنى وتمنعون من يريد الإيمان بالله وتقولون إن شعيبا كذاب وتخوفونه بالقتل قال ابن عباس كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبا الذى تريدونه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم (وتبغونها عوجا) يعنى وتريدون اعوجاج الطريق عن الحق وعدولها عن القصد وقيل معناه تلتمسون لها الزيغ والضلال ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) يعنى أن شعيبا عليه الصلاة والسلام ذكرهم نعمة الله عليهم قال الزجاج يحتمل ذلك ثلاثة أوجه كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقوة بعد الضعف ووجه ذلك أنهم إذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل والمعنى إنه كثركم بعد القلة وأعزكم بعد الذلة فاشكروا نعمة الله تعالى عليكم وآمنوا به (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) يعنى وانظروا نظر اعتبار ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك وأقرب الأمم إليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسله (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) يعنى وإن اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين فرقة آمنت بى وصدقت برسالتى وفرقة كذبت وجحدت رسالتى (فاصبروا) فيه وعيد وتهديد (حتى يحكم الله بيننا) يعنى حتى يقضى الله ويفصل بيننا فيعز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم (وهو خير الحاكمين) يعنى أنه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف فى حكمه وإنما قال خير الحاكمين لأنه قد يسمى بعض الأشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم فى الحقيقة فلهذا قال وهو خير الحاكمين (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعنى قال الجماعة من أشراف قومه الذين تكبروا عن الإيمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع شعيب (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) يعنى أن قوم شعيب أجابوه بأن قالوا لابد من أحد أمرين اما إخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا أو لترجعن إلى ديننا وملتنا وما نحن عليه وهذا فيه إشكال وهو أن شعيبا عليه الصلاة والسلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع إلى ما كان عليه فما معنى قوله أو لتعودن فى ملتنا وأجيب عن هذا الاشكال بأن أتباع شعيب كانوا قبل الإيمان به على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعا فدخل هو فى الخطاب وإن لم يكن على ملتهم

ولا تبخسوا الناس اشياءهم) لاتظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها (ولا تفسدوا فى الارض بعد إصلاحها) أى ببعث الرسل والأمر بالعدل وكل نبى بعث إلى قوم فهو صلاحهم (ذلكم) الذى ذكرت لكم وأمرتكم به (خير لكم إن كنتم مؤمنين) مصدقين بما أقول (ولا تقعدوا بكل صراط) أى على كل طريق (توعدون) تهددون (وتصدون عن سبيل الله) دين الله (من آمن به وتبغونها عوجا) زيغا وقيل تطلبون الاعوجاج فى الدين والعدول عن القصد وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيقولون لمن يريد الإيمان بشعيب إن شعيبا كذاب فلا يفتننك عن دينك ويتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم وقال السدى كانوا عشارين (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) فكثر عددكم (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) أى آخر أمر قوم لوط (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) أى إن اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين مكذبين ومصدقين (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) بتعذيب المكذبين وإنجاء المصدقين (وهو خير الحاكمين قال الملأ الذين استكبروا من قومه) قط
يعنى الرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان به (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) لترجعن

قط وقيل معناه لتصيرن إلى ملتنا فوقع العود على معنى الابتداء كما تقول قد عاد على من فلان مكروه بمعنى قد لحقني منه ذلك وإن لم يكن قد سبق منه مكروه فهو كما قال الشاعر :

فان تكن الأيام أحسن مدة ... إلى فقد عادت لهن ذنوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد أن ذنوبا كانت لهن قبل الإحسان. وقوله تعالى (قال أو لو كنا كارهين) أى لانعود فى ملتكم وإن أكرهتمونا وأجبرتمونا على الدخول فيها فلا نقبل ولاندخل (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) يعنى أن شعيبا أجاب قومه إذ دعوه ومن آمن به إلى العود إلى ملتهم والدخول فيها فقال قد افترينا يعنى قد اختلقنا على الله كذبا وتخرصنا عليه من القول باطلا إن نحن رجعنا إلى ملتكم وقد علمنا فساد ما أنتم عليه من الملة والدين وقد أنقذنا الله وخلصنا منها وبصرنا خطأها وهذا أيضا فيه من الاشكال مثل مافى الأول وهو أن شعيبا عليه الصلاة والسلام ماكان فى ملتهم قط حتى يقول إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها والجواب عنه مثل ما أجيب عن الاشكال الأول وهو أن نقول إن الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة إلا أن شعيبا نظم نفسه فى جملتهم وإن كان بريئا مما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب وقيل معنى نجانا الله منها علمنا قبيح ملتكم وفسادها فكأنه خلصنا منها وقوله تعالى إخبارا عنه (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) يعنى وما يكون لنا أن نرجع إلى ملتكم ونترك الحق الذى نحن عليه إلا أن يشاء الله ربنا يعنى إلا أن يكون قد سبق لنا فى علم الله أن نعود فيها فحينئذ يمضى قضاء الله وقدره فينا وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدى ومعنى العود هنا الابتداء والذى عليه أهل العلم والسنة فى هذه الآية أن شعيبا وأصحابه قالوا ما كنا لنرجع إلى ملتكم بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار إلا أن يريد الله إهلاكنا فأمورنا راجعة إلى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء بالطاعة ويشقى من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ألا ترى إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام «واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام» وكان نبينا محمد ﷺ كثيرا مايقول «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» قال الزجاج رحمه الله تعالى المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق فى علم الله ومشيئته أن نعود فيها وتصديق ذلك قوله (وسع ربنا كل شىء علما) يعنى أنه تعالى يعلم مايكون قبل أن يكون وما سيكون وأنه تعالى كان عالما فى الأزل بجميع الأشياء فالسعيد من سعد فى علم الله تعالى والشقى من شقى فى علم الله تعالى (على الله توكلنا) على الله نعتمد وإليه نستند فى أمورنا كلها فانه الكافى لمن توكل عليه والمعنى على الله توكلنا لاعلى غيره فكأنه ترك الأسباب ونظر إلى مسبب الأسباب (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) لما أيس شعيب من إيمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح أى اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعنى بالعدل الذى لاجور فيه ولاظلم ولاحيف (وأنت خير الفاتحين) يعنى خير الحاكمين قال الفراء إن أهل عمان يسمون القاضى الفاتح والفتاح وقال غيره من أهل اللغة هى لغة مراد وأنشد لبعضهم فى ذلك .

ألا أبلغ بنى عصم رسولا ... فانى عن فتى حكم غنى

إلى ديننا الذى نحن عليه (قال) شعيب (أو لو كنا كارهين) يعنى أو لو كنا أى إن كنا كارهين لذلك أتجبروننا عليه (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها) بعد إذ أنقذنا الله منها (إلا أن يشاء الله ربنا) يقول إلا أن يكون قد سبق لنا فى علم الله ومشيئته أنا نعود فيها فحينئذ يمضى قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا فان قيل مامعنى قوله أو لتعودن فى ملتنا وما يكون لنا أن نعود فيها ولم يكن شعيب قط على ملتهم حتى يصح قولهم ترجع إلى ملتنا قيل معناه أو لتدخلن فى ملتنا فقال وما كان لنا أن ندخل فيها وقيل معناه إن صرنا فى ملتكم ومعنى عاد صار وقيل أراد به قوم شعيب لأنهم كانوا كفارا فآمنوا فأجاب شعيب عنهم قوله (وسع ربنا كل شىء علما) أحاط علمه بكل شىء (على الله توكلنا) فيما توعدوننا فيه ثم عاد شعيب بعد ما أيس من فلاحهم فقال (ربنا افتح بيننا وبين قومنا) أى اقض بيننا (بالحق) والفتاح القاضى (وأنت خير الفاتحين) أى الحاكمين

(وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا) تركتم دينكم (إنكم إذا لخاسرون) مغبونون قال عطاء جاهلون وقال الضحاك عجزة (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) قال الكلبى الزلزلة وقال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره فتح الله عليهم بابا من جهنم فأرسل عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ليبردوا فيها فاذا دخلوها وجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا إلى البرية فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم فنادى بعضهم بعضا وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما حتى اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض فاحترقوا : كما يحترق الجراد المقلي وصاروا رمادا وروي أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر قال يزيد الجريرى سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فاذا تحته أنهار وعيون فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك قوله عذاب يوم الظلة قال قتادة بعث الله شعيبا إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين : فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة وأما أصحاب مدين فأخذتهم الصيحة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا جميعا . قال أبو عبد الله البجلي : كان أبو جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب عليه السلام يوم الظلة كلمن فلما هلك قالت ابنته تبكيه :

كلمن قد هدركني هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه هلك نارا تحت ظله
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحلة

وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) أى لم يقيموا ولم ينزلوا فيها من قولهم غنيت بالمكان إذا أقمت به والمغانى

إذا

أراد أنه غنى عن حاكمهم وقاضيهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما ما كنت أدرى مامعنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول تعال أفاتحك يعنى أقاضيك وهذا قول قتادة والسدى وابن جريج وجمهور المفسرين أن الفاتح هو القاضى والحاكم سمى بذلك لأنه يفتح أغلاق الأشكال بين الخصوم ويفصلها وقال الزجاج وجائز أن يكون معناه ربنا أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف والمراد منه أن ينزل عليهم عذابا يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتمييز (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا) يعنى وقال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وملتكم وما أنتم عليه (إنكم إذا لخاسرون) يعنى إنكم لمغبونون فى فعلكم (فأخذتهم الرجفة) يعنى الزلزلة الشديدة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) قال ابن عباس وغيره فتح الله عليهم بابا من جهنم فأرسل عليهم حرا شديدا من جهنم فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا فى الأسراب ليبردوا فيها فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد فى المقلاة وصاروا رمادا وروى أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا بها وقال قتادة بعث الله شعيبا إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة هلكوا جميعا قال أبو عبد الله البجلى كان أبوجاد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب يوم الظلة اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا تبكيه وترثيه به :

كلمن هدم ركنى هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه هلك نار تحت ظله
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحله

وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) يعنى كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان أى أقمت به والمغانى المنازل التى بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة فى ظل ملك ثابت الأوتاد

أراد أقاموا فيها وقيل فى معنى الآية كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال غنى الرجل

المنازل واحدها مغنى وقيل كأن لم يتنعموا فيها (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) لا المؤمنين كما زعموا (فتولى عنهم) أعرض عنهم شعيب شاخصا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب (٢٣٥) (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى) أحزن (على قوم كافرين) والأسى الحزن والأسى الصبر قوله (وما أرسلنا فى قرية من نبى) فيه إضمار يعنى فكذبوه (إلا أخذنا) عاقبنا (أهلها) حين لم يؤمنوا (بالبأساء والضراء) قال ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وهذا معنى قول من قال البؤساء فى المال والضراء فى النفس وقيل البأساء البؤس وضيق العيش والضراء والضر سوء الحال وقيل البأساء فى الحزن والضراء فى الجدب (لعلهم يضرعون) لكى يتضرعوا فيتوبوا (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) يعنى مكان البأساء والضراء الحسنة يعنى النعمة والسعة والخصب والصحة (حتى عفوا) أى كثروا وازدادوا أو كثرت أموالهم يقال عفا الشعر إذا كثر قال مجاهد كثرت أموالهم وأولادهم (وقالوا) من غرتهم وغفلتهم بعد ماصاروا إلى الرخاء (قد مس آباءنا الضراء والسراء) أى هكذا كانت عادة الدهر قديما لنا ولآبائنا ولم يكن ماأصابنا من الضراء عقوبة من الله فكونوا على ماأنتم عليه كما كان آباؤكم فانهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء قال الله تعالى عز وجل (فأخذناهم بغتة) فجأة آمن ما كانوا (وهم لايشعرون) بنزول العذاب

إذا استغنى وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) يعنى خسروا أنفسهم بهلاكهم (فتولى عنهم) يعنى فأعرض عنهم شعيب شاخصا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) يعنى أنه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا فى قصة صالح عليه الصلاة والسلام وقوله (فكيف آسى) يعنى أحزن (على قوم كافرين) والأسى أشد الحزن وإنما اشتد حزنه على قومه لأنهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الإجابة والإيمان فلما نزل بهم ما نزل من العذاب عزى نفسه فقال كيف أحزن على قوم كافرين لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم باصرارهم على الكفر وقيل فى معنى الآية أن شعيبا قال لقد أعذرت إليكم فى الإبلاغ والنصيحة والتحذير فلم تسمعوا قولى ولم تقبلوا نصحى فكيف أحزن عليكم يعنى إنكم لستم مستحقين لأن يحزن عليكم . فعلى القول الأول إنه حصل لشعيب حزن على قومه . وعلى القول الثانى لم يحزن عليهم والله أعلم . وقوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نبى) فيه إضمار وحذف تقديره فكذبوه (إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) قال ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وهو معنى قول الزجاج فانه قال البأساء كل ما نالهم من الشدة فى أموالهم والضراء كل ما نالهم من الأمراض وقيل البأساء الشدة وضيق العيش والضراء الضر وسوء الحال (لعلهم يضرعون) يعنى إنما فعلنا بهم ذلك لكى يتضرعوا ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد لأمر الله عز وجل والمراد من هذه الآية أن الله عز وجل لما عرف نبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الأنبياء مع أممهم المكذبة وقص عليه من أخبارهم وعرفه سنته فى الأمم الذين خلوا من قبله وما صاروا إليه من الهلاك والعذاب عرفه فى هذه الآية إنه قد أرسل رسلا إلى أمم أخر فكذبوا رسلهم فأخذهم بالبأساء والضراء كما فعل بمن كذب رسله وفيه تخويف وتحذير لكفار قريش وغيرهم من الكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى أنه لايجرى تدبيره فى أهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة إنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب وهو قوله تعالى (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) لأن ورود النعمة على البدن والمال بعد الشدة والضيق يستدعى الانقياد للطاعة والاشتغال بالشكر قال أهل اللغة السيئة كل مايسوء صاحبه والحسنة كل مايستحسنه الطبع والعقل فالسيئة والحسنة هنا الشدة والرخاء والمعنى أنه تعالى بدل مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة فى الأبدان فأخبر الله تعالى فى هذه الآية إنه يأخذ أهل المعاصى والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله (حتى عفوا) يعنى أنه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت أموالهم يقال عفا الشعر إذا كثر وطال قال مجاهد حتى كثرت أموالهم وأولادهم (وقالوا) يعنى من غرتهم وغفلتهم بعد ماصاروا إلى الرخاء والسعة (قد مس آباءنا الضراء والسراء) يعنى أنهم قالوا هكذا عادة الدهر قديما وحديثا لنا ولآبائنا ولم يكن مامسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على مانحن عليه فكونوا على ماأنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فانهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى (فأخذناهم بغتة) يعنى أخذناهم فجأة آمن ما كانوا ليكون ذلك أعظم لحسرتهم (وهم لايشعرون) يعنى بنزول العذاب بهم والمراد بذكر

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) يعني المطر من السماء والنبات من الأرض وأصل البركة المواظبة على الشيء أي تابعنا عليهم المطر والنبات ورفعنا عنهم القحط والجدب (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) من الأعمال الخبيثة (أفأمن أهل القرى) الذين كفروا وكذبوا يعني مكة وما حولها (أن يأتيهم بأسنا) عذابنا (بياتا) ليلا (وهم نائمون أو أمن) قرأ أهل الحجاز والشام أو أمن بسكون الواو والباقون بفتحها (أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى) أى نهارا والضحى صدر النهار ووقت انبساط الشمس (وهم يلعبون) ساهون لاهون (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)ومكر الله استدراجه إياهم مما أنعم عليهم فى دنياهم وقال عطية يعنى أخذه وعذابه (أو لم يهد) قرأ قتادة ويعقوب نهد بالنون على التعظيم والباقون بالياء على التفريد يعنى أو لم يتبين (للذين يرثون الأرض من بعد) هلاك (أهلها) الذين كانوا فيها (أن لو نشاء أصبناهم) أى أخذناهم وعاقبناهم (بذنوبهم)كما عاقبنا من قبلهم (ونطبع) نختم (على قلوبهم فهم لايسمعون) الإيمان ولا يقبلون الموعظة قال الزجاج قوله ونطبع منقطع عما قبله لأن قوله أصبناهم ماض ونطبع مستقبل (تلك القرى) أي هذه القرى التي ذكرت لك أمرها وأمر أهلها يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب (نقص عليك من أنبائها) مثل

هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب . قوله عزوجل (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) لما بين الله تعالى فى هذه الآية الأولى « إن الذين عصوا وتمردوا أخذهم بعذابه » بين فى هذه الآية أنهم لو آمنوا يعنى بالله ورسله وأطاعوه فيما أمرهم به واتقوا يعنى مانهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) فبركات السماء المطر وبركات الأرض النبات والثمار وجميع مافيها من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى وإحسانه على عباده وأصل البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشىء وسمى المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة فى نبات الأرض لأنه نشأ عن بركات السماء وهى المطر وقال البغوى أصل البركة المواظبة على الشىء أى تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الأرض ورفعنا عنهم القحط والجدب (ولكن كذبوا) يعنى فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا يعنى الرسل (فأخذناهم) يعنى بأنواع العذاب(بما كانوا يكسبون) يعنى أخذناهم بسبب كسبهم الأعمال الخبيثة . قوله تعالى (أفأمن أهل القرى) هو استفهام بمعنى الإنكار وفيه وعيد وتهديد وزجر والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عام فى كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا (أن يأتيهم بأسنا) يعنى عذابنا (بياتا) يعنى ليلا (وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى) يعنى نهارا لأن الضحى صدر النهار (وهم يلعبون) يعنى وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم والمقصود من الآية أن الله خوفهم بنزول العذاب وهم فى غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذى يغلب على الإنسان التشاغل فيه بأمور الدنيا، وأمور الدنيا كلها لعب ويحتمل أن يكون المراد خوضهم فى كفرهم وذلك لعب أيضا لأنه يضر ولا ينفع (أفأمنوا مكر الله) يعنى استدراجه إياهم بما أنعم عليهم من الدنيا وقيل المراد به أن يأتيهم عذابه من حيث لايشعرون ، وعلى هذا الوجه فيكون بمعنى التحذير وسمى هذا العذاب مكرا لنزوله وهم فى غفلة عنه لايشعرون به (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) يعنى أنه لايأمن أن يكون ماأعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجا إلا من خسر فى أخراه وهلك مع الهالكين (أو لم يهد) أولم يبين (للذين يرثون الأرض من بعد) هلاك (أهلها) الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها (إن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) يعنى لو نشاء أخذناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم (ونطبع) أى نختم (على قلوبهم فهم لايسمعون) يعنى لايسمعون موعظة ولا يقبلون الإيمان ونطبع منقطع عما قبله والمعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز أن يكون معطوفا على الماضى ولفظه لفظ المستقبل والمعنى ولو شئنا طبعنا على قلوبهم (تلك القرى) يعنى هذه القرى التى ذكرنا لك يامحمد أمرها وأمر أهلها وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب(نقص عليك من أنبائها) يعنى نخبرك عنها وعن أخبار أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا إليهم لتعلم يامحمد إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائنا وأعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف أهلكناهم بكفرهم وبمخالفتهم رسلهم ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه و لم وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم

آثارها لما فيها من الاعتبار (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) بالآيات والمعجزات والعجائب (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) أى فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا من قبل رؤيتهم تلك العجائب نظيره قوله عز وجل قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين قال ابن عباس والسدى يعنى فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فأقروا باللسان وأضمروا التكذيب وقال مجاهد معناه فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم لقوله عز وجل «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه» . قال يمان بن رباب هذا على معنى أن كل نبى أنذر قومه بالعذاب فكذبوه يقول ما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية بل كذبوا بما كذب أوائلهم نظيره قوله عز وجل «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون» (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) أى كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكفار الذين كتب أن لا يؤمنوا من قومك (وماوجدنا لأكثرهم من عهد) أى وفاء بالعهد الذى عاهدهم يوم الميثاق حين أخرجهم من صلب آدم (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) أى ماوجدنا أكثرهم إلا فاسقين ناقضين للعهد قوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) أى من بعد نوح وهود وصالح وشعيب (موسى بآياتنا) بأدلتنا (إلى فرعون وملئه فظلموا بها) فجحدوا بها والظلم وضع الشىء فى غير موضعه وظلمهم

مثل ماأصابهم (ولقد جاءتهم) يعنى لأهل تلك القرى (رسلهم بالبينات) يعنى جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) اختلف أهل التفسير فى معنى ذلك فقيل معناه فما كانوا هؤلاء المشركين الذين أهلكناهم من أهل القرى ليؤمنوا عند إرسالنا إليهم رسلهم بما كذبوا من قبل ذلك وهو يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فأقروا باللسان وأضمروا التكذيب وهذا معنى قول ابن عباس والسدى قال السدى آمنوا كرها يوم أخذ الميثاق وقال مجاهد فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ومعاينتهم العذاب ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم وقيل معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجىء الرسل بما سبق لهم فى علم الله أنهم يكذبون به حين أخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام . قال أبى بن كعب كان سبق لهم فى علمه يوم أقروا له بالميثاق أنهم لايؤمنون به وقال الربيع بن أنس يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ماأبدى لهم ربهم وأن لايتأولوا علم ماأخفى الله تعالى عنهم فان علمه نافذ فيما كان وفيما يكون وفى ذلك قال تعالى «ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين» قال نفذ علمه فيهم أيهم المطيع من العاصى حيث خلقهم فى صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال الطبرى وأولى الأقوال بالصواب قول أبى بن كعب والربيع بن أنس وذلك أن من سبق فى علم الله أنه لا يؤمن به فلا يؤمن أبدا وقد كان سبق فى علم الله لمن هلك من الأمم الذين قص خبرهم فى هذه السورة أنهم لايؤمنون أبدا فأخبر عنهم أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به فى سابق علمه قبل مجىء الرسل عند مجيئهم إليهم (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) يعنى كما طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم أنهم لايؤمنون من قومك (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) يعنى وما وجدنا لأكثر الأمم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يامحمد من وفاء بالعهد الذى عهدناه إليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق قال ابن عباس إنما أهلك الله أهل القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ماوصاهم به (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) أى ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعنى ثم بعثنا من بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام (موسى بآياتنا) يعنى بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك من الآيات التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام (إلى فرعون وملئه) قيل إن كل من ملك مصر كان يسمى فرعون فى ذلك الزمان مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشى وكان اسم فرعون الذى أرسل إليه موسى عليه الصلاة والسلام الوليد بن مصعب ابن الريان وكان ملك القبط والملأ إشراف قومه وإنما خصوا بالذكر لأنه إذا آمن الأشراف آمن الأتباع (فظلموا بها) يعنى فجحدوا بها لأن الظلم وضع الشىء

وضع الكفر موضع الإيمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) كيف فعلنا بهم (وقال موسى) لما دخل على فرعون (يافرعون إنى رسول من رب العالمين) إليك فقال فرعون كذبت فقال موسى (حقيق على أن لاأقول على الله إلا الحق) أى أنا خليق بأن لاأقول على الله إلا الحق فتكون على بمعنى الباء كما يقال رميت بالقوس ورميت عن القوس وجئت على حال حسنة وبحال حسنة يدل عليه قراءة أبى والأعمش حقيق بأن لاأقول وقال أبو عبيدة معناه حريص على أن لاأقول على الله إلا الحق وقرأ نافع على بتشديد الياء أى حق واجب على أن لاأقول على الله إلا الحق (قد جئتكم ببينة من ربكم) يعنى العصا (فأرسل معى بنى إسرائيل) أى أطلق عنهم وخلهم يرجعون إلى الأرض المقدسة وكان فرعون قد استخدمهم فى الأعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما فقال فرعون مجيبا لموسى (قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى) موسى (عصاه) من يده (فاذا هى ثعبان مبين) والثعبان الذكر العظيم من الحيات فان قيل أليس قد قال فى موضع آخر كأنها جان والجان الحية الصغيرة قيل إنها كانت كالجان فى الحركة والخفة وهى فى جثتها حية عظيمة قال ابن عباس والسدى إنه لما ألقى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها ما بين لحييها ثمانون ذراعا ارتفعت من الأرض بقدر ميل وقامت له على ذنبها واضعة لحيها الأسفل فى الأرض الأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه وروى أنها أخذت قبة فرعون بين نابيها فوثب فرعون من سريره هاربا وأحدث قيل أخذه البطن فى ذلك اليوم أربعمائة مرة وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات

فى غير موضعه وكانت هذه الآيات معجزات ظاهرة قاهرة فكفروا بها ووضعوا الكفر موضع الإيمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى انظر يا محمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم (وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين) يعنى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على فرعون دعاه إلى الله تعالى وإلى الإيمان به وقال له إنى رسول أى مرسل إليك وإلى قومك من رب العالمين يعنى أن الله الذى خلق السموات والأرض وخلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم هو الذى أرسلنى إليك (حقيق) أى واجب (على أن لاأقول على الله إلا الحق) يعنى إنى رسول والرسول لايقول على الله إلا الحق فى وصفه وتنزيهه وتوحيده وأنه لاإله غيره (قد جئتكم ببينة من ربكم) يعنى ببرهان على صدقى فيما أدعى من الرسالة والمراد ببينته معجزته وهى العصا واليد البيضاء ثم أن موسى عليه الصلاة والسلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم فقال موسى (فأرسل معى بنى إسرائيل) يعنى خل عنهم وأطلقهم من أسرك وكان فرعون قد استعبد بنى إسرائيل واستعملهم فى الأعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك من الأعمال الشاقة (قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) يعنى أن فرعون قال لموسى عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ الرسالة إن كنت جئت من عند من أرسلك ببينة تدل على صدقك فأتنى بها وأحضرها عندى لتصح دعواك ويثبت صدقك فيما قلت (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) أى بين والثعبان الذكر من الحيات وصفه هنا بأنه ثعبان والثعبان من الحيات العظيم الضخم ووصفه فى آية أخرى بأنه جان والجان الحية الصغيرة والجمع بين هذين الوصفين أنها كانت فى عظم الجثة كالثعبان العظيم وفى خفة الحركة كالحية الصغيرة وهى الجان قال ابن عباس والسدى أن موسى لما ألقى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت من الأرض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الأسفل فى الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا وأحدث وقيل إنه أحدث فى ذلك اليوم أربعمائة مرة وقيل إنها أخذت قبة فرعون بين أنيابها وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا وقتل بعضهم بعضا فمات منهم فى ذلك اليوم خمسة وعشرون ألفا ودخل فرعون البيت وصاح ياموسى أنشدك بالذى أرسلك أن تأخذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فعادت فى يده عصا كما كانت وفى كون الثعبان مبينا وجوه: الأول أنه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس وبذلك تتميز معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن تمويه السحرة وتخليهم. الوجه الثانى أنهم شاهدوا العصا قد انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم فلذلك قال ثعبان مبين أى بين. الوجه الثالث إن ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام كان من أعظم الآيات التى أبانت صدق قول موسى عليه الصلاة والسلام

فى أنه رسول من رب العالمين . وقوله تعالى (ونزع يده) النزع فى اللغة عبارة عن إخراج الشيء عن مكانه والمعنى أنه أخرج يده من جيبه أومن تحت جناحه (فإذا هى بيضاء للناظرين) قال ابن عباس وغيره أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص وقيل إن موسى عليه الصلاة والسلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه وقيل أخرج يده من تحت إبطه فاذا هى بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى عليه الصلاة والسلام آدم اللون ثم ردها إلى جيبه فأخرجها فاذا هى كما كانت ولما كان البياض المفرط عيبا فى الجسد وهو البرص قال الله تعالى فى آية أخرى «بيضاء من غير سوء» يعنى من غير برص والمعنى فاذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة يتعجب منه .

(فصل فى بيان المعجزة وكونها دليلا على صدق الرسل)

اعلم أن الله تبارك وتعالى كان قادرا على خلق المعرفة والإيمان فى قلوب عباده ابتداء من غير واسطة ولكن أرسل إليهم رسلا تعرفهم معالم دينه وجميع تكليفاته وذلك الرسول واسطة بين الله عز وجل وبين عباده يبلغهم كلامه ويعرفهم أحكامه وجائز أن تكون تلك الواسطة من غير البشر كالملائكة من الأنبياء وجائز أن تكون الواسطة من جنس البشر كالأنبياء مع أممهم ولا مانع لهذا من جهة العقل وإذا جاز هذا فى دليل العقل وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دلت على صدقهم فوجب تصديقهم فى جميع ما أتوا به لأن المعجز مع التحدى من النبى قائم مقام قول الله عز وجل صدق عبدى فأطيعوه واتبعوه ولأن معجزة النبى شاهد على صدقه فيما يقوله وسميت المعجزة معجزة لأن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها وهى على ضربين: فضرب منها هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فعجزهم عنه دل على أنه من فعل الله ودل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم كتمنى الموت فى قوله «فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم أنه من عند الله ودل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم الضرب الثانى ما هو خارج عن قدرة البشر كاحياء الموتى وقلب العصا حية وإخراج ناقة من صخرة وكلام الشجر والجماد والحيوان ونبع الماء من بين الأصابع وغير ذلك من المعجزات التى عجز البشر عن مثلها فاذا أتى النبى بشىء من تلك المعجزات الخارقة للعادات علم أن ذلك من عند الله وأن الله عز وجل هو الذى أظهر ذلك المعجز على يد نبيه ليكون حجة له على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع أن الله تعالى قادر على خلق الأشياء وإبداعها من غير أصل سبق لها وإخراجها من العدم إلى الوجود وأنه قادر على قلب الأعيان وخوارق العادات والله تعالى أعلم . قوله عز وجل (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا) يعنى موسى (لساحر عليم) يعنى أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيل لهم أن العصا صارت حية ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وإنما قالوا ذلك لأن السحر كان هو الغالب فى ذلك الزمان فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا إن هذا لساحر عليم . فان قلت قد أخبر الله تعالى فى هذه السورة إن هذا الكلام من قوم الملأ لفرعون وقال فى سورة الشعراء قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما. قلت لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولا ثم إنهم قالوه بعده

منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا ودخل فرعون البيت وصاح ياموسى أنشدك بالذى أرسلك خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم قال فرعون هل معك آية أخرى ؟ قال نعم (ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) فأدخل يده فى جيبه ثم نزعها منه وقيل أخرجها من تحت أبطه فاذا هى بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى آدم اللون ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم) يعنون أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيل إليهم العصا حية والآدم أبيض ويرى أن الشىء بخلاف ما هو عليه

(يريد أن يخرجكم) يامعشر القبط (من أرضكم) مصر (فماذا تأمرون) أى تشيرون إليه هذا يقوله فرعون وإن لم يذكره وقيل من قول الملأ لفرعون وخاصته (قالوا) يعنى الملأ (أرجه) قرأ ابن كثير وأهل البصرة وابن عامر بالهمزة وضم الهاء وقرأ الآخرون بلا همزة ثم نافع رواية ورش والكسائى يشبعان الهاء كسرا ويسكنها عاصم وحمزة ويختلسها أبو جعفر وقالوا قال عطاء معناه آخره وقيل أحبسه (وأخاه) معناه أنهم أشاروا عليه بتأخير أمره وترك التعرض إليه بالقتل (وأرسل فى المدائن حاشرين) يعنى الشرط فى المدائن وهى مدائن الصعيد من نواحى مصر قالوا أرسل إلى هذه المدائن رجالا يحشرون إليك من فيها من السحرة وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فان غلبهم موسى صدقناه وإن غلبوا علمنا أنه ساحر فذلك قوله (يأتوك بكل ساحر عليم) قرأ حمزة والكسائى سحار هاهنا وفى سورة يونس ولم يختلفوا فى الشعراء أنه سحار قيل السحار الذى يعلم السحر ولا يعمل والسحار الذى يعلم ويعمل وقيل الساحر من يكون سحره فى وقت دون وقت والسحار من يديم السحر قال ابن عباس وابن إسحاق والسدى قال فرعون لما رأى من سلطان الله فى العصا ما رأى إنا لانغالب إلا بمن هو أعلم منه فاتخذ غلمانا من بنى إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الغوصاء يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كبيرا ووعد فرعون موسى موعدا فبعث إلى السحرة فجاءوا ومعلمهم معهم فقال له ماذا صنعت قال قد علمتهم سحرا لايطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمر من السماء فانه لاطاقة لهم به ثم بعث فرعون فى مملكته فلم يترك فى سلطانه ساحرا إلا أتى به واختلفوا فى عددهم فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين إثنان من القبط وهما رؤساء القوم و سبعون من بنى إسرائيل وقال الكلبى كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب كانوا اثنى عشر ألفا

ويقال

فأخبر الله تعالى عنهم هنا وأخبر عن فرعون فى سورة الشعراء وقيل يحتمل أن فرعون قال هذا القول ثم إن الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم إنهم بلغوه إلى العامة فأخبر الله عز وجل هنا عن الملأ وأخبر هناك عن فرعون . وقوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم) يعنى يريد موسى أن يخرجكم أيها القبط من أرض مصر (فماذا تأمرون) يعنى فأى شىء تشيرون أن نفعل به وقيل إن قوله فماذا تأمرون من قول الملأ لأن كلام فرعون تم عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملأ مجيبين لفرعون فماذا تأمرون وإنما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك فى التعظيم والتفخيم والمعنى فما ترون أن نفعل به والقول الأول أصح لسياق الآية التى بعدها وهو قوله تعالى (قالوا أرجه وأخاه) يعنى أخر أمرهما ولاتعجل فيه فتصير عجلتك عليك لالك والارجاء التأخير فى اللغة وقيل معنى ارجه احبسه وأخاه وهذا القول ضعيف لأن الارجاء فى اللغة هو التأخير لا الحبس ولأن فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد أن رأى من أمر العصا ما رأى (وأرسل فى المدائن) جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أى أقام به يعنى مدائن صعيد مصر (حاشرين) يعنى رجالا يحشرون إليك السحرة من جميع مدائن الصعيد والمعنى أنهم قالوا لفرعون أرسل إلى هذه المدائن رجالا من أعوانك وهم الشرط يحشرون إليك من فيها من السحرة وكان الرؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فان غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وإن غلبوه علمنا أنه ساحر فذلك قوله (يأتوك) يعنى الشرط (بكل ساحر) وقرئ سحار والفرق بين الساحر والسحار أن الساحر هو المبتدئ فى صناعة السحر فيتعلم ولايعلم والسحار هو الماهر الذى يتعلم منه السحر وقيل الساحر من يكون سحره وقتا دون وقت والسحار الذى يدوم سحره ويعمل فى كل وقت (عليم) يعنى ماهر بصناعة السحر وقال ابن عباس رضى الله عنهما وابن إسحاق والسدى أن فرعون لما رأي من سلطان الله وقدرته فى العصا قال إنا لانقاتل موسى إلا بمن هو أشد منه سحرا فاتخذ غلمانا من بنى إسرائيل وبعث بهم إلى مدينة يقال لها الغوصاء يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كبيرا وواعد فرعون موسى موعدا ثم بعث إلى السحرة فجاءوا ومعلمهم معهم فقال فرعون للمعلم ماذا صنعت قال قد علمتهم سحرا لايطيقه سحر أهل الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فانه لاطاقة لهم به ثم بعث فرعون فى مملكته فلم يترك ساحرا إلا أتى به واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بنى إسرائيل وقال الكلبى كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الأحبار كانوا اثنى عشر ألفا وقال محمد بن إسحاق كانوا خمسة عشر ألفا وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا وقال محمد بن المنكدر كانوا ثمانين ألفا وقال السدى كانوا بضعا وثمانين ألفا

ويقال رئيس القوم شمعون وقيل يوحنا قوله عز وجل (وجاء السحرة فرعون) يعنى لما اجتمعوا وجاءوا إلى فرعون (قالوا إن لنا لأجرا) يعنى جعلا وعطاء تكرمنا به (إن كنا نحن الغالبين) يعنى لموسى قال الإمام فخر الدين الرازى ولقائل أن يقول كان حق الكلام أن يقول وجاء السحرة فرعون فقالوا بالفاء وجوابه هو على تقدير سائل سأل ما قالوا إذا جاءوا فأجيب بقوله قالوا أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين يعنى لموسى (قال نعم) يعنى قال لهم فرعون لكم الأجر والعطاء (وإنكم لمن المقربين) يعنى ولكم المنزلة الرفيعة عندى مع الأجر والمعنى أن فرعون قال للسحرة إنى لا أقتصر معكم على الأجر بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة إنى أجعلكم من المقربين عندى قال الكلبى تكونوا أول من يدخل على وآخر من يخرج من عندى (قالوا) يعنى السحرة (ياموسى إما أن تلقى) يعنى عصاك (وإما أن نكون نحن الملقين) يعنى عصينا وحبالنا فى هذه الآية دقيقة لطيفة وهى أن السحرة راعوا مع موسى عليه الصلاة والسلام حسن الأدب حيث قدموه على أنفسهم فى الإلقاء لاجرم أن الله عز وجل عوضهم حيث تأدبوا مع نبيه موسى صلى الله عليه وسلم أن من عليهم بالإيمان والهداية ولما راعوا الأدب أولا وأظهروا مايدل على رغبتهم فى ذلك (قال) يعنى قال لهم موسى (ألقوا) يعنى أنتم فقدمهم على نفسه فى الإلقاء. فإن قلت كيف جاز لموسى أن يأمر بالإلقاء وقد علم أنه سحر وفعل السحر غير جائز. قلت ذكر العلماء رحمهم الله تعالى فى أجوبة أحدها أن معناه إن كنتم محقين فى فعلكم فألقوا وإلا فلا تلقوا. الجواب الثانى إنما أمرهم بالإلقاء لتظهر معجزته لأنهم إذا لم يلقوا حبالهم وعصيهم لم تظهر معجزة موسى فى عصاه. الجواب الثالث أن موسى علم أنهم لابد أن يلقوا تلك الحبال والعصى وإنما وقع التخيير فى التقديم والتأخير فأذن لهم فى التقديم لتظهر معجزته أيضا بغلبهم لأنه لو ألقى أولا لم يكن له غلب وظهور عليهم فلهذا المعنى أمرهم بالإلقاء أولا (فلما ألقوا) يعنى حبالهم وعصيهم (سحروا أعين الناس) يعنى صرفوا أعين الناس عن إدراك حقيقة مافعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو السحر وهذا هو الفرق بين السحر الذى هو فعل البشر وبين معجزة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التى هى فعل الله وذلك لأن السحر قلب الأعين وصرفها عن إدراك ذلك الشىء والمعجزة قلب نفس الشىء عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية تسعى (واسترهبوهم) يعنى أرهبوهم وأفزعوهم بما فعلوه من السحر وهذا قوله تعالى (وجاءوا) يعنى السحرة (بسحر عظيم) وذلك أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هى حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا ويقال إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقا أيضا وألقوها على الأرض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس أنها حيات ويقال إن الأرض كانت سعتها ميلا فى ميل فصارت كلها حيات وأفاعى ففزع الناس من ذلك وأوجس فى نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه الصلاة والسلام لأجل سحرهم لأنه عليه الصلاة والسلام كان على يقين وثقة من الله تعالى أنهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالما بأن كل ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى من ذلك بل كان خوفه عليه الصلاة والسلام لأجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوا من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه الصلاة والسلام

مقاتل كان رئيس السحرة شمعون وقال ابن جريج كان رئيسهم يوحنا (وجاء السحرة فرعون) واجتمعوا (قالوا) لفرعون (إن لنا لأجرا) أى جعلا ومالا (إن كنا نحن الغالبين) قرأ أهل الحجاز وحفص أن لنا على الخبر وقرأ الباقون بالاستفهام ولم يختلفوا فى الشعراء أنه مستفهم (قال) فرعون (نعم وإنكم لمن المقربين) فى المنزلة الرفيعة عندى مع الأجر قال الكلبى يعنى أول من يدخل وآخر من يخرج (قالوا) يعنى السحرة (ياموسى إما أن تلقى) عصاك (وإما أن نكون نحن الملقين) لعصينا وحبالنا (قال) موسى بل (ألقوا) أنتم (فلما ألقوا سحروا أعين الناس) أى صرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو السحر (واسترهبوهم) أى أرهبوهم وأفزعوهم (وجاءوا بسحر عظيم) وذلك أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هى حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا وفى القصة أن الأرض كانت ميلا فى ميل صارت حيات وأفاعى فى أعين الناس

أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس فى نفسه خيفة موسى . قوله تعالى (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك) يعنى فألقاها (فاذا هى تلقف) يعنى تبتلع (ما يأفكون) يعنى مايكذب فيه السحرة لأن أصل الإفك قلب الشيء عن غير وجهه ومنه قيل للكذاب أفاك لأنه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح إلى الباطل قال المفسرون أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن لاتخف وألق عصاك فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالإسكندرية فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فاذا هى تلقف يعنى تبتلع كل شيء أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت فى يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا أن ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى (فوقع الحق) يعنى فظهر الحق الذى جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) يعنى من السحر وذلك أن السحرة قالوا لو كان ماصنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما نفدت وتلاشت فى عصا موسى علموا أن ذلك من أمر الله وقدرته (فغلبوا هنالك) يعنى فعند ذلك غلب فرعون وسحرته وجموعه (وانقلبوا صاغرين) يعنى ورجعوا ذليلين مقهورين (وألقى السحرة ساجدين) يعنى أن السحرة لما عاينوا من عظيم قدرة الله تعالى ماليس فى قدرتهم مقابلته وعلموا أنه ليس بسحر خروا لله ساجدين وذلك أن الله عز وجل ألهمهم معرفته والإيمان به (قالوا آمنا برب العالمين) فقال فرعون إياى تعنون فقالوا بل (رب موسى وهارون) قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة تؤمن بى إن غلبتك فقال لآتين بسحر لايغلبه سحر ولئن غلبتنى لأومنن بك وقيل إن الحبال والعصى التى كانت مع السحرة كانت حمل ثلاثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو إلا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه . فان قلت كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الإيمان . قلت لما قذف الله عز وجل فى قلوبهم الإيمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على هدايتهم إليه وعلى ما ألهمهم الله من الإيمان بالله وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم وقيل لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه فى أمر العصا وأنه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت فى قلوبهم بادروا إلى السجود لله تعظيما لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ثم إنهم أظهروا الإيمان باللسان قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما رأت السحرة مارأت عرفت إن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . قوله عز وجل (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) يعنى فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه قبل أن آمركم به وآذن لكم فيه

(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك) فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالإسكندرية ويقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا (فاذا هى تلقف) قرأ حفص تلقف ساكنة اللام خفيفة حيث كان وقرأ الآخرون بفتح اللام وتشديد القاف أى تبتلع (ما يأفكون) يكذبون من التخاييل وقيل يزورون على الناس وكانت تلتقم حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا فوقع الزحام عليهم فهلك منهم فى الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت (فوقع الحق) قال الحسن ومجاهد ظهر الحق (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر وذلك أن السحرة قالوا لو كان مايصنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما فقدت علموا أن ذلك من أمر الله (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) ذليلين مقهورين (وألقى السحرة ساجدين) لله قال مقاتل ألقاهم الله وقيل ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا قال الأخفش من سرعة ماسجدوا كأنهم ألقوا (قالوا آمنا برب العالمين) فقال فرعون إياى تعنون فقالوا (رب موسى وهرون) قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة تؤمن بى إن غلبتك؟ فقال لآتين بسحر لايغلبه سحر ولئن غلبتنى لأومنن بك وفرعون ينظر (قال) لهم (فرعون) حين آمنوا (آمنتم به) قرأ حفص آمنتم على الخبر هاهنا وفى طه والشعراء وقرأ الآخرون بالاستفهام أآمنتم به (قبل أن آذن لكم) أصدقتم موسى من غير أمرى إياكم (إن

(إن هذا لمكر مكرتموه) أى صنع صنعتموه أنتم وموسى (فى المدينة) فى مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر (لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) ما أفعل بكم (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) وهو أن يقطع من كل شق طرفا قال الكلبى لأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى (ثم لأصلبنكم أجمعين) على شاطئ نهر مصر (قالوا) يعنى السحرة لفرعون (إنا إلى ربنا منقلبون) راجعون فى الآخرة (وما تنقم منا) أى ما تكره منا وقال الضحاك وغيره وما تطعن علينا وقال عطاء مالنا عندك من ذنب تعذبنا عليه (إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) ثم فزعوا إلى الله عز وجل فقالوا (ربنا أفرغ) اصبب (علينا صبرا وتوفنا مسلمين) ذكر الكلبى أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وذكر غيره أنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى «لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون» (وقال الملأ من قوم فرعون) له (أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض) وأرادوا بالإفساد فى الأرض دعاءهم الناس إلى مخالفة فرعون فى عبادته (ويذرك) أى وليذرك (وآلهتك) فلا يعبدك ولا يعبدها، قال ابن عباس كان لفرعون بقرة يعبدها وكان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها فلذلك أخرج السامرى لهم عجلا وقال الحسن كان قد علق على عنقه صليبا يعبده وقال السدى كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناما وأمرهم بعبادتها. وقال لقومه هذه آلهتكم أراد بها أنا ربها وربكم فذلك قوله «أنا ربكم الأعلى». وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبى والضحاك ويذرك وإلاهتك، بكسر الألف أى عبادتك فلا يعبدك لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد: وقيل أراد بالإلهة الشمس وكانوا يعبدونها. قال الشاعر:

تروحنا من اللعباء قصرا ... وأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا

(إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة) يعنى إن هذا الصنع الذى صنعتموه أنتم وموسى فى مدينة مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع وذلك أن فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون أن موسى وكبير السحرة قد تواطآ عليه وعلى أهل مصر وهو قوله (لتخرجوا منها أهلها) وتستولوا عليها أنتم (فسوف تعلمون) فيه وعيد وتهديد يعنى فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) وهو أن تقطع إحدى اليدين وإحدى الرجلين فيخالف بينهما فى القطع (ثم لأصلبنكم أجمعين) يعنى على شاطئ نيل مصر قال ابن عباس رضى الله عنهما أول من صلب وأول من قطع الأيدى والأرجل فرعون (قالوا) يعنى مجيبين لفرعون حين وعدهم بالقتل (إنا إلى ربنا منقلبون) إنا إلى ربنا راجعون وإليه صائرون فى الآخرة (وما تنقم منا) وما تكره منا وما تطعن علينا وقال عطاء معناه وما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه (إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) ثم فزعوا إلى الله تعالى وسألوه الصبر على تعذيب فرعون إياهم فقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أى أصبب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا أتى بلفظ التنكير يعنى صبرا وأى صبر عظيم (وتوفنا مسلمين) يعنى واقبضنا على دين الإسلام وهو دين خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء قال الكلبى إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم غيره أنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى «لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون». قوله تعالى (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى) يعنى وقال جماعة من أشراف قوم فرعون لفرعون أتدع موسى (وقومه) من بنى إسرائيل (ليفسدوا فى الأرض) يعنى أرض مصر وأراد بالإفساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قوله (ويذرك وآلهتك) يعنى وتذره ليذرك ويذر آلهتك فلا يعبدك ولا يعبدها قال ابن عباس رضى الله عنهما كانت لفرعون بقرة كان يعبدها وكان إذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامرى عجلا وقال السدى كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناما وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الأصنام وذلك قوله أنا ربكم الأعلى والأولى أن يقال إن فرعون كان دهريا منكرا لوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلى هى الكواكب فاتخذ أصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول فى نفسه إنه هو المطاع والمخدوم فى الأرض فلهذا قال أنا ربكم الأعلى وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه وابن عباس والشعبى والضحاك ويذرك وإلاهتك بكسر الألف ومعناه ويذرك وعبادتك فلا يعبدك لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل أراد بالآلهة الشمس والكواكب لأنه كان يعبدها قال الشاعر:

تروحنا من اللعباء قصرا ... وأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا

(قال) فرعون (سنقتل أبناءهم) قرأ أهل الحجاز سنقتل بالتخفيف من القتل . وقرأ الآخرون بالتشديد من التقتيل على التكثير (ونستحيي نساءهم) نتركهن أحياء (وإنا فوقهم قاهرون) غالبون قال ابن عباس كان

فرعون يقتل أبناء بنى إسرائيل فى العام الذى قيل له إنه يولد مولود يذهب بملكك فلم يزل يقتلهم حتى أتاهم موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان فقال فرعون أعيدوا عليهم القتل فأعادوا عليهم القتل فشكت ذلك بنو إسرائيل (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله) يعنى أرض مصر (يورثها) يعطيها (من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) النصر والظفر وقيل السعادة والشهادة . وقيل الجنة (قالوا أوذينا) قال ابن عباس لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بنى إسرائيل فقالوا يعنى قوم موسى إنا أوذينا (من قبل أن تأتينا) بالرسالة بقتل الأبناء (ومن بعد ما جئتنا) بإعادة القتل علينا وقيل المراد منه أن فرعون كان يستسخرهم قبل مجىء موسى إلى نصف النهار فلما جاء موسى استسخرهم جميع النهار بلا أجر، وذكر الكلبى أنهم كانوا يضربون له اللبن بطين فرعون فلما جاء موسى أجبرهم أن يضربوه بطين من عندهم (قال) موسى (عسى ربكم أن يهلك . اللهم عدوكم) فرعون (ويستخلفكم فى الأرض) أى يسكنكم أرض مصر من بعدهم (فينظر كيف تعملون) فحقق الله ذلك باغراق فرعون واستخلفهم فى ديارهم وأموالهم فعبدوا العجل . قوله تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) أى بالجدب والقحط

أراد بالإلاهة الشمس (قال) يعنى فرعون مجيبا لقومه حين قالوا له أتذر موسى وقومه (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) يعنى نتركهن أحياء . وذلك أن قوم فرعون لما أرادوا إغراء فرعون على قتل موسى وقومه أوجس موسى إنزال العذاب بقومه ولم يقدر فرعون أن يفعل بموسى عليه الصلاة والسلام شيئاً مما أرادوا به لقوة موسى عليه السلام بما معه من المعجزات فعدل إلى قومه فقال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان قد ترك القتل فى بنى إسرائيل بعد ماولد موسى فلما جاءهم موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان قال فرعون أعيدوا عليهم القتل فأعادوا القتل على بنى إسرائيل ، والمعنى أن فرعون قال إنما يتقوى موسى بقومه فنحن نسعى فى تقليل عدد قومه بالقتل لتقل شوكته ، ثم بين فرعون أنه قادر على ذلك بقوله (وإنا فوقهم قاهرون) يعنى بالغلبة والقدرة عليهم ولما نزل ببنى إسرائيل ما نزل شكوا إلى موسى ما نزل بهم (قال موسى لقومه) يعنى لما شكوا إليه (استعينوا بالله واصبروا) يعنى استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فان الله هو الكافى لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره فى أنفسكم وأبنائكم (إن الأرض لله) يعنى أرض مصر وإن كانت الأرض كلها لله تعالى (يورثها من يشاء من عباده) وهذا إطماع من موسى عليه الصلاة والسلام لبنى إسرائيل أن يهلك فرعون وقومه ويملك بنى إسرائيل أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم وهو قوله تعالى (والعاقبة للمتقين) يعنى أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم . وقيل أراد الجنة يعنى إن عاقبة المتقين الصابرين الجنة (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما آمنت السحرة تبع موسى ستمائة ألف من بنى إسرائيل والمعنى أن بنى إسرائيل لما سمعوا ما قاله فرعون ووعدهم به من القتل مرة ثانية قالوا لموسى قد أوذينا من قبل أن تأتينا يعنى بالرسالة وذلك أن بنى إسرائيل كانوا مستضعفين فى يد فرعون وقومه وكان يستعملهم فى الأعمال الشاقة إلى نصف النهار فلما جاء موسى بالرسالة وجرى ما جرى شدد فرعون فى استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار وأعاد القتل عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا يعنى بالرسالة وظاهر هذا الكلام يوهم أن بنى إسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر . والجواب عن هذا الإيهام أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا أن ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنه قد زادت الشدة عليهم قال أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا فمتى يكون ماوعدتنا به من زوال مانحن فيه (قال) موسى مجيبا لهم (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) يعنى فرعون وقومه (ويستخلفكم فى الأرض) يعنى ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم (فينظر كيف تعملون) يعنى فيرى ربكم كيف تعملون من بعدهم قال الزجاج فيرى وقوع ذلك منهم لأن الله تعالى لايجازيهم بما يعلمه منهم وإنما يجازيهم على مايقع منهم . قوله عز وجل (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) يعنى بالقحط والجدب تقول العرب مستهم السنة بمعنى أخذهم الجدب فى السنة ويقال أسنتوا كما يقال أجدبوا قال الشاعر: ● ورجال مكة مسنتون عجاف ● ومنه قوله صلى الله عليه وسلم

تقول العرب مستهم السنة أى جدب السنة وشدة السنة وقيل أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة (ونقص من الثمرات) والغلات بالآفات والعاهات قال قتادة أما السنون فلأهل البوادى وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار (لعلهم يذكرون) أى يتعظون ذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغبها فيما عند الله عز وجل (فاذا جاءتهم الحسنة) يعنى الخصب والسعة والعافية (قالوا لنا هذه) أى نحن أهلها ومستحقوها على العادة التى جرت لنا فى سعة أرزاقنا ولم يروها تفضلا من الله عز وجل فيشكروا عليها (وإن تصبهم سيئة) جدب وبلاء ورأوا مايكرهون (يطيروا) يتشاءموا (بموسى ومن معه) وقالوا ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم فهذا من شؤم موسى وقومه وقال سعيد ابن جبير ومحمد بن المنكدر كان ملك فرعون أربع مائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لا يرى مكروها ولو كان له فى تلك المدة جوع أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط . قال الله تعالى (ألا إنما طائرهم عند الله) نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله وقال ابن عباس طائرهم ماقضى عليهم وقدر لهم وفى رواية عنه شؤمهم عند الله ومن قبل الله أى إنما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله وقيل معناه الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار (ولكن أكثرهم لايعلمون) أن الذى أصابهم من الله (وقالوا) يعنى القبط لموسى (مهما) متى ما كلمة تستعمل للشرط والجزاء (تأتنا به من آية) علامة (لتسحرنا بها) لتنقلنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين (فأرسلنا عليهم الطوفان) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق دخل كلام بعضهم فى بعض لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عليهم الآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات فلما عالج منهم بالآيات الأربع العصا واليد والسنين ونقص الثمار فأبوا أن يؤمنوا فدعا عليهم فقال يارب إن عبدك فرعون علا فى الأرض وطغى وعتا وإن قومه قد نقضوا عهدك رب فخذهم بعقوبة تجعلها

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ومعنى الآية ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة (ونقص من الثمرات) يعنى وإتلاف الغلات بالآفات قال قتادة أما السنون فلأهل البوادى وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار (لعلهم يذكرون) يعنى لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير ، ثم بين الله تعالى أنهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا إلا تمردا وكفرا فقال تعالى (فاذا جاءتهم الحسنة) يعنى الغيث والخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات (قالوا لنا هذه) أى نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التى جرت لنا فى سعة الأرزاق وصحة الأبدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على إنعامه (وإن تصبهم سيئة) يعنى القحط والجدب والمرض والبلاء ورأوا مايكرهون فى أنفسهم (يطيروا) يعنى يتشاءموا وأصله يتطيروا والتطير التشاؤم فى قول جميع المفسرين (بموسى ومن معه) يعنى أنهم قالوا ما أصابنا بلاء إلا حين رأيناهم وما ذلك إلا بشؤم موسى وقومه قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لم يروا مكروها قط ولو كان حصل له فى تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط (ألا إنما طائرهم عند الله) يعنى أن نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس رضى الله عنهما طائرهم ماقضى لهم وقدر عليهم من عند الله وفى رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه أنه إنما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار (ولكن أكثرهم لايعلمون) يعنى أن ما أصابهم من الله تعالى وإنما قال أكثرهم لايعلمون لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر . قوله تعالى (وقالوا) يعنى قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به من آية) يعنى من عند ربك فهى عندنا سحر وهو قولهم (لتسحرنا بها) يعنى لتصرفنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) يعنى بمصدقين وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلا حديدا مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله عز وجل دعاءه فقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) قال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا

لهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء، أرسل الله عليهم الماء وبيوت بنى إسرائيل
وبيوت القبط مشتبكة مختلطة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت
بنى إسرائيل قطرة من الماء وركد الماء على أرضهم لايقدرون أن يحرثوا ولايعملوا شيئا ودام ذلك عليهم سبعة أيام من
السبت إلى السبت وقال مجاهد وعطاء الطوفان الموت وقال وهب الطوفان الطاعون بلغة اليمن وقال أبوقلابة الطوفان الجدرى
وهم أول من عذبوا به فبقى فى الأرض .

وقال مقاتل الطوفان الماء طغى فوق حروثهم ، وروى ابن ظبيان
عن ابن عباس قال الطوفان أمر من الله طاف بهم ثم قرأ « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون » قال نحاة الكوفة الطوفان مصدر لا يجمع كالرجحان والنقصان . وقال أهل البصرة هو جمع واحده طوفانة فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فأنبت الله لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته لهم قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم فقالوا ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصبا فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة ومسامير
الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم وابتلى الجراد بالجوع فكان لايشبع ولم يصب بنى إسرائيل شىء
من ذلك فعجوا وضجوا وقالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز نؤمنن لك وأعطوه عهد الله
وميثاقه فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعد ماأقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت وفى الخبر « مكتوب
على صدر كل جرادة جند الله الأعظم » ويقال إن موسى برز إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من
حيث جاءت وكانت قد بقيت من زروعهم وغلاتهم بقية فقالوا قد بقى لنا ماهو كافينا فما نحن بتاركى ديننا فلم يفوا بما

عليهم موسى وقال يارب إن عبدك فرعون علا فى الأرض وبغى وعتا وإن قومه قد نقضوا
العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله
عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط
مختلفة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق
ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت إسرائيل شىء وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على
التحرك ولم يعلموا شيئا ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت . وقال
مجاهد وعطاء الطوفان الموت . وقال وهب الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن . وقال أبو قلابة
الطوفان الجدرى وهم أول من عذبوا به ثم بقى فى الأرض وقال مقاتل الطوفان
الماء طفا فوق حروثهم وفى رواية ابن عباس رضى الله عنهما أن الطوفان أمر من الله عز
وجل طاف بهم فعند ذلك قالوا ياموسى ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا المطر ونحن نؤمن
بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فرفع عنهم الطوفان
وأنبت الله لهم تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم فقالوا
ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل
عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجر وأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة
وأكل مسامير الحديد التى فى الأبواب وغيرها وابتلى الجراد بالجوع فكان لايشبع وامتلأت
دور القبط منه ولم يصب بنى إسرائيل من ذلك شىء فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع
لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك فدعاه موسى
ربه عز وجل فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت
وفى الخبر « مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم » ويقال إن موسى عليه السلام خرج
إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق فرجع الجراد من حيث جاء وكان قد بقى من زروعهم
وثمارهم بقية فقالوا قد بقى لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركى ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا
عليه وعادوا إلى أعمالهم الخبيثة فأقاموا شهرا فى عافية ثم بعث الله عز وجل عليهم القمل
واختلفوا فيه فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن القمل هو السوس
الذى يخرج من الحنطة وقال مجاهد وقتادة والسدى والكلبى القمل الدبى وهو صغار الجراد
الذى لا أجنحة له وقال أبو عبيدة وهو الحمنان وهو ضرب من الجراد وقال عطاء الخرسانى
هو القمل نفسه وكان الحسن يقرأ بفتح القاف وسكون الميم قال أصحاب الأخبار أمر الله عز
وجل موسى عليه السلام أن يمشى إلى كثيب رملى أعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين شمس

فمشى

عاهدوا وعادوا إلى أعمالهم السوء فأقاموا شهرا فى عافية ثم بعث الله عليهم القمل . واختلفوا فى القمل فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال القمل السوس الذى يخرج من الحنطة وقال مجاهد والسدى وقتادة والكلبى القمل الدبى والجراد الطيارة التى لها أجنحة والدبى الصغار التى لا أجنحة لها وقال عكرمة هى بنات الجراد وقال أبو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من القراد وقال عطاء الخراسانى هو القمل وبه قرأ أبو الحسن والقمل بفتح القاف وسكون الميم قالوا أمر الله موسى أن يمشى إلى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس فمشى موسى إلى

ذلك الكثيب وكان أهيل فضربه بعصاه فانثال عليهم القمل فتتبع مابقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض كلها وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء قملا قال سعيد بن المسيب القمل السوس الذى يخرج من الحبوب وكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحا فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذ أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدرى عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا إلى موسى إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا البلاء فدعا موسى عليه السلام الله فرفع الله القمل عنهم بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دواب وقالوا وعزة فرعون لانتبعه أبدا ولا نصدقه فأقاموا شهرا فى عافية فدعا موسى عليه السلام بعد ماأقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلايكشف أحد إناء ولاطعاما إلاوجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس فى الضفادع إلى ذقنه ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع إلى فيه وكانت فى قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفىء نيرانهم وكان أحدهم يضطجع فتركبه الضفادع فتكون عليه ركاما حتى مايستطيع أن ينصرف إلى شقه الآخر ويفتح فاه

فمشى إلى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقى من حروثهم وزروعهم وثمارهم فأكلها كلها ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه فإذا أكل أحدهم طعاما امتلأ قملا قال سعيد بن المسيب القمل السوس الذى يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبصارهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ولزم جلودهم كأنه الجدرى عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا بموسى إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى فرفع الله عنهم القمل بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا بعد ذلك ورجعوا إلى أخبث ما كانوا عليه من الأعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دوابا فدعا موسى عليهم بعد ما أقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد إناء ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس فى الضفادع فتبلغ إلى حلقه فإذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل فى فيه وكانت تثب فى قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفى نيرانهم وكان أحدهم إذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاما فلا يستطيع أن ينقلب إلى شقه الآخر وإذا أراد أن يأكل سبقه الضفدع إلى فيه ولا يعجن أحدهم عجينا إلا امتلأ ضفادع فلقوا من ذلك بلاء شديدا . وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله عز وجل على آل فرعون سمعت وأطاعت وجعلت تقذف بأنفسها فى القدور وهى تغلى على النار وفى التنانير وهى تفور أثابها الله عز وجل بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام مايلقونه من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله عز وجل فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقامت عليهم سبعا من السبت إلى السبت فأقاموا شهرا فى عافية ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فأرسل الله عز وجل عليهم الدم فسال النيل عليهم دما عبيطا وصارت مياههم كلها دما وكل ما يستقون من الآبار والأنهار يجدونها دما عبيطا فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا ليس لنا شراب إلا الدم فقال سحركم فقالوا من أين يسحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا دما عبيطا فكان فرعون يجمع بين القبطى والإسرائيلى على إناء واحد فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما وينزعان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطى دم وللإسرائيلى ماء حتى ان المرأة من آل فرعون

لاكلته فسبق الضفدع آكلته إلى فيه ولا يعجن عجينا إلا تشدخت فيه ولا يفتح قدرا إلا امتلأت ضفادع فلقوا منها أذى شديدا وروى عكرمة عن ابن عباس قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف نفسها فى القدور وهى تغلى وفى التنانير وهى تفور فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى وقالوا هذه المرة نتوب إلى الله تعالى ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقام سبعا من السبت إلى السبت فأقاموا شهرا فى عافية ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم فسال النيل عليهم دما وصارت مياههم دما وما يستقون من الآبار والأنهار إلا وجدوه دما عبيطا أحمر فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا ليس لنا شراب فقال إنه سحركم فقال القوم من أين سحرنا ونحن لانجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا دما عبيطا وكان فرعون يجمع بين القبطى والاسرائيلى على الإناء الواحد فيكون مايلى الإسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما ويقومان إلى الجرة فيها الماء فيخرج للإسرائيلى (١٧٨) ماء وللقبطى دم حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتى المرأة من بنى إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقنى من مائك فتصب لها من قربتها فيعود فى الإناء دما حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فى فتأخذ فى فيها ماء فاذا مجته فى فيها صار دما وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فاذا مضغها يصير ماؤها فى فيه ملحا أجاجا فمكثوا فى ذلك سبعة أيام لايشربون إلا الدم قال زيد بن أسلم الدم الذى سلط عليهم كان الرعاف فأتوا موسى وقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه عز وجل حتى فكشف عنهم فلم يؤمنوا فذلك قوله عز وجل فأرسلنا عليهم الطوفان (والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) يتبع بعضها بعضا وتفصيلها أن كل عذاب كان يمتد أسبوعا وبين كل عذابين شهرا (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ولما وقع عليهم الرجز) أى نزل بهم العذاب وهو ماذكر الله عز وجل من الطوفان وغيرها وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس حتى مات منهم سبعون ألفا فى يوم واحد فأمسوا وهم لايتدافنون (قالوا) لموسى (ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى بما أوصاك وقال عطاء بما نبأك وقيل بما عهد عندك من إجابة دعوتك (لئن كشفت عنا الرجز) وهو الطاعون (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) أخبرنا أبو الحسن السرخسى ثنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحاق الهاشمى ثنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أبى النضر مولى عمر بن عبيدالله عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد أسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطاعون فقال أسامة بن زيد قال رسول الله ﷺ «الطاعون رجز أرسل على بنى إسرائيل وعلى من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا

تأتى إلى المرأة من بنى إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقنى من مائك فتصب لها فى قربتها فيصير فى الإناء ماء حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فمى فتفعل ذلك فيصير دما ثم إن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فاذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك سبعة أيام لايشربون إلا الدم وقال زيد بن أسلم إن الدم الذى سلط الله عز وجل عليهم كان الرعاف فأتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا إليه مايلقوه وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان (والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) يعنى يتبع بعضها بعضا وتفصيلها أن كل عذاب كان يقوم عليهم أسبوعا وبين كل عذابين مدة شهر (فاستكبروا) يعنى عن الإيمان فلم يؤمنوا (وكانوا قوما مجرمين) يعنى آل فرعون. قوله تعالى (ولما وقع عليهم الرجز) يعنى لما نزل بهم العذاب الذى ذكره فى الآية المتقدمة هو الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التى تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم فى يوم واحد سبعون ألفا فأمسوا وهم لايتدافنون (ق) عن أبى أسامة بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى إسرائيل أو على من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه». وقوله تعالى (قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) يعنى بما أوصاك وقيل بما عهد عندك من إجابة دعوتك (لئن كشفت عنا الرجز) يعنى العذاب الذى وقع بنا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل)

حتى يذهبوا حيث شاءوا (فلما كشفنا عنهم الرجز) يعنى بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام (إلى أجل هم بالغوه) يعنى إلى الوقت الذى أجل لهم وهو وقت إهلاكهم بالغرق فى اليم (إذا هم ينكثون) يعنى إذا هم ينقضون العهد الذى التزموه فلم يفوا به . واعلم أن ما ذكره الله تعالى فى هذه الآيات هى معجزات فى الحقيقة دالة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام ووجه ذلك أن العذاب كان مختصا بآل فرعون دون بنى إسرائيل فاختصاصه بالقبطى دون الإسرائيلى معجز وكون بنى إسرائيل فى أمان منه وعافية وقوم فرعون فى شدة وعذاب وبلاء مع اتحاد المساكن معجز أيضا . فان اعترض معترض وقال إن الله تعالى علم من حال آل فرعون أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة فى توالها عليهم وإظهار الكثير منها . فالجواب على مذهب أهل السنة إن الله تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لا يسئل عما يفعل وأما على قوله المعتزلة فى رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون أن بعضهم كان يؤمن بتوالى تلك المعجزات وظهورها فلهذا السبب والاها عليهم والله أعلم بمراده . قوله عز وجل (فانتقمنا منهم) يعنى كافأناهم عقوبة لهم سوء صنيعهم وأصل الانتقام فى اللغة سلب النعمة بالعذاب (فأغرقناهم فى اليم) والمعنى أنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم فلما بلغوا الأجل الذى أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم بالغرق فذلك قوله فاغرقناهم فى اليم يعنى البحر واليم الذى لا يدرك قعره وقيل هو لجة جر البحر ومعظم مائة قال الأزهرى اليم معروف لفظة سريانية عربتها العرب ويقع اسم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى « فاقذفيه فى اليم » والمراد به نيل مصر وهو عذب (بأنهم كذبوا بآياتنا) يعنى أهلكناهم وأغرقناهم بسبب أنهم كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا (وكانوا عنها) يعنى عن آياتنا (غافلين) يعنى معرضين وقيل كانوا على حلول النقمة بهم غافلين . ولما كان الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها كالغفلة عنها سموا غافلين تجوزا لأن الغفلة ليست من فعل الإنسان . قوله عز وجل (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) يعنى ومكنا القوم الذين كانوا يقهرون ويغلبون على أنفسهم وهو أن فرعون وقومه كانوا قد تسلطوا على بنى إسرائيل فقتلوا أبناءهم واستخدموهم فصيروهم مستضعفين تحت أيديهم (مشارق الأرض ومغاربها) يعنى أرض الشام ومصر وأراد بمشارقها ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها وقيل أراد بمشارق الأرض ومغاربها الأرض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب وقيل أراد جميع جهات الأرض وهو اختيار الزجاج قال لأن داود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما كانا من بنى إسرائيل وقد ملكا الأرض . وقوله عز وجل (التى باركنا فيها) يدل على أنها الأرض المقدسة يعنى باركنا فيها بالثمار والأشجار والزروع والخصب والسعة (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل) يعنى وتمت كلمة الله وهى وعدهم بالنصر على عدوهم والتمكين فى الأرض من بعدهم وقيل كلمة الله هى قوله « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » الآية والحسنى صفة للكلمة وهى تأنيث الأحسن وتمامها إنجاز ماوعدهم به من تمكينهم فى الأرض وإهلاك عدوهم (بما صبروا) يعنى إنما حصل لهم ذلك التمام وهو ما أنعم الله تعالى به عليهم من إنجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دينه وأذى فرعون لهم (ودمرنا) يعنى وأهلكنا والدمار الهلاك باستئصال (ما كان يصنع فرعون وقومه) فى أرض مصر من العمارات والبنيان (وما كانوا يعرشون) يعنى يسقفون من ذلك

منه » قوله عز وجل (فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه) يعنى إلى الغرق فى اليم (إذا هم ينكثون) ينقضون العهد (فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم) يعنى البحر (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى عن النقمة قبل حلولها وقيل معناه عن آياتنا معرضين (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) يقهرون ويستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء والاستعباد وهم بنو إسرائيل (مشارق الأرض ومغاربها) يعنى مصر والشام (التى باركنا فيها) بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل) يعنى وتمت كلمة الله وهى وعده إياهم بالنصر والتمكين فى الأرض وذلك قوله « تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » الآية (بما صبروا على دينهم وعلى عذاب فرعون (ودمرنا) أهلكنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) فى أرض مصر من العمارات (وما كانوا يعرشون) قال مجاهد يبنون من البيوت والقصور وقال الحسن يعرشون من الأشجار

والثمار والأعناب ، وقرأ أبو بكر وابن عامر يعرشون بضم الراء هاهنا وفي النحل وقرأ الآخرون بكسرها . قوله تعالى (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر) قال الكلبي عبر بهم موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرا لله عز وجل (فأتوا) فمروا (على قوم يعكفون) يقيمون ، وقرأ حمزة والكسائي يعكفون بكسر الكاف وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان (على أصنام) أوثان (لهم) يعبدونها من دون الله . قال ابن جريج كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل قال قتادة كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولا بالرقة فقالت بنو إسرائيل لما رأوا ذلك (قالوا ياموسى اجعل لنا إلها) أي مثالا نعبده (كما لهم آلهة) ولم يكن ذلك شكا من بني إسرائيل في وحدانية الله وإنما معناه اجعل لنا شيئا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله وظنوا أن ذلك لايضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم (قال) موسى (إنكم قوم تجهلون) عظمة الله (إن هؤلاء متبر) مهلك (ماهم فيه) والتتبير الإهلاك (وباطل) مضمحل وزائل (ما كانوا يعملون قال) يعني موسى (أغير الله أبغيكم) أي أبغي لكم وأطلب (إلها وهو فضلكم على العالمين) أي على عالمي زمانكم . أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنا أبو بكر أفضل محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي

ذلك البنيان وقال مجاهد ما كانوا يبنون من البيوت والقصور وقال الحسن وما كانوا يعرشون من الثمار والأعناب . قوله عز وجل (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر) يعني وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد إهلاك فرعون وقومه وإغراقهم فيه يقال جاز الوادي وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره . وقال الكلبي عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرا لله تعالى (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) يعني فمر بنو إسرائيل بعد مجاوزة البحر على قوم يعكفون أي يقيمون ويواظبون على أصنام لهم يعني تماثيل لهم كانوا يعبدونها من دون الله قال ابن جريج كانت تلك الأصنام تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل وقال قتادة كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولا بالرقة يعني بالرقة ساحل البحر وقيل كان أولئك الأقوام من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه الصلاة والسلام بقتالهم (قالوا) يعني قال بنو إسرائيل لموسى لما رأوا ذلك التمثال (ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) يعني كما لهم أصنام يعبدونها ويعظمونها فاجعل لنا أنت إلها نعبده ونعظمه قال البغوي رحمه الله ولم يكن ذلك شكا من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى وإنما معناه اجعل لنا شيئا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لايضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم وقال غيره هذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد مارأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم وعبادتهم غير الله تعالى فحملهم جهلهم على أن قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فرد عليهم موسى عليه الصلاة والسلام بقوله (قال إنكم قوم تجهلون) يعني تجهلون عظمة الله تعالى وأنه لايستحق أن يعبد سواه لأنه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه فأغرقهم في البحر وأنجاكم منه عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقالوا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم » أخرجه الترمذي . وقوله تعالى (إن هؤلاء متبر ماهم فيه) أي مهلك والتتبير الإهلاك (وباطل ما كانوا يعملون) البطلان عبارة عن عدم الشيء اما بعدم ذاته أو بعدم فائدته ونفعه والمراد من بطلان عملهم أنه لايعود عليهم من ذلك العمل نفع ولايدفع عنهم ضرا لأنه عمل لغير الله تعالى فكان باطلا لانفع فيه (قال أغير الله أبغيكم إلها) لما قال بنو إسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا إلها كما لهم آلهة حكم عليهم بالجهالة وقال مجيبا لهم على سبيل العجب والإنكار عليهم أغير الله أبغيكم إلها يعني أطلب لكم وأبغي لكم إلها (وهو فضلكم على العالمين) والمعنى أن الإله ليس هو شيئا يطلب ويلتمس ويتخير بل الإله هو الذي فضلكم على العالمين لأنه القادر على الإنعام والإفضال فهو هذا الذي يستحق أن يعبد ويطاع لاعبادة غيره ومعنى قوله فضلكم على العالمين يعني على عالمي زمانكم وقيل فضلهم بما خصهم به من الآيات الباهرة التي لم تحصل لغيرهم

عن أبى واقد الليثى قال « خرجنا مع النبى ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما كان للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها فقال النبى صلى الله عليه وسلم الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة لتركبن سنن من قبلكم» . قوله عز وجل (وإذ أنجيناكم) قرأ ابن عامر وإذ أنجاكم وكذلك هو فى مصاحف أهل الشام (من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم) قرأ نافع

وإن كان غيرهم أفضل منهم . قوله عز وجل (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) هذه الآية تقدم تفسيرها فى سورة البقرة والفائدة فى ذكرها فى هذا الموضع أنه تعالى هو الذى أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قوله عز وجل (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) يعنى وواعدنا موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاتنا ثلاثين ليلة وهى ذو القعدة (وأتممناها بعشر) يعنى عشر ذى الحجة وهذا قول ابن عباس ومجاهد قال المفسرون إن موسى عليه الصلاة والسلام وعد بنى إسرائيل إذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله عز وجل فيه بيان مايأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه عز وجل أن ينزل عليه الكتاب الذى وعد به بنى إسرائيل فأمره أن يصوم ثلاثين يوما فصامها فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقيل بل أكل من ورق الشجر فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشر ذى الحجة وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك فكانت فتنة بنى إسرائيل فى تلك العشر التى زادها الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام وقيل أن الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يصوم ثلاثين يوما ويعمل فيها مايتقرب به إلى الله ثم كلمه وأعطاه الألواح فى العشر التى زادها فلهذا قال وأتممناها بعشر وهذا التفصيل الذى ذكره هنا هو تفصيل ما أجمله فى سورة البقرة وهو قوله تعالى «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة» فذكره هناك على الإجمال وذكره هنا على التفصيل . وقوله تعالى (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) يعنى فتم الوقت الذى قدره الله لصوم موسى عليه الصلاة والسلام وعبادته أربعين ليلة لأن الميقات هو الوقت الذى قدر أن يعمل فيه عمل من الأعمال ولهذا قيل مواقيت الحج (وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى) يعنى كن أنت خليفتى فيهم من بعدى حتى أرجع إليك (وأصلح) يعنى وأصلح أمور بنى إسرائيل واحملهم على عبادة الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الرفق بهم والإحسان إليهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) يعنى ولا تسلك طريق المفسدين فى الأرض ولا تطعهم والمقصود من هذا الأمر التأكيد لأن هرون عليه الصلاة والسلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين فهو كقوله ولكن ليطمئن قلبى وكقولك للقاعد اقعد بمعنى دم على ما أنت عليه من القعود . قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا) يعنى للوقت الذى وقتنا له أن يأتى فيه لمناجاتنا وهو قوله (وكلمه ربه) وفى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام واختلف الناس فى كلام الله تعالى فقال الزمخشرى كلمه ربه عز وجل من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقا به فى بعض الأجرام

يقتلون خفيفة التاء من القتل ، وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير من التقتيل (ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) ذا القعدة (وأتممناها بعشر) من ذى الحجة (فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى) عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة (لأخيه هارون اخلفنى) كن خليفتى (فى قومى وأصلح) أى أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله وقال ابن عباس يريد الرفق بهم والإحسان إليهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) أى لا تطع من عصى الله ولا توافقه على أمره وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر أن الله إذا أهلك عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان مايأتون وما يذرون فلما فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربه الكتاب فأمره الله عز وجل أن يصوم ثلاثين يوما فلما تمت ثلاثون أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقال أبو العالية أكل من لحاء شجرة فقالت له الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة وقال أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك وكانت فتنتهم فى العشر التى زادها قوله عز وجل (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) أى للوقت الذى ضربنا له أن نكلمه فيه قال أهل التفسير أن موسى تطهر وطهر ثيابه

لميعاد ربه فلما أتى طور سيناء وفى القصة أن الله عز وجل أنزل ظلمة على أربعة فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد هوام الأرض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياما فى الهواء ورأى العرش بارزا وكلمه الله وناجاه حتى أسمعه ، وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلمه ربه وأدناه حتى سمع صرير القلم فاستحلى موسى عليه السلام كلام ربه واشتاق إلى رؤيته (قال رب أرنى أنظر إليك) (٢٨٢) قال الزجاج فيه اختصار تقديره أرنى نفسك أنظر إليك قال ابن عباس أعطنى النظر إليك فان قيل كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله تعالى لا يرى فى الدنيا قال الحسن هاج به الشوق فسأل الرؤية وقيل سأل الرؤية ظنا منه أنه يجوز أن يرى فى الدنيا (قال) الله تعالى (لن ترانى) وليس لبشر أن يطيق النظر إلى فى الدنيا من نظر إلى فى الدنيا مات فقال إلهى سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إلى من أن أعيش ولا أراك فقال الله عز وجل لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل وهو أعظم جبل بمدين يقال له زبير قال السدى لما كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس فى الأرض حتى خرج من بين قدمى موسى فوسوس إليه وقال إن من كلمك شيطان ، فعند ذلك سأل موسى الرؤية فقال الله عزوجل « لن ترانى »

كما خلقه مخطوطا فى الألواح هذا كلامه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك فى بطلانه وفساده لأن الشجرة أو ذلك الجرم لا يقول «إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى» فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهبت الحنابلة ومن وافقهم إلى أن كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وأنه قد تم وذهب جمهور المتكلمين إلى أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات وتلك الصفة قديمة أزلية والقائلون بهذا القول قالوا إن موسى عليه الصلاة والسلام سمع تلك الصفة الأزلية الحقيقية وقالوا كما أنه لا يبعد رؤية ذاته وليس جسما ولا عرضا كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه ليس بصوت ولا حرف ومذهب أهل السنة وجمهور العلماء من السلف والخلف إن الله تعالى متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض فى تأويله وحقيقته قال أهل التفسير والأخبار لما جاء موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام ثم أتى طور سيناء وفى القصة أن الله تعالى أنزل ظلة تغشت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية وطرد عنه الشيطان وهو أم الأرض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياما فى الهواء ورأى العرش بارزا وأدنا ربه حتى سمع صريف الأقلام على الألواح وكلمه الله تبارك وتعالى وناجاه وأسمعه كلامه وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلم الله تعالى به موسى فاستحلى كلام ربه عزوجل واشتاق إلى رؤيته (قال رب أرنى أنظر إليك) قال الزجاج فيه اختصار تقديره أرنى نفسك أنظر إليك وقال ابن عباس معناه اعطنى أنظر إليك وإنما سأل موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية مع علمه بأن الله تعالى لا يرى فى الدنيا لما هاج به من الشوق وفاض عليه من أنواع الجلال حتى استغرق فى بحر المحبة فعند ذلك سأل الرؤية وقيل إنما سأل الرؤية ظنا منه بأنه تعالى يرى فى الدنيا فتعالى الله عن ذلك (قال لن ترانى) يعنى ليس لبشر أن يرانى فى الدنيا ولا يطيق النظر إلى فى الدنيا من نظر إلى فى الدنيا مات فقال موسى عليه الصلاة والسلام إلهى سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إلى من أن أعيش ولا أراك وقال السدى لما كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام غاص عدو الله إبليس الخبيث فى الأرض حتى خرج من بين قدمى موسى فوسوس إليه أن مكلمك شيطان فعند ذلك سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه الرؤية فقال «رب أرنى أنظر إليك» قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام « لن ترانى » .

(فصل)

وقد تمسك من نفى الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى « لن ترانى » قالوا لن تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم فى ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم فى ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه فى أن لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على أهل اللغة

وتعلقت نفاة الرؤية بظاهر هذه الآية وقالوا قال الله لن ترانى ولن تكون للتأبيد ولا حجة لهم فيها ومعنى الآية لن ترانى فى الدنيا أو فى الحال لأنه كان يسأل الرؤية فى الحال ولن لا تكون للتأبيد كقوله تعالى «ولن يتمنوه أبدا» إخبارا عن اليهود ثم أخبر عنهم أنهم يتمنون الموت فى الآخرة كما قال الله تعالى «ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ويا ليتها كانت القاضية» والدليل عليه أنه لم ينسبه إلى الجهل بسؤال الرؤية ولم يقل إنى لا أرى حتى تكون لهم حجة بل علق الرؤية إذ

على استقرار الجبل واستقرار الجبل عند التجلى غير مستحيل إذا جعل الله تعالى له تلك القوة والمعلق بما لايستحيل لايكون محالا قال الله تعالى (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) قال وهب وابن إسحاق لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق وأحاطت بالجبل الذى عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب وأمر الله ملائكة السموات أن يعترضوا على موسى فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة فى رأسه وجسده ثم قال لقد ندمت على مسألتى فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه شىء فقال له خير الملائكة ورأسهم ياموسى اصبر لما سألت فقليل من كثير مارأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطو على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس كجلب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له خير الملائكة ياابن عمران مكانك حتى ترى مالا تصبر عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى بن عمران فهبطوا عليه لايشبههم شىء من الذين مروا به قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتقديس والتسبيح لايقاربهم شىء من أصوات الذين مروا به من قبلهم فاصطكت ركبتاه وارتعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورأسهم ياابن عمران اصبر لما سألت فقليل من

إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة والعربية ولم يقل به أحد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى فى صفة اليهود «ولن يتمنوه أبدا» مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى «ونادوا يامالك ليقض علينا ربك» وقوله «ياليتها كانت القاضية» فان قالوا إن لن معناها تأكيد النفى كلا التى تنفى المستقبل قلنا إن صح هذا التأويل فيكون معنى لن ترانى محمولا على الدنيا أى لن ترانى فى الدنيا جمعا بين دلائل الكتاب والسنة فانه قد ثبت فى الحديث الصحيح أن المؤمنين يرون ربهم عز وجل يوم القيامة فى الدار الآخرة وأيضا فان موسى عليه الصلاة والسلام كان عارفا بالله تعالى وبما يجب ويجوز ويمتنع على الله عز وجل وفى الآية دليل على أنه سأل الرؤية فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها موسى عليه الصلاة والسلام فحيث سألها علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى وأيضا فان الله عز وجل علق رؤيته على أمر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم من ذلك كون الرؤية فى نفسها جائزة وإنما قلنا ذلك لأنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل وهو قوله تعالى (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) وهو أمر جائز الوجود فى نفسه وإذا كان كذلك ثبت أن رؤيته جائزة الوجود لأن استقرار الجبل غير مستحيل عند التجلى إذا جعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق بما لايستحيل لايكون محالا والله أعلم بمراده. قال وهب ومحمد بن اسحاق لما سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل الرؤية أرسل الله الضباب والرياح والصواعق والرعد والبرق والظلمة حتى أحاطت بالجبل الذى عليه موسى عليه الصلاة والسلام أربع فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى أهل السموات أن يعترضوا على موسى عليه السلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد فقال موسى رب إنى كنت عن هذا غنيا ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف موسى بن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة فى رأسه وبدنه ثم قال لقد ندمت على مسألتى فهل ينجينى مما أنا فيه شىء فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس لهم جلب كجلب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له خير الملائكة ورئيسهم مكانك ياابن عمران حتى ترى مالا صبر لك عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لايشبههم شىء من الذين مروا

كثير مارأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره لم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورأسهم ياابن عمران مكانك حتى ترى بعض مالا تصبر عليه ، ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه في يد كل ملك منهم مثل النخلة الطويلة نارا أشد ضوءا من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب الملائكة والروح رب العزة أبدا لايموت (٢٨٤) وفي رأس كل ملك منهم أربعة أوجه، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم حين سبحوا وهو يبكي ويقول رب اذكرني ولا تنس عبدك لاأدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا إن خرجت احترقت وإن مكثت مت فقال له كبير الملائكة ورأسهم قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذى سألت ثم أمر الله أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدأ نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب جل جلاله ، ورفعت ملائكة السموات أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبدا لايموت بشدة أصواتهم فارتج الجبل واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقا على وجهه ليس معه روحه فأرسل الله برحمته الروح فتغشاه وقلب عليه الحجر الذى كان عليه موسى وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى فأقامه الروح مثل اللامة فقام موسى يسبح الله ويقول آمنت بك ربي وصدقت أنه لايراك أحد فيحيا من نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ولا يعدلك شيء ولا يقوم لك شيء رب تبت إليك الحمد لله لاشريك لك ما أعظمك وما أجلك رب العالمين فذلك قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال ابن عباس ظهر نور ربه للجبل جبل زبير وقال الضحاك أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ماتجلى من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط حتى صار دكا وقال السدي ماتجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ماروى ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ

عز

قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم ياابن عمران مكانك حتى ترى مالا تصبر عليه ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة العظيمة الطويلة نار أشد ضوءا من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من الملائكة كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبدا لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى عليه الصلاة والسلام رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول رب اذكرني ولا تنس عبدك فلا أدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا إن خرجت احترقت وإن أقمت مت فقال له كبير الملائكة ورئيسهم قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذى سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدأ نور العرش انصدع الجبل من عظمة الرب سبحانه وتعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبدا لايموت فارتج الجبل لشدة أصواتهم واندكا واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقا على وجهه ليس معه روحه فأرسل الله تعالى برحمته الروح فتغشته وقلب عليه الحجر الذى كان جلس عليه موسى فصار عليه كهيئة القبة لئلا يحترق موسى عليه الصلاة والسلام وأقامت الروح عليه مثل اللامة فلما أفاق موسى قام يسبح ويقول آمنت بك وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وملك الملوك والإله العظيم لايعدلك شيء ولايقوم لك شيء رب تبت إليك الحمد لك لاشريك لك ما أعظمك وما أجلك يارب العالمين فذلك قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال ابن عباس ظهر نور ربه للجبل فصار ترابا واسم الجبل زبير وقال الضحاك أظهر الله

هذه الآية وقال هكذا ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل وحكى عن سهل بن سعد الساعدى أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا أى مستويا بالأرض قرأ حمزة والكسائى دكاء ممدودا غير منون هاهنا وفى سورة الكهف ووافق عاصم فى الكهف وقر الآخرون دكا مقصورا منونا فمن قصر فمعناه جعله مدقوقا والدك والدق واحد وقيل معناه دكه الله دكا أى فتته كما قال إذا دكت الأرض دكا دكا ومن قرأ بالمد أى جعله مستويا أرضا دكاء وقيل معناه جعله مثل دكاء وهى الناقة التى لاسنام لها قال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل فى الأرض حتى وقع فى البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفى صار رملا هائلا وقال الكلبى جعله دكا أى كسرا جبالا صغارا ووقع فى بعض التفاسير صارت لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء قوله عز وجل (وخر موسى صعقا) قال ابن عباس والحسن مغشيا عليه وقال قتادة ميتا وقال الكلبى خر موسى صعقا يوم الخميس يوم عرفة وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر قال الواقدى لما خر موسى صعقا قالت ملائكة السموات مالابن عمران وسؤال الرؤية وفى بعض الكتب أن ملائكة السموات أتوا موسى وهو مغشى عليه فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة (فلما أفاق) موسى من صعقته وثاب إليه عقله عرف أنه قد سأل أمرا عظيما لاينبغى له (قال سبحانك تبت إليك) من سؤال الرؤية (وأنا أول المؤمنين) بأنك لاترى فى الدنيا وقال مجاهد والسدى وأنا أول من آمن

عز وجل من نور الحجب مثل منخر الثور وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ما تجلى للجبل من الله تعالى إلا مثل سم الخياط حتى صار دكا وقال السدى ما تجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ما روى ثابت عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية وقال هكذا ووضع الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل ذكره البغوى هكذا بغير سند وأخرجه الترمذى أيضا عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا» قال حماد هكذا وأمسك بطرف إبهامه على أنملة أصبعه اليمنى فساخ الجبل وخر موسى عليه السلام صعقا وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة ويروى عن سهل بن سعد الساعدى أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا يعنى مستويا بالأرض وقال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل حتى وقع فى البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفى صار رملا هائلا وقال الكلبى جعله دكا يعنى كسرا جبالا صغارا وقيل إنه صار لعظمة الله تعالى ستة أجبل فوقع ثلاثة بالمدينة وهى: أحد وورقان ورضوى ووقع ثلاثة بمكة وهى: ثور وثبير وحراء وقال تعالى (وخر موسى صعقا) قال ابن عباس والحسن يعنى مغشيا عليه وقال قتادة يعنى ميتا والأول أصح لقوله (فلما أفاق) والميت لا إفاقة له إنما يقال أفاق من غشيته قال الكلبى صعق موسى عليه الصلاة والسلام يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر وقال الواقدى لما خر موسى صعقا قالت ملائكة السموات مالا بن عمران وسؤال الرؤية وفي بعض الكتب أن ملائكة السموات أتوا موسى وهو فى غشيته فجعلوا يركلونه ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة فلما أفاق يعنى من غشيته ورجع عقله إليه وعرف أنه سأل أمرا عظيما لاينبغى له (قال سبحانك) يعنى تنزيها لك من النقائص كلها (تبت إليك) يعنى من مسألتى الرؤية بغير إذنك وقيل من سؤال الرؤية فى الدنيا وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال سبحانك تبت إليك يعنى من سؤالى ماليس لى وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت إليك يعنى من هذا السؤال وحسنات الأبرار سيئات المقربين (وأنا أول المؤمنين) يعنى بأنك لاترى فى الدنيا وقيل وأنا أول المؤمنين يعنى من بنى إسرائيل بقى فى الآية سؤالات: الأول أن الرؤية عين النظر فكيف قال أرنى أنظر إليك وعلى هذا يكون التقدير أرنى حتى أراك والجواب عنه أن معنى قوله أرنى اجعلنى متمكنا من رؤيتك حتى أنظر إليك وأراك السؤال الثانى كيف قال لن ترانى ولم يقل لن تنظر إلى حتى يكون مطابقا لقوله «أنظر إليك» والجواب أن النظر لما كان مقدمة الرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذى لا رؤية معه . السؤال الثالث كيف استدرك وكيف اتصل الاستدراك من قوله «ولكن انظر إلى الجبل» بما قبله والجواب أن المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وأن أحدا

باك من بنى إسرائيل (قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس) أى اخترتك قرأ ابن كثير وأبو عمرو وإنى بفتح الياء وكذلك أخى أشدد (برسالاتى) قرأ أهل الحجاز برسالتى على التوحيد والآخرون بالجمع (وبكلامى فخذ ما آتيتك) أعطيتك (وكن من الشاكرين) لله على نعمه فان قيل (٢٨٦) فما معنى قوله اصطفيتك على الناس برسالاتى وقد أعطى غيره الرسالة قيل لما لم تكن الرسالة على العموم فى حق الناس كافة استقام قوله اصطفيتك على الناس وإن شاركه فيه غيره كما يقول الرجل خصصتك بمشورتى وإن شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم يكون مستقيما وفى القصة أن موسى كان بعدما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشى وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له امرأته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت لله ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلنى زوجتك فى الجنة قال ذلك لك إن لم تتزوجى بعدى فان المرأة لآخر أزواجها أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على المزكى أنا أبو العباس محمد بن أحمد بن إسحاق السراج حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا رشد بن أسعد عن سعيد بن عبد الرحمن المغافرى عن أبيه عن كعب الأحبار أن موسى نظر فى التوراة فقال إنى أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وبالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور

كان

لا يقوى على رؤيته تعالى إلا من قواه الله تعالى بمعونته وتأييده ألا ترى أنه لما ظهر أصل التجلى للجبل اندك وتقطع فهذا هو المراد من هذا الاستدراك لأنه يدل على تعظيم أمر الرؤية والله أعلم بمراده . قوله عز وجل (قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) يعنى قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ياموسى إنى اخترتك واتخذتك صفوة والاصطفاء الاستخلاص من الصفوة والاجتباء والمعنى إنى فضلتك واجتبيتك على الناس وفى هذا تسلية لموسى عليه الصلاة والسلام عن منع الرؤية حين طلبها لأن الله تعالى عدد عليه نعمه التى أنعم بها عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له إن كنت منعت من الرؤية التى طلبت فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر إلى سائر أنواع النعم التى خصصتك بها وهى الاصطفاء على الناس برسالاتى وبكلامى يعنى من غير واسطة لأن غيره من الرسل منع كلام الله تعالى إلا بواسطة الملك . فان قلت كيف قال اصطفيتك على الناس برسالاتى مع أن كثيرا من الأنبياء قد ساواه فى الرسالة قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال جوابين : أحدهما ذكره البغوى فقال لما لم تكن الرسالة على العموم فى حق الناس كافة استقام قوله «اصطفيتك على الناس» وإن شاركه فيها غيره كما يقول الرجل للرجل خصصتك بمشورتى وإن كان قد شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم فيكون مستقيما وفى هذا الجواب نظر لأن من جملة من اصطفاه الله برسالته محمدا ﷺ وهو أفضل من موسى عليه الصلاة والسلام فلا يستقيم هذا الجواب الجواب الثانى ذكره الإمام فخر الدين الرازى فقال إن الله تعالى بين أنه خصه بمجموع أمرين وهما الرسالة مع الكلام بغير واسطة وهذا المجموع ما حصل لغيره فثبت أنه إنما حصل التخصيص هاهنا لأنه سمع ذلك الكلام بغير واسطة وإنما كان الجواب بغير واسطة سببا لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر لأن من سمع كلام الملك العظيم من فيه كان أعلى وأشرف ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب وهذا الجواب فيه نظر أيضا لأن محمدا ﷺ اصطفاه برسالته وكلمه ليلة المعراج بغير واسطة وفرض عليه وعلى أمته الصلوات وخاطبه بيا محمد يدل عليه قوله «فأوحى إلى عبده ما أوحى» ورفعه إلى حيث سمع صريف الأقلام وهذا كله يدل على مزيد الفضل والشرف على موسى عليه الصلاة والسلام وغيره من الأنبياء فلا يستقيم هذا الجواب أيضا والذى يعتمد فى هذا الجواب عن هذا السؤال أن الله اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام برسالته وبكلامه على الناس الذين كانوا فى زمانه وذلك أنه لم يكن فى ذلك الوقت أعلى منصبا ولا أشرف ولا أفضل منه وهو صاحب الشريعة الظاهرة وعليه نزلت التوراة فدل ذلك عليه انه اصطفاه على ناس زمانه كما اصطفى قومه على عالمى زمانهم وهو قوله تعالى «يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين» قال المفسرون يعنى على عالمى زمانهم. وقوله تعالى (فخذ ما آتيتك) يعنى ما فضلتك وأكرمتك به (وكن من الشاكرين) يعنى على إنعامى عليك وفى القصة أن موسى عليه الصلاة والسلام

الدجال رب اجعلهم أمتى قال هى أمة محمد ياموسى فقال رب إنى أجد أمة هم الحمادون لله على كل حال رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمرا قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد ، فقال رب إنى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد فقال يارب إنى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله فاذا هبط واديا حمد الله الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيث ما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لايجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد ، قال رب إنى أجد أمة إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة مثلها وإن عملها كتبت بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت له سيئة مثلها فاجعلهم أمتى قال هى أمة أحمد فقال رب إنى أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب من الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هى أمة أحمد قال رب إنى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون فى صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار أحد منهم أبدا إلا من برى الحساب مثل ما يرى له الحجر من وراء البحر فاجعلهم أمتى قال هى أمة أحمد فلما عجب موسى من الخير الذى أعطى الله محمدا وأمته قال ياليتنى من أصحاب محمد فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى إلى قوله سأريكم دار الفاسقين ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال فرضى موسى كل الرضا قوله تعالى (وكتبنا له) يعنى لموسى (فى الألواح) قال ابن عباس يريد ألواح التوراة وفى الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعا وجاء فى الحديث خلق الله آدم بيده ، وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وقال الحسن كانت الألواح من خشب قال الكلبى كانت من زبرجدة خضراء وقال سعيد بن جبير كانت من ياقوت أحمر وقال الربيع بن أنس كانت الألواح من برد وقال ابن جريج كانت من زمرد أمر الله جبريل حتى جاء بها من عدن وكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور قال وهب أمر الله بقطع الألواح من صخرة صماء لينها الله له فقطعها بيده ثم شققها بيده وسمع موسى صرير القلم بالكلمات العشرة وكان ذلك فى أول يوم من ذى القعدة وكانت الألواح عشرة أذرع على طول موسى وقال مقاتل ووهب وكتبنا له فى الألواح كنقش الخاتم وقال

كان بعد ما كلمه ربه لايستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشى وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلنى زوجتك فى الجنة قال ذلك لك إن لم تتزوجى بعدى فان المرأة لآخر أزواجها قوله تعالى (وكتبنا فى الألواح) قال ابن عباس يريد ألواح التوراة والمعنى وكتبنا لموسى فى ألواح التوراة قال البغوى وفى الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح إثنا عشر ذراعا وجاء فى الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وقال الحسن كانت الألواح من خشب وقال الكلبى من زبرجدة خضراء وقال سعيد بن جبير من ياقوتة حمراء وقال ابن جريج من زمرد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال الربيع بن أنس كانت الألواح من زبرجد وقال وهب أمره الله بقطع ألواح من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده ثم شقها بأصبعه وسمع موسى عليه الصلاة والسلام صرير الأقلام بالكلمات العشرة وكان ذلك فى أول يوم من ذى الحجة وكان طول الألواح عشرة أذرع على طول موسى وقيل إن موسى خر صعقا يوم عرفة فأعطاه الله تعالى التوراة يوم النحر وهذا أقرب إلى الصحيح واختلفوا فى عدد الألواح فروى عن ابن عباس أنها كانت سبعة ألواح وروى عنه أنها لوحان واختاره الفراء قال وإنما جمعت على عادة العرب فى إطلاق الجمع على الاثنين وقال وهب كانت عشرة ألواح وقال مقاتل كانت تسعة وقال الربيع بن أنس نزلت التوراة وهى وقر سبعين بعيرا يقرأ الجزء منها فى سنة ولم يقرأها إلا أربعة نفر موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم الصلاة والسلام والمراد بقوله لم يقرأها يعنى لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلبه إلا هؤلاء الأربعة وقال الحسن

ويوشع وعزير وعيسى وقال الحسن هذه الآية فى التوراة ألف آية يعنى وكتبنا له فى الألواح (من كل شىء) مما أمروا به ونهوا عنه (موعظة) نهيا عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته (وتفصيلا لكل شىء) أى تبيينا لكل شىء من الأمر والنهى والحلال والحرام والحدود والأحكام (فخذها بقوة) أى بجد واجتهاد وقيل بقوة القلب وصحة العزيمة لأنه إذا أخذه بضعف النية أداه إلى الفتور (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما يحلو حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعملوا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى عليه السلام أشد عبادة من قومه، فأمر بما لم يأمروا به قال قطرب بأحسنها أى بحسنها وكلها حسن وقيل أحسنها الفرائض والنوافل وهى مايستحق عليها الثواب وما دونها المباح لأنه لايستحق عليه الثواب وقيل بأحسنها بأحسن الأمرين فى كل شىء كالعفو أحسن من القصاص والصبر أحسن أحسن

هذه الآية فى التوراة بألف آية يعنى قوله وكتبنا له فى الألواح (من كل شىء) يعنى يحتاج إليه من أمر ونهي (موعظة) يعنى نهيا عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته (وتفصيلا لكل شىء) يعنى وتبيينا لكل شىء من الأمر والنهى والحلال والحرام والحدود والأحكام مما يحتاج إليه فى أمور الدين وروى الطبرى بسنده عن وهب بن منبه قال كتب له يعنى فى التوراة لاتشرك بى شيئا من أهل السماء ولا من أهل الأرض فان كل ذلك خلقى ولا تحلف باسمى كاذبا فان من حلف باسمى كاذبا فلا أزكيه ووقر والديك وروى البغوى باسناد الثعلبى عن كعب الأحبار أن موسى عليه الصلاة والسلام نظر فى التوراة فقال إنى أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال رب اجعلهم أمتى قال هى أمة محمد ياموسى فقال رب إنى لأجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمرا قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال رب إنى أجد فى التوراة أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال يارب إنى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله وإذا هبط واديا حمد الله الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لايجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال يارب إنى أجد أمة إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة بمثلها وإن عملها كتبت بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال يارب إنى أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال رب إنى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون فى صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لايدخل النار أحد منهم أبدا إلا من يرى الحساب مثل مايرى الحجر من وراء من البحر فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذى أعطاه الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته قال ياليتنى من أصحاب محمد فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن «ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى إلى قوله سأريكم دار الفاسقين» «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» قال فرضى موسى كل الرضا. وقوله تعالى (فخذها بقوة) يعنى وقلنا لموسى عليه الصلاة والسلام إذ كتبنا له فى الألواح من كل شىء خذها بجد واجتهاد وقيل معناه فخذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة لأن من أخذ شيئا بضعف نية أداه إلى الفتور (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال ابن عباس يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعملوا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى عليه الصلاة والسلام أشد عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به وقيل ظاهر قوله «وأمر قومك يأخذوا بأحسنها» يدل على أن بين التكليفين فرقا ليكون فى هذا الفصل فائدة وهى أن التكاليف كان على موسى أشد لأنه تعالى لم يرخص له مارخص لغيره من قومه. فان قلت ظاهر قوله تعالى «يأخذوا بأحسنها» يدل على أن فيها ماليس بحسن وذلك لم يقل به أحد فما معنى قوله «يأخذوا بأحسنها»؟ قلت أن التكليف كله حسن وبعضه

من الانتصار (سأريكم دار الفاسقين) قال مجاهد مصيرها فى الآخرة قال الحسن وعطاء يعنى جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم وقال قتادة وغيره سأدخلكم الشأم فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله لتعتبروا بها قال عطية العوفى أراد دار فرعون وقومه وهى مصر يدل عليه قراءة قسامة بن زهير سأورثكم دار الفاسقين وقال السدى دار الفاسقين مصارع الكفار وقال الكلبى ماروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين

أهلكوا قوله تعالى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادى ويحاربون أوليائى حتى لايؤمنوا بى يعنى سأصرفهم عن قبول آياتى والتصديق بها عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق كقوله فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم قال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم القرآن قال ابن جريج يعنى عن خلق السموات والأرض وما فيهما أصرفهم أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها وقيل حكم الآية لأهل مصر خاصة وأراد بالآيات الآيات التسع التى أعطاها الله تعالى موسى والأكثرون على أن الآية عامة (وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا) يعنى هؤلاء المتكبرين (سبيل الرشد) قرأ حمزة والكسائى الرشد بفتح الراء والشين

أحسن كالقصاص حسن ولكن العفو أحسن وكالانتصار حسن والصبر أحسن منه فأمروا أن يأخذوا بالأشد على أنفسهم ليكون ذلك أعظم فى الثواب فهو كقوله «اتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم» وكقوله «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» وقيل إن الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والأحسن الأخذ بالأشد والأشق على النفس وقيل معناه بأحسنها بحسنها وكلها حسن . قوله تعالى (سأريكم دار الفاسقين) قال مجاهد يعنى مصيركم فى الآخرة وقال الحسن وعطاء يريد جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم وقال قتادة سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا الله تعالى لتعتبروا بها وقال عطية العوفى يعنى دار فرعون وقومه وهى مصر وقال السدى يعنى منازل الكفار وقال الكلبى هى منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا فكانوا يمرون عليها إذا سافروا . قوله عز وجل (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادى ويحاربون أوليائى سأصرفهم عن قبول آياتى والتصديق بها حتى لايؤمنوا بى عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم الحق وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم القرآن وقيل معناه سأصرفهم عن التفكير فى خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات والعبر وقيل حكم الآية لأهل مصر خاصة وأراد بالآيات الآيات التسع التى أعطاها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام والأكثرون على أن الآية عامة وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن الله تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ويصرف عن آياته وقبول الحق من يشاء ويوفق بالتفكر فى آياته وقبول الحق من يشاء لأنه القادر على مايشاء «لايسئل عما يفعل وهم يسئلون» ومعنى الذين يتكبرون الذين يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ماليس لغيرهم والتكبر على هذه الصفة لايكون إلا لله عز وجل لأنه هو الذى له القدرة والفضل الذى ليس لأحد سواه فالتكبر فى حق الله عز وجل صفة مدح وفى حق المخلوقين صفة ذم لأنه تكبر بما ليس له ولايستحقه وقيل التكبر إظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم فى حق جميع العباد وقوله يتكبرون من الكبر لامن التكبر أى يفتعلون التكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال يتكبرون فى الأرض بغير الحق بل بالباطل (وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد) يعنى طريق الحق والهدى والسداد والصواب (لايتخذوه سبيلا) يعنى لايختاروه لأنفسهم طريقا يسلكونه إلى الهداية (وإن يروا سبيل الغى) يعنى طريق الضلال (يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) يعنى ذلك اختاروه لأنفسهم من ترك الرشد واتباع الغى بسبب أنهم كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده (وكانوا عنها غافلين) يعنى عن التفكر فيها والاتعاظ بها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) يعنى ولقاء الدار الآخرة

والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان كالسقم والسقم والبخل والبخل والحزن والحزن وكان أبو عمرو يفرق بينهما فيقول الرشد بالضم الصلاح فى الأمر وبالفتح الاستقامة فى الدين ومعنى الآية وإن يروا طريق الهدى والسداد (لايتخذوه) لأنفسهم (سبيلا) (وإن يروا سبيل الغى) أى طريق الضلال (يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) عن التفكر فيها والاتعاظ بها غافلين ساهين (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى ولقاء الدار

الآخرة التى هى موعد الثواب والعقاب (حبطت أعمالهم) بطلت وصارت كأن لم تكن (هل يجزون) فى العقبى (إلا ما كانوا) أى إلا جزاء ما كانوا (يعملون) فى الدنيا قوله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده) أى من بعد انطلاقه إلى

الجبل (من حليهم) التى استعاروها من قوم فرعون قرأ حمزة والكسائى من حليهم بكسر الحاء وقرأ يعقوب بفتح الحاء وسكون اللام خفيف اتخذ السامرى منها (عجلا) وألقى فى فمه من تراب أثر فرس جبريل فتحول عجلا (جسدا) حيا لحما ودما (له خوار) وهو صوت البقر وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة وجماعة أهل التفسير وقيل كان جسدا مجسدا من ذهب لا روح فيه كان يسمع منه صوت وقيل كان صوت خفيف الريح يدخل فى جوفه ويخرج والأول أصح وقيل إنه ما خار إلا مرة واحدة وقيل إنه كان يخور كثيرا فكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رءوسهم وقال وهب كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرك وقال السدى كان يخور ويمشى (ألم يروا) يعنى الذين عبدوا العجل (أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) قال الله عز وجل (اتخذوه وكانوا ظالمين) أى اتخذوه إلها وكانوا كافرين (ولما سقط فى أيديهم) أى ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على أمر قد سقط فى يديه (ورأوا أنهم قد ضلوا؟ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا) يتب علينا ربنا (ويغفر لنا) يتجاوز عنا (لنكونن من الخاسرين) قرأ حمزة والكسائى ترحمنا وتغفر لنا بالتاء فيهما ربنا بنصب الباء وكان هذا الندم والاستغفار منهم بعد رجوع

التى فيها الثواب والعقاب (حبطت أعمالهم) يعنى بطلت فصارت كأن لم تكن والمعنى أنه قد يكون فى الذين يكذبون بآيات الله من يعمل البر والإحسان والخير فبين الله تعالى بهذه الآية إن ذلك ليس ينفعهم مع كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وإنكارهم الدار الآخرة والبعث (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) يعنى هل يجزون فى العقبى إلا جزاء العمل الذى كانوا يعملونه فى الدنيا. قوله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده) يعنى من بعد انطلاق موسى إلى الجبل لمناجاة ربه عز وجل (من حليهم) يعنى التى استعاروها من قوم فرعون وذلك أن بنى إسرائيل كان لهم عيد فاستعاروا من القبط الحلى ليتزينوا به فى عيدهم فبقى عندهم إلى أن أهلك الله فرعون وقومه فبقى الحلى لبنى إسرائيل ملكا لهم فلذلك قال الله تعالى من حليهم فلما أبطأ موسى عليهم جمع السامرى ذلك الحلى وكان رجلا مطاعا فى بنى إسرائيل فلذلك قال تعالى واتخذ قوم موسى والمتخذ هو واحد فنسب الفعل إلى الكل لأنه كان برضاهم فكأنهم أجمعوا عليه وكان السامرى رجلا صائغا فصاغ لهم (عجلا جسدا) يعنى من ذلك الحلى وهو الذهب والفضة وألقى فى ذلك العجل من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلا جسدا لحما ودما (له خوار) هو صوت البقر وهذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور أهل التفسير وقيل كان جسدا لا روح فيه وكان يسمع منه صوت وقيل إن ذلك الصوت كان خفيق الريح وذلك أنه جعله مجوفا ووضع فى جوفه أنابيب على وضع مخصوص فاذا هبت الريح دخلت فى تلك الأنابيب فيسمع لها صوت كصوت البقر. والقول الأول أصح لأنه كان يخور وقيل إنه خار مرة واحدة وقيل إنه كان يخور كثيرا وكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رءوسهم قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك وقال السدى كان يخور ويمشى (ألم يروا) يعنى الذين عبدوا العجل وقيل إن بنى إسرائيل كلهم عبدوا العجل إلا هارون عليه الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى «واتخذ قوم موسى من بعده» وهذا يفيد العموم وقيل إن بعضهم عبد العجل وهو الصحيح وأجيب عن قوله واتخذ قوم موسى أنه خرج على الأغلب وكذا قوله «ألم يروا» (أنه) يعنى العجل الذى عبدوه (لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) يعنى أن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدى إلى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جمادا أو حيوانا ناقصا عاجزا وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد (اتخذوه وكانوا ظالمين) يعنى لأنفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى الذى يضر وينفع واشتغلوا بعبادة العجل الذى لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم ولا يهديهم إلى رشد وصواب. قوله عز وجل (ولما سقط فى أيديهم) يعنى ولما ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على أمر سقط فى يده وذلك لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعض يده ثم يضرب على فخذه فتصير يده ساقطة لأن السقوط عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل (ورأوا أنهم قد ضلوا) يعنى وتيقنوا أنهم على الضلالة فى عبادتهم العجل (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) يعنى يتب علينا ويتجاوز عنا (لنكونن من الخاسرين) يعنى الذين خسروا أنفسهم بوضعهم العبادة فى غير موضعها وهذا كلام من اعترف بعظيم ما أقدم عليه من الذنب وندم على ما صدر منه

ورغب إلى الله تعالى فى إقالة عثرته واعترافهم على أنفسهم بالخسران إن لم يغفر لهم ربهم ويرحمهم كلام التائب النادم على مافرط منه وإنما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام إليهم وهو قوله تعالى (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) يعنى لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام من مناجاة ربه إلى قومه بنى إسرائيل رجع غضبان أسفا لأن الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وأن السامرى قد أضلهم فكان موسى في حال رجوعه غضبان أسفا قال أبو الدرداء الأسف أشد الغضب وقال ابن عباس والسدى الأسف الحزن والأسيف الحزين قال الواحدى والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب فاذا جاءك ماتكره ممن هو دونك غضبت وإذاجاءك ماتكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنا والأخرى غضبا فعلى هذا كان موسى عليه الصلاة والسلام غضبان من قومه لأجل عبادتهم العجل آسفا حزينا لأن الله تعالى فتنهم وأن الله تعالى كان قد أعلمه بذلك فحزن لأجل ذلك (قال) يعنى موسى عليه الصلاة والسلام لقومه (بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئس الفعل فعلتم بعد فراقى إياكم وهذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامرى وأتباعه أو لهارون من بنى إسرائيل فعلى الاحتمال الأول فى أنه خطاب لعبدة العجل يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله وعلى الاحتمال الثاني وهو أن يكون الخطاب لهارون ومن معه من المؤمنين يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى وقد رأيتم منى الأمر بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له ونفى الشركاء عنه وحمل بنى إسرائيل على ذلك ومن حق الخلفاء أن يسيروا لسيرة مستخلفهم وقوله (أعجلتم أمر ربكم) معنى العجلة التقدم بالشىء قبل وقته ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لأن معناها عمل الشىء فى أول وقته ولقائل أن يقول لو كانت العجلة مذمومة لم يقل موسى عليه الصلاة والسلام «وعجلت إليك رب لترضى» ومعنى الآية أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له وقال الحسن أعجلتم وعد ربكم الذى وعدكم من الأربعين وذلك أنهم قدروا أنه لم يأت على رأس الثلاثين فقد مات وقيل معناه أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل وقال الكلبى معناه أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم ولما ذكر الله تعالى أن موسى عليه الصلاة والسلام رجع إلى قومه غضبان أسفا ذكر بعده ما أوجبه الغضب فقال تعالى (وألقى الألواح) يعنى التى فيها التوراة وكان حاملا لها فألقاها من شدة الغضب قالت الرواة وأصحاب الأخبار كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباع وبقى سبع واحد فرفع منها ما كان من أخبار الغيب وبقى مافيه المواعظ والأحكام والحلال والحرام ، وروى أن الله تعالى أخبر موسى عليه الصلاة والسلام بفتنة قومه وعرف موسى عليه الصلاة والسلام أن ماأخبره الله سبحانه وتعالى به حق وصدق ومع ذلك لم يلق التوراة من يده فلما رجع إلى قومه وعاين ذلك وشاهده ألقى التوراة وهذا كما قيل ليس الخبر كالمعاينة (وأخذ برأس أخيه يجره إليه) قيل إنه أخذ بشعر رأسه ولحيته من شدة غضبه وقال ابن الأنبارى لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام ووجد قومه مقيمين على المعصية أكبر ذلك واستعظمه فأقبل على أخيه هارون يلومه ومد يده إلى رأسه لشدة موجدته عليه إذا لم يلحق به فيعرفه خبر بنى إسرائيل فيرجع ويتلافاهم فأعلمه هارون عليه السلام أنه إنما أقام بين أظهرهم خوفا على نفسه من القتل وهو قوله تعالى (قال) يعنى هارون (ابن أم) إنما قال هارون لموسى ابن أم وإن كانا لأب وأم ليرققه ويستعطفه عليه عند ذلك (ابن أم) قرأ أهل الكوفة والشام هاهنا وفى طه بكسر الميم يريد يا ابن أمى ، فحذف ياء الإضافة

قال ابو الدرداء الاسف شديد الغضب ، وقال ابن عباس والسدى أسفا أى حزينا والأسف أشد الحزن (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئس ماعملتم بعد ذهابى يقال خلفه بخير أو بشر إذا أولاه فى أهله بعد شخوصه عنهم خيرا أو شرا (أعجلتم) أسبقتم (أمر ربكم) قال الحسن وعد ربكم الذى وعدكم من الأربعين ليلة وقال الكلبى أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم (وألقى الألواح) التى فيها التوراة وكان حاملا لها وألقاها على الأرض من شدة الغضب قالت الرواة كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى الألواح تكسرت ، فرفعت ستة أسباعها وبقى سبع فرفع ما كان من أخبار الغيب وبقى ما فيه الموعظة والأحكام والحلال والحرام (وأخذ برأس أخيه) بذوائبه ولحيته (يجره إليه) وكان هرون أكبر من موسى بثلاث سنين وأحب إلى بنى إسرائيل من موسى لأنه كان لين الغضب (قال) هرون

(إن القوم) يعنى الذين عبدوا العجل (استضعفونى) أى استذلونى وقهرونى (وكادوا يقتلوننى) أى وقاربوا أو هموا أن يقتلونى (فلا تشمت بى الأعداء) أصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به والمعنى لاتسر الأعداء بما تنال منى من مكروه (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) يعنى الذين عبدوا العجل (قال رب اغفرلى) يعنى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما تبين له عذر أخيه هارون قال رب اغفرلى ماصنعت إلى أخى هارون يريد ماأظهر من الموجدة عليه فى وقت الغضب (ولأخى) يعنى واغفر لأخى هارون إن كان وقع منه تقصير فى الإنكار على عبدة العجل (وأدخلنا) يعنى جميعا (فى رحمتك) يعنى فى سعة رحمتك (وأنت أرحم الراحمين) وهذا فيه دليل على الترغيب فى الدعاء لأن من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعى فى نجاح طلبته (إن الذين اتخذوا العجل) يعنى إلها عبدوه من دون الله (سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا) يعنى سينالهم عقوبة من ربهم وهو أن بسبب كفرهم وعبادتهم العجل وذلك فى عاجل الحياة الدنيا ثم للمفسرين فى هذه الآية قولان: أحدهما أن المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادته وعلى هذا القول ففى الآية سؤال وهو أن أولئك الأقوام الذين اتخذوا العجل تابوا إلى الله تعالى بقتلهم أنفسهم كما أمرهم الله فتاب عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة والجواب إن ذلك الغضب إنما حصل لهم فى الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضبا عليهم والمراد بالذلة هو إسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ. فان قلت السين فى قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضى. قلت هذا الكلام إنما هو خبر عما أخبر الله به موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله فى ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقا لوقوعه وهو القتل الذى أمرهم الله به بعد ذلك وقال ابن جريج فى هذه الآية إن هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل وهو الذى قاله ابن جريج وإن كان له وجه لكن لجميع المفسرين على خلافه. القول الثانى أن المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس هم الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم وآباؤهم هم الذين عبدوا العجل وأراد بالغضب عذاب الآخرة وبالذلة فى الدنيا الجزية وقال عطية العوفى سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد بالغضب والذلة ماأصاب بنى النضير وبنى قريظة من القتل والجلاء وعلى هذا القول ففى تقرير الآية وجهان: الأول أن العرب تعير الأبناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل ذلك فى المناقب فتقول للأبناء كذا وفعلتم كذا وإنما فعل ذلك من مضى من آبائهم فكذلك هاهنا وصف اليهود الذين كانوا على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم اتخذوا العجل وإن كان آباؤهم فعلوا ذلك ثم حكم على اليهود الذين كانوا فى زمنه بأنهم سينالهم غضب من ربهم فى الآخرة وذلة فى الحياة الدنيا. الوجه الثانى أن تكون الآية من باب حذف المضاف والمعنى أن الذين اتخذوا العجل وباشروا عبادته سينال أولادهم، الخ ثم حذف المضاف لدلالة الكلام عليه. وقوله تعالى (وكذلك نجزى المفترين) يعنى وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلها نجزى كل من افترى

وأبقيت الكسرة لتدل على الإضافة كقوله ياعباد، وقرأ أهل الحجاز والبصرة وحفص بفتح الميم على معنى يا ابن أماه وقيل جعله اسما واحدا وبناه على الفتح كقولهم حضرموت وخمسة عشر ونحوهما وإنما قال ابن أم وكان هارون أخاه لأبيه وأمه ليرققه ويستعطفه وقيل كان أخاه لأمه دون أبيه (إن القوم استضعفونى) يعنى عبدة العجل (وكادوا يقتلوننى) هموا وقاربوا أن يقتلونى (فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى) فى مؤاخذتك على (مع القوم الظالمين) يعنى عبدة العجل (قال) موسى لما تبين له عذر أخيه (رب اغفر لى) ماصنعت إلى أخى (ولأخى) إن كان منه تقصير فى الإنكار على عبدة العجل (وأدخلنا) جميعا (فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) قوله تعالى (إن الذين اتخذوا العجل) أى اتخذوه إلها (سينالهم غضب من ربهم) فى الآخرة (وذلة فى الحياة الدنيا) قال أبو العالية هو ماأمروا به من قتل أنفسهم، وقال عطية العوفى «إن الذين اتخذوا العجل» أراد اليهود الذين كانوا فى عصر النبى ﷺ عيرهم بصنيع آبائهم فنسبه إليهم «سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا» أراد ماأصاب بنى قريظة والنضير من القتل والجلاء وقال ابن عباس رضى الله عنهما هو الجزية (وكذلك نجزى المفترين) الكاذبين قال أبو قلابة هو والله جزاء كل مفتر

على

على الله كذبا أو عبد غيره وقال أبو قلابة هى والله جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله وقال سفيان بن عيينة هذا فى كل مبتدع إلى يوم القيامة وقال مالك بن أنس مامن مبتدع إلا وهو يجدفوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر فى دين الله (والذين عملوا السيئات) يعنى عملوا الأعمال السيئة ويدخل فى ذلك كل ذنب صغير وكبير حتى الكفر فما دونه (ثم تابوا من بعدها) يعنى ثم رجعوا إلى الله من بعد أعمالهم السيئة (وآمنوا) يعنى وصدقوا بالله تعالى وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب (إن ربك) يامحمد أو ياأيها الإنسان التائب (من بعدها) يعنى من بعد توبتهم (لغفور رحيم) يعنى أنه تعالى يغفر الذنوب ويرحم التائبين وفى الآية دليل على أن السيئات بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة فى التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته وتقدير الآية أن من أتى بجميع السيئات ثم تاب إلى الله وأخلص التوبة فان الله يغفرها له ويقبل توبته وهذا من أعظم البشار للمذنبين التائبين. قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب) يعنى سكن لأن السكوت أصله الإمساك عن الشىء ولما كان السكوت بمعنى السكون استعير فى سكون الغضب لأن الغضب لايتكلم لكنه لما كان بفورته دالا على مافى نفس المغضب كان بمنزلة الناطق فاذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السكوت عما كان متكلما به وقيل معناه ولما سكت موسى عن الغضب فهو من المقلوب كما تقول أدخلت القلنسوة فى رأسى والمعنى أدخلت رأسى فى القنسوة والقول الأول أصح لأنه قول أهل اللغة والتفسير (أخذ الألواح) يعنى التى ألقاها قال الإمام فخر الدين وظاهر هذا يدل على أن الألواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شىء (وفى نسختها) النسخ عبارة عن النقل والتحويل فاذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نقلت مافى الأصل إلى الفرع فعلى هذا قيل أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ وقيل أراد بها النسخة المكتتبة من الألواح التى أخذها موسى بعدما تكسرت وقال ابن عباس وعمرو بن دينار لما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت عليه فى لوحين وفيهما مافى الأولى بعينها فيكون نسخها نقلها وعلى قول من قال إن الألواح لم تتكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون معنى وفى نسختها المكتوب فيها (هدى ورحمة) قال ابن عباس يعنى هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) يعنى للخائفين من ربهم. قوله عز وجل (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) الاختيار افتعال من لفظ الخير يقال اختار الشىء إذا أخذ خيره وخياره والمعنى اختار موسى من قومه فحذف كلمة من وذلك سائغ فى العربية لدلالة الكلام عليه قال أصحاب الأخبار أن موسى عليه الصلاة والسلام اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وقيل إنه لم يجد إلاستين شيخا فأوحى الله إليه أن يختار من الشباب عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخا فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه واختلف أهل التفسير فى ذلك الميقات فقيل إنه الميقات الذى كلمه فيه ربه وسأل فيه الرؤية وذلك أنه لما خرج إلى طور سيناء أخذ معه هؤلاء السبعين فلما دنى موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى أحاط بالجبل كله ودخل موسى فيه وقال لقومه أدنوا فدنوا حتى دخلوا فى الغمام ووقعوا سجدا وسمعوا الله تعالى وهو يكلم موسى يأمره وينهاه أفعل كذا لاتفعل كذا فلما انكشف الغمام أقبلوا على موسى وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله

إلى يوم القيامة أن يذله الله قال سفيان بن عيينة هذا فى كل مبتدع إلى يوم القيامة. قوله عز وجل (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) قوله تبارك وتعالى (ولما سكت) أى سكن (عن موسى الغضب أخذ الألواح) التى كان ألقاها وقد ذهبت ستة أسباعها (وفى نسختها) اختلفوا فيه قيل أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ وقيل إن موسى لما ألقى الألواح تكسرت فنسخ منها نسخة أخرى فهو المراد من قوله وفى نسختها، وقيل أراد وفيما نسخ منها وقال عطاء فيما بقى منها وقال ابن عباس وعمرو بن دينار لما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت عليه فى لوحين فكان فيه (هدى ورحمة) أى هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) أى للخائفين من ربهم واللام فى لربهم زيادة للتوكيد كقوله ردف لكم وقال الكسائى لما تقدمت قبل الفعل حسنت كقوله للرؤيا تعبرون قال قطرب أراد من ربهم يرهبون وقيل أراد راهبون لربهم. قوله تعالى (واختار موسى قومه) أى من قومه فانتصب لنزع حرف الصفة (سبعين رجلا لميقاتنا)

إليه من عبادة العجل فاختار موسى من قومه سبعين رجلا (فلما) أتوا ذلك المكان، قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فماتوا وقال ابن إسحاق اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا ويسألوا التوبة على من تركوا وراءهم من قومهم فهذا يدل على أن كلهم عبدوا العجل، وقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب (أخذتهم الرجفة) لأنهم لم يزايلوا قومهم حين عبدوا العجل ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر وقال ابن عباس إن السبعين الذين قالوا «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» كانوا قبل السبعين الذين أخذتهم الرجفة وإنما أمر الله سبحانه وتعالى موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم فكان فيما دعوا أن قالوا اللهم أعطنا مالم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة، قال وهب لم تكن الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا

جهرة فأخذتهم الصاعقة وهى المراد من الرجفة المذكورة فى هذه الآية وقال السدى إن الله أمر موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار موسى من قومه سبعين رجلا ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا «لن نؤمن لك» ياموسى «حتى نرى الله جهرة» فإنك قد كلمته، فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى وقال محمد بن إسحاق اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لايأتيه إلا باذن منه وعلم فقال السبعون فيما ذكر لى حين فعلوا ماأمرهم به وخرجوا مع موسى لميقات ربه اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى غشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم أدنوا فكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لايستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام ووقعوا سجودا فسمعوا الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» وهى رجفة فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه يقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى وقال ابن عباس كان الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم فكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا مالم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى وقيل إنما أخذتهم الرجفة من أجل أنهم ادعوا على موسى أنه قتل هارون قال على بن أبى طالب انطلق موسى وهارون إلى سفح جبل فنام هارون على سرير فتوفاه الله فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه وكان هارون حسن الخلق محببا فى بنى إسرائيل فقال لهم موسى اختاروا من شئتم فاختاروا سبعين رجلا فلما انتهوا إليه قالوا ياهارون من قتلك قال ماقتلنى أحد ولكن الله توفانى فأخذتهم الرجفة فجعل موسى يرجع يمينا وشمالا ويقول «رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى» الآية فأحياهم الله عز وجل وقيل إنما أخذتهم الرجفة لتركهم فراق عبدة العجل لا لأنهم كانوا من عبدته قال ابن عباس إنما تناولتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا القوم حين نصبوا العجل وما كرهوا أن يجامعوهم عليه قال ابن جريج فلما خرجوا ودعوا الله أماتهم ثم أحياهم وقال مجاهد واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا الميقات الموعد فلما أخذتهم الرجفة بعد أن خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله ويسألونه أن يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم علم موسى أنهم قد أصابوا من المعصية ماأصاب قومهم وقال محمد بن كعب القرظى لم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف فأخذتهم الرجفة فماتوا ثم أحياهم الله وقوله تعالى (فلما أخذتهم الرجفة) أصل الرجفة الاضطراب الشديد الذى يحصل معه التغير والهلاك ولهذا اختلفوا فى تلك الرجفة التى حصلت لهؤلاء هل كان معها موت أم لا فعظم الروايات التى تقدمت أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة وقال وهب بن منبه لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا

حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين له مطيعين فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام الله فذلك قوله تعالى « فلما أخذتهم الرجفة » (قال) يعنى موسى (رب) أى يارب (لو شئت أهلكتهم من قبل) يعنى من قبل عبادتهم العجل (وإياى) وذلك أنه خاف أن يتهمه بنو إسرائيل على السبعين إذا رجع إليهم وماهم معه ولم يصدقوه بأنهم ماتوا فقال رب لو شئت أهلكتهم من قبل يعنى قبل خروجهم إلى الميقات وإياى معهم فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) قال الفراء ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحاب العجل العجل فقال أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يعنى عبدة العجل وإنما أهلكوا بسبب مسئلتهم الرؤية وهى قولهم أرنا الله جهرة وهذا قول الكلبي وجماعة وقال جماعة من أهل العلم لايجوز أن يظن موسى أن الله تعالى يهلك قوما بذنوب غيرهم ولكن قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام بمعنى الجحد أى لست تفعل ذلك وهذا قول ابن الأنبارى وقال المبرد هذا استفهام استعطاف أى لاتهلكنا (إن هى إلا فتنتك) قال الواحدى الكناية فى هى تعود إلى الفتنة كما تقول إن هو إلا زيد والمعنى أن تلك الفتنة التى وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك أى اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لأن معناه لاتهلكنا بفعلهم فان تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء أضللت بها قوما فافتتنوا وهديت قوما فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك وهو المراد من قوله (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) قال الواحدى وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التى لايبقى لهم معها عذر (أنت ولينا) يعنى أنت ياربنا ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر أى لاولى لنا ولا ناصر ولا حافظ إلا أنت (فاغفر لنا) سأل موسى عليه الصلاة والسلام لنفسه ولقومه الغفران أما لنفسه فلقوله إن هى إلا فتنتك وهذا فيه إقدام على الحضرة المقدسة وأما لقومه فلقولهم أرنا الله جهرة وفى هذا إقدام على الحضرة المقدسة فلهذا السبب سأل موسى عليه الصلاة والسلام الغفران له ولقومه (وارحمنا) أى واشملنا برحمتك التى وسعت كل شىء (وأنت خير الغافرين) يعنى أن كل من سواك إنما يغفر الذنب طلبا للثناء الجميل أو لدفع ضرر وأما أنت يارب فتغفر ذنوب عبادك لالطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم فأنت خير الغافرين . قوله تعالى (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) يعنى قال موسى فى دعائه واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة أى واجعلنا ممن كتبت له حسنة وهى ثواب الأعمال الصالحة وفى الآخرة أى واكتب لنا فى الآخرة مغفرة لذنوبنا (إنا هدنا إليك) قال ابن عباس معناه إنا تبنا إليك وهذا قول جميع المفسرين وأصل الهود الرجوع برفق قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم فلما نسخت شريعتهم صار اسم ذم وهو لازم لهم (قال) يعنى قال الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام (عذابى أصيب به من أشاء) يعنى من خلقى وليس لأحد على اعتراض لأن الكل ملكى وعبيدى ومن تصرف فى خالص حقه فليس لأحد عليه اعتراض (ورحمتى وسعت كل شىء) يعنى أن رحمته سبحانه وتعالى

حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام ربهم فذلك قوله عز وجل (قال) يعنى موسى (رب لو شئت أهلكتهم من قبل) يعنى عند عبادة العجل (وإياى) بقتل القبطى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) يعنى عبدة العجل وظن موسى أنهم عوقبوا باتخاذ بنى إسرائيل العجل ، وقال هذا على طريق السؤال يسأل أتهلكنا بفعل السفهاء وقال المبرد قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام استعطاف أى لاتهلكنا وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعدل من أن يأخذ بجريرة الجاني غيره قوله تعالى (إن هى إلا فتنتك) أى التى وقع فيها السفهاء لم تكن إلا اختبارك وابتلاءك أضللت بها قوما فافتتنوا وهديت قوما فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك فذلك هو معنى قوله (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا) ناصرنا وحافظنا (فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا) أوجب لنا (فى هذه الدنيا حسنة) النعمة والعافية (وفى الآخرة) أى وفى الآخرة حسنة أى المغفرة والجنة (إنا هدنا إليك) أى تبنا إليك (قال) الله تعالى (عذابى أصيب به من أشاء) من خلقى (ورحمتى وسعت) أى عمت (كل شىء) قال الحسن وقتادة وسعت رحمته

فى الدنيا البر والفاجر وهى يوم القيامة للمتقين خاصة قال عطية العوفى وسعت كل شىء ولكن لاتجب إلا للذين يتقون وذلك أن الكافرين يرزقون ويدفع عنهم بالمؤمنين لسعة رحمة الله للمؤمنين فيعيشون فيها فاذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمستضىء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة وابن جريج لما نزلت ورحمتى وسعت كل شىء قال إبليس أنا من ذلك الشىء ، فقال الله سبحانه وتعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) فتمناها

اليهود والنصارى وقالوا نحن نتقى ونؤتى الزكاة ونؤمن فجعلها الله لهذه الأمة فقال (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) الآية قال نوف البكالى الحميرى لما اختار موسى سبعين رجلا ، قال الله تعالى لموسى أجعل لكم الأرض مسجدا وطهورا تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة فى قلوبكم وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير فقال ذلك موسى لقومه فقالوا لانريد أن نصلى إلا فى الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة فى قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا ولا نريد أن نقرأها إلا نظرا فقال الله تعالى فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى قوله أولئك هم المفلحون فجعلها الله لهذه الأمة فقال موسى عليه السلام يارب اجعلنى منهم فقال إنك لن تدركهم فقال موسى عليه السلام يارب أتيتك إسرائيل بوفد بنى إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» فرضى موسى قوله تعالى «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى» وهو محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس رضى الله عنهما هو نبيكم كان أميا لايكتب ولا يقرأ ولا يحسب وقال النبى صلى الله عليه وسلم «إنا أمة أمية لانكتب ولانحسب» وهو منسوب إلى الأم أى هو على ماولدته أمه وقيل هو منسوب إلى أمته أصله أمتى سقطت التاء فى النسبة كما سقطت فى المكى والمدنى وقيل هو منسوب إلى أم القرى وهى مكة (الذى يجدونه) أى يجدون صفته ونعته ونبوته (مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله

عمت خلقه كلهم وقال بعضهم هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر فى الدنيا وهى للمؤمنين خاصة فى الآخرة وقيل هى للمؤمنين خاصة فى الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله له فاذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة قال جماعة من المفسرين لما نزلت ورحمتى وسعت كل شىء تطاول إبليس إليها وقال أنا من ذلك الشىء فنزعها الله تعالى من إبليس فقال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) أيس ابليس منها وقالت اليهود نحن نتقى ونؤتى الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله وأثبتها لهذه الأمة فقال تعالى «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى» الآية وقال نوف البكالى لما اختار موسى من قومه سبعين رجلا قال الله تعالى لموسى أجعل لك الأرض مسجدا وطهورا تصلون حيث أدركتكم الصلاة لا عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة فى قلوبكم واجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لا نريد أن نصلى إلا فى الكنائس ولانستطيع حمل السكينة فى قلوبنا ولانستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها إلا نظرا قال الله تعالى «فسأكتبها للذين يتقون إلى قوله المفلحون» فجعلها الله تعالى لهذه الأمة فقال موسى رب اجعلنى نبيهم قال نبيهم منهم قال اجعلنى منهم قال إنك لن تدركهم قال موسى يارب أتيتك بوفد بنى إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» فرضى موسى ، أما التفسير فقوله الذين يتقون يعنى الشرك وسائر مانهوا عنه لأن جميع التكاليف محصورة فى نوعين : الأول التروك وهى الأشياء التى يجب على الإنسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها وإليه الإشارة بقوله تعالى «للذين يتقون» والثانى الأفعال المأمور بها وتلك الأعمال بدنية وقلبية أما البدنية فانها الإشارة بقوله ويؤتون الزكاة وهذه الآية وإن كانت فى حق المال لكن يختص البدن باخراجها والأعمال القلبية كالإيمان والمعرفة وإليها الإشارة بقوله تعالى «والذين هم بآياتنا يؤمنون» . قوله عز وجل (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى معنى هذه التبعية وجهين : أحدهما أن المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته فى التوراة إذ لا يجوز أن يتبعوه فى شرائعه قبل أن يبعث إلى الخلق وفى قوله والإنجيل أن المراد وسيجدونه مكتوبا فى الإنجيل لأن من المحال أن يجده فيه قبل ما أنزل الله الإنجيل . الوجه الثانى أن المراد من لحق من بنى

إسرائيل زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فبين تعالى أن هؤلاء اللاحقين لايكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوه قال وهذا القول أقرب لأن اتباعه قبل أن يبعث لايمكن فبين بهذه الآية أن هذه الرحمة لايفوز بها من بنى إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات الله فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام ومن كانت هذه صفته فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول من بنى إسرائيل خاصة وجمهور المفسرين على خلاف ذلك فانهم قالوا المراد بهم جميع أمته الذين آمنوا به واتبعوه سواء كانوا من بنى إسرائيل أو غيرهم وأجمع المفسرون على أن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصفه بكونه رسولا لأنه الواسطة بين الله وبين خلقه المبلغ رسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه إليهم ثم وصفه بكونه نبيا. وهذا أيضا من أعلى المراتب وأشرافها وذلك يدل على أنه رفيع الدرجات عند الله المخبر عنه ثم وصفه بالأمى قال ابن عباس هو نبيكم صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الزجاج فى معنى الأمي هو الذى على صفة أمة العرب لأن العرب أكثرهم لا يكتب ولايقرأ ولايحسب فالنبى صلى الله عليه وسلم كان كذلك فلهذا وصفه الله تعالى بكونه أميا وصح فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « نحن أمة أمية لانكتب ولانحسب » قال أهل التحقيق وكونه صلى الله عليه وسلم كان أميا من أكبر معجزاته وأعظمها ، وبيانه أنه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا الكتاب العظيم الذى أعجزت الخلائق فصاحته وبلاغته وكان يقرؤه عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولاتغيير فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى «سنقرئك فلا تنسى» وقيل إنه لو كان يحسن الكتابة ثم إنه أتى بهذا القرآن العظيم لكان متهما فيه لاحتمال أنه كتبه ونقله عن غيره فلما كان أميا وأتى بهذا القرآن العظيم الذى فيه علم الأولين والآخرين والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وأيضا فان الكتابة تعين الإنسان على الإشتغال بالعلوم وتحصيلها ثم إنه أتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقائق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على أحد فدل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل فى معنى الأمى الذى هو منسوب إلى أمه كأنه لم يخرج بعد عما ولدته عليه وقيل سمى أميا لأنه منسوب إلى أم القرى وهى مكة وقوله تعالى «الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل» يعنى يجدون صفته ونعته ونبوته مكتوبا عندهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسدا منهم له وخوفا على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا فى الذل والهوان (خ) عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله ابن عمرو ابن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله فى التوراة فقال أجل له لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزاً للأميين » أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة

النعيمى أنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا محمد بن سنان حدثنا فليح حدثنا هلال عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة « قال أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر يصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا » تابعه عبد العزيز ابن أبى سلمة ، وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن ابن سلام أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضى أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفونى أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابى أنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام أنا أبو الحسن أحمد ابن سيار القرشى حدثنا عبد الله بن عثمان عن أبى حمزة عن الأعمش عن أبى صالح عن عبد الله بن ضمرة عن كعب قال : إنى أجد فى التوراة مكتوبا محمد رسول الله لافظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح أمته الحمادون يحمدون الله فى كل منزلة ويكبرونه على كل نجد يأتزرون على أنصافهم ويوضئون أطرافهم صفهم فى الصلاة وصفهم فى القتال سواء

مناديهم ينادى فى جو السماء لهم فى جوف الليل دوى كدوى النحل مولده بمكة ومهاجره بطابة وملكه بالشام .قوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) أى بالإيمان (وينهاهم عن المنكر) يعنى عن الشرك وقيل المعروف الشريعة والسنة والمنكر مالا يعرف فى شريعة ولا سنة وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام (ويحل لهم الطيبات) يعنى ما كانوا يحرمونه فى الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام (ويحرم عليهم الخبائث) يعنى الميتة والدم ولحم الخنزير والزنا وغيرها من المحرمات (ويضع عنهم إصرهم) قرأ ابن عامر آصارهم بالجمع ، والإصر كل مايثقل على الإنسان من قول أو فعل ، قال ابن عباس والحسن والضحاك والسدى ومجاهد يعنى العهد الثقيل كان أخذ على بنى إسرائيل بالعمل بما فى التوراة ، وقال قتادة يعنى التشديد الذى كان عليهم فى الدين (والأغلال) يعنى الأثقال (التى كانت عليهم) وذلك مثل قتل النفس فى التوراة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن الثوب بالمقراض وتعيين القصاص فى القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل فى السبت وأن صلاتهم لاتجوز إلا فى الكنائس وغير ذلك من الشدائد ، شبهت بالأغلال التى تجمع اليد إلى العنق (فالذين آمنوا به) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم (وعزروه) وقروه (ونصروه) على الأعداء (واتبعوا النور الذى أنزل معه)

ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

الفظ السيء الخلق والغليظ الجافى القاسى ، وقوله سخاب بالسين والصاد وهو كثير الصياح فى الأسواق ، والاعوجاج ضد الاستقامة وأراد بالملة العوجاء الكفر والقلب الأغلف الذى لا يصل إليه شيء ينفعه شبهه بالأغلف كأنه فى غلاف وروى البغوى بسنده عن كعب الأحبار قال : إنى أجد فى التوراة مكتوبا محمد رسول الله لافظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، أمته الحامدون يحمدون الله فى كل منزلة ويكبرونه على كل نجد يأتزرون على أنصافهم ويغضون أطرافهم صفهم فى الصلاة وصفهم فى القتال سواء مناديهم ينادى فى جوف السماء لهم فى جوف الليل دوى كدوى النحل مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام . وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) يعنى بالإيمان وتوحيد الله (وينهاهم عن المنكر) يعنى عن الشرك بالله وقيل المعروف ماعرف فى الشريعة والسنة والمنكر مالا يعرف فى شريعة ولا سنة . وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد وبمكارم الأخلاق وصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام (ويحل لهم الطيبات) يعنى بذلك ما كان محرما عليهم فى التوراة من الطيبات وهو لحوم الإبل وشحم الغنم والمعز والبقر وقيل هو ما كانوا يحرمونه على أنفسهم فى الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامى وقيل هى المستلذات التى تستطيبها الأنفس (ويحرم عليهم الخبائث) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الميتة والدم ولحم الخنزير . وقيل هو كل مايستخبثه الطبع وتستقذره النفس ، فان الأصل فى المضار الحرمة إلا ماله دليل متصل بالحل (ويضع عنهم إصرهم) يعنى ثقلهم وأصل الإصر الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحركة لثقله ، والمراد بالإصر هنا العهد والميثاق الذى أخذ على بنى إسرائيل أن يعملوا بما فى التوراة من الأحكام فكانت تلك الشدائد . (والأغلال التى كانت عليهم) يعنى ويضع الأثقال والشدائد التى كانت عليهم فى الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس فى التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص فى القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل فى السبت وأن صلاتهم لاتجوز إلا فى الكنائس وتتبع العروق فى اللحم وغير ذلك من الشدائد التى كانت على بنى إسرائيل شبهت بالأغلال مجازا لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع من الفعل وقيل شبهت بالأغلال التى تجمع اليد إلى العنق ، كما أن اليد لاتمتد مع وجود الغل فكذلك لاتمتد إلى الحرام الذى نهيت عنه وكانت هذه الأثقال فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد عليه الصلاة والسلام نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : بعثت بالحنيفية السهلة السمحة (فالذين آمنوا به) يعنى بمحمد عليه الصلاة والسلام (وعزروه) يعنى وقروه وعظموه ، وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبى صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه وهو قوله (ونصروه) يعنى على أعدائه (واتبعوا النور الذى أنزل معه) يعنى القرآن سمى القرآن نورا

لأن

يعنى القرآن(أولئك هم المفلحون) . قوله تعالى(قل يا أيها الناس إنى رسول

لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم (أولئك هم المفلحون) يعنى هم الناجون الفائزون بالهداية . قوله تعالى (قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) الخطاب للنبى ﷺ أى قل يامحمد للناس إنى رسول الله إليكم جميعا لا إلى بعضكم دون بعض ففى الآية دليل على عموم رسالته إلى كافة الخلق لأن قوله ياأيها الناس خطاب عام يدخل فيه جميع الناس ثم أمره الله عز وجل بأن يقول إنى رسول الله إليكم جميعا ، وهذا يقتضى كونه مبعوثا إلى جميع الناس (ق) عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض طيبة وطهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب على العدو بين يدى مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة » وفى رواية « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد من قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وقوله فى الرواية الأولى وبعثت إلى كل أحمر وأسود قيل أراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب وقيل أراد بالأحمر الإنس وبالأسود الجن فعلى هذا تكون رسالته ﷺ عامة إلى كافة الخلق من الإنس والجن . (م) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « فضلت على الأنبياء بستة أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون » . وقوله تعالى (الذى له ملك السموات والأرض) لما أمر الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بأن يقول « ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » أردفه بما يدل على صحة دعواه : يعنى أن الذى له ملك السموات والأرض وهو مدبرهما ومالك أمرهما هو الذى أرسلنى إليكم وأمرنى بأن أقول لكم إنى رسول الله إليكم جميعا (لا إله إلا هو يحيى ويميت) وصف الله نفسه بالإلهية وأنه لا شريك له فيها وأنه القادر على إحياء خلقه وإماتتهم ومن كان كذلك فهو القادر على إرسال الرسل إلى خلقه (فآمنوا بالله ورسوله) لما أمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس إنى رسول الله إليكم جميعا أمر الله جميع خلقه بالإيمان به وبرسوله وذلك لأن الإيمان بالله هو الأصل والإيمان برسوله فرع عنه فلهذا بدأ بالإيمان بالله ثم ثنى بالإيمان برسوله فقال فآمنوا بالله ورسوله ثم وصفه الله تعالى فقال (النبى الأمى) تقدم معناهما (الذى يؤمن بالله وكلماته) قال قتادة يعنى آياته وهو القرآن وقال مجاهد والسدى أراد بكلماته عيسى بن مريم لأنه خلق بقوله كن فكان وقيل هو على العموم يعنى يؤمن بجميع كلمات الله تعالى (واتبعوه) يعنى واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه وقيل المتابعة على قسمين : متابعة فى الأقوال ومتابعة فى الأفعال . أما المتابعة فى الأقوال فبأن يمتثل التابع جميع ما يأمره به المتبوع على طريق الأمر والنهى والترغيب والترهيب ، وأما المتابعة فى الأفعال فبأن يقتدى به فى جميع أفعاله وآدابه إلا ما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبت بالدليل أنه من خصائصه فلا متابعة فيه وقوله تعالى (لعلكم تهتدون) يعنى لكى تهتدوا وترشدوا وتصيبوا الحق والصواب فى متابعتكم إياه . قوله عز وجل (ومن قوم موسى) يعنى من بنى إسرائيل (أمة) أى جماعة (يهدون بالحق) يعنى يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون إليه (وبه يعدلون)

الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته) أى آياته وهى القرآن وقال مجاهد والسدى يعنى عيسى بن مريم ويقرأ كلمته ألقاها إلى مريم (واتبعوه لعلكم تهتدون) قوله عز وجل (ومن قوم موسى) يعنى من بنى إسرائيل (أمة) أى جماعة (يهدون بالحق) أى يرشدون ويدعون إلى الحق وقيل معناه يهتدون ويستقيمون عليه (وبه يعدلون) أى بالحق يحكمون وبالعدل يقومون قال الكلبى والضحاك والربيع هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر مجرى الرمل يسمى نهر الأردن ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويسقون بالنهار ويزرعون لا يصل إليهم منا أحد وهم على دين الحق وذكر أن جبرائيل عليه السلام ذهب بالنبى ﷺ ليلة أسرى به إليهم فكلمهم فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا فقال لهم هذا محمد النبى الأمى

فآمنوا به فقالوا يارسول الله أن موسى أوصانا إن من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منى السلام فرد النبى ﷺ على موسى

وعليهم ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت وقيل هم الذين أسلموا من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم والأول أصح. قوله عز وجل (وقطعناهم) أى فرقناهم يعنى بنى إسرائيل (اثنتى عشرة أسباطا أمما) قال الفراء إنما قال اثنتى عشرة والسبط مذكر لأنه قال أمما فرجع التأنيث إلى الأمم وقال الزجاج المعنى وقطعناهم اثنتى عشرة فرقة أمما وإنما قال أسباطا أمما بالجمع وما فوق العشرة لا يفسر بالجمع فلا يقال أتانى اثنا عشر رجالا لأن الأسباط فى الحقيقة نعت المفسر المحذوف وهو الفرقة أى وقطعناهم اثنتى عشرة فرقة أمما وقيل فيه تقديم وتأخير تقديرها وقطعناهم أسباطا أمما اثنتى عشرة والأسباط القبائل واحدها سبط. قوله تعالى (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه) فى التيه (أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست) انفجرت، وقال أبو عمرو ابن العلاء عرقت وهو الانبجاس ثم انفجرت (منه اثنتا عشرة عينا) لكل سبط عين (قد علم كل أناس) كل سبط (مشربهم) وكل سبط بنو أب واحد. قوله تعالى (وظللنا عليهم الغمام) فى التيه تقيهم حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

يعنى وبالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون وينصفون. واختلفوا فى هؤلاء من هم فقيل هم الذين أسلموا من بنى إسرائيل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فانهم آمنوا بموسى والتوراة وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن واعترض على هذا بأنهم كانوا قليلين ولفظ الأمة يقتضى الكثرة. وأجيب عنه بأنهم لما كانوا مخلصين فى الدين جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما فى قوله إن إبراهيم كان أمة وقيل هم قوم بقوا على الدين الحق الذى جاء به موسى عليه الصلاة والسلام قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس إليه وقال السدى وابن جريج وجماعة من المفسرين إن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وأن يبعدهم عنهم ففتح الله لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس ساروا فى السرب سنة ونصفا ورواه الطبرى وحكى البغوى عن الكلبى والضحاك والربيع قالوا هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر يسمى نهر الأردن ليس لأحدهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون ولا يصل إليهم أحد منا وهم على الحق. وذكر لنا أن جبريل ذهب بالنبى ﷺ ليلة الإسراء به فكلمهم فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا قالوا هذا محمد النبى الأمى فآمنوا به وقالوا يارسول الله إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ منى عليه السلام فرد رسول الله ﷺ على قوم موسى وأقرأهم عشر سور من القرآن نزلت عليه بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت وهذه الحكاية ضعيفة من وجوه: الأول قولهم إن أحدا منا لا يصل إليهم وإذا كان كذلك فمن ذا الذى أوصل خبرهم إلينا. الوجه الثانى قولهم إن جبريل ذهب بالنبى ﷺ ليلة الإسراء به وهذا لم يرد به نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث ولا يلتفت إلى قول الإخباريين والقصاص فى ذلك. الوجه الثالث قولهم إنهم بلغوا النبى ﷺ سلام موسى وقد صح فى حديث المعراج أنه سلم عليه فى السماء السادسة وأيضا قولهم وأقرأهم عشر سور وقد نزل عليه بمكة أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضيتها فاذا ثبت بما ذكرناه بطلان هذه الرواية فالمختار فى تفسير هذه الآية أنها إما أن تكون نزلت فى قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك وإما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده. قوله تعالى (وقطعناهم) يعنى وفرقنا بنى إسرائيل (اثنتى عشرة أسباطا) يعنى من أولاد يعقوب لأن يعقوب هو إسرائيل وأولاده الأسباط وكانوا اثنى عشر ولدا (أمما) يعنى جماعات وقبائل (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه) يعنى فى التيه (أن أضرب بعصاك الحجر فانبجست) يعنى فانفجرت، وقيل عرقت وهو لانبجاس (منه) أى من الحجر (اثنتا عشرة عينا) يعنى لكل سبط عين (قد علم كل أناس مشربهم) يعنى لا يدخل سبط على سبط فى مشربهم (وظللنا عليهم الغمام) يعنى فى التيه يقيهم حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن) هو الترنجبين (والسلوى) جنس من الطير جعل الله ذلك طعاما لهم فى التيه (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وقلنا كلوا (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فى الكلام حذف

حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات ما رزقناكم فأجمعوا ذلك وسئموه ، وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه غيره لأن المكلف إذا أمر بشيء فتركه وعدل عنه إلى غيره يكون عاصيا بفعله ذلك فلهذا قال وما ظلمونا يعني وما أدخلوا علينا في ملكنا وسلطاننا نقصا بمسئلتهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني بمخالفتهم ما أمروا به وقد تقدم بسط الكلام على هذه الآية في سورة البقرة . وقوله تعالى (وإذ قيل لهم) يعني واذكر يا محمد لقومك إذ قيل لهم يعني لبني إسرائيل (اسكنوا هذه القرية) يعني بيت المقدس وقال في سورة البقرة ادخلوا هذه القرية ولا منافاة بينهما لأن كل ساكن في موضع لابد له من الدخول إليه (وكلوا منها حيث شئتم) يعني وكلوا من ثمار القرية وزروعها وحبوبها وبقولها حيث شئتم وأين شئتم وقال في البقرة فكلوا بالفاء وهنا بالواو والفرق بينهما أن الدخول حالة مقتضية للأكل عقبه فيحسن دخول الفاء التي هي للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الأكل حاصلا متى شاءوا وإنما قال في سورة البقرة رغدا ولم يقله هنا لأن الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل فأما الأكل مع السكنى والاستمرار فليس كذلك فحسن دخول لفظة رغدا هناك بخلافه هنا (وقولوا حطة) أي حط عنا ذنوبنا (وادخلوا الباب سجدا) وقال في البقرة عكس هذا اللفظ ولا منافاة في ذلك لأن المقصود من ذلك تعظيم أمر الله وإظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بسبب التقديم والتأخير (نغفر لكم خطيئاتكم) يعني نغفر لكم ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها . وإنما قال هنا خطيئاتكم وفي البقرة خطاياكم لأن المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة إذا أتوا بالدعاء والتضرع (سنزيد المحسنين) وقال في سورة البقرة وسنزيد بالواو ومعناه أنه قد وعد المسيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب وإسقاط الواو لا يخل بهذا المعنى لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد المحسنين (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم) يعني فغير الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمرنا من بني إسرائيل فقالوا قولا غير الذي قيل لهم وأمروا به وذلك أنهم أمروا أن يقولوا حطة فقالوا حنطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم (فأرسلنا عليهم رجزا من السماء) يعني بعثنا عليهم عذابا من السماء أهلكهم ، ولا منافاة بين قوله تعالى هنا أرسلنا وبين قوله في سورة البقرة أنزلنا لأنهما لا يكونان إلا من أعلى إلى أسفل ، وقيل بينهما فرق وهو أن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بذلك فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب قليلا ثم أرسله عليهم كثيرا (بما كانوا يظلمون) يعني أن إرسال العذاب عليهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله ، وقال في البقرة بما كانوا يفسقون والجمع بينهما أنهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى وقد تقدمت هذه القصة أيضا في تفسير سورة البقرة . قوله عز وجل (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الخطاب للنبي ﷺ أي سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك عن حال أهل القرية وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام لأنه عليه الصلاة والسلام كان قد علم حال أهل هذه القرية بوحي الله عز وجل إليه وإخباره إياهم بحالهم وإنما المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على إقدامهم على الكفر والمعاصي قديما وأن إصرارهم على الكفر بمحمد ﷺ وإنكار نبوته ومعجزاته ليس بشيء قد حدث منهم في زمانه بل إصرارهم على الكفر كان حاصلا لأسلافهم في قديم الزمان وفي الإخبار بهذه القصة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميا لا يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار

وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم) قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب تغفر بالتاء وضمها وفتح الفاء وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الفاء (خطيئاتكم) قرأ ابن عامر خطيئتكم على التوحيد ورفع التاء وقرأ أبو عمرو خطاياكم وقرأ أهل المدينة ويعقوب خطيئاتكم بالجمع ورفع التاء ، وقرأ الآخرون بالجمع وكسر التاء (سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا) عذابا (من السماء بما كانوا يظلمون) . قوله تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) أي سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع عن القرية التي كانت حاضرة البحر أي بقربه قال ابن عباس هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور على شاطئ البحر ، وقال الزهري

هى طبرية الشام (إذ يعدون فى السبت) أى يظلمون فيه ويجاوزون أمر الله تعالى بصيد السمك (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) أى ظاهرة على الماء كثيرة جمع شارع ۔ وقال الضحاك متتابعة . وفى القصة أنها كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش السمان البيض (ويوم لايسبتون لاتأتيهم) قرأ الحسن يوم لايسبتون بضم الياء أى لايدخلون فى السبت والقراءة المعروفة بنصب الياء ومعناه (٣٠٢) لايعظمون السبت (كذلك نبلوهم) نختبرهم (بما كانوا يفسقون) فوسوس إليهم الشيطان وقال إن الله لم ينهاكم عن الاصطياد إنما نهاكم عن الأكل فاصطادوا ، وقيل وسوس إليهم أنكم إنما نهيتم عن الأخذ فاتخذوا حياضا على شاطئ البحر تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ثم تأخذونها يوم الأحد ففعلوا ذلك زمانا ثم تجرءوا على السبت وقالوا ما نرى السبت إلا قد أحل لنا فأخذوا وأكلوا وباعوا فصار أهل القرية أثلاثا وكانوا نحوا من سبعين ألفا ثلث نهوا وثلث لم ينهوا وسكتوا وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وثلث هم أصحاب الخطيئة فلما لم ينتهوا قال الناهون لانساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا إن لهم لشأنا لعل الخمر غلبتهم فتسوروا الجدار واسترقوا عليهم فاذاهم كلهم صاروا قردة وخنازير فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى فيقول ألم ننهكم فتقول برأسها نعم فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم . قوله تعالى (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم) اختلفوا فى الذين قالوا هذا قيل كانوا من الفرقة الهالكة وذلك أنهم لما قيل لهم انتهوا أو

الأولين ، ثم أخبرهم بما جرى لأسلافهم فى قديم الزمان وإنهم بسبب مخالفتهم أمر الله عزوجل مسخوا قردة وخنازير واختلفوا فى هذه القرية فقال ابن عباس[1] هى قرية بين مصر والمدينة والمغرب وقيل بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهرى هى طبرية الشام وفى رواية عن ابن عباس قال هى مدين وقال وهب هى مابين مدين وعيونى يعنى القرية التى كانت على ساحل البحر وقريبة منه (إذ يعدون فى السبت) يعنى يتجاوز حد الله فيه ، وما أمرهم به من تعظيمه فخالفوا أمر الله وصادوا فيه السمك (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) يعنى ظاهرة على الماء كثيرة وقال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضا وقيل كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش البيض السمان (ويوم لايسبتون لاتأتيهم) يعنى الحيتان (كذلك نبلوهم) يعنى مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ونحن أعلم بحالهم (بما كانوا يفسقون) يعنى أن ذلك الابتداء والاختبار بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله وما أمروا به قال أهل التفسير أن اليهود أمروا بيوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به وهو أن الله أمرهم بتعظيمه ونهاهم عن العمل فيه وحرم عليهم فيه الصيد فلما أراد الله أن يبتليهم كانت الحيتان تظهر لهم فى يوم السبت ينظرون إليها فى البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر إلى السبت المقبل فلما ابتلوا به وسوس إليهم الشيطان وقال إن الله لم ينهكم عن الاصطياد وإنما نهاكم عن الأكل فاصطادوا وقيل إنه وسوس إليهم أنكم إنما نهيتم عن الأخذ فاتخذوا حياضا على ساحل البحر وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت فاذا كان يوم الأحد خذوها ففعلوا ذلك زمانا ثم إنهم تجرءوا على السبت وقالوا مانرى السبت إلا قد حل لنا فاصطادوا فيه وأكلوا وباعوا وصار أهل القرية أحزابا ثلاثة وكانوا نحوا من سبعين ألفا فثلث نهوا عن الاصطياد وثلث سكتوا ولم ينهوا وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم وثلث هم أصحاب الخطيئة الذين خالفوا أمر الله واصطادوا وأكلوا وباعوا فلما لم ينتهوا عما هم فيه من المعصية قال الناهون لانساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار للناهين باب يدخلون ويخرجون منه وللعاصين باب ولعنهم داود عليه الصلاة والسلام وكانوا فى زمنه فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا إن لهم لشأنا لعل الخمر قد غلبتهم فعلوا على الجدار الذى بينهم فاذا هم قد مسخوا قردة ففتحوا عليهم الباب ودخلوا إليهم فصار القردة يعرفون أنسابهم من الناس ولم يعرف الناس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتى أنسابها من الناس فتشم ثيابها فيقول لهم أهلوهم ألم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم فنجا الناهون وهلك سائرهم فذلك قوله تعالى (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم

(١) قوله هى قرية بين مصر والمدينة والمغرب فى نسخة هى إيلة بين مصر والمدينة والعرب تسمى المدينة قرية وقال الزهرى الخ اه .

عن هذا العمل السيء قبل أن ينزل بكم العذاب فانا نعلم أن الله منزل بكم بأسه إن لم تنتهوا أجابوا وقالوا لم تعظون . قوله الله مهلكهم (أو) علمتم أنه (معذبهم عذابا شديدا قالوا) أي قال الناهون (معذرة) أي موعظتنا معذرة (إلى ربكم) قرأ حفص معذرة بالنصب أي نفعل ذلك معذرة إلى ربكم والأصح أنها من قول الفرقة الساكتة للناهية قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم قالوا معذرة إلى ربكم ومعناه أن الأمر بالمعروف واجب علينا فعلينا موعظة (٣٠٣) هؤلاء عذرا إلى الله (ولعلهم يتقون) أي يتقون الله ويتركون المعصية ولو كان الخطاب مع المعتدين لكان يقول ولعلكم تتقون (فلما نسوا ما ذكروا به) أي تركوا ما وعظوا به (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا) يعني الفرقة العاصية (بعذاب بئيس) أي شديد وجيع من البأس وهو الشدة واختلف القراء فيه قرأ أهل المدينة وابن عامر بئس بكسر الباء على وزن فعل إلا أن ابن عامر يهمزه وأبو جعفر ونافع لا يهمزان وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل صيقل وقرأ الآخرون على وزن فعيل مثل بعير وصغير (بما كانوا يفسقون) قال ابن عباس رضي الله عنهما نسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة قال عكرمة قلت له جعلني الله فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم ، فأعجبه قولي فرضي وأمر لي ببردين فكسانيهما وقال نجت الفرقة الساكتة وقال يمان بن رباب نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون قوما والذين قالوا معذرة إلى ربكم وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن وقال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه أشد آية في ترك النهي عن المنكر . قوله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه) قال ابن عباس أبوا أن يرجعوا عن المعصية (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) مبعدين

أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم) واختلفوا في القائلين هذه المقالة فقال بعض المفسرين إن أهل القرية افترقوا ثلاث فرق فرقة اعتدت وأصابت الخطيئة وفرقة نهتهم عن ذلك الفعل وفرقة أمسكت عن الصيد وسكتت عن موعظة المعتدين ؟ وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا يعني أنهم لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير متعظين ولا منزجرين فقالت الفرقة الناهية للذين لاموهم معذرة إلى ربكم يعني أن موعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علينا فموعظتنا لهؤلاء عذر لنا عند الله (ولعلهم يتقون) أي وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد وقال بعضهم إن أهل القرية كانوا فرقتين فرقة نهت وزجرت عن السوء وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك أن الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية انتهوا قبل أن ينزل بكم عذاب شديد إن لم تنتهوا عما أنتم فيه فقالت لهم الفرقة المعتدية لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا والمعنى لم تعظوننا وقد علمتم أن الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه ، والقول الأول أصح لأنهم لو كانوا فرقتين لكان قولهم معذرة إلى ربكم خطابا من الناهية للمعتدية . وقوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به) أي فلما تركوا ما وعظوا به (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وهم الفرقة الناهية (وأخذنا الذين ظلموا) يعني الفرقة المعتدية العاصية (بعذاب بئيس) أي شديد وجيع من البأس وهو الشدة (بما كانوا يفسقون) يعني أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا روى عكرمة عن ابن عباس قال أسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي قال عكرمة فقلت جعلني الله فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم ، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولي ورضي به وأمر لي ببردين فكسانيهما وقال نجت الساكتة وقال يمان ابن رباب نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن وقال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر وقوله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه) قول ابن عباس أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الإباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعني عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك في يوم السبت وأكله (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) يعني صاغرين مبعدين من كل خير . قال قتادة : لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله تصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالا ونساء وقال ابن عباس جعل الله منهم القردة

مسخوا ثلاثة أيام ينظر بعضهم الى بعض وينظر إليهم الناس ثم هلكوا (وإذ تأذن ربك) أى آذن وأعلم ربك يقال تأذن وآذن مثل توعد وأوعد وقال ابن عباس تأذن ربك قال وقال مجاهد أمر ربك وقال عطاء حكم ربك (ليبعثن عليهم الى يوم القيامة) أى على اليهود (من يسومهم سوء العذاب) بعث الله عليهم محمدا ﷺ وأمته يقاتلونهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم وقطعناهم) فرقناهم (فى الأرض أمما) فرقا فرقهم الله فتشتت أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة (منهم الصالحون) قال ابن عباس ومجاهد يريد الذين أدركوا رسول الله ﷺ وآمنوا به (ومنهم دون ذلك) يعنى الذين بقوا على الكفر وقال الكلبى منهم الصالحون هم الذين وراء نهر أوداف من وراء الصين ومنهم دون ذلك، يعنى من هاهنا من اليهود (وبلوناهم بالحسنات) بالخصب والعافية (والسيئات) الجدب والشدة (لعلهم يرجعون) لكى يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا (فخلف من بعدهم) أى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) والخلف القرن الذى يجيء بعد قرن قال أبو حاتم الخلف

هو

والخنازير فزعم أن شبان القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير، قيل إنهم بقوا ثلاثة أيام ينظر الناس إليهم ثم هلكوا جميعا. قوله تعالى (وإذ تأذن ربك) الخطاب فيه للنبى ﷺ ومعنى تأذن أذن والأذان الإعلام يعنى أعلم ربك وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك وقيل آلى ربك يعنى أقسم أجزما ربك (ليبعثن عليهم) اللام فى قوله ليبعثن جواب القسم لأن قوله وإذ تأذن ربك جار مجرى القسم لكونه وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا فى الضمير فى عليهم إلى من يرجع فقيل يقتضى أن يكون راجعا إلى قوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قد علم أن الذين مسخوا لم يبق منهم أحد فيحتمل أن يكون المراد الذين بقوا منهم فألحق الذل بهم وقيل بأن المراد سائر اليهود من بعدهم لأن الذين بقوا من أهل القرية كانوا صالحين والذى بعثه الله على اليهود هو بختنصر وسخاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب وقيل المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا فى زمن رسول الله ﷺ والذى بعثه الله عليهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته فألزم من لم يسلم منهم الصغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود إلى يوم القيامة وأورد على هذا بأن فى آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج الدجال لأن اليهود أتباعه وأشياعه وأجيب عنه بأن ذلك العز الذى يحصل لهم هو فى نفسه غاية الذلة لأنهم يدعون إلهية الدجال فيزدادون كفرا على كفرهم فاذا هلك الدجال أهلكهم المسلمون وقتلوهم جميعا فذلك هو الذلة والصغار المشار إليه بقوله تعالى ليبعثن عليهم (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) وهذا نص فى أن العذاب إنما يحصل لهم فى الدنيا مستمرا عليهم إلى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالإهانة والذلة وأخذ الجزية منهم فاذا أفضوا إلى الآخرة كان عذابهم أشد وأعظم وهو قوله تعالى (إن ربك لسريع العقاب) يعنى لمن أقام على الكفر ففيه دليل على أنه يجمع لهم مع ذلة الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم فى الدنيا والآخرة ثم ختم الآية بقوله تعالى (وإنه لغفور رحيم) يعنى لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل فى دين الإسلام. قوله تعالى (وقطعناهم فى الأرض أمما) يعنى وفرقنا بنى إسرائيل فى الأرض جماعات متفرقة فلا تجد بلدا إلا وفيه من اليهود طائفة وجماعة قال ابن عباس كل أرض يدخلها قوم من اليهود (منهم الصالحون) يعنى من هؤلاء الذين وصفهم الله من بنى إسرائيل صالحون وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه قبل مبعث عيسى عليه الصلاة والسلام وإنما وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ذكره الطبرى ولم يذكر غيره وروى البغوى وغيره من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد أن المراد بالصالحين الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود وآمنوا به والصحيح ماذكره الطبرى يدل عليه قوله بعد فخلف من بعدهم خلف والخلف إنما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بنى إسرائيل. وقوله تعالى (ومنهم دون ذلك) يعنى الذين كفروا من بنى إسرائيل وبدلوا وغيروا (وبلوناهم) يعنى جميعا الصالح وغيره وهى بلوى اختبار وامتحان (بالحسنات) يعنى الخصب والعافية (والسيئات) يعنى الجدب والشدة (لعلهم يرجعون) يعنى لكى يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه قال أهل المعانى كل واحدة من الحسنات والسيئات إذا فسرت بالنعم والشدة تدعو إلى طاعة الله تعالى أما النعمة فيزداد عليها شكرا فيرغب فى الطاعة وأما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيرهب منها. قوله تعالى (فخلف من بعدهم) يعنى من بعد هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) يعنى خلف سوء يعنى حدث من بعدهم وتبدل منهم بدل سوء يقال منه

بسكون اللام الأولاد الواحد والجمع فيه سواء والخلف بفتح اللام البدل سواء كان ولدا أو غريبا وقال ابن الأعرابي الخلف بالفتح الصالح وبالجزم الطالح وقال النضر بن شميل الخلف بتحريك اللام وإسكانها في القرن السوء واحد وأما في القرن الصالح فبتحريك اللام لاغير وقال محمد بن جرير أكثر ماجاء في المدح بفتح اللام وفي الذم بتسكينها وقد يحرك في الذم ويسكن في المدح (ورثوا الكتاب) أي انتقل إليهم الكتاب من آبائهم وهو التوراة (يأخذون عرض هذا الأدنى) العرض متاع الدنيا والعرض بسكون الراء ما كان من الأموال سوى الدراهم والدنانير وأراد بالأدنى العالم وهو هذه الدار الفانية فهو تذكير الدنيا وهؤلاء اليهود ورثوا التوراة فقرءوها وضيعوا العمل بما فيها وخالفوا حكمها يرتشون في حكم الله وتبديل كلماته (ويقولون سيغفر لنا) ذنوبنا يتمنون على الله الأباطيل. أخبرنا محمد ابن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله ابن محمود أنبأنا إبراهيم ابن عبد الله الخلال أنبأنا عبد الله بن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم الغساني عن ضمرة بن جندب عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها :

 وتمنى على الله الأماني» (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب يقول إذا أشرفت لهم شيء من الدنيا أخذوه حلالا كان أو حراما ويتمنون على الله المغفرة وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه وقال السدي كانت بنو إسرائيل لايستقضون قاضيا إلا ارتشى في الحكم فيقال له مالك ترتشي فيقول سيغفر لي فيطعن عليه الآخر فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي أيضا يقول وأن يأت الآخرين عرض مثله يأخذوه (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لايقولوا على الله إلا الحق) أي أخذ عليهم العهد في التوراة أن لايقولوا على

هو خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها فأكثر مايقال في المدح بفتح اللام وفي الذم بسكونها وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح قال حسان بن ثابت في المدح :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا ... لأولنا في طاعة الله تابع

فسكن اللام في قوله وخلفنا وهو يريد المدح وقال لبيد في الذم :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ففتح اللام وهو يريد الذم وأصله من الفساد يقال خلف اللبن إذا فسد وتغير في السقاء ويقال للردئ من القول خلف. وخلف الشيء تغيره ، ومنه خلوف فم الصائم والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله (ورثوا الكتاب) يعني انتقل إليهم الكتاب عن آبائهم والمراد بالكتاب التوراة (يأخذون عرض هذا الأدنى) العرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والمعنى أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام على تبديل الكلام وتغييره وذلك الذي يأخذونه من حطام الدنيا هو الشيء التافه الخسيس الحقير لأن الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا مافيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الأحكام ويعلمون أنها حرام ثم إنهم مع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه (ويقولون سيغفر لنا) يعني ذنوبنا فيتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة عن شداد ابن أوس أن رسول الله ﷺ قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» أخرجه الترمذي وقال في قوله عليه الصلاة والسلام دان نفسه يعني حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة وموضع الاستشهاد من الحديث على الآية ، قوله وتمنى على الله الأماني لأن اليهود كانوا يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمني بعينه وقوله تعالى : (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب ، والمعنى أنهم إذا أتاهم شيء من الدنيا أخذوه حلالا كان أو حراما ويتمنون على الله المغفرة وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه . قال السدي : كانت بنو إسرائيل لايستقضون قاضيا إلا ارتشى في الحكم فيقال له مابالك ترتشي فيقول : سيغفر لي فيطعن عليه الآخرون فإذا مات أو نزع من الحكم وجعل مكانه آخر فمن كان يطعن عليه ارتشى أيضا يقول الله عز وجل وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) يعني ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في أحكامهم العهود والمواثيق في الكتاب وهو التوراة (أن لايقولوا على الله إلا الحق) يعني إنا أخذنا عليهم الميثاق على أن يقولوا الحق فقالوا الباطل وخالفوا أمر

الله الباطل وهو تمنى المغفرة مع الإصرار وليس فى التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار (ودرسوا مافيه) قرءوا مافيه فهم ذاكرون لذلك ولو عقلوه لعملوا للدار الآخرة ودرس الكتاب قراءته وتدبره مرة بعد أخرى (والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون والذين يمسكون بالكتاب) قرأ أبو بكر عن عاصم يمسكون بالتخفيف وقراءة العامة بالتشديد لأنه يقال مسكت بالشىء ولا يقال أمسكت بالشىء إنما يقال أمسكته وقرأ أبى بن كعب والذين تمسكوا بالكتاب على الماضى وهو جيد لقوله تعالى وأقاموا الصلاة إذ قل ما يعطف ماض على مستقبل إلا فى المعنى وأراد الذين يعملون بمافى الكتاب قال مجاهد هم المؤمنون من أهل الكتاب عبدالله ابن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاء هم أمة محمد ﷺ (وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين) قوله تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) أى قلعنا وقال المؤرج قطعنا وقال الفراء علقنا وقيل رفعنا (كأنه ظلة) قال عطاء سقيفة والظلة كل ما أظلك (وظنوا) علموا (أنه واقع بهم خذوا) أى وقلنا لهم خذوا (ما آتيناكم بقوة) بجد واجتهاد (واذكروا مافيه) واعملوا به (لعلكم تتقون) وذلك حين أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة فرفع الله على رءوسهم جبلا قال الحسن فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من أن يسقط عليه ولذلك لاتجد يهوديا إلا ويكون سجوده على حاجبه الأيسر قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أبى أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم» الآية. قال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يسئل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله عز وجل خلق آدم ثم مسح ظهره

الله وهو قولهم سيغفر لنا والمراد من هذا التوبيخ والتقريع لليهود فى ادعائهم على الله الباطل قال ابن عباس هو مايوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها ولايتوبون منها (ودرسوا مافيه) يعنى مافى الكتاب والمعنى أنهم ذاكرون لما أخذ عليهم من العهود والمواثيق فى الكتاب لأنهم دارسون له لم يتركوه ولكن درسوه وضيعوا العمل به (والدار الآخرة) يعنى وما فى الدار الآخرة مما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه، ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا فى الأحكام (خير للذين يتقون) يعنى يتقون الله ويخافون عقابه (أفلا يعقلون) يعنى أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن مافى الآخرة خير وأبقى لأنها دار المتقين (والذين يمسكون بالكتاب) يقال مسكت بالشىء وتمسكت به واستمسكت به وأمسكت به والمراد بالتمسك بالكتاب العمل بما فيه من إحلال حلاله وتحريم حرامه وإقامة حدوده والتمسك بأحكامه. نزلت هذه الآية فى الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه لأنهم تمسكوا بالكتاب الأول ولم يحرفوه ولم يغيروه فأداهم ذلك التمسك إلى الإيمان بالكتاب الثانى وهو القرآن (وأقاموا الصلاة) يعنى وداوموا على إقامتها فى مواقيتها وإنما أفردها بالذكر وإن كانت الصلاة داخلة فى التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وأنها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله وبرسوله (إنا لانضيع أجر المصلحين) قوله عز وجل (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) يعنى واذكر يا محمد إذ قلعنا الجبل فرفعناه فوق بنى إسرائيل كأنه ظلة يعنى جعلناه فوقهم كالظلة والظلة كل ماعلا الإنسان كالسقف ونحوه (وظنوا) أى علموا وأيقنوا (أنه واقع بهم) يعنى الجبل (خذوا) يعنى وقلنا لهم خذوا وإضمار القول كثير فى القرآن وكلام العرب (ما آتيناكم) يعنى التوراة (بقوة) يعنى بجد واجتهاد (واذكروا مافيه) يعنى واعملوا بما فيه من الأحكام (لعلكم تتقون) قال أصحاب الأخبار إن بنى إسرائيل لما أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة أمر الله عز وجل جبريل فرفع جبلا عظيما حتى صار على رءوسهم كالظلة فلما نظروا إلى الجبل فوق رءوسهم خروا ساجدين فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفا أن يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود إلا على شق وجوههم الأيسر قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم

بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل ففيم العمل يارسول الله فقال رسول الله ﷺ إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار» وقال أبو عيسى هذا حديث حسن ومسلم ابن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلا قال مقاتل وغيره من أهل التفسير إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال يا آدم هذه ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء فى الجنة برحمتى ولا أبالى وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء فى النار ولا أبالى وهم أصحاب الشمال ثم أعادهم جميعا فى صلبه ، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء قال الله تعالى فيمن نقض العهد الأول « وما وجدنا لأكثرهم من عهد » وقال بعض أهل التفسير إن أهل السعادة أقروا

طوعا وقالوا بلى وأهل الشقاوة قالوه تقية وكرها وذلك معنى قوله «وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها» واختلفوا فى موضع الميثاق قال ابن عباس رضى الله عنه ببطن نعمان واد إلى جنب عرفة وروى عنه أيضا أنه بدهناء من أرض الهند وهو الموضع الذى هبط آدم عليه السلام عليه وقال الكلبى بين مكة والطائف وقال السدى أخرج الله آدم عليه السلام من الجنة فلم يهبطه من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريته وروى أن الله أخرجهم جميعا وصورهم وجعل لهم عقولا يعلمون بها وألسنا ينطقون بها ثم كلمهم قبلا يعنى عيانا وقال ألست بربكم وقال الزجاج وجائز أن يكون الله تعالى جعل لأمثال الذر فهما تعقل به كما قال تعالى « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم » وروى أن الله تعالى قال لهم جميعا : اعلموا أنه لا إله غيرى وأنا ربكم لا رب لكم غيرى فلا تشركوا بى شيئا فانى سأنتقم ممن أشرك بى ولم يؤمن بى وإنى مرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدى وميثاقى ومنزل عليكم كتبا فتكلموا جميعا وقالوا شهدنا أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك فأخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم ، فنظر إليهم آدم فرأى منهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب لولا سويت بينهم قال إنى أحب أن أشكر فلما قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ ميثاقه فذلك قوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم » أى من ظهور بنى آدم ذريتهم قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر ذرياتهم بالجمع وكسر التاء وقرأ الآخرون ذريتهم على التوحيد ونصب التاء فان قيل مامعنى قوله وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ، وإنما أخرجهم من ظهر آدم قيل إن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو مايتوالد الأبناء من الآباء فى الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أى أشهد بعضهم على بعض قوله

وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن قوله سبحانه وتعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » الآية قال سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله سبحانه وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار » أخرجه مالك فى الموطأ وأبو داود والترمذى وقال حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلا قلت ذكر الطبرى فى بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن يعمر بن ربيعة عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص مابين عينيه فقال يارب من هذا قال داود قال رب كم جعلت عمره

قال ستين سنة قال يارب زده من عمرى أربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر آدم إلا أربعين جاءه ملك الموت فقال آدم أولم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد آدم فجحد ذريته ونسى آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطىء فخطئت ذريته» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . وأما تفسير الآية فقوله سبحانه وتعالى وإذ أخذ ربك يعنى واذكر يامحمد إذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم يعنى من ظهور بنى آدم وإنما لم يذكر ظهر آدم وإن كان الله سبحانه وتعالى أخرج جميع الذرية من ظهره لأن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فلذلك قال سبحانه وتعالى من بنى آدم من ظهورهم فاستغنى عن ذكر ظهر آدم عليه السلام لما علم أنهم كلهم بنو آدم وأخرجوا من ظهره فترك ذكر ظهر آدم استغناء . ثم للعلماء فى تفسير هذه الآية مذهبان : أحدهما وهو مذهب أهل التفسير والأثر وظاهر ماجاءت به الروايات عن السلف فيما روى عن ابن عباس من طرق كثيرة وروايات مختلفة رواها عنه الطبرى بأسانيد فمنها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا وقال ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين وعن ابن عباس فى هذه الآية قال مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذى وراء عرفة وأخذ ميثاقهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا وعن ابن عباس أيضا قال إن أول ما أهبط الله آدم إلى الأرض اهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها إلى يوم القيامة ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» زاد فى رواية عنه «فجف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » وفى رواية عنه قال «لما خلق الله آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم» وفى رواية عنه قال «إن الله عز وجل مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم فى صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الأول ومن مات صغيرا ولم يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة» وروى الطبرى بسنده عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى؟ قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة « إنا كنا عن هذا غافلين» وقال ابن عباس أخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم فقال ألست بربكم قالوا بلى ثم أعادها فى صلبه فليس أحد من الخلق إلا وقد تكلم فقال ربى الله وإن القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ أشهد على نفسه وقال السدى أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم إنه مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه كهيئة الذر بيضاء فقال ادخلوا الجنة برحمتى ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سوداء فقال ادخلوا النار ولا أبالى فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه

التبعية زاد فى رواية وذلك حيث يقول «وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها» وقال محمد بن كعب القرظى أقر له بالإيمان والمعرفة الأرواح قبل خلق أجسادها وقال مقاتل مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر يتحركون فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء فى الجنة برحمتى وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء فى النار ولا أبالى وهم أصحاب الشمال ثم أعادهم جميعا فى صلب آدم فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق جميعا وروى أن الله سبحانه وتعالى قال لهم جميعا «اعلموا أنه لا إله لكم غيرى وأنا ربكم لا رب لكم غيرى فلا تشركوا بى شيئا فانى سأنتقم ممن أشرك بى ولم يؤمن بى وإنى مرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدى وميثاقى ومنزل عليكم كتبا فتكلموا جميعا وقالوا شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك فأخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم فنظر إليهم آدم عليه السلام فرأى منهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب هلا سويت بينهم فقال إنى أحب أن أشكر فلما قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعاده إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق» وقال الزجاج وجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى جعل لأمثال الذر عقلا وفهما تعقل به كما قال تبارك وتعالى فى النملة «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم» وكما قال «وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير» وقال ابن الانبارى مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية إن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولادهم وهم صور كالذر وأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ماعرض عليهم كما جعل للجبال عقولا حتى خوطبوا بقوله «ياجبال أوبى معه» وكما جعل للبعير عقلا حتى سجد للنبى صلى الله عليه وسلم وكذلك الشجرة حتى سمعت لأمره وانقادت ومعنى قوله «ألست بربكم» على هذا التفسير قال الله تعالى للذرية «ألست بربكم» فهو إيجاب للربوبية عليهم قالوا بلى يعنى قالت الذرية بلى أنت ربنا فهو جواب منهم له وإقرار منهم له بالربوبية واعتراف على أنفسهم بالعبودية (شهدنا) فيه قولان: أحدهما أنهم لما أقروا له بالربوبية قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا على إقرارهم فعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله سبحانه وتعالى بلى لأن كلام الذرية تم وانقطع وقوله شهدنا كلام مستأنف. والقول الثانى إن قوله سبحانه وتعالى شهدنا من كلام الذرية والمعنى شهدنا على أنفسنا بهذا الإقرار وعلى هذا لا يحسن الوقف على بلى لتعلقه بما بعده. وقوله سبحانه وتعالى (أن تقولوا) وقرئ بالتاء على خطاب الذرية ومعناه لئلا تقولوا أيها الذرية (يوم القيامة إنا كنا عن هذا) يعنى الميثاق (غافلين) وقرئ أن يقولوا بالياء على الغيبة ومعناه لئلا يقولوا أى الذرية إنا كنا عن هذا غافلين والمذهب الثانى فى معنى هذه الآية وهو مذهب أهل الكلام والنظر أنه سبحانه وتعالى أخرج الذرية وأنشأهم بعد أن كانوا نطفا فى أصلاب الآباء وهم أولاد بنى آدم فأخرج الذرية إلى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقول وأراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه ودلائل وحدانيته فبهذا الإشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وذلك بما أظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التى تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم

(شهدنا أن تقولوا) قرأ أبو عمرو أن يقولوا أو يقولوا بالياء فيهما وقرأ الآخرون بالتاء فيهما واختلفوا فى قوله شهدنا قال السدى هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بنى آدم وقال بعضهم هو خبر عن قول بنى آدم أشهد الله بعضهم على بعض فقالوا بلى شهدنا وقال الكلبى ذلك من قول الملائكة وفيه حذف تقديره لما قالت الذرية بلى قال الله للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا قوله أن يقولوا يعنى وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا أى لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام أخاطبكم ألست بربكم لئلا تقولوا (يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى عن هذا الميثاق

وبارئهم وربهم ونافذ الحكم فيهم فلما عرفوا ذلك دعاهم ذلك إلى التصديق بوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على أنفسنا أنك أنت ربنا وخالقنا فعلى هذا القول يكون قولهم بلى شهدنا على أنفسنا على المجاز لا على الحقيقة وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور فى كلام العرب فكل من بلغ وعقل فقد أخذ عليه الميثاق بما جعل فيه من السبب الذى يؤخذ به الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية وإذ يأخذ ربك من بنى آدم ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذى يكون به الفهم والتكليف الذى به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة. فان قلت فما المختار من هذين المذهبين فى تفسير هذه الآية. قلت المذهب الأول هو المختار لأنه مذهب جمهور المفسرين من السلف وورد الحديث بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم. فان قلت إذا كان المختار فى تفسير هذه الآية هو مذهب السلف فى ذلك وأن الله تعالى أخرج الذرية من ظهر آدم لأخذ الميثاق عليهم كما ورد فى الحديث أيضا فكيف يحمل تفسير ألفاظ هذه الآية على هذا القول. قلت قد صح الحديث بأن الله مسح ظهر آدم فأخرج ذريته وأخذ عليهم الميثاق ولا منافاة بين الآية والحديث كما تقدم فى تفسير ألفاظ الآية من أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض كما فى الخارج وكلهم بأجمعهم من ظهر آدم الذى هو أصلهم فبهذا الطريق أمكن الجمع بين الآية والحديث، إذ ليس فى معنى ألفاظ الآية مايدل على بطلان ذلك ونفيه وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير إليه والأخذ به جمعا بين الآية والحديث وحكى الواحدى عن صاحب النظم أنه قال ليس بين قوله عليه الصلاة والسلام إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه تعالى إذا أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية كذرية بعضهم من بعض قال وتحصل الفائدة بهذا الفصل بأنه تعالى أثبت الحجة على كل منفوس ممن بلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم بالحجة بالآيات والدلائل التى نصبها بالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ وقال غيره فائدة أخذ الميثاق عليهم فى القدم أن من مات منهم صغيرا أدخل الجنة باقراره بالميثاق الأول وهذا على قول من يقول إن أطفال المشركين يدخلون الجنة إذا ماتوا صغارا فأما من لايحكم لهم بالجنة فانه يقول من كان من أهل الشقاوة من الذرية السوداء وإنما أقروا بالمعرفة كرها فلم يغن عنهم ذلك شيئا ومن بلغ وعقل لم يغن عنه إقراره بالميثاق الأول شيئا حتى يؤمن ويصدق عند بلوغه وعقله بأن الله ربه وخالقه ويصدق رسله فيما جاءوا به من عنده وإنما فعل ذلك لئلا يقول الكفار إنا كنا عن هذا الميثاق أو الإيمان بأن الله ربنا غافلين أو لئلا تقول أخلافهم إنما أشرك آباؤنا ونحن نسير على آثارهم ظنا منهم أن الحق ما كانوا عليه. فان قلت إن ذلك الميثاق لايذكره أحد اليوم فكيف يكون حجة عليهم اليوم أو فكيف يذكرونه يوم القيامة حتى يحتج عليهم به. قلت لما أخرج الذرية من صلب آدم ركب فيهم العقول وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا إلى صلب آدم بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق لاقتضاء الحكمة الإلهية نسيانهم له ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر، إذ الدار دار تكليف وامتحان ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والابتلاء والتكليف فقامت الحجة عليهم لا مدادهم بالرسل وإعلامهم بجريان أخذ الميثاق عليهم وبذلك قامت الحجة عليهم أيضا يوم القيامة لإخبار الرسل إياهم بذلك الميثاق فى الدنيا

والإقرار فان قيل كيف يلزم الحجة واحد لايذكر الميثاق قيل قد أوضح الله الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة قوله

فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولم تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد إخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات . وقوله تعالى (أو تقولوا) يعنى الذرية (إنما أشرك آباؤنا من قبل) يعنى إنما أخذ الميثاق عليهم لئلا يقول المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل (وكنا ذرية من بعدهم) يعنى وكنا أتباعا لهم فاقتدينا بهم فى الشرك (أفتهلكنا) يعنى أفتعذبنا (بما فعل المبطلون) قال المفسرون هذا قطع لعذر الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد والميثاق وكنا نحن الذرية من بعدهم فقلدناهم واقتدينا بهم وكنا فى غفلة عن هذا الميثاق فلا ذنب لنا فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك وقد أخذ عليهم جميعا الميثاق وجاءتهم الرسل وذكروهم به وثبتت الحجة عليهم بذلك يوم القيامة وأما الذين حملوا معنى الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل وهو مذهب أهل النظر قالوا معناه إن الله نصب هذه الدلائل وأظهرها للعقول لئلا يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا لأن نصب أدلة التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم فى الإعراض عنه والإقبال على تقليد الآباء فى الشرك . وقوله تعالى (وكذلك نفصل الآيات) يعنى ليتدبرها العباد فيرجعوا إلى الحق والإيمان ويعرضوا عن الباطل والكفر وهو المراد من قوله (ولعلهم يرجعون) يعنى عن الشرك إلى التوحيد وقيل معناه ولعلهم يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه . قوله عز وجل (واتل عليهم) يعنى واقرأ على قومك يا محمد (نبأ) يعنى خبر (الذى آتيناه آياتنا) اختلفوا فيه فقال ابن عباس هو بلعم بن باعوراء وقال مجاهد بلعام بن باعر وقال ابن مسعود هو بلعم ابن أبر قال عطية قال ابن عباس إنه كان من بنى إسرائيل وفى رواية أخرى عنه أنه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل هو من مدينة البلقاء وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس ومحمد بن إسحاق والسدى وغيرهم من أصحاب الأخبار والسير قالوا إن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه وكان عنده اسم الله الأعظم فقالوا إن موسى رجل حديد وأن معه جنودا كثيرة وأنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردهم عنا فقال ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت هذا ذهبت دنياى وآخرتى فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أؤامر ربى وكان لا يدعو حتى يؤامر ربه فى المنام فأتى فى المنام فقيل له لا تدع عليهم فقال لقومه إنى قد آمرت ربى فنهانى أن أدعو عليهم فأهدوا له هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أؤامر ربى فآمر فلم يوح إليه شىء فقال قد آمرت ربى فلم يوح إلى شىء فقالوا له لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسان فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى أزلقها فاذن الله عز وجل لها فى الكلام وانطقها له فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعام أتدرى أين تذهب أما ترى الملائكة أمامى يردونى عن وجهى وهذا ويحك أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين فتدعوا عليهم فلم ينزع فخلى الله

(أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) يقول إنما أخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنا ذرية من بعدهم أى كنا أتباعا لهم فاقتدينا بهم فتجعلوا هذا عذرا لأنفسكم وتقولوا (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد (وكذلك نفصل الآيات) أى نبين الآيات ليتدبرها العباد (ولعلهم يرجعون) من الكفر إلى التوحيد قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا

سبيل الأتان فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على جبل حسان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشيء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بنى إسرائيل فقال له قومه يابلعام أتدرى ماتصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا مالا أملكه هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لقومه قد ذهبت منى الدنيا والآخرة ولم يبق لى إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ثم قال جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى عسكر بنى إسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن أن لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانه إن زنى رجل منهم بواحدة منهن كفيتموهم ففعلوا ذلك فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستى بنت صور على رجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له زمرى بن شلوم وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام وقال إنى لأظنك أنك تقول هذه حرام عليك فقال أجل هى حرام عليك لاتقربها قال والله إنى لاأطيعك فى هذا ثم قام ودخل بها إلى قبته فوقع عليها فأرسل الله عز وجل الطاعون على بنى إسرائيل فى ذلك الوقت وكان فنحاص بن العيزار بن هارون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلا فظاقد أعطى بسطة فى الخلق وقوة فى البطش وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ماصنع فجاء والطاعون يجوس فى بنى إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فطعنهما بحربته فانتظمهما ثم خرج بهما وهو رافعهما إلى السماء وقد أخذ الحربة بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر بن العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بنى إسرائيل فحسب من مات منهم فى ذلك الطاعون فيما بين أن أصاب ذلك الرجل المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك سبعون ألفا فى ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطى بنو إسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها القشة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته ويعطوهم البكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار وفى بلعام أنزل الله عز وجل «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا» الآية وقال مقاتل إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى فقال بلعام إنه من أهل دينى ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الأتان فضربها فقالت لم تضربنى وأنا مأمورة وهذه نار أمامى قد منعتنى أن أمشى فرجع إلى الملك فأخبره بذلك فقال لتدعون عليه أو لأصلبنك فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لايدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بنى إسرائيل فى التيه بدعاء بلعام عليه فقال موسى يارب بأى ذنب وقعت فى التية قال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه على فاسمع دعائى عليه فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله سبحانه وتعالى «آتيناه آياتنا فانسلخ منها» . فان قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها أن موسى عليه السلام دعا على بلعام بأن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه فى النبوة أن يدعو على إنسان بالكفر بعد الإيمان أو يرضى له بذلك

قلت

قلت الجواب عنه من وجوه : أحدها منع صحة هذه القصة لأنها من الإسرائيليات ولايلتفت إلى مايسطره أهل الأخبار إذا خالف الأصول الوجه الثانى أن سبب وقوع بنى إسرائيل فى التيه هو عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام اجعل لنا إلها فكان ذلك هو سبب وقوعهم فى التيه لادعاء بلعام عليهم . الوجه الثالث على تقدير صحة هذه القصة وأن موسى عليه السلام دعا على بلعام أن موسى عليه السلام لم يدع عليه إلا بعد أن ثبت عنده أن بلعام كفر وارتد عن الإيمان بدعائه على موسى وإيثاره الحياة الدنيا فدعا عليه مقابلة لدعائه عليه والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك كله والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله أصحاب الأخبار فى كتبهم من غير نظر فيه ولابحث عن معناه وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد ابن المسيب وزيد بن أسلم نزلت هذه الآية فى أمية بن أبى الصلت الثقفى وكانت قصته أنه كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم أن الله سبحانه وتعالى مرسل رسولا فرجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد ﷺ وشرفه الله بالنبوة حسده وكذبه وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة فقصد بعض الملوك فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل له قتلهم محمد فقال لو كان نبيا ماقتل أقرباءه فلما مات أمية أتت أخته فازعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وفاة أخيها فقالت بينا هو راقد أتاه اثنان فكشفا سقف البيت ونزلا فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه أوعى قال وعى قال أزكى قال أبى قالت فسألته عن ذلك فقال خير أريد بى فصرف عنى ثم غشى عليه فلما أفاق من غشيته قال شعرا :

كل عيش وإن تطاول دهرا ... صائر مرة إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ماقد بدا لى ... فى قلال الجبال أرعى الوعولا
إن يوم الحساب يوم عظيم ... شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

فقال لها رسول الله ﷺ أنشدينى من شعر أخيك فأنشدته بعض قصائده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن شعره وكفر قلبه فأنزل الله عز وجل « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » الآية وفى رواية عن ابن عباس أنها نزلت فى البسوس وهو رجل من بنى إسرائيل وكان قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة له منها أولاد فقالت له اجعل لى منها دعوة فقال لك منها واحدة كما تريدين قالت ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل فدعا لها فصارت أجمل النساء فلما علمت أنه ليس فى نساء بنى إسرائيل مثلها رغبت عنه فغضب فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهب فيها دعوتان فجاء بنوها إلى أبيهم وقالوا ليس لنا على هذا الأمر قرار صارت أمنا كلبة نباحة والناس تعيرنا بذلك فادع الله أن يردها إلى حالها الأول فدعا فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات جميعا والقولان الأولان أشهر وقال الحسن وابن كيسان نزلت فى منافقى أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبى ﷺ بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروه وقال قتادة هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله وقوله تعالى « آتيناه آياتنا » قال ابن عباس كان يعلم اسم الله الأكبر وقال ابن زيد كان لايسأل الله شيئا إلا أعطاه وقال السدى كان يعلم اسم الله الأعظم وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنه أوتى كتابا وقيل آتاه الله حجة وأدلة وهى الآيات التى أوتيها (فانسلخ منها) يعنى فخرج من الآيات

فانسلخ منها) الاية اختلفوا فيه قال ابن عباس هو بلعم بن باعوراء وقال مجاهد بلعام بن باعور وقال عطية عن ابن عباس كان من بنى إسرائيل وروى عن على بن أبى طلحة رضى الله عنه أنه كان من الكنعانيين من مدينة الجبارين وقال مقاتل هو من مدينة بلقا وكانت قصته على ماذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدى وغيرهم أن موسى لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم إلى بلعم وكان عنده اسم الله الأعظم فقالوا إن موسى رجل حديد ومعه جند كثير وأنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله أن يردهم عنا فقال ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعوا عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت هذا ذهبت دنياى وآخرتى فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أؤامر ربى وكان لايدعوه حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام فآمر فى الدعاء عليهم فقيل له فى المنام لاتدع عليهم فقال لقومه إنى قد آمرت ربى وإنى قد نهيت فأهدوا إليه هدية فقبلها ثم راجعوه فقال حتى أؤامر ربى فآمر فلم يوح إليه شيء فقال قد

أمرت فلم يوح إلى شيء فقالوا لو كره ربك أن تدعوا عليهم لنهاك كما نهاك فى المرة الأولى ، فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال له حسان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذ أذلقها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت وضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لها بالكلام فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يابلعم أين تذهب ألا ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا أتذهب بى إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينزع فخلى الله سبيلها ، فانطلقت حتى إذا أشرفت على جبل حسان جعل يدعو عليهم ولايدعو بشىء إلاصرف الله به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بنى إسرائيل فقال له قومه يابلعم أتدرى ماذا تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا مالا أملكه هذا شىء قد غلب الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت الآن منى الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ، ومروهن فلاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانهم إن زنا رجل واحد منهم كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستى بنت صور برجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب . فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى فقال إنى أظنك ستقول هذه حرام عليك قال أجل هى حرام عليك لاتقربها قال فوالله لاأطيعك فى هذا ثم دخل بها قبته فوقع عليها فأرسل الله الطاعون على بنى إسرائيل فى الوقت وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان رجلا قد أعطى بسطة فى الخلق وقوة فى البطش وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ماصنع فجاء والطاعون يجوس بنى إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة

إلى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوا قد هلك منهم

التى كان الله آتاه إياها كما تنسلخ الحية من جلدها وقال ابن عباس نزع منه العلم

(فأتبعه

سبعون ألفا فى ساعة من النهار فمن هنالك يعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القشة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته والبكر من كل أموالهم وأنفسهم لأنه كان بكر العيزار وفى بلعم أنزل الله تعالى ، واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا الآية وقال مقاتل أن ملك البلقاء قال لبلعام أدع الله على موسى فقال إنه من أهل دينى لاأدعو عليه فنحت خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها فقالت لم تضربنى إنى مأمورة وهذه نار أمامى قد منعتنى أن أمشى فرجع فأخبر الملك فقال لتدعون عليه أو لأصلبنك فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لايدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى وبنو إسرائيل فى التيه بدعائه فقال موسى يارب بأى ذنب وقعنا فى التيه فقال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه على فاسمع دعائى عليه فدعا موسى عليه السلام أن ينزع منه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله عنه المعرفة وسلخه منها فخرجت منه صورة كحمامة بيضاء ، فذلك قوله فانسلخ منها وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وليث بن سعد نزلت هذه الآية فى أمية بن أبى الصلت الثقفى وكانت قصته أنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فلما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به وكان صاحب حكمة وموعظة حسنة وكان قصد بعض الملوك فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل قتلهم محمد فقال لو كان نبيا ماقتل أقرباءه فلما مات أمية أتت أخته فازعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وفاة أخيها فقالت بينما هو راقد آتاه آتيان فكشفا سقف البيت فنزلا فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه أوعى؟ قال وعى قال أزكى قال أبى فقالت فسألته عن ذلك فقال خير أريد بى فصرف عنى فغشى عليه فلما أفاق قال شعرا :

كل عيش وإن تطاول دهرا صائر مرة إلى أن يزولا ليتنى كنت قبل ماقد بدالى فى قلال الجبال أرعى الوعولا

إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشديني من شعر أخيك فأنشدته بعض قصائد فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن شعره وكفر قلبه فأنزل الله عز وجل «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها» الآية وفي رواية عن ابن عباس أنها نزلت في البسوس رجل من بني إسرائيل وكان قد أعطي له ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة له منها ولد فقالت اجعل لي منها دعوة فقال لك منها واحدة فما تريدين قالت أدع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا لها فجعلت أجمل النساء في بني إسرائيل فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الزوج ودعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها وقالوا ليس لنا على هذا قرار وقد صارت أمنا كلبة نباحة والناس يعيروننا بها ادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات كلها والقولان الأولان أظهر . وقال الحسن ابن كيسان نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم وقال قتادة ، هذا مثل ضربه الله عز وجل لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله فذلك قوله واتل عليهم نبأ الذي (٣١٥) آتيناه آياتنا قال ابن عباس والسدى اسم الله الأعظم قال ابن زيد كان لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه وقال ابن عباس في رواية أخرى أوتي كتابا من كتب الله فانسلخ أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها (فأتبعه الشيطان) أي لحقه وأدركه (فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها) أي رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات وقال ابن عباس رضي الله عنهما لرفعناه بعلمه بها ، وقال مجاهد وعطاء لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات (ولكنه أخلد إلى الأرض) أي سكن إلى الدنيا ومال إليها قال الزجاج خلد وأخلد واحد وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام يقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به والأرض هاهنا عبارة عن الدنيا لأن مافيها من القفار والرباع كلها أرض وسائر متاعها مستخرج من الأرض (واتبع هواه) انقاد لما دعاه إليه الهوى قال ابن زيد كان هواه مع القوم قال عطاء أراد الدنيا وأطاع شيطانه وهذه أشد آية على العلماء وذلك أن الله أخبر أنه أتاه آياته من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم والحكمة فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها ومن الذي يسلم من هاتين الخلتين إلا من عصمه الله أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبدالله بن محمود أنا إبراهيم ابن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن زكريا بن أبي زائدة عن محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة عن كعب ابن مالك الأنصاري عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» قوله تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث لهثا إذا أدلع لسانه . قال مجاهد هو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به، والمعنى أن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر وإن تركته

(فأتبعه الشيطان) يعني لحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعا لنفسه في معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهواه . قوله تعالى (فكان من الغاوين) يعني من الهالكين الضالين بما خالف ربه وأطاع هواه وشيطانه وقوله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) يعني رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التي أوتيها وقال ابن عباس لرفعناه بعمله بها وقال مجاهد وعطاء معناه ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات (ولكنه أخلد إلى الأرض) يعني ولكنه سكن إلى الدنيا ومال إليها ورضي بها وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام والأرض هنا عبارة عن الدنيا لأن الأرض عبارة عن المفاوز والقفار وفيها المدن والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج مايعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الأرض (واتبع هواه) يعني أنه أعرض عن التمسك بما أتاه الله من الآيات واتبع الهوى فخسر دنياه وأخرته ووقع في هاوية الردى والهلاك وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى وذلك لأن الله عز وجل خص هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه الأعظم وجعل دعاءه مستجابا ثم إنه لما اتبع هواه وركن إلى الدنيا ورضي بها عوضا عن الآخر نزع منه ما كان أعطيه وانسلخ من الدين فخسر الدنيا والآخرة ومن الذي يسلم من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى إلا من عصمه الله بالورع وثبته بالعلم وبصره بعيوب نفسه عن كعب بن مالك الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ « ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والسرف لدينه» أخرجه الترمذي ثم ضرب الله عز وجل مثلا لهذا الرجل الذي أتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه من العطش وشدة

الحر وعند الإعياء والتعب وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن أتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب فى أخس أحواله وهو اللهث لأن الكلب فى حال لهثه لايقدر على نفع نفسه ولا ضرها كذلك العالم الذى يتبع هواه لايقدر على نفع نفسه ولا ضرها كذلك العالم الذى يتبع هواه لايقدر على نفع نفسه ولا ضرها فى الآخرة لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال إن حملته عليه أو تركته كان لاهثا وذلك عادة منه وطبيعة وهي مواظبته على اللهث دائما فكذلك من أتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة ثم إنه مال إليها وطلبها كانت حالته كحالة الكلب اللاهث وقيل إن العالم إذا توصل بعلمه إلى طلب الدنيا فانه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه فى تقرير تلك العلوم وبيانها وذلك لأجل مايحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة العطش إلى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذى أدلع لسانه من اللهث فى غير حاجة ولا ضرورة ومعنى أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أى إن شددت عليه وأهجته لهث وإن تركته على حاله لهث لأن اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لايقبل الوعظ ولاينجع فيه وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى أن المثل الذى ضربناه للذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث أنهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا وإن تركوا لم يهتدوا أيضا بل هم ضلال فى كل حال ثم قال سبحانه وتعالى (فاقصص القصص) وهذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى فاقصص القصص يامحمد على قومك أى أخبار من كفر بآيات الله (لعلهم يتفكرون) يعنى فيتعظون وقيل هذا المثل لكفار مكة وذلك أنهم كانوا يتمنون هاديا يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله عز وجل فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الله وإلى طاعته وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم يقبلوا منه ثم قال سبحانه وتعالى (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا (وأنفسهم كانوا يظلمون) يعنى بتكذيبهم بآياتنا . قوله عز وجل (من يهدى الله فهو المهتدى) يعنى من يرشده الله إلى دينه فهو المهتدى وقيل معناه من يتول الله هدايته وإرشاده فهو المهتدى (ومن يضلل) يعنى ومن يتول الضلالة (فأولئك هم الخاسرون) يعنى فى الآخرة وفى الآية دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الهادى المضل وقوله سبحانه وتعالى (ولقد ذرأنا) يعنى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق كثيرا من الجن والإنس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ومن خلقه الله للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها واستدل البغوى على صحة هذا التأويل بما رواه عن عائشة قالت دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبى من الأنصار فقلت يارسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أو غير ذلك ياعائشة إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم أخرجه مسلم قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح مسلم أجمع من يعتد به من علماء المسلمين أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة

لأنه

لم يهتد فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب إن طرد وحمل عليه بالطرد كان لاهثا وإن ترك وربض كان لاهثا قال القتبي كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فانه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة وفى حال الرى وفى حال العطش فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث نظيره قوله تعالى «وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون» ثم عم بهذا التمثيل جميع من يكذب بآيات الله فقال (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) وقيل هذا مثل لكفار مكة وذلك أنهم كانوا يتمنون هاديا يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله فلما جاءهم نبي لايشكون فى صدقه كذبوه فلم يهتدوا تركوا أو دعوا (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وتقديره ساء مثلا مثل القوم فحذف مثل وأقيم القوم مقامه فرفع (وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أخبر الله تعالى أنه خلق كثيرا من الجن والإنس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة

الأزلية بالشقاوة، ومن خلقه الله لجهنم فلاحيلة له فى الخلاص منها . أخبرنا أبوبكر يعقوب بن أحمد بن محمد ابن على الصيرفى أنا أبومحمد الحسن بن أحمد المخلدى أنا أحمد بن محمد بن أبى حمزة الباخى حدثنا موسى ابن محمد بن عبد الحكم الشطوى حدثنا حفص ابن غياث عن طلحة ابن يحيى عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت « أدرك النبى ﷺ جنازة صبى من صبيان الأنصار فقالت عائشة طوبى له عصفور من عصافير الجنة فقال رسول الله ﷺ وما يدريك أن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم » وقيل اللام فى قوله لجهنم لام العاقبة أى ذرأناهم وعاقبة أمرهم جهنم كقوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » ثم وصفهم فقال (لهم قلوب لايفقهون بها) أى يعلمون بها الخير والهدى (ولهم أعين لايبصرون بها) طريق الحق وسبيل الرشاد (ولهم آذان لايسمعون بها) مواعظ القرآن فيتفكرون فيها ويعتبرون بها . ثم ضرب لهم مثلا فى الجهل والاقتصار على الأكل والشرب فقال (أولئك كالأنعام

لأنه ليس مكلفا وتوقف فيهم بعض من لايعتد به لحديث عائشة هذا . وأجاب العلماء عنه بأنه لعله ﷺ نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد ابن أبى وقاص لفظة « إنى لأراه مؤمنا فقال : أو مسلما » الحديث ، ويحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين فى الجنة فلما علم ذلك قال به . وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاث مذاهب قال الأكثرون هم فى النار تبعا لآبائهم وتوقف طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذى ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ويستدل له بأشياء منها خبر إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حين رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وحوله أولاد الناس فقالوا يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين رواه البخارى فى صحيحه ومنها قوله سبحانه وتعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ولايتوجه على المولود التكليف ولايلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه والله أعلم . وفى الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة فى أن الله خالق أعمال العباد جميعها خيرها وشرها لأن الله سبحانه وتعالى بين بصريح اللفظ أنه خلق كثيرا من الجن والإنس للنار ولا تزيد على بيان الله عز وجل لأن العاقل لايختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب دخول النار به علم أن له من يضطره إلى ذلك العمل الموجب إلى دخول النار وهو الله عز وجل وقيل اللام فى جهنم للعاقبة أى عاقبتهم جهنم ، ثم وصفهم فقال تعالى (لهم قلوب لايفقهون بها) يعنى لايفهمون بها ولايعقلون بها وأصل الفقه فى اللغة الفهم والعلم بالشىء ثم صار علما على اسم العلم فى الدين لشرفه على غيره من العلوم يقال فقه الرجل يفقه فهو فقيه إذا فهم ومعنى الآية لهم قلوب لايتفكرون بها فى آيات الله ولايتدبرونها ولايعلمون بها الخير والهدى لإعراضهم عن الحق وتركهم قبوله (ولهم أعين لايبصرون بها) يعنى لايبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون بها فى آيات الله وأدلة توحيده (ولهم آذن لايسمعون بها) يعنى لايسمعون آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها قال أهل المعانى إن الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لايشك فيه . ولما وصفهم الله عز وجل بأنهم لايفقهون ولا يبصرون ولايسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم بذلك أن المراد بذلك يرجع إلى مصالح الدين وما فيه نفعهم فى الآخرة وحاصل هذا الكلام أنهم مع وجود هذه الحواس لاينتفعون بها فيما ينفعهم فى أمور الدين والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لايصلح له ومنه قول الشاعر :

وعوراء الكلام صممت عنها ... وإنى إن أشاء بها سميع

فانه أثبت له صمما مع وجود السمع قال مجاهد لهم قلوب لايفقهون بها شيئا من أمر الآخرة ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى ولهم آذان لايسمعون بها الحق . ثم ضرب لهم مثلا فقال سبحانه وتعالى (أولئك كالأنعام) يعنى أن الذين ذرأهم لجهنم وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية كالأنعام وهى البهائم التى لاتفهم ولاتعقل وذلك لأن الإنسان وسائر الحيوانات مشتركون فى هذه الحواس الثلاثة التى هى القلب والبصر والسمع . وإنما فضل الإنسان على سائر الحيوانات بالعقل والإدراك والفهم المؤدى إلى معرفة الحق من الباطل والخير والشر فاذا كان الكافر لايعرف ذلك ولا يدركه فلا فرق بينه وبين الأنعام التى لا تدرك شيئا

ثم قال تعالى (بل هم أضل) يعني بل إن الكفار أضل من الأنعام لأن الأنعام تعرف مايضرها وما ينفعها والكافر لايعرف ذلك فصار أضل من الأنعام ولأن الأنعام لم تعط القوة الفعلية والإنسان قد أعطيها فاذا لم يستعملها فيما ينفعه صار أحسن حالا من الأنعام . وقيل إن الأنعام مطيعة لله عز وجل والكافر غير مطيع لله عز وجل فصارت الأنعام أفضل منه ثم قال تعالى (أولئك هم الغافلون) يعني عن ضرب هذه الأمثال لهم . قوله سبحانه وتعالى (ولله الأسماء الحسنى) قال مقاتل إن رجلا دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة قال ابن الجوزي هو أبو جهل إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية «ولله الأسماء الحسنى» والحسنى تأنيث الأحسن ، ومعنى الآية إن أسماء الله سبحانه وتعالى المقدسة كلها حسنى وليس المراد أن فيها ماليس بحسن والمعنى أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله لأن هذا اللفظ يفيد الحصر وقيل إن الأسماء ألفاظ دالة على معان فهي إنما تحسن بمعانيها ولا معنى للحسن في حق الله تبارك وتعالى إلا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال وهي محصورة في نوعين : أحدهما عدم افتقاره إلى غيره . الثاني افتقار غيره إليه وأنه هو المسمى بالأسماء الحسنى (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة ، والله وتر يحب الوتر» وفي رواية «من أحصاها» وفي رواية أخرى «لله تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحدا لايحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر» قال البخاري أحصاها حفظها وفي رواية الترمذي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور» قال الترمذي حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث قال وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء التي في هذا الحديث قال ابن الأثير وفي رواية ذكرها رزين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون فقال إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسما الحديث . قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وإنما المقصود من الحديث أن هذه التسعة والتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ولهذا جاء في الحديث الآخر «أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم أن لله ألف اسم قال ابن العربي

(بل هم أضل) أي كالأنعام في أن همتهم في الأكل والشرب والتمتع بالشهوات بل هم أضل لأن الأنعام تميز بين المضار والمنافع فلا تقدم على المضار وهؤلاء يقدمون على النار معاندة مع العلم بالهلاك (أولئك هم الغافلون) قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى

وهذا قليل: وقوله صلى الله عليه وسلم من أحصاها دخل الجنة تقدم فيه قول البخاري إن معناه حفظها وهو قول أكثر المحققين ويعضده الرواية الأخرى من حفظها دخل الجنة وقيل المراد من الإحصاء العدد أي عدها في الدعاء بها وقيل معناه من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على ماتقتضيه وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة وقيل معنى أحصاها أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها معتبرا متدبرا ذاكرا راغبا راهبا معظما لها ولمسماها ومقدسا لذات الله سبحانه وتعالى وأن يخطر بباله عند ذكر كل اسم الوصف الدال عليه، وقوله والله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه في وصف الله تعالى أنه الواحد الذي لاشريك له ولا نظير فيه تفضيل الوتر في الأعمال لأن أكثر الطاعات وتر وفيه دليل على أن أشهر أسمائه سبحانه وتعالى الله لإضافة الأسماء إليه فيقال الرءوف والكريم واللطيف من أسماء الله ولا يقال من أسماء الله الرءوف والكريم واللطيف الله وقد قيل إن لفظة الله هو الاسم الأعظم قال أبو القاسم القشيري فيه دليل على أن الاسم هو المسمى إذ لو كان غيره لكانت الأسماء لغيره وقد قال «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» وقال الإمام فخر الدين الرازي دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لاتدل على أن أسماء الله كثيرة لأن لفظ الأسماء لفظ الجمع وهو يفيد الثلاثة فما فوقها فثبت أن أسماء الله كثيرة ولا شك أن الله واحد فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى وأيضا قوله سبحانه وتعالى ولله الأسماء يقتضي إضافة الأسماء إلى الله وإضافة الشيء إلى نفسه محال وقال غيره الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشيء المسمى به فهو غيره وقال أهل اللغة إنما جعل الاسم تنويها على المعنى لأن المعنى تحت الاسم والتسمية غير الاسم لأن التسمية عبارة عن وضع اللفظ المعين لتعريف ذات الشيء والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر قال العلماء وكما يجب تنزيه الله عن جميع النقائص فكذلك يجب تنزيه أسمائه أيضا وقوله سبحانه وتعالى (فادعوه بها) يعني ادعوا الله بأسمائه التي سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ففيه دليل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده أنه يجوز أن يقال ياجواد ولا يجوز أن يقال ياسخي ويجوز أن يقال ياعالم ولا يجوز أن يقال ياعاقل ويجوز أن يقال ياحكيم ولا يجوز أن يقال ياطبيب. وللدعاء شرائط منها أن يعرف الداعي معاني الأسماء التي يدعو بها ويستحضر في قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ويخلص النية في دعائه مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله ويعزم المسئلة مع رجاء الإجابة ويعترف لله سبحانه وتعالى بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية فإذا فعل العبد ذلك عظم موقع الدعاء وكان له تأثير عظيم (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) معنى الالحاد في اللغة الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة وقال ابن السكيت الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ماليس منه يقال ألحد في الدين إلحادا إذا عدل عنه ومال إلى غيره قال المحققون الإلحاد يقع في أسماء الله تعالى على وجوه: أحدها إطلاق أسماء الله عز وجل على غيره وذلك أن المشركين سموا أصنامهم بالآلهة واشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فسموا اللات والعزى ومناة واشتقاق اللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد. الوجه الثاني وهو قول أهل المعاني أن الإلحاد في أسماء الله هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لأن أسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية كما تقدم فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل ندعو الله بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه

فادعوه بها) قال مقاتل وذلك أن رجلا دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة إن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله عز وجل «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» والحسنى تأنيث الأحسن كالكبرى والصغرى فادعوه بها. أخبرنا أحمد ابن عبدالله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد ابن عبد الله بن بشران أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد ابن منصور الرمادي حدثنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة وإنه وتر يحب الوتر» (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) قرأ حمزة يلحدون بفتح الياء والحاء حيث كان وافقه الكسائي في النحل والباقون بضم الياء وكسر الحاء ومعنى الإلحاد هو الميل عن القصد يقال ألحد يلحد إلحادا ولحد يلحد لحدا ولحودا إذا مال قال يعقوب بن السكيت الإلحاد هو العدول عن الحق وإدخال ماليس منه فيه يقال ألحد في الدين ولحد وبه قرأ حمزة وذروا الذين يلحدون في أسمائه هم المشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه فسموا بها أوثانهم فزادوا ونقصوا

فاشتقوا اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان هذا قول ابن عباس ومجاهد وقيل هو تسميتهم الأصنام آلهة ، وروى عن ابن عباس يلحدون فى أسمائه أى يكذبون وقال أهل المعانى الإلحاد فى أسماء الله تسميته بما لم يتسم به ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ وجملته أن أسماء الله تعالى على التوقيف فانه يسمى جوادا ولا يسمى سخيا وإن كان فى معنى الجواد ويسمى رحيما ولا يسمى رفيقا ويسمى عالما ولا يسمى عاقلا وقال تعالى «يخادعون الله وهو خادعهم» وقال عز من قائل «ومكروا ومكر الله» ولا يقال

فى الدعاء يامخادع يا مكار بل يدعى بأسمائه التى ورد بها التوقيف على وجه التعظيم فيقال يا ألله يارحمن يارحيم ياعزيز ياكريم ونحو ذلك (سيجزون ما كانوا يعملون) فى الآخرة قوله تعالى (وممن خلقنا أمة) أى عصابة (يهدون بالحق وبه يعدلون) قال عطاء عن ابن عباس يريد أمة محمد ﷺ وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم باحسان . وقال قتادة بلغنا أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها — ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدثنا الحميدى حدثنى عمير ابن هانئ أنه سمع معاوية رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول لاتزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، وقال الكلبى هم من جميع الخلق (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون) قال عطاء سنمكر بهم من حيث لايعلمون وقيل نأتيهم من مأمنهم كما قال فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا قال الكلبى نزين لهم أعمالهم فنهلكهم وقال الضحاك كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة قال سفيان الثورى نسبغ عليهم النعمة وننسيهم الشكر قال أهل المعانى الاستدراج أن يتدرج الشىء فى خفية قليلا قليلا فلا يباغت ولا يجاهر ومنه درج الصبى إذا قارب بين خطاه فى المشى ومنه درج الكتاب إذا طواه شيئا بعد شىء (وأملى لهم) أى أمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا فى المعاصى (إن كيدى متين)

التعظيم . الوجه الثالث مراعاة حسن الأدب فى الدعاء فلا يجوز أن يقال ياضار يامانع ياخالق القردة على انفراد بل يقال ياضار يانافع ياخالق الخلق. الوجه الرابع أن لايسمى الله العبد باسم لايعرف معناه فانه ربما سماه باسم لايليق إطلاقه على جلال الله سبحانه وتعالى ولايجوز أن يسمى به لما فيه من الغرابة . وقوله سبحانه وتعالى (سيجزون ما كانوا يعملون) يعنى فى الآخرة ففيه وعيد وتهديد لمن ألحد فى أسماء الله عز وجل . قوله عز وجل (وممن خلقنا أمة) يعنى جماعة وعصابة (يهدون بالحق وبه يعدلون) قال ابن عباس يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم باحسان قال قتادة بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (ق) عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لاتزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » وفى الآية دليل على أنه لايخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدى إليه (والذين كذبوا بآياتنا) يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم أهل مكة والأول أولى لأن صيغة العموم تتناول الكل إلا ما دل الدليل على خروجه منه (سنستدرجهم من حيث لايعلمون) قال الأزهرى سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لايحتسبون وذلك أن الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم مايغتبطون به ويركنون إليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل مايكونون وقيل معناه سنقربهم إلى مايهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لايعلمون مايراد بهم لأنهم كانوا إذا أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة فى الدنيا فيزدادون تماديا فى الغى والضلال ويندرجون فى الذنوب والمعاصى فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل مايكونون عليه وقال الضحاك معناه كلما جددوا معصية جددنا نعمة وقال الكلبى نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها ، وقال سفيان الثورى نسبغ عليهم النعم ثم نسلبهم الشكر . روى أن عمر بن الخطاب لما حمل إليه كنوز كسرى قال اللهم إنى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فانى سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لايعلمون قال أهل المعانى الاستدراج أن يندرج الشىء إلى الشىء فى خفية قليلا قليلا ومنه درج الصبى إذا قارب بين خطاه فى المشى ومنه درج الكتاب إذا طواه شيئا بعد شىء (وأملى لهم) يعنى وأمهلهم وأطيل مدة أعمارهم . والإملاء فى اللغة الإمهال وإطالة المدة والمعنى إنى أطيل مدة أعمارهم ليتمادوا فى الكفر والمعاصى ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة (إن كيدى متين) يعنى إن أخذى شديد والمتين من كل شىء

هو القوى الشديد وقال ابن عباس معناه أن مكرى شديد قال المفسرون نزلت هذه الآية فى المستهزئين من قريش وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمهلهم ثم قتلهم فى ليلة واحدة وفى هذه الآية دليل على مسئلة القضاء والقدر وأن الله سبحانه وتعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لايسئل عما يفعل وهم يسئلون . قوله سبحانه وتعالى (أولم يتفكروا مابصاحبهم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (من جنة) يعنى من جنون قال قتادة ذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا «يابنى فلان يابنى فلان إنى لكم نذير مبين» وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح فأنزل الله عز وجل «أو لم يتفكروا» والتفكر التأمل وأعمال الخاطر فى عاقبة الأمر والمعنى أولم يتفكروا فيعلموا مابصاحبهم يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم من جنة والجنة حالة من الجنون وإدخال لفظة من فى قوله من جنة يوجب أن لايكون به نوع من أنواع الجنون وإنما نسبوه إلى الجنون وهو برىء منه لأنهم رأوا أنه صلى الله عليه وسلم خالفهم فى الأقوال والأفعال لأنه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء إلى الله عزوجل وإنذارهم بأسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه إلى الجنون فبرأه الله سبحانه وتعالى من الجنون فقال تعالى (إن هو) يعنى ماهو (إلا نذير مبين) ثم حثهم على النظر المؤدى إلى العلم بالوحدانية فقال سبحانه وتعالى (أولم ينظروا) يعنى نظر اعتبار واستدلال (فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) والمقصود التنبيه على أن الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والأرض بل كل شىء خلقه الله سبحانه وتعالى وبرأه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

(وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا إلى النار وإذا كان الأمر كذلك وجب على العاقل المبادرة إلى التفكر والاعتبار والنظر المؤدى إلى الفوز بالنعيم المقيم (فبأى حديث بعده) يعنى بعد القرآن (يؤمنون) يعنى يصدقون والمعنى فبأى كتاب بعد الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يصدقون وليس بعد محمد نبى ولا بعد كتابه كتاب لأنه خاتم الأنبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علة إعراضهم عن الايمان فقال سبحانه وتعالى (من يضلل الله فلا هادى له) يعنى أن إعراض هؤلاء عن الإيمان لإضلال الله إياهم فلو هداهم لآمنوا (ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) يعنى ويتركهم فى ضلالتهم وتماديهم فى الكفر يترددون متحيرين لا يهتدون سبيلا . قوله عز وجل (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها) قال قتادة قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس قال جبل بن أبى قشير وشمول بن زيد

أى إن أخذى قوى شديد قال ابن عباس إن مكرى شديد قيل نزلت فى المستهزئين فقتلهم الله فى ليلة واحدة قوله تعالى (أو لم يتفكروا مابصاحبهم من جنة) قال قتادة ذكر لنا أن النبى ﷺ قام على الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يابنى فلان يابنى فلان يحذرهم بأس الله ووقائعه ، فقال قائلهم إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح فأنزل الله تعالى أو لم يتفكروا مابصاحبهم محمد ﷺ من جنة جنون (إن هو) ماهو (إلا نذير مبين) ثم حثهم على النظر المؤدى إلى العلم فقال (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله) فيهما (من شىء) أى وينظروا إلى ماخلق الله فيهما من شىء ليستدلوا بها على وحدانيته (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) أى لعل أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتوا قبل أن يؤمنوا ويصيروا إلى العذاب (فبأى حديث بعده يؤمنون) أى بعد القرآن يؤمنون يقول بأى كتاب غير ما جاء به محمد ﷺ يصدقون وليس بعده نبى ولا كتاب ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال (من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم) قرأ أهل البصرة وعاصم بالياء ورفع الراء وقرأ حمزة والكسائى بالياء وجزم الراء لأن ذكر الله قد مر قبله وجزم الراء مردود

على يضلل وقرأ الآخرون بالنون ورفع الراء على أنه كلام مستأنف (فى طغيانهم يعمهون) يترددون متحيرين قوله تعالى (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها) قال قتادة قالت قريش لرسول الله ﷺ أن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة فأنزل الله تعالى يسئلونك عن الساعة يعنى القيامة أيان مرساها قال ابن عباس رضى الله

وهما من اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى الساعة فأنزل الله عز وجل يسألونك عن الساعة يعنى عن خبر القيامة سميت ساعة لأنها تقوم فى ساعة غفلة وبغتة أو لأن حساب الخلائق ينقضى فيها فى ساعة واحدة أيان سؤال استفهام عن الوقت الذى تقوم فيه الساعة ومعناه متى مرساها قال ابن عباس يعنى منتهاها أى متى وقوعها قالوا والساعة الوقت الذى تموت فيه الخلائق وأصل الارساء الثبات يقول رسا يرسو إذا ثبت (قل) أى قل لهم يا محمد (إنما علمها عند ربى) أى لا يعلم الوقت الذى تقوم فيه إلا الله استأثر الله بعلمها فلم يطلع عليه أحد ومر حديث الإيمان والإسلام والإحسان وسؤال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم قال فأخبرنى عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال المحققون وسبب إخفاء علم الساعة ووقت قيامها عن العباد ليكونوا على خوف وحذر منها لأنهم إذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف وإشفاق منها فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة والتوبة وأزجر لهم عن المعصية (لا يجليها لوقتها إلا هو) قال مجاهد لا يأتى بها إلا هو وقال السدى لا يرسلها لوقتها إلا هو والتجلية إظهار الشىء بعد خفائه ، والمعنى لا يظهرها لوقتها المعين إلا الله ولا يقدر على ذلك غيره (ثقلت فى السموات والأرض) يعنى ثقل أمرها وخفى علمها على أهل السموات والأرض فكل شىء خفى فهو ثقيل شديد وقال الحسن إذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض وإنما ثقلت عليهم لأن فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب (لا تأتيكم إلا بغتة) يعنى فجأة على حين غفلة من الخلق

(ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها ، اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد بالنتاج . قوله يليط حوضه وروى يلوط حوضه يعنى يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه يليطه أو يلوطه إذا طينه وأصله من اللصوق والأكلة بضم الهمزة اللقمة . وقوله سبحانه وتعالى (يسألونك كأنك حفى عنها) يعنى يسألونك قومك عن الساعة كأنك حفى بهم بمعنى بار بهم شفيق عليهم فعلى هذا القول فيه تقديم وتأخير تقديره يسألونك عنها كأنك حفى بهم قال ابن عباس يقول كأن بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس محمدا صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا صلى الله عليه وسلم حفى بهم فأوحى الله عز وجل إليه إنما علمها عنده استأثر بعلمها فلم يطلع عليها ملكا ولا رسولا وقيل معناه يسألونك عنها كأنك حفى بها أى عالم بها من قولهم احفيت فى المسألة إذا بالغت فى السؤال عنها حتى علمتها (قل) يعنى يا محمد (إنما علمها عند الله) يعنى استأثر الله بعلمها فلا يعلم متى الساعة إلا الله عز وجل.

فان قلت قوله سبحانه وتعالى يسألونك عن الساعة أيان مرساها وقوله سبحانه وتعالى ثانيا يسألونك كأنك حفى عنها فيه تكرار . قلت ليس فيه تكرار لأن السؤال الأول سؤال عن وقت قيام الساعة والسؤال الثانى سؤال عن أحوالها من ثقلها وشدائدها فلم يلزم التكرار .

فان قلت عبر عن الجواب فى السؤال الأول بقوله تعالى علمها عند ربى وعن الجواب فى السؤال الثانى بقوله تعالى علمها عند الله فهل من فرق بين الصورتين فى الجوابين . قلت فيه

عنها منتهاها وقال قتادة قيامها وأصله الثبات أى متى مثبتها (قل) يا محمد (إنما علمها عند ربى) استأثر بعلمها ولا يعلمها إلا هو (لا يجليها) لا يكشفها ولا يظهرها وقال مجاهد لا يأتى بها (لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض) يعنى ثقل علمها وخفى أمرها على أهل السموات والأرض وكل خفى ثقيل قال الحسن يقول إذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض (لا تأتيكم إلا بغتة) فجأة على غفلة . أخبرنا عبد الواحد المليحى حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمى حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» (يسألونك كأنك حفى عنها) فيه تقديم وتأخير أى يسألونك عنها كأنك حفى بها أى عالم بها من قولهم أحفيت فى المسألة أى بالغت فيها معناها كأنك بالغت فى سؤال عنها حتى علمتها (قل إنما علمها عند الله فرق

ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن علمها عند الله حتى سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم عنها (قل لاأملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله) قال ابن عباس رضى الله عنهما إن أهل مكة قالوا يامحمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه وتربح عند الغلاء وبالأرض التى يريد أن تجدب فترتحل منها إلى ما قد أخصبت فأنزل الله تعالى قل لا أملك لنفسى نفعا أى لا أقدر لنفسى نفعا أى اجتلاب نفع بأن أربح ولا ضرا أى دفع ضر بأن أرتحل من أرض يريد أن تجدب إلا ما شاء الله أن أملكه (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) أى لو كنت أعلم الخصب والجدب لاستكثرت من المال أى لسنة لقحط ومامسنى السوء أى الضر والفقر والجوع وقال ابن جريج قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا يعنى الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب أى متى أموت لاستكثرت من الخير من العمل الصالح وما مسنى السوء . قال ابن زيد واجتنبت مايكون من الشر واتقيته وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب أى متى الساعة لأخبرتكم حتى تؤمنوا وما مسنى السوء بتكذيبكم وقيل ومامسنى السوء ابتداء يريد مامسنى الجنون لأنهم كانوا ينسبونه إلى الجنون (إن أنا إلا نذير) لمن لايصدق بما جئت به (وبشير) بالجنة (لقوم يؤمنون) يصدقون . قوله (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) يعنى من آدم (وجعل) وخلق (منها زوجها) يعنى حواء

فرق لطيف وهو أنه لما كان السؤال الأول واقعا عن قيام وقت الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربى. ولما كان السؤال الثانى واقعا عن أحوالها وشدائدها وثقلها عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله لأنه أعظم الأسماء (ولكن أكثر الناس لايعلمون) يعنى لايعلمون أن علمها عند الله وأنه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه . وقيل ولكن أكثر الناس لايعلمون السبب الذى من أجله أخفى علم وقت قيامها المغيب عن الخلق قوله سبحانه وتعالى (قل لا أملك لنفسى نفعا ولاضرا) قال ابن عباس إن أهل مكة قالوا يامحمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشترى به فتربح فيه عند الغلاء وبالأرض التى يريد أن تجدب فترحل عنها إلى ما قد أخصبت فأنزل الله عز وجل «قل لاأملك» أى قل يا محمد لاأملك ولا أقدر لنفسى نفعا أى اجتلاب نفع بأن أربح فيما أشتريه ولاضرا يعنى ولا أقدر أن أدفع عن نفسى ضرا نزل بها بأن أرتحل إلى الأرض الخصبة وأترك الجدبة (إلا ما شاء الله) يعنى أن أملكه وأقدر عليه (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) يعنى ولو كنت أعلم وقت الخصب والجدب لاستكثرت من المال (وما مسنى السوء) يعنى الضر والفقر والجوع وقال ابن جريج معناه لا أملك لنفسى نفعا ولاضرا من الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب يريدون وقت الموت لاستكثرت من الخير يعنى من العمل الصالح وقيل إن أهل مكة لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة أنزل الله تعالى الآية الأولى وهذه الآية ومعناه أنا لاأدعى علم الغيب حتى أخبركم عن وقت قيام الساعة وذلك لما طالبوه بالإخبار عن الغيوب فذكر أن قدرته قاصرة عن علم الغيب. فان قلت قد أخبر صلى الله عليه وسلم عن المغيبات وقد جاءت أحاديث فى الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم فكيف الجمع بينه وبين قوله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير . قلت يحتمل أن يكون قاله صلى الله عليه وسلم على سبيل التواضع والأدب والمعنى لا أعلم الغيب إلا أن يطلعنى الله عليه ويقدره لى ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله عز وجل على الغيب فلما أطلعه الله عز وجل أخبر به كما قال تعالى «فلايظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول» أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك أظهره الله سبحانه وتعالى على أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله ومامسنى السوء يعنى الجنون وذلك أنهم نسبوه إلى الجنون وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير واحترزت عن الشر حتى أصير بحيث لايمسنى السوء وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لأعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا ومامسنى السوء يعنى قولكم لو كنت نبيا لعلمت متى تقوم الساعة (إن أنا إلا نذير) يعنى ما أنا إلا رسول أرسلنى الله إليكم أنذركم وأخوفكم عقابه إن لم تؤمنوا (وبشير) يعنى وأبشر بثوابه (لقوم يؤمنون) يعنى يصدقون . قوله عز وجل (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) يعنى آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) يعنى وخلق منها

(ليسكن إليها) ليأنس بها ويأوى إليها (فلما تغشاها) أى واقعها وجامعها (حملت حملا خفيفا) وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفا عليها (فمرت به) أى استمرت به وقامت وقعدت به ولم يثقلها (فلما أثقلت) أى كبر الولد فى بطنها وصارت ذات ثقل بحملها ودنت ولادتها (دعوا الله ربهما) يعنى آدم وحواء (لئن آتيتنا) يا ربنا (صالحا) أى بشرا سويا مثلنا (لنكونن من الشاكرين) قال المفسرون لما حملت حواء أتاها إبليس فى صورة رجل فقال لها ما الذى فى بطنك قالت ما أدرى قال إنى أخاف أن يكون بهيمة أو كلبا أو خنزيرا وما يدريك من أين يخرج من دبرك فيقتلك أو من فيك أو ينشق بطنك فخافت حواء من ذلك وذكرت ذلك لآدم عليه السلام فلم يزالا فى هم من ذلك ثم عاد إليها فقال إنى من الله بمنزلة فان دعوت الله أن يجعله خلقا سويا مثلك ويسهل عليك خروجه أتسميه عبد الحارث وكان اسم إبليس فى الملائكة الحارث فذكرت ذلك لآدم فقال لعله صاحبنا الذى قد علمت فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ولدت سمياه عبد الحارث قال الكلبى قال إبليس لها إن دعوت الله فولدت إنسانا أتسمينه بى ؟ قالت نعم فلما ولدت قال سميه بى قالت وما اسمك ؟ قال الحارث ولو سمى لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحارث • وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت حواء تلد لآدم فتسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس وقال إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فولدت فسمياه عبد الحارث فعاش وجاء فى الحديث «خدعهما إبليس مرتين مرة فى الجنة ومرة فى الأرض» وقال ابن زيد ولد لآدم ولد فسمياه عبد الله فأتاهما إبليس فقال ما سميتما ابنكما قالا عبد الله وكان قد ولد لهما قبل ذلك ولد فسمياه عبد الله فمات فقال إبليس أتظنان أن الله تارك عبده عندكما لا والله ليذهبن به كما ذهب بالآخرين ولكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمياه عبد شمس

زوجها حواء قد تقدم كيفية خلق حواء من ضلع آدم فى أول سورة النساء (ليسكن إليها) يعنى ليأنس بها ويأوى (فلما تغشاها) يعنى واقعها وجامعها كنى به عن الجماع أحسن كناية لأن الغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها إذا علاها وتجللها (حملت حملا خفيفا) يعنى النطفة والمنى لأن أول ما تحمل النطفة وهى خفيفة عليها (فمرت به) يعنى أنها استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها (فلما أثقلت) أى صارت إلى حال الثقل وكبر ذلك الحمل ودنت مدة ولادتها (دعوا الله ربهما) يعنى أن آدم وحواء دعوا الله ربهما (لئن آتيتنا صالحا) يعنى لئن أعطيتنا بشرا سويا مثلنا (لنكونن من الشاكرين) يعنى لك على إنعامك علينا قال المفسرون لما هبط آدم وحواء إلى الأرض ألقيت الشهوة فى نفس آدم فأصاب حواء فحملت من ساعتها فلما ثقل الحمل وكبر الولد أتاها إبليس فقال لها ما الذى فى بطنك قالت ما أدرى قال إنى أخاف أن يكون بهيمة أو كلبا أو خنزيرا أترين فى الأرض إلا بهيمة أو نحوها قالت إنى أخاف بعض ذلك قال وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك أم من فيك أو يشق بطنك فيقتلك فخافت حواء من ذلك وذكرته لآدم فلم يزالا فى غم من ذلك ثم عاد إليها إبليس فقال لها إنى من الله بمنزلة فان دعوت الله أن يجعله خلقا سويا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحارث وكان اسم إبليس فى الملائكة الحارث فذكرت ذلك حواء لآدم عليه السلام فقال لعله صاحبنا الذى قد علمت فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ولدت سمياه عبد الحارث وقال ابن عباس كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فولدت فسمياه عبد الحارث فعاش عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ «لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة وقال وقد رواه بعضهم ولم يرفعه وقوله وذلك من وحى الشيطان يعنى من وسوسته وحديثه كما جاء أنه خدعهما مرتين مرة فى الجنة ومرة فى الأرض قال ابن عباس لما ولد له أول ولد آتاه إبليس فقال إنى سأنصح لك فى شأن ولدك هذا تسميه عبد الحارث وكان اسمه فى السماء الحارث فقال آدم أعوذ بالله من طاعتك إنى أطعتك فى أكل الشجرة فأخرجتنى من الجنة فلن أطيعك فمات ولده ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر فقال أطعنى وإلا مات كما مات الأول فعصاه فمات ولده ، فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحارث فلم يزل به حتى سماه عبد الحارث فذلك قوله تعالى

(فلما

والأول أصح فذلك قوله (فلما آتاهما صالحا) بشرا سويا (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قرأ أهل المدينة وأبو بكر شركا بكسر الشين والتنوين أى شركة قال أبو عبيدة أى حظا ونصيبا وقرأ الآخرون شركاء بضم الشين ممدودا على جمع شريك يعنى إبليس أخبر عن الواحد بلفظ الجمع أى جعلا له شريكا إذ سمياه عبد الحارث ولم يكن هذا إشراكا فى العبادة ولا أن الحارث ربهما فان آدم كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه معبود هذا كالرجل إذا نزل به ضيف يسمى نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف ربه ويقول للغير أنا عبدك وقال يوسف لعزيز مصر « إنه ربى » ولم يرد به أنه معبوده كذلك هذا وقوله (فتعالى الله عما يشركون) قيل هذا ابتداء كلام وأراد به إشراك أهل مكة ولئن أراد به ماسبق فمستقيم من حيث إنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك فى الاسم وفى الآية قول آخر وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة ومعناه جعل أولادهما له شركاء فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء فى تعييرهم بفعل الآباء فقال «ثم اتخذتم العجل — وإذ قتلتم نفسا » خاطب به اليهود الذين كانوا فى عهد النبى ﷺ وكان ذلك الفعل من آبائهم وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا وقال ابن كيسان هم الكفار سموا أولادهم عبد العزى وعبد اللات وعبد مناة وقال عكرمة خاطب كل واحد من الخلق بقوله خلقكم أى خلق كل واحد من أبيه ، وجعل منها

(فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال ابن عباس أشركاه فى طاعته فى غير عبادة ولم يشركا بالله ولكن أطاعاه وقال قتادة أشركا فى الاسم ولم يشركا فى العبادة وقال عكرمة ما أشرك آدم ولا حواء وكان لا يعيش لهما ولد فأتاهما الشيطان فقال إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فهو قوله تعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما قرئ شركا بكسر الشين مع التنوين ومعناه شركة وقال أبو عبيدة معناه حظا ونصيبا وقرئ شركاء بضم الشين مع المد جمع شريك يعنى إبليس عبر عن الواحد بلفظ الجمع يعنى جعلا له شريكا إذ سميا ولدهما عبد الحارث قال العلماء ولم يكن ذلك شركا فى العبادة ولا أن الحارث ربهما لأن آدم عليه الصلاة والسلام كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصد بتسميتهما الولد بعبد الحارث أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامته وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما قال الشاعر :

* وإنى لعبد الضيف مادام ثاويا *

أخبر عن نفسه أنه عبد الضيف ما أقام عنده مع بقاء الحرية عليه وإنما أراد بالعبودية خدمة الضيف والقيام بواجب حقوقه كما يقوم العبد بواجب حقوق سيده وقد يطلق اسم الرب بغير الألف واللام على غير الله كقول يوسف عليه الصلاة والسلام لعزيز مصر «إنه ربى أحسن مثواى» أراد به التربية ولم يرد به أنه ربه ومعبوده فكذلك هنا وإنما أخبر عن آدم عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى «جعلا له شركاء فيما آتاهما» لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ولأن منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فعاتبه الله على ذلك لأنه نظر إلى السبب ولم ينظر إلى المسبب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه قال العلماء وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله فيما آتاهما ثم ابتدأ فى الخبر عن الكفار بقوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون) نزه نفسه سبحانه وتعالى عن إشراك المشركين من أهل مكة وغيرهم وهذا على العموم ، ولو أراد آدم وحواء لقال سبحانه وتعالى فتعالى الله عما يشركان على التثنية لا على الجمع وقال بعض أهل المعانى ولو أراد به ماسبق فى معنى الآية فمستقيم أيضا من حيث إنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك فى التسمية فكان الأولى أن يسمياه عبد الله لا عبد الحارث وفى معنى الآية قول آخر وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة ومعناه وجعل أولادهما له شركاء فحذف ذكر الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء بقوله « ثم اتخذتم العجل وإذ قتلتم نفسا» فعير به اليهود الذين كانوا موجودين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من فعل آبائهم وقال عكرمة خاطب كل واحد من الخلق بقوله « هو الذى خلقكم من نفس واحدة» أى خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها أى وجعل من جنسها زوجها آدمية مثله وهذا قول حسن إلا أن القول الأول أصح لأنه قول السلف مثل ابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهم من المفسرين وورد الحديث بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوهم ونصروهم وقال ابن كيسان هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى وعبد شمس وعبد الدار ونحو ذلك . وقوله سبحانه وتعالى

زوجها أى جعل من جنسها زوجها وهذا قول حسن لولا قول السلف مثل عبد الله بن عباس رضى الله عنه ومجاهد وسعيد ابن المسيب وجماعة من المفسرين أنه فى آدم وحواء ، قوله تعالى (أيشركون مالا يخلق شيئا) يعنى إبليس والأصنام (وهم يخلقون) أى هم مخلوقين (ولا يستطيعون لهم نصرا) الأصنام أى لاتنصر من أطاعها (ولا أنفسهم ينصرون) قال الحسن لايدفعون عن أنفسهم مكروه من أراد بهم بكسر أو نحوه ثم خاطب المؤمنين فقال (وإن تدعوهم إلى الهدى) وإن تدعوا المشركين إلى الإسلام (لا يتبعوكم) قرأ نافع بالتخفيف وكذلك يتبعهم الغاوون فى الشعراء وقرأ الآخرون بالتشديد فيهما وهما لغتان يقال تبعه تبعا واتبعه اتباعا (سواء عليكم أدعوتموهم) إلى الدين (أم أنتم صامتون) عن دعائهم لا يؤمنون كما قال «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» وقيل وإن تدعهم إلى الهدى يعنى الأصنام لايتبعوكم لأنها غير عاقلة (إن الذين تدعون من دون الله) يعنى الأصنام (عباد أمثالكم) يريد أنها مملوكة أمثالكم وقيل أمثالكم فى التسخير أى أنهم مسخرون مذللون لما أريد منهم قال مقاتل قوله عباد أمثالكم أراد به الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة والأول أصح (فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) أنها آلهة قال ابن عباس فاعبدوهم هل يثيبونكم أو يجازونكم إن كنتم صادقين أن لكم عندها منفعة ، ثم بين عجزهم فقال (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها) قرأ أبو جعفر بضم الطاء هنا وفى القصص والدخان وقرأ الآخرون بكسر الطاء (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) أراد أن قدرة المخلوقين تكون

(أيشركون) قرئ بالتاء على خطاب الكفار ، وقرئ بالياء على الغيبة (مالا يخلق شيئا) يعنى إبليس والأصنام (وهم يخلقون) أى وهم مخلوقون . فان قلت كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون . قلت إن لفظة «ما» تقع على الواحد والاثنين والجمع فهى من صيغ الواحدات بحسب ظاهر اللفظ ومحتملة للجمع بحسب المعنى فوحد قوله مالا يخلق رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله وهم يخلقون رعاية لجانب المعنى . فان قلت كيف جمع بالواو وبالنون لمن لايعقل وهو جمع من يعقل من الناس . قلت لما اعتقد عابدو الأصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا الجمع بناء على مايعتقدونه ويتصورونه . وقوله تعالى (ولا يستطيعون لهم نصرا) يعنى أن الأصنام لاتقدر على نصر من أطاعها وعبدها ولا تضر من عصاها والنصر المعونة على الأعداء والمعنى أن المعبود الذى تجب عبادته يكون قادرا على إيصال النفع ودفع الضر وهذه الأصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها ثم قال تعالى (ولا أنفسهم ينصرون) يعنى ولا يقدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم مكروها فان من أراد كسرها قدر عليه وهى لاتقدر على دفعه عنها . ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى (وإن تدعوهم إلى الهدى) يعنى وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى (لايتبعوكم) لأن الله سبحانه وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية (سواء عليكم أدعوتموهم) إلى الدين والهداية (أم أنتم صامتون) أى ساكتون عن دعائهم فهم فى كلا الحالين لايؤمنون وقيل إن الله سبحانه وتعالى لما بين فى الآية المتقدمة عجز الأصنام بين فى هذه الآية أنه لاعلم لها بشىء ألبتة ، والمعنى أن هذه الأصنام التى يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لاتضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها إلى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى بقوله سبحانه وتعالى «سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون» وذلك أن المشركين كانوا إذا وقعوا فى شدة وبلاء تضرعوا لأصنامهم فاذا لم تكن لهم إلى الأصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لافرق بين دعائكم للأصنام أو سكوتكم عنها فانها عاجزة فى كل حال . قوله سبحانه وتعالى (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) يعنى أن الأصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون إنما هى مملوكة لله أمثالهم ، وقيل إنها مسخرة مذللة مثل ما أنتم مسخرون مذللون قال مقاتل فى قوله سبحانه وتعالى «عباد أمثالهم» أنها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة والقول الأول أصح وفيه سؤال وهو أنه وصفها بأنها عباد مع أنها جماد . والجواب أن المشركين لما ادعوا أن الأصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الألفاظ على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا ولذلك قال عز وجل (فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) فى كونها آلهة وجواب آخر وهو أن هذا اللفظ إنما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين والمعنى أن قصارى هذه الأصنام التى تعبدونها أحياء عاقلة على معتقدكم فهم عباد الله أمثالكم ولا فضل لهم عليكم فلم عبدتموهم وجعلتموهم آلهة وجعلتم أنفسكم لهم عبيدا ثم وصفهم بالعجز فقال تعالى (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) يعنى أن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح الأربعة فانها آلات

الباطشة والأعين الباصرة والآذان السامعة فكيف تعبدون من أنتم أفضل وأقدر منهم (قل ادعوا شركاءكم) يا معشر المشركين (ثم كيدون) أنتم وهم (فلا تنظرون) أى لا تمهلونى واعجلوا فى كيدى. قوله (إن وليي الله الذى نزل الكتاب) يعنى القرآن أى أنه يتولانى وينصرنى كما أيدنى بانزال الكتاب (وهو يتولى الصالحين) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الذين لا يعدلون بالله شيئا فالله يتولاهم بنصره فلا يضرهم عداوة من عاداهم (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا) يعنى الأصنام (وتراهم) يا محمد (ينظرون إليك) يعنى الأصنام (وهم لا يبصرون) وليس المراد من النظر حقيقة النظر إنما المراد منه المقابلة تقول العرب دارى تنظر إلى دارك أى تقابلها وقيل وتراهم ينظرون إليك أى كأنهم ينظرون إليك كقوله تعالى «وترى الناس سكارى» أى كأنهم سكارى هذا قول المفسرين وقال الحسن وإن تدعوهم إلى الهدى، يعنى المشركين لا يسمعوا لا يعقلوا ذاك بقلوبهم وتراهم ينظرون إليك بأعينهم وهم لا يبصرون بقلوبهم. قوله تعالى (خذ العفو)

آلات يستعين بها الإنسان فى جميع أموره والأصنام ليس لها من هذه الأعضاء والجوارح شىء فهم مفضلون عليها بهذه الأعضاء لأن الرجل الماشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشى وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان أن الإنسان أفضل من هذه الأصنام العاجزة بكثير بل لا فضل لها ألبتة لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالإنسان العاقل الأفضل أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الأرذل الذى لا فضل له ألبتة ولا يضر ولا ينفع فامتنع بهذه الحجة كون الأصنام آلهة ثم قال تعالى (قل ادعوا شركاءكم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين أدعو شركاءكم هذه الأصنام التى تعبدونها حتى يتبين عجزها (ثم كيدون) يعنى أنتم وشركاؤكم وهذا متصل بما قبله فى استكمال الحجة عليهم لأنهم لما قرعوا بعبادة من لا يملك ضرا ولا نفعا قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم قل إن معبودى يملك الضر والنفع فلو اجتهدتم فى كيدى لم تصلوا إلى ضرى لأن الله يدفع عنى، وقال الحسن كانوا يخوفونه بآلهتهم فقال الله تعالى قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون (فلا تنظرون) أى لا تمهلون واعجلوا فى كيدى أنتم وشركاؤكم (إن وليي الله) يعنى إن الذى يتولى حفظى وينصرنى عليكم هو الله (الذى نزل الكتاب) يعنى القرآن، المعنى كما أيدنى بانزال القرآن على كذلك يتولى حفظى وينصرنى (وهو يتولى الصالحين) يعنى يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر قال ابن عباس يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئا ولا يعصونه وفى هذا مدح للصالحين لأن من تولاه الله يحفظه فلا يضره شىء. قوله عز وجل (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) هذه الآية قد تقدم تفسيرها، والفائدة فى تكريرها أن الآية الأولى مذكورة على جهة التقريع والتوبيخ وهذه الآية مذكورة على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وهو الله الذى يتولى الصالحين بنصره وحفظه وبين هذه الأصنام وهى ليست كذلك فلا تكون معبودة. وقوله سبحانه وتعالى (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) قال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه وإن تدعو أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى لا يسمعوا دعاءكم لأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون إليك يا محمد وهم لا يبصرون يعنى ببصائر قلوبهم وذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه الآية أيضا واردة فى صفات الأصنام لأنها جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر. قوله تعالى (خذ العفو) العفو هنا الفضل وما جاء بلا كلفة والمعنى أقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقص عليهم فيستقصوا عليك فتتولد منه العداوة والبغضاء وقال مجاهد يعنى خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار منهم وترك البحث عن الأشياء والعفو التساهل فى كل شىء (خ) عن عبد الله بن الزبير قال ما نزلت خذ العفو وأمر بالعرف إلا فى أخلاق الناس وفى رواية قال أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أقوال الناس وكذا فى جامع الأصول وفى الجمع بين الصحيحين للحميدى قال أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أقوال الناس أو كما قال وقال ابن عباس يعنى خذ ما عفا لك من أموالهم فما آتوك به من شىء فخذه وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما

قال عبد الله بن الزبير أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وقال مجاهد خذ العفو يعنى العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار والعفو والمساهلة وترك البحث عن الأشياء ونحو ذلك وروى «أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ماهذا قال لاأدرى حتى أسأله ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك» وقال ابن عباس رضى الله عنهما والسدى والضحاك والكلبى يعنى خذ ماعفا لك من الأموال وهو الفضل من العيال وذلك معنى قوله يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ، ثم نسخت هذه بالصدقات المفروضات . قوله تعالى **(٣٢٨)** (وأمر بالعرف) أى بالمعروف وهو كل مايعرفه الشرع وقال عطاء وأمر بالعرف يعنى بلا إله إلا الله (وأعرض عن الجاهلين) أبى جهل وأصحابه ، نسختها آية السيف وقيل إذا تسفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه وذلك مثل قوله وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وذلك سلام المتاركة قال جعفر الصادق أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجرجانى ثنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى ثنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذى ثنا محمد بن بشار ثنا محمد ابن جعفر ثنا شعبة عن أبى إسحاق عن أبى عبد الله الجدلى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا سخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح» ثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفى ثنا أبو سعيد عبد الملك بن أبى عثمان الواعظ ثنا عمار بن محمد البغدادى ثنا أحمد ابن محمد بن سعيد الحافظ ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمر بن إبراهيم يعنى الكوفى ثنا يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله بعثنى لتمام مكارم الأخلاق وإتمام محاسن الأفعال» قوله تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) أى يصيبنك ويعتريك ويعرض لك من الشيطان نزغ نخسة والنزغ من الشيطان الوسوسة وقال الزجاج النزغ أدنى حركة تكون من الآدمى ومن الشيطان أدنى وسوسة وقال عبد الرحمن بن زيد لما نزلت هذه الآية خذ العفو قال النبى صلى الله عليه وسلم كيف يارب والغضب فنزل وإما ينزغنك من الشيطان نزغ (فاستعذ بالله) أى استجر بالله (إنه سميع عليم)

(فصل

انتهت إليه وقال السدى خذ العفو أى الفضل من المال نسختها آية الزكاة ، وقال الضحاك خذ ماعفا من أموالهم وهذا قبل أن تفرض الصدقة المفروضة (وأمر بالعرف) يعنى وأمر بكل ماأمرك الله به وهو ماعرفته بالوحى من الله عز وجل وكل مايعرفه الشارع وقال عطاء وأمر بقول لا إله إلا الله (وأعرض عن الجاهلين) أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الجاهلين وهذا قبل أن يؤمر بقتال الكفار فلما أمر بقتالهم صار الأمر بالإعراض عنهم منسوخا بآية القتال ، قال بعضهم أول هذه الآية وآخرها منسوخ ، ووسطها محكم يريد بنسخ أولها أخذ الفضل من الأموال فنسخ بفرض الزكاة والأمر بالمعروف محكم والإعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال روى أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ماهذا قال لاأدرى حتى أسأل ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ذكره البغوى بغير سند وقال جعفر الصادق أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه . عن عائشة قالت «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا سخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح» أخرجه الترمذى وروى البغوى بسنده عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله بعثنى لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال» قوله عز وجل (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) قال ابن زيد «لما نزل قوله سبحانه وتعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال النبى صلى الله عليه وسلم فكيف بالغضب يارب فأنزل الله عز وجل وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم» ونزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه فى القلب وقيل النزغ الانزعاج وأكثر مايكون عند الغضب وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر والإفساد يقال نزغت بين القوم إذا أفسدت بينهم وقال الزجاج النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة والمعنى وإما يصيبنك يامحمد ويعرض لك من الشيطان وسوسة أو نخسة (فاستعذ بالله) يعنى فاستجر بالله والجأ إليه فى دفعه عنك (إنه سميع) يعنى لدعائك (عليم) بحالك وقيل إن الشيطان يجد مجالا فى حمل الإنسان على مالا ينبغى فى حالة الغضب والغيظ فأمر الله بالالتجاء إليه والتعوذ به فى تلك الحالة فهى تجرى مجرى العلاج لذلك المرض .

إن الذين اتقوا) يعنى المؤمنين (إذا مسهم طائف من الشيطان) قرأ ابن كثير وأهل البصرة والكسائى طيف وقرأ الآخرون طائف بالمد والهمزة وهما لغتان كالميت والمائت ومعناهما الشيء يلم بك وفرق قوم بينهما فقال أبو عمرو الطائف مايطوف حول الشيء والطيف اللمة والوسوسة وقيل الطائف ماطاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللمم والمس (تذكروا) عرفوا قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله تعالى فيكظم الغيظ وقال مجاهد الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه (فاذا هم مبصرون) أى يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكر والتفكر قال السدى إذا زلوا تابوا . وقال مقاتل إن المتقى إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنه معصية فأبصر فنزع عن مخالفة الله قوله (وإخوانهم يمدونهم) يعنى إخوان الشياطين من المشركين يمدونهم أى يمدهم الشيطان . قال الكلبى لكل كافر أخ من الشياطين (فى الغى) أى يطلبون لهم الإغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم فى الضلالة وقرأ أهل المدينة يمدونهم بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والآخرون بفتح الياء وضم الميم وهما لغتان بمعنى واحد (ثم لا يقصرون) أى لايكفون قال ابن عباس رضى الله عنهما لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ولا الشياطين يمسكون عنهم فعلى هذا قوله ثم لايقصرون من فعل المشركين والشياطين جميعا .

(فصل واحتج الطاعنون فى عصمة الأنبياء بهذه الآية)

فقالوا لو كان النبى معصوما لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ فى قلبه ويحتاج إلى الاستعاذة والجواب عنه من وجوه الأول أن معنى الكلام إن حصل فى قلبك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله وإنه لم يحصل له ذلك البتة فهو كقوله لئن أشركت وهو برىء من الشرك البتة والوجه الثانى على تقدير أنه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله عز وجل عصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن قبولها وثبوتها فى قلبه (م) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يارسول الله قال وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير» قال الشيخ محيى الدين النووى يروى فأسلم بفتح الميم وضمها فمن رفع قال معناه فأسلم أنا من شره وفتنته ومن فتح قال معناه أن القرين أسلم من الإسلام يعنى صار مؤمنا لايأمرنى إلا بخير قال الخطابى الصحيح المختار الرفع ورجح القاضى عياض الفتح قال الشيخ وهو المختار لقوله فلا يأمرنى إلا بخير قال القاضى عياض واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه وفى هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه أعلمنا أنه معنا لنحترز عنه بحسب الإمكان والله أعلم . الوجه الثالث يحتمل أن يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ومعناه وإما ينزغنك أيها الإنسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله فهو كقوله فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله . قوله سبحانه وتعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف) وقرىء طيف (من الشيطان) وهما لغتان ومعناه الشيء يلم بالإنسان وقيل بينهما فرق فالطائف مايطوف حول الإنسان والطيف الوسوسة وقيل الطائف ماطاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللمم والمس قال الأزهرى الطيف فى كلام العرب الجنون وقيل للغضب طيف لأن الغضبان يشبه المجنون وقيل سمى الجنون والغضب والوسوسة طيفا لأنه لمة من الشيطان تشبه لمة الخبال فذكر فى الآية الأولى النزغ وهو أخف من الطيف المذكور فى هذه الآية لأن حالة الشيطان مع الأنبياء أضعف من حاله مع غيرهم (تذكروا) يعنى عرفوا ماحصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضب فيذكر الله فيكظم غيظه وقال مجاهد هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه (فاذاهم مبصرون) يعنى أنهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر والتفكر وقال السدى إذا زلوا تابوا وقال مقاتل هو الرجل إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنه معصية فأبصر ونزع عن مخالفة الله عز وجل (وإخوانهم) يعنى وإخوان الشياطين من المشركين (يمدونهم) أى يمدهم الشياطين (فى الغى) قال الكلبى لكل كافر أخ من الشياطين يمدونهم أى يطيلون لهم فى الإغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم فى الضلالة (ثم لايقصرون) يعنى لايكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لأن المؤمن إذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر فى ضلالته لا يتذكر ولا يرعوى وقال ابن عباس لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ولا الشياطين يمسكون عنه فعلى هذا القول يحمل قوله لايقصرون على

الضحاك ومقاتل يعنى المشركين لا يقصرون عن الضلالة ولا يبصرونها بخلاف ماقال فى المؤمنين تذكروا فاذاهم مبصرون قوله عز وجل (وإذا لم تأتهم بآية) يعنى إذا لم تأت المشركين بآية (قالوا لولا اجتبيتها) هلا افتعلتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبيت الكلام إذا اختلقته قال الكلبى كان أهل مكة يسألون النبى صلى الله عليه وسلم الآيات تعنتا فاذا تأخرت قالوا لولا اجتبيتها أى هلا أحدثتها وأنشأتها من عندك (قل) لهم يا محمد (إنما أتبع مايوحى إلى من ربى) ثم قال (هذا) يعنى القرآن (بصائر) حجج وبيان وبرهان (من ربكم) واحدتها بصيرة وأصلها ظهور الشىء واستحكامه حتى يبصره الإنسان فيهتدى به يقول هذا دلائل تقودكم إلى الحق (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) قوله عز وجل (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا

فعل الإنس والشياطين جميعا . قوله عز وجل (وإذا لم تأتهم بآية) يعنى وإذا لم تأت المشركين يامحمد بآية ومعجزة باهرة (قالوا) يعنى قال المشركون (لولا اجتبيتها) يعنى افتعلتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبيت الكلام إذا اختلقته وافتعلته وقال الكلبى كان أهل مكة يسألون النبى صلى الله عليه وسلم الآيات تعنتا فاذا تأخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها يعنى هلا أحدثتها وأنشأتها من عندك (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات (إنما أتبع مايوحى إلى من ربى) يعنى القرآن الذى أنزل على وليس لى أن أقترح الآيات والمعجزات (هذا بصائر من ربكم) يعنى هذا القرآن حجج وبرهان وأصل البصائر من الإبصار وهو ظهور الشىء حتى يبصره الإنسان ولما كان القرآن سببا لبصائر العقول فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب (وهدى) يعنى وهو هدى (ورحمة) يعنى وهو رحمة من الله (لقوم يؤمنون) وهنا لطيفة وهى الفرق بين هذه المراتب الثلاث وذلك أن الناس متفاوتون فى درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية فى علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن فى حق الأولين وهم السابقون بصائر وفى حق القسم الثانى وهم المستدلون هدى وفى حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة . قوله تعالى (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عظم شأن القرآن بقوله هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أتبعه بما يجب من تعظيم شأنه عند قراءته فقال سبحانه وتعالى وإذا قرئ عليكم أيها المؤمنون القرآن فاستمعوا له يعنى اصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وأنصتوا يعنى عند قراءته والإنصات السكوت للاستماع يقال نصت وأنصت وانتصت بمعنى واحد واختلف العلماء فى الحال التى أمر الله عز وجل بالاستماع لقارئ القرآن والانصات له إذا قرأ لأن قوله فاستمعوا له وأنصتوا أمر وظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء فى ذلك أقوال . القول الأول وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجرى هذه الآيات على العموم ففى أى وقت وأى موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت . والقول الثانى إنها نزلت فى تحريم الكلام فى الصلاة روى عن أبى هريرة أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكون والاستماع لقراءة القرآن وقال عبد الله كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان قال فجاء القرآن وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا القول الثالث إنها نزلت فى ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام روى عن أبى هريرة قال نزلت هذه الآية فى رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ وعن ابن مسعود « أنه سمع ناسا يقرءون مع الإمام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفقهوا وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله وقال الكلبى كانوا يرفعون أصواتهم فى الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار . القول الرابع أنها نزلت فى السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء قال مجاهد الانصات للإمام يوم الجمعة وقال عطاء وجب الصمت فى اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن وعند الإمام وهو يخطب وهذا القول قد اختاره جماعة وفيه بعد لأن الآية مكية والخطبة إنما وجبت بالمدينة واتفقوا على

لعلكم ترحمون) اختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فذهب جماعة إلى أنها فى القراءة فى الصلاة روى عن أبى هريرة أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن ، وقال قوم نزلت فى ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام روى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى هريرة قال نزلت هذه الآية فى رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ فى الصلاة وقال الكلبى كانوا يرفعون أصواتهم فى الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه سمع ناسا يقرءون مع الإمام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفقهوا وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله وهذا قول الحسن والزهرى والنخعى أن الآية فى القراءة فى الصلاة وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد أن الآية فى الخطبة أمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة وقال سعيد بن جبير هذا فى الإنصات يوم الأضحى والفطر ، ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام وقال عمر بن عبد العزيز الإنصات لقول كل واعظ والأول أولاها وهو أنها فى القراءة فى الصلاة لأن الآية مكية والجمعة وجبت بالمدينة واتفقوا على أنه مأمور بالإنصات حالة ما يخطب الإمام أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع ، ثنا الشافعى ثنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت»

واختلف أهل العلم فى القراءة خلف الإمام فى الصلاة فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسر روى ذلك عن عمر وعثمان وعلى وابن عباس ومعاذ وهو قول الأوزاعى والشافعى وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسر الإمام فيه بالقراءة ولا يقرأ إذا جهر روى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهرى ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسر الإمام أو جهر روى ذلك عن جابر ، وبه قال الثورى وأصحاب الرأى ويتمسك من لا يرى القراءة خلف الإمام بظاهر هذه الآية ومن أوجبها قال الآية فى غير الفاتحة وإذا قرأ الفاتحة يتبع سكتات الإمام ولا ينازع الإمام فى القراءة والدليل عليه ما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبى ثنا أبو محمد عبد الجبار ابن محمد الجراحى ثنا أبو العباس المحبوبى ثنا أبو عيسى الترمذى ثنا هناد ثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن مكحول عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال صلى النبى صلى الله عليه وسلم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال إنى

أنه يجب الإنصات حال الخطبة بدليل السنة وهو ماروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت» أخرجاه فى الصحيحين واختلف العلماء فى القراءة خلف الإمام فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسر يروى ذلك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ وهو قول الأوزاعى وإليه ذهب الشافعى وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسر الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الإمام فيه ، يروى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهرى ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسر الإمام أو جهر يروى ذلك عن جابر وإليه ذهب أصحاب الرأى حجة من لا يرى القراءة خلف الإمام ظاهر هذه الآية وحجة من قال يقرأ فى السرية دون الجهرية قال إن الآية تدل على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الإمام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعا بين دلائل الكتاب والسنة وحجة من أوجب القراءة خلف الإمام فى صلاة السرية والجهرية قال الآية واردة فى غير الفاتحة لأن دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام ولم يفرق بين السرية والجهرية قالوا وإذا قرأ الفاتحة خلف الإمام تتبع سكناته ولا ينازعه فى القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه ويدل عليه ماروى عن عبادة بن الصامت قال «صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال أراكم تقرءون وراء إمامكم قال قلنا : يارسول الله أى والله قال لا تفعلوا إلا بأم القرآن فانه لا صلاة لمن لم يقرأ بها» أخرجه الترمذى بطوله وأخرجاه فى الصحيحين أقصر منه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» (م) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج يقولها ثلاثا غير تمام فقيل لأبى هريرة إنا نكون وراء الإمام قال اقرأ بها فى نفسك» وذكر الحديث وقوله سبحانه وتعالى (لعلكم ترحمون) يعنى لكى يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به من أوامره ونواهيه . قوله عز وجل

(واذكر ربك فى نفسك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين قال ابن عباس يعنى بالذكر القرآن فى الصلاة يريد اقرأ سرا فى نفسك والفائدة فيه أن انتفاع الإنسان بالذكر إنما يكمل إذا وقع الذكر بهذه الصفة لأن ذكر النفس أقرب إلى الإخلاص والبعد عن الرياء وقيل المراد بالذكر فى النفس أن يستحضر فى قلبه عظمة المذكور جل جلاله وإذا كان الذكر باللسان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لأن فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور عز وجل (تضرعا) يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة إذا خضع وذل واستكان لغيره (وخيفة ودون الجهر من القول) يعنى وخوفا والمعنى تضرع إلى وخاف عذابى وقال مجاهد وابن جريج أمر أن يذكروه فى الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت فى الدعاء وههنا لطيفة وهى أن قوله سبحانه وتعالى «واذكر ربك فى نفسك» فيه إشعار بقرب العبد من الله عز وجل وهو مقام الرجاء لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان فاذا تذكر العبد إنعام الله عليه وإحسانه إليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم أتبعه بقوله تضرعا وخيفة وهذا مقام الخوف فاذا حصل فى قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوى إيمانه والمستحب أن يكون الخوف أغلب على العبد فى حال صحته وقوته فاذا قارب الموت ودنا آخر أجله فيستحب أن يغلب رجاؤه على خوفه عن أنس بن مالك «أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى الموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله يارسول الله وإنى أخاف ذنوبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجو منه وآمنه مما يخاف» أخرجه الترمذى. وقوله سبحانه وتعالى (بالغدو) جمع غدوة (والآصال) جمع أصيل وهى مابين صلاة العصر إلى المغرب والمعنى اذكر ربك بالبكر والعشيات وإنما خص هذين الوقتين بالذكر لأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذى هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله عز وجل وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فان الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذى هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لأنها حالة تشبه الموت ولعله لايقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى (ولا تكن من الغافلين) يعنى عما يقربك إلى الله عز وجل وقيل إن أعمال العبد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى المغرب فاستحب له الذكر فى هذه الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر وقيل لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد أن يذكر الله فى هذين الوقتين ليكون فى جميع أوقاته مشتغلا بما يقربه إلى الله عز وجل من صلاة أو ذكر. قوله عز وجل (إن الذين عند ربك) يعنى الملائكة المقربين لما أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالذكر فى حالة التضرع والخوف أخبر أن الملائكة الذين عنده مع علو مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم (لايستكبرون عن عبادته) وطاعته لأنهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه عز وجل (ويسبحونه) يعنى وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان ربنا (وله يسجدون) لالغيره. فان قلت التسبيح والسجود داخلان فى قوله تعالى لايستكبرون عن

أراكم تقرءون وراء إمامكم قال قلنا يارسول الله أى والله قال لاتفعلوا إلا بأم القرآن فانه لاصلاة لمن لم يقرأ بها قوله تعالى (واذكر ربك فى نفسك) قال ابن عباس يعنى بالذكر القراءة فى الصلاة يريد يقرأ سرا فى نفسه (تضرعا وخيفة) خوفا أى تتضرع إلى وتخاف منى هذا فى صلاة السر وقوله (ودون الجهر من القول) أراد فى صلاة الجهر لاتجهر جهرا شديدا، بل فى خفض وسكون تسمع من خلفك وقال مجاهد وابن جريج أمر أن يذكروه فى الصدور وبالتضرع إليه فى الدعاء والاستكانة دون رفع الصوت والصياح بالدعاء (بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) أى بالبكر والعشيات وواحد الآصال أصيل مثل يمين وأيمان وهو مابين العصر والمغرب (إن الذين عند ربك) يعنى الملائكة المقربين بالفضل والكرامة (لا يستكبرون) لايتكبرون (عن عبادته ويسبحونه) وينزهونه ويذكرونه فيقولون سبحان الله (وله يسجدون)

عبادته لأنهما من جملة العبادة فكيف أفردهما بالذكر . قلت أخبر الله عز وجل عن حال الملائكة أنهم خاضعون لعظمته لايستكبرون عن عبادته ثم أخبر عن صفة عبادتهم أنهم يسبحونه وله يسجدون ولما كانت الأعمال تنقسم إلى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال القلوب هى تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبى عبر عنه بقوله ويسبحونه وعبر عن أعمال الجوارح بقوله وله يسجدون وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيستحب للقارىء والمستمع أن يسجد عند قوله وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين فى عباداتهم (ق) عن عبد الله بن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى مايجد بعضنا موضعا لمكان جبهته فى غير وقت صلاة » (م) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول ياويلتا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار » (م) عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « عليك بكثرة السجود لله فانك لاتسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

تم الجزء الثانى من تفسير الخازن

ويليه الجزء الثالث

وأوله : تفسير سورة الأنفال

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنبأنا أحمد بن الحسن الحيرى أنبأنا حاجب بن أحمد الطوسى ثنا عبد الرحيم ابن منيب ثنا يعلى بن عبيد عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول : ياويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى ثنا حميد بن زنجويه ثنا محمد بن يوسف ثنا الأوزاعى عن الوليد ابن هشام عن معدان قال سألت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت حدثنى حديثا ينفعنى الله به قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة » وحط عنه بها سيئة »

فهرست الجزء الثانى

من تفسير القرآن العظيم للإمام على بن محمد المعروف بالخازن

صحيفة

صحيفة

فهرست الجزء الثانى

من كتاب معالم التنزيل لمحيي السنة أبى محمد الحسين الفراء البغوى الذى بالهامش

تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معاني التنزيل

لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

وبهامشه

تفسير البغوى

المعروف بمعالم التنزيل

لأبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى

المتوفى سنة ٥١٦ هـ

الجزء الثالث

الطبعة الثانية

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأنفال

مدنية كلها إلا سبع آيات منها نزلت بمكة وهى من قوله سبحانه وتعالى «وإذ يمكر بك الذين كفروا» إلى آخر سبع آيات والأصح أنها نزلت بالمدينة وإن كانت الواقعة مكية وهى خمس وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (يسألونك عن الأنفال) (ق) عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن سورة الأنفال قال نزلت فى بدر واختلف أهل التفسير فى سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلا فله كذا فتسارع الشباب وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهم الأشياخ لاتذهبوا به دوننا ولاتستأثروا به علينا فانا كنا ردءا لكم لو انكشفتم إلينا فتنازعوا فأنزل الله عزوجل يسألونك عن الأنفال الآية قال أهل التفسير قام أبواليسر بن عمرو الأنصارى أخو بنى سلمة فقال يارسول الله إنك وعدت أن من قتل قتيلا فله كذا وكذا وإنا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة فى الآخرة ولاجبن عن العدو لكن كرهنا أن تعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصيبونك فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد يا رسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك فان تعط هؤلاء الذين ذكرت لايبقى لأصحابك كبير شىء فنزلت هذه الآية يسألونك عن الأنفال وقال محمد بن اسحاق «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هو لنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل كل امرىء ما أصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كنا نقدر أن نقاتل العدو ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم غرة العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق منا فنزلت هذه الآية» وروى مكحول عن أبى أمامة الباهلى قال «سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله

صلى

(سورة الأنفال) مدنية وهى خمس وسبعون آية قيل إلا سبع آيات من قوله «وإذ يمكر بك الذين كفروا» إلى آخر سبع آيات فانها نزلت بمكة والأصح أنها نزلت بالمدينة وإن كانت الواقعة بمكة .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسألونك عن الأنفال) الآية قال أهل التفسير سبب نزول هذه الآية هو أن النبى ﷺ قال يوم بدر «من أتى مكان كذا فله من النفل كذا ومن قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا» فلما التقوا تسارع إليه الشبان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات فلما فتح الله على المسلمين جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال الأشياخ : كنا ردءا لكم ولو انهزمتم لانحرفتم إلينا فلا تذهبوا بالغنائم دوننا وقام أبواليسر ابن عمرو الأنصارى أخو بنى سلمة فقال يارسول الله إنك وعدت أن من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا وإنا قد قتلنا منهم سبعين وأسرنا منهم سبعين فقام سعد بن معاذ

رضى الله عنه فقال والله يارسول الله مامنعنا أن نطلب ما يطلب هؤلاء لا زهادة فى الآخرة ولاجبن عن العدو لكن كرهنا أن تعرى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فيصيبوك فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد: يارسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك فان تعط هؤلاء الذى ذكرت لايبقى لأصحابك كثير شىء ، فنزلت «يسألونك عن الأنفال» وقال ابن إسحاق «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هو لنا قد كان رسول الله ﷺ نفل كل امرئ ما أصاب . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ لقد رأينا أن نقتل العدو وأن نأخذ المتاع ولكنا خفنا على رسول الله ﷺ كرة العدو وقمنا دونه فما أنتم بأحق به منا» وروى مكحول عن أبى إمامة الباهلى قال «سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال قال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله ﷺ بيننا عن بواء» يقول على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين وقال سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه «لما كان يوم بدر قتل أخى عمير وقتلت سعيد بن العاص بن أمية وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكثيفة فأعجبنى فجئت به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إن الله قد شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال « ليس هذا لى ولا لك اذهب فاطرحه فى القبض» فطرحته ورجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله ، من قتل أخى وأخذ سلاحى وقلت عسى أن يعطى هذا السيف من لم يبل ببلائى فما جاوزت إلا قليلا حتى جاءنى رسول الله ﷺ وقد أنزل الله عز وجل « يسألونك عن الأنفال » الآية فخفت أن يكون قد نزل فى شىء فلما انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ياسعد إنك سألتنى السيف وليس لى وإنه قد صار لى الآن فاذهب فخذه فهو لك» وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كانت المغانم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد فيها شىء وما أصاب سرايا المسلمين من شىء أتوه به فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول قوله «يسألونك من الأنفال» أى عن حكم الأنفال وعلمها وهو سؤال استخبار لاسؤال طلب وقيل هو سؤال طلب قاله الضحاك وعكرمة وقوله عن الأنفال أى من الأنفال عن بمعنى من وقيل عن صلة أى يسألونك الأنفال وهكذا قراءة ابن مسعود بحذف عن والأنفال الغنائم واحدها نفل وأصله الزيادة يقال نفلتك وأنفلتك أى زدتك سميت الغنائم أنفالا لأنها زيادة من الله لهذه الأمة على الخصوص وأكثر المفسرين على أن الآية فى غنائم بدر وقال عطاء هى ماشذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع فهو للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع به ماشاء (قل الأنفال لله والرسول) يقسمانها كما شاءا . واختلفوا فيه فقال مجاهد وعكرمة والسدى هذه

(٣)

صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا عن بواء» يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإصلاح ذات البين وعن سعد بن أبى وقاص قال «لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يارسول الله إن الله قد شفى صدرى من المشركين أو نحو هذا هب لى هذا السيف فقال «هذا ليس لى ولا لك فقلت عسى أن يعطى هذا من لا يبلى بلائى فجاءنى الرسول فقال «إنك سألتنى وليس لى وإنه قد صار لى وهو لك» فنزلت يسئلونك عن الأنفال الآية أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم فى جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد ولفظ مسلم فيه قال «أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة وإذا فيها سيف فأخذته فأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نفلنى هذا السيف فأنا من قد علمت حاله فقال رده من حيث أخذته فانطلقت به حتى أردت أن ألقيه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت أعطنيه قال فشد على صوته «رده من حيث أخذته فأنزل الله عز وجل » يسألونك عن الأنفال وقال بن عباس كانت المغانم الرسول ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شىء وما أصاب سرايا المسلمين من شىء أتوه به فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الأنفال» استفتاء يعنى يسألك أصحابك يا محمد عن حكم الأنفال وعلمها وهو سؤال استفتاء لا سؤال طلب وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال طلب وقوله عن الأنفال أى من الأنفال وعن بمعنى من وقيل عن صلة أى يسئلونك الأنفال والأنفال هى الغنائم فى قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأصله الزيادة سميت الغنائم أنفالا لأنها زيادة من الله عز وجل لهذه الأمة على الخصوص وأكثر المفسرين على أنها نزلت فى غنائم بدر وقال عطاء هى ما شذ عن المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو امرأة أو متاع فهو للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء (قل الأنفال لله والرسول)

الاية منسوخة بقوله عز وجل «واعلموا (٤) أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول» الآية كانت الغنائم يومئذ للنبي صلى الله عليه وسلم فنسخها الله عز وجل بالخمس وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم هي ثابتة غير منسوخة ومعنى الآية قل الأنفال لله مع الدنيا والآخرة والرسول يضعها حيث أمره الله تعالى أي الحكم فيها لله ورسوله وقد بين الله مصارفها في قوله عز وجل «واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه» الآية (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) أي اتقوا الله بطاعته وأصلحوا الحال بينكم بترك المنازعة والمخالفة وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين إنما المؤمنون) يقول ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) خافت وفرقت قلوبهم وقيل إذا خوفوا بالله انقادوا خوفا من عقابه (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) تصديقا ويقينا وقال عمير بن حبيب وكانت له صحبة إن للإيمان زيادة ونقصانا قيل فما زيادته؟ قال إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه فذلك زيادته ، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها استكمل الإيمان

أي قل لهم يا محمد إن الأنفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاء ا واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة والسدي هذه الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمس في قوله «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن الله خمسه وللرسول» الآية وقيل كانت الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها كيف شاء ولمن شاء ثم نسخها الله بالخمس وقال بعضهم هذه الآية ناسخة من وجه منسوخة من وجه وذلك أن الغنائم كانت حراما على الأمم الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم فأباحها الله لهذه الأمة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآيات الخمس وقال عبد الرحمن بن زيد إنها محكمة وهي إحدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا القول قل الأنفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله وقد بين الله مصارفها في قوله «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول» الآية وصح من حديث ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فغنمنا إبلا فأصاب كل واحد منا إثني عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا أخرجاه في الصحيحين فعلى هذا تكون الآية محكمة والامام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس (فاتقوا الله) يعني اتقوا الله بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة في الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) أي أصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة والمخالفة وبتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله (وأطيعوا الله ورسوله) فيما يأمرانكم به وينهيانكم عنه (إن كنتم مؤمنين) يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده قوله سبحانه وتعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) لما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله في الآية المتقدمة ثم قال بعد ذلك إن كنتم مؤمنين لأن الإيمان يستلزم الطاعة بين في هذه الآية صفات المؤمنين وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى «إنما المؤمنون» ولفظة إنما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خضعت وخافت ورقت قلوبهم وقيل إذا خوفوا بالله انقادوا خوفا من عقابه وقال أهل الحقائق الخوف على قسمين خوف عقاب وهو خوف العصاة وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص لأنهم يعلمون عظمة الله عز وجل فيخافونه أشد خوف وأما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته في ذكر الله . فان قلت إنه سبحانه وتعالى قال في هذه الآية وجلت قلوبهم بمعنى خافت وقال في آية أخرى تطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما ؟ قلت لا منافاة بين هاتين الحالتين لأن الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان إنما يكون من ثلج اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمعا في آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله والمعنى تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله ورجاء ثوابه وهذا حاصل في قلب المؤمنين ثم قال تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) يعني وإذا قرأت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقا قاله ابن عباس والمعنى أنه كلما جاءهم شيء من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك إيمانا وتصديقا لأن زيادة الإيمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الأول وهو الذي عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدي أن كل من كانت

الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد لأن عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد إيمانه. الوجه الثانى هو أنهم يصدقون بكل مايتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكليف صدّقوا به فيزدادون بذلك الإقرار تصديقا وإيمانا ومن المعلوم أن من صدق إنسانا فى شيئين كان أكبر ممن يصدقه فى شىء واحد فقوله تعالى «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا» معناه أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة فى إيمانهم واختلف الناس فى أن الإيمان هل يقبل الزيادة والنقص أم لا؟ فالذين قالوا إن الإيمان عبارة عن التصديق القلبى قالو لا يقبل الزيادة لإجماع أهل اللغة على أن الإيمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب وذلك لايقبل الزيادة ومن قال إن الإيمان عبارة عن مجموع أمور ثلاثة وهى التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح والأركان فقد استدل على ذلك بهذه الآية من وجهين أحدهما أن قوله زادتهم إيمانا صريح فى أن الإيمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة وإذا قبل زيادة فقد قبل النقص. الوجه الثانى أنه ذكر فى هذه الآية أوصافا متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك أولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على أن تلك الأوصاف داخلة فى مسمى الايمان وروى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» أخرجاه فى الصحيحين ففى هذا الحديث دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى وإذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقص قال عمير بن حبيب وكانت له صحبة إن للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته قال إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدى أن للايمان فرائض وشرائط وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. وقوله سبحانه وتعالى (وعلى ربهم يتوكلون) معناه يفوضون جميع أمورهم إليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه. واعلم أن المؤمن إذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهى درجة عالية ومرتبة شريفة لأن الإنسان يصير بحيث لايبقى له اعتماد فى شىء من أموره إلا على الله عز وجل واعلم أن هذه المراتب الثلاث أعنى الوجل عند ذكر الله وزيادة الإيمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يعنى يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها فى أوقاتها وينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الانفاق فيه ويدخل فيه النفقة فى الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الإنفاق فى أنواع البر والقربات ثم قال تعالى (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم المؤمنون حقا) يعنى يقينا لاشك فى إيمانهم قال ابن عباس برؤا من الكفر. وقال قتادة استحقوا الإيمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على أنه لايجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمنا حقا لأن الله سبحانه وتعالى إنما وصف بذلك أقواما مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لايتحقق وجود تلك الأوصاف فيه وهذا يتعلق بمسألة أصولية وهى أن العلماء اتفقوا على أنه يجوز للرجل أن يقول أنا مؤمن واختلفوا فى أنه هل يجوز له أن يقول أنا مؤمن حقا أم لا؟ فقال أصحاب الإمام أبى حنيفة الأولى أن يقول

ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان (وعلى ربهم يتوكلون) أى يفوضون إليه أمورهم ويثقون به ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا) يعنى يقينا قال ابن عباس برئوا من الكفر قال مقاتل حقا لا شك فى إيمانهم وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمنا حقا لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قوما مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه وقال ابن أبى نجيح سأل رجل الحسن فقال أمؤمن أنت؟

أنا مؤمن حقا ولايجوز أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين: الأول أن المتحرك لايجوز أن يقول أنامتحرك إن شاء الله وكذا القول فى القائم والقاعدفكذلك هذه المسألة يجب فيها أن يكون المؤمن مؤمناحقا ولايجوز أن يقول أنا مؤمن إن شاءالله. الوجه الثانى أنه سبحانه وتعالى قال «أولئك هم المؤمنون حقا» فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا وفى قوله أنا مؤمن إن شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لايجوز وقال أصحاب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه الأولى أن يقول الرجل أنامؤمن إن شاءالله واحتجوا لصحة هذاالقول بوجوه الأول أن الايمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والإقرار والعمل وكون الإنسان آتيا بالاعمال الصالحة المقبولة أمر مشكوك فيه والشك فى أحد أجزاء الماهية يوجب الشك فى الماهية فيجب أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله وإن كان اعتقاده وإقراره صحيحا وعند أصحاب أبى حنيفة أن الإيمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الإيمان فلم يلزم حصول الشك. الوجه الثانى أن قولنا أنامؤمن إن شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن إذاقال الرجل أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال إن شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار. روى أن أبا حنيفة قال لقتادة لم استثنيت فى إيمانك فقال قتادة اتباعا لإبراهيم عليه السلام فى قوله «والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين» فقال أبو حنيفة هلا اقتديت به فى قوله أولم تؤمن؟ قال بلى فانقطع قتادة قال بعضهم كان لقتادة أن يقول إن إبراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبى فطلب مزيد الطمأنينة. الوجه الثالث أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى أول الآية إنما المؤمنون ولفظة إنما تفيد الحصر يعنى إنما المؤمنون الذين هم كذا وكذا وذكر بعد ذلك أوصافا خمسة وهى الخوف من الله والإخلاص لله والتوكل على الله والإتيان بالصلاة كما أمر الله سبحانه وتعالى وإيتاء الزكاة كذلك ثم بعد ذلك قال أولئك هم المؤمنون حقا يعنى أن من أتى بجميع هذه الأوصاف كان مؤمنا حقا ولايمكن لأحد أن يقطع بحصول هذه الصفات له فكان الأولى له أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله وقال ابن أبى نجيح سأل رجل الحسن فقال أمؤمن أنت؟ فقال الحسن إن كنت سألتنى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن وإن كنت سألتنى عن قوله إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدرى أنا منهم أم لا وقال علقمة كنا فى سفر فلقينا قوم فقلنا من القوم؟ فقالوا نحن المؤمنون حقا فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا قال فارددتم عليهم قلنا لم نرد عليهم شيئا قال هلا قلتم لهم أمن أهل الجنة أنتم إن المؤمنين هم أهل الجنة؟ وقال سفيان الثورى من زعم أنه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد أنه فى الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف الآخر. الوجه الرابع أن قولنا أنا مؤمن إن شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله ﷺ «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» مع العلم القطعى أنه لاحق بأهل القبور. الوجه الخامس أن المؤمن لايكون مؤمنا حقا إلا إذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لايحصل إلا عند الموت فلهذا السبب حسن أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله فالمراد صرف هذا الاستثناء إلى الخاتمة وأجاب أصحاب هذا القول وهم أصحاب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنهم عن استدلال أصحاب أبى حنيفة رضى الله تعالى عنهم بقولهم إن المتحرك لايجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله بأن الفرق بين وصف الإنسان بكونه مؤمنا وبين وصفه بكونه متحركا أن الايمان يتوقف حاله

فقال إن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن وإن كنت تسألنى عن قوله «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» الآية فلا أدرى منهم أنا أم لا؟ وقال علقمة كنا فى سفر فلقينا قوما فقلنا من القوم؟ قالوا نحن المؤمنون حقا فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبد الله ابن مسعود فأخبرناه بما قالوا قال فما رددتم عليهم قلنا لم نرد عليهم شيئا قال أفلا قلتم أمن أهل الجنة أنتم؟ إن المؤمنين أهل الجنة وقال سفيان الثورى من زعم أنه

مؤمن حقا أو عند الله تم لم يشهد أنه فى الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف (لهم درجات عند ربهم) قال عطاء يعنى درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم وقال الربيع بن أنس سبعون درجة مابين كل درجتين حضر الفرس المضمر سبعين خريفا (ومغفرة) لذنوبهم (ورزق كريم) حسن يعنى ما أعد لهم فى الجنة قوله تعالى (كما أخرجك (٧) ربك من بيتك بالحق) اختلفوا فى الجالب لهذه الكاف التى فى قوله كما أخرجك ربك قال المبرد تقديره الأنفال لله والرسول وإن كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا وقيل تقديره امض لأمر الله فى الأنفال وإن كرهوا كما أمضيت لأمر الله فى الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون وقال عكرمة معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد ﷺ من بيته بالحق خير لكم وإن كرهه فريق منكم وقال مجاهد معناه كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل هو راجع إلى قوله «لهم درجات عند ربهم» تقديره وعد الدرجات لهم حق حتى ينجزه الله عز وجل كما أخرجك ربك من بيتك بالحق فأنجز الوعد بالنصر والظفر. وقيل الكاف بمعنى على تقديره امض على الذى أخرجك ربك وقال أبو عبيدة هى بمعنى القسم مجازها والذى أخرجك لأن ما فى موضع الذى وجوابه يجادلونك وعليه يقع القسم تقديره يجادلونك والله الذى أخرجك ربك من بيتك بالحق وقيل الكاف بمعنى إذ تقديره واذكر إذ أخرجك ربك وقيل المراد بهذا الإخراج هو إخراجه من مكة إلى المدينة والأكثرون على أن المراد منه إخراجه من المدينة إلى بدر أى كما أمرك ربك بالخروج من بيتك المدينة بالحق قيل بالوحى لطلب المشركين (وإن فريقا من المؤمنين) منهم (لكارهون يجادلونك فى الحق)

على الخاتمة والحركة فعل يقينى فحصل الفرق بينهما والجواب عن الوجه الثانى وهو قولهم أنه سبحانه وتعالى قال «أولئك هم المؤمنون حقا» فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقا انه تعالى حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة فى الآية بكونهم مؤمنين حقا إذا أتوا بتلك الأوصاف الخمسة ولا يقدر أحد أن يأتى بتلك الأوصاف على الحقيقة ونحن نقول أيضا إن من أتى بتلك الأوصاف على الحقيقة كان مؤمنا حقا ولكن لا يقدر على ذلك أحد والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. وقوله تعالى (لهم درجات عند ربهم) يعنى لهم مراتب بعضها أعلى من بعض لأن المؤمنين تتفاوت أحوالهم فى الأخذ بتلك الأوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم فى الجنة لأن درجات الجنة على قدر الأعمال قال عطاء درجات الجنة يرتقون فيها بأعمالهم وقال الربيع بن أنس درجات الجنة سبعون درجة مابين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة مائة درجة مابين كل درجتين مائة عام» أخرجه الترمذى وله عن أبى سعيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن فى الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا فى إحداهن لوسعتهم» (ومغفرة) يعنى ولهم مغفرة لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى ما أعد لهم فى الجنة وصفه بكونه كريما لأن منافعه حاصلة لهم دائمة عليهم مقرونة بالإكرام والتعظيم. قوله سبحانه وتعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) اختلفوا فى الجالب لهذه الكاف ما هو؟ فقال المبرد تقديره قل الأنفال لله والرسول وإن كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا وقيل معناه امض لأمر ربك فى الأنفال وإن كرهوا كما مضيت لأمر ربك فى الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون وقيل معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد ﷺ من بيته بالحق هو خير لكم وإن كرهه فريق منكم وقيل هو راجع لقوله سبحانه وتعالى لهم درجات عند ربهم تقديره وعد الله المؤمنين بالدرجات حق حتى ينجزه الله تعالى كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وأنجز الوعد بالنصر والظفر وقيل هى متعلقة بما بعدها تقديره كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على أى امض على الذى أخرجك ربك من بيتك بالحق فانه حق وقيل الكاف بمعنى القسم تقديره والذى أخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك فى الحق وقيل الكاف بمعنى إذ تقديره واذكر يامحمد إذ أخرجك ربك من بيتك بالحق قيل المراد بهذا الإخراج إخراجه من مكة إلى المدينة للهجرة وقال جمهور المفسرين المراد بهذا الإخراج هو خروجه من المدينة إلى بدر ومعناه كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعنى بالوحى لطلب المشركين (وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) يعنى للقتال وإنما كرهوه لقلة عددهم وقلة سلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم (يجادلونك فى الحق) وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وإنما خرجنا

أى فى القتال (بعدما تبين) وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير فذلك جدالهم بعد ما تبين لهم أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله وتبين صدقك فى الوعد (كأنما يساقون إلى الموت) لشدة كراهيتهم القتال (وهم ينظرون) (٨) فيه تقديم وتأخير تقديره وإن فريقا من المؤمنين لكارهون كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون يجادلونك فى الحق بعد ما تبين قال ابن زيد هؤلاء المشركون جادلوه فى الحق كأنما يساقون إلى الموت ، حين يدعون إلى الإسلام لكراهيتهم إياه وهم ينظرون قوله تعالى (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) قال ابن عباس وابن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدى أقبل أبوسفيان من الشام فى عير لقريش فى أربعين راكبا من كبار قريش فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى وفيها تجارة كثيرة وهى اللطيمة حتى إذا كانوا قريبا من بدر فبلغ النبى ﷺ ذلك ، فندب أصحابه إليه وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدد وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله تعالى أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا فلما سمع أبوسفيان بمسير النبى صلى الله عليه وسلم استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لعيرهم فى أصحابه فخرج ضمضم سريعا إلى مكة وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث

فسيكون

لطلب العير فذلك جدالهم (بعد ما تبين) يعنى تبين لهم أنك لا تصنع شيئا إلا بأمر ربك وتبين لهم صدقك فى الوعد (كأنما يساقون إلى الموت) يعنى لشدة كراهتهم القتال (وهم ينظرون) يعنى إلى الموت شبه حالهم فى فرط فزعهم بحال من يجر إلى القتل ويساق إلى الموت وهو ينظر إليه ويعلم أنه آتيه . قوله عز وجل (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين) يعنى الفرقتين فرقة أبى سفيان مع العير وفرقة أبى جهل مع النفير (أنها لكم) يعنى إحدى الفرقتين لكم قال ابن عباس وعروة بن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدى أقبل أبو سفيان بن حرب من الشام فى عير قريش فى أربعين راكبا من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى ومعهم تجارة كبيرة وهى اللطيمة يريد باللطيمة الجمال التى تحمل العطر والبز غير الميرة حتى إذا كانوا قريبا من بدر بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبرهم فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو وقال هذه هى عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا فلما سمع أبوسفيان بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتى قريشا يستنفرهم ويخبرهم أن محمدا فى أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعا إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى وخشيت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فقال لها وما رأيت؟ قالت رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم فى ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم فى ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا ودخلها منها فلقة فقال العباس والله إن هذه لرؤيا فظيعة فاكتميها ولا تذكريها لأحد ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة وكان صديقا للعباس فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش بمكة قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة فغدوت أطوف فلما رآنى أبو جهل قال يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا قال العباس فلما فرغت من طوافى أقبلت إليهم حتى جلست معهم فقال لى أبوجهل يابنى عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت وماذاك؟ قال الرؤيا التى رأت عاتكة قلت وما رأت قال يابنى عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال انفروا فى ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك ما قالت حقا

ليال رؤيا أفزعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له ياأخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى وخشيت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم على ماأحدثك قال لها وما رأيت قالت رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبيناهم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها بأعلى صوته ألا انفروا ياآل غدر لمصارعكم فى ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلتها منها فلقة فقال العباس والله إن هذه لرؤيا رأيت فاكتميها ولا تذكريها لأحد ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان له صديقا فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رآنى أبو جهل قال ياأبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا قال فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم فقال لى أبو جهل يابنى عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت وما ذاك قال الرؤيا التى رأت عاتكة قلت وما رأت قال يابنى عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال

فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابا بأنكم أكذب أهل بيت فى العرب قال العباس فو الله ما كان منى إليه من كبير شىء إلا أنى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئا ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع ولم يكن عندك غيرة لشىء مما سمعت قال قلت قد والله فعلت ما كان منى إليه من شىء وايم الله لأتعرضن له فان عاد لا كفيكنه قال فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أنى قد فاتنى شىء أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله إنى لأمر نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فأقع به وكان أبو جهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر إذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال العباس فقلت فى نفسى ماله لعنه الله أكل هذا فرقا منى أن أشاتمه قال فاذا هو قد سمع مالم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة هذه أموالكم مع أبى سفيان وقد عرض لها محمد فى أصحابه ولا أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلنى عنه وشغله عنى ماجاء من الأمر قال فتجهز الناس سراعا ولم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر بن عبد مناة ابن كنانة من الحرب فقالوا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بنى بكر فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه فخرجت قريش سراعا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ واديا يقال له ذا قرد فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا له من جهينة حليفا للأنصار يدعى أريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وقال إن الله وعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم إما العير وإما قريش وكانت العير أحب إليهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فى طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال واحسن وقام عمر فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله مانقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعنى مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس وإنما يريد الأنصار وذلك لأنهم عدد الناس وأنهم حين

انفروا فى ثلاث فستربص بكم هذه الثلاث فان يك ماقالت حقا فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا إنكم أكذب أهل بيت فى العرب فقال العباس والله ما كان منى إليه كبير إلا أنى جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون رأت شيئا ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى فقالت أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ثم لم تكن عندك غيرة لشيء مما سمعت قال قلت والله قد فعلت ما كان منى إليه من كبير وأيم الله لأتعرضن له فان عاد لأكفيكنه قال فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أن قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فأقع به وكان رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر إذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال قلت فى نفسى ماله لعنه الله أكل هذا فرقا منى أن أشاتمه قال فاذا (١٠) هو قد سمع مالم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وقد جدع أنف بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ولا أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلنى عنه وشغله عنى ما جاء به من الأمر فتجهز الناس سراعا فلم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص ابن هشام بن المغيرة ، فلما اجتمعت قريش المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر بن عبد مناف بن كنانة بن الحارث فقالوا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم مع فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بنى بكر فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فخرجوا سراعا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه فى ليال مضت من شهر رمضان حتى إذا بلغ واديا يقال له ذا قرد فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فأخبره بهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا عينا له من جهينة حليفا للأنصار يدعى عبد الله بن أريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل وقال إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشا وكانت العير أحب إليهم فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال فأحسن ثم قام عمر فقال فأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله إمض لما أراك الله فنحن معك والله مانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك

بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فاذا وصلت إلينا فأنت فى زمامنا فنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لاتكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسيروا معه إلى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد ابن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك مايتخلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وعدوك إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله عز وجل أن يريك منا ماتقربه عينك فسر بنا على بركة الله تعالى فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك فقال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله عز وجل قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم (م) عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا إن شاء تعالى قال عمر فو الذى بعثه بالحق ماأخطئوا الحدود التى حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال يافلان ابن فلان ويافلان ابن فلان هل وجدتم ماوعدكم الله ورسوله حقا فانى قد وجدت ماوعدنى الله حقا فقال عمر يارسول الله كيف تكلم أجسادا لاأرواح فيها فقال ماأنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لايستطيعون أن يردوا على شيئا، فذلك قوله سبحانه وتعالى وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم يعنى طائفة أبى سفيان مع العير وطائفة أبى جهل

فقالا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعنى مدينة الحبشة فجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فاذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع به أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لاتكون الأنصار ترى عليهم نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال أجل قال فانا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئتنا به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا

(١١)

لصبر عند الحرب صدق فى اللقاء ولعل الله تعالى يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا يارسول الله على بركة الله فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك قال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم قال ثابت عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان قال ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا قال فما ماط أحد عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فذلك قوله تعالى وإذ يعدكم الله إحدى

مع النفير (وتودون) أى وتريدون وتتمنون (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) والمعنى وتتمنون أن العير التى ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة والقوة ويقال السلاح (ويريد الله أن يحق الحق) أى يظهر الحق ويعليه (بكلماته) يعنى بأمره إياكم بالقتال وقيل بعداته التى سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازه (ويقطع دابر الكافرين) أى ويستأصلهم حتى لايبقى منهم أحد (ليحق الحق) يعنى ليثبت الإسلام (ويبطل الباطل) يعنى وينفى الكفر (ولو كره المجرمون) يعنى المشركين وفى الآية سؤالان الأول أن قوله ويريد الله أن يحق الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فما معناه؟. والجواب أنه ليس فيه تكرير لأن المراد بالأول تثبيت ماوعد فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء والمراد بالثانى تقوية القرآن والدين وإظهار منار الشريعة لأن الذى وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان سببا لاعزاز الدين وقوته ولهذا السبب قرنه بقوله ويبطل الباطل يعنى الذى هو الشرك. السؤال الثانى الحق حق لذاته والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل . والجواب أن المراد من تحقيق الحق إظهار كون ذلك الحق حقا والمراد من إبطال ذلك الباطل إظهار كون ذلك الباطل باطلا وذلك باظهار دلائل الحق وتقويته وقمع رؤساء الباطل وقهرهم . قوله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم) أى واذكر يامحمد إذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفى المستغيثين قولان أحدهما أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه قاله الزهرى والقول الثانى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثنى عمر بن الخطاب قال « لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مديده فجعل يهتف بربه يقول اللهم أنجز لى ماوعدتنى اللهم آتنى ماوعدتنى اللهم إن تهلك

الطائفتين أنها لكم ، أى الفريقين إحداهما أبو سفيان مع العير والأخرى أبوجهل مع النفير (وتودون) أى تريدون (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) يعنى العير التى ليس فيها قتال والشوكة الشدة والقوة ويقال السلاح (ويريد الله أن يحق الحق) أى يظهره ويعليه (بكلماته) بأمره إياكم بالقتال وقيل بعداته التى سبقت من إظهاره الدين وإعزازه (ويقطع دابر الكافرين) أى يستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد يعنى كفار العرب (ليحق الحق) ليثبت الإسلام (ويبطل الباطل) أى يفنى الكفر (ولو كره المجرمون) المشركون وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة ليلة من شهر رمضان قوله تعالى (إذ تستغيثون ربكم) تستجيرون به من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر روى عن ابن عباس قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلا دخل العريش هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه واستقبل القبلة ومد يديه فجعل يهتف بربه عز وجل اللهم انجز لى ماوعدتنى اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض فما زال يهتف بربه عز وجل مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يانبى

الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك فأنزل الله عز وجل إذ تستغيثون ربكم (فاستجاب لكم أنى ممدكم) مرسل إليكم مددا وردءا لكم (بألف من الملائكة مردفين) قرأ أهل المدينة ويعقوب مردفين بفتح الدال أى أردف الله المسلمين وجاء بهم مددا وقرأ الآخرون بكسر الدال أى متتابعين بعضهم فى أثر بعض يقال أردفته وردفته بمعنى تبعته يروى أنه

(١٢)

نزل جبريل فى خمسمائة وميكائيل فى خمسمائة فى صورة الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعلى رءوسهم عمائم بيض قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم وروى أن النبى ﷺ لما ناشد ربه عز وجل وقال أبو بكر إن الله منجز لك ماوعدك خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع. أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى ثنا عبد الوهاب ثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر «هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب» وقال عبدالله ابن عباس كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى يوم بدر من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه عددا ومددا وروى عن أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرا أنه قال بعد ماذهب بصره لو كنت معكم اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة قوله تعالى (وما جعله الله) يعنى الإمداد بالملائكة (إلا بشرى) أى بشارة (ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم

هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض فما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك فأنزل الله عز وجل إذ تستغيثون ربكم (فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمده الله بالملائكة قال سماك فحدثنى ابن عباس قال بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيا فنظر إليه فاذا قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السيف فأحصى ذلك أجمع وجاء فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم يعنى فأجاب دعاءكم أنى ممدكم أصله بأنى ممدكم أى مرسل إليكم مددا وردءا لكم بألف من الملائكة مردفين يعنى يردف بعضهم بعضا بمعنى يتبع بعضهم بعضا روى أنه نزل جبريل عليه السلام فى خمسمائة وميكائيل عليه السلام فى خمسمائة فى صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوها بين أكتافهم وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ناشد ربه وقال أبو بكر إن الله سينجز لك ما وعدك خفق رسول صلى الله عليه وسلم خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ) عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب» يعنى آلة الحرب قال ابن عباس كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى يوم بدر من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه عددا ومددا وروى عن أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرا أنه قال بعد ماذهب بصره لو كنت معكم اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة وقد تقدم الكلام فى سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة أم لا والصحيح أنهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس فى الذى ضرب بالسوط فحطم أنفه وشق وجهه وكانوا فيما سوى يوم بدر مددا وعونا قيل أنهم لم يقاتلوا وإنما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبتوهم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما جعله الله إلا بشرى) يعنى وماجعل الله الإرداف بالملائكة إلا بشرى (ولتطمئن به قلوبكم) وهذا يحقق أنهم إنما نزلوا لذلك لاللقتال والصحيح هو الأول وأنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الأيام. وقوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله) يعنى أن الله هو ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولاتتكلوا على قوتكم وشدة بأسكم وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد المسلم أن لايتوكل إلا على الله تعالى فى جميع أحواله ولايثق بغيره فان الله تعالى بيده النصر والإعانة (إن الله عزيز) يعنى أنه تعالى قوى منيع لايقهره شىء ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شىء ويغلبه (حكيم) يعنى فى تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء

من

إذ يغشيكم النعاس) قرأ ابن كثير وأبو عمرو يغشاكم بفتح الياء النعاس رفع على أن الفعل له ، لقوله تعالى فى سورة آل عمران أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وقرأ أهل المدينة يغشيكم بضم الياء وكسر الشين خفيف النعاس نصب لقوله تعالى كأنما أغشيت وجوههم وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الشين مشدد النعاس نصب (١٣) على أن الفعل لله عز وجل لقوله تعالى فغشاها ما غشى والنعاس النوم الخفيف (أمنة) أمنا (منه) مصدر أمنت أمنا وأمنة وأمانا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه النعاس فى القتال أمنة من الله وفى الصلاة من الشيطان (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون إلى ماء بدر وأصبح المسلمون بعضهم محدثين وبعضهم مجنبين وأصابهم الظمأ ووسوس إليهم الشيطان وقال تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله وأنكم أولياء الله ، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا عليهم فأرسل الله عز وجل عليهم مطرا سال منه الوادى فشرب المؤمنون واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب وملئوا الأسقية وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم فذلك قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به من الأحداث والجنابة (ويذهب عنكم رجز الشيطان) ووسوسته (وليربط على قلوبكم) باليقين والصبر (ويثبت به الأقدام) حتى لا تسوخ فى الرمل بتلبيد الأرض وقيل يثبت به الأقدام بالصبر وقوة القلب (إذ يوحى ربك إلى الملائكة) الذين أمد بهم المؤمنين (أنى معكم) بالعون والنصرة (فثبتوا الذين آمنوا) أى قووا قلوبهم قيل ذلك التثبيت حضورهم معهم القتال ومعونتهم أى ثبتوهم

من عباده . قوله سبحانه وتعالى (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) أى واذكروا إذ يلقى عليكم النعاس وهو النوم الخفيف أمنة منه أى أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم قال عبد الله ابن مسعود النعاس فى القتال أمنة من الله وفى الصلاة من الشيطان والفائدة فى كون النعاس أمنة فى القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الأمن وإزالة الخوف وقيل إنهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعددهم وعطشوا عطشا شديدا ألقى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذلك النوم نعمة فى حقهم لأنه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل فى كون هذا النوم كان أمنة من الله أنه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل إن ذلك النعاس كان فى حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة وقوله سبحانه وتعالى (وينزل عليكم من السماء ماء) يعنى المطر (ليطهركم به) وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم فأنزل الله سبحانه وتعالى مطرا سال منه الوادى فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب وملئوا الأسقية وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر فذلك قوله سبحانه وتعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به يعنى من الأحداث والجنابة (ويذهب عنكم رجز الشيطان) يعنى وسوسته التى ألقاها فى قلوبكم (وليربط على قلوبكم) يعنى بالنصر واليقين والربط فى اللغة الشد وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدى ويشبه أن تكون لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما أوقع فيها من اليقين وقيل أن لفظة على ليست بصلة لأنها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها (ويثبت به الأقدام) يعنى أن ذلك المطر لبد الأرض وقوى الرمل حتى تثبتت عليه الأقدام وحوافر الدواب وقيل المراد به تثبت الأقدام بالصبر وقوة القلب لأن من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عند اللقاء . وقوله سبحانه وتعالى (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم) يعنى أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى الملائكة الذين أمد بهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنى معكم بالنصر والمعونة (فثبتوا الذين آمنوا) أى قووا قلوبهم واختلفوا فى كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كما أن للشيطان قوة فى إلقاء الوسوسة

بقتالكم معهم المشركين وقال مقاتل أي بشروهم بالنصر وكان الملك يمشى أمام الصف فى صورة الرجل ويقول أبشروا فان الله ناصركم (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) قال عطاء يريد الخوف من أوليائى (فاضربوا فوق الأعناق) قيل هذا خطاب مع المؤمنين وقيل هذا خطاب مع الملائكة وهو متصل بقوله فثبتوا الذين آمنوا وقوله فوق الأعناق قال عكرمة يعنى الرءوس لأنها فوق الأعناق وقال الضحاك معناه فاضربوا الأعناق وفوق صلة كما قال تعالى «فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب» وقيل معناه فاضربوا على الأعناق فوق بمعنى على (واضربوا منهم كل بنان) قال عطية: يعنى كل مفصل وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك يعنى الأطراف والبنان جمع بنانة وهى أطراف أصابع اليدين والرجلين. قال ابن الأنبارى ما كانت الملائكة تعلم كيف يقتل الآدميون فعلمهم الله عز وجل. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجانى أنا عبد الغافر بن محمد الفارسى أنا محمد (١٤) بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا زهير ابن حرب ثنا عمرو بن يونس الحنفى ثنا عكرمة ابن عمار ثنا أبو زميل هو سماك الحنفى ثنا عبد الله بن عباس قال بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيا فنظر إليه فاذا هو قد حطم أنفه وشق وجهه لضربة السوط فأحضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث رسول الله ﷺ فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وروى عن أبى داود المازنى وكان شهد بدرا قال إنى لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى فعرفت أنه قد قتله غيرى وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف وقال عكرمة قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت غلاما للعباس ابن عبد المطلب رضى الله عنه وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر كبته الله وأخزاه ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا وكنت رجلا ضعيفا وكنت أعمل القداح وأنحتها فى حجرة زمزم فوالله إنى لجالس أنحت القداح وعندى أم الفضل جالسة إذ أقبل

فى قلب ابن آدم بالشر فكذلك للملك قوة فى إلقاء الإلهام فى قلب ابن آدم بالخير ويسمى ما يلقى الشيطان وسوسة وما يلقى الملك لمة وإلهاما فهذا هو التثبيت وقيل إن ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أى ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين وقيل معناه بشروهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشى فى صورة رجل أمام الصف ويقول أبشروا فان الله ناصركم عليهم (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) يعنى الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب والخوف فى قلوب الكافرين (فاضربوا فوق الأعناق) قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعا عما قبله وقيل هو خطاب مع الملائكة فيكون متصلا بما قبله قال ابن الأنبارى ما كانت الملائكة تعرف تقتل بنى آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الأعناق قال عكرمة يعنى الرءوس لأنها فوق الأعناق وقال الضحاك معناه فاضربوا الأعناق وفوق صلة وقيل معناه فاضربوا على الأعناق فتكون فوق بمعنى على (واضربوا منهم كل بنان) يعنى كل مفصل وقال ابن عباس يعنى الأطراف وهى جمع بنانة وهى أطراف أصابع اليدين سميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التى يمكن الإنسان أن يبين ما يريد أن يعمله بيديه وإنما خصت بالذكر من دون سائر الأطراف لأجل أن الإنسان بها يقاتل وبها يمسك السلاح فى الحرب وقيل إنه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسد وهو الرأس وهو أشرف الأعضاء وبضرب البنان وهو أضعف الأعضاء فيدخل فى ذلك كل عضو فى الجسد وقيل أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الإنسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الإنسان عن الحرب لأن بالبنان يتمكن من مساك السلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله روى عن أبى داود المازنى وكان شهد بدرا قال إنى لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى فعرفت أنه قد قتله غيرى وعن سهل بن حنيف قال لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف وروى عكرمة

الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهرى فبينا هو جالس إذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب إلى ياابن أخى فعندك الخبر فجلس إليه والناس قيام عليه قال ياابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس قال لاشىء والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاءوا وأيم الله مع ذلك مالمت الناس لقينا رجالا بيضا على خيل بلق (١٥) بين السماء والأرض لا والله ما تليق شيئا ولا يقوم لها شىء قال أبو رافع فرفعت طنب الحجرة بيدى ثم قلت تلك والله الملائكة قال فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة فساورته فاحتملنى فضرب بى الأرض ثم برك على يضربنى وكنت رجلا ضعيفا فقامت أم الفضل إلى عمود من عمود الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلقت فى رأسه شجة منكرة وقالت تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام موليا ذليلا فوالله ماعاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته وروى مقسم عن ابن عباس قال كان الذى أسر العباس أبا اليسر كعب بن عمرو أخا بنى سلمة وكان أبو اليسر رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى اليسر «كيف أسرت العباس» قال يا رسول الله لقد أعاننى عليه رجل مارأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله ﷺ لقد أعانك عليه ملك كريم» (ذلك بأنهم شاقوا الله) خالفوا الله (ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ذلكم) أى هذا العذاب والضرب الذى عجلته لكم أيها الكفار ببدر (فذوقوه) عاجلا (وأن للكافرين) أى واعلموا وأيقنوا أن للكافرين أجلا فى المعاد (عذاب النار) روى عكرمة عن ابن عباس قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها

عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الإسلام قد دخل علينا أهل البيت فأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاء الخبر عن مقتل أصحاب بدر كبته الله وأخزاه ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا قال أبو رافع وكنت رجلا ضعيفا أعمل القداح وأنحتها فى حجرة زمزم فوالله إنى لجالس أنحت القداح وعندى أم الفضل جالسة إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهرى فبينما هو جالس إذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب إلى يا ابن أخى فعندك الخبر اليقين فجلس إليه والناس قيام عليه فقال أبو لهب يا ابن أخى خبرنى كيف كانت أحوال الناس قال لاشىء والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاءوا وأيم الله مالمت الناس لقينا رجالا بيضاء على خيل بلق بين السماء والأرض والله لايتلقاهم شىء ولا يقوم لهم شىء قال أبو رافع فرفعت طرف الحجرة بيدى وقلت تلك والله الملائكة فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة فساورته فاحتملنى فضرب بى الأرض ثم برك على صدرى وكنت رجلا ضعيفا فقامت إليه أم الفضل بعمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة ففلقت رأسه شجة منكرة وقالت تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام موليا ذليلا فوالله ماعاش إلا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتلته وروى مقسم عن ابن عباس قال كان الذى أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بنى سلمة وكان أبو اليسر رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى اليسر كيف أسرت العباس قال يارسول الله لقد أعاننى عليه رجل مارأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أعانك عليه ملك كريم وكانت وقعة بدر فى صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة النبوية. وقوله سبحانه وتعالى (ذلك) يعنى الذى وقع من القتل والأسر يوم بدر (بأنهم شاقوا الله ورسوله) يعنى أنهم خالفوا الله ورسوله والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كأنهم صاروا فى شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون أوشاقوا دين الله ثم قال سبحانه وتعالى (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) يعنى أن الذى نزل بهم فى ذلك اليوم من القتل والأسر شىء قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة ثم قال تعالى (ذلكم) إشارة إلى القتل والأسر الذى نزل بهم (فذوقوه) يعنى عاجلا فى الدنيا لأن ذلك يسير بالإضافة إلى المؤجل الذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب وهو قوله (وأن للكافرين عذاب النار) يعنى فى الآخرة عن ابن عباس قال لما

شيء فناداه العباس وهو أسير فى وثاقه لا يصلح لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له قال : لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ماوعدك قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) أى مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض والتزاحف التدانى فى القتال ، والزحف مصدر ولذلك لم يجمع كقولهم قوم عدل ورضا . قال الليث الزحف جماعة يزحفون إلى عدو لهم بمرة فهم الزحف والجمع الزحوف (فلا تولوهم الأدبار) يقول فلا تولوهم ظهوركم أى لا تنهزموا فان المنهزم يولى دبره (ومن يولهم يومئذ دبره) (١٦) ظهره (إلا متحرفا لقتال) أى منعطفا يرى من نفسه الانهزام وقصده طلب الغرة ، وهو يريد الكرة (أو متحيزا إلى فئة) أى منضما صائرا إلى جماعة من المؤمنين يريد العود إلى القتال ومعنى الآية النهى عن الانهزام من الكفار والتولى عنهم إلا على نية التحرف للقتال والانضمام إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم ويعود إلى القتال فمن ولى ظهره لا على هذه النية لحقه الوعيد كما قال تعالى (فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) اختلف العلماء فى هذه الآية فقال أبو سعيد الخدرى هذا فى أهل بدر خاصة ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم ، ولم يكن لهم فئة يتحيزون إليها دون النبى صلى الله عليه وسلم ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين فأما بعد ذلك فان المسلمين بعضهم فئة لبعض فيكون الفار متحيزا إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهو قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبى حبيب أوجب الله النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، وقال عبد الله كنا فى جيش بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يارسول الله نحن الفرارون قال بل أنتم الكرارون إنا فئة المسلمين وقال محمد بن سيرين

فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر قيل له عليك بالعير ليس من دونها شيء قال فناداه العباس من وثاقه لا يصلح لك لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ماوعدك قال صدقت أخرجه الترمذى وقال حديث حسن . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) يعنى مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض والتزاحف التدانى فى القتال وأصل الزحف مشى مع جر الرجل كانبعاث الصبى قبل أن يمشى وسمى مشى الطائفتين بعضهم إلى بعض فى القتال زحفا لأنها تمشى كل طائفة إلى صاحبتها مشيا رويدا وذلك قبل التدانى للقتال وقال ثعلب الزحف المشى قليلا قليلا إلى الشيء (فلا تولوهم الأدبار) يعنى فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فان المنهزم يولى ظهره ودبره (ومن يولهم يومئذ دبره) يعنى ومن ينهزم ويول دبره يوم الحرب والقتال (إلا متحرفا لقتال) يعنى إلا منقطعا إلى القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة على العدو والعود إليه وهذا هو أحد أبواب الحرب وخدعها ومكايدها . وقوله تعالى (أو متحيزا إلى فئة) يعنى أو منضما وصائرا إلى جماعة من المؤمنين يريدون العود إلى القتال (فقد باء بغضب من الله) يعنى من انهزم من المسلمين وقت الحرب إلا فى هاتين الحالتين وهى التحرف للقتال والتحيز إلى فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله (ومأواه جهنم وبئس المصير) .

فصل فى حكم هذه الآية

اختلف العلماء فى ذلك فقال أبو سعيد الخدرى هذا فى أهل بدر خاصة لأنه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لأن النبى ﷺ كان معهم ولم تكن لهم فئة يتحيزون إليها دون النبى صلى الله عليه وسلم ولو انحازوا انحازوا إلى المشركين ولأنها أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم أمر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر فأما بعد ذلك اليوم فان المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزا إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبى حبيب أوجب الله النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أحد قال الله تعالى إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى «ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء» وقال عبد الله بن عمر كنا فى جيش بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يارسول الله نحن الفرارون قال لا بل أنتم الكرارون إنا فئة المسلمين قوله فحاص الناس حيصة يعنى جال الناس جولة يطلبون الفرار من العدو

والمحيص

والمحيص الهرب وقال محمد بن سيرين لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر بن الخطاب فقال لو انحاز إلى كنت له فئة أنا فئة كل مسلم. وقال بعضهم حكم الآية عام في حق كل من ظهره منهزما بدليل قوله «يا أيها الذين آمنوا» وهذا خطاب عام فيتناول جميع الصور وإن كانت الآية نزلت في غزاة بدر لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء في الحديث «من الكبائر الفرار من الزحف» وقال عطاء بن أبي رباح هذه الآية منسوخة بقوله تعالى «الآن خفف الله عنكم» فليس لقوم أن يفروا من مثلهم فنسخت بذلك إلا في هذه العدة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وإن كان العدو أكثر من المثلين جاز لهم أن يفروا منهم قال ابن عباس من فر من ثلاثة لم يفر ومن فر من اثنين فقد فر قوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) قال مجاهد سبب نزول هذه الآية أنهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا فنزلت هذه الآية والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم يعني بنصره إياكم وتقويتكم عليهم وقيل معناه ولكن الله قتلهم بامداده إياكم بالملائكة. قال الزمخشري الفاء في قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره وإن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال أهل التفسير والمغازي لما ندب رسول الله ﷺ أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاص بن سعد فأخذوهما وأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أين قريش قالا هم وراء الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال رسول الله ﷺ كم القوم قالا كثير قال ما عددهم قالا لا ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة إلى ألف ثم قال لهما من فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحرث بن عامر وطعمة بن عدي والنضر بن الحرث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله ﷺ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو الكثيب الرمل جاء إلى الوادي فقال «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني فأتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال شاهت الوجوه» يعني قبحت الوجوه فلم يبق مشرك إلا ودخل في عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم وقال «شاهت الوجوه» فانهزموا فذلك قوله عز وجل «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفا من الحصى في وجوه جيش فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها من ذلك شيء فصورة الرمي صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عز وجل فلهذا المعنى صح النفي والإثبات وقيل في معنى

الآية عام في حق كل من ولى منهزما جاء في الحديث «من الكبائر الفرار من الزحف» وقال عطاء بن أبي رباح هذه الآية منسوخة بقوله عز وجل «الآن خفف الله عنكم» فليس لقوم أن يفروا من مثليهم فنسخت تلك إلا في هذه العدة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا ويولوا ظهورهم إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة وإن كانوا أقل من ذلك جاز لهم أن يولوا ظهورهم وينحازوا عنهم قال ابن عباس من فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر قوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) قال مجاهد سبب نزول هذه الآية أنهم لما انصرفوا عن القتال كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر مثله فنزلت الآية ومعناه فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ولكن الله قتلهم بنصرته إياكم وتقويته لكم وقيل ولكن الله قتلهم بامداد الملائكة (وما

 رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال أهل التفسير والمغازي ندب رسول الله

صلى الله عليه وسلم الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبنى الحجاج وأبو يسار غلام لبنى العاص بن سعيد فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما أين قريش قالا هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما كم القوم قالا كثير قال ماعدتهم قالا لاندرى قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم مابين التسع مائة إلى الألف ثم قال لهما فمن فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البخترى ابن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل ابن عمرو فقال رسول الله صلى الله (١٨) عليه وسلم هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو الكثيب الذى جاءوا منه إلى الوادى قال اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى فأتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول كفا من حصى عليه تراب فرمى به فى وجوه القوم وقال شاهت الوجوه فلم يبق منهم مشرك إلا دخل فى عينيه وفمه ومنخريه منها شىء فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة فى ميمنة القوم وبحصاة فى ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم وقال شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله تعالى «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» إذ ليس فى وسع أحد من البشر أن يرمى كفا من الحصا إلى وجوه جيش فلا يبقى فيهم عين إلا ويصيبها منه شىء وقيل معناه وما بلغت إذ رميت ولكن الله بلغ وقيل وما رميت بالرعب فى قلوبهم إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب فى قلوبهم حتى انهزموا (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى ولينعم على المؤمنين منه نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة (إن الله سميع) لدعائكم (عليم) بنياتكم (ذلكم) الذى ذكرت من القتل والرمى والبلاء الحسن (وأن الله) قيل فيه إضمار أى واعلموا أن الله (موهن) مضعف (كيد الكافرين) قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة موهن بالتشديد والتنوين كيد نصب وقرأ الآخرون بالتخفيف والتنوين إلا حفصا فإنه يضيفه ولا ينون ويخفض كيد. قوله تعالى (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) وذلك أن أبا جهل لعنه الله قال

الآية وما بلغت إذ رميت ولكن الله بلغ رميك وقيل مارميت بالرعب فى قلوبهم إذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب فى قلوبهم حتى انهزموا (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) يعنى ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والأجر والثواب فقد أجمع المفسرون على أن البلاء هنا بمعنى النعمة (إن الله سميع) يعنى لدعائكم (عليم) يعنى بأحوالكم . وقوله تعالى (ذلكم) يعنى الذين ذكرت من أمر القتل والرمى والبلاء الحسن من الظفر بهم والنصر عليهم فعلنا ذلك الذى فعلنا (وأن الله) يعنى واعلموا أن الله مع ذلك (موهن) أى مضعف (كيد الكافرين) يعنى مكرهم وكيدهم قوله عز وجل (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر لما التقى الجمعان اللهم أينا كان أفخر يعنى نفسه ومحمدا صلى الله عليه وسلم قاطعا للرحم فأحنه اليوم وقيل إنه قال اللهم أينا كان خيرا عندك فانصره وقيل قال اللهم انصر أهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين اللهم من كان أفخر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم فأنزل الله عز وجل إن تستفتحوا ومعنى الآية إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح يعنى جاءكم حكم الله بنصرة المظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطوع على القاطع (ق) عن عبد الرحمن بن عوف قال إنى لواقف فى الصف يوم بدر فنظرت عن يمينى وعن شمالى فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزنى أحدهما فقال أى عم هل تعرف أبا جهل قلت نعم فما حاجتك إليه يا ابن أخى قال أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك قال وغمزنى الآخر فقال لى مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فقال أيكما قتله فقال كل واحد منهما أنا قتلته

يوم بدر لما التقى الناس اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لم نعرف فأحنه الغداة فكان هو المستفتح على نفسه. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال قال عبد الرحمن بن عوف إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فاذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرا من صاحبه ياعم أرني أبا جهل فقلت يا ابن أخي وما تصنع به فقال عاهدت الله عز وجل إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه فقال لي الآخر سرا من صاحبه مثله فما سرني أني بين رجلين بمكانهما فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما إبنا عفراء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى (١٩) ثنا ابن أبي عدي عن سليمان التيمي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر « من ينظر لنا ماصنع أبو جهل قال فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه إبنا عفراء حتى برد قال فأخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل فقال وهل فوق رجل قتله قومه أو قتلتموه » قال محمد بن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر قال قال معاذ بن عمرو بن الجموح «لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه أمر بأبي جهل ابن هشام أن يلتمس في القتلى وقال اللهم لا يعجز نك قال فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه قال وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق فمر عبد الله بن مسعود قال عبد الله بن مسعود وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت هل أخزاك الله ياعدو الله قال وبماذا أخزاني أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدائرة: قلت لله ولرسوله » وروى عن ابن مسعود أنه قال: قال لي أبو جهل لقد ارتقيت يارويعي الغنم مرتقى صعبا ثم احتززت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال آلله الذي لا إله غيره قلت نعم والذي لا إله غيره ثم ألقيته بين يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله عز وجل وقال السدي والكلبي كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم. انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل

فقال هل مسحتما سيفكما فقالا لا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين فقال كلا كما قتله وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ ابن عفراء (ق) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ينظر لنا ماصنع أبو جهل فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال فأخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل وفي كتاب البخاري أنت أبو جهل هكذا قاله أنس فقال وهل فوق رجل قتلتموه أو قال قتله قومه وفي رواية فقال أبو جهل فلو غير أكار قتلني » عن عبد الله بن مسعود قال مررت فإذا أبو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت ياعدو الله يا أبا جهل قد أخزى الله الآخر قال ولا أهابه عند ذلك فقال أعمد من رجل قتله قومه فضربته بسيف غير طائل فلم يغن شيئا حتى سقط سيفه من يده فضربته حتى برد أخرجه أبو داود وأخرجه البخاري مختصرا قال إنه أتى أبا جهل يوم بدر وبه رمق فقال هل أعمد من رجل قتلتموه وقال عكرمة قال المشركون والله مانعرف ماجاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله عز وجل إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء وقال السدي والكلبي كان المشركون لما خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وهو على ماسألوه فكان النصر لأهدى الفئتين وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر قال قال معاذ بن عمرو بن الجموح لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتمس في القتلى فقال اللهم لايعجزك فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة طرحت قدمه بنصف ساقه قال وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر

الدين ففيه نزلت إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أى إن تستنصروا فقدجاءكم النصر وقال عكرمة قال المشركون والله لانعرف ماجاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله عز وجل «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» أى إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء وقال أبى بن كعب هذا خطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى للمسلمين إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أى إن تستنصروا فقد جاءكم (٢٠) الفتح والنصر أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحى أنا أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى ثنا عبد الرحيم ابن منيب ثنا الفضل بن موسى ثنا إسماعيل بن خالد عن قيس عن خباب رضى الله عنه قال «شكونا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا ألا تدعو الله فقعد وهو محمر وجهه وقال كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع فوق رأسه فيشق باثنين فما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم وعصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » قوله (وإن تنتهوا) يقول للكفار إن تنتهوا عن الكفر بالله وقتال نبيه صلى الله عليه وسلم (فهو خير لكم وإن تعودوا) لحربه وقتاله (نعد) بمثل الواقعة التى أوقعت بكم يوم بدر وقيل وإن تعودوا إلى الدعاء والاستفتاح نعد للفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم (ولن تغنى عنكم فئتكم) جماعتكم (شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين) قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص وأن الله بفتح الهمزة أى ولأن الله مع المؤمنين كذلك لن تغنى عنكم فئتكم شيئا وقيل هو عطف على قوله ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين وقرأ الآخرون وإن الله بكسر الألف على الابتداء (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) أى لاتعرضوا

بأبى جهل وهو عفير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق فمر به عبدالله بن مسعود قال عبدالله وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلى على عنقه فقلت هل أخزاك الله ياعدو الله قال وبماذا أخزانى أعمد من رجل قتلتموه أخبرنى لمن الدبرة قلت لله ولرسوله روى عن ابن مسعود أنه قال قال لى أبو جهل لقد ارتقيت يارويعى الغنم مرتقى صعبا ثم احتززت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال آلله الذى لاإله غيره فقلت نعم والذى لاإله غيره ثم ألقيته بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وقال أبى بن كعب هذا خطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل للمسلمين إن تستفتحوا أى تستنصروا فقد جاءكم الفتح أى النصر (خ) عن خباب بن الأرت قال «شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» قلت استدل البغوى بهذا الحديث على ما فسر به أبى بن كعب الآية وفيه نظر لأن هذه الواقعة المذكورة فى الحديث كانت بمكة والآية مدنية فلا تعلق للحديث بتفسير الآية والله أعلم ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لما دعا الله ببدر وسأله إنجاز ماوعده من إحدى الطائفتين وألح فى الدعاء والمسئلة حتى سقط رداؤه وقال الله سبحانه وتعالى مجيبا له إن تستفتحوا يعنى تطلبوا النصر وإنجاز ماوعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعنى فقد حصل لكم ماطلبتم فاشكروا الله على ماأنعم به عليكم من إجابة دعائكم وإنجاز ما وعدكم به وهذا القول أولى لأن قوله فقد جاءكم الفتح لايليق إلا بالمؤمنين . هذا إذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الأعداء . أما إذا فسرناه بالقضاء والحكم لم يمتنع أن يراد به الكفار . أما قوله سبحانه وتعالى (وإن تنتهوا فهو خير لكم) فهو خطاب للكفار يعنى وإن تنتهوا عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم وعن تكذيبه فهو خير لكم فى الدين والدنيا أما فى الدين بأن تؤمنوا به وتكفوا عنه فيجعل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من العقاب . وأما فى الدنيا فهو الخلاص من القتل والأسر (وإن تعودوا نعد) يعنى وإن تعودوا لقتال محمد صلى الله عليه وسلم نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم (ولن تغنى عنكم فئتكم) يعنى جماعتكم (شيئا) يعنى لا تغنى عنكم شيئا (ولو كثرت) يعنى جماعتكم (وأن الله مع المؤمنين) يعنى بالنصر لهم عليكم يا معشر الكفار . قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله) يعنى فى أمر الجهاد لأن فيه بذل المال والنفس (ولاتولوا عنه) يعنى عن الرسول صلى الله عليه وسلم لأن

التولى

عنه (وأنتم تسمعون) القرآن ومواعظه (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) أى يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون، أى لا يتعظون ولا ينتفعون بسماعهم فكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى (٢١) (إن شر الدواب) أى شر من دب على وجه الأرض من خلق الله (عند الله الصم البكم) عن الحق فلا يسمعونه ولا يقولونه (الذين لا يعقلون) أمر الله عز وجل سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم كما قال تعالى «أولئك كالأنعام بل هم أضل» قال ابن عباس هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد فقتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء لم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويبط ابن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) أى لأسمعهم سماع التفهم والقبول (ولو أسمعهم) بعد أن علم أن لا خير فيهم ما انتفعوا بذلك (لتولوا وهم معرضون) لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل إنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم أحى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك فقال الله عز وجل ولو أسمعهم كلام قصى لتولوا وهم معرضون قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) يقول أجيبوهما بالطاعة (إذا دعاكم) الرسول صلى الله عليه وسلم (لما يحييكم) أى إلى ما يحييكم قال السدى هو الإيمان لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان وقال قتادة هو القرآن فيه الحياة، وبه

التولى يصح إلا فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم لا فى حق الله تعالى والمعنى لا تعرضوا عنه وعن معونته، ونصرته فى الجهاد (وأنتم تسمعون) يعنى القرآن يتلى عليكم (ولا تكونوا كالذين قالوا) بألسنتهم (سمعنا وهم لا يسمعون) يعنى وهم لا يتعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ وهذه صفة المنافقين (إن شر الدواب عند الله) يعنى إن شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عند الله (الصم) عن سماع الحق (البكم) عن النطق به فلا يقولونه (الذين لا يعقلون) يعنى لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلونه وإنما سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم قال ابن عباس هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقتلوا جميعا يوم أحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) يعنى سماع تفهم وانتفاع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله قال الإمام فخر الدين إن كان ما كان حاصلا فيجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهيم (ولو أسمعهم) يعنى بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى (لتولوا وهم معرضون) يعنى لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل إنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم أحى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه وتعالى ولو أحيا لهم قصيا وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) يعنى أجيبوهما بالطاعة والانقياد لأمرهما (إذا دعاكم) يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما وحد الضمير فى قوله تعالى إذا دعاكم لأن استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم استجابة لله تعالى وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد واستدل أكثر الفقهاء بهذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب لأن كل من أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بفعل فقد دعاه إليه وهذه الآية تدل على أنه لا بد من الإجابة فى كل ما دعا الله ورسوله إليه (خ) عن أبى سعيد بن المعلى قال «كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيته فقلت يا رسول الله إنى كنت أصلى فقال ﷺ ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم» ثم ذكر الحديث عن أبى هريرة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبى بن كعب وهو يصلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبى فالتفت أبى ولم يجبه وصلى أبى وخفف ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم عليك السلام ما منعك يا أبى أن تجيبنى إذ دعوتك فقال يا رسول الله إنى كنت فى الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم أفلم تجد فيما أوحى الله إلى: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى» وذكر الحديث أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح قيل هذه الإجابة مختصة بالنبى صلى الله عليه وسلم فعلى هذا ليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته. وقوله تعالى (لما يحييكم) يعنى إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم

النجاة والعصمة فى الدارين وقال مجاهد هو الحق وقال ابن إسحاق هو الجهاد أعزكم الله به بعد الذل وقال القتيبي بل الشهادة قال الله تعالى فى الشهداء «بل أحياء عند ربهم يرزقون» وروينا «أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على أبي بن كعب رضى الله عنه وهو يصلى فدعاه فعجل أبي فى صلاته ثم جاء فقال رسول الله ما منعك أن تجيبنى إذ دعوتك قال كنت فى الصلاة قال أليس يقول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم فقال لا جرم يارسول الله لا تدعونى إلا أجبت وإن كنت مصليا» قوله تعالى (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قال سعيد بن جبير وعطاء يحول بين المؤمن والكافر وبين الكفر والإيمان وقال الضحاك يحول بين الكافر والطاعة ويحول بين المؤمن والمعصية وقال مجاهد يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدرى مايعمل (٣٢) وقال السدى يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا باذنه وقيل هو أن القوم لما دعوا إلى القتال فى حالة الضعف ساءت ظنونهم واختلجت صدورهم فقيل لهم قاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الله الخوف أمنا والجبن جرأة وشجاعة (وأنه إليه تحشرون) فيجزيكم بأعمالكم أخبرنا أحمد ابن عبد الله الصالحى أنا أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاطب بن أحمد الطوسى أنا محمد بن حماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن أنس بن مالك قال «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قالوا يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء» (واتقوا فتنة) اختبارا وبلاء (لا تصيبن الذين) قوله لا تصيبن ليس بجزاء محض ولو كان جزاء لم تدخل فيه النون لكنه نفى وفيه طرف من الجزاء كقوله تعالى «يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده» وتقديره واتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابتكم فهو كقول القائل انزل عن الدابة لا تطرحك ولا تطرحنك فهذا جواب الأمر بلفظ النفى معناه إن تنزل لا تطرحك، قال المفسرون نزلت هذه الآية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعناه اتقوا فتنة تصيب الظالم وغير الظالم قال الحسن نزلت فى على وعمار وطلحة والزبير رضى الله عنهم قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فاذا نحن المعنيون بها يعنى ما كان يوم الجمل. وقال السدى ومقاتل والضحاك وقتادة هذا فى قوم مخصوصين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابتهم الفتنة يوم الجمل وقال ابن

قال السدى هو الإيمان لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان وقال قتادة هو القرآن لأنه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة فى الدارين وقال مجاهد هو الحق وقال محمد بن إسحاق هو الجهاد لأن الله أعزه به بعد الذل وقيل هو الشهادة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدى يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا باذنه وقد دلت البراهين العقلية على هذا القول لأن أحوال القلوب إعتقادات ودواعى وتلك الاعتقادات والدواعى لابد أن تتقدمها الإرادة وتلك الإرادة لابد لها من فاعل مختار وهو الله سبحانه وتعالى فثبت بذلك أن المتصرف فى القلب كيف شاء هو الله تعالى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك» عن أنس بن مالك قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك فقلنا يارسول الله قد آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء» أخرجه الترمذى وهذا الحديث من أحاديث الصفات فيجب على المرء المسلم أن يمره على ماجاء مع الاعتقاد الجازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحة والجسم وقيل فى معنى الآية إن الله عز وجل يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدرى ما يصنع ولا يعقل شيئا وقيل إن القوم لما دعوا إلى القتال والجهاد وكانوا فى غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم قاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمنا والجبن جراءة. وقوله تعالى (وأنه إليه تحشرون) يعنى فى الآخرة فيجزى كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصى. قوله سبحانه وتعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن

عباس أمر الله عز وجل المؤمنين أن لايقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم . اخبرنا محمد بن عبد الله بن أبى توبة أنا أبو طاهر الحارثى أنا محمد بن يعقوب الكسائى أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله ابن المبارك عن سيف بن سليمان قال سمعت عدى بن عدى الكندى يقول (٢٣) حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة » وقال بن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا . أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهرى أخبرنى أبو سلمة ابن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى من تشرف لها تستشرفه فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به » قوله لاتصيبن (الذين ظلموا منكم خاصة) يعنى العذاب (واعلموا أن الله شديد العقاب) قوله تعالى (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) يقول أذكروا يامعاشر المهاجرين إذ أنتم قليل فى العدد مستضعفون فى أرض مكة فى ابتداء الإسلام (تخافون أن يتخطفكم الناس) يذهب بكم الناس يعنى كفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقال وهب فارس والروم (فآواكم) إلى المدينة (وأيدكم بنصره) أى قواكم يوم بدر بالأنصار وقال الكلبى قواكم يوم بدر بالملائكة (ورزقكم من الطيبات) يعنى الغنائم التى

الذين ظلموا منكم خاصة) لما أخبر الله عز وجل أنه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء فى الفتن والمعنى واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر علي الظالم خاصة بل تتعدى إليكم جميعا وتصل إلى الصالح والطالح وأراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل تقديره واتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابتكم جميعا الظالم وغير الظالم قال الحسن نزلت هذه الآية فى على وعمار وطلحة والزبير قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا ومانرى أنا من أهلها فاذا نحن المعنيون بها يعنى ما كان منهم فى يوم الجمل وقال السدى ومجاهد والضحاك وقتادة هذا فى قوم مخصوصين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أصابتهم الفتنة يوم الجمل وقال ابن عباس أمر الله عز وجل المؤمنين أن لايقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم روى البغوى بسنده عن عدى بن عدى الكندى قال حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة » والذى ذكره بن الأثير فى جامع الاصول عن عدى بن عميرة الكندى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » أخرجه أبو داود عن جرير بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا » أخرجه أبو داود وقال ابن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى خير من الساعى من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به » فان قلت ظاهر قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسيره فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة إلى من لم يذنب . قلت إنه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده وفى ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية أو لأنه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع المصلحة والله أعلم بمراده . وقوله سبحانه وتعالى (واعلموا أن الله شديد العقاب) فيه تحذير ووعيد لمن واقع الفتنة التى حذره الله منها . وقوله عز وجل (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم نعمته عليهم فقال تعالى واذكروا يامعشر المؤمنين المهاجرين إذ أنتم قليل يعنى فى العدد مستضعفون فى الأرض يعنى فى أرض مكة فى ابتداء الإسلام (تخافون أن يتخطفكم الناس يعنى كفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقال وهب ابن منبه يعنى فارس والروم (فآواكم) يعنى إلى المدينة (وأيدكم بنصره) يعنى وقواكم بالأنصار وقال الكلبى وقواكم يوم بدر بالملائكة (ورزقكم من الطيبات) يعنى الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم

أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم (لعلكم تشكرون يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول) قال السدى كانوا يسمعون الشىء
من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين وقال الزهرى والكلبى نزلت هذه الآية فى أبى لبابة هرون بن
عبد المنذر الأنصارى من بنى عوف بن مالك وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم على ما صالح عليه إخوانهم من بنى النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض
الشام فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا
لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقالوا له يا أبا لبابة ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده على حلقه إنه الذبح فلا تفعلوا قال أبو لبابة والله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أبرح ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره قال «أما لو جاءنى لأستغفرت له فأما إذا فعل مافعل فانى لاأطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لايذوق طعاما ولا شرابا حتى
خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تاب الله عليك فقال
لا والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى بيده فجاء فحله بيده ثم قال أبو لبابة يارسول
الله إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى كله فقال النبى صلى الله عليه وسلم يجزيك
الثلث فتصدق به فنزلت فيه لاتخونوا الله والرسول» (وتخونوا أماناتكم) أى ولاتخونوا أماناتكم (وأنتم تعلمون) أنها أمانة وقيل
وقيل وأنتم تعلمون مافعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانة قال السدى إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم وقال ابن عباس
لاتخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سننه وتخونوا أماناتكم قال ابن عباس هى مايخفى عن أعين الناس من فرائض الله
والأعمال التى ائتمن العباد عليها قال قتادة اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله عز وجل ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده

(لعلكم تشكرون) يعنى تشكرون الله على نعمه عليكم قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا
الله والرسول) قال الزهرى والكلبى نزلت هذه الآية فى أبى لبابة هرون بن عبد المنذر الأنصارى
من بنى عوف بن مالك وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى
وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على ما صالح عليه إخوانهم بنى
النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام فأبى رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعيد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل
إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لأن ماله وولده وعياله كان عندهم فبعثه رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقالوا ياأبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار
أبو لبابة بيده إلى حلقه يعنى إنه الذبح فلا تفعلوا قال أبو لبابة والله مازالت قدماى عن مكانهما
حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم
وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لاأذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت
أو يتوب الله على فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره قال أما لو جاءنى لاستغفرت
له أما إذا فعل مافعل فانى لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما
ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له ياأبا لبابة قد تيب عليك فقال والله
لاأحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاء فحله بيده ثم قال أبو
لبابة إن تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث أن تصدق به فنزل فيه «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله
والرسول» وقال السدى كانوا يسمعون السر من النبى صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ
المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبد الله إن أباسفيان خرج من مكة فأتى جبريل
النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن أباسفيان فى مكان كذا وكذا فقال النبى صلى الله عليه وسلم
لأصحابه إن أبا سفيان فى موضع كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا قال فكتب رجل من المنافقين
إليه إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل لاتخونوا الله والرسول (وتخونوا أماناتكم)
ومعنى الآية لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم (وأنتم تعلمون) يعنى أنها أمانة

ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) قيل هذا أيضا فى أبى لبابة وذلك أن أمواله وأولاده كانوا فى بنى قريظة فقال ماقال خوفا عليهم وقيل هذا فى جميع الناس. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى إملاء وأبو بكر محمد بن محمد ابن الحسن الطوسى قالا حدثنا أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد الإسفراينى أنا محمد بن محمد بن رزمويه حدثنا يحيى بن محمد بن غالب حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا عبد الله ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم «أتى بصبى فقبله وقال أما إنهم مبخلة مجبنة وإنهم لمن ريحان الله عز وجل» (وأن الله عنده أجر عظيم) لمن نصح الله ورسوله وأدى أمانته. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله) بطاعته وترك معصيته (يجعل لكم فرقانا) قال مجاهد مخرجا فى الدنيا والآخرة وقال مقاتل بن حيان مخرجا فى الدين من الشبهات وقال عكرمة نجاة أى يفرق بينكم وبين ماتخافون، وقال الضحاك بيانا وقال ابن إسحاق فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفىء بطلان من خالفكم والفرقان مصدر كالرجحان والنقصان (ويكفر عنكم سيئاتكم) يمح عنكم ماسلف من ذنوبكم (ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) قوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا) هذه الآية معطوفة على قوله واذكروا إذ أنتم قليل واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا

وقيل معناه وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانة وأصل الخيانة من الخون وهو النقص لأن من خان شيئا فقد نقصه والخيانة ضد الأمانة وقيل فى معنى الآية لا تخونوا الله والرسول فانكم إذا فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم وقال ابن عباس معناه لاتخونوا الله بترك فرائضه ولا تخونوا الرسول بترك سنته ولاتخونوا أماناتكم قال ابن عباس هى ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والأعمال التى ائتمن عليها العباد وقال قتادة اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله ماائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ومنه الحديث عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب. وقوله عز وجل (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) قيل هذا مما نزل فى أبى لبابة وذلك لأن أمواله وأولاده كانت فى بنى قريظة فلذلك قال ماقال خوفا عليهم وقيل إنه عام فى جميع الناس وذلك أنه لما كان الإقدام على الخيانة فى الأمانة هو حب المال والولد نبه الله سبحانه وتعالى بقوله واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة على أنه يجب على العاقل أن يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد لأن ذلك يشغل القلب ويصيره محجوبا عن خدمة المولى وهذا من أعظم الفتن وروى البغوى بسنده عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم «أتى بصبى فقبله وقال أما إنهم مبخلة مجبنة وإنهم لمن ريحان الله» أخرج الترمذى عن عمر بن عبد العزيز قال زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن أحد ابنى ابنته وهو يقول إنكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون وإنكم لمن ريحان الله» قال الترمذى لانعرف لعمر بن عبد العزيز سماعا عن خولة قوله لمن ريحان الله أى لمن رزق الله والريحان فى اللغة الرزق. وقوله تعالى (وأن الله عنده أجر عظيم) يعنى لمن أدى الأمانة ولم يخن وفيه تنبيه على أن سعادة الآخرة وهو ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد. وقوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله) يعنى بطاعته وترك معاصيه (يجعل لكم فرقانا) يعنى يجعل لكم نورا وتوفيقا فى قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان أصله الفرق بين الشيئين لكنه أبلغ من أصله لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة قال مجاهد يجعل لكم مخرجا فى الدنيا والآخرة وقال مقاتل مخرجا فى الدين من الشبهات وقال عكرمة نجاة أى يفرق بينكم وبين ماتخافون وقال محمد بن إسحاق فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفىء باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم وبين الكفار بأن يظهر دينكم ويعليه ويبطل الكفر ويوهنه (ويكفر عنكم سيئاتكم) يعنى ويمح عنكم ماسلف من ذنوبكم (ويغفر لكم) يعنى ويستر عليكم بأن لايفضحكم فى الدنيا ولا فى الآخرة (والله ذو الفضل العظيم) لأنه هو الذى يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فانه إذا وعد بشىء وفى به قيل إنه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيئات وقيل معناه أن بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره. قوله سبحانه وتعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا) لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا

وإذ قالوا اللهم لأن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول إنما كانا بمكة ولكن الله ذكرهم بالمدينة كقوله تعالى إلا تنصروه فقد نصره الله . وكان هذا المكر على ماذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير أن قريشا فرقوا لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع نفر من كبارهم فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت رءوسهم عتبة وشيبة (٣٦) ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان وطعيمة بن عدى وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحارث وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية ابن خلف فاعترضهم إبليس لعنه الله فى صورة شيخ فلما رأوه قالوا من أنت قال شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا قالوا ادخل فدخل فقال أبو البخترى أما أنا فأرى أن تأخذوا محمدا وتحبسوه فى بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه كما هلك من قبله من الشعراء قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدى وقال بئس الرأى رأيتم والله لئن حبستموه فى بيت فخرج أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم قالوا صدق الشيخ النجدى فقام هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من أظهركم فلا يضركم ماصنع ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه فقال إبليس لعنه الله ماهذا لكم برأى تعمدون عليه تعتمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وحلاوة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن

إذ أنتم قليل ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لأن هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة والمعنى واذكر يامحمد إذ يمكر بك الذين كفروا وكان هذا المكر على ماذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير قالوا جميعا إن قريشا فرقوا لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهر فاجتمع نفر من كبار قريش فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رءوسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان وطعيمة ابن عدى والنضر ابن الحرث وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ فلما رأوه قالوا له من أنت قال أنا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقالوا ادخل فدخل فقال أبو البخترى أما أنا فأرى أن تأخذوا محمدا أو تحبسوه فى بيت مقيدا وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله إبليس وهو الشيخ النجدى وقال بئس الرأى رأيتم لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم فقالوا صدق الشيخ النجدى فقام هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى فقال أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ماصنع وأين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه فقال إبليس اللعين ماهذا لكم برأى تعتمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك يذهب ويستميل قلوب قوم آخرين ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم فقالوا صدق الشيخ النجدى فقال أبو جهل والله لأشيرن عليكم برأى ما أرى غيره إنى أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسطا فتيا ثم نعطى كل فتى سيفا صارما ثم يضربوه جميعا ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ولا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها وأنهم إذا أرادوا ذلك قالوا العقل فتؤدى قريش ديته فقال إبليس اللعين صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا والقول ماقال لاأرى غيره فتفرقوا على قول أبى جهل وهم مجتمعون عليه فأتى جبريل صلى الله عليه وسلم النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وأمره أن لايبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأذن الله عز وجل له عند ذلك بالخروج إلى المدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أن يبيت فى مضجعه وقال له اتشح ببردتى فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه ، ثم خرج رسول الله صلى الله

عليه

وليستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم قالوا صدق الشيخ النجدى فقال أبو جهل والله لأشيرن عليكم برأى ما أرى غيره إنى أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسيطا فتيا ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يضربوه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ولا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها وبأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدى قريش ديته فقال إبليس صدق هذا الفتى وهو أجودكم رأيا القول ما قال لا أرى رأيا غيره فتفرقوا على قول أبى جهل وهم مجمعون عليه فأتى جبريل النبى (٢٧) صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه فأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أن ينام فى مضجعه وقال له اتشح ببردتى هذه فانه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه ، ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فجعل ينثر التراب على رءوسهم وهو يقرأ «إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا» إلى قوله فهم لا يبصرون ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده وكانت الودائع تودع عنده صلى الله عليه وسلم لصدقه وأمانته وبات المشركون يحرسون عليا فى فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون أنه النبى ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه فرأوا عليا رضى الله عنه فقالوا أين صاحبك قال لا أدرى فاقتصوا أثره وأرسلوا فى طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثا ، ثم قدم المدينة فذلك قوله تعالى «وإذ يمكر بك الذين كفروا» (ليثبتوك) ليحبسوك ويسجنوك ويوثقوك (أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله) قال الضحاك يصنعون ويصنع الله والمكر التدبير وهو من الله التدبير بالحق وقيل يجازيهم جزاء المكر (والله خير الماكرين وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا) يعنى النضر بن الحارث (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) وذلك أنه كان يختلف تاجرا إلى فارس والحيرة فيسمع أخبار رستم واسفنديار وأحاديث العجم ويمر باليهود والنصارى فيراهم يركعون ويسجدون ويقرءون

عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رءوسهم وهو يقرأ «إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا» إلى قوله فهم لا يبصرون ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته قالوا وبات المشركون يحرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون أنه النبى صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا ساروا إليه ليقتلوه فرأوه عليا فقالوا له أين صاحبك قال لا أدرى فاقتفوا أثره وأرسلوا فى طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر فمكث فى الغار ثلاثا ثم خرج إلى المدينة فذلك قوله سبحانه وتعالى «وإذ يمكر بك الذين كفروا» وأصل المكر احتيال فى خفية (ليثبتوك) أى ليحبسوك ويوثقوك لأن كل من شد شيئا وأوثقه فقد أثبته لأنه لا يقدر على الحركة (أو يقتلوك) يعنى كما أشار عليهم أبو جهل (أو يخرجوك) يعنى من مكة (ويمكرون) يعنى ويحتالون ويدبرون فى أمرك (ويمكر الله) يعنى ويجازيهم الله جزاء مكرهم فسمى الجزاء مكرا لأنه فى مقابلته وقيل معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم والمكر هو التدبير وهو من الله تعالى التدبير بالحق والمعنى أنهم احتالوا فى إبطال أمر محمد ﷺ والله سبحانه وتعالى أظهره وقواه ونصره فضاع فعلهم وتدبيرهم وظهر فعل الله وتدبيره (والله خير الماكرين) فان قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولا خير فى مكرهم . قلت يحتمل أن يكون المراد والله أقوى الماكرين فوضع خير موضع أقوى وفيه تنبيه على أن كل مكر يبطل بفعل الله وقيل يحتمل أن يكون المراد أن مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى فى مقابلته والله خير الماكرين وقيل ليس المراد التفضيل بل إن فعل الله خير مطلقا . قوله عز وجل (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) نزلت فى النضر بن الحرث بن علقمة من بنى عبد الدار وذلك أنه كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرءون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبى صلى الله عليه وسلم قد أوحى إليه وهو يقرأ ويصلى فقال النضر بن الحرث قد سمعنا يعنى مثل هذا الذى جاء به محمد لو نشاء لقلنا مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذى لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد التحدى وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة

التوراة والإنجيل فجاء إلى مكة فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويقرأ القرآن فقال النضر قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا (إن هذا إلا أساطير الأولين) أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم وما سطر الأولون فى كتبهم ، والأساطير جمع أسطورة وهى المكتوبة من قولهم سطرت أى كتبت قوله تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية نزلت فى النضر ابن الحرث من بنى عبد الدار قال ابن عباس لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن القرون الماضية قال النضر لو شئت لقلت مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين أى ما هذا إلا ماسطره الأولون فى كتبهم فقال له عثمان بن مظعون رضى الله عنه اتق الله فان محمدا يقول الحق قال فأنا أقول الحق قال عثمان فان محمدا يقول لا إله إلا الله قال وأنا أقول لا إله إلا الله ولكن هذه بنات الله يعنى الأصنام ثم قال اللهم إن كان هذا (٢٨) الذى يقول محمد هو الحق من عندك والحق نصب بخبر كان وهو عماد وصلة (فأمطر علينا حجارة من السماء) كما أمطرتها على قوم لوط (أو ائتنا بعذاب أليم) أى ببعض ما عذبت به الأمم وفيه نزل سأل سائل بعذاب واقع وقال عطاء لقد نزل فى النضر بن الحارث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر . قال سعيد بن جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة صبرا من قريش طعيمة ابن عدى وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وروى أنس رضى الله عنه أن الذى قاله أبو جهل لعنه الله أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن النضر ثنا عبيد الله بن معاذ ثنا أبى ثنا شعبة عن عبد الحميد هذا صاحب الزيادى سمع أنس بن مالك قال : قال أبو جهل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ومالهم ألا يعذبهم الله قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اختلفوا فى معنى هذه الآية فقال محمد بن إسحاق هذه حكاية عن المشركين أنهم قالوها وهى متصلة بالآية الأولى وذلك أنهم كانوا يقولون إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفره ولا يعذب أمة ونبيها فيها : فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية وقالوا وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم قال

فبان بذلك كذبهم فى قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا (إن هذا إلا أساطير الأولين) يعنى أخبار الماضين . قوله سبحانه وتعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) نزلت فى النضر بن الحرث أيضا قال ابن عباس لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن القرون الماضية قال النضر بن الحرث لو شئت لقلت مثل هذا فقال له عثمان بن مظعون اتق الله فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول الحق قال وأنا أقول الحق قال فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول لا إله إلا الله قال وأنا أقول لا إله إلا الله ولكن هذه بنات الله يعنى الأصنام ثم قال اللهم إن كان هذا هو الحق يعنى القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقيل يعنى إن كان الذى يقوله محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد وإدعاء النبوة وغير ذلك هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء يعنى كما أمطرتها على قوم لوط أو ائتنا بعذاب أليم يعنى مثل ما عذبت به الأمم الماضية فى النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع قال عطاء لقد نزل فى النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة ابن عدى وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحرث وروى أنس بن مالك أن الذى قال ذلك أبو جهل (ق) عن أنس قال : قال أبو جهل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية فلما أخرجوه نزلت وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدونهم عن المسجد الحرام . قوله عز وجل (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اختلفوا فى معنى هذه الآية فقال محمد بن إسحاق هذه الآية متصلة بما قبلها وهى حكاية عن المشركين وذلك أنهم قالوا إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكره جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم قال تعالى ردا عليهم وما لهم ألا يعذبهم الله وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام وقال آخرون

ردا عليهم وما لهم ألا يعذبهم الله وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام :
وقال الآخرون هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل إخبارا عن نفسه وما كان الله ليعذبهم واختلفوا فى تأويلها
فقال الضحاك وجماعة تأويلها (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) مقيم بين أظهرهم ؟ قالوا نزلت هذه الآية
على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ثم خرج من بين أظهرهم وبقيت بها بقية من المسلمين يستغفرون
فأنزل الله تعالى « وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون » فخرج أولئك (٣٩) من بينهم فعذبوا وأذن الله
فى فتح مكة فهو العذاب الذى وعدهم الله . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعذب الله قرية حتى يخرج النبى منها والذين آمنوا ويلحق بحيث أمر «فقال وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » يعنى المسلمين فلما خرجوا . قال الله تعالى ومالهم ألا يعذبهم الله فعذبهم الله يوم بدر وقال أبو موسى الأشعرى كان فيكم أمانان وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فأما النبى صلى الله عليه وسلم فقد مضى والاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة وقال بعضهم هذا الاستغفار راجع إلى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد الطواف غفرانك غفرانك وقال يزيد ابن رومان قالت
قريش إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ماقالوا فقالوا غفرانك اللهم
فقال الله عز وجل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وقال قتادة والسدى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ، أى لو
استغفروا ولكنهم لم يكونوا يستغفرون ولو أنهم أقروا بالذنب واستغفروا لكانوا مؤمنين ، وقيل هذا دعاء إلى الإسلام
والاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لغيره لاأعاقبك وأنت تطيعنى أى أطعنى حتى لاأعاقبك وقال مجاهد وعكرمة وهم
يستغفرون أى يسلمون يقول لو أسلموا لما عذبوا وروى الوالبى عن ابن عباس وفيهم من سبق له من الله أن يسلم ويؤمن

هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل إخبارا عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم
وأنت فيهم واختلفوا فى معناه فقال الضحاك وجماعة تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت
يامحمد مقيم فيهم بين أظهرهم قالوا نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقيم
بمكة ثم لما خرج منها بقى بقية من المسلمين يستغفرون فأنزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم
وهم يستغفرون ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله فى فتح مكة
فهو العذاب الذى وعدهم وقال ابن عباس لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيهامنها والذين آمنوا
معه ويلحق بحيث أمر فقال الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم
وهم يستغفرون يعنى المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم ومالهم ألا يعذبهم الله وقال بعضهم
هذا الاستغفار راجع إلى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك
غفرانك وقال زيد بن رومان قالت قريش اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا
حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ماقالوا فقالوا غفرانك اللهم فقال الله تعالى وما
كان الله معذبهم وهم يستغفرون وقال قتادة والسدى معناه وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون
أى لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو أقروا بالذنب واستغفروا الله لكانوا
مؤمنين وقيل هذا دعاء لهم إلى الإسلام والاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لعبده لاأعاقبك
وأنت تطيعنى أى أطعنى حتى لا أعاقبك وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون أى يسلمون يعنى
لو أسلموا لما عذبوا وقال ابن عباس وفيهم من سبق له من الله العناية أنه يؤمن ويستغفر
مثل أبى سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن
حزام وغيرهم وقال مجاهد وهم يستغفرون أى وفى أصلابهم من يستغفر وقيل فى معنى الآية
أن الكفار لما بالغوا وقالوا إن كان محمد محقا فى قوله فأمطر علينا حجارة من السماء أخبر الله
سبحانه وتعالى أن محمدا محق فى قوله وأنه مع ذلك لايمطر على أعدائه ومنكرى نبوته حجارة
من السماء مادام بين أظهرهم وذلك تعظيما له صلى الله عليه وسلم وأورد على هذا أنه إذا كانت
إقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال فى غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم
فالجواب أن المراد من العذاب الأول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثانى وهو
قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بأيديكم هو عذاب القتل والسبى والأسر وذلك دون عذاب
الاستئصال قال أهل المعانى دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب عن
أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله أنزل على أمانين لأمتى وما كان الله ليعذبهم
وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم

ويستغفر وذلك مثل أبي سفيان وصفوان بن أمية وعكرمة ابن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم وروى عبد الوهاب عن مجاهد وهم يستغفرون أي وفي أصلابهم من يستغفر قوله تعالى (ومالهم ألا يعذبهم الله) أي وما يمنعهم من أن يعذبوا يريد بعد خروجك من بينهم (وهم يصدون عن المسجد الحرام) أي يمنعون المؤمنين من الطواف بالبيت وقيل أراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال وأراد بقوله ومالهم أن لايعذبهم الله أي بالسيف وقيل أراد بالأول عذاب الدنيا وبهذه الآية عذاب الآخرة وقال الحسن (٣٠) الآية الأولى وهي قوله وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله تعالى وما لهم ألا يعذبهم الله (وما كانوا أولياءه) قال الحسن كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه أي أولياء البيت الحرام (إن أولياؤه) أي ليس أولياء البيت (إلا المتقون) يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك (ولكن أكثرهم لايعلمون) قوله تعالى (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال ابن عباس والحسن المكاء الصفير وهي في اللغة اسم طائر أبيض يكون بالحجاز له صفير كأنه قال إلا صوت مكاء والتصدية التصفيق قال ابن عباس كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون قال مجاهد كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف ويستهزءون به ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون فذلك المكاء والتصدية التصفيق ومنه الصدى والمكاء جعل الأصابع في الشدق والتصدية الصفر ومنه الصدا الذي يسمعه المصوت في الجبل قال جعفر بن ربيعة سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله عز وجل إلا مكاء وتصدية فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيرا قال مقاتل كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفران ورجلان عن شماله فيصفقان ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته وهم من بني عبد

القيامة ■ أخرجه الترمذي . وقوله سبحانه وتعالى (ومالهم ألا يعذبهم الله) يعني أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم يعني بعد خروجك من بين أظهرهم لأنه سبحانه وتعالى بين في الآية الأولى أنه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين أظهرهم وبين في هذه الآية أنه معذبهم ثم اختلفوا في هذا العذاب فقيل هو القتل والأسر يوم بدر وقيل أراد به عذاب الآخرة وقيل أراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال وأراد بالعذاب الثاني العذاب بالسيف وقيل أراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وبهذا العذاب عذاب الآخرة وقال الحسن الآية الأولى وهو قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله ومالهم ألا يعذبهم الله وفيه بعد لأن الأخبار لايدخلها النسخ ثم بين مالأجله يعذبهم فقال تعالى (وهم يصدون عن المسجد الحرام) يعني وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية (وما كانوا أولياءه) قال الحسن كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه يعني ليسوا أولياء المسجد الحرام (إن أولياؤه إلا المتقون) يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك (ولكن أكثرهم) يعني المشركين (لايعلمون) ذلك قوله عز وجل (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) لما ذكر الله عز وجل أن الكفار ليسوا بأولياء البيت الحرام ذكر عقبة السبب في ذلك وهو أن صلاتهم عنده كانت مكاء وتصدية والمكاء في اللغة الصفير يقال مكا الطير يمكو إذا صفر والمكاء اسم طير أبيض يكون بالحجاز له صفير وقيل هو طائر يألف الريف سمي بذلك لكثرة مكائه يعني صفيره والتصدية التصفيق وفي أصله واشتقاقه قولان أحدهما أنه من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل كالمجيب للمتكلم ولايرجع إلى شيء الثاني قال أبو عبيدة أصله تصددة فأبدلت الياء من الدال قال الأزهري والمكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت . صلاتهم التصدي والمكاء . قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف ويستهزءون به ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون فالمكاء جعل الأصابع في الشدق والتصدية الصفير وقال جعفر بن ربيعة سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله إلا مكاء وتصدية فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيرا وقال مقاتل كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران ورجلان عن يساره يصفقان ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم

وسلم صلاته وهم من بنى عبد الدار فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبي صلى الله عليه وسلم وقول ابن عباس أصح لأن الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة . فان قلت كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة . قلت إنهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبه فلا عيب له وقال سعيد بن جبير التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهو المنع وقوله سبحانه وتعالى (فذوقوا العذاب) يعنى عذاب القتل والأسر فى الدنيا وقيل يقال لهم فى الآخرة فذوقوا العذاب (بما كنتم تكفرون) يعنى بسبب كفرهم فى الدنيا . قوله سبحانه وتعالى (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهى المكاء والتصدية ذكر عقبها عبادتهم المالية التى لاجدوى لها فى الآخرة وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البخترى بن هشام والنضر بن الحرث وحكيم بن حزام وأبى بن خلف وزمعة بن الأسود والحرث بن عامر ابن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش فكان يطعم كل واحد منهم الجيش فى كل يوم عشر جزر وأسلم من هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكيم بن حزام وقال الحكم بن عتبة نزلت فى أبى سفيان بن حرب حين أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية كل أوقية اثنان وأربعون مثقالا وقال ابن أبزى أستأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين ليقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وقيل استأجر يوم أحد الفين من الأحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لما أصيب من أصيب قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره إلى مكة مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش قد أصيب أباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أباسفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فاعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا بمن أصيب منافقهم نزلت إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله أى ليصرفوا الناس عن الإيمان بالله ورسوله وقيل ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين ليتقووا بهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (فسينفقونها) يعنى أموالهم فى ذلك الوجه (ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) يعنى ما أنفقوا من أموالهم يكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة لأن أموالهم تذهب ويغلبون ولا يظفرون بما يؤملون (والذين كفروا) يعنى منهم لأن فيهم من أسلم ولهذا قال والذين كفروا يعنى من المنفقين أموالهم (إلى جهنم يحشرون) يعنى يساقون إلى النار (ليميز الله الخبيث من الطيب) يعنى ليفرق الله بين فريق

ابن الأنبارى إنما سماه صلاة لأنهم أمروا بالصلاة فى المسجد الحرام فجعلوا ذلك صلاتهم (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) قوله تعالى (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) أى ليصرفوا عن دين الله قال الكلبى ومقاتل نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا إثنى عشر رجلا أبوجهل بن هشام وعتبة وشيبة إبنا ربيعة ابن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البخترى ابن هشام والنضر بن الحرث وحكيم بن حزام وأبى بن خلف وزمعة بن الأسود ، والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر وقال الحكم ابن عيينة نزلت فى أبى سفيان أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية قال الله تعالى (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) يريد ما أنفقوا فى الدنيا يصير حسرة عليهم فى الآخرة (ثم يغلبون) ولا يظفرون (والذين كفروا) منهم (إلى جهنم يحشرون) خص الكفار لأن منهم من أسلم (ليميز الله الخبيث) فى سبيل الشيطان (من الطيب) يعنى الكافر من المؤمن فينزل المؤمن الجنان والكافر النيران وقال الكلبى العمل الخبيث من العمل الصالح الطيب فيثيب على الأعمال الصالحة الجنة وعلى الأعمال الخبيثة النار وقيل يعنى

الإنفاق الخبيث فى سبيل الشيطان من الإنفاق الطيب فى سبيل الله (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) أى فوق بعض (فيركمه جميعا) أى يجمعه ومنه السحاب المركوم وهو المجتمع الكثيف (فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون) رده إلى قوله إن الذين كفروا ينفقون أموالهم أولئك هم الخاسرون الذين خسرت تجارتهم لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة (قل للذين كفروا إن ينتهوا) عن الشرك (يغفر لهم

ماقد سلف) أى مامضى من ذنوبهم قبل الإسلام (وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) فى نصر الله أنبيائه وأوليائه وإهلاك أعدائه قال يحيى بن معاذ الرازى توحيد لم يعجز عن هدم ماقبله من كفر أرجو أن لايعجز عن هدم مابعده من ذنب (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) أى شرك قال الربيع حتى لايفتن مؤمن عن دينه (ويكون الدين كله لله) أى ويكون الدين خالصا لله لاشرك فيه (فإن انتهوا) عن الكفر (فإن الله بما يعملون بصير) قرأ يعقوب تعملون بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء (وإن تولوا) عن الإيمان وعادوا إلى قتال أهله (فاعلموا أن الله مولاكم) ناصركم ومعينكم (نعم المولى ونعم النصير) أى الناصر قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه) الآية الغنيمة والفئ اسمان لما يصيبه المسلمون من أموال الكفار فذهب جماعة إلى أنهما واحد وذهب قوم إلى أنهما يختلفان فالغنيمة ما أصابه المسلمون منهم عنوة بقتال والفئ ما كان عن صلح بغير قتال فذكر الله عز وجل فى هذه الآية حكم الغنيمة فقال فأن لله خمسه وللرسول فذهب أكثر المفسرين والفقهاء إلى أن قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه وليس المراد منه أن سهما من الغنيمة لله منفردا فإن الدنيا والآخرة كلها لله عز وجل وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشعبى قالوا سهم الله وسهم الرسول واحد والغنيمة تقسم خمسة أخماس أربعة أخماسها لمن قاتل عليها والخمس لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل (وللرسول

الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فإنه قال يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجزى على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل المراد به إنفاق الكفار فى سبيل الشيطان وإنفاق المؤمنين فى سبيل الله (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) يعنى بعضه فوق بعض (فيركمه جميعا) يعنى فيجمعه جميعا ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكم (فيجعله فى جهنم) يعنى الخبيث (أولئك) إشارة إلى المنفقين فى سبيل الشيطان أو إلى الخبيث (هم الخاسرون) يعنى أنهم خسروا الدنيا والآخرة لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة. قوله سبحانه وتعالى (قل) يعنى قل يا محمد (للذين كفروا إن ينتهوا) يعنى عن الشرك (يغفر لهم ماقد سلف) يعنى ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الإسلام (وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) يعنى فى إهلاك أعدائه ونصر أوليائه ومعنى الآية أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر ودخلوا فى دين الإسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم وإن عادوا إلى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الأولين بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على أن الإسلام يجب ماقبله وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شىء من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة إسلامهم كيوم ولدته أمه يعنى بذلك أنه ليس عليه ذنب قال يحيى بن معاذ الرازى التوحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر فأرجوا الله أن لايعجز عن هدم مابعده من ذنب (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) قال ابن عباس حتى لا يكون بلاء (ويكون الدين كله لله) يعنى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره وقال قتادة حتى يقال لاإله إلا الله عليها قاتل نبى الله صلى الله عليه وسلم وإليها عاد وقال محمد بن إسحق فى قوله وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله يعنى لايفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصا ليس فيه شرك ويخلع مادونه من الانداد والشركاء (فإن انتهوا) يعنى عن الشرك وافتتان المؤمنين وإيذائهم (فإن الله بما يعملون بصير) يعنى فإن الله لايخفى عليه شىء من أعمال العباد ونياتهم حتى يوصل إليهم ثوابهم (وإن تولوا) يعنى وإن أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وعادوا إلى قتال المؤمنين وإيذائهم (فاعلموا) يعنى أيها المؤمنون (إن الله مولاكم) يعنى أن الله وليكم وناصركم عليهم وحافظكم (نعم المولى ونعم النصير) يعنى أن الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن كان فى حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير. قوله عز وجل (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول) الغنم الفوز بالشىء يقال يغنم غنما فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفىء أسمان لمسمى واحد أم يختلفان فى التسمية فقال عطاء

عطاء بن السائب الغنيمة ماظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فأخذوه عنوة وأما الأرض فهى فيء. وقال سفيان الثورى الغنيمة ما أصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة والفىء ماصولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله وقيل الغنيمة ما أخذ من أموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة والفىء مالم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة وقيل أن الفىء والغنيمة معناهماواحد وهما اسمان لشىء واحد والصحيح أنهمايختلفان فالفىء ما أخذمن أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب والغنيمة ما أخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بايجاف خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى «واعلموا انما غنمتم من شىء» يعنى من أى شىء كان حتى الخيط والمخيط فان لله خمسه وللرسول وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وانما أضافه لنفسه تعالى لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهما منه لله منفردا لأن الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعى قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم خمسة أخماس أربعة أخماسها لمن قاتل عليها وأحرزها والخمس الباقى لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وقال أبو العالية يقسم خمس الخمس على ستة أسهم سهم لله عز وجل فيصرف إلى الكعبة والقول الأول أصح أى أن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان له فى حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام وهذا قول الشافعى وأحمد وروى الأعمش عن إبراهيم قال كان أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما يجعلان سهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الكراع والسلاح وقال قتادة هو للخليفة وقال أبو حنيفة سهم النبى صلى الله عليه وسلم بعدموته مردود فى الخمس فيقسم الخمس على الأربعة الأصناف المذكورين فى الآية وهم ذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . وقوله سبحانه وتعالى (ولذى القربى) يعنى أن سهما من خمس الخمس لذوى القربى وهم أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لاتحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلى بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعى رحمه الله تعالى هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل منه شىء وإن كانوا إخوة ويدل عليه ماروى عن جبير بن مطعم «قال جئت أنا وعثمان بن عفان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد» وفى رواية أعطيت بنى المطلب من خمس الخمس وتركتنا وفى رواية قال جبير ولم يقسم النبى صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل شيئا أخرجه البخارى وفى رواية أبى داود «أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله ﷺ فيما يقسم من الخمس فى بنى هاشم وبنى المطلب فقلت يارسول الله قسمت لأخواننا بنى المطلب ولم تعطنا شيئا وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بنوهاشم وبنوالمطلب شىء واحد» وفى رواية النسائى قال «لما كان يوم خيبر رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوى القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب وترك بنى نوفل

ولذى القربى

واليتامى والمساكين وابن السبيل) قال بعضهم يقسم الخمس على ستة أسهم وهو قول أبى العالية سهم لله فيصرف إلى الكعبة والأول أصح أن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام وهو قول الشافعى رحمه الله وروى الأعمش عن إبراهيم قال كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يجعلان سهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الكراع والسلاح وقال قتادة هو للخليفة بعده وقال بعضهم سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مردود فى الخمس والخمس لأربعة أصناف قوله ولذى القربى أراد أن سهما من الخمس لذوى القربى وهم أقارب النبى صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم جميع قريش وقال قوم هم الذين لا تحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلى بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعى هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل منه شىء وإن كانوا إخوة والدليل عليه ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال

وبنى عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبى صلى الله عليه وسلم فقلنا يارسول الله هؤلاء بنو هاشم لاننكر فضلهم للموضع الذى وضعك الله به منهم فما بال أخواننا بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وبنو المطلب لانفترق فى جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شىء واحد وشبك بين أصابعه » واختلف أهل العلم فى سهم ذوى القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الأنثيين وهو قول مالك والشافعى وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأى إلى أنه غير ثابت قالوا سهم النبى صلى الله عليه وسلم وسهم ذوى القربى مردود فى الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف إلى فقراء ذوى القربى مع هذه الأصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوى القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوى القربى ولا يفضلون فقيرا على غنى لأن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعى بالميراث الذى يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذكر على الأنثى فيعطى الذكر سهمين والأنثى سهما . وقوله سبحانه وتعالى (واليتامى) جمع يتيم يعنى ويعطى من خمس الخمس لليتامى ، واليتيم الذى له سهم فى الخمس هو الصغير المسلم الذى لا أب له فيعطى مع الحاجة إليه (والمساكين) وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين (وابن السبيل) وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ويعطى الراجل سهما واحدا لما روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم فى النفل للفرس سهمين وللرجل سهما وفى رواية نحوه باسقاط لفظ النفل أخرجه البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم سهما له وسهمين لفرسه وهذا قول أكثر أهل العلم واليه ذهب الثورى والأوزاعى ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحق وقال أبو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال ويقسم العقار الذى استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند أبى حنيفة يتخير الإمام فى العقار بين أن يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفا على المصالح وظاهر الآية يدل على أنه لافرق بين العقار والمنقول ومن قتل من المسلمين مشركا فى القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى عن أبى قتادة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه » أخرجه الترمذى وأخرجه البخارى ومسلم فى حديث طويل والسلب كل مايكون على المقتول من ملبوس وسلاح والفرس الذى كان راكبه ويجوز للامام أن ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم فى الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم أسوة الجماعة فى سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى عامة الجيش عن حبيب بن سلمة الفهرى قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل الربع فى البدأة والثلث فى الرجعة أخرجه أبو داود واختلف العلماء فى أن

النفل

ثنا أبو العباس الأصم أنبأنا الربيع أنبأنا الشافعى أنبأنا الثقة عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن جبير بن مطعم عن أبيه قال قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب ولم يعط منه أحدا من بنى عبد شمس ولا بنى نوفل شيئا وأخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا مطرف بن مازن عن معمر ابن راشد عن ابن شهاب أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال «لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب أتيته أنا وعثمان بن عفان فقلنا يارسول الله هؤلاء إخواننا من بنى هاشم لاننكر فضلهم لمكانك الذى وضعك الله منهم أرأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا أو منعتنا وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد هكذا وشبك بين أصابعه» واختلف أهل العلم فى سهم ذوى القربى هل هو ثابت اليوم فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت وهو قول مالك والشافعى وذهب أصحاب الرأى إلى أنه غير ثابت وقالوا سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهم ذوى القربى مردودان فى الخمس وخمس الغنيمة لثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل، وقال بعضهم يعطى للفقراء منهم دون الأغنياء والكتاب والسنة يدلان على ثبوته والخلفاء بعد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يعطونه ولا يفضل فقير على غنى لأن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده كانوا يعطون العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله فألحقه الشافعى بالميراث (٣٥) الذى يستحق باسم القرابة غير أنه يعطى القريب والبعيد وقال يفضل الذكر على الأنثى فيعطى الرجل سهمين والأنثى سهما واحدا قوله «واليتامى» وهو جمع اليتيم واليتيم الذى له سهم فى الخمس هو الصغير المسلم الذى لاأب له إذا كان فقيرا «والمساكين» هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين «وابن السبيل» هو المسافر البعيد عن ماله فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة للفارس منهم ثلاثة أسهم وللراجل سهم واحد لما أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا عبد الله بن يوسف أنا أبو سعيد بن الأعرابى ثنا سعدان بن نصر ثنا أبو معاوية عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة سهم سهما له وسهمين لفرسه وهذا قول أكثر أهل العلم وإليه ذهب الثورى والأوزاعى ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق وقال أبو حنيفة رضى الله عنه للفارس سهمان وللراجل سهم واحد ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال ويقسم العقار الذى استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند أبى حنيفة يتخير الإمام فى العقار بين أن يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفا على المصالح وظاهر الآية لايفرق بين العقار والمنقول ومن قتل مشركا فى القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين «من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه» والسلب كل مايكون على المقتول من ملبوس وسلاح وفرسه الذى هو راكبه ويجوز للإمام أن ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم فى الحرب يخصه به من بين سائر الجيش ويجعله أسوة الجماعة فى سائر الغنيمة أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى، أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش وروى عن حبيب بن سلمة الفهرى قال شهدت النبى صلى الله عليه وسلم نفل الربع فى البدأة والثلث فى الرجعة. واختلفوا فى أن

النفل من أين يعطى فقال قوم من خمس الخمس من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعى وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبادة بن الصامت قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال ياأيها الناس انه لايحل لى مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم أخرجه النسائى وقال قوم هو من الأربعة الأخماس بعد إفراز الخمس كسهام الغزاة وهو قول أحمد وإسحاق وذهب قوم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب للقاتل وأما الفىء وهو ماأصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب بأن صالحهم على مايؤدونه وكذلك الجزية وما أخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت أحد منهم فى دار الإسلام ولاوارث له فهذا كله فىء ومال الفىء كان خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة حياته وقال عمر إن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذا الفىء بشىء لم يخص به أحدا غيره ثم قرأ عمر وما أفاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه

النفل من آين يعطى فقال قوم من خمس الخمس منهم النبى صلى الله عليه وسلم وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعى وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم «مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم» وقال قوم هو من الأربعة الأخماس بعد إفراز الخمس كسهام الغزاة وهو قول أحمد وإسحاق وذهب بعضهم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل الخمس كالسلب للقاتل وأما الفئ وهو ماأصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب بأن صالحهم على مال يؤدون ، ومال الجزية وما يؤخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت واحد منهم فى دار الإسلام ، ولاوارث له فهذا كله فى فيئ ومال الفيء كان خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته قال عمر رضى الله عنه إن الله قد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الفيء بشىء لم يعطه أحدا غيره ثم قرأ ماأفاء الله على رسوله منهم إلى قوله قدير وكانت هذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ، ثم يأخذ مابقى فيجعله مجعل مال الله عز وجل واختلف أهل العلم فى مصرف الفيء (٣٦) بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هو للأئمة بعده وللشافعى فيه قولان: أحدهما للمقاتلة الذين أثبتت أساميهم فى ديوان الجهاد لأنهم القائمون مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى إرهاب العدو. والقول الثانى أنه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منهم كفايتهم ثم بالأهم فالأهم من المصالح واختلف أهل العلم فى تخميس الفيء فذهب الشافعى إلى أنه يخمس فخمسه لأهل الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح ، وذهب الأكثرون إلى أن الفيء لا يخمس بل مصرف جميعه واحد ولجميع المسلمين فيه حق أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهرى أنا جدى عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا محمد بن زكريا العذافرى أنا إسحاق الدبرى ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهرى عن مالك بن أوس بن الحدثان أنه سمع عمر بن الخطاب يقول ماعلى وجه الأرض مسلم إلا له فى هذا الفئ حق إلا ماملكت أيمانكم وأخبرنا أبو سعيد الطاهر أنبأنا جدى عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنبأنا محمد بن زكريا العذافرى أنبأنا إسحاق الدبرى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن أيوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس بن الحدثان قال قرأ عمر بن الخطاب إنما الصدقات للفقراء والمساكين حتى بلغ عليم حكيم فقال هذه لهؤلاء ثم قرأ واعلموا نما غنمتم من شىء فأن الله خمسه حتى بلغ وابن السبيل ثم قال هذه لهؤلاء ثم قرأ ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى حتى بلغ للفقراء والذين جاءوا من بعدهم ثم قال هذه استوعبت المسلمين عامة فلئن عشت فليأتين الراعى وهو بسر وحمير فنصيبه منها لم يعرق فيها جبينه قوله تعالى (إن كنتم آمنتم بالله) قيل أراد اعلموا أنما غنمتم من شئ فان الله خمسه وللرسول يأمر فيه بما يريد فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله (وما أنزلنا على عبدنا) أى إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا يعنى قوله يسئلونك عن الأنفال (يوم الفرقان) يعنى يوم بدر فرق الله فيه بين

لرسول الله ﷺ خالصة وكان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم مابقى يجعله مجعل مال الله فى الكراع والسلاح واختلف أهل العلم فى مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هو للأئمة بعده وللإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة الذين أثبتت أسماؤهم فى ديوان الجهاد لأنهم هم القائمون مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى إرهاب العدو. والقول الثاني أنه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفايتهم ثم بالأهم فالأهم من المصالح واختلف أهل العلم فى تخميس الفيء فذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه إلى أنه يخمس وخمسه لأهل الخمس من الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل يصرف جميعه مصرفا واحدا ولجميع المسلمين فيه حق. عن مالك بن أنس قال ذكر عمر يوما الفيء فقال ما أنا أحق بهذا الفيء منكم وما أحد منا أحق به من الآخر إلا أنا على منازلنا من كتاب الله وقسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمه والرجل وبلاؤه والرجل وعياله والرجل وحاجته أخرجه أبو داود وأخرج البغوى بسنده عنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول ماعلى وجه الأرض مسلم إلا له فى هذا الفيء حق إلا ماملكت أيمانكم وقوله سبحانه وتعالى (إن كنتم آمنتم بالله) يعنى وأعلموا أيها المؤمنون أن خمس الغنيمة مصروف إلى من ذكر فى هذه الآية من الأصناف فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة إن كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته (وما أنزلنا على عبدنا) يعنى وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذه إضافة تشريف وتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم والذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يسئلونك عن الأنفال الآية (يوم الفرقان) يعنى يوم بدر قال ابن عباس يوم الفرقان يوم بدر فرق الله عز وجل

بين

الحق والباطل وهو (يوم التقى الجمعان) حزب الله وحزب الشيطان وكان يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان (والله على كل شيء قدير) على نصركم مع قلتكم وكثرتهم (إذ أنتم) أى إذ أنتم نزول يامعشر المسلمين (بالعدوة الدنيا) أى بشفير الوادى الأدنى إلى المدينة والدنيا تأنيث الأدنى (وهم) يعنى عدوكم من المشركين (بالعدوة القصوى) بشفير الوادى الأقصى من المدينة والقصوى تأنيث الأقصى قرأ ابن كثير وأهل البصرة بالعدوة بكسر العين فيهما والباقون بضمهما

وهما لغتان: كالكسوة والكسوة والرشوة والرشوة (والركب) يعنى العير يريد أبا سفيان وأصحابه (أسفل منكم) أى فى موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر (ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد) وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير ، وخرج الكفار ليمنعوها فالتقوا على غير ميعاد فقال تعالى ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد لقلتكم وكثرة عدوكم (ولكن) الله جمعكم على غير ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه (ليهلك من هلك عن بينة) أى ليموت من يموت على بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه (ويحيى من حى عن بينة) ويعيش من يعيش على بينة لوعده وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال محمد بن إسحاق معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك فالهلاك هو الكفر والحياة هى الإيمان وقال قتادة ليضل من ضل على بينة ويهتدى من اهتدى على بينة ، قرأ أهل الحجاز وأبو بكر ويعقوب حيى بيائين مثل خشى وقرأ الآخرون بياء واحدة مشددة لأنه مكتوب بياء واحدة مشددة (وإن الله لسميع) لدعائكم (عليم) بنياتكم قوله تعالى (إذ يريكهم الله) يريك يا محمد المشركين (فى منامك) أى فى نومك وقال الحسن فى منامك أى فى عينك لأن العين موضع النوم (قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) لجبنتم (ولتنازعتم) أى اختلفتم (فى الأمر) أى فى الإحجام والإقدام

بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) يعنى جميع المؤمنين وجميع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو لسبع عشرة من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الألف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين وأسر منهم مثل ذلك (والله على كل شيء قدير) يعنى على نصركم أيها المؤمنون مع قلتكم وكثرة أعدائكم . قوله سبحانه وتعالى (إذ انتم) أى اذكروا نعمة الله عليكم يامعشر المسلمين إذ أنتم (بالعدوة الدنيا) يعنى بشفير الوادى الأدنى من المدينة والدنيا هنا تأنيث الأدنى (وهم) يعنى المشركين (بالعدوة القصوى) يعنى بشفير الوادى الأقصى من المدينة مما يلى مكة والقصوى تأنيث الأقصى (والركب أسفل منكم) يعنى أبا سفيان وأصحابه وهم عير قريش التى خرجوا لأجلها وكانوا فى موضع أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر (ولو تواعدتم) يعنى أنتم والمشركون (لاختلفتم فى الميعاد) وذلك لأن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد والمعنى ولو تواعدتم أنتم والكفار على القتال لاختلفتم أنتم وهم لقلتكم وكثرة عدوكم (ولكن) يعنى ولكن الله جمعكم على غير ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) يعنى من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه وأعداء دينه (ليهلك من هلك عن بينة) يعنى ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه (ويحيى من حى عن بينة يعنى ويعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة قامت عليه وقال محمد بن اسحق معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك لأن الهلاك هو الكفر والحياة هى الإيمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل على بينة ويهتدى من اهتدى على بينة (وإن الله لسميع عليم) يعنى يسمع دعاءكم ويعلم نياتكم ولا تخفى عليه خافية . قوله عز وجل (إذ يريكهم الله) يعنى واذكر يا محمد نعمة الله عليك إذ يريك المشركين (فى منامك يعنى فى نومك (قليلا) قال مجاهد أراهم الله فى منامه قليلا فأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك وكان ذلك تثبيتا وقال محمد بن اسحق فكان ما أراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على عدوهم فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم وقيل لما أرى الله النبى صلى الله عليه وسلم كفار قريش فى منامه قليلا فأخبر بذلك أصحابه قالوا رؤيا النبى ﷺ حق فصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم وقال الحسن ان هذه الإراءة كانت فى اليقظة والمراد من المنام العين لأنها موضع النوم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) يعنى لجبنتم والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو أراكهم كثيرا فذكرت ذلك لأصحابك لفشلوا وجبنوا عنهم (ولتنازعتم فى الأمر) يعنى اختلفتم

فى أمر الإقدام عليهم أو الإحجام عنهم وقيل معنى التنازع فى الأمر الاختلاف الذى تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجاذبة كل واحد إلى واحد إلى ناحية والمعنى لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم (ولكن الله سلم) يعنى ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم وقيل معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل (إنه عليم بذات الصدور) يعنى أنه تعالى يعلم ما يحصل فى الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع وقال ابن عباس معناه أنه عليم بما فى صدوركم من الحب لله عز وجل (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا) يعنى أن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين فى أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا فى القتال ليتأكد فى اليقظة ما رآه النبى ﷺ فى منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى تراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال كنا ألفا) ويقللكم فى أعينهم يعنى ويقللكم يا معشر المؤمنين فى أعين المشركين قال السدى قال ناس من المشركين إن العير قد انصرف فارجعوا فقال أبو جهل الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى نستأصلهم إنما محمد وأصحابه أكلة جزور يعنى لقلتهم فى عينيه ثم قال فلا تقتلوهم واربطوهم فى الحبال يقوله من القدرة التى فى نفسه والحكمة فى تقليل المشركين فى أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ولتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليه ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة فى تقليل المؤمنين فى أعين المشركين لئلا يهربوا وإذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين عليهم . فان قلت كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل . قلت ذلك ممكن فى القدرة الإلهية فان الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) يعنى أمرا كان كائنا من إعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله فان قلت قد قال فى الآية المتقدمة ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا وقال فى هذه الآية ليقضى الله أمرا كان مفعولا فما معنى هذا التكرار . قلت المقصود من ذكره فى الآية المتقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله ﷺ والمقصود من ذكره فى هذه الآية لأنه تعالى قلل عدد الفريقين فى أعين بعضهم بعضا للحكمة التى قضاها فلذلك قال ليقضى الله أمرا كان مفعولا (وإلى الله ترجع الأمور) يعنى فى الآخرة فيجازى كل عامل على قدر عمله فالمحسن باحسانه والمسىء باساءته أو يغفر . قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة) يعنى جماعة كافرة فاثبتوا) يعنى لقتالهم وهو أن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله ولا يحدثوها بالتولى (واذكروا الله كثيرا) يعنى كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكرا كثيرا بقلوبكم وألسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بأن يذكروه فى أشد الأحوال وذلك عند لقاء العدو وقتاله وفيه تنبيه على أن الإنسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله وقيل المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى فأمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء ثم قال

(ولكن الله سلم) أى سلمكم من المخالفة والفشل (إنه عليم بذات الصدور) قال ابن عباس علم ما فى صدوركم من الحب لله عز وجل (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا) قال مقاتل وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أن العدو قليل قبل لقاء العدو وأخبر أصحابه بما رأى فلما التقوا ببدر قلل الله المشركين فى أعين المؤمنين قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى أتراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا (ويقللكم) يامعشر المؤمنين (فى أعينهم) قال السدى قال ناس من المشركين أن العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم إنما محمد وأصحابه أكلة جزور فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال يقوله من القدرة التى فى نفسه قال الكلبى استقل بعضهم بعضا ليجترؤا على القتال فقلل المشركين فى أعين المؤمنين لكى لايجبنوا وقلل المؤمنين فى أعين المشركين لكى لايهربوا (ليقضى الله أمرا) من إعلاء الإسلام وإعزاز أهله وإذلال الشرك وأهله (كان مفعولا) كائنا (وإلى الله ترجع الأمور) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة) أى جماعة كافرة (فاثبتوا) لقتالهم (واذكروا الله كثيرا) أى

ادعوا الله بالنصر والظفر بهم (لعلكم تفلحون) أى كونوا على رجاء الفلاح (واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا) لا تختلفوا (فتفشلوا) أى تجبنوا وتضعفوا (وتذهب ريحكم) قال مجاهد نصرتكم وقال السدى جرأتكم وجدكم وقال مقاتل بن حيان حدتكم وقال النضر بن شميل قوتكم وقال الأخفش دولتكم والريح هاهنا كناية (٣٩) عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد قال قتادة وابن زيد هو ريح النصر لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله عز وجل تضرب وجوه العدو ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان ابن مقرن قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر قوله عز وجل (واصبروا إن الله مع الصابرين) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا معاوية بن عمرو ثنا أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن سالم أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله وكان كاتبا له قال كتب إليه عبد الله بن أبى أوفى فقرأته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض ايامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس فقال يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا) فخرا وأشرا (ورئاء الناس) قال الزجاج البطر الطغيان فى النعمة وترك شكرها والرياء إظهار الجميل ليرى وإبطان القبيح (ويصدون عن سبيل الله

تعالى (لعلكم تفلحون) يعنى وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفرة. فإن قلت ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز. قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة فى الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح فى حصول هذا الثبات فى المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكدا لذلك (وأطيعوا الله ورسوله) يعنى فى أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو (ولا تنازعوا فتفشلوا) يعنى ولا تختلفوا فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن. وقوله تعالى (وتذهب ريحكم) يعنى قوتكم وقال مجاهد نصرتكم قال وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أحد وقال السدى جراءتكم وجدكم وقال مقاتل حدتكم وقال الأخفش وأبو عبيدة دولتكم والريح هنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد هى ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود. وقوله سبحانه وتعالى (واصبروا) يعنى عند لقاء عدوكم ولا تنهزموا عنهم (إن الله مع الصابرين) يعنى بالنصر والمعونة (ق) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لا تتمنوا لقاء العدو فاذا لقيتموهم فاصبروا. قوله عز وجل (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا) يعنى فخرا وأشرا وقيل البطر الطغيان فى النعمة وذلك أن النعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها فى المفاخرة على الأقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها فى غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر فى النعمة وإن صرفها فى طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان فى النعمة وترك شكرها (ورئاء الناس) الرياء إظهار الجميل ليراه الناس مع إبطان القبيح والفرق بين الرياء والنفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر والرياء إظهار الطاعة مع ابطان المعصية (ويصدون عن سبيل الله) يعنى ويمنعون الناس عن الدخول فى دين الله نزلت هذه الآية فى كفار قريش حين خرجوا إلى بدر ولهم فخر وبغى فقال رسول الله ﷺ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى به قال ابن عباس إن أبا سفين لما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورحالكم وأموالكم

والله بما يعملون محيط) نزلت فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغى وفخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادلك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى قالوا ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم) لتمنعوا عيركم فقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل والله لانرجع حتى نرد بدرا وكان بدر موسما من (٤٠) مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام فنقيم بها ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم باخلاص النية والحسبة فى نصر دينه ومؤازرة نبيه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) وكان تزيينه أن قريشا لما اجتمعت للسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب فكاد ذلك أن يثنيهم فجاء إبليس فى جند من الشياطين معه رأيته فتبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم (وقال) لهم (لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) أى مجير لكم من كنانة (فلما تراءت الفئتان) أى التقى الجمعان رأى إبليس أثر الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنه لاطاقة له بهم (نكص على عقبيه) قال الضحاك ولى مدبرا وقال النضر بن شميل رجع القهقرى على قفاه هاربا قال الكلبى لما التقوا كان إبليس فى صف المشركين على صورة سراقه آخذ بيد الحارث ابن هشام فنكص على عقبيه فقال له الحرث أفرارا من غير قتال فجعل يمسكه فدفع فى صدره وانطلق وانهزم الناس ، فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال بلغنى أنكم تقولون أنى هزمت الناس فوالله ماشعرت بمسيركم حتى بلغنى هزيمتكم فقالوا أما أتيتنا فى يوم كذا فحلف لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان قال الحسن فى قوله (وقال إنى برىء منكم

فقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرا وكان فى بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق فى كل عام قال فنقيم عليها ثلاثا وننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا زاد غيره قال فلما وافوا بدرا سقوا كؤوس الحمام عوضا عن الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم والمعنى لايكون أمركم أيها المؤمنون رياء وسمعة ولا لالتماس ماعند الناس ولكن أخلصوا لله عز وجل النية وقاتلوا حسبة فى نصر دينكم ومؤازرة نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا تعملوا إلا لذلك ولا تطلبوا غيره . وقوله تعالى (والله بما يعملون محيط) فيه وعيد وتهديد يعنى أنه تعالى عالم بجميع الأشياء لايخفى عن علمه شىء لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازى المحسنين ويعاقب المسيئين قوله سبحانه وتعالى (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) يعنى اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ زين الشيطان يريد إبليس للمشركين أعمالهم الخبيثة (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) قال بعضهم كان تزيينه وسوسة ألقاها فى قلوبهم من غير أن يتحول فى صورة غير صورته وقال جمهور المفسرين تصور إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان تزيينه أن قريشا لما أجمعت على المسير إلى بدر ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر بن الحرث من الحروب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى وكان من أشرف بنى كنانة فقال أنا جار لكم من أن يأتيكم من كنانة شىء تكرهونه فخرجوا سراعا وقال ابن عباس جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه رأيته فى صورة رجل من رجال بنى مدلج سراقة بن مالك بن جعشم فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم لما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين فولوا مدبرين وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس لعنه الله فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبرا وشيعته فقال الرجل ياسراقة أتزعم أنك جار لنا فقال إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة وقوله إنى جار لكم يعنى مجير لكم من كنانة (فلما تراءت الفئتان) أى التقى الجمعان رأى إبليس الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله إبليس أنه لاطاقة له بهم (نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم) يعنى رجع القهقرى وولى مدبرا هاربا على قفاه وقال الكلبى لما التقى الجمعان كان إبليس فى صف المشركين على صورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله إبليس على عقبيه فقال له الحرث

إني أرى مالا ترون) قال رأى إبليس جبريل معتجرا ببرد يمشي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب بعد وقال قتادة كان إبليس يقول إني أرى مالا ترون وصدق وقال (إني أخاف الله) وكذب والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لاقوة به ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وذلك عادة عدو الله لمن أطاعه إذا (٤١) التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم . وقال عطاء إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك وقال الكلبي خاف أن يأخذه جبريل عليه السلام ويعرف حاله فلا يطيعوه وقيل معناه إني أخاف الله أي أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمره (والله شديد العقاب) وقيل معناه أني أخاف الله عليكم «والله شديد العقاب» قيل انقطع الكلام عند قوله أخاف الله ثم يقول الله والله شديد العقاب أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن إبراهيم بن أبي علية عن طلحة بن عبد الله ابن كريز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام إلا ما كان من يوم بدر فقيل وما رأى يوم بدر قال أما إنه قد رأى جبريل عليه السلام وهو يزع الملائكة هذا حديث مرسل قوله تعالى (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض) شك ونفاق (غر هؤلاء دينهم) يعني غر المؤمنين دينهم هؤلاء قوم كانوا مستضعفين بمكة وقد أسلموا وحبسهم أقرباؤهم من الهجرة فلما خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم كرها فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا غر هؤلاء دينهم

فرارا من غير قتال وجعل يمسكه فدفع في صدره وانطلق فانهزم الناس فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال بلغني أنكم تقولون أني هزمت الناس فوالله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فقالوا أما أتيتنا في يوم كذا وكذا فحلف لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان شيطانا قال الحسن في قوله (إني أرى مالا ترون) قال رأى إبليس جبريل عليه السلام معتجرا ببرد يمشي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب وقال قتادة قال إبليس إني أرى مالا ترون وصدق وقال إني أخاف الله وكذب ما به مخافة الله ولكن علم أنه لاقوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وتلك عادة عدو الله إبليس لمن أطاعه إذ التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقيل أنه خاف أن يهلك فيمن هلك وقيل خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه وقيل معناه (إني أخاف الله) أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمر ربه وقيل لما رأى الملائكة قد نزلت من السماء خاف أن تكون القيامة (والله شديد العقاب) قيل معناه إني أخاف الله لأنه شديد العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول إبليس وقيل تم كلامه عند قوله إني أخاف الله وقوله تعالى والله شديد العقاب ابتداء كلام يقول الله سبحانه وتعالى والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما رؤي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر فانه قد رأى جبريل يزع الملائكة أخرجه مالك في الموطأ قوله ولا أدحر هو بالدال والحاء المهملتين من الدحور وهو الإبعاد والطرد مع الإهانة وقوله يزع الملائكة أي يكفهم ويحبسهم لئلا يتقدم بعضهم على بعض والوازع هو الذي يتقدم ويتأخر في الصف ليصلحه . فان قلت كيف يقدر إبليس على أن يتصور بصورة البشر وإذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطانا . قلت إن الله عز وجل أعطاه قوة وأقدره على ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفوس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة . قوله عز وجل (إذ يقول المنافقون) يعني من أهل المدينة (والذين في قلوبهم مرض) أي شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقو الإسلام في قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم إلى بدر فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا (غر هؤلاء دينهم) يعني أن هؤلاء نفر قليلون يقاتلون أضعافهم فقد غرهم دينهم الإسلام على ذلك وحملهم على قتل أنفسهم رجاء الثواب في الآخرة فقتلوا جميعا يوم بدر وقال مجاهد إن فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة بن زمعة بن الأسود ابن المطلب وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من

فقتلوا جميعا منهم قيس بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلى ابن أمية بن خلف الجمحي والعاص بن منبه بن الحجاج قال الله تعالى (ومن يتوكل على الله) أى ومن يسلم أمره إلى الله ويثق به (فان الله عزيز) قوى يفعل بأعدائه مايشاء (حكيم) لايسوى بين وليه وعدوه (ولو ترى) يامحمد (إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون) ﴿٤٢﴾ أى يقبضون أرواحهم اختلفوا فيه قيل هذا عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار بسياط النار وقيل أراد الذين قتلوا من المشركين ببدر كانت الملائكة يضربون (وجوههم وأدبارهم) قال سعيد بن جبير ومجاهد يريد أستاههم ولكن الله حيي يكني، قال ابن عباس كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم وقال ابن جريج يريد ماأقبل منهم وما أدبر أى يضربون أجسادهم كلها والمراد بالتوفى القتل (وذوقوا عذاب الحريق) أى وتقول لهم الملائكة ذوقوا عذاب الحريق وقيل كان مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفار فتلتهب النار فى جراحاتهم فذلك قوله تعالى وذوقوا عذاب الحريق، وقال الحسن هذا يوم القيامة تقول لهم خزنة جهنم ذوقوا عذاب الحريق، وقال ابن عباس رضى الله عنهما يقولون لهم ذلك بعد الموت (ذلك) أى ذلك الضرب الذى وقع بكم (بما قدمت أيديكم) فرعون أى بما كسبت أيديكم (وأن الله ليس بظلام للعبيد كدأب آل فرعون) كفعل آل فرعون وصنيعهم وعادتهم معناه أن عادة هؤلاء فى كفرهم كعادة آل فرعون. قال ابن عباس هو أن آل فرعون أيقنوا أن موسى نبى من الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فأنزل الله بهم عقوبة كما أنزل بآل فرعون (والذين من قبلهم)

مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى (ومن يتوكل على الله) يعنى ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسانه (فان الله) حافظه وناصره لأنه (عزيز) لايغلبه شىء (حكيم) فيما قضى وحكم فيوصل الثواب إلى أوليائه والعقاب إلى أعدائه. قوله عز وجل (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) يعنى ولو عاينت يامحمد وشاهدت إذ تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت لرأيت أمرا عظيما ومنظرا فظيعا وعذابا شديدا ينالهم فى ذلك الوقت (يضربون وجوههم وأدبارهم) اختلفوا فى وقت هذا الضرب فقيل هو عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار وقيل إن الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم وقال ابن عباس كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف وإذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم وقال ابن جريج يريد ماأقبل من أجسادهم وأدبر يعنى يضربون جميع أجسادهم (وذوقوا عذاب الحريق) يعنى وتقول لهم الملائكة عند القتل ذوقوا عذاب الحريق قيل كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار فى جراحاتهم وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانية ذوقوا عذاب الحريق (ذلك) يعنى الذى نزل بكم من القتل والضرب والحريق (بما قدمت أيديكم) يعنى إنما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصى. فان قلت اليد ليست محلا للكفر وإنما محله القلب لأن الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضى أن فاعل هذا الكفر هى اليد وذلك ممتنع. قلت اليد هنا عبارة عن القدرة لأن اليد آلة العمل والقدرة هى المؤثرة فى العمل فاليد كناية عن القدرة. قوله تعالى (وأن الله ليس بظلام للعبيد) يعنى أنه سبحانه وتعالى لايعذب أحدا من خلقه إلا بجرم اجترمه لأنه لايظلم أحدا من خلقه وإنما نفى الظلم عن نفسه مع أنه يعذب الكافر على كفره والعاصى على عصيانه لأنه يتصرف فى ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم إليه فلا يتوهم متوهم أنه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فلهذا قال الله سبحانه وتعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد لأنهم فى ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء. قوله تعالى (كدأب آل فرعون) يعنى أن عادة هؤلاء الكفار فى كفرهم كعادة آل فرعون فى كفرهم فجوزى هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدر كما جوزى آل فرعون بالإغراق وأصل الدأب فى اللغة إدامة العمل يقال فلان يدأب فى كذا وكذا يداوم عليه ويتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأبا لأن الإنسان يداوم على عادته ويواظب عليها قال ابن عباس معناه أن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبى من الله تعالى فكذبوه فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق كذبوه فأنزل الله بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون (والذين من قبلهم) يعنى من قبل آل

كعادة الذين من قبلهم أى (كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أراد أن الله تعالى لا يغير ما أنعم على قوم حتى يغيروا هم ما بهم بالكفران وترك الشكر فإذا فعلوا ذلك غير الله ما بهم فسلبهم النعمة وقال السدى نعمة الله محمد صلى الله عليه وسلم (٤٣) أنعم الله به على قريش وأهل مكة فكذبوه وكفروا به فنقله الله إلى الأنصار (وأن الله سميع عليم كدأب آل فرعون) كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم) من كفار الأمم (كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم) أهلكنا بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ وبعضهم بالريح وبعضهم بالغرق فكذلك أهلكنا كفار بدر بالسيف لما كذبوا بآيات ربهم (وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) يعنى الأولين والآخرين (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون) قال الكلبي ومقاتل يعنى يهود بنى قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه (الذين عاهدت منهم) يعنى عاهدتهم وقيل : عاهدت معهم وقيل أدخل من لأن معناه أخذت منهم العهد (ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) وهم بنو قريظة نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالئوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم (وهم لايتقون) لايخافون الله تعالى فى نقض العهد (فأما تثقفنهم) تجدنهم (فى الحرب) قال مقاتل إن أدركتهم

فرعون (كفروا بآيات الله) يعنى أن عادة الأمم السالفة هو كفرهم بآيات الله (فأخذهم الله بذنوبهم) يعنى بسبب كفرهم وذنوبهم (إن الله قوى) يعنى فى أخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله (شديد العقاب) يعنى لمن كفر به وكذب رسله (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعنى أن الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث إليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فقابلوا هذه النعمة بأن تركوا شكرها وكذبوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وغيروا ما بأنفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب قال السدى : نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى إلى الأنصار (وأن الله سميع) يعنى لأقوال خلقه لا يخفى عليه شىء من كلامهم (عليم) يعنى بما فى صدورهم من خير وشر ، فيجازى كل واحد على عمله (كدأب آل فرعون) يعنى أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم) يعنى أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) يعنى الأولين والآخرين فإن قلت ما الفائدة فى تكرير هذه الآية مرة ثانية؟ . قلت فيها فوائد منها الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الأول لأن الآية الأولى فيها ذكر أخذهم وفى الآية الثانية ذكر إغراقهم فهذه تفسير للأولى. الفائدة الثانية أنه ذكر فى الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ففى الآية الأولى إشارة إلى أنهم أنكروا آيات الله وجحدوها وفى الآية الثانية اشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها الفائدة الثالثة أن تكرير هذه القصة للتأكيد وفى قوله «كذبوا بآيات ربهم» زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفى ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب. قوله تعالى (إن شر الدواب عند الله) يعنى فى علمه وحكمه (الذين كفروا فهم لايؤمنون) والمعنى أن شر الدواب من الإنس الكفار المصرون على الكفر نزلت فى يهود بنى قريظة رهط كعب بن الأشرف (الذين عاهدت منهم) قيل من صلة يعنى الذين عاهدتهم وقيل : هى للتبعيض لأن المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والأشراف (ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) قال المفسرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاهد يهود بنى قريظة أن لايحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا ومالئوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهم لايتقون) يعنى أنهم لايخافون الله فى نقض العهد لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم أن يتقى نقض العهد حتى يسكن الناس إلى قوله ويثقون بكلامه فبين الله عز وجل أن من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب (فأما تثقفنهم فى الحرب) يعنى فأما

بالحرب وأسرتهم (فشرد بهم من خلفهم) قال ابن عباس فنكل بهم من وراءهم وقال سعيد بن جبير أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد التفريق والتبديد معناه فرق بهم جمع كل ناقض أى افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك وجاءوا لحربك فعلا من القتل والتنكيل يفرق منك ويخافك من خلفهم من أهل مكة واليمن (لعلهم يذكرون) يتذكرون ويتعظون ويعتبرون فلا ينقضون العهد (وإما تخافن) أى تعلمن (٤٤) يامحمد (من قوم) معاهدين (خيانة) نقض عهد بما يظهر لكم من آثار الغدر كما ظهر من قريظة والنضير (فانبذ إليهم) فاطرح إليهم عهدهم (على سواء) يقول أعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب معهم (إن الله لايحب الخائنين) أخبرنا محمد ابن الحسن المروزى أنا أبو سهل محمد بن عمر ابن طرفة السجزى أنا أبو سليمان الخطابى أنا أبو بكر محمد بن بكر بن محمد بن عبد الرزاق بن داسة التمار ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى ثنا حفص ابن عمر النمرى ثنا شعبة عن أبى الفيض عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لاغدرا فنظروا فاذا هو عمرو بن عنبسة فأرسل إليه يعنى معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولايحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم عهدهم على سواء فرجع معاوية رضى الله عنه» وقوله (ولايحسبن الذين كفروا سبقوا) قرأ أبوجعفر وابن عامر وحمزة وحفص يحسبن بالياء وقرأ الآخرون بالتاء سبقوا أى فاتوا نزلت فى الذين انهزموا يوم بدر من

تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم فى الحرب (فشرد بهم من خلفهم) قال ابن عباس معناه فنكل بهم من ورائهم. وقال سعيد بن جبير أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد فى اللغة التفريق مع اضطراب ومعنى الآية إنك إذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن (لعلهم يذكرون) يعنى لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد (وإما تخافن) يعنى وإما تعلمن يامحمد (من قوم) يعنى معاهدين (خيانة) يعنى نقض العهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بنى قريظة والنضير (فانبذ) أى فاطرح (إليهم) يعنى عهدهم وارم به إليهم (على سواء) يعنى على طريق ظاهر مستو يعنى أعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولا بنصب الحرب معهم (إن الله لايحب الخائنين) يعنى فى نقض العهد عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لاغدر فاذا هو عمرو بن عنبسة فأرسل إليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء. فرجع معاوية» أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذى عن سليم بن عامر نفسه بلا زيادة رجل من حمير وعنده الله أكبر مرة واحدة وفيه جاء على دابة أو فرس وأما حكم الآية فقال أهل العلم إذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادنهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الإمام عن نبذ العهد وإعلامهم بالحرب وإن ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لأن قريظة كانوا قد عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وبأصحابه فهاهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة. وقوله تعالى (ولا تحسبن) قرئ بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى ولا تحسبن يامحمد (الذين كفروا سبقوا) يعنى فاتوا وانهزموا يوم بدر وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا

المشركين فمن قرأ بالياء يقول لايحسبن الذين كفروا أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب قرأ ابن عامر (أنهم لايعجزون) بفتح الألف أى لأنهم لايعجزون ولا يفوتونني وقرأ الآخرون بكسر الألف على الابتداء قوله تعالى (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) الإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة من قوة أى من الآلات التى تكون لكم قوة عليهم من الخيل والسلاح أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغفار بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا هارون بن معروف ثنا ابن وهب (٤٥) أخبرنى عمرو ابن الحارث عن أبى على ثمامة بن شفى أنه سمع عقبة بن عامر يقول «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ألا أن القوة الرمى ألا أن القوة الرمى ألا أن القوة الرمى» وبهذا الإسناد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله عز وجل فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» أخبرنا عبد الواحدى المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن حمزة بن أبى أسيد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش وصفوا لنا إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزيانى ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا هشام الدستوائى عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة عن أبى نجيح السلمى قال حاصرنا مع النبى صلى الله عليه وسلم الطائف فسمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول «من بلغ بسهم فى سبيل الله فهو له درجة فى الجنة قال فبلغت يومئذ ستة عشر سهما وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رمى بسهم فى سبيل الله فهو عدل محرر» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسين على بن محمد بن بشران أنا

يعنى خلصوا من القتل والأسر يوم بدر (أنهم لايعجزون) يعنى أنهم بهذا السبق لايعجزون الله من الانتقام منهم إما فى الدنيا بالقتل وإما فى الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبى ﷺ فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمهم الله أنهم لايعجزونه . قوله عز وجل (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) الإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه وفى المراد بالقوة أقوال أحدها أنها جميع أنواع الأسلحة والآلات التى تكون لكم قوة فى الحرب على قتال عدوكم الثانى أنها الحصون والمعاقل الثالث الرمى وقد جاءت مفسرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى ثلاثا» أخرجه مسلم (خ) عن أبى أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوم بدر حين صففنا لقريش إذا أكثبوكم» يعنى غشوكم وفى رواية أكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفى رواية «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل» (م) عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» (م) عن فقيم اللخمى قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه قال قلت وماذاك؟ قال سمعته يقول «من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا أو قد عصى» عن أبى نجيح السلمى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من بلغ بسهم فهو له درجة فى الجنة فبلغت يومئذ عشرة أسهم قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ومن رمى بسهم فى سبيل الله فهو عدل محرر» أخرجه النسائى والترمذى بمعناه وعنده قال عدل رقبة محررة وأخرجه أبو داود أيضا عن عقبة بن عامر بمعناه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله عز وجل ليدخلن بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب فى عمله الخير والرامى به والممد به» وفى رواية «ومنبله فارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه أى نبله فإنهن من الحق ومن ترك الرمى بعد ماعلمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو كفرها» أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذى مختصر إلى نبله (خ) عن سلمة بن الأكوع قال «مر النبى صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون بالقوس فقال النبى صلى الله عليه وسلم ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا ارموا وأنا مع بنى فلان فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم مالكم لاترمون قالوا كيف نرمى وأنت معهم فقال النبى ارموا وأنا معكم كلكم

إسماعيل بن حمد الصفار ثنا أحمد بن منصور الرمادى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن عبد الله بن زيد بن الأزرق عن عقبة بن عامر الجهنى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر فى الجنة صانعه والممد به والرامى فى سبيل الله» وروى عن خالد بن زيد عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر فى الجنة صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرامى به ومنبله وارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلى من أن تركبوا كل شىء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانه من الحق ومن ترك الرمى بعد ما علمه (٤٦) رغبة عنه فانه نعمة تركها» أو قال «كفرها» قوله (ومن رباط الخيل) عنى ربطها واقتناؤها للغزو وقال عكرمة : القوة الحصون ومن رباط الخيل الإناث . وروى عن خالد بن الوليد أنه كان لا يركب فى القتال إلا الإناث لقلة صهيلها وعن أبى محيريز قال كان الصحابة رضى الله عنهم يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الشنات والغارات . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد ابن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا زكريا عن عامر ثنا عروة البارقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا على بن حفص ثنا ابن المبارك ثنا طلحة بن أبى سعيد قال سمعت سعيد المقبرى يحدث أنه سمع أبا هريرة يقول قال النبى صلى الله عليه وسلم «من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده ، فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة» أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمى أنبأنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل ثلاثة هى لرجل أجر وهى لرجل ستر وهى لرجل وزر ، فأما التى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة

القول الرابع أن المراد بالقوة جميع مايتقوى به فى الحرب على العدو فكل ماهو آلة يستعان بها فى الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باستعدادها وقوله صلى الله عليه وسلم «ألا أن القوة الرمى» لاينفى كون غير الرمى من القوة فهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة» وقوله «الندم توبة» فهذا لاينفى اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله فكذا هاهنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال فى الحرب وجهاد العدو بجميع مايمكن من الآلات كالرمى بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مأمور به إلا أنه من فروض الكفايات وقوله تعالى (ومن رباط الخيل) يعنى اقتناءها وربطها للغزو فى سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفظ وسمى المكان الذى يخص باقامة حفظة فيه رباطا والمرابطة إقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل للجهاد من أعظم مايستعان به روى أن رجلا قال لابن سيرين إن فلانا أوصى بثلث ماله للحصون فقال ابن سيرين يشترى به الخيل ويربطها فى سبيل الله وقال عكرمة القوة الحصون ومن رباط الخيل يعنى الإناث ووجه هذا أن العرب تربط الأناث من الخيل بالأفنية للنسل وروى أن خالد بن الوليد كان لايركب فى القتال إلا الإناث لقلة صهيلها وعن ابن محيريز قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الشنات والغارات وقيل ربط الفحول أولى من الإناث لأنها أقوى على الكر والفر والعدو فكانت المحاربة عليها أولى من الإناث وقيل إن لفظ الخيل عام فيتناول الفحول والإناث فأى ذلك ربط بنية الغزاة كان فى سبيل الله (ق) عن عروة بن الجعد البارقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة» (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» (خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات» (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الخيل ثلاثة هى لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر ، فأما الذى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله زاد فى رواية لأهل الإسلام فأطال لها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك

ذلك له حسنات فهى لذلك الرجل أجر ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام فهى على ذلك وزر «وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر» فقال ماأنزل على فيها شىء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الطيل الحبل الذى يشد به الفرس وقت الرعى والاستنان الجرى والشرف الشوط الذى تجرى فيه الفرس وقوله تغنيا يعنى استغناء بها عن الطلب لما فى أيدى الناس أما حق ظهورها فهو أن يحمل عليها منقطعا إلى أهله وأما حق رقابها فقيل أراد به الإحسان إليها وقيل أراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله : نواء لأهل الإسلام النواء المعاداة يقال ناوأت الرجل مناوأة إذا عاديته . وقوله تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) يعنى تخوفون بتلك القوة وبذلك الرباط عدو الله وعدوكم يعنى الكفار من أهل مكة وغيرهم وقال ابن عباس تخزون به عدو الله وعدوكم وذلك لأن الكفار إذا علموا أن المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الأسلحة وآلات الحرب وإعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الإسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار فى الإسلام أو بذل الجزية للمسلمين . وقوله تعالى (وآخرين من دونهم) يعنى وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء فيهم فقال مجاهدهم بنو قريظة وقال السدى هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى (لاتعلمونهم) لأنهم معكم يقولون بألسنتهم لاإله إلاالله (الله يعلمهم) يعنى أنهم منافقون وأورد على هذا القول أن المنافقين لايقاتلون لإظهارهم كلمة الإسلام فكيف يخوفون باعداد القوة ورباط الخيل . وأجيب عن هذا الإيراد أن المنافقين إذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويحزنهم فكان فى ذلك إرهابهم وقال الحسن هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبرى قال لأن الله تعالى قال لاتعلمونهم ولاشك بأن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لعلمهم بأنهم مشركون ولأنهم حرب للمؤمنين أما الجن فلا يعلمونهم الله يعلمهم يعنى يعلم أحوالهم وأما كنهم دونكم ويعضد هذا القول ماروى «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال هم الجن وأن الشيطان لايخبل أحدا فى داره فرس عتيق» ذكر هذا الحديث ابن الجوزى وغيره من المفسرين بغير إسناد وقال الحسن صهيل الخيل يرهب الجن . وقوله سبحانه وتعالى (وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله) قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو أمر عام فى كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره (يوف إليكم) يعنى أجره فى الآخرة ويعجل لكم عوضه فى الدنيا (وأنتم لاتظلمون) يعنى وأنتم لاتنقصون من ثواب أعمالكم شيئا قوله تبارك وتعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين باعداد القوة وما يرهب العدو أمرهم بعد ذلك أن يقبلوا منهم الصلح أن مالوا إليه وسألوه فقال تعالى «وإن جنحوا للسلم» يعنى مالوا إلى السلم يعنى المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها أى مل إليها يعنى إلى المصالحة روى عن الحسن وقتادة إن هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل أنها غير منسوخة لكنها تتضمن الأمر بالصلح إذا كان فيه مصلحة ظاهرة فان رأى الإمام أن يصالح أعداءه من الكفار وفيه قوة فلا يجوز أن يهادنهم سنة كاملة وإن

ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك له حسنات فهى لذلك أجر وأما التى هى له ستر فرجل ربطها تغنيا وتعففا ثم لم ينس حق الله فى ظهورها ولارقابها فهى له ستر وأما التى هى له وزر فرجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام فهى على ذلك وزر وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال «ما أنزل على فيها شىء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (ترهبون به) تخوفون به (عدو الله وعدوكم) وآخرين أى وترهبون آخرين (من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم) قال مجاهد ومقاتل وقتادة هم بنو قريظة وقال السدى هم أهل فارس وقال الحسن وابن زيد هم المنافقون لا تعلمونهم لأنهم معكم يقولون لا إله إلا الله وقيل هم كفار الجن (وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم) يوفر لكم أجره (وأنتم لاتظلمون) لاينقص أجوركم قوله تعالى (وإن جنحوا للسلم) أى مالوا إلى الصلح (فاجنح لها) أى مل إليها وصالحهم روى عن قتادة والحسن أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى «اقتلوا المشركين حيث

كانت القوة للمشركين جاز أن يهادنهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح أهل مكة مدة عشر سنين ثم إنهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة . وقوله تعالى (وتوكل على الله) يعنى فوض أمرك إلى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك فى جميع أحوالك (إنه هو السميع) يعنى لأقوالهم (العليم) يعنى بأحوالهم . قوله عز وجل (وإن يريدوا أن يخدعوك) يعنى يغدروا بك قال مجاهد يعنى بنى قريظة والمعنى وإن أرادوا باظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم (فان حسبك الله) يعنى فان الله كافيك بنصره ومعونته (هو الذى أيدك بنصره) يعنى هو الذى قواك وأعانك بنصره يوم بدر وفى سائر أيامك (وبالمؤمنين) يعنى وأيدك بالمؤمنين يعنى الأنصار . فان قلت إذا كان الله قد أيده بنصره فأى حاجة إلى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين . قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة وبأسباب ظاهرة معلومة فأما الذى يكون بالأسباب الباطنة فهو المراد بقوله «هو الذى أيدك بنصره» لأن أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذى يكون بالأسباب الظاهرة فهو المراد بقوله «وبالمؤمنين» لأن أسبابه ظاهرة بوسائط وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب وهو الذى أقامهم لنصره ثم بين كيف أيده بالمؤمنين فقال تعالى (وألف بين قلوبهم لو انفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وذلك أن العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والأنفة العظيمة والأنفس القوية والعصبية والإنطواء على الضغينة من أدنى شىء حتى لو أن رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثأرهم لايكاد يأتلف منهم قلبان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة فأتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفى الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهم الأوس والخزرج وكانت بينهم فى الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ثم زالت تلك الحروب وحصلت المحبة والألفة وهذا مما لايقدر عليه إلا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرة باهرة دالة على صدقه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يامعشر الأنصار الم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بي وفى الآية دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأرادوا ذلك لأن تلك الألفة والمحبة إنما حصلت بسبب الإيمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إنه سبحانه وتعالى ختم هذه الآية بقوله (إنه عزيز حكيم) يعنى أنه تعالى قادر قاهر يمكنه التصرف فى القلوب فيقلبها من العداوة إلى المحبة ومن النفرة إلى الألفة وكل ذلك على وجه الحكمة والصواب . قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى اسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير «أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت هذه الآية» فعلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت فى سورة مدنية بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل أنها نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال فعلى هذا القول أراد بقوله تعالى «ومن اتبعك من المؤمنين» يعنى إلى غزوة بدر وقيل أراد بقوله ومن اتبعك من المؤمنين الأنصار

وجدتموهم» (وتوكل على الله) ثق بالله (إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك) يغدروا ويمكروا بك قال مجاهد يعنى بنى قريظة (فان حسبك الله) كافيك الله (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) أى بالأنصار (وألف بين قلوبهم) أى بين الأوس والخزرج كانت بينهم إحن وترات فى الجاهلية فصيرهم الله إخوانا بعد أن كانوا أعداء (لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) قوله تعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) قال سعيد بن جبير أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر بن الخطاب فتم به الأربعون فنزلت هذه الآية واختلفوا فى محل من فقال أكثر المفسرين محله خفض عطفا على الكاف فى قوله حسبك الله وحسب من اتبعك وقال بعضهم هو رفع عطفا على اسم الله معناه حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين

قوله تعالى (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) أي حثهم (إن يكن منكم عشرون) رجلا (صابرون) محتسبون (يغلبوا مائتين) من عدوهم يقهروهم (وإن يكن منكم مائة) صابرة محتسبة (يغلبوا ألفا من الذين كفروا) ذلك (بأنهم قوم لا يفقهون) أي أن المشركين يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ولا يثبتون إذا صدقتموهم القتال خشية أن يقتلوا وهذا خبر بمعنى الأمر وكان هذا يوم بدر فرض الله على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين فثقلت على (٤٩) المؤمنين فخفف الله عنهم فنزل

(الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) أي ضعفا في الواحد عن قتال العشرة وفي المائة عن قتال الألف وقرأ أبو جعفر ضعفاء بفتح العين والمد على الجمع وقرأ الآخرون بسكون العين (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) من الكفار (وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) فرد من العشرة إلى الاثنين فان كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا وقال سفيان قال ابن شبرمة وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا قرأ أهل الكوفة وإن يكن منكم مية بالياء فيهما وافق أهل البصرة في الأول والباقون بالتاء فيهما. وقرأ عاصم وحمزة ضعفا بفتح الضاد هاهنا وفي سورة الروم والباقون بضمها * وقوله تعالى (ما كان لنبي أن يكون

وتكون الآية نزلت بالمدينة وقيل أراد جميع المهاجرين والأنصار * ومعنى الآية يا أيها النبي حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين وقيل معناه حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين. قوله عزوجل (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) يعني حثهم على قتال عدوهم. والتحريض في اللغة الحث على الشيء بكثرة التزين وتسهيل الخطب فيه كأنه في الأصل إزالة الحرض وهو الهلاك (إن يكن منكم عشرون) يعني رجلا (صابرون) يعني عند اللقاء محتسبين أنفسهم (يغلبوا مائتين) يعني من عدوهم وظاهر لفظ الآية خبر ومعناه الأمر فكأنه تعالى قال إن يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في قتال عدوهم حتى يغلبوا مائتين ويدل على أن المراد بهذا الخبر الأمر قوله «الآن خفف الله عنكم» لأن النسخ لا يدخل على الإخبار إنما يدخل على الأمر فدل ذلك على أن الله سبحانه وتعالى أوجب أولا على المؤمنين هذا الحكم وإنما حسن هذا التكليف لأن الله وعدهم بالنصر ومن تكفل الله له بالنصر سهل عليه الثبات مع الأعداء (وإن يكن منكم مائة) يعني صابرة (يغلبوا ألفا من الذين كفروا) فحاصله وجوب ثبات الواحد من المؤمنين في مقابلة العشرة من الكفار، ذلك (بأنهم قوم لا يفقهون) يعني أن المشركين لا يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب إنما يقاتلون حمية فاذا صدقتموهم في القتال فانهم لا يثبتون معكم (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله) (خ) عن ابن عباس قال لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين كتب عليهم أن لا يفروا حد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت الآن خفف الله عنكم الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين وفي رواية أخرى عنه قال لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين شق ذلك على المسلمين فنزلت الآن خفف الله عنكم الآية فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم فظاهر هذا أن قوله سبحانه وتعالى الآن خفف الله عنكم ناسخ لما تقدم من الآية الأولى وكان هذا الأمر يوم بدر فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين فثقل ذلك على المؤمنين فنزلت الآن خفف الله عنكم أيها المؤمنون وعلم أن فيكم ضعفا يعني في قتال الواحد للعشرة فان تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله فرد من العشرة إلى الاثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا فأيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر (والله مع الصابرين) يعني بالنصر والمعونة. قال سفيان قال ابن شبرمة وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك. قوله تعالى (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) روى عن عبد الله

له أسرى) قرأ أبو جعفر وأهل البصرة تكون بالتاء والباقون بالياء وقرأ أبو جعفر أسارى والآخرون أسرى وروى الأعمش عن عمر بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولون في هؤلاء فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله كذبوك

وأخرجوك قدمهم نضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ومكني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر. وقال عبدالله بن رواحة يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله (٥٠) عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن الله تعالى ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا أبابكر مثل عيسى قال إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وإن مثلك ياعمر مثل نوح قال رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ومثلك ياعبد الله بن رواحة مثل موسى قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم الآية ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أوضرب عنق قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن بيضاء فاني سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقال أبو بكر ولم يهو ماقلت فلما كان من الغد

ابن مسعود قال لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتقولون في هؤلاء فقال أبو بكر يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وقال عمر يارسول الله كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ومكني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر وقال عبدالله بن رواحة يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا أبابكر مثل عيسى قال إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ومثلك ياعمر مثل نوح قال رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ومثلك ياعبد الله بن رواحة كمثل موسى قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ثم قال رسول الله ﷺ اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن بيضاء فاني سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقال أبو بكر ولم يهو ماقلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت يارسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل عليه: ماكان لنبي أن يكون له أسري حتى يثخن في الأرض الآية» أخرج هذا الحديث الترمذي مختصرا وقال في الحديث قصة وهي هذه القصة التي ذكرها البغوي. وأخرج مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس لما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر ماترون في هؤلاء الأسارى فقال أبو بكر يارسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماترى يا ابن الخطاب قال قلت لا والله يارسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه وتمكنني من

فلان

فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقال أبو بكر ولم يهو ماقلت فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبكيان فقلت يارسول الله أخبرني من أى شيء تبكى أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدني من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبى الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل : ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض إلى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فأحل الله الغنيمة لهم ■ ذكره الحميدى فى مسنده عن عمر بن الخطاب من إفراد مسلم بزيادة فيه . أما تفسير الآية فقوله تعالى ماكان لنبى أن يكون له أسرى يعنى ماكان ينبغى ولا يجب لنبى وقال أبو عبيدة معناه لم يكن لنبى ذلك فلا يكون لك يامحمد والمعنى ماكان لنبى أن يحبس كافرا قدر عليه وصار فى يده أسيرا للفداء والمن والأسرى جمع أسير وأسارى جمع الجمع (حتى يثخن فى الأرض) الإثخان فى كل شيء عبارة عن قوته وشدته يقال أثخنه المرض إذ اشتدت قوته عليه والمعنى حتى يبالغ فى قتال المشركين ويغلبهم ويقهرهم فاذا حصل ذلك فله أن يقدم على الأسر فيأسر الأسارى (تريدون عرض الدنيا) الخطاب لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يعنى تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا بأخذكم الفداء من المشركين وإنما سمى منافع الدنيا عرضا لأنه لاثبات لها ولادوام فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة فانها دائمة الانقطاع لها ، وقوله سبحانه وتعالى (والله يريد الآخرة) يعنى أنه سبحانه وتعالى يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم الدين لأنها دائمة بلا زوال ولا انقطاع (والله عزيز) لايقهر ولايغلب (حكيم) يعنى فى تدبير مصالح عباده قال ابن عباس كان ذلك يوم بدر والمؤمنون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى فى الأسارى فاما منا بعد وإما فداء فجعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالخيار إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استعبدوهم وإن شاءوا فادوهم وإن شاءوا أعتقوهم قال الإمام فخر الدين إن هذا الكلام يوهم أن قوله فاما منا بعد وإما فداء يزيل حكم الآية التى نحن فى تفسيرها وليس الأمر كذلك لأن كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على أنه لابد من تقديم الاثخان ثم بعده أخذ الفداء قال العلماء كان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والأوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وستمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف درهم (فصل) قد استدل بهذه الآية من يقدح فى عصمة الأنبياء . وبيانه من وجوه : الأول أن قوله ماكان لنبى أن يكون له أسرى صريح فى النهى عن أخذ الأسارى وقد وجد ذلك يوم بدر . الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وقومه بقتل المشركين يوم بدر فلما لم يقتلوهم بل أسروهم دل ذلك على صدور الذنب منهم . الوجه الثالث أن النبى صلى الله عليه وسلم حكم بأخذ الفداء وهو محرم وذلك ذنب . الوجه الرابع أن النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان لأجل أخذ الفداء وخوف العذاب وقرب نزوله . والجواب عن الوجه الأول أن قوله سبحانه وتعالى ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض يدل على أنه كان الأسر مشروعا ولكن بشرط الإثخان فى الأرض وقد حصل لأن الصحابة

جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان قلت يا رسول الله أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض إلى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فأحل الله الغنيمة لهم» قوله أسرى جمع أسير مثل قتلى وقتيل . قوله (حتى يثخن فى الأرض) أى يبالغ فى قتل المشركين وأسرهم (تريدون) أيها المؤمنون (عرض الدنيا) بأخذكم الفداء (والله يريد الآخرة) يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم دين الله عز وجل (والله عزيز حكيم) وكان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والأوقية أربعون درهما قال ابن عباس رضى الله عنهما كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله فى الأسارى فاما منا بعد وإما فداء فجعل الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى أمر الأسارى بالخيار إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استعبدوهم وإن شاءوا أعتقوهم وإن

شاءوا فادوهم . قوله تعالى (لولا كتاب من الله سبق) قال ابن عباس كانت الغنائم حراما على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا شيئا من الغنائم جعلوه للقربان فكانت تنزل نار من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في الغنائم وأخذوا الفداء فأنزل الله عز وجل لولا كتاب (٥٢) من الله سبق يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون الآية وأنه لا يأخذ قوما فعلوا أشياء بجهالة (لمسكم) لنالكم وأصابكم (فيما أخذتم) من الفداء قبل أن تؤمروا به (عذاب عظيم) قال ابن إسحاق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فانه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الأسرى وسعد بن معاذ قال يا رسول الله كان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء ما نجا منهم غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ فقال الله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم) روي أنه لما نزلت الآية الأولى كف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزل فكلوا مما غنمتم الآية ، وروينا عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي » أخبرنا حسان

رضي الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلا من عظماء المشركين وصناديدهم وأسروا سبعين وليس من شرط الاثخان في الأرض قتل جميع الناس فدلت الآية على جواز الأسر بعد الاثخان وقد حصل . والجواب عن الوجه الثاني أن الأمر بالقتل إنما كان مختصا بالصحابة لاجماع المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه وإذا ثبت أن الأمر بالقتل كان مختصا بالصحابة كان الذنب صادرا منهم لا من النبي صلى الله عليه وسلم . والجواب عن الوجه الثالث وهو أن النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء وهو محرم فنقول لا نسلم أن أخذ الفداء كان محرما وأما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه عتاب لطيف على أخذ الفداء من الأسارى والمبادرة اليه ولا يدل على تحريم الفداء إذ لو كان حراما في علم الله لمنعهم من أخذه مطلقا . والجواب عن الوجه الرابع وهو أن النبي ﷺ وأبا بكر قعدا يبكيان يحتمل أن يكون لأجل أن بعض الصحابة لما خالف الأمر بالقتل واشتغل بالأسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبي ﷺ خوفا وإشفاقا من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الأسر وأخذ الفداء والله أعلم . قوله عز وجل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) قال ابن عباس كانت الغنائم محرمة على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء فأنزل الله عز وجل « لولا كتاب من الله سبق » يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم ثم لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبي ﷺ وقال ابن جريج لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لا يأخذ قوما فعلوا بجهالة لمسكم يعني لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن إسحاق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرا إلا وأحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فانه أشار على رسول الله ﷺ بقتل الأسرى وسعد بن معاذ فانه قال يا رسول الله كان الأثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال فقال رسول الله ﷺ لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ . وقوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) يعني قد أحلت لكم الغنائم وأخذ الفداء فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا روي أنه لما نزلت الآية الأولى كف أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الأمة وكانت قبل ذلك حراما على جميع الأمم الماضية صح من حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال « وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي » (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ولم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم وذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا . وقوله سبحانه وتعالى (واتقوا الله إن الله غفور رحيم) يعني وخافوا الله أن تعودوا وإن لم تفعلوا شيئا من قبل أنفسكم قبل

أن

ابن سعيد المنيعي انا ابو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق انبانا معمر عن هشام ثنا أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا» قوله تعالى (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر من الأسارى بالألف والباقون بلا ألف نزلت في العباس بن عبد المطلب وكان أسر يوم بدر وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر وكان يوم بدر نوبته وكان قد خرج بعشرين أوقية من الذهب ليطعم بها الناس فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا (٥٣) وبقيت العشرون أوقية معه فأخذت منه في الحرب فكلم النبي صلى الله عليه وسلم أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه فأبى وقال أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا أتركه لك وكلف فداء بني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال العباس يا محمد تركتني أتكفف قريشا ما بقيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم يعني الأربعة فقال له العباس وما يدريك قال أخبرني به ربي عز وجل قال العباس أشهد أنك صادق وقال لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ولم يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل فذلك قوله تعالى يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين أخذت منهم الفداء (إن يعلم الله في قلوبكم خيرا) أي إيمانا (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء (ويغفر لكم) ذنوبكم (والله غفور رحيم) قال العباس رضي الله عنه فأبدلني الله عنها عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أوقية وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل . قوله (وإن يريدوا خيانتك) يعني الأسارى (فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم) ببدر (والله عليم حكيم) قال ابن جريج أراد بالخيانة الكفر أي إن كفروا بك فقد كفروا بالله من قبل فأمكن منهم المؤمنين ببدر حتى قتلوهم وأسروهم وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم.

أن تؤمروا به واعلموا أن الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم وقيل في قوله واتقوا الله إشارة إلى المستقبل وقوله إن الله غفور رحيم إشارة إلى الحالة الماضية . قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم) نزلت في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذ جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئا وبقيت العشرون أوقية معه فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك وكلف فداء بني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال العباس يا محمد تتركني أتكفف قريشا ما بقيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم يعني بنيه فقال العباس وما يدريك يا ابن أخي قال أخبرني به ربي قال العباس أشهد أنك لصادق وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله لم يطلع عليه أحد إلا الله وأمرا بني أخيه عقيل ونوفل بن الحارث فأسلما فذلك قوله سبحانه وتعالى يا أيها النبي قل لمن في أيديكم (من الأسرى) يعني الذين أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء (إن يعلم الله في قلوبكم خير) يعني إيمانا وتصديقا (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) يعني من الفداء (ويغفر لكم) يعني ما سلف منكم قبل الإيمان (والله غفور) يعني لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه (رحيم) يعني بأهل طاعته قال العباس فأبدلني الله خيرا مما أخذ مني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل . وقوله تعالى (وإن يريدوا) يعني الأسارى (خيانتك) يعني أن يكفروا بك (فقد خانوا الله) يعني فقد كفروا بالله (من قبل) وقيل معناه وإن نقضوا العهد ورجعوا إلى الكفر فقد خانوا الله بذلك (فأمكن) يعني فأمكن الله المؤمنين (منهم) ببدر حتى قتلوا منهم وأسروا منهم وهذا نهاية الإمكان وفيه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه يتمكن من كل أحد يخونه أو ينقض عهده (والله عليم) يعني بما في بواطنهم وضمائرهم من إيمان وتصديق أو خيانة ونقض عهد (حكيم) يعني حكم

قوله تعالى (إن الذين آمنوا وهاجروا) أى هجروا قومهم وديارهم يعنى المهاجرين من مكة (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا) رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين معه أى أسكنوهم منازلهم (ونصروا) أى نصروهم على أعدائهم وهم الأنصار رضى الله عنهم (أولئك بعضهم أولياء بعض) دون أقربائهم من الكفار قيل فى العون والنصرة وقال ابن عباس فى الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوى الأرحام وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان (٥٤) فتح مكة انقطعت الهجرة وتوارثوا الأرحام حيثما كانوا وصار ذلك منسوخا بقوله عز وجل وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء) يعنى فى الميراث (حتى يهاجروا) قرأ حمزة ولايتهم بكسر الواو والباقون بالفتح وهما واحد كالدلالة والدلالة (وإن استنصروكم فى الدين) أى استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا (فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) عهد فلا تنصروهم عليهم (والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) فى العون والنصرة وقال ابن عباس فى الميراث أى يرث المشركون بعضهم من بعض (إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض) قال ابن عباس إلا تأخذوا فى الميراث بما أمرتكم به وقال ابن جريج إلا تعاونوا وتناصروا وقال ابن إسحاق جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية فى الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال إلا تفعلوه وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن تكن فتنة فى الأرض (وفساد كبير) فالفتنة فى الأرض قوة الكفر والفساد الكبير ضعف الإسلام (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) لامرية ولا ريب فى إيمانهم قيل حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل المال فى الدين (لهم مغفرة ورزق كريم)

بأنه يجازى كلا بعمله الخير بالثواب والشر بالعقاب. قوله عز وجل (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) يعنى إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوا بما جاءهم به وهاجروا يعنى وهجروا ديارهم وقومهم فى ذات الله عز وجل وابتغاء رضوان الله وهم المهاجرون الأولون وجاهدوا يعنى وبذلوا أنفسهم فى سبيل الله يعنى فى طاعة الله وابتغاء رضوانه (والذين آووا ونصروا) يعنى آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الأنصار (أولئك) يعنى المهاجرين والأنصار (بعضهم أولياء بعض) يعنى فى العون والنصر دون أقربائهم من الكفار وقال ابن عباس فى الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون قربائهم وذوى أرحامهم وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخا بقوله تعالى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله. وقوله تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا) يعنى آمنوا وأقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شىء) يعنى من الميراث (حتى يهاجروا) يعنى إلى المدينة (وإن استنصروكم فى الدين) يعنى استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا (فعليكم النصر) يعنى فعليكم نصرهم وإعانتهم (إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أي عهد فلا تنصروهم عليهم (والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) يعنى فى النصر والمعونة وذلك أن كفار قريش كانوا معادين لليهود فلما بعث رسول الله ﷺ تعاونوا عليه جميعا قال ابن عباس يعنى فى الميراث وهو أن يرث الكفار بعضهم من بعض (إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) قال ابن عباس إلا تأخذوا فى الميراث بما أمرتكم به وقال ابن جريج إلا تتعاونوا وتتناصروا وقال ابن إسحاق جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية فى الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال سبحانه وتعالى إلا تفعلوه وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير فالفتنة فى الأرض هى قوة الكفار والفساد الكبير هو ضعف المسلمين (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) يعنى لاشك فى إيمانهم ولا ريب لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل النفس والمال فى نصر الدين (لهم مغفرة) يعنى لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى فى الجنة. فإن قلت مامعنى هذا التكرار. قلت ليس فيه تكرار لأنه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية الأولى حكم ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضا ثم ذكر فى هذه الآية ما من به عليهم من المغفرة والرزق الكريم

الكريم وقيل إن إعادة الشيء مرة بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به فلما ذكرهم أولا ثم أعاد ذكرهم ثانيا دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلو درجاتهم وهذا هو الشرف العظيم لأنه تعالى ذكر في هذه الآية من وجوه المدح ثلاثة أنواع : أحدها قوله أولئك هم المؤمنون حقا وهذا يفيد الحصر وقوله سبحانه وتعالى حقا يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محققين في طريق الدين وتحقيق هذا القول أن من فارق أهله وداره التي نشأ فيها وبذل النفس والمال كان مؤمنا حقا . النوع الثاني قوله سبحانه وتعالى لهم مغفرة وتنكير لفظ المغفرة يدل على أن لهم مغفرة وأي مغفرة لاينالها غيرهم والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة ساترة لجميع ذنوبهم . النوع الثالث قوله سبحانه وتعالى ورزق كريم فكل شيء شرف وعظم في بابه قيل له كريم والمعنى أن لهم في الجنة رزقا لاتلحقهم فيه غضاضة ولا تعب . وقيل إن المهاجرين كانوا على طبقات فمنهم من هاجر أولا إلى المدينة وهم المهاجرون الأولون ومنهم من هاجر إلى أرض الحبشة ثم هاجر إلى المدينة فهم أصحاب الهجرتين ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة فذكر الله في الآية الأولى أصحاب الهجرة الأولى وذكر في الثانية أصحاب الهجرة الثانية ، والله أعلم بمراده وقوله سبحانه وتعالى (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم) اختلفوا في قوله من بعد فقيل من بعد صلح الحديبية وهي الهجرة الثانية وقيل من نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والأصح أن المراد به أهل الهجرة الثانية لأنها بعد الهجرة الأولى لأن الهجرة انقطعت بعد فتح مكة لأنها صارت دار إسلام بعد الفتح ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم «لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » أخرجاه في الصحيحين وقال الحسن الهجرة غير منقطعة . ويجاب عن هذا بأن المراد منه الهجرة المخصوصة من مكة إلى المدينة فأما من كان من المؤمنين في بلد يخاف على إظهار دينه من كثرة الكفار وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لايخاف على إظهار دينه وقوله تعالى (فأولئك منكم) يعني أنهم منكم وأنتم منهم لكن فيه دليل على أن رتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لأن الله سبحانه وتعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم منهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا أن المهاجرين الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق . وقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض أي في الميراث أي فبين بهذه الآية أن سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والإخاء ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث وقوله في كتاب الله يعني في حكم الله وقيل أراد به في اللوح المحفوظ وقيل أراد به القرآن وهي أن قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وتمسك أصحاب الإمام أبي حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الأرحام . وأجاب عنه الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه بأنه لما قال في كتاب الله كان معناه في حكم الله الذي بينه في سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم ومابقي فللعصبات . وقوله سبحانه وتعالى (إن الله بكل شيء عليم) يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لاتخفى عليه خافية والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة التوبة)

وهي مدنية باجماعهم قال ابن الجوزي سوى آيتين في آخرها لقد جاءكم رسول من أنفسكم

الجنة فان قيل أي معنى في تكرار هذه الآية قيل المهاجرون كانوا على طبقات فكان بعضهم أهل الهجرة الأولى وهم الذين هاجروا قبل الحديبية وبعضهم أهل الهجرة الثانية وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة ، وكان بعضهم ذا هجرتين هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى ومن الثانية الهجرة الثانية قوله (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) أي معكم يريد أنتم منهم وهم منكم (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) وهذا نسخ التوارث بالهجرة ورد الميراث إلى ذوي الأرحام قوله (في كتاب الله) أي في حكم الله عز وجل وقيل أراد بكتاب الله القرآن يعني القسمة التي بينها في سورة النساء (إن الله بكل شيء عليم) .

﴿ سورة التوبة مدنية ﴾

قال مقاتل هذه السورة مدنية كلها إلا آيتين من آخر السورة قال سعيد ابن جبير قلت لابن عباس سورة التوبة . قال هي الفاضحة مازالت تنزل فيهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحدا منهم إلا ذكر فيها قال قلت سورة الأنفال قال تلك سورة بدر قال قلت سورة الحشر قال قل سورة بني النضير . أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي

فانهما نزلتا بمكة وهي مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون آية وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمة وعشرة آلاف وأربعة وثمانون حرفا ولهذه السورة أسماء عشرة التوبة وسورة براءة وهذان الاسمان مشهوران وهي المقشقشة قاله ابن عمر سميت بذلك لأنها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه وهي المبعثرة لأنها تبعثر عن أخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها والفاضحة قاله ابن عباس لأنها فضحت المنافقين وسورة العذاب قاله حذيفة وهي المخزية لأن فيها خزي المنافقين وهي المدمدمة سميت بذلك لأن فيها هلاك المنافقين وهي المشردة سميت بذلك لأنها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهي المثيرة سميت بذلك لأنها أثارت مخازي المنافقين وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم . عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة فقال بل هي الفاضحة مازالت تقول ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها قال قلت سورة الأنفال قال نزلت في بدر قال قلت سورة الحشر قال بل سورة بني النضير أخرجاه في الصحيحين .

(فصل في بيان سبب ترك كتابة التسمية في أول هذه السورة)

عن ابن عباس قال قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك قال عثمان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وإذا نزلت عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت أنها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن قال الزجاج والشبه الذي بينهما أن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نقضها وكان قتادة يقول هما سورة واحدة وقال محمد بن الحنفية قلت لأبي يعني علي بن أبي طالب لم لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال يا بني أن براءة نزلت بالسيف وأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال لأن التسمية رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت في المنافقين وقال المبرد لم تفتتح هذه السورة الشريفة ببسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية افتتاح للخير وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتتح بالتسمية وسئل أبي بن كعب عن هذا فقال إنها نزلت في آخر القرآن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر في كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ولم يأمر في براءة بذلك فضمت إلى الأنفال لشبهها بها وقيل إن الصحابة اختلفوا في أن سورة الأنفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم سورة واحدة لأنهما نزلتا في القتال ومجموعهما معا مائتان وخمس آيات فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول انهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة أما التفسير فقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) يعني

هذه

أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن الحسين الجرجاني أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى ثنا عبيد الله القواريري ثنا يزيد بن زريع ثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي حدثني يزيد الفارسي حدثني ابن عباس رضي الله عنه قال قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال فقال عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فاذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال مما نزلت بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل وكانت قصتها شبيهة بقصتها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال قوله تعالى (براءة من الله ورسوله) أي هذه براءة من الله وهي مصدر كالنشاءة والدناءة

هذه براءة من الله ورسوله وأصل البراءة فى اللغة انقطاع العصمة يقال برئت من فلان أبرأ براءة أى انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علقة وقيل معناها التباعد مما تكره مجاورته قال المفسرون لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم وذلك قوله سبحانه وتعالى «وإما تخافن من قوم خيانة» الآية ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمر به ونبذ إليهم عهودهم قال الزجاج أى قد برئ الله ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء بها إذا نكثوا (إلى الذين عاهدتم من المشركين) الخطاب مع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وإن كان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى عاهدهم وعاقدهم إلا أنه هو الذى عاقدهم وأصحابه بذلك راضون فكأنهم هم عقدوا وعاهدوا . قوله سبحانه وتعالى (فسيحوا فى الأرض) أى فسيروا فى الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المشركين وأصل السياحة الضرب فى الأرض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة قال ابن الأنبارى قوله فسيحوا فيه مضمر أى قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الأمر بل المقصود منه الإباحة والإطلاق والإعلام بحصول الأمان وزوال الخوف يعنى سيحوا فى الأرض وأنتم آمنون من القتل والقتال (أربعة أشهر) يعنى مدة أربعة أشهر واختلف العلماء فى هذا التأجيل وفى هؤلاء الذين برئ الله ورسوله إليهم من العهود التى كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مجاهد هذا التأجيل من الله للمشركين فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفعه إلى أربعة أشهر ومن كانت مدته أكثر حطه إلى أربعة أشهر ومن كان عهده بغير أجل معلوم محدود حده بأربعة أشهر ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله يقتل حيث أدرك ويؤسر إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان وقيل إن المقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا ويحتاطوا لأنفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام أو القتل فيصير هذا داعيا لهم إلى الدخول فى الإسلام ولئلا ينسب المسلمون إلى الغدر ونكث العهد وكان ابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر . فأما من لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الأشهر الحرم وذلك خمسون يوما قال الزهرى الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأن هذه الآية نزلت فى شوال والقول الأول أصوب وعليه الأكثرون وقال الكلبى إنما كانت الأربعة أشهر عهدا لمن كان له عهد دون الأربعة أشهر فأتم له الأربعة أشهر. فأما من كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر باتمام عهده بقوله تعالى «فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم» وقيل كان ابتداؤها فى العاشر من ذى القعدة وآخرها العاشر من ربيع الأول لأن الحج فى تلك السنة كان فى العاشر من ذى القعدة بسبب النسىء ثم صار فى السنة المقبلة فى العاشر من ذى الحجة وفيها حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن الزمان قد استدار» الحديث قال الحسن أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين فقال تعالى «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم» فكان لا يقاتل إلا من قاتله ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد وكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر وأحل دماء جميعهم من أهل العهود وغيرهم بعد انقضاء الأجل وقال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما نزلت فى أهل مكة وذلك أن رسول

قال المفسرون لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم وذلك قوله عز وجل «وإما تخافن من قوم خيانة» الآية قال الزجاج براءة أى قد برئ الله ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء لهم بها إذا نكثوا (إلى الذين عاهدتم من المشركين) الخطاب مع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وإن كان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى عاهدهم وعاقدهم لأنه عاهدهم وأصحابه راضون بذلك فكأنهم عاقدوا وعاهدوا (فسيحوا فى الأرض) ورجع من الخبر إلى الخطاب أى قل لهم سيحوا أى سيروا فى الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين (أربعة أشهر

الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر فى عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

لاهم إنى ناشد محمدا   حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنت لنا أبا وكنا ولدا   ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أبدا   وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا   فى فلق كالبحر يجرى مزبدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا   إن سيم خسفا وجهه تربدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا   ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تنجى أحدا   وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالحطيم هجدا   وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانصرت إن لم أنصركم وتجهز إلى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فلما كانت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج فقيل له المشركون يحضرون و طوفون بالبيت عراة فقال لاأحب أن أحج حتى لايكون ذلك فبعث أبا بكر فى تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولايطوف بالبيت عريان فرجع أبو بكر فقال يارسول الله بأبى أنت وأمى أنزل فى شأنى شىء فقال لاولكن لاينبغى لأحد أن يبلغ هذا إلارجل من أهلى أما ترضى ياأبا بكر أنك كنت معى فى الغار وأنك معى على الحوض قال بلى يارسول الله فسار أبو بكر أميرا على الحجاج وعلى بن أبى طالب يؤذن ببراءة فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم فأقام للناس الحج والعرب فى تلك السنة على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية من أمر الحج حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب رضى الله عنه فأذن فى الناس بالذى أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة وقال زيد بن تبيع سألنا عليا بأى شىء بعثت فى الحجة قال بعثت بأربع لايطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ومن لم يكن له عهده فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلانفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا فى حج ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (ق) عن أبى هريرة أن أبا بكر بعثه فى الحجة التى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع فى رهط يؤذن فى الناس يوم النحر أن لايحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفى رواية ثم أردف النبى صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا فى أهل منى ببراءة أن لايحج بالبيت بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان وفى رواية ويوم الحج الأكبر يوم النحر والحج

الأكبر

واعلموا أنكم غير معجزى الله) أى غير فائتين ولا سابقين (وأن الله مخزى الكافرين) أى مذلهم بالقتل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة. واختلف العلماء فى هذا التأجيل ، وفى هؤلاء الذين برئ الله ورسوله إليهم من العهود التى كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال جماعة هذا تأجيل من الله تعالى للمشركين فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفعه إلى أربعة أشهر ومن كانت مدته أكثر من أربعة أشهر حطه إلى أربعة أشهر ومن كانت مدة عهده بغير أجل محدود حده بأربعة أشهر ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله فيقتل (٥٩) حيث يدرك ويؤسر إلا أن يتوب وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر فأما من لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الأشهر الحرم وذلك خمسون يوما وقال الزهرى الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأن هذه الآية نزلت فى شوال والأول هو الأصوب وعليه الأكثرون وقال الكلبى إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان له عهد دون أربعة أشهر فأتم له أربعة أشهر فأما من كان له عهد أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر باتمام عهده بقوله تعالى فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم قال الحسن أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين فقال قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم فكان لايقاتل إلا من قاتله ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لامن كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد فكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر وأحل دماء جميعهم من أهل العهد وغيرهم بعد انقضاء الأجل ، وقيل نزلت هذه قبل تبوك. قال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما نزلت فى أهل مكة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية ، على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر فى عهد قريش ثم عدت بنو بكر

الأكبر الحج وإنما قيل الحج الأكبر من أجل قول الناس للعمرة الحج الأصغر قال فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك فلم يحج فى العام القابل الذى حج فيه النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك وأنزل الله فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين «ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله» الآية .

(فصل)

قد يتوهم متوهم أن فى بعث على بن أبى طالب بقراءة أول براءة عزل أبى بكر عن الإمارة وتفضيله على أبى بكر وذلك جهل من هذا المتوهم ويدل على أن أبا بكر لم يزل أميرا على الموسم فى تلك السنة أول حديث أبى هريرة المتقدم أن أبا بكر بعثه فى رهط يؤذنون فى الناس الحديث وفى لفظ أبى داود والنسائى قال بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن فى يوم النحر بمنى أن لايحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فقوله بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن فى يوم النحر بمنى أن لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان فقوله بعثنى أبو بكر فيه دليل على أن أبا بكر كان هو الأمير على الناس وهو الذى أقام للناس حجهم وعلمهم مناسكهم وأجاب العلماء عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ليؤذن فى الناس ببراءة بأن عادة العرب جرت أن لايتولى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه وكان على ابن أبى طالب أقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم من أبى بكر لأنه ابن عمه ومن رهطه فبعثه النبى صلى الله عليه وسلم ليؤذن عنه ببراءة إزاحة لهذه العلة لئلا يقولوا هذا على خلاف مانعرفه من عادتنا فى عقد العهود ونقضها وقيل لما خص أبا بكر بتوليته على الموسم خص عليا بتبليغ هذه الرسالة تطييبا لقلبه ورعاية لجانبه وقيل إنما بعث عليا فى هذه الرسالة حتى يصلى خلف أبى بكر ويكون جاريا مجرى التنبيه على إمامة أبى بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن النبى ﷺ بعث أبا بكر أميرا على الحجاج وولاه الموسم وبعث عليا خلفه ليقرأ على الناس براءة فكان أبو بكر الإمام وعلى المؤتم وكان أبو بكر الخطيب وعلى المستمع وكان أبو بكر المتولى أمر الموسم والأمير على الناس ولم يكن ذلك لعلى فدل ذلك على تقديم أبى بكر على على وفضله عليه والله أعلم . وقوله تعالى (واعلموا أنكم غير معجزى الله) يعنى أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب وقيل معناه فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر عالمين أنكم لاتعجزون الله بل هو يعجزكم ويأخذكم لأنكم فى ملكه وقبضته وتحت قهره وسلطانه وقيل معناه إنما أمهلكم هذه المدة لأنه لايخاف الفوت ولا يعجزه شىء (وأن الله مخزى الكافرين) يعنى بالقتل والعذاب فى الآخرة .

على خزاعة فنالت منها وأعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

لاهم إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنت لنا أبا وكنا ولدا ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أبدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا إن سيم خسفا وجهه تربدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالهجير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا
وزعموا أن لست تنجى أحدا وهم أذل وأقل عددا

فقال رسول الله ﷺ لا نصرت إن لم أنصركم وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة فلما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج ثم قال إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة فبعث أبا بكر تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم ثم بعث بعده عليا كرم الله وجهه على ناقته العضباء ليقرأها على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة : أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله ﷺ من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فرجع أبو بكر فقال يارسول الله بأبى أنت وأمى أنزل فى شأنى شىء قال لا ولكن لا ينبغى لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلى أما ترضى ياأبا بكر أنك كنت معى فى الغار وأنك صاحبى على الحوض قال بلى يارسول الله فسار أبو بكر رضى الله عنه أميرا على الحاج وعلى رضى الله عنه ليؤذن ببراءة فلما كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وحدثهم عن مناسكهم وأقام للناس الحج والعرب فى تلك السنة على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية من الحج حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فأذن فى الناس بالذى أمر به وقرأ عليهم سورة (٦٠) براءة وقال زيد بن تبيع : سألنا عليا بأى شىء بعثت فى تلك الحجة قال بعثت بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبى ﷺ عهد فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدة فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا ثم حج النبى ﷺ سنة عشر حجة الوداع

قوله عز وجل (وأذان من الله ورسوله) الأذان فى اللغة الإعلام ومنه الأذان للصلاة لأنه إعلام بدخول وقتها والمعنى وإعلام صادر من الله ورسوله واصل إلى الناس (يوم الحج الأكبر) اختلفوا فى يوم الحج الأكبر فروى عكرمة عن ابن عباس أنه يوم عرفة ويروى ذلك عن ابن عمر وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وعن على بن أبى طالب قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال يوم النحر أخرجه الترمذى وقال وروى موقوفا عليه وهو أصح وعن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال

فان قال قائل كيف بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه ثم عزله وبعث عليا رضى الله عنه. قلنا ذكر العلماء أن رسول الله ﷺ لم يعزل أبا بكر رضى الله عنه وكان أميرا وإنما بعث عليا رضى الله عنه لينادى بهذه الآيات. وكان السبب فيه أن العرب تعارفوا فيما بينهم فى عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم أو رجل من رهطه فبعث عليا رضى الله عنه إزاحة للعلة لئلا يقولوا هذا خلاف ما نعرفه فينا فى نقض العهد والدليل على أن أبا بكر رضى الله عنه كان هو الأمير ما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق ثنا يعقوب بن إبراهيم ثنا ابن أخى ابن شهاب عن عمه أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى مؤذنين يوم النحر نؤذن بمنى ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان قال حميد بن عبد الرحمن ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان (وأذان) عطف على قوله براءة أى إعلام ومنه الأذان بالصلاة يقال آذنته فأذن أى أعلمته فعلم وأصله من الاذن أى أوقعته فى أذنه (من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر) اختلفوا فى يوم الحج الأكبر روى عكرمة عن ابن عباس أنه يوم عرفة وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وقال جماعة هو يوم النحر روى عن يحيى بن الجزار قال خرج على رضى الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاءه رجل وأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر فقال يومك هذا خل سبيلها وروى ذلك عن عبد الله بن أبى أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير والسدى وروى ابن جريج

فقال أى يوم هذا فقالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الأكبر أخرجه أبوداود وروى ذلك عن عبدالله بن أبى أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير والسدى وروى ابن جريج عن مجاهد أن يوم الحج الأكبر أيام منى كلها وكان سفيان الثورى يقول الحج الأكبر أيام منى كلها لأن اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقولك يوم صفين ويوم الجمل لأن الحروب دامت فى تلك الأيام ويطلق عليها يوم واحد وقال عبد الله بن الحرث بن نوفل يوم الحج الأكبر الذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن سيرين لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده فعظم ذلك اليوم عند المؤمنين والكافرين قال مجاهد الحج الأكبر القرآن لأنه قرن بين الحج والعمرة وقال الزهرى والشعبى وعطاء الحج الأكبر الحج والحج الأصغر العمرة وإنما قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل سمى الحج الأكبر لموافقة حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وذكر فى خطبته أن الزمان قد استدار وأبطل النسىء وجميع أحكام الجاهلية. وقوله سبحانه وتعالى (أن الله برىء من المشركين ورسوله) فيه حذف والتقدير وأذان من الله ورسوله بأن الله برىء من المشركين وإنما حذفت الباء لدلالة الكلام عليها وفى رفع رسوله وجوه الأول أنه رفع بالابتداء وخبره مضمر والتقدير أن الله برىء من المشركين ورسوله أيضا برىء الثانى تقديره برىء الله ورسوله من المشركين الثالث إن الله فى محل الرفع بالابتداء وبرىء خبره ورسوله عطف على المبتدأ. فان قلت لافرق بين قوله براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين وبين قوله إن الله برىء من المشركين ورسوله فما فائدة هذا التكرار قلت المقصود من الآية الأولى البراءة من العهد ومن الآية الثانية البراءة التى هى نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد والذى يدل على صحة هذا الفرق أنه قال فى أولها براءة من الله ورسوله إلى يعنى برىء إليهم وفى الثانية برىء منهم وقوله تعالى (فان تبتم) يعنى فان رجعتم عن شرككم وكفركم (فهو خير لكم) يعنى من الإقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله فى التوبة والإقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار (وإن توليتم) يعنى أعرضتم عن الإيمان والتوبة من الشرك (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) فيه وعيد عظيم وإعلام لهم بأن الله سبحانه وتعالى قادر على إنزال العذاب بهم وهو قوله تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) يعنى فى الآخرة ولفظ البشارة هنا إنما ورد على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب وإكرامهم الشتم قوله سبحانه وتعالى (إلا الذين عاهدتم من المشركين) هذا الاستثناء راجع إلى قوله تعالى براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين يعنى إلا من عهد الذين عاهدتم من المشركين وهم بنو ضمرة حى من كنانة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم إلى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد وهو قوله تعالى (ثم لم ينقصوكم شيئا) يعنى من عهودهم التى عاهدتموهم عليها (ولم يظاهروا) يعنى ولم يعاونوا (عليكم أحدا) يعنى من عدوكم وقال صاحب الكشاف وجهه أن يكون

عن مجاهد يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها وكان سفيان الثورى يقول يوم الحج الأكبر أيام منى كلها مثل يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعاث يراد به الحين والزمان لأن هذه الحروب دامت أياما كثيرة وقال عبد الله ابن الحارث بن نوفل يوم الحج الأكبر الذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن سيرين لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين ولم يجتمع قبله ولا بعده. واختلفوا فى الحج الأكبر، فقال مجاهد الحج الأكبر القران والحج الأصغر إفراد الحج، وقال الزهرى والشعبى وعطاء الحج الأكبر الحج والحج الأصغر العمرة قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها. قوله تعالى (أن الله برىء من المشركين ورسوله) أى ورسوله أيضا برىء من المشركين، وقرأ يعقوب بنصب اللام أى إن الله ورسوله برىء (فان تبتم) رجعتم من كفركم وأخلصتم التوحيد (فهو خير لكم وإن توليتم) أعرضتم عن الإيمان (فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين) هذا استثناء من قوله براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم إلى الناس إلا من عهد الذين عاهدتم من المشركين وهم بنو ضمرة حى من كنانة أمر الله تعالى رسوله ﷺ باتمام عهدهم إلى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد وهذا معنى قوله تعالى (ثم لم ينقصوكم شيئا) من عهدهم الذى عاهدتموهم عليه (ولم يظاهروا) لم يعاونوا (عليكم أحدا) من عدوكم وقرأ عطاء بن يسار

لم ينقضوكم بالضاد المعجمة من نقض العهد (فأتموا إليهم عهدهم) فأوفوا لهم بعهدهم (إلى مدتهم) إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه (إن الله يحب المتقين) قوله تعالى (فإذا انسلخ) انقضى ومضى (الأشهر الحرم) قيل هي الأشهر الأربعة رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقال مجاهد وابن إسحاق هي شهور العهد فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرم خمسون يوما (٦٢) وقيل لها حرم لأن الله تعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم . فان قيل هذا القدر بعض الأشهر الحرم والله تعالى يقول فاذا انسلخ الأشهر الحرم قيل لما كان هذا القدر متصلا بما مضى أطلق عليه اسم الجمع ومعناه مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحرم. قوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) في الحل والحرم (وخذوهم) وأسروهم (واحصروهم) أي احبسوهم قال ابن عباس رضي الله عنه يريد إن تحصنوا فاحصروهم أي امنعوهم من الخروج وقيل امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام (واقعدوا لهم كل مرصد) أي على كل طريق والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته يريد كونوا لهم رصدا لتأخذوهم من أي وجه توجهوا وقيل اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها (فان تابوا) من الشرك (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) يقول دعوهم فليتصرفوا في أمصارهم ويدخلوا مكة (إن الله غفور) لمن تاب (رحيم) به وقال الحسين بن الفضل هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء. قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك) أي وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم أي استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله (فأجره) فأعذه وأمنه (حتى يسمع كلام الله) فيما له وعليه من الثواب والعقاب (ثم أبلغه مأمنه) أي إن لم يسلم أبلغه مأمنه

مستثنى من قوله فسيحوا في الأرض لأن الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا في الأرض إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم (فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم) والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل لهم بعد أن أمروا في الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر (إن الله يحب المتقين) يعني أن قضية التقوى تقتضي أن لا يسوى بين القبيلتين يعني الوافي بالعهد والناكث له والغادر فيه . قوله سبحانه وتعالى (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) يعني فإذا انقضت الأشهر الحرم ومضت وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقال مجاهد ومحمد بن إسحاق هي شهور العهد سميت حرما لحرمة نقض العهد فيها فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرم وذلك خمسون يوما وقيل إنما قال لها حرم لأن الله سبحانه وتعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم . فان قلت على هذا القول هذه المدة وهي الخمسون يوما بعض الأشهر الحرم والله سبحانه وتعالى قال فإذا انسلخ الأشهر الحرم . قلت لما كان هذا القدر من الأشهر متصلا بما مضى أطلق عليه اسم الجمع والمعنى فإذا مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحرم (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) يعني في الحل والحرم وهذا أمر إطلاق يعني اقتلوهم في أي وقت وأي مكان وجدتموهم (وخذوهم) يعني وأسروهم (واحصروهم) أي واحبسوهم قال ابن عباس يريد أن تحصنوا فاحصروهم وامنعوهم من الخروج وقيل امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام (واقعدوا لهم كل مرصد) يعني على كل طريق والمرصد الموضع الذي يقعد فيه للعدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته والمعنى كونوا لهم رصدا حتى تأخذوهم من أي وجه توجهوا وقيل معناه اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها (فإن تابوا) يعني من الشرك ورجعوا إلى الإيمان (وأقاموا الصلاة) يعني وأتموا أركان الصلاة المفروضة (وآتوا الزكاة) الواجبة عليهم طيبة بها أنفسهم (فخلوا سبيلهم) يعني إلى الدخول إلى مكة والتصرف في بلادهم (إن الله غفور) يعني لمن تاب ورجع من الشرك إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة (رحيم) يعني بأوليائه وأهل طاعته وقال الحسن بن الفضل نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذى الأعداء . قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) يعني وإن استأمنك يا محمد أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله الذي أنزل عليك وهو القرآن فأجره حتى يسمع كلام الله ويعرف ما له من الثواب إن آمن وما عليه من العقاب إن أصر على الكفر (ثم أبلغه مأمنه) يعني إن لم يسلم أبلغه إلى الموضع الذي يأمن فيه وهو دار

قومه

اى الموضع الذى يامن فيه وهو دار قومه فان قاتلك بعد ذلك فقد ردت عليه فاقتله (ذلك بأنهم قوم لايعلمون) اى لايعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله قال الحسن هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) هذا على وجه التعجب ومعناه جحد أى لايكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله ؛ وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال جل وعلا (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية قال الله تعالى (فما استقاموا لكم) أى على العهد (فاستقيموا لهم) فلم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بنى بكر على خزاعة فضرب لهم (٦٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم إما أن يسلموا وإما أن يلحقوا بأى بلاد شاءوا فأسلموا قبل الأربعة الأشهر قال السدى والكلبى وابن إسحاق هم قبائل من بكر بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا فى عهد قريش يوم الحديبية فلم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بنى بكر فأمر باتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وهذا القول أقرب إلى الصواب لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة فكيف يقول لشىء قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وإنما هم الذين قال الله عز وجل إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا كما نقصكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحدا كما ظاهرت قريش بنى بكر على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (إن الله يحب المتقين كيف وإن يظهروا عليكم) هذا مردود على الآية الأولى تقديره كيف يكون لهم عهد عند الله وإن يظهروا عليكم (لايرقبوا فيكم إلا ولاذمة) قال الأخفش كيف لاتقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم أى يظفروا بكم لايرقبوا لايحفظوا وقال الضحاك لا ينتظروا وقال قطرب لايراعوا فيكم إلا قال ابن عباس والضحاك قرابة وقال يمان رحما وقال قتادة الأل الحلف وقال السدى هو العهد وكذلك الذمة إلا أنه كرر لاختلاف اللفظين وقال أبو مجلز ومجاهد الأل هو الله عز وجل وقال عبيد بن عمير يقرأ جبر إل بالتشديد يعنى عبد الله وفى الخبر أن ناسا قدموا على أبى بكر من قوم مسيلمة الكذاب فاستقرأهم أبو بكر كتاب

قومه وإن قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله (ذلك بأنهم قوم لايعلمون) أى لايعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله عز وجل قال الحسن هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) هذا على وجه التعجب ومعناه الجحد أى لايكون لهم عهد عند الله ولاعند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وقال السدى محمد بن عباد ومحمد بن إسحق هم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو الديل قبائل من بنى بكر كانوا دخلوا فى عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية وقال مجاهد هم أهل العهد من خزاعة (فما استقاموا لكم) يعنى على العهد (فاستقيموا لهم) يعنى ما أقاموا على العهد ثم إنهم لم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بنى بكر على خزاعة فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم إما أن يسلموا وأما أن يلحقوا بأى بلاد شاءوا فأسلموا بعد الأربعة الأشهر والصواب من ذلك قول من قال أنهم قبائل من بنى بكر وهم خزيمة وبنو مدلج من ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا فى عهد قريش يوم الحديبية ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بنى بكر فأمر باتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وإنما كان الصواب هذا القول لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وذلك قبل فتح مكة لأن بعد الفتح كيف يقول لشىء قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وإنما هم الذين قال الله عز وجل فيهم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا كما نقصكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحدا كما ظاهرت قريش بنى بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى (إن الله يحب المتقين) يعنى أنه سبحانه وتعالى يحب الذين يوفون بالعهد إذا عاهدوا ويتقون نقضه (كيف وإن يظهروا عليكم) قيل هذا مردود على الآية الأولى تقديره كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم (لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة) قال الأخفش معناه كيف لاتقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم أى يظهروا بكم ويغلبوكم ويعلوا عليكم لايرقبوا أى لايحفظوا وقيل معناه لاينتظروا وقيل معناه لايراعوا فيكم إلا قال ابن عباس يعنى

مسيلمة فقرأوا فقال ابو بكر رضى الله عنه إن هذا الكلام لم يخرج من آل أى من الله عز وجل والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة لايرقبون فى مؤمن (٦٤) إيلا بالياء يعنى الله عز وجل مثل جبرائيل وميكائيل ولا ذمة أى عهدا (يرضونكم بأفواههم) أى يطيعونكم بألسنتهم خلاف مافى قلوبهم (وتأبى قلوبهم) الإيمان (وأكثرهم فاسقون) فان قيل هذا فى المشركين وكلهم فاسقون فكيف قال وأكثرهم فاسقون قيل أراد بالفسق نقض العهد ههنا وكان فى المشركين من وفى بعهده وأكثرهم نقضوا فلهذا قال وأكثرهم فاسقون (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) وذلك أنهم نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بأكلة أطعمهم إياها أبوسفيان قال مجاهد أطعم أبوسفيان حلفاءه (فصدوا عن سبيله) فمنعوا الناس من الدخول فى دين الله وقال ابن عباس رضى الله عنه أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنهم ساء) بئس (ما كانوا يعملون لايرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) يقول لا تبقوا عليهم أيها المؤمنون كما لايبقون عليكم لو ظهروا (وأولئك هم المعتدون) بنقض العهد (فان تابوا) من الشرك (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم) فهم إخوانكم (فى الدين) لهم مالكم وعليهم ماعليكم (ونفصل الآيات) نبين الآيات (لقوم يعلمون) قال ابن عباس حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة قال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد

قرابة وقيل رحما وهذا معنى قول ابن عباس أيضا وقال قتادة الإل الحلف وقال السدى هو العهد وكذلك الذمة وإنما كرر للتأكيد أو لاختلاف اللفظين وقال أبو مجلز ومجاهد الإل هو الله عز وجل ومنه قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما سمع كلام مسيلمة الكذاب إن هذا الكلام لم يخرج من إل يعنى من الله وعلى هذا القول يكون معنى الآية لا يرقبون الله فيكم ولا يحفظونه لا يراعونه (ولا ذمة) يعنى ولا يحفظون عهدا (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم) يعنى يطيعونكم بألسنتهم بخلاف مافى قلوبهم (وأكثرهم فاسقون) فان قلت أن الموصوفين بهذه الصفة كفار والكفر أخبث وأقبح من الفسق فكيف وصفهم بالفسق فى معرض الذم وما الفائدة فى قوله وأكثرهم فاسقون مع أن الكفار كلهم فاسقون . قلت قد يكون الكافر عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا خبيث الفسق فى دينه فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين أنهم نقضوا العهد وبالغوا فى العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم فيكون أبلغ فى الذم وإنما قال أكثرهم ولم يقل كلهم فاسقون لأن منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه وأكثرهم نقضوا العهد فلهذا قال سبحانه وتعالى وأكثرهم فاسقون . وقوله تعالى (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى استبدلوا بآيات القرآن والإيمان بها عرضا قليلا من متاع الدنيا وذلك أنهم نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان بن حرب فذمهم الله بذلك قال مجاهد أطعم أبو سفيان حلفاءه وترك حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (فصدوا عن سبيله) يعنى منعوا الناس عن الدخول فى دين الله قال ابن عباس وذلك أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنهم ساء ما كانوا يعملون) يعنى من الشرك ونقضهم العهد ومنعهم الناس عن الدخول فى دين الإسلام (لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) يعنى أن هؤلاء المشركين لا يراعون فى مؤمن عهدا ولا ذمة إذا قدروا عليه قتلوه فلا تبقوا أنتم عليهم كما لم يبقوا عليكم إذا ظهروا عليكم (وأولئك هم المعتدون) يعنى فى نقض العهد . قوله عز وجل (فان تابوا) يعنى فان رجعوا عن الشرك إلى الإيمان وعن نقض العهد إلى الوفاء به (وأقاموا الصلاة) يعنى المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها (وآتوا الزكاة) يعنى وبذلوا الزكاة المفروضة عليهم طيبة بها أنفسهم (فاخوانكم فى الدين) يعنى إذا فعلوا ذلك فهم إخوانكم فى الدين لهم مالكم وعليهم ماعليكم (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى ونبين حجج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه قال ابن عباس حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة وقال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعنى بذلك ماذكره أبوبكر فى حق منع الزكاة وهو قوله والله لأفرق بين شيئين جمع الله بينهما يعنى الصلاة والزكاة (ق) يعنى أبى هريرة قال لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر ابن الخطاب لأبى بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن

أن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ثنا شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى ثنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة رضى الله عنه قال «لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضى الله عنه بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبى بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر رضى الله عنه فوالله ماهو إلا رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى (٦٥) أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن عباس ثنا ابن مهدى ثنا منصور بن سعد عن ميمون بن سياه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله» قوله تعالى (وإن نكثوا أيمانهم) نقضوا عهودهم (من بعد عهدهم) عقدهم يعنى مشركى قريش (وطعنوا) قدحوا (فى دينكم) وعابوه فهذا دليل على أن الذمى إذا طعن فى دين الإسلام ظاهرا لا يبقى له عهد (فقاتلوا أئمة الكفر) قرأ أهل الكوفة والشام أئمة بهمزتين حيث كان وقرأ الباقون بتليين الهمزة الثانية وأئمة الكفر رءوس المشركين وقادتهم من أهل مكة قال ابن عباس نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأبى جهل بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل وسائر رؤساء قريش يومئذ الذين نقضوا العهد وهم الذين هموا باخراج الرسول وقال مجاهد هم أهل فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان ماقوتل أهل هذه الآية ولم يأت أهلها بعد (إنهم لا أيمان لهم) أى لا عهود لهم جمع يمين قال قطرب لا وفاء لهم بالعهد وقرأ ابن عامر لا إيمان لهم بكسر الألف أى لا تصديق لهم ولا دين لهم وقيل هو من الأمان أى لا تؤمنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم (لعلهم ينتهون) أى لكى ينتهوا عن الطعن فى دينكم والمظاهرة عليكم وقيل عن الكفر حض المسلمين على القتال فقال جل ذكره (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) نقضوا عهدهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بنى بكر على خزاعة

أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها وفى رواية عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها فقال عمر فو الله ماهو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق عن أنس قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله. وقوله سبحانه وتعالى (وإن نكثوا أيمانهم) يعنى وإن نقضوا عهودهم (من بعد عهدهم) يعنى من بعد ماعاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم (وطعنوا فى دينكم) يعنى وعابوا دينكم الذى أنتم عليه وقدحوا فيه وثلبوه. وفى هذا دليل على أن الذمى إذا طعن فى دين الإسلام وعابه ظاهرا لا يبقى له عهد والمراد بهؤلاء الذين نقضوا العهد كفار قريش وهو قوله تعالى (فقاتلوا أئمة الكفر) يعنى رءوس المشركين وقادتهم. قال ابن عباس نزلت فى أبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبى جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهدهم وهموا باخراج الرسول وقيل أراد جميع الكفار وإنما ذكر الأئمة لأنهم الرؤساء والقادة فى قتالهم قتال الأتباع وقال مجاهد هم فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان ما قوتل أهل هذه الآية بعد ولم يأت أهلها ولعل حذيفة أراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود فانهم أئمة الكفر فى ذلك الزمان والله أعلم بمراده. وقوله سبحانه وتعالى (إنهم لا أيمان لهم) جمع يمين أى لا عهد لهم وقيل معناه إنهم لا وفاء لهم بالعهود وقرىء لا إيمان لهم بكسر الهمزة ومعناه لا دين لهم ولا تصديق وقيل هو من الأمان أى اقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تؤمنوهم (لعلهم ينتهون) أى لكى ينتهوا عن الطعن فى دينكم ويرجعوا عن الكفر إلى الإيمان ثم حض المؤمنين على جهاد الكفار وبين السبب فى ذلك فقال تعالى (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) يعنى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية

(وهموا باخراج الرسول) من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة (وهم بدءوكم) بالقتال (أول مرة) يعنى يوم بدر وذلك أنهم قالوا حين سلم العير لانتصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه. وقال جماعة من المفسرين أراد أنهم بدءوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتخشونهم) تخافونهم فتتركون قتالهم (فالله أحق أن تخشوه) فى ترك قتالهم (إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) يقتلهم الله بأيديكم (ويخزهم) ويذلهم بالأسر والقهر (وينصركم عليهم ويشف صدور قوم) ويبرئ داء قلوب قوم (مؤمنين) مما كانوا ينالونه من الأذى منهم وقال مجاهد والسدى أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعانت قريش بنى بكر عليهم حتى نكأوا فيهم فشفى الله صدورهم من بنى بكر بالنبى صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين (ويذهب غيظ قلوبهم) كربها ووجدها بمعونة قريش بنى بكر عليهم ثم قال مستأنفا (ويتوب الله على من يشاء) فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو (والله عليم حكيم) روى أن النبى ﷺ قال يوم فتح مكة «ارفعوا السيف إلا خزاعة من بنى بكر إلى العصر» قوله تعالى (أم حسبتم) أظننتم (أن تتركوا) قيل هذا خطاب للمنافقين وقيل للمؤمنين الذين شق عليهم القتال فقال أم حسبتم أن تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب (ولما يعلم الله) ولم ير الله (الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) بطانة وأولياء يفشون

وأعانوا بنى بكر على خزاعة (وهموا باخراج الرسول) يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة (وهم بدءوكم) يعنى بالقتال (أول مرة) يعنى يوم بدر وذلك أنهم قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه وقيل أراد به أنهم بدءوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتخشونهم) يعنى أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم (فالله أحق أن تخشوه) يعنى فى ترك القتال (إن كنتم مؤمنين) يعنى إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده. قوله سبحانه وتعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) يريد بالتعذيب القتل يعنى بقتلهم الله بأيديكم. فان قلت كيف الجمع بين قوله يعذبهم الله بأيديكم وبين قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم قلت المراد بقوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم عذاب الاستئصال يعنى وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعا وأنت فيهم والمراد بقوله قاتلوهم يعنى الذين نقضوا العهد وبدءوا بالقتال فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم. والفرق بين العذابين أن عذاب الاستئصال يتعدى إلى المذنب وغير المذنب وإلى المخالف والموافق وعذاب القتل لا يتعدى إلا إلى المذنب المخالف وقوله تعالى (ويخزهم) يعنى ويذلهم بالقهر والأسر وينزل بهم الذل والهوان (وينصركم عليهم) يعنى بأن يظفركم بهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعنى ويبرىء داء قلوبهم مما كانوا ينالونه من الأذى منهم ومن المعلوم أن من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه فانه يفرح بذلك ويعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة اليقين وثبات العزيمة قال مجاهد والسدى أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعانت قريش بنى بكر على خزاعة حتى قتلوا منهم ثم شفى الله صدور خزاعة من بنى بكر حتى أخذوا ثأرهم منهم بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (ويذهب غيظ قلوبهم) يعنى ويذهب وجد قلوبهم بما نالوه من بنى بكر روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة ارفعوا السيف إلا خزاعة من بنى بكر إلى العصر ذكره البغوى بغير سند ثم قال تعالى (ويتوب الله على من يشاء) هذا كلام مستأنف ليس له تعلق بالأول والمعنى ويهدى الله من يشاء إلى الإسلام فيمن عليه بالتوبة من الشرك والكفر ويهديه إلى الإسلام كما فعل بأبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وسهيل ابن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله عليهم بالإسلام يوم فتح مكة فأسلموا (والله عليم) يعنى بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الأزلية بالسعادة فيتوب عليه ويهديه إلى الإسلام (حكيم) يعنى فى جميع أفعاله قوله عز وجل (أم حسبتم أن تتركوا) هذا من الاستفهام المعترض فى وسط الكلام ولذلك أدخلت فيه أم لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أراد بالعلم المعلوم لأن وجود الشىء يلزمه معلوم الوجود عند الله لا جرم جعل علم الله بوجوده كناية عن وجوده قاله الإمام فخر الدين الرازى ونقل الواحدى عن الزجاج أى العلم الذى يجازى عليه لأنه إنما يجازى على ما عملوا (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين يتخذونهم

يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم وقال قتادة وليجة خيانة وقال الضحاك خديعة وقال عطاء أولياء وقال أبو عبيدة كل شيء أدخلته فى شيء ليس منه فهو وليجة والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة الرجل من يختص بدخيلة أمره دون الناس يقال هو وليجتى وهم وليجتى للواحد والجمع (والله خبير بما تعملون) قوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر (٦٧) وقطيعة الرحم وأغلظ على رضى الله عنه له القول فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا فقال له على رضى الله عنه ألكم محاسن فقال نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحاج فأنزل الله عز وجل ردا على العباس ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله أى ماينبغى للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب على المسلمين منعهم من ذلك لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده فمن كان كافرا بالله فليس من شأنه أن يعمرها فذهب جماعة إلى أن المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد ومرمته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لايمتثل وحمل بعضهم العمارة ههنا على دخول المسجد والقعود فيه قال الحسن ما كان للمشركين ان يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام قرأ ابن كثير وأهل البصرة مسجد الله على التوحيد وأراد به المسجد الحرام لقوله تعالي وعمارة المسجد الحرام ولقوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام وقرأ الآخرون مساجد الله بالجمع والمراد منه أيضا المسجد الحرام قال الحسن إنما قال مساجد لأنه قبلة المساجد كلها قال الفراء وربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد ألا ترى أن الرجل يركب البرذون فيقول أخذت فى ركوب البراذين ويقال فلان كثير الدرهم والدينار يريد الدراهم والدنانير قوله تعالى (شاهدين على أنفسهم بالكفر) أرادو هم شاهدون فلماطرحت وهم نصبت قال الحسن

يفشون إليهم أسرارهم وقال قتادة وليجة يعنى خيانة وقال الضحاك خديعة وقال عطاء أولياء يعنى لاتتخذوا المشركين أولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين وقال أبو عبيدة كل شيء أدخلته فى شيء ليس منه فهو وليجة والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة من الولوج فوليجة الرجل من يختصه بدخيلة أمره دون الناس وقال الراغب الوليجة كل مايتخذه الإنسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة فى القوم إذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهى المؤمنين عن موالاة المشركين وإن يفشوا اليهم أسرارهم (والله خبير بما تعملون) يعنى من موالاة المشركين وإخلاص العمل لله وحده . قوله سبحانه وتعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) يعنى به المسجد الحرام وقرئ مساجد الله على الجمع والمراد به المسجد الحرام أيضا وإنماذكر بلفظ الجمع لأنه قبلة المساجد كلها وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء كفار قريش أسروا يوم بدر ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيرونهم بالشرك وجعل على ابن أبي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقيل له وهل لكم من محاسن قال نعم نحن أفضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى يعنى الأسير فنزلت هذه الآية ما كان للمشركين أى ماينبغى للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب الله على المسلمين منعهم من ذلك المساجد إنما تعمر لعبادة الله تعالى وحده فمن كان كافرا بالله فليس له أن يعمر مساجد الله واختلفوا فى المراد بالعمارة على قولين أحدهما أن المراد بالعمارة العمارة المعروفة من بناء المساجد وتشييدها ومرمتها عند خرابها فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى ببناء مسجد لم تقبل وصيته والقول الثاني أن المراد بالعمارة دخول المسجد والقعود فيه فيمتنع الكافر من دخول المسجد بغير إذن مسلم حتى لو دخل بغير إذن مسلم عزر وإن دخل باذن لم يعزر ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبى صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سوارى المسجد وهو كافر والأولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها . وقوله تعالى (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يعنى لايدخلون المساجد فى حال كونهم شاهدين وقيل تقديره وهم شاهدون فلما حذفت وهم نصب وقال ابن عباس شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام وذلك أن كفار قريش كانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام فلم يزدادوا بذلك من الله إلا بعدا وقال الحسن إنهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم بالكفر وقال السدي شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسئل

لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر وقال الضحاك عن ابن عباس شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا شوطا سجدوا لأصنامهم ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلا بعدا وقال السدى شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصرانى يسأل من أنت فيقول أنا نصرانى واليهودى يقول أنا يهودى ويقال للمشرك مادينك فيقول مشرك قال الله تعالى (أولئك حبطت أعمالهم) (٦٨) لأنها لغير الله عز وجل (وفى النار هم خالدون) قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس معناه شاهدين على رسولهم بالكفر لأنه مامن بطن إلا ولدته ثم قال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) ولم يخف فى الدين غير الله ولم يترك أمر الله لخشية غيره (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وعسى من الله واجب أى فأولئك هم المهتدون والمهتدون هم المتمسكون بطاعة الله عز وجل التى تؤدى إلى الجنة أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الرحمن النسوى ثنا أحمد بن الحسن الحيرى ثنا محمد ابن يعقوب ثنا أحمد بن الفرج الحجازى ثنا بقية ثنا أبو الحجاج المهدى عن عمرو بن الحارث عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فان الله قال: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا على بن عبد الله ثنا يزيد بن هارون ثنا محمد بن مطرف عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى ثنا حميد بن زنجويه

من أنت فيقول نصرانى واليهودى يقول يهودى والمشرك يقول مشرك وقال ابن عباس فى رواية عنه شاهدين على رسولهم بالكفر لأنه من أنفسهم (أولئك حبطت أعمالهم) يعنى الأعمال التى عملوها فى حال الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقى الحاج وفك العانى لأنها لم تكن لله فلم يكن لها تأثير مع الكفر (وفى النار هم خالدون) يعنى من مات منهم على كفره. قوله عز وجل (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) لما بين الله عز وجل أن الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين فى هذه الآية من هو المستحق لعمارة المساجد وهو من آمن بالله فان الإيمان بالله شرط فيمن يعمر المسجد لأن المسجد عبارة عن الموضع الذى يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمنا بالله امتنع أن يعمر موضعا يعبد الله فيه واليوم الآخر يعنى وآمن باليوم الآخر وأنه حق كائن لأن عمارة المسجد لأجل عبادة الله وجزاء أجره إنما يكون فى الآخرة فمن أنكر الآخرة لم يعبد الله ولم يعمر له مسجدا. فان قلت لم لم يذكر الإيمان برسول الله مع أن الإيمان به شرط فى صحة الإيمان. قلت إن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم داخل فى الإيمان بالله فان من آمن بالله واليوم الآخر فقد آمن برسول الله لأن من جهته عرف الإيمان بالله واليوم الآخر لأنه هو الداعى إلى ذلك وقيل إن المشركين كانوا يقولون إن محمدا إنما ادعى النبوة طلبا للرياسة والملك فأخبر الله عز وجل أن محمدا صلى الله عليه وسلم إنما دعا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر لا لطلب الرياسة والملك فلذلك قال سبحانه وتعالى إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وترك ذكر الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل إنه تبارك وتعالى قال بعد الإيمان بالله واليوم الآخر (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) وكان ذلك مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن قام الصلاة وآتى الزكاة فقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم أن الإعتبار باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى عمارة المساجد أن الإنسان إذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة لأن عمارة المسجد إنما تلزم لإقامة الصلاة فيه ولا يشتغل بعمارة المسجد إلا إذا كان مؤديا للزكاة لأن الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة ولا يشتغل الإنسان بالنافلة إلا بعد إكمال الفريضة الواجبة عليه. وقوله تعالى (ولم يخش إلا الله) يعنى ولم يخف فى الدين غير الله ولم يترك أمر الله لخشية الناس (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وعسى من الله واجب يعنى وأولئك هم المهتدون المتمسكون بطاعة الله التى تؤدى إلى الجنة عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فان الله عز وجل يقول إنما يعمر

مساجد

ثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر ، حدثني أبي عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه فقال عثمان سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا كهيئته في الجنة أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسن القطان ثنا علي بن محمد الدارابجردي ثنا أبو عاصم بهذا الإسناد وقال بنى الله له بيتا في الجنة قوله (أجعلتم سقاية الحاج) أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي ثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ثنا عبد الله بن حامد بن محمد الوزان ثنا أحمد بن محمد ابن جعفر ابن محمد بن عبيد الله المنادي ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ثنا أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي ثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام عن أبي سلام ثنا النعمان بن بشير قال (٦٩) كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أسقي الحاج وقال الآخر ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال الآخر الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليت دخلت فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم فيه ففعل فأنزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام إلى قوله والله لا يهدي القوم الظالمين وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال العباس حين أسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فأنزل الله تعالى هذه الآية وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا تنفعهم مع الشرك بالله وأن الإيمان بالله والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم خير مما هم عليه وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة افتخروا فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه ، وقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها وقال علي ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله عز وجل هذه الآية أجعلتم سقاية الحاج وسقاية مصدر كالرعاية والحماية قوله (وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر) فيه اختصار تقديره أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله وجهاد من جاهد

مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن (ق) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح النزل ما يهيأ للضيف عند نزوله بالقوم (ق) عن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من بنى لله مسجدا يبتغي به وجه الله تعالى بنى الله له بيتا في الجنة وفي رواية بنى الله له في الجنة مثله وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان أو كبيرا بنى الله له بيتا في الجنة أخرجه الترمذي عن عمرو بن عنبسة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا ليذكر الله فيه بنى الله له بيتا في الجنة أخرجه النسائي . قوله سبحانه وتعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) الآية (م) عن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام قال الآخر الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجره عمر وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر إلى آخرها وقيل قال العباس حين أسروا يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فأنزل الله هذه الآية وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله وإن الإيمان والجهاد مع نية خير مما هم عليه وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة ابن أبي شيبة افتخروا فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفاتيحه وقال العباس وأنا صاحب السقاية والقيام عليها وقال ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله هذه الآية «أجعلتم سقاية الحاج» والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهي سقي الحاج وكان العباس ابن عبد المطلب بيده سقاية الحاج وكان يليها في الجاهلية فلما جاء الإسلام وأسلم العباس أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وعمارة المسجد الحرام يعني بناؤه وتشييده ومرمته (كمن آمن بالله واليوم الآخر) فيه حذف تقديره كإيمان من آمن

فى سبيل الله وقيل السقاية والعمارة بمعنى الساقى والعامر تقديره أجعلتم ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله وهذا كقوله تعالى والعاقبة للتقوى أى للمتقين يدل عليه قراءة عبد الله بن الزبير وأبى بن كعب أجعلتم سقاه الحاج وعمرة المسجد الحرام على جمع الساقى والعامر كمن آمن بالله واليوم الآخر (وجاهد فى سبيل الله لايستوون عند الله والله لايهدى القوم الظالمين) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدثنى إسحاق بن

إبراهيم ثنا أبو أسامة ثنا يحيى بن مهلب عن حسين عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستقى فقال العباس يافضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها فقال اسقنى فقال يارسول الله أنهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح ثم قال لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه وأشار إلى عاتقه أخبرنا إسماعيل ابن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان عن مسلم ابن الحجاج حدثنى محمد ابن منهال الضرير ثنا يزيد ابن زريع ثنا حميد الطويل عن بكر بن عبد الله المزنى قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابى فقال مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله مابنا حاجة ولا بخل قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة بن زيد فاستسقى فأتيناه باناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة وقال أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم. قوله تعالى (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة) فضيلة (عند الله) من الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام (وأولئك هم الفائزون) الناجون من النار (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم

بالله واليوم الآخر (وجاهد فى سبيل الله) أى وكجهاد من جاهد فى سبيل الله وقيل السقاية والعمارة بمعنى الساقى والعامر تقديره أجعلتم ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله (لايستوون عند الله) يعنى لايستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملا إلا مع الإيمان به (والله لايهدى القوم الظالمين) (خ) عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس يافضل إذهب إلى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال اسقنى فقال يارسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح ثم قال لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذا يعنى عاتقه» (م) عن بكر بن عبد الله المزنى قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابى فقال مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله مابنا من حاجة ولا بخل إنما قدم النبى صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فأتيناه باناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة فقال أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم النبيذ تمر ينقع فى الماء غدوة ويشرب عشاء أو ينقع عشاء ويشرب غدوة وهذا حلال فان غلى وحمض حرم.

قوله عز وجل (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) يعنى أن من كان موصوفا بهذه الصفات يعنى الإيمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس كان أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام وإنما لم يذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الإطلاق على من سواهم والمراد بالدرجة المنزلة والرفعة عند الله فى الآخرة (وأولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم الفائزون) يعنى بسعادة الدنيا والآخرة (يبشرهم ربهم) يعنى يخبرهم ربهم والبشارة الخبر السار الذى يفرح الإنسان عند سماعه وتستنير بشرة وجهه عند سماعه ذلك الخبر السار ثم ذكر الخبر الذى يبشرهم به فقال تعالى (برحمة منه ورضوان) وهذا أعظم البشارات لأن الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصوده (وجنات لهم فيها نعيم مقيم) يعنى أن نعيم الجنة دائم غير منقطع أبدا (خالدين فيها) يعنى فى الجنان وفى النعيم (أبدا) يعنى لا انقطاع له (إن الله عنده أجر عظيم) يعنى لمن

عمل

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء) قال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت فى قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة . وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة إلى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وولده يقولون ننشدك بالله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فأنزل الله عز وجل هذه الآية » وقال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله عن ولايتهم فأنزل الله «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء» بطانة وأصدقاء فتفشون إليهم

أسرارهم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة والجهاد (إن استحبوا) اختاروا (الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم) يطلعهم على عورة المسلمين ويؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد (فأولئك هم الظالمون) وكان فى ذلك الوقت لا يقبل الإيمان إلا من مهاجر فهذا معنى قوله فأولئك هم الظالمون ثم قال تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة (إن كان آباؤكم) وذلك لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجاراتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فنزل (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) قرأ أبو بكر عن عاصم عشيراتكم بالألف على الجمع والآخرون بلا ألف على التوحيد لأن العشيرة واقعة على الجمع ويقوى هذه القراءة أن أبا الحسن الأخفش قال لا تكاد العرب تجمع العشيرة على العشيرات إنما تجمعها على العشائر (وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها) أى تستطيبونها يعنى القصور والمنازل (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) فانتظروا (حتى يأتى الله بأمره) قال عطاء بقضائه وقال مجاهد ومقاتل بفتح مكة وهذا أمر تهديد (والله لا يهدى) لا يوفق ولا يرشد (القوم الفاسقين) الخارجين عن الطاعة . قوله تعالى (لقد نصركم الله فى مواطن)

عمل بطاعته وجاهد فى سبيله . قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء) قال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت فى قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة إلى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وأنزل يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء يعنى بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة قال بعضهم حمل هذه الآية على ترك الهجرة مشكل لأن هذه السورة نزلت بعد الفتح وهى من آخر القرآن نزولا والأقرب أن يقال إن الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالتبرى من المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه فذكر الله أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه فى الدين واجبة فالمؤمن لا يوالى الكافر وإن كان أباه وأخاه وابنه وهو قوله تعالى (إن استحبوا الكفر على الإيمان) يعنى إن اختاروا الكفر وأقاموا عليه وتركوا الإيمان بالله ورسوله (ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) يعنى ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فأنزل الله سبحانه وتعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) وقرئ على الجمع وعشيراتكم العشيرة هم الأدنون من أهل الإنسان الذين يعاشرونه دون غيرهم (وأموال اقترفتموها) يعنى اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) يعنى بفراقكم لها (ومساكن ترضونها) يعنى تستوطنونها راضين بسكناها (أحب إليكم من الله ورسوله) يعنى أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله (وجهاد فى سبيله) فبين الله سبحانه وتعالى أنه يجب تحمل جميع المضار فى الدنيا ليبقى الدين سليما وأخبر أنه كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله (فتربصوا) أى فانتظروا (حتى يأتى الله بأمره) يعنى بقضائه وهذا أمر تهديد وتخويف وقال مجاهد ومقاتل يعنى بفتح مكة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) يعنى الخارجين عن طاعته ، وفى هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا . قوله عز وجل (لقد نصركم الله) النصر المعونة على الأعداء بإظهار المسلمين عليهم (فى مواطن

أى مشاهد (كثيرة ويوم حنين) وحنين واد بين مكة والطائف وقال عكرمة إلى جنب ذى المجاز . وكانت قصة حنين على مانقله الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان ثم خرج إلى حنين لقتال هوازن وثقيف فى إثنى عشر ألفا (٧٢) عشرة آلاف من المهاجرين وألفان من الطلقاء وقال عطاء كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبى كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط والمشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وعلى هوازن مالك بن عوف النصرى وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل الثقفى فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة ابن سلام بن وقش لن نغلب اليوم عن قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا إلى كلمة الرجل وفى رواية فلم يرض الله قوله ووكلهم إلى أنفسهم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الذرارى ثم نادوا ياحماة للسواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون قال قتادة وذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو خيثمة عن أبى إسحاق قال : قال رجل للبراء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين قال لا والله ماولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم وهم حسر ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوما رماة لايكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبنى نصر فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطئون فأقبلوا هنالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

كثيرة) يعنى أماكن كثيرة والمراد بها غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماذكره فى الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة فى حديثه قاتل فى ثمان منهم ويقال إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون وهو قوله تعالى «لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة» (ويوم حنين) يعنى ونصركم الله فى يوم حنين أيضا فأعلم الله سبحانه وتعالى أنه هو الذى يتولى نصر المؤمنين فى كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له وحنين اسم واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا وقال عروة هو إلى جنب ذى المجاز وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان فخرج إلى حنين لقتال هوازن وثقيف فى اثنى عشر ألفا عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من الطلقاء وقال عطاء كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبى كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النصرى وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلامة بن رقيش لن نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا إلى كلمة الرجل وفى رواية فلم يرض الله قوله ووكلهم إلى أنفسهم وذكر ابن الجوزى عن سعيد بن المسيب أن القائل لذلك أبو بكر الصديق وحكى ابن جرير الطبرى أن القائل لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناد هذه الكلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بعد لأنه صلى الله عليه وسلم كان فى جميع أحواله متوكلا على الله عز وجل لايلتفت إلى كثرة عدد ولا إلى غيره بل نظره إلى مايأتى من عند الله عز وجل من النصر والمعونة قالوا فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الذرارى ثم تنادوا ياحماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون وقال قتادة ذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا (ق) عن أبى إسحاق قال جاء رجل إلى البراء فقال أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة فقال أشهد على نبى الله صلى الله عليه وسلم ماولى ولكن انطلق أخفاء من الناس وحسر إلى هذا الحى من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوسفيان بن الحارث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب اللهم نصرك زاد أبو خيثمة ثم صفهم قال البراء كنا والله إذا احمر البأس نتقى به وإن الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى النبى صلى الله عليه وسلم عن أبى إسحاق قال: قال رجل للبراء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين قال لا والله ماولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤه حسرا ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوما رماة لايكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبنى نصر فرشقوهم رشقا مايكادون

يخطئون

بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به فنزل واستنصر وقال أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، ثم صفهم ورواه محمد بن إسماعيل عن عبيد الله ابن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق وزاد قال فما رؤى من الناس يومئذ أشد منه ورواه زكريا عن أبي إسحاق وزاد قال البراء كنا إذا احمر البأس نتقي به وأن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي صلى الله عليه وسلم وروى شعبة عن أبي إسحاق قال : قال البراء إن هوازن كانوا قوما رماة وإنا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر قال الكلبي كان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وقال آخرون لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ غير العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان ابن الحارث وأيمن بن أم أيمن فقتل يومئذ بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبدالغافر ابن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم ابن الحجاج قال حدثنا أبو طاهر أحمد بن عمرو ابن سرح ثنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب قال حدثني كثير ابن عباس بن عبد المطلب قال : قال عباس شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان ابن الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامى فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي عباس ناد أصحاب السمرة فقال عباس وكان رجلا صيتا فقلت بأعلى صوتي أين أصحاب السمرة قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا يا لبيك يا لبيك قال فاقتتلوا والكفار والدعوة في الأنصار يقولون يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال هذا حين حمى الوطيس ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد فذهبت أنظر فاذا القتال على هيئته فيما أرى قال فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا وقال سلمة بن الأكوع غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا قال

يخطئون فأقبلوا هنالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به فنزل ودعا واستنصر وقال أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ثم صفهم وروى شعبة عن أبي إسحاق قال قال البراء إن هوازن كانوا قوما رماة ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر . قوله ولكنه انطلق إخفاء من الناس الإخفاء جمع خفيف وهم المسرعون من الناس الذين ليس لهم مايعوقهم والحسر جمع حاسر وهو الذى لا درع عليه يقال إذا رمى القوم بأمرهم إلى جهة واحدة رمينا رشقا والرجل من الجراد القطعة الكبيرة منه وقوله كنا إذا احمر البأس يعني إذا اشتد الحرب والبأس بالموحدة من تحت الشدة والخوف وقال الكلبي كان حول رسول الله ﷺ ثلثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وقال غيره لم يبق مع النبي ﷺ يومئذ غير عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن قتل يوم حنين بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أيمن أخو أسامة ابن زيد لأمه أمهما بركة مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته (م) عن العباس بن عبد المطلب قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة ابن نفاثة الجذامى فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله ﷺ أي عباس ناد أصحاب السمرة فقال العباس وكان رجلا صيتا فقلت بأعلى صوتي أين أصحاب السمرة قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا لبيك لبيك قال فاقتتلوا والكفار والدعوة في الأنصار يقولون يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار قال ثم قصرت الدعوة على بني الحرث بن الخزرج فقالوا يا بني الحرث بن الخزرج يا بني الحرث ابن الخزرج فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله

فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم بين المسلمين قال سعيد بن جبير أمد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وفى الخبر أن رجلا من بنى نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق والرجال الذين عليهم ثياب بيض ما كنا نراكم فيهم إلا كهيئة الشامة وما كنا قتلنا إلا بأيديهم فأخبروا بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة قال الزهرى وبلغنى أن شيبة ابن عثمان بن طلحة قال استدبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله

رسوله صلى الله عليه وسلم على ما فى نفسى فالتفت إلى وضرب فى صدرى وقال أعيذك بالله ياشيبة فارتعدت فرائصى فنظرت إليه وهو أحب إلى من سمعى وبصرى فقلت أشهد أنك رسول الله وأن الله قد أطلعك على ما فى نفسى فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله رجلا من الأشعريين يقال له أبو عامر وأمره على جيش المسلمين إلى أوطاس فسار إليهم فاقتتلوا وقتل دريد بن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيالهم وهرب أميرهم مالك بن عوف النصرى فأتى الطائف فتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ وقتل أمير المسلمين أبو عامر قال الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبى ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر الحرام انصرف عنهم فأتى الجعرانة فأحرم منها بعمرة وقسم فيها غنائم حنين وأوطاس وتألف أناسا منهم أبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان ثنا شعيب ثنا الزهرى أخبرنى أنس بن مالك رضى الله عنه أن أناسا من الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل فقالوا يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم ولم

صلى الله عليه وسلم هذا حين حمى الوطيس قال ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد قال فذهبت أنظر فاذا القتال على هيئته فيما أرى قال فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا. قوله حمى الوطيس أي اشتد الحرب قال الخطابى هذه الكلمة لم تسمع قبل أن يقولها النبى صلى الله عليه وسلم من العرب وهى مما اقتضبه وأنشأه والوطيس فى اللغة التنور وقوله حدهم كليلا يعنى لا يقطع شيئا (م) عن سلمة بن الأكوع قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا قال فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم وقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله بذلك وقسم رسول الله غنائمهم بين المسلمين أخرجه مسلم بزيادة فيه قال سعيد بن جبير أمد الله نبيه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وروى أن رجلا من بنى نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا نراهم فيكم إلا كهيئة الشامة وما كان قتلنا إلا بأيديهم فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال تلك الملائكة وروى أن رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فاذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها واختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم حنين على قولين والصحيح أنها لم تقاتل إلا يوم بدر وإنما كانت الملائكة يوم حنين مددا وعونا وذكر البغوى أن الزهرى قال بلغنى أن شيبة بن عثمان قال استدبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله على ما فى نفسى فالتفت إلى وضرب فى صدرى وقال أعيذك بالله ياشيبة فارعدت فرائصى فنظرت إليه وهو أحب إلى من سمعى وبصرى فقلت أشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أطلعك الله على ما فى نفسى فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين

يدع معهم احدا غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال ماكان حديث بلغنى عنكم فقال له فقهاؤهم اما ذوو رأينا يارسول الله فلم يقولوا شيئا وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى قريشا ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ماتنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يارسول الله قد رضينا فقال لهم إنكم سترون بعدى أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض وقال يونس عن ابن شهاب فانى أعطى رجالا حديثى عهد بالكفر أتألفهم وقال فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فانى على الحوض قالوا سنصبر أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد **(٧٥)** بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا وهيب ثنا عمرو بن يحيى عن عباد ابن تميم عن عبدالله بن زيد ابن عاصم قال «لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا إذ لم يصيبوا ما أصابه الناس فخطبهم فقال يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى وكنتم عالة فأغناكم الله بى كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن قال لوشئتم قلتم جئتنا كذا وكذا وكان من الأمر كذا وكذا لأشياء عددها كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن قال أما ترضون أن يذهب الناس بالشياه والغنم والبعير وتذهبوا بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت وادى الأنصار وشعبهم الأنصار شعار والناس دثار ، إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن أبى عمرو المكى ثنا سفيان عن عمرو بن مسروق عن أبيه عن عباية بن رفاعة عن رافع بن خديج قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباسفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة ابن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس

مدبرين انطلقوا إلى أوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأشعريين يقال له أبو عامر وأمره على الجيش فسار إلى أوطاس فاقتتلوا بها وقتل دريد ابن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيال المشركين وهرب أميرهم مالك ابن عوف النصرى فأتى الطائف فتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ وقتل أبو عامر أمير المسلمين قال الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف صبى ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم وأتى الجعرانة فأحرم منها بعمرة وقسم بها غنائم حنين وأوطاس وتألف أناسا منهم أبوسفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم (ق) عن أنس بن مالك أن ناسا من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله ﷺ يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل فقالوا يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس فحدث بذلك رسول الله ﷺ من قولهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حديث بلغنى عنكم فقال له فقهاء الأنصار أما ذوو رأينا يا رسول الله لم يقولوا شيئا وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فانى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن تذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يا رسول الله قد رضينا قال فانكم ستجدون بعدى أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض قالوا سنصبر زاد فى رواية قال أنس فلم نصبر (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن قال فما منعكم أن تجيبوا رسول الله كلما قال شيئا قالوا

أتجعل نهبى ونهب العبـ ـيد بين عيينة والاقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن يخفض اليوم لايرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وفى الحديث أن ناسا من هوازن أقبلوا مسلمين بعدذلك فقالوا يارسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا أخبرنا عبدالواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف (٧٦) ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سعيد بن عفير حدثنى الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير أن مروان والمسور ابن مخرمة أخبراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم معى من ترون وأحب الحديث إلى أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبى وإما المال قالوا فانا نختار سبينا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله ثم قال أما بعد فان إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفئ الله علينا فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لاندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يؤذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا فأنزل الله تعالى فى قصة حنين لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين (إذ أعجبتكم كثرتكم) حتى قلتم لن نغلب اليوم من قلة (فلم تغن عنكم) كثرتكم (شيئا) يعنى أن الظفر لايكون بالكثرة (وضاقت عليكم الأرض بما رحبت) أى برحبها وسعتها (ثم وليتم مدبرين) منهزمين (ثم أنزل الله) بعد الهزيمة (سكينته) يعنى الأمنة والطمأنينة وهى فعيلة من السكون

الله ورسوله أمن قال لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن تذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبوا بالنبى إلى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت وادى الأنصار وشعبهم الأنصار شعار والناس دثار (م) عن رافع بن خديج قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة ابن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس :

أتجعل نهبى ونهب العبـ ـيد بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن يخفض اليوم لايرفع

قال فأتم رسول الله ﷺ له مائة (خ) عن المسور ومروان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد عليهم مالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن معى من ترون وأحب الحديث إلى أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبى وقد كنت استأنيت بكم وفى رواية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راد عليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا أنا نختار سبينا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فان إخوانكم هؤلاء جاؤا تائبين وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك لهم يا رسول الله فقال لهم فى ذلك انا لاندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمتهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا فهذا الذى بلغنا من سبى هوازن وأنزل الله عز وجل فى قصة حنين لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين (إذ أعجبتكم كثرتكم) يعنى حين قلتم لن نغلب اليوم من قلة (فلم تغن عنكم) يعنى كثرتكم (شيئا) يعنى أن الظفر بالعدو ليس بكثرة العدد ولكن إنما يكون بنصر الله ومعونته (وضاقت عليكم الأرض بما رحبت) يعنى بسعتها وفضائها (ثم وليتم مدبرين) يعنى منهزمين (ثم أنزل الله سكينته) يعنى بعد الهزيمة والسكينة الطأنينة والأمنة

(على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها) يعنى الملائكة قيل لا للقتال ولكن لتجبين الكفار وتشجيع المسلمين لأنه روى أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر (وعذب الذين كفروا) بالقتل والأسر وسبى العيال وسلب الأموال (وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) فيهديه إلى الإسلام (والله غفور رحيم) قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس) الآية قال الضحاك وأبو عبيدة نجس قذر. وقيل خبيث وهو مصدر يستوى فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع فأما النجس بكسر النون وسكون الجيم فلا يقال على الإنفراد إنما يقال رجس نجس فإذا أفرد قيل نجس بفتح النون وكسر الجيم وأراد به نجاسة الحكم لا نجاسة العين سموا نجسا على الذم وقال قتادة سماهم نجسا لأنهم يجنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضئون قوله تعالى (فلا يقربوا المسجد الحرام) أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام وأراد به الحرم هذا كما قال الله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام وأراد به الحرم لأنه أسرى به من بيت أم هانىء قال الشيخ الإمام الأجل وجملة بلاد الإسلام فى حق الكفار على ثلاثة أقسام أحدها الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية وإذا جاء رسول من بلاد الكفار إلى الإمام والإمام فى الحرم لا يأذن له فى دخول الحرم بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم والقسم الثانى من بلاد الإسلام الحجاز فيجوز للكافر دخولها بالإذن ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لئن عشت إن شاء الله تعالى لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلما فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصى فقال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك أبو بكر رضى الله عنه وأجلاهم عمر رضى الله عنه فى خلافته وأجل لمن يقدم منهم تاجرا ثلاثا وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق فى الطول وأما العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام والقسم الثالث سائر

والأمنة وهى فعلية من السكون وذلك أن الإنسان إذا خاف رجف فؤاده فلا يزال متحركا وإذا أمن سكن فؤاده وثبت فلما كان الأمن موجبا للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الأمن. وقوله تعالى (على رسوله وعلى المؤمنين) إنما كان إنزال السكينة على المؤمنين لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة والاضطراب فى هذه الواقعة ثم من الله عليهم بإنزال السكينة عليهم حتى رجعوا إلى قتال عدوهم بعد الهزيمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر (وأنزل جنودا لم تروها) يعنى الملائكة تثبيت المؤمنين وتشجيعهم وتخذيل المشركين وتجبينهم لا للقتال لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر (وعذب الذين كفروا) يعنى بالأسر والقتل وسبى العيال والأموال (وذلك جزاء الكافرين) يعنى فى الدنيا ثم إذا أفضوا إلى الآخرة كان لهم عذاب أشد من ذلك العذاب وأعظم (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) يعنى فيهديه إلى الإسلام كما فعل بمن بقى من هوازن حيث أسلموا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم تائبين فمن عليهم وأطلق سبيهم (والله غفور) لمن تاب (رحيم) بعباده. قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس) قيل أراد بالمشركين عبدة الأصنام دون غيرهم من أصناف الكفار وقيل بل أراد جميع أصناف الكفار عبدة الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى والنجس الشىء القذر من الناس وغيرهم وقيل النجس الشىء الخبيث وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لا نجاسة العين سموا نجسا على الذم لأن الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم وقيل هم أنجاس العين كالكلب والخنزير حتى قال الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة والقول الأول أصح وقال قتادة سماهم نجسا لأنهم يجنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضئون (فلا يقربوا المسجد الحرام) المراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ويؤكد هذا قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام أراد به الحرم لأنه أسرى به صلى الله عليه وسلم من بيت أم هانىء قال العلماء وجملة بلاد الإسلام فى حق الكفار ثلاثة أقسام أحدها الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعى وأحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام فى الحرم فلا يأذن له فى دخول الحرم بل يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز

بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة أو أمان ولكن لايدخلون المساجد إلا باذن مسلم قوله (بعد عامهم هذا) يعني العام الذى حج فيه أبو بكر رضى الله

عنه بالناس ونادى على كرم الله وجهه ببراءة وهو سنة تسع من الهجرة قوله (وإن خفتم عيلة) وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خافوا الفقر وضيق العيش وذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وإن خفتم عيلة فقرا وفاقة يقال عال يعيل عيلة إذا افتقر (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) قال عكرمة : فأغناهم الله عز وجل بأن أنزل عليهم المطر مدرارا فكثر خيرهم وقال مقاتل أسلم أهل جدة وصنعاء وجريش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها وذلك قوله تعالى : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله) قال مجاهد نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبى نزلت فى قريظة والنضير من اليهود فصالحهم وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدى المسلمين قال الله تعالى قاتلوا الذين لايؤمنون بالله (ولا باليوم الآخر) فان قيل أهل الكتاب مؤمنون بالله

أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم القسم الثانى من بلاد الإسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامى ونصفها حجازى وقيل كلها حجازى وقال ابن الكلبى حد الحجاز ما بين جبل طيئ وطريق العراق سمى حجازا لأنه حجز بين تهامة ونجد وقيل لأنه حجز بين نجد والسراة وقيل لأنه حجز بين نجد وتهامة والشام قال الحربى وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالاذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام (م) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلما زاد فى رواية لغير مسلم وأوصى فقال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر فى خلافته وأجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لايجتمع دينان فى جزيرة العرب أخرجه مالك فى الموطأ مرسلا (م) عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم قال سعيد ابن عبد العزيز جزيرة العرب ما بين الوادى إلى أقصى اليمن إلى تخوم العراق إلى البحر وقال غيره حد جزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق فى الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضا والقسم الثالث سائر بلاد الإسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة ولكن لايدخلون المساجد إلا باذن مسلم . وقوله تعالى (بعد عامهم هذا) يعنى العام الذى حج فيه أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى علي ببراءة وأن لايحج بعد العام مشرك وهو سنة تسع من الهجرة (وإن خفتم عيلة) يعنى فقرا وفاقة وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يجلبون إلى مكة الطعام ويتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة من الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وإن خفتم عيلة (فسوف يغنيكم الله من فضله) قال عكرمة فأغناهم الله بأن أنزل المطر مدرارا وكثر خيرهم وقال مقاتل أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها (إن شاء) قيل إنما شرط المشيئة فى الغنى المطلوب ليكون الإنسان دائم التضرع والابتهال إلى الله تعالى فى طلب الخيرات ودفع الآفات وأن يقطع العبد أمله من كل أحد إلا من الله عز وجل فانه هو القادر علي كل شئ وقيل أن المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الأدب كما فى قوله تبارك وتعالى لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين (ان الله عليم) يعنى بما يصلحكم (حكيم) يعنى أنه تعالى لايفعل شيئا إلا عن حكمة وصواب فمن حكمته أن منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية والذل والصغار على أهل الكتاب فقال تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) قال مجاهد نزلت الآية حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبى نزلت فى قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدى المسلمين وهذا خطاب للنبى صلي الله

عليه

ولا باليوم الآخر) قيل لا يؤمنون كإيمان المؤمنين فإنهم إذا قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيمانا بالله (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق) أي لا يدينون الدين الحق أضاف الاسم إلى الصفة وقال قتادة الحق هو الله أي لا يدينون دين الله ودينه الإسلام وقال أبو عبيدة معناه ولا يطيعون الله تعالى طاعة أهل الحق (من الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (حتى يعطوا الجزية) وهي الخراج المضروب على رقابهم (عن يد) عن قهر وذل قال أبو عبيدة يقال لكل من أعطى شيئا كرها من غير طيب نفس أعطاه عن يد وقال ابن عباس يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل عن يد أي نقدا لا نسيئة وقيل عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم (وهم صاغرون) أذلاء مقهورون قال عكرمة يعطون الجزية عن قيام والقابض جالس وعن ابن عباس قال تؤخذ منه ويوطأ عنقه وقال الكلبي إذا أعطى صفع في قفاه وقيل يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمته وقيل يلبب ويجر إلى موضع الإعطاء بعنف، وقيل إعطاؤه إياها هو الصغار وقال الشافعي رحمه الله الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم . واتفقت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتابين وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عربا واختلفوا في الكتابي العربي وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم ، فذهب الشافعي إلى أن الجزية على الأديان لا على

(٧٩)

عليه وسلم وأصحابه المؤمنين والمعنى قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . فإن قلت اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . قلت إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه والنصارى يعتقدون الحلول ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله وقيل من اعتقد أن عزيزا ابن الله وأن المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله وقيل من كذب رسولا من رسل الله فليس بمؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء فليسوا بمؤمنين بالله وأما إيمانهم باليوم الآخر فليس كإيمان المؤمنين وذلك أنهم يعتقدون بعثة الأرواح دون الأجساد ويعتقدون أن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس إيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن . وقوله تعالى (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) يعني ولا يحرمون الخمر والخنزير وقيل معناه أنهم لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله في السنة وقيل معناه لا يعملون بما في التوراة والإنجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام من قبل أنفسهم (ولا يدينون دين الحق) يعني ولا يعتقدون صحة الإسلام الذي هو دين الحق وقيل الحق هو الله تعالى ومعناه ولا يدينون دين الله ودينه الإسلام وهو قوله تعالى إن الدين عند الله الإسلام وقيل معناه ولا يدينون دين أهل الحق وهم المسلمون ولا يطيعون الله كطاعتهم (من الذين أوتوا الكتاب) يعني أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى (حتى يعطوا الجزية) وهي ما يعطي المعاهد من أهل الكتاب على عهده وهي الخراج المضروب على رقابهم سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم (عن يد) يعني عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيئا كرها من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل يعطونها نقدا لا نسيئة وقيل يعطونها مع إقرارهم بإنعام المسلمين عليهم بقبولها منهم (وهم صاغرون) من الصغار وهو الذل والإهانة يعني يعطون الجزية وهم أذلاء مقهورون وقال عكرمة يعطون الجزية وهم قائمون والقابض جالس وقال ابن عباس تؤخذ الجزية من أحدهم وتوطأ عنقه وقال الكلبي إذا أعطى يصفع قفاه وقال هو أن يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه ويقال له أد حق الله يا عدو الله وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم

الأنساب فتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما ولا تؤخذ من أهل الأوثان بحال واحتج بأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها من أكيدر دومة وهو رجل من العرب يقال أنه من غسان وأخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والأوزاعي إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد وقال أبو حنيفة رضي الله عنه تؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب وقال أبو يوسف لا تؤخذ من العربي كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من العجمي كتابيا كان أو مشركا وأما المجوس فاتفقت الصحابة رضي الله عنهم على أخذ الجزية منهم أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن

عمرو بن دينار سمع بجالة يقول لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبد الرحمن ابن عوف أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سنوا بهم سنة أهل الكتاب وفي امتناع عمر رضي الله عنه عن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر دليل على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تؤخذ من كل مشرك (٨٠) وإنما تؤخذ من أهل الكتاب واختلفوا في أن المجوس هل هم من أهل الكتاب أم لا فروى علي رضي الله عنه قال كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا يوما وقد أسري على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتابين أما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين نظر أن دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وإن دخلوا في دينهم بعد النسخ بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم لا يقرون بالجزية ولا تحل مناكحتهم وذبائحهم ومن شككنا في أمرهم أنهم دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرون بالجزية تغليبا لحقن الدم ولا تحل مناكحتهم وذبائحهم تغليبا للتحريم فمنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب أقرهم عمر رضي الله عنه على الجزية وقال لا تحل لنا ذبائحهم وأما قدر ولا الجزية فأقله دينار لا يجوز أن ينقص منه ويقبل الدينار من الفقير والغني والوسط لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمود بن غيلان ثنا عبد الرزاق أنا معمر أنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فأمره أن يأخذ من كل حالم دينارا أو عدله مغافر فالنبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يأخذ من كل حالم أي بالغ دينارا ولم يفصل بين الغني والفقير والوسط وفيه دليل على أنها لا تجب على الصبيان وكذلك لا تجب على النسوان إنما تؤخذ من

(فصل في بيان أحكام الآية)

اجتمعت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عربا واختلفوا في أهل الكتاب العرب وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم فذهب الشافعي إلى أن الجزية على الأديان لا على الإنساب فتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما ولا تؤخذ من عبدة الأوثان بحال واحتج بما روى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث خالد ابن الوليد إلى أكيدر دومة فأخذوه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية أخرجه أبو داود وقال الشافعي وهو رجل من العرب يقال أنه من غسان وأخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والأوزاعي إلى أن الجزية تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد وقال أبو حنيفة تؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب وقال أبو يوسف لا تؤخذ من العربي كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من العجمي كتابيا كان أو مشركا وأما المجوس فاتفقت الصحابة على جواز الأخذ منهم ويدل عليه ما روى عن بجالة بن عبيدة ويقال عبدة لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر أخرجه البخاري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول سنوا بهم سنة أهل الكتاب أخرجه مالك في الموطأ عن ابن شهاب قال بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس البحرين وأن عمر أخذها من مجوس فارس وأن عثمان ابن عفان أخذها من البربر أخرجه مالك في الموطأ وفي امتناع عمر من أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها منهم دليل على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تؤخذ من كل مشرك وإنما تؤخذ من أهل الكتاب واختلفوا في أن المجوس هل هم من أهل الكتاب فروى عن علي بن أبي طالب أنه قال كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسري على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب وأما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين فينظر فإن كانوا قد دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل فإنهم يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وإن كانوا دخلوا فيه بعد النسخ بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ونسخ شريعتهم بشريعته فإنهم لا يقرون بالجزية

ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم ومن شككنا فى أمرهم هل دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرون بالجزية تغليبا لحقن الدم ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم تغليبا للتحريم ومنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبنى تغلب أقرهم عمر على الجزية وقال لا تحل لنا ذبائحهم وأما الصابئة والسامرة فسبيلهم سبيل أهل الكتاب فهم فى أهل الكتاب كأهل البدع فى المسلمين وأما قدر الجزية فأقلها دينار ولا يجوز أن ينقص عنه ويقبل الدينار من الغنى والفقير والمتوسط ويدل عليه ماروى عن معاذ بن جبل «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم أى محتلم دينارا أو عدله من المغافرية ثياب تكون باليمن» أخرجه أبو داود فالنبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ دينارا ولم يفرق بين الغنى والفقير والمتوسط وفيه دليل على أنه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء وإنما تؤخذ من الأحرار البالغين وذهب قوم إلى أن على كل موسر أربعة دنانير وعلى كل متوسط دينارين وعلى كل فقير دينارا وهو قول أصحاب الرأى ويدل عليه ماروى عن أسلم أن عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهما ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام أخرجه مالك فى الموطأ قال أصحاب الشافعى أقل الجزية دينار لا يزاد على الدينار إلا بالتراضى فإذا رضى أهل الذمة بالزيادة ضربنا على المتوسط دينارين وعلى الغنى أربعة دنانير قال العلماء إنما أقر أهل الكتاب على دينهم الباطل بخلاف أهل الشرك حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل وأيضا فإن بأيديهم كتبا قديمة فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته فأمهلوا لهذا المعنى وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب إقرارهم على كفرهم بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وإمهالهم رجاء أن يعرفوا الحق فيرجعوا إليه بأن يؤمنوا ويصدقوا إذا رأوا محاسن الإسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه. قوله عز وجل (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه فى هذه الآية فأخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولدا ومن جوز ذلك على الله فقد أشرك به لأنه لا فرق بين من يعبد صنما وبين من

الأحرار العاقلين البالغين من الرجال وذهب قوم إلى أنه على كل موسر أربعة دنانير وعلى كل متوسط ديناران وعلى كل فقير دينار وهو قول أصحاب الرأى قوله تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) روى سعيد ابن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله فأنزل الله عز وجل وقالت اليهود عزير ابن الله قرأ عاصم والكسائى ويعقوب عزير بالتنوين والآخرون بغير تنوين فمن لم ينون قال لأنه اسم أعجمى ويشبه اسما مصغرا ومن نون قال لأنه اسم خفيف فوجهه أن يصرف وإن كان أعجميا مثل نوح (٨١) وهود ولوط واختار أبو عبيدة التنوين وقال لأن هذا ليس بمنسوب إلى أبيه إنما هو كقولك زيد ابن الأمير وزيد ابن أخينا فعزير مبتدأ وما بعده خبر له وقال عبيد بن عمير إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال إن الله فقير ونحن أغنياء وروى عطية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إنما قالت اليهود عزير ابن الله من أجل أن عزيرا كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل إليه أن يرد إليه الذى نسخ من صدورهم فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه التوراة فأذن فى قومه وقال ياقوم إن الله تعالى قد آتانى التوراة وردها إلى فعلق به الناس يعلمهم فمكثوا ماشاء الله تعالى، ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله. فقالوا ما أوتى عزير هذا إلا أنه ابن الله وقال الكلبى أن بختنصر لما ظهر على بنى إسرائيل وقتل من قرأ التوراة وكان عزير إذ ذاك صغيرا فاستصغره فلم يقتله فلما رجع بنو إسرائيل إلى البيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله عزيرا ليجدد لهم التوراة وتكون لهم آية بعد مائة سنة يقال أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة فى صدره فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة فكتبها لهم ثم إن رجلا قال إن أبى حدثنى عن جدى أن التوراة جعلت فى خابية

ودفنت فى كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر منها حرفا فقالوا إن الله لم يقذف التوراة فى قلب رجل إلا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وكان السبب فيه أنهم كانوا على دين الإسلام (٨٢) إحدى وثمانين سنة بعد مارفع عيسى عليه السلام يصلون إلى القبلة ويصومون فى رمضان حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا به والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار فانى أحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار وكان له فرس يقال له العقاب يقاتل عليه فعرقب فرسه وأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب فقال له النصارى من أنت قال بولص عدوكم نوديت من السماء ليست لك توبة إلا أن تتنصر وقد تبت فأدخلوه الكنيسة ودخل بيتا سنة لايخرج منه ليلا ولا نهارا حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال نوديت إن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسطورا وعلمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال لم يكن عيسى بانس ولا بجسم ولكنه ابن الله وعلم ذلك رجلا يقال له يعقوب ثم دعا رجلا يقال له ملكان فقال له إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحدا واحدا وقال لكل واحد منهم أنت

يعبد المسيح فقد بان بهذا أنهم لايؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وإبقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة التى بأيديهم ولعلهم يتفكرون فيها ويعرفون الحق فيرجعون إليه روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لاتزعم أن عزيرا ابن الله فأنزل الله هذه الآية وقال عبيد ابن عمير إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال إن الله فقير ونحن أغنياء فعلى هذين القولين القائل لهذه المقالة جماعة من اليهود أو واحد وإنما نسب ذلك إلى اليهود فى وقالت اليهود جريا على عادة العرب فى إيقاع اسم الجماعة على الواحد تقول العرب فلان يركب الخيل وإنما يركب فرسا واحدا منها وتقول العرب فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا واحدا منهم وروى عطية العوفى عن ابن عباس أنه قال إنما قالت اليهود ذلك من أجل أن عزيرا كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل إليه أن يرد إليه التوراة فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه فأذن فى قومه وقال ياقوم قد أتانى الله التوراة وردها إلى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ماشاء الله ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على مافى التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما أوتى عزير هذا إلا أنه ابن الله وقال الكلبى أن بختنصر لما غزا بيت المقدس وظهر على بنى إسرائيل وقتل من قرأ التوراة كان عزير إذ ذاك صغيرا فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعدما أماته الله مائة سنة قال فأتى ملك باناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة فى صدره فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم إن رجلا منهم قال إن أبى حدثنى عن جدى أن التوراة جعلت فى خابية ودفنت فى كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر حرفا فقالوا إن الله لم يقذف التوراة فى قلب عزير إلا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله فعلى هذين القولين أن هذا القول كان فاشيا فى اليهود جميعا ثم إنه انقطع واندرس فأخبر الله تعالى به عنهم وأظهره عليهم ولا عبرة بانكار اليهود ذلك فان خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من إنكارهم وأما قول النصارى المسيح ابن الله فكان السبب فيه أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام إحدى وثمانين سنة يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون

خالصتى وقد رأيت عيسى فى المنام فرضى عنى وقال لكل واحد منهم إنى غدا أذبح نفسى فادع الناس إلى نحلتك ثم دخل
يذبح فذبح نفسه وقال إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نحلته
فتبع كل واحد طائفة من الناس فاختلفوا واقتتلوا ، فقال الله عز وجل وقالت النصارى المسيح ابن الله (ذلك قولهم بأفواههم) يقولون بألسنتهم من غير علم قال أهل المعانى لم يذكر الله تعالى قولا مقرونا بالأفواه والألسن إلا كان ذلك زورا (يضاهئون) قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزا والآخرون بضم الهاء مهموزا وهما لغتان يقال ضاهيته وضاهأته ومعناهما واحد قال ابن عباس رضى الله عنه يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون (قول الذين كفروا من قبل) قال قتادة والسدى ضاهت النصارى قول اليهود من قبل فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود من قبل عزير ابن الله ، وقال مجاهد يضاهئون قول المشركين من قبل الذين كانوا يقولون اللات والعزى ومناة بنات الله وقال الحسن شبه كفرهم بكفر الذين
مضوا من الأمم الكافرة كما قال فى مشركى العرب كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم وقال القتيبي يريد أن من كان فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يقولون ماقال أولهم (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج أى قتلهم الله وقيل ليس هو علـى تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب (أني يؤفكون) أى يصرفون عن

مغبونون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة فانى سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم أتى إلى النصارى فقالوا له من أنت قال أنا عدوكم بولص فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم فأدخلوه السكينة ونصروه وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال قد نوديت أن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطور أن عيسى ومريم والآله ثلاثة وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولكنه ابن الله وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم فى الخلوة وقال له أنت خالصتى وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد ثم قال لهم إنى رأيت عيسى فى المنام وقد رضى عنى وقال لكل واحد منهم إنى سأذبح نفسى تقربا إلى عيسى ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد إلى الروم وواحد إلى بيت المقدس والآخر إلى ناحية أخرى وأظهر كل واحد منهم مقالته ودعا الناس إليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله وقال الإمام فخر الدين الرازى بعد أن حكى هذه الحكاية والأقرب عندى أن يقال لعله ذكر لفظ الابن فى الإنجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل فى حق إبراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم وفشا هذا المذهب الفاسد فى أتباع عيسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة الحال (ذلك قولهم بأفواههم) يعنى أنهم يقولون ذلك القول بألسنتهم من غير علم يرجعون إليه قال أهل المعانى لم يذكر الله قولا مقرونا بالأفواه والألسن إلا كان ذلك القول زورا وكذبا لاحقيقة له (يضاهئون) قال ابن عباس يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون (قول الذين كفروا من قبل) قال قتادة والسدى معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله وقال مجاهد معناه يضاهئون قول المشركين من قبل لأن المشركين كانوا يقولون الملائكة بنات الله وقال الحسن شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الأمم الخالية الكافرة وقال القتيبي يريد أن من كان فى عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ماقال أولوهم (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج قتلهم الله وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب أى حق أن يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ماأعجب فعله (أنى يؤفكون) يعنى أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل وإقامة الحجة بأن الله واحد أحد فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع إلى الخلق لأن الله سبحانه وتعالى لايتعجب من شىء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب فى مخاطبتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه ﷺ من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل .

لحق بعد قيام الادلة عليه (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم) أى علماءهم وقراءهم والأحبار العلماء واحدها حبرا وحبر بكسر الحاء و فتحها والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع واحدها راهب كصاحب وصحبان (أربابا) فان قيل أنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان قلنا معناه أنهم (٨٤) أطاعوهم فى معصية الله واستحلوا ماأحلوا وحرموا ماحرموا فاتخذوهم كالأرباب روى عن عدى ابن حاتم رضى الله عنه قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال لى ياعدى اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته فلما انتهيت إليه وهو يقرأ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا (من دون الله) حتى فرغ منها قلت إنا لسنا نعبدهم فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ماحرم الله فتستحلونه قال قلت بلى قال فتلك عبادتهم قال عبد الله بن المبارك :

وهل بدل الدين إلا الملوك
وأحبار سوء ورهبانها

(والمسيح ابن مريم) أى اتخذوه الها (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) أى يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه وقال الكلبى النور القرآن أى يريدون أن يردوا القرآن بألسنتهم تكذيبا (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) أى يعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذى بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم (ولو كره الكافرون هو الذى أرسل رسوله) يعنى الذى يأبى إلا إتمام دينه هو الذى أرسل رسوله محمدا ﷺ (بالهدى) قيل بالقرآن وقيل ببيان الفرائض (ودين الحق) وهو الإسلام (ليظهره) ليعليه وينصره (على الدين كله) على سائر الأديان كلها

قوله سبحانه وتعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) يعنى اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والأحبار العلماء من اليهود والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى أربابا من دون الله يعنى أنهم أطاعوهم فى معصية الله تعالى وذلك أنهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فأطاعوهم فيها فاتخذوهم كالأرباب لأنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الالهية عن عدى بن حاتم قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال « ياعدى اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ فى سورة براءة « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » فقال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه » أخرجه الترمذى وقال حديث غريب قال عبد الله بن المبارك :

وهل بدل الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

(والمسيح بن مريم) يعنى اتخذوه إلها وذلك لما اعتقدوا فيه النبوة والحلول اعتقدوا فيه الالهية (وما أمروا) يعنى وما أمروا فى الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم (إلا ليعبدوا إلها واحدا) لأنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لا لغيره (لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) أى تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك فى العبادة والأحكام وأن يكون له شريك فى الالهية يستحق التعظيم والإجلال (يريدون) يعنى يريد رؤساء اليهود والنصارى (أن يطفئوا نور الله بأفواههم) يعنى يريد هؤلاء أبطال دين الله الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبهم إياه وقيل المراد من النور الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهى أمور أحدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التى ظهرت على يد النبى صلى الله عليه وسلم الدالة على صدقه وثانيها القرآن العظيم الذى نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الأبد دالة على صدقه وثالثها أن دينه الذى أمر به هو دين الإسلام ليس فيه شىء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لأمره ونهيه وإتباع طاعته والأمر بعبادته والتبرىء من كل معبود سواه فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن أراد إبطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ثم إن الله سبحانه وتعالى وعد نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمزيد النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين بقوله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) يعنى ويأبى الله إلا أن يعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذى بعث به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ولو كره ذلك الكافرون . قوله عز وجل (هو الذى أرسل رسوله) يعنى أن الله الذى يأبى إلا أن يتم نوره هو الذى أرسل رسوله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (بالهدى) يعنى بالقرآن الذى أنزله عليه وجعله هاديا إليه (ودين الحق) يعنى دين الإسلام (ليظهره) يعنى ليعليه (على الدين كله) يعنى على سائر الأديان وقال ابن عباس الهاء فى ليظهره

(ولو كره المشركون) واختلفوا فى معنى هذه الآية فقال ابن عباس الهاء عائدة إلى رسول الله ﷺ أى ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى لايخفى عليه منها شىء وقال الآخرون الهاء راجعة إلى دين الحق وظهوره على الأديان هو أن لايدان الله تعالى إلا به وقال أبو هريرة والضحاك وذلك عند نزول عيسى بن مريم لايبقى أهل دين إلا دخل فى الإسلام وروينا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى نزول عيسى عليه السلام قال ويهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام وروى المقداد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لايبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز أو ذل ذليل إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون له قلت فيكون (٨٥) الدين كله لله أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب ثنا أبو جعفر محمد ابن سليمان بن منصور ثنا أبو مسلم بن إبراهيم ابن عبد الله البلخى ثنا أبو عاصم النبيل ثنا عبد الحميد هو بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ لايذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى قالت قلت يارسول الله ما كنت أظن أن يكون ذلك بعد ما أنزل الله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ثم قال يكون ذلك ماشاء الله ثم يبعث الله تعالى ريحا طيبة فتقبض من كان فى قلبه مثقال ذرة من خير ثم يبقى من لاخير فيه فيرجع الناس إلى دين آبائهم قال الحسين بن الفضل معنى الآية ليظهره على الدين كله بالحجج الواضحة وقيل ليظهره على الأديان التى حول النبى صلى الله عليه وسلم فيغلبها قال الشافعى رحمه الله فقد أظهر الله رسوله صلى الله عليه وسلم على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الأديان باطل وقال وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الأميين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعا وكرها وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه فهذا ظهوره على الدين كله والله أعلم قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان) يعنى العلماء والقراء من أهل الكتاب (ليأكلون أموال الناس بالباطل) يريد ليأخذون الرشا فى أحكامهم ويحرفون كتاب الله ويكتبون

عائدة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لايخفى عليه شىء منها وقال غيره من المفسرين الهاء راجعة إلى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الإسلام على الأديان كلها وهو ألا يعبد الله إلا به وقال أبو هريرة والضحاك ذلك عند نزول عيسى عليه السلام فلايبقى أهل دين إلا دخلوا فى الإسلام ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبى هريرة فى حديث نزول عيسى عليه السلام قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ويهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لايبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز أو بذل ذليل إما أن يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به وإما أن يذلهم فيدينون له» أخرجه البغوى بغير سند (م) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لايذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يارسول الله إن كنت أظن حين أنزل الله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله إن ذلك تام قال إنه سيكون ذلك ماشاء الله ثم يبعث ريحا طيبة تتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لاخير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم» قال الشافعى وقد أظهر الله دين رسوله صلى الله عليه وسلم على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الأديان باطل وقال وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الأميين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعا وكرها وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه فهذا هو ظهوره على الدين كله (ولو كره المشركون) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان) قد تقدم معنى الأحبار والرهبان وإن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وفى قوله سبحانه وتعالى «إن كثيرا» دليل على أن الأقل من الأحبار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولعلهم الذين كانوا قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم وعبر عن أخذ الأموال بالأكل فى قوله تعالى (ليأكلون أموال الناس بالباطل) لأن المقصود الأعظم من جمع المال الأكل فسمى الشىء باسم ماهو أعظم مقاصده واختلفوا فى السبب الذى من أجله أكلوا أموال الناس بالباطل فقيل أنهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم فى تخفيف الشرائع والمسامحة فى الأحكام وقيل أنهم كانوا يكتبون بأيديهم كتبا يحرفونها ويبدلونها ويقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمنا قليلا وهى المآكل

التى كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبي ﷺ وصفته فى كتبه لأنهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل وقيل أن التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبي صلى الله عليه وسلم وكان الأحبار والرهبان يذكرون فى تأويلها وجوها فاسدة باطلة ويحرفون معانيها طلبا للرياسة وأخذ الأموال ومنع الناس عن الإيمان به وذلك قوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) يعنى ويمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والدخول فى دين الإسلام (والذين يكنزون الذهب والفضة) أصل الكنز فى اللغة جعل المال بعضه على بعض وحفظه ومال مكنوز مجموع واختلفوا فى المراد بهؤلاء الذين ذمهم الله بسبب كنز الذهب والفضة فقيل هم أهل الكتاب قاله معاوية بن أبي سفيان لأن الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ثم وصفهم بالبخل الشديد وهو جمع المال ومنع إخراج الحقوق الواجبة منه وقال ابن عباس نزلت فى مانعى الزكاة من المسلمين وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الأحبار والرهبان فى الحرص على أخذ الأموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه وقال أبوذر نزلت فى أهل الكتاب وفى المسلمين ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين (خ) عن زيد بن وهب قال مررت بالربذة فاذا بأبى ذر فقلت ماأنزلك هذا المنزل قال كنت فى الشأم فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية «والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله» فقال معاوية نزلت فى أهل الكتاب فقلت نزلت فينا وفيهم فكان بينى وبينه فى ذلك كلام فكتب إلى عثمان يشكونى فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها فكثر على الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال إن شئت تنحيت فكنت قريبا فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ولو أمر على عبد حبشى لسمعت وأطعت واختلف العلماء فى معنى الكنز فقيل هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته وروى عن ابن عمر أنه قال له أعرابى أخبرنى عن قول الله عز وجل «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» قال ابن عمر من كنزها فلم يؤد زكاتها ويل له هذا كان قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرا للأموال. أخرجه البخارى وفى رواية مالك عن عبد الله بن دينار قال سمعت عبد الله ابن عمر وهو يسأل عن الكنز ماهو فقال هو المال الذى لاتؤدى منه الزكاة ورواه الطبرى بسنده عن ابن عمر قال كل مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا وكل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز الذى ذكره الله فى القرآن يكوى به صاحبه وإن لم يكن مدفونا وروى عن على بن أبى طالب قال أربعة آلاف فما فوقها كنز وما دونها نفقة وقيل الكنز كل مافضل من المال عن حاجة صاحبه إليه وروى الطبرى بسنده عن أبى أمامة قال توفى رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى صلى الله عليه وسلم كية ثم توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال النبى صلى الله عليه وسلم كيتان كان هذا فى أول الإسلام قبل أن تفرض الزكاة فكان يجب على كل من فضل معه شىء من المال إخراجه لاحتياج غيره إليه فلما فرضت الزكاة نسخ

ذلك

بأيديهم كتابا يقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمنا قليلا من سفلتهم وهى المآكل التى يصيبونها منهم على تغيير نعت النبى صلى الله عليه وسلم يخافون لو صدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل (ويصدون) ويصرفون الناس (عن سبيل الله) دين الله عز وجل (والذين يكنزون الذهب والفضة

ذلك الحكم عن ابن عباس قال «لما نزلت هذه الآية: والذين يكنزون الذهب والفضة، كبر على المسلمين فقال عمر أنا أفرج عنكم فانطلق فقال يانبى الله إنه كبر على أصحابك هذه الآية فقال إن الله لم يفرض الزكاة إلا لتطييب مابقى من أموالكم وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم قال فكبر عمر ثم قال له ألا أخبرك بخير مايكنز المرء المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته» أخرجه أبوداود عن ثوبان قال «لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره فقال بعض أصحابه أنزلت فى الذهب والفضة فلو علمنا أى المال خيرا اتخذناه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن والصحيح من هذه الأقوال القول الأول وهو ما ذكرنا عن ابن عمر أن كل مال أديت زكاته فليس بكنز ولايحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر وإن كان كل مال لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب عليه وإن قل إذا كان مما تجب فيه الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله إلا أن يتفضل الله عز وجل عليه بعفوه وغفرانه ويدل على ذلك ماروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن صاحب ذهب ولافضة لايؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقتضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يارسول الله فالإبل قال ولا صاحب إبل لايؤدى منها حقها ومن حقها حلبها يوم ورودها إلا إذا كان يوم القيامة بطح له بقاع قرقر أوفر ما كانت لايفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يارسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولاغنم لايؤدى حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لايفقد منها شيئا ليس فيها عقصاء ولاجلحاء ولاعضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» أخرجه مسلم بزيادة فيه قوله كلما ردت أعيدت له هكذا هو فى بعض نسخ صحيح مسلم ردت بضم الراء وفى بعضها بردت بالباء وهذا هو الصواب والرواية الأولى هى رواية الجمهور قوله حلبها هو بفتح اللام على المشهور وحكى إسكانها وهو ضعيف قوله بقاع قرقر هو المستوى من الأرض الواسع الأملس والعقصاء هى الشاة الملتوية القرنين وإنما استثناها لأنها لاتؤلم بنطحها وكذا الجلحاء وهى الشاة التى لاقرن لها وكذا العضباء وهى الشاة المكسورة القرن (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى شدقيه ـ ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله سبحانه وتعالى ولاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم الآية» الشجاع الحية والأقرع صفة له بطول العمر لأن من طال عمره تمزق شعره وذهب وهى صفة أخبث الحيات والزبيبتان هما الزبدتان فى الشدقين واللهزمتان عظمان ناتئان فى اللحيين تحت الأذنين. وقوله تعالى (ولا ينفقونها فى سبيل الله) يعنى ولايؤدون زكاتها وإنما قال ولا ينفقونها ولم يقل ينفقونهما لأنه رد الكناية إلى المال المكنوز وهى أعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية إلى الفضة لأنها أغلب أموال الناس (فبشرهم بعذاب أليم) يعنى الكافرين الذين لايؤدون زكاة أموالهم (ق)

ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) قال ابن عمر رضى الله عنهما كل مال تؤدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا وكل مال لاتؤدى زكاته فهو كنز وإن لم يكن مدفونا ومثله عن ابن عباس أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغفار ابن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثنى سويد بن سعيد ثنا حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن أبا صالح بن ذكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن صاحب ذهب ولا فضة لايؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالإبل؟ قال ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لايفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة

حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يارسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولا غنم لايؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وروينا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه -يعنى شدقيه- ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا «ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله» الآية وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أديت منه الزكاة أولم تؤد وما دونها نفقة. وقيل مافضل عن الحاجة فهو كنز. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبى شيبة ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال «هم الأخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم أتقار أن قمت فقلت يارسول الله فداك أبى وأمى من هم قال هم الأكثرون (٨٨) أموالا إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم» وروى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه كان يقول من ترك بيضاء أو حمراء كوى به يوم القيامة، وروى عن أبى إمامة قال «مات رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى صلى الله عليه وسلم كية ثم توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال النبى ﷺ كيتان» والقول الأول أصح أن الآية فى منع الزكاة لافى جمع المال الحلال قال النبى صلى الله عليه وسلم «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وروى عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما: قال لما نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا يدع لولده شيئا فذكر عمر ذلك لرسول الله فقال إن الله عز وجل لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها مابقى من أموالكم وسئل عمر رضى الله عنه عن هذه الآية فقال كان ذلك قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهرا للأموال وقال ابن عمر ما أبالى لو أن لى مثل أحد ذهبا أعلم عدده أزكيه وأعمل بطاعة الله قوله عز وجل ولا ينفقونها فى سبيل الله قيل لم قال ولا ينفقونها ولم يقل ولا ينفقونهما وقد ذكر الذهب والفضة جميعا قيل أراد الكنوز وأعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية إلى الفضة لأنها أعم كما قال تعالى «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة» رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم وكقوله تعالى «وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها» رد الكناية إلى التجارة لأنها أعم «فبشرهم بعذاب أليم» أى أنذرهم (يوم يحمى عليها فى نار جهنم) أى تدخل النار فيوقد عليها أى على الكنوز (فتكوى بها) فتحرق بها (جباههم) أى جباه كانزيها (وجنوبهم وظهورهم) روى عن ابن مسعود قال إنه لايوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم فى موضع على حدة. وسئل أبو بكر الوراق لم خص الجباه والجنوب والظهور بالكى قال لأن الغنى صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض

عن أبى ذر قال «انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الأخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم أتقار حتى قمت فقلت يارسول الله فداك أبى وأمى من هم؟ قال هم الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم مامن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لايؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ماكانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس» هذا لفظ مسلم وفرقه البخارى فى موضعين. وقوله تعالى (يوم يحمى عليها) يعنى الكنوز فتدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة (فى نار جهنم فتكوى بها جباههم) يعنى بالكنوز جباه كانزيها (وجنوبهم وظهورهم) قال ابن عباس لايوضع دينارا على دينار ولادرهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم فى موضع على حدته قال بعض العلماء إنما خص هذه الأعضاء بالكى من بين سائر الأعضاء لأن الغنى صاحب المال إذا أتاه السائل فطلب منه شيئا تبدو منه آثار الكراهة والمنع فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح وتجتمع أسارير وجهه فيتجعد جبينه ثم إن كرر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانبا ثم إن كرر الطلب وألح فى السؤال ولاه ظهره وأعرض عنه واستقبل جهة أخرى وهى النهاية فى الرد والغاية فى المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل

والبذل وهذا دأب مانعى البر والإحسان وعادة البخلاء فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكى يوم القيامة . وقوله سبحانه وتعالى (هذا ما كنزتم لأنفسكم) أى يقال لهم ذلك يوم القيامة (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى فذوقوا عذاب ما كنزتم فى الدنيا من الأموال ومنعتم حق الله منها (ق) عن الأحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل خشن الثياب خشن الجسد خشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم فيوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل قال فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحدا منهم رجع اليه شيئا قال فأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت مارأيت هؤلاء إلا كرهوا ماقلت لهم فقال إن هؤلاء لايعقلون شيئا هذا لفظ مسلم وفيه زيادة لم أذكرها وزاد البخاري قلت (١) من هذا قالوا أباذر قال فقمت اليه فقلت ماشىء سمعتك تقول قبيل فقال ماقلت إلا شيئا سمعته من نبيهم صلى الله عليه وسلم . قوله عز وجل (إن عدة الشهور عند الله اثناعشر شهرا) هى المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامة وهى ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الحج والصوم تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من أجل النسىء الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية فكان يقع حجهم تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من الشهور فأعلم الله عز وجل أن عدة الشهور وسنة المسلمين التى يعتدون بها اثنا عشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تبارك وتعالى إن عدة الشهور عند الله يعنى فى علمه وحكمه اثنا عشر شهرا (فى كتاب الله) يعنى فى اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه جميع أحوال الخلق وما يأتون وما يذرون وقيل أراد بكتاب الله القرآن لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل أراد بكتاب الله الحكم الذى أوجبه وأمر عباده بالأخذ به (يوم خلق السموات والأرض) يعنى أن هذا الحكم حكم به وقضاه يوم خلق السموات والأرض أن السنة اثنا عشر شهرا (منها) يعنى من الشهور (أربعة حرم) وهى رجب فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة متوالية وإنما سميت حرما لأن العرب فى الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لو أن أحدهم لقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فى هذه الأربعة الأشهر لم يهجه ولما جاء الإسلام لم يزدها إلا حرمة وتعظيما ولأن الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وكذلك السيئات أيضا أشد من غيرها فلا يجوز انتهاك حرمة الأشهر الحرم (ذلك الدين القيم) يعنى ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوى فالدين هنا بمعنى الحساب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه يعنى حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت وقيل أراد بالدين القيم

(١) قوله وزاد البخارى الخ ، هذه الزيادة لمسلم لا للبخارى اه من هامش .

جبهته وزوى مابين عينيه وولاه ظهره وأعرض عنه كشحه قوله تعالى (هذا ما كنزتم) أى يقال لهم هذا ما كنزتم (لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى تمنعون حقوق الله تعالى فى أموالكم ، وقال بعض الصحابة هذه الآية فى أهل الكتاب ، وقال الأكثرون هى عامة فى أهل الكتاب والمسلمين ، وبه قال أبو ذر رضى الله عنه قوله تعالى (إن عدة الشهور) أى عدد الشهور (عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله) وهى المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وقوله فى كتاب الله أى فى حكم الله وقيل فى اللوح المحفوظ ، قرأ أبو جعفر اثنا عشر وتسعة عشر وإحدى عشر بسكون العين وقرأ العامة بفتحها (يوم خلق السموات والأرض) والمراد منه الشهور الهلالية وهى الشهور التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وبالشهور الشمسية تكون السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم والهلالية تنقص عن ثلاثمائة وستين يوما بنقصان الأهلة ، والغالب أنها تكون ثلاثمائة يوما وأربعة وخمسين يوما (منها أربعة حرم) من الشهور أربعة حرم وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم واحد فرد وثلاثة سرد (ذلك الدين القيم)

اى الحساب المستقيم (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قيل قوله فيهن ينصرف إلى جميع شهور السنة اى فلا تظلموا فيهن أنفسكم بفعل المعصية وترك الطاعة وقيل فيهن أى فى الأشهر الحرم قال قتادة العمل الصالح أعظم أجرا فى الأشهر الحرم والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن وإن كان الظلم على كل حال عظيما وقال ابن عباس فلا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن قال محمد بن إسحاق بن يسار : لاتجعلوا حلالها حراما ولا حرامها حلالا كفعل أهل الشرك وهو النسىء (وقاتلوا المشركين كافة) جميعا عامة (كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) واختلف العلماء فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم فقال قوم كان كبيرا ثم نسخ بقوله وقاتلوا المشركين كافة كأنه يقول فيهن وفى غيرهن وهو قول قتادة وعطاء الخراسانى والزهرى وسفيان الثورى وقالوا إن النبى ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف وحاصرهم فى شوال وبعض ذى القعدة وقال الآخرون أنه غير منسوخ قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن أبى رباح مايحل للناس أن يغزو فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها وما نسخت قوله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر) قيل هو مصدر كالسعير والحريق وقيل هو مفعول كالجريح

عبارة

الحكم الذى لايغير ولا يبدل والقيم هنا بمعنى الدائم الذى لا يزول فالواجب على المسلمين الأخذ بهذا الحساب والعدد فى صومهم وحجهم وأعيادهم وبياعاتهم وأجل ديونهم وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور (ق) عن أبى بكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان أى شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أى بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه قال أليس البلد الحرام قلنا بلى قال فأى يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد . وقوله تعالى (فلا تظلموا فيهن) أنفسكم قيل الكناية فى فيهن ترجع إلى جميع الأشهر أي لاتظلموا أنفسكم فى جميع أشهر السنة بفعل المعاصى وترك الطاعات لأن المقصود منع الإنسان من الإقدام على المعاصى والفساد مطلقا فى جميع الأوقات إلى الممات وقيل إن الكناية ترجع إلى الأشهر الحرم وهو قول أكثر المفسرين وقال قتادة العمل الصالح أعظم أجرا فى الأشهر الحرم والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن وإن كان الظلم على كل حال عظيما وقال ابن عباس لاتظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن إسحاق بن يسار لاتجعلوا حلالها حراما ولا حرامها حلالا كفعل أهل الشرك وهو النسىء وقيل إن الأنفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والإمتناع عنه على الإطلاق شاق على النفس لاجرم أن الله خص بعض الأوقات بمزيد التعظيم والإحترام ليمتنع الإنسان فى تلك الأوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها فى باقى الأوقات فتصير هذه الأوقات الشريفة والأشهر الحرمة المعظمة سببا لترك الظلم وفعل المعاصى فى غيرها من الأشهر فهذا وجه الحكمة فى تخصيص بعض الأشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الأمكنة أيضا وقوله سبحانه وتعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) يعنى قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ولاتتدابروا ولاتفشلوا ولاتجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين فى مقاتلة أعدائكم من المشركين واختلف العلماء فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم فقال قوم كان كبيرا حراما ثم نسخ بقوله «وقاتلوا المشركين كافة» يعنى فى الأشهر الحرم وفى غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخراسانى والزهرى وسفيان الثورى قالوا لأن النبى ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف وحاصرهم فى شوال وبعض ذى القعدة وقال آخرون أنه غير منسوخ قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن أبى رباح مايحل للناس أن يغزو فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها (واعلموا أن الله مع المتقين) يعنى بالنصر والمعونة على أعدائه قوله سبحانه وتعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر) النسىء فى اللغة

والقتيل وهو من التأخير ومنه النسيئة فى البيع يقال أنسأ الله فى أجله أى أخر وهو ممدود مهموز عند أكثر القراء وقرأ ورش عن نافع من طريق البخارى بتشديد الياء من غير همز فقد قيل أصله الهمزة فخفف وقيل هو من النسيان على معنى المنسى أى المتروك ومعنى النسئ هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة ، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالى وربما وقعت لهم حرب فى بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم فنسئوا أى أخروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمون صفر ويستحلون المحرم فاذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع هكذا شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذى وضعه الله عز وجل فيه وذلك بعد دهر طويل فخطب النبى ﷺ فى حجته وبين ذلك كما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد ابن يوسف الفربرى ثنا محمد بن إسماعيل البخارى ثنا محمد بن سلام ثنا عبد الوهاب ثنا أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة إثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان وقال أى شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذو الحجة قلنا بلى قال أى بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس البلد الحرام قلنا بلى قال فأى يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قال بلى قال فان دماءكم وأموالكم قال محمد أحسبه قال وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ألا هل بلغت ألا هل بلغت» قالوا وكان قد استمر النسئ بهم فكانوا ربما يحجون فى بعض السنين فى شهر ويحجون من قابل فى شهر آخر . قال مجاهد كانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى شهر ذى الحجة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين وكذلك فى الشهور فوافقت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذى القعدة ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم فى العام القابل حجة الوداع فوافق حجه شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة فوقف بعرفة اليوم التاسع وخطب اليوم العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه

عبارة عن التأخير فى الوقت ومنه النسيئة فى البيع ومعنى النسئ المذكور فى الآية هو تأخير شهر حرام إلى شهر آخر وذلك أن العرب فى الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم وتعظيمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية وربما وقعت حروب فى بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال فنسؤا يعنى أخروا تحريم شهر إلى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فاذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة أبى بكر فى السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذى القعدة ثم حج رسول الله ﷺ فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجة شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض وهو قوله صلى الله عليه وسلم إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض الحديث المتقدم وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الأيام واختلفوا فى أول من نسأ النسيء فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد أول من نسأ النسيء بنو مالك بن كنانة وكان يليه جنادة بن عوف بن أمية الكنانى وقال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم على الناس فى الموسم فاذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فيقول لا مرد لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه

حساب الاشهر الحرم يوم خلق الله السموات والأرض وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدل فى مستأنف الأيام واختلفوا فى أول من نسأ النسىء فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد أول من نسأ النسئ بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكنانى وقال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يكون أميرا على الناس بالموسم فاذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فقال لامرد لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسأهم شهرا يغيرون فيه فيقول فان صفر العام حرام؛ فاذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة وإن قال حلال عقدوا الأوتار وشدوا الأزجة وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذى أدركه النبى صلى الله عليه وسلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو رجل من بنى كنانة يقال له القلمس. قال شاعرهم:

وفينا ناسئ الشهر القلمس

وكانوا لا يفعلون ذلك إلا فى ذى الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول من سن النسىء عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم ابن الحجاج حدثنى زهير بن حرب ثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف أبا بنى كعب فيحلوا وهو يجر قصبه فى النار فهذا الذى ذكرنا هو النسئ الذى ذكره الله تعالى فقال إنما النسئ زيادة فى الكفر يريد زيادة كفر على كفرهم (يضل به الذين كفروا) قرأ حمزة والكسائى وحفص يضل بضم الياء وفتح الضاد كقوله تعالى زين لهم سوء أعمالهم وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد وهى قراءة الحسن ومجاهد على معنى يضل به الذين كفروا الناس وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الضاد لأنهم هم الضالون لقوله (يحلونه) يعنى النسئ (عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا) أى ليوافقوا والمواطأة الموافقة (عدة ماحرم الله) يريد أنهم لم يحلوا شهرا من الحرام إلا حرموا مكانه شهرا من الحلال ولم يحرموا شهرا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الحرام لئلا يكون الحرام أكثر من أربعة أشهر كما حرم الله فيكون الموافقة فى العدد

فيقول إن صفر فى هذا العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة من الرماح وإن قال حلال عقدوا أوتار القسى وركبوا الأسنة فى الرماح وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم هو رجل من بنى كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم. وفينا ناسئ الشهر القلمس. وكانوا يفعلون ذلك إذا اجتمعت العرب فى الموسم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن أول من سن النسىء عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف والذى صح من حديث أبى هريرة وعائشة أن عمرو بن لحى أول من سيب السوائب وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار فهذا ماورد فى تفسير النسىء الذى ذكره الله فى قوله تعالى إنما النسىء زيادة فى الكفر يعنى زيادة كفر على كفرهم وسبب هذه الزيادة أنهم أمروا بايقاع كل فعل فى وقته من الأشهر الحرم ثم إنهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه إلى وقت آخر بسبب ذلك النسىء فأوقعوه فى غير وقته من الأشهر الحرم فكان ذلك الفعل زيادة فى كفرهم (يضل به الذين كفروا) وقرئ يضل بفتح الياء وكسر الضاد ومعناه يضل بالنسئ الذين كفروا وقرئ يضل بضم الياء وفتح الضاد ومعناه أن كبارهم أضلوهم وحملوهم عليه وقرىء يضل به الذين كفروا بضم الياء وكسر الضاد ومعناه يضل الله به الذين كفروا أو يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم وقيل معناه يضل به الذين كفروا تابعيهم و لآخذين بأفعالهم وهذا الوجه أقوى الوجهين فى تفسير قراءة من قرأ يضل بضم الياء وكسر الضاد (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) يعنى يحلون ذلك الإنساء عاما ويحرمونه عاما والمعنى يحلون الشهر المحرم عاما فيجعلونه حلالا ليغيروا فيه ويحرمونه عاما فيجعلونه محرما فلا يغيرون فيه (ليواطئوا) يعنى ليوافقوا (عدة ما حرم الله) يعنى أنهم ما أحلوا شهرا من المحرم إلا حرموا شهرا مكانه من الحلال ولم يحرموا شهرا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الحرام لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة كما حرم الله فيكون ذلك موافقة فى العدد لافى الحكم فذلك قوله سبحانه وتعالى

(فيحلوا ماحرم الله زين لهم سوء أعمالهم) قال ابن عباس يريد زين لهم الشيطان (والله لايهدى القوم الكافرين) قوله (ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) الآية نزلت فى الحث على غزوة تبوك وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الثمار والظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز هائلة وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ولم يورها بغيرها ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم» أى قال لكم رسول الله ﷺ انفروا اخرجوا فى سبيل الله اثاقلتم أى تثاقلتم وتباطأتم إلى الأرض أى لزمتم أرضكم ومساكنكم (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) أى بخفض الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) ثم أوعدهم على ترك الجهاد فقال تعالى (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) فى الآخرة وقيل هو احتباس المطر عنهم فى الدنيا وسأل نجدة بن نفيع ابن عباس عن هذه الآية فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عليه فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) خيرا منكم وأطوع. قال سعيد بن جبير هم أبناء فارس وقيل هم أهل اليمن (ولاتضروه شيئا)

(فيحلوا ماحرم الله زين لهم سوء أعمالهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل (والله لايهدى القوم الكافرين) يعنى أنه سبحانه وتعالى لايرشد من هو كافر أثيم لما سبق له فى الأزل أنه من أهل النار. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) نزلت هذه الآية فى الحث على غزوة تبوك وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم يعنى قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم انفروا فى سبيل الله أى اخرجوا إلى الجهاد يقال استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «وإذا استنفرتم فانفروا» والإسم النفير اثاقلتم أى تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج إلى الغزو إلى الأرض يعنى لزمتم أرضكم ومساكنكم وإنما استثقل ذلك الغزو لشدة الزمان وضيق الوقت وشدة الحر وبعد المسافة والحاجة إلى كثرة الإستعداد من العدد والزاد وكان ذلك الوقت وقت إدراك ثمار المدينة وطيب ظلالها وكان العدو كثيرا فاستثقل الناس تلك الغزوة فعاتبهم الله تعالى بقوله (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) يعنى أرضيتم بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) يعنى أن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد فلهذا السبب كان متاع الدنيا قليلا بالنسبة إلى نعيم الآخرة وفى الآية دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت لأن الله سبحانه وتعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم على ذلك التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور الآية الآتية وهى قوله تعالى (إلا تنفروا) يعنى إن لم تنفروا أيها المؤمنون إلى ما استنفركم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه (يعذبكم عذابا أليما) يعنى فى الآخرة لأن العذاب الأليم لا يكون إلا فى الآخرة وقيل إن المراد به إحتباس المطر فى الدنيا قال نجدة بن نفيع سألت ابن عباس عن هذه الآية فقال استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) يعنى خيرا منكم وأطوع قال سعيد بن جبير هم أبناء فارس وقيل هم أهل اليمن نبه سبحانه وتعالى على أنه قد تكفل بنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم وإعزاز دينه فان سارعوا معه إلى الخروج إلى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عز وجل وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم لئلا يتوهموا أن إعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرته لا تحصل إلا بهم وهو قوله تعالى (ولا تضروه شيئا) قيل الضمير راجع إلى الله تعالى يعنى ولا تضروا الله شيئا لأنه غنى عن العالمين وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل

بركتم النفير (والله على كل شيء قدير) قوله تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله) هذا إعلام من الله عز وجل أنه المتكفل بنصر رسوله وإعزاز دينه أعانوه أو لم يعينوه وإنه قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدد (إذ أخرجه الذين كفروا) من مكة حين مكروا به، وأرادوا تبييته وهموا بقتله (ثانى اثنين) أى هو أحد الاثنين والاثنان أحدهما رسول الله ﷺ والآخر أبو بكر الصديق رضى الله عنه (إذ هما فى الغار) وهو نقب فى جبل ثور بمكة (إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) (٩٤) قال الشعبى عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعا فى هذه الآية غير أبى بكر الصديق رضى الله عنه أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمى أنبأنا محمد بن عبد الرحمن ابن عثمان أنبأنا خيثمة ابن سليمان ثنا عبد الله ابن أحمد الدورقى ثنا سعيد بن سليمان عن على ابن هاشم عن كثير النواء عن جميع بن عمير قال أتيت ابن عمر رضى الله عنه فسمعته يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه أنت صاحبى فى الغار وصاحبى على الحوض قال الحسين ابن الفضل من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لإنكاره نص القرآن وفى سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعا لا كافرا وقوله عز وجل لا تحزن إن الله معنا لم يكن حزن أبى بكر جبنا منه وإنما كان إشفاقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إن أقتل فأنا رجل واحد وإن قتلت هلكت الأمة وروى أنه حين على انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار جعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ياأبا بكر قال أذكر الطلب فأمشى خلفك ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك فلما انتهيا إلى الغار؟ قال مكانك يارسول الله حتى أستبرئ الغار فدخل فاستبرأه ثم قال انزل يارسول الله فنزل فقال عمر والذى نفسى بيده لتلك الليلة خير من عمر ومن آل عمر أخبرنا أبو المظفر التميمى أنا محمد بن عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن أبى النصر أنا خيثمة بن سليمان ثنا أبو قلابة الرقاشى ثنا حبان بن هلال ثنا همام بن يحيى ثنا ثابت البنانى ثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه

الضمير راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ولا تضروا محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا فان الله ناصره على أعدائه ولايخذله (والله على كل شيء قدير) يعنى أنه تعالى قادر على كل شيء فهو ينصر نبيه ويعز دينه قال الحسن وعكرمة هذه الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لأنها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ. قوله عز وجل (إلا تنصروه فقد نصره الله) يعنى إلا تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون هذا خطاب لمن تثاقل عن الخروج معه إلى تبوك فأعلم الله عز وجل أنه هو المتكفل بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعزاز دينه وإعلاء كلمته أعانوه أو لم يعينوه وإنه قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدد (إذ أخرجه الذين كفروا) يعنى أنه تعالى نصره فى الوقت الذى أخرجه فيه كفار مكة من مكة حين مكروا به وأرادوا قتله (ثانى إثنين) يعنى هو واحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر (إذهما فى الغار) يعنى إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر فى الغار والغار نقب عظيم يكون فى الجبل وهذا الغار فى جبل ثور وهو قريب من مكة (إذ يقول لصاحبه لا تحزن) يعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر الصديق لاتحزن وذلك أن أبا بكر خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتحزن (إن الله معنا) يعنى بالنصر والمعونة قال الشعبى عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعا فى هذه الآية غير أبى بكر وقال الحسن ابن الفضل من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لإنكاره نص القرآن وفى سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعا ولايكون كافرا عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر أنت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب (ق) عن أبى بكر الصديق قال نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤسنا فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما قال الشيخ محيى الدين النووى معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل فى قوله سبحانه وتعالى أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم توكل النبى صلى الله عليه وسلم حتى فى هذا المقام وفيه فضيلة لأبى بكر وهى من أجل مناقبه والفضيلة من أوجه منها اللفظ الدال

حدثهم قال نظرت إلى أقدام المشركين فوق رءوسنا ونحن فى الغار فقلت يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا فقال يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى ثنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب فأخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشيا فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو (٩٥) أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى قال ابن الدغنة فان مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك تكسب المعدم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار ارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلا يكسب المعدم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ثم بدا لأبى بكر أن يبنى مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فانا قد

على أن الله ثالثهما ومنها بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته فى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وملازمته النبى صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه ومنها جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك روى عن عمر بن الخطاب أنه ذكر عنده أبو بكر فقال وددت أن عملى كله مثل عمله يوما واحدا من أيامه وليلة واحدة من لياليه أما فليلته ليلة سار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار فلما انتهيا إليه قال والله لا تدخله حتى أدخله قبلك فان كان فيه شىء أصابنى دونك فدخله فكنسه ووجد فى جانبه ثقبا فشق إزاره وسدها به وبقى منهما ثقبان فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع رأسه فى حجره ونام فلدغ أبو بكر فى رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك يا أبا بكر فقال لدغت فداك أبى وأمى فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته وأما يومه فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب وقالوا لا نؤدى الزكاة فقال لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه فقلت يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم قال لى أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام أنه قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حى أخرجه فى جامع الأصول ولم يرقم عليه علامة لأحد قال البغوى وروى أنه حين انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار جعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك يا أبا بكر فقال أذكر الطلب فأمشى خلفك وأذكر الرصد فأمشى بين يديك فلما انتهيا إلى الغار قال مكانك يارسول الله حتى أستبرىء الغار فدخل فاستبرأه ثم قال انزل يارسول الله فنزل وقال له إن أقتل فأنا رجل واحد من المسلمين وإن قتلت هلكت الأمة .

(ذكر سياق حديث الهجرة وهو من أفراد البخارى)

عن عائشة قالت لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشيا فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى فقال ابن الدغنة فان مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى

كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان قالت عائشة رضى الله عنها فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال قد علمت الذى عاقدت لك عليه فأما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتى فانى لاأحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له فقال أبو بكر فانى أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله والنبى ﷺ يومئذ بمكة : فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين إنى رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر رضى الله عنه قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فانى أرجوا أن يؤذن لى فقال أبو بكر وهل ترجو بذلك بأبى أنت قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة رضى الله عنهما فبينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر فداء له أبى وأمى والله ماجاء به فى هذه الساعة إلا أمر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن (٩٦) له فدخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر اخرج من عندك فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبى أنت يارسول الله قال فانى قد أذن لى فى الخروج فقال أبو بكر الصحبة بأبى أنت يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال أبو بكر فخذ بأبى أنت يارسول إحدى راحلتى هاتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عائشة رضى الله عنها فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار فى جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله ابن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الديل وهو من بنى عبد بن عدى هاديا خريتا والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفا فى آل العاص ابن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل قال ابن شهاب وأخبرنى عبد الرحمن بن مالك المدلجى وهو بن أخى سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس

الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم إن أبا بكر لايخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وفى رواية فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره وليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولايستعلن به فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر فلبث أبو بكر كذلك يعبد ربه فى داره ولايستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه وكان أبو بكر رجلا بكاء لايملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال قد علمت الذى عاهدت لك عليه فاما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتى فانى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له فقال أبو بكر فانى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار

بجوار الله والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين أنى رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فانى أرجو أن يؤذن لى فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر هو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينا نحن جلوس يوما فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر فداء له أبى وأمى والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر اخرج من عندك فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبى أنت وأمى يارسول قال فانى قد أذن لى فى الخروج قال أبو بكر الصحبة بأبى أنت وأمى يارسول الله فقال رسول الله ﷺ نعم قال أبو بكر فخذ بأبى أنت وأمى يارسول الله إحدى راحلتى هاتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عائشة فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين قالت ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالى الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الديل وهو من بنى عبد بن عدى هاديا خريتا والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفا فى آل العاص بن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلى فأخذ بهم طريق السواحل وفى رواية طريق الساحل قال ابن شهاب فأخبرنى عبد الرحمن بن مالك المدلجى وهو ابن أخى سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول جاءنا رسول كفار قريش يجعلون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال ياسراقة إنى قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة فتحبسها على وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها فقمت وأهويت بيدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى أكره فركبت فرسى وعصيت الأزلام

قومى بنى مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال ياسراقة إنى قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة فتحبسها على وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها فدفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها فقمت فأهويت يدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى أكره فركبت فرسى وعصيت الأزلام تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر رضى الله عنه يكثر الالتفات فساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر النبى ﷺ فقلت له إن قومك

تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لايلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذ الأثر يديها عثان ساطع فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار مايريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ولم يسألانى إلا أن قال اخف عنا فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن شهاب فأخبرنى عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشأم فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد ماأطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على ظهر أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته يامعشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه قال فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتا فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا إن شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا لابل نهبه لك يارسول الله فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول :

هذا الحمال لاحمال خيبر . هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى قال ابن شهاب ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت أخرجه البخارى بطوله .

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

قولها لم أعقل أبوى إلا وهما يدينان الدين يعنى أنهما كانا ينقادان إلى الطاعة وبرك الغماد بفتح الباء من برك وكسر الغين المعجمة اسم موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلى ساحل البحر إلى

المدينة

قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم خبر مايريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ولم يسألانى شيئا إلا أن قال أخف عنا فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أدم ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن شهاب فأخبرنى عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعدما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أو فى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودى إن قال بأعلى صوته يامعشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرون فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتا فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير

رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى ابا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل ابوبكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربدا للتمر لسهل وسهل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا إن شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يارسول الله ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن:

هذا الحمال لا حمال خيبر
هذا أبرر بنا وأطهر

ويقول: اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى. قال ابن شهاب ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات قال الزهرى لما دخل

المدينة من بلاد غفار وقيل هو قليب ماء لبنى ثعلبة قوله تكسب المعدوم فيه قولان أحدهما أنه لقوة سعده وحظه من الدنيا لا يتعذر عليه كسب كل شىء حتى المعدوم الذى يتعذر كسبه على غيره . والقول الثانى أنه يملك الشىء المعدوم المتعذر لمن لايقدر عليه ففيه وصفه بالإحسان والكرم والكل مايثقل حمله من حقوق الناس وصلة الأرحام والقيام بأمر العيال وإقراء الضيف ونوائب الحق ما ينوب لإنسان من المغارم وقضاء الحقوق لمن يقصده أنا لك جار أى حام وناصر ومدافع عنك والاستعلان إظهار المخفى وقوله فينقذف النساء عليه يعنى يزدحمن عليه والذمة العهد والأمان وإخفاؤها نقضها واللابة الجبل والحرة الأرض التى تعلوها حجارة سود يقال أفعل الشىء على رسلك بكسر الراء أى على هينتك والراحلة البعير القوى على الحمل والسير والظهيرة وقت شدة الحر والنطاق حبل أو نحوه تشد به المرأة وسطها وترفع ثوبها من تحته فتعطف طرفا من أعلاه إلى أسفله لئلا يصل إلى الأرض وقولها ثقف لقن يقال ثقف الرجل ثقافة إذا صار حاذقا فطنا واللقن السريع الفهم والادلاج بتخفيف الدال سير أول الليل وبتشديدها سير آخره والمنحة الشاة ذات اللبن والرسل بكسر الراء وسكون السين هو اللبن يقال نعق الراعى بالغنم إذا دعاها لتجتمع إليه والغلس ظلام آخر الليل والخريت تقدم شرحه فى الحديث وهو الماهر بالهداية وأراد به هداية الطريق فهو الدليل وقد غمس حلفا يقال غمس فلان حلفا فى آل فلان إذا أخذ بنصيب من عهدهم وحلفهم والأسودة الأشخاص والأكمة التل المرتفع من الأرض يقال قرب الفرس يقرب تقريبا إذا عدا عدوا دون الإسراع والكنانة هى الجعبة التى تجعل فيها السهام والأزلام القداح التى كانوا يستقسمون بها عند طلب الحوائج كالفأل والعثان الغبار يقال مارزأت فلانا شيئا أى ما أصبت منه شيئا والمراد أنهم لم يأخذوا منه شيئا وقوله أوفى أى أشرف واطلع . والأطم البناء المرتفع كالحصن ، وقوله مبيضين هو بكسر الياء أى هم ذو ثياب بيض والمربد الموضع يوضع فيه التمر كالبيدر وقوله هذا الحمال هو بالحاء المهملة يعنى هذا الحمل والمحمول من اللبن أبر عند الله وأطهر وأبقى ذخرا وأدوم منفعة فى الآخرة لاحمال خيبر يعنى ما يحمل من خيبر من التمر والزبيب والطعام المحمول منها والمعنى أن ذلك الحمل الذى نحمله من اللبن لأجل عمارة المسجد أفضل عند الله مما يحمل من خيبر وقد روى هذا الجمال بالجيم من التجمل ، والرواية الأولى أشهر وأكثر والله أعلم قال الزهرى لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله سبحانه وتعالى زوجا من حمام حتى باضتا فى أسفل النقب ونسجت العنكبوت بيتا وقيل أتت يمامة على فم الغار وقال النبى صلى الله عليه وسلم «اللهم أعم أبصارهم» فجعل الطلب يضربون يمينا وشمالا حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت ووجدت فى بعض التفاسير شعرا وقد نسب إلى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وهو قوله :

قال النبى ولم يجزع يوقرنى ... ونحن فى سدف فى ظلمة الغار
لا تخش شيئا فإن الله ثالثنا ... وقد تكفل لى منه باظهار
وإنما كيد من تخشى بوادره ... كيد الشيطين قد كادت لكنار
والله مهلكهم بما صنعوا ... وجاعل المنتهى منهم طم إلى النار

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الغار أرسل الله تعالى زوجا من حمام حتى باضتا في أسفل النقب والعنكبوت حتى نسجت بيتا وفي القصة أنبت ثمامة على فم الغار وقال النبي صلى الله عليه وسلم للهم أعم أبصارهم عنا فجعل الطلب يضربون يمينا وشمالا حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت قوله عز وجل (فأنزل الله سكينته عليه) قيل على النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس على أبي بكر رضي الله عنه فان النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليه السكينة من قبل (وأيده بجنود لم تروها) وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته وقيل ألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبي أعانه بالملائكة يوم بدر أخبر أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) وكلمتهم الشرك وهي السفلى إلى يوم القيامة (وكلمة الله هي العليا) إلى يوم القيامة. قال ابن عباس هي قول لا إله إلا الله وقيل كلمة الذين كفروا ما قدروا بينهم في الكيد به ليقتلوه وكلمة الله وعد الله أنه ناصره وقرأ يعقوب وكلمة الله بنصب التاء على أنه معطوفة على المفعول الأول لجعل وهو كلمة الذين كفروا والتقدير وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وجعل كلمة الله هي العليا فكلمة الله معطوفة على المفعول ١٠ كانوا الأول والعليا معطوفة على المفعول الثاني وقرأ الباقون وكلمة الله بالرفع على الاستئناف كأنه تم الكلام عند قوله وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ثم ابتدأ فقال وكلمة الله هي العليا على الابتداء والخبر فكلمة الله مبتدأ والعليا خبره (والله عزيز حكيم)

وقوله سبحانه وتعالى (فأنزل الله سكينته عليه) يعني فأنزل الله الطمأنينة والسكون على رسوله محمد ﷺ وقال ابن عباس عن أبي بكر لأن النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليه السكينة من قبل ذلك.

(فصل في الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل سيدي أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه)

منها أن النبي ﷺ لما اختفى في الغار من الكفار كان مطلعا على باطن أبي بكر الصديق في سره وإعلانه وأنه من المؤمنين الصادقين الصديقين المخلصين فاختار صحبته في ذلك المكان المخوف لعلمه بحاله ومنها أن هذه الهجرة كانت بإذن الله فخص الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم أبا بكر دون غيره من أهله وعشيرته وهذا التخصيص يدل على شرف أبي بكر وفضله على غيره ومنها أن الله سبحانه وتعالى عاتب أهل الأرض بقوله تعالى إلا تنصروه فقد نصره الله سوى أبي بكر الصديق وهذا دليل على فضله ومنها أن سيدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في سفر ولا حضر بل كان ملازما له وهذا دليل على صدق محبته وصحة صحبته له ومنها مؤانسته للنبي صلى الله عليه وسلم في الغار وبذل نفسه له وفي هذا دليل على فضله ومنها أن الله سبحانه وتعالى جعله ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه وتعالى ثاني اثنين إذ هما في الغار وفي هذا نهاية الفضيلة لأبي بكر رضي الله تعالى عنه وقد ذكر بعض العلماء أن أبا بكر كان ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر الأحوال ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الخلق إلى الإيمان بالله فكان أبو بكر أول من آمن ثم دعا أبو بكر إلى الإيمان بالله ورسوله فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير فآمنوا على يدي أبي بكر ثم حملهم إلى النبي ﷺ ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقف في موقف من غزواته إلا وأبو بكر معه في ذلك الموقف ومنه أنه لما مرض صلى الله عليه وسلم قام مقامه في الإمامة فكان ثانيه ومنها أنه ثانيه في تربته صلى الله عليه وسلم وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق ومنها أن الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى إذ يقول لصاحبه لا تحزن ومنها أن الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره ومنها إنزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله أعلم. وقوله سبحانه وتعالى (وأيده بجنود لم تروها) يعني وأيد النبي ﷺ بإنزال الملائكة ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته وقيل ألقى الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبي أعانه بالملائكة يوم بدر فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه نصره وصرف عنه كيد الأعداء وهو في الغار في حالة القلة والخوف ثم نصره بالملائكة يوم بدر (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) يعني كلمة الشرك فهي سفلى إلى يوم القيامة (وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) قال ابن عباس هي كلمة لا إله إلا الله فهي باقية إلى يوم القيامة عالية وقيل أن كلمة الذين كفروا هي

ما كانوا قدروها فيما بينهم من الكيد للنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه وكلمة الله هي ماوعده من النصر والظفر بهم فكان ماوعده الله سبحانه وتعالى حقا وصدقا . قوله سبحانه وتعالى (انفروا خفافا وثقالا) يعني انفروا على الصفة التي يخفف عليكم الجهاد بها وعلى الصفة التي يثقل عليكم فيها وهذان الوصفان يدخل تحتها أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة يعني شبابا وشيوخا وقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال عطية العوفي ركبانا ومشاة وقال أبو صالح خفافا من المال يعني فقراء وثقالا يعني أغنياء وقال ابن زيد الخفيف الذي لاضيعة له والثقيل الذي له الضيعة يكره أن يدع ضيعته ويروى عن ابن عباس قال خفافا أهل اليسرة من المال وثقالا أهل العسرة وقيل خفافا يعني من السلاح مقلين منه وثقالا يعني مستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل وقيل أصحاء ومرضى وقيل عزابا ومتأهلين وقيل خفافا من الحاشية والأتباع وثقالا مستكثرين منهم وقيل خفافا يعني مسرعين في الخروج إلى الغز وساعة سماع النفير وثقالا يعني بعد التروي فيه والاستعداد له والصحيح أن هذا عام لأن هذه الأحوال كلها داخلة تحت قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا يعني على أي حال كنتم فيهما . فان قلت فعلى هذا يلزم الجهاد لكل أحد حتى المريض والزمن والفقير وليس الأمر كذلك فما معنى هذا الأمر . قلت من العلماء من حمله على الوجوب ثم إنه نسخ قال ابن عباس نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية وقال السدي نسخت بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الأمر على الندب قال مجاهد إن أباأيوب الأنصاري شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده فقيل له في ذلك فقال سمعت الله عز وجل يقول انفروا خفافا وثقالا ولا أجدني إلا خفيفا أو ثقيلا وقال الزهري خرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له إنك عليل صاحب ضر فقال استنفر الله الخفيف والثقيل فان لم يمكني الحرب كثرت السواد أو حفظت المتاع وقال صفوان ابن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت ياعم أنت معذور عند الله فرفع حاجبيه وقال ياابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا إلا أنه من يحبه يبتليه والصحيح هو القول الأول أنها منسوخة وأن الجهاد من فروض الكفايات ويدل عليه أن هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك وأن النبي ﷺ خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فدل ذلك على أن الجهاد من فروض الكفايات ليس على الأعيان والله أعلم . وقوله سبحانه وتعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) فيه قولان الأول أن الجهاد إنما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثاني أن من كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لايصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بأن يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهدا بماله دون نفسه (ذلكم) يعني ذلكم الجهاد (خير لكم) يعني من القعود والتثاقل عنه وقيل معناه أن الجهاد خير حاصل لكم ثوابه (إن كنتم تعلمون) يعني أن ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه ثم نزل في المنافقين

قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة شبانا وشيوخا وعن ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال عطية العوفي ركبانا ومشاة وقال أبو صالح خفافا من المال أي فقراء وثقالا أي أغنياء وقال ابن زيد الثقيل الذي له الضيعة فهو ثقيل يكره أن يدع ضيعته والخفيف الذي لاضيعة له ويروى عن ابن عباس قال خفافا أهل الميسرة من المال وثقالا أهل العسرة وقيل خفافا من السلاح أي مقلين منه وثقالا أي مستكثرين منه وقال الحكم بن عتيبة مشاغيل وغير مشاغيل وقال مرة الهمداني أصحاء ومرضى وقال يمان بن رباب عزابا ومتأهلين وقيل خفافا من حاشيتكم وأتباعكم وثقالا مستكثرين بهم وقيل خفافا مسرعين خارجين ساعة سماع النفير وثقالا بعد التروي فيه والاستعداد له (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) قال الزهري خرج سعيد ابن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له إنك عليل صاحب ضر فقال استنفر الله الخفيف والثقيل فان لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال السدي لما نزلت هذه الآية اشتد

الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك قوله عز وجل (لو كان عرضا قريبا) فيه إضمار تقديره لو كان ماتدعوهم إليه عرضا يعنى غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ماعرض لك من منافع الدنيا ومتاعها يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (وسفرا قاصدا) يعنى سهلا قريبا (لاتبعوك) يعنى لخرجوا معك (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة والشقة السفر البعيد لأنه يشق على الإنسان سلوكها ومعنى الآية لو كان العرض قريبا والغنيمة سهلة والسفر قاصدا لاتبعوك طمعا فى تلك المنافع التى تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيدا وكانوا يستعظمون غزو الروم لاجرم أنهم تخلفوا لهذا السبب ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم أنه إذا رجع النبى عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى (وسيحلفون بالله) يعنى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة (لو استطعنا لخرجنا معكم) يعنى إلى هذه الغزوة (يهلكون أنفسهم) يعنى بسبب هذه الأيمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على أن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها (والله يعلم إنهم لكاذبون) يعنى فى أيمانهم وهو قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم لأنهم كانوا مستطيعين الخروج. قوله عز وجل (عفا الله عنك لم أذنت لهم) قال الطبرى هذا عتاب من الله عز وجل عاتب الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أى فى إذنه لمن أذن له فى التخلف عنه من المنافقين حين شخص إلى تبوك لغزو الروم والمعنى عفا الله عنك يامحمد ما كان منك فى إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك إلى تبوك قال عمرو بن ميمون الأودى اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بشىء فيهما إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة نظروا إلى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب.

(فصل)

استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الأنبياء وبيانه من وجهين أحدهما أنه سبحانه وتعالى قال عفا الله عنك والعفو يستدعى سابقة الذنب الوجه الثانى أنه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الإنكار. والجواب عن الأول إنا لانسلم أن قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول إن ذلك يدل على المبالغة فى التعظيم والتوقير فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما له عفا الله عنك ماصنعت فى أمرى رضى الله عنك ماجوابك عن كلامى وعافاك الله وغفر لك كل هذه الألفاظ فى ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال على بن الجهم يخاطب المتوكل.

عفا الله عنك ألا حرمة ... تعود بفضلك أن أبعدا
ألم تر عبدا عدا طوره ... ومولى عفا ورشيدا هدى
أقلنى أقالك من لم يزل ... يقيل ويصرف عنك الردى

والجواب عن الثانى أنه لايجوز أن يكون المراد بقوله لم أذنت لهم الإنكار عليه وبيانه إما أن يكون قد صدر عنه ذنب فى هذه الواقعة أولا فان كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لايليق فقوله عفا الله عنك يدل على حصول العفو وبعد حصول العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه وإن لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الإنكار عليه فثبت بهذا أن الإنكار

يمتنع

شانها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ثم نزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (لو كان عرضا قريبا) واسم كان مضمر أى لو كان ماتدعوهم إليه عرضا قريبا أى غنيمة قريبة المتناول (وسفرا قاصدا) أى قريبا هينا (لاتبعوك) لخرجوا معك (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة والشقة السفر البعيد لأنه يشق على الإنسان وقيل الشقة الغاية التى يقصدونها (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم) يعنى باليمين الكاذبة (والله يعلم إنهم لكاذبون) فى أيمانهم لأنهم كانوا مستطيعين (عفا الله عنك) قال عمرو ابن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بهما إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون، قال سفيان بن عيينة انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب وقيل إن الله عز وجل وقره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريما عنده عفا الله عنك ماصنعت فى حاجتى ورضى الله عنك إلا زرتنى، وقيل معناه أدام الله لك العفو (لم أذنت لهم) أى فى التخلف عنك

يمتنع فى حقه ﷺ وقال القاضى عياض فى كتابه الشفاء فى الجواب عن قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم أنه أمر لم يتقدم للنبى صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ولا عده تعالى عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب إلى ذلك قال نفطويه وقد حاشاه الله من ذلك بل كان مخيرا فى أمرين قالوا وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحى فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى له فأذن لمن شئت منهم فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وأنه لا حرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أى يلزمكم ذلك ونحوه للقشيرى قال وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك أى لم يلزمك ذنب قال الداودى إنها تكرمة وقال مكى هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وحكى السمرقندى أن معناه عافاك الله وقيل معناه أدام الله لك العفو لم أذنت لهم يعنى فى التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الأولى والأكمل لا سيما وهذه كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا (حتى يتبين لك الذين صدقوا) يعنى فى اعتذارهم (وتعلم الكاذبين) يعنى فيما يعتذرون به قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة. قوله سبحانه وتعالى (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى فى أن يجاهدوا وإنما حسن هذا الحذف لظهوره (والله عليم بالمتقين) يعنى الذين يتقون مخالفته ويسارعون إلى طاعته (إنما يستأذنك) يعنى فى التخلف عن الجهاد معك يا محمد من غير عذر (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون لقوله (وارتابت قلوبهم) يعنى شكت قلوبهم فى الإيمان وإنما أضاف الشك والارتياب إلى القلب لأنه محل المعرفة والإيمان أيضا فاذا داخله الشك كان ذلك نفاقا (فهم فى ريبهم يترددون) يعنى أن المنافقين متحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآية فقيل إنها منسوخة بالآية التى فى سورة النور وهى قوله سبحانه وتعالى أن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم وقيل أنها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان فاذا عرض لأحدهم عذر استأذن فى التخلف فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا فى الإذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون فى التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر (ولو أرادوا الخروج) يعنى إلى الغزو معكم (لأعدوا له عدة) تهيؤوا له باعداد آلات السفر وآلات القتال من الكراع والسلاح (ولكن كره الله انبعاثهم) يعنى خروجهم إلى الغزو معكم (فثبطهم) يعنى منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى أن الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم فصرفهم عنه وههنا يتوجه سؤال وهو أن خروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وإن كان فيه مفسدة فلم

(حتى يتبين لك الذين صدقوا) فى أعذارهم (وتعلم الكاذبين) فيها أى تعلم من لا عذر له قال ابن عباس رضى الله عنه لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى لا يستأذنك فى التخلف (والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم) أى شكت ونافقت (فهم فى ريبهم يترددون) يتحيرون (ولو أرادوا الخروج) إلى الغزو (لأعدوا له) أى لهيئوا له (عدة) أهبة وقوة من السلاح والكراع (ولكن كره الله انبعاثهم) خروجهم (فثبطهم) منعهم وحبسهم عن الخروج

(وقيل اقعدوا) فى بيوتكم (مع القاعدين) يعنى مع المرضى والزمنى وقيل مع النسوان والصبيان قوله عز وجل وقيل أى قال بعضهم لبعض اقعدوا وقيل أوحى إلى قلوبهم وألهموا أسباب الخذلان (لو خرجوا فيكم) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالجهاد (١٠٤) لغزوة تبوك فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عسكره على ثنية الوداع

وضرب عبدالله بن أبى على ذى جدة أسفل من ثنية الوداع ولم يكن بأقل العسكرين فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبى فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب فأنزل الله تعالى يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم لو خرجوا يعنى المنافقين فيكم أى معكم (مازادوكم إلا خبالا) أى فسادا وشرا ومعنى الفساد إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر (ولأوضعوا) أسرعوا (خلالكم) فى وسطكم بايقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض وقيل لأوضعوا خلالكم أى أسرعوا فيما يخل بكم (يبغونكم الفتنة) أى يطلبون لكم ما تفتنون به يقولون لقد جمع لكم كذا وكذا وأنكم مهزومون وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك وقال الكلبي يبغونكم الفتنة يعنى العنت والشر وقال الضحاك الفتنة الشرك

ويقال بغيته الشر والخير أبغيه بغيا إذا التمست له يعنى بغيت له (وفيكم سماعون لهم) قال مجاهد معناه وفيكم مخبرون لهم يؤدون إليهم مايستمعون منكم وهم الجواسيس وقال قتادة معناه وفيكم مطيعون لهم أى يستمعون كلامهم ويطيعونهم (والله عليم بالظالمين لقد ابتغوا الفتنة من قبل) أى طلبوا صد أصحابك عن الدين وردهم إلى الكفر وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم كفعل عبد الله بن أبى يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه (وقلبوا لك الأمور) جالوا فيك فى إبطال دينك

عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم فى أذنه لهم بالقعود والجواب عن السؤال أن خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيه مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا بقى فلم عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله لم أذنت لهم فنقول أنه صلى الله عليه وسلم أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر فى حالهم فلهذا السبب قال الله تعالى لم أذنت لهم وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى إليه فى أمرهم بالقعود (وقيل اقعدوا مع القاعدين) معناه أنهم لما استأذنوه فى القعود قيل لهم اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى وأهل الأعذار ثم اختلفوا فى القائل من هو فقيل قال بعضهم لبعض اقعدوا مع القاعدين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأذنوه فى القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل أن القائل ذلك هو الله سبحانه تعالى بأن ألقى فى قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين إلى الجهاد ثم بين سبحانه وتعالى ما فى خروجهم من المفاسد فقال تعالى (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) يعنى لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الغزو مازادوكم إلا فساداوشرا وأصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر فى العقل كالجنون قال بعض النحاة هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لوخرجوا فيكم مازادوكم قوة لكن خبالا والمراد به هنا الإفساد وإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر وشدة السفر وكثرة العدو وقوتهم (ولأوضعوا خلالكم) يعنى ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بالقاء النميمة والأحاديث الكاذبة فيكم (يبغونكم الفتنة) يعنى يطلبون لكم ماتفتتنون به وذلك أنهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وإنكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التى تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر (وفيكم سماعون لهم) قال مجاهد يعنى وفيكم عيون لهم يؤدون إليهم أخباركم ومايسمعون منكم وهم الجواسيس وقال قتادة وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك أنهم يلقون إليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم . فان قلت كيف يجوز أن يكون فى المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين. قلت يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فاذا قالوا قولا ربما أثر ذلك القول فى قلوب ضعفة المؤمنين فى بعض الأحوال (والله عليم بالظالمين) وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين وقوله سبحانه وتعالى (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) يعنى لقد طلبوا صد أصحابك يا محمد عن الدين وردهم إلى الكفر وتخذيل الناس عنكم قبل هذا اليوم كما فعل عبد الله بن أبى بن سلول يوم أحد حين انصرف بأصحابه عنكم (وقلبوا لك الأمور) يعنى وأجالوا فيك وفى أمرك

الرأى بالتخذيل عنك وتشتيت أمرك (حتى جاء الحق) النصر والظفر (وظهر أمر الله) دين الله (وهم كارهون) قوله تعالى : (ومنهم من يقول إئذن لى ولا تفتنى) نزلت فى جد بن قيس المنافق وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما تجهز لغزوة تبوك قال له يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الأصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء فقال جد يا رسول الله لقد عرف قومى أنى رجل مغرم بالنساء وإنى أخشى إن رأيت بنات بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن إئذن لى فى القعود ولا تفتنى بهن وأعينك بمالى . قال ابن عباس اعتل جد ابن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال أذنت لك فأنزل الله عز وجل ومنهم يعنى من المنافقين من يقول إئذن لى فى التخلف ولا تفتنى ببنات الأصفر قال قتادة ولا تؤثمنى (ألا فى الفتنة سقطوا) أي فى الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أمر الله ورسوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) مطيفة عليهم وجامعة لهم فيها (إن تصبك حسنة) نصرة وغنيمة (تسؤهم) تحزنهم يعنى المنافقين (وإن تصبك مصيبة) قتل وهزيمة (يقولوا قد أخذنا أمرنا) حذرنا أى أخذنا بالحزم فى القعود عن الغزو (من قبل) أى من قبل هذه المصيبة (ويتولوا) ويدبروا (وهم فرحون) مسرورون بما نالك من المصيبة (قل) لهم يا محمد (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى علينا فى اللوح المحفوظ (هو مولانا) ناصرنا وحافظنا وقال الكلبي هو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون قل هل تربصون بنا) تنتظرون بنا أيها المنافقون (إلا إحدى الحسنيين) إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة وروينا عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » (ونحن نتربص بكم) إحدى السوأيين إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده)

وفى أبطال دينك الرأى وبالغوا فى تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت أمرك (حتى جاء الحق) يعنى النصر والظفر (وظهر أمر الله وهم كارهون) يعنى ذلك . قوله عز وجل (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) نزلت فى الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تجهز إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الأصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء فقال الجد يا رسول الله لقد عرف قومى أنى رجل مغرم بحب النساء وإنى أخشى إذا رأيت بنات بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن ائذن لى فى القعود ولا تفتنى بهن وأعينك بمالى قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد أذنت لك فأنزل الله عز وجل فيه ومنهم يعنى ومن المنافقين من يقول ائذن لي يعنى فى التخلف والقعود فى المدينة ولا تفتنى يعنى ببنات بنى الأصفر وهم الروم (ألا فى الفتنة سقطوا) يعنى أنهم وقعوا فى الفتنة العظيمة وهى النفاق ومخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عنه (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) يعنى يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها . قوله سبحانه وتعالي (إن تصبك حسنة تسؤهم) يعنى أن تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين (وإن تصبك مصيبة) يعنى من هزيمة أو شدة (يقولوا) يعنى المنافقين (قد أخذنا أمرنا) يعنى أخذنا أمرنا بالجد والحزم فى القعود عن الغزو (من قبل) يعنى من قبل هذه المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) يعنى مسرورين لما نالك من المصيبة وسلامتهم منها (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه لن يصيبنا إلا ما قدره الله لنا وعلينا وكتبه فى اللوح المحفوظ لأن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا أراده لم يقدر له (هو مولانا) يعنى أن الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو أولي بنا من أنفسنا فى الموت والحياة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعنى فى جميع أمورهم (قل هل تربصون بنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا أيها المنافقون (إلا إحدى الحسنيين) يعنى إما النصر والغنيمة وإما الشهادة والمغفرة وذلك أن المسلم إذا ذهب إلى الغزو والجهاد فى سبيل الله إما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والأجر العظيم فى الآخرة وإما أن يقتل فى سبيل الله فتحصل له الشهادة وهى الغاية القصوى ويدل على ذلك ما روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم « قال تكفل الله وفى رواية تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » أخرجاه فى الصحيحين . وقوله سبحانه وتعالى (ونحن نتربص بكم) يعنى ونحن ننتظر بكم إحدى السوأيين (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) يعنى

فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية (أو بأيدينا) أو بأيدى المؤمنين إن أظهر ثم مافى قلوبكم (فتربصوا إنا معكم متربصون) قال الحسن فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه (قل أنفقوا طوعا أو كرها) أمر بمعنى الشرط والجزاء أى إن

أنفقتم طوعا أو كرها نزلت فى جد بن قيس حين استأذن فى القعود قال أعينكم بمالى يقول إن أنفقتم طوعا أو كرها (لن يتقبل منكم إنكم) أى لأنكم (كنتم قوما فاسقين وما منعهم أن تقبل منهم) قرأ حمزة والكسائى يقبل بالياء لتقدم الفعل وقرأ الباقون بالتاء لأن الفعل مسند إلى جمع مؤنث وهو النفقات فأنث الفعل ليعلم أن الفاعل مؤنث (نفقاتهم) صدقاتهم (إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أى المانع من قبول نفقاتهم كفرهم (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) متثاقلون لأنهم لا يرجون على أدائها ثوابا ولا يخافون على تركها عقابا فان قيل كيف ذم الكسل فى الصلاة ولا صلاة لهم أصلا قيل الذم واقع على الكفر الذى يبعث على الكسل فان الكفر مكسل والإيمان منشط (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم يعدونها مغرما ومنعها مغنما (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) والإعجاب هو السرور بما يتعجب منه يقول : لاتستحسن ماأنعمنا عليهم من الأموال والأولاد لأن العبد إذا كان من الله فى استدراج كثر الله ماله وولده (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) فان قيل أى تعذيب فى المال والولد وهم يتنعمون بها فى الحياة الدنيا قيل . قال مجاهد وقتادة فى الآية تقديم

فيهلككم كما أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية (أو بأيدينا) يعنى أو يصيبكم بأيدى المؤمنين بأن يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم (فتربصوا إنا معكم متربصون) قال الحسن فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه (قل أنفقوا طوعا أو كرها) نزلت فى الجد بن قيس المنافق وذلك أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القعود عنه وقال أنا أعطيكم مالى فأنزل الله عز وجل ردا عليه قل أى قل يا محمد لهذا المنافق وأمثاله فى النفاق أنفقوا طوعا أو كرها يعنى أنفقوا طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين بالانفاق بالزام الله ورسوله إياكم بالإنفاق (لن يتقبل منكم) لأن هذا الإنفاق إنما وقع لغير الله وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين فهى عامة فى حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فانه لايقبل منه ثم علل بسبب منع القبول بقوله (إنكم) أى لأنكم (كنتم قوما فاسقين) والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (ومامنعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أى المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) جمع كسلان يعنى متثاقلين فى الأتيان إلى الصلاة وذلك لأنهم لايرجون على فعلها ثوابا ولا يخافون على تركها عقابا فلذلك ذمهم مع فعلها (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم كانوا يعتقدون الإنفاق فى سبيل الله مغرما ومنع ذلك الإنفاق مغنما (فلا تعجبك) يامحمد (أموالهم ولا أولادهم) هذا الخطاب وإن كان مختصا بالنبى ﷺ إلا أن المراد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم والأعجاب السرور بالشىء مع نوع من الإفتخار به مع الإعتقاد أنه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشىء ويكون سبب انقطاعه عن الله عز وجل فينبغى للإنسان أن لايعجب بشىء من أمور الدنيا ولذاتها فان العبد إذا كان من الله عز وجل فى استدراج كثر ماله وولده فيكثر إعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر نعمة الله عليه ولهذا قال سبحانه وتعالى (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) فان قلت كيف يكون المال والولد عذابا فى الدنيا وفيهما اللذة والسرور فى الدنيا . قلت قال مجاهد وقتادة فى الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة وقيل إن سبب كون المال والولد عذابا فى الدنيا هو مايحصل من المتاعب والمشاق فى تحصيلهما فاذا حصلا إزداد التعب وتحمل المشاق فى حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما فعلى هذا القول لاحاجة إلى التقديم والتأخير فى نظم الآية وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بنى آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب فى الدنيا وأجيب عن هذا الإيراد بأن المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو أن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وإنه يثاب بالمصائب الحاصلة له فى الدنيا فلم يكن المال والولد فى حقه عذابا فى الدنيا وأما المنافق فانه لايعتقد كون الآخرة له وإنه ليس فيها ثواب فبقى مايحصل له

وتأخير تقديره فلاتعجبك أموالهم ولاأولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة وقيل التعذيب بالمصائب الواقعة فى المال والولد وقال الحسن يعذبهم بها فى الدنيا بأخذ الزكاة منها والنفقة فى سبيل الله وقيل يعذبهم بالتعب فى جمعه والوجل فى حفظه والكره فى إنفاقه والحسرة على تخليفه عند من لايحمده ثم يقدم على ملك لايعذره (وتزهق أنفسهم) أى تخرج (وهم كافرون) أى يموتون على الكفر (ويحلفون بالله إنهم لمنكم) أى على دينكم (وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) يخافون أن تظهروا ماهم عليه (لو يجدون ملجأ) حرزا أو حصنا أو معقلا (١٠٧) وقال عطاء مهربا . وقيل قوما يأمنون فيهم (أو مغارات) غيرانا فى الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذى تغور فيه أى تستتر . وقال عطاء سراديب (أو مدخلا) موضع دخول يدخلون فيه وهو من أدخل يدخل وأصله مدتخل مفتعل من دخل يدخل قال مجاهد محرزا وقال قتادة سربا ، وقال الكلبى نفقا فى الأرض كنفق اليربوع . وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرأ يعقوب مدخلا بفتح الميم وتخفيف الدال وهو أيضا موضع الدخول (لولوا إليه) لأدبروا إليه هربا منكم (وهم يجمحون) يسرعون فى إباء ونفور لايرد وجوههم شىء ، ومعنى الآية أنهم لو يجدون مخلصا منكم ومهربا لفارقوكم قوله تعالى (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) الآية نزلت فى ذى الخويصرة التميمى واسمه حرقوص بن زهير أصل الخوارج. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهرى أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما فينا أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم فقال يارسول الله اعدل فقال ويلك فمن يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه فقال له دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد

فى الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه فى الدنيا فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافقين فى الدنيا دون المؤمنين وقيل إن تعذيبهم بهما فى الدنيا أخذ الزكاة منهم والنفقة فى سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد فى الغزو فلا يثاب الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله وقيل يعذبهم بالتعب فى جمعه وحفظه والكره فى إنفاقه والحسرة على تخليفه عند من لايحمده ثم يقدم فى الآخرة على ملك لايعذره (وتزهق أنفسهم) يعنى وتخرج أنفسهم (وهم كافرون) والمعنى أنهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة . قوله عز وجل (ويحلفون بالله) يعنى المنافقين (إنهم لمنكم) يعنى على دينكم وملتكم (وماهم منكم) يعنى أنهم كاذبون فى أيمانهم (ولكنهم قوم يفرقون) يعنى أنهم يخافون أن تظهروا على ماهم عليه من النفاق (لو يجدون ملجأ) يعنى حرزا وحصنا ومعقلا يلجئون إليه وقيل لو وجدوا مهربا لهربوا إليه وقيل لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا إليهم ولفارقوكم (أو مغارات) يعنى غيرانا فى الجبل جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الإنسان أى يستتر (أو مدخلا) يعنى موضع دخول يدخلون فيه وهو السرب فى الأرض كنفق اليربوع وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ (لولوا إليه) والمعنى أنهم لو وجدوا مكانا بهذه الصفة أو على أحد هذه الوجوه الثلاثة وهى شر الأمكنة وأضيقها لولوا إليه أى لرجعوا إليه وتحرزوا فيه (وهم يجمحون) يعنى وهم يسرعون إلى ذلك المكان والمعنى أن المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم إلى أحد هذه الأمكنة لصاروا إليه لشدة بغضهم إياكم . قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) نزلت فى ذى الخويصرة التميمى واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم فيئا فأتاه ذو الخويصرة رجل من بنى تميم فقال يارسول الله اعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك من يعدل إذا لم أعدل وفى رواية : قد خبت وخسرت إن لم أعدل فقال عمر بن الخطاب ائذن لى فيه فأضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم » زاد فى رواية « يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الدين » وفى رواية « من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية » وقال الكلبى قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه

فيه شيء ثم ينظر إلى رصافه فلايوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلايوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء قد ثبق الفرث والدم آنيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل يدى المرأة أو مثل البضعة تدردر يخرجون على حين فرقة من الناس» قال أبو سعيد (١٠٨) وأشهد أنى سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى نعته وقال الكلبى قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تقسم بالسوية فأنزل الله تعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات أى يعيبك فى أمرها وتفريقها ويطعن عليك فيها يقال لزه وهمزه أى عابه يعنى أن المنافقين كانوا يقولون إن محمدا لايعطى إلا من أحب وقرأ يعقوب يلمزك وكذلك يلمزون وفى الحجرات ولا تلمزوا كل ذلك بضم الميم فيهن وقرأ الباقون بكسر الميم فيهن وهما لغتان يلمز ويلمز مثل يحسر ويحسر ويعكف ويعكف وقال مجاهد يلمزك أي يزورك يعنى يختبرك (فان أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذ هم يسخطون) قيل إن أعطوا كثيرا فرحوا وإن أعطوا قليلا سخطوا (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أى قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله) كافينا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) ما نحتاج إليه (إنا إلى الله راغبون) فى أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس وجواب لو محذوف أى لكان خيرا لهم وأعود عليهم قوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية بين الله تعالى فى هذه الآية أهل

الآية وقال قتادة ذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم ويلك فمن ذا يعدل بعدى وقال ابن زيد قال المنافقون والله مايعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرها إلا من يهواه فأنزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات يعنى ومن المنافقين من يعيبك فى قسم الصدقات وفى تفريقها ويطعن عليك فى أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد أى عابه (فان أعطوا منها) يعنى من الصدقات (رضوا) يعنى رضوا عنك فى قسمها (وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) يعنى وإن لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا (ولو أنهم رضوا) يعنى ولو أن المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا (ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله) أى كافينا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) يعنى اليه (إنا إلى الله راغبون) يعنى فى أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيرها من أموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيرا لهم وأعود عليهم . قوله عز وجل (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية أعلم أن المنافقين لما لمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعابوه فى قسم الصدقات بين الله عز وجل فى هذه الآية إن المستحقين للصدقات هؤلاء الأصناف الثمانية ومصرفها إليهم ولاتعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها بشىء ولم يأخذ لنفسه منها شيئا فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات عن زياد بن الحرث الصدائى قال « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتاه رجل فقال أعطنى من الصدقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء فان كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك » أخرجه أبو داود

(فصل فى بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل)

المسئلة الأولى فى بيان وجه الحكمة فى إيجاب الزكاة على الأغنياء وصرفها إلى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه الوجه الأول أن المال محبوب بالطبع وسببه أن القدرة صفة من صفات الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوبا بالطبع فاذا استغرق القلب فى حب المال اشتغل به عن حب الله عز وجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة إلى الله عز وجل فاقتضت الحكمة الإلهية إيجاب الزكاة فى ذلك المال الذى هو سبب البعد عن الله فيصير سببا للقرب من الله عز وجل باخراج الزكاة منه الوجه الثانى إن كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل إلى شهواتها ولذاتها فأوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذى هو سبب لقساوة القلب الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لأن التكاليف البدنية غير شاقة على العبد وإخراج المال مشق على النفس فأوجب الله

سهمان الصدقات وجعلها ثمانية أصناف وروى عن زياد بن الحارث الصدائى قال « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتاه رجل وقال أعطنى من الصدقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء فان كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك » قوله للفقراء والمساكين فأحد أصناف الصدقة الفقراء والثانى المساكين واختلف العلماء فى صفة الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهرى الفقير الذى لا يسأل والمسكين الذى يسأل وقال ابن عمر ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة ولكن من أنقى نفسه وثيابه لا يقدر على شئ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فذلك الفقير وقال قتادة الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وروى عن عكرمة أنه قال الفقراء من المسلمين والمساكين من أهل الكتاب وقال الشافعى الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان أو غير زمن والمسكين من كان له مال أو حرفة ولا يغنيه سائلا كان أو غير سائل فالمسكين عنده أحسن حالا من الفقير لأن الله تعالى قال أما السفينة فكانت لمساكين أثبت لهم ملكا مع اسم المسكنة وعند أصحاب الرأى الفقير أحسن حالا من المسكين وقال القتيبى الفقير الذى له البلغة من العيش والمسكين الذى لا شئ له ، وقيل الفقير من له المسكن والخادم

الله عز وجل الزكاة على العباد ليمتحن باخراج الزكاة أصحاب الأموال ليتميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصى المانع لها الوجه الرابع أن المال مال الله والأغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فأمر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله إلى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع إلى امتثال الأمر المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصى المانع لعياله من ماله (ق) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال إن الخازن المسلم الأمين الذى ينفذ وربما قال يعطى ما أمر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذى أمر له به أحد المتصدقين الوجه الخامس أن الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالأموال التى بأيدى الأغنياء فأوجب الله عز وجل نصيبا للفقراء فى ذلك المال تطييبا لقلوبهم الوجه السادس أن المال الفاضل عن حاجة الإنسان الأصلية إذا أمسك بقى معطلا عن المقصود الذى لأجله خلق المال فأمر بدفع الزكاة إلى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلا بالكلية .

(المسئلة الثانية) الآية تدل على أنه لا حق لأحد فى الصدقات إلا هؤلاء الأصناف الثمانية وذلك مجمع عليه لأن كلمتى إنما تفيدان الحصر وذلك لأنها مركبة من أن وما فكلمة إن للإثبات وكلمة ما للنفى فعند اجتماعهما يفيدان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على أن الصدقات لا تصرف إلا إلى الأصناف الثمانية .

(المسئلة الثالثة) فى بيان الأصناف الثمانية فالصنف الأول للفقراء والثانى للمساكين وهم المحتاجون الذين لا يفى خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء فى الفرق بين الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهرى الفقير الذى لا يسأل والمسكين السائل وقال ابن عمر ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة ولكن الفقير من أنقى نفسه وثيابه ولا يقدر على الشىء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وقال قتادة الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان أو غير زمن والمسكين من له مال أو حرفة ولكن لا تقع منه موقعا لكفايته سائلا كان أو غير سائل فالمسكين عنده أحسن حالا من الفقير وقال أبو حنيفة وأصحاب الرأى الفقير أحسن حالا من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعى ومن وافقه أن الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات إلى هؤلاء الأصناف الثمانية دفعا لحاجتهم وتحصيلا لمصلحتهم فبدأ بالفقراء وإنما يبدأ بالأهم فالأهم فلو لم تكن حاجتهم أشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم وأصل الفقير المكسور الفقار قال لبيد :

لما رأى لبد النسور تطايرت　　رفع القوادم كالفقير الأعزل

قال ابن الأعرابى الفقير فى هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا أن الفقير إنما سمى فقيرا لزمانته وحاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب فى الكسب ولأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الفقر وقال « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة » رواه الترمذى من حديث أنس فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا أن المسكين أحسن حالا من الفقير ولأن الله سبحانه وتعالى

والمسكين من لاملك له ، وقالوا كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنيا عن غيره . قال الله تعالى أنتم الفقراء إلى الله والمسكين المحتاج إلى كل شيء ألا ترى كيف حض على إطعامه وجعل طعام الكفارة له ولا فاقة أشد من الحاجة إلى سد الجوعة وقال إبراهيم النخعي الفقراء هم المهاجرون والمساكين من لم يهاجروا من المسلمين ، وفي الجملة الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان بن عيينة عن هشام يعني ابن عروة عن أبيه عن عبيد الله بن عدي بن الخيار «أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسول الله فسألاه عن الصدقة فصعد فيهما وصوب ، فقال إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب » واختلفوا في حد الغنى الذي يمنع أخذ الصدقة فقال الأكثرون حده أن يكون عنده مايكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعي وقال أصحاب الرأي حده أن يملك مائتي درهم . وقال قوم من ملك خمسين درهما لاتحل له الصدقة لما روينا عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سأل الناس وله مايغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يارسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب» وهو قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق وقالوا لايجوز

قال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأثبت لهم ملكا مع اسم المسكنة لأن السفينة من سفن البحر تساوي دنانير كثيرة ولأن الغني والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا أن الفقير أسوأ حالا من المسكين وحجة أبي حنيفة ومن وافقه على أن المسكين أسوأ حالا من الفقير قوله أو مسكينا ذا متربة وصف المسكين بكونه ذا متربة وهو الذي لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولأن الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين أشد حاجة من غيره لما جعلها له واحتج أيضا بقول الراعي :

أما الفقير الذي كانت حلوبته ... وفق العيال فلم يترك له سبد

واحتج أيضا بقول الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء أن الفقير الذي له مايأكل والمسكين الذي لاشيء له وكذا قال القتيبي الفقير الذي له البلغة من العيش والمسكين الذي لاشيء له وقيل الفقير الذي له المسكن والخادم والمسكين الذي لاملك له وقيل أن كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنيا عن غيره قال الله سبحانه وتعالى أنتم الفقراء إلى الله فأثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج أما قوله أو مسكينا ذا متربة فهو حجة لمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه لأنه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على أنه قد يوجد مسكين لابهذه الصفة وإلا لم يبق لهذا القيد فائدة والجواب عن جعل الكفارات للمسكين أنه هو الفقير الذي لصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعي إنه ذكر الفقير وجده فكل فقير أفرد بالاسم جاز إطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به وأما الروايات المذكورة فهي معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين وبالجملة أن الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذي كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال « لاتحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي » أخرجه النسائي وأبو داود وله في رواية أخرى « ولا لذي مرة قوي » عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال « أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي ﷺ وهو في حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلدين فقال إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب » أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الشافعي ولفظه « أن رجلين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم » فسألاه عن الصدقة فقال إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب » واختلف العلماء في حد الغنى الذي يمنع من أخذ الصدقة فقال الأكثرون حده أن يكون عنده مايكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعي وقال أصحاب الرأي حده أن يملك مائتي درهم وقال قوم من ملك خمسين درهما أو قيمتها لاتحل له الصدقة لما روي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : من سأل الناس وله مايغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يارسول الله وما يغنيه قال

خمسون

ال يعطى الرجل من الزكاة أكثر من خمسين درهما وقيل أربعون درهما لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا قوله تعالى (والعاملين عليها) وهم السعاة الذين يتولون قبض الصدقات من أهلها ووضعها فى حقها فيعطون من مال الصدقة فقراء كانوا أو أغنياء فيعطون مثل أجر عملهم وقال الضحاك ومجاهد لهم الثمن من الصدقة (والمؤلفة قلوبهم) فالصنف الرابع من المستحقين للصدقة هم المؤلفة قلوبهم وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فأما المسلمون فقسمان قسم دخلوا فى الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه فكان النبى صلى الله عليه وسلم يعطيهم تألفا كما أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمى أو أسلموا ونيتهم قوية فى الإسلام وهم شرفاء فى قومهم مثل عدى ابن حاتم والزبرقان بن بدر فكان يعطيهم تألفا لقومهم وترغيبا لأمثالهم فى الإسلام فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة والفىء سهم النبى صلى الله عليه وسلم وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات والقسم الثانى من مؤلفة المسلمين أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار فى موضع متناء لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون إما لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعى الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله روى أن عدى ابن حاتم جاء إلى أبى بكر الصديق بثلثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيرا وأما الكفار من المؤلفة فهو من يخشى شره منهم أو يرجى إسلامه فيريد الإمام أن يعطى هذا حذرا من شره أو يعطى ذلك ترغيبا له فى الإسلام فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن أمية لما

خمسون درهما أو قيمتها من الذهب» أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وهذا قول الثورى وابن المبارك وأحمد وإسحاق وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل أكثر من خمسين درهما من الزكاة وقيل أربعين درهما لما روى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ «من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف» أخرجه أبو داود وكانت الأوقية فى ذلك الزمان أربعين درهما الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى (والعاملين عليها) وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها فى جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وهذا قول ابن عمر وبه قال الشافعى وقال مجاهد والضحاك يعطون الثمن من الصدقات وظاهر اللفظ مع مجاهد إلا أن الشافعى يقول هو أجرة عمل تتقدر بقدر العمل والصحيح أن الهاشمى والمطلبى لا يجوز أن يكون عاملا على الصدقات لما روى عن أبى رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من بنى مخزوم على الصدقة فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله ﷺ «لا تحل لنا الصدقة وأن مولى القوم منهم» أخرجه الترمذى والنسائى الصنف الرابع قوله تعالى (والمؤلفة قلوبهم) وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فأما قسم المسلمين فقسمان القسم الأول هم قوم من أشراف العرب كان رسول الله ﷺ يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما أعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمى فهؤلاء أسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم لتقوى رغبتهم فى الإسلام وقوم أسلموا وكانت نيتهم قوية فى الإسلام وهم أشراف قومهم مثل عدى بن حاتم والزبرقان ابن بدر فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم تألفا لقومهم وترغيبا لأمثالهم فى الإسلام فيجوز للإمام أن يعطى أمثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفىء من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن رسول الله ﷺ كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات أيضا القسم الثانى من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بإزاء قوم كفار فى موضع لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بكلفة كبيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بإزائهم من المسلمين لا يجاهدونهم لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة قلوبهم ومن هؤلاء قوم بإزاء جماعة من مانعى الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله روى أن عدى بن حاتم جاء أبا بكر بثلثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيرا وأما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم أو يرجى إسلامهم فيجوز للإمام أن يعطى من يخاف شره أو يرجو إسلامه فقد كان رسول الله ﷺ يعطيهم من خمس الخمس

كان يرى من ميله إلى الإسلام أما اليوم فقد أعز الله الإسلام فله الحمد وأغناه أن يتألف عليه رجالا فلا يعطى مشرك تألفا بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط روى ذلك عن عكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي وإسحاق بن راهويه وقال قوم سهمهم ثابت يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد ابن علي وأبي ثور وقال أحمد يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك قوله تعالى (وفى الرقاب) والصنف الخامس هم الرقاب وهم المكاتبون لهم سهم من الصدقة هذا قول أكثر الفقهاء وبه قال سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث ابن سعد والشافعي وقال جماعة يشترى بسهم الرقاب عبيد فيعتقون وهذا قول الحسن وبه قال مالك وأحمد وإسحاق قوله تعالى (والغارمين) والصنف السادس هم الغارمون وهم قسمان قسم ادانوا لأنفسهم فى غير معصيته فانهم يعطون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفى بديونهم فان كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم ادانوا فى المعروف وإصلاح ذات البين فانهم يعطون من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم وإن كانوا أغنياء أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنبأنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة لغاز فى سبيل الله أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المساكين فأهدى المسكين للغنى أو لعامل عليها » ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ

(١١٢)

كما أعطى صفوان بن أمية لما كان يرى من ميله إلى الإسلام أما اليوم فقد أعز الله الإسلام وله الحمد على ذلك وأغناه عن أن يتألف عليه أحد من المشركين فلا يعطى مشرك تألفا بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم ورأوا أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمرو عكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي وإسحاق بن راهويه وقال قوم سهمهم ثابت لم يسقط يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور وقال أحمد يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك الصنف الخامس قوله سبحانه وتعالى (وفى الرقاب) قال الزجاج فيه حذف تقديره وفى فك الرقاب وفى تفسير الرقاب أقوال الأول أن سهم الرقاب موضوع فى المكاتبين فيدفع إليهم ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعي رضى الله تعالى عنه وهو قول أكثر الفقهاء منهم سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد ويدل عليه أيضا قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم القول الثانى وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق أن سهم الرقاب موضوع لعتق الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ما روى عن ابن عباس أنه قال لا بأس أن يعتق الرجل من الزكاة القول الثالث وهو قول أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة لكن يعطى منها فى عتق رقبة ويعان بها مكاتب لأن قوله فى الرقاب يقتضى التبعيض القول الرابع وهو قول الزهري أن سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم إسلامهم فيعتقون من الزكاة قال أصحابنا الأحوط فى سهم الرقاب أن يدفع إلى السيد باذن المكاتب ويدل عليه أنه سبحانه وتعالى أثبت الصدقات للأصناف الأربعة المتقدمة بلام الملك فقال إنما الصدقات للفقراء وقال فى الصنف الخامس وفى الرقاب فلا بد لهذا الفرق من فائدة وهى أن الأصناف الأربعة المتقدم ذكرها يدفع إليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاءوا وأما الرقاب فيوضع نصيبهم فى تخليص رقابهم من الرق ولا يدفع إليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول فى الغارمين فيصرف نصيبهم فى قضاء ديونهم وفى الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون إليه فى الغزو وكذا ابن السبيل فيصرف إليه ما يحتاج إليه فى سفره إلى بلوغ غرضه الصنف السادس قوله سبحانه وتعالى (والغارمين) أصل الغرم فى اللغة لزوم ما يشق عليه النفس وسمى الدين غرما لكونه شاقا على الإنسان والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان قسم أدانوا لأنفسهم فى غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم إذا لم يكن لهم مال يفى بديونهم فان كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم أدانوا فى المعروف وإصلاح ذات البين فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به ديونهم وإن كانوا أغنياء لما روى عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة لغاز فى سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل أسير إعانة أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغنى أخرجه أبو داود مرسلا لأن عطاء بن يسار لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي

سعيد

متصلا بمعناه أما من كان دينه فى معصية الله وفساد فلا يدفع شيء إليه قوله تعالى (وفى سبيل الله) اراد بها الغزاة فلهم سهم من الصدقة يعطون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو وما يستعينون به على أمر الغزو من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة وإن كانوا أغنياء ولا يعطى شيء منه فى الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز أن يصرف سهم فى سبيل الله إلى الحج ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن وأحمد وإسحاق قوله تعالى (وابن السبيل) والصنف الثامن هم أبناء السبيل فكل من يريد سفرا مباحا ولم يكن له مايقطع به المسافة يعطى من الصدقة بقدر مايقطع به تلك المسافة سواء كان له فى البلد المنتقل إليه مال أو لم يكن وقال قتادة ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق ابن السبيل الحاج المنقطع قوله تعالى (فريضة) أى واجبة (من الله) وهو نصب على القطع وقيل على المصدر أى فرض الله هذه الأشياء فريضة (والله عليم حكيم) اختلف أهل العلم والفقهاء فى كيفية قسم الصدقات وفى جواز صرفها إلى بعض الأصناف فذهب جماعة إلى أنه لايجوز صرف كلها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف وهو قول عكرمة وبه قال الشافعى قال يجب أن يقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف الستة الذين سهمانهم ثابتة قسمة على السواء لأن سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل إذا قسمه بنفسه ثم حصة كل صنف منهم لايجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منهم ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاث يجوز فان لم يوجد من بعض الأصناف إلا واحد صرف حصة ذلك الصنف إليه مالم يخرج عن حد الاستحقاق فان انتهت حاجته وفضل شيء رده إلى الباقين وذهب جماعة إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف أو إلى شخص واحد منهم يجوز وإنما سمى الله تعالى هذه الأصناف الثمانية إعلاما منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الأصناف إلا إيجابا لقسمها

سعيد الخدرى عن النبى ﷺ متصلا بمعناه أما من كان دينه فى معصية فلايعطى من الصدقات شيئا الصنف السابع قوله تعالى (وفى سبيل الله) يعنى وفى النفقة فى سبيل الله وأراد به الغزاة فلهم سهم من مال الصدقات فيعطون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو ما يستعينون به على أمر الجهاد من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة فيعطون ذلك وإن كانوا أغنياء لما تقدم من حديث عطاء وأبى سعيد الخدرى ولايعطى من سهم الله لمن أراد الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز أن يصرف سهم سبيل الله إلى الحج يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن وإليه ذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وقال بعضهم أن اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لأن قوله وفى سبيل الله عام فى الكل فلا يختص بصنف دون غيره والقول الأول هو الصحيح لإجماع الجمهور عليه الصنف الثامن قوله سبحانه وتعالى (وابن السبيل) يعنى المسافر من بلد إلى بلد والسبيل الطريق سمى المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر:

أنا ابن الحرب ربتنى وليدا ... إلى أن شبت واكتهلت لداتى

فكل مريد سفرا مباحا ولم يكن له مايقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات مايكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال فى البلد الذى يقصده أو لم يكن له مال وقال قتادة ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق ابن السبيل هو الحاج المنقطع . وقوله تعالى (فريضة من الله) يعنى أن هذه الأحكام التى ذكرها فى الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه الأشياء فريضة (والله عليم) يعنى بمصالح عباده (حكيم) يعنى فيما فرض لهم لايدخل فى تدبيره وحكمه نقض ولاخلل . المسألة الرابعة : فى أحكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على أن المراد بقوله إنما الصدقات للفقراء هى الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة واختلفوا فى كيفية قسمتها وفى جواز صرفها كلها إلى بعض الأصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء إلى أنه لايجوز صرفها كلها إلى بعض الأصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة وإليه ذهب الشافعى قال يجب أن يقسم زكاة ماله على الموجودين من الأصناف الستة الذين سماهم ثمانية أقسام قسمة على السواء لأن سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط إذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من الأصناف الستة لايجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منهم ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاثة جاز فان لم يجد من بعض الأصناف إلا واحدا دفع حصة ذلك الصنف اليه مالم يخرج من حد الاستحقاق فان انتهت حاجته وفضل

بينهم جميعا وهو قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء وإليه ذهب سفيان الثورى وأصحاب الرأى وبه قال
أحمد قال يجوز أن يضعها فى صنف واحد وتفريقها أولى وقال إبراهيم إن كان المال كثيرا يحتمل الإجزاء قسمه على الأصناف
وإن كان قليلا جاز وضعه فى صنف واحد وقال مالك يتحرى موضع الحاجة منهم ويقدم الأولى فالأولى من أهل الخلة والحاجة
فان رأى الخلة فى الفقراء فى عام أكثر قدمهم وإن رآها فى عام فى صنف آخر حولها إليهم وكل من دفع إليه شىء من الصدقة
لايزيد على قدر الاستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه فاذا حصل أدنى اسم الغنى لايعطى بعده فان
كان محترفا لكنه لايجد آلة حرفته فيعطى قدر مايحصل به آلة حرفته ولا يزاد على العامل على أجر عمله والمكاتب على قدر مايعتق به والغارم على قدر دينه والغازى على قدر نفقته للذهاب والرجوع والمقام فى مغزاه ومايحتاج إليه من الفرس والسلاح وابن السبيل على قدر إتيانه مقصده أو ماله واختلفوا فى نقل الصدقة عن بلد المال إلى موضع آخر مع وجود المستحقين فيه فكرهه أكثر أهل العلم لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبى أنبأنا محمد الجبار ابن محمد الجراحى ثنا أبو العباس محمد ابن أحمد المحبوبى ثنا أبو عيسى الترمذى ثنا أبو كريب ثنا وكيع ثنا زكريا بن إسحاق المكى ثنا يحيى بن عبد الله بن صيفى عن أبي سعيد عن
ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذا إلى اليمن فقال إنك تأتى قوما أهل كتاب فادعهم إلى
شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فان هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم
والليلة فان هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوا لذلك
فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينه وبين الله حجاب » فهذا يدل على أن صدقة أغنياء كل قوم ترد على فقراء
ذلك القوم واتفقوا على أنه إذا نقل من بلد إلى بلد آخر وادعى سقط الفرض عن ذمته إلا ماحكى عن عمر بن عبدالعزيز رضى

شىء رده إلى الباقين وذهب جماعة من العلماء إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من
هذه الأصناف أو إلى شخص واحد منهم جاز لأن الله سبحانه وتعالى إنما سمى هذه الأصناف
الثمانية إعلاما منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الثمانية إلا إيجابا منه لقسمتها بينهم جميعا وهذا
قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء وإليه ذهب سفيان الثورى وأصحاب الرأى
وأحمد بن حنبل قال أحمد بن حنبل يجوز أن يضعها فى صنف واحد وتفريقها أولى وقال
إبراهيم النخعى إن كان المال كثيرا يحتمل الإجزاء قسمه على الأصناف وإن كان قليلا وضعه
فى صنف واحد وقال مالك يتحري موضع الحاجة منهم ويقدم الأولى فالأولى من أهل الخلة
والحاجة فان رأى الخلة فى الفقراء فى عام قدمهم وإن رآها فى صنف آخر فى عام حولها إليهم
وكل من دفع إليه شيئا من الصدقة لا يزيد على قدر الإستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه
وهو ما يحتاج إليه فان حصل أدنى اسم الغنى فلا يعطى بعده شيئا وإن كان محترفا لكنه لايجد
آلة حرفته فيعطى قدر مايحصل به آلة حرفته فالإعتبار عند الإمام الشافعى رضى الله عنه
مايدفع الحاجة من غير حد وقال أحمد بن حنبل لايعطى الفقير أكثر من خمسين درهما وقال
أبو حنيفة أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتى درهم فان أعطيته أجزأ فان أعطى من
يظنه فقيرا فبان أنه غنى فهل يجزىء فيه قولان ولا يجوز أن يعطى صدقته لمن تلزمه نفقته وبه
قال مالك والثورى وأحمد وقال أبو حنيفة والشافعى لا يعطى والدا وإن علا ولا ولدا وإن
سفل ولا زوجة ويعطى من عداهم وتحرم الصدقة على ذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب
فلا يدفع إليهم من الزكاة شىء لقوله صلى الله عليه وسلم « إنا آل بيت لاتحل لنا الصدقة » وقال
أبو حنيفة تحرم على بنى هاشم ولا تحرم على بنى المطلب دليلنا قوله صلى الله عليه وسلم « إنا وبنو
المطلب شىء واحد لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام » وتحرم الصدقة على موالى بنى هاشم وبنى
المطلب لقوله صلى الله عليه وسلم « مولى القوم منهم » وقال مالك لاتحرم واختلفوا فى نقل الصدقة
من بلد إلى بلد آخر مع وجود المستحقين فى بلد المال فكرهه أكثر أهل العلم لتعلق قلوب فقراء
ذلك البلد بذلك المال ولقوله صلى الله عليه وسلم « لمعاذ وأعلمهم أن الله سبحانه وتعالى افترض
عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » الحديث بطوله فى الصحيحين واتفقوا على
أنه إذا نقل المال إلى بلد آخر وأداه إلى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض إلا ماحكى عن عمر
ابن عبدالعزيز فانه رد صدقة حملت من خراسان إلى الشام فردها إلى مكانها من خراسان والله أعلم

الله عنه أنه رد صدقة حلت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان قوله (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن) نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون مالاينبغى فقال بعضهم لاتفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ماتقولون فيقع بنا فقال الجلاس ابن سويد منهم بل نقول ماشئنا ثم نأتيه

فننكر ماقلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فانما محمد أذن أى أذن سامعة يقال فلان أذن سامعة وأذنة على وزن فعلة إذا كان يسمع كل ماقيل له ويقبله ، وأصله من أذن يأذن أذنا إذا استمع وقيل هو أذن أى ذو أذن سامعة وقال محمد بن إسحاق بن يسار نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث وكان رجلا أزنم ثائر شعر الرأس أحمر العينين أسقع الخدين مشوه الخلقة وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل ابن الحارث» وكان ينم حديث النبى صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين فقيل له لاتفعل فقال إنما محمد أذن فمن حدثه شيئا صدقه فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف بالله فيصدقنا فأنزل الله تعالى هذه الآية قوله تعالى (قل أذن خير لكم) قرأ العامة بالإضافة أى مستمع خير وصلاح لكم لامستمع شر وفساد وقرأ الأعشى والبرجمى عن أبى بكر أذن خير لكم مرفوعين منونين يعنى أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم ثم كذبهم فقال (يؤمن بالله) أى لا بل يؤمن بالله (ويؤمن للمؤمنين) أى يصدق المؤمنين ويقبل منهم لامن المنافقين يقال أمنته وأمنت له بمعنى صدقته (ورحمة) قرأ حمزة ورحمة بالخفض على معنى أذن خير لكم وأذن رحمة وقرأ الآخرون ورحمة بالرفع أى هو أذن خير وهو رحمة (للذين آمنوا منكم) لأنه كان سبب إيمان المؤمنين (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم يحلفون بالله لكم ليرضوكم)

أعلم . قوله سبحانه وتعالى (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه ويقولون مالاينبغى فقال بعضهم لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ماشئنا ثم نأتيه وننكر ماقلنا ونحلف فيصدقنا بمانقول فانما محمد أذن أى يسمع كل مايقال له ويقبله وقيل معنى هو أذن أى ذوأذن سامعة وقال محمد بن إسحاق نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان أزنم ثائر الشعر أحمر العينين أسقع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث» وكان ينم حديث النبى صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين فقيل له لاتفعل ذلك فقال إنما محمد أذن فمن حدثه شيئا صدقه فنقول ماشئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا فأنزل الله هذه الآية ومقصود المنافقين بقوله هو أذن أنه ليس بعيد غور بل هو سليم سريع الإغترار بكل مايسمع فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله (قل أذن خير لكم) يعنى هب أنه أذن لكنه أذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى أنه مستمع خير وصلاح لا مستمع شر وفساد وقرئ أذن خير مرفوعين منونين ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولايقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) يعنى أنه يصدق المؤمنين ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين وإنما عدى الإيمان بالله بالباء والإيمان للمؤمنين باللام لأن الإيمان بالله هو نقيض الكفر فلايتعدى إلابالباء فيقال آمنت بالله والإيمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلايقال إلا باللام ومنه قوله تعالى أنؤمن لك وقوله آمنتم له (ورحمة) أى هو رحمة (للذين آمنوا منكم) وإنما قال منكم لأن المنافقين كانوايزعمون أنهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله إنه رحمة للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين وقيل فى كونه صلى الله عليه وسلم رحمة لأنه يجرى أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة . قوله عز وجل (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) قال قتادة والسدى إجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ثم وديعة بن ثابت فوقعوا فى النبى ﷺ وقالوا إن كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الأنصار إسمه عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله إن مايقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبى ﷺ وأخبره فدعاهم فسألهم فأنكروا وحلفوا أن عامرا كذاب وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبى صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو ويقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل والكلبى نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون ويحلفون فأنزل الله هذه الآية والمعنى يحلف لكم

قال قتادة والسدي اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام وقال والله إن ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فدعاهم وسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفوا أن عامرا كذاب وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل عامر يدعو ويقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل والكلبي نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله

صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون إليه ويحلفون فأنزل الله تعالى هذه الآية «يحلفون بالله لكم ليرضوكم» (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب وحد من الله ورسوله (فان له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم) أي الفضيحة العظيمة (يحذر المنافقون) أي يخشى المنافقون (أن تنزل عليهم) أي تنزل على المؤمنين (سورة تنبئهم بما في قلوبهم) أي بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين كانوا يقولون فيما بينهم ويسرون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم قال قتادة هذه السورة تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة أثارت مخازيهم ومثالبهم قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة للمؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لأن أولادهم كانوا مؤمنين (قل استهزئوا إن الله مخرج) مظهر (ما تحذرون) قال ابن كيسان نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه وتنكروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدروا وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار ابن ياسر يقود لرسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته وحذيفة يسوق به فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحاها فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا فقال رسول الله

أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله ورسوله أحق أن يرضوه) اختلفوا في معنى هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل الضمير عائد على الله تعالى لأن في رضا الله رضا رسوله صلى الله عليه وسلم والمعنى والله ورسوله أحق أن يرضوه بالتوبة والإخلاص. وقيل يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر. وقيل معناه والله أحق أن يرضوه وكذلك رسوله (إن كانوا مؤمنين) يعني إن كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة. قوله سبحانه وتعالى (ألم يعلموا) قال أهل المعاني ألم تعلم خطاب لمن علم شيئا ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم أنه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون إليه خاطب المنافقين بقوله ألم يعلموا يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا (أنه من يحادد الله ورسوله) يعني أنه من يخالف الله ورسوله. وأصل المحادة في اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا إذا صار في غير حده وخالفه في أمره وقيل معنى يحادد الله ورسوله أي يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله (فان له نار جهنم) أي فحق أن له نار جهنم (خالدا فيها) يعني على الدوام (ذلك الخزي العظيم) يعني ذلك الخلود في نار جهنم هو الفضيحة العظيمة. قوله عز وجل (يحذر المنافقون) يعني يخشى المنافقون (أن تنزل عليهم سورة) يعني على المؤمنين (تنبئهم) يعني تخبر المؤمنين (بما في قلوبهم) يعني بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة ونزول القرآن في شأنهم. قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعني أنها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم. وقال ابن عباس أنزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لأن أولادهم كانوا مؤمنين (قل استهزئوا) أمر تهديد فهو كقوله اعملوا ما شئتم (إن الله مخرج) أي مظهر (ما تحذرون) والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يظهر إلى الوجود ما كان المنافقون يسترونه ويخفونه عن المؤمنين قال ابن كيسان نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين

صلى الله عليه وسلم فانهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة ألا تبعث إليهم فتقتلهم فقال أكره أن تقول العرب لما ظفر محمد بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالدبيلة» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد المثنى ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن قتادة عن أبي نصرة عن قيس ابن عباد قال قلنا لعمار أرأيتكم قتالكم ، أرأيا رأيتموه فان الرأى يخطئ ويصيب أو عهدا عهده إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ شيئا لم يعهده إلى الناس كافة وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن فى أمتى» قال شعبة: وأحسبه قال حدثنى حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى أمتى اثنى عشر منافقا لايدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم». قوله تعالى (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) الآية وسبب نزول هذه الآية على ماقال الكلبى ومقاتل وقتادة أن النبى ﷺ كان يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك قيل كانوا يقولون إن محمدا يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك وقيل كانوا يقولون إن محمدا يزعم أنه نزل فى أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن وإنما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال:

وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها وتنكروا له فى ليلة مظلمة فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قد أضمروا له وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا يارسول الله فقال رسول الله ﷺ فانهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة هلا بعثت إليهم من يقتلهم فقال أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالدبيلة (م) عن قيس بن عباد قال قلت لعمار أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فان الرأى يخطئ ويصيب أم عهدا عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافة وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن فى أمتى» قال شعبة وأحسبه قال حدثنى حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى أمتى اثنى عشر منافقا لايدخلون الجنة ولايجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم». قوله سبحانه وتعالى (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) الآية وسبب نزولها على ماقال زيد بن أسلم أن رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك فى غزوة تبوك مالقرائنا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء؟ فقال له عوف بن مالك كذبت ولكنك منافق ولأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه قال زيد قال عبد الله بن عمر فنظرت إليه يعنى إلى المنافق متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة يقول إنما كنا نخوض ونلعب» فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون» ما يزيده قال محمد بن إسحاق الذى قال هذه المقالة فيما بلغنى هو وديعة بن ثابت أخو أمية بن زيد بن عمرو بن عوف وقال قتادة «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يانبى الله إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ماتسمعون» وقال الكلبى ومقاتل «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك» قيل كانوا يقولون إن محمدا يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك. وقيل كانوا يقولون إن محمدا يزعم أنه أنزل فى أصحابنا قرآن إنما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا على الركب فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب ومعنى الآية ولئن سألت يامحمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن إنما كنا

احبسوا على الركب فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب أى كنا نتحدث ونخوض فى الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب قال عمر فلقد رأيت عبد الله بن أبى يشتد قدام رسول الله صلى الله عليه وسلم والحجارة تنكبه وهو يقول إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون مايلتفت إليه ولا يزيده عليه قوله (قل) أى قل يامحمد للمنافقين (أبا لله وآياته) كتابه (ورسوله كنتم تستهزئون لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) فان قيل كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين قيل معناه أظهرتم الكفر بعد ما أظهرتم الإيمان (إن نعف عن طائفة منكم) أى نتب على طائفة منكم وأراد بالطائفة واحدا (نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) بالاستهزاء وقرأ عاصم نعف بالنون وفتحها وضم الفاء نعذب بالنون وكسر الدال طائفة نصب وقرأ الآخرون يعف بالياء وضمها وفتح الفاء تعذب بالتاء وفتح الدال طائفة رفع على غير تسمية الفاعل وقال محمد بن إسحاق الذى عفى عنه رجل واحد وهو مخشى ابن حمير الأشجعى يقال هو الذى كان يضحك ولا يخوض وكان يمشى مجانبا لهم وينكر بعض مايسمع فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه وقال اللهم إنى لاأزال أسمع آية تقرأ عنى بها تقشعر الجلود منها وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لايقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره قوله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أى هم على دين واحد ، وقيل أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق (يأمرون بالمنكر) بالشرك والمعصية (وينهون عن المعروف) أى عن الإيمان والطاعة (ويقبضون أيديهم) أى يمسكونها عن الصدقة والإنفاق فى سبيل الله ولا يبسطونها بخير (نسوا الله فنسيهم) تركوا طاعة الله

نخوض ونلعب يعنى كنا نتحدث ونخوض فى الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث . وأصل الخوض الدخول فى مائع كالماء مع الطين ثم كثر استعماله حتى صار يستعمل فى كل دخول مع تلويث وأذى (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المنافقين (أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وإنكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على إيقاع الاستهزاء بالله يعنى بفرائض الله وحدوده وأحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيحتمل أن المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام قال بعض المسلمين الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاما يشعر بالقدح فى قدرة الله وإنما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء . قوله عز وجل (لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) يعنى قل لهؤلاء المنافقين لاتعتذروا بالباطل . ومعنى الاعتذار محو أثر الموجدة من قلب المعتذر إليه وقيل معنى العذر قطع اللائمة عن الجانى قد كفرتم بعد إيمانكم يعنى الاستهزاء بالله كفر والإقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال سبحانه وتعالى لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم فان قلت إن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد إيمانكم . قلت معناه أظهرتم الكفر بعد ما كنتم قد أظهرتم الإيمان وذلك أن المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم قد كفرتم بعد إيمانكم وقيل معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد أن كنتم عندهم مؤمنين . وقوله سبحانه وتعالى (إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) ذكر المفسرون أن الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والإثنان طائفة والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا أطلق لفظ الطائفة على الواحد قال محمد بن إسحاق الذى عفى عنه رجل واحد وهو مخشى بن حمير الأشجعى يقال إنه هو الذى كان يضحك ولا يخوض وقيل إنه كان يمشى مجانبا لهم وينكر بعض ما يسمع فكان ذنبه أخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع إلى الإسلام وقال اللهم إنى لا أزال أسمع آية تقرأ عنى بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه قوله سبحانه وتعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) يعنى أنهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والأعمال الخبيثة كما يقول الإنسان لغيره أنا منك وأنت منى أى أمرنا واحد لامباينة فيه (يأمرون بالمنكر) يعنى يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المعروف) يعنى عن الإيمان والطاعة وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم (ويقبضون أيديهم) يعنى عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى وفى كل خير (نسوا الله فنسيهم) هذا الكلام لايمكن أجراؤه على ظاهره لأنا لو حملناه على النسيان

النسيان الحقيقى لم يستحقوا ذما عليه لأن النسيان ليس فى وسع البشر دفعه وأيضا فان النسيان فى حق الله محال فلا بد من التأويل وقد ذكروا فيه وجهين الأول معناه أنهم تركوا أمره حتى صاروا بمنزلة الناسين له فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة الكلام فهو كقوله تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» الوجه الثانى أن النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الله ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والإحسان فجعل النسيان عبارة عن ترك الذكر لأن من ترك شيئا لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله والإيمان به تركهم من توفيقه وهدايته فى الدنيا ومن رحمته فى العقبى (إن المنافقين هم الفاسقون) يعنى هم الخارجون عن الطاعة (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) يقال وعده بالخير وعدا ووعده بالشر وعيدا فالوعد يكون فى الخير والشر (نار جهنم خالدين فيها) فيه حذف تقديره يصلونها خالدين يعنى مقيمين فيها (هى حسبهم) يعنى هى كافيتهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الإيمان والطاعة (ولعنهم الله) يعنى وأبعدهم من رحمته وطردهم عن بابه (ولهم عذاب مقيم) أى دائم لا ينقطع . فان قلت قوله خالدين فيها بمعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه؟ قلت ليس ذلك تكرارا . وبيان الفرق من وجهين الأول أن معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلى بالنار ولقائل أن يقول هذا التأويل مشكل لأنه سبحانه وتعالى قال فى النار هى حسبهم وذلك يمنع من ضم شىء آخر إلى عذاب النار . وأجيب عن هذا الإشكال بأن قوله هى حسبهم فى الإيلام ولا يمتنع أن لا يحصل نوع آخر من العذاب من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة فى عذابهم . الوجه الثانى أن العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم فى الدنيا وهو ما يقاسونه من خوف إطلاع المسلمين عليهم وما هم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم . قوله سبحانه وتعالى (كالذين من قبلكم) هذا رجوع عن الغيبة إلى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الأيدى عن فعل الخير والطاعة وقيل إنه تعالى شبه المنافقين فى عدولهم عن طاعة الله واتباع أمره لأجل طلب الدنيا بمن قبلهم من الكفار ثم وصف الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا وأولادا فقال تعالى (كانوا أشد منكم قوة) يعنى بطشا ومنعة (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) يعنى فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للإنسان وقدر له من خير كما يقال قسم له (فاستمتعتم بخلاقكم) وهذا خطاب للحاضرين يعنى فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) فان قلت ما الفائدة فى ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الأولين مرة ثم ذكره فى حق المنافقين ثانيا ثم إعادة ذكره فى حق الأولين ثالثا . قلت فائدته أنه يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم فى الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع إلى ذكر حال الأولين ثالثا وهذا كما تريد أن تبكت بعض الظلمة على قبح ظلمه فتقول له أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم فى فعلهم . وقوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) معطوف على ما قبله ومستند إليه

فتركهم من توفيقه وهدايته فى الدنيا ومن رحمته فى الآخرة وتركهم فى عذابه (إن المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم) كافيهم جزاء على كفرهم (ولعنهم الله) أبعدهم الله من رحمته (ولهم عذاب مقيم) دائم (كالذين من قبلكم) أى فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعدول عن أمر الله فلعنتم كما لعنوا (كانوا أشد منكم قوة) بطشا ومنعة (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) فتمتعوا وانتفعوا بخلاقهم بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ، ورضوا به عوضا عن الآخرة (فاستمتعتم بخلاقكم) أيها الكفار والمنافقون (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) وسلكتم سبيلهم (وخضتم) فى الباطل والكذب على الله تعالى ، وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين (كالذى خاضوا) أى كما خاضوا وقيل كالذى يعنى كالذين خاضوا وذلك أن الذى اسم ناقص مثل ما ومن يعبر به عن الواحد والجمع نظيره قوله تعالى كمثل الذى استوقد نارا ثم قال ذهب الله بنورهم

(أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) أى كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطت أعمالكم وخسرتم . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد العزيز ثنا أبو عمر (١٢٠) الصنعانى من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا يارسول الله اليهود والنصارى قال فمن » وفى رواية أبى هريرة « فهل الناس إلاهم » وقال ابن مسعود رضى الله عنه « أنتم أشبه الأمم ببنى اسرائيل سمتا وهديا تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة غير أنى لا أدرى أتعبدون العجل أم لا » قوله تعالى (ألم يأتهم) يعنى المنافقين (نبأ) خبر (الذين من قبلهم) حين عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا كيف عذبناهم وأهلكناهم ثم ذكرهم فقال (قوم نوح) أهلكوا بالطوفان (وعاد) أهلكوا بالريح (وثمود) بالرجفة (وقوم إبراهيم) بسلب النعمة وهلاك نمرود (وأصحاب مدين) يعنى قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة (والمؤتفكات) المنقلبات التى جعلنا عاليها سافلها وهم قوم لوط وقراهم (أتتهم رسلهم بالبينات) فكذبوهم وعصوهم كما فعلتم يامعشر الكفار فاحذروا تعجيل النقمة (فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) قوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) فى الدين واجتماع الكلمة والعون والنصرة (يأمرون بالمعروف) بالإيمان والطاعة

يعنى وسلكتم فى فعلكم مثل ماسلكوا فى إتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين (أولئك حبطت أعمالهم) يعنى بطلت أعمالهم (فى الدنيا والآخرة) يعنى أن أعمالهم لاتنفعهم فى الدنيا ولا فى الآخرة بل يعاقبون عليها (وأولئك هم الخاسرون) والمعنى أنه كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يارسول الله اليهود والنصارى قال فمن » قوله تعالى (ألم يأتهم) رجع من الخطاب إلى الغيبة يعنى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد أتاهم (نبأ) يعنى خبر (الذين من قبلهم) يعنى الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى (قوم نوح) يعنى أنهم أهلكوا بالطوفان (وعاد) أهلكوا بالريح العقيم (وثمود) أهلكوا بالرجفة (وقوم إبراهيم) أهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة (والمؤتفكات) يعنى المنقلبات التى جعل الله عاليها سافلها وهى مدائن قوم لوط . وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم (أتتهم رسلهم بالبينات) يعنى بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ماأصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم (فما كان الله ليظلمهم) يعنى بتعجيل العقوبة لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى أن الذى استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم أنفسهم . قوله عز وجل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) لما وصف الله المنافقين بالأعمال الخبيثة والأحوال الفاسدة ثم ذكر بعده ماأعد لهم من أنواع الوعيد فى الدنيا والآخرة عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات فى الدنيا والآخرة فقال تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » يعنى الموالاة فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة . فان قلت إنه سبحانه وتعالى قال فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف المؤمنين بعضهم أولياء بعض فما الفائدة فى ذلك . قلت لما كان نفاق الأتباع وكفرهم إنما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والأكابر وحصل بمقتضى الطبيعة أيضا قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة . وقوله سبحانه وتعالى (يأمرون بالمعروف) يعنى بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ماعرف فى

(ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة) منازل طيبة (فى جنات عدن) أى بساتين خلد وإقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به قال ابن مسعود هى بطنان الجنة أى وسطها قال عبد الله بن عمرو بن العاص إن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد وقال الحسن قصر من ذهب لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد أو حكم عدل وقال عطاء ابن السائب عدن نهر فى الجنة جناته على حافتيه وقال مقاتل والكلبى عدن أعلى درجة فى الجنة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها ، وهى مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر واليقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم

فى الشرع من خير وبر وطاعة (وينهون عن المنكر) يعنى عن الشرك والمعصية والمنكر كل ماينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا فى مقابلة ماوصف به المنافقون وضده (ويقيمون الصلاة) يعنى الصلاة المفروضة ويتمون أركانها وحدودها (ويؤتون الزكاة) يعنى الواجبة عليهم وهو فى مقابلة ويقبضون أيديهم (ويطيعون الله ورسوله) يعنى فيما يأمرهم به وهو فى مقابلة نسوا الله فنسيهم (أولئك) يعنى المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات (سيرحمهم الله) لما ذكر الله ماوعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ماوعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعد لهم فى الجنان والسين فى قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد (إن الله عزيز حكيم) وهذا يوجب المبالغة فى الترغيب والترهيب لأن العزيز هو الذى لا يمتنع عليه شىء أراده فهو قادر على إيصال الرحمة لمن أراد وإيصال العقوبة لمن أراد والحكيم هو الذى يدبر عباده على مايقتضيه العدل والإنصاف (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) لما ذكر الله فى الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما أعد لهم فى نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية ماوعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التى تجرى من تحتها الأنهار البساتين التى يتحير فى حسنها الناظر لأنه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة فى جنات عدن والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه فتكون مساكنهم فى جنات عدن ومناظرهم الجنات التى هى البساتين فتكون جنات عدن هى المساكن التى يسكنونها والجنات الأخر هى البساتين التى يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والفرق بينهما (ومساكن طيبة) يعنى ومنازل يسكنونها طيبة (فى جنات عدن) يعنى فى بساتين خلد وإقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به . روى الطبرى بسنده عن عمران بن حصين وأبى هريرة قال «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصر من لؤلؤة فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين» وفى رواية كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من طعام وفى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك كله أجمع» وروى بسنده عن أبى الدرداء قال : «قال رسول الله ﷺ عدن داره يعنى دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهى مسكنه ولا يسكنها مع بنى آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله عز وجل طوبى لمن دخلك» هكذا رواه الطبرى فان صحت هذه الرواية فلابد من تأويلها فقوله عدن داره يعنى دار الله وهو من باب حذف المضاف تقديره عدن دار أصفياء الله تعالى التى أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده. عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» أخرجه البخارى ومسلم وقال عبد الله بن مسعود عدن بطنان الجنة يعنى وسطها وقال عبد الله بن عمرو بن العاص إن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد وقال عطاء بن السائب عدن نهر فى الجنة خيامه على حافتيه وقال مقاتل والكلبى عدن أعلى درجة فى الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها

كثبان المسك الأذفر الأبيض (ورضوان من الله أكبر) أى رضا الله عنهم أكبر من ذلك النعيم الذى هم فيه (ذلك هو الفوز العظيم) روينا عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «يقول الله عز وجل لأهل الجنة يا أهل الجنة هل رضيتم فيقولون ربنا ومالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعطه أحدا من خلقك فيقول أفلا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون ربنا وأى شىء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا» قوله تعالى (ياأيها النبى جاهد الكفار) بالسيف والقتل (والمنافقين) واختلفوا فى صفة جهاد المنافقين قال ابن مسعود بيده فان لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وقال لاتلق المنافقين إلا بوجه مكفهر وقال ابن عباس باللسان وترك الرفق وقال الضحاك بتغليظ الكلام وقال الحسن وقتادة باقامة الحدود عليهم (واغلظ عليهم ومأواهم) فى الآخرة (جهنم وبئس المصير) قال عطاء نسخت هذه

محدقة بها وهى مغطاة من حين خلقها الله حتى ينزلها أهلها وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأبيض . قال الإمام فخر الدين الرازى حاصل هذا الكلام إن فى جنات عدن قولين . أحدهما أنه اسم علم لموضع معين فى الجنة وهذه الأخبار والآثار تقوى هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله «جنات عدن التى وعد الرحمن عباده» والقول الثانى أنه صفة الجنة . قال الأزهرى العدن مأخوذ من قولك عدن بالمكان إذا أقام به يعدن عدوانا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن . وقوله سبحانه وتعالى (ورضوان من الله أكبر) يعنى أن رضوان الله الذى ينزله عليهم أكبر من كل ماسلف ذكره من نعيم الجنة (ذلك هو الفوز العظيم) إشارة إلى ماتقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة ياأهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لانرضى ياربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط بعده عليكم أبدا» قوله سبحانه وتعالى (ياأيها النبى جاهد الكفار) يعنى بالسيف والمحاربة والقتال (والمنافقين) يعنى وجاهد المنافقين واختلفوا فى صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف أن المنافق هو الذى يبطن الكفر ويظهر الإسلام ولما كان الأمر كذلك لم تجز مجاهدته بالسيف والقتال لإظهاره الإسلام فقال ابن عباس أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا ﷺ بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وإذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك أيضا وقال ابن مسعود بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه فان لم يستطع فليكفهر فى وجهه . وقال الحسن وقتادة باقامة الحدود عليهم يعنى إذا تعاطوا أسبابها وهذا القول فيه بعد لأن إقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وإنما قال الحسن وقتادة ذلك لأن غالب من كان يتعاطى أسباب الحدود فتقام عليهم فى زمن النبى ﷺ المنافقون . قال الطبرى وأولى الأقوال قول ابن مسعود لأن الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس فى الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار إنما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود (واغلظ عليهم) يعنى شدد عليهم بالجهاد والإرهاب (ومأواهم جهنم وبئس المصير) يعنى أن جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم إليها . فان قلت كيف ترك النبى صلى الله عليه وسلم المنافقين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم وبحالهم . قلت إنما أمر الله عز وجل نبيه سيدنا محمدا ﷺ بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام على إظهارها . فأما من تكلم بالكفر فى السر فاذا اطلع عليه أنكره ورجع عنه وقال إنى مسلم فانه يحكم باسلامه فى الظاهر فى حقن دمه وماله وولده وإن كان معتقدا غير ذلك فى الباطن لأن الله سبحانه وتعالى أمر باجراء الأحكام على الظواهر فلذلك أجرى النبى ﷺ المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى لأنه العالم بأحوالهم وهو يجازيهم فى الآخرة بما يستحقون . قوله عز

وجل

الآية كل شيء من العفو والصفح قوله تعالى (يحلفون بالله ماقالوا) قال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل حجرة فقال إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعينى شيطان فاذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علام تشتمنى أنت وأصحابك فانطلق الرجل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ماقالوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقال الكلبى نزلت فى الجلاس بن سويد وذلك أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم فقال جلاس لئن كان محمد صادقا لنحن شرا من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال أجل إن محمدا لصادق وأنتم شر من الحمير فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس كذب على يارسول الله وأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذى لاإله إلا هو ماقاله ولقد كذب على عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام من السماء قبل أن يتفرقوا بهذه الآية حتى بلغ فان يتوبوا يك خيرا لهم فقام الجلاس فقال يارسول الله أسمع الله عز وجل قد عرض على التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه وحسنت توبته (ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) أى أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام وقيل هى سب النبى صلى الله عليه وسلم وقيل كلمة الكفر

وجل (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة بن الزبير نزلت فى الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس إن كان ماجاء به محمد حقا لنحن شر من حمرنا هذه التى نحن عليها فقال مصعب أما والله ياعدو الله لأخبرن النبى ﷺ بما قلت وخفت أن ينزل فى القرآن أو أن تصيبنى قارعة أو أن أخلط بخطيئته فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئته أو تصيبنى قارعة ماأخبرتك قال فدعا الجلاس فقال له ياجلاس أقلت ماقال مصعب فحلف ماقال فأنزل الله عز وجل يحلفون بالله ماقالوا الآية وروى عن مجاهد ونحوه وقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل حجرة فقال إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين الشيطان فاذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علام تشتمنى أنت وأصحابك فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ماقالوا وما فعلوا حتى تجاوز عنه فأنزل الله عز وجل يحلفون بالله ماقالوا ثم نعتهم جميعا إلى آخر الآية وقال قتادة ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفارى على الجهنى فقال عبد الله بن أبى بن سلول للأوس انصروا أخاكم فوالله مامثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فسأله فحلف بالله ماقال فأنزل الله هذه الآية هذه روايات الطبرى . وذكر البغوى عن الكلبى قال نزلت فى الجلاس بن سويد وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم فقال الجلاس لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس كذب يارسول الله على فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذى لاإله إلا هو ماقاله ولقد كذب على عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذى لاإله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع عامر يده إلى السماء فقال اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فان يتوبوا يك خيرا لهم فقام الجلاس فقال يارسول الله أسمع الله قد عرض على التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه فتاب وحسنت توبته فذلك قوله سبحانه وتعالى «يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم»

قول الجلاس لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير وقيل كلمة الكفر قولهم لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وستأتى القصة فى موضعها فى سورة المنافقين (وهموا بما لم ينالوا) قال مجاهد هم المنافقون ، بقتل المسلم الذى سمع قولهم لنحن شر من الحمير لكى لايفشيه وقيل هم اثنا عشر رجلا من المنافقين وقفوا على العقبة فى طريق تبوك ، ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء جبريل عليه السلام وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك وقال السدى قالوا إذا قدمنا المدينة (١٢٤) عقدنا على رأس عبد الله بن أبى تاجا فلم يصلوا إليه (وما نقموا) وما كرهوا وما أنكروا منهم (إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) وذلك أن مولى الجلاس قتل فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألف درهم فاستغنى وقال الكلبى كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش فلما قدم عليهم النبى صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم (فان يتوبوا) من نفاقهم وكفرهم (يك خيرا لهم وإن يتولوا) يعرضوا عن الإيمان (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا) بالخزى (والآخرة) أى وفى الآخرة بالنار (ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير) قوله تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية أخبرنا أبو سعيد الشريحى ثنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو عبد الله ابن حامد الأصفهانى ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم السمرقندى ثنا محمد بن نصر حدثنى أبو الأزهر أحمد بن الأزهر ثنا مروان بن محمد ثنا محمد بن شعيب ثنا معاذ بن رفاعة عن على بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة الباهلى قال جاء ثعلبة بن حاطب الأنصارى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله أن

الثعلبى

يعنى أظهروا كلمة الكفر بعد إسلامهم وتلك الكلمة هى سب النبى ﷺ فقيل هى كلمة الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير وقيل هى كلمة عبد الله بن أبى ابن سلول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وستأتى القصة فى موضعها فى سورة المنافقين إن شاء الله تعالى . قوله سبحانه وتعالى (وهموا بما لم ينالوا) قال مجاهد هم الجلاس بقتل الذى سمع مقالته خشية أن يفشيها عليه وقيل هم عبد الله بن أبى بن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا إلى المدينة فلم ينله وقيل هم اثنا عشر رجلا من المنافقين بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك . وقال السدى قال المنافقون إذا رجعنا إلى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبى بن سلول تاجا فلم يصلوا إليه (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) يعنى وما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النبى صلى الله عليه وسلم أن نقموا عليه وقيل إنهم بطروا النعمة فنقموا أشرا وبطرا وقال ابن قتيبة معناه ليس ينقمون شيئا ولا يتعرفون إلا الصنع وهذا كقول الشاعر :

مانقم الناس من أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وإنما أراد أن الناس لاينقمون عليهم شيئا فهو كقول النابغة :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أى ليس فيهم عيب قال الكلبى كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم فعلى هذا القول يكون الكلام عاما وقال عروة كان الجلاس قتل له مولى فأمر له النبى صلى الله عليه وسلم بديته فاستغنى وقال قتادة كانت لعبد الله بن أبى دية فأخرجها رسول الله صلى الله عليه وسلم له وقال عكرمة إن مولى لبنى عدى قتل رجلا من الأنصار فقضى له النبى صلى الله عليه وسلم بالدية إثنى عشر ألفا وفيه نزلت « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » (فان يتوبوا يك خيرا لهم) يعنى فان يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيرا لهم فى العاجل والآجل (وإن يتولوا) يعنى وإن يعرضوا عن الإيمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا) يعنى بالخزى والإذلال (والآخرة) أى ويعذبهم فى الآخرة بالنار (ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير) يعنى وليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله أو ينصرهم فى الدنيا والآخرة . قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية روى البغوى بسند

الثعلبي عن أبي أمامة الباهلي «قال جاء ثعلبة بن حاطب الأنصارى إلى رسول الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمالك فى رسول الله أسوة حسنة والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فقال رسول الله ﷺ اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها وهى تنمو كما ينمو الدود فكان يصلى مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ويصلى فى غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لايشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا حتى صار لايشهد جمعة ولاجماعة فكان إذا كان يوم جمعة خرج فتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال مافعل ثعلبة فقالوا يارسول الله اتخذ ثعلبة غنما مايسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بنى سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما مرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بنى سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالا ماهذه عليك قال خذاها فان نفسى بذلك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقالا أرونى كتابكما فقرأه ثم قال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيى قال فأقبلا فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتكلما ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ثم دعا للسلمى بخير فأخبراه بالذى صنع ثعلبة فأنزل الله سبحانه وتعالى فيه ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الآية إلى قوله سبحانه وتعالى وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك ياثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى فلما أبى يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله ﷺ فأتى أبا بكر فقال اقبل صدقتى فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا لاأقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها

يرزقنى مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمالك فى رسول الله أسوة حسنة والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فوالذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها وهى تنمو كالدود فكان يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلى فى غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد بها عن المدينة فصار لايشهد إلا الجمعة ثم كثرت فنمت فتباعد أيضا حتى كان لايشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة قالوا يارسول الله اتخذ ثعلبة غنما مايسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة فأنزل الله آية الصدقات فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بنى سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة كيف يأخذان وقال لهما مرا على ثعلبة بن حاطب ورجلا من بنى سليم فخذا صدقاتهما فخرجا إلى ثعلبة حتى أتياه فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالوا ماهذه عليك ؟ قال خذاه فان نفسى بذلك طيبة « فمرا على الناس فأخذا الصدقة ، ثم رجعا إلى ثعلبة

فقال أرونى كتابكما فقرأه ثم قال ماهذه إلا أخت الجزية إذهبا حتى أرى رأيى قال فأقبلا فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه قال ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ، ثم دعا للسلمى بخير فأخبراه بالذى صنع ثعلبة فأنزل الله تعالى فيه «ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله» الآية إلى قوله وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك ياثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه الصدقة فقال إن الله عز وجل منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك وقد أمرتك فلم تطعنى فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبض صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتى أبابكر فقال اقبل صدقتى فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا لا أقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها فلما ولى عمر أتاه فقال اقبل صدقتى فقال لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها منك فلم يقبلها فلما ولى عثمان أتاه فلم يقبلها منه وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة أتى ثعلبة مجلسا من الأنصار فأشهدهم لئن آتانى الله من فضله آتيت منه كل ذى حق حقه وتصدقت منه فوصلت الرحم وأحسنت إلى القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالا فلم يف بما قال فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال الحسن ومجاهد نزلت فى ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بنى عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود وقالا والله لئن رزقنا الله مالا لنصدقن فلما رزقهما الله عز وجل بخلا به فقوله عز وجل ومنهم يعنى من المنافقين من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنؤدين حق الله منه (ولنكونن من الصالحين) نعمل بعمل أهل الصلاح فيه من صلة الرحم والنفقة فى الخير (فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم) فأخلفهم (نفاقا فى قلوبهم) أى صير عاقبة أمرهم إلى

منه فلما ولى عمر أتاه فقال اقبل صدقتى فقال لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها منك فلم يقبلها ثم ولى عثمان فأتاه فلم يقبلها منه وهلك فى خلافة عثمان» وأخرجه الطبرى أيضا بسنده قال بعض العلماء إنما لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة ثعلبة لأن الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على إخلافه ماوعد الله عليه وإهانة له على قوله إنما هى جزية أو أخت الجزية فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه إهانة له وليعتبر غيره به فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس باخراجها ويرى أنها واجبة عليه وأنه يثاب على إخراجها ويعاقب على منعها وقال ابن عباس إن ثعلبة أتى مجلسا من مجالس الأنصار فأشهدهم لئن آتانى الله من فضله آتيت منه كل ذى حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالا فلم يف بما عاهد الله عليه فأنزل الله فيه هذه الآية وقال الحسن ومجاهد نزلت فى ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بنى عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به وقال ابن السائب إن حاطب بن أبى بلتعة (١) كان له مال بالشام فأبطأ عليه فجهد لذلك جهدا شديدا فحلف بالله لئن آتانى الله من فضله يعنى ذلك المال لأصدقن منه ولأصلن فلما أتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية وحاصله أن ظاهر الآية يدل على أن بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ماسأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من أعطى الله عهدا لئن رزقنا من فضله بأن يوسع علينا فى الرزق لنصدقن يعنى لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته (ولنكونن من الصالحين) يعنى ولنعملن فى ذلك المال مايعمله أهل الصلاح بأموالهم من صلة الأرحام والإنفاق فى سبيل الله وجميع وجوه البر والخير وإخراج الزكاة وإيصالها إلى أهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذى يبخل بما يلزمه فى حكم الشرع وقيل إن المراد بقوله لنصدقن إخراج الزكاة الواجبة وقوله ولنكونن من الصالحين إشارة إلى كل مايفعله أهل الصلاح على الإطلاق من جميع أعمال البر والطاعة (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) يعنى فلما رزقهم الله لم يفعلوا من أعمال البر شيئا (وتولوا) يعنى عما عاهدوا الله عليه (وهم معرضون) يعنى عن العهد (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم) يعنى فأعقبهم الله نفاقا بأن صيرهم منافقين يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صارت عاقبة أمره إلى ذلك وقيل معناه أنه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم

(١) قوله إن حاطب الخ لم يذكر البغوى هذا القول وأصاب فان حاطبا مهاجرى بدرى وفضل آل بدر لايخفى اه

النفاق يقال أعقب فلانا ندامة إذا صير عاقبة أمره ذلك وقيل عاقبهم

(إلى يوم يلقونه) يعني أنه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة إلى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه (بما أخلفوا الله ماوعدوه) يعني الصدقة والإنفاق في سبيله (وبما كانوا يكذبون) يعني في قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة وفي رواية خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر» قال الشيخ محيي الدين النووي هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث أن هذه الخصال قد توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق مخلد في النار فان إخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف ولبعض العلماء بعض هذا أو كله قال الشيخ هذا ليس بحمد الله إشكالا ولكن اختلف العلماء في معناه فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها يشبه المنافقين في هذه الخصال ويتخلق بأخلاقهم فان النفاق هو إظهار مايبطن خلافه وهذا موجود في صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار وقوله صلى الله عليه وسلم كان منافقا خالصا معناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من ندر ذلك منه فليس ذلك حاصلا فيه هذا هو المختار في معنى الحديث . وقال جماعة من العلماء المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي ﷺ فانهم حدثوا في أيمانهم فكذبوا وائتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا وفجروا في خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ورجع إليه الحسن البصري بعد أن كان على خلافه وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر وروياه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال القاضي عياض وإليه مال أكثر أئمتنا وحكى الخطابي قولا آخر إن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال وحكى أيضا عن بعضهم أن الحديث ورد في رجل بعينه منافق وكان النبي ﷺ لا يواجههم بصريح القول فيقول فلان منافق وإنما يشير إشارة كقوله صلى الله عليه وسلم «مابال أقوام يفعلون كذا» والله أعلم وقال الإمام فخر الدين الرازي ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به . وقوله سبحانه وتعالى (ألم يعلموا) يعني هؤلاء المنافقين (أن الله يعلم سرهم) يعني ماتنطوي عليه صدورهم من النفاق (ونجواهم) يعني ويعلم مايفاوض به بعضهم بعضا فيما بينهم والنجوى هو الخفي من الكلام يكون بين القوم والمعنى أنهم يعلمون أن الله يعلم جميع أحوالهم لا يخفى عليه شيء منها (وأن الله علام الغيوب) وهذا مبالغا في العلم يعني أن الله عالم بجميع الأشياء فكيف تخفى عليه أحوالهم . قوله عزوجل (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات)

بنفاق قلوبهم يقال عاقبته وأعقبته بمعنى واحد (إلى يوم يلقونه) يريد حرمهم التوبة إلى يوم القيامة (بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون) أخبرنا أبو عبدالله محمد ابن الفضل الخرقي ثنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني ثنا عبدالله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشميهني ثنا علي ابن حجر ثنا إسماعيل ابن جعفر ثنا أبو سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم) يعني ما أضمروا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم (وأن الله علام الغيوب) قوله تعالى (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) الآية قال أهل التفسير حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال يارسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله صلى

الآية (ق) عن أبى مسعود البدرى قال لما نزلت آية الصدقة كنا نحمل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشىء كثير فقالوا مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغنى عن صاع هذا فنزلت «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم» الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين أن رسول الله ﷺ حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال يارسول الله مالى ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف فاجعلها فى سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالى فقال رسول الله ﷺ بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله فى مال عبد الرحمن حتى أنه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدى العجلانى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر وقال يارسول الله بت ليلتى أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالى وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره فى الصدقات فلمزهم المنافقون فقالوا ماأعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبى عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من الصدقة فأنزل الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون يعيبون المطوعين يعنى المتبرعين من المؤمنين يعنى عبد الرحمن بن عوف وعاصم ابن عدى فى الصدقات والتطوع التنفل بما ليس بواجب عليه (والذين لايجدون إلا جهدهم) يعنى أبا عقيل الأنصارى والجهد بالضم الطاقة وهى لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وقيل الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة وقد يكون القليل من المال الذى يأتى به فيتصدق به أكثر موقعا عند الله تعالى من الكثير الذى يأتى به فيتصدق به لأن الغنى أخرج ذلك المال الكثير عن قدرة وهذا الفقير أخرج القليل إنما أخرجه عن ضعف وجهد وقد يؤثر المحتاج إلى المال غيره رجاء ماعند الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (فيسخرون منهم) يعنى أن المنافقين كانوا يستهزئون بالمؤمنين فى إنفاقهم المال فى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو قولهم لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيا وكانوا يعيرون الفقير الذى يتصدق بالقليل ويقولون إنه لفقير محتاج إليه فكان يتصدق به وجوابهم إن كل من يرجو ماعند الله من الخير والثواب يبذل الموجود لينال ذلك الثواب الموعود به وقوله سبحانه وتعالى (سخر الله منهم) يعنى أنه سبحانه وتعالى جازاهم على سخريتهم ثم وصف ذلك وهو قوله تعالى (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة. قوله سبحانه وتعالى (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) قال المفسرون لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين وبان نفاقهم وظهر للمؤمنين جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه ويقولون استغفر لنا فنزلت استغفر لهم أو لاتستغفر لهم وهذا كلام خرج مخرج الأمر ومعناه الخبر تقديره أستغفرت لهم يامحمد أو لم تستغفر فلن يغفر الله لهم وإنما خص سبحانه وتعالى السبعين من العدد بالذكر لأن العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صلى على عمه حمزة رضى الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولأن آحاد السبعين سبعة وهو عدد شريف فان السموات سبع والأرضين سبع والأيام سبع والأقاليم سبع والبحار سبع والنجوم السيارة سبع فلهذا خص الله تبارك وتعالى السبعين بالذكر

فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدى العجلانى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصارى واسمه الحبحاب بصاع من تمر وقال يارسول الله بت ليلتى أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لأهلى وأتيتك بالآخر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره فى الصدقة فلمزهم المنافقون وقالوا ماأعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن كان الله ورسوله لغنيان عن صاع أبى عقيل ولكنه أراد أن يذكر فيمن أعطى الصدقة فأنزل الله عز وجل الذين يلمزون أى يعيبون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات يعنى عبد الرحمن بن عوف وعاصما (والذين لايجدون إلا جهدهم) أى طاقتهم يعنى أبا عقيل والجهد الطاقة بالضم لغة قريش وأهل الحجاز وقرأ الأعرج بالفتح قال القتيبى الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة (فيسخرون منهم) يستهزئون منهم (سخر الله منهم) أى جازاهم الله على السخرية (ولهم عذاب أليم استغفر لهم أو لاتستغفر لهم) لفظ أمر معناه الخبر تقديره استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) للمبالغة

وذكر السبعين فى العدد للمبالغة فى اليأس عن طمع المغفرة قال الضحاك لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد رخص لى فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سواء أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدى القوم الفاسقين فرح المخلفون) عن غزوة تبوك والمخلف المتروك (بمقعدهم) أى بقعودهم (خلاف رسول الله) قال أبو عبيدة ، أى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار وأقاموا (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لاتنفروا فى الحر) وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) يعلمون وكذلك هو فى مصحف عبد الله بن مسعود (فليضحكوا قليلا) فى الدنيا (وليبكوا كثيرا) فى الآخرة تقديره فليضحكوا قليلا وسيبكون كثيرا (جزاء بما كانوا يكسبون) أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنبأنا السيد أبو الحسين محمد بن الحسين العلوى قال أنا عبدالله بن محمد

الحسين الشرقى ثنا عبد الله بن هاشم ثنا يحيى بن سعيد ثنا شعبة عن موسى بن أنس رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخبرنا أبو بكر محمد

للمبالغة فى اليأس من طمع المغفرة لهم قال الضحاك ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد رخص لى فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله سبحانه وتعالى سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم (ق) عن ابن عمر قال لما توفى عبد الله يعنى بن أبى ابن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خيرنى الله عز وجل فقال استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على السبعين قال إنه منافق فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد فى رواية فترك الصلاة عليهم . وقوله سبحانه وتعالى (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) يعنى أن هذا الفعل من الله وهو ترك العفو عنهم وترك المغفرة لهم من أجل أنهم اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله (والله لايهدى القوم الفاسقين) يعنى والله لايوافق للإيمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله . قوله عز وجل (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) يعنى فرح المتخلفون عن غزوة تبوك والمخلف المتروك بمقعدهم يعنى بقعودهم فى المدينة خلاف رسول الله يعنى بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لأن الإنسان إذا توجه إلى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معناه مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار إلى تبوك وأقاموا بالمدينة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أمرهم بالخروج إلى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) والمعنى أنهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج إلى الجهاد وذلك أن الإنسان يميل بطبعه إلى إيثار الراحة والقعود مع الأهل والولد ويكره إتلاف النفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لاتنفروا فى الحر) وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر فأجاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد فى الحر أن نار جهنم التى هى موعد فى الآخرة أشد حرا من حر الدنيا لو كانوا يعلمون قال ابن عباس إن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك فى الصيف فقال رجال يارسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلاتنفر فى الحر فقال الله عز وجل قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فأمره الله تعالى بالخروج (فليضحكوا قليلا) يعنى فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحين قليلا فى الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه (وليبكوا كثيرا) يعنى مكان ضحكهم فى الدنيا وهذا وإن ورد بصيغة الأمر إلا أن معناه الإخبار والمعنى أنهم وإن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم فى الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة لأن الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفانى بالنسبة إلى الدائم الباقى قليل (جزاء بما كانوا يكسبون) يعنى إن ذلك البكاء فى الآخرة جزاء لهم على ضحكهم

ابن عبد الله بن أبي ثوبة ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارث ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن عمران بن زيد التغلبي ثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول ثم تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سفنا أجريت فيها لجرت قوله تعالى (فإن رجعك الله) أي ردك الله يا محمد من غزوة تبوك (إلى طائفة منهم) يعني من المخلفين وإنما قال طائفة منهم لأنه ليس كل من تخلف من غزوة تبوك كان منافقا (فاستأذنوك للخروج) معك في غزاة أخرى (فقل) لهم (لن تخرجوا معي أبدا) في سفر (ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة) في غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) أي مع النساء والصبيان وقيل مع الزمنى والمرضى وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل مع المخالفين قال الفراء يقال صاحب خالف إذا كان مخالفا (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) قال أهل التفسير بعث عبد الله بن أبي بن سلول إلى

وأعمالهم الخبيثة في الدنيا (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سفنا أجريت فيها لجرت». قوله سبحانه وتعالى (فإن رجعك الله) يعني فإن ردك الله يا محمد من غزاتك هذه (إلى طائفة منهم) يعني إلى المتخلفين عنك وإنما قال منهم لأنه ليس كل من تخلف بالمدينة عن غزوة تبوك كان منافقا مثل أصحاب الأعذار (فاستأذنوك للخروج) يعني فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحقق نفاقهم في الخروج معك إلى غزوة أخرى (فقل لن تخرجوا معي أبدا) يعني فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معي أبدا لا إلى غزوة ولا إلى سفر (ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم) يعني لأنكم (رضيتم بالقعود أول مرة) يعني أنكم رضيتم بالتخلف عن غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) يعني مع المتخلفين النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل مع المخالفين يقال صاحب خالف إذا كان مخالفا كثير الخلاف وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد وهو مشعر باظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات. قوله عز وجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية قال قتادة بعث عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض ليأتيه قال فنهاه عمر عن ذلك فأتاه نبي الله ﷺ فلما دخل عليه نبي الله ﷺ قال أهلكك حب اليهود فقال يا نبي الله إني لم أبعث إليك لتؤنبني ولكن بعثت إليك لتستغفر لي وسأله قميصه أن يكفن فيه فأعطاه إياه واستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فكفنه في قميصه صلى الله عليه وسلم ونفث في جلده ودلاه في قبره فأنزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره الآية (خ) عن عمر بن الخطاب قال لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلي على ابن أبي بن سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا عدد عليه قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أخر عني يا عمر فلما أكثرت عليه قال إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إلى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ والله ورسوله أعلم وأخرجه الترمذي وزاد فيه فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بعد ما أدخل حفرته فأمر به

فأخرج

فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم قال وكان كسا عباسا قميصا قال سفيان وقال أبو هارون وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصان فقال له ابن عبد الله يارسول الله ألبس عبد الله قميصك الذي يلي جلدك قال سفيان فيرون أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع وفى رواية عن جابر قال لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي صلى الله عليه وسلم له قميصا فوجدوا قميص عبد الله بن أبى يقدر عليه فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه فلذلك نزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه .

(فصل)

قد وقع فى هذه الأحاديث التى تتضمن قصة موت عبد الله بن أبى بن سلول المنافق صورة اختلاف فى الروايات ففى حديث ابن عمر المتقدم أنه لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول أتى ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه وأن يصلى عليه فأعطاه قميصه وصلى عليه وفى حديث عمر بن الخطاب من إفراد البخارى أن رسول الله ﷺ دعى له ليصلى عليه وفى حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه بعد ماأدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه قميصه فكفن فيه ثم إنه ﷺ صلى عليه وليس فى حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله أعلم أنه صلى عليه أولا كما فى حديث عمر وابن عمر ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ثانيا بعد ماأدخل حفرته فأخرجه منها ونزع عنه القميص الذى أعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم إنه صلى الله عليه وسلم ألبسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبد الله بن أبى تطييبا لقلب ابنه عبد الله فانه كان صحابيا مسلما صالحا مخلصا وأما قول قتادة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده فى مرضه وأنه سأله أن يستغفر له وأن يعطيه قميصه وأن يصلى عليه فأعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث فى جلده ودلاه فى حفرته فهذه جمل من القول ظاهرها الترتيب وما المراد بهذا الترتيب إلا توفيقا بين الأحاديث فيكون قوله ونفث فى جلده ودلاه فى قبره جملة منقطعة عما قبلها يعنى أنه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك بعد ماأعطاه القميص وبعد أن صلى عليه والله أعلم وقال القرطبى فى شرح صحيح مسلم له أن عبد الله بن أبى بن سلول كان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم فلما ظهر النبى ﷺ وانصرف إليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير أن الإسلام غلب عليه فنافق وكان رأسا فى المنافقين وأعظمهم نفاقا وأشدهم كفرا وكان المنافقون كثيرا حتى لقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا ثلثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبد الله يعنى ولد عبد الله بن أبى من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاما وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدرا وكان أبر الناس بأبيه ومع ذلك فقد قال يوما للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله إنك لتعلم أنى من أبر الناس بأبى وإن أمرتنى أن آتيك برأسه فعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نعفو عنه وكان من أحرص الناس على إسلام أبيه وعلى أن ينتفع من بركات النبى صلى الله عليه وسلم بشىء ولذلك لما مات أبوه سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فينال من بركته فأعطاه وسأله أن يصلى عليه فصلى عليه كل ذلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض فلما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أهلكك حب اليهود فقال يارسول الله إنى لم أبعث إليك لتؤنبنى إنما بعثت إليك لتستغفر لى وسأله أن يكفنه فى قميصه ويصلى عليه أخبرنا عبد الواحد المليحى ثنا أحمد بن عبيد الله النعيمى ثنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن بكير حدثنى الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أنه قال لما مات عبد الله ابن أبى بن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت إليه فقلت يارسول الله أتصلى على ابن أبى بن سلول وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا عدد عليه قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أخر عنى ياعمر فلما أكثرت عليه قال إنى خيرت فاخترت لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات

ابدا ولا تقم على قبره إلى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ، والله ورسوله أعلم أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان قال عمرو وسمعت جابر بن عبد الله قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بعدما أدخل في حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه فالله أعلم وكان كسا عباسا قميصا وقال سفيان قال أبو هريرة وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصان فقال ابن عبد الله يا رسول الله ألبس أبي قميصك الذي يلي جلدك وروى عن جابر قال لما كان يوم بدر أتي بالأسارى وأتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب فوجدوا قميص عبدالله ابن أبي يقدر عليه فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه فلذلك نزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه عبدالله قال ابن عيينة كان له عند النبي صلى الله عليه وسلم يد فأحب أن يكافئه وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم فيما فعل بعبدالله بن أبي فقال صلى الله عليه وسلم وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله شيئا والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه وروى أنه أسلم به ألف من قومه لما رأوه منافق يتبرك بقميص النبي صلى الله عليه وسلم قوله ولا تصل على أحد منهم مات أبدا (ولا تقم على قبره) لا تقف عليه وقيل لا تتول دفنه من قولهم قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) فما صلى النبي صلى الله عليه وسلم

إكراما لابنه عبد الله وإسعافا له ولطلبته من قول عمر تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه يحتمل أن يكون قبل نزول ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ويظهر من هذا السياق أن عمر وقع في خاطره أن الله نهاه عن الصلاة عليه فيكون هذا من قبيل الإلهام والتحديث الذي شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون فهمه من سياق قوله استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد قال القرطبي والذي يظهر لي والله أعلم أن البخاري ذكر هذا الحديث من رواية ابن عباس وساقه سياقة هي أبين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر وثبت إليه الحديث إلى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيرا حتى أنزلت عليه الآيتان من براءة قال القرطبي وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شيء من الإشكال المتقدم فهو الأولى وقوله صلى الله عليه وسلم سأزيد على السبعين وعد بالزيادة وهو مخالف لما في حديث ابن عباس عن ابن عمر فان فيه لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فان الأحاديث يفسر بعضها بعضا ويقيد بعضها بعضا فلذلك قال لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم أنه لا يغفر له وقوله صلى الله عليه وسلم إني خيرت مشكل مع قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وهذا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافرا وهو متقدم على الآية التي فيها التخيير والجواب عن هذا الإشكال أن المنهي عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك وأما استغفاره لأولئك المنافقين المخير فيهم فهو قد علم صلى الله عليه وسلم أنه لا يقع ولا ينفع وغايته وإن وقع كان تطييبا لقلوب الأحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهي عنه من المخير فيه وارتفع الإشكال بحمد الله والله أعلم وقال الشيخ محيي الدين النووي إنما أعطاه قميصه ليكفنه فيه تطييبا لقلب ابنه عبد الله فانه كان صحابيا صالحا وقد سأل ذلك فأجابه إليه وقيل بل أعطاه مكافأة لعبد الله ابن أبي المنافق الميت لأنه ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصا وفي الحديث بيان مكارم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء له وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفنا وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وإنك لعلى خلق عظيم وقال البغوي قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب أن يكافئه بها ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم فيما فعل بعبدالله بن أبي فقال صلى الله عليه وسلم وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه فيروى أنه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله سبحانه وتعالى (ولا تقم على قبره) يعني لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره وناب عنه فيه (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على

منافق ولا قام على قبره بعدها . فان قلت الفسق أدنى حالا من الكفر ولما ذكر فى تعليل هذا النهى كونه كافرا دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة فى وصفه بكونه فاسقا بعد ما وصفه بالكفر قلت إن الكافر قد يكون عدلا فى نفسه بأن يؤدى الأمانة ولا يضمر لأحد سوءا وقد يكون خبيثا فى نفسه كثير الكذب والمكر والخداع وإضمار السوء للغير وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر . قوله تعالى (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) الكلام على هذه الآية فى مقامين المقام الأول فى وجه التكرار والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل أولا وتأكيده وإرادة أن يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وأن يعتقد أن العمل به مهم وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه وهو أن أشد الأشياء جذبا للقلوب والخواطر الاشتغال بالأموال والأولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأييد والمبالغة فى التحذير من ذلك الشىء الذى وقع الاهتمام به وقيل أيضا إنما كرر هذا المعنى لأنه أراد بالآية الأولى قوما من المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الأخرى أقواما آخرين منهم المقام الثانى فى وجه بيان ماحصل من التفاوت فى الألفاظ فى هاتين الآيتين وذلك أنه قال سبحانه وتعالى فى الآية الأولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله ولا ينفقون إلا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق لشدة المحبة للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء فى قوله فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى فى الآية الأولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لا هنا فقال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه أن حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد وكان إعجابهم بأولادهم أكثر وفى إسقاط حرف لا هنا دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين قال سبحانه وتعالى فى الآية الأولى إنما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل فى أحكام الله محال وأنه أينما ورد حرف اللام فمعناه أن كقوله سبحانه وتعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله ومعناه وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى فى الآية الأولى فى الحياة الدنيا وقال تعالى هنا فى الدنيا والفائدة فى إسقاط لفظة الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت فى الخسة إلى حيث أنها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها فهذه جمل فى ذكر الفرق بين هذه الألفاظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . قوله عز وجل (وإذا أنزلت سورة) يحتمل أن يراد بالسورة بعضها لأن إطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل أن يراد جميع السورة ، فعلى هذا المراد بالسورة سورة براءة لأنها مشتملة على الأمر بالإيمان والأمر بالجهاد (أن) أى بأن (آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله) . فان قلت كيف يأمرهم بالإيمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل . قلت معناه الأمر بالدوام على الإيمان والجهاد فى المستقبل وقيل إن الأمر بالإيمان يتوجه على كل أحد فى كل ساعة وقيل إن هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم

بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قبض قوله تعالى (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون . وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله

استأذنك أولوا الطول منهم) ذوو الغنى والسعة منهم فى القعود والتخلف (وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين) فى رحالهم (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) يعنى النساء وقيل مع أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه إذا كان دونهم (وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات) يعنى الحسنات وقيل الجوارى الحسان فى الجنة قال الله تعالى فيهن خيرات حسان جمع خيرة وحكى عن ابن عباس أن الخير لايعلم معناه إلا الله تعالى كما قال جل ذكره فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين (وأولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) قوله تعالى (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) الآية قرأ يعقوب ومجاهد المعذرون بالتخفيف وهم المبالغون فى العذر يقال فى المثل لقد أعذر من أنذر أى بالغ فى العذر من قدم النذارة وقرأ الآخرون المعذرون بالتشديد أى المقصرون يقال عذر أى قصر وقال الفراء المعذرون المعتذرون أدغمت التاء فى الذال ونقلت حركة التاء إلى العين وقال الضحاك المعذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعا عن أنفسهم فقالوا يانبى الله إن نحن غزونا معك تغير أعراب طئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا

المنافقون والمعنى أن أخلصوا الإيمان بالله وجاهدوا مع رسوله وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد لأن الجهاد بغير إيمان لايفيد أصلا فكأنه قيل للمنافقين الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولا وتجاهدوا مع رسوله ثانيا حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها فى الدنيا والآخرة . وقوله سبحانه وتعالى (استأذنك أولوا الطول منهم) قال ابن عباس يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم وفى تخصيص أولى الطول بالذكر قولان أحدهما أن الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد والقول الثانى إنما خص أولى الطول بالذكر لأن العاجز عن السفر والجهاد لايحتاج إلى الاستئذان (وقالوا) يعنى أولى الطول (ذرنا نكن مع القاعدين) يعنى فى البيوت مع النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) قيل الخوالف النساء اللواتى يتخلفن فى البيوت فلا يخرجن منها والمعنى رضوا بأن يكونوا فى تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل خوالف جمع خالفة وهم أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه إذا كان دونهم (وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) يعنى وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لايفقهون مراد الله فى الأمر بالجهاد . قوله سبحانه وتعالى (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم يعنى الرسول والمؤمنين (وأولئك لهم الخيرات) منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة (وأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطالب . قوله سبحانه وتعالى (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) بيان لما لهم من الخيرات الأخروية . قوله سبحانه وتعالى (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) يعنى وجاء المعتذرون من أعراب البوادى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه فى التخلف عن الغزو معه قال الضحاك هم رهط عامر بن الطفيل جاءوا إلى رسول الله ﷺ معتذرين إليه دفاعا عن أنفسهم فقالوا يانبى الله إن نحن غزونا معك تغير أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأنى الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم وقيل هم نفر من بنى غفار رهط خفاف ابن إيماء بن رحضة وقيل هم من أسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى الآية وجاء المعذرون أى المقصرون يعنى أنهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى أن له عذرا ولاعذر له وقيل إن الأصل فى هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون أدغمت التاء فى الذال لقرب مخرجيهما والاعتذار فى كلام العرب على قسمين يقال اعتذر إذا كذب فى عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون إليكم فرد الله عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر إذا أتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد . ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر . يعنى فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو من التعذير الذى هو التقصير يقال عذر تعذيرا إذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل أنهم كانوا صادقين فى اعتذارهم وأنهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال

أنهم كانوا صادقين بدليل أنه تعالى لما ذكرهم قال بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا كاذبين ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قيل له هذا الكلام قال إن قوما تكلفوا عذرا بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقو الأعراب الذين ماجاؤا وما اعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله يعني في ادعائهم الإيمان (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) يعني في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار وإنما قال منهم لأنه سبحانه وتعالى علم أن منهم من سيؤمن ويخلص في إيمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذين أصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه . قوله عز وجل (ليس على الضعفاء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا بأعذار باطلة عقبه بذكر أصحاب الأعذار الحقيقية الصحيحة وعذرهم وأخبر أن فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفا نحيفا ويدل على أن هؤلاء الأصناف هم الضعفاء أن الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى (ولا على المرضى) والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فأما المرضى فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفا بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو (ولا على الذين لا يجدون ماينفقون) يعني الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لأن العاجز عن نفقة الغزو معذور (حرج) أي ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة حرج أي إثم في التخلف عن الغزو وقال الإمام فخر الدين الرازي ليس في الآية أنه يحرم عليهم الخروج لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة إما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلا ووبالا عليهم فان ذلك طاعة مقبولة ثم إنه تعالى شرط على الضعفاء في جواز التخلف عن الغزو شرطا معينا وقوله سبحانه وتعالى (إذا نصحوا لله ورسوله) ومعناه أنهم إذا أقاموا في البلد احترزوا عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن وسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو وقاموا بمصالح بيوتهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله وتابعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فان جملة هذه الأمور تجرى مجرى النصح لله ورسوله (ما على المحسنين من سبيل) أي ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى أنه سد باحسانه طريق العقاب عن نفسه ويستنبط من قوله ما على المحسنين من سبيل أن كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله مخلصا من قلبه ليس عليه سبيل في نفسه وماله إلا ما أباحه الشرع بدليل منفصل (والله غفور) يعني لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع (رحيم) يعني أنه تعالى رحيم بجميع عباده قال قتادة نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو وأصحابه وقال الضحاك نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر ولما ذكر الله عز وجل هذه الأقسام الثلاثة من المعذورين أتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى (ولا على الذين إذا ما أتوك) يعني ولا حرج ولا إثم في التخلف على الذين إذا ما أتوك (لتحملهم) يعني يسألونك الحملان ليبلغوا إلى غزو عدوك وعدوهم والجهاد

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) يعني المنافقين قال أبو عمرو ابن العلاء كلا الفريقين كان مسيئا قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وقوم تخلفوا من غير تكلف عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى وهم المنافقون فأوعدهم الله بقوله (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) ثم ذكر أهل العذر فقال جل ذكره (ليس على الضعفاء) قال ابن عباس يعني الزمنى والمشايخ والعجزة وقيل هم الصبيان وقيل النسوان (ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون) يعني الفقراء (حرج) مأثم وقيل ضيق في القعود عن الغزو (إذا نصحوا لله ورسوله) في مغيبهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله وبايعوا الرسول (ما على المسلمين من سبيل) أي من طريق بالعقوبة (والله غفور رحيم) قال قتادة نزلت في زيد بن عمر وأصحابه وقال الضحاك نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر قوله تعالى (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم)

معناه أنه لاسبيل على الأولين ولا على هؤلاء الذين أتوك، وهم سبعة نفر سموا البكائين معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله ابن كعب الأنصاري وعلية بن زيد الأنصاري وسالم بن عمير وثعلبة بن عنمة وعبد الله بن مغفل المزني : أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله إن الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا واختلفوا فى قوله لتحملهم قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب وقيل سألوه أن يحملهم على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة ليغزوا معه فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله عنه فى قوله تعالى (قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا) وهم يبكون فذلك قوله تعالى تولوا (وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون إنما السبيل) بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) فى التخلف (وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) مع النساء والصبيان (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم) يروى أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين نفرا فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءوا يعتذرون بالباطل قال الله تعالى (قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم) لن نصدقكم (قد نبأنا الله من أخباركم) فيما سلف (وسيرى الله عملكم ورسوله) فى المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم)

المتخلفين

معك يامحمد قال ابن إسحق نزلت فى البكائين وكانوا سبعة ونقل الطبرى عن محمد بن كعب وغيره قالوا جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه فقال لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بنى واقف جرمى بن عمير ومن بنى مازن ابن النجار عبدالرحمن بن كعب يكنى أباليلى ومن بنى المعلى سلمان ابن صخر ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد وهو الذى تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بنى سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمر المزنى وقال البغوى هم سبعة نفر سموا البكائين معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب الأنصارى وعلية بن زيد الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن عنمة وعبد الله بن مغفل المزنى قال أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله إن الله عز وجل قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا فقال لا أجد ما أحملكم عليه وقال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة إخوة معقل وسويد والنعمان بنو مقرن وقيل نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل ماذكر قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب وقيل بل سألوه أن يحملهم على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين فذلك قوله سبحانه وتعالى (قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع) قال صاحب الكشاف هو كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل (حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون) يعنى على أنفسهم فى الجهاد (إنما السبيل) لماقال الله سبحانه وتعالى ماعلى المحسنين من سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولا عذر له إنما السبيل يعنى إنمايتوجه الطريق بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) يامحمد فى التخلف عنك والجهاد معك (وهم أغنياء) يعنى قادرين على الخروج معك (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) يعنى رضوا بالدناءة والضعة والإنتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم (وطبع الله على قلوبهم) يعنى ختم عليها (فهم لا يعلمون) مافى الجهاد من الخير فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لاينقطع . قوله سبحانه وتعالى (يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم) يعنى يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يامحمد إليك وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم ويحتمل أنهم اعتذروا إليه وإلى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون إليكم يعنى بالأعذار الباطلة الكاذبة إذا رجعتم إليهم يعنى من سفركم (قل) أى قل لهم يامحمد (لاتعتذروا) قال البغوى روى أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لاتعتذروا (لن نؤمن لكم) يعنى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به (قد نبأنا الله من أخباركم) يعنى قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم (وسيرى الله عملكم ورسوله) يعنى فى المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه وقيل يحتمل أنهم وعدوا بأن ينصروا المؤمنين فى المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بماقلتم أم لا (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم) يعنى فيخبركم (بما كنتم تعملون) لأنه هو المطلع على مافى ضمائركم من الخيانة والكذب وإخلاف الوعد. قوله عز وجل (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم) يعنى إذا رجعتم من سفركم إليهم يعنى إلى

أنه رفع إليهم من غزوتم (لتعرضوا عنهم) لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم (فأعرضوا عنهم) فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق (لإنهم رجس) نجس أى إن عملهم قبيح (ومأواهم) فى الآخرة (جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) قال ابن عباس نزلت فى جد بن قيس ومعتب ابن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلا من المنافقين :

المتخلفين بالمدينة من المنافقين (لتعرضوا عنهم) يعنى لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ولا توبخوهم بسبب تخلفهم (فأعرضوا عنهم) يعنى فدعوهم وما اختارو لأنفسهم من النفاق وقيل يريد ترك الكلام يعنى لا تكلموهم ولا تجالسوهم فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعانى إن هؤلاء المنافقين طلبوا إعراض الصفح فأعطوا إعراض المقت ثم ذكر العلة فى سبب الإعراض عنهم فقال تعالى (إنهم رجس) يعنى أن بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة (ومأواهم) يعنى مسكنهم فى الآخرة (جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) يعنى من الأعمال الخبيثة فى الدنيا قال ابن عباس نزلت فى الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن أبى حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا إله إلا هو أنه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه فأنزل الله عز وجل هذه الآية والتى بعدها (يحلفون لكم لترضوا عنهم) يعنى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم (فان ترضوا عنهم) يعنى فان رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) يعنى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم أبدا . وقوله سبحانه وتعالى (الأعراب أشد كفرا ونفاقا) نزلت فى سكان البادية يعنى أن أهل البدو أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر قال أهل اللغة يقال رجل عربى إذا كان نسبه فى العرب وجمعه العرب ورجل أعرابى إذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلأ ويجمع الأعرابى على الأعراب والأعاريب فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الأعراب فالأعرابى إذا قيل له يا عربى فرح بذلك والعربى إذا قيل له يا أعرابى غضب والعرب أفضل من الأعراب لأن المهاجرين والأنصار وعلماء الدين من العرب والسبب فى كون الأعراب أشد كفرا ونفاقا بعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى (وأجدر) يعنى وأخلق وأحرى (ألا يعلموا) يعنى بأن لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) يعنى الفرائض والسنن والأحكام (والله عليم) يعنى بما فى قلوب عباده (حكيم) فيما فرض من فرائضه وأحكامه (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) يعنى لا يرجو على انفاقه ثوابا ولا يخاف على إمساكه عقابا إنما ينفق خوفا أو رياء والمغرم التزام ما لا يلزم والمعنى أن من الأعراب من يعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل الله غرامة لأنه لا ينفق ذلك إلا خوفا من المسلمين أو مراآة لهم ولم يرد بذلك الإنفاق وجه الله وثوابه (ويتربص) يعنى وينتظر (بكم الدوائر) يعنى بالدوائر تقلب الزمان وصروفه التى تأتى مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان بن رباب يعنى تقلب الزمان فيموت الرسول وتظهر المشركون (عليهم دائرة السوء) يعنى بل يتقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون فى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودينه إلا ما يسوءهم (والله سميع) يعنى لأقوالهم (عليم)

قال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن أبى حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه فأنزل الله عز وجل هذه الآية (يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين الأعراب) أى أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) من أهل الحضر (وأجدر) أى أخلق وأحرى (ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) وذلك لبعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السنن (والله عليم) بما فى قلوب خلقه (حكيم) فيما فرض من فرائضه (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) قال عطاء لا يرجون على إعطائه ثوابا ولا يخافون على إمساكه عقابا إنما ينفق خوفا ورياء والمغرم التزام ما لا يلزم (ويتربص) وينتظر (بكم الدوائر) يعنى صروف الزمان التى تأتى

مرة بالخير ومرة بالشر وقال يمان بن رباب يعنى ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر المشركون (عليهم دائرة السوء) عليهم يدور البلاء والحزن ولا يرون فى محمد ودينه إلا ما يكرهون وما يسوءهم قرأ ابن كثير وأبو عمرو دائرة السوء ههنا وفى سورة الفتح بضم السين معناه الضر والبلاء والمكروه وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر وقيل بالفتح الردة والفساد وبالضم الضر والمكروه (والله سميع عليم) نزلت فى أعراب أسد وغطفان وتميم ثم استثنى

وغفار وجهينة أخبرنا أبو سعيد أحمد بن عبد الله الظاهري أنبأنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد ابن زكريا العذافري أنبأنا إسحاق بن إبراهيم الديري أنبأنا عبد الرزاق ثنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أسلم وغفار وشيء من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان» (ويتخذ ما ينفق قربات عند الله) القربات جمع القربة أي يطلب القربة إلى الله تعالى (وصلوات الرسول) أي دعاءه واستغفاره قال عطاء يرغبون في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم (ألا إنها قربة لهم) قرأ نافع برواية ورش قربة بضم الراء والباقون بسكونها (سيدخلهم الله في رحمته) في جنته (إن الله غفور رحيم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) قرأ يعقوب والأنصار رفع عطفا على قوله والسابقون واختلفوا في السابقين قال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة

يعني بما يختمون في ضمائرهم من النفاق والغش وإرادة السوء للمؤمنين نزلت هذه الآية في أعراب أسد وغطفان وتميم ثم استثنى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) قال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وقال الكلبي هم أسلم وغفار وجهينة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيرا من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة فقال رجل خابوا وخسروا قال نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة» وفي رواية «أن الأقرع بن حابس قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت أن كان أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة خيرا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان قال خابوا وخسروا قال نعم» (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم «قال أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها» زاد مسلم في رواية له أما إني لم أقلها لكن الله قالها (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله» وقوله سبحانه وتعالى (ويتخذ ما ينفق قربات عند الله) جمع قربة أي يطلب بما ينفق القربة إلى الله تعالى (وصلوات الرسول) يعني ويرغبون في دعاء النبي ﷺ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «اللهم صل على آل أبي أوفى» (ألا إنها قربة لهم) يحتمل أن يعود الضمير في إنها إلى صلوات الرسول ويحتمل أن يعود إلى الأنفاق وكلاهما قربة لهم عند الله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة عند الله لأن الله سبحانه وتعالى أكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى ألا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى إنها قربة لهم (سيدخلهم الله في رحمته) وهذه النعمة هي أقصى مرادهم (إن الله غفور) للمؤمنين المنفقين في سبيله (رحيم) يعني بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة. قوله سبحانه وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) اختلف العلماء في السابقين الأولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة هم الذين صلوا إلى القبلتين وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر وقال الشعبي هم أهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية وقال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لأنهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حميد بن زياد قلت يوما لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم وأردت الفتن فقال إن الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم وأوجب لهم الجنة في كتابه فقلت له في أي موضع أوجب لهم الجنة فقال سبحان الله ألا تقرأ والسابقون الأولون إلى آخر الآية فأوجب الله الجنة لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم زاد في رواية في قوله والذين اتبعوهم بإحسان قال شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة قال حميد فكأني لم أقرأ هذه الآية قط واختلف العلماء في أول الناس إسلاما بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق إسلاما وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من

آمن

هم الذين صلوا إلى القبلتين وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر وقال الشعبي هم الذين شهدوا بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية واختلفوا في أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد امرأته خديجة مع اتفاقهم على أنها أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم أول من آمن وصلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو قول جابر وبه قال مجاهد وابن إسحاق أسلم وهو ابن عشر سنين وقال بعضهم أول من آمن بعد خديجة أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي وقال بعضهم أول من (١٣٩) أسلم زيد بن حارثة وهو قول الزهري وعروة بن الزبير وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر رضي الله عنه ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن العبيد زيد بن حارثة قال ابن إسحاق فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله وكان رجلا محببا سهلا وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها وكان تاجرا ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه فأسلم على يديه فيما بلغني عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلموا وصلوا فكان هؤلاء الثمانية نفر الذين سبقوا إلى الإسلام ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام أما السابقون من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا ستة في العقبة الأولى وسبعين في الثانية والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير يعلمهم القرآن فأسلم معه خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان قوله عز وجل «والسابقون الأولون من المهاجرين» الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا أوطانهم «والأنصار» أي ومن الأنصار هم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه

آمن بعد خديجة علي بن أبي طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا في سنه وقت إسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقيل كان بالغا والصحيح أنه لم يكن بالغا وقت إسلامه وقال بعضهم أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة ابن الزبير أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب ومن العبيد زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء الأربعة سباق الخلق إلى الإسلام قال ابن إسحاق فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا الناس إلى الله ورسوله وكان رجلا محببا سهلا وكان أنسب قريش لقريش وأعلمها بما كان فيها وكان رجلا تاجرا وكان ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به من قومه فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا على يده وصلوا معه فكان هؤلاء النفر الثمانية أول من سبق الناس إلى الإسلام ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول إلى الإسلام وأما السابقون من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي العقبة الأولى وكانوا ستة نفر (١) أسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك ابن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رئاب ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سباق الأنصار ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير إلى أهل المدينة يعلمهم القرآن فأسلم على يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة وذلك قبل أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقيل إن المراد بالسابقين الأولين من سبق إلى الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أن الله سبحانه وتعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا فبقي اللفظ مجملا فلما قال تعالى من المهاجرين والأنصار ووصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارا وجب صرف اللفظ المجمل إليه وهو الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أيضا أن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث إن الهجرة أمر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة

(١) قوله ستة نفر المعدود هنا خمسة والسادس عقبة بن عامر كما في المواهب

من أهل المدينة وآووا أصحابه (والذين اتبعوهم باحسان) قيل بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين ، وقيل هم الذين سلكوا سبيلهم فى الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة ، وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحم والدعاء وقال أبو صخر حميد بن زياد أتيت محمد بن كعب القرظى فقلت له ماقولك فى أصحاب رسول الله ﷺ فقال جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة محسنهم ومسيئهم فقلت من أين تقول هذا فقال اقرأ قول الله تعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » إلى أن قال « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وقال « والذين اتبعوهم باحسان » شرط فى التابعين شريطة وهى أن يتبعوهم فى أفعالهم الحسنة دون السيئة قال أبو صخر فكأنى لم أقرأ هذه الآية قط وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » ثم جمعهم الله عز وجل فى الثواب فقال (رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار) قرأ ابن كثير من تحتها الأنهار وكذلك هو فى مصاحف أهل مكة (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) قوله تعالى (ومن حولكم من الأعراب منافقون) وهم من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار كانت منازلهم حول المدينة ، يقول من هؤلاء الأعراب منافقون (ومن أهل المدينة) أى ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون (مردوا على النفاق) أى مرنوا على النفاق يقال تمرد فلان على ربه أى عتا ومرد على معصيته أى مرن وثبت عليها واعتادها ومنه المريد والمارد وقال ابن إسحاق وأبوا

وكذلك النصرة فانها مرتبة عالية ومنقبة شريفة لأنهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله عز وجل عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » . قوله تعالى (والذين اتبعوهم باحسان) قيل هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين فعلى هذا القول يكون الجميع من الصحابة وقيل هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار فى الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدا وفى رواية أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » أراد بالقرن فى الحديث الأول أصحابه والقرن الأمة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا فى مدته من الزمان فقيل من عشر سنين إلى عشرين وقيل من مائة إلى مائة وعشرين سنة والمد المذكور فى الحديث الثانى هو ربع صاع والنصيف نصفه والمعنى لو أن أحدا عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والانفاق فى سبيل الله مابلغ هذا القدر اليسير التافه من أعمال الصحابة وإنفاقهم لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود فى وقت الحاجة وقوله سبحانه وتعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) يعنى رضى الله عن أعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة (وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) قوله سبحانه وتعالى (وممن حولكم من الأعراب منافقون) ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين البغوى والواحدى وابن الجوزى أنهم من أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة يعنى ومن هؤلاء الأعراب منافقون وما ذكروه مشكل لأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فان صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى « وممن حولكم من الأعراب منافقون » على القليل لأن لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبى صلى الله عليه وسلم لهم على الأكثر والأغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم لهم وأما الطبرى فانه أطلق القول ولم يعين أحدا من القبائل المذكورة بل قال فى تفسير هذه الآية من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الأعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضا أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوى (ومن أهل المدينة) من الأوس والخزرج منافقون (مردوا على النفاق) فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعنى مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه إذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد فى معصيته أى مرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها قال ابن إسحق لجوا فيه

وأبوا غيره وقال ابن زيد أقاموا عليه ولم يتوبوا منه (لا تعلمهم) يعنى أنهم بلغوا فى النفاق إلى حيث أنك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الأسرار (نحن نعلمهم) يعنى لكن نحن نعلمهم لأنه لا تخفى علينا خافية وإن دقت (سنعذبهم مرتين) اختلف المفسرون فى العذاب الأول مع اتفاقهم على أن العذاب الثانى هو عذاب القبر بدليل قوله (ثم يردون إلى عذاب عظيم) وهو عذاب النار فى الآخرة فثبت بهذا أنه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة فى الدنيا ومرة فى القبر ومرة فى الآخرة أما المرة الأولى وهى التى اختلفوا فيها فقال الكلبى والسدى «قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا فى يوم جمعة فقال اخرج يافلان فانك منافق اخرج يافلان فانك منافق فأخرج من المسجد أناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الأول. والثانى هو عذاب القبر فان صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لأن الله سبحانه وتعالى قال لا تعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك أعلمه بهم وقال مجاهد هذا العذاب الأول هو القتل والسبى وهذا القول ضعيف لأن أحكام الإسلام فى الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية أخرى أنهم عذبوا بالجوع مرتين وقال قتادة المرة الأولى هى الدبيلة فى الدنيا وقد جاء تفسيرها فى الحديث بأنها خراج من نار تظهر فى أكتافهم حتى تنجم من صدورهم يعنى تخرج من صدورهم وقال ابن زيد الأولى هى المصائب فى الأموال والأولاد فى الدنيا والأخرى عذاب القبر وقال ابن عباس الأولى إقامة الحدود عليهم فى الدنيا والأخرى عذاب القبر وقال ابن إسحق الأولى هى ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه كرها غير حسبة والأخرى عذاب القبر وقيل إحداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والأخرى عذاب القبر وقيل الأولى إحراق مسجدهم مسجد الضرار والأخرى إحراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى ثم يردون إلى عذاب عظيم يعنى عذاب جهنم يخلدون فيه. قوله عز وجل (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) فيه قولان أحدهما أنهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا وحجة هذا القول أن قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الأعراب منافقون والعطف موهم ويعضده مانقله الطبرى عن ابن عباس أنه قال هم الأعراب والقول الثانى وهو قول جمهور المفسرين إنها نزلت فى جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك. واختلف المفسرون فى عددهم فروى عن ابن عباس أنهم كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروى أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد ابن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية أحدهم أبو لبابة وقال قتادة والضحاك كانوا سبعة أحدهم أبو لبابة وقيل كانوا ثلاثة أبو لبابة بن عبدالمنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام وذلك أنهم كانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا أنكون فى الظلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللأواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنا ويعذرنا فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم مر بهم فرآهم فقال من هؤلاء

لجوا فيه وابوا غيره وقال ابن زيد أقاموا عليه ولم يتوبوا (لاتعلمهم) أنت يامحمد (نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين) اختلفوا فى هذين العذابين قال الكلبى والسدى «قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يافلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق» أخرج ناسا من المسجد وفضحهم فهذا هو العذاب الأول. والثانى عذاب القبر وقال مجاهد الأول القتل والسبى والثانى عذاب القبر وعنه رواية أخرى عذبوا بالجوع مرتين وقال قتادة الدبيلة فى الدنيا وعذاب القبر وقال ابن زيد الأولى المصائب فى الأموال والأولاد فى الدنيا والأخرى عذاب الآخرة وعن ابن عباس الأولى إقامة الحدود عليهم والأخرى عذاب القبر قال ابن إسحاق هو مايدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة ثم عذاب القبر وقيل أحدهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والآخر عذاب القبر وقيل الأولى إحراق مسجدهم مسجد الضرار والأخرى إحراقهم بنار جهنم (ثم يردون إلى عذاب عظيم) أى عذاب جهنم يخلدون فيه قوله تعالى (وآخرون) أى ومن أهل المدينة أو من الأعراب آخرون ولا يرجع هذا إلى المنافقين (اعترفوا) أقروا (بذنوبهم

فقالوا هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله أن لايطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر باطلاقهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فأنزل الله عزوجل هذه الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا فأنزل الله خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الآية وقال قوم نزلت هذه الآية فى أبى لبابة خاصة واختلفوا فى ذنبه الذى تاب منه فقال مجاهد نزلت فى أبى لبابة حين قال لبنى قريظة إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية وقال والله لا أحل نفسى ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه فأنزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فحله بيده فقال أبو لبابة يارسول الله إن من توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى كله صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال يجزيك الثلث يا أبا لبابة قالوا جميعا فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث أموالهم وترك لهم الثلثين لأن الله سبحانه وتعالى قال خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم لأن لفظة من تقتضى التبعيض وقال الحسن وقتادة وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا وسيأتى خبرهم. وأما تفسير الآية فقوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال أهل المعانى الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشىء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهى أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على مافعلوا. فان قلت الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا. قلت مجرد الاعتراف بالذنب لايكون توبة فاذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضى من الذنب والعزم على تركه فى المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة. وقوله سبحانه وتعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) قيل أراد بالعمل الصالح إقرارهم بالذنب وتوبتهم منه والعمل السىء هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سائر الغزوات والسىء هو تخلفهم عنه فى غزوة تبوك وقيل إن العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسىء ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية فى حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك. وروى الطبرى عن أبى عثمان قال مافى القرآن آية أرجى عندى لهذه الأمة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم. فان قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسىء مخلوطا فما المخلوط به. قلت إن الخلط عبارة عن الجمع المطلق فأما قولك خلطته فانما يحسن فى الموضع الذى يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الأصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملا صالحا بآخر سيئا ذكره غالب المفسرين وأنكره الإمام فخر الدين الرازى وقال اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لأن العمل الصالح والعمل السىء إذا حصلا معا بقى كل واحد منهما

خلطوا عملا صالحا) وهو إقرارهم بذنوبهم وتوبتهم (وآخر سيئا) أى بعمل آخر سيىء وضع الواو موضع الباء كما يقال خلطت الماء واللبن أى باللبن والعمل السيىء هو تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسوارى وقيل غزواتهم مع النبى صلى الله عليه وسلم

(عسى الله ان يتوب عليهم إن الله غفور رحيم) نزلت هذه الآية فى قوم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك وقالوا نكون فى الظلال مع النساء ورسول الله صلى الله عايه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللأواء فلما قرب رسول الله ﷺ من المدينة قالوا والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنا ويعذرنا فأوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد فلما رجع رسول الله ﷺ مر بهم فرآهم فقال من هؤلاء ؟ فقالوا هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله عز وجل أن لايطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقسم بالله لاأطلقهم ولا أعذرهم حتى

أومر باطلاقهم لأنهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فأنزل الله هذه الآية فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا : يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا فأنزل الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة » الآية واختلفوا فى عدد هؤلاء التائبين فروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروى عطية عنه أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية وقال الضحاك وقتادة كانوا سبعة وقالوا جميعا أحدهم أبو لبابة وقال قوم نزلت فى أبى لبابة خاصة . واختلفوا فى ذنبه قال مجاهد نزلت فى أبى لبابة حين قال لقريظة إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه وقال الزهرى نزلت فى تخلفه عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية وقال والله لاأحل نفسى ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام لايذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال والله لاأحل نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى فجاء النبى ﷺ فحله بيده ثم قال أبو لبابة يارسول الله إن من توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى كله صدقة إلى الله وإلى رسوله قال يجزيك ياأبا لبابة الثلث قالوا جميعا فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث أموالهم وترك الثلثين لأن الله تعالى قال خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم قال الحسن وقتادة هؤلاء سوى الثلاثة الذين خلفوا قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم) بها من ذنوبهم (وتزكيهم بها) أى ترفعهم

على حاله كما هو مذهبنا فان عندنا القول بالإحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فيه تنبيه على نفى القول بالمحابطة وأنه بقى كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر فليس إلا الجمع المطلق وقال الواحدى العرب تقول خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيدا وعمرا والواو فى الآية أحسن من الباء لأنه أريد معنى الجمع لاحقيقة الخلط ألا ترى أن العمل الصالح لايختلط بالسيء كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما وقوله سبحانه وتعالى (عسى الله أن يتوب عليهم) قال ابن عباس وجمهور المفسرين عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى فعسى الله أن يأتى بالفتح وقد فعل ذلك وقال أهل المعانى لفظة عسى هنا تفيد الطمع والاشفاق لأنه أبعد من الاتكال والإهمال وقيل إن الله سبحانه وتعالى لايجب عليه شيء بل كل مايفعله على سبيل التفضل والتطول والإحسان فذكر لفظة عسى التى هى للترجى والطمع حتى يكون العبد بين الترجى والاشفاق ولكن هو إلى نيل مارجوه منه أقرب لأنه ختم الآية بقوله (إن الله غفور رحيم) وهذا يفيد إنجاز الوعد قوله سبحانه وتعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) قال ابن عباس لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحباه فأتوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا خذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا فقال رسول الله صلى الله عايه وسلم لاآخذ شيئا منها حتى أومر به فأنزل الله عز وجل خذ من أموالهم صدقة الآية وهذا قول زيد بن أسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ثم اختلف العلماء فى المراد بهذه الصدقة فقال بعضهم هو راجع إلى هؤلاء الذين تابوا وذلك أنهم بذلوا أموالهم صدقة فأوجب الله سبحانه وتعالى أخذها وصار ذلك معتبرا فى كمال توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة وأصحاب هذا القول يقولون ليس المراد بها الصدقة الواجبة وقال بعضهم إن الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو وحسن إسلامهم وبذلوا الزكاة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذها منهم وقال بعضهم إن الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذها من الأغنياء ودفعها إلى الفقراء وهذا قول أكثر

الفقهاء واستدلوا بها على إيجاب أخذ الزكاة . أما حجة أصحاب القول الأول فانهم قالوا إن الآيات لابد وأن تكون منتظمة متناسبة فلو حملناها على أخذ الزكاة الواجبة لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها ولأن جمهور المفسرين ذكروا فى سبب نزولها أنها نزلت فى شأن التائبين وأما أصحاب القول الأخير فانهم قالوا المناسبة حاصلة أيضا على هذا التقدير وذلك أنهم لما تابوا وأخلصوا وأقروا أن السبب الموجب للتخلف هو حب المال أمروا باخراج الزكاة التى هى طهرة فلما أخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم ولايمنع من خصوص السبب عموم الحكم فان قالوا إن الزكاة قدر معلوم لايبلغ ثلث المال وقد أخذ منهم ثلث أموالهم قلنا لايمنع هذا صحة ماقلناه لأنهم رضوا ببذل الثلث من أموالهم فلأن يكونوا راضين باخراج الزكاة أولى ثم فى هذه الآية أحكام : الأول قوله سبحانه وتعالى خذ من أموالهم صدقة الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم أى خذ يامحمد من أموالهم صدقة فكان النبى صلى الله عليه وسلم يأخذها منهم أيام حياته ثم أخذها من بعده الأئمة فيجوز للإمام أو نائبه أن يأخذ الزكاة من الأغنياء ويدفعها إلى الفقراء . الحكم الثانى قوله من أموالهم ولفظة من تقتضى التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولامقدر بنص القرآن فلم يبق إلا الصدقة التى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها وصفتها فى أخذ الزكاة . الحكم الثالث ظاهر قوله خذ من أموالهم صدقة يفيد العموم فتجب الزكاة فى جميع المال حتى فى الديون وفى مال الركاز . الحكم الرابع ظاهر قوله تطهرهم أن الزكاة إنما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لايمكن حصولها إلا من البالغ دون الصبى فوجب أن تجب الزكاة فى مال البالغ دون الصبى وهذا قول أبى حنيفة ثم أجاب أصحاب الشافعى بأنه لايلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقا . وللعلماء فى قوله سبحانه وتعالى تطهرهم أقوال : الأول أن معناه خذ يامحمد من أموالهم صدقة فانك تطهرهم بأخذها من دنس الآثام . القول الثانى أن يكون تطهرهم متعلقا بالصدقة تقديره خذ من أموالهم صدقة فانها طهرة لهم وإنما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء أن الصدقة من أوساخ الناس فاذا أخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الأوساخ وكان ذلك الاندفاع جاريا مجرى التطهير فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم بها منقطعا عن قوله تطهرهم ويكون التقدير خذ يامحمد من أموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم أنت بها . القول الثالث أن تجعل التاء فى قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب ويكون المعنى تطهرهم أنت يامحمد بأخذها منهم وتزكيهم أنت بواسطة تلك الصدقة . القول الرابع أن معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعنى ترفع منازلهم عن منازل المنافقين إلى منازل الأبرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم أى تنمى أموالهم ببركة أخذها منهم الحكم الخامس قوله سبحانه وتعالى (وصل عليهم) يعنى ادع لهم واستغفر لهم لأن أصل الصلاة فى اللغة الدعاء قال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق فيقول آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت وقال بعضهم يجب على الإمام أن يدعو للمتصدق وقال بعضهم يستحب ذلك وقيل يجب فى صدقة الفرض ويستحب فى صدقة التطوع وقيل يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطى وقال بعضهم يستحب أن يقول اللهم صل على فلان ويدل عليه ماروى عن عبد الله بن أبى أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم

من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين ، وقيل تنمى أموالهم (وصل عليهم) أى ادع لهم واستغفر لهم وقيل هو قول الساعى للمتصدق إذا أخذ الصدقة منه آجرك الله فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أبقيت والصلاة فى اللغة الدعاء

(إن صلاتك) قرأ حمزة والكسائى صلاتك على التوحيد ونصب التاء هاهنا وفى سورة هود أصلاتك وفى سورة المؤمنين « على صلاتهم » كلهن على التوحيد وافقهما حفص هاهنا وفى سورة هود وقرأ الآخرون بالجمع فيهن وكسر التاء هاهنا وفى سورة المؤمنين ولا خلاف فى التى فى الأنعام «وهم على صلاتهم يحافظون» ولا التى فى المعارج «وهم على صلاتهم يحافظون» أنهما جميعا على التوحيد (سكن لهم) أى إن دعاءك رحمة لهم قاله ابن عباس وقيل طمأنينة لهم وسكون لهم أن الله عز وجل قد قبل منهم وقال أبو عبيدة تثبيت لقلوبهم (والله سميع عليم) واختلفوا فى وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة قال بعضهم يجب وقال بعضهم يستحب وقال بعضهم يجب فى صدقة الفرض ويستحب فى صدقة التطوع وقيل يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطى أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسمعيل ثنا آدم ابن أبى إياس ثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت عبد الله بن أبى أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال كان النبى ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال اللهم صل عليهم فأتاه أبى بصدقته فقال اللهم صل على آل أبى أوفى وقال ابن كيسان ليس هذا فى صدقة الفرض إنما هو لصدقة كفارة اليمين وقال عكرمة هى صدقة الفرض فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم وذلك أن النبى ﷺ لما رجع إلى المدينة نهى المؤمنين عن مكالمة المنافقين ومجالستهم فأنزل الله تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) أى يقبلها (وأن الله هو التواب الرحيم) أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب

بصدقة قال اللهم صل عليهم فأتاه أبى بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبى أوفى » أخرجاه فى الصحيحين . وقوله سبحانه وتعالى (إن صلاتك) وقرىء صلواتك على الجمع (سكن لهم) يعنى إن دعاءك رحمة لهم وقال ابن عباس طمأنينة لهم وقيل إن الله قد قبل منهم وقال أبو عبيدة تثبيت لقلوبهم وقيل إن السكن ما سكنت إليه النفس والمعنى إن صلواتك توجب سكون نفوسهم إليها والمعنى أن الله قد قبل توبتهم أو قبل زكاتهم (والله سميع) يعنى لأقوالهم أو لدعائك لهم (عليم) يعنى بنياتهم (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) هذه صيغة استفهام إلا أن المقصود منه التقرير فبشر الله عز وجل هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم هؤلاء الذين تابوا أن الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة وقيل إن المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيبا لهم فى التوبة وبذل الصدقات وذلك أنه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما بالهم اليوم فأنزل الله هذه الآية ترغيبا لهم فى التوبة وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل لا فرق بين عن عباده ومن عباده إذ لا فرق بين قولك أخذت هذا العلم عنك أو منك وقيل بينهما فرق ولعل عن فى هذا الموضع أبلغ لأن فيه تبشيراً بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها وقوله سبحانه وتعالى (ويأخذ الصدقات) يعنى يقبلها ويثيب عليها وإنما ذكر لفظ الأخذ ترغيبا فى بذل الصدقة وإعطائها الفقراء وقيل معنى أخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها . ولما كان هو المجازى عليها والمثيب بها أسند الأخذ إلى نفسه وإن كان الفقير أو السائل هو الآخذ لها وفى هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله تعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله » لفظ مسلم وفى البخارى «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب» وفى رواية «ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل »وأخرجه الترمذى ولفظه« إن الله سبحانه وتعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم فلوه حتى اللقمة لتصير مثل جبل أحد» وتصديق ذلك فى كتاب الله سبحانه وتعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويربى الصدقات وقوله من كسب طيب أى حلال وذكر اليمين والكف فى الحديث كناية عن قبول الصدقة وأن الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطى لأن من عادة الفقير أو السائل أخذ الصدقة بكفه اليمين فكأن المتصدق قد وضع صدقته فى القبول والإثابة وقوله فتربو أى تكبر يقال ربا الشىء يربو إذا زاد وكبر والفلو بضم الفاء وفتحها لغتان المهر أول ما يولد والفصيل ولد الناقة إلى أن ينفصل عنها . وقوله سبحانه وتعالى (وأن الله هو التواب الرحيم) تأكيد لقوله

انا عبد العزيز بن احمد الخلال ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان انبانا الشافعي ازانا شفيان بن عيينة عن ابن عجلان عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول « والذى نفسى بيده مامن عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب ولايقبل الله إلا طيبا ولا يصعد إلى السماء إلا طيب إلا كأنما يضعها فى يد الرحمن عزوجل فيربيها له كما يربى أحدكم فلوه حتى إن اللقمة لتأتى يوم القيامة وإنها لمثل الجبل العظيم ثم قرأ: إن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات» قوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) قال مجاهد هذا (١٤٦) وعيد لهم قيل رؤية النبى ﷺ باعلام الله تعالى إياه ورؤية المؤمنين بايقاع المحبة فى قلوبهم لأهل الصلاح والبغضة لأهل الفساد. قوله تعالى (وآخرون مرجون لأمر الله إمايعذبهم وإمايتوب عليهم والله عليم حكيم) قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبى بكر مرجون بغير همز والآخرون بالهمز والإرجاء التأخير، مرجون مؤخرون لأمر الله لحكم الله عز وجل فيهم وهم الثلاثة الذين تأتى قصتهم من بعد كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن الربيع لم يبالغوا فى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم حتى شقهم القلق وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وكانوا من أهل بدر فجعل أناس يقولون هلكوا وآخرون يقولون عسى الله أن يغفر لهم فصاروا مرجئين لأمر الله لايدرون أيعذبهم أم يرحمهم حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة قوله تعالى (والذين اتخذوا) قرأ أهل المدينة والشام الذين بلا واو وكذلك هو فى مصاحفهم وقرأ الآخرون بالواو (مسجدا ضرارا) نزلت هذه الآية فى جماعة من المنافقين بنوا مسجدا يضارون به مسجد قباء وكانوا اثنى عشر رجلا من أهل النفاق وديعة بن ثابت وخذام بن خالد ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب وحارثة بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الأزعر ونبتل بن الحارث وبجاد بن عثمان ورجل يقال له بحذج بنوا هذا المسجد ضرارا يعنى مضارة للمؤمنين (وكفرا) بالله ورسوله

سبحانه وتعالى « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده » وتبشير لهم بأن الله هو التواب الرحيم. قوله عز وجل (وقل) أى قل يامحمد لهؤلاء التائبين (اعملوا) يعنى لله بطاعته وأداء فرائضه (فسيرى الله عملكم) فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا فى العمل فى المستقبل فان الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها (ورسوله والمؤمنون) يعنى ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون أعمالكم أيضا. أما رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله إياه على أعمالكم وأما رؤية المؤمنين فبما يقذف الله عز وجل فى قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المذنبين (وستردون إلى عالم الغيب والشهادة) يعنى وسترجعون يوم القيامة إلى من يعلم سركم وعلانيتكم ولايخفى عليه شىء من بواطنكم وظواهركم (فينبئكم) أى فيخبركم (بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا من خير أو شر فيجازيكم على أعمالكم. قوله سبحانه وتعالى (وآخرون مرجون) أى مؤخرون والإرجاء التأخير (لأمر الله) يعنى لحكم الله فيهم قال بعضهم إن الله سبحانه وتعالى قسم المتخلفين على ثلاثة أقسام: أولهم المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه. والقسم الثانى التائبون وهم الذين سارعوا إلى التوبة بعد مااعترفوا بذنوبهم وهم أبو لبابة وأصحابه فقبل الله توبتهم. والقسم الثالث موقوفون ومؤخرون إلى أن يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله وآخرون مرجون لأمر الله والفرق بين القسم الثانى والقسم الثالث أن القسم الثانى سارعوا إلى التوبة فتقبل الله توبتهم والقسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا إلى التوبة فأخر الله أمرهم نزلت هذه الآية فى الثلاثة الذين تخلفوا وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وستأتى قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك أنهم لم يبالغوا فى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من أهل بدر فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول عسى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) يعنى أن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء عذبهم بسبب تخلفهم وإن شاء غفر لهم وعفا عنهم (والله عليم) يعنى بما فى قلوبهم (حكيم) يعنى بما يقضى عليهم. قوله سبحانه وتعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) نزلت فى جماعة من المنافقين بنوا مسجدا يضارون به مسجد قباء وكانوا اثنى عشر رجلا من أهل النفاق وديعة بن ثابت

(وتفريقا بين المؤمنين) لأنهم كانوا جميعا يصلون فى مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم فيؤدى ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلى بهم مجمع بن حارثة فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا وتصلى بنا فيه وتدعو لنا بالبركة فقال لهم رسول الله ﷺ إنى على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه (وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل) أى انتظارا (١٤٧) وإعدادا لمن حارب الله ورسوله يقال أرصدت له إذا أعددت له وهو أبو عامر الراهب وكان أبو عامر هذا رجلا منهم وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان قد ترهب فى الجاهلية وتنصر ولبس المسوح فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر ماهذا الذى جئت به؟ قال جئت بالحنيفية دين إبراهيم قال أبو عامر فأنا عليها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم إنك لست عليها قال بلى ولكنك أدخلت فى الحنيفية ماليس منها فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمين وسماه أبا عامر الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم لاأجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم « فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هاربا إلى الشام فأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح وابنوا لى مسجدا فانى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء فلذلك قوله تعالى « وإرصادا لمن حارب الله ورسوله » من قبل وهو أبو عامر الفاسق ليصلى فيه إذا رجع من الشام. قوله من قبل يرجع إلى أبى عامر يعنى حارب الله ورسوله من قبل أى من قبل بناء مسجد الضرار (وليحلفن إن أردنا) ماأردنا ببنائه (إلا الحسنى) إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز

وخذام بن خالد ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الأزعر وبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان ويحزج بنوا هذا المسجد ضرارا يعنى مضارة للمؤمنين وكفرا يعنى ليكفروا فيه بالله ورسوله (وتفريقا بين المؤمنين) لأنهم كانوا جميعا يصلون فى مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم فيؤدى ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلى بهم فيه مجمع بن جارية وكان شابا يقرأ القرآن ولم يدر ما أرادوا ببنائه فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يارسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا وتصلى فيه وتدعو لنا بالبركة فقال رسول الله ﷺ إنى على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا فيه. وقوله سبحانه وتعالى (وإرصادا لمن حارب الله ورسوله) يعنى أنهم بنوا هذا المسجد للضرار والكفر وبنوه إرصادا يعنى انتظارا وإعدادا لمن حارب الله ورسوله (من قبل) يعنى من قبل بناء هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة وكان أبو عامر قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر ماهذا الدين الذى جئت به فقال له النبى صلى الله عليه وسلم جئت بالحنيفية دين إبراهيم فقال أبو عامر فأنا عليها فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنك لست عليها قال أبو عامر بلى ولكنك أدخلت فى الحنيفية ماليس منها فقال النبى صلى الله عليه وسلم مافعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمين وسماه الناس أبا عامر الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر الفاسق للنبى صلى الله عليه وسلم لاأجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس أبو عامر وخرج هاربا إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا مااستطعتم من قوة وسلاح وابنوا لى مسجدا فانى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء فذلك قوله سبحانه وتعالى وإرصادا يعنى انتظارا لمن حارب الله ورسوله يعنى أبا عامر الفاسق ليصلى فيه إذا رجع من الشام من قبل يعنى أن أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار (وليحلفن) يعنى الذين بنوا المسجد (إن أردنا) يعنى ماأردنا ببنائه (إلا الحسنى) يعنى إلا الفعلة الحسنى وهى الرفق بالمسلمين والتوسعة

عن السير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله يشهد إنهم لكاذبون) فى قولهم وحلفهم روى أنه لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ونزل بذى أوان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبر مسجد الضرار وهموا به فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ابن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشى قاتل حمزة وقال لهم انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا سريعا حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك أنظرونى حتى أخرج إليكم بنار من أهلى فدخل أهله فأخذ سعافا من النخل وأشعل فيه نارا ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر النبى ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيه الجيف والنتن والقمامة ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيدا فريدا غريبا . وروى أن (١٤٨) بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمع ابن حارثة فيؤمهم فى مسجدهم فقال لا ولا نعمة عين أليس بإمام مسجد الضرار فقال له مجمع يا أمير المؤمنين لا تعجل على فوالله لقد صليت فيه وإنى لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه كنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرءون القرآن فصليت ولا أحب إلا أنهم يتقربون إلى الله تعالى ولم أعلم ما فى أنفسهم فعذره عمر وصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء وقال عطاء لما فتح الله على عمر الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم أن لا يبنوا فى مدينتهم مسجدين أسس يضار أحدهما صاحبه . قوله تعالى (لا تقم فيه أبدا) قال ابن عباس لا تصل فيه منع الله تعالى نبيه ﷺ أن يصلى فى مسجد الضرار (لمسجد أسس على التقوى) اللام لام الابتداء وقيل لام القسم تقديره والله لمسجد أسس أى بنى أصله على التقوى (من أول يوم) أى من أول يوم بنى ووضع أساسه (أحق أن تقوم فيه) مصليا واختلفوا فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى هو مسجد المدينة مسجدا لرسول الله ﷺ والدليل عليه ما أخبرنا إسماعيل ابن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن حاتم ثنا يحيى بن سعيد عن حميد الخراط قال سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال مر بى عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى قال فقلت له كيف سمعت أباك يذكر فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال قال أبى دخلت على رسول الله ﷺ فى بيت بعض نسائه فقلت

على أهل الضعف والعجز عن الصلاة فى مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم (والله يشهد إنهم لكاذبون) يعنى فى قيلهم وحلفهم روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما انصرف من تبوك راجعا نزل بذى أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه أن يأتى مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية وأخبره خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك أنظرونى حتى أخرج إليكم بنار فدخل أهله فأخذ من سعف النخل فأشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فأحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة . مات أبو عامر الراهب بالشام غريبا وحيدا وروى أن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب فى خلافته فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمهم فى مسجدهم فقال لا ولا نعمة عين أليس هو إمام مسجد الضرار قال مجمع يا أمير المؤمنين لا تعجل على فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرءون فصليت بهم ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ولو أعلم ما فى أنفسهم فعذره عمر فصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء قال عطاء لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم أن لا يبنوا فى موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر وقوله سبحانه وتعالى (لا تقم فيه أبدا) قال ابن عباس معناه لا تصل فيه أبدا منع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلى فى مسجد الضرار (لمسجد أسس على التقوى) اللام فيه لام الابتداء وقيل لام القسم تقديره والله مسجد أسس يعنى بنى أصله ووضع أساسه على التقوى يعنى على تقوى الله عز وجل (من أول يوم) يعنى من أول يوم بنى ووضع أساسه كان ذلك البناء على التقوى (أحق أن تقوم فيه) يعنى مصليا واختلفوا فى المسجد الذى

أسس على التقوى فقال عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى مسجد المدينة ويدل عليه ماروى عن أبى سعيد الخدرى قال «دخلت على رسول الله ﷺ فى بيت بعض نسائه فقلت يارسول الله أى المسجدين أسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصى فضرب به الأرض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة» أخرجه مسلم (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى» (ق) عن عبد الله بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة» عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال «إن قوائم منبرى هذا رواتب فى الجنة» أخرجه النسائى قوله رواتب يعنى ثوابت يقال رتب بالمكان إذا قام فيه وثبت وفى رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أنه مسجد قباء ويدل عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى «فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» ويدل على أنهم أهل قباء ماروى عن أبى هريرة قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث غريب هكذا ذكره صاحب جامع الأصول من رواية أبى داود والترمذى موقوفا على أبى هريرة ورواه البغوى من طريق أبى داود مرفوعا عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ومما يدل على فضل مسجد قباء ماروى عن ابن عمر قال «كان النبى صلى الله عليه وسلم يزور قباء أو يأتى قباء راكبا وماشيا» زاد فى رواية فيصلى فيه ركعتين وفى رواية «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى مسجد قباء كل سبت راكبا وماشيا وكان ابن عمر يفعله» أخرج الرواية الأولى والزيادة البخارى ومسلم وأخرج الرواية الثانية البخارى عن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من خرج حتى يأتى هذا المسجد مسجد قباء فيصلى فيه كان له كعدل عمرة» أخرجه النسائى عن أسد بن ظهير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الصلاة فى مسجد قباء كعمرة» أخرجه الترمذى. وقوله سبحانه وتعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) يعنى من الأحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول أكثر المفسرين قال عطاء ولما كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة وروى الطبرى بسنده عن عويمر بن ساعدة وكان من أهل بدر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء «إنى أسمع الله عز وجل قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فما هذا الطهور» قالوا يارسول الله ما نعمل شيئا إلا أن جيرانا لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وعن قتادة قال ذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء «إن الله سبحانه وتعالى قد أحسن عليكم بالثناء فى الطهور فما تصنعون قالوا إنا نغسل عنا أثر الغائط والبول» وقال الإمام فخر الدين الرازى

يارسول الله أى المسجدين الذى أسس على التقوى قال فأخذ كفا من الحصباء فضرب به الأرض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة » قال فقلت أشهد أنى سمعت أباك هكذا يذكره وأخبرنا أبو الحسن الشيرازى أنبأنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمى أنبأنا أبو مصعب عن مالك عن حبيب بن عبدالرحمن عن حفص ابن عاصم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى » وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء وهو رواية عطية عن ابن عباس وهو قول عروة ابن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل ثنا عبد العزيز ابن مسلم عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى مسجد قباء كل سبت ماشيا وراكبا وكان عبد الله بن عمر يفعله وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصلى فيه ركعتين قوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) من الأحداث والجنابات والنجاسات وقال عطاء كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز الفاشانى أنبأنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمى أنبأنا أبو على محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤى حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى أنا محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبى ميمونة عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه

وسلم قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء «فيه رجال يحبون أن يتطهروا» قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية (والله يحب المطهرين) أى المتطهرين (أفمن أسس بنيانه) قرأ نافع وابن عامر أسس بضم الهمزة وكسر السين بنيانه برفع النون فيهما جميعا على غير تسمية الفاعل وقرأ

الآخرون أسس بفتح الهمزة والسين بنيانه بنصب النون على تسمية الفاعل (على تقوى من الله ورضوان خير) أى على طلب التقوى ورضا الله تعالى خير (أم من أسس بنيانه على شفا) أى على شفير (جرف) قرأ أبو عمرو وحمزة وأبوبكر جرف ساكنة الراء وقرأ الباقون بضم الراء وهما لغتان وهى البئر التى لم تطو قال أبو عبيدة هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فيتجرف بالماء فيبقى واهيا (هار) أى هائر وهو الساقط يقال هار يهور فهو هائر ثم يقلب فيقال هار مثل شائك وشاك وعاق وعائق وقيل هو من هار يهار إذا انهدم ومعناه الساقط الذى يتداعى بعضه فى أثر بعض كما ينهار الرمل والشىء الرخو (فانهار به) أى سقط بالبانى (فى نار جهنم) يريد بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم تتور بأهلها فيها قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد صيرهم النفاق إلى النار (والله لا يهدى القوم الظالمين) قال قتادة السدى والله ما تناهى أن وقع فى النار وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيه فرؤى الدخان يخرج منها وقال جابر بن عبد الله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة) أى شكا ونفاقا (فى قلوبهم) يحسبون أنهم كانوا فى بنائه محسنين كما

المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب والمعاصى وهذا القول متعين لوجوه: الأول أن التطهر من الذنوب هو المؤثر فى القرب من الله عز وجل واستحقاق ثوابه ومدحه. الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والتفريق بينهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعنى أهل قباء بالضد من صفاتهم وما ذاك إلا لكونهم مبرئين من الكفر والمعاصى وهى الطهارة الباطنية. الوجه الثالث أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر عند الله إذا حصلت الطهارة الباطنية من الكفر والمعاصى وقيل يحتمل أنه محمول على كلا الأمرين يعنى طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصى وطهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء (والله يحب المطهرين) فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضا عنهم بما اختاروه لأنفسهم من المداومة على محبة الطهارة. قوله سبحانه وتعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان) يعنى طلب ببنائه المسجد الذى بناه تقوى الله ورضاه والمعنى أن البانى لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثوابه (خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) الشفا هو الشفير وشفا كل شىء حرفه ومنه يقال أشفى على كذا إذا دنا منه وقرب أن يقع فيه والجرف المكان الذى أكل الماء تحته فهو إلى السقوط قريب وقال أبو عبيد الجرف هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فينحفر بالماء فيبقى واهيا هار أى هائر وهو الساقط فهو من هار يهور فهو هائر وقيل هو من هار يهار إذا تهدم وسقط وهو الذى تداعى بعضه فى أثر بعض كما يهار الرمل والشىء الرخو (فانهار به) يعنى سقط بالبانى (فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين) والمعنى أن بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهله فيها وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى المثل أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلها بقاء وثباتا وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل بناء على غير أساس ثابت وهو شفا جرف هار وإذا كان كذلك كان أسرع إلى السقوط فى نار جهنم ولأن البانى الأول قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه أشرف البناء والبانى الثانى قصد ببنائه الكفر والنفاق وإضرار المسلمين فكان بناؤه أخس البناء وكانت عاقبته إلى نار جهنم قال ابن عباس صيرهم نفاقهم إلى النار وقال قتادة والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع فى النار ولقد ذكر لنا أنه حفرت بقعة منه فرؤى الدخان يخرج منها وقال جابر بن عبد الله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة) يعنى شكا ونفاقا (فى قلوبهم) والمعنى أن ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة فى قلوبهم لأن المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازدادوا غما وحزنا وبغضا لرسول الله ﷺ فكان ذلك سبب الريبة فى قلوبهم وقيل إنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون فى بنائه كما حبب العجل إلى بنى إسرائيل فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه بقوا شاكين مرتابين لأى سبب أمر بتخريبه وقال

حب العجل إلى قوم موسى قاله ابن عباس رضى الله عنهما وقال الكلبى حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه وقال السدى لا يزال هدم بنيانهم ريبة حزازة وغيظا فى قلوبهم (إلا أن تقطع قلوبهم) أى تتصدع قلوبهم فيموتوا قرأ ابن عامر وأبو جعفر وحفص وحمزة تقطع بفتح التاء أى تتقطع فحذفت إحدى التاءين تخفيفا وقرأ الآخرون تقطع بضم التاء من التقطيع وقرأ يعقوب وحده إلى أن بتخفيف اللام على الغاية وقرأ الباقون إلا أن بتشديد اللام على الاستثناء ويدل على قراءة يعقوب تفسير الضحاك وقتادة لا يزالون فى شك منه وندامة إلى أن يموتوا فحينئذ

يستيقنوا (والله عليم حكيم) قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) قال محمد بن كعب القرظى «لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال أشترط لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم» (بأن لهم الجنة) وقرأ الأعمش بالجنة (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) قرأ حمزة والكسائى فيقتلون بضم الياء وفتح التاء ويقتلون بفتح الياء وضم التاء على تقديم فعل المفعول على فعل الفاعل يعنى يقتل بعضهم ويقتل الباقون وقرأ الباقون فيقتلون بفتح الياء وضم التاء ويقتلون بضم الياء وفتح التاء على تقديم فعل الفاعل على فعل المفعول والوجه أنهم يقتلون الكفار أولا ثم يستشهدون وهذا الوجه أظهر والقراءة به أكثر (وعدا عليه حقا) أى ثواب الجنة لهم وعد حق (فى التوراة والإنجيل والقرآن) يعنى إن الله عز وجل وعدهم هذا الوعد وبينه فى هذه الكتب وفيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنة ثم هنأهم فقال (ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا) فافرحوا (ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) قال عمر رضى الله عنه : إن الله عز وجل بايعك وجعل

السدى لا يزال هدم بنيانهم ريبة أى حرارة وغيظا فى قلوبهم (إلا أن تقطع قلوبهم) أى تجعل قلوبهم قطعا وتفرق أجزاء إما بالسيف وإما بالموت والمعنى أن هذه الريبة باقية فى قلوبهم إلى أن يموتوا عليها (والله عليم) يعنى بأحوالهم وأحوال جميع عباده (حكيم) يعنى فيما حكم به عليهم . قوله عز وجل (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية قال محمد بن كعب القرظى لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا إذا فعلنا ذلك فما لنا قال الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» قال ابن عباس بالجنة قال أهل المعانى لا يجوز أن يشترى الله شيئا هو له فى الحقيقة لأن المشترى إنما يشترى مالا يملك والأشياء كلها ملك الله عز وجل ولهذا قال الحسن أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها لكن جرى هذا مجرى التلطف فى الدعاء إلى الطاعة والجهاد وذلك لأن المؤمن إذا قاتل فى سبيل الله حتى يقتل أو أنفق ماله فى سبيل الله عوضه الله الجنة فى الآخرة جزاء لما فعل فى الدنيا فجعل ذلك استبدالا واشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والمراد باشتراء الأموال إنفاقها فى سبيل الله وفى جميع وجوه البر والطاعة (يقاتلون فى سبيل الله) هذا تفسير لتلك المبايعة وقيل فيه معنى الأمر أى قاتلوا فى سبيل الله (فيقتلون ويقتلون) يعنى فيقتلون أعداء الله ويقتلون فى طاعته وسبيله (وعدا عليه حقا) يعنى ذلك الوعد بأن لهم الجنة وعدا على الله حقا (فى التوراة والإنجيل والقرآن) يعنى أن هذا الوعد الذى وعده الله تعالى للمجاهدين فى سبيله قد أثبته فى التوراة والإنجيل كما أثبته فى القرآن وفيه دليل على أن الأمر بالجهاد موجود فى جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل (ومن أوفى بعهده من الله) يعنى لا أحد أوفى بالعهد من الله (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع الذى بايعتم الله به (وذلك) يعنى هذا البيع (هو الفوز العظيم) لأنه رابح فى الآخرة قال عمر بن الخطاب إن الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه قال إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فأغلى لهم . قوله سبحانه وتعالى

الصفقتين لك. وقال قتادة ثامنهم الله عز وجل فأغلى لهم. وقال الحسن اسعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه انه قال إن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها ثم وصفهم فقال (التائبون) قال الفراء استؤنفت بالرفع لتمام الآية وانقطاع الكلام ، وقال الزجاج التائبون رفع بالابتداء

وخبره مضمر المعنى التائبون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا أى من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد لأن بعض المسلمين يجزئ عن بعض فى الجهاد فمن كانت هذه صفته فله الجنة أيضا وهذا حسن فكأنه وعد الجنة لجميع المؤمنين كما قال وكلا وعد الله الحسنى فمن جعله تابعا للأول فلهم الوعد بالجنة أيضا وإن كان الوعد بالجنة للمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات . قوله التائبون أى الذين تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق (العابدون) المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عز وجل (الحامدون) الذين يحمدون الله على كل حال فى السراء والضراء ، وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء» (السائحون) قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما هم الصائمون وقال سفيان بن عيينة إنما سمى الصائم سائحا لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح

(التائبون) قال الفراء استؤنف لفظ التائبون بالرفع لتمام الآية الأولى وانقطاع الكلام . وقال الزجاج التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر والمعنى التائبون إلى آخره لهم الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين بترك الجهاد وهذا وجه حسن فكأنه وعد بالجنة جميع المؤمنين كما قال تعالى وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعا للأول كان الوعد بالجنة خاصا بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات فيكون رفع التائبون على المدح يعنى المؤمنين المذكورين فى قوله إن الله اشترى وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعنى الذين تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق وقيل التائبون من كل معصية فيدخل فيه التوبة من الكفر والنفاق وقيل التائبون من جميع المعاصى لأن لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل واعلم أن التوبة المقبولة إنما تحصل بأمور أربعة أولها إحتراق القلب عند صدور المعصية وثانيها الندم على فعلها فيما مضى وثالثها العزم على تركها فى المستقبل ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فان كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح الناس له ودفع مذمتهم فليس بمخلص فى توبته (العابدون) يعنى المطيعين لله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين أتوا بالعبادة على أقصى وجوه التعظيم لله تعالى وهى أن تكون العبادة خالصة لله تعالى (الحامدون) يعنى الذين يحمدون الله تعالى على كل حال فى السراء والضراء روى البغوى بغير سند عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء وقيل هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى (السائحون) قال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال سفيان بن عيينة إنما سمى الصائم سائحا لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح وقال الأزهرى قيل للصائم سائح لأن الذى يسيح فى الأرض متعبدا لا زاد معه فكان ممسكا عن الأكل وكذلك الصائم ممسك عن الأكل وقيل أصل السياحة استمرار الذهاب فى الأرض كالماء الذى يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهى وقال عطاء السائحون هم الغزاة المجاهدون فى سبيل الله ويدل عليه ماروى عن عثمان بن مظعون قال قلت يارسول الله ائذن لى فى السياحة فقال إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله ذكره البغوى بغير سند وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم لأنهم ينتقلون من بلد إلى بلد فى طلبه وقيل إن السياحة لها أثر عظيم فى تهذيب النفس وتحسين أخلاقها لأن السائح لابد أن يلقى أنواعا من الضر والبؤس ولا بد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين فى سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وآثار قدرة الله تعالى فيتفكر فى ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته (الراكعون الساجدون) يعنى المصلين وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلى من غير المصلى بخلاف حالة القيام والقعود لأنهما حالة المصلى وغيره (الآمرون بالمعروف) يعنى يأمرون الناس بالإيمان بالله وحده (والناهون عن المنكر) يعنى عن الشرك بالله وقيل إنهم يأمرون الناس بالحق فى أديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل

وقال عطاء السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله وروى عن عثمان بن مظعون رضى الله عنه أنه قال : يارسول الله ائذن لى فى السياحة فقال «إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله» وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم (الراكعون الساجدون) يعنى المصلين (الآمرون بالمعروف) بالإيمان (والناهون عن المنكر) عن الشرك وقيل المعروف السنة والمنكر البدعة

(والحافظون لحدود الله) القائمون بأوامر الله وقال الحسن أهل الوفاء ببيعة الله (وبشر المؤمنين ما كان

والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه أو نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحسن أما أنهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه وأما دخول الواو في والناهون عن المنكر فان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه وتعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى في صفة الجنة وفتحت أبوابها وقيل فيه وجه آخر وهو أن الموصوفين بهذه الصفات الست هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون إلى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعني هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر (والحافظون لحدود الله) قال ابن عباس يعني القائمين بطاعة الله وقال الحسن الحافظون لفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله وقيل هم المؤدون فرائض الله المنتهون إلى أمره ونهيه فلا يضيعون شيئا من العمل الذي ألزمهم به ولا يرتكبون منهيا نهاهم عنه (وبشر المؤمنين) يعني بشر يامحمد المصدقين بما وعدهم الله به إذا وفوا الله تعالى بعهده فانه موف لهم بما وعدهم من إدخال الجنة وقيل وبشر من فعل هذه الأفعال التسع وهو قوله تعالى التائبون إلى آخر الآية بأن له الجنة وإن لم يغز . قوله عز وجل (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) الآية واختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت في شأن أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم والدعلى وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ماروى عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن «قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لاإله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبوجهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لاإله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك مالم أنه عنك فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى وأنزل الله في أبي طالب « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » أخرجاه في الصحيحين . فان قلت قد استبعد بعض العلماء نزول هذه الآية في شأن أبي طالب وذلك أن وفاته كانت بمكة أول الإسلام ونزول هذه السورة بالمدينة وهي من آخر القرآن نزولا . «قلت الذي نزل في أبي طالب قوله تعالى إنك لاتهدى من أحببت فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك مالم أنه عنك » كما في الحديث فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر له في بعض الأوقات إلى أن نزلت هذه الآية فمنع من الاستغفار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه عند الموت« قل لاإله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة فأبى فأنزل الله إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء» الآية وفي رواية قال« لولا تعيرني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله الآية» (ق) «عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمه أبو طالب فقال « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلي منه أم دماغه» وفي رواية «يغلي منه دماغه من حرارة نعليه» (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه

للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) اختلفوا في سبب نزول هذه الآية قال قوم سبب نزولها ما أخبرنا عبدالواحد ابن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهري حدثني سعيد ابن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدالله ابن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لاإله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك مالم أنه عنك فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين (ولو كانوا أولى قربى

مِن بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) وأنزل فى أبى طالب « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا (١٥٤) عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثنى محمد بن حاتم بن ميمون ثنا يحيى بن سعيد ثنا يزيد بن كيسان حدثنى أبو حازم الأشجعى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه أبى طالب « قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة فقال لولا أن تعيرنى قريش فيقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك . فأنزل الله عزوجل إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن يوسف حدثنى الليث عن يزيد بن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمه أبو طالب فقال « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه » وقال أبو هريرة وبريدة « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها » فنزلت ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا

وسلم » قال قلت يارسول الله ماأغنيت عن عمك فانه كان يحوطك ويغضب لك قال « هو فى ضحضاح من نار ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » وفى رواية قال قلت يارسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال « نعم وجدته فى غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح » وقال أبو هريرة وبريدة « لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية وروى الطبرى بسنده عن بريدة « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رسم قال وأكثر ظنى أنه قال قبر أمه فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبرا فقلنا يارسول الله إنا رأينا ماصنعت قال إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يؤذن لى فما رؤى باكيا أكثر من يومئذ » وحكى ابن الجوزى « عن بريدة قال إن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبر أمه فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف إليهم فقالوا ماأبكاك قال مررت بقبر أمى فصليت ركعتين ثم استأذنت ربى أن أستغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربى أن أستغفر لها فزجرت زجرا فأبكانى ثم دعا براحلته فركبها فما سار إلا هنيهة حتى قامت الناقة لثقل الوحى فنزلت ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » الآية (ق) « عن أبى هريرة قال زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فانها تذكركم الموت » وقال قتادة قال النبى صلى الله عليه وسلم « لأستغفرن لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه » فأنزل الله هذه الآية وروى الطبرى بسنده عنه قال « ذكر لنا أن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يانبى الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العانى ويوفى بالذمم أفلا نستغفر لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلى والله لأستغفرن لأبى كما أستغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله عز وجل ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية ثم عذر الله إبراهيم فقال تعالى وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه الآية عن على بن أبى طالب قال سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية أخرجه النسائى والترمذى وقال حديث حسن وأخرجه الطبرى وقال فيه فأنزل الله عز وجل وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه الآية ومعنى الآية ما كان ينبغى للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لايغفر للمشركين ولا يجوز أن يطلب منه مالايفعله ففيه النهى عن الإستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى لأن النهى عن الإستغفار للمشركين عام فيستوى فيه القريب والبعيد ثم ذكر عز وجل سبب المنع فقال تعالى (من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) يعنى تبين لهم أنهم ماتوا على الشرك فهم من أصحاب الجحيم وأيضا فقد قال تبارك

وتعالى

للمشركين» الآية أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودى ، ثنا إبراهيم بن محمد ابن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبى شيبة أنبأنا محمد بن عبيد عن يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربى عز وجل فى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكر الموت» . قال قتادة قال النبى ﷺ «لأستغفرن لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله تعالى هذه الآية ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لما أنزل الله عز وجل خبرا عن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه سلام عليك سأستغفر لك ربى سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت له تستغفر لهما وهما مشركان

فقال أولم يستغفر إبراهيم لأبيه فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم إلى قوله إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك» قوله تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) قال بعضهم الهاء فى إياه عائدة إلى إبراهيم عليه السلام والوعد كان من أبيه وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم فقال له إبراهيم سأستغفر لك ربى يعنى إذا أسلمت وقال بعضهم الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه وهو قوله سأستغفر لك ربى يدل عليه قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة والدليل على أن الوعد من إبراهيم وكان الاستغفار فى حال شرك الأب قوله تعالى «قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم» إلى أن قال «إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك» فصرح أن إبراهيم ليس بقدوة فى هذا الإستغفار وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم (فلما تبين له أنه عدو لله) لموته على الكفر (تبرأ منه) وقيل فلما تبين له فى الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه أى يتبرأ منه وذلك ما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنى أخى عبد الحميد عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصينى فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم عليه السلام يارب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد فيقول الله انى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال لإبراهيم ماتحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار وفى رواية

وتعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به والله تعالى لا يخلف وعده أما قوله سبحانه وتعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) فمعناه وما كان طلب إبراهيم لأبيه المغفرة من الله إلا من أجل موعدة وعدها إبراهيم إياه أن يستغفر له رجاء إسلامه قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه «لما أنزل الله خبرا عن إبراهيم أنه قال سلام عليك سأستغفر لك ربى سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال أولم يستغفر إبراهيم لأبيه فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم إلى قوله إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك» يعنى أن إبراهيم ليس بقدوة فى هذا الإستغفار لأنه إنما أستغفر لأبيه وهو مشرك لمكان الوعد الذى وعده أن يسلم (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) فعلى هذا الهاء فى إياه راجعة إلى إبراهيم والوعد كان من أبيه وذلك أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم أن يسلم فقال إبراهيم سأستغفر لك ربى يعنى إذا أسلمت وقيل إن الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه ويؤكد هذا قوله سأستغفر لك ربى ويدل عليه أيضا قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه يعنى فلما ظهر لإبراهيم وبان له أن أباه عدو لله يعنى بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى إبراهيم أن أباه عدو له فتبرأ منه وقيل لما تبين له فى الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه ويدل على ذلك ماروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول إبراهيم ألم أقل لك لا تعصنى فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يارب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى فيقول الله تبارك وتعالى إنى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ماتحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار أخرجه البخارى زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بذال معجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والأنثى ذيخة . وقوله تبارك

فيتبرأ منه يومئذ قوله تعالى (إن إبراهيم لأواه حليم) اختلفوا فى معنى الأواه جاء فى الحديث ان الاواه الخاشع المتضرع وقال عبدالله بن مسعود الأواه الدعاء وعن ابن عباس قال هو المؤمن التواب وقال الحسن وقتادة الأواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد الأواه الموقن وقال عكرمة هو المستيقن بلغة الحبشة وقال كعب الأحبار هو الذي يكثر التأوه وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول آه من النار قيل أن لا ينفع آه وقيل هو الذى يتأوه من الذنوب وقال عقبة بن عامر الأواه الكثير الذكر لله تعالى وعن سعيد بن جبير قال الأواه المسبح وروى عنه الأواه المعلم للخير وقال النخعى هو الفقيه وقال عطاء هو الراجع عن كل مايكره الله وقال أيضا هو الخائف من النار وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقا وفرقا المتضرع يقينا يريد أن يكون تضرعه على يقين بالإجابة ولزوم الطاعة قال الزجاج قد انتظم فى قول أبى عبيدة أكثر ماقيل فى الأواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء والفعل منه أوه وتأوه الحليم الصفوح عمن سبه أو ناله بالمكروه كما قال لأبيه عند وعيده وقوله لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا سلام عليك سأستغفر لك ربى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال الحليم السيد قوله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) معناه ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بترك الأوامر وباستغفاركم للمشركين (حتى يبين لهم ما يتقون) يريد حتى يتقدم إليكم بالنهى فاذا بين ولم تأخذوا به فعند ذلك تستحقون الضلال قال مجاهد بيان الله للمؤمنين فى ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم فى معصيته وطاعته عامة فافعلوا وذروا وقال الضحاك ما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون وقال مقاتل والكلبى هذا فى المنسوخ وذلك أن قوما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا ولم تكن الخمر حراما ولا القبلة مصروفة إلى الكعبة فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت

وتعالى (إن إبراهيم لأواه حليم) جاء فى الحديث إن الأواه الخاشع المتضرع وقال ابن مسعود الأواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس رضى الله عنهما هو المؤمن التواب وقال الحسن وقتادة الأواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد الأواه الموقن وقال كعب الأحبار هو الذى يكثر التأوه وكان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لا ينفع أوه وقال عقبة بن عامر الأواه الكثير الذكر لله عز وجل وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه أنه المعلم للخير وقال عطاء هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقا وفرقا المتضرع إيقانا ولزوما للطاعة وقال الزجاج انتظم فى قول أبى عبيدة جميع ماقيل فى الأواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء والفعل منه أوه هو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه والسبب فيه أن عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشتد حرها فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق فى القلب ليخف بعض مابه من الحزن والشدة وأما الحليم فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه أو أتاه بمكروه ثم يقابله بالإحسان واللطف كما فعل إبراهيم بأبيه حين قال لئن لم تنته لأرجمنك فأجابه إبراهيم بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي وقال ابن عباس الحليم السيد وإنما وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف والوجل والشفقة على عباد الله ليبين سبحانه وتعالى أنه مع هذه الصفات الجميلة الحميدة تبرأ من أبيه لما ظهر له إصراره على الكفر فاقتدوا به أنتم فى هذه الحالة أيضا . وقوله سبحانه وتعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) يعنى وما كان الله ليقضى عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله) وذلك أنه لما منع المؤمنين من الإستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم قبل المنع خافوا ماصدر منهم فأعلمهم أن ذلك ليس بضائرهم (حتى يبين لهم مايتقون) يعنى مايأتون وما يذرون وهو أن يقدم إليهم النهى عن ذلك الفعل فأما قبل النهى فلا حرج عليهم فى فعله وقيل أن جماعة من المسلمين كانوا قد ماتوا قبل النهى عن الاستغفار للمشركين فلما منعوا من ذلك وقع فى قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك فأنزل الله عز وجل هذه الآية وبين أنه لا يؤاخذهم بعمل إلا بعد أن يبين لهم مايجب عليهم أن يتقوه ويتركوه وقال مجاهد بيان الله للمؤمنين فى ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم فى معصيته وطاعته عامة وقال الضحاك وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم مايأتون وما يذرون وقال مقاتل والكلبى هذا فى أمر المنسوخ وذلك أن قوما قدموا على للنبى صلى الله عليه وسلم وأسلموا قبل تحريم الخمر وصرف القبلة إلى الكعبة

الكعبة ورجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة إلى الكعبة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك إلى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت إلى الكعبة فقالوا يارسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن على ضلال فأنزل الله عز وجل «وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم» يعني وما كان الله ليبطل عمل قوم وقد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ (إن الله بكل شيء عليم) يعني أنه سبحانه وتعالى عليم بما خالط نفوسكم من الخوف عندما نهاكم عن الاستغفار للمشركين ويعلم مايبين لكم من أوامره ونواهيه (إن الله له ملك السموات والأرض) يعني أنه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء (يحيي ويميت) يعني أنه تعالى يحيي من يشاء على الإيمان ويميته عليه ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه لااعتراض لأحد عليه فى حكمه وعبيده (ومالكم من دون الله من ولي ولانصير) يعني أنه تعالى هو وليكم وناصركم ليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم . قوله عز وجل (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) الآية تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار ومعنى توبته على النبي صلى الله عليه وسلم عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف فى غزوة تبوك وهي كقوله سبحانه وتعالى «عفا الله عنك لم أذنت لهم» فهو من باب ترك الأفضل لا أنه ذنب يوجب عقابا وقال أصحاب المعاني هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فأن لله خمسه ومعنى هذا أن ذكر النبي بالتوبة عليه تشريف للمهاجرين والأنصار فى ضم توبتهم إلى توبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله فى قوله فأن لله خمسه وللرسول فهو تشريف له وأما معنى توبة الله على المهاجرين والأنصار فلأجل ماوقع فى قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك لأنها كانت فى وقت شديد وربما وقع فى قلوب بعضهم أنا لانقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ماوقع فى قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية وقيل إن الإنسان لايخلو من زلات وتبعات فى مدة عمره إما من باب الصغائر وإما من باب ترك الأفضل ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التي حصلت لهم فى ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لأجل ماتحملوه من الشدائد العظيمة فى تلك الغزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ضم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذكرهم تنبيها على عظم مراتبهم فى الدين وأنهم قد بلغوا إلى الرتبة التي لأجلها ضم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذكرهم (الذين اتبعوه) فى تلك الغزوة من المهاجرين والأنصار وقد ذكر بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم سار إلى تبوك فى سبعين ألفا مابين راكب وماش من المهاجرين والأنصار وغيرهم من سائر القبائل (فى ساعة العسرة) يعني فى وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش الذي سار فيه يسمى جيش العسرة لأنه كان عليهم عسرة فى الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلا التمرات اليسيرة

والقبلة قد صرفت فقالوا يارسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن ضلال فأنزل الله تعالى «وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم» يعني ما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين لهم الناسخ (إن الله بكل شيء عليم) ثم عظم نفسه فقال (إن الله له ملك السموات والأرض) يحكم بما يشاء (يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولي ولانصير) قوله عز وجل (لقد تاب الله على النبي) الآية تاب الله أي تجاوز وصفح ومعنى توبته على النبي صلى الله عليه وسلم بإذنه للمنافقين بالتخلف عنه وقيل افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم فذكره معهم كقوله تعالى فأن لله خمسه وللرسول ونحوه (والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أي فى وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش يسمى جيش العسرة والعسرة الشدة وكانت عليهم عسرة فى الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب

عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع رسول الله ﷺ على صدقهم ويقينهم وقال عمر بن الخطاب خرجنا مع النبى ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع وحتى أن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده فقال أبو بكر الصديق يارسول الله إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع الله قال تحب ذلك قال نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملئوا مامعهم من القرب ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (من بعد ما كاد يزيغ) قرأ حمزة وحفص يزيغ بالياء لقوله كاد ولم يقل كادت وقرأ الآخرون بالتاء والزيغ الميل أى من بعد كادت تميل (قلوب فريق منهم) أى قلوب بعضهم ولم يرد الميل عن الدين بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف الشدة التى عليهم قال الكلبى هم ناس بالتخلف ثم لحقوه (ثم تاب عليهم) فان قيل كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال فى أول الآية لقد تاب الله على النبى قيل ذكر التوبة فى أول الآية قبل ذكر الذنب وهو محض الفضل من الله عز وجل فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة والمراد منه قبولها (إنه بهم رءوف رحيم) قال ابن عباس من تاب الله عليه لم يعذبه أبدا قوله عز وجل (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى خلفوا من غزوة تبوك ابن وقيل خلفوا أى أرجىء أمرهم عن توبة أبى لبابة وأصحابه وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية كلهم من الأنصار أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك

بينهم فاذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يخرجها من فيه ويعطيها صاحبه ثم يشرب عليها جرعة من الماء ويفعل صاحبه كذلك حتى تأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع النبى صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم وقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده وحتى أن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع فقال أبوبكر الصديق يارسول الله إن الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرا فادع الله قال أتحب ذلك قال نعم فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعا حتى أرسل الله سحابة فمطرت فملئوا مامعهم من الأوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر أسنده الطبرى عن عمر . قوله تعالى (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) يعنى من بعد ما قارب أن تميل قلوب بعضهم عن الحق من أجل المشقة والشدة التى نالتهم والزيغ فى اللغة الميل وقيل هم بعضهم أن يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلك الشدة التى نالتهم لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما خطر فى قلوبهم فلأجل ذلك قال تعالى (ثم تاب عليهم) يعنى أنه سبحانه وتعالى علم إخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الأنابة والتوبة . فان قلت قد ذكر التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار . قلت إنه سبحانه وتعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا أنه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم أتبعه بقوله (إنه بهم رءوف رحيم) تأكيدا لذلك ومعنى الرءوف فى صفة الله تعالى أنه الرفيق بعباده لأنه لم يحملهم مالا يطيقون من العبادات وبين الرءوف والرحيم فرق لطيف وإن تقاربا فى المعنى قال الخطابى قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة . قوله سبحانه وتعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) هذا معطوف على ماقبله تقديره لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون مرجون لأمر الله وفى معنى خلفوا قولان أحدهما أنهم خلفوا عن توبة أبى لبابة وأصحابه وذلك أنهم لم يخضعوا كما خضع أبو لبابة وأصحابه فتاب الله على أبى لبابة وأصحابه وأخر أمر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب عليهم بعد ذلك والقول الثانى أنهم تخلفوا عن غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وأما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه فقد روى عن ابن شهاب الزهرى قال أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله

وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن غزوة تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك غير أنى كنت تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب أن

لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك إنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة والله ما اجتمعت عندى قبل ذلك راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيداً ومفاوز وعدوا كثيراً فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له مالم ينزل فيه وحى من الله وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا وأقول فى نفسى أنا قادر عليه إذا أردت فلم يزل يتمادى بى الأمر حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت فلم يقدر لى ذلك

ابن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال وكان أعلم قومه وأوعاهم لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب بن مالك بن عبد الله بن مالك بن كعب يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حتى تخلفت عنه فى تلك الغزوة والله ماجمعت قبلها راحلتين قط حين جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عدوا كثيرا فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذى يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا فأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتنى فعلت ثم لم يقدر لى ذلك فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق أو رجلا مما عذر الله من الضعفاء ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك ما فعل كعب بن مالك فقال رجل من بنى سلمة يارسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه فقال له معاذ بن جبل بئس ماقلت والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما هو كذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك

فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب بن مالك فقال رجل من بني سلمة يارسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فاذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب بن مالك فلما بلغني أنه توجه قافلا من تبوك حضرني همي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل أن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه بشيء أبدا فيه كذب فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ماخلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك فقلت بلى يارسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان

بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدا فأجمعت صدقه، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لي تعالى فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال ماخلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يارسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله وفي رواية عفو الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ماعلمناك أذنبت ذنبا قبل هذا لقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك قال فو الله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي هذا أحد معي قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ماقلت وقيل لهما مثل ماقيل لك قلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله مارد علي السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله قال فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام

لى من عذر والله ما كنت اقوى قط ولا أيسر منى حين تخلفت عنك فقال رسول الله ﷺ أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك فقمت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت فى أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع وأكذب نفسى ثم قلت لهم هل لقى هذا معى أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى فذكروا إلى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة حسنة فمضيت حين ذكروهما لى قال ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت له يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله

يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فقرأته فاذا فيه أما بعد فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى وإذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها قال وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك قال فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر قال فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن هلال ابن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربنك فقالت إنه والله ما به حركة إلى شىء ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدرينى ما يقول لى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب قال فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله عز وجل عنا قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء فرج قال وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبى مبشرون وركض رجل إلى فرسا وسعى ساع من أسلم قبلى وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئونى بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى والله ما قام إلا رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله فقال لا بل من عند الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك منه

اعلم ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان فقرأته فاذا فيه أما بعد فانه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك فقلت لما قرأته وهذا أيضا من البلاء فتيممت به التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول لرسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل فقال لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك فقلت لامرأتى الحقى بأهلك وكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه والله ما به حركة إلى شىء والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال كعب فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدرينى ما يقول لى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله فينا قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر فخررت لله ساجدا وعرفت أنه قد جاء فرج وآذن رسول الله

قال فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فانى أمسك سهمى الذى بخيبر قال وقلت يارسول الله إن الله إنما أنجانى بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت قال فوالله ما علمت أن أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلانى الله والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى قال فأنزل الله عز وجل لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة حتى بلغ أنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا إن الله عز وجل قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال الله سبحانه وتعالى سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه فبذلك قال الله عز وجل وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس الذى ذكر مما خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه وفى رواية ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كلامى وكلام صاحبى ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال على الأمر فما من شىء أهم إلى من أن أموت فلا يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمنى أحد منهم ولا يصلى على ولا يسلم على قال وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقى الثلث الأخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى معتنية بأمرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك قالت أفلا أرسل إليه فأبشره قال إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا أخرجه البخارى ومسلم .

(شرح غريب هذا الحديث)

قوله حين تواثقنا على الإسلام التواثق تفاعل من الميثاق وهو العهد والراحلة الجمل أو الناقة

صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إلى فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذى سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئونني بالتوبة ويقولون لي ليهنك توبة الله عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ماقام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال لا بل من عند الله وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله قال رسول الله صلي الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فاني أمسك سهمي الذي بخيبر قال فقلت يارسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلي الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني والله ماتعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلي الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله لقد تاب الله علي النبي والمهاجرين والأنصار إلى قوله وكونوا مع الصادقين وروي إسحاق

الناقة القوية على الحمل والسفر وقوله ورى بغيرها يقال ورى عن الشيء إذا أخفاه وأظهر غيره والمفازة البرية القفراء سميت بذلك تفاؤلا بالفوز والنجاة منها قوله فجلا هو بالتخفيف يعني كشف لهم مقصدهم وأظهره لهم والأهبة الجهاز وما يحتاج إليه المسافر قوله فأنا إليها أصعر هو بالعين المهملة أى أميل والصعر الميل قوله وتفارط الغزو أى تباعد مابيني وبين الجيش من المسافة وطفق مثل جعل والمغموص المعيب المشار إليه بالعيب يقال فلان ينظر فى عطفيه إذا كان معجبا بنفسه ويقال زال به السراب يزول إذا ظهر شخص الإنسان خيالا فيه من بعد والسراب هو مايظهر للإنسان فى البرية فى وقت الهاجرة كأنه ماء والمبيض بكسر الياء لابس البياض قوله كن أباخيثمة معناه أنت أبوخيثمة وقيل معناه اللهم اجعله أبا خيثمة أى لتوجد ياهذا الشخص أبا خيثمة حقيقة قوله الذى لمزه المنافقون يعنى عابوه واحتقروه والقافل الراجع من سفره إلى وطنه قوله حضرني بثي البث أشد الحزن كأنه لشدته يظهر قوله زاح عني الباطل أى زال وذهب عني وأجمعت صدقه أى عزمت عليه لقد أعطيت جدلا أى فصاحة وقوة فى الكلام بحيث أخرج عن عهدة ما أردت بما أشاء من الكلام والمغضب بفتح الضاد هو الغضبان قوله فما زالوا يؤنبونني أى يلومونني أشد اللوم قوله حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى الأرض التى أعرف معناه تغير على كل شيء من الأرض وتوحشت على وصارت كأنها أرض لا أعرفها وقوله فأما صاحباى فاستكانا يعنى خضعا وسكنا قوله تسورت حائط أبى قتادة أى علوته وصعدت سوره وهو أعلاه والأنباط الفلاحون والزراعون وهم من العجم والروم والمضيعة مفعلة من الضياع والأطراح وقوله فتيممت بها التنور فسجرته بها أى فقصدت بالصحيفة التى أرسل بها ملك غسان فأحرقتها فى التنور وسلع جبل بالمدينة معروف وقوله وانطلقت أتأمم يعنى أقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم والفوج الجماعة من الناس يقال برق وجهه إذا لمع وظهر عليه أمارات الفرح والسرور قوله أنخلع من مالى أى أخرج منه جميعه وأتصدق به كما يخلع الإنسان قميصه قوله ماعلمت أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث أحسن مما أبلانى البلاء والابتلاء يكون فى الخير وفى الشر وإذا أطلق كان فى الشر غالبا فإذا أريد به الخير قيد به كما قيد هنا بقوله أحسن مما أبلانى أى أنعم على قوله أن لا أكون كذبته هذا هو فى جميع روايات الحديث بزيادة لفظ لا قال بعض العلماء لفظة لا زائدة ومعناه أن أكون كذبته وقوله فأهلك هو بكسر اللام وإرجاؤه أمرنا تأخيره وقوله فى الرواية الأخرى يحطمكم الناس أى يطئوكم ويزدحمون عليكم وأصل الوطء الكسر وقوله سائر الليل يعنى باقى الليل وقوله وآذن بتوبة الله علينا أى أعلم والأذان الإعلام

ابن راشد عن الزهري بهذا الاسناد عن كعب قال نهى رسول الله صلي الله عليه وسلم عن كلامي وكلام صاحبي فلبثت كذلك حتى طال علي الأمر وما من شيء أهم إلي من أن أموت ولا يصلي علي رسول الله صلي الله عليه وسلم أو يموت رسول الله صلي الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي وأنزل الله توبتنا علي نبيه صلي الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليل (١٦٤) ورسول الله صلي الله عليه وسلم عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة في شأني معينة في أمري فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم يا أم سلمة تيب علي كعب قالت أفلا أرسل اليه فأبشره قال إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة حتى إذا صلي رسول الله صلي الله عليه وسلم صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا قوله تعالى وعلي الثلاثة الذين خلفوا (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) اتسعت (وضاقت عليهم أنفسهم) غماوهما (وظنوا) أي تيقنوا (أن لا ملجأ من الله) لامفزع من الله (إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا) أي ليستقيموا على التوبة فان توبتهم قد سبقت (إن الله هو التواب الرحيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال نافع مع محمد وأصحابه وقال سعيد بن جبير مع أبي بكر وعمر رضى الله عنهم وقال ابن جريج مع المهاجرين لقوله تعالى للفقراء المهاجرين إلى قوله أولئك هم الصادقون وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك باخلاص نية وقيل مع الذين صدقوا فى الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة وكان ابن مسعود يقرأ وكونوا مع الصادقين وقال ابن مسعود إن الكذب لا يصلح فى جد ولا هزل ولأن يعد أحدكم صبيه شيئا ثم لا ينجز له اقرءوا إن شئتم هذه الآية قوله تعالى (ما كان لأهل المدينة) ظاهره خبر ومعناه نهى كقوله تعالى (ون

والله أعلم. قوله عز وجل (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) يعني بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى أنه ضاق عليهم المكان بعد أن كان واسعا (وضاقت عليهم أنفسهم) يعني من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس إياهم وترك كلامهم (وظنوا) يعني وأيقنوا وعلموا (أن لا ملجأ) يعني لامفزع ولا مفر (من الله إلا إليه) ولا عاصم من عذابه إلا هو (ثم تاب عليهم) فيه إضمار وحذف تقديره وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فرحمهم ثم تاب عليهم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لأنه قد ذكر توبتهم فى قوله تعالى «وعلى الثلاثة الذين خلفوا» كما تقدم بيانه وأنه عطف على قوله «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار» أى وتاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار أى وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا. وقوله تعالى (ليتوبوا) معناه أن الله سبحانه وتعالى تاب عليهم فى الماضى ليكون ذلك داعيا لهم إلى التوبة فى المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل إن أصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا إلى حالتهم الأولى يعنى إلى عادتهم فى الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك (إن الله هو التواب) يعنى على عباده (الرحيم) بهم وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والفضل والإحسان وأنه لا يجب على الله تعالى شيء. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) يعنى فى مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم (وكونوا مع الصادقين) يعنى مع من صدق النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا فى البيوت وتركوا الغزو وقال سعيد بن جبير مع الصادقين يعنى مع أبى بكر وعمر وقال ابن جريج مع المهاجرين وقال ابن عباس مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك باخلاص نية وقيل كونوا مع الذين صدقوا فى الاعتراف بالذنب وهم يعتذرون بالأعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لأن الصدق يهدى إلى الجنة والكذب إلى الفجور كما ورد فى الحديث وقال ابن مسعود الكذب لا يصلح فى جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيئا ثم لا ينجزه اقرأوا إن شئتم وكونوا مع الصادقين وروى أن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الأنصار فى يوم السقيفة وذلك أن الأنصار قالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر يامعشر الأنصار إن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه للفقراء المهاجرين إلى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الأنصار أنتم هم فقال أبو بكر إن الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين قوله سبحانه وتعالى (ما كان لأهل المدينة) يعنى لساكنى المدينة من المهاجرين والأنصار

«وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله» (ومن حولهم من الاعراب) سكان البوادى مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار (ان يتخلفوا عن رسول الله) إذا غزا (ولا يرغبوا) أى ولا أن يرغبوا (بأنفسهم عن نفسه) فى مصاحبته ومعاونته والجهاد معه وقال الحسن لا يرغبوا بأنفسهم عن أن يصيبهم من الشدائد فيختار الخفض والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشقة السفر ومقاساة التعب (ذلك بأنهم لا يصيبهم) فى سفرهم (ظمأ) عطش (ولا نصب) تعب (ولا مخمصة) مجاعة (فى سبيل الله ولا يطئون موطئا) أرضا (يغيظ الكفار) وطؤهم إياه (ولا ينالون من عدو نيلا) أى لا يصيبون من عدوهم قتلا أو أسرا أو غنيمة أو هزيمة (إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا على ابن عبد الله حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا يزيد بن أبى مريم حدثنا عباية بن رفاعة قال أدركنى أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمهما الله على النار» واختلفوا فى حكم هذه الآية قال قتادة هذه خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المسلمين أن يتخلف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة ، وقال الوليد بن مسلم سمعت الأوزاعى وابن المبارك وابن جابر وسعيد بن عبد العزيز يقولون فى هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها وقال ابن زيد هذا حين كان أهل الإسلام قليلا فلما كثروا نسخها الله تعالى وأباح التخلف لمن يشاء فقال وما كان المؤمنون لينفروا كافة قوله تعالى (ولا ينفقون نفقة) أى فى سبيل الله (صغيرة

(ومن حولهم من الأعراب) يعنى سكان البوادى من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وقيل هو عام فى كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى (أن يتخلفوا عن رسول الله) يعنى إذا غزا وهذا ظاهر خبر ومعناه النهى أى ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يرغبوا) يعنى ولا أن يرغبوا (بأنفسهم عن نفسه) يعنى ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرضاه لنفسه ولا يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه فى حال الشدة والمشقة وقال الحسن لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشقة السفر ومقاساة التعب (ذلك بأنهم لا يصيبهم) فى سفرهم وغزواتهم (ظمأ) أى عطش (ولا نصب) أى تعب (ولا مخمصة) يعنى مجاعة شديدة (فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار) يعنى ولا يضعون قدما على الأرض يكون ذلك القدم سببا لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم (ولا ينالون من عدو نيلا) يعنى أسرا أو قتلا أو هزيمة أو غنيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيرا (إلا كتب لهم به عمل صالح) يعنى إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) يعنى أن الله سبحانه وتعالى لا يدع محسنا من خلقه قد أحسن فى عمله وأطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه وعمله الصالح وفى الآية دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله ومن قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيئات إلا أن يغفرها الله بفضله وكرمه واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف عنه إذا لم يكن للمسلمين إليه ضرورة وقال الوليد بن مسلم سمعت الأوزاعى وابن المبارك وابن جابر وسعيدا يقولون فى هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ وقال ابن زيد هذا حين كان أهل الإسلام قليلا فلما كثروا نسخها الله عز وجل وأباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدى عن عطية أنه قال وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم وأمرهم وقال هذا هو الصحيح لأنه لا تتعين الطاعة والإجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إذا أمر وكذا غيره من الأئمة والولاة قالوا إذا ندبوا أو عينوا لأنا لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد والله أعلم . وقوله عز وجل (ولا ينفقون) يعنى فى سبيل الله (نفقة صغيرة

ولا كبيرة) ولو علاقة سوط (ولا يقطعون واديا) لايجاوزون واديافى مسيرهم مقبلين أو مدبرين (إلا كتب لهم) يعنى آثارهم وخطاهم (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا (١٦٦) يعملون) روى عن خزيم بن فاتك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أنفق نفقة فى سبيل الله كتبت له سبعمائة ضعف» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى حدثنا إبراهيم بن محمد ابن سفيان حدثنا مسلم ابن الحجاج حدثنا إسحاق ابن إبراهيم الحنظلى أنا جرير عن الأعمش عن أبى عمرو الشيبانى عن أبى مسعود الأنصارى قال «جاء رجل بناقة مخطومة فقال هذه فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف حدثنا محمد ابن إسماعيل حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا الحسين حدثنى يحيى بن أبى كثير حدثنى أبو سلمة حدثنى بسر بن سعيد حدثنى زيد ابن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا فى سبيل الله فى أهله بخير فقد غزا» قوله عز وجل (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) قال ابن عباس فى رواية الكلبى لما أنزل الله عز وجل عيوب المنافقين فى غزوة تبوك كان النبى صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا: فكان المسلمون ينفرون

ولا كبيرة) يعنى تمرة فمادونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط (ولا يقطعون واديا) يعنى ولا يجاوزون فى مسيرهم واديا مقبلين أو مدبرين فيه (إلا كتب لهم يعنى كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم (ليجزيهم الله) يعنى يجازيهم (أحسن ما كانوا يعملون) قال الواحدى معناه بأحسن ما كانوا يعملون وقال الإمام فخر الدين الرازى فيه وجهان الأول أن الأحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح والثانى أن الأحسن صفة للجزاء أى يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب وفى الآية دليل على فضل الجهاد وأنه من أحسن أعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها وفى رواية وما فيها (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادا فى سبيلى وإيمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئة يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فأقتل فى سبيل الله ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل» لفظ مسلم وللبخارى بمعناه (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى الناس أفضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله» وفى رواية «يتقى الله ويدع الناس من شره» (خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة» يعنى حسنات (خ) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما أغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار» (م) عن أبى مسعود الأنصارى البدرى قال «جاء رجل بناقة مخطومة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة» عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف أخرجه الترمذى والنسائى . قوله سبحانه وتعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية قال عكرمة لما نزلت هذه الآية ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين هلك من تخلف فنزلت هذه الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال ابن عباس أنها ليست فى الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول

جميعا إلى الغزو ويتركون النبي صلى الله عليه وسلم وحده فأنزل الله عز وجل هذه الآية وهذا نفي بمعنى النهي قوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) أى فهلا خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعة ويبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة (ليتفقهوا فى الدين) يعنى فرقة القاعدين يتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام فاذا رجعت السرايا أخبروهم بما أنزل بعدهم فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم وتبعث سرايا أخر فذلك قوله (ولينذروا قومهم) وليعلموهم بالقرآن ويخوفوهم به (إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أن يجهلوا فلا يعملون بخلافه وقال الحسن هذا التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة ومعناه هلا نفر فرقة ليتفقهوا أى ليتبصروا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين ولينذروا قومهم من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لعلهم يحذرون أن يعادوا النبي صلى الله عليه وسلم فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار وقال الكلبي لها وجه آخر وهو أن أحياء بنى أسد وخزيمة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذرارى حتى نزلوا المدينة فأفسدوا طرقها بالعذرات وأغلوا أسعارها فنزل قوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة أى لم يكن لهم أن ينفروا كافة ولكن من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا فى الدين وقال مجاهد نزلت فى ناس خرجوا فى البوادى ابتغاء الخير من أهلها فأصابوا منهم معروفا ودعوا من وجدوا

رسول الله ﷺ وأجهدوهم فأنزل الله عز وجل الآية يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم إذا رجعوا إليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى «ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم» وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال «كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فى دينهم ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا عما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم فيأمرهم نبى الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا إذا أتوا قومهم نادوا أن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بما يحتاجون إليه من أمر الدين وأن ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الإسلام وينذروهم ويبشروهم بالجنة وقال مجاهد إن ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البوادى فأصابوا من الناس معروفا ومن الخطب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم تحرجا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله عز وجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبتغون الخير وقعد طائفة (ليتفقهوا فى الدين) ليسمعوا ما أنزل الله (ولينذروا قومهم) من الناس (إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) وقال ابن عباس ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعنى عصبة يعنى السرايا ولا يسيرون إلا باذنه فاذا رجعت السرايا وقد نزل فى بعضهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم من بعدكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم وتبعث سرايا أخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا فى الدين يقول ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون نقل هذه الأقوال كلها الطبرى وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال إنها من بقية أحكام الجهاد ويمكن أن يقال إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الأول فقد قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج للغزو ولم يتخلف عنه إلا منافق أو صاحب عذر فلما بالغ الله فى الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم فى تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شىء من الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث السرايا نفر المسلمون جميعا إلى الغزو وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى ما كان ينبغى للمؤمنين ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم إلى الجهاد ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يجب أن ينقسموا إلى قسمين فطائفة يكونون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطائفة ينفرون إلى الجهاد لأن ذلك الوقت كانت الحاجة داعية إلى انقسام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قسمين قسم للجهاد وقسم

من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم مانرا كم إلا وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم من ذلك حرجا وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية أى هلا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليفقهوا فى الدين وليستمعوا ما أنزل بعدهم ولينذروا (١٦٨) قومهم يعنى الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الله لعلهم يحذرون ، بأس الله ونقمته وقعدت طائفة يبتغون الخير أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن الطيسفونى حدثنا عبد الله بن عمر الجوهرى حدثنا أحمد ابن على الكشميهنى حدثنا على بن حجر حدثنا إسماعيل بن جعفر حدثنا عبد الله بن أبى سعيد بن أبى هند عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين أخبرنا عبد الوهاب ابن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال حدثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » والفقه هو معرفة أحكام الدين وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين مثل علم الطهارة والصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفته . قال النبى ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على كل واحد يجب عليه معرفتها ومعرفة علمها مثل علم الزكاة إن كان له

لتعلم العلم والتفقه فى الدين لأن الأحكام والشرائع كانت تتجدد شيئا بعد شىء فالملازمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظون ما نزل من الأحكام وما تجدد من الشرائع فاذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا يعنى فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم الذين نفروا إلى الجهاد إذا رجعوا إليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعنى مخالفة أمر الله وأمر رسوله وهذا معنى قول قتادة وقيل أن التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ومعنى ذلك أن الفرقة النافرة إذا شاهدوا نصر الله لهم على أعدائهم وأن الله يريد إعلاء دينه وتقوية نبيه صلى الله عليه وسلم وأن الفئة القليلة قد غلبت جمعا كثيرا فاذا رجعوا من ذلك النفير إلى قومهم من الكفار أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لهم لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق وأورد على هذا القول أن هذا النوع لا يعد تفقها فى الدين ويمكن أن يجاب عنه بأنهم إذا علموا أن الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة فى إيمانهم فيكون ذلك فقها فى الدين وأما الاحتمال الثانى وهو أن يقال إن هذه الآية كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد وهو ما ذكرناه عن مجاهد أن ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البوادى فأصابوا معروفا ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم مانرا كم إلا قد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم من ذلك حرجا فأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ويبلغوا ذلك إلى النافرين لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون يعنى بأس الله ونقمته إذا خالفوا أمره فى الآية دليل على أنه يجب أن يكون المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم فكل من تفقه وتعلم بهذا القصد كان المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم العلم لطلب الدنيا كان من الأخسرين أعمالا الآية (ق) عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله ولم يزل أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة وحتى يأتى أمر الله» (ق) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تجدون الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» أخرجه الترمذي وأصل الفقه فى اللغة الفهم يقال فقه الرجل إذا فهم وفقه فقاهة إذا صار فقيها وقيل الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم وفى الاصطلاح الفقه عبارة عن العلم بأحكام الشرائع وأحكام الدين وذلك ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين معرفة أحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة

ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ذكره البغوى بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة إذا صار له مال يجب فى مثله الزكاة وعلم أحكام الحج إذا وجب عليه . وأما فرض الكفاية من الفقه فهو أن يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا وإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعا وإذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث ، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» أخرجه الترمذى مع زيادة فيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة» أخرجه الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع» أخرجه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة» أخرجه أبو داود. الآية المحكمة هى التى لا اشتباه فيها ولا اختلاف فى حكمها أو ماليس بمنسوخ، والسنة القائمة هى المستمرة الدائمة التى العمل بها متصل لايترك، والفريضة العادلة هى التى لاجور فيها ولاحيف فى قضائها قال الفضيل بن عياض عالم عامل معلم يدعى عظيما فى ملكوت السموات وأخرجه الترمذى موقوفا وقال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة» قوله سبحانه وتعالى (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم فى الدار والنسب قال ابن عباس مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها وقال ابن عمر هم الروم لأنهم كانوا مكان الشأم والشأم أقرب إلى المدينة من العراق وقال بعضهم هم الديلم وقال ابن زيد كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فأمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد ونقل عن بعض العلماء أنه قال نزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت «وقاتلوا المشركين كافة» صارت ناسخة لقوله تعالى «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» وقال المحققون من العلماء لا وجه للنسخ لأنه سبحانه وتعالى لما أمرهم بقتال المشركين كافة أرشدهم إلى الطريق الأصوب الأصلح وهو أن يبدءوا بقتال الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم فى دفعة واحدة لايتصور ولهذا السبب قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا قومه ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم انتقل إلى قتال أهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل إلى غزو الروم فى الشأم فكان فتح الشأم فى زمن الصحابة ثم إنهم انتقلوا إلى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد . قوله سبحانه وتعالى (وليجدوا فيكم غلظة) يعنى شدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة وقال الحسن صبرا على جهادهم (واعلموا أن الله مع المتقين) يعنى بالعون والنصرة . قوله عز وجل (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) يعنى وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول يعنى يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه يعنى السورة إيمانا يعنى تصديقا ويقينا وإنما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين

مال وعلم الحج إن وجب عليه ، وأما فرض الكفاية هو أن يتعلم حتى يبلغ درجة الاجتهاد ورتبة الفتيا فاذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعا وإذا قام من كل بلد واحد بتعلمه سقط الفرض عن الآخرين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث روى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» قال الشافعى طلب العلم أفضل من صلاة النافلة وقوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) الآية أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم فى الدار والنسب قال ابن عباس رضى الله عنهما مثل بنى قريظة والنضير وخيبر ونحوها وقيل أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق (وليجدوا فيكم غلظة) شدة وحمية ، قال الحسن صبرا على جهادهم (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصرة. قوله تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) يقينا كان المنافقون يقولون

هذا استهزاء قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) يقيناً وتصديقاً (وهم يستبشرون) يفرحون بنزول القرآن (وأما الذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) أى كفراً إلى كفرهم فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها . قال مجاهد فى هذه الآية إشارة إلى أن الإيمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول تعالوا حتى نزداد إيمانا وقال على بن أبى طالب :

إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء فى القلب فكلما ازداد الإيمان عظما ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله وإن النفاق يبدو لمعة سوداء فى القلب فكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد حتى يسود القلب كله وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود (وماتوا وهم كافرون) قوله (أولا يرون) قرأ حمزة ويعقوب ترون بالتاء على خطاب النبى والمؤمنين ، وقرأ الآخرون بالياء خبرا عن المنافقين المذكورين (أنهم يفتنون) يبتلون (فى كل عام مرة أو مرتين) بالأمراض والشدائد ، وقال مجاهد بالقحط والشدة ، وقال قتادة بالغزو والجهاد ، وقال مقاتل بن حيان يفضحون بإظهار نفاقهم وقال عكرمة ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون ، وقال يمان ينقضون عهدهم فى السنة مرة أو مرتين (ثم لا يتوبون) من نقض العهد ولا يرجعون إلى الله من النفاق (ولا هم يذكرون) أى لا يتعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين (وإذا ما أنزلت سورة) فيها عيب المنافقين وتوبيخهم (نظر بعضهم إلى بعض) يريدون الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة (هل يراكم من أحد) أى أحد من المؤمنين إن قمتم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحدا يراهم أقاموا وثبتوا (ثم انصرفوا) عن الإيمان بها وقيل انصرفوا عن

فقال سبحانه وتعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) يعنى تصديقا ويقينا وقربة من الله ، ومعنى الزيادة ضم شىء إلى آخر من جنسه مما هو فى صفته فالمؤمنون إذا أقروا بنزول سورة القرآن عن ثقة واعترفوا أنها من عند الله عز وجل زادهم ذلك القرار والاعتراف إيمانا وقد تقدم بسط الكلام على زيادة الإيمان فى أول سورة الأنفال (وهم يستبشرون) يعنى أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيئا بعد شىء لأنهم كلما نزل ازدادوا إيمانا وذلك يوجب مزيد الثواب فى الآخرة كما تحصل الزيادة فى الإيمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة فى الكفر وهو قوله سبحانه (وأما الذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق سمى الشك فى الدين مرضا لأنه فساد فى القلب يحتاج إلى علاج كالمرض فى البدن إذا حصل يحتاج إلى العلاج (فزادتهم) يعنى السورة من القرآن (رجسا إلى رجسهم) يعنى كفرا إلى كفرهم وذلك أنهم كلما جحدوا نزول سورة أو استهزءوا بها ازدادوا كفرا مع كفرهم الأول وسمى الكفر رجسا لأنه أقبح الأشياء وأصل الرجس فى اللغة الشىء المستقذر (وماتوا) يعنى هؤلاء المنافقين (وهم كافرون) يعنى وهم جاحدون لما أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم . قال مجاهد فى هذه الآية الإيمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد إيمانا وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء فى القلب وكلما ازداد الإيمان عظما ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله وإن النفاق يبدو لمعة سوداء فى القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود . قوله سبحانه وتعالى (أولا يرون) قرئ ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرئ بالياء على أنه خبر عن المنافقين المذكورين فى قوله فى قلوبهم مرض (أنهم يفتنون) يعنى يبتلون (فى كل عام مرة أو مرتين) يعنى بالأمراض والشدائد وقيل بالقحط والجدب وقيل بالغزو والجهاد وقيل إنهم يفتضحون بإظهار نفاقهم وقيل إنهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل إنهم ينقضون عهدهم فى السنة مرة أو مرتين (ثم لا يتوبون) يعنى من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون إلى الله (ولا هم يذكرون) يعنى ولا يتعظون بما يرون من صدق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين (وإذا ما أنزلت سورة) يعنى فيها عيب المنافقين وتوبيخهم (نظر بعضهم إلى بعض) يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة (هل يراكم من أحد) يعنى هل أحد من المؤمنين يراكم إن قمتم من مجلسكم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحدا يراهم من المؤمنين أقاموا ولبثوا على تلك الحال (ثم انصرفوا) يعنى عن الإيمان بتلك

السورة

مواضعهم التى يسمعون فيها (صرف الله قلوبهم) عن الإيمان ، قال أبو إسحاق الزجاج أضلهم الله مجازاة على فعلهم ذلك (بأنهم قوم لايفقهون) عن الله، دينه قال ابن عباس رضى الله عنه لاتقولوا إذا صليتم انصرفنا من الصلاة فان قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم ولكن قولوا قد قضينا الصلاة . قوله تعالى (لقد جاءكم (١٧١) رسول من أنفسكم) تعرفون نسبه وحسبه . قال السدى من العرب من بنى إسماعيل ، قال ابن عباس ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية من زمان آدم عليه السلام . أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحى أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم أنا الثعلبى أنا عبد الله بن حامد حدثنا حامد بن محمد أنا على بن عبد العزيز حدثنا محمد ابن أبى نعيم حدثنا هشيم حدثنى المدنى يعنى أبامعشر عن أبى الحويرث عن ابن عباس رضى الله عنه‌ما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ماولدنى من سفاح أهل الجاهلية شىء ما ولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام» وقرأ ابن عباس والزهرى وابن محيصن من أنفسكم بفتح الفاء أى من أشرفكم وأفضلكم (عزيز عليه) شديد عليه (ماعنتم) قيل ماصلة أى عنتكم وهو دخول المشقة والمضرة عليكم ، وقال القتيبى ما أعنتكم وضركم وقال ابن عباس رضى الله عنهما ماضللتم ، وقال الضحاك والكلبى ما أثمتم (حريص عليكم) أى على إيمانكم وصلاحكم ، وقال قتادة حريص عليكم أى على ضالكم أن يهديه الله

السورة النازلة وقيل انصرفوا عن مواضعهم التى يسمعون فيها مايكرهون (صرف الله قلوبهم) يعنى عن الإيمان وقال الزجاج أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم (بأنهم قوم لايفقهون) يعنى لايفقهون عن الله دينه ولاشيئا فيه نفعهم . قوله سبحانه تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) هذا خطاب للعرب يعنى لقد جاءكم أيها العرب رسول من أنفسكم تعرفون نسبه وحسبه وأنه من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» هكذا ذكره الطبرى وذكر البغوى باسناد الثعلبى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ماولدنى من سفاح أهل الجاهلية شىء ماولدنى إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام» قال قتادة جعله الله من أنفسكم فلا يحسدونه على ماأعطاه الله من النبوة والكرامة قال بعض العلماء فى تفسير قول ابن عباس ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم يعنى من مضرها وربيعتها ويمانها فأما ربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان وإليه تنسب قريش وهو منهم وأما نسبه إلى عرب اليمن وهم القحاطنة فان آمنة لها نسب فى الأنصار وإن كانت من قريش والأنصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبأ فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» ترغيب العرب فى نصره والإيمان به فانه تم شرفهم بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والأمانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والأخلاق الحميدة وقرأ ابن عباس والزهرى من أنفسكم بفتح الفاء ومعناه أنه من أشرفكم وأفضلكم (خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت منه» (م) عن واثلة بن الأسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم» عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، قلت يارسول الله إن قريشا جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم فقالوا مثلك كمثل نخلة فى كدية من الأرض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق الخلق فجعلنى من خير فريقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلنى من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا» أخرجه الترمذى، وقيل إن قوله سبحانه وتعالى «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» عام فحمله على العموم أولى فيكون المعنى على هذا القول لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم يعنى من جنسكم بشر مثلكم إذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه. قوله سبحانه وتعالى (عزيز عليه ماعنتم) أى شديد عليه عنتكم يعنى مكروهكم وقيل يشق عليه ضلالكم (حريص عليكم) حريص على إيمانكم وإيصال الخير إليكم وقال قتادة حريص

وناصبوك (فقل حسبي الله لاإله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) روى عن أبي ابن كعب قال آخر مانزل من القرآن هاتان الآيتان « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة وقال : هما أحدث الآيات بالله عهدا .

﴿ سورة يونس عليه الصلاة والسلام ، مكية إلا ثلاث آيات من قوله : فان كنت فى شك مما أنزلنا إليك إلى آخرها ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) والمر قرأ أهل الحجاز والشام وحفص بفتح الراء ، وقرأ الآخرون بالإمالة .

قال ابن عباس والضحاك الر أنا الله أرى والمراد أنا الله أعلم وأرى ، وقال سعيد بن جبير الر وحم ون حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام فى حروف التهجى (تلك آيات الكتاب الحكيم) أى هذه وأراد بالكتاب الحكيم القرآن ، وقيل أراد بها الآيات التى أنزلها من قبل ذلك ولذلك قال تلك وتلك إشارة إلى غائب مؤنث والحكيم المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام فعيل بمعنى مفعل بدليل قوله

على هدايتكم وأن يهديكم الله (بالمؤمنين رءوف رحيم) يعنى أنه صلى الله عليه وسلم رءوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق) عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لى خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب والعاقب الذى ليس بعده نبى» وقد سماه الله رءوفا رحيما قال الحسن بن الفضل لم يجمع الله سبحانه وتعالى لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا النبى صلى الله عليه وسلم فسماه رءوفا رحيما قال سبحانه وتعالى « إن الله بالناس لرءوف رحيم » . قوله سبحانه وتعالى (فان تولوا) يعنى فان أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بالله ورسوله وناصبوك للحرب (فقل حسبي الله) يعنى يكفينى الله وينصرنى عليكم (لاإله إلا هو عليه توكلت) يعنى لاعلى غيره وبه وثقت (وهو رب العرش العظيم) إنما خص سبحانه وتعالى العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات فيدخل مادونه فى الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه أو يكون خصه بالذكر تشريفا له كما يقال بيت الله وروى عن أبى بن كعب أنه قال هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة آخر القرآن نزلا وفى رواية عنه أنه قال أحدث القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم .

(تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام)

نزلت بمكة إلا ثلاث آيات وهى قوله سبحانه وتعالى « فان كنت فى شك مما أنزلنا إليك » إلى آخر الثلاث آيات قاله ابن عباس وبه قال قتادة وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن فيها من المدنى قوله تعالى « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به » الآية وقال مقاتل هى مكية إلا آيتين وهى قوله سبحانه وتعالى « قل بفضل الله وبرحمته » والتى تليها وهى مائة وتسع آيات وألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر) قال ابن عباس والضحاك معناه أنا الله أرى وقال ابن عباس فى رواية أخرى عنه الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وبه قال سعيد بن جبير وسالم بن عبد الله وقال قتادة الر اسم من أسماء القرآن وقيل هى اسم للسورة وقد تقدم الكلام فى معنى الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة بما فيه كفاية (تلك آيات الكتاب) المراد من لفظ تلك الإشارة إلى الآيات الموجودة فى هذه السورة ويكون التقدير تلك الآيات هى آيات الكتاب وهو القرآن الذى أنزله الله إليك يا محمد وذلك أن الله عز وجل وعده أن ينزل عليه كتابا لايمحوه الماء ولا تغيره الدهور وقيل إن لفظة تلك للإشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن والمعنى أن تلك الآيات هى آيات الكتاب الحكيم وفيه قول آخر أن المراد بآيات الكتاب الكتب التى قبل القرآن حكاه الطبرى عن قتادة وروى عن مجاهد أنها التوراة والإنجيل فعلى هذا القول يكون التقدير أن الآيات المذكورة فى هذه السورة هى الآيات المذكورة فى التوراة أو الإنجيل والمراد من الآيات القصص المذكورة فى هذه السورة وهذا وإن كان له وجه فهو ضعيف لأن التوراة والإنجيل لم يجر لهما ذكر قريب حتى يشار إليهما وقيل أن المراد من الآيات حروف الهجاء التى منها الر سميت آيات لأنها افتتاح السور وسر القرآن (الحكيم) يعنى المحكم الحلال والحرام

والحدود

«كتاب أُحكمت آياته» وقيل هو بمعنى الحاكم فعيل بمعنى فاعل دليله قوله عز وجل «وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس» وقيل هو بمعنى المحكوم فعيل بمعنى المفعول. قال الحسن: حكم فيه

بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وبالنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمن أطاع، وبالنار لمن عصاه. قوله تعالى (أكان للناس عجبا) العجب حالة تعترى الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة. وسبب نزول الآية أن الله عز وجل لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا قال المشركون الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فقال تعالى «أكان للناس» يعني أهل مكة الألف فيه للتوبيخ «عجبا» (أن أوحينا إلى رجل منهم) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (أن أنذر الناس) أي أعلمهم مع التخويف (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم). واختلفوا فيه، قال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم قال الضحاك ثواب صدق، وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه، وروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال هو السعادة فى الذكر الأول وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وقال عطاء مقام صدق لازوال له ولا بؤس فيه وقيل منزلة رفيعة وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وحب الحصيد وقال أبو عبيدة كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم، يقال لفلان قدم فى الإسلام وله عندى قدم صدق وقدم سوء وهو يؤنث فيقال قدم صالحة (قال الكافرون إن هذا لسحر مبين) قرأ نافع وأهل

والحدود والأحكام فعيل بمعنى مفعول وقيل الحكيم بمعنى الحاكم فعيل بمعنى فاعل لأن القرآن حاكم يميز بين الحق والباطل ويفصل الحلال من الحرام وقيل حكيم بمعنى المحكوم فيه فيعمل بمعنى مفعول قال الحسن حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وقيل إن الحكيم هو الذى يفعل الحكمة والصواب فمن حيث إنه يدل على الأحكام صار كأنه هو الحكيم فى نفسه. قوله سبحانه وتعالى (أكان للناس عجبا) قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية أن الله عز وجل لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك ومن أنكر منهم قال الله أعظم من أن يكون له رسول بشر مثل محمد فقال الله سبحانه وتعالى «أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم» وقال سبحانه وتعالى «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا» الآية والهمزة فى أكان همزة استفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ والمعنى لايكون ذلك عجبا (أن أوحينا إلى رجل منهم) والعجب حالة تعترى الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة وقيل العجب حالة تعترى الإنسان عند الجهل بسبب الشيء ولهذا قال بعض الحكماء العجب مالا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة وبالرجل محمد صلى الله عليه وسلم منهم يعنى من أهل مكة من قريش يعرفون نسبه وصدقه وأمانته (أن أنذر الناس) يعنى خوفهم بعقاب الله تعالى إن أصروا على الكفر والمخالفة والإنذار إخبار مع مع تخويف كما أن البشارة إخبار مع سرور وهو قوله سبحانه وتعالى (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة فى معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم وقال الضحاك ثواب صدق وقال مجاهد الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال سبقت لهم السعادة فى الذكر الأول يعنى فى اللوح المحفوظ وقال زيد بن أسلم هو شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول قتادة وقيل لهم منزلة رفيعة عند ربهم وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الأولى وحب الحصيد والفائدة فى هذه الإضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح ومثله فى مقعد صدق وقال أبو عبيدة كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم فى الإسلام وقدم فى الخير ولفلان عندى قدم صدق وقدم سوء قال حسان بن ثابت :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا ... لأولنا فى طاعة الله تابع

وقال الليث وأبو الهيثم القدم السابق والمعنى أنه قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة .

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة ... لهم قدم معروفة ومفاخر

والسبب فى إطلاق لفظ القدم على هذه المعانى أن السعى والسبق لايحصل إلا بالقدم فسمى المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد وقال ذو الرمة :

لكم قدم لاينكر الناس أنها ... مع الحسب العادى طمت على البحر

معناه لكم سابقة عظيمة لاينكرها الناس وقال آخر :

صل لذى العرش واتخذ قدما ... تنجيك يوم العثار والزلل

وقوله سبحانه وتعالى (قال الكافرون إن هذا لسحر مبين) وقرئ لساحر مبين وفيه

حذف تقديره أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم فلما جاءهم بالوحي وأنذرهم قال الكافرون إن هذا لساحر يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وإنما نسبوه إلى السحر لما أتاهم بالمعجزات الباهرات التي لايقدر أحد من البشر أن يحصل مثلها ومن قرأ السحر فانهم عنوا به القرآن المنزل عليه وإنما نسبوه إلى السحر لأن فيه الإخبار بالبعث والنشور وكانوا ينكرون ذلك . قوله عز وجل (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) تقدم تفسير هذا فى سورة الأعراف بما فيه كفاية . وقوله سبحانه وتعالى (يدبر الأمر) قال مجاهد يقضيه وحده وقيل معنى التدبير تنزيل الأمور فى مراتبها وعلى أحكام عواقبها وقيل إنه سبحانه وتعالى يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لئلا يدخل فى الوجود مالا ينبغى وقيل معناه إنه سبحانه وتعالى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض فلا يحدث حدث فى العالم العلوى ولا فى العالم السفلى إلا بارادته وتدبيره وقضائه وحكمته (مامن شفيع إلا من بعد إذنه) يعنى لايشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له فى الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة فى تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ماليس له به علم فاذا أذن له فى الشفاعة كان له أن يشفع فيمن يأذن له فيه وفيه رد على كفار قريش فى قولهم إن الأصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لايشفع أحد عنده إلا باذنه لأن له التصرف المطلق فى جميع العالم (ذلكم الله ربكم) يعنى الذى خلق هذه الأشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لارب لكم سواه (فاعبدوه) أى فاجعلوا عبادتكم له لالغيره لأنه المستحق للعبادة بما أنعم عليكم من النعم العظيمة (أفلا تذكرون) يعنى أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التى تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى (إليه مرجعكم جميعا) يعنى إلى ربكم الذى خلق جميع المخلوقات مصيركم جميعا أيها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع (وعد الله حقا) يعنى وعدكم الله ذلك وعدا حقا (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) أى يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فانه قال يحييه ثم يميته ثم يحييه . وفى هذه الآية دليل على إمكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكرى البعث ووقوعه لأن القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على إعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى فيركب تلك الأجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن فى المرة الأولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى وإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى وهو قوله سبحانه وتعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) يعنى بالعدل لاينقص من أجورهم شيئا (والذين كفروا لهم شراب من حميم) هو ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم بما كانوا يكفرون هو الذى جعل الشمس ضياء) يعنى ذات ضياء (والقمر نورا) يعنى ذا نور . واختلف العلماء أصحاب الكلام فى أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض، والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة والنور اسم لأصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا خص الشمس بالضياء لأنها أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل

قوله عز وجل (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر) يقضيه وحده (مامن شفيع إلا من بعد إذنه) معناه أن الشفعاء لا يشفعون إلا باذنه وهذا رد على النضر بن الحارث فانه كان يقول إذا كان يوم القيامة تشفعنى اللات والعزى . قوله تعالى (ذلكم الله ربكم) يعنى الذى فعل هذه الأشياء ربكم لارب لكم سواه (فاعبدوه أفلا تذكرون) تتعظون (إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا) صدقا لاخلف فيه نصب على المصدر أى وعدكم وعدا حقا (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) أى يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم قراءة العامة إنه بكسر الألف على الاستئناف وقرأ أبو جعفر أنه بالفتح على معنى بأنه أو لأنه (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط بالعدل (والذين كفروا لهم شراب من حميم) ماء حار انتهى حره (وعذاب أليم بما كانوا يكفرون هو الذى جعل الشمس ضياء) بالنهار (والقمر نورا) بالليل . وقيل جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور

وأقوى

(وقدره منازل) أى قدر له يعنى هيأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها ولم يقل قدرهما ، قيل تقدير المنازل ينصرف إليهما غير أنه اكتفى بذكر أحدهما كما قال « والله ورسوله أحق أن يرضوه » وقيل هو ينصرف إلى القمر خاصة لأن بالقمر يعرف انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس ، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا وأسماؤها الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنسر والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانى والإكليل والقلب والشولة والنعايم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه المنازل مقسومة على البروج وهى اثنا عشر برجا : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، فلكل برج منزلان وثلث منزل فينزل القمر كل ليلة منزلا منها ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين وإن كان تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون مقام الشمس فى كل منزلة ثلاثة عشر يوما وثلث يوم فيكون انقضاء السنة مع انقضائها قوله تعالى (لتعلموا عدد السنين) أى قدر المنازل لتعلموا عدد السنين بطولها وانقضائها (والحساب) يعنى حساب الشهور والأيام والساعات (ماخلق الله ذلك) رده إلى الخلق والتقدير ولو رده إلى الأعيان المذكورة لقال تلك (إلا بالحق) أى لم يخلقه باطلا بل إظهارا لصنعه ودلالة على قدرته (يفصل الآيات لقوم يعلمون) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب يفصل بالياء لقوله ماخلق وقرأ الباقون نفصل بالنون على التعظيم (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) يؤمنون (إن الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا ، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع (ورضوا بالحياة الدنيا) فاختاروها وعملوا لها (واطمأنوا بها) سكنوا إليها (والذين هم عن آياتنا غافلون) أى عن أدلتنا غافلون

وأقوى من النور المختص بالقمر (وقدره منازل) قيل الضمير فى وقدره يرجع إلى الشمس والقمر والمعنى قدر لهما منازل أو قدر لسيرهما منازل لا يجاوزانهما فى السير ولا يقصران عنها وإنما وحد الضمير فى وقدره للإيجاز أو اكتفى بذكر أحدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه وتعالى « والله ورسوله أحق أن يرضوه » وقيل الضمير فى وقدره يرجع إلى القمر وحده لأن سير القمر فى المنازل أسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لأن الشهور المعتبرة فى الشرع مبنية على رؤية الأهلة والسنة المعتبرة فى الشرع هى السنة القمرية لا الشمسية ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة : وهى الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانى والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت فهذه منازل القمر وهى مقسومة على اثنى عشر برجا وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت لكل برج منزلان وثلث منزل وينزل القمر كل ليلة منزلا منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين وإن كان تسعا وعشرين اختفى ليلة واحدة (لتعلموا عدد السنين) يعنى قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين ووقت دخولها وانقضائها (والحساب) يعنى ولتعلموا حساب الشهور والأيام والساعات ونقصانها وزيادتها (ماخلق الله ذلك إلا بالحق) يعنى للحق وإظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا (يفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) تقدم تفسير هذه الآية فى نظائرها (إن الذين لا يرجون لقاءنا) يعنى لا يخافون لقاءنا) يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله سبحانه وتعالى مالكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى * إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * أى لم يخفه والرجاء يكون بمعنى الطمع فيكون المعنى لا يطمعون فى ثوابنا (ورضوا بالحياة الدنيا) يعنى اختاروها وعملوا فى طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها (واطمأنوا بها) يعنى وسكنوا إليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التى حصلت فى قلوب الكفار من الميل إلى الدنيا ولذاتها أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم يصل ذلك إلى قلوبهم (والذين هم عن آياتنا غافلون)

لايعتبرون . وقال ابن عباس رضى الله عنهما عن آياتنا عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن غافلون معرضون (اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) من الكفر والتكذيب . قوله تعالى(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) فيه إضمار أى يرشدهم ربهم بايمانهم

إلى جنة (تجرى من تحتهم الأنهار) قال مجاهد يهديهم على الصراط إلى الجنة يجعل لهم نورا يمشون به ، وقيل يهديهم معناه يثيبهم ويجزيهم ، وقيل معناه بايمانهم يهديهم ربهم لدينه أى بتصديقهم هداهم تجرى من تحتهم الأنهار أى بين أيديهم كقوله عز وجل « قد جعل ربك تحتك سريا » لم يرد به أنه تحتها وهى قاعدة عليه بل أراد بين يديها ، وقيل تجرى من تحتهم أى بأمرهم (فى جنات النعيم دعواهم) أى قولهم وكلامهم وقيل دعاؤهم (فيها سبحانك اللهم) وهى كلمة تنزيه تنزه الله من كل سوء وروينا أن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس ، قال أهل التفسير هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم فى الطعام فاذا أرادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم فأتوهم فى الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة وفى كل صحفة لون من الطعام لايشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله فذلك قوله تعالى « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » قوله تعالى(وتحيتهم فيها سلام) أى يحيى بعضهم بعضا بالسلام وقيل تحية الملائكة لهم بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام(وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد . وقال ابن عباس عن آياتنا يعنى عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، غافلون أى معرضون (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) يعنى من الكفر والتكذيب والأعمال الخبيثة . قوله عزوجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) يعنى يهديهم ربهم إلى الجنة ثوابا لهم بايمانهم وأعمالهم الصالحة وقال مجاهد يهديهم على الصراط إلى الجنة يجعل لهم نورا يمشون به وقال قتادة بلغنا أن المؤمن إذا خرج من قبره يصور له عمله فى صورة حسنة فيقول له من أنت فيقول أنا عملك فيكون له نور وقائدا إلى الجنة والكافر بالضد فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الأنبارى يجوز أن يكون المعنى أن الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم ويزيل بها الشكوك عنهم ويجوز أن يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بايمانهم يهديهم ربهم لدينه أى بتصديقهم هداهم (تجرى من تحتهم الأنهار) يعنى بين أيديهم ينظرون إليها من أعالى أسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى « قد جعل ربك تحتك سريا » لم يرد به أنه تحتها وهى قاعدة عليه بل أراد بين يديها وقيل تجرى بأمرهم (فى جنات النعيم) يعنى ذلك لهم جنات النعيم (دعواهم فيها) أى قولهم وكلامهم فيها وقيل الدعوى بمعنى الدعاء أى دعاؤهم فيها (سبحانك اللهم) وهى كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة قال أهل التفسير هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم فى الطعام فاذا أرادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم فيأتونهم فى الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة فى كل صحفة لون من الطعام لايشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ماأعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى «وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» وقيل إن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عز وجل والثناء عليه بما هو أهله وفى هذا الذكر والتحميد سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم ويدل عليه ماروى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولايتفلون ولا يبولون ولا ولايتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفى رواية التسبيح والحمد» أخرجه مسلم . قوله جشاء أى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا . وقوله سبحانه وتعالى (وتحيتهم فيها سلام) يعنى يحيى بعضهم بعضا بالسلام وقيل تحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وأنهم إذا اشتهوا شيئا قالوا سبحانك اللهم فيحضر ذلك الشىء وإذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك وقال الزجاج أعلم الله أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه وقيل إنهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد وقيل إنهم يلهمون ذلك كما ذكر فى الحديث

قوله

يريد يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد. قوله عز وجل (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير)
قال ابن عباس هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده لعنكم الله ولا بارك الله فيكم. قال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب. معناه لو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر والمكروه استعجالهم بالخير، أي كما يحبون استعجالهم بالخير (لقضى إليهم أجلهم) قرأ ابن عامر ويعقوب لقضى بفتح القاف والضاد أجلهم نصب أي لأهلك من دعى عليه وأماته وقال الآخرون: لقضى بضم القاف وكسر الضاد أجلهم رفع أي لفرغ من هلاكهم ولماتوا جميعا وقيل أنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» يدل عليه قوله عز وجل (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) لا يخافون البعث والحساب (في طغيانهم يعمهون) أخبرنا أحمد ابن عبد الله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد ابن عبد الله بن بشران حدثنا أبو علي إسماعيل ابن محمد الصفار أنبأنا أحمد بن منصور الزيادي حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فانما أنا بشر فيصدر مني مايصدر من البشر فأي المؤمنين آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة» قوله تعالى (وإذا مس الإنسان الضر) الجهد والشدة (دعانا لجنبه) أي على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) يريد في جميع حالاته لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات (فلما كشفنا) دفعنا (عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) أي استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء كأنه لم يدعنا إلى ضر مسه أي لم يطلب منا كشف ضر مسه (كذلك زين للمسرفين) المجاوزين الحد في الكفر والمعصية (ما كانوا يعملون) من العصيان. قال ابن جريج

قوله سبحانه وتعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) يعني ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر بما لهم فيه مضرة ومكروه في نفس أو مال قال ابن عباس هذا في قول الرجل لأهله وولده عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله وولده بما يكره أن يستجاب له فيه (استعجالهم بالخير) يعني استعجالهم بالخير وكما يحبون أن يعجل لهم إجابة دعائهم بالخير (لقضى إليهم أجلهم) يعني لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعا والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته والاستعجال طلب العجلة. وقال ابن قتيبة إن الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة وإعطاء السؤال يقال لو أجابهم الله إذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم يعني لفرغ من هلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي بالخير ولا يستجيب له في الشر وقيل إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فعلى هذا يكون المعنى ولو يعجل الله للكافرين العذاب كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعا ويدل على صحة هذا القول قوله سبحانه وتعالى (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) يعني فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت (في طغيانهم) يعني في تمردهم وعتوهم (يعمهون) يعني يترددون (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فانما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة» قوله عز وجل (وإذا مس الإنسان الضر) أي الشدة والجهد والمراد بالإنسان في هذه الآية الكافر (دعانا لجنبه) أي على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) يريد جميع حالاته لأن الإنسان لا ينفك عن إحدى هذه الحالات الثلاث والمعنى أن المضرور لا يزال داعيا في جميع حالاته إلى أن ينكشف ضره سواء كان مضطجعا أو قائما أو قاعدا وقال الزجاج وجائز أن يكون المعنى إذا مس الإنسان الضر لجنبه أو مسه قاعدا أو مسه قائما وهذا القول فيه بعد لأن ذكر الدعاء إلى هذه الأحوال أقرب من ذكر الضر (فلما كشفنا عنه ضره) يعني فلما أزلنا عنه ما نزل به من الضر ودفعناه عنه (مر) يعني على طريقته الأولى قبل مس الضر (كأن لم يدعنا) فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا وإنما أسقط الضمير على سبيل التخفيف (إلى ضر مسه) والمعنى أنه استمر على حالته الأولى قبل أن يمسه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) يعني مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لأنه مالك

الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك بأقدار الله إياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد في كل شيء وإنما سمي الكافر مسرفا لأنه أتلف نفسه وضيعها في عبادة الأصنام وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الأصنام وسدنتها يعني خدامها وقال ابن جريج في قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء وقيل كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم وبيان مقصود الآية أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فاذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهدا في الدعاء طالبا من الله إزالة ما نزل به من المحنة والبلاء فاذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع إلى ما كان عليه أولا وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما المؤمن العاقل فانه بخلاف ذلك فيكون صابرا عند البلاء شاكرا الله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية وههنا مقام أعلى من هذا وهو أن المؤمن إذا ابتلى ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضيا بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكون شاكرا الله عز وجل في جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن أن الله تبارك وتعالى مالك الملك على الإطلاق حكيم في جميع أفعاله وله التصرف في خلقه بما يشاء ويعلم أنه إن أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وإن أزالها عنه فهو فضل. قوله سبحانه وتعالى (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يعني أهلكنا الأمم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة (لما ظلموا) يعني لما أشركوا (وجاءتهم رسلهم بالبينات) يعني فكذبوهم (وما كانوا ليؤمنوا) يعني هذه الأمم برسلهم ويصدقوهم بما جاءوا به من عند الله (كذلك نجزي القوم المجرمين) يعني كما أهلكنا الأمم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم أيها المشركون بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) الخطاب لأهل مكة الذين أرسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ثم جعلناكم أيها الناس خلفاء في الأرض من بعد القرون الماضية الذين أهلكناهم (لننظر كيف تعملون) يعني خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب أعمالكم والنظر هنا بمعنى العلم يريد لنختبر أعمالكم وهو يعلم ما يكون قبل أن يكون قال أهل المعاني معنى النظر هو طلب العلم وجاز في وصف الله سبحانه وتعالى إظهارا للعدل لأنه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى «ليبلوكم أيكم أحسن عملا» ذكره الواحدي والرازي (م) عن سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء» أخرجه مسلم قوله فاتقوا الدنيا معناه احذروا فتنة الدنيا واحذروا فتنة النساء. قوله سبحانه وتعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعني وإذا قرىء على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه إليك يا محمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) يعني قال هؤلاء المشركون الذين لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث فانه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت بقرآن غير هذا أو بدله)

أشركوا (وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك) أي كما أهلكناهم بكفرهم (نجزي) نعاقب ونهلك (القوم المجرمين) الكافرين بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم يخوف كفار مكة بعذاب الأمم الخالية المكذبة (ثم جعلناكم خلائف) أي خلفاء (في الأرض من بعدهم) أي من بعد القرون التي أهلكناهم (لننظر كيف تعملون) وهو أعلم بهم وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ألا إن هذه الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون» قوله عز وجل (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) قال قتادة يعني مشركي مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله ابن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبيد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر ابن هشام (قال الذين لا يرجون لقاءنا) هم السابق ذكرهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت تريد أن نؤمن بك (ائت بقرآن غير هذا) ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك (أو بدله) فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو مكان حرام حلالا أو مكان حلال حراما قال

قال قتادة قال ذلك مشركوا مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومى والوليد ابن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاص بن عامر بن هشام قال هؤلاء للنبى صلى الله عليه وسلم إن كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وإن لم ينزل الله عليك فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالا ومكان حلال حراما قال الإمام فخر الدين الرازى اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين أحدهما أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدلته لآمنابك وغرضهم السخرية والاستهزاء الثانى أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى أنه لو فعل ذلك علموا أنه كان كاذبا فى قوله إن هذا القرآن ينزل عليه من عند الله ومعنى قوله ائت بقرآن غير هذا أو بدله يحتمل أن يأتى بقرآن آخر مع وجود هذا القرآن والتبديل لايكون إلامع وجوده وهو أن يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوه ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يجيبهم بقوله (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء (مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى) يعنى أن هذا الذى طلبتموه من التبديل ليس إلى وما ينبغى لى أن أغيره من قبل نفسى ولم أومر به (إن أتبع إلا ماأوحى إلى) يعنى فيما آمركم به أو أنهاكم عنه وما أخبركم إلا مايخبرنى الله به وإن الذى أتيتكم به هو من عند الله لامن عندى (إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى قل لهم يامحمد إنى أخشى من الله إن خالفت أمره أو غيرت أحكام كتابه أو بدلته فعصيته بذلك أن يعذبنى بعذاب عظيم فى يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت. قوله سبحانه وتعالى (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لو شاء الله ماتلوته عليكم) يعنى لو شاء الله لم ينزل على هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم (ولا أدراكم به) قال ابن عباس ولا أدراكم الله به ولا أعلمكم به (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) يعنى فقد مكثت فيكم قبل أن يوحى إلى هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشىء ووجه هذا الاحتجاج أن كفار مكة كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وعلموا أحواله وأنه كان أميا لم يطالع كتابا ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحى وذلك أربعون سنة ثم بعد الأربعين جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الأحكام والآداب ومكارم الأخلاق والفصاحة والبلاغة ماأعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفكر ثاقب يعلم أن هذا لم يحصل إلا بوحى من الله تعالى لامن عند نفسه وهو قوله (أفلا تعقلون) يعنى أن هذا القرآن من عند الله أوحاه إلى لامن قبل نفسى (ق) عن ابن عباس قال أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفى صلى الله عليه وسلم وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة وفى رواية أن النبى ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئا وثمان سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشرا وتوفى وهو ابن خمس وستين سنة أخرجاه فى الصحيحين (ق) عن عائشة قالت توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة أخرجاه فى الصحيحين (م) عن أنس قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة وأبو بكر

(قل) لهم يامحمد (مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى) من قبل نفسى (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) أى ما أتبع إلا مايوحى فيما آمركم به وأنهاكم عنه (إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ماتلوته عليكم) يعنى لو شاء الله ما أنزل القرآن على (ولا أدراكم به) أى ولا أعلمكم الله به قرأ البزى عن ابن كثير ولأدراكم به بالقصر به على الإيجاب يريد ولأعلمكم به من غير قراءتى عليكم وقرأ ابن عباس ولا أنذرتكم به من الإنذار (فقد لبثت فيكم عمرا) حينا وهو أربعون سنة (من قبله) من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشىء (أفلا تعقلون) أنه ليس من قبلى ولبث النبى صلى الله عليه وسلم فيهم قبل الوحى أربعين سنة ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحى ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة وروى أنس أنه أقام

وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين أخرجه مسلم (ق) عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس ابن مالك يصف رسول الله ﷺ يقول كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير أزهر اللون ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي وبالمدينة عشرا وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء أخرجاه في الصحيحين قال الشيخ محيي الدين النووي ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات إحداها أنه صلى الله عليه وسلم توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهو أصحها وأشهرها رواها مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على أن أصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة أيضا بأنها حصل فيها اشتباه قوله يسمع الصوت يعني صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني ضوء الملائكة أو نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه وشافهه بالوحي من الله عز وجل وقوله ليس بالأبيض الأمهق المراد به الشديد البياض كلون الجص وهو كريه المنظر وربما توهم الناظر أنه برص والمراد أنه كان أزهر اللون بين البياض والحمرة. قوله عز وجل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني فزعم أن له شريكا وولدا والمعنى أني لم أفتر على الله كذبا ولم أكذب عليه في قولي إن هذا القرآن من عند الله وأنتم قد افتريتم على الله الكذب فزعمتم أن له شريكا وولدا والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل معناه إن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسه مني من حيث إني افتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله أوحاه إلي وجب أن يقال ليس أحد في الدنيا أجهل ولا أظلم على نفسه منكم من حيث أنكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله فقد كذبتم بآياته وهو قوله تعالى (أو كذب بآياته) يعني جحد بكون القرآن من عند الله وأنكر دلائل التوحيد (إنه لا يفلح المجرمون) يعني المشركون وهذا وعيد وتأكيد لما سبق (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) يعني ويعبد هؤلاء المشركون الأصنام التي لا تضرهم إن عصوها وتركوا عبادتها ولا تنفعهم إن عبدوها لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وإن العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق إلا بمن يضر وينفع ويحيي ويميت وهذه الأصنام جماد وحجارة لا تضر ولا تنفع (ويقولون هؤلاء) يعني الأصنام التي يعبدونها (شفعاؤنا عند الله) قال أهل المعاني توهموا أن عبادتها أشد في تعظيم الله من عبادتهم إياه وقالوا لسنا بأهل أن نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام فإنها تكون شافعة لنا عند الله ومنه قوله سبحانه وتعالى إخبارا عنهم «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» وفي هذه الشفاعة قولان: أحدهما أنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة قاله ابن جريج عن ابن عباس والثاني أنها تشفع لهم في الدنيا في إصلاح معايشهم قاله الحسن لأنهم كانوا لا يعتقدون بعثا بعد الموت (قل) أي قل لهم يا محمد (أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض) يعني أتخبرون الله أن له شريكا ولا يعلم الله لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض وهذا على طريق الإلزام المقصود نفي علم الله بذلك الشفيع وأنه لا وجود له البتة لأنه لو كان موجودا لعلمه الله وحيث لم يكن معلوما لله وجب أن لا يكون موجودا ومثل هذا مشهور

بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ستين سنة والأول أشهر وأظهر. قوله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فزعم أن له شريكا أو ولدا (أو كذب بآياته) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (إنه لا يفلح المجرمون) لا ينجوا المشركون (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم) إن عصوه وتركوا عبادته (ولا ينفعهم) إن عبدوه يعني الأصنام (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (قل أتنبئون الله) أتخبرون الله (بما لا يعلم) الله صحته ومعنى الآية أتخبرون الله أن له شريكا وعنده شفيعا بغير إذنه ولا يعلم الله لنفسه شريكا (في السموات ولا في الأرض

سبحانه وتعالى عما يشركون) قرأ حمزة والكسائى تشركون بالتاء هاهنا ، وفى سورة النحل موضعين وفى سورة الروم وقرأ الآخرون كلها بالياء قوله تعالى (وما كان الناس إلا أمة واحدة) (١٨١) أى على الإسلام وقد ذكرنا الاختلاف فيه فى سورة البقرة (فاختلفوا) وتفرقوا إلى مؤمن وكافر (ولولا كلمة سبقت من ربك) بأن جعل لكل أمة أجلا وقال الكلبى : هى إمهال هذه الأمة وأنه لايهلكهم بالعذاب فى الدنيا (لقضى بينهم) بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم (فيما فيه يختلفون) وقال الحسن ولولا كلمة سبقت من ربك مضت فى حكمه أنه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم فى الدنيا فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة (ويقولون) يعنى أهل مكة (لولا أنزل عليه) أى على محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) على مانقترحه (فقل إنما الغيب لله) يعنى قل إنما سألتمونى الغيب وإنما الغيب لله لايعلم أحد لم لم يفعل ذلك ولا يعلمه إلا هو وقيل الغيب نزول الآية لايعلم متى ينزل أحد غيره (فانتظروا) نزولها (إنى معكم من المنتظرين) وقيل فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق باظهار الحق على المبطل قوله عز وجل (وإذا أذقنا الناس) يعنى الكفار (رحمة من بعد ضراء) أى راحة ورخاء من بعد شدة وبلاء وقيل القطر بعد القحط (مستهم) أى أصابتهم

فى العرف فإن الإنسان إذا أراد نفى شىء حصل فى نفسه يقول : ماعلم الله ذلك منى مقصوده أنه ماحصل ذلك الشىء منه قط ولا وقع (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والاضداد والأنداد وتعالى أن يكون له شريك فى السموات والأرض ولايعلمه . قوله سبحانه وتعالى (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) يعنى فتفرقوا إلى مؤمن وكافر يعنى كانوا جميعا على الدين الحق وهو دين الإسلام ويدل على ذلك أن آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الإسلام إلى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا وقيل بقوا على ذلك إلى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحا وقيل إنهم كانوا على دين الإسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحى فعلى هذا القول يكون المراد من الناس فى قوله «وما كان الناس إلا أمة واحدة» العرب خاصة وقيل كان الناس أمة واحدة يعنى فى الكفر وهذا القول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» وتقديره أنه لامطمع فى أن يصير الناس على دين واحد فانهم كانوا أولا على الكفر وإنما أسلم بعضهم ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل كان الناس أمة واحدة وليس فى الآية مايدل على أى دين كانوا من إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل معناه أنهم كانوا فى أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا فى الأديان وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» والمراد بالفطرة فى الحديث فطرة الإسلام قوله سبحانه وتعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) يعنى أنه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجلا وقضى بذلك فى سابق الأزل قال الكلبى : هى إمهال هذه الأمة وأنه لايهلكهم بالعذاب (لقضى بينهم) يعنى بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم (فيما فيه يختلفون) وقال الحسن : ولولا كلمة سبقت من ربك يعنى مضت فى حكمة الله أنه لايقضى عليهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة لقضى بينهم فى الدنيا فأدخل المؤمنين الجنة بإيمانهم وأدخل الكافرين النار بكفرهم ولكن سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله أنه لايؤاخذ أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه وقيل الكلمة التى سبقت من الله هى قوله «إن رحمتى سبقت غضبى» ولولا رحمته لعجل لهم العقوبة فى الدنيا ولكن أخرهم برحمته إلى يوم القيامة ثم يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعنى فى الدنيا (ويقولون) يعنى كفار مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) يعنى هلا نزل على محمد مانقترحه عليه من الآيات (فقل) أى فقل لهم يامحمد (إنما الغيب لله) يعنى إن الذى سألتمونيه هو من الغيب وإنما الغيب لله لايعلم أحد ذلك إلا هو والمعنى لايعلم أحد متى نزول الآية إلا هو (فانتظروا) يعنى نزولها (إنى معكم من المنتظرين) وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا باظهار المحق على المبطل إنى معكم من المنتظرين قوله عز وجل (وإذا أذقنا الناس رحمة) يعنى رخاء ونعمة (من بعد ضراء مستهم) يعنى من بعد شدة وبلاء وضيق فى العيش أصابهم

والمراد بالناس هنا كفار مكة وذلك أن الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم إن الله سبحانه وتعالى رحمهم فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك الضر فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا إلى الفساد والكفر والمكر وهو قوله سبحانه وتعالى (إذا لهم مكر فى آياتنا) قال مجاهد أى تكذيب واستهزاء وقال مقاتل ابن حيان لايقولون هذا رزق الله إنما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا ويدل على صحة هذا القول ماروى عن زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال : قال « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » أخرجاه فى الصحيحين قوله على أثر سماء كانت من الليل أى مطر كان قد وقع فى الليل وسمى المطر سماء لأنه يقطر من السماء والأنواء عند العرب هى منازل القمر إذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون فى الجاهلية أنه لابد عند ذلك من وجود مطر أو ريح كما يزعم المنجمون أيضا فمن العرب من يجعل ذلك التأثير للطالع لأنه ناء أى ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبى عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفر معتقده إذا اعتقد أن النجم فاعل ذلك التأثير وأما من يجعله دليلا فهو جاهل بمعنى الدلالة وأما من أسند ذلك إلى العادة التى يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله أعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكرا لأن المكر عبارة عن صرف الشىء عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون فى دفع آيات الله بكل مايقدرون عليه من المفاسد (قل الله أسرع مكرا) أى قل لهم يامحمد الله أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء وإن عذابه فى هلاكهم أسرع إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بمكر أشد منه وهو إمهالهم إلى يوم القيامة (إن رسلنا يكتبون ماتمكرون) يعنى الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون ويحفظون عليهم الأعمال القبيحة السيئة إلى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها ويجزون على مكرهم قوله تعالى (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) يعنى هو الله الذى يسيركم يعنى يحملكم فى البر على ظهور الدواب وفى البحر على الفلك وقيل معناه هو الله الهادى لكم فى السير فى البر والبحر طلبا للمعاش أو هو المهيىء لكم أسباب السير فى البر والبحر (حتى إذا كنتم فى الفلك) يعنى السفن ولفظ الفلك تطلق على الواحد والجمع وتقديراهما مختلفان فان أريد بها الواحد كان كبناء قفل وإن أريد بها الجمع كان كبناء أسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى (وجرين بهم) يعنى وجرت السفن بركابها . فان قلت مافائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة قلت قال صاحب الكشاف المقصود منه المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم مزيد الإنكار والتقبيح وقال غيره إن مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه أن يرده إلى الغائب وقيل إن الالتفات فى الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب (بريح طيبة) يعنى وجرت السفن بريح طيبة ساكنة (وفرحوا بها) يعنى وفرح ركبان تلك الفلك بتلك الريح الطيبة لأن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود

إذا لهم مكر فى آياتنا) قال مجاهد تكذيب واستهزاء وقال مقاتل ابن حيان لايقولون هذا من رزق الله إنما يقولون سقينا بنوء كذا وهو قوله وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون (قل الله أسرع مكرا) أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء يريد عذابه فى إهلاككم أسرع إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق (إن رسلنا) حفظتنا (يكتبون ماتمكرون) قرأ روح عن يعقوب يمكرون بالياء قوله تعالى (هو الذى يسيركم) يجريكم ويحملكم وقرأ أبو جعفر وابن عامر ينشركم بالنون والشين من النشر وهو البسط والبث (فى البر) على ظهور الدواب (و) فى(البحر) على الفلك (حتى إذا كنتم فى الفلك) أى فى السفن تكون واحدا وجمعا (وجرين بهم) يعنى جرت السفن بالناس رجع من الخطاب إلى الغيبة (بريح طيبة) لينة (وفرحوا بها) أى بالريح

حصل له النفع التام والمسرة العظيمة بذلك (جاءتها ريح عاصف) قيل إن الضمير فى جاءتها يرجع إلى الريح فيكون المعنى جاءت الريح الطيبة ريح عاصف فأبانها وقيل الضمير فى جاءتها يرجع الى الفلك يعنى جاءت الفلك ريح عاصف يقال ريح عاصف وعاصفة ، ومعنى عصفت الريح اشتدت وأصل العصف السرعة وإنما قال عاصف لأنه أراد به ذات عصوف أو لأجل أن لفظ الريح قد يذكر (وجاءهم الموج من كل مكان) يعنى وجاء ركبان السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من غوارب الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (وظنوا أنهم أحيط بهم) يعنى وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق وقيل المراد من الظن اليقين أى وأيقنوا أنه الهلاك وقيل بل المراد منه المقاربة من الهلاك والدنو منه والإشراف عليه (دعوا الله مخلصين له الدين) يعنى أنهم أخلصوا فى الدعاء لله عز وجل ولم يدعوا أحدا سواه من آلهتهم وقيل فى معنى هذا الإخلاص العلم الحقيقى لا إخلاص الإيمان لأنهم كانوا يعلمون حقيقة أنه لا ينجيهم من جميع الشدائد والبلايا إلا الله تعالى فكانوا إذا وقعوا فى شدة وضر وبلاء أخلصوا لله الدعاء (لئن أنجيتنا) أى قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا (من هذه) يعنى من هذه الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والأمواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) يعنى من الشاكرين لك على إنعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما أنجاهم) يعنى فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها (إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) يعنى أنهم أخلفوا الله ما وعدوه وبغوا فى الأرض فتجاوزوا فيها إلى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصى على ظهرها وأصل البغى مجاوزة الحد . قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما محمود وهو مجاوزة العدل إلى الإحسان والفرض إلى التطوع . والثانى مذموم وهو مجاوزة الحق إلى الباطل أو إلى الشبهة . قال صاحب الكشاف فان قلت ما معنى قوله بغير الحق والبغى لا يكون بحق قلت بلى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببنى قريظة (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) يعنى إن وبال بغيكم راجع عليكم (متاع الحياة الدنيا) قيل هو كلام مبتدأ . والمعنى أن بغى بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لا يصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم لا يتهيأ أن يبغى بعضكم على بعض إلا أياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها فى سرعة انقضائها والبغى من منكرات الذنوب العظام قال بعضهم لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعرا وكان المأمون يتمثل به فقال :

يا صاحب البغى إن البغى مصرعة ... فارجع فخير مقال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوما على جبل ... لاندك منه أعاليه وأسفله

وقوله سبحانه وتعالى (ثم إلينا مرجعكم) يعنى يوم القيامة (فننبئكم) أى فنخبركم (بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا من البغى والمعاصى فنجازيكم عليها . قوله عز وجل (إنما مثل الحياة الدنيا) يعنى فى فنائها وزوالها (كماء أنزلناه من السماء) يعنى المطر (فاختلط به) أى بالمطر (نبات الأرض) قال ابن عباس نبت بالماء من كل لون

(جاءتها ريح) اى جاءت الفلك ريح (عاصف) شديدة الهبوب ولم يقل ريح عاصفة لاختصاص الريح بالعصوف وقيل الريح يذكر ويؤنث (وجاءهم) يعنى ركبان السفينة (الموج) وهو حركة الماء واختلاطه (من كل مكان وظنوا) أيقنوا (أنهم أحيط بهم) دنوا من الهلكة أى أحاط بهم الهلاك (دعوا الله مخلصين له الدين) أى أخلصوا فى الدعاء لله ولم يدعوا أحدا سوى الله وقالوا (لئن أنجيتنا) يا ربنا (من هذه) الريح العاصف (لنكونن من الشاكرين) لك بالإيمان والطاعة (فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض) يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عز وجل فى الأرض (بغير الحق) أى بالفساد (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) لأن وباله راجع عليها ثم ابتدأ فقال (متاع الحياة الدنيا) أى هذا متاع الحياة الدنيا خبر ابتداء مضمر كقوله لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ أى هذا بلاغ وقيل هو كلام متصل والبغى ابتداء ومتاع خبره ومعناه إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا لا يصلح زادا لمعاد لأنكم تستوجبون به غضب الله وقرأ حفص متاع بالنصب أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا (ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) قوله عز وجل (إنما مثل الحياة الدنيا) فى فنائها وزوالها (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به) أى بالمطر (نبات الأرض)

(مما يأكل الناس) يعنى من الحبوب والثمار (والأنعام) يعنى ومما يأكل الأنعام من الحشيش ونحوه (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) يعنى حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور (وازينت) أى وتزينت (وظن أهلها) يعنى أهل تلك الأرض (أنهم قادرون عليها) يعنى على جذاذها وقطافها وحصادها رد الكناية إلى الأرض والمراد النبات إذ كان مفهوما وقيل رده إلى الثمرة والغلة وقيل إلى الزينة (أتاها أمرنا) أى قضاؤنا بهلاكها (ليلا أو نهارا) يعنى فى الليل أو النهار (فجعلناها حصيدا) يعنى محصودة مقطوعة (كأن لم تغن بالأمس) يعنى كأن لم تكن تلك الأشجار والنبات والزروع نابتة قائمة على ظهر الأرض وأصله من غنى فلان بالمكان إذا أقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين فى زهرتها وحسنها وذلك أنه تعالى لما قال يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، أتبعه بهذا المثل لمن بغى فى الأرض وتجبر فيها وركن إلى الدنيا وأعرض عن الآخرة لأن النبات فى أول بروزه من الأرض ومبدأ خروجه يكون ضعيفا فاذا نزل عليه المطر واختلط به قوى وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت يعنى بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء وجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولاشك أن الأرض متى كانت على هذه الصفة فانه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه فى الانتفاع بها وبما فيها ثم إن الله سبحانه وتعالى أرسل على هذه الأرض صاعقة أو بردا أو ريحا فجعلها حصيدا كأن لم تكن من قبل . قال قتادة إن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون . ووجه التمثيل أن غاية هذه الحياة الدنيا التى ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع اليأس منه ولأن المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها وقيل يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك لأن الزرع إذا انتهى وتكامل فى الحسن إلى الغاية القصوى أتته آفة فتلف بالكلية ثم إن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادته كما كان أول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على أن من قدر على إعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادرا على إعادة الأموات أحياء فى الآخرة ليجازيهم على أعمالهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصى (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) يعنى كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفنا كم حكمها ، كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ليكون ذلك سببا موجبا لزوال الشك والشبهة من القلوب . قوله سبحانه وتعالى (والله يدعو إلى دار السلام) لما ذكر الله زهرة الحياة الدنيا وأنها فانية زائلة لامحالة دعا إلى داره والله يدعو إلى دار السلام . قال قتادة الله هو السلام وداره الجنة نعلى هذا السلام اسم من أسماء الله عز وجل ومعناه أنه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغيير وقيل إنه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لأن الخلق سلموا من ظلمه وقيل إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذى السلام أى لايقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات إلا هو وقيل دار السلام اسم للجنة وهو جمع سلامة والمعنى أن من دخلها فقد سلم من جميع الآفات ، كالموت والمرض

قال ابن عباس نبت بالماء من كل لون (مما يأكل الناس) من الحبوب والثمار (والأنعام) من الحشيش (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) حسنها وبهجتها وظهر الزهر أخضر وأحمر وأصفر وأبيض (وازينت) أى تزينت وكذلك هى فى قراءة ابن مسعود تزينت (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) على جذاذها وقطافها وحصادها رد الكناية إلى الأرض والمراد النبات إذ كان مفهوما وقيل ردها إلى الغلة وقيل إلى الزينة (أتاها أمرنا) قضاؤنا باهلاكها (ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا) أى محصودة مقطوعة (كأن لم تغن بالأمس) كأن لم تكن بالأمس وأصله من غنى بالمكان إذا أقام به ، وقال قتادة معناه أن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل مايكون (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) قوله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام) قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة وقيل السلام بمعنى السلامة سميت دار السلام الجنة لأن من دخلها سلم من الآفات وقيل المراد بالسلام التحية سميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحيى بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم قال الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ورويناعن جابر قال جاءت ملائكة إلى النبى صلى الله عليه وسلم

والمصائب

والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد، وقيل سميت الجنة دار السلام لأن الله سبحانه وتعالى يسلم على أهلها أو تسلم الملائكة عليهم ، قيل إن من كمال رحمة الله وجوده وكرمه على عباده أن دعاهم إلى جنته التي هي دار السلام . وفيه دليل على أن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لأن العظيم لا يدعو إلا إلى عظيم ولا يصف إلا عظيما ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه (ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) يعني والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم وهو دين الإسلام عم بالدعوة أولا إظهارا للحجة وخص بالدعوة ثانيا استغناء عن الخلق وإظهارا للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين (خ) عن جابر قال « جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان فقالوا إن لصاحبكم مثلا فاضربوا له مثلا فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها يفقهها فان العين نائمة والقلب يقظان فقال بعضهم الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس» وفي رواية «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني رأيت في المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا» وعن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما على كتفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والأبواب التي على كتفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه » أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب . قوله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى) قال ابن عباس للذين شهدوا أن لا إله إلا الله الجنة وقيل معناه للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه وأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم عنه الحسنى ، قال ابن الأنباري الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها وقيل معناه للذين أحسنوا المثوبة الحسنى (وزيادة) اختلف المفسرون في معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على أقوال : القول الأول أن الحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول أما المنقول فما روي عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب قال فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» زاد في رواية «ثم تلا هذه الآية : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» أخرجه مسلم وروى الطبري بسنده عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله سبحانه وتعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : للذين أحسنوا الحسنى

وهو نائم فقالوا إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا قال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها له يفقهها. قال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا الدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس» (ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فالصراط المستقيم هو الإسلام عم بالدعوة لإظهار الحجة وخص بالهداية استغناء عن الخلق قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أي للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة وزيادة وهي النظر إلى وجه الله الكريم هذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة وأبو موسى وعبادة بن الصامت

وزيادة قال النظر إلى وجه الله وعن أبي موسى الأشعري قال «إذا كان يوم القيامة بعث الله إلى أهل الجنة منادياً ينادي هل أنجزكم الله ما وعدكم به فينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول للذين أحسنوا الحسنى وزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى وفي رواية رفعها أبو موسى قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يبعث يوم القيامة وذكره بمعناه» وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم هل بقي من حقكم شيء لم تعطوه قال فيتجلى لهم عز وجل قال فيصغر عندهم كل شيء أعطوه ثم قال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه ربهم» فهذه الأخبار والآثار قد دلت على أن المراد بهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى وأما المعقول فنقول إن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرفت إلى المعهود السابق وهو الجنة في قوله سبحانه وتعالى والله يدعو إلى دار السلام فثبت بهذا أن المراد من لفظة الحسنى هي الجنة وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من النعيم وإلا لزم التكرار وإذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» فأثبت لأهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهو حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى وقالت المعتزلة لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية لأن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله ليست من جنس نعيم الجنة ولأن الأخبار التي تقدمت توجب التشبيه ولأن جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ما قلتم.

أجاب أصحابنا عن هذه الاعتراضات بأن الدلائل العقلية قد دلت على إمكان وقوع رؤية الله تعالى في الآخرة وإذا لم يوجد في العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأحاديث الصحيحة بإثبات الرؤية وجب المصير إليها وإجراؤها على ظواهرها من غير تشبيه ولا إحاطة. وأجيب عن قولهم ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه بأن المزيد عليه إذا كان بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه وإذا لم يكن بمقدار معين وجب أن تكون الزيادة مخالفة له فالمذكور في الآية لفظ الحسنى وهي الجنة ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب أن الزيادة تكون شيئاً مغايراً لنعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية. وأجيب عن قولهم ولأن جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بأنه معارض بقول جماعة من المفسرين بأن الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي والله أعلم. القول الثاني في معنى هذه الزيادة ما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب. القول الثالث أن الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف إلى تمام العشرة إلى سبعمائة. قال ابن عباس هو مثل قوله سبحانه وتعالى «ولدينا مزيد» يقول يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله. قال قتادة كان الحسن يقول الزيادة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. القول الرابع أن الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد. القول الخامس قول ابن زيد أن الحسنى هي الجنة والزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة وقوله سبحانه وتعالى (ولا يرهق وجوههم) يعني ولا يغشى وجوه أهل الجنة (قتر) أي كآبة

رضى الله عنهم وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء ومقاتل والضحاك والسدى. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم إملاء حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق الصنعاني حدثنا الأسود ابن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت يعني البناني عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن صهيب رضي الله عنه قال «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله عز وجل قال فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه» وروى عن ابن عباس أن الحسنى هي أن الحسنة بمثلها والزيادة هي التضعيف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وقال مجاهد الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة المغفرة والرضوان (ولا يرهق) لا يغشى (وجوههم قتر) غبار جمع قترة. قال ابن عباس ولا

ولا كسوف ولا غبار . وقال ابن عباس هو سواد الوجوه (ولا ذلة) يعنى ولا هوان قال ابن أبى ليلى هذا بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) يعنى أن هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبدا .

قوله سبحانه وتعالى (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) اعلم أنه لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال المحسنين وما أعد لهم من الكرامة شرح فى الآية حال من أقدم على السيئات والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى والذين كسبوا السيئات يعنى والذين عملوا السيئات والمراد بها الكفر والمعاصى جزاء سيئة بمثلها يعنى فلهم جزاء السيئة التى عملوها مثلها العقاب والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة وذلك تفضلا منه وتكرما وأما السيئات فانه يجازى عليها بمثلها عدلا منه سبحانه وتعالى (وترهقهم ذلة) قال ابن عباس يغشاهم ذل وشدة وقيل يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله إياهم (ما لهم من الله من عاصم) يعنى ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) يعنى كأنما ألبست وجوههم سوادا من الليل المظلم (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم جميعا) الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعا لموقف الحساب وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسئلوا وفى هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين (أنتم وشركاؤكم) يعنى أنتم أيها المشركون والأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله (فزيلنا بينهم) يعنى ففرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا . فان قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضى بعد قوله ثم نقول للذين أشركوا وهو منتظر فى المستقبل فما وجهه . قلت السبب فيه أن الذى حكم الله فيه بأنه سيكون صار كالكائن الآن . قوله (وقال شركاؤهم) يعنى الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله وإنما سماهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم أو لأنه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله مكانكم فقد صاروا شركاء فى هذا الخطاب (ما كنتم إيانا تعبدون) تبرأ المعبودون من العابدين. فان قلت كيف صدر هذا الكلام من الأصنام وهى جماد لا روح فيها ولا عقل لها . قلت يحتمل أن الله تعالى خلق لها فى ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام . فان قلت إذا أحياهم الله فى ذلك اليوم فهل يفنيهم أو يبقيهم . قلت الكل محتمل ولا اعتراض على الله فى شىء من أفعاله وأحوال القيامة غير معلومة إلا ما دل عليه الدليل من كتاب أو سنة . فان قلت إن الأصنام قد أنكرت أن الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها . قلت قد تقدمت هذه المسئلة وجوابها فى تفسير سورة الأنعام ونقول هنا قال مجاهد تكون فى يوم القيامة ساعة تكون فيها شدة تنصب لهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فتقول الآلهة والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم تعبدوننا فيقولون والله إياكم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) والمعنى قد علم الله وكفى به شهيدا

وقتادة سواد الوجه (ولا ذلة) هوان قال قتادة كآبة . قال ابن أبى ليلى : هذا بعد نظرهم إلى ربهم (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) أى لهم مثلها كما قال ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها (وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم) ومن صلة أى ما لهم من الله عاصم (كأنما أغشيت) ألبست (وجوههم قطعا) جمع قطعة (من الليل مظلما) نصبه على الحال دون النعت ولذلك لم يقل مظلمة تقديره قطعا من الليل فى حال ظلمته أو قطعا من الليل المظلم وقرأ ابن كثير والكسائى ويعقوب قطعا ساكنة الطاء أى بعضا كقوله بقطع من الليل (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أى الزموا مكانكم (أنتم وشركاؤكم) يعنى الأوثان معناه ثم نقول للذين أشركوا الزموا أنتم وشركاؤكم مكانكم ولا تبرحوا (فزيلنا) ميزنا وفرقنا (بينهم) أى بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا وذلك حين يتبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده (وقال شركاؤهم) يعنى الأصنام (ما كنتم إيانا تعبدون) بطلبتنا فيقولون بلى كنا نعبدكم فتقول الأصنام (فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) أى ما كنا عن عبادتكم إيانا إلا غافلين ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل قال الله تعالى

أنا ماعلمنا أنكم كنتم تعبدوننا وما كنا عن عبادتكم إيانا من دون الله إلا غافلين ما نشعر بذلك أما قوله سبحانه وتعالى (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) فهو كالتتمة للآية المتقدمة والمعنى فى ذلك المقام أو ذلك الموقف أو ذلك الوقت على معنى استعارة إطلاق اسم المكان على الزمان وفى قوله تبلوا قراءات قرئ بتاءين ولها معنيان أحدهما أنه من تلاه إذا تبعه أى تتبع كل نفس ما أسلفت لأن العمل هو الذى يهدى النفس إلى الثواب أو العقاب. الثانى أن يكون من التلاوة والمعنى أن كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير أو شر وقرئ تبلو بالتاء المثناة والباء الموحدة ومعناه تخبر وتعلم والبلو الاختبار ومعناه اختبارها ما أسلفت يعنى أنه إن قدم خيرا أو شرا قدم عليه وجوزى به (وردوا إلى الله مولاهم الحق) الرد عبارة عن صرف الشئ إلى الموضع الذى جاء منه والمعنى وردوا إلى ما ظهر لهم من الله الذى هو مالكهم ومتولى أمرهم. فان قلت قد قال الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى «وأن الكافرين لا مولى لهم» فما الفرق. قلت المولى فى اللغة يطلق على المالك ويطلق على الناصر فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعنى وبطل وذهب ما كانوا يكذبون فيه فى الدنيا وهو قولهم إن هذه الأصنام تشفع لنا. قوله عز وجل (قل من يرزقكم من السماء والأرض) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعنى المطر والأرض يعنى النبات (أم من يملك السمع والأبصار) يعنى ومن أعطاكم هذه الحواس التى تسمعون بها وتبصرون بها (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) يعنى أنه تعالى يخرج الإنسان حيا من النطفة وهى ميتة وكذلك الطير من البيضة وكذلك يخرج النطفة الميتة من الإنسان الحى ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحى وقيل معناه أنه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والقول الأول أقرب إلى الحقيقة (ومن يدبر الأمر) يعنى أن مدبر أمر السموات ومن فيها ومدبر أمر الأرض وما فيها هو الله تعالى وذلك قوله (فسيقولون الله) يعنى أنهم يعترفون أن فاعل هذه الأشياء هو الله وإذا كانوا يقرون بذلك (فقل) أى قل لهم يا محمد (أفلا تتقون) يعنى أفلا تخافون عقابه حيث تعبدون هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ من هذه الأمور (فذلكم الله ربكم الحق) يعنى فذلكم الذى يفعل هذه الأشياء ويقدر عليها هو الله ربكم الحق الذى يستحق العبادة لا هذه الأصنام (فماذا بعد الحق إلا الضلال) يعنى إذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطعية أن الله هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا وباطلا (فأنى تصرفون) يعنى إذا عرفتم هذا الأمر الظاهر الواضح فكيف تستخيرون العدول عن الحق إلى الضلال الباطل (كذلك) أى كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلا الضلال (حقت) أى وجبت (كلمة ربك) فى الأزل (على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) قيل المراد بكلمة الله قضاؤه عليهم فى اللوح المحفوظ أنهم لا يؤمنون وقضاؤه لا يرد ولا يدفع (قل هل من شركائكم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعنى هذه الأصنام التى تزعمون أنها آلهة (من يبدأ الخلق) يعنى من يقدر على أن ينشئ الخلق على غير مثال سبق (ثم يعيده) أى ثم يعيده بعد الموت كهيئته أول مرة، وهذا

(هنالك تبلوا) أى تختبر وقيل معناه تعلم وتقف عليه وقرأ حمزه والكسائى ويعقوب تتلو بتاءين اى تقرأ (كل نفس) صحيفتها وقيل معناه تتبع كل نفس ما أسلفت ما قدمت من خير أو شر وقيل معناه تعاين (وردوا إلى الله) إلى حكمه فينفرد فيهم بالحكم (مولاهم الحق) الذى يتولى ويملك أمرهم فان قيل أليس قد قال «وأن الكافرين لا مولى لهم» قيل المولى هناك الناصر وهاهنا بمعنى المالك (وضل عنهم) زال عنهم وبطل (ما كانوا يفترون) فى الدنيا من التكذيب. قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) أى من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات (أم من يملك السمع والأبصار) أى من أعطاكم السمع والأبصار (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) يخرج الحى من النطفة والنطفة من الحى (ومن يدبر الأمر) أى يقضى الأمر (فسيقولون الله) هو الذى يفعل هذه الأشياء (فقل أفلا تتقون) أفلا تخافون عقابه فى شرككم وقيل أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار (فذلكم الله ربكم) الذى يفعل هذه الأشياء هو ربكم (الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) أى فأين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرون به (كذلك) قال الكلبى هكذا حقت) وجبت (كلمة ربك) حكمه السابق (على الذين فسقوا) كفروا (أنهم لا يؤمنون) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر كلمات ربك بالجمع هاهنا موضعين وفى حم المؤمن والآخرون على التوحيد. قوله (قل هل من شركائكم) أوثانكم (من يبدأ الخلق) ينشئ الخلق من غير أصل ولا مثال (ثم يعيده)

ثم يحييه من بعد الموت كهيئته ، فان أجابوك وإلا فـ(قل) أنت (الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) أى تصرفون عن قصد السبيل (قل هل من شركائكم من يهدى) يرشد (إلى الحق) فاذا قالوا لا ولا بد لهم من ذلك (قل الله يهدى للحق) أى إلى الحق(أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى) قرأ حمزة والكسائى ساكنة الهاء خفيفة الدال وقرأ الآخرون بتشديد الدال ثم قرأ أبو جعفر وقالون بسكون الهاء وأبو عمرو يروم الهاء بين الفتح والسكون وقرأ حفص بفتح الياء وكسر الهاء وأبو بكر بكسرهما والباقون بفتحهما ومعناه يهدى فى جميعها فمن خفف الدال قال يقال هديته فهدى أى اهتدى ومن شدد الدال أدغم التاء فى الدال ثم أبو عمرو يروم على مذهبه فى إيثار التخفيف ومن سكن الهاء تركها على حالها كما فعل فى تعدو ويخصمون ومن فتح الهاء نقل فتحة التاء المدغمة إلى الهاء ومن كسر الهاء فلا لتقاء الساكنين وقال الجزم يحرك إلى الكسر ومن كسر الياء مع الهاء أتبع الكسر إلى الكسرة قوله تعالى(إلا أن يهدى) معنى الآية الله الذى يهدى إلى الحق أحق بالاتباع أم الصنم الذى لا يهتدى إلا أن يهدى. فان قيل كيف قال إلا أن يهدى والصنم لا يتصور أن يهتدى ولا أن يهدى قيل معنى الهداية فى حق الاصنام الانتقال أى أنها لاتنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تحمل وتنقل بين به عجز الأصنام وجواب آخر وهو أن ذكر الهداية على وجه المجاز وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر عمن يعلم ويعقل ووصفت بصفة من يعقل (فما لكم كيف تحكمون) كيف تقضون حين زعمتم أن لله شريكا . قوله تعالى (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا)منهم يقولون إن الأصنام آلهة وإنها تشفع لهم فى الآخرة ظنا منهم لم يرد به كتاب ولا رسول وأراد بالأكثر جميع من يقول ذلك (إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) أى لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئا وقيل لايقوم مقام العلم (إن الله عليم بما يفعلون)

السؤال استفهام إنكار (قل) أى قل أنت يامحمد (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) يعنى أن الله هو القادر على ابتداء الخلق وإعادته (فأنى تؤفكون) يعنى فأنى تصرفون عن قصد السبيل والمراد من هذا التعجب من أحوالهم كيف تركوا هذا الأمر الواضح وعدلوا عنه إلى غيره (قل) أى قل يامحمد (هل من شركائكم من يهدى إلى الحق) يعنى هل من هذه الأصنام من يقدر على أن يرشد إلى الحق فاذا قالوا لا ولابد لهم من ذلك (قل) أى قل لهم أنت يامحمد (الله يهدى للحق) يعنى أن الله هو الذى يرشد إلى الحق لاغيره (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى إلا أن يهدى) يعنى أن الله هو الذى يهدى إلى الحق فهو أحق بالاتباع لاهذه الأصنام التى لاتهتدى إلا أن تهدى. فان قلت الأصنام جماد لاتتصور هدايتها ولا أن تهدى فكيف قال إلا أن يهدى. قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوها . الأول أن معنى الهداية فى حق الأصنام الانتقال من مكان إلى مكان فيكون المعنى أنها لاتنتقل من مكان إلى مكان آخر إلا أن تحمل وتنقل ، فبين سبحانه وتعالى بهذا عجز الأصنام. الوجه الثانى أن ذكر الهداية فى حق الأصنام على وجه المجاز وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ويعلم ووصفها بهذه الصفة وإن كان الأمر ليس كذلك . الوجه الثالث يحتمل أن يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الأصنام، والمراد من قوله هل من شركائكم من يهدى إلى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين بما ظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته وأما رؤساء الكفر والضلالة فانهم لايقدرون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله إلى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره . وقوله سبحانه وتعالى (فما لكم كيف تحكمون) قال الزجاج فما لكم كلام تام كأنه قيل لهم أى شىء لكم فى عبادة هذه الأصنام ثم قال كيف تحكمون يعنى على أى حال تحكمون وقيل معناه كيف تقضون لأنفسكم بالجور حين تزعمون أن مع الله شريكا وقيل معناه بئسما حكمتم إذ جعلتم لله شريكا من ليس بيده منفعة ولا مضرة ولا هداية(وما يتبع أكثرهم إلا ظنا) يعنى وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا مالا علم لهم بحقيقته وصحته بل هم فى شك منه وريبة وقيل المراد بالأكثر الكل لأن جميع المشركين يتبعون الظن فى دعواهم أن الأصنام تشفع لهم وقيل المراد بالأكثر الرؤساء (إن الظن لايغنى من الحق شيئا) يعنى أن الشك لايغنى عن اليقين شيئا ولا يقوم مقامه وقيل فى الآية أن قولهم إن الأصنام آلهة وأنها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا رسول يعنى أنها لاتدفع عنهم من عذاب الله شيئا (إن الله عليم بما يفعلون)

يعني من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين . قوله تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) يعني وما كان ينبغي لهذا القرآن أن يختلق ويفتعل لأن معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شيء ممكن أن يفترى به على الله لأن المفترى هو الذي يأتى به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله عز وجل أن هذا القرآن وحى أنزله الله عليه وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأنه لايقدر عليه أحد إلا الله تعالى . ثم ذكر سبحانه وتعالى مايؤكد هذا بقوله (ولكن تصديق الذى بين يديه) يعني ولكن الله أنزل هذا القرآن مصدقاً لما قبله من الكتب التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل وتقرير هذا أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أمياً لايقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم اتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه أخبار الأولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما فى التوراة والإنجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لقدحوا فيه لعداوة أهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه أحد من أهل الكتاب علم بذلك أن مافيه من القصص والأخبار مطابقة لما فى التوراة والإنجيل مع القطع بأنه ماعلم مافيها فثبت بذلك أنه وحى من الله أنزله عليه وأنه مصدق لما بين يديه وأنه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل فى معنى قوله ولكن تصديق الذى بين يديه يعني من أخبار الغيوب الآتية فانها جاءت على وفق ماأخبر (وتفصيل الكتاب) يعني وتبيين مافى الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام (لاريب فيه من رب العالمين) يعني أن هذا القرآن لاشك فيه أنه من رب العالمين وأنه ليس مفترى على الله وأنه لايقدر أحد من البشر على الإتيان بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى (أم يقولون افتراه) يعني أم يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن واختلقه من قبل نفسه وهو استفهام إنكار وقيل أم بمعنى الواو أى ويقولون افتراه (قل) أى قل لهم يامحمد إن كان الأمر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) يعني بسورة شبيهة به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثلى فى الفصاحة والبلاغة . فان قلت قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فأتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما . قلت لما كان محمد صلى الله عليه وسلم أمياً لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزاً فى نفسه فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعني مع إنسان أمى مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه فى عدم الكتابة والقراءة . وأما قوله سبحانه وتعالى فأتوا بسورة مثله أى فأتوا بسورة تساوى سور القرآن فى الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعني أن السورة فى نفسها معجزة فان الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) يعني وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه (إن كنتم صادقين) يعني فى قولكم إن محمداً افتراه ثم قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يعني القرآن أى كذبوا بما لم يعلموه وقال عطاء يريد أنه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن وقيل معناه بل كذبوا بما فى القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه لأنهم كانوا ينكرون ذلك كله وقيل إنهم لما سمعوا مافى القرآن من القصص وأخبار الأمم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك أنكروها لجهلهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لأن القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة لايقدر أحد على استيعابها وتحصيلها (ولما يأتهم تأويله) يعني أنهم كذبوا به ولم يأتهم

قوله تعالى (وماكان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) قال الفراء معناه وما ينبغى لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله كقوله تعالى وما كان لنبى أن يغل وقيل أن بمعنى اللام أى وما كان هذا القرآن ليفترى من دون الله . قوله (ولكن تصديق الذى بين يديه) أي بين يدى القرآن من التوراة والانجيل وقيل تصديق الذى بين يدى القرآن من القيامة والبعث (وتفصيل الكتاب) تبيين مافى الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام(لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون) قال أبو عبيدة أم بمعنى الواو أى ويقولون (افتراه) اختلق محمد القرآن من قبل نفسه (قل فأتوا بسورة مثله) شبه القرآن (وادعوا من استطعتم) ممن تعبدون (من دون الله) ليعينوكم على ذلك (إن كنتم صادقين) أن محمدا افتراه ثم قال (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يعني القرآن كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه (ولم يأتهم تأويله) أى عاقبة

ما وعد الله فى القرآن أنه يئول اليه أمرهم من العقوبة بريد أنهم لم يعلموا مايئول اليه عاقبة أمرهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى كما كذب هؤلاء الكفار بالقرآن كذلك كذب الذين من قبلهم من كفار الأمم الخالية (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) آخر أمر المشركين بالهلاك (ومنهم من يؤمن به) أى من قومك

من يؤمن بالقرآن (ومنهم من لا يؤمن به) لعلم الله السابق فيهم (وربك أعلم بالمفسدين) الذين لايؤمنون (وإن كذبوك) يا محمد (فقل لى عملى وجزاؤه (ولكم عملكم) وجزاؤه (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) هذا كقوله تعالى « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لكم دينكم ولى دين» قال الكلبى ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية الجهاد ثم أخبر أن التوفيق للايمان به لا بغيره فقال (ومنهم من يستمعون اليك) بأسماعهم الظاهرة فلا ينفعهم (أفأنت تسمع الصم) بريد صمم القلب (ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر اليك) بأبصارهم الظاهرة (أفأنت تهدى العمى) بريد عمى القلب) ولو كانوا لا يبصرون (وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يقول إنك لا تقدر أن تسمع من سلبته السمع ولا أن تهدى من سلبته البصر ولا أن توفق للايمان من حكمت عليه

يأتيهم بعد بيان مايئول إليه ذلك الوعيد الذى توعدهم الله فى القرآن به من العقوبة ، والمعنى أنهم لم يعلموا ماتئول إليه عاقبة أمرهم وقيل معناه أنهم لم يعلموه تنزيلا ولا علموه تأويلا فكذبوا به وذلك لأنهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعنى كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الأمم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى فانظر يامحمد كيف كان عاقبة من ظلم من الأمم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس. والمعنى فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله. قوله عز وجل (ومنهم من يؤمن به) يعنى ومن قومك يامحمد . من سيؤمن بالقرآن (ومنهم من لايؤمن به) لعلم الله السابق فيه أنه لايؤمن (وربك أعلم بالمفسدين) يعنى الذين لايؤمنون (وإن كذبوك) يعنى وإن كذبك قومك يامحمد (فقل) أى فقل لهم (لى عملى) يعنى الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) يعنى الشرك وجزاء عقابه (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) قيل : المراد منه الزجر والرجوع وقال مقاتل والكلبى هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الإمام فخر الدين الرازى وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال مارفعت شيئا من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا. قوله تعالى (ومنهم) يعنى ومن هؤلاء المشركين (من يستمعون إليك) يعنى بأسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك (أفأنت تسمع الصم) يعنى كما أنك لاتقدر على إسماع الصم فكذلك لاتقدر على إسماع من أصم الله سمع قلبه (ولو كانوا لايعقلون) يعنى أن الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بمايسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال إذا لم ينتفعوا بمالم يسمعوا وهم أيضا كالصم الذين لايعقلون شيئا ولا يفهمونه لعدم التوفيق (ومنهم من ينظر إليك) يعنى بأبصارهم الظاهرة (أفأنت تهدى العمى) يريد عمى القلوب (ولو كانوا لا يبصرون) لأن الله أعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيئا من الهدى وفى هذا تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل إنك لاتقدر أن تسمع من سلبته السمع ولاتقدر أن تهدى من سلبته البصر ولا تقدر أن توفق للايمان من حكمت عليه أن لايؤمن (إن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) . قال العلماء لما حكم الله عز وجل على أهل الشقوة بالشقاوة لقضائه وقدره السابق فيهم أخبر فى هذه الآية أن تقدير الشقاوة عليهم ما كان ظلما منه لأنه يتصرف فى ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف فى ملكه لايكون ظالما وإنما قال ولكن الناس أنفسهم يظلمون لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم . قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم) يعنى واذكر يامحمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم (كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) يعنى كأنهم

أن لايؤمن (إن الله لايظلم الناس شيئا) لأنه فى جميع أفعاله متفضل عادل (ولكن الناس أنفسهم يظلمون) بالكفر والمعصية قرأ حمزة والكسائى ولكن الناس بتخفيف نون لكن ورفع الناس وقرأ الباقون ولكن الناس بتشديد نون لكن ونصب الناس قوله تعالى (ويوم يحشرهم) قرأ حفص بالياء والآخرون بالنون (كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) قال الضحاك كأن لم

(يتعارفون بينهم) يعرف بعضهم بعضا حين بعثوا من القبور كمعرفتهم فى الدنيا ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال فى القيامة وبعض الآثار أن الإنسان يعرف يوم القيامة من بجنبه ولا يكلمه هيبة وخشية (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) والمراد من الخسران خسران النفس ولا شىء أعظم منه . قوله تعالى (وإما نرينك بعض الذى نعدهم) يا محمد فى حياتك من العذاب (أو نتوفينك) قبل تعذيبهم (فالينا مرجعهم) فى الآخرة (ثم الله شهيد على ما يفعلون فيجزيهم به وثم بمعنى الواو تقديره والله شهيد قال مجاهد فكان البعض الذى أراه قتلهم ببدر وسائر أنواع العذاب بعده وتهم. قوله عز وجل (ولكل أمة) خلت (رسول فاذا جاء رسولهم) وكذبوه (قضى بينهم بالقسط) أى عذبوا فى الدنيا وأهلكوا بالعذاب يعنى قبل مجىء الرسول لا ثواب ولا عقاب وقال مجاهد ومقاتل فاذا جاء رسولهم الذى أرسل إليهم يوم القيامة قضى بينه وبينهم بالقسط (وهم لا يظلمون) لايعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولاينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم (ويقولون) الكفار

لم يلبثوا فى الدنيا إلا قدر ساعة من النهار وقيل معناه كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم إلا قدر ساعة من النهار والوجه الأول أولى لأن حال المؤمن والكافر سواء فى عدم المعرفة بمقدار لبثهم فى القبور إلى وقت الحشر فتعين حمله على أمر يختص بحال الكافر وهو أنهم لما لم ينتفعوا بأعمارهم فى الدنيا استقلوها والمؤمن لما انتفع بعمره فى الدنيا لم يستقله وسبب استقلال الكفار مدة مقامهم فى الدنيا أنهم لما ضيعوا أعمارهم فى طلب الدنيا والحرص على مافيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه وقيل إنهم لما شاهدوا أهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك استقلوا مدة مقامهم فى الدنيا لأن مقامهم فى الدنيا فى جنب مقامهم فى الآخرة قليل جدا (يتعارفون بينهم) يعنى يعرف بعضهم بعضا إذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون فى الدنيا ثم تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، وفى بعض الآثار أن الإنسان يوم القيامة يعرف من بجنبه ولا يقدر أن يكلمه هيبة وخشية، وقيل إن أحوال يوم القيامة مختلفة ففى بعضها يعرف بعضهم بعضا وفى بعضها ينكر بعضهم بعضا لهول مايعاينون فى ذلك اليوم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعنى أن من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لأنه آثر الفانى على الباقى (وما كانوا مهتدين) يعنى إلى مايصلحهم وينجيهم من هذا الخسار (وإما نرينك) يعنى يا محمد (بعض الذى نعدهم) يعنى مانعدهم به من العذاب فى الدنيا فذاك (أو نتوفينك) قبل أن نريك ذلك الوعد فى الدنيا فانك ستراه فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى (فالينا مرجعهم) يعنى فى الآخرة وفيه دليل على أن الله يرى رسوله صلى الله عليه وسلم أنواعا من عذاب الكافرين وذلهم وخزيهم فى حال حياته فى الدنيا وقد أراه ذلك فى يوم بدر وغيره من الأيام وسير به ما أعد لهم من العذاب فى الآخرة بسبب كفرهم وتكذيبهم (ثم الله شهيد على مايفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم يعنى أنه سبحانه وتعالى شاهد على أفعالهم التى فعلوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة. قوله عز وجل (ولكل أمة رسول) لما بين الله عز وجل حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين أن حال الأنبياء مع أممهم كذلك فقال تعالى ولكل أمة يعنى قد خلت وتقدمت قبلكم رسول يعنى مبعوثا إليهم يدعو إلى الله وإلى طاعته والإيمان به (فاذا جاء رسولهم) فى هذا الكلام إضمار تقديره فاذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما أرسل به إليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون (قضى بينهم بالقسط) يعنى حكم بينهم بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما أنه فى الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى كل أمة رسولا لتبليغ الرسالة وإقامة الحجة وإزالة العذر فاذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم، وبين رسلهم فى الدنيا فيهلك الكافرين وينجى رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلا لا ظلما لأن قبل مجىء الرسول لايكون ثوابا ولا عقابا. القول الثانى أن وقت القضاء فى الآخرة وذلك أن الله إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جىء بالرسل لتشهد عليهم والمراد من ذلك المبالغة فى إظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لايظلمون) يعنى من جزاء أعمالهم شيئا ولكن يجازى كل أحد على قدر عمله وقيل معناه أنهم لايعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم (ويقولون) يعنى هؤلاء

أى المشركون (متى هذا الوعد) الذى تعدنا يامحمد من العذاب وقيل قيام الساعة (إن كنتم صادقين) أنت يا محمد واتباعك (قل لاأملك لنفسى) لاأقدر لها على شىء (ضرا ولا نفعاً) أى دفع ضرولا جلب نفع (إلا ما شاء الله) أن أملكه (لكل أمة أجل) مدة مضروبة (إذا جاء أجلهم) وقت فناء أعمارهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى لا يتأخرون ولا يتقدمون قوله تعالى (قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا) ليلا (أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون) أى ماذا يستعجل من الله المشركون وقيل ماذا يستعجل من العذاب المجرمون وقد وقعوا فيه. وحقيقة المعنى أنهم كانوا يستعجلون العذاب فيقولون اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فيقول الله تعالى ماذا يستعجل يعنى إيش يعلم المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون كالرجل يقول لغيره وقد فعل قبيحا ماذا جنيت على نفسك (أثم إذا ما وقع) قيل معناه أهنالك وحينئذ وليس بحرف عطف إذا ماوقع نزل العذاب (آمنتم به) أى بالله فى وقت اليأس وقيل آمنتم به أى صدقتم بالعذاب وقت نزوله (آلآن) فيه إضمار أى يقال لكم آلآن تؤمنون حين وقع العذاب (وقد كنتم به تستعجلون) تكذيبا واستهزاء قرأ ورش عن نافع آلان بحذف الهمزة التى بعد اللام الساكنة وإلقاء حركتها على اللام ويمد الهمزة الأولى على وزن عالان وكذلك الحرف الآخر. وروى زمعة بن صالح ألان على مثال علان بغير مد ولا همزة بعد اللام وقرأ الباقون آلآن بهمزة ممدودة فى الأول وإثبات همزة بعد اللام وكذلك قالون وإسماعيل عن نافع (ثم قيل للذين ظلموا) أشركوا (ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا (ويستنبئونك) أى يستخبرونك يا محمد (أحق هو) أى ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة (قل إى وربى) أى نعم وربى (إنه لحق) لاشك فيه (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين من العذاب لأن من عجز عن شىء فقد فاته (ولو أن لكل نفس ظلمت) أى أشركت (مافى الأرض لافتدت به) يوم القيامة والافتداء هاهنا بذل ما ينجو به

الكفار (متى هذا الوعد) يعنى الذى تعدنا به يامحمد من نزول العذاب وقيل قيام الساعة وإنما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (إن كنتم صادقين) يعنى فيما تعدونا به، وإنما قالوا بلفظ الجمع لأن كل أمة قالت لرسولها كذلك أو يكون المعنى إن كنتم صادقين أنت وأتباعك يامحمد أوذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم (قل) أى قل لهم يامحمد (لاأملك لنفسى ضرا ولا نفعا) يعنى لاأملك لنفسى دفع ضر أو جلب نفع ولا أقدر على ذلك (إلا ماشاء الله) يعنى أن أقدر عليه أو أملكه والمعنى أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار النصر للأولياء وعلم قيام الساعة لايقدر عليه إلا الله فتعيين الوقت إلى الله سبحانه وتعالى بحسب مشيئته ثم إذا حضر ذلك الوقت الذى وقته الله لحدوث هذه الأشياء فانه يحدث لامحالة وهو قوله سبحانه وتعالى (لكل أمة أجل) أى مدة مضروبة ووقت معين (إذا جاء أجلهم) يعنى إذا انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى لايتأخرون عن ذلك الأجل الذى أجل لهم ولا يتقدمونه (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين من قومك (أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا) يعنى ليلا يقال بات يفعل كذا إذا فعله بالليل والسبب فيه أن الإنسان فى الليل لايكون إلا فى البيت غالبا فجعل الله هذه اللفظة كناية عن الليل (أو نهارا) يعنى فى النهار (ماذا يستعجل منه المجرمون) يعنى ماالذى يستعجلون من نزول العذاب وقد وقعوا فيه وحقيقة المعنى أنهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله «ماذا يستعجل منه المجرمون» يعنى أى شىء يعلم المجرمون مايطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لغيره وقد فعل فعلا قبيحا ماذا جنيت على نفسك (أثم إذا ماوقع) يعنى إذا مانزل العذاب ووقع (آمنتم به) يعنى آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس وقيل معناه صدقتم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع (آلآن) فيه إضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أى حين وقع العذاب (وقد كنتم به تستعجلون) يعنى تكذيبا واستهزاء (ثم قيل للذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بسبب شركهم وكفرهم بالله (ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) يعنى فى الدنيا من الأعمال. قوله سبحانه وتعالى (ويستنبئونك أحق هو) يعنى ويستخبرونك يامحمد أحق ماتعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة (قل إى وربى) أى قل لهم يامحمد نعم وربى (إنه لحق) يعنى إن الذى أعدكم به حق، لاشك فيه (وما أنتم بمعجزين) يعنى بفائتين من العذاب لأن من عجز عن شىء فقد فاته (ولو أن لكل نفس ظلمت) يعنى أشركت (مافى الأرض) يعنى من شىء (لافتدت به) يعنى يوم القيامة والافتداء بمعنى البذل لما ينجو به من العذاب إلا أنه

من العذاب (وأسروا الندامة) قال أبو عبيدة معناه أظهروا الندامة لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبر وتصنع وقيل معناه أخفوا أى أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء خوفا من ملامتهم وتعييرهم (لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط) فرغ من عذابهم (وهم لايظلمون ألا إن لله مافى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون هو يحيى ويميت وإليه ترجعون) قوله تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة) تذكرة (من ربكم وشفاء لما فى الصدور) أى دواء لما فى الصدور من داء الجهل وقيل لما فى الصدور أى شفاء لعمى القلوب والصدر موضع القلب وهو أعز موضع فى الإنسان لجوار القلب (وهدى) من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) والرحمة هى النعمة على المحتاج فانه لو أهدى ملك إلى ملك شيئا لايقال قد رحمه وإن كان ذلك نعمة فانه لم يضعها فى محتاج قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) قال مجاهد وقتادة فضل الله الإيمان ورحمته القرآن، وقال أبو سعيد الخدرى فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله. وقال ابن عمر فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه فى القلب، وقال خالد بن معدان فضل الله الإسلام ورحمته السنن وقيل فضل الله الإيمان ورحمته الجنة (فبذلك فليفرحوا) أى ليفرح المؤمنون أن جعلهم

لاينفعه الفداء ولايقبل منه (وأسروا الندامة) يعنى يوم القيامة وإنما جاء بلفظ الماضى والقيامة من الأمور المستقبلة لأن أحوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى والإسرار يكون بمعنى الإخفاء وبمعنى الإظهار فهو من الأضداد فلهذا اختلفوا فى قوله وأسروا الندامة فقال أبو عبيدة معناه وأظهروا الندامة لأن ذلك اليوم ليس يوم تصبر وتصنع وقيل معناه أخفوا يعنى أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والأتباع خوفا من ملامتهم إياهم وتعييرهم لهم (لما رأوا العذاب) يعنى حين عاينوا العذاب وأبصروه (وقضى بينهم بالقسط) يعنى وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل بين الرؤساء والأتباع وقيل بين الكفار لاحتمال أن بعضهم قد ظلم بعضا فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى (وهم لايظلمون) يعنى فى الحكم لهم وعليهم بأن يخفف من عذاب المظلوم ويشدد فى عذاب الظالم (ألا إن لله مافى السموات والأرض) يعنى أن كل شىء فى السموات والأرض لله ملك له لايشركه فيه غيره فليس للكافر شىء يفتدى به من عذاب الله يوم القيامة لأن الأشياء كلها لله وهو أيضا ملك لله فكيف يفتدى من هو مملوك لغيره بشىء لايملكه (ألا إن وعد الله حق) يعنى ماوعد الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من ثواب الطائع وعقاب العاصى حق لاشك فيه (ولكن أكثرهم لايعلمون) يعنى حقيقة ذلك (هو يحيى ويميت) يعنى الذى يملك مافى السموات والأرض قادر على الإحياء والإماتة لايتعذر عليه شىء مما أراد (وإليه ترجعون) يعنى بعد الموت للجزاء قوله عز وجل (ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) قيل أراد بالناس قريشا وقيل هو على العموم وهو الأصح وهو اختيار الطبرى قد جاءتكم موعظة من ربكم يعنى القرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب وقيل الموعظة مايدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة. والقرآن داع إلى كل خير وصلاح بهذا الطريق (وشفاء لما فى الصدور) يعنى أن القرآن ذو شفاء لما فى القلوب من داء الجهل وذلك لأن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن. وأمراض القلب هى الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة. فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها، لأن فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية: وإنما خص الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع فى بدن الإنسان لمكان القلب فيه (وهدى) يعنى وهو هدى من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) يعنى ونعمة على المؤمنين لأنهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم (قل بفضل الله وبرحمته) الباء فى بفضل الله متعلقة بمضمر استغنى عن ذكره لدلالة ماتقدم عليه وهو قوله قد جاءتكم موعظة من ربكم والفضل هنا بمعنى الإفضال ويكون معنى الآية على هذا ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهو القرآن بافضال الله عليكم ورحمته بكم وإرادته الخير لكم ثم قال سبحانه وتعالى (فبذلك فليفرحوا) أشار بذلك إلى القرآن لأن المراد بالموعظة والشفاء القرآن فترك اللفظ وأشار إلى المعنى وقيل فبذلك فليفرحوا إشارة إلى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والإنعام فليفرحوا قال الواحدى الفاء فى قوله تعالى فليفرحوا زائدة كقول الشاعر:

* فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعى * فالفاء فى قوله فاجزعى زائدة. وقال صاحب الكشاف فى معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور

المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط فكأنه قيل إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح فانه لامفروح به أحق منهما ، والفرح لذة في القلب بادراك المحبوب والمشتهى يقال فرحت بكذا إذا أدركت المأمول ولذلك أكثر مايستعمل الفرح في اللذات البدنية الدنيوية واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته أي ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه (هو خير مما يجمعون) يعني من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب أهل المعاني في هذه الآية . وأما مذهب المفسرين فغير هذا فان ابن عباس والحسن وقتادة قالوا فضل الله الإسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله .وقال ابن عمر فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا وقيل فضل الله الإسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن فعلى هذا الباء في بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره مابعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (قل) أي قل يامحمد لكفار مكة (أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق) يعني من زرع وضرع وغيرهما وعبر عما في الأرض بالإنزال لأن جميع مافي الأرض من خير ورزق فانما هو من بركات السماء (فجعلتم منه) يعني من ذلك الرزق (حراما وحلالا) يعني ماحرموه على أنفسهم في الجاهلية من الحرث والأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي . قال الضحاك وهو قوله سبحانه وتعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا» (قل آلله أذن لكم) يعني قل لهم يامحمد آلله أذن لكم في هذا التحريم والتحليل (أم على الله تفترون) يعني بل أنتم كاذبون على الله في ادعائكم أن الله أمرنا بهذا (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) يعني إذا لقوه يوم القيامة أيحسبون أنه لايؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب (إن الله لذو فضل على الناس) يعني ببعثة الرسل وإنزال الكتب لبيان الحلال والحرام (ولكن أكثرهم لايشكرون) يعني لايشكرون الله على ذلك الفضل والإحسان . قوله سبحانه وتعالى (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده والشأن الخطب والحال والأمر الذي يتفق ويصلح ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور والجمع الشئون تقول العرب ماشأن فلان أي ما حاله . والشأن اسم إذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدرا إذا كان معناه القصد والذي في هذه الآية يجوز أن يكون المراد به الاسم قال ابن عباس معناه وما تكون يامحمد في شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن في شأن من شئون الدنيا وحوائجك ويجوز أن يكون المراد منه القصد يعني قصد الشيء وما تتلو منه من قرآن اختلفوا في الضمير في منه إلى ماذا يعود فقيل يعود إلى الشأن إذ تلاوة القرآن شأن من شئون رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو أعظم شئونه فعلى هذا يكون داخلا تحت قوله تعالى وما تكون في شأن إلا أنه سبحانه وتعالى خصه بالذكر لشرفه وعلو مرتبته ، وقيل إنه راجع إلى القرآن لأنه قد تقدم ذكره في قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته ، فعلى هذا يكون المعنى وما تتلو من القرآن من قرآن يعني من سورة وشيء منه لأن لفظ القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه وقيل الضمير في منه راجع إلى الله والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك . وأما قوله سبحانه وتعالى (ولا تعملون من عمل) فانه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته

الله من أهله (هو خير مما يجمعون) أي مما يجمعه الكفار من الأموال وقيل كلاهما خبر عن الكفار وقيل عن المؤمنين وقرأ أبو جعفر وابن عامر فليفرحوا بالياء وتجمعون بالتاء وقرأ يعقوب كلاهما بالتاء ووجه هذه القراءة أن المراد فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما يجمعونه من الأموال مختلف عنه خطابا للمؤمنين (قل) يامحمد لكفار مكة (أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق) عبر عن الخلق بالإنزال لأن ما في الأرض من خير فمما أنزل الله من رزق من زرع وضرع (فجعلتم منه حراما وحلالا) هو ماحرموا من الحرث ومن الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي . قال الضحاك هو قوله تعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا» (قل آلله أذن لكم) في هذا التحريم والتحليل (أم) بل (على الله تفترون) وهو قولهم والله أمرنا بها (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أيحسبون أن الله لايؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه (إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) قوله عز وجل (وما تكون) يامحمد (في شأن) عمل من الأعمال وجمعه شئون (وما تتلوا منه) من الله (من قرآن) نازل وقيل منه أي من الشأن من قرآن نزل فيه ثم خاطبه وأمته فقال (ولا تعملون من عمل

(إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) أى تدخلون وتخوضون فيه الهاء عائدة إلى العمل والإفاضة الدخول فى العمل وقال ابن الأنبارى تندفعون فيه وقيل تكثرون والإفاضة الدفع بكثرة (وما يعزب عن ربك) يغيب عن ربك وقرأ الكسائى يعزب بكسر الزاى وكذلك فى سورة سبأ . وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان (من مثقال ذرة) أى مثقال ذرة ومن صلة والذرة هى النملة الحمراء الصغيرة (فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك) أى من الذرة (ولا أكبر) قرأ حمزة ويعقوب برفع الراء فيهما عطفا على موضع المثقال قبل دخول من . وقرأ الآخرون بنصبهما إرادة للكسرة عطفا على الذرة فى الكسرة (إلا فى كتاب مبين) وهو اللوح المحفوظ قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) اختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم قال بعضهم هم الذين ذكرهم الله

داخلون فيه ومرادون به لأن من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ولا تعملون من عمل على صيغة الجمع فدل على أنهم داخلون فى الخطابين الأولين وقوله سبحانه وتعالى (إلا كنا عليكم شهودا) يعنى شاهدين لأعمالكم وذلك لأن الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شئ وعالم بكل شئ لأنه لامحدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى فكل مايدخل فى الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل فى علمه وهو شاهد عليه (إذ تفيضون فيه) يعنى أن الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون فى ذلك العمل. والإفاضة الدخول فى العمل على جهة الانتصاب إليه والانبساط فيه وقال ابن الأنبارى معناه إذ تدفعون فيه وتنبسطون فى ذكره وقيل الإفاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنشرون فيه يقال أفاض القوم فى الحديث إذا انتشروا فيه (وما يعزب عن ربك) يعنى وما يبعد ويغيب عن ربك يامحمد من عمل خلقه شئ لأنه عالم به وشاهد عليه وأصل العزوب البعد يقال منه كلام عازب إذا كان بعيد المطلب (من مثقال ذرة) يعنى وزن ذرة والمثقال الوزن والذرة النملة الصغيرة الحمراء وهى خفيفة الوزن جدا (فى الأرض ولا فى السماء) فان قلت لم قدم ذكر الأرض على السماء هنا وقدم ذكر السماء على الأرض فى سورة سبأ وما فائدة ذلك ؟ قلت كان حق السماء أن تقدم على الأرض كما فى سورة سبأ إلا أنه تعالى لما ذكر فى هذه الآية شهادته على أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ثم وصل ذلك بقوله وما يعزب عن ربك حسن تقديم الأرض على السماء فى هذا الموضع لهذه الفائدة (ولا أصغر من ذلك) يعنى من الذرة (ولا أكبر) يعنى منها (إلا فى كتاب مبين) يعنى فى اللوح المحفوظ . قوله سبحانه وتعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) اعلم أننا نحتاج أولا فى تفسير هذه الآية أن نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولى فنقول : اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس فى هذه الآية هم الذين يذكر الله لرؤيتهم وروى الطبري بسنده عن سعيد ابن جبير مرسلا قال «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله فقال هم الذين إذا رؤوا ذكر الله» وقال ابن زيد هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الإيمان إلا بالتقوى. وقال قوم هم المتحابون فى الله ويدل على ذلك ماروى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله لأناسا ماهم بأنبياء ولا بشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتقاطعونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لايخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون» أخرجه أبو داود . عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى» أخرجه مسلم . عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله تعالى المتحابون بجلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» أخرجه الترمذى. وروى البغوى بسنده عن أبى مالك الأشعرى قال كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال «إن لله عبيدا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة قال وفى ناحية القوم أعرابى فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال حدثنا يارسول الله عنهم من هم قال فرأيت فى وجه رسول الله ﷺ البشر فقال هم عباد

من

فقال (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال قوم هم المتحابون فى الله. أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحى انا ابوالحسن على بن محمد ابن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا أحمد بن منصور الرمادى حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن أبى حسين عن شهر بن حوشب عن أبى مالك الأشعرى قال كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال «إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة قال وفى ناحية القوم أعرابى فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال حدثنا يارسول الله عنهم من هم ؟ قال فرأيت فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم البشر فقال هم عباد من عباد الله من بلدان شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتباذلون بها يتحابون بروح الله يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون» ورواه عبد الله بن المبارك عن عبد الحميد ابن بهرام قال حدثنا شهر ابن حوشب حدثنى عبد الرحمن بن غنم عن أبى مالك الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم، وفى بعض الأخبار المرفوعة أن النبى ﷺ « سئل من أولياء الله ؟ فقال الذين إذا رؤوا ذكر الله» وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى إن أوليائى من عبادى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم» قوله تعالى (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) اختلفوا فى هذه البشرى ، روى عن عبادة بن الصامت قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى لهم البشرى فى الحياة الدنيا قال هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا

من عباد الله ومن بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتباذلون بها يتحابون بروح الله يجعل وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن ، يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون وروى عن النبى ﷺ قال : « قال الله تبارك وتعالى إن أوليائى من عبادى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم » كذا ذكره البغوى بغير سند وروى الطبرى بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء» قيل من هم يارسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لايخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون» الغبطة نوع من الحسد إلا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة أن الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هى أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التى هى على المغبوط من غير زوال عنه . وقال أبو بكر الأصم أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة إليه . وأصل الولى من الولاء وهو القرب والنصرة فولى الله هو الذى يتقرب إلى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتغلا بالله مستغرق القلب فى معرفة نور جلال الله فان رأى رأى دلائل قدرة الله وإن سمع سمع آيات الله وإن نطق نطق بالثناء على الله وإن تحرك تحرك فى طاعة الله وإن اجتهد اجتهد فيما يقربه إلى الله لايفتر عن ذكر الله ولايرى بقلبه غير الله ، فهذه صفة أولياء الله وإذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى «الله ولى الذين آمنوا» . وقال المتكلمون ولى الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ويكون آتيا بالأعمال الصالحة على وفق ماوردت به الشريعة وإليه الإشارة بقوله « الذين آمنوا وكانوا يتقون» وهو أن الإيمان مبنى على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو أن يتقى العبد كل مانهى الله عنه وقوله سبحانه وتعالى لاخوف عليهم يعنى فى الآخرة إذا خاف غيرهم ولاهم يحزنون يعنى على شئ فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها . قال بعض المحققين زوال الخوف والحزن عنهم إنما يحصل لهم فى الآخرة لأن الدنيا لاتخلو من هم وغم وأنكاد وحزن . قال بعض العارفين إن الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله وإذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شئ ولا يحزن على شئ لأن مقام الولاية والمعرفة منعه من أن يخاف أو يحزن . وأما قوله سبحانه وتعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) فقد تقدم تفسيره وأنه صفة لأولياء الله . وقوله سبحانه وتعالى (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) اختلفوا فى هذه البشرى ، فروى عن عبادة بن الصامت قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى لهم البشرى فى الحياة الدنيا قال هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» أخرجه الترمذى . وله عن رجل من أهل مصر قال « سألت أبا الدرداء عن هذه الآية لهم البشرى فى الحياة الدنيا قال ماسألنى عنها أحد منذ

أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري حدثني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة» وقيل البشرى في الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة. أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحي أنا عبد الرزاق بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي حدثنا علي بن الجعد أنا شعبة عن أبي عمران الجوني قال سمعت عبد الله بن الصامت قال «قال أبو ذر يا رسول الله الرجل يعمل لنفسه ويحبه الناس قال تلك عاجل بشرى المؤمن» وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن يحيى ابن يحيى عن حماد بن زيد عن أبي عمران وقال ويحمده الناس عليه وقال الزهري وقتادة هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون وقال عطاء عن ابن عباس البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله ويبشر برضوان الله وقال الحسن هي ما بشر الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه كقوله «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وبشر المؤمنين ـ وأبشروا بالجنة» وقيل بشرهم في الدنيا

سألت رسول الله ﷺ عنها وقال ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» قال الترمذي حديث حسن (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» لفظ البخاري ولمسلم «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة» والرؤيا ثلاث: الرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه. قال بعض العلماء ووجه هذا القول أنا إذا حملنا قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحصل هذه الحالة إلا لهم، وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل ومن كان كذلك فانه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته ومن المعلوم أن معرفة الله في القلب لا تفيد إلا الحق والصدق فاذا رأى الولي رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولي. قال الخطابي في هذه الأحاديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها وإنما كانت جزءا من أجزاء النبوة في حق الأنبياء دون غيرهم وكان الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في اليقظة قال الخطابي قال بعض العلماء معنى الحديث أن الرؤيا تأتي على موافقة النبوة لأنها جزء من النبوة وقال الخطابي وغيره في معنى قوله الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة أقام النبي ﷺ في النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى في المنام الوحي فهي جزء من ستة وأربعين جزءا وقيل إن المنام لعل أن يكون فيه إخبار بغيب وهو أحد مراتب النبوة وهو يسير في جانب النبوة لأنه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبيا يشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر بغيب أبدا. فاذا وقع لأحد في المنام الإخبار بغيب يكون هذا القدر جزءا من النبوة لا أنه نبي، وإذا وقع ذلك لأحد في المنام يكون صدقا والله أعلم. وقيل في تفسير الآية أن المراد بالبشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة ويدل على ذلك ما روي عن أبي ذر قال «قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن» أخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين النووي قال العلماء معنى هذا البشرى المعجلة له بالخير، وهي دليل للبشرى المؤخرة له في الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له، وتحبيبه إلى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول في الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم قال بعض المحققين إذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نورا فيفيض من ذلك النور الذي في قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع فيحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه وقال الزهري وقتادة في تفسير البشرى هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ويدل عليه، قوله سبحانه وتعالى «تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون» وقال عطاء عن ابن عباس البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم

الملائكة بالبشارة وفى الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هى مابشر الله به المؤمنين فى كتابه من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى (لاتبديل لكلمات الله) يعنى لاخلف لوعد الله الذى وعد به أولياءه وأهل طاعته فى كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغير لذلك الوعد (ذلك هو الفوز العظيم) يعنى ماوعدهم به فى الآخرة (ولا يحزنك قولهم) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولا يحزنك يامحمد قول هؤلاء المشركين لك ولا يغمك تخويفهم إياك (إن العزة لله جميعا) يعنى أن القهر والغلبة والقدرة لله جميعا هو المنفرد بها دون غيره وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم . وقال سعيد بن المسيب إن العزة لله جميعا فيعز من يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى فى آية أخرى «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ولا منافاة بين الآيتين فان عزة الرسول صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين باعزاز الله إياهم فثبت بذلك أن العزة لله جميعا وهو الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل إن المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله سبحانه وتعالى أن جميع ذلك لله وفى ملكه فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع) لأقوالكم ودعائكم (العليم) بجميع أحوالكم لاتخفى عليه خافية . قوله سبحانه وتعالى (ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض) ألا كلمة تنبيه معناه أنه لاملك لأحد فى السموات ولا فى الأرض إلا لله عز وجل فهو يملك من فى السموات ومن فى الأرض . فان قلت قال سبحانه وتعالى فى الآية التى قبل هذه ألا أن لله مافى السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى فى هذه الآية بلفظة من فما فائدة ذلك؟ قلت إن لفظة ماتدل على مالا يعقل ولفظة من تدل على من يعقل فمجموع الآيتين يدل على أن الله عز وجل يملك جميع من فى السموات ومن فى الأرض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفى ملكه . وقيل إن لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن فى السموات الملائكة العقلاء ومن فى الأرض الإنس والجن وهم العقلاء أيضا وإنما خصهم بالذكر لشرفهم وإذا كان هؤلاء العقلاء المميزون فى ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الأولى أن يكونوا فى ملكه إذا ثبت هذا فتكون الأصنام التى يعبدها المشركون أيضا فى ملكه وتحت قبضته وقدرته ويكون ذلك قدحا فى جعل الأصنام شركاء لله معبودة دونه (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) لفظة ما استفهامية معناه وأى شىء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعنى أنهم ليسوا على شىء لأنهم يعبدونها على أنها شركاء لله تشفع لهم وليس الأمر على مايظنون وهو قوله سبحانه وتعالى (إن يتبعون إلا الظن) يعنى أن فعلهم ذلك ظن منهم أنها تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله وذلك ظن منهم لاحقيقة له (وإن هم إلا يخرصون) يعنى إن هم إلا يكذبون فى دعواهم ذلك . قوله عز وجل (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) يعنى هو الله ربكم الذى خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه ولزول التعب والكلال بالسكون فيه ، وأصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصرا وجعل النهار مضيئا لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب معايشكم وأضاف الإبصار إلى النهار وإنما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوما من كلام العرب معناه خاطبهم بلغتهم وما يفهمونه قال جرير :

لقد لمتنا ياأم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطى بنائم

لاتغيير لقوله ولا خلف لوعده (ذلك هو الفوز العظيم ولايحزنك قولهم) يعنى قول المشركين قرأ نافع ولايحزنك بضم الياء وكسر الزاى وقرأ الآخرون يحزنك بفتح الياء وضم الزاى وهما لغتان يقال حزنه الشىء يحزنه وأحزنه تم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال (إن العزة لله) يعنى الغلبة والقدرة لله (جميعا) هو ناصرك وناصر دينك والمنتقم منهم . قال سعيد ابن المسيب إن العزة لله جميعا يعنى إن الله يعز من يشاء كما قال فى آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وعزة الرسول والمؤمنين بالله فهى كلها لله (هو السميع العليم ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) ما استفهام معناه وأى شىء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء وقيل وما يتبعون حقيقة لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا وليس على مايظنون (إن يتبعون إلا الظن) يظنون أنها تقربهم إلى الله (وإن هم إلا يخرصون) يكذبون (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) مضيئا يبصر فيه كقولهم ليل نائم وعيشة راضية قال قطرب تقول العرب : أظلم الليل وأضاء

عليه إلا عالم قادر (قالوا) يعنى المشركين (اتخذ الله ولدا) وهو قولهم الملائكة بنات الله (سبحانه هو الغنى) عن خلقه (له ما فى السموات وما فى الأرض) عبيدا وملكا (إن عندكم) ما عندكم (من سلطان) حجة وبرهان ومن صلة تقديره ما عندكم سلطان (بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) لا ينجون وقيل لا يبقون فى الدنيا ولكن (متاع) قليل يتمتعون به وبلاغ ينتفعون به إلى انقضاء آجالهم ومتاع رفع باضمار أى هو متاع (فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) قوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح) أى اقرأ يا محمد على أهل مكة خبر نوح (إذ قال لقومه) وهم ولد قابيل (يا قوم إن كان كبر عليكم) عظم وثقل عليكم (مقامى) طول عمرى ومكثى فيكم (وتذكيرى) ووعظى إياكم (بآيات الله) بحججه وبيناته فعزمتم على قتلى وطردى (فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم) أى أحكموا أمركم واعزموا عليه

فأضاف النوم إلى الليل ووصفه به وإنما عنى نفسه وأنه لم يكن نائما هو ولا بعيره وهذا من باب نقل الاسم من المسبب إلى السبب قال قطرب تقول العرب أظلم الليل وأبصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء . قوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) يعنى يسمعون سمع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك أن الذى خلق هذه الأشياء كلها هو الإله المعبود المنفرد بالوحدانية فى الوجود (قالوا) يعنى المشركين (اتخذ الله ولدا) يعنى به قولهم الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد (هو الغنى) يعنى أنه سبحانه وتعالى هو الغنى عن جميع خلقه فكيف يليق بجلاله اتخاذ الولد وإنما يتخذ الولد من هو محتاج إليه والله تعالى هو الغنى المطلق وجميع الأشياء محتاجة إليه وهو غنى عنها (له ما فى السموات وما فى الأرض) يعنى أنه مالك ما فى السموات وما فى الأرض وكلهم عبيده وفى قبضته وتصرفه وهو محدثهم وخالقهم . ولما نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد عطف على من قال ذلك بالإنكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى (إن عندكم من سلطان بهذا) يعنى أنه لا حجة عندكم على هذا القول البتة ثم بالغ فى الإنكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) يعنى أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا تجوز إضافته إليه جهلا منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان (قل إن الذين يفترون على الله الكذب) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل ويزعمون أن له ولدا (لا يفلحون) يعنى لا يسعدون وإن اغتروا بطول السلامة والبقاء فى النعمة . والمعنى أن قائل هذا القول لا ينجح فى سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر قال الزجاج هذا وقف تام يعنى قوله لا يفلحون ثم ابتدأ فقال تعالى (متاع فى الدنيا) وفيه إضمار تقديره لهم متاع فى الدنيا يتمتعون به مدة أعمارهم وانقضاء آجالهم فى الدنيا وهى أيام يسيرة بالنسبة إلى طول مقامهم فى العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى (ثم إلينا مرجعهم) يعنى بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) يعنى ذلك العذاب بسبب ما كانوا يجحدون فى الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله . قوله سبحانه وتعالى (واتل عليهم نبأ نوح) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك فى بيان قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ليكون فى ذلك لرسول الله ﷺ أسوة بمن سلف من الأنبياء وتسلية له ليخف عليه ما يلقى من أذى قومه وأن الكفار من قومه إذا سمعوا هذه القصص وما جرى لكفار الأمم الماضية من العذاب والهلاك فى الدنيا كان ذلك سببا لخوف قلوبهم وداعيا لهم إلى الإيمان . ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكا وأعظمهم كفرا وجحودا ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال سبحانه وتعالى واتل عليهم نبأ نوح يعنى واقرأ على قومك يا محمد خبر قوم نوح (إذ قال لقومه يا قوم) وهم بنو قابيل (إن كان كبر) يعنى ثقل (عليكم مقامى) يعنى فيكم (وتذكيرى بآيات الله) يعنى ووعظى إياكم بآيات الله وقيل معناه إن كان ثقل وشق عليكم طول مقامى فيكم وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيرى بآيات الله يعنى ووعظى بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلى وطردى (فعلى الله توكلت) يعنى فهو حسبى وثقتى (فأجمعوا أمركم يعنى)

فأحكموا

(وشركاءكم) أى وادعوا شركاءكم أى آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم وقال الزجاج معناه فأجمعوا أمركم مع شركائكم فلما ترك مع انتصب وقرأ يعقوب وشركاؤكم رفع أى فاجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم وقرأ رويس عن يعقوب فأجمعوا بوصل الألف وفتح الميم والوجه من جمع يجمع والمراد فأجمعوا ذوى أمركم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والمعنى أجمعوا رؤساءكم (ثم لايكن أمركم عليكم غمة) أى خفيا مبهما من قولهم غم الهلال على الناس أى أشكل عليهم وخفى (ثم اقضوا إلى) أى امضوا ما فى أنفسكم وافرغوا منه يقال قضى فلان إذا مات ومضى وقضى دينه إذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا إلى بالقتل والمكروه وقيل فاقضوا ما أنتم قاضون وهذا مثل قول السحرة لفرعون فاقض ما أنت قاض أى اعمل ما أنت عامل (ولا تنظرون) ولاتؤخرون وهذا على طريق التعجيز أخبر الله عن نوح أنه كان واثقا بنصر الله تعالى غير خائف من كيد قومه علما منهم بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضر إلا أن يشاء الله (فان توليتم) أعرضتم عن قولى وقبول نصحى (فما سألتكم) على تبليغ الرسالة والدعوة (من أجر) من جعل وعوض (إن أجري) ما أجرى وثوابى (إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) أى من المؤمنين وقيل من المستسلمين لأمر الله (فكذبوه) يعنى نوحا (فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف) أى جعلنا الذين معه فى الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا (ثم بعثنا من بعده رسلا) أى من بعد نوح رسلا (إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) بالدلالات الواضحات (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أى بما كذب به قوم نوح من قبل (كذلك نطبع) أى نختم (على قلوب المعتدين ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه) يعنى أشراف قومه

فأحكموا أمركم واعزموا عليه قال الفراء الإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر وقال ابن الأنبارى المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لاتدعوا من أمركم شيئا إلا أحضرتموه (وشركاءكم) يعنى وادعوا شركاءكم يعنى آلهتكم فاستعينوا بها لتجمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لاتضر ولاتنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) يعنى لايكن أمركم عليكم خفيا مبهما ولكن ليكن أمركم ظاهرا منكشفا من قولهم غم الهلال فهو مغموم إذا خفى والتبس على الناس (ثم اقضوا) ثم امضوا (إلى) بما فى أنفسكم من مكروه وما توعدونى به من قتل وطرد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان إذا مات ومضى وقيل معناه ثم اقضوا ما أنتم قاضون (ولاتنظرون) أى ولا تؤخرونى ولاتمهلونى بعد إعلامكم إياى ما أنتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم أخبر الله عز وجل عن نوح عليه السلام أنه كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله وأنه كان واثقا بنصره غير خائف من كيدهم علما منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولاضر وإن مكرهم لايصل إليه (فان توليتم) يعنى فان أعرضتم عن قولى وقبول نصحى (فما سألتكم من أجر) يعنى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فاذا لم يأخذ على تبليغ الدعوة إلى الله شيئا كان أقوى تأثيرا فى النفس (إن أجرى إلا على الله) أى ما ثوابى وجزائي على تبليغ الرسالة إلا على الله (وأمرت أن أكون من المسلمين) يعنى أنى أمرت بدين الإسلام وأنا ماض فيه غير تارك له سواء قبلتموه أم لم تقبلوه وقيل معناه وأمرت أن أكون من المستسلمين لأمر الله ولكل مكروه يصل إلى منكم لأجل هذه الدعوة (فكذبوه) يعنى فكذبوا نوحا عليه السلام (فنجيناه ومن معه فى الفلك) يعنى فى السفينة (وجعلناهم خلائف) يعنى وجعلنا الذين نجيناهم معه فى الفلك سكان الأرض بعد الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى فانظر يا محمد أو يا أيها الإنسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك (ثم بعثنا من بعده) يعنى من بعد نوح (رسلا إلى قومهم) لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعد نوح هود وصالح وغيرهما من الرسل (فجاءوهم بالبينات) يعنى بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التى تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) يعنى أن أولئك الأقوام والأمم التى جاءتهم الرسل جروا على منهاج قوم نوح فى التكذيب ولم يزجرهم ما جاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والتكذيب (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يعنى مثل إغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحا كذلك نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم فى التكذيب. قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعنى من بعد الرسل (موسى وهرون إلى فرعون وملئه) يعنى أشراف

(بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم) يعني جاء فرعون وقومه (الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) تقدير الكلام أتقولون للحق لما جاءكم سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه (ولا يفلح الساحرون قالوا) يعني فرعون وقومه لموسى (أجئتنا لتلفتنا) لتصرفنا وقال قتادة لتلوينا (عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء) الملك السلطان (فى الأرض) أرض مصر وقرأ أبو بكر ويكون بالياء (وما نحن لكما بمؤمنين) بمصدقين (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السحر) قرأ أبو عمرو وأبوجعفر آلسحر بقطع الألف والمد على الاستفهام وما فى هذه القراءة للاستفهام وليست بموصولة ، وهى مبتدأة وجئتم به خبرها والمعنى أى شىء جئتم به وقوله آلسحر بدل عنها وقرأ الباقون ماجئتم به السحر بوصل الألف من غير مد وما فى هذه القراءة موصولة بمعنى الذى وجئتم به صلتها وهى مع الصلة فى موضع الرفع بالابتداء وقوله السحر خبره أى الذى جئتم به السحر وتقوى هذه القراءة قراءة ابن مسعود ماجئتم به سحر بغير الألف واللام (إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته) بآياته (ولو كره المجرمون فما آمن لموسى) لم يصدق موسى مع ما آتاهم به من الآيات (إلا ذرية من قومه) اختلفوا فى الهاء التى فى قومه قيل هى راجعة إلى موسى وأراد بهم مؤمنى بنى إسرائيل الذين كانوا بمصر عليه

قومه (بآياتنا فاستكبروا) يعني عن الإيمان بما جاء به موسى وهرون (وكانوا قوما مجرمين) يعني مكتسبين للاثم (فلما جاءهم الحق من عندنا) يعني فلما جاء فرعون وقومه الحق الذى جاء به موسى من عند الله (قالوا إن هذا لسحر مبين) يعني أن هذا الذى جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الإنكار يعني أنه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال (ولا يفلح الساحرون) يعني حاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبدا (قالوا) يعني قال قوم فرعون لموسى (أجئتنا لتلفتنا) يعني لتصرفنا وتلوينا (عما وجدنا عليه آباءنا) يعني من الدين (وتكون لكما الكبرياء) يعني الملك والسلطان (فى الأرض) يعني فى أرض مصر والخطاب لموسى وهارون . قال الزجاج سمى الملك كبرياء لأنه أكبر مايطلب من أمر الدنيا (وما نحن لكما بمؤمنين) يعني بمصدقين (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) يعني أن فرعون أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهر أن ما أتى به موسى سحر (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) إنما أمرهم موسى بإلقاء ما معهم من الحبال والعصى التى فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد (فلما ألقوا) يعني ما معهم من الحبال والعصى (قال موسى ما جئتم به السحر) يعني الذى جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم (إن الله سيبطله) يعني يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) يعني لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه (ويحق الله الحق) يعني ويظهر الله الحق ويقويه ويعليه (بكلماته) يعني وعده الصادق لموسى أنه يظهره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة (ولو كره المجرمون) . قوله سبحانه وتعالى (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) لما ذكر الله عز وجل ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه وإنما ذكر الله عز وجل هذا تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به واستمرارهم على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى أن له أسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الذى جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن معه إلا ذرية. والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا فى هاء الكناية فى قومه فقيل إنها راجعة إلى موسى وأراد بهم قوم موسى وهم بنو إسرائيل الذين كانوا معه بمصر من أولاده . قال مجاهد هم أولاد يعقوب الذين أرسل إليهم موسى هلك الآباء وبقى الأبناء وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون لما أمر بقتل أبناء بنى إسرائيل كانت المرأة فى بنى إسرائيل إذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا

وخرجوا معه قال مجاهد كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل هلك الآباء وبقي الأبناء وقال الآخرون الهاء راجعة إلى فرعون وروى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطة ابنته وعن ابن عباس رواية أخرى أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا عليه من القتل فنشئوا عند القبط وأسلموا في اليوم الذي غلبت السحرة قال الفراء سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم (على خوف من فرعون وملئهم) قيل أراد بفرعون آل فرعون أي على خوف من آل فرعون وملئهم كما قال واسأل القرية أي أهل القرية وقيل إنما قال وملئهم وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر يفهم منه هو وأصحابه كما يقال قدم الخليفة يراد هو ومن معه وقيل أراد ملأ الذرية فان ملأهم كانوا من قوم فرعون (أن يفتنهم) أي يصرفهم عن دينهم ولم يقل يفتنوهم لأنه أخبر عن فرعون وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون (وإن فرعون لعال) لمتكبر (في الأرض وإنه لمن المسرفين) المجاوزين الحد لأنه كان عبدا فادعى الربوبية (وقال موسى لقومه) لمؤمني قومه (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا اعتمدنا ثم دعوا فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أي لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بأيديهم فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على الحق لما عذبوا ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) قوله تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه) هرون (أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا

عليه من القتل فنشئوا بين القبط فلما كان اليوم الذي غلب موسى فيه السحرة آمنوا به وقال ابن عباس ذرية من قومه يعني من بني إسرائيل وقيل إنها راجعة إلى فرعون يعني إلا ذرية من قوم فرعون. روى عطية عن ابن عباس قال هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطة ابنته. قال الفراء سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل فكان الرجل يتبع أمه وأخواله في الإيمان وذلك كما يقال لأولاد فارس الذين دخلوا إلى اليمن الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس الآباء (على خوف من فرعون وملئهم) الملأ الأشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن أشرافهم وهم ملأ الذرية لأنه كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل وقيل أراد بالملأ ملأ فرعون وإنما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له (أن يفتنهم) أي يصرفهم ويصدهم عن الإيمان وإنما قال أن يفتنهم ولم يقل أن يفتنوهم لأن قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لأمره (وإن فرعون لعال في الأرض) يعني أنه لغالب قهار متكبر فيها (وإنه لمن المسرفين) يعني من المجاوزين الحد لأنه كان عبدا فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل (وقال موسى) يعني لقومه (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) يعني فبه فثقوا ولأمره فسلموا فإنه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (إن كنتم مسلمين) يعني إن كنتم مستسلمين لأمره قيل إنما أعيد قوله إن كنتم مسلمين بعد قوله إن كنتم آمنتم بالله لإرادة إن كنتم موصوفين بالإيمان القلبي وبالإسلام الظاهري ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان وأن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره (فقالوا) يعني قال قوم موسى مجيبين له (على الله توكلنا) يعني عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) يعني لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا وكفرا وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) يعني وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة قوله عز وجل (وأوحينا إلى موسى وأخيه) هرون (أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) يعني اتخذوا لقومكما بمصر بيوتا للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتا إذا اتخذه مباءة

 (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال أكثر المفسرين كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا فى كنائسهم وبيعهم وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة فأمروا أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون هذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس وقال مجاهد خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا فى الكنائس الجامعة فأمروا أن يجعلوا فى بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرا معناه واجعلوا وجوه بيوتكم إلى القبلة وروى ابن جريج عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت الكعبة قبلة موسى ومن معه (وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) يا محمد قوله تعالى (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة) من متاع الدنيا (وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) اختلفوا فى هذه اللام قيل هى لام كى معناه آتيتهم كى تفتنهم فيضلوا ويضلوا عن سبيلك كقوله «لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه» وقيل هى لام العاقبة يعنى ليضلوا فيكون عاقبة أمرهم الضلال كقوله «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا» ويفتتح

أى وطنا والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتا ترجعون إليها للصلاة والعبادة (واجعلوا بيوتكم قبلة) اختلف أهل التفسير فى معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال أراد بالبيوت المساجد التى يصلى فيها وفسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة فعلى هذا يكون معنى الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم إلى القبلة. واختلفوا فى هذه القبلة وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها إلا أنه قد نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة لموسى وهرون وهو قول مجاهد أيضا قال ابن عباس قالت بنو إسرائيل لموسى لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله لهم أن يصلوا فى بيوتهم وأن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة إلى جهة المقدس وقيل أراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أى مقابلة يعنى يقابل بعضها بعضا وقيل معناه واجعلوا فى بيوتكم قبلة تصلون إليها. فان قلت إنه سبحانه وتعالى خص موسى وهرون بالخطاب فى أول الآية بقوله سبحانه وتعالى وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما ثم إنه عم بهذا الخطاب فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة فما السبب فيه. قلت إنه سبحانه وتعالى أمر موسى وهارون بأن يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يخص به الأنبياء فخصا بالخطاب لذلك. ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عم بالخطاب الجميع فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة (وأقيموا الصلاة) يعنى فى بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل من فرعون وقومه إذا صلوا فى الكنائس والبيع الجامعة أن يؤذهم فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يصلوا فى بيوتهم خفية من فرعون وقومه وقيل كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا فى الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فأمروا أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون. وقيل إن الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى وهرون وأظهرهما على فرعون أمرهم باتخاذ المساجد ظاهرة على رغم الأعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله سبحانه وتعالى (وبشر المؤمنين) يعنى بأنه لا يصل إليهم مكروه. قوله سبحانه وتعالى (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) لما أتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى أن القوم مصرون على الكفر والعناد والإنكار لما جاء به أخذ فى الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب إقدامه على الجرائم التى كانت سبب إصراره على ما يوجب الدعاء عليه. ولما كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها لاجرم أن موسى لما أخذ فى الدعاء قدم هذه المقالة فقال «ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا» والزينة عبارة عما يتزين به اللباس والدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر والأشياء الجميلة والمال ما يزاد على هذه الأشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى (ربنا ليضلوا عن سبيلك) اختلفوا فى هذه اللام فقال الفراء هى لام كى فعلى هذا يكون المعنى ربنا إنك جعلت هذه الأموال سببا لضلالهم لأنهم بطروا وطغوا فى الأرض واستكبروا عن الإيمان. وقال الأخفش إنما هى لما يؤول إليه الأمر والمعنى إنك أتيت فرعون وملأه زينة فى الحياة الدنيا فضلوا فعلى هذا هى لام العاقبة يعنى فكان عاقبتهم الضلال وقال ابن الأنبارى هى لام الدعاء وهى لام مكسورة تجزم المستقبل

قوله (ربنا اطمس على أموالهم) قال مجاهد أهلكها والطمس المحو وقال أكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم كلها حجارة وقال محمد بن كعب جعل صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله فى فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرا . قال ابن عباس رضى الله عنه بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا ودعا عمر ابن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر. قال السدى مسخ الله أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة فكانت إحدى الآيات التسع (واشدد على قلوبهم) أى اقسها واطبع عليها حتى لاتلين ولا تنشرح للإيمان (فلا يؤمنوا) قيل هو نصب بجواب الدعاء بالفاء وقيل هو عطف على قوله ليضلوا أى ليضلوا فلا يؤمنوا وقال الفراء هو دعاء ومحله جزم فكأنه قال اللهم فلا يؤمنوا (حتى يروا العذاب الأليم) وهو الغرق قال السدى معناه أمتهم على الكفر (قال) الله تعالى لموسى وهرون (قد أجيبت دعوتكما) إنما نسب إليهما والدعاء كان من موسى لأنه روى أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن والتأمين دعاء وفى بعض القصص كان بين دعاء موسى وإجابته أربعون سنة (فاستقيما) على الرسالة والدعوة وامضيا لأمرى إلى أن يأتيهم العذاب (ولاتتبعان) نهى بالنون الثقيلة ومحله جزم يقال فى الواحد لاتتبعن بفتح النون لالتقاء الساكنين وبكسر النون فى التثنية لهذه العلة وقرأ ابن عامر بتخفيف النون وقد اختلفت الروايات عنه فيه فبعضهم روى عنه تتبعان بتخفيف التاء الثانية وفتح الباء وتشديد النون وبعضهم روى عنه تتبعان بتشديد التاء الثانية وكسر الباء وتخفيف النون وبعضهم روى عنه كقراء الجماعة والوجه فى تخفيف النون أن نون التأكيد تثقل وتخفف (سبيل الله لايعلمون) يعنى ولاتسلكا سبيل الذين يجهلون حقيقة وعدى فإن وعدى لاخلف فيه ووعيدى

ويفتتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا إنك ابتليتهم بالضلال عن سبيلك (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس إزالة أثر الشيء بالمحو ومعنى اطمس على أموالهم أزل صورها وهيآتها وقال مجاهد أهلكها وقال أكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة بلغنا أن أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة وقال محمد بن كعب القرظى صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله فى فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرا وهذا فيه ضعف لأن موسى عليه السلام دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ وقال ابن عباس بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وقيل إن عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهى حجارة قال السدي مسخ الله أموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والأطعمة وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التى أوتيها موسى عليه السلام (واشدد على قلوبهم) يعنى اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لاتلين ولاتنشرح للإيمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان قال الواحدى وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال (فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) يعنى الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس فى رواية أخرى عنه قال موسى قبل أن يأتى فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فاستجاب الله له دعاءه فحال بين فرعون وبين الإيمان حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الإيمان. قال بعض العلماء إنما دعا عليهم موسى بهذا الدعاء لما علم أن سابق قضاء الله وقدره فيهم أنهم لا يؤمنون وذلك أن الله سبحانه وتعالى كتب عليهم فى الأزل أنهم لايؤمنون فوافق دعاء موسى ماقدر وقضى عليهم (قال) لله عز وجل لموسى وهرون (قد أجيبت دعوتكما) إنما نسب الدعاء إليهما وأن الداعى هو موسى وحده لأن هرون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لأنه طلب وسؤال أيضا ومعناه اللهم استجب فصار بذلك شريك موسى فى الدعاء فلذلك قال تعالى قد أجيب دعوتكما (فاستقيما) يعنى على تبليغ الرسالة وامضيا لأمرى إلى أن يأتيهم العذاب (ولاتتبعان سبيل الذين لا يعلمون) يعنى ولاتسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدى فإن وعدى لاخلف فيه ووعيدى نازل بفرعون وقومه فلا تستعجلا. قيل كان بين دعاء موسى عليه السلام وبين الإجابة أربعون سنة. قال الإمام فخر الدين الرازى واعلم أن هذا النهى لايدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهرون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لايدل على

وجنوده) يقال أتبعه وتبعه إذا أدركه ولحقه واتبعه بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به وقيل هما واحد (بغيا وعدوا) أى ظلما واعتداء وقيل بغيا فى القول وعدوا فى الفعل وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم جبريل على فرس وديق وخاض البحر فاقتحمت الخيول خلفه فلما دخل آخرهم وهم أولهم أن يخرج انطبق عليهم الماء قوله تعالى (حتى إذا أدركه الغرق) أى غمره الماء وقرب هلاكه (قال آمنت أنه) قرأ حمزة والكسائى إنه بكسر الألف أى آمنت وقلت إنه وقرأ الآخرون أنه بالفتح على وقوع آمنت عليها وإضمار حرف الجر أى آمنت بأنه فحذف الباء وأوصل الفعل بنفسه فهو فى موضع النصب (لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فدس جبريل فى فيه من حمأة البحر وقال (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) وروى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما أغرق

صدور الشرك منه . قوله عز وجل (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر) أى وقطعنا ببنى إسرائيل البحر وعبرناهم إياه حتى جاوزوه وعبروه (فأتبعهم فرعون وجنوده) يعنى لحقهم وأدركهم (بغيا وعدوا) أى ظلما وعدوانا وقيل البغى طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم وقيل بغيا فى القول وعدوا فى الفعل. قال أهل التفسير أجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف وهم إثنان وسبعون وخرجوا مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك أنه لما أجاب الله دعاء موسى وهرون أمرهما بالخروج ببنى إسرائيل من مصر فى الوقت الذى أمرهما أن يخرجا فيه بهم ويسر لهم أسباب الخروج وكان فرعون غافلا عنهم فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده فى طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الأرض وأيبس لهم البحر فلحقتهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه فى عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه سوى سائر الألوان وكان مقدمهم جبريل وكان على فرس أنثى وديق وميكائيل يسوقهم حتى لايشذ منهم أحد فلما خرج آخر بنى إسرائيل من البحر دنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الأنثى لم يملك فرعون من أمره شيئا فنزل البحر وتبعه جنوده حتى إذا اكتملوا جميعا فى البحر وهم أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أدرك فرعون الغرق أتى بكلمة الإخلاص ظنا منه أنها تنجيه من الهلاك وهو قوله تعالى (حتى إذا أدركه الغرق قال) يعنى فرعون (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) قال ابن عباس لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب به وقد كان فى مهل . قال العلماء إيمانه غير مقبول وذلك أن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين ويدل عليه قوله تعالى «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا». وقيل إنه قال هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع مانزل به من البلية الحاضرة، ولم يكن قصده بها الإقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لاجرم لم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت. وقيل إن فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى فلهذا قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى إيمانه ولما رجع فرعون إلى الإيمان والتوبة حين أغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) يعنى آلآن تتوب وقد أضعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل الملائكة وقيل إن القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد فى الأرض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم ننجيك ببدنك والقول الأول أشهر ويعضده ماروى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يامحمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وفى رواية أخرى عنه عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ذكر أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر أن جبريل عليه السلام جعل يدس فى فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

فصل

(فصل : فى الكلام على هذا الحديث)

لأنه فى الظاهر مشكل فيحتاج إلى بيان وإيضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس فى الطريق الأول عن ابن زيد بن جدعان وهو وإن كان قد ضعفه يحيى بن معين وغيره فإنه كان شيخا نبيلا صدوقا ولكنه كان سيئ الحفظ ويغلط وقد احتمل الناس حديثه وإنما يخشى من حديثه إذا لم يتابع عليه أو خالفه فيه الثقات وكلاهما منتف فى هذا الحديث لأن فى الطريق الآخر شعبة عن عدى بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الإسناد على شرط البخارى ، ورواه أيضا شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب ثقة قد أخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وإن كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فانما يخاف منه ماانفرد به أو خولف فيه وكلاهما منتف فقد علم بهذا أن لهذا الحديث أصلا وأن رواته ثقات ليس فيهم متهم وإن كان فيهم من هو سيئ الحفظ فقد تابعه عليه غيره . فان قلت ففى الحديث الثانى شك فى رفعه لأنه قال فيه ذكر أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم . قلت ليس بشك فى رفعه إنما هو جزم بأن أحد الرجلين رفعه وشك شعبة فى تعيينه هل هو عطاء ابن السائب أو عدى بن ثابت وكلاهما ثقة فاذا رفعه أحدهما وشك فى تعيينه لم يكن هذا علة فى الحديث وقوله من حال البحر أى من طين البحر كما فى الرواية الأخرى.

(فصل)

ووجه إشكاله مااعترض به الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره فقال هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه بالطين لئلا يتوب غضبا عليه والجواب الأقرب أنه لايصح لأن فى تلك الحالة إما أن يقال التكليف هل كان ثابتا أم لا فان كان ثابتا لايجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة وإن كان التكليف زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لايبقى لهذا الذى نسب إلى جبريل فائدة وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضا فكيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان. ولو قيل إن جبريل فعل ذلك من عند نفسه لابأمر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل إلا بأمر ربك فهذا وجه الإشكال الذى أورده الإمام على هذا الحديث فى كلام أكثر من هذا ، والجواب عن هذا الاعتراض أن الحديث قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا اعتراض عليه لأحد. وأما قول الإمام إن التكليف هل كان ثابتا فى تلك الحالة أم لا فان كان ثابتا لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة فان هذا القول لايستقيم على أصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله وأن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر ، فانهم يقولون إن الله يحول بين الكافر والإيمان ويدل على ذلك قوله تعالى «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه» وقوله تعالى : «وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم» وقال تعالى «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة» فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه قلب أفئدتهم مثل تركهم الإيمان به أول مرة ، وهكذا فعل بفرعون منعه من الإيمان عند الموت جزاء على تركه الإيمان أولا فدس الطين فى فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الإيمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله. ومن المنكرين لخلق الأفعال من اعترف أيضا أن الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضله

الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل فقال جبريل عليه السلام يامحمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة فلما

ويطبع على قلبه ويمنعه من الإيمان. فأما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فانها من هذا الباب فان غاية مايقال فيه أن الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الإيمان وحال بينه وبينه عقوبه له على كفره السابق ورده للإيمان لما جاءه. وأما فعل جبريل من دس الطين فى فيه فانما فعل ذلك بأمر الله لامن تلقاء نفسه. فأما قول الإمام لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا إذا كان تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه مايجب علينا. وأما إذا كان جبريل إنما يفعل ما أمره الله به والله سبحانه وتعالى هو الذى منع فرعون من الإيمان وجبريل منفذ لأمر الله فكيف لايجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه إعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لايؤمن حتى يرى العذاب الأليم حين لاينفعه الإيمان. وقد يقال إن جبريل عليه السلام إما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل إلا ما أمر الله به وإما أن يفعل مايشاء من تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه إعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لأنه إنما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل مانهى عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر أنه أمره باعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا. وقوله وإن كان التكليف زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لايبقى لهذا الذى نسب إلى جبريل فائدة فجوابه أن يقال إن للناس فى تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لاتعلل وعلى هذا التقدير فلا يرد هذا السؤال أصلا وقد زال الإشكال، والقول الثانى أن أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لأجلها فعلها وكذا أوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لأجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وقد علم جبريل أنه ممن حقت عليه كلمة العذاب وأن إعانه لاينفعه دس الطين فى فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وأنه وإن كان قالها فى وقت لاينفعه فدس الطين فى فيه تحقيقا لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ماقد قضى عليه وسد الباب عنه سدا محكما بحيث لايبقى للرحمة فيه منفذ ولايبقى من عمره زمن يتسع للإيمان فان موسى عليه السلام لما دعا ربه بأن فرعون لايؤمن حتى يرى العذاب الأليم والإيمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه. فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين فى فيه ليبأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتتحقق إجابة الدعوة التى وعد الله موسى بقوله قد أجيبت دعوتكما فيكون سعى جبريل فى تكميل ماسبق فى حكم الله أنه يفعله فيكون سعى جبريل فى مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذا لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون. وأما قوله لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر، فجوابه ماتقدم من أن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وجبريل إنما يتصرف بأمر الله ولايفعل إلا ما أمره الله به وإذا كان جبريل قد فعل ماأمره الله به ونفذه فانما رضى بالأمر لابالمأمور به فأى كفر يكون هنا وأيضا فان الرضا بالكفر إنما يكون كفرا فى حقنا لأنا مأمورون بازالته بحسب الإمكان فاذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا فى حقنا لمخالفتنا ماأمرنا به. وأما من ليس مأمورا كأمرنا ولا مكلفا كتكليفنا بل يفعل مايأمره به ربه فانه إذا نفذ ماأمره به لم يكن راضيا بالكفر ولا يكون كفرا فى حقه وعلى هذا التقدير فان جبريل لما دس الطين فى فى فرعون كان ساخطا لكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية

أمر

خبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل ما مات فرعون فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فرآه بنو إسرائيل فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا أبدا

أمر جبريل مع فرعون أن يكون فهذا لقضاء الله وقدره فى فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان فجوابه أن الله يفعل مايشاء ويحكم مايريد لايسئل عما يفعل وأما قوله وإن قيل إن جبريل إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فجوابه أنه إنما فعل ذلك بأمر الله منفذا لأمر الله والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . قوله سبحانه وتعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) أى نلقيك على نجوة من الأرض وهى المكان المرتفع . قال أهل التفسير لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه فقالت بنو إسرائيل مامات فرعون وإنما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل فى قلوبهم من الرعب لأجله فأمر الله عز وجل البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فرآه بنو إسرائيل فعرفوه فمن ذلك الوقت لايقبل الماء ميتا أبدا ، ومعنى قوله ببدنك يعنى نلقيك وأنت جسد لاروح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كأنه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك . وقيل أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر ، يعرف به فلما رأوه فى درعه ذلك عرفوه (لتكون لمن خلفك آية) يعنى عبرة وموعظة ، وذلك أنهم ادعوا أن مثل فرعون لايموت أبدا فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لأنه كان فى غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة ملقى على الأرض لايهابه أحد (وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) قوله عزوجل (ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق) يعنى أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر وإغراق عدوهم فرعون . والمعنى أنزلناهم منزلا محمودا صالحا وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق تقول العرب: هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشىء إذا كان كاملا صالحا ، لابد أن يصدق الظن فيه وفى المراد بالمكان الذى بوءوا قولان أحدهما أنه مصر فيكون المراد : إن الله أورث بنى إسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره والقول الثانى أنه أرض الشام والقدس والأردن لأنها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) يعنى تلك المنافع والخيرات التى رزقهم الله تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) يعنى فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبى ﷺ مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث الله محمدا ﷺ واختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبدالله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا . فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذى كانوا يعلمونه حقا فوضع العلم مكان المعلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد صلى الله عليه وسلم وإنما سماه علما لأنه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفى كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان : الأول أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين ، فلما بعث كذبوه بغيا وحسدا وإيثارا لبقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم . والوجه الثانى أن اليهود كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم آمن به طائفة وكفر به آخرون . وقوله تعالى (إن ربك) يعنى يامحمد (يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى من أمرك وأمر نبوتك فى الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر

فلذلك قوله (فاليوم ننجيك) أى نلقيك على نجوة من الأرض وهى المكان المرتفع . وقرأ يعقوب ننجيك بالتخفيف (ببدنك) بجسدك لاروح فيه وقيل ببدنك بدرعك وكان له درع مشهور مرصع بالجواهر فرأوه فى درعه فصدقوا موسى (لتكون لمن خلفك آية) عبرة وعظة (وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ولقد بوأنا بنى إسرائيل) أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون (مبوأ صدق) منزل صدق يعنى مصر وقيل الأردن وفلسطين وهى الأرض المقدسة التى كتب الله ميراثا لإبراهيم وذريته قال الضحاك هى مصر والشام (ورزقناهم من الطيبات) الحلالات (فما اختلفوا) يعنى اليهود الذين كانوا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فى تصديقه وأنه نبى (حتى جاءهم العلم) يعنى القرآن والبيان بأنه رسول الله صدق ودينه حق . وقيل حتى جاءهم معلومهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه فالعلم بمعنى المعلوم كما يقال للمخلوق خلق . قال الله تعالى هذا خلق الله ويقال هذا الدرهم ضرب الأمير أى مضروبه (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)

من الدين . قوله تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا إليك) يعنى القرآن (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) فيخبرونك أنك مكتوب عندهم فى التوراة قيل هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره على عادة العرب فانهم يخاطبون الرجل ويريدون به غيره ، كقوله تعالى « يا أيها النبى اتق الله » خاطب النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به المؤمنون بدليل أنه قال « إن الله كان بما تعملون خبيرا » ولم يقل بما تعمل وقال « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء » وقيل كان الناس على عهد النبى صلى الله عليه وسلم بين مصدق ومكذب وشاك فهذا الخطاب مع أهل الشك معناه : إن كنت أيها الإنسان فى شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان رسولنا محمد ﷺ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك قال ابن عباس ومجاهد والضحاك يعنى من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه فسيشهدون على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ويخبرونك بنبوته قال الفراء علم الله سبحانه وتعالى أن رسوله غير شاك لكنه ذكره على عادة العرب يقول الواحد منهم لعبده إن كنت عبدى فأطعنى ويقول

وحد

بك وجحد نبوتك النار قوله سبحانه وتعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا إليك) الشك فى موضع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان لوجود أمارتين أو لعدم الأمارة والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه فكل شك جهل وليس كل جهل شكا فاذا قيل فلان شاك فى هذا الأمر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه وظاهر هذا الخطاب فى قوله فان كنت فى شك أنه للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فان كنت يا محمد فى شك مما أنزلنا إليك يعنى من حقيقة ما أخبرناك به وأنزلناه يعنى القرآن (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) يعنى علماء أهل الكتاب يخبرونك أنك مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل وأنك نبى يعرفونك بصفتك عندهم وقد توجه ههنا سؤال واعتراض وهو أن يقال هل شك النبى ﷺ فيما أنزل عليه أو فى نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك وإذا كان شاكا فى نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه . قلت الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضى عياض فى كتابه الشفاء فانه أورد هذا السؤال ثم قال احذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك النبى صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه فانه من البشر فمثل هذا لا يجوز عليه ﷺ جملة بل قال ابن عباس لم يشك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصرى وحكى عن قتادة أنه قال بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما أشك ولا أسأل وعامة المفسرين على هذا ثم كلام القاضى عياض رحمه الله ثم اختلفوا فى معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب على قولين أحدهما أن الخطاب للنبى ﷺ فى الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومعلوم أن النبى ﷺ لم يشرك فثبت أن المراد به غيره ومن أمثلة العرب . إياك أعنى واسمعى يا جارة فعلى هذا يكون معنى الآية قل يا محمد « يا أيها الإنسان الشاك إن كنت فى شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا محمد ﷺ فاسأل الذين يقرءون الكتاب يخبروك بصحته ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى فى آخر هذه السورة قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى الآية فبين أن المذكور فى هذه الآية على سبيل الرمز هو المذكور فى تلك الآية على سبيل التصريح وأيضا لو كان النبى ﷺ شاكا فى نبوته لكان غيره أولى بالشك فى نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك وقيل أن الله سبحانه وتعالى علم أن النبى ﷺ لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فانه صلى الله عليه وسلم إذا سمع هذا الكلام يقول لا أشك يا رب ولا أسأل أهل الكتاب بل أكتفى بما أنزلته على من الدلائل الظاهرة وقال الزجاج إن الله خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله فان كنت فى شك وهو شامل للخلق فهو كقوله يا أيها النبى إذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو أن يقال متى كان الرسول ﷺ داخلا فى هذا الخطاب كان الاعتراض موجودا والسؤال واردا وقيل أن لفظه إن فى قوله فان كنت فى شك للنفى ومعناه وما أنت فى شك مما أنزلنا إليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقينا والقول الثانى أن هذا الخطاب ليس هو للنبى ﷺ البتة ووجه هذا القول إن الناس كانوا فى زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون فى أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله عز وجل بهذا الخطاب فقال تمجد وتعالى فان كنت أيها الإنسان فى شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وإنما

لولده افعل كذا وكذا إن كنت ابنى ولايكون بذلك على وجه الشك (لقد جاءك الحق من ربك فلاتكونن من الممترين) من الشاكين (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) وهذا كله خطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد منه غيره. قوله تعالى (إن الذين حقت عليهم) وجبت عليهم (كلمة ربك) قيل لعنته وقال قتادة سخطه وقيل الكلمة هى قوله «هؤلاء فى النار ولا أبالى» (لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية) دلالة (حتى يروا العذاب الأليم)

قال الأخفش أنث فعل كل لأنه مضاف إلى المؤنث وهى قوله آية ولفظ كل للمذكر والمؤنث سواء قوله تعالى (فلولا كانت) فهلا كانت (قرية) ومعناه فلم تكن قرية لأن فى الاستفهام ضربا من الجحد أى أهل قرية (آمنت) عند معاينة العذاب (فنفعها إيمانها) فى حال اليأس (إلا قوم يونس) فإنهم نفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت وقوم نصب على الاستثناء المنقطع تقديره ولكن قوم يونس (لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) وهو وقت انقضاء آجالهم واختلفوا فى أنهم هل رأوا العذاب عيانا أم لا؟ فقال بعضهم رأوا دليل العذاب والأكثرون أنهم رأوا العذاب عيانا بدليل قوله «كشفنا عنهم عذاب الخزى» والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قرب.

وقصة الآية على ماذكره

وحد الله الضمير فى قوله فإن كنت وهو يريد الجمع لأنه خطاب لجنس الإنسان كما فى قوله تعالى «ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم» لم يرد فى الآية إنسانا بعينه بل أراد الجمع واختلفوا فى المسئول عنه فى قوله تعالى «فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك» من هم فقال المحققون من أهل التفسير هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه لأنهم هم الموثوق بأخبارهم. وقيل المراد كل أهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لأن المقصود من هذا السؤال الأخبار بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو أنه مكتوب عندهم صفته ونعته فإذا أخبروا بذلك فقد حصل المقصود والأول أصح وقال الضحاك يعنى أهل التقوى وأهل الإيمان من أهل الكتاب ممن أدرك النبى صلى الله عليه وسلم (لقد جاءك الحق من ربك) هذا كلام مبتدأ منقطع عما قبله وفيه معنى القسم تقديره أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بأنك رسول الله حقا وأن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك (فلا تكونن من الممترين) يعنى من الشاكين فى صحة ماأنزلنا إليك (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) يعنى بدلائله وبراهينه الواضحة (فتكون من الخاسرين) يعنى الذين خسروا أنفسهم. واعلم أن هذا كله على ماتقدم من أن ظاهره خطاب للنبى ﷺ والمراد به غيره ممن عنده شك وارتياب فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يرتب ولم يكذب بآيات الله فثبت بهذا أن المراد به غيره والله أعلم. قوله سبحانه وتعالى (إن الذين حقت عليهم) يعنى وجبت عليهم (كلمة ربك) يعنى حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى «خلقت هؤلاء للنار ولا أبالى» وقال قتادة سخط ربك وقيل لعنة ربك وقيل هو ماقدره عليهم وقضاه فى الأزل (لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية) فإنهم لايؤمنون بها (حتى يروا العذاب الأليم) فحينئذ لاينفعهم الإيمان لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم عليهم وصرفهم عن الإيمان فلاينفعهم شئ قوله سبحانه وتعالى (فلولا) يعنى فهلا (كانت قرية) وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لأن فى الاستفهام معنى الجحد والمراد هل كانت قرية (آمنت) يعنى عند معاينة العذاب (فنفعها إيمانها) يعنى فى حال اليأس (إلا قوم يونس) هذا استثناء منقطع يعنى لكن قوم يونس فإنهم آمنوا فنفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت وهو قوله (لما آمنوا) يعنى لما أخلصوا الإيمان (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) يعنى إلى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا فى قوم يونس هل رأوا العذاب عيانا أم لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب فآمنوا، وقال الأكثرون إنهم رأوا العذاب عيانا بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزى والكشف لايكون إلا بعد الوقوع أو إذا قرب وقوعه.

(ذكر القصة فى ذلك)

على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم قالوا: إن قوم يونس

عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك فقالوا إنا لم نجرب عليه كذبا فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشىء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان فى جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رءوسهم قدر ميل وقال وهب

غامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم فلما راوا ذلك ايقنوا بالهلاك فطلبوا يونس نبيهم فلم يجدوه وقذف الله فى قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الايمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات واختلطت أصواتها بأصواتهم وعجوا وتضرعوا إلى الله عز وجل وقالوا: آمنا بما جاء به يونس فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم وذلك يوم عاشوراء، وكان يونس قد خرج فأقام ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم ير شيئا وكان من كذب ولم يكن له بينة قتل فقال يونس كيف أرجع إلى قومى وقد كذبتهم فانطلق عاتبا على ربه مغاضبا لقومه فأتى البحر فاذا قوم (٢١٢) يركبون سفينة فعرفوه فحملوه بغير أجر فلما دخلها وتوسطت بهم ولججت وقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم قال أهل السفينة أن لسفينتنا لشأنا قال يونس قد عرفت شأنها اركبها رجل ذو خطيئة عظيمة قالوا ومن هو ؟ قال أنا اقذفونى فى البحر قالوا ما كنا لنطرحك من بيننا حتى نعذر فى شأنك واستهموا فاقترعوا ثلاث مرات فأدحض سهمه والحوت عند رجل السفينة فاغرا فاه ينتظر أمر ربه فيه فقال يونس إنكم والله لتهلكن جميعا أو لتطرحننى فيه فقذفوه فيه وانطلقوا وأخذه الحوت وروى أن الله تعالى أوحى إلى حوت عظيم حتى قصد السفينة فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فغر فاه ينظر إلى من فى السفينة كأنه يطلب شيئا خافوا منه ولما رآه يونس زج نفسه فى الماء وعن ابن عباس أنه خرج له مغاضبا لقومه فأتى بحر الروم فاذا سفينة مشحونة فركبها فلما لججت السفينة تكفأت حتى كادوا أن يغرقوا فقال الملاحون هاهنا رجل عاص أو عبد آبق وهكذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجرى ومن رسمنا أن نقترع فى مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه فى البحر ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فى كلها على يونس فقال يونس أنا الرجل العاصى والعبد الآبق فألقى نفسه فى الماء فابتلعه حوت ثم جاء حوت آخر أكبر منه وابتلع هذا الحوت وأوحى الله إلى الحوت لا تؤذى منه شعرة فانى جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعاما لك وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال نودى الحوت إنا لم نجعل يونس لك قوتا إنما جعلنا بطنك له حرزا ومسجدا وروى أنه قام قبل

كانوا بقرية نينوى من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام فدعاهم فأبوا عليه فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك فقالوا إنا لم نجرب عليه كذبا قط فانظروا فان بات فيكم الليلة فليس بشئ وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رءوسهم. قال ابن عباس إن العذاب كان أهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثى ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك. وقال مقاتل قدر ميل وقال سعيد بن جبير غشى قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر وقال وهب غامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبطا حتى غشى مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى فى قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم فلبسوا المسوح وأظهروا الإسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض إلى البعض فحن الأولاد إلى الأمهات والأمهات إلى الأولاد وعلت الأصوات وعجوا جميعا إلى الله وتضرعوا إليه وقالوا آمنا بما جاء به يونس وتابوا إلى الله وأخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب بعد ما أظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة. قال ابن مسعود بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم فيما بينهم حتى أن كان الرجل ليأتى إلى الحجر وقد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده. وروى الطبرى بسنده عن أبى الجلد خيلان قال لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له إنه قد نزل بنا العذاب فما ترى قال قولوا ياحى حين لاحى وياحى محيى الموتى وياحى لا إله إلا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا إلى حين. وقال الفضيل بن عياض إنهم قالوا اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله قال وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم ير شيئا فقيل له ارجع إلى قومك قال وكيف أرجع إليهم فيجدونى كذابا وكان من كذب ولا بينة

القرعة فقال: أنا العبد العاصى والآبق قالوا من أنت؟ قال أنا يونس بن متى فعرفوه فقالوا لانلقيك يارسول الله ولكن تساهم فخرجت القرعة عليه فألقى نفسه فى الماء قال ابن مسعود رضى الله عنه ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابعة وكان فى بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فأجاب الله له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر وهو كالفرخ الممعط فأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهو الدباء فجعل يستظل تحتها ووكل به وعلة يشرب من لبنها فيبست الشجرة فبكى عليها فأوحى الله إليه تبكى على شجرة يبست ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أهلكهم فخرج يونس فاذا هو بغلام (٢١٣) يرعى فقال من أنت ياغلام؟ قال من قوم يونس قال إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنى لقيت يونس فقال الغلام قد تعلم أنه إن لم تكن لى بينة قتلت قال يونس عليه السلام: تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة. فقال له الغلام فمرهما فقال يونس إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له قالتا نعم فرجع الغلام فقال للملك أنى لقيت يونس فأمر الملك بقتله فقال إن لى بينة فأرسلوا معى فأتى البقعة والشجرة فقال أنشدكما هل أشهدكما يونس؟ قالتا نعم فرجع القوم مذعورين وقالوا للملك شهد له الشجرة والأرض فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه فى مجلسه وقال أنت أحق بهذا المكان منى فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة قوله تعالى (ولو شاء ربك) يامحمد (لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) هذه تسلية للنبى ﷺ وذلك أنه كان حريصا على أن يؤمن جميع الناس فأخبره الله جل ذكره أنه لايؤمن إلا من سبق له من الله السعادة ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة (وما كان لنفس) وما ينبغى لنفس وقيل: ما كانت نفس (أن تؤمن إلا بإذن الله) قال ابن عباس بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله وقيل بعلم الله (ويجعل الرجس) قرأ أبو بكر ونجعل بالنون والباقون بالياء أى ويجعل الله الرجس أى العذاب وهو الرجز (على الذين لا يعقلون) عن الله أمره ونهيه (قل انظروا) أى قل للمشركين الذين يسألونك الآيات انظروا (ماذا فى السموات والأرض) من الآيات والدلائل والعبر فى السموات الشمس والقمر والنجوم وغيرها وفى الأرض الجبال والبحار والأنهار

له قل فانصرف عنهم مغاضبا فالتقمه الحوت وستأتى القصة فى سورة والصافات إن شاء الله تعالى فان قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد مانزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته. قلت أجاب العلماء عن هذا بأجوبة: أحدها أن ذلك كان خاصا بقوم يونس والله يفعل مايشاء ويحكم مايريد. الجواب الثانى أن فرعون ما آمن إلا بعد ماباشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم يونس دنا منهم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية. الجواب الثالث أن الله عز وجل علم صدق نياتهم فى التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه ماصدق فى إيمانه ولا أخلص فلم يقبل منه إيمانه والله أعلم. قوله سبحانه وتعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولو شاء ربك يامحمد لآمن بك وصدقك من فى الأرض كلهم جميعا ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة فى الأزل قال ابن عباس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص أن يؤمن به جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله عز وجل أنه لايؤمن به إلا من سبقت له من السعادة فى الذكر الأول ولم يضل إلا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر الأول وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان حريصا على إيمانهم كلهم فأخبره الله أنه لايؤمن به إلا من سبقت له العناية الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يعنى ليس إيمانهم إليك حتى تكرههم عليه أو تحرص عليه إنما إيمان المؤمن وإضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس ذلك لأحد سوانا (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) يعنى وما كان ينبغى لنفس خلقها الله تعالى أن تؤمن وتصدق إلا بقضاء الله لها بالإيمان فان هدايتها إلى الله وهو الهادى المضل. وقال ابن عباس معنى بإذن الله بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله وقوله تعالى (ويجعل) قرئ بالنون على سبيل التعظيم أى ونجعل نحن وقرئ بالياء ومعناه ويجعل الله (الرجس) يعنى العذاب وقال ابن عباس يعنى السخط (على الذين لايعقلون) يعنى لايفهمون عن الله أمره ونهيه. قوله عز وجل (قل انظروا) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعنى انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر (ماذا فى السموات والأرض)

يعني ماذا خلق الله في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته ففي السموات الشمس والقمر وهما دليلان على النهار والليل والنجوم سخرها طالعة وغاربة وإنزال المطر من السماء وفي الأرض الجبال والبحار والمعادن والأنهار والأشجار والنبات كل ذلك آية دالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال الشاعر : وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
(وما تغني الآيات والنذر) يعني الرسل (عن قوم لا يؤمنون) وهذا في حق أقوام علم الله أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في الأزل من الشقاء (فهل ينتظرون) يعني مشركي مكة (إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) يعني من مضى من قبلهم من الأمم السالفة المكذبة الرسل قال قتادة يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود . والعرب تسمي العذاب أياما والنعم أياما كقوله تعالى وذكرهم بأيام الله والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا يوما يعاينون فيه العذاب مثل ما فعلنا بالأمم السالفة المكذبة أهلكناهم جميعا فان كانوا ينتظرون ذلك العذاب (قل فانتظروا) يعني قل لهم يا محمد فانتظروا العذاب (إني معكم من المنتظرين) يعني هلاككم قال الربيع بن أنس خوفهم عذابه ونقمته ثم أخبرهم أنه إذا وقع ذلك بهم أنجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا) يعني من العذاب والهلاك (كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين) يعني كما أنجينا رسلنا ، والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يا محمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب . قال بعض المتكلمين المراد بقوله حقا علينا الوجوب لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب وأجيب عن هذا بأنه حق واجب من حيث الوعد والحكم لا أنه واجب بسبب الاستحقاق لأنه قد ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئا . قوله سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك (إن كنتم في شك من ديني) يعني الذي أدعوكم إليه وإنما حصل الشك لبعضهم في أمره صلى الله عليه وسلم لما رأى الآيات التي كانت تظهر على يد النبي صلى الله عليه وسلم فحصل له الاضطراب والشك فقال إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه لأنه دين إبراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في عبادتكم لهذه الأصنام التي لا أصل لها البتة فان أصررتم على ما أنتم عليه (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) يعني هذه الأوثان وإنما وجب تقديم هذا النفي لأن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لأخس الأشياء وهي الحجارة التي لا تنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الإماتة والإحياء وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة أن المراد أن الذي يستحق العبادة وأعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولا ولم تكونوا شيئا ثم يميتكم ثانيا ثم يحييكم بعد الموت ثالثا فاكتفى بذكر الوفاة تنبيها على الباقي وقيل لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم (وأمرت أن أكون من المؤمنين) يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان

والأشجار وغيرها (وما تغني الآيات والنذر) الرسل (عن قوم لا يؤمنون) وهذا في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون (فهل ينتظرون) يعني مشركي مكة (إلا مثل أيام الذين خلوا) مضوا (من قبلهم) من مكذبي الأمم قال قتادة يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود والعرب تسمي العذاب أياما والنعم أياما كقوله «وذكرهم بأيام الله» وكل ما مضى عليك من خير وشر فهو أيام (قل انتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا) قرأ يعقوب ننجي خفيف مختلف عنه (والذين آمنوا) معهم عند نزول العذاب معناه نجينا مستقبل بمعنى الماضي (كذلك) كما نجيناهم (حقا) واجبا (علينا ننجي المؤمنين) قرأ الكسائي وحفص ويعقوب ننجي بالتخفيف والآخرون بالتشديد ونجا وأنجى بمعنى واحد قوله تعالى (قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني) الذي أدعوكم إليه فان قيل كيف قال إن كنتم في شك وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به قيل كان فيهم شاكون فهم المراد بالآية أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا في أمرهم وأمر النبي صلى الله عليه وسلم . قوله عز وجل (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) من الأوثان (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) يميتكم ويقبض أرواحكم (وأمرت أن أكون من المؤمنين)

لأنه من أعمال القلوب (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) الواو فى قوله وأن أقم واو عطف معناه وأمرت أن أقيم وجهى يعنى أقم نفسك على دين الإسلام حنيفا يعنى مستقيما عليه غير معوج عنه إلى دين آخر وقيل معناه أقم عملك على الدين الحنيفى وقيل أراد بقوله وأن أقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته إلى طلب الدين الحنيفى غير مائل عنه (ولا تكونن من المشركين) يعنى ولا تكونن ممن يشرك فى عبادة ربه غيره فيهلك وقيل إن النهى عن عبادة الأوثان قد تقدم فى الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهى على معنى زائد وهو أن من عرف الله عز وجل وعرف جميع أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة لاغيره فلا ينبغى له أن يلتفت إلى غيره بالكلية وهذا هو الذى تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفى (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك) يعنى إن عبدته ودعوته (ولا يضرك) يعنى إن تركت عبادته (فان فعلت) يعنى مانهيتك عنه فعبدت غيرى أو طلبت النفع ودفع الضر من غيرى (فانك إذا من الظالمين) يعنى لنفسك لأنك وضعت العبادة فى غير موضعها وهذا الخطاب وإن كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم فالمراد به غيره لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدع من دون الله شيئا البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الإنسان من دون الله مالا ينفعك الآية . قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر) يعنى وإن يصبك الله بشدة وبلاء (فلا كاشف له) يعنى لذلك الضر الذى أنزل بك (إلا هو) لاغيره (وإن يردك بخير) يعنى بسعة ورخاء (فلا راد لفضله) يعنى فلا دافع لرزقه (يصيب به) يعنى بكل واحد من الضر والخير (من يشاء من عباده) قيل أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأوثان وبين أنها لاتقدر على نفع ولاضر بين تعالى أنه هو القادر على ذلك كله ، وأن جميع الكائنات محتاجة إليه وجميع الممكنات مستندة إليه لأنه هو القادر على كل شئ وأنه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله (وهو الغفور الرحيم) وفى الآية لطيفة أخرى وهى أن الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو وذلك يدل على أنه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها لأن الاستثناء من النفى إثبات . ولما ذكر الخير قال فيه فلا راد لفضله يعنى أن جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على ردها لأنه هو الذى يفيض جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعنى الساتر لذنوب عباده الرحيم يعنى بهم . قوله سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) يعنى القرآن والإسلام وقيل الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله عز وجل (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لأن نفع ذلك يرجع إليه (ومن ضل فانما يضل عليها) أى على نفسه لأن وباله راجع إليه فمن حكم الله له بالاهتداء فى الأزل انتفع ومن حكم عليه بالضلال ضل ولم ينتفع بشئ أبدا (وما أنا عليكم بوكيل) يعنى وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم وقال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية السيف (واتبع مايوحى إليك) يعنى الأمر الذى يوحيه الله إليك يا محمد (واصبر) يعنى على أذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك (حتى يحكم الله) يعنى ينصرك عليهم باظهار دينك (وهو خير الحاكمين) يعنى أنه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه وإظهار دينه وبقتل المشركين وأخذ الجزية من أهل الكتاب ، وفيها ذلهم وصغارهم والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه .

قوله (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) قال ابن عباس عملك . وقيل استقم على الدين حنيفا (ولاتكونن من المشركين ، ولا تدع) ولا تعبد (من دون الله مالا ينفعك) إن أطعته (ولا يضرك) إن عصيته (فان فعلت) فعبدت غير الله فانك (إذا من الظالمين) الضارين لأنفسهم الواضعين العبادة فى غير موضعها (وإن يمسسك الله بضر) أى يصبك بشدة وبلاء (فلا كاشف له) فلا دافع له (إلا هو وإن يردك بخير) رخاء ونعمة وسعة (فلا راد لفضله) فلا مانع لرزقه (يصيب به) بكل واحد من الضر والخير (من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم. قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) يعنى القرآن والإسلام (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) أى على نفسه ووباله عليه (وما أنا عليكم بوكيل) بكفيل أحفظ أعمالكم قال ابن عباس نسختها آية القتال (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله) بنصرك وقهر عدوك وإظهار دينه (وهو خير الحاكمين) فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون .

(سورة هود عليه السلام مكية إلا قوله «وأقم الصلاة طرفى النهار» وهى مائة وثلاث وعشرون آية) . (بسم الله الرحمن الرحيم) (آلر كتاب) أى هذا كتاب (أحكمت آياته) قال ابن عباس لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به (ثم فصلت) بينت بالإحكام والحلال والحرام وقال الحسن أحكمت بالأمر والنهى ثم فصلت بالوعد والوعيد قال قتادة أحكمت أحكمها الله فليس فيها اختلاف ولا تناقض وقال مجاهد فصلت أى فسرت وقيل فصلت أى أنزلت شيئا فشيئا (من لدن حكيم خبير ، ألا تعبدوا إلا الله) أى فى ذلك الكتاب أن لا تعبدوا إلا الله، ويكون محل أن رفعاً وقيل محله خفض تقديره بأن لا تعبدوا إلا الله (إننى لكم منه) أى من الله (نذير) للعاصين (وبشير) للمطيعين (وأن) عطف على الأول (استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) أى

(تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام)

وهى مكية فى قول ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة وفى رواية عن ابن عباس أنها مكية غير آية وهى قوله سبحانه وتعالى «وأقم الصلاة طرفى النهار» وعن قتادة نحوه وقال مقاتل هى مكية إلا قوله سبحانه فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وقوله أولئك يؤمنون به وقوله سبحانه وتعالى إن الحسنات يذهبن السيئات وهى مائة وثلاث وعشرون آية وألف وستمائة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يارسول الله قد شبت قال شيبتنى هود والواقعة «والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وفى رواية غيره قال قلت «يارسول الله عجل إليك الشيب قال شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية» قال بعض العلماء سبب شيبه صلى الله عليه وسلم من هذه السور المذكورة فى الحديث لما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله أعلم بمراد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر كتاب أحكمت آياته) قال ابن عباس لم ينسخها كتاب كما نسخت هى الكتب والشرائع (ثم فصلت) يعنى بينت وقال الحسن أحكمت آياته بالأمر والنهى وفصلت بالثواب والعقاب وفى رواية عنه بالعكس قال أحكمت بالثواب والعقاب وفصلت بالأمر والنهى وقال قتادة أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فيها وقيل أحكمها الله فليس فيها تناقض ثم فصلها وبينها وقيل معناه نظمت آياته نظما رصينا محكما بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم الذى ليس فيه خلل ثم فصلت آياته سورة سورة وقيل إن آيات هذا الكتاب دالة على التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحوال القيامة وكل ذلك لا يدخله النسخ ثم فصلت بدلائل الأحكام والمواعظ والقصص والإخبار عن المغيبات وقال مجاهد فصلت بمعنى فسرت وثم فى قوله ثم فصلت ليست هى للتراخى فى الوقت ولكن فى الحال كما تقول هى محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل فان قلت كيف عم الآيات هنا بالأحكام وخص بعضها فى قوله منه آيات محكمات. قلت إن الإحكام الذى عم به هنا غير الذى خص به هناك فمعنى الإحكام العام هنا أنه لا يتطرق إلى آياته التناقض والفساد كإحكام البناء فان هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه والمراد بالإحكام الخاص المذكور فى قوله منه آيات محكمات أن بعض آياته منسوخة نسخها بآيات منه أيضا لم ينسخها غيره وقيل أحكمت آياته أى معظم آياته محكمة وإن كان قد دخل النسخ علي البعض فأجرى الكل على البعض لأن الحكم للغالب وإجراء الكل علي البعض مستعمل فى كلامهم تقول أكلت طعام زيد وإنما أكلت بعضه . وقوله تعالى (من لدن حكيم) يعنى أحكمت آيات الكتاب من عند حكيم فى جميع أفعاله (خبير) يعنى بأحوال عباده ومايصلحهم (ألا تعبدوا إلا الله) هذا مفعول له معناه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله والمراد بالعبادة التوحيد وخلع الأنداد والأصنام وما كانوا يعبدون والرجوع إلى الله تعالى وإلى عبادته والدخول فى دين الإسلام (إننى لكم منه) أى قل لهم يامحمد إننى لكم من عند الله (نذير) ينذركم عقابه إن ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه (وبشير) يعنى وأبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) اختلفوا

أى ارجعوا إليه بالطاعة قال الفراء ثم هنا بمعنى الواو أى وتوبوا إليه لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هى الاستغفار وقيل ان استغفروا ربكم فى الماضى ثم توبوا إليه فى المستأنف (يمتعكم متاعا حسنا) يعيشكم عيشا حسنا فى خفض ودعة وأمن وسعة قال بعضهم العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور (٢١٧) (إلى أجل مسمى) إلى حين الموت (ويؤت كل ذى فضل فضله) أى ويؤت كل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره وثوابه فى الآخرة قال أبو العالية من كثرت طاعته فى الدنيا زادت درجاته فى الآخرة وفى الجنة لأن الدرجات تكون بالأعمال، وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف ثم يدخل الجنة بعد وقيل « يؤت كل ذى فضل فضله» يعنى من عمل الله عز وجل وفقه الله فيما يستقبل على طاعته (وإن تولوا) أعرضوا (فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) وهو يوم القيامة (إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير) قوله تعالى (ألا إنهم يثنون صدورهم) قال ابن عباس نزلت فى الأخنس ابن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر

فى بيان الفرق بين هذين المرتبتين فقيل معناه طلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ارجعوا إليه لأن الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر. والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا إليه فى المستقبل وقال الفراء ثم هنا بمعنى الواو ولأن الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد (يمتعكم متاعا حسنا) يعنى إنكم إذا فعلتم ماأمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ماتعيشون به فى أمن وسعة وخير قال بعضهم المتاع الحسن هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور (إلى أجل مسمى) يعنى يمتعكم متاعا حسنا إلى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم . فان قلت قد ورد فى الحديث « إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وقد يضيق على الرجل فى بعض أوقاته حتى لايجد ماينفقه على نفسه وعياله فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى . قلت أما قوله صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن » فهو بالنسبة إلى ماأعد الله له فى الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فانه فى سجن فى الدنيا حتى يفضى إلى ذلك المعد له وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة إلى ماأعد الله له فى الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذى لاينقطع فهو فى الدنيا فى جنة حتى يفضى إلى ما أعد الله له فى الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن فى بعض الأوقات فانما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن فى جميع أحواله فى عيشة حسنة لأنه راض عن الله فى جميع أحواله . وقوله سبحانه وتعالى (ويؤت كل ذى فضل فضله) أى ويعط كل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره وثوابه فى الآخرة قال أبو العالية من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت حسناته ودرجاته فى الجنة لأن الدرجات تكون على قدر الأعمال وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن زادت سيئاته دخل النار ومن استوت حسناته وسيئاته كان من الأعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلبت آحاده أعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله فى المستقبل لطاعته (وإن تولوا) يعنى وإن أعرضوا عما جئتم به من الهدى (فانى أخاف عليكم) أى فقل لهم يا محمد إنى أخاف عليكم (عذاب يوم كبير) يعنى عذاب النار فى الآخرة (إلى الله مرجعكم) يعنى فى الآخرة فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسىء على إساءته (وهو على كل شىء قدير) يعنى من إيصال الرزق إليكم فى الدنيا وثوابكم وعقابكم فى الآخرة قوله سبحانه وتعالى (ألا أنهم يثنون صدورهم) قال ابن عباس نزلت فى الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام

يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره . قوله يثنون صدورهم أى يخفون مافى صدهم من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت هذه الآية فى بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وحنى ظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لايراه النبى صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم كى لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولاذكره وقيل كان الرجل من الكفار

يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله مافى قلبي وقال السدى يثنون أى يعرضون بقلوبهم من
قولهم ثنيت عناني وقيل يعطفون ومنه ثني الثوب وقرأ ابن عباس يثنوني على وزن يحاولي جعل الفعل للصدور ومعناه المبالغة
فى الثني (ليستخفوا منه) أى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد ليستخفوا من الله إن استطاعوا (ألا حين يستغشون
ثيابهم) يغطون رؤوسهم بثيابهم (يعلم مايسرون ومايعلنون إنه عليم بذات الصدور) قال الأزهرى معنى الآية من أولها إلى
آخرها إن الذين أضمروا عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخفى علينا حالهم أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن
عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف (٢١٨) ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحسن بن محمد بن صباح ثنا حجاج قال قال ابن جريج
أخبرني محمد بن عباد ابن جعفر أنه سمع ابن عباس رضى الله عنهما يقرأ ألا إنهم يثنون صدورهم فقال سألته عنها فقال كان أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم قوله تعالى (ومامن دابة فى الأرض) أى ليس دابة ومن صلة والدابة كل حيوان يدب على وجه الأرض وقوله (إلا على الله رزقها) أى هو المتكفل بذلك فضلا وهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق وقيل على بمعنى من أى من الله رزقها وقال مجاهد ماجاءها من رزق فمن الله عز وجل وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا (ويعلم مستقرها ومستودعها) قال ابن مقسم ويروى ذلك عن
ابن عباس مستقرها المكان الذى تأوى إليه وتستقر فيه ليلا ونهارا ومستودعها الموضع الذى تدفن فيه إذا ماتت وقال عبد
الله بن مسعود رضى الله عنه المستقر أرحام الأمهات والمستودع المكان الذى تموت فيه وقال عطاء المستقر أرحام
الأمهات والمستودع أصلاب الآباء ورواه سعيد بن جبير وعلى بن طلحة وعكرمة عن ابن عباس وقيل المستقر الجنة أو النار
والمستودع القبر لقوله تعالى فى صفة الجنة والنار «حسنت مستقرا ومقاما - وساءت مستقرا ومقاما» (كل فى كتاب مبين) أى
كل مثبت فى اللوح المحفوظ قبل أن خلقها قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء)

حلو المنظر وكان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره فنزلت
إلا إنهم يثنون صدورهم يعنى يخفون ما فى صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب
إذا طويته وقال عبد الله بن شداد بن الهاد نزلت فى بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله
صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لا يراه رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم كى لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل
كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم
الله ما فى قلبى وقال السدى يثنون صدورهم أى يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى
(ليستخفوا منه) يعنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد من الله عز وجل إن استطاعوا
(ألا حين يستغشون ثيابهم) يعنى يغطون رءوسهم بثيابهم (يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه
عليم بذات الصدور) ومعنى الآية على ماقاله الأزهرى إن الذين أضمروا عداوة رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يخفى علينا حالهم فى كل حال وقد نقل عن ابن عباس غير هذا التفسير
وهو ما أخرجه البخارى فى إفراده عن محمد بن عياش بن جعفر المخزومى أنه سمع ابن عباس
يقرأ ألا أنهم يثنون صدورهم قال فسألته عنها فقال كان أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا
إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم . وقوله سبحانه وتعالى (وما
من دابة فى الأرض) الدابة اسم لكل حيوان دب علي وجه الأرض وأطلق لفظ الدابة على
كل ذى أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الإطلاق فيدخل الآدمى وغيره من
جميع الحيوانات (إلا على الله رزقها) يعنى هو المتكفل برزقها فضلا منه لا على سبيل الوجوب
فهو إلى مشيئته إن شاء رزق وان شاء لم يرزق وقيل ان لفظة على بمعنى أى من الله رزقها وقال
مجاهد ماجاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا (ويعلم مستقرها ومستودعها) قال
ابن عباس مستقرها المكان الذى تأوى فى ليل أو نهار ومستودعها المكان الذى تدفن فيه بعد الموت
وقال ابن مسعود مستقرها أرحام الأمهات والمستودع المكان الذى تموت فيه وقيل المستقر الجنة
أو النار والمستودع القبر (كل فى كتاب مبين) أى كل ذلك مثبت فى اللوح المحفوظ قبل خلقها
قوله عز وجل (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) يعنى
قبل خلق السموات والأرض قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر إليها بالهيبة فصارت

ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء قال ضمرة إن الله سبحانه وتعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وخلق القلم فكتب به ما خلق وما هو خالق وما هو كائن من خلقه إلى يوم القيامة ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيئا من خلقه . وقال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى «وكان عرشه على الماء» على أى شيء كان الماء قال على متن الريح وقال وهب بن منبه إن العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والأرض ثم قبض الله قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات فى يومين ثم أخذ سبحانه وتعالى طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الأرض منها ثم خلق الأقوات فى يومين والسموات فى يومين والأرض فى يومين ثم فرغ آخر الخلق وفى اليوم السابع قال بعض العلماء وفى خلق جميع الأشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة لأن البناء الضعيف إذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم وهو العرش والسموات والأرض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران بن حصين قال « دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتى بالباب فأتى ناس من بنى تميم فقال اقبلوا البشرى يا بنى تميم فقالوا بشرتنا فاعطنا مرتين فتغير وجهه ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قبلنا يارسول الله ثم قالوا جئنا لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شيء ثم أتانى رجل فقال ياعمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فاذا السراب يقطع دونها وايم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم » عن أبى رزين العقيلى قال قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء أخرجه الترمذى وقال قال أحمد يريد بالعماء أنه ليس معه شيء قال أبو بكر البيهقى فى كتاب الأسماء والصفات له قوله صلى الله عليه وسلم « كان الله ولم يكن شيء قبله » يعنى لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله «وكان عرشه على الماء» يعنى وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب فى الذكر كل شيء وقوله فى عماء وجدته فى كتاب عماء مقيدا بالمد فإن كان فى الأصل ممدودا فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله فى عماء أى فوق سحاب مدبر له وعاليا عليه كما قال سبحانه وتعالى « أأمنتم من فى السماء » يعنى من فوق السماء وقال تعالى «لأصلبنكم فى جذوع » النخل يعنى على جذوعها وقوله «ما فوقه هواء» أي ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله «وما تحته هواء» أى ما تحت السحاب هواء وقد قيل إن ذلك العمى مقصور والعمى إذا كان مقصورا فمعناه لا شيء ثابت لأنه مما عمى عن الخلق لكونه غير شيء فكأنه قال فى جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء أى ليس فوق العمى الذى هو لا شيء موجود هواء ولا تحته هواء لأن ذلك إذا كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه والله أعلم وقال الهروى صاحب الغريبين قال بعض أهل العلم معناه أين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصارا كقوله واسأل القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى « وكان عرشه على الماء » هذا آخر كلام البيهقى وقال ابن الأثير العماء فى اللغة السحاب الرقيق وقيل الكثيف وقيل هو الضباب ولا بد فى الحديث من حذف مضاف تقديره أن كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا

قبل أن خلق السماء والأرض وكان ذلك الماء على متن الريح قال كعب خلق الله عز وجل ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال ضمرة إن الله تعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه ثم إن ذلك الكتاب سبح الله

ومجده الف عام قبل آن يخلق شيئا من خلقه (ليبلوكم) ليختبركم وهو أعلم (أيكم أحسن عملا) أعمل بطاعة الله وأورع عن محارم الله تعالى (ولئن (٢٢٠) قلت) يا محمد (إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) يعنون القرآن وقرأ حمزة والكسائي ساحر يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) إلى أجل محدود وأصل الأمة الجماعة فكأنه قال إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى (ليقولن ما يحبسه) أى أى شيء يحبسه يقولونه استعجالا للعذاب واستهزاء يعنون أنه ليس بشيء قال الله تعالى (ألا يوم يأتيهم) يعنى العذاب (ليس مصروفا عنهم) لا يكون مصروفا عنهم (وحاق بهم) نزل بهم (ما كانوا به يستهزئون) أى وبال استهزائهم قوله تعالى (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة) نعمة وسعة (ثم نزعناها منه) أى سلبناها منه (إنه ليؤس) قنوط فى الشدة (كفور) فى النعمة (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) بعد بلاء أصابه (ليقولن ذهب السيئات عنى) زالت الشدائد عنى (إنه لفرح فخور) أشر بطر والفرح لذة فى القلب بنيل المشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهى عنه (إلا الذين صبروا) قال الفراء هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا (وعملوا الصالحات) فانهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالوا نعمة شكروا (أولئك لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) وهو الجنة (فلعلك) يا محمد (تارك بعض ما يوحى إليك) فلا تبلغه إياهم

الحطاب

المحذوف قوله تعالى «وكان عرشه على الماء» وحكى عن بعضهم فى العمى المقصور أنه قال هو كل أمر لا يدركه الفطن وقال الأزهرى قال أبو عبيد إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم وإلا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء قال الأزهرى فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» وفى رواية «فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وكان عرشه على الماء بخمسين ألف سنة» قوله فرغ يريد إتمام خلق المقادير لا أنه كان مشغولا ففرغ منه لأن الله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن فانما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. قوله سبحانه وتعالى (ليبلوكم) يعنى ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم أحسن عملا) يعنى بطاعة الله وأورع عن محارم الله (ولئن قلت) يعنى ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (إنكم مبعوثون من بعد الموت) يعنى للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) يعنون القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) يعنى إلى أجل محدود وأصل الأمة فى اللغة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه وتعالى إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى (ليقولن ما يحبسه) يعنى أى شيء يحبس العذاب وإنما يقولون ذلك استعجالا بالعذاب واستهزاء يعنون أنه ليس بشيء قال الله عز وجل (ألا يوم يأتيهم) يعنى العذاب (ليس مصروفا عنهم) أى لا يصرفه عنهم شيء (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) يعنى ونزل بهم وبال استهزائهم . قوله سبحانه وتعالى (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة) يعنى رخاء وسعة فى الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا (ثم نزعناها منه) يعنى سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به (إنه ليئوس كفور) يعنى يظل قانطا من رحمة الله آيسا من كل خير كفور أى جحود لنعم الله عليه أولا قليل الشكر لربه قال بعضهم يا ابن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها فان نزعت عنك فينبغى لك أن تصبر ولا تيأس من رحمة الله فانه العواد على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) يعنى ولئن نحن أنعمنا على الإنسان وبسطنا عليه من العيش (ليقولن) يعنى الذى أصابه الخير والنعمة (ذهب السيئات عنى) يعنى ذهب الشدائد والعسر والضيق وإنما قال ذلك غرة بالله عز وجل وجراءة عليه لأنه لم يضف الأشياء كلها إلى الله وإنما أضافها إلى العوائد فلهذا ذمه الله تعالى فقال (إنه لفرح فخور) أى إنه أشر بطر والفرح لذة تحصل فى القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهى عنه ثم استثنى فقال تبارك وتعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) قال الفراء هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فانهم ليسوا كذلك فانهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا عليها (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (لهم مغفرة) يعنى لذنوبهم (وأجر كبير) يعنى الجنة . قوله عز وجل (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك)

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فلعلك يامحمد تارك بعض ما يوحى إليك ربك أن تبلغه إلى من أمرك أن تبلغ ذلك إليه (وضائق به صدرك) يعني ويضيق صدرك بمايوحى إليك فلا تبلغه إياهم وذلك أن كفار مكة قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يترك ذكر آلهتهم ظاهرا فأنزل الله عز وجل فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك يعني من ذكر آلهتهم هذا ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية وأجمع المسلمون على أنه صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ فإنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه بخلاف ماهو به لاخطأ ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا وأنه صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما أنزل الله عليه إلى أمته ولم يكتم منه شيئا وأجمعوا على أنه لا يجوز على رسول الله صلى الله عليه وسلم خيانة في الوحي والإنذار ولا يترك بعض ما أوحى إليه لقول أحد لأن تجويز ذلك يؤدي إلى الشك في أداء الشرائع والتكاليف لأن المقصود من إرسال الرسول التبليغ إلى من أرسل إليه فإذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبي صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك كله وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد بقوله تعالى فلعلك تارك بعض مايوحى إليك شيئا آخر سوى ماذكره المفسرون. وللعلماء في ذلك أجوبة . أحدها قال ابن الأنباري قد علم الله سبحانه وتعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم لايترك شيئا مما يوحى إليه إشفاقا من موجدة أحد وغضبه ولكن الله تعالى أكد على رسوله صلى الله عليه وسلم في متابعة الإبلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال « ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » الآية الثاني أن هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وتحريضه على أداء ماأنزله إليه والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك في عصمته مما يخافه ويخشاه . الثالث أن الكفار كانوا يستهزئون بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لذلك وأن يلقي إليهم مالا يقبلونه ويستهزئون به فأمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ ماأوحى إليه وأن لايلتفت إلى استهزائهم وأن تحمل هذا الضرر أهون من كتم شيء من الوحي ، والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لأن الإنسان إذا علم أن كل واحد من طرفي الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم أن الضرر في باب الترك أعظم سهل عليه الإقدام على الفعل ، وقيل إن الله سبحانه وتعالى مع علمه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايترك شيئا من الوحي هيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم وردهم إلى قبول قوله بقوله « فعلك تارك بعض مايوحى إليك » أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك أي بأن تتلوه عليهم (أن يقولوا) يعني مخافة أن يقولوا (لولا أنزل عليه كنز) يعني يستغني به وينفقه (أو جاء معه ملك) يعني يشهد بصدقه وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن أمية المخزومي . والمعنى أنهم قالوا لرسول الله ﷺ إن كنت صادقا في قولك بأنك رسول الله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وأنت عزيز عنده مع أنك فقير فهلا أنزل عليك ماتستغني به أنت وأصحابك وهل أنزل عليك ملكا يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة في أمرك أخبر الله عز وجل أنه صلى الله عليه وسلم نذير بقوله عز وجل (إنما أنت نذير) تنذر بالعقاب لمن خالفك وعصى أمرك وتبشر بالثواب لمن أطاعك وآمن بك وصدقك (والله على كل شيء وكيل) يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ أقوالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة . قوله سبحانه وتعالى (أم يقولون افتراه) يعني بل يقول كفار مكة اختلقه

وذلك أن كفار مكة لما قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا هم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع آلهتهم ظاهراً فأنزل الله تعالى « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك » يعني سب الآلهة (وضائق به صدرك) أي فلعلك يضيق صدرك (أن يقولوا) أي لأن يقولوا (لولا أنزل عليه كنز) ينفقه (أو جاء معه ملك) يصدقه قاله عبد الله بن أمية المخزومي قال الله تعالى (إنما أنت نذير) ليس عليك إلا البلاغ (والله على كل شيء وكيل) حافظ (أم يقولون افتراء) بل يقولون

اختلقه (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) فان قيل قد قال في سورة يونس فأتوا بسورة مثله وقد عجزوا عنه فكيف قال فأتوا بعشر سور فهو كرجل يقول لآخر أعطني دوهما فيعجز فيقول أعطني عشرة دراهم الجواب قد قيل سورة هود نزلت أولا وأنكر المبرد هذا وقال بل نزلت سورة يونس أولا وقال معنى قوله في سورة يونس فأتو بسورة مثله أي مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم في سورة هود إن عجزتم عن الاتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد وإنما هي مجرد البلاغة (وادعوا من استطعتم) واستعينوا بمن استطعتم (من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم) يا أصحاب محمد وقيل لفظه جمع والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم وحده (فاعلموا) قيل هذا خطاب مع المؤمنين وقيل مع المشركين (أنما أنزل بعلم الله) يعني القرآن وقيل أنزله وفيه علمه (وأن لا إله إلا هو) أي فاعلموا أن لا إله إلا هو (فهل أنتم مسلمون) لفظه استفهام ومعناه أمر أي أسلموا قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا) أي من كان يريد بعمله الحياة الدنيا (وزينتها) نزلت في كل

يعني ماأوحي إليه من القرآن (قل) أي قل لهم يامحمد (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) لما قالوا له افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك وليس هو من عندالله تحداهم وأرخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم فقال ﷺ هبوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلى شيء وأن الأمر كما قلتم وأنتم عرب مثلي من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأصحاب اللسان فأتوا أنتم بكلام مثل هذا الكلام الذي جئتكم به مختلق من عند أنفسكم فانكم تقدرون على مثل ماأقدر عليه من الكلام فلهذا قال سبحانه وتعالى «فأتوا بعشر سور مثله مفتريات» في مقابلة قولهم افتراه . فان قلت قد تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قالوا فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة أعجز . قلت قد قال بعضهم إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس وأنه تحداهم أولا بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وأنكر المبرد هذا القول وقال إن سورة يونس نزلت أولا قال ومعنى قوله في سورة يونس فأتوا بسورة مثله يعني مثله في الإخبار عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد وفي قوله في سورة هود فأتوا بعشر سور مثله يعني في مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام أمره بأن يقول لهم (وادعوا من استطعتم من دون الله) حتى يعينوكم على ذلك (إن كنتم صادقين) يعني في قولكم إنه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم) اعلم أنه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخطابين : أحدهما أمر وخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . والثاني أمر وخطاب للكفار وهو قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى فان لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لعجزهم عنها واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار في المعارضة فلهذا السبب اختلف المفسرون في معنى الآية على قولين أحدهما أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فان لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم إليه من المعارضة وعجزوا عنه (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) يعني فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقينا وثباتا لأنهم كانوا عالمين بأنه منزل من عند الله وقيل الخطاب في قوله فان لم يستجيبوا لكم للنبي ﷺ وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم القول الثاني أن قوله سبحانه وتعالى فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك أنه سبحانه وتعالى لما قال في الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله عز وجل في هذه الآية فان لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم يعينوكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأنه ليس مفترى على الله بل هو أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وأن لا إله إلا هو) يعني الذي أنزل القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو لا من تدعون من دونه (فهل أنتم مسلمون) فيه معنى الأمر أي أسلموا وأخلصوا لله العبادة وإن حملنا معنى الآية على أنه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل أنتم مسلمون الترغيب أي دوموا على ماأنتم عليه من الإسلام . قوله عز وجل (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) يعني بعمله الذي يعمله من أعمال البر نزلت في كل من عمل عملا يبتغي به غير الله عز وجل

(نوف إليهم أعمالهم فيها) يعنى أجور أعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى يوسع عليهم فى الرزق ويدفع عنهم المكاره فى الدنيا ونحو ذلك (وهم فيها لا يبخسون) يعنى أنهم لاينقصون من أجور أعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا بل يعطون أجور أعمالهم كاملة موفرة (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها) يعنى وبطل ماعملوا فى الدنيا من أعمال البر (وباطل ما كانوا يعملون) لأنه لغير الله واختلف المفسرون فى المعنى بهذه الآية فروى قتادة عن أنس أنها فى اليهود والنصارى وعن الحسن مثله وقال الضحاك من عمل عملا صالحا فى غير تقوى يعنى من أهل الشرك أعطى على ذلك أجرا فى الدنيا وهو أن يصل رحما أو يعطى سائلا أو يرحم مضطرا أو نحو هذا من أعمال البر فيجعل الله له ثواب عمله فى الدنيا يوسع عليه فى المعيشة والرزق ويقر عينه فيما خوله ويدفع عنه المكاره فى الدنيا وليس له فى الآخرة نصيب ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار الآية وهذه حالة الكافر فى الآخرة وقيل نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم لأنهم كانوا لا يرجون ثواب الآخرة وقيل إن حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر والمنافق الذى هذه صفته والمؤمن الذى يأتى بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة قال مجاهد فى هذه الآية هم أهل الرياء وهذا القول مشكل لأن قوله سبحانه وتعالى أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار لايليق بحال المؤمن إلا إذا قلنا أن تلك الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار ويدل على هذا ماروى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه» أخرجه مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعنى ريحها أخرجه أبو داود عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يارسول الله وماجب الحزن قال واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يارسول الله من يدخله قال القراء المراءون بأعمالهم» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قال البغوى وروينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء» أخرجه بغير سند والرياء هو أن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليقصدوه بالعطاء فهذا العمل هو الذى لغير الله نعوذ بالله من الخذلان قال البغوى وقيل هذا فى الكفار يعنى قوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها أما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وروينا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا» أخرجه البغوى بغير سند. قوله سبحانه وتعالى (أفمن كان على بينة من ربه)

(أفمن كان على بينة) بيان (من ربه) قيل فى الآية حذف ومعناه أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها أو من كان على بينة من ربه كمن هو فى الضلالة والجهالة والمراد بالذى هو على بينة من ربه النبى صلى الله عليه وسلم

من عمل عملا يريد به غير الله عز وجل (نوف إليهم أعمالهم فيها) أى نوف لهم أجور أعمالهم فى الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها (وهم فيها لا يبخسون) أى فى الدنيا لا ينقص حظهم (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها) أى فى الدنيا (وباطل) ماحق (ما كانوا يعملون) اختلفوا فى المعنى بهذه الآية فقال مجاهد أهل الرياء وروينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء» وقيل هذا فى الكفار وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة ويثاب عليها فى الآخرة وروينا عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى به فى الآخرة» وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا من قوله تعالى

لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر في هذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى أفمن كان على بينة من ربه أي كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة إلا النار وإنما حذف هذا الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه أفمن كان على بينة من ربه وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كمن هو في ضلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالبينة اليقين يعني أنه على يقين من ربه أنه على الحق (ويتلوه شاهد منه) يعني ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا في الشاهد من هو فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر المفسرين أنه جبريل عليه السلام يريد أن جبريل يتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده ويسدده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم وروي عن محمد بن الحنفية قال قلت لأبي يعني علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنت التالي قال وما تعني بالتالي قلت قوله سبحانه وتعالى ويتلوه شاهد منه قال وددت أني هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول أن اللسان لما كان يعرب عما في الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لأن اللسان هو آلة الفصل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبي ﷺ ويسدده وقال الحسين بن الفضل الشاهد هو القرآن لأن إعجازه وبلاغته وحسن نظامه يشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بنبوته ولأنه أعظم معجزاته الباقية على طول الدهر وقال الحسين بن علي وابن زيد الشاهد منه هو محمد صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول أن من نظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعين العقل والبصيرة علم أنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون وقال جابر بن عبد الله قال علي بن أبي طالب ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان فقال له رجل وأنت أي آية نزلت فيك فقال علي ما تقرأ الآية التي في هود ويتلوه شاهد منه فعلى هذا القول يكون الشاهد علي بن أبي طالب وقوله يعني من النبي صلى الله عليه وسلم والمراد تشريف هذا الشاهد وهو علي لاتصاله بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل يتلوه شاهد منه يعني الإنجيل وهو اختيار الفراء والمعنى أن الإنجيل يتلو القرآن في التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والأمر بالإيمان به وإن كان قد نزل قبل القرآن. وقوله سبحانه وتعالى (ومن قبله) يعني ومن قبل نزول القرآن وإرسال محمد صلى الله عليه وسلم (كتاب موسى) يعني التوراة (إماما ورحمة) يعني أنه كان إماما لهم يرجعون إليه في أمور الدين والأحكام والشرائع وكونه رحمة لأنه الهادي من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة وقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) يعني أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم هم المشار إليهم بقوله أولئك يؤمنون به يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومن يكفر به) يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم (من الأحزاب) يعني من جميع الكفار وأصحاب الأديان المختلفة فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وغيرهم والأحزاب الفرق الذين تحزبوا وتجمعوا على مخالفة الأنبياء (فالنار موعده) يعني في الآخرة روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»

(ويتلوه شاهد منه) أي يتبعه من يشهد له يصدقه. واختلفوا في هذا الشاهد فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر أهل التفسير أنه جبريل عليه السلام وقال الحسن وقتادة هو لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى ابن جريج عن مجاهد قال هو ملك يحفظه ويسدده وقال الحسين ابن الفضل هو القرآن ونظمه وإعجازه وقيل هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال علي ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية من القرآن فقال له رجل وأنت أي شيء نزل فيك قال ويتلوه شاهد منه وقيل شاهد منه هو الإنجيل (ومن قبله) أي ومن قبل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم وقيل من قبل نزول القرآن (كتاب موسى) أي كان كتاب موسى (إماما ورحمة) لمن اتبعها يعني التوراة وهي مصدقة للقرآن شاهدة للنبي صلى الله عليه وسلم (أولئك يؤمنون به) يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب (ومن يكفر به) أي بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن (من الأحزاب) من الكفار من أهل الملل كلها (فالنار موعده) أخبرنا حسان بن سعيد قال المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه

ثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ولا يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار ». قوله تعالى

قال سعيد بن جبير مابلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه فى كتاب الله عز وجل حتى بلغنى هذا الحديث لايسمع بى أحد من هذه الأمة الحديث قال سعيد فقلت أين هذا فى كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية « ومن قبله كتاب موسى » إلى قوله سبحانه وتعالى « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » قال فالأحزاب أهل الملل كلها ثم قال سبحانه وتعالى (فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك) فيه قولان أحدهما أن معناه فلا تك فى شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله فعلى هذا القول يكون متعلقا بما قبله من قوله تعالى « أم يقولون افتراه » والقول الثانى : أنه راجع إلى قوله « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » يعنى فلا تك فى شك من أن النار موعد من كفر من الأحزاب والخطاب فى قوله « فلا تك فى مرية » للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويعضد هذا القول سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن أكثر الناس لايؤمنون) يعنى لايصدقون بما أوحينا إليك أو من أن موعد الكفار النار . قوله عز وجل (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى أى الناس أشد تعديا ممن اختلق على الله كذبا فكذب عليه وزعم أن له شريكا أو ولدا وفى الآية دليل على أن الكذب على الله من أعظم أنواع الظلم لأن قوله تعالى « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » ورد فى معرض المبالغة (أولئك) يعنى المفترين على الكذب (يعرضون على ربهم) يعنى يوم القيامة فيسألهم عن أعمالهم فى الدنيا (ويقول الأشهاد) يعنى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم قاله مجاهد وقال ابن عباس هم الأنبياء والرسل وبه قال الضحاك وقال قتادة الأشهاد الخلق كلهم (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) يعنى فى الدنيا وهذه الفضيحة تكون فى الآخرة لكل من كذب على الله (ألا لعنة الله على الظالمين) يعنى يقول الله ذلك يوم القيامة فيلعنهم ويطردهم من رحمته (ق) عن صفوان بن محرز المازنى قال بينما ابن عمر يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال ياأبا عبد الرحمن أخبرنى ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النجوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول أعرف رب أعرف مرتين فيقول سترتها عليه فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته » وفى رواية « ثم تطوى صحيفة حسناته » وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد وفى رواية « فينادى بهم على رءوس الأشهاد من الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » قوله سبحانه وتعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) هذه الآية متصلة بما قبلها والمعنى ألا لعنة الله على الظالمين ثم وصفهم فقال الذين يصدون عن سبيل الله يعنى يمنعون الناس من الدخول فى دين الله الذى هو دين الإسلام (ويبغونها عوجا) يعنى ويطلبون إلقاء الشبهات فى قلوب الناس وتعويج الدلائل الدالة على صحة دين الإسلام (وهم بالآخرة هم كافرون) يعنى وهم مع صدهم عن سبيل الله يجحدون البعث بعد الموت وينكرونه (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (لم يكونوا معجزين فى الأرض) قال ابن عباس يعنى سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين فى الأرض والمعنى أنهم لايعجزون الله إذا أرادهم بالعذاب والانتقام منهم ولكنهم فى قبضته وملكه لا يقدرون على الامتناع منه إذا طلبهم (وما كان لهم من دون الله من أولياء) يعنى وما كان لهؤلاء المشركين

(فلا تك فى مرية منه) أى فى شك منه (إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فزعم أن له ولداً أو شريكا أى لا أحد أظلم منه (أولئك) يعنى الكاذبين والمكذبين (يعرضون على ربهم) فيسألهم عن أعمالهم ويقول الأشهاد، يعنى الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم قاله مجاهد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو قول الضحاك وقال قتادة الخلائق كلهم وروينا عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول نعم أى رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤس الخلائق » (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله) يمنعون عن دين الله (ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون أولئك لم يكونوا معجزين) قال ابن عباس سابقين قال قتادة هاربين وقال مقاتل فائتين (فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء)

يعنى أنصاراً وأعواناً يحفظونهم من عذابنا (يضاعف لهم العذاب) أى يزاد فى عذابهم قيل يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير واقتداء الأتباع بهم قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعف مشددة العين بغير ألف، وقرأ الباقون يضاعف بالألف مخففة العين (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) الهدى قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعونه وما كانوا يبصرون الهدى قال ابن عباس رضى الله عنهما أخبر الله عز وجل أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا قال ما كانوا يستطيعون السمع وهو طاعته وفى الآخرة قال فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم (أولئك الذين خسروا أنفسهم) غبنوا أنفسهم (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يزعمون من شفاعة الملائكة والأصنام (لاجرم) أى حقا وقيل بلى وقال الفراء لا محالة (أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) يعنى من غيرهم وإن كان الكل فى الخسار (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا) قال ابن عباس خافوا وقال قتادة أنابوا وقال مجاهد اطمأنوا وقيل خشعوا وقوله (إلى ربهم) أى لربهم (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون مثل الفريقين) المؤمن والكافر (كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا) قال الفراء لم يقل هل يستوون لأن الأعمى والأصم فى حيز كأنهما واحد لأنهما (أفلا

من أنصار يمنعونهم من دون الله إذا أراد بهم سوءاً أو عذاباً (يضاعف لهم العذاب) يعنى فى الآخرة يزاد عذابهم بسبب صدهم عن سبيل الله وإنكارهم البعث بعد الموت (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) قال قتادة صموا عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به ولا يبصرون خيرا فيأخذون به. وقال ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أحال بين أهل الشرك وبين طاعته فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهى طاعته وما كانوا يبصرون وأما فى الآخرة فانه قال لايستطيعون خاشعة أبصارهم (أولئك الذين خسروا أنفسهم) يعنى أن هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعنى وبطل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله وادعاؤهم أن الملائكة والأصنام تشفع لهم (لاجرم) يعنى حقا وقال الفراء لا محالة (أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) لأنهم باعوا منازلهم فى الجنة واشتروا عوضها منازل فى النار وهذا هو الخسران المبين . قوله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم) لما ذكر الله عز وجل أحوال الكفار فى الدنيا وخسرانهم فى الآخرة أتبعه بذكر أحوال المؤمنين فى الدنيا وربحهم فى الآخرة والإخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام فاذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه وإذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» إشارة إلى جميع أعمال الجوارح وقوله وأخبتوا إشارة إلى أعمال القلوب وهى الخضوع والخشوع لله عز وجل يعنى أن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع فى الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهى الخشوع والخضوع فاذا فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام أنهم يأتون بالأعمال الصالحة مطمئنين إلى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الأعمال أو يكونون مطمئنين إلى ذكره سبحانه وتعالى وإذا فسرنا الإخبات بالخشوع والخضوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين أن لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع (أولئك) يعنى الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أخبر عن حالهم فى الآخرة بأنهم من أهل الجنة التى لا انقطاع لنعيمها ولا زوال . قوله سبحانه وتعالى (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ضرب لهم مثلا فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعنى فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالأعمى وهو الذى لا يهتدى لرشده والأصم وهو الذى لا يسمع شيئا البتة ، والبصير وهو الذى يبصر الأشياء على ماهيتها، والسميع وهو الذى يسمع الأصوات ويجيب الداعى فمثل المؤمنين كمثل الذى يسمع ويبصر وهو الكامل فى نفسه ومثل الكافر كمثل الذى لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص فى نفسه (هل يستويان مثلا؟) قال الفراء لم يقل هل يستوون لأن الأعمى والأصم فى حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع فى حيز كأنهما واحد وهما من وصف المؤمن

من وصف الكافر والبصير والسميع فى حيز كأنهما واحد لأنهما من وصف المؤمن (أفلا تذكرون) أى تتعظون . قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ويعقوب أنى بفتح الهمزة أى بأنى وقرأ الباقون بكسرها أى فقال إنى لأن فى الإرسال معنى القول (إنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) أى مؤلم قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفاً وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل بعث وهو ابن خمسين سنة وقيل بعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربع مائة وخمسين سنة قال الله تعالى «فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما» أى فلبث فيهم داعيا (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) والملأ هم الأشراف والرؤساء (ما نراك) يا نوح (إلا بشرا) آدميا (مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) سفلتنا والرذل الدون من كل شىء والجمع أرذل ثم يجمع على أراذل مثل كلب وأكلب وأكالب وقال فى سورة الشعراء «واتبعك الأرذلون» يعنى السفلة وقال عكرمة الحاكة والأساكفة (بادى الرأى) قرأ أبو عمرو بادىء بالهمز أى أول الرأى يريدون أنهم اتبعوك فى أول الرأى من غير روية وتفكر ولو تفكروا لم يتبعوك. وقرأ الآخرون بغير همز أى ظاهر الرأى من قولهم بدا الشىء إذا ظهر معناه اتبعوك ظاهراً من غير أن يتدبروا ويتفكروا باطنا قال مجاهد رأى العين (وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين قال) نوح (يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة) بيان (من ربى وآتانى رحمة) أى هدى ومعرفة (من عنده فعميت عليكم) أى خفيت والتبست عليكم وقرأ حمزة والكسائى وحفص «فعميت عليكم» بضم العين وتشديد الميم أى شبهت ولبست عليكم (أنلزمكموها)

(فلا تذكرون) يعنى فتتعظون . قوله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين) يعنى أن نوحا عليه السلام قال لقومه حين أرسله الله إليهم إنى لكم أيها القوم نذير مبين يعنى بين النذارة أخوف بالعقاب من خالف أمر الله وعبد غيره؛ وهو قوله سبحانه وتعالى (أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) يعنى مؤلم موجع قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره ألفا وخمسين سنة . وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يعنى الأشراف والرؤساء من قوم نوح (ما نراك) يا نوح (إلا بشرا مثلنا) يعنى آدميا مثلنا لا فضل لك علينا لأن التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع اشتهاره إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وإنما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدعوة إلى الله تعالى باقامة الدليل والبرهان على ذلك ويظهر المعجزة الدالة على صدقه ولا يأتى ذلك إلا من آحاد البشر وهو من اختصه الله بكرامته وشرفه بنبوته وأرسله إلى عباده ثم قال سبحانه وتعالى إخبارا عن قوم نوح (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) يعنى سفلتنا والرذل الدون من كل شىء قيل هم الحاكة والأساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة وإنما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لأن الرفعة فى الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا يضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم فى الدين (بادى الرأى) يعنى أنهم اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك، ولو تفكروا ما اتبعوك . وقيل معناه ظاهر الرأى، يعنى أنهم اتبعوك ظاهرا من غير أن تفكروا باطنا (وما نرى لكم علينا من فضل) يعنى بالمال والشرف والجاه وهذا القول أيضا جهل منهم لأن الفضيلة المعتبرة عند الله بالإيمان والطاعة لا بالشرف والرياسة (بل نظنكم كاذبين) قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم (قال) يعنى نوحا (ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) يعنى على بيان ويقين من ربى بالذى أنذرتكم به (وآتانى رحمة من عنده) يعنى هديا ومعرفة ونبوة (فعميت عليكم) يعنى خفيت وألبست عليكم (أنلزمكموها) الهاء عائدة إلى الرحمة والمعنى أنلزمكم أيها القوم قبول الرحمة يعنى أنا لانقدر أن نلزمكم ذلك من عند أنفسنا

أى أنلزمكم البينة والرحمة (وأنتم لها كارهون) لا تريدونها قال قتادة لو قدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ان يلزموا قومهم لألزموا ولكن لم يقدروا . قوله (٢٢٨) (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا) أى على الوحى وتبليغ الرسالة كناية عن غير مذكور (إن أجرى) ما ثوابى (إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين (إنهم ملاقوا ربهم) أى صائرون إلى ربهم فى المعاد فيجزى من طردهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون، ويا قوم من ينصرنى من الله) من يمنعنى من عذاب الله (إن طردتهم أفلا تذكرون) تتعظون (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) فآتى منها ما تطلبون (ولا أعلم الغيب) فأخبركم بما تريدون وقيل إنهم لما قالوا لنوح إن الذين آمنوا بك إنما اتبعوك فى ظاهر ما ترى منهم قال نوح مجيباً لهم لا أقول لكم عندى خزائن غيوب الله التى يعلم منها ما يضمر الناس ولا أعلم الغيب فأعلم مايسرونه فى نفوسهم فسبيلى قبول ما ظهر من إيمانهم (ولا أقول إنى ملك) هذا جواب قولهم «ما نراك إلا بشراً مثلنا» (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) أى تحتقرهم وتستصغرهم أعينكم يعنى المؤمنين وذلك أنهم قالوا هم أراذلنا (لن يؤتيهم الله خيرا) أى توفيقا وإيمانا وأجراً (الله أعلم بما فى أنفسهم) من الخير والشر منى (إنى إذا من الظالمين) لو قلت هذا

(وأنتم لها كارهون) وهذا استفهام معناه الإنكار أى لا أقدر على ذلك والذى أقدر عليه أن أدعوكم إلى الله وليس لى أن أضطركم إلى ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبى الله لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك (وياقوم لا أسألكم عليه مالا) يعنى لا أسألكم ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا (إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) وذلك أنهم طلبوا من نوح أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون فى زعمهم فقال ما يجوز لى ذلك لأنهم يعتقدون (إنهم ملاقوا ربهم) فلا أطردهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) يعنى عظمة الله ووحدانيته وربوبيته وقيل معناه إنكم تجهلون أن هؤلاء المؤمنين خير منكم (وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم) يعنى من يمنعنى من عذاب الله إن طردتهم عنى لأنهم مؤمنون مخلصون (أفلا تذكرون) يعنى فتتعظون (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) هذا عطف على قوله لا أسألكم عليه مالا والمعنى لا أسألكم عليه مالا ولا أقول لكم عندى خزائن الله يعنى التى لا يفنيها شىء فادعوكم إلى اتباعى عليها لأعطيكم منها وقال ابن الأنبارى الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو عن الخلق وإنما وجب أن يكون هذا جوابا من نوح عليه السلام لهم لأنهم قالوا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وادعوا أن المؤمنين إنما اتبعوه فى ظاهر ما يرى منهم وهم فى الحقيقة غير متبعين له فقال مجيبا لهم ولا أقول لكم عندى خزائن الله التى لا يعلم منها ما ينطوى عليه عباده وما يظهرونه إلا هو وإنما قيل للغيوب خزائن لغموضها عن الناس واستتارها عنهم والقول الأول أولى ليحصل الفرق بين قوله ولا أقول لكم عندى خزائن الله وبين قوله (ولا أعلم الغيب) يعنى ولا أدعى علم ما يغيب عنى مما يسرونه فى نفوسهم فسبيلى قبول إيمانهم فى الظاهر ولا يعلم ما فى ضمائرهم إلا الله (ولا أقول إنى ملك) وهذا جواب لقولهم ما نراك إلا بشرا مثلنا أى لا أدعى أنى من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم إلى الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم .

(فصل)

استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء قال لأن نوحا عليه السلام قال ولا أقول إنى ملك لأن الإنسان إذا قال أنا لا أدعى كذا وكذا لا يحسن إلا إذا كان ذلك الشىء أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام هذه المقالة وجب أن يكون الملك أفضل منه والجواب أن نوحا عليه السلام إنما قال هذه المقالة فى مقابلة قولهم ما نراك إلا بشرا مثلنا لما كان فى ظنهم أن الرسل لا يكونون من البشر إنما يكونون من الملائكة فأعلمهم أن هذا ظن باطل وأن الرسل إلى البشر إنما يكونون من البشر فلهذا قال سبحانه وتعالى « ولا أقول إنى ملك» ولم يرد أن درجة الملائكة أفضل من درجة الأنبياء والله أعلم . وقوله سبحانه وتعالى (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) يعنى تحتقر وتستصغر أعينكم يعنى المؤمنين وذلك لما قالوا إنهم أراذلنا من الرذالة وهى الخسة (لن يؤتيهم الله خيرا) يعنى توفيقا وهداية وإيمانا وأجرا (الله أعلم بما فى أنفسهم) يعنى من الخير والشر (إنى إذا لمن الظالمين) يعنى إن طردتهم مكذبا لظاهرهم ومبطلا لإيمانهم يعنى أنى إن فعلت هذا فأكون قد ظلمتهم وأنا لا أفعله فما أنا من

الظالمين

(قالوا يانوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا) من العذاب (إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء) يعني بالعذاب (وما أنتم بمعجزين) بفائتين (ولا ينفعكم نصحي) أي نصيحتي (إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) يضلكم (هو ربكم) له الحكم والأمر (وإليه ترجعون) فيجزيكم بأعمالكم (أم يقولون افتراه) قال ابن عباس رضي الله عنه يعني نوحا عليه السلام وقال مقاتل يعني محمداً صلى الله عليه وسلم (قل إن افتريته فعلي إجرامي) أي إثمي ووبال جرمي والإجرام كسب الذنب (وأنا بريء مما تجرمون) لا أؤاخذ بذنوبكم قوله تعالى (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) روى الضحاك عن ابن عباس أن قوم نوح عليه السلام كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في قعر بيت يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله عز وجل روي أن شيخا منهم جاء يتوكأ على عصا ومعه ابنه فقال يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال له يا أبت أمكني من العصا فأخذ العصا من أبيه فضرب نوحا حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله عز وجل إليه إنه لن يؤمن إلا من قد آمن (فلا تبتئس) فلا تحزن (بما كانوا يفعلون) فإني مهلكهم ومنقذك منهم فحينئذ دعا نوح عليهم فقال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى إذا تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء وانتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا لا يقبلون منه شيئا فشكا إلى الله تعالى فقال « رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا » إلى أن قال « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديار » فأوحى الله تعالى إليه (واصنع الفلك بأعيننا) قال ابن عباس بمرأى

الظالمين (قالوا يانوح قد جادلتنا) يعني خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) يعني خصومتنا (فأتنا بما تعدنا) يعني من العذاب (إن كنت من الصادقين) يعني في دعواك أنك رسول من الله إلينا (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء) يعني قال نوح لقومه حين استعجلوه بإنزال العذاب إن ذلك ليس إلي إنما هو إلى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء إن أراد إنزال العذاب بكم (وما أنتم بمعجزين) يعني وما أنتم بفائتين إن أراد الله نزول العذاب بكم (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم) يعني ولا ينفعكم إنذاري وتحذيري إياكم عقوبته ونزول العذاب بكم (إن كان الله يريد أن يغويكم) يعني يضلكم وقيل يهلككم وهذا معنى وليس بتفسير لأن الإغواء يؤدي إلى الهلاك (هو ربكم) يعني أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه (وإليه ترجعون) يعني في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم (أم يقولون افتراه) أي اختلقه وأجاء به من عند نفسه والضمير يعود إلى الوحي الذي جاءهم به (قل إن افتريته) أي اختلقته (فعلي إجرامي) أي إثم إجرامي والإجرام اقتراف السيئة واكتسابها يقال جرم وأجرم بمعنى أنه اكتسب الذنب وافتعله (وأنا بريء مما تجرمون) يعني من الكفر والتكذيب وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهي من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل «أم يقولون» يعني المشركين من كفار مكة افتراه يعني محمدا صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة في قصة نوح ثم رجع إلى القصة فقال سبحانه وتعالى (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) قال ابن عباس إن قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في بيت يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله ويروى أن شيخا منهم جاء متكئا على عصاه ومعه ابنه فقال يابني لايغرنك هذا الشيخ المجنون فقال ياأبت أمكني من العصا فأخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن (فلا تبتئس) يعني فلا تحزن عليهم فإني مهلكهم (بما كانوا يفعلون) يعني بسبب كفرهم وأفعالهم فحينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال «رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا» وحكى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبسطون نوحا فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لايعلمون حتى تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلا كان أنحس من الذي قبله ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا فلايقبلون منه شيئا فشكا نوح إلى الله عز وجل فقال يارب «إني دعوت قومي ليلا ونهارا» الآيات حتى بلغ رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه (واصنع الفلك) يعني السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع (بأعيننا) قال ابن عباس

منا وقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) أى بأمرنا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) بالطوفان قيل معناه لا تخاطبنى فى إمهال الكفار فانى قد حكمت باغراقهم وقيل لا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك واعلة فانهما هالكان مع القوم . وفى القصة أن جبريل أتى نوحا عليه السلام فقال إن ربك عز وجل يأمرك أن تصنع الفلك فقال كيف أصنع ولست بنجار فقال إن ربك يقول اصنع فانك بعينى فأخذ القدوم وجعل يصنع ولا يخطئ وقيل أوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر . قوله تعالى (ويصنع (٢٣٠) الفلك) فلما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك أقبل نوح عليه السلام على عمل الفلك ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون به وهو فى عمله ويسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة وأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم ولد، وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يصنعه أزور وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه وأن يجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا وطوله فى السماء ثلاثين ذراعا والذراع إلى المنكب وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلى ووسطى وعليا ويجعل فيه كوى ففعله نوح كما أمره الله عز وجل وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة فى سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثون ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فحمل فى البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب هو ومن معه فى البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد وقال قتادة كان بابها فى عرضها وروى عن الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع والمعروف هو الأول أن طولها ثلثمائة ذراع وعن زيد بن أسلم قال مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ومائة سنة يعمل الفلك وقيل غرس الشجر أربعين سنة وجففه أربعين سنة ، وعن كعب الأحبار أن نوحا عمل السفينة فى ثلاثين

بمرأى منا وقيل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) يعنى بأمرنا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) يعنى بالطوفان والمعنى ولا تخاطبنى فى إمهال الكفار فانى قد حكمت باغراقهم وقيل ولا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك واعلة فانهما هالكان مع القوم وقيل إن جبريل أتى نوحا فقال له إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك فقال كيف أصنعها ولست نجارا فقال إن ربك يقول اصنع فانك بأعيننا فأخذ القدوم وجعل ينجر ولا يخطىء فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى (ويصنع الفلك) يعنى كما أمره الله سبحانه وتعالى قال أهل السير لما أمر الله سبحانه وتعالى نوحا بعمل السفينة أقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيىء القار وكل ما يحتاج إليه فى عمل الفلك وجعل قومه يمرون وهو فى عمله فيسخرون منه ويقولون يانوح قد صرت نجارا بعد النبوة وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد قال البغوى وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه وأن يجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا وطوله فى السماء ثلاثين ذراعا والذراع إلى المنكب وأن يجعله ثلاث طباق سفلى ووسطى وعليا وأن يجعل فيه كوى فصنعه نوح كما أمره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة فى سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وطولها فى السماء ثلاثين ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل فى البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب هو ومن معه فى البطن الاعلى وجعل معه ما يحتاج إليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها فى عرضها وروى عن الحسن أنه كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الأول أشهر وهو أن طولها ثلثمائة ذراع وقال زيد ابن أسلم مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ومائة سنة يصنع الفلك وقال كعب الأحبار عمل نوح عليه السلام السفينة فى ثلاثين سنة وروى أنها ثلاثة أطباق الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى للإنس والطبقة العليا للطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفار فأقبلوا على الروث فأكلوه فلما أفسد الفار فى السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن اضرب بين عينى الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهى القطة والقط فأقبلا على الفار فأكلاه . قوله

سبحانه

سنة وروى أنها كانت ثلاث طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الإنس والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت أرواث الدواب شكا ذلك إلى الله عز وجل فأوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فأكلاه فلما وقع الفأر بجوف السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله تعالى إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر فأكلاه قوله تعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) ذلك أنهم كانوا يقولون إن هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجارا وروى أنهم كانوا يقولون له يا نوح ماذا تصنع؟ فيقول أصنع بيتا يمشي على الماء فيضحكون منه (قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم) إذا عاينتم عذاب الله (كما تسخرون) فان قيل كيف تجوز السخرية من النبي قيل هذا على ازدواج الكلام يعني إن تستجهلوني فاني أستجهلكم إذا نزل العذاب بكم وقيل معناه إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) يهينه (ويحل عليه) يجب عليه (عذاب مقيم) دائم (حتى إذا جاء أمرنا) عذابنا (وفار التنور) اختلفوا في التنور قال عكرمة والزهري هو وجه الأرض وذلك أنه قيل لنوح إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال فار التنور أي طلع الفجر ونور الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبي أنه التنور الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية عن ابن عباس قال الحسن كان تنورا من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار إلى نوح عليه السلام فقيل لنوح إذا رأيت

سبحانه وتعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه) أي جماعة من قومه (سخروا منه) يعني استهزءوا به وذلك أنهم قالوا إن هذا الذي كان يزعم أنه نبي قد صار نجارا وقيل قالوا يا نوح ماذا تصنع قال أصنع بيتا يمشي على الماء فضحكوا منه (قال) يعني نوحا لقومه (إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) يعني أن تستجهلونا في صنعنا فانا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه فان قلت السخرية لا تليق بمنصب النبوة فكيف قال نوح عليه السلام إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون. قلت إنما سمي هذا الفعل سخرية على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله سبحانه وتعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» والمعنى إنا نرى غب سخريتكم بنا إذا نزل بكم العذاب وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون) يعني فسترون (من يأتيه) يعني أينا يأتيه نحن أو أنتم (عذاب يخزيه) يعني يهينه (ويحل عليه عذاب مقيم) يعني في الآخرة فالمراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثاني عذاب الآخرة وهو عذاب النار الذي لا انقطاع له. وقوله عز وجل (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) يعني وغلى والفور الغليان وفارت القدر إذا غلت. والتنور فارسي معرب لا تعرف له العرب اسما غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل إن لفظ التنور جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي وقيل إن لفظ التنور أصله أعجمي فتكلمت به العرب فصار عربيا مثل الديباج ونحوه واختلفوا في المراد بهذا التنور فقال عكرمة والزهري هو وجه الأرض وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء قد فار على وجه الأرض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور علامة لنوح على هذا الأمر العظيم وقال علي: فار التنور أي طلع الفجر ونور الصبح شبه نور الصبح بخروج النار من التنور وقال الحسن ومجاهد والشعبي إن التنور هو الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس أيضا وهذا القول أصح لأن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه. فان قلت الألف واللام في لفظ التنور للعهد وليس ههنا معهود سابق عند السامع فوجب حمله على غيره وهو شدة الأمر والمعنى إذا رأيت الماء يشتد نبوعه ويقوى فانج بنفسك ومن معك. قلت لا يبعد أن يكون ذلك التنور معلوما عند نوح عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة وكانت حواء تخبز فيه ثم صار إلى نوح وقيل له إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا في موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته وكان ذلك في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة قال الشعبي اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران التنور علامة لنوح عليه السلام وقال مقاتل كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له

بفور من التنور فاركب السفينة أنت وأصحابك . واختلفوا فى موضعه فقال مجاهد والشعبي كان فى ناحية الكوفة وكان الشعبي
يحلف ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل
مما يلى باب كندة وكان فوران الماء منه علما لنوح عليه السلام وقال مقاتل كان ذلك تنور آدم وكان
بالشام بموضع يقال له عين
وردة ، وروى عن ابن
عباس أنه كان بالهند
والفوران الغليان . قوله
تعالى (قلنا احمل فيها)
أى فى السفينة (من كل
زوجين اثنين) الزوجان
كل اثنين لا يستغنى
أحدهما عن الآخر يقال
لكل واحد منهما زوج
يقال زوج خف وزوج
نعل والمراد بالزوجين
هنا الذكر والأنثى قرأ
حفص هاهنا وفى سورة
المؤمنين من كل بالتنوين
أى من كل صنف
زوجين اثنين ذكره
تأكيدا ، وفى القصة أن
نوحا عليه الصلاة والسلام
قال «يارب كيف أحمل
من كل زوجين اثنين
فحشر الله إليه الوحوش
والسباع والهوام والطير
فجعل يضرب بيديه فى
كل جنس فيقع الذكر
فى يده اليمنى والأنثى فى
يده اليسرى فيحملها فى
السفينة» (وأهلك) أى
واحمل أهلك أى ولدك
وعيالك (إلا من سبق
عليه القول) بالهلاك يعنى امرأته واعلة وابنه كنعان (ومن آمن)
يعنى واحمل من آمن بك كما قال الله تعالى (وما آمن معه إلا قليل) واختلفوا فى عددهم قال قتادة وابن جريج ومحمد
ابن كعب القرظي لم يكن فى السفينة إلا ثمانية نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له سام وحام ويافث ونساؤهم وقال الأعمش
كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين له وثلاث كنائن له وقال ابن إسحاق كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه سام وحام ويافث يحمل

عين وردة وروى عن ابن عباس أنه كان بالهند قال والفوران الغليان (قلنا احمل فيها) يعنى
قلنا لنوح احمل فى السفينة (من كل زوجين اثنين) الزوجان كل اثنان لا يستغنى أحدهما عن
الآخر كالذكر والأنثى يقال لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكرا
أو أنثى فحشر الله سبحانه وتعالى إليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب
بيديه فى كل جنس منها فيقع الذكر فى يده اليمنى والأنثى فى يده اليسرى فيجعلهما فى السفينة
(وأهلك) أى واحمل أهلك وولدك وعيالك (إلا من سبق عليه القول) يعنى بالهلاك وأراد
به امرأته واعلة وولده كنعان (ومن آمن) يعنى واحمل معك من آمن بك من قومك (وما آمن
معه إلا قليل) اختلفوا فى عدد من حمل نوح معه فى السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد
ابن كعب القرظى لم يكن فى السفينة إلا ثمانين : نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام
ويافث ونساؤهم وقال الأعمش كانوا سبعة نوحا وبنيه وثلاث كنائن له وقال محمد بن إسحاق
كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة نفر آمنوا بنوح وأزواجهم
جميعا وقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وقال ابن عباس كان فى السفينة ثمانون
رجلا أحدهم جرهم قال الطبرى والصواب من القول فى ذلك أن يقال كما قال الله عز وجل
«وما آمن معه إلا قليل» فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغى أن
يجاوز فى ذلك حد الله سبحانه وتعالى إذ لم يرد ذلك فى كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال مقاتل حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين
الرجال والنساء وقصد نوحا جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل
نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما أراد أن يدخل الحمار أدخل صدره فتعلق إبليس
بذنبه فلم تنقل رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال له
ادخل وإن كان الشيطان معك كلمة ذلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل
الحمار ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما أدخلك على ياعدو الله قال ألم تقل أدخل وإن
كان الشيطان معك قال اخرج عنى ياعدو الله . قال لابد من أن تحملنى معك فكان فيما يزعمون
على ظهر السفينة هكذا نقله البغوى وقال الإمام فخر الدين الرازى وأما الذى يروى أن إبليس
دخل السفينة فبعيد لأنه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى فكيف يفر من الغرق وأيضا
فإن كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالأولى ترك الخوض فيه قال البغوى
وروى عن بعضهم أن الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال إنكما
سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ
حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح معه فى السفينة
إلا ما يلد ويبيض وأما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم

وسنة أناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعاً وقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلا وامرأة وبنيه الثلاثة ونساءهم فجميعهم ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان في سفينة نوح ثمانون رجلا أحدهم جرهم قال مقاتل حمل نوح معه جسد آدم فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحا جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس رضي الله عنهما أول ما حمل نوح الذرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فنهض فلم يستطع حتى قال نوح ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما أدخلك على يا عدو الله؟ قال ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك قال اخرج عني يا عدو الله فقال مالك بد من أن تحملني معك فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك وروى عن بعضهم أن الحية والعقرب أتيا نوحا فقالتا احملنا فقال إنكما سبب الضرر والبلاء فلا أحملكما فقالتا له احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين خاف مضرتهما «سلام على نوح في العالمين» ماضرتاه قال الحسن لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض فأما ما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض والذباب فلم يحمل منها شيئا (وقال اركبوا فيها) أي وقال لهم نوح اركبوا فيها أي في السفينة (بسم الله مجريها ومرساها) قرأ حمزة والكسائي وحفص مجريها بفتح الميم ومرساها بضمها وقرأ محمد بن محيصن مجريها ومرساها بفتح الميمين من جرت ورست أي بسم الله جريها ورسوها وهما مصدران وقرأ الآخرون مجراها ومرساها بضم الميمين من أجريت وأرسيت أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها وهما أيضاً مصدران كقوله «أنزلني منزلا مباركا - وأدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق» والمراد منها الإنزال والإدخال والإخراج (إن ربي لغفور رحيم) قال الضحاك قال نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال بسم الله جرت وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله رست (وهي تجري بهم في موج كالجبال) والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح شبهه بالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء (ونادى نوح ابنه) كنعان وقال عبيد بن عمير سام وكان كافرا (وكان في معزل) عنه لم يركب السفينة (يا بني اركب معنا) قرأ نافع وابن عامر وحمزة والبزي عن ابن كثير وأبو بكر عن عاصم ويعقوب اركب بإظهار الباء والآخرون يدغمونها في الميم (ولا تكن مع الكافرين) فتهلك (قال) له ابنه (سآوي) سأصير وألتجيء (إلى جبل يعصمني من الماء) يمنعني من الغرق (قال) له نوح (لا عاصم اليوم من أمر الله) أي من عذاب الله (إلا من رحم)

يحمل منها شيئا . قوله سبحانه وتعالى (وقال اركبوا فيها) يعني وقال نوح لمن حمل معه اركبوا في السفينة (بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) يعني بسم الله إجراؤها وإرساؤها قال الضحاك كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال بسم الله فتجري وكان إذا أراد أن ترسو يعني تقف قال بسم الله فترسو أي تقف وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمرا فلا ينبغي له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سببا للنجاح والفلاح في سائر الأمور (وهي تجري بهم في موج كالجبال) الموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح شبهه سبحانه وتعالى بالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء بالسير أرسل الله الله المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الأرض فذلك قوله سبحانه وتعالى «ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر» يعني صار الماء نصفين نصفا من السماء ونصفا من الأرض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل شيء . وروي أنه لما كثر الماء في السكك خافت أم الصبي على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما لحقها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء إلى رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فأغرقهما فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي (ونادى نوح ابنه) يعني كنعان وكان كافرا (وكان في معزل) يعني عن نوح لم يركب معه (يا بني اركب معنا) يعني في السفينة (ولا تكن مع الكافرين) يعني فتهلك معهم (قال) يعني قال كنعان (سآوي) يعني سألتجيء وأصير (إلى جبل يعصمني) يعني يمنعني (من الماء قال) يعني قال له نوح (لا عاصم) يعني لا مانع (اليوم من أمر الله) يعني من عذابه (إلا من رحم) يعني إلا من رحمه الله فينجيه

قيل من فى محل الرفع أى لا مانع من عذاب الله إلا الله الراحم ، وقيل من فى محل النصب معناه لامعصوم إلا من رحمه الله كقوله «فى عيشة راضية» أى مرضية (وحال بينهما الموج فكان) فصار (من المغرقين) ويروى أن الماء علا على رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا ويروى أنه لما كثر الماء فى السكك خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبى بيديها حتى ذهب بها الماء فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى (وقيل) يعنى بعد ما تناهى أمر الطوفان (يا أرض ابلعى) تشربى (ماءك ويا سماء أقلعى) أمسكى (وغيض الماء) نقص ونضب يقال غاض الماء يغيض غيضا إذا نقص وغاضه الله أى أنقصه (وقضى الأمر) فرغ من الأمر وهو هلاك القوم (واستوت) يعنى السفينة استقرت (على الجودى) وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل (وقيل بعدا) هلاكا (للقوم الظالمين) وروى أن نوحا عليه السلام بعث الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث حمامة فجاءت بورق زيتون فى منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح أن الماء قد نضب فقيل إنه دعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت وطوق الحمامة الخضرة التى فى عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم تألف البيوت ، وروى أن نوحا ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق وبقى موضعه وهبطوا به يوم عاشوراء فصام نوح وأمر جميع من معه بالصوم شكرا لله عز وجل وقيل ما نجا من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق كان الماء إلى حجزته وكان سبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج إليه من الشام فنجاه الله تعالى من الغرق لذلك . قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى) وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى (وإن وعدك الحق) لا تخلف

من الغرق (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) يعنى كنعان (وقيل) يعنى بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح (يا أرض ابلعى ماءك) أى اشربيه (ويا سماء أقلعى) أى أمسكى (وغيض الماء) أى نقص ونضب يقال غاض الماء إذا نقص وذهب (وقضى الأمر) يعنى وفرغ من الأمر وهو هلاك قوم نوح (واستوت) يعنى واستقرت السفينة (على الجودى) وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل (وقيل بعدا) يعنى هلاكا (للقوم الظالمين) قال العلماء بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع إليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون فى منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح أن الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت وطوق الحمامة بالخضرة التى فى عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم تألف البيوت وروى أن نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت الحرام وقد رفعه الله من الغرق وبقى موضعه فطافت السفينة به سبعا وأودع الحجر الأسود جبل أبى قبيس وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وأمر جميع من معه بصيامه شكر الله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهى أول قرية عمرت على وجه الأرض بعد الطوفان وقيل إنه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل إلى حجزته وسبب نجاته من الهلاك أن نوحا عليه السلام احتاج إلى خشب ساج لأجل السفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج بن عنق من الشام إلى نوح فنجاه الله من الغرق لذلك . فان قلت كيف اقتضت الحكمة الإلهية والكرم العظيم إغراق من لم يبلغوا الحلم من الأطفال ولم يدخلوا تحت التكليف بذنوب غيرهم . قلت ذكر بعض المفسرين أن الله عز وجل أعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فلم يولد لهم ولد تلك المدة وهذا الجواب ليس بقوى لأنه يرد عليه إغراق جميع الدواب والهوام والطير وغير ذلك من الحيوان ويرد على ذلك أيضا إهلاك أطفال الأمم الكافرة مع آبائهم غير قوم نوح . والجواب الشافى عن هذا كله أن الله سبحانه وتعالى متصرف فى خلقه وهو المالك المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون . قوله عز وجل (ونادى نوح ربه) أى دعاه وسأله (فقال رب إن ابنى من أهلى) يعنى وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى (وإن وعدك الحق)

يعنى

يعنى الصدق الذى لاخلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) يعنى أنك حكمت لقوم بالنجاة وحكمت على قوم بالهلاك (قال) يعنى قال الله تعالى (يانوح إنه) يعنى هذا الابن الذى سألتنى نجاته (ليس من أهلك) اختلف علماء التفسير : هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا فقال الحسن ومجاهد كان ولد حدث من غير نوح ولم يعلم به فلذلك قال إنه ليس من أهلك وقال محمد بن جعفر الباقر كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلى ولم يقل منى. وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين إنه ابن نوح من صلبه وهذا القول هو الصحيح والقولان الأولان ضعيفان بل باطلان ويدل على صحة هذا نقل الجمهور لما صح عن ابن عباس أنه قال مابغت امرأة نبى قط ولأن الله سبحانه وتعالى نص عليه بقوله سبحانه وتعالى «ونادى نوح ابنه» ونوح صلى الله عليه وسلم أيضا نص عليه بقوله « يابنى اركب معنا » وهذا نص فى الدلالة وصرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة لا يجوز وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبى كافرا وهذا خطأ ممن قاله لأن الله سبحانه وتعالى خلق خلقه فريق فى الجنة وهم المؤمنون وفريق فى السعير وهم الكفار والله سبحانه وتعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولافرق فى ذلك بين الأنبياء وغيرهم فان الله سبحانه وتعالى أخرج قابيل من صلب آدم عليه السلام وهو نبى وكان قابيل كافرا وأخرج إبراهيم من صلب آزر وهو نبى وكان آزر كافرا فكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبى فهو المتصرف فى خلقه كيف يشاء . فان قلت فعلى هذا كيف ناداه نوح فقال اركب معنا وسأل له النجاة مع قوله رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا قلت : قد ذكر بعضهم أن نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم بكون ابنه كان كافرا فلذلك ناداه وعلى تقدير أنه يعلم كفره إنما حمله على أن ناداه رقة الأبوة ولعله إذا رأى تلك الأهوال أن يسلم فينجيه الله بذلك من الغرق فأجابه الله عز وجل بقوله إنه ليس من أهلك يعنى أنه ليس من أهل دينك لأن أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو مايجرى مجراهما . ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب فى كثير من الأحكام بين المسلم والكافر قال الله سبحانه وتعالى لنوح إنه ليس من أهلك (إنه عمل غير صالح) قرأ الكسائى ويعقوب عمل بكسر الميم وفتح اللام غير بفتح الراء على عود الفعل على الابن ومعناه أنه عمل الشرك والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح وقرأ الباقون من القراء عمل بفتح الميم ورفع اللام مع التنوين وغير بضم الراء ومعناه أن سؤالك إياى إن أنجيه من الغرق عمل غير صالح لأن طلب نجاة الكافر بعد ماحكم عليه بالهلاك بعيد فلهذا قال سبحانه وتعالى « إنه عمل غير صالح » ويجوز أن يعود الضمير فى إنه على ابن نوح أيضا ويكون التقدير على هذه القراءة إن ابنك ذو عمل أو صاحب عمل غير صالح فحذف المضاف كما قالت الخنساء فانما هى إقبال وإدبار قال الواحدى وهذا قول أبى إسحاق يعنى الزجاج وأبى بكر بن الأنبارى وأبى على الفارسى قال أبو على ويجوز أن يكون ابن نوح عمل عملا غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك منه كما يقال الشعر زهير والعلم فلان إذا كثر منه فعلى هذا لاحذف (فلا تسألن ماليس لك به علم) وذلك أن نوحا عليه السلام سأل ربه إنجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده وهو لا يعلم أن ذلك محظور لإصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسئلة وأعلمه أن ذلك لايجوز فكان المعنى فلا تسألن ماليس لك به علم بجواز مسئلته (إنى أعظك) يعنى أنهاك (أن تكون من الجاهلين) يعنى لمثل هذا السؤال

فيه (وأنت أحكم الحاكمين) حكمت على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك (قال) الله عز وجل (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) قرأ الكسائى ويعقوب عمل بكسر الميم وفتح اللام غير بنصب الراء على الفعل أى عمل الشرك والتكذيب وقرأ الآخرون بفتح الميم ورفع اللام وتنوينه غير برفع الراء، معناه أن سؤالك إياى أن أنجيه عمل غير صالح (فلا تسألن) يانوح (ماليس لك به علم) قرأ أهل الحجاز والشام فلا تسألنى بفتح اللام وتشديد النون ويكسرون النون غير ابن كثير فانه يفتحها. وقرأ الآخرون بجزم اللام وكسر النون خفيفة ويثبت أبوجعفر وأبو عمرو وورش الياء فى الوصل دون الوقف وأثبتها يعقوب فى الحالين (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) . واختلفوا فى هذا الإبن قال مجاهد والحسن كان ولد حدث من غير نوح ولم يعلم بذلك نوح ولذلك قال ما ليس لك به علم وقرأ الحسن فخانتاهما وقال أبو جعفر الباقر: كان ابن امرأته وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلى ولم يقل منى وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون إنه

(قال) يعنى قال نوح (رب إنى أعوذ بك) يعنى ألجأ إليك وأعتذر إليك (أن أسألك ما ليس لى به علم) يعنى إنك أنت علام الغيوب وأنا لا أعلم ما غاب عنى فأعتذر إليك من مسئلتى ما ليس لى به علم (وإلا تغفر لى) يعنى جهلى وإقدامى على سؤال ما ليس لى به علم (وترحمنى) يعنى برحمتك التى وسعت كل شىء (أكن من الخاسرين).

(فصل وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الأنبياء)

وبيانه أن قوله أنه عمل غير صالح المراد منه السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلا تسألن ما ليس لك به علم، وقوله سبحانه وتعالى «إنى أعظك أن تكون من الجاهلين» يدل على أن ذلك السؤال كان جهلا ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه. والجواب أن الله عز وجل كان قد وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه وأهله فأخذ نوح ظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك فى وعد الله سبحانه وتعالى فأقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم وبين له أنه ليس من أهله الذى وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذى هو غير صالح وأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه مغرق مع الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فأشفق نوح من إقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ إلى ربه عز وجل وخضع له وعاذبه وسأل المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وليس فى الآيات ما يقتضى صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تأويله وإقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية والله أعلم. قوله سبحانه وتعالى (قيل يا نوح اهبط) أى انزل من السفينة أو من الجبل إلى الأرض (بسلام) أى بأمن وسلامة (منا وبركات عليك) البركة هى ثبوت الخير ونماؤه وزيادته وقيل المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه فى السفينة غيرهم (وعلى أمم ممن معك) يعنى وعلى ذرية أمم ممن كانوا معك فى السفينة والمعنى وبركات عليك وعلى قرون تجىء من بعدك من ذرية أولادك وهم المؤمنون قال محمد ابن كعب القرظى دخل فى هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة (وأمم سنمتعهم) هذا ابتداء كلام أى وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعنى فى الدنيا إلى منتهى آجالهم (ثم يمسهم منا عذاب أليم) يعنى فى الآخرة (تلك من أنباء الغيب) هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى أن هذه القصة التى أخبرناك يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من أنباء الغيب يعنى من أخبار الغيب (نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) يعنى من قبل نزول القرآن عليك. فإن قلت إن قصة نوح كانت مشهورة معروفة فى العالم فكيف قال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا. قلت يحتمل أن يكون كانوا يعلمونها مجملة فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها. وجواب آخر وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح قوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزول القرآن بها (فاصبر) يا محمد على أذى مشركى قومك كما صبر نوح على أذى قومه (إن العاقبة) يعنى النصر والظفر على الأعداء والفوز بالسعادة الأخروية (للمتقين) يعنى للمؤمنين. قوله عز وجل (وإلى عاد)

كان ابن نوح عليه السلام من صلبه وقال ابن عباس ما بغت امرأة نبى قط وقوله إنه ليس من أهلك أى من أهل دينك لأنه كان مخالفا لنوح فى الدين وقوله فخانتاهما أى فى الدين والعمل لا فى الفراش وقوله إنى أعظك أن تكون من الجاهلين يعنى أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر (قال) نوح (رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين قيل يا نوح اهبط) انزل من السفينة (بسلام منا) أى بأمن وسلامة منا (وبركات عليك) البركة هى ثبوت الخير ومنه بروك البعير وقيل البركة ههنا هى أن الله تعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة (وعلى أمم ممن معك) أى على ذرية أمم ممن كان معك فى السفينة يعنى على قرون تجىء بعدك من ذرية من معك فى السفينة يعنى من ولدك وهم المؤمنون. قال محمد بن كعب القرظى دخل فيه كل مؤمن إلى يوم القيامة (وأمم سنمتعهم) هذا ابتداء أى أمم سنمتعهم فى الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) وهم الكافرون وأهل الشقاوة (تلك من أنباء الغيب) من أخبار الغيب (نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) من قبل نزول القرآن (فاصبر) على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح (إن العاقبة) آخر الأمر بالسعادة والنصرة (للمتقين) لأهل التقوى. قوله تعالى (وإلى عاد)

اى وارسلنا إلى عاد (أخاهم هودا) فى النسب لافى الدين (قال ياقوم اعبدوا الله) وحدوا الله (مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) ما أنتم فى إشراككم إلا كاذبون (يا قوم لا أسئلكم عليه) أى على تبليغ الرسالة (أجرا) جعلا (إن أجرى) ما ثوابى (إلا على الذى فطرنى) خلقنى (أفلا تعقلون ويا قوم استغفروا ربكم) أى آمنوا به فالاستغفار هاهنا بمعنى الإيمان (ثم توبوا إليه) من عبادة غيره ومن سالف ذنوبكم (يرسل السماء عليكم مدرارا) أى يرسل المطر عليكم متتابعا مرة بعد أخرى فى أوقات الحاجة (ويزدكم قوة إلى قوتكم) أى شدة مع شدتكم وذلك أن الله عز وجل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن فقال لهم هود عليه السلام إن آمنتم أرسل الله عليكم المطر فتزدادون مالا ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد، وقيل تزدادون قوة فى الدين إلى قوة فى البدن (ولا تتولوا مجرمين) أى لاتدبروا مشركين (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) أي ببرهان وحجة واضحة على ما تقول (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) أي بقولك (وما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يعنى لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا إلا أن بعض آلهتنا اعتراك أى أصابك بسوء بخبل وجنون وذلك أنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل لا نحمل أمرك إلا على هذا (قال) لهم هود (إنى أشهد الله على نفسى (واشهدوا) يا قوم (أنى برىء مما تشركون من دونه) يعنى الأوثان (فكيدونى جميعا) فاحتالوا فى مكركم وضرى أنتم وأوثانكم (ثم لاتنظرون) لا تؤخرون ولا تمهلون (إنى توكلت) أى اعتمدت (على الله ربى وربكم مامن دابة

يعنى وأرسلنا إلى عاد (أخاهم هودا) يعنى أخاهم فى النسب لافى الدين (قال ياقوم اعبدوا الله) يعنى وحدوا الله ولاتشركوا به شيئا فى العبادة (مالكم من إله غيره) يعنى أنه تعالى إلهكم لاهذه الأصنام التى تعبدونها فانها حجارة لاتضر ولاتنفع (إن أنتم إلا مفترون) يعنى ما أنتم إلا كاذبون فى عبادتكم غيره (ياقوم لاأسئلكم عليه) يعنى على تبليغ الرسالة (أجرا) يعنى جعلا آخذه منكم (إن أجرى) يعنى ماثوابى (إلا على الذى فطرنى) يعنى خلقنى فانه هو الذى رزقنى فى الدنيا ويثيبنى فى الآخرة (أفلا تعقلون) يعنى فتتعظون (وياقوم استغفروا ربكم) أى آمنوا به فالاستغفار هنا بمعنى الإيمان لأنه هو المطلوب أولا (ثم توبوا إليه) يعنى من شرككم وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم (يرسل السماء عليكم مدرارا) يعنى ينزل المطر عليكم متتابعا مرة بعد مرة فى أوقات الحاجة إليه وذلك أن بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم فأمسك الله عنهم المطر مدة ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فأخبرهم هود عليه السلام أنهم إن آمنوا بالله وصدقوه أرسل الله إليهم المطر فأحيا به بلادهم كما كانت أول مرة (ويزدكم قوة إلى قوتكم) يعنى شدة مع شدتكم وقيل معناه أنكم إن آمنتم يقوكم بالأموال والأولاد وذلك أنه سبحانه وتعالى أعقم أرحام نسائهم فلم تلد فقال لهم هود عليه السلام إن آمنتم أرسل الله المطر فتزدادون مالا ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد وقيل تزدادون قوة فى الدين إلى قوة الأبدان (ولا تتولوا مجرمين) يعنى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حال كونكم مشركين (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) أى ببرهان وحجة واضحة على صحة ماتقول (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) يعنى وما نترك عبادة آلهتنا لأجل قولك (وما نحن لك بمؤمنين) يعنى بمصدقين (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يعنى إنك ياهود لست تتعاطى ماتتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بخبل وجنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولا نحمل أمرك إلا على هذا (قال) يعنى قال هود مجيبا لهم (إنى أشهد الله) يعنى على نفسى واشهدوا يعنى واشهدوا أنتم أيضا على (أنى برىء مما تشركون من دونه) يعنى هذه الأصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى جميعا) يعنى احتالوا فى كيدى وضرى أنتم وأصنامكم التى تعتقدون أنها تضر وتنفع فانها لاتضر ولاتنفع (ثم لاتنظرون) يعنى ثم لاتمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك أنه كان وحيدا فى قومه فما قال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت إلا لثقته بالله عز وجل وتوكله عليه وهو قوله تعالى (إنى توكلت على الله ربى وربكم) يعنى أنه فوض أمره إلى الله واعتمد عليه (ما من دابة) يعنى تدب على الأرض ويدخل فى هذا جميع بنى آدم والحيوان لأنهم يدبون على

الأرض (إلا هو آخذ بناصيتها) يعني أنه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته والناصية مقدم الرأس وسمي الشعر الذي عليه ناصية للمجاورة قيل إنما خص الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك كثيرا في كلامهم فإذا وصفوا إنسانا بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتدوا بذلك فخرا عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفون من كلامهم (إن ربي على صراط مستقيم) يعني إن ربي وإن كان قادرا وأنتم في قبضته كالعبد الذليل فإنه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف والعدل فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه، وقيل معناه أن دين ربي هو الصراط المستقيم وقيل فيه إضمار تقديره إن ربي يحملكم على صراط مستقيم (فإن تولوا) يعني تتولوا بمعنى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم (فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) يعني أني لم يقع مني تقصير في تبليغ ما أرسلت به إليكم إنما التقصير منكم في قبول ذلك (ويستخلف ربي قوما غيركم) يعني أنكم إن أعرضتم عن الإيمان وقبول ما أرسلت به إليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه وفيه إشارة إلى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد (ولا تضرونه شيئا) يعني بتوليكم إنما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيئا إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء (إن ربي على كل شيء حفيظ) يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ لكل شيء فيحفظني من أن تنالوني بسوء. قوله سبحانه وتعالى (ولما جاء أمرنا) يعني بإهلاكهم وعذابهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) وذلك أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) يعني للريح التي أهلكت بها عادا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل على عاد ريحا شديدة غليظة سبع ليال وثمانية أيام حسوما وهي الأيام النحسات فأهلكتهم جميعا وأنجى الله المؤمنين جميعا فلم تضرهم شيئا وقيل المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظا لأنه أعظم من عذاب الدنيا (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم يعني المعجزات التي أتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعني هودا وحده وإنما أتى به بلفظ الجمع إما للتعظيم أو لأن من كذب برسول فقد كذب كل الرسل (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) يعني أن السفلة منهم اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع في نفسه المتمرد على الله والعنيد المعاند

إلا هو آخذ بناصيتها) قال الضحاك يحييها ويميتها قال الفراء مالكها والقادر عليها وقال بعض العلماء آخذ بناصيتها لا تتوجه إلا حيث يلهمها وقال القتيبي يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته وقيل إنما خص بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذلة فتقول ناصية فلان بيد فلان وكانوا إذا أسروا إنسانا وأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليعتدوا بذلك فخرا عليه فخاطبهم الله بما يعرفون (إن ربي على صراط مستقيم) يعني إن ربي وإن كان قادرا عليهم فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلا بالإحسان والعدل فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه، وقيل معناه أن دين ربي صراط مستقيم وقيل فيه إضمار أي إن ربي يحثكم ويحملكم على صراط مستقيم (فإن تولوا) أي تتولوا يعني تعرضوا عما دعوتكم إليه (فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم) أي إن أعرضتم يهلككم الله عز وجل ويستبدل قوما غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه (ولا تضرونه شيئا) بتوليكم وإعراضكم إنما تضرون أنفسكم وقيل لا تنقصونه شيئا إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء (إن ربي على كل شيء حفيظ) أي لكل شيء حافظ يحفظني من أن تنالوني بسوء قوله تعالى (ولما جاء أمرنا) عذابنا (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة) بنعمة الذي (منا ونجيناهم من عذاب غليظ) وهو الريح التي أهلك بها عادا وقيل العذاب الغليظ عذاب يوم القيامة أي كما نجيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجيناهم في الآخرة (وتلك عاد) رده إلى القبيلة (جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) يعني هودا وحده ذكره بلفظ الجمع لأن من كذب رسولا واحدا كان كمن كذب جميع الرسل (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أي واتبع

السماة والسقاط أهل التكبر والعناد والجبار المتكبر والعنيد الذي لا يقبل الحق يقال عند الرجل يعند عنودا إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه وقال أبو عبيدة العنيد والعاند والعنود والمعاند المعارض لك بالخلاف (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة) أي أردفوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم واللعنة هي الإبعاد والطرد عن الرحمة (ويوم القيامة) أي وفي يوم القيامة أيضا لعنوا كما لعنوا في الدنيا والآخرة (ألا إن عادا كفروا ربهم) أي بربهم يقال كفرته وكفرت به كما يقال شكرته وشكرت له ونصحته ونصحت له (ألا بعدا لعاد قوم هود) قيل بعدا من رحمة الله (٢٣٩) وقيل هلاكا والبعد له معنيان أحدهما ضد القرب يقال منه بعد يبعد بعدا والآخر بمعنى الهلاك يقال منه بعد يبعد بعدا وبعدا قوله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحا) أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا في النسب لا في الدين (قال يا قوم اعبدوا الله) وحدوا الله عز وجل (مالكم من إله غيره هو أنشأكم) ابتدأ خلقكم (من الأرض) وذلك أنهم من آدم وآدم خلق من الأرض (واستعمركم فيها) أي جعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال عمركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة إلى ألف سنة وكذلك قوم عاد، وقال مجاهد أعمركم من العمرى أي جعلها لكم ما عشتم وقال قتادة أسكنكم فيها (فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب) من المؤمنين (مجيب) لدعائهم (قالوا) يعني ثمود (يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) القول أي كنا نرجوا أن تكون سيدا فينا وقيل كنا نرجوا أن تعود إلى ديننا وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى دين عشيرته فلما أظهر دعاءهم إلى الله عز وجل وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه فقالوا (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) من الآلهة (وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) موقع للريبة والتهمة يقال أربته إرابة إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة) نبوة وحكمة (فمن ينصرني من الله) أي من يمنعني من عذاب الله (إن عصيته

الذي لا يقبل الحق ولا يتبعه (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة) يعني أردفوا لعنة تتبعهم وتلحقهم وتنصرف معهم واللعنة الطرد والإبعاد من رحمة الله (ويوم القيامة) يعني وفي يوم القيامة أيضا تتبعهم اللعنة كما تتبعهم في الدنيا، ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الذي استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى (ألا إن عادا كفروا ربهم) أي كفروا بربهم (ألا بعدا لعاد) يعني هلاكا لهم وقيل بعدا عن الرحمة. فإن قلت اللعنة معناها الإبعاد والهلاك فما الفائدة في قوله ألا بعدا لعاد لأن الثاني هو الأول بعينه. قلت الفائدة فيه أن التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على نهاية التأكيد وأنهم كانوا مستحقين له (قوم هود) عطف بيان لعاد. فإن قلت هذا البيان حاصل مفهوم فما الفائدة في قوله قوم هود. قلت إن عادا كانوا قبيلتين عادا الأولى القديمة التي هم قوم هود وعاد الثانية وهم إرم ذات العماد وهم العماليق فأتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه وجواب آخر وهو أن المبالغة في التنصيص تدل على تقوية التأكيد. قوله عز وجل (وإلى ثمود أخاهم صالحا) يعني وأرسلنا إلى ثمود وهم سكان الحجر أخاهم صالحا يعني في النسب لا في الدين (قال يا قوم اعبدوا الله) أي وحدوا الله وخصوه بالعبادة (مالكم من إله غيره) يعني هو إلهكم المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ثم ذكر سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى (هو أنشأكم من الأرض) يعني أنه هو ابتدأ خلقكم من الأرض وذلك أنهم من بني آدم وآدم خلق من الأرض (واستعمركم فيها) يعني وجعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال أعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة إلى ألف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد أعمركم من العمرى أي جعلها لكم ما عشتم (فاستغفروه) يعني من ذنوبكم (ثم توبوا إليه) يعني من الشرك (إن ربي قريب) يعني من المؤمنين (مجيب) لدعائهم (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) يعني قبل هذا القول الذي جئت به والمعنى إنا كنا نرجو أن تكون فينا سيدا لأنه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم وقيل معناه إنا كنا نطمع أن تعود إلى ديننا فلما أظهر دعاءهم إلى الله وعاب الأصنام انقطع رجاؤهم منه (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) يعني الآلهة (وإننا لفي شك مما تدعونا إليه) يعني من عبادة الله (مريب) يعني إنا مرتابون في قولك من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس ووقوعها في التهمة (قال) يعني قال صالح مجيبا لقومه (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) يعني على يقين وبرهان (وآتاني منه رحمة) يعني نبوة وحكمة (فمن ينصرني من الله) أي فمن يمنعني من عذاب الله (إن عصيته) يعني

فماتزيدوننى غير تخسير) قال ابن عباس معناه ما تزيدوننى غير بصارة فى خسارتكم قال الحسين بن الفضل لم يكن صالح عليه السلام فى خسارة حتى قال فما تزيدوننى غير تخسير وإنما المعنى ماتزيدوننى بماتقولون من الفحش إلا نسبتى إياكم إلى الخسارة والتفسيق والتفجير فى اللغة هو النسبة إلى الفسق والفجور وكذلك التخسير هو النسبة إلى الخسران (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) نصب على الحال والقطع وذلك أن قوما طلبوا منه أن يخرج ناقة عشراء من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت فى الحال ولدا مثلها وقد بيناه فى سورة الأعراف فهذا معنى قوله هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله) من العشب والنبات فليست عليكم مؤنتها (ولاتمسوها بسوء) ولاتصيبوها بعقر (فيأخذكم) إن قتلتموها (عذاب قريب فعقروها فقال) لهم صالح (تمتعوا) عيشوا (فى داركم) أى فى دياركم (ثلاثة أيام) ثم تهلكون (ذلك وعد غير مكذوب) أى غير كذب ؛ روى أنه قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفى اليوم الثانى محمرة وفى اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب اليوم الرابع . قوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) بنعمة منا (ومن خزى يومئذ) أى من عذابه وهوانه قرأ أبوجعفر ونافع والكسائى خزى يومئذ وعذاب يومئذ بفتح الميم وقرأ الباقون بالكسر (إن ربك هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا) كفروا (الصيحة) وذلك أن جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وإنما قال أخذ والصيحة مؤنثة لأن الصيحة بمعنى الصياح (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) صرعى هلكى (كأن لم يغنوا فيها) يقيموا ويكونوا (ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) قرأ حمزة وحفص ويعقوب ثمود غير منون وكذلك فى سورة الفرقان والعنكبوت والنجم وافق أبو بكر فى النجم وقرأ الباقون بالتنوين وقرأ الكسائى لثمود بخفض الدال والتنوين والباقون بنصب الدال فمن جره فلأنه اسم مذكر ومن لم يجره جعله اسما للقبيلة . قوله تعالى (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) أراد بالرسل الملائكة عليهم السلام واختلفوا فى عددهم فقال ابن عباس وعطاء : كانوا ثلاثة جبريل

إن خالفت أمره (فما تزيدوننى غير تخسير) قال ابن عباس معناه غير بصارة فى خسارتكم وقال الحسن ابن الفضل لم يكن صالح فى خسارة حتى يقول فما تزيدوننى غير تخسير وإنما المعنى فما تزيدوننى بما تقولون إلا نسبتى إلى الخسارة (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) وذلك أن قومه طلبوا أن يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك أشاروا إليها فدعا الله عز وجل فأخرج لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصيلا يشبهها وقوله ناقة الله إضافة تشريف كبيت الله وعبد الله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح عليه السلام (فذروها تأكل) يعنى من العشب والنبات (فى أرض الله) يعنى فليس عليكم مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) يعنى بعقر (فيأخذكم) يعنى إن قتلتموها (عذاب قريب) يعنى فى الدنيا (فعقروها) يعنى فخالفوا أمر ربهم فعقروها (فقال) يعنى فقال لهم صالح (تمتعوا) يعنى عيشوا (فى داركم) أى فى بلدكم (ثلاثة أيام) يعنى ثم تهلكون (ذلك) يعنى العذاب الذى أوعدهم به بعد ثلاثة أيام (وعد غير مكذوب) أى هو غير كذب روى أنه قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون فى اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفى اليوم الثانى محمرة وفى اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب فى اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاء أمرنا) يعنى العذاب (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) أى بنعمة منا بأن هديناهم إلى الإيمان فآمنوا (ومن خزى يومئذ) يعنى ونجيناهم من عذاب يومئذ سمى خزيا لأن فيه خزى الكافرين (إن ربك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى إن ربك يامحمد (هو القوى) يعنى هو القادر على إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين (العزيز) يعنى القاهر الذى لايغلبه شىء ثم أخبر عن عذاب قوم صالح فقال سبحانه وتعالى (وأخذ الذين ظلموا) يعنى أنفسهم بالكفر (الصيحة) وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم فماتوا جميعا (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) يعنى صرعى هلكى (كأن لم يغنوا فيها) يعنى كأن لم يقيموا فى تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان إذا أتيته وأقمت به (ألا أن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة فى تفسير سورة الأعراف . قوله عز وجل (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى)

أراد بالرسل الملائكة واختلفوا فى عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل وقال الضحاك كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا إثنى عشر ملكا وقال محمد بن كعب القرظى كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدى كانوا أحد عشر ملكا على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس هو الأولى لأن أقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جمع فيحمل على الأقل وما بعده غير مقطوع به بالبشرى يعنى بالبشارة باسحاق ويعقوب وقيل باهلاك قوم لوط (قالوا سلاما) يعنى أن الملائكة سلموا سلاما (قال) يعنى لهم إبراهيم (سلام) أى عليكم أو أمركم سلام (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) يعنى مشويا والمحنوذ هو المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض وهو من فعل أهل البادية وكان سمينا يسيل منه الودك قال قتادة كان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر وقيل مكث إبراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل إلا معه فلما جاءت الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم قط فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوى (فلما رأى أيديهم) يعنى أيدى الأضياف (لاتصل إليه) يعنى إلى العجل المشوى (نكرهم) يعنى أنكرهم وأنكر حالهم وإنما أنكر حالهم لامتناعهم من الطعام (وأوجس منهم خيفة) يعنى ووقع فى قلبه خوف منهم والوجوس هو رعب القلب وإنما خاف إبراهيم صلى الله عليه وسلم منهم لأنه كان ينزل ناحية من الناس فخاف أن ينزلوا به مكروها لامتناعهم من طعامه ولم يعرف أنهم ملائكة وقيل إن إبراهيم عرف أنهم ملائكة وإنما خاف أن يكونوا نزلوا بعذاب قومه فخاف من ذلك والأقرب أن إبراهيم عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة فى أول الأمر ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدم إليهم الطعام ولو عرف أنهم ملائكة لما قدمه إليهم لعلمه أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولأنه خافهم ولو عرف أنهم ملائكة لما خافهم فلما رأت الملائكة خوف إبراهيم عليه السلام (قالوا لاتخف) يا إبراهيم (إنا) ملائكة الله (أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته) يعنى سارة زوجة إبراهيم وهى ابنة هاران بن ناحوراء وهى ابنة عم إبراهيم (قائمة) يعنى من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت قائمة فى خدمة الرسل وإبراهيم جالس معهم (فضحكت) أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك ويستعمل فى السرور المجرد وفى التعجب المجرد أيضا وللعلماء فى تفسير هذا الضحك قولان أحدهما أنه الضحك المعروف وعليه أكثر المفسرين ثم اختلفوا فى سبب هذا الضحك فقال السدى لما قرب إبراهيم الطعام إلى أضيافه فلم يأكلوا خاف إبراهيم منهم فقال ألا تأكلون فقالوا إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن قال فان له ثمنا قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لاتصل إليه ضحكت سارة وقالت ياعجبا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون

وميكائيل وإسرافيل وقال الضحاك كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وقال محمد بن كعب كان جبريل ومعه سبعة وقال السدى كانوا أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الوضاء وجوههم بالبشرى بالبشارة باسحاق ويعقوب وقيل باهلاك قوم لوط (قالوا سلاما) أى سلموا سلاما (قال) إبراهيم (سلام) أى عليكم سلام وقيل هو رفع على الحكاية كقوله تعالى وقولوا حطة وقرأ حمزة والكسائى سلم هاهنا وفى سورة الذاريات بكسر السين بلا ألف قيل هو بمعنى السلام كما يقال حل وحلال وحرم وحرام وقيل هو بمعنى الصلح أى نحن سلم أى صلح لكم غير حرب (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) والحنيذ المحنوذ وهو المشوى على الحجارة فى خد من الأرض وكان سمينا يسيل دسما كما قال فى موضع آخر فجاء بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال إبراهيم البقر (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه) أى إلى العجل (نكرهم) أنكرهم (وأوجس) أضمر (منهم خيفة) خوفا قال مقاتل وقع فى قلبه وأصل الوجوس الدخول كان الخوف دخل قلبه وقال قتادة وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وإنما جاء بشر (قالوا لاتخف) يا إبراهيم (إنا) ملائكة الله (أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته) سارة بنت هاران ابن ناحور وهى ابنة عم إبراهيم (قائمة) من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت قائمة تخدم الرسل وإبراهيم جالس معهم (فضحكت) قال مجاهد وعكرمة ضحكت أى حاضت فى الوقت تقول العرب ضحكت الأرنب أى حاضت والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف واختلفوا فى سبب ضحكها فقيل ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا لاتخف وقال السدى لما قرب

إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا خاف إبراهيم وظنهم لصوصا فقال لهم ألا تأكلون قالوا إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن قال إبراهيم فان له ثمنا قالوا وما ثمنه قال تذكرون

اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهم الصلاة والسلام وقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لاتصل إليه ضحكت سارة وقالت : ياعجبا لأضيافنا إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لايأكلون طعامنا وقال قتادة ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم . وقال مقاتل والكلبي ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة فى بيته وهو فيما بين خدمه وحشمه وقيل ضحكت سرورا بالبشارة . وقال ابن عباس ووهب ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير تقديره وامرأته قائمة فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت وقالت ياويلتى أألد وأنا عجوز قوله تعالى (فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق) أى من بعد إسحاق (يعقوب) أراد به ولد الولد فبشرت أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب بنصب الباء أى من وراء إسحاق يعقوب وقيل باضمار فعل أى ووهبنا له يعقوب وقرأ الباقون بالرفع بذت على حذف حرف الصفة وقيل ومن بعد إسحاق يحدث يعقوب فلما بشرت بالولد ضحكت فصكت وجهها أى ضربت وجهها تعجبا (قالت ياويلتا) نداء ندبة وهى كلمة يقولها الإنسان عند رؤية مايتعجب منه أى ياعجبا والأصل ياويلتاه (أألدو أنا عجوز)

طعامنا وقال قتادة ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم وقال مقاتل والكلبي ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن إبراهيم وذلك أنها خافت لخوفه فحين قالوا لا تخف ضحكت سرورا وقيل ضحكت سرورا بالبشارة وقال ابن عباس ووهب ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون فى الآية تقديم وتأخير تقديره فبشرناها باسحاق فضحكت يعنى تعجبا من ذلك وقيل إنها قالت لإبراهيم أضمم إليك ابن أخيك لوطا فان العذاب نازل بقومه فلما جاءت الرسل وبشرت بعذابهم سرت سارة بذلك وضحكت لموافقة ماظنت. القول الثانى فى معنى قوله فضحكت قال عكرمة ومجاهد أى حاضت فى الوقت وأنكر بعض أهل اللغة ذلك قال الراغب وقول من قال حاضت ليس ذلك تفسيرا لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين فقال ضحكت بمعنى حاضت وإنما ذكر ذلك تنصيصا لحالها فان جعل ذلك أمارة لما بشرت به تحيضها فى الوقت لتعلم أن حملها ليس بمنكر لأن المرأة مادامت تحيض فانها تحمل وقال الفراء ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال الزجاج ليس بشىء ضحكت بمعنى حاضت وقال ابن الأنبارى قد أنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد عرفه غيرهم وأنشد :

تضحك الضبع لقتلى هذيل ... وترى الذئب بها يستهل

قال أراد أنها تحيض فرحا وقال الليث فى هذه الآية فضحكت أى طمثت وحكى الأزهرى عن بعضهم فى قوله فضحكت أى حاضت قال ويقال أصله من ضحاك الطلعة إذا انشقت قال وقال الأخطل فيه بمعنى الحيض :

تضحك الضبع من دماء سليم ... إذ رأتها على الحراب نمور

وقال فى المحكم ضحكت المرأة حاضت وبه فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها باسحاق وضحكت الأرنب ضحكا يعنى حاضت حيضا قال :

وضحك الأرنب فوق الصفا ... كمثل دم الخوف يوم اللقا

يعنى الحيض فيما زعم بعضهم وأجاب عن هذا من أنكر أن يكون الضحك بمعنى الحيض قال كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع عند كشرها علم أنها تحيض وإنما أراد الشاعر تكشر لأكل اللحوم وهذا سهو منه لأنه جعل كشرها حيضا وقيل معناه أنها تستبشر بالقتلى فتهز بعضها على بعض فجعل هزها ضحكا وقيل لأنها تسربهم فجعل سرورها ضحكا . فان قلت أى القولين أصح فى معنى الضحك قلت إن الله عز وجل حكى عنها أنها ضحكت وكلا القولين محتمل فى معنى الضحك فالله أعلم أى ذلك كان وقوله سبحانه وتعالى (فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) يعنى ومن بعد إسحاق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بأنها تعيش حتى ترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد صكت وجهها أى ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعادتهن وإنما فعلت ذلك تعجبا (قالت ياويلتا) نداء ندبة وأصلها ياويلتاه وهى كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية مايتعجب منه مثل ياعجباه (أألد وأنا عجوز) وكانت

وكانت ابنة تسعين سنة فى قول ابن إسحاق . وقال مجاهد تسعا وتسعين سنة (وهذا بعلى) أى زوجى سمى بذلك لأنه قيم أمرها (شيخا) نصب على الحال وكان سن إبراهيم مائة وعشرين سنة فى قول ابن إسحاق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين البشارة والولادة سنة (إن هذا لشىء عجيب قالوا) يعنى الملائكة (أتعجبين من أمر الله) معناه لاتعجبى من أمر الله فان الله عزوجل إذا أراد شيئا كان (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى بيت إبراهيم عليه السلام قيل هذا على معنى الدعاء من الملائكة وقيل هذا على معنى الخبر . والرحمة النعمة والبركات جمع البركة وهى ثبوت الخير وفيه دليل على أن الأزواج من أهل البيت (إنه حميد مجيد) فالحميد المحمود فى أفعاله ، والمجيد الكريم وأصل المجد الرفعة (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) الخوف (وجاءته البشرى) بإسحاق ويعقوب (يجادلنا فى قوم لوط) فيه إضمار أى أخذ وظل يجادلنا ، قيل معناه يكلمنا لأن إبراهيم عليه السلام لايجادل ربه عز وجل إنما يسأله ويطلب إليه ، وقال عامة أهل التفسير معناه يجادل رسلنا ، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة : أرأيتم لو كان فى مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم قالوا لا قال أو أربعون قالوا لا قال أو ثلاثون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال لهم إبراهيم عند ذلك إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين فلذلك قوله إخبارا عن إبراهيم عليه السلام يجادلنا فى قوم لوط (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) قال ابن جريج وكان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم (ياإبراهيم أعرض عن هذا) أى أعرض عن هذا المقال ودع عنك الجدال (إنه قد جاء أمر ربك) أى عذاب ربك وحكم ربك (وإنهم آتيهم) نازل بهم (عذاب غير مردود) أى غير مصروف عنهم قوله تعالى (ولما جاءت رسلنا) يعنى هؤلاء الملائكة (لوطا) على

بنت تسعين سنة فى قول ابن إسحاق وقال مجاهد كانت بنت تسع وتسعين سنة (وهذا بعلى) يعنى زوجى والبعل هو المستعلى على غيره ولما كان زوج المرأة مستعليا عليها قائما بأمرها سمى بعلا لذلك (شيخا) وكان سن إبراهيم يومئذ مائة وعشرين سنة فى قول محمد بن إسحاق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة (إن هذا لشىء عجيب) لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وإنما تعجبت من كون الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يولد لهما (قالوا) يعنى قالت الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) معناه لاتعجبى من ذلك فان الله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء فاذا أراد شيئا كان سريعا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) يعنى بيت إبراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته (إنه حميد) يعنى هو المحمود الذى يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لأن يحمد فى السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال (مجيد) ومعناه المنيع الذى لا يرام وقال الخطابى المجيد الواسع الكرم وأصل المجد فى كلامهم السعة يقال رجل ماجد إذا كان سخيا كريما واسع العطاء وقيل الماجد هو ذو الشرف والكرم قوله سبحانه وتعالى (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) يعنى الفزع والخوف الذى حصل له عند امتناع الملائكة من الأكل (وجاءته البشرى) يعنى زال عنه الخوف بسبب البشرى التى جاءته وهى البشارة بالولد (يجادلنا) فيه إضمار تقديره أخذ يجادلنا أو جعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا (فى قوم لوط) لأن العبد لايقدر أن يخاصم ربه وقال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا فى قوم لوط وكانت مجادلة إبراهيم مع الملائكة أن قال لهم أرأيتم لو كان فى مدائن قوم لوط خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال إبراهيم فان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين وقيل إنما طلب إبراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى قال ابن جريج كان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف مقاتل (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) تقدم تفسيره فى سورة التوبة فعند ذلك قالت الملائكة لإبراهيم (ياإبراهيم أعرض عن هذا) يعنى أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال (إنه قد جاء أمر ربك) يعنى إن ربك قد حكم بعذابهم فهو نازل بهم وهو قوله سبحانه وتعالى (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) يعنى أن العذاب الذى نزل بهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم . قوله عز وجل (ولما جاءت رسلنا لوطا) يعنى هؤلاء الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم

صورة غلمان مرد حسان الوجوه (سيء بهم) أى حزن لوط بمجيئهم يقال سؤته فسيء كما يقال سررته فسر (وضاق بهم ذرعا) أى قلبا يقال ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع فى مكروه لايطيق الخروج منه وذلك أن لوطا عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه إن يقصدوهم بالفاحشة وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم (وقال هذا يوم عصيب) أى شديد كأنه عصب به الشر والبلاء أى شد. قال قتادة والسدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام نحو قرية قوم لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو فى أرض له يعمل فيها، وقيل إنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطا أربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى بهم ساعة قال لهم مابلغكم أمر أهل هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله إنها لشر قرية فى الأرض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله وروى أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمر على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم فقال لوط إن قومى شر خلق الله ثم مر على قوم آخرين فغمزوا فقال مثله ثم مر بقوم فقال مثله ثم مر بقوم آخرين فقال مثله فكان كلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا حتى أتى منزله وروى أن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط فوجدوه فى داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت إن فى بيت لوط رجالا مارأيت مثل وجوههم قط (وجاء قومه يهرعون إليه) قال ابن عباس وقتادة يسرعون إليه وقال مجاهد يهرولون وقال الحسن مشى بين مشيتين قال شمر بن عطية بين الهرولة والجمز (ومن قبل) أى من قبل مجيئهم إلى لوط (كانوا يعملون السيئات) كانوا يأتون الرجال فى أدبارهم (قال) لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان (ياقوم هؤلاء بناتى

وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه (سىء بهم) يعنى أحزن لوط بمجيئهم إليه وساء ظنه بقومه (وضاق بهم ذرعا) قال الأزهرى الذى يوضع موضع الطاقة والأصل فيه أن البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فاذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومدعنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة والمعنى وضاق بهم ذرعا إذ لم يجد من المكروه فى ذلك الأمر مخلصا وقال غيره معناه ضاق بهم قلبا وصدرا ولايعرف أصله إلا أن يقال إن الذرع كناية عن الوسع والعرب تقول ليس هذا فى يدى يعنون ليس هذا فى وسعى لأن الذراع من اليد ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا إذا وقع فى مكروه ولا يطيق الخروج منه وذلك أن لوطا عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه وخاف أن يقصدوهم بمكروه أوفاحشة وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم (وقال) يعنى لوطا (هذا يوم عصيب) أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أى شد به مأخوذ من العصابة التى تشد بها الرأس قال قتادة والسدى خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو يعمل فى أرض له وقيل أنه كان يحتطب وقد قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله إنها لشر قرية فى الأرض عملا يقول ذلك أربع مرات فمضوا معه حتى دخلوا منزله وقيل أنه لما حمل الحطب ومعه الملائكة مر على جماعة من قومه فتغامزوا فيما بينهم فقال لوط أن قومى شر خلق الله تعالى فقال جبريل هذه واحدة فمر على جماعة أخرى فتغامزوا فقال مثله ثم مر على جماعة أخرى ففعلوا ذلك وقال لوط مثل ماقال أولا حتى قال ذلك أربع مرات وكلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا وقيل أن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط فوجدوه فى داره فدخلوا عليه ولم يعلم أحد بمجيئهم إلا أهل بيت لوط فخرجت امرأته الخبيثة فأخبرت قومها وقالت إن فى بيت لوط رجالا مارأيت مثل وجوههم قط ولا أحسن منهم (وجاءه قومه يهرعون إليه) قال ابن عباس وقتادة يسرعون إليه وقال مجاهد يهرولون وقال الحسن الإهراع هو مشى بين مشيين وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز (ومن قبل) يعنى ومن قبل مجيء الرسل إليهم قيل ومن قبل مجيئهم إلى لوط (كانوا يعملون السيئات) يعنى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهى إتيان الرجال فى أدبارهم (قال) يعنى قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان من بنى آدم (ياقوم هؤلاء بناتى) يعنى أزوجكم إياهن وقى أضيافه ببناته قيل أنه كان فى ذلك الوقت وفى تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر وقال الحسن بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الإسلام وقال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته

هن أطهر لكم) يعني بالتزويج وفي أضيافه ببناته وكان في ذلك الوقت تزويج المسلمة من الكافر جائزا كما زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي وكانا كافرين وقال الحسين بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الإسلام وقال مجاهد وسعيد بن جبير قوله هؤلاء بناتي هن أطهر لكم أراد نساءهم وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته وفي قراءة أبي بن كعب النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم وقيل ذكر ذلك على سبيل الدفع لا على التحقيق فلم يرضوا هذا القول (فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي) أي خافوا الله ولا تخزون في ضيفي أي لا تسوءوني ولا تفضحوني في أضيافي (أليس منكم رجل رشيد) صالح سديد وقال عكرمة رجل يقول لا إله إلا الله وقال ابن إسحاق رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (قالوا لقد علمت) يا لوط (ما لنا في بناتك من حق) أي لسن أزواجا لنا فنستحقهن بالنكاح وقيل معناه ما لنا فيهن من حاجة وشهوة (وإنك لتعلم ما نريد) من إتيان الرجال (قال) لهم لوط عند ذلك (لو أن لي بكم قوة) أراد قوة البدن والقوة بالاتباع (أو آوي إلى ركن شديد) أي أنضم إلى عشيرة مانعة وجواب لو مضمر أي لقاتلتكم وحلنا بينكم وبينهم قال أبو هريرة ما بعث الله بعده نبيا إلا في منعة من عشيرته أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا أبو اليمان أنبأنا شعيب بن أبي حمزة أنبأنا أبو الزناد عن الأعرج أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد» قال ابن عباس وأهل التفسير أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسور

نساء قومه وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته وهو كالوالد لهم وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه أن بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل إنما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لا على سبيل التحقيق وفي قوله (هن أطهر لكم) سؤال وهو أن يقال أن قوله هن أطهر لكم من باب أفعل التفضيل فيقتضي أن يكون الذي يطلبونه من الرجال طاهرا ومعلوم أنه محرم فاسد نجس لا طهارة فيه البتة فكيف قال هن أطهر لكم والجواب عن هذا السؤال إن هذا جار مجرى قوله ذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قال يوم أحد أعل هبل قال الله أعلا وأجل إذ لا مماثلة بين الله عز وجل والصنم وإنما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة . وقوله (فاتقوا الله) يعني خافوه وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان (ولا تخزون في ضيفي) يعني ولا تسوؤني في أضيافي ولا تفضحوني معهم (أليس منكم رجل رشيد) أي صالح سديد عاقل وقال عكرمة رجل يقول لا إله إلا الله وقال محمد بن إسحاق رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) يعني ليس لنا بهن حاجة ولا لنا فيهن شهوة وقيل معناه ليست بناتك لنا بأزواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه ما لنا في بناتك من حاجة لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان ولا نريد ذلك (وإنك لتعلم ما نريد) يعني من إتيان الرجال في أدبارهم فعند ذلك (قال) لوط عليه السلام (لو أن لي بكم قوة) أي لو أني أقدر أن أتقوى عليكم (أو آوي إلى ركن شديد) يعني أو أنضم إلى عشيرة يمنعوني منكم وجواب لو محذوف تقديره أو وجدت قوة لقاتلتكم أو لوجدت عشيرة لانضممت إليهم قال أبو هريرة ما بعث الله نبيا بعده إلا في منعة من عشيرته (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته» قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث أن لوطا عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في تلك الحال لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط إظهار العذر عند أضيافه وأنه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقي الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتي في موضعه من سورة يوسف إن شاء الله تعالى قال ابن عباس وأهل التفسير أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وجعل يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وقومه يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة

الجدار فلما رات الملائكة مايلقى لوط بسببهم (قالوا يالوط) إن ركنك لشديد (إنا رسل ربك لن يصلوا اليك) فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه عز وجل فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه الثلج بياضا وقدماه إلى الخضرة فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعمى أبصارهم فصاروا لايعرفون الطريق ولايهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض سحرونا وجعلوا يقولون يالوط كما أنت حتى تصبح فسترى ماتلقى منا غدا يوعدونه فقالت الملائكة لاتخف إنا أرسلنا لإهلاكهم فقال لوط للملائكة متى موعد إهلاكهم فقالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن فقالوا أليس الصبح بقريب ثم قالوا (فأسر) يالوط (بأهلك) قرأ أهل الحجاز فاسروا أن أسر بوصل الألف حيث وقع فى القرآن من سرى يسرى وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسرى ومعناهما واحد وهو السير بالليل (بقطع من الليل) قال ابن عباس بطائفة من الليل وقال الضحاك ببقية وقال قتادة بعد مضى أوله وقيل إنه السحر الأول (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) قرأ ابن كثير وأبو عمرو امرأتك برفع التاء على الاستثناء من الالتفات أى لايلتفت منكم أحد إلا امرأتك فانها تلتفت فتهلك وكان لوط قد أخرجها معه ونهى من معه ممن أسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته فانها لما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها وقرأ الآخرون بنصب التاء على الاستثناء من الإسراء أى فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسربها وخلفها مع قومها فان هواها إليهم وتصديقه قراءة ابن مسعود فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك ولا يلتفت منكم أحد (إنه مصيبها ماأصابهم) من العذاب (إن موعدهم الصبح) أى موعد هلاكهم وقت الصبح فقال لوط أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) قوله (فلما جاء أمرنا) عذابنا (جعلنا عاليها سافلها) وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهى خمس مدائن وفيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب فلم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها (وأمطرنا عليها) أى على شذاذها ومسافريها وقيل بعد ماقلبها أمطر عليها (حجارة من سجيل) قال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير سنك كل فارسى معرب وقال قتادة

مالقى لوط بسببهم (قالوا يالوط) ركنك شديد (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) يعنى بمكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه عز وجل فى عقوبتهم فأذن له فتحول إلى صورته التى يكون فيها ونشر جناحيه وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه كالثلج بياضا وقدماه إلى الخضرة فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فصاروا لايعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض قد سحرونا وجعلوا يقولون يالوط كما أنت حتى تصبح وسترى ماتلقى مناغدا يوعدونه بذلك (فأسر بأهلك) يعنى ببيتك (بقطع من الليل) قال ابن عباس بطائفة من الليل وقال الضحاك ببقية من الليل وقال قتادة بعد مضى أوله وقيل أنه السحر الأول (ولا يلتفت منكم أحد) يعنى ولا يلتفت منكم أحد إلى ورائه ولا ينظر إلى خلفه (إلا امرأتك) فانها من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى (إنه مصيبها ماأصابهم) فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا (إن موعدهم الصبح) قال لوط إنه بعيد أريد أسرع من ذلك فقالوا له (أليس الصبح بقريب) فلما خرج لوط من قريته أخذ أهله معه وأمرهم ألا يلتفت منهم أحد فقبلوا منه إلا امرأته فانها لما سمعت هذه العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت واقوماه فأخذتها حجارة فأهلكتها معهم (فلما جاء أمرنا) يعنى أمرنا بالعذاب (جعلنا عاليها سافلها) وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهى خمس مدائن أكبرها سدوم وهى المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة ويقال كان فيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع جبريل المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها (وأمطرنا عليها) يعنى على شذاذها ومن كان خارجا عنها من مسافريها وقيل بعد ماقلبها أمطر عليهم (حجارة من سجيل) قال ابن عباس وسعيد بن جبير معناه سنك كل فارسى معرب لأن العرب إذا تكلمت بشىء من الفارسى صارت لغة للعرب ولا

يضاف

وعكرمة السجيل الطين دليله قوله عز وجل لنرسل عليهم حجارة من طين قال مجاهد أولها حجر وآخرها طين وقال الحسن كان أصل الحجارة طينا فشددت وقال الضحاك يعنى الآجر وقيل السجيل اسم لسماء الدنيا وقيل هو جبال فى السماء قال الله تعالى وينزل من السماء من جبال فيها من برد قوله تعالى (منضود) قال ابن عباس رضى الله عنهما متتابع يتبع بعضها بعضا مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه فوق بعض (مسومة) من نعت الحجارة وهى نصب على الحال ، ومعناها معلمة قال ابن جريج عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع . قال الحسن والسدى كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم وقيل مكتوب على كل حجر اسم من رمى به (عند ربك وما هى) يعنى تلك الحجارة (من الظالمين) أى من مشركى مكة (ببعيد) وقال قتادة وعكرمة يعنى ظالمى هذه الأمة والله ما أجار الله منها ظالما بعد وفى بعض الآثار ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة . وروى أن الحجر أتبع شذاذهم ومسافريهم أين كانوا فى البلاد ودخل رجل منهم الحرم فكان الحجر معلقا فى السماء أربعين يوما حتى خرج فأصابه فأهلكه قوله عز وجل (وإلى مدين) أى وأرسلنا إلى ولد مدين (أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان) أى لا تبخسوا وهم كانوا يطففون مع شركهم (إنى أراكم بخير) قال ابن عباس موسرين فى نعمة . وقال مجاهد فى خصب وسعة فحذرهم زوال النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة إن لم يتوبوا (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) يحيط بكم فيهلككم (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان) أتموهما (بالقسط) بالعدل وقيل بتقويم لسان الميزان

يضاف إلى الفارسى مثل قوله سندس وإستبرق ونحو ذلك فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها فى ألفاظهم فصارت عربية قال قتادة وعكرمة السجيل الطين دليله قوله فى موضع آخر حجارة من طين وقال مجاهد أولها حجر وآخرها طين وقال الحسن أصل الحجارة طين فشددت وقال الضحاك يعنى الآجر وقيل السجيل اسم سماء الدنيا وقيل هو جبل فى سماء الدنيا (منضود) قال ابن عباس متتابع يتبع بعضها بعضا مفعول من النضد وهو وضع الشىء بعضه فوق بعض (مسومة عند ربك) صفة للحجارة يعنى معلمة قال ابن جريج عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن والسدى كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم وقيل كان مكتوبا عليها أى على كل حجر اسم صاحبه الذى يرمى به (وما هى) يعنى تلك الحجارة (من الظالمين) يعنى مشركى مكة (ببعيد) قال قتادة وعكرمة يعنى ظالمى هذه الأمة والله ما أجار الله منها ظالما بعد وفى بعض الآثار ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة وقيل إن الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى إن واحدا منهم دخل الحرم فوجد الحجر معلقا فى السماء أربعين يوما حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فأهلكه . قوله عز وجل (وإلى مدين) يعنى وأرسلنا إلى مدين (أخاهم شعيبا) مدين اسم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة من أولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم فعلى هذا يكون التقدير وأرسلنا إلى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) يعنى وحدوا الله ولا تعبدوا معه غيره كانت عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يبدءون بالأهم فالأهم ولما كانت الدعوة إلى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء قال شعيب اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ثم بعد الدعوة إلى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس فى الكيل والوزن دعاهم إلى ترك هذه العادة القبيحة وهى تطفيف الكيل والوزن فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) النقص فى الكيل والوزن على وجهين أحدهما أن يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون ويزنون للغير ناقصا والوجه الآخر هو استيفاء الكيل والوزن لأنفسهم زائدا عن حقهم فيكون نقصا فى مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله ولا تنقصوا المكيال والميزان (إنى أراكم بخير) قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحصول النقمة إن لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) يعنى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا أو حذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (وياقوم أوفوا المكيال والميزان) أى أتموهما ولا تطففوا فيهما (بالقسط) أى بالعدل

(ولا تبخسوا) لاتنقصوا (الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى ماأبقى الله لكم من الحلال

بعد إيفاء الكيل والوزن خير مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقيت الله أى طاعة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين أن ماعندكم من رزق الله وعطائه (وما أنا عليكم بحفيظ) بوكيل وقيل إنما قال ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) من الأوثان قال ابن عباس رضى الله عنهما كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة لذلك قالوا هذا وقال الأعمش يعنى أقراءتك (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) أو أن نترك أن نفعل فى أموالنا مانشاء من الزيادة والنقصان وقيل كان شعيب عليه السلام قد نهاهم عن قطع الدنانير والدراهم زعم أنه محرم عليهم فقالوا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء من قطعها (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس رضى الله عنهما أرادوا السفيه الغاوى والعرب تصف الشئ بضده فتقول للديغ سليم وللفلاة مفازة وقيل قالوه على وجه الاستهزاء وقيل معناه الحليم الرشيد بزعمك وقيل هو على الصحة أى أنك ياشعيب فينا حليم رشيد لا يحمل بك شق عصا قومك ومخالفة دينهم وهذا كما قال قوم صالح عليه السلام قد كنت فينا مرجوا قبل هذا (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة) بصيرة وبيان (من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا) حلالا وقيل كثيرا

وقيل بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال (ولاتبخسوا الناس) أى ولاتنقصوا الناس (أشياءهم) يعنى أموالهم فان قلت قد وقع التكرار فى هذه القصة من ثلاثة أوجه لأنه قال ولاتنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الأول ثم قال ولاتبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ماتقدم فما الفائدة فى هذا التكرار . قلت إن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم احتيج فى المنع منه إلى المبالغة فى التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ولأن قوله ولاتنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بايفاء العدل وهذا غير الأول ومغاير له ولقائل أن يقول النهى ضد الأمر فالتكرار لازم على هذا الوجه قلنا الجواب عن هذا قد يجوز أن ينهى عن التنقيص ولا يأمر بايفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما فهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها فتريد المبالغة فى الأمر والنهى وأما قوله ثانيا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير أيضا لأنه سبحانه وتعالى لما خصص النهى عن التنقيص والأمر بايفاء الحق فى الكيل والوزن عمم الحكم فى جميع الأشياء التى يجب إيفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن والزرع وغير ذلك فظهر بهذا البيان فائدة التكرار والله أعلم ؟ وقوله سبحانه وتعالى (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) يعنى بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم (بقيت الله خير لكم) قال ابن عباس يعنى ماأبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعنى طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعنى ماأبقاه لكم من الثواب فى الآخرة خير لكم مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام (إن كنتم مؤمنين) يعنى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه (وما أنا عليكم بحفيظ) يعنى أحفظ أعمالكم قال بعضهم إنما قال لهم شعيب ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) يعنى من الأصنام (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) يعنى من الزيادة والنقصان قال ابن عباس كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل إنهم كانوا يمرون به فيرونه يصلى فيستهزئون به ويقولون هذه المقالة وقال الأعمش أقراءتك لأن الصلاة تطلق على القراءة والدعاء وقيل المراد بالصلاة هنا الدين يعنى أدينك يأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا وأن نفعل فى أموالنا مانشاء وذلك أنهم كانوا ينقصون الدراهم والدنانير فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك ويخبرهم أنه محرم عليهم وإنما ذكر الصلاة لأنها من أعظم شعائر الدين (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس أرادوا السفيه الغاوى لأن العرب قد تصف الشىء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة وقيل هو على حقيقته وإنما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية وقيل معناه إنك لأنت الحليم الرشيد فى زعمك وقيل هو على بابه من الصحة ومعناه إنك ياشعيب فينا حليم رشيد فلا يحمل بك شق عصا قومك ومخالفتهم فى دينهم (قال) يعنى قال لهم شعيب (ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) يعنى على بصيرة وهداية وبيان (ورزقنى منه رزقا حسنا) يعنى حلالا قيل كان شعيب كثير المال الحلال والنعمة وقيل الرزق الحسن ماأتاه الله

وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، وقيل الرزق الحسن العلم والمعرفة

من العلم والهداية والنبوة والمعرفة وجواب إن الشرطية محذوف تقديره أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى المال الحلال والهداية والمعرفة والنبوة فهل يسعنى مع هذه النعمة أن أخون فى وحيه أو أن أخالف أمره أو أتبع الضلال أو أبخس الناس أشياءهم ، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك أنهم قالوا له إنك لأنت الحليم الرشيد والمعنى فكيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة وقوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) قال صاحب الكشاف يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، أى إن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم قال الإمام فخر الدين الرازى وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا فيها بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا أن الذى اخترته لنفسى هو أصوب الطرق وأصلحها وهو الدعوة إلى توحيد الله وترك البخس والنقصان فأنا مواظب عليها غير تارك لها فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق وأشرفها لا ما أنتم عليه وقال الزجاج معناه إنى لست أنهاكم عن شىء وأدخل فيه إنما أختار لكم ما أختار لنفسى وقال ابن الأنبارى بين أن الذى يدعوهم إليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه وهو لا ينطوى إلا عليه فكان هذا محض النصيحة لهم (إن أريد) يعنى ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه (إلا الإصلاح) يعنى فيما بينى وبينكم (ما استطعت) يعنى ما استطعت إلا الإصلاح وهو الإبلاغ والإنذار فقط ولا أستطيع إجباركم على الطاعة لأن ذلك إلى الله فانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء (وما توفيقى إلا بالله) التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى فلذلك قال تعالى ، وما توفيقى إلا بالله ، (عليه توكلت) يعنى على الله اعتمدت فى جميع أمورى (وإليه أنيب) يعنى وإليه أرجع فيما ينزل من النوائب وقيل إليه أرجع فى معادى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه . وقوله تعالى (وياقوم لا يجرمنكم شقاقى) أى لا يحملنكم خلافى وعداوتى (أن يصيبكم) يعنى عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة (مثل ما أصاب قوم نوح) يعنى الغرق (أو قوم هود) يعنى الريح التى أهلكتهم (أو قوم صالح) يعنى ما أصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعا (وما قوم لوط منكم ببعيد) وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاكهم وقيل معناه وما ديار قوم لوط منكم ببعيد وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم (واستغفروا ربكم) يعنى من عبادة الأصنام (ثم توبوا إليه) يعنى من البخس والنقصان فى الكيل والوزن (إن ربى رحيم) يعنى بعباده إذا تابوا واستغفروا (ودود) قال ابن عباس الودود المحب لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل أوده إذا أحببته وقيل يحتمل أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة إفضاله وإحسانه إليهم وقال الحليمى هو الواد لأهل طاعته أى الراضى عنهم بأعمالهم والمحسن إليهم لأجلها والمادح لهم بها وقال أبو سليمان الخطابى وقد يكون معناه من تودد إلى خلقه (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) يعنى

(وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أى ما أريد أن أنهاكم عن شىء ثم أرتكبه (إن أريد) ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه (إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله) والتوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة (عليه توكلت) اعتمدت (وإليه أنيب) أرجع فيما ينزل بى من النوائب وقيل فى المعاد (وياقوم لا يجرمنكم) لا يحملنكم (شقاقى) خلافى (أن يصيبكم) أى على فعل ما أنهاكم عنه (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة (وما قوم لوط منكم ببعيد) وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط وقيل معناه وما دار قوم لوط منكم ببعيد وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود) والودود له معنيان أحدهما أنه محب للمؤمنين وقيل هو بمعنى الودود أى محبوب المؤمنين ، وجاء فى الخبر ، أن شعيبا عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام ، (قالوا ياشعيب ما نفقه) ما نفهم (كثيرا مما تقول

ولنا لنراك فينا ضعيفا) وذلك أنه كان ضرير البصر فأرادوا ضعف البصر (ولولا رهطك)عشيرتك وكان في منعة من قومه (لرجمناك) لقتلناك والرجم أقبح القتل(وما أنت علينا)عندنا (بعزيز قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله) أمكان رهطى أهيب عندكم من الله أى إن تركتم قتلى لمكان رهطى فالأولى أن تحفظونى فى الله (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه (إن ربى بما تعملون محيط وياقوم اعملوا على مكانتكم)أى على تؤدتكم وتمكنكم يقال فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تؤدة وتمكن (إنى عامل)على تمكنى (سوف تعلمون) أينا الجانى على نفسه والمخطئ فى فعله فذلك قوله (من يأتيه عذاب يخزيه) بذله (ومن هو كاذب) قيل من فى محل النصب أى فسوف تعلمون الكاذب ،وقيل محله رفع تقديره ومن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره (وارتقبوا) وانتظروا العذاب (إنى معكم رقيب) منتظر (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة) جاثمين) قيل إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم وقيل أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم (فأصبحوا فى ديارهم

ما نفهم ما تدعونا إليه وذلك أن الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصارت لاتعى ولاتفهم ماينفعها وإن كانوا فى الظاهر يسمعون ويفهمون (وإنا لنراك فينا ضعيفا) قال ابن عباس وقتادة كان أعمى قال الزجاج ويقال إن حمير كانوا يسمون المكفوف ضيفا وقال الحسن وأبو روق ومقاتل يعنى ذليلا قال أبو روق إن الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيا أعمى ولا نبيا به زمانة وقيل كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذى يتعذر عليه المنع عن نفسه ويدل على صحة هذا القول مابعده وهو قوله (ولولا رهطك) يعنى جماعتك وعشيرتك قيل الرهط مابين الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى السبعة (لرجمناك) يعنى لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وشرها وقيل معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول (وما أنت علينا بعزيز) يعنى بكريم وقيل بممتنع منا والمقصود من هذا الكلام وحاصله أنهم بينوا لشعيب عليه السلام أنه لاحرمة له عندهم ولا فى صدورهم وأنهم إنما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لأجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لأنهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قالوا لشعيب عليه السلام هذه المقالة أجابهم بقوله (قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله) يعنى أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قتلى لمكان رهطى عندكم فالأولى أن تحفظونى فى الله ولأجل الله لا لرهطى لأن الله أعز وأعظم (واتخذتموه وراءكم ظهريا) يعنى ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشىء الملقى الذى لايلتفت إليه (إن ربى بما تعملون محيط) يعنى أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوالكم جميعا لايخفى عليه منها شىء فيجازيكم بها يوم القيامة (وياقوم اعملوا على مكانتكم) يعنى على تؤدتكم وتمكنكم من أعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بعناية المكنة والقدرة من الشر (إنى عامل) يعنى ماأقدر عليه من الطاعة والخير وهذا الأمر فى قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى (سوف تعلمون) أينا الجانى على نفسه المخطئ فى فعله . فان قلت أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها فى قوله سوف تعلمون . قلت إدخال الفاء فى قوله فسوف تعلمون وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها فى قوله سوف تعلمون وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون يعنى عاقبة ذلك فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه والمعنى سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) يعنى بسبب عمله السيئ أو أينا الشقى الذى يأتيه عذاب يخزيه (ومن هو كاذب) يعنى فيما يدعيه (وارتقبوا) يعنى وانتظروا العاقبة وما يئول إليه أمرى وأمركم (إنى معكم رقيب) أى منتظر ، والرقيب بمعنى المراقب (ولما جاء أمرنا) يعنى بعذابهم وإهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) يعنى بفضل منا بأن هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (وأخذت الذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس (الصيحة)وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة واحدة من السماء فماتوا جميعا (فأصبحوا فى ديارهم

جاثمين) يعنى ميتين وهو استعارة من قولهم جثم الطير إذا قعد ولطأ بالأرض (كأن لم يغنوا فيها) يعنى كأن لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غنى بالمكان إذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (ألا بعدا) يعنى هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) قال ابن عباس لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم ▪ قوله عز وجل (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) يعنى بحججنا والبراهين التى أعطيناه الدالة على صدقه ونبوته (وسلطان مبين) يعنى ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه أيضا قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطانا لأن صاحب الحجة يقهر من لاحجة معه كالسلطان يقهر غيره وقال الزجاج السلطان هو الحجة وسمى السلطان سلطانا لأنه حجة الله فى الأرض (إلى فرعون وملئه) يعنى أتباعه وأشراف قومه (فاتبعوا أمر فرعون) يعنى ماهو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاءهم به موسى (وما أمر فرعون برشيد) يعنى وما طريق فرعون وما هو عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو إلى خير (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) يعنى كما تقدم قومه فأدخلهم البحر فى الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم القيامة فيدخلهم النار ويدخل هو أمامهم والمعنى كما كان قدوتهم فى الضلال والكفر فى الدنيا فكذلك هو قدوتهم وإمامهم فى النار (وبئس الورد المورود) يعنى وبئس المدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون فى تقدمه على قومه إلى النار بمن يتقدم على الوارد إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محمودا عند الواردين لأنه يكسر العطش قال فى حق فرعون وأتباعه فأوردهم النار وبئس الورد المورود لأن الأصل فيه قصد الماء واستعمل فى ورود النار على سبيل الفظاعة (وأتبعوا فى هذه) يعنى فى هذه الدنيا (لعنة) يعنى طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة) يعنى وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التى حصلت لهم فى الدنيا (بئس الرفد المرفود) يعنى بئس العون المعان وذلك أن اللعنة فى الدنيا رفد للعنة فى الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك أنه ترادفت عليهم لعنتان لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة . وقوله سبحانه وتعالى (ذلك من أنباء القرى) يعنى من أخبار أهل القرى وهم الأمم السالفة والقرون الماضية (نقصه عليك) يعنى نخبرك به يا محمد لتخبر قومك أخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم أو ينزل بهم مثل ما نزل بهم من العذاب (منها) يعنى من القرى التى أهلكنا أهلها (قائم وحصيد) يعنى منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعنى الحيطان بغير سقوف ومنها ماقد محى أثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذى بعضه قائم على سوقه وبعضهم قد حصد وذهب أثره والحصيد بمعنى المحصود (وما ظلمناهم) يعنى بالعذاب والاهلاك (ولكن ظلموا أنفسهم) يعنى بالكفر والمعاصى (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك) يعنى بعذابهم أى لم تنفعهم أصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب (ومازادوهم غير تتبيب) يعنى غير تخسير وقيل غير تدمير (وكذلك أخذ ربك) يعنى وهكذا أخذ ربك (إذا أخذ القرى وهى ظالمة) الضمير فى وهى عائد على القرى والمراد أهلها (إن أخذه أليم شديد) (ق) عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ

هلكت (ثمود) قوله عز وجل (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين) حجة بينة (إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد) سديد (يقدم قومه) يتقدمهم (يوم القيامة فأوردهم) فأدخلهم (النار وبئس الورد المورود) أى بئس المدخل المدخول فيه (وأتبعوا فى هذه) أى فى هذه الدنيا (لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) أى العون المعان ▪ وقيل العطاء المعطى وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعنتان لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم) عامر (وحصيد) خراب ، وقيل منها قائم بقيت الحيطان وسقطت السقوف وحصيد أى انمحى أثره وقال مقاتل قائم يرى له أثر وحصيد لا يرى له أثر وحصيد بمعنى محصود (وما ظلمناهم) بالعذاب والهلاك (ولكن ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعصية (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك) عذاب ربك (وما زادوهم غير تتبيب) أى غير تخسير، وقيل تدمير (وكذلك) وهكذا (أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد

القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد» فالآية الكريمة فى الحديث دليل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن أن هذه الآية حكمها مختص بظالمى الأمم الماضية بل هو عام فى كل ظالم ويعضده الحديث والله أعلم. قوله عز وجل (إن فى ذلك لآية) يعنى ما ذكر من عذاب الأمم الخالية وإهلاكهم لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب الآخرة) يعنى أن إهلاك أولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه فى الآخرة لأنه إذا نظر ما أحل الله بأولئك الكفار فى الدنيا من أليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالأنموذج مما أعد لهم فى الآخرة اعتبر به فيكون زيادة فى خوفه وخشيته من الله (ذلك يوم مجموع له الناس) يعنى يوم القيامة تجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدى رب العالمين (وذلك يوم مشهود) يعنى يشهده أهل السماء وأهل الأرض (وما نؤخره إلا لأجل معدود) يعنى وما نؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيامة إلا إلى وقت معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه أحد إلا الله تعالى (يوم يأت) يعنى ذلك اليوم (لا تكلم نفس إلا بإذنه) قيل إن جميع الخلائق يسكتون فى ذلك اليوم فلا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله تعالى. فإن قلت كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه وتعالى «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها» وقوله إخبارا عن محاجة الكفار «والله ربنا ما كنا مشركين» والأخبار أيضا تدل على الكلام فى ذلك اليوم. قلت يوم القيامة يوم طويل وله أحوال مختلفة وفيه أهوال عظيمة ففى بعض الأحوال لا يقدرون على الكلام لشدة الأهوال وفى بعض الأحوال يؤذن لهم فى الكلام فيتكلمون وفى بعضها تخفف عنهم تلك الأهوال فيحاجون ويجادلون وينكرون وقيل المراد من قوله لا تكلم نفس إلا بإذنه الشفاعة يعنى لا تشفع نفس لنفس شيئا إلا أن يأذن الله لها فى الشفاعة (فمنهم) يعنى فمن أهل الموقف (شقى وسعيد) الشقاوة خلاف السعادة والسعادة هى معاونة الأمور الإلهية للإنسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها ثم السعادة على ضربين سعادة دنيوية وسعادة أخروية وهى السعادة القصوى لأن نهايتها الجنة وكذلك الشقاوة على ضربين أيضا شقاوة دنيوية وشقاوة أخروية وهى الشقاوة القصوى لأن نهايتها النار فالشقى من سبقت له الشقاوة فى الأزل والسعيد من سبقت له السعادة فى الأزل (ق) عن على بن أبى طالب قال «كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية» بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم والمخصرة كالسوط والعصا ونحو ذلك مما يمسكه بيده الإنسان والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشىء بتلك المخصرة أو باليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه واستدل بعض العلماء بهذه الآية وهذا الحديث على أن أهل الموقف قسمان شقى وسعيد لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقى قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيئاته وهم أصحاب الأعراف

ابن عبدالله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا صدقة بن الفضل انبأنا ابو معاوية البانا يزيد بن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته قال ثم قرأ: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة» الآية. قوله عز وجل (إن فى ذلك لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس) يعنى يوم القيامة (وذلك يوم مشهود) أى يشهده أهل السماء والأرض (وما نؤخره) أى وما نؤخر ذلك اليوم فلا نقيم عليكم القيامة، وقرأ يعقوب وما يؤخره بالياء (إلا لأجل معدود) معلوم عند الله (يوم يأت) بإثبات الياء وحذفها (لا تكلم) أى لا تتكلم (نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد) أى فمنهم من سبقت له الشقاوة ومنهم من سبقت له السعادة أخبرنا أبو سعيد بن عبد الله ابن أحمد الطاهرى أنبأنا جدى أبو سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنبأنا أبو بكر محمد ابن زكريا العذافرى أنبأنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدبرى أنبأنا عبد الرزاق أنا معمر عن منصور عن سعيد بن عبيدة فى قول

عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال خرجنا على جنازة فبينا نحن بالبقيع إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده مخصرة فجاء فجلس ثم نكت بها في الأرض ساعة ثم قال ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة أو النار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل أفلا نتكل على كتابنا يا رسول الله وندع العمل قال لا ولكن اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما أهل الشقاء فسييسرون لعمل أهل الشقاء وأما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة قال ثم تلا فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » قوله (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق) قال ابن عباس رضي الله عنهما الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف وقال الضحاك ومقاتل الزفير أول نهيق الحمار والشهيق آخره

إذا ردده في جوفه وقال أبو العالية الزفير في الحلق والشهيق في الصدر (خالدين فيها) لابثين مقيمين فيها (ما دامت السموات والأرض) قال الضحاك ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما وكل ما علاك وأظلك فهو سماء وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض وقال أهل المعاني هذا عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا آتيك ما دامت السموات والأرض ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون أبدا . قوله (إلا ما شاء ربك) اختلفوا في هذين الاستثناءين فقال بعضهم الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء من غير الجنس لأن الذين أخرجوا من النار سعداء استثناهم الله من جملة الأشقياء وهذا كما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حفص بن عمر ثنا هشام عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته فيقال لهم الجهنميون » وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي قال أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أخبرنا يحيى عن الحسن بن ذكوان أنبأنا أبو رجاء حدثني عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين » وأما الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنة وقيل إلا ما شاء ربك من

في قول والأطفال والمجانين الذين لا حسنات لهم ولا سيئات فهؤلاء مسكوت عنهم فهم تحت مشيئة الله عز وجل يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها) أي في النار من العذاب والهوان (زفير وشهيق) أصل الزفير ترديد النفس في الصدر حتى تنتفخ منه الضلوع والشهيق رد النفس إلى الصدر أو الزفير مده وإخراجه من الصدر وقال ابن عباس الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف وقال الضحاك ومقاتل الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخره إذا رده إلى صدره وقال أبو العالية الزفير في الحلق والشهيق في الجوف (خالدين فيها) يعني لابثين مقيمين في النار (ما دامت السموات والأرض) قال الضحاك يعني ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما ولا بد لأهل الجنة وأهل النار من سماء تظلهم وأرض تقلهم فكل ما علاك فأظلك فهو سماء وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد وذلك على عادة العرب فإنهم يقولون لا آتيك ما دامت السموات والأرض وما اختلف الليل والنهار يريدون بذلك التأبيد . وقوله سبحانه وتعالى (إلا ما شاء ربك) اختلف العلماء في معنى هذين الاستثناءين فقال ابن عباس والضحاك الاستثناء الأول المذكور في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لأن الذين أخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الأشقياء ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة » وفي رواية « إن الله يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة » أخرجه البخاري ومسلم، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يخرج من النار قوم بعد ما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين » وفي رواية « ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته فيقال لهم الجهنميون » (خ) عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين » وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبث

الفريقين من تعميرهم فى الدنيا واحتباسهم فى البرزخ مابين الموت والبعث قبل مصيرهم إلى الجنة او النار يعنى هم خالدون فى الجنة أو النار إلا هذا المقدار وقيل (٢٥٤) معنى إلا ما شاء ربك سوى ما شاء ربك معناه خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء الله من الزيادة على قدر مدة بقاء السموات والأرض وذلك هو الخلود فيها كما تقول لفلان على ألف إلا الألفين أى سوى الألفين اللتين تقدمتا وقيل إلا بمعنى الواو أى وقد شاء ربك خلود هؤلاء فى النار وهؤلاء فى الجنة كقوله ولئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا أى ولا الذين ظلموا وقيل معناه او شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لايشاء لأنه حكم لهم بالخلود وقال الفراء هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقولك والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه (إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا) قرأ حمزة والكسائى وحفص سعدوا بضم السين وكسر العين أى رزقوا السعادة وسعد وأسعد بمعنى واحد، وقرأ الآخرون بفتح السين قياسا على شقوا (فى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك) قال الضحاك إلا ما مكثوا فى النار حتى أدخلوا الجنة قال قتادة الله أعلم بثنياه (عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لأهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لأهل النار

هؤلاء فى النار قبل دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة (إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك) أن يدخله النار أولا ثم يخرجه منها فيدخله الجنة فحاصل هذا القول أن الاستثناءين يرجع كل واحد منهما إلى قوم مخصوصين هم فى الحقيقة سعداء أصابوا ذنوبا استوجبوا بها عقوبة يسيرة فى النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لأن إجماع الأمة على أن من دخل الجنة لايخرج منها أبدا وقيل إن الاستثناءين يرجعان إلى الفريقين السعداء والأشقياء وهو مدة تعميرهم فى الدنيا واحتباسهم فى البرزخ وهو ما بين الموت إلى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين فى الجنة والنار إلا هذا المقدار وقيل معنى إلا ماشاء ربك سوى ماشاء ربك فيكون المعنى خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان على ألف إلا ألفين أى سوى ألفين وقيل إلا بمعنى الواو بمعنى وقد شاء ربك خلود هؤلاء فى النار وخلود هؤلاء فى الجنة فهو كقوله تمجد وتعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا أى ولا الذين ظلموا وقيل معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لم يشأ لأنه حكم لهم بالخلود فيها قال الفراء هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقوله والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزمه أن يضربه فهذه الأقوال فى معنى الاستثناء ترجع إلى الفريقين والصحيح هو القول الأول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى «إن ربك فعال لما يريد» يعنى من إخراج من أراد من النار وإدخالهم الجنة فهذا على الإجمال فى حال الفريقين فأما على التفصيل فقوله إلا ما شاء ربك فى جانب الأشقياء يرجع إلى الزفير والشهيق وتقريره أن يفيد حصول الزفير والشهيق مع خلود لأنه إذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل فيه هذا المجموع والاستثناء فى جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعنى إلا ماشاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود وقيل إن الاستثناء الأول فى جانب الأشقياء معناه إلا ماشاء ربك من أن يخرجهم من حر النار إلى البرد والزمهرير وفى جانب السعداء معناه إلا ماشاء ربك أن يرفع بعضهم إلى منازل أعلى منازل الجنان ودرجاتها والقول الأول هو المختار ويدل على خلود أهل الجنة فى الجنة أن الأمة مجتمعة على من دخل الجنة لا يخرج منها بل هو خالد فيها . وقوله سبحانه وتعالى فى جانب السعداء (عطاء غير مجذوذ) يعنى غير مقطوع قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذى يشاء لأهل الجنة فقال تعالى عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لأهل النار وروى عن ابن مسعود أنه قال «ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد مايلبثون فيها أحقابا» وعن أبى هريرة نحوه وهذا إن صح عن ابن مسعود وأبى هريرة فمحمول عند أهل السنة على إخلاء أماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد إخراجهم منها لأنه ثبت بالدليل الصحيح القاطع إخراج جميع الموحدين وخلود الكفار فيها أو يكون محمولا على إخراج الكفار من حر النار إلى برد الزمهرير ليزدادوا عذابا

فوق

فوق عذابهم والله أعلم . قوله سبحانه وتعالى (فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء) يعنى فلا تك فى شك يا محمد فى هذه الأصنام التى يعبدها هؤلاء الكفار فإنها لا تضر ولا تنفع (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل) يعنى أنه ليس لهم فى عبادة هذه الأصنام مستند إلا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فعبدوها مثلهم (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) يعنى وإنا مع عبادتهم هذه الأصنام نرزقهم الرزق الذى قدرناه لهم من غير نقص فيه ويحتمل أن يكون المراد من توفية نصيبهم يعنى من العذاب الذى قدر لهم فى الآخرة كاملا موفرا غير ناقص . قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (فاختلف فيه) يعنى فى الكتاب فمنهم مصدق به ومكذب به كما فعل قومك يا محمد بالقرآن ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (ولولا كلمة سبقت من ربك) يعنى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لكان الذى يستحقونه من تعجيل العقوبة فى الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى (لقضى بينهم) يعنى لعذبوا فى الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم (وإنهم لفى شك منه) يعنى من القرآن ونزوله عليك يا محمد (مريب) يعنى أنهم قد وقعوا فى الريب والتهمة (وإن كلا) يعنى من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم فى القيامة فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار (إنه بما يعملون خبير) يعنى أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شىء من أعمال عباده وإن دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين . قوله سبحانه وتعالى (فاستقم كما أمرت) الخطاب فيه للنبى ﷺ يعنى فاستقم يا محمد على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك والأمر فى فاستقم للتأكيد لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك أى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك (ومن تاب معك) يعنى ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضا على دين الله والعمل بطاعته قال عمر بن الخطاب الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تروغ منه روغان الثعلب (م) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم » (ولا تطغوا) يعنى ولا تجاوزوا أمرى إلى غيره ولا تعصونى وقيل معناه ولا تغلوا

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا » وعن أبى هريرة رضى الله عنه مثله ، ومعناه عند أهل السنة إن ثبت أن لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان وأما مواضع الكفار فممتلئة أبدا (فلا تك فى مرية) فى شك (مما يعبد هؤلاء) إنهم ضلال (ما يعبدون إلا كما يعبد) فيه إضمار أى كما كان يعبد (آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم) حظهم من الجزاء (غير منقوص ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (فاختلف فيه) فمن مصدق به ومكذب كما فعل قومك بالقرآن يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم (ولولا كلمة سبقت من ربك) فى تأخير العذاب عنهم (لقضى بينهم) أى لعذبوا فى الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم (وإنهم لفى شك منه مريب) موقع فى الريبة والتهمة (وإن كلا) قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر وإن كلا ساكنة النون على تخفيف إن الثقيلة والباقون بتشديدها (لما) مشددهنا وفى يس والطارق ابن عامر وعاصم وحمزة وافق أبو جعفر هاهنا وفى الطارق وفى الزخرف بالتشديد عاصم وحمزة والباقون بالتخفيف فمن شدد قال الأصل فيه وإن كلا لمن ما فوصلت من الجارة بما فانقلبت النون ميما للإدغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت إحداهن فبقيت لما بالتشديد وما هاهنا بمعنى من وهو اسم لجماعة الناس كما قال تعالى « فانكحوا ما طاب لكم » أى من طاب لكم والمعنى وإن كلا لمن جماعة ليوفينهم ومن قرأ بالتخفيف قال ما صلة زيدت بين اللامين ليفصل بينهما كراهة اجتماعهما ، والمعنى وإن كلا ليوفينهم وقيل ما بمعنى من تقديره لمن ليوفينهم واللام فى لما لام التأكيد التى تدخل على خبر إن وفى ليوفينهم لام القسم والقسم مضمر تقديره والله (ليوفينهم ربك أعمالهم) أى جزاء أعمالهم (إنه بما يعملون خبير) قوله عز وجل (فاستقم كما أمرت) أى استقم على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرت (ومن تاب معك) أى من آمن معك فليستقيموا قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تروغ روغان الثعلب أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضى أنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أنا والدى إملاء ثنا أبو بكر محمد بن إسحاق ثنا محمد بن العلاء بن كريب ثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال « قل آمنت بالله ثم استقم » (ولا تطغوا) لا تجاوزوا أمرى ولا تعصونى وقيل معناه ولا تغلوا فتزيدوا على

ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال «شيبتنى هود وأخواتها» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد السلام ابن مطهر ثنا عمرو بن على عن معن بن محمد الغفارى عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة» قوله عز وجل (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قال ابن عباس رضى الله عنهما ولا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب وقال أبو العالية لا ترضوا بأعمالهم قال السدى لاتداهنوا الظلمة وعن عكرمة لاتطيعوهم وقيل لاتسكنوا إلى الذين ظلموا (فتمسكم) فتصيبكم (النار ومالكم من دون الله من أولياء) أى أعوان يمنعونكم من عذابه (ثم لاتنصرون) قوله عز وجل (وأقم الصلاة طرفى النهار) وقال

فى الدين فتجاوزوا ماأمرتكم به ونهيتكم عنه (إنه بما تعملون بصير) يعنى أنه سبحانه وتعالى عالم بأعمالكم لايخفى عليه شىء منها قال ابن عباس ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هى أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتنى هود وأخواتها (خ) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة» قوله إن الدين يسر اليسر ضد العسر وأراد به التسهيل فى الدين وترك التشدد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فلن يغالب ولن يقاوى فسددوا أى اقصدوا السداد من الأمور وهو الصواب وقاربوا أى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لاغلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشيا والمراد منه اعملوا أطراف النهار وقتا وقتا والدلجة سير الليل والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا وقوله شىء من الدلجة إشارة إلى تقليله . وقوله تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قال ابن عباس ولاتميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب وقال أبو العالية لاترضوا بأعمالهم وقال السدى لاتداهنوا الظلمة وعن عكرمة لاتطيعوهم ، وقيل معناه ولا تسكنوا إلى الذين ظلموا (فتمسكم النار) يعنى فتصيبكم النار بحرها (ومالكم من دون الله من أولياء) يعنى أعوانا وأنصارا يمنعونكم من عذابه (ثم لاتنصرون) يعنى ثم لاتجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غدا فى القيامة ففيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضى بأعمالهم أو أحبهم فكيف حال الظلمة فى أنفسهم نعوذ بالله من الظلم . قوله عز وجل : (وأقم الصلاة طرفى النهار) سبب نزول هذه الآية مارواه الترمذى عن أبى اليسر قال «أتتنى امرأة تبتاع تمرا فقلت إن فى البيت تمرا هو أطيب منه فدخلت معى البيت فأهويت إليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولاتخبر أحدا فلم أصبر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظن أنه من أهل النار قال وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى الله إليه وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إلى قوله ذلك ذكرى للذاكرين . قال أبو اليسر فأتيته فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه يارسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة» قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو (ق) عن عبد الله بن مسعود «أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الآية فقال الرجل يا رسول الله ألى هذه الآية قال لمن عمل بها من أمتى وفى رواية فقال رجل من القوم يانبى الله هذه له خاصة قال بل للناس كافة» عن معاذ بن جبل قال «أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يارسول الله أرأيت رجلا لقى امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتى الرجل إلى امرأته شيئا إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلى قال معاذ فقلت يارسول الله أهى له خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال بل للمؤمنين عامة» أخرجه الترمذى وقال هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يسمع من معاذ . أما التفسير فقوله سبحانه وتعالى وأقم الصلاة طرفى النهار يعنى صلاة الغداة والعشى

أى الغداة والعشى قال مجاهد طرفا النهار صلاة الصبح والظهر والعصر (وزلفا من الليل) صلاة المغرب والعشاء * وقال مقاتل صلاة الفجر والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل يعنى صلاة العشاء وقال الحسن طرفا النهار الصبح والعصر وزلفا من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس رضى الله عنهما طرفا النهار الغداة والعشى يعنى صلاة الصبح والمغرب قوله وزلفا من الليل أى ساعته واحدتها زلفة وقرأ أبوجعفر زلفا بضم اللام (إن الحسنات يذهبن السيئات) يعنى إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات وروى أنها نزلت فى أبى اليسر وهو عمرو بن غزية الأنصارى قال أتتنى امرأة تبتاع تمرا فقلت لها إن فى البيت تمرا أطيب منه فدخلت معى فى البيت (٢٥٧) فأهويت إليها فقبلتها ثم ندمت فأتيت أبا بكر رضى الله عنه فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت عمر رضى الله عنه فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظن أنه من أهل النار فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الآية فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا قتيبة بن سعيد ثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله تعالى وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات فقال الرجل يارسول الله ألى هذا قال لجميع أمتى كلهم وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثنى أبو طاهر وهرون بن سعيد الأيلى قالا حدثنا ابن وهب عن أبى صخر أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات

وقال مجاهد طرفى النهار يعنى صلاة الصبح والظهر والعصر وزلفا من الليل يعنى صلاة المغرب والعشاء وقال مقاتل صلاة الصبح والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل يعنى صلاة العشاء وقال الحسن طرفى النهار الصبح والعصر وزلفا من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفى النهار الغداة والعشى يعنى صلاة الصبح والمغرب قال الإمام فخر الدين الرازى كثرت المذاهب فى تفسير طرفى النهار والأشهر أن الصلاة التى فى طرفى النهار هى الفجر والعصر وذلك لأن أحد طرفى النهار هو طلوع الشمس والثانى هو غروبها فالطرف الأول هو صلاة الفجر والطرف الثانى لايجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله تعالى وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثانى على صلاة العصر (وزلفا من الليل) يعنى وأقم الصلاة فى زلف من الليل وهى ساعاته واحدتها زلفة وأصل الزلفة المنزلة والمراد بها صلاة المغرب والعشاء (إن الحسنات يذهبن السيئات) يعنى إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن زاد فى رواية مالم تغش الكبائر » وزاد فى رواية أخرى « ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (ق) عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شئ قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا » (خ) عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات » قال الحسن وما يبقى من الدرن . قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحات مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها إلا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط : الشرط الأول الإقلاع عن الذنب بالكلية . الثانى الندم على فعله . الثالث العزم التام أن لا يعود إليه فى المستقبل ، فإذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة إن شاء الله تعالى * وقال مجاهد فى تفسير الحسنات أنها قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والقول الأول أصح أنها الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومجاهد فى إحدى الروايتين

لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» وأخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو محمد الحسين بن أحمد المخلدى أنبأنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج أنبأنا قتيبة أنبأنا الليث وبكر بن مضر عن ابن الهادى عن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا هل يبقى من درنه شئ قالوا لا يبقى من درنه شئ قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» قوله عز وجل (ذلك) أى ذلك الذى ذكرنا وقيل هو إشارة إلى القرآن (ذكرى) (٢٥٨) عظة (للذاكرين) أى لمن ذكره (واصبر) يامحمد على ماتلقى من الأذى وقيل على الصلاة نظيره وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) فى أعمالهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى المصلين قوله عز وجل (فلولا) فهلا (كان من القرون) التى أهلكناهم (من قبلكم) الآية للتوبيخ (أولوا بقية) أى أولوا تمييز وقيل أولوا طاعة وقيل أولوا خير يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير معناه فهلا كان من القرون من قبلكم من فيه خير ينهى عن الفساد فى الأرض وقيل معناه أولوا بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة (ينهون عن الفساد فى الأرض) أى يقومون بالنهى عن الفساد ومعناه جحد أى لم يكن فيهم أولوا بقية (إلا قليلا) هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلا (ممن أنجينا منهم) وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد فى الأرض (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا) نعموا (فيه) والمترف المنعم وقال مقاتل ابن حيان خولوا وقال الفراء عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا أى واتبع الذين ظلموا ماعودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة (وكانوا مجرمين) كافرين (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) أى لا يهلكهم بشركهم (وأهلها مصلحون) فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضا وإنما يهلكهم إذا تظالموا وقيل لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون فى أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات قوله عز وجل (ولو شاء ربك لجعل الناس) كلهم (أمة واحدة) على دين واحد (ولا يزالون مختلفين)

وهى

عنه والقرظى والضحاك وجمهور المفسرين (ذلك) إشارة إلى ماتقدم ذكره من الاستقامة والتوبة وقيل هو إشارة إلى القرآن (ذكرى للذاكرين) يعنى عظة للمؤمنين المطيعين (واصبر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى واصبر يامحمد على أذى قومك وما تلقاه منهم ، وقيل معناه واصبر على الصلاة (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) يعنى أعمالهم قال ابن عباس يعنى المصلين . قوله سبحانه وتعالى (فلولا كان من القرون) يعنى فهلا كان من القرون التى أهلكناهم (من قبلكم) يعنى ياأمة محمد (أولوا بقية) يعنى أولوا تمييز وطاعة وخير يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير وقيل معناه أولوا بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة (ينهون عن الفساد فى الأرض) يعنى يقومون بالنهى عن الفساد فى الأرض والآية للتقريع والتوبيخ يعنى لم يكن فيهم من فيه خير ينهى عن الفساد فى الأرض فلذلك أهلكناهم (إلا قليلا) هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلا (ممن أنجينا منهم) يعنى من آمن من الأمم الماضية وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد فى الأرض (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) يعنى واتبع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ماتنعموا فيه والترف التنعم والمعنى أنهم اتبعوا ماتعودوا به من النعم وإيثار اللذات على الآخرة ونعيمها (وكانوا مجرمين) يعنى كافرين (وما كان ربك) يعنى وما كان ربك يامحمد (ليهلك القرى بظلم) يعنى لا يهلكهم بظلم منه (وأهلها مصلحون) يعنى فى أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات وقيل فى معنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعنى يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال فى الدنيا أما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء إن حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد قوله عز وجل (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) يعنى كلهم على دين واحد وشريعة واحدة (ولا يزالون مختلفين) يعنى على أديان شتى مابين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الأديان قد اختلفوا فى دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تفرق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة» أخرجه أبو داود والترمذى بنحوه عن معاوية قال «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة

على أديان شتى من بين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك (إلا من رحم ربك) معناه لكن من رحم ربك فهداهم إلى الحق فهم
لايختلفون (ولذلك خلقهم) قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم وقال أشهب سألت مالكا عن هذه الآية؟

وهى الجماعة » أخرجه أبو داود قال الخطابى قوله صلى الله عليه وسلم وستفترق أمتى فيه دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين إذ جعلهم من أمته وقال غيره المراد بهذه الفرق أهل البدع والأهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من أهل البدع والأهواء والمراد بالواحدة هى فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله . وقوله سبحانه وتعالى (إلا من رحم ربك) يعنى لكن من رحم ربك فمن عليه بالهداية والتوفيق إلى الحق ، وهداه إلى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لايختلفون (ولذلك خلقهم) قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم . قال أشهب سألت مالك ابن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير » وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وللرحمة خلقهم يعنى الذين رحمهم . وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وخلق أهل الاختلاف للاختلاف وقيل خلق الله عز وجل أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لأن يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فحاصل الآية أن الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين ، وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم إلى النار وحكم على بعضهم بالرحمة وهم أهل الاتفاق ومصيرهم إلى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهذا صريح بأن الله سبحانه وتعالى خلق أقواما للجنة وللرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية . قوله سبحانه وتعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة الكريمة قصص الأمم الماضية والقرون الخالية وما جرى لهم مع أنبيائهم خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله وكلا نقص عليك يا محمد من أنباء الرسل يعنى من أخبار الرسل وما جرى لهم مع قومهم ما نثبت به فؤادك يعنى ما نقوى به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه (وجاءك) يا محمد (فى هذه الحق) اختلفوا فى هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك فى هذه الدنيا الحق وفيه بعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها وقيل فى هذه الآية وقيل فى هذه السورة وهو الأقرب وهو قول الأكثرين فإن قلت جاءه الحق فى سورة القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لايلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لايكون قد جاءه الحق فى غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وإنما خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) أى وجاءتك فى هذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون إذا تذكروا أحوال الأمم الماضية وما نزل بهم (وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم) فيه وعيد وتهديد يعنى اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله : اعملوا ما شئتم (إنا عاملون) يعنى ما أمرنا به ربنا (وانتظروا) يعنى ما يعدكم به الشيطان (إنا منتظرون) يعنى ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة (ولله غيب السموات والأرض) يعنى يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعنى

فقال خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير وقال أبو عبيدة الذى اختاره قول من قال خلق فريقا لرحمته وفريقا لعذابه وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وللرحمة خلقهم يعنى الذين رحمهم وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف ومحصول الآية أن أهل الباطل مختلفون وأهل الحق متفقون فخلق الله أهل الحق للاتفاق وأهل الباطل للاختلاف (وتمت كلمة ربك) وتم حكم ربك (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) معناه وكل الذى تحتاج إليه من أنباء الرسل أى من أخبارهم وأخبار أممهم نقصها عليك لنثبت به فؤادك لنزيدك يقينا ونقوى قلبك ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمعها كان فى ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه (وجاءك فى هذه الحق) قال الحسن وقتادة فى هذه الدنيا وقال غيرهما فى هذه السورة وهذا قول الأكثرين خص هذه السورة تشريفا وإن كان قد جاءه الحق فى جميع السور (وموعظة) أى وجاءتك موعظة (وذكرى للمؤمنين وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم) أمر تهديد ووعيد (إنا عاملون وانتظروا) ما يحل بنا من رحمة الله (إنا منتظرون) ما يحل بكم من نقمة الله (ولله غيب السموات والأرض) أى علم ما غاب

عن العباد فيهما (وإليه يرجع الأمر كله) فى المعاد قرأ نافع وحفص يرجع بضم الياء وفتح الجيم أى يرد وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم أى يعود الأمر كله إليه حتى لايكون للخلق أمر (فاعبده وتوكل عليه) وثق به (وما ربك بغافل عما تعملون) قرأ أهل المدينة والشام وحفص ويعقوب تعملون بالتاء هاهنا وفى آخر سورة النمل وقرأ الآخرون بالياء فيهما. قال كعب خاتمة التوراة خاتمة سورة هود أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجانى أنبأنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى أنبأنا أبو سعيد الهيثم بن كليب حدثنا أبو عيسى الترمذى ثنا أبو كريب محمد بن العلاء ثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبى إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله قد شبت فقال صلى الله عليه وسلم شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت وروى شيبتنى هود وأخواتها من المفصل.

(سورة يوسف عليه السلام مكية وهى مائة وإحدى عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر تلك آيات الكتاب المبين) أى البين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه قال قتادة مبين والله بركته وهداه ورشده فهذا من بان أى ظهر وقال الزجاج بين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر (إنا أنزلناه) يعنى الكتاب (قرآنا عربيا

أن علمه سبحانه وتعالى نافذ فى جميع الأشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء (وإليه يرجع الأمر كله) يعنى إلى الله يرجع أمر الخلق كلهم فى الدنيا والآخرة (فاعبده) يعنى أن من كان كذلك كان مستحقا للعبادة لاغيره فاعبده ولاتشتغل بعبادة غيره (وتوكل عليه) يعنى وثق به فى جميع أمورك فانه يكفيك (وما ربك بغافل عما تعملون) قال أهل التفسير هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم والمعنى أنه سبحانه وتعالى يحفظ على العباد أعمالهم لايخفى عليه منها شىء فيجزى المحسن باحسانه والمسىء باساءته. قال كعب الأحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

(تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام)

وهى مكية باجماعهم وهى مائة وإحدى عشرة آية وألف وستمائة كلمة وسبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا. قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى وفى سبب نزولها قولان أحدهما روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاه عليهم زمانا فقالوا يارسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى «الر تلك آيات الكتاب المبين إلى قوله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص. القول الثانى رواه الضحاك عن ابن عباس قال: سألت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فأنزل الله عز وجل الر تلك آيات الكتاب المبين الآيات الكريمة.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر) تقدم تفسيره فى أول سورة يونس عليه الصلاة والسلام (تلك) إشارة إلى آيات هذه السورة أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة المسماة بالر هذه (آيات الكتاب المبين) وهو القرآن أى البين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وقال قتادة مبين بينه الله ببركته وهداه ورشده فهذا من بان أى ظهر وقال الزجاج مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر وقيل إنه يبين فيه قصص الأولين وشرح أحوال المتقدمين (إنا أنزلناه) يعنى هذا الكتاب (قرآنا عربيا) أى أنزلناه بلغتكم لكى تعلموا معانيه وتفهموا مافيه وقيل لما قالت اليهود لمشركى مكة سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم عن أمر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية فأنزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية لتفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير إنا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه عربيا فعلى هذا القول يجوز إطلاق اسم القرآن على بعضه لأنه اسم جنس يقع على الكل والبعض واختلف العلماء هل يمكن أن يقال فى القرآن شىء بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم أن فى القرآن لسانا غير العربية فقد قال بغير الحق وأعظم على الله القول واحتج بهذه الآية إنا أنزلناه قرآنا عربيا وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم وإستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لأن هؤلاء أعلم من أبى عبيدة

بلسان

لعلكم تعقلون) أى أنزلناه بلغتكم لكى تعلموا معانيه وتفهموا مافيه (نحن نقص عليك) أى نقرأ (أحسن القصص)
والقاص هو الذى يتبع الآثار ويأتى بالخبر على وجهه معناه نبين لك أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن
البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه السلام خاصة سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد
التى تصلح للدين والدنيا من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد
الالتقاء وغير ذلك من الفوائد . قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم عليهم السلام يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة
وقال ابن عطاء لايسمع سورة يوسف عليه السلام محزون إلا استراح إليها قوله عز وجل (بما أوحينا
إليك) ما المصدر أى بإيحائنا إليك (هذا القرآن وإن كنت) وقد كنت (من قبله) أى من قبل وحينا (لمن الغافلين) لمن الساهين عن هذه القصة لاتعلمها قال سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا ؟ فقالوا يارسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل : نزل أحسن الحديث فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله عز وجل «نحن نقص عليك أحسن القصص» فقالوا يارسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله عز وجل « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم
لذكر الله» قوله عز وجل (إذ قال يوسف لأبيه) أى اذكر إذ قال يوسف لأبيه ويوسف اسم عبرى ولذلك لايجرى عليه الصرف
وقيل هو عربى سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف فقال الأسف فى اللغة الحزن والأسيف العبد واجتمعا فى يوسف عليه السلام
فسمى به أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل
قال : قال عبد الله بن محمد ثنا عبد الصمد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر رضى الله عنهما عن
النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (ياأبت)
قرأ أبو جعفر وابن عامر ياأبت بفتح التاء فى جميع القرآن على تقدير ياأبتاه والوجه أن أصله ياأبتا بالألف وهى بدل عن

بلسان العرب وكلا القولين صواب إن شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ
لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وإن كانت غير عربية فى
الأصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم وصارت لهم لغة ، فظهر بهذا البيان صحة القولين
وأمكن الجمع بينهما (لعلكم تعقلون) يعنى تفهمون أيها العرب لأنه نازل بلغتكم قوله تعالى
(نحن نقص عليك أحسن القصص) الأصل فى معنى القصص إتباع الخبر بعضه بعضا والقاص
هو الذى يأتى بالخبر على وجهه وأصله فى اللغة من قص الأثر إذا تتبعه وإنما سميت الحكاية
قصة لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا والمعنى نحن نبين لك يامحمد أخبار
الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه الصلاة والسلام
خاصة وإنما سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين
والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن
التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة فى هذه السورة الشريفة قال خالد بن
معدان سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة وقال عطاء لايسمع سورة يوسف
محزون إلا استراح إليها . وقوله تعالى (بما أوحينا إليك) يعنى بإيحائنا إليك يامحمد (هذا القرآن
وإن كنت) أى وقد كنت (من قبله) يعنى من قبل وحينا إليك (لمن الغافلين) يعنى عن هذه القصة
وما فيها من العجائب قال سعد بن أبى وقاص أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فتلاه عليهم زمانا فقالوا يارسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل «الله نزل أحسن الحديث»
فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى «نحن نقص عليك أحسن القصص» فقالوا
يارسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله عز وجل « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله »
قوله عز وجل (إذ قال يوسف لأبيه) أى اذكر يامحمد لقومك قول يوسف لأبيه يعقوب بن
إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليه وعليهم أجمعين (خ) عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن
إبراهيم ويوسف اسم عبرى ولذلك لايجرى فيه الصرف وقيل هو عربى سئل أبو الحسن الأقطع
عن يوسف فقال الأسف أشد الحزن والأسيف العبد واجتمعا فى يوسف فسمى به (ياأبت

يا الإضافة فحذفت الالف كما تحذف التاء فبقيت الفتحة تدل على الألف كما تبقي الكسرة تدل على الياء عند حذف الياء وقرأ الآخرون يا أبت بكسر التاء فى كل القرآن . والوجه أن أصله يا أبتى فحذفت الياء تخفيفا واكتفاء بالكسرة لأن باب النداء حذف يدل على ذلك قوله «ياعباد فاتقون» وقرأ الآخرون ياأبت بكسر التاء لأن أصله ياأبت والجزم يحرك إلى الكسر (إنى رأيت أحد عشر كوكبا) أي نجما من نجوم السماء ونصب الكواكب علي التفسير (والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) ولم يقل رأيتها لى ساجدات والهاء (٣٦٢) والميم والياء والنون من كنايات من يعقل لأنه لما أخبر عنها بفعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل كقوله تعالى «ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم» وكان النجوم فى التأويل إخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه قاله قتادة وقال السدى القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت . وقال ابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتى عشرة سنة حين رأى هذه الرؤيا وقيل رآها ليلة الجمعة ليلة القدر فلما قصها على أبيه (قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك) وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحى فعلم يعقوب أن إخوته إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتمان (فيكيدوا لك كيدا) فيحتالوا فى إهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك واللام فى قوله لك صلة كقوله تعالى لربهم يرهبون وقيل هو مثل قولهم نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) أى يزين لهم الشيطان ويحملهم على الكيد لعداوته القديمة أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا عبد الرحمن بن أبى شريح أنبأنا أبو القاسم البغوى ثنا على بن الجعد أنبأنا شعبة عن عبد ربه بن سعيد قال سمعت أبا سلمة قال كنت أرى الرؤيا فتهمنى حتى سمعت أبا قتادة يقول كنت أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الرؤيا الصالحة من الله تعالى والحلم من الشيطان فاذا رأى أحدكم

إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) معناه قال أهل التفسير رأى يوسف فى منامه كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم فى التأويل إخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه فى قول قتادة وقال السدى القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت وقال قتادة وابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه الصلاة والسلام ابن اثنتى عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين وأراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره وقيل أراد به حقيقة السجود لأنه كان فى ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود . فان قلت إن الكواكب جماد لاتعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل فى قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله ساجدين ولم يقل ساجدات . قلت لما أخبر عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم وقيل إن الفلاسفة والمنجمين يزعمون أن الكواكب أحياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشىء والأول أصح فان قلت قد قال إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم أعاد لفظ الرؤيا ثانيا فقال رأيتهم لى ساجدين فما فائدة هذا التكرار . قلت معنى الرؤيا الأولى أنه رأى أجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية أنه أخبر بسجودها له وقال بعضهم . معناه أنه لما قال إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له وكيف رأيت قال رأيتهم لى ساجدين وإنما أفرد الشمس والقمر بالذكر وإن كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال أهل التفسير إن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب . فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فلهذا (قال) يعقوب (يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك) يعنى لاتخبرهم برؤياك فأنهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) أى فيحتالوا فى إهلاكك فأمره بكتمان رؤياه عن إخوته لأن رؤيا الأنبياء وحى وحق واللام فى فيكيدوا لك كيدا تأكيد للصلة كقولك : نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) يعنى أنه بين العداوة . لأن عداوته قديمة فهم إن أقدموا على الكيد كان ذلك مضافا إلى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن أبى قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى

سمعت

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فاذا رأى أحدكم مايحب فلا يحدث بها إلا من يحب وإذا رأى أحدكم مايكره فليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لن تضره» (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فانما هي من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرها ولا يذكرها لأحد فانها لن تضره» (م) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثا وليتحول عن جنبه الذي كان عليه» عن أبي رزين العقيلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رؤيا المؤمن جزء من أربعين وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة وهي على رجل طائر مالم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها إلا لبيبا أو حبيبا» أخرجه الترمذي ولأبي داود نحوه قال الشيخ محيي الدين النووي قال المازري مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل مايشاء لايمنعه نوم ولا يقظة فاذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علما على أمور أخر يجعلها في ثاني الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التي يجعلها علما على مايسر بغير حضرة الشيطان فاذا خلق ماهو علم على مايضر يكون بحضرة الشيطان فينسب إلى الشيطان مجازا وإن كان لافعل له في الحقيقة فهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» لاعلى أن الشيطان يفعل شيئا والرؤيا إسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه وقال غيره إضافة الرؤيا المحبوبة إلى الله تعالى إضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وإن كانتا جميعا من خلق الله وتدبيره وإرادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب إذا رأى الرجل في منامه مايحب أن يحدث به من يحب وإذا رأى مايكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثا وليتحول إلى جنبه الآخر فانها لاتضره فان الله تعالى جعل هذه الأسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم . قوله تعالى (وكذلك يجتبيك ربك) يعني يقول يعقوب ليوسف عليه الصلاة والسلام أي وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعني يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالأنبياء أو ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين (ويعلمك من تأويل الأحاديث) يعني به تعبير الرؤيا سمي تأويلا لأنه يؤول أمره إلى مارأى في منامه ، يعني يعلمك تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم وكان يوسف عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا وقال الزجاج تأويل أحاديث الأنبياء والأمم السالفة والكتب المنزلة . وقال ابن زيد يعلمك العلم والحكمة (ويتم نعمته عليك) يعني بالنبوة قاله ابن عباس لأن منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الأنبياء فهذا من إتمام النعمة عليهم ، لأن جميع الخلق دونهم في الرتب والمناصب (وعلى آل يعقوب) المراد بآل يعقوب أولاده فانهم كانوا أنبياء وهو المراد من إتمام النعمة عليهم (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق)

ولا يحدث بها أحدا فانها لن تضره » وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنبأنا شعبة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن أبي رزين العقيلي قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الرؤيا الصالحة جزء من أربعين أو ستة وأربعين جزءا من النبوة وهي على رجل طائر مالم يحدث بها فاذا حدث بها وقعت وأحسبه قال لاتحدث بها إلا حبيبا أو لبيبا» قوله عز وجل (وكذلك يجتبيك ربك) يصطفيك يقول يعقوب ليوسف عليهما السلام أي كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا فكذلك يصطفيك ربك (ويعلمك من تأويل الأحاديث) يريد تعبير الرؤيا سمي تأويلا لأنه يئول أمره إلى ما رأى في منامه والتأويل مايئول إليه عاقبة الأمر (ويتم نعمته عليك) يعني بالنبوة (وعلى آل يعقوب) أي على أولاده فان أولاده كلهم كانوا أنبياء (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق) فجعلهما نبيين

(إن ربك عليم حكيم) وقيل المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلة وقيل إنجاؤه من النار وعلى إسحاق إنجاؤه من الذبح وقيل بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. قال ابن عباس رضي الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة وهو قول أكثر أهل التفسير وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي أن تسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه فبغوه وحسدوه ويقول الله تعالى (لقد كان في يوسف وإخوته) أي في خبره وخبر إخوته وأسماؤهم روبيل وقيل روبين بالنون وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبالون وقيل زبلون وآشر وأمهم ليا بنت لابان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام وولد له من سريتين له اسم إحداهما زلفة والأخرى بلهة أربعة أولاد دان ونفتالي وقيل نفتولي وجاد وأوشير ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عليه السلام أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين وقيل وابن يامين فكان بنو يعقوب عليه السلام اثني عشر رجلا (آيات) قرأ ابن كثير آية على التوحيد أي عظة وعبرة وقيل عجب وقرأ الآخرون آيات على الجمع (للسائلين) وذلك أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف عليه السلام وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر فذكر لهم قصة يوسف جميعها فوجدوها موافقة لما في التوراة فتعجبوا منها فهذا معنى قوله آيات للسائلين أي دلالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل آيات للسائلين ولمن لم يسأل كقوله سواء للسائلين وقيل معناه عبرة للمعتبرين فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف وما آل إليه أمرهم في الحسد وتشتمل على رؤياه وما حقق الله منها وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة وعلى الرق وعلى اللبث في السجن وما آل إليه أمره من الملك وتشتمل على حزن يعقوب وصبره على فراق يوسف وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد وغير ذلك من الآيات (إذ قالوا ليوسف) اللام فيه جواب القسم تقديره والله ليوسف (وأخوه) بنيامين (أحب إلى أبينا منا) كان يوسف

بأن جعلهما نبيين وهو المراد من إتمام النعمة عليهما وقيل المراد من إتمام النعمة على إبراهيم ﷺ بأن خلصه الله من النار واتخذه خليلا والمراد من إتمام النعمة على إسحاق بأن خلصه الله من الذبح وهذا على قول من يقول إن إسحاق هو الذبيح وليس بشيء والقول الأول هو الأصح بأن إتمام النعمة عليهما بالنبوة لأنه لا أعظم من منصب النبوة فهو من أعظم النعم على العبد (إن ربك عليم) يعني بمصالح خلقه (حكيم) يعني أنه تعالى لا يفعل شيئا إلا بحكمة، وقيل أنه تعالى حكم بوضع النبوة في بيت إبراهيم ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بأبويه وإخوته أربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه. قوله عز وجل (لقد كان في يوسف وإخوته) يعني في خبره وخبر إخوته وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد يعقوب من سريتين إسم إحداهما زلفة والأخرى بلهة أربعة أولاد وأسماؤهم دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب وهم الأسباط، وعددهم اثنا عشر نفرا (آيات للسائلين) وذلك أن اليهود لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان إلى أرض مصر ذكر قصة يوسف مع إخوته فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والأحبار، ولم يأخذ عن أحد منهم شيئا فدل ذلك على أن ما أتى به وحي سماوي وعلم قدسي أوحاه الله إليه وشرفه به، ومعنى آيات للسائلين أي عبرة للمعتبرين فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد إخوته له وما آل إليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على إخوته وبلواه مثل إلقائه في الجب وبيعه عبدا وسجنه بعد ذلك وما آل إليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي إذا فكر فيها الإنسان اعتبر واتعظ (إذ قالوا) يعني إخوة يوسف (ليوسف) اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف (وأخوه) يعني بنيامين وهما من أم واحدة (أحب إلى أبينا منا

ونحن

وأخوه بنيامين من أم واحدة وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام وكان إخوته يرون منه من الميل إليه مالا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة (ونحن عصبة) أى جماعة وكانوا عشرة قال الفراء العصبة هى العشرة فما زاد وقيل العصبة مابين الواحد إلى العشرة وقيل مابين الثلاثة إلى العشرة وقال مجاهد مابين العشرة إلى خمسة عشر وقيل مابين العشرة إلى الأربعين وقيل جماعة يتعصب بعضها لبعض لا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط (إنا أبانا لفى ضلال مبين) أى خطأ بين فى إيثاره يوسف وأخاه علينا وليس المراد من هذا الضلال الضلال عن الدين ولو أرادوه لكفروا به بل المراد منه الخطأ فى تدبير أمر الدنيا يقولون نحن أنفع فى أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعى مواشيه من يوسف فنحن أولى بالمحبة منه فهو مخطئ فى صرف محبته إليه (اقتلوا يوسف) اختلفوا فى قائل هذا القول فقال وهب قاله شمعون وقال كعب قاله دان وقال مقاتل روبيل مبين اقتلوا بضم التنوين قرأها ابن كثير ونافع والكسائى . وقرأ الباقون مبين اقتلوا بكسر التنوين (أو اطرحوه أرضا) أى إلى أرض تبعد عن أبيه وقيل فى أرض تأكله السباع (يخل لكم) يخلص لكم ويصف لكم (وجه أبيكم)

عن شغله بيوسف (وتكونوا من بعده) من بعد قتل يوسف (قوما صالحين) تائبين أى توبوا بعد مافعلتم هذا يعف الله عنكم وقال مقاتل صالحين يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم (قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف) وهو يهوذا وقال قتادة روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فيه والأول أصح أنه يهوذا نهاهم عن قتله وقال القتل كبيرة عظيمة

ونحن عصبة) إنما قالوا هذه المقالة حسدا منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب إليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة قال الفراء العصبة هى العشرة فما زاد وقيل هى مابين الواحد إلى العشرة وقيل مابين الثلاثة إلى العشرة ، وقال مجاهد هى مابين العشرة إلى خمسة عشر وقيل إلى الأربعين وقيل الأصل فيه أن كل جماعة يتعصب بعضهم ببعض يسمون عصبة والعصبة لاواحد لها من لفظها كالرهط والنفر (إن أبانا لفى ضلال مبين) يعنى لفى خطأ بين فى إيثاره حب يوسف علينا مع صغره لانفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه وإصلاح أمر مواشيه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن أرادوا به الخطأ فى أمر الدنيا وما يصلحها يقولون نحن أنفع له من يوسف فهو مخطئ فى صرف محبته إليه لأنا أكبر منه سنا وأشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الأعظم وهو أن يعقوب عليه الصلاة والسلام مافضل يوسف وأخاه على سائر الإخوة إلا فى المحبة المحضة ومحبة القلب ليس فى وسع البشر دفعها ويحتمل أن يعقوب إنما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لأن أمه ماتت وهو صغير ولأنه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة مالم يره فى سائر إخوته فإن قلت الذى فعله إخوة يوسف بيوسف هو محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم إلى الضلال هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضا وكل ذلك قادح فى عصمة الأنبياء فما الجواب عنه . قلت هذه الأفعال إنما صدرت من إخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر فى عصمة الأنبياء هو وقت حصول النبوة لاقبلها وقيل كانوا وقت هذه الأفعال مراهقين غير بالغين ولا تكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الأفعال قادحة فى عصمة الأنبياء . قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) لما قوى الحسد وبلغ النهاية قال إخوة يوسف فيما بينهم لابد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لايحصل إلا بأحد طريقين إما القتل مرة واحدة أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بأن تفترسه الأسد والسباع أو يموت فى تلك الأرض البعيدة ثم ذكروا العلة فى ذلك وهى قوله يخل لكم وجه أبيكم والمعنى أنه قد شغله حب يوسف عنكم فاذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب بوجهه عليكم وصرف محبته إليكم (وتكونوا من بعده) يعنى من بعد قتل يوسف أو إبعاده عن أبيه (قوما صالحين) يعنى تائبين فتوبوا إلى الله يعف عنكم فتكونوا قوما صالحين وذلك أنهم لما علموا أن الذى عزموا عليه من الذنوب والكبائر قالوا نتوب إلى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين فى المستقبل وقال مقاتل معناه يصلح لكم أمركم فيما بينكم وبين أبيكم فإن قلت كيف يليق أن تصدر هذه الأفعال منهم وهم أنبياء . قلت : الجواب ماتقدم أنهم لم يكونوا أنبياء فى ذلك الوقت حتى تكون هذه الأفعال قادحة فى عصمة الأنبياء وإنما أقدموا على هذه الأفعال قبل النبوة وقيل إن الذى أشار بقتل يوسف كان أجنبيا شاوروه فى ذلك فأشار عليهم بقتله (قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف) يعنى قال قائل من إخوة يوسف وهو يهوذا وقال قتادة

(وألقوه فى غيابت الجب) قرأ أبو جعفر ونافع غيابات الجب على الجمع فى الحرفين وقرأ الباقون غيابت الجب على الواحد أى فى أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر عنك الشىء وغيبه والجب البئر غير المطوية لأنه جب أى قطع ولم يطو (يلتقطه) يأخذه والالتقاط أخذ الشىء من حيث لا يحتسبه الإنسان (بعض السيارة) أى بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحوا منه (إن كنتم فاعلين) أى إن عزمتم على فعلكم وهم كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء بعد وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم

قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وقالوا يأبانا استغفر لنا ذنوبنا والصغير لاذنب له وقال محمد بن إسحاق اشتمل فعلهم على جرائم من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذى لاذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله وقال بعض أهل العلم إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة لهم ولو فعلوا لهلكوا أجمعون وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله تعالى وسئل أبو عمرو ابن العلاء كيف قالوا نلعب وهم أنبياء قال كان ذلك قبل أن نبأهم الله تعالى فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضروب من الحيل (قالوا) ليعقوب (يأبانا مالك لا تأمنا على يوسف) قرأ أبو جعفر تأمنا بلا شمة وهو رواية عن نافع وقرأ الباقون تأمنا بشمام الضمة فى النون الأولى المدغمة وهو إشارة إلى الضمة من غير إدغام ليعلم أن أصله لاتأمننا بنونين غبر على تفعلنا فأدغمت النون الأولى فى الثانية بدءوا بالإنكار عليه فى ترك إرساله معهم كأنهم قالوا إنك لا ترسله معنا أتخافنا عليه (وإنا له لناصحون) قال مقاتل فى الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا لأبيهم أرسله معنا فقال أبوهم إنى ليحزننى أن تذهبوا به فحينئذ قالوا يأبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون النصح ها هنا هو القيام بالمصلحة وقيل البر والعطف معناه إنا عاطفون عليه قائمون بمصلحته نحفظه حتى نرده إليك (أرسله معنا غدا) إلى الصحراء (يرتع ويلعب) قرأ أبو عمرو

هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فيه فنهاهم عن قتله وقال القتل كبيرة عظيمة والأصح أن قائل هذه المقالة هو يهوذا لأنه كان أقربهم إليه سنا (وألقوه فى غيابت الجب) يعنى ألقوه فى أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيئا وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير مطوية سمى بذلك لأنه جب أى قطع ولم يطو وأفاد ذكر الغيابة مع ذكر الجب أن المشير أشار بطرحه فى موضع من الجب مظلم لا يراه أحد واختلفوا فى مكان ذلك الجب فقال قتادة هو بئر ببيت المقدس وقال وهب هو فى أرض الأردن وقال مقاتل هو فى أرض الأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وإنما عينوا ذلك الجب للعلة التى ذكروها وهى قولهم (يلتقطه بعض السيارة) وذلك أن هذا الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين والالتقاط أخذ الشىء من الطريق أو من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة بعض السيارة يعنى يأخذه بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحون منه (إن كنتم فاعلين) فيه إشارة إلى ترك الفعل فكأنه قال لا تفعلوا شيئا من ذلك وإن عزمتم على هذا الفعل فافعلوا هذا القدر إن كنتم فاعلين ذلك . قال البغوى كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء إلا بعده وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وقالوا يأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين والصغير لا ذنب له قال محمد بن إسحاق اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذى لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعا وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل (قالوا) يعنى قال إخوة يوسف ليعقوب (يأبانا مالك لا تأمنا على يوسف) بدءوا بالإنكار عليه فى ترك إرسال يوسف معهم كأنهم قالوا أتخافنا عليه إذا أرسلته معنا (وإنا له لناصحون) المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة وقيل البر والعطف والمعنى وإنا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته ونحفظه وقال مقاتل فى الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا لأبيهم أرسله معنا فقال يعقوب إنى ليحزننى أن تذهبوا به فحينئذ قالوا : مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ثم قالوا (أرسله معنا غدا) يعنى إلى الصحراء (يرتع) الرتع هو الاتساع فى الملاذ يقال رتع فلان فى ماله إذا أنفقه فى شهواته والأصل فى الرتع أكل البهائم فى الخصب زمن الربيع ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير (ويلعب) اللعب معروف وقال الراغب يقال لعب فلان إذا كان فعله

غير قاصد به مقصدا صحيحا سئل أبو عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم الأنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ويحتمل أن يكون المراد باللعب هنا الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر ومنه قوله ﷺ لجابر رضى الله عنه «هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك» وأيضا فان لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة والإقدام على الأقران والحرب بدليل قوله نستبق وإنما سموه لعبا لأنه فى صورة اللعب وقيل فى معنى نرتع ونلعب نتنعم ونأكل ونلهو وننشط (وإنا له لحافظون) يعنى نجتهد فى حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده إليك سالما (قال) يعنى قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية أنه لما طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام اعتذر يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين أحدهما أن ذهابهم به ومفارقته إياه يحزنه لأنه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة والثانى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) يعنى إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وذلك أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان رأى فى المنام أن ذئبا شد على يوسف عليه الصلاة والسلام فكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب فى أرضهم كثيرة (قالوا) يعنى قال إخوة يوسف مجيبين ليعقوب (لئن أكله الذئب ونحن عصبة) أى جماعة عشرة رجال (إنا إذا لخاسرون) يعنى عجزة ضعفاء وقيل أنهم خافوا أن يدعوا عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه إنا إذا لم نقدر على حفظ أخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن إذا خاسرون. قوله عز وجل (فلما ذهبوا به) فيه إضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب) يعنى وعزموا على أن يلقوه فى غيابة الجب.

ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه الصلاة والسلام

قال وهب وغيره من أهل السير والأخبار أن إخوة يوسف قالوا له أما تشتاق أن تخرج معنا إلى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له أتسأل أباك أن يرسلك معنا قال يوسف افعلوا فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا إلى مواشينا فقال يعقوب ما تقول يا بنى قال نعم يا أبت إنى أرى من إخوتى اللين واللطف فأحب أن تأذن لى وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له وأرسله معهم فلما خرجوا به من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر إليهم فلما بعدوا عنه وصاروا إلى الصحراء ألقوه على الأرض وأظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء إلى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادى يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكى بكاء شديدا فأخذه روبيل وجلد به الأرض ثم جثم على صدره وأراد قتله فقال له يوسف مهلا يا أخى لا تقتلنى فقال له يا ابن راحيل أنت صاحب الأحلام قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فى وحل بينى وبين من يريد قتلى فأدركته رحمة الأخوة ورق

وابن عامر بالنون فيهما وجزم العين فى نرتع وقرأ يعقوب نرتع بالنون ويلعب بالياء وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما وجزم العين فى يرتع يعنى يوسف وقرأ الآخرون نرتع بالنون ويلعب بالياء والرتع هو الاتساع فى الملاذ يقال رتع فلان فى ماله إذا أنفقه فى شهواته يريد ونتنعم ونأكل ونشرب ونلهو وننشط وقرأ أهل الحجاز يرتع بكسر العين وهو يفتعل من الرعى ثم ابن كثير قرأ بالنون فيهما أى نتحارس ويحفظ بعضنا بعضا وقرأ أبو جعفر ونافع بالياء إخبارا عن يوسف أى يرعى الماشية كما نرعى نحن (وإنا له لحافظون قال) لهم يعقوب (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) أى يحزننى ذهابكم به والحزن هاهنا ألم القلب بفراق المحبوب (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) وذلك أن يعقوب كان رأى فى المنام أن ذئبا شد على يوسف فكان يخاف من ذلك فمن ثم قال أخاف أن يأكله الذئب قرأ ابن كثير وإسماعيل وقالون عن نافع وعاصم وابن عامر الذئب بالهمزة وكذلك أبو عمرو إذا لم يدرج وحمزة إذا لم يقف وقرأ الكسائى وورش عن نافع وأبو عمرو فى الدرج وحمزة فى الوقف الذيب بترك الهمزة والوجه فى الهمز أنه هو الأصل لأنه من قولهم تذاءبت الريح إذا جاءت من كل وجه ويجمع الذئب أذؤبا وذئابا بالهمز والوجه فى ترك الهمز أن الهمزة خففت فقلبت ياء لسكونها وانكسار ما قبلها (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة) عشرة (إنا إذا لخاسرون) عجزة ضعفاء (فلما ذهبوا به وأجمعوا) أى عزموا (أن يجعلوه) يلقوه (فى غيابة الجب

فقال يهوذا يا إخوتى ماعلى هذا عاهدتمونى ألا أدلكم على ما هو أهون لكم وأرفق به فقالوا وما هو قال تلقونه فى هذا الجب إما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به إلى بئر هناك على غير الطريق واسع الأسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا على قميصى لأستتر به فى الجب فقالوا أدع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال إنى لم أر شيئا فألقوه فيها ثم قال لهم يا إخوتاه أتدعونى فيها فريدا وحيدا وقيل جعلوه فى دلو ثم أرسلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة كانت فى البئر فقام عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه وأخرج له صخرة من البئر فأجلسه عليها وقيل أنهم لما ألقوه فى الجب جعل يبكى فنادوه فظن أنها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل أن يعقوب لما بعثه مع أخوته أخرج له قميص إبراهيم الذى كساه الله إياه من الجنة حين ألقى فى النار فجعله يعقوب فى قصبة فضة وجعلها فى عنق يوسف فألبسه الملك إياه حين ألقى فى الجب فأضاء له الجب وقال الحسن لما ألقى يوسف فى الجب عذب ماؤه فكان يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فأنس به فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له إنك إذا خرجت استوحشت فقال له إذا رهبت شيئا فقل ياصريخ المستصرخين ويا غوث المستغيثين ويامفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفى عليك شىء من أمرى فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس فى الجب وقال محمد بن مسلم الطائفى لما ألقى يوسف فى الجب قال ياشاهدا غير غائب ويا قريباً غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لى فرجا مما أنا فيه فما بات فيه واختلفوا فى قدر عمر يوسف يوم ألقى فى الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن إثنتا عشرة سنة وقال ابن السائب سبع عشرة سنة وقيل ثمان عشرة سنة وقيل مكث فى الجب ثلاثة أيام وكان إخوته يرعون حوله وكان يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا) يعنى لتخبرن أخوتك قال أكثر المفسرين أن الله أوحى إليه وحيا حقيقة فبعث إليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره أنه سينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه هذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغا فى ذلك الوقت أو كان صبياً صغيراً فقال بعضهم إنه كان بالغا وكان عمره خمس عشرة سنة وقال آخرون بل كان صغيرا إلا أن الله عز وجل أكمل عقله ورشده وجعله صالحا لقبول الوحى والنبوة كما قال فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام. فان قلت كيف جعله نبيا فى ذلك الوقت ولم يكن أحد يبلغه رسالة ربه لأن فائدة النبوة والرسالة تبليغها إلى من أرسل إليه. قلت لايمتنع أن الله يشرفه بالوحى ويكرمه بالنبوة والرسالة فى ذلك الوقت وفائدة ذلك تطييب قلبه وإزالة الهم والغم والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة فى وقتها وقيل أن المراد من قوله وأوحينا إليه وحى إلهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل وأوحينا إلى أم موسى والقول الأول أولى وقوله تعالى (وهم لايشعرون) يعنى بايحائنا إليك وأنت فى البئر بأنك ستخبرهم

وأوحينا إليه) هذه الواو زائدة تقديره أوحينا إليه كقوله تعالى فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أى ناديناه (لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) أى أوحينا إلى يوسف عليه السلام لتصدقن رؤياك ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا وهم لايشعرون بوحى الله وإعلامه إياه ذلك قاله مجاهد وقيل معناه وهم لا يشعرون يوم تخبرهم أنك يوسف وذلك حين دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، وذكر وهب وغيره أنهم أخذوا يوسف عليه السلام بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه فلما برزوا إلى البرية ألقوه وجعلوا يضربونه فاذا ضربه واحد منهم استغاث بالآخر فضربه الآخر فجعل لا يرى منهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه، وهو يصيح يا أبتاه لو تعلم مايصنع بابنك بنو الإماء فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهوذا أليس قد أعطيتمونى موثقا أن لاتقتلوه فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه وكان ابن اثنتى عشرة سنة وقيل ثمانية عشرة سنة فجاءوا به إلى بئر على غير الطريق واسعة الأسفل ضيقة الرأس قال مقاتل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام قال كعب بين مدين ومصر وقال وهب بأرض الأردن وقال قتادة هى بئر ببيت المقدس فجعلوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا على القميص

بصنيعهم

أتوارى به فى الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تواريك قال إنى لم أر شيئا فألقوه فيها وقيل جعلوه فى دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت فكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فيها فقام عليها وقيل إنهم لما ألقوه فيها جعل يبكى فنادوه فظن أن رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه فمنعهم يهوذا وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقى فيها ثلاث ليال وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا (٢٦٩) والأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون قال ابن عباس رضى الله عنهما ثم إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف عليه السلام (وجاءوا أباهم عشاء يبكون) قال أهل المعانى جاءوا فى ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب وروى أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال ما لكم يا بنى هل أصابكم فى غنمكم شىء قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) أى نترامى وننتضل وقال السدى نشتد على أقدامنا (وتركنا يوسف عند متاعنا) أى عند ثيابنا وأقمشتنا (فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا (ولو كنا وإن كنا (صادقين) فإن قيل كيف قالوا ليعقوب أنت لا تصدق الصادق قيل معناه إنك تتهمنا فى هذا الأمر لأنك خفتنا عليه فى الابتداء واتهمتنا فى حقه وقيل معناه لا تصدقنا لأنه لا دليل لنا على صدقنا وإن كنا صادقين عند الله (وجاءوا على قميصه بدم كذب) أى بدم هو كذب لأنه لم يكن دم يوسف وقيل بدم مكذوب فيه فوضع المصدر موضع الاسم وفى القصة أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه فقال يعقوب عليه السلام كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم (قال بل سولت) زينت (لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) معناه فأمرى صبر جميل أو فعلى صبر جميل وقيل فصبر جميل

بصنيعهم هذا والفائدة فى إخفاء ذلك الوحى أنهم إذا عرفوه فربما ازداد حسدهم له وقيل أن الله تعالى أوحى إلى يوسف لتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بأنك أنت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره قوله تعالى (وجاءوا أباهم عشاء يبكون) قال المفسرون لما طرحوا يوسف فى الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليكونوا فى الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج إليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يا بنى هل أصابكم شىء فى غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) قال ابن عباس يعنى ننتضل وقال الزجاج يسابق بعضنا بعضا فى الرمى والأصل فى السبق الرمى بالسهم وهو التناضل أيضا وسمى المترامييان بذلك يقال تسابقا واستبقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أبعد سهما وقال السدى يعنى نشتد ونعدوا والمعنى نستبق على الأقدام ليتبين أينا أسرع عدوا وأخف حركة وقال مقاتل نتصيد والمعنى نستبق إلى الصيد (وتركنا يوسف عند متاعنا) يعنى عند ثيابنا (فأكله الذئب) يعنى فى حال استباقنا وغفلتنا عنه (وما أنت بمؤمن لنا) يعنى وما أنت بمصدق لنا (ولو كنا صادقين) يعنى فى قولنا والمعنى إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولا لشدة محبتك ليوسف فإنك تتهمنا فى قولنا هذا وقيل معناه إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا (وجاءوا على قميصه) يعنى قميص يوسف (بدم كذب) أى مكذوب فيه قال ابن عباس أنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاءوا أباهم وفى القصة أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه فقال يعقوب لهم كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم بذلك وقيل إنهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب أيها الذئب أنت أكلت ولدى وثمرة فؤادى فأنطقه الله عز وجل وقال والله ما أكلته ولا رأيت ولدك قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء فقال يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان فقال جئت لصلة الرحم وهى قرابة لى فأخذونى وأتوا بى إليك فأطلقه يعقوب ولما ذكر إخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) يعنى بل زينت لكم أنفسكم أمرا وأصل التسويل تقدير معنى فى النفس مع الطمع فى إتمامه وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء أى سهلت لكم أنفسكم أمرا عظيما ركبتموه من يوسف وهونتموه فى أنفسكم وأعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل رد لقولهم فأكله الذئب كأنه قال ليس الأمر كما تقولون أكله الذئب بل سولت لكم أنفسكم أمرا آخر غير ما تصفون (فصبر جميل) أى فشأنى صبر جميل وقيل

يختاره والصبر الجميل الذى لاشكوى فيه ولا جزع (والله المستعان على ماتصفون) أى أستعين بالله على الصبر على ماتكذبون وفى القصة أنهم جاءوا بذئب وقالوا هذا الذى أكله فقال له يعقوب ياذئب أنت أكلت ولدى وثمرة فؤادى فأنطقه الله عز وجل فقال تالله مارأيت وجه ابنك قط قال كيف وقعت بأرض كنعان قال جئت لصلة قرابة فصادنى هؤلاء فمكث يوسف فى البئر ثلاثة أيام (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا سيارة لأنهم يسيرون فى الأرض كانت رفقة من مدين تريد مصر فأخطأوا الطريق فنزلوا قريبا من الجب وكان الجب فى قفر بعيد من العمران للرعاة والمارة وكان ماؤه مالحا فعذب حين ألقى يوسف عليه السلام فيه فلما

نزلوا أرسلوا رجلا من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر لطلب الماء فذلك قوله عز وجل (فأرسلوا واردهم) والوارد الذى يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيء الأرشية والدلاء (فأدلى دلوه) أى أرسلها فى البئر يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها فى البئر ودلوتها إذا أخرجتها فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون قال النبى صلى الله عليه وسلم «أعطى يوسف شطر الحسن» ويقال إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن وقال ابن إسحاق ذهب يوسف وأمه بثلثى الحسن فلما رآه مالك بن ذعر (قال يابشراى) قرأ الأكثرون هكذا بالألف وفتح الياء والوجه أن بشراى مضافة إلى ياء المتكلم وهو منادى مضاف فموضعه نصب وقرأ الكوفيون يابشرى بغير ياء الإضافة على فعلى وأمال الراء حمزة والكسائى وفتحها عاصم والوجه فى إفرادها عن ياء المتكلم هو أن بشرى نكرة هاهنا فناداها كما تنادى النكرات نحو قولك ياراجلا ويارا كبا إذا جعلت النداء شائعا فيكون موضعه نصبا مع التنوين إلا أن فعلى لاسبيل إليها للتنوين ويجوز أن تكون بشرى منادى تعرف بالقصد نحو يارجل يريد نادى المستقى رجلا من أصحابه اسمه بشرى فتكون بشرى فى موضع رفع وقيل بشر المستقى أصحابه يقول أبشروا (هذا غلام) وروى ابن مجاهد عن أبيه أن جدران البئر كانت تبكى على يوسف حين أخرج منها (وأسروه) أى أخفوه (بضاعة) قال مجاهد أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين معهم، وقالوا هذا بضاعة استبضعها بعض أهل المال إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة وقيل أراد أن أخوة يوسف أسروا شأن يوسف

معناه فصبرى صبر جميل والصبر الجميل الذى لاشكوى فيه ولا جزع وقيل من الصبر أن لا لاتتحدث بمصيبتك ولا تزكين نفسك (والله المستعان على ماتصفون) يعنى من القول الكذب وقيل معناه والله المستعان على حمل ماتصفون. قوله عز وجل (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا سيارة لمسيرهم فى الأرض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطئوا الطريق فنزلوا قريبا من الجب الذى كان فيه يوسف وكان فى قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحا فلما ألقى يوسف فيه عذب فلما نزلوا أرسلوا رجلا من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر الخزاعى ليطلب لهم الماء فذلك قوله عز وجل (فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) قال والوارد هو الذى يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيء الأرشية والدلاء يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها فى البئر ودلوتها إذا أخرجتها قال فتعلق يوسف عليه الصلاة والسلام بالحبال وكان يوسف عليه السلام أحسن مايكون من الغلمان وذكر البغوى بسند متصل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «أعطى يوسف شطر الحسن» ويقال أنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن قال محمد ابن إسحاق ذهب يوسف وأمه بثلثى الحسن وحكى الثعلبى عن كعب الأحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان إذا تبسم رأيت النور من ضواحكه وإذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه الصلاة والسلام يوم خلقه الله وصورته قبل أن يصيب الخطيئة قالوا فلما خرج وسن ورآه مالك بن ذعر كأحسن مايكون من الغلمان قال يعنى الوارد وهو مالك بن ذعر (يابشراى) يعنى يقول الوارد لأصحابه أبشروا (هذا غلام) وقرىء يابشرى بغير إضافة ومعناه أن الوارد نادى رجلا من أصحابه اسمه بشرى كما تقول يازيد ويقال أن جدران البئر بكت على يوسف حين خرج منها (وأسروه بضاعة) قال مجاهد أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم وقالوا إنه بضاعة استبضعناه لبعض أهل المال إلى مصر وإنما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه وقيل أن إخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعنى أنهم أخفوا أمر يوسف وكونه أخاهم بل قالوا هو عبد لنا أبق وصدقهم يوسف على ذلك لأنهم توعدوه بالقتل سرا من مالك ابن ذعر وأصحابه والقول الأول أصح لأن مالك بن ذعر هو الذى أسره بضاعة وأصحابه

(والله عليم بما يعملون) يعنى من إرادة إهلاك يوسف فجعل ذلك سببا لنجاته وتحقيقة الرؤيا أن يصير ملك مصر بعد أن كان عبدا قال أصحاب الأخبار أن يهوذا كان يأتى يوسف بالطعام فأتاه فلم يجده فى الجب فأخبر إخوته بذلك فطلبوه فإذا هم بمالك بن ذعر وأصحابه نزولا قريبا من البئر فأتوهم فاذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبدنا أبق منا ويقال أنهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم إنهم باعوه منهم فذلك قوله تعالى (وشروه) أى باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشىء بمعنى بعته وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع لأن الضمير فى وشروه وفى وكانوا فيه من الزاهدين يرجع إلى شىء واحد وذلك أن إخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل إن الضمير فى وشروه يعود على مالك بن ذعر وأصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه (بثمن بخس) قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدى بخس أى حرام لأن ثمن الحر حرام ويسمى الحرام بخسا لأنه مبخوس البركة يعنى منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس بخس أى زيوف ناقصة العيار وقال قتادة بخس أى ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه إذا نقصه حقه وقال عكرمة والشعبى بخس أى قليل وعلى الأقوال كلها فالبخس فى اللغة هو نقص الشىء على سبيل الظلم والبخس والباخس الشىء الطفيف (دراهم معدودة) فيه أشارة إلى قلة تلك الدراهم لأنهم فى ذلك الزمان ما كانوا يزنون أقل من أربعين درهما إنما كانوا يأخذون مادونها عددا فاذا بلغت أربعين درهما وهى أوقية وزنوها واختلفوا فى عدد تلك الدراهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ أخوه من أمه وأبيه شيئا منها وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما فعلى هذا أخذ أخوه منها درهمين لأنهم كانوا أحد عشر أخا وقال عكرمة كانت أربعين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) يعنى وكان إخوة يوسف فى يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا إذا لم يكن له فيه رغبة والضمير فى قوله وكانوا فيه من الزاهدين إن قلنا إنه يرجع إلى إخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه أنهم حسدوه وأرادوا إبعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وإن قلنا أن قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع إلى معنى واحد وهو أن الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه إظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل. ويحتمل أن يقال: إن إخوته لما قالوا إنه عبدنا وقد أبق أظهر المشترى قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال أصحاب الأخبار ثم إن مالك بن ذعر وأصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان

وقالوا هذا عبد لنا أبق منا قال الله تعالى (والله عليم بما يعملون) فأتى يهوذا يوسف بالطعام فلم يجده فى البئر فأخبر بذلك إخوته فطلبوه فاذا هم بمالك وأصحابه نزول فأتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد آبق منا ويقال إنهم هددوا يوسف حتى لم يعرف حاله وقال مثل قولهم ثم باعوه فذلك قوله عز وجل (وشروه) أى باعوه (بثمن بخس) قال الضحاك ومقاتل والسدى حرام لأن ثمن الحر حرام وسمى الحرام بخسا لأنه مبخوس البركة وعن ابن عباس وابن مسعود بخس أى زيوف وقال عكرمة والشعبى بثمن قليل (دراهم) بدل من الثمن (معدودة) ذكر العدد عبارة عن قلتها وقيل إنما قال معدودة لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من أربعين درهما إنما كانوا يعدونها عدا فاذا بلغت أوقية وزنوها واختلفوا فى عدد تلك الدراهم فقال ابن عباس وابن مسعود وقتادة عشرون درهما فاقتسموها درهمين درهمين قال مجاهد اثنان وعشرون درهما وقال عكرمة أربعون درهما (وكانوا) يعنى إخوة يوسف (فيه) أي فى يوسف (من الزاهدين) لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله وقيل كانوا فى الثمن من الزاهدين لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف فتبعهم إخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق قال فذهبوا به حتى قدموا مصر وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس وقيل إطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر يسمى العزيز وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن شروان من العمالقة، وقيل إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتبع يوسف على دينه ثم مات ويوسف حى قال ابن عباس رضى الله عنهما لما دخلوا مصر تلقى قطفير مالك بن ذعر فابتاع منه يوسف بعشرين دينارا وزوج نعل وثوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس

ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل وهو ابن ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بن ذعر بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) واسمها راعيل ، وقيل زليخا (أكرمى مثواه) أى منزله ومقامه والمثوى موضع الإقامة وقيل أكرميه فى المطعم والملبس والمقام وقال قتادة وابن جريج منزلته (عسى أن ينفعنا) أى نبيعه بالربح إن أردنا البيع أو يكفينا إذا بلغ بعض أمورنا (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه قال ابن مسعود رضى الله عنه أفرس الناس ثلاثة العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا وابنة شعيب عليه السلام حيث قالت لأبيها فى موسى عليه السلام يا أبت استأجره وأبو بكر فى عمر رضى الله عنهما حيث استخلفه (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى فى أرض مصر أى كما أنقذنا يوسف من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكنا له فى الأرض فجعلناه على خزائنها (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى مكنا له فى الأرض لكى نعلمه من تأويل الأحاديث وهى عبارة عن الرؤيا (والله غالب على أمره) قيل الهاء فى أمره كناية عن الله تعالى يقول إن الله غالب على أمره يفعل مايشاء لايغلبه شىء ولا يرد حكمه راد ، وقيل هى راجعة إلى يوسف عليه السلام : معناه أن الله مستول على أمر يوسف بالتدبير والحياطة لايكله إلى أحد حتى يبلغه منتهى علمه فيه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ما الله به صانع (ولما بلغ أشده) منتهى الصابرين شبابه وشدته وقوته ومعرفته . قال مجاهد هم ثلاثا وثلاثين سنة وقال السدى ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة وقال الكلبى الأشد مابين ثمانية عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وسئل مالك رحمه الله عن الأشد قال هو الحلم (آتيناه حكما وعلما) فالحكم النبوة والعلم الفقه فى الدين وقيل حكما يعنى إصابة فى القول وعلما بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم أن العالم هو الذى يعلم الأشياء والحكيم الذى يعمل بما يوجبه العلم (وكذلك نجزى المحسنين)

ابن الوليد بن شروان وكان من العماليق وقيل إن هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف عليه الصلاة والسلام حى قال ابن عباس لما دخلوا مصر لقى قطفير مالك بن ذعر فاشترى يوسف منه بعشرين دينارا وزوج نعل وثوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة أو سبع عشر سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر) يعنى قطفير من أهل مصر (لامرأته) وكان اسمها راعيل وقيل زليخا (أكرمى مثواه) يعنى أكرمى منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الإقامة وقيل أكرميه فى المطعم والملبس والمقام (عسى أن ينفعنا) يعنى إن أردنا بيعه بعناه بربح أو يكفينا بعض أمورنا ومصالحنا إذا قوى وبلغ (أو نتخذه ولدا) يعنى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وابنة شعيب فى موسى حيث قالت لأبيها استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين وأبو بكر فى عمر حيث استخلفه بعده (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) يعنى كما مننا على يوسف بأن أنقذناه من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكناه فى الأرض يعنى أرض مصر فجعلناه على خزائنها (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى مكنا له فى الأرض لكى نعلمه من تأويل الأحاديث يعنى عبارة الرؤيا وتفسيرها (والله غالب على أمره) قيل الكناية فى أمره راجعة إلى الله تعالى ومعناه والله غالب على أمره يفعل مايشاء ويحكم مايريد لادافع لأمره ولاراد لقضائه ولايغلبه شىء وقيل هى راجعة إلى يوسف ومعناه أن الله مستول على أمر يوسف بالتدبير والإحاطة لايكله إلى أحد سواه حتى يبلغ منتهى ماعلمه فيه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) يعنى ماهو صانع بيوسف وما يريد منه (ولما بلغ أشده) يعنى منتهى شبابه وشدته وقوته وقال مجاهد ثلاثة وثلاثون سنة وقال الضحاك عشرون سنة وقال السدى ثلاثون سنة وقال الكلبى الأشد مابين ثمان عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وسئل مالك عن الأشد فقال هو الحلم (آتيناه حكما وعلما) يعنى آتينا يوسف بعد بلوغ الأشد نبوة وفقها فى الدين وقيل حكما يعنى إصابة فى القول وعلما بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم أن العالم هو الذى يعلم الأشياء بحقائقها والحكيم هو الذى يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها عما لاينبغى والعلم هو العلم النظرى (وكذلك) يعنى وكما أنعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك (نجزى المحسنين) قال ابن عباس يعنى المؤمنين وعنه أيضا المهتدين وقال الضحاك يعنى

قال ابن عباس رضى الله عنهما المؤمنين وعنه أيضا المهتدين وقال الضحاك الصابرين على النوائب كصبر يوسف عليه السلام (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) يعنى امرأة العزيز والمراودة طلب الفعل والمراد ههنا أنها دعته إلى نفسها ليواقعها (وغلقت الأبواب) أى أطبقتها وكانت سبعة (وقالت هيت لك) أى هلم وأقبل قرأ أهل الكوفة والبصرة هيت لك بفتح الهاء والتاء جميعا وقرأ أهل المدينة والشام هيت بكسر الهاء وفتح التاء وقرأ ابن كثير هيت بفتح الهاء وضم التاء والوجه أن فى هذه الكلمة ثلاث لغات هيت وهيت وهيت والكل بمعنى هلم وقرأ السلمى وقتادة هئت لك بكسر الهاء وضم التاء مهموزا على مثال جئت يعنى تهيأت لك وأنكره أبو عمرو والكسائى وقالا لم يحك هذا عن العرب والأول هو المعروف عند العرب قال ابن مسعود رضى الله عنه أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم هيت لك قال أبو عبيدة كان الكسائى يقول هى لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز معناها تعال وقال عكرمة هى أيضا بالحورانية هلم وقال مجاهد وغيره وهى لغة عربية وهى كلمة حث وإقبال على الشىء قال أبو عبيدة إن العرب لا تثنى هيت ولا تجمع ولا تؤنث وإنها صورة واحدة فى كل حال (قال) يوسف لها عند ذلك (معاذ الله) أى أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتنى اليه (إنه ربى) يريد أن زوجك قطفير سيدى (أحسن مثواى) أى أكرم منزلى هذا قول أكثر المفسرين وقيل الهاء راجعة إلى الله تعالى يريد أن الله تعالى ربى أحسن مثواى أى آوانى ومن بلاء الجب عافانى (إنه لا يفلح الظالمون) يعنى إن فعلت هذا فخنته فى أهله بعد ما أكرم مثواى فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون وقيل لا يفلح الظالمون أى لا يسعد الزناة (ولقد همت به وهم بها) والهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه فهمها عزمها على المعصية والزنا وأما همه فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن وعن مجاهد قال حل سراويله وجعل يعالج ثيابه وهذا قول أكثر المتقدمين مثل سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك جرى الشيطان فيما بينهما فضرب باحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما قال أبو عبيد القاسم بن سلام قد أنكر قوم هذا القول وقالوا هذا لا يليق بحال الأنبياء والقول ما قال متقدمو هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا فى الأنبياء من غير علم وقال السدى وابن إسحاق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتثر من جسدى قالت ما أحسن عينك قال هى أول ما تسيل على وجهى فى قبرى قالت ما أحسن وجهك قال هو للتراب يأكله وقيل إنها قالت إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتى قال إذن يذهب نصيبى من الجنة فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهى امرأة حسناء جميلة حتى لان لها مما يرى من كلفها به وهم بها ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيه بالبرهان الذى ذكره وزعم بعض المتأخرين أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام وقال تم الكلام عند قوله ولقد همت به ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال وهم بها لولا أن رأى برهان ربه على التقديم والتأخير

الصابرين على النوائب كما صبر يوسف (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) يعنى أن امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته إلى نفسها ليواقعها (وغلقت الأبواب) أى أطبقتها وكانت سبعة لأن مثل هذا الفعل لا يكون إلا فى ستر وخفية أو أنها أغلقتها لشدة خوفها (وقالت هيت لك) أى هلم وأقبل قال أبو عبيدة كان الكسائى يقول هى لغة لأهل حوران رفعت إلى الحجاز معناها تعال وقال عكرمة أيضا بالحورانية هلم وقال مجاهد وغيره هى لغة عربية وهى كلمة حث وإقبال على الشىء وقيل هى بالعبرانية وأصلها هيتالج أى تعال فعربت فقيل هيت لك فمن قال إنها بغير لغة العرب يقول إن العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم فى القسطاس ولغة العرب الفرس فى التنور ولغة العرب الترك فى الغساق ولغة العرب الحبشة فى ناشئة الليل وبالجملة فان العرب إذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وقرىء هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناها تهيأت لك (قال) يعنى يوسف (معاذ الله) أى أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه فيما دعوتنى إليه (إنه ربى) يعنى أن العزيز قطفير سيدى (أحسن مثواى) أى أكرم منزلتى فلا أخونه وقيل إن الهاء فى إنه ربى راجعة إلى الله تعالى والمعنى يقول إن الله ربى أحسن مثواى يعنى أنه آوانى ومن بلاء الجب نجانى (إنه لا يفلح الظالمون) يعنى إن فعلت هذا الفعل فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون وقيل معناه أنه لا يسعد الزناة.
قوله عز وجل (ولقد همت به وهم بها)

أى لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ولكنه رأى البرهان فلم يهم وأنكره النحاة وقالوا إن العرب لا تؤخر لولا عن الفعل فلا تقول لقد قمت لولا زيد وهو يريد لولا زيد لقمت وقيل همت بيوسف أن يفترشها وهم بها يوسف أى تمنى أن تكون له زوجة وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين أخذ عنهم الدين والعلم وقال بعضهم إن القدر الذى فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السلام وروى أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك حين خرج من السجن وأقرت المرأة قال يوسف ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها يا يوسف فقال يوسف

عند ذلك وما أبرىء نفسى الآية وقال الحسن البصرى إن الله تعالى لم يذكر ذنوب الأنبياء عليهم السلام فى القرآن ليعيرهم ولكن ذكرها ليبين موضع النعمة عليهم ولئلا ييأس أحد من رحمته وقيل إنه ابتلاهم بالذنوب ليتفرد بالطهارة والعزة ويلقاه جميع الخلق يوم القيامة على انكسار المعصية وقيل ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب فى رجاء الرحمة وترك الإياس من المغفرة والعفو وقال بعض أهل الحقائق الهم همان هم ثابت وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى مثل هم امرأة العزيز والعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به مالم يتكلم أو يعمل . أخبرنا أبو على حسان بن سعيد المنيعى أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمى ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن همام بن منبه قال حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة مالم يعملها فاذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فاذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها سيئة » قوله عز وجل (لولا أن رأى برهان ربه) اختلفوا فى ذلك البرهان قال قتادة وأكثر المفسرين أنه رأى صورة يعقوب وهو يقول له يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى الأنبياء وقال الحسن وسعيد بن جبير

لولا أن رأى برهان ربه) الآية هذه الآية الكريمة مما يجب الاعتناء بها والبحث عنها والكلام عليها فى مقامين الأول فى ذكر أقوال المفسرين فى هذه الآية قال المفسرون الهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه وقيل الهم مصدر هممت بالشىء إذا أردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير دخول فيه فمعنى قوله ولقد همت به أى أرادته وقصدته فكان همها به عزمها على المعصية والزنا وقال الزمخشرى هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن ضابىء البرجمى :

همت ولم أفعل وكدت وليتنى ... تركت على عثمان تبكى حلائله

وقوله ولقد همت به معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها أى وهم بمخالطتها لولا أن رأى برهان ربه جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها قال البغوى وأما همه بها فروى عن ابن عباس أنه قال حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن وقال مجاهد حل سراويله وجعل يعالج ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك جرى الشيطان بينهما فضرب بيده إلى جيد يوسف وبيده الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما قال أبو عبيدة القاسم بن سلام وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوى والقول ما قاله قدماء هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا فى الأنبياء من غير علم قال السدى وابن إسحاق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتثر عن جسدى قالت ما أحسن عينيك قال هى أول ما يسيل على خدى فى قبرى قالت ما أحسن وجهك قال هو للتراب يأكله وقيل إنها قالت له إن فراش الحرير مبسوط قم فاقض حاجتى قال إذن يذهب نصيبى من الجنة فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهى امرأة حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به فهم بها ثم إن الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذى ذكره وسيأتى الكلام على تفسير البرهان الذى رآه يوسف عليه الصلاة والسلام فهذا ما قاله المفسرون فى هذه الآية أما المقام الثانى فى تنزيه يوسف عليه الصلاة والسلام عن هذه الرذيلة وبيان عصمته من هذه الخطيئة التى ينسب إليها قال بعض المحققين الهم همان فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة فى القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به مالم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة

هذا

هذا ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى « إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فان عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له عشرة» لفظ مسلم وللبخارى بمعناه (ق) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عز وجل قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة وإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عليه سيئة واحدة» زاد فى رواية أو محاها «ولن يهلك على الله إلا هالك» قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء فعلى مذهب كثير من الفقهاء المحدثين إن هم النفس لايؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا معصية فى هم يوسف إذن وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فان الهم إذا وطنت عليه النفس كان سيئة وأما مالم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه هذا هو الحق فيكون إن شاء الله هم يوسف من هذا ويكون قوله وما أبرىء نفسى الآية أى ما أبرئها من هذا الهم أو يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكى قبل وبرىء فكيف وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة أن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وأن الكلام فيه تقديم وتأخير أى ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها وقال تعالى حاكيا عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وقال تعالى وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله الآية وقيل فى قوله وهم بها أى بزجرها ووعظها وقيل هم بها أى همه امتناعه وقيل هم بها أى نظر إليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم مازال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه الله فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه هذا آخر كلام القاضى عياض رحمه الله وأما الإمام فخر الدين فذكر فى هذا المقام كلاما طويلا مبسوطا وأنا أذكر بعضه ملخصا فأقول قال الإمام فخر الدين الرازى إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان بريئا من العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فان الدلائل قد دلت على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولايلتفت إلى مانقله بعض المفسرين عن الأئمة المتقدمين فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموها وأتبعوها باظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام فى قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقال فى حق داود عليه الصلاة والسلام فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فلم يحك عنه شيئا من ذلك فى هذه الواقعة لأنه لو صدر منه شىء لأتبعه بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة

ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضا على أصبعه وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدى نودى يا يوسف تواقعها إنما مثلك مالم تواقعها مثل الطير فى جوف السماء لا يطاق ومثلك إن تواقعها مثله إذا مات ووقع فى الأرض لايستطيع أن يدفع نفسه ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لا يطاق ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل فى أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه وعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله وهم بها قال حل سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته فاذا بكف قد بدت بينهما بلا معصم ولا عضد مكتوب عليها «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون» فقام هاربا وقامت فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فظهرت تلك الكف مكتوبا عليها «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا» فقام هاربا وقامت فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فظهر ورأى تلك الكف مكتوبا عليها «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» فقام هاربا وقامت فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فقال الله عز وجل لجبريل عليه السلام أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام عاضا على أصبعه يقول يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله فى الأنبياء وروى أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله وقال محمد بن كعب القرظى رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين هم بها فرأى كتابا فى حائط البيت «ولاتقربوا

لحكى الله ذلك عنه فى كتابه كما ذكر عن غيره من الأنبياء وحيث لم يحك عنه شيئا علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شىء كما نقله أصحاب الأخبار ويدل على ذلك أيضا أن كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام عما نسب إليه واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة اللاتى قطعن أيديهن والمولود الذى شهد على القميص شهدوا ببراءته والله تعالى شهد ببراءته من الذنب أيضا أما بيان أن يوسف ادعى براءته مما نسب إليه فقوله هى راودتنى عن نفسى وقوله رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وأما بيان أن المرأة اعترفت على نفسها واعترفت ببراءة يوسف ونزاهته فقولها أنا راودته عن نفسه فاستعصم وقولها الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وأما بيان أن زوج المرأة اعترف أيضا ببراءة يوسف فقوله إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين وأما شهادة المولود ببراءته فقوله وشهد شاهد من أهلها الآية وأما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين وبطل بهذا قول من قال إن الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فانه قول منكر لايجوز لأحد أن يقول ذلك وأما ماروى عن ابن عباس أنه جلس منها مجلس الخائن فحاش ابن عباس أن يقول مثل هذا عن يوسف عليه الصلاة والسلام ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الأخبار وضعوه عن ابن عباس وكذلك ماروى عن مجاهد وغيره أيضا فانه لايكاد يصح بسند صحيح وبطل ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وما صدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام . فان قلت فعلى هذا التقدير لايبقى لقوله عز وجل لولا أن رأى برهان ربه فائدة . قلت فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين أحدهما أنه تعالى أعلم يوسف أنه لو هم بدفعها لقتلته فأعلمه بالبرهان أن الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك الوجه الثانى أنه عليه الصلاة والسلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكان فى ذلك أن يتمزق ثوبه من قدام وكان فى علم الله أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن وإذا تمزق من خلف كانت هى الخائنة فأعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا فأثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه وأما تفسير البرهان على ماذكره المفسرون فى قوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه فقال قتادة وأكثر المفسرين أن يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يايوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على أصبعه وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل له يعقوب فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدى نودى يايوسف أتواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير فى جو السماء لايطاق عليه وإن مثلك إن واقعتها كمثله إذا وقع على الأرض لايستطيع أن يدفع عن نفسه شيئا ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لايطاق ومثلك إن واقعتها كمثله إذا مات ودخل النمل فى قرنه لايستطيع أن يدفع عن نفسه وقيل إنه رأى معصما بلا عضد عليه مكتوب «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون» فولى هاربا ثم رجع فعاد المعصم وعليه

الزنا إنه كان فاحشة وساءسبيلا» وروى عطية عن ابن عباس فى البرهان أنه رأى مثال الملك وقال جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما البرهان النبوة التى أودعها الله فى صدره حالت بينه وبين مايسخط الله عز وجل وعن على بن الحسين قال كان فى البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب فقال لها يوسف لم فعلت هذا فقالت استحييت منه أن يرانى على المعصية فقال يوسف أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه فأنا أحق أن أستحى من ربى وهرب قوله عز وجل «لولا أن رأى برهان ربه» جواب لولا محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لواقع المعصية

مكتوب

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) فالسوء الاثم وقيل السوء القبيح والفحشاء الزنا (إنه من عبادنا المخلصين) قرأ أهل المدينة والكوفة المخلصين بفتح اللام حيث كان إذا لم يكن بعده ذكر الدين زاد الكوفيون مخلصا فى سورة مريم عليها السلام ففتحوا ومعنى المخلصين المختارين للنبوة دليله إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وقرأ الآخرون بكسر اللام أى المخلصين لله الطاعة والعبادة (واستبقا الباب) وذلك أن يوسف لما رأى البرهان قام مبادرا إلى باب البيت هاربا وتبعته المرأة لتمسك الباب حتى لا يخرج يوسف فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته إليها حتى لا يخرج (وقدت قميصه) أى فشقته (من دبر) أى من خلف فلما خرجا لقيا العزيز وهو قوله(وألفيا سيدها لدى الباب) أى وجدا زوج المرأة قطفير عند الباب جالسا مع ابن عم لراعيل فلما رأته هابته و (قالت) سابقة بالقول لزوجها (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) يعنى الزنا ثم خافت عليه أن يقتله فقالت (إلا أن يسجن) أى يحبس (أو عذاب أليم) أى ضرب بالسياط فلما سمع يوسف مقالتها (قال هى راودتنى عن نفسى) يعنى طلبت منى الفاحشة فأبيت وفررت منها وقيل ما كان يريد يوسف أن يذكرها فلما قالت المرأة ما جزاء

مكتوب « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » فولى هاربا ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدى يوسف قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضا على أصبعه يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء وقيل إنه مسه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله قال محمد بن كعب القرظى رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فرأى كتابا فى حائط فيه « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » وفى رواية عن ابن عباس أنه رأى مثال ذلك الملك وعن على بن الحسين قال كان فى البيت صنم فقامت المرأة إليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا فقالت استحييت منه أن يرانى على معصية فقال لها يوسف أتستحيين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيئا فأنا أحق أن استحى من ربى فهرب فذلك قوله لولا أن رأى برهان ربه أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الأول قال جعفر بن محمد الصادق البرهان هو النبوة التى جعلها الله تعالى فى قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل الثانى البرهان حجة الله عز وجل على العبد فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب الثالث أن الله عز وجل طهر نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأخلاق الذميمة والأفعال الرذيلة وجبلهم على الأخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الأخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله (كذلك) يعنى كما أريناه البرهان كذلك (لنصرف عنه السوء) يعنى الإثم (والفحشاء) يعنى الزنا وقيل السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله (إنه) يعنى يوسف (من عبادنا المخلصين) قرىء بفتح اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرىء بكسر اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله عز وجل .

قوله تعالى (واستبقا الباب) وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأى البرهان قام هاربا مبادرا إلى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته إليها حتى لا يخرج فذلك قوله عز وجل (وقدت قميصه من دبر) يعنى شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت معه (وألفيا سيدها لدى الباب) يعنى فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالسا مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول (قالت) يعنى لزوجها (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) يعنى الفاحشة ثم خافت عليه أن يقتله وذلك لشدة حبها له فقالت (إلا أن يسجن) أى يحبس فى السجن ويمنع التصرف (أو عذاب أليم) يعنى الضرب بالسياط وإنما بدأت بذكر السجن دون العذاب لأن المحب لا يشتهى إيلام المحبوب وإنما أرادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها أراد أن يبرهن عن نفسه (قال) يعنى يوسف (هى راودتنى عن نفسى) يعنى طلبت منى الفحشاء فأبيت وفررت وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج إلى

من أراد بأهلك سوءا ذكره فقال هي راودتني عن نفسي (وشهد شاهد) وحكم حاكم (من أهلها) اختلفوا في ذلك الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا في المهد أنطقه الله عز وجل وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « تكلم في المهد أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام » وقيل كان ذلك الصبي ابن خال المرأة وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد لم يكن صبيا ولكنه كان رجلا حكيما ذا رأي وقال السدي هو ابن عم راعيل فحكم فقال (إن كان قميصه قد من قبل) أي من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى) قطفير (قميصه قد من دبر) عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام (قال) لها (إنه) أي إن هذا الصنيع (من كيدكن إن كيدكن عظيم) وقيل إن هذا من قول الشاهد ثم أقبل قطفير على يوسف فقال (يوسف) أي يا يوسف (أعرض عن هذا) أي عن هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع وقيل معناه لا تكترث به فقد بان عذرك وبراءتك ثم قال لامرأته (واستغفري لذنبك) تقديره أي توبي إلى الله (إنك كنت من الخاطئين) من المذنبين وقيل إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعيل وأراد بقوله واستغفري

إزالة هذه التهمة عن نفسه فقال هي راودتني عن نفسي (وشهد شاهد من أهلها) يعني وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا في ذلك الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا في المهد فأنطقه الله عز وجل وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم » ذكره البغوي بغير سند والذي جاء في الصحيحين « ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وابن المرأة » وقصتهم مخرجة في الصحيح قيل كان هذا الصبي شاهد يوسف ابن خال المرأة وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد لم يكن صبيا ولكنه كان رجلا حكيما ذا رأي وقال السدي هو ابن عم المرأة فحكم فقال (إن كان قميصه قد من قبل) أي من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر) أي من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) وإنما كان هذا الشاهد من أهل المرأة ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف عليه الصلاة والسلام مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدق يوسف عليه الصلاة والسلام ونفي التهمة عنه من وجوه منها أنه كان في الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لا يبسط يديه إلى سيدته ومنها أنهم شاهدوا يوسف يعدو هاربا منها والطالب لا يهرب ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت بأكمل الوجوه فكان إلحاق التهمة بها أولى ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة فلم يروا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذه الحالة فكان مجموع هذه العلامات دلالة على صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقه أيضا (فلما رأى قميصه قد من دبر) يعني فلما رأى قطفير زوج المرأة قميص يوسف عليه الصلاة والسلام قد من خلفه عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام (قال) يعني قال لها زوجها قطفير (إنه) يعني هذا الصنيع (من كيدكن) يعني من حيلكن ومكركن (إن كيدكن عظيم) فان قلت كيف وصف كيد النساء بالعظيم مع قوله تعالى وخلق الإنسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أعظم من مكر النساء . قلت أما كون الإنسان خلق ضعيفا فهو بالنسبة إلى خلق ما هو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والأرض والجبال ونحو ذلك وأما عظم كيد النساء ومكرهن في هذا الباب فهو أعظم من كيد جميع البشر لأن لهن من المكر والحيل والكيد في إتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب وقيل إن قوله إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم من قول الشاهد وذلك أنه لما ثبت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام قال هذه المقالة (يوسف) يعني يا يوسف (أعرض عن هذا) يعني اترك هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس وقيل معناه يا يوسف لا تكترث بهذا الأمر ولا تهتم به فقد بان عذرك وبراءتك ثم التفت إلى المرأة فقال لها (واستغفري لذنبك) يعني توبي إلى الله مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو بريء منها وقيل إن هذا من قول الشاهد يقول للمرأة سلي زوجك أن يصفح عنك ولا يعاقبك بسبب ذنبك (إنك كنت من الخاطئين) يعني من المذنبين حين خنت زوجك ورميت يوسف بالتهمة وهو بريء وإنما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليبا لجنس الرجال على النساء وقيل إنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل من يفعل هذا الفعل

لذنبك أى سلى زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك إنك كنت من الخاطئين من المذنبين حين راودت شابا عن نفسه وخنت زوجك فلما استعصم كذبت عليه وإنما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عمن يفعل ذلك تقديره من القوم الخاطئين كقوله تعالى وكانت من القانتين بيانه قوله تعالى «إنها كانت من قوم كافرين» قوله عزوجل (وقال نسوة فى المدينة) الآية يقول شاع أمر يوسف والمرأة فى المدينة مدينة مصر وقيل مدينة عين الشمس وتحدثت النساء بذلك وقلن وهن خمس نسوة امرأة حاجب الملك وامرأة صاحب الدواب وامرأة الخباز وامرأة الساقى وامرأة صاحب السجن قاله مقاتل وقيل هن نسوة من أشراف مصر (امرأة العزيز تراود فتاها) أى عبدها الكنعانى (عن نفسه) أى تطلب من عبدها الفاحشة (قد شغفها حبا) أى علقتها حبا قال الكلبى حجب

حبه قلبها حتى لا تعقل سواه وقيل أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها أى داخل قلبها قال السدى الشغاف جلدة رقيقة على القلب يقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب وقرأ الشعبى والأعرج شعفها بالعين غير المعجمة معناه ذهب الحب بها كل مذهب ومنه شعف الجبال وهو رءوسها (إنا لنراها فى ضلال مبين) أى خطأ ظاهر وقيل معناه أنها تركت ما يكون على أمثالها من العفاف والستر (فلما سمعت) راعيل (بمكرهن) بقولهن وحديثهن قاله قتادة والسدى وقال ابن إسحاق إنما قلن ذلك مكرا بها لتريهن يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله وقيل إنها أفشت إليهن سرها واستكتمتهن فأفشين ذلك فلذلك سماه مكرا (أرسلت إليهن) قال وهب اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة منهن هؤلاء اللاتى عيرنها (وأعتدت) أى أعدت (لهن متكأ) أى ما يتكأ عليه وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد متكأ أى طعاما سماه متكأ لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتكئون على الوسائد فسمى الطعام متكأ على الاستعارة يقال اتكأنا عند فلان أى طعمنا ويقال المتكأ ما اتكأت عليه لشراب أو لحديث أو لطعام ويقرأ فى الشواذ متكأ بسكون التاء واختلفوا فى معناه فقال ابن عباس هو الأترج وقد روى عن مجاهد مثله وقيل هو الأترج بالحبشية وقال الضحاك هو الزباورد وقال عكرمة هو كل شىء يقطع بالسكين وقال أبو زيد الأنصارى كل ما يحز بالسكين فهو عند العرب متك والمتك والبتك بالميم والباء القطع فزينت المأدبة بألوان الفواكه والأطعمة ووضعت

تقديره إنك كنت من القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين. قوله عز وجل (وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) يعنى وقال جماعة من النساء وكن خمسا وقيل كن أربعا وذلك لما شاع خبر يوسف والمرأة فى مدينة مصر وقيل هى مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صاحب سجنه وقيل نسوة من أشراف مصر امرأة العزيز يعنى زليخا تراود فتاها عن نفسه يعنى تراود عبدها الكنعانى عن نفسه لأنها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن (قد شغفها حبا) يعنى قد علقها حبا والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى أن حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل إن حبه قد أحاط بقلبها كاحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبى حجب حبه قلبها حتى لا تعقل شيئا سواه (إنا لنراها فى ضلال مبين) يعنى فى خطأ بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها (فلما سمعت بمكرهن) يعنى فلما سمعت زليخا بقولهن وما تحدثن به وإنما سمى قولهن ذلك مكرا لأنهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه وقيل إن امرأة العزيز أفشت إليهن سرها واستكتمتهن فأفشين ذلك عليها فلذلك سماه مكرا (أرسلت إليهن) يعنى أنها لما سمعت بأنهن يلمنها على محبتها ليوسف أرادت أن تقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مائدة يعنى صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتى عيرنها (وأعتدت لهن متكئا) يعنى ووضعت لهن نمارق ومسائد يتكئن عليها وقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد متكئا يعنى طعاما وإنما سمى الطعام متكئا لأن كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكىء عليها فسمى الطعام متكئا على الاستعارة ويقال اتكأنا عند فلان أى طعمنا عنده والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك جاء النهى عنه فى الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم «لا آكل متكئا» وقيل المتكأ الأترج وقيل هو كل شىء يقطع بالسكين أو يحزبها يقال إن المرأة زينت البيت بألوان الفواكه والأطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة

الوسائد ودعت النسوة (وآتت) أعطت (كل واحدة منهن سكينا) فكن يأكلن اللحم حزا بالسكين (وقالت) ليوسف
(اخرج عليهن) وذلك أنها كانت أجلسته فى مكان آخر فخرج عليهن يوسف قال عكرمة كان فضل

يوسف على سائر الناس فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأيت ليلة أسرى بى إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر» قال اسحق بن أبي فروة كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألأ وجهه على الجدران (فلما رأينه أكبرنه) أعظمنه قال أبو العالية هالهن أمره وبهتن وقيل أكبرنه أى حضن لأجله من جماله ولا يصح (وقطعن) أى حززن بالسكاكين التى معهن (أيديهن) وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما أحسسن إلا بالدم وقال قتادة أبن أيديهن حتى ألقينها والأصح أنه كان قطعا بلا إبانة وقال وهب ماتت جماعة منهن (وقلن حاش لله ما هذا بشرا) أى معاذ الله أن يكون هذا بشرا حاشا لله
باثبات الألف فى الحرفين قرأهما أبو عمرو فى الوصل على الأصل وقرأ الآخرون بحذف الألف فى الحرفين فتاها
لكثرة دورها على الألسن واتباع الكتاب وقوله ما هذا بشرا نصب بنزع حرف الصفة أى ببشر (إن هذا) أى ماهذا
(إلا ملك) من الملائكة (كريم) على الله (قالت) يعنى راعيل (فذلكن الذى لمتننى فيه) أى فى حبه ثم صرحت بما فعلت فقالت

اللاتى عيرنها بحب يوسف (وآتت كل واحدة منهن سكينا) يعنى وأعطت كل واحدة من النساء
سكينا لتأكل بها وكان من عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت اخرج
عليهن) يعنى وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن
يوسف وكانت قد زينته واختبأته فى مكان آخر (فلما رأينه) يعنى النسوة (أكبرنه) يعنى أعظمنه
ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد أعطى شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف على
الناس فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله
تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأيت ليلة أسرى بى إلى السماء يوسف كالقمر
ليلة البدر» ذكره البغوى بغير سند وقال إسحاق بن أبى فروة كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر
تلألأ وجهه على الجدران ويقال إنه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عز وجل قبل أن يخرج
من الجنة وقال أبو العالية هالهن أمره وبهتن إليه وفى رواية عن ابن عباس قال أكبرنه أى
حضن ونحوه عن مجاهد والضحاك قال حضن من الفرج وأنكر أكثر أهل اللغة هذا القول
قال الزجاج هذه اللفظة ليست معروفة فى اللغة والهاء فى أكبرنه تمنع من هذا لأنه لا يجوز
أن يقال النساء قد حضنه لأن حضن لا يتعدى إلى مفعول قال الأزهرى إن صحت هذه اللفظة
فلها مخرج وذلك أن المرأة إذا حاضت أول ما تحيض فقد خرجت من حد الصغار إلى حد
الكبار فيقال لها أكبرت أى حاضت على هذا المعنى فان صحت الرواية عن ابن عباس سلمنا
له وجعلنا الهاء فى قوله أكبرنه هاء الوقف لا هاء الكناية وقيل إن المرأة إذا خافت أو فزعت
فربما أسقطت ولدها وتحيض فان كان ثم حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من أمر يوسف
حين رأينه قال الإمام فخر الدين الرازى وعندى أنه يحتمل وجها آخر وهو أنهن إنما أكبرنه
لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والإخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة
ملكية وهى عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال
العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وأعظمنه ووقع
الرعب والمهابة فى قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه أولى (وقطعن أيديهن) يعنى وجعلن
يقطعن أيديهن بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج ولم يجدن الألم لدهشتهن
وشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما أحسسن إلا بالدم وقال قتادة أبن أيديهن حتى ألقينها
والأصح أنه كان قطعا من غير إبانة قال وهب ماتت جماعة منهن (وقلن) يعنى النسوة (حاش
لله ماهذا بشرا) أى معاذ الله أن يكون هذا بشرا (إن هذا إلا ملك كريم) يعنى على الله
والمقصود من هذا إثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف لأنه قد ركز فى النفوس أن لا شىء
أحسن من الملك فلذلك وصفنه بكونه ملكا وقيل لما كان الملك مطهرا من بواعث الشهوة وجميع
الآفات والحوادث التى تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك . قوله تعالى (قالت فذلكن الذى
لمتننى فيه) يعنى قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذى
لمتننى فى محبته وإنما قالت ذلك لإقامة عذرها عندهن حين قلن أن امرأة العزيز قد شغفها

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى امتنع وإنما صرحت به لأنها علمت أن لاملامة عليها منهن وقد أصابهن ما أصابها من رؤيته فقلن له أطع مولاتك فقالت راعيل (ولئن لم يفعل ما آمره) ولئن لم يطاوعنى فيما دعوته إليه (ليسجنن) أى ليعاقبن بالحبس (وليكونا من الصاغرين) من الأذلاء ونون التوكيد تثقل وتخفف والوقف على قوله ليسجنن بالنون لأنها مشددة وعلى قوله وليكونا بالألف لأنها مخففة وهى شبيهة نون الإعراب فى الأسماء كقولك رأيت رجلا وإذا وقفت قلت رأيت رجلا بالألف ومثله لنسفعا بالناصية فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعدته المرأة (قال رب) أى يا رب (السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) قيل كان الدعاء منها خاصة ولكنه أضافه إليهن خروجا من التصريح إلى التعريض ، وقيل إنهن جميعا دعونه إلى أنفسهن ، قرأ يعقوب وحده السجن بفتح السين ، وقرأ الآخرون بكسرها واتفقوا على كسر السين فى قوله دخل معه السجن وقيل لو لم يقل السجن أحب إلى لم يبتل بالسجن والأولى بالمرء أن يسأل الله العافية . قوله تعالى (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن) أمل إليهن وأتابعهن يقال صبا فلان إلى كذا يصبو صبوا وصبوا وصبوة إذا مال واشتاق إليه (وأكن من الجاهلين) فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنبا يرتكبه عن جهالة (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم) السميع لدعائه العليم بمكرهن (ثم بدا لهم) يعنى للعزيز وأصحابه فى الرأى وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض ثم بدا لهم أن يحبسوه (من بعد ما رأوا الآيات) الدالة على براءة يوسف من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن (ليسجننه حتى حين) إلى مدة يرون فيه رأيهم وقال عطاء إلى أن تنقطع

فتاها الكنعانى حبا وإنما قالت فذ لكن الذى الخ بعد ما قام من المجلس وذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته فى الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعانى تقول هو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن ثم لمتننى فيه ثم إن امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) يعنى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبته منه وإنما صرحت بذلك لأنها علمت أن لاملامة عليها منهن وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم إن امرأة العزيز قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) يعنى وإن لم يطاوعنى فيما دعوته إليه (ليسجنن) أى ليعاقبن بالسجن والحبس (وليكونا من الصاغرين) يعنى من الأذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك إليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك (قال رب) أى يارب (السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) قيل إن الدعاء كان منها خاصة وإنما أضافه إليهن جميعا خروجا من التصريح إلى التعريض وقيل إنهن جميعا دعونه إلى أنفسهن وقيل إنهن لما قلن له أطع مولاتك صحت إضافة الدعاء إليهن جميعا أو لأنه كان بحضرتهن قال بعضهم او لم يقل السجن أحب إلى لم يبتل بالسجن والأولى بالعبد أن يسأل الله العافية (وإلا تصرف عنى كيدهن) يعنى ما أردن منى (أصب إليهن) أى أمل إليهن يقال صبا فلان إلى كذا إذا مال إليه واشتاقه (وأكن من الجاهلين) يعنى من المذنبين وقيل معناه أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل ، وفيه دليل على أن من ارتكب ذنبا إنما يرتكبه عن جهالة (فاستجاب له ربه) يعنى فأجاب الله تعالى دعاء يوسف (فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع) يعنى لدعاء يوسف وغيره (العليم) يعنى بحاله وفى الآية دليل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما أظلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن إياه بما لايليق بحاله لجأ إلى الله وفزع إلى الدعاء رغبة إلى الله ليكشف عنه ما نزل به من ذلك الأمر مع الاعتراف بأنه إن لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على أنه لايقدر أحد عن الانصراف عن المعصية إلا بعصمة الله ولطفه به . قوله عز وجل (ثم بدا لهم) يعنى للعزيز وأصحابه فى الرأى وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الإعراض وكتم الحال وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن ذلك العبد العبرانى قد فضحنى عند الناس يخبرهم بأنى قد راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى فأخرج وأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فرأى حبسه (من بعد ما رأوا الآيات) يعنى الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته (ليسجننه) أى ليحبسن يوسف فى السجن (حتى حين) يعنى إلى مدة يرون رأيهم فيها وقال عطاء إلى أن تنقطع مقالة

مقالة الناس وقال عكرمة سبع سنين وقال الكلبي خمس سنين قال السدى وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم أنى راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى أن أخرج فأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فحبسه وذكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيرا ليوسف عليه السلام من همه بالمرأة قال ابن عباس عثر يوسف ثلاث عثرات حين هم بها فسجن وحين قال اذكرنى عند ربك فلبث فى السجن بضع سنين وحين قال للإخوة إنكم لسارقون فقالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل. قوله تعالى (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للريان بن الوليد بن شروان العمليق ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه غضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فضمنوا لهذين مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجاباهم ثم إن الساقى نكل عنه وقبل الخباز الرشوة فسم الطعام فلما أحضر الطعام والشراب قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فجرب ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت فأمر الملك بحبسهما وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إنى أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبرانى فتراءيا له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا قال ابن مسعود ما رأيا شيئا وإنما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رأيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما فقصا عليه (قال أحدهما) وهو صاحب الشراب (إنى أرانى أعصر خمرا) أى عنبا سمى العنب خمرا باسم ما يئول إليه كما يقال فلان يطبخ الآجر أى يطبخ اللبن للآجر وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك أنه قال إنى رأيت كأنى فى بستان فاذا أنا بأصل حبلة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر) وهو الخباز (إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك أنه قال إنى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز والألوان من الأطعمة وسباع الطير ينهشن وينهبن منه (نبئنا بتأويله) أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يئول إليه أمر هذه الرؤيا (إنا نراك من المحسنين) أى العالمين بعبارة الرؤيا والاحسان بمعنى العلم . وروى أن الضحاك بن مزاحم سئل عن قوله إنا نراك من المحسنين ما كان

الناس ، وقال عكرمة إلى سبع سنين ، وقال الكلبى خمس سنين فحبسه قال السدى جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد ابن شروان العمليق ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما ، وكان السبب فى ذلك أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يسما الملك فى طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك ثم إن الساقى ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فان الشراب مسموم فقال للساقى اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما فحبسا مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إنى أعبر الأحلام فقال أحد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام العبرانى فتراءيا له رؤيا فسألاه من غير أن يكونا قد رأيا شيئا قال ابن مسعود ما رأيا شيئا إنما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما فقصا عليه ما رأياه فذلك قوله تعالى (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (إنى أرانى أعصر خمرا) يعنى عنبا سمى العنب خمرا باسم ما يئول إليه يقال فلان يطبخ الآجر أى يطبخ اللبن حتى يصير آجرا وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك أنه قال إنى رأيت فى المنام كأنى فى بستان وإذا فيه أصل حبلة وعليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك فى يدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر) وهو صاحب طعام الملك (إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك أنه قال إنى رأيت فى المنام كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منها (نبئنا بتأويله) أى أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يئول إليه أمر هذه الرؤيا (إنا نراك من المحسنين) يعنى من العالمين

إحسانه قال كان إذا مرض إنسان فى السجن عاده وقام عليه وإذا ضاق عليه المجلس وسع له وإذا احتاج إلى شىء جمع له شيئا وكان مع هذا يجتهد فى العبادة ويقوم الليل كله للصلاة وقيل إنه لما دخل السجن وجد فيه قوما قد اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم وجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فيقولون بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى ؟ قال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم فقال له عامل السجن يافتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك فتمكن فى أى بيوت السجن حيث شئت . وروى أن الفتيين لما رأيا يوسف قالا له لقد أحببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما بالله أن لا تحبانى فوالله ما أحبنى أحد قط إلا دخل على من حبه بلاء لقد أحبتنى عمتى فدخل على بلاء ثم أحبنى أبى فألقيت فى الجب وأحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبر لهما ماسألاه لما علم فى ذلك من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما وأخذ فى غيره من إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد و (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه) قيل أراد به فى النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه فى نومكما (إلا نبأتكما بتاويله) فى اليقظة وقيل أراد به فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه وتطعمانه وتأكلانه إلا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذى يصل فيه إليكما (قبل أن يأتيكما) قبل أن يصل إليكما وأى طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم فهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام حيث قال «وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم» فقالا هذا من فعل العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما أنا بكاهن وإنما (ذلكما) العلم (مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله

العالمين بعبارة الرؤيا والإحسان هنا بمعنى العلم وسئل الضحاك ما كان إحسانه فقال كان إذا مرض إنسان فى الحبس عاده وقام عليه وإذا ضاق على أحد وسع عليه وإذا احتاج أحد جمع له شيئا وكان مع هذا يجتهد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة وقيل إنه لما دخل السجن وجد فيه قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول اصبروا وأبشروا فقالوا بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أين أنت قال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم فقال له صاحب السجن يافتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر أى بيوت السجن شئت وقيل إن الفتيين لما رأيا يوسف قالا إنا قد أحببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما بالله أن لاتحبانى فوالله ماأحبنى أحد قط إلادخل على من حبه بلاء لقد أحبتنى عمتى فدخل على من ذلك بلاء وأحبنى أبى فألقيت فى الجب وأحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسف أن يعبرها لهما حين سألاه لما علم مافى ذلك من المكروه لأحدهما وأعرض عن سؤالهما وأخذ فى غيره من إظهار المعجزة والنبوة والدعاء إلى التوحيد وقيل إنه عليه السلام أراد أن يبين لهما أن درجته فى العلم أعلى وأعظم مما اعتقدا فيه وذلك أنهما طلبا منه علم التعبير ولا شك أن هذا العلم مبنى على الظن والتخمين فأراد أن يعلمهما أنه يمكنه الإخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه وإذا قدر على الإخبار عن الغيوب كان أقدر على تعبير الرؤيا بطريق الأولى وقيل إنما عدل عن تعبير رؤياهما إلى إظهار المعجزة لأنه علم أن أحدهما سيصلب فأراد أن يدخله فى الإسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فأظهر له المعجزة لهذا السبب (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلانبأتكما بتأويله) قيل أراد به فى النوم يقول لايأتيكما طعام ترزقانه فى نومكما إلا أخبرتكما خبره فى اليقظة وقيل أراد به اليقظة يقول لايأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه يعنى تطعمانه وتأكلانه إلانبأتكما بتأويله يعنى أخبرتكما بقدره ولونه والوقت الذى يصل إليكما فيه (قبل أن يأتيكما) يعنى قبل أن يصل إليكما وأى طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم وهذا مثل معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا ليوسف عليه الصلاة والسلام هذا من علم العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم ؟ فقال ماأنا بكاهن ولاعراف وإنما ذلك إشارة إلى المعجزة والعلم الذى أخبرهما به (ذلكما مما علمنى ربى) يعنى أن هذا الذى أخبرتكما به وحى من الله أوحاه إلى وعلم علمنيه (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) فان قلت ظاهر قوله إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله أنه عليه الصلاة والسلام كان داخلا فى هذه الملة ثم تركها وليس الأمر كذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

من حين ولدوا وظهروا إلى الوجود هم على التوحيد فما معنى هذا الترك فى قوله تركت . قلت الجواب من وجهين : الأول أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء والالتفات إليه بالمرة وليس من شرطه أن يكون قد كان داخلا فيه ثم تركه ورجع عنه. الوجه الثانى وهو الأقرب أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد والإيمان الصحيح صح قوله إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله (وهم بالآخرة هم كافرون) فترك ملتهم وأعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم فى قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة إنكارهم للمعاد وقوله (واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب) لما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوة وأن آباءه كلهم كانوا أنبياء وقيل لما كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا فى الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة فى الآخرة أظهر يوسف عليه الصلاة والسلام أنه من أولادهم وأنه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم إليه من التوحيد (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) معناه أن الله سبحانه وتعالى لما اختارنا لنبوته واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك فما كان ينبغى لنا أن نشرك به مع جميع هذه الاختصاصات التى اختصنابها قال الواحدى لفظة من فى قوله من شيء زائدة مؤكدة كقولك ماجاءنى من أحد وقال صاحب الكشاف ما كان لنا ماصح لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله من شيء أى شيء كان من ملك أوجنى أو إنسى فضلا أن نشرك به صنما لايسمع ولا يبصر (ذلك من فضل الله) يعنى ذلك التوحيد وعدم الإشراك والعلم الذى رزقنا من فضل الله (علينا وعلى الناس) يعنى بما نصب لهم من الأدلة الدالة على وحدانيته وبين لهم طريق الهداية إليه فكل ذلك من فضل الله على عباده (ولكن أكثر الناس لايشكرون) يعنى أن أكثرهم لايشكرون الله على هذه النعم التى أنعم بها عليهم لأنهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما إلى الإسلام فقال (يا صاحبى السجن) يريد ياصاحبى فى السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول ياسارق الليلة لأن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ويجوز أن يريد ياساكنى السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة (أأرباب متفرقون) يعنى آلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ومتوسط متباينون فى الصفة وهى مع ذلك لاتضر ولاتنفع (خير أم الله الواحد القهار) يعنى أن هذه الأصنام أعظم صفة فى المدح واستحقاق اسم الإلهية والعبادة أم الله الواحد القهار قال الخطابى الواحد هو الفرد الذى لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدوم الشريك والنظير وليس هو كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة لأن ذلك قد يكثر بانضمام بعضها إلى بعض والواحد ليس كذلك فهو الله الواحد الذى لامثل له ولا يشبهه شيء من خلقه القهار قال الخطابى القهار هو الذى قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت وقال غيره القهار هو الذى قهر كل شيء وذلله فاستسلم وانقاد وذل له، والمعنى أن هذه الأصنام التى تعبدونها ذليلة مقهورة إذا أراد الإنسان كسرها وإهانتها قدر عليه والله هو الواحد فى ملكه القهار لعباده الذى لايغلبه شيء وهو الغالب لكل شيء سبحانه وتعالى ثم بين عجز الأصنام وأنها لاشيء البتة فقال (ماتعبدون من دونه) يعنى من دون الله وإنما قال تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لأنه أراد جميع من فى السجن

وهم بالآخرة هم كافرون) وتكرارهم على التأكيد (واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب) أظهر أنه من أولاد الأنبياء (ما كان لنا) ماينبغى لنا (أن نشرك بالله من شيء) معناه أن الله قد عصمنا من الشرك (ذلك) التوحيد والعلم (من فضل الله علينا وعلى الناس) ما بين لهم من الهدى (ولكن أكثر الناس لايشكرون) ثم دعاهما إلى الإسلام فقال (ياصاحبى السجن) جعلهما صاحبى السجن لكونهما فيه كما يقال لسكان الجنة أصحاب الجنة ولسكان النار أصحاب النار (أأرباب متفرقون) أى آلهة شتى هذا من ذهب وهذا من فضة وهذا من حديد وهذا أعلى وهذا أوسط وهذا أدنى متباينون لاتضر ولا تنفع (خير أم الله الواحد القهار) الذى لاثانى له القهار الغالب على الكل ثم بين عجز الأصنام فقال (ماتعبدون من دونه) أى من دون الله وإنما ذكر بلفظ الجمع

من المشركين (إلا أسماء سميتموها) يعنى سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها (أنتم وآباؤكم يعنى من قبلكم سموها آلهة (ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى أن تسمية الأصنام آلهة لا حجة لكم بها ولا برهان ولا أمر الله بها وذلك أنهم كانوا يقولون إن الله أمرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله « ما أنزل الله بها من سلطان » (إن الحكم إلا لله) يعنى أن الحكم والقضاء والأمر والنهى لله تعالى لا شريك له فى ذلك (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) لأنه هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التى سميتموها آلهة (ذلك الدين القيم) يعنى عبادة الله هى الدين المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك . ولما فرغ يوسف عليه الصلاة والسلام من الدعاء إلى الله وعبادته رجع إلى تعبير رؤياهما فقال (ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا) يعنى أن صاحب شراب الملك يرجع إلى منزلته ويسقى الملك خمرا كما كان يسقيه أولا والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعو به الملك ويرده إلى منزلته التى كان عليها (وأما الآخر فيصلب) يعنى صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة أيام ثم يدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) قال ابن مسعود رضى الله عنه فلما سمعا قول يوسف عليه الصلاة والسلام قالا ما رأينا شيئا إنما كنا نلعب قال يوسف (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) يعنى فرغ من الأمر الذى سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما بالذى أخبرتكما به رأيتما شيئا أم لم تريا (وقال) يعنى يوسف (للذى ظن) يعنى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم (أنه ناج منهما) يعنى ساقى الملك (اذكرنى عند ربك) يعنى سيدك وهو الملك الأكبر فقل له إن فى السجن غلاما محبوسا مظلوما طال حبسه (فأنساه الشيطان ذكر ربه) فى هاء الكناية فى فأنساه إلى من تعود قولان : أحدهما أنها ترجع إلى الساقى وهو قول عامة المفسرين والمعنى فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك قالوا لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقى حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف . والقول الثانى وهو قول أكثر المفسرين أن هاء الكناية ترجع إلى يوسف ، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه عز وجل حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله فى دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق فى دفع الضرر جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب وهى منصب النبوة والرسالة لاجرم صار يوسف مؤاخذا بهذا القدر فان حسنات الأبرار سيئات المقربين . فان قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه . قلت بشغل الخاطر وإلقاء الوسوسة فانه قد صح فى الحديث « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » فأما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه . وقوله سبحانه وتعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) . اختلفوا فى قدر البضع فقال مجاهد هو ما بين الثلاث إلى السبع وقال قتادة هو ما بين الثلاث إلى التسع وقال ابن عباس هو مادون العشرة وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين

وقد ابتدأ بالخطاب للاثنين لأنه أراد جميع أهل السجن وكل من هو على مثل حالهما من الشرك (إلا أسماء سميتموها) آلهة وأربابا خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء (أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) حجة وبرهان بهذه (إن الحكم) ما القضاء والأمر والنهى (إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) أى المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم فسر رؤياهما فقال (ياصاحبى السجن أما أحدكما) وهو صاحب الشراب (فيسقى ربه) يعنى الملك (خمرا) والعناقيد الثلاثة ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة أيام ويرده إلى منزلته التى كان عليها (وأما الآخر) يعنى صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام والسلال الثلاث ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يخرجه فيأمر به (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) قال ابن مسعود لما سمعا قول يوسف قالا مارأينا شيئا إنما كنا نلعب قال يوسف (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى فرغ من الأمر الذى عنه تسألان ووجب حكم الله عليكما بالذى أخبرتكما به رأيتما أو لم تريا (وقال) يعنى يوسف عند ذلك (للذى ظن) علم (أنه ناج منهما) وهو الساقى (اذكرنى عند ربك) يعنى سيدك الملك وقل له إن فى السجن غلاما محبوسا ظلما طال حبسه (فأنساه الشيطان ذكر ربه) قيل أنسى الشيطان الساقى ذكر يوسف للملك تقديره فأنساه الشيطان ذكره لربه وقال ابن عباس وعليه الأكثرون أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه حين ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان (فلبث) فمكث (فى السجن بضع سنين) . واختلفوا

فى معنى البضع فقال مجاهد مابين الثلاث إلى السبع وقال قتادة ما بين الثلاث إلى التسع وقال ابن عباس ما دون العشرة وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين وعذب بختنصر فحول فى السباع سبع سنين قال مالك ابن دينار لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يارب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة ولن أعود . وقال الحسن دخل جبريل على يوسف فى السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يا أخا المنذرين مالى أراك بين الخاطئين فقال له جبريل ياطاهر ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحييت منى أن استشفعت بالآدميين فوعزتي وجلالى لألبثنك فى السجن بضع سنين فقال يوسف وهو فى ذلك عنى راض قال نعم قال إذن لا أبالى وقال كعب قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول من خلقك قال الله عز وجل قال فمن حببك إلى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استشفعت بآدمى مثلك فلما انقضت سبع سنين قال الكلبى وهذا السبع سوى الخمسة التى كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من البحر ثم خرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان فدخلن فى بطونهن فلم ير منهن شيئا ولم يتبين على العجاف منها شىء ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبق من خضرتها شىء فجمع السحرة والكهنة والحادة والمعبرين وقص عليهم رؤياه فذلك قوله تعالى (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) فقال لهم (يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام) أخلاط أحلام مشتبهة

وكان يوسف قد لبث قبلها فى السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين. وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يايوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يارب أنسى قلبى ذكرك كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبى ﷺ «رحم الله يوسف لولا كلمته التى قالها مالبث فى السجن مالبث» يعنى قوله اذكرنى عند ربك ثم بكى الحسن وقال نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس ذكره الثعلبى مرسلا وبغير سند وقيل إن جبريل دخل على يوسف فى السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يوسف ياأخا المنذرين مالى أراك بين الخاطئين فقال له جبريل ياطاهر بن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك ما استحييت منى أن استغثت بالآدميين فوعزتى وجلالى لألبثنك فى السجن بضع سنين قال يوسف وهو فى ذلك عنى راض قال نعم قال إذن لا أبالى وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله عز وجل لك من خلقك قال الله قال فمن رزقك قال الله قال فمن حببك إلى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمى مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبى وهذه السبع سوى الخمس سنين التى كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله عز وجل إخراجه من السجن رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك أنه رأى فى منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن فى بطونهن ولم ير منهن شىء ولم يتبين على العجاف منها شىء ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شىء فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التى رآها فذلك قوله تعالى (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى) يعنى يا أيها الأشراف أخبرونى بتأويل رؤياى (إن كنتم للرؤيا تعبرون) يعنى إن كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمي هذا العلم تعبيرا لأن المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها وهذا أخص من التأويل لأن التأويل يقال فيه وفى غيره (قالوا) يعنى قال جماعة الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك (أضغاث أحلام) يعنى أخلاط

أهاويل واحدها ضغث وأصله الحزمة من أنواع الحشيش والأحلام جمع الحلم وهو الرؤيا والفعل منه حلمت أحلم بفتح اللام فى الماضى وضمها فى الغابر حلما وحلما مثقلا ومخففا (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين وقال الذى نجا) من القتل (منهما) من الفتيين وهو الساقى (وادكر) أى تذكر قول يوسف اذكرنى عند ربك (بعد أمة) أى بعد حين وهو سبع سنين (أنا أنبئكم بتأويله) وذلك أن الغلام جثا بين يدى الملك وقال إن فى السجن رجلا يعبر الرؤيا (فأرسلون) وفيه اختصار تقديره فأرسلنى أيها الملك إليه فأرسله فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن السجن فى المدينة فقال (يوسف) يعنى يا يوسف (أيها الصديق) والصديق الكثير الصدق (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) فان الملك رأى هذه الرؤيا (لعلى أرجع إلى الناس) أهل مصر (لعلهم يعلمون) تأويل الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك فى العلم فقال لهم يوسف معبراً ومعلماً أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخاصيب والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات فالسنون المجدبة فذلك قوله تعالى إخبارا عن يوسف (قال تزرعون سبع سنين دأبا) هذا خبر بمعنى الأمر يعنى ازرعوا سبع سنين على عادتكم فى الزراعة والدأب العادة وقيل بجد واجتهاد وقرأ عاصم برواية حفص دأبا بفتح الهمزة وهما لغتان يقال دأبت فى الأمر أدأب دأباً ودأبا إذا اجتهد فيه (فما حصدتم فذروه فى سنبله) أمرهم بترك الحنطة فى السنبلة لتكون أبقى على الزمان ولا تفسد (إلا قليلا مما تأكلون) أى تدرسون قليلا للأكل أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة (ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد) سمى السنين المجدبة شدادا لشدتها على الناس (يأكلن) أى يفنين ويهلكن (ما قدمتم لهن) أى يؤكل فيهن ما أعددتم لهن من الطعام أضاف

مشتبهة واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش والأحلام جمع حلم وهو الرؤيا التى يراها الإنسان فى منامه (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) لما جعل الله هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن وذلك أن الملك لما رآها قلق واضطرب وذلك لأنه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوى الكامل حتى قهره وغلبه فأراد أن يعرف تأويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى فى منامه وسألهم عن تأويلها فأعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن فذلك قوله تعالى (وقال الذى نجا منهما) يعنى وقال الساقى الذى نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز (وادكر بعد أمة) يعنى أنه تذكر قول يوسف اذكرنى عند ربك بعد أمة يعنى بعد حين وهو سبع سنين وسمى الحين من الزمان أمة لأنه جماعة الأيام والأمة الجماعة (أنا أنبئكم) يعنى أخبركم (بتأويله) وقوله أنا أنبئكم بلفظ الجمع إما أنه أراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين أو أراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك أن الفتى الساقى جثا بين يدى الملك وقال إن فى السجن رجلا عالما يعبر الرؤيا (فأرسلون) فيه اختصار تقديره فأرسلنى أيها الملك فأرسله فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن السجن فى المدينة (يوسف) أى يا يوسف (أيها الصديق) إنما سماه صديقا لأنه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذى لم يكذب قط وقيل سماه صديقا لأنه صدق فى تعبير رؤياه التى رآها فى السجن (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) فإن الملك رأى هذه الرؤيا (لعلى أرجع إلى الناس) يعنى أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى الملك وجماعته (لعلهم يعلمون) يعنى بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك فى العلم (قال) يعنى يوسف معبرا لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى (تزرعون) وهذا خبر بمعنى الأمر أى ازرعوا (سبع سنين دأبا) يعنى عادتكم فى الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد (فما حصدتم فذروه فى سنبله) إنما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة فى سنبله لئلا يفسد ويقع فيه السوس وذلك أبقى له على طول الزمان (إلا قليلا مما تأكلون) يعنى ادرسوا قليلا من الحنطة للأكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله (ثم يأتى من بعد ذلك) يعنى من بعد السنين المخصبة (سبع شداد) يعنى سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس (يأكلن) يعنى يفنين (ما قدمتم لهن) يعنى

الأكل إلى السنين على طريق التوسع (إلا قليلا مما تحصنون) تحرزون وتدخرون للبذر (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) أي يمطرون من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من قول العرب استغثت فلانا فأغاثني (وفيه يعصرون) قرأ حمزة والكسائي تعصرون بالتاء لأن الكلام كله على الخطاب وقرأ الآخرون بالياء ردا إلى الناس ومعناه يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتا والسمسم دهنا وأراد به كثرة النعم والخير وقال أبو عبيدة يعصرون أي ينجون من الكروب والجدب والعصرة المنجا والملجأ (وقال الملك ائتوني به) وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه وعرف الملك أن الذي قاله كائن قال ائتوني به (فلما جاءه الرسول) وقال له أجب الملك أبى أن يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته ثم (قال) للرسول (ارجع إلى ربك) يعني سيدك الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبا واحتراما قال النبي صلى الله عليه وسلم «لو لبثت في السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعي» (إن ربي بكيدهن عليم) أي إن الله بصنيعهن عالم وإنما أراد يوسف بذكرهن بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة والخيانة ويصير إليه بعد زوال الشك عن أمره فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة وامرأة العزيز (قال) لهن (ما خطبكن) ما شأنكن وأمركن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) خاطبهن والمراد امرأة العزيز وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن جميعا (قلن حاش لله) معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) خيانة (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) ظهر وتبين وقيل إن النسوة أقبلن على

يؤكل فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من الطعام وإنما أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع في الكلام (إلا قليلا مما تحصنون) يعني تحرزون وتدخرون للبذر، والإحصان الإحراز وهو إبقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتي من بعد ذلك) يعني من بعد هذه السنين المجدبة (عام فيه يغاث الناس) أي يمطرون من الغيث الذي هو المطر وقيل هو من قولهم استغثت بفلان فأغاثني من الغوث (وفيه يعصرون) يعني يعصرون العنب خمرا والزيتون زيتا والسمسم دهنا أراد به كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار، وقيل يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة والجدب . قوله عز وجل (وقال الملك ائتوني به) وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بفتيا يوسف وما عبر به رؤياه استحسنه الملك وعرف أن الذي قاله كائن لا محالة فقال ائتوني به حتى أبصر هذا الرجل الذي قد عبر رؤياي بهذه العبارة فرجع الساقي إلى يوسف وقال له أجب الملك فذلك قوله تعالى (فلما جاءه الرسول) فأبى أن يخرج معه حتى تظهر براءته للملك ولا يراه بعين النقص (قال) يعني قال يوسف للرسول (ارجع إلى ربك) يعني إلى سيدك وهو الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبا واحتراما لها (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي» أخرجه الترمذي وزاد فيه « ثم قرأ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعي رسول الملك الذي جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادرا إلى الراحة ومفارقة ما هو فيه من الضيق والسجن الطويل فلبث في السجن وراسل الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على يوسف عليه الصلاة والسلام وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء وقوله (إن ربي بكيدهن عليم) يعني أن الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن في هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف إلى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن و (قال) لهن (ما خطبكن) أي شأنكن وأمركن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) إنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب (قلن) يعني النسوة جميعا مجيبات للملك (حاش لله) يعني معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) يعني من خيانة في شيء من الأشياء (قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق) يعني ظهر وتبين وقيل إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فعزرنها وقيل خافت

أن

أن يشهدن عليها فأقرت فقالت (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) يعنى فى قوله هى راودتنى عن نفسى. واختلفوا فى قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) على قولين: أحدهما أنه من قول المرأة ووجه هذا القول أن هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المرأة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ثم قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى حال غيبته وهو فى السجن ولم أكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وإن كنت قد قلت فيه ما قلت فى حضرته، ثم بالغت فى تأكيد هذا القول فقالت (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) يعنى أنى لما أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أنى افتضحت لأن الله لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين. والقول الثانى أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الأكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول أنه لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه فعلى هذا يكون معنى الآية أنه لما بلغ يوسف قول المرأة أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين قال يوسف ذلك أى الذى فعلت من ردى رسول الملك إليه ليعلم يعنى العزيز أنى لم أخنه فى زوجته بالغيب يعنى فى حال غيبته، فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لأنه ذكر كلام إنسان ثم أتبعه بكلام إنسان آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى «يريد أن يخرجكم من أرضكم» هذا من قول الملأ، فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى «وجعلوا أعزة أهلها أذلة» هذا من قول بلقيس «وكذلك يفعلون» من قوله عز وجل تصديقا لها وعلى هذا القول اختلفوا أين كان يوسف حين قال هذه المقالة على قولين أحدهما أنه كان فى السجن وذلك أنه لما رجع إليه رسول الملك وهو فى السجن وأخبره بجواب امرأة العزيز للملك قال حينئذ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وهذه رواية أبى صالح عن ابن عباس وبه قال ابن جريج. والقول الثانى أنه قال هذه المقالة عند حضوره عند الملك وهذه رواية عطاء عن ابن عباس فإن قلت فعلى هذا القول كيف خاطبهم بلفظة ذلك وهى إشارة للغائب مع حضوره عندهم. قلت قال ابن الأنبارى قال اللغويون هذا وذلك يصلحان فى هذا الموضع لقرب الخبر من أصحابه فصار كالمشاهد الذى يشار إليه بهذا وقيل ذلك إشارة إلى ما فعله يقول ذلك الذى فعلته من ردى الرسول ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى لم أخن العزيز فى حال غيبته، ثم ختم هذا الكلام بقوله وأن الله لا يهدى كيد الخائنين يعنى أنى لو كنت خائنا لما خلصنى الله من هذه الورطة التى وقعت فيها لأن الله لا يهدى أى لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين واختلفوا فى قوله (وما أبرئ نفسى) من قول من؟ على قولين أيضا: أحدهما أنه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال إن قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما أبرئ نفسى من مراودتى يوسف عن نفسه وكذبى عليه. والقول الثانى وهو الأصح وعليه أكثر المفسرين أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسى وهذه رواية عن ابن عباس أيضا وهو قول الأكثرين وقال الحسن إن يوسف لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب خاف أن يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرئ نفسى لأن الله تعالى قال فلا تزكوا أنفسكم، ففى قوله وما أبرئ نفسى هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عز وجل

امرأة العزيز فقررتها فأقرت وقيل خافت أن يشهدن عليها فأقرت وقالت (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) فى قوله هى راودتنى عن نفسى. فلما سمع ذلك يوسف قال (ذلك) أى ذلك الذى فعلت من ردى رسول الملك إليه (ليعلم) العزيز (أنى لم أخنه) فى زوجته (بالغيب) أى فى حال غيبته (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) فقوله ذلك ليعلم من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تمييز لمعرفة السامعين وقيل فيه تقديم وتأخير تقدم معناه ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قيل لما قال يوسف هذه المقالة قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسى قال السدى إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حللت سراويلك يا يوسف فقال يوسف (وما أبرئ نفسى) من الخطأ والزلل فأزكيها

(إن النفس لأمارة بالسوء) بالمعصية (إلا مارحم ربي) أى إلا من رحم ربى فعصمه وما بمعنى من كقوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم» أى من طاب لكم وهم الملائكة عصمهم الله عز وجل فلم يركب فيهم الشهوة وقيل إلا ما رحم ربي إشارة إلى حالة العصمة عند رؤية البرهان (إن ربى غفور رحيم) فلما تبين للملك عذر يوسف عليه السلام وعرف أمانته وعلمه اشتاق لرؤيته وكلامه وذلك معنى قوله تعالى إخبارا عنه (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسى) أى أجعله خالصا لنفسى (فلما كلمه) فيه اختصار تقديره فجاء الرسول يوسف فقال له أجب الملك الآن روى أنه قام ودعا لأهل السجن فقال : اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار فى كل بلد . فلما خرج من السجن كتب على بابه : هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا حسانا وقصد الملك قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبي ربى من دنياى وحسبي ربى من خلقه عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره ثم دخل الدار فلما دخل على الملك قال اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك ماهذا اللسان قال لسان عمى إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية

فان رؤية النفس فى مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فأراد إزالة ذلك عن نفسه فان حسنات الأبرار سيئات المقربين (إن النفس لأمارة بالسوء) والسوء لفظ جامع لكل مايهم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية والسيئة الفعلة القبيحة . واختلفوا فى النفس الأمارة بالسوء ماهى فالذى عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات : منها الأمارة بالسوء ، ومنها اللوامة ، ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هى صفات لنفس واحدة فاذا دعت النفس إلى شهواتها ومالت إليها فهى النفس الأمارة بالسوء فاذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة وقيل إن النفس أمارة بالسوء بطبعها فاذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة . وقوله (إلا مارحم ربى) قال ابن عباس معناه إلا من عصم ربى فتكون ما بمعنى من فهو كقوله «ماطاب لكم من النساء» يعنى من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكن من رحم ربى فعصمه من متابعة النفس الأمارة بالسوء (إن ربى غفور) يعنى غفور لذنوب عباده (رحيم) بهم . قوله تعالى (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) وذلك أنه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وعلمه طلب حضوره إليه فقال ائتونى به يعنى بيوسف أستخلصه لنفسى أى أجعله خالصا لنفسى والاستخلاص طالب خلوص الشئ من جميع شوائب الاشتراك وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه ، لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها أحد من الناس وإنما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده فى يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره وإحسانه إلى أهل السجن وحسن أدبه وثباته على المحن كلها فلهذا حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله تعالى أمرا هيأ أسبابه فألهم الملك ذلك فقال ائتونى به أستخلصه لنفسى (فلما كلمه) فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول إلى يوسف فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فأجابه. روى أن يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لأهله فقال اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار فى كل بلد ، فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلواء وقبر الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا حسنة ثم قصد باب الملك . قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبي ربى من دنياى وحسبي ربى من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ثم دخل الدار فلما أبصر الملك قال اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما نظر إليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ماهذا اللسان ؟ قال لسان عمى إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان أيضا قال يوسف هذا لسان آبائى قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف وزاد عليه بالعربية والعبرانية فلما رأى الملك منه ذلك أعجبه ما رأى مع حداثة سن يوسف عليه السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فأجلسه إلى جنبه فذلك قوله تعالى فلما كلمه يعنى فلما كلم الملك يوسف لأن مجالس الملوك لايحسن لأحد أن يبدأ بالكلام فيها وإنما يبدأ فيها بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقى أيها الملك هذا الذى علم تأويل الملك

رؤياك

فقال له ما هذا اللسان قال هذا لسان آبائى ولم يعرف الملك هذين اللسانين قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلما تكلم بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان وزاد عليه بلسان العربية والعبرانية فأعجب الملك ما رأى منه مع حداثة سنه وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة فأجلسه و (قال إنك اليوم لدينا مكين) المكانة فى الجاه (أمين) أى صادق. وروى أن الملك قال له إنى أحب أن أسمع رؤياى منك شفاها فقال له يوسف نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب غر حسان كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبنا فبينما أنت تنظر إليهن ويعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر متقلصات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فافترسن السمان افتراس السبع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن وتمششن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب إذا سبع سنابل خضر وسبع أخر سود فى منبت واحد عروقهن فى الثرى والماء فبينما أنت تقول فى نفسك أى شىء هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن فى الماء إذ هبت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن فصرن سودا فهذا ما رأيت فانتبهت من نومك مذعورا فقال الملك والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجيبة بأعجب مما سمعت منك فما ترى فى رؤياى أيها الصديق؟ فقال يوسف عليه السلام أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة وتجعل الطعام فى الخزائن بقصبه وسنبله ليكون القصب والسنبل علفا للدواب والحب طعاما للناس وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها ويأتيك الخلق من النواحى للميرة فتبيع منهم الطعام وتأخذ ثمنه فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد، فقال الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه ويكفينى الشغل فيه ف(قال) يوسف (اجعلنى على خزائن الأرض) الخزائن جمع خزانة وأراد خزائن الطعام

رؤياك مع عجز السحرة والكهنة عنها فأقبل عليه الملك و (قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) يقال اتخذ فلان عند فلان مكانة أى منزلة وهى الحالة التى يتمكن بها صاحبها مما يريد، وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب فى أمر الدين والدنيا. روى أن الملك قال ليوسف عليه الصلاة والسلام أحب أن أسمع تأويل رؤياى منك شفاها فقال نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب غر حسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه تشخب أخلافهن لبنا فبينما أنت تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر ماصقات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان فافترسن السمان كافتراس السبع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومشمشن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن إذ سبع سنبلات خضر طريات ناعمات ممتلئات حبا وماء وإلى جانبهن سبع أخر سود يابسات فى منبت واحد عروقهن فى الثرى والماء فبينما أنت تقول فى نفسك أى شىء هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن فى الثرى والماء. إذ هبت الريح فذرت أوراق اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن فصرن سودا فهذا ما رأيت أيها الملك ثم انتبهت مذعورا فقال الملك والله ما أخطأت منها شيئا فما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجبا فما هو بأعجب مما سمعت منك وما ترى فى تأويل رؤياى أيها الصديق قال يوسف عليه الصلاة والسلام أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة وتجعل ما يتحصل من ذلك الطعام فى الخزائن بقصبه وسنبله فانه أبقى له فيكون ذلك القصب والسنبل علفا للدواب وتأمر الناس فايرفعوا الخمس من زروعهم أيضا فيكفيك ذلك الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها وتأتيك الخلق من سائر النواحى للميرة ويجتمع عندك من الكنوز والأموال ما لا يجتمع لأحد قبلك فقال الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه فعند ذلك (قال) يعنى يوسف (اجعلنى على خزائن الأرض) يعنى على خزائن الطعام والأموال، وأراد بالأرض أرض مصر أى اجعلنى على خزائن أرضك التى تحت يدك،

والأموال والأرض أرض مصر أي خزائن أرضك ، وقال الربيع بن أنس أى على خراج مصر ودخله (إنى حفيظ عليم) اى حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها ، وقيل حفيظ عليم أى كاتب حاسب ، وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم بما وليتنى ، وقيل حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من يأتينى . وقال الكلبى حفيظ بتقديره فى السنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال له الملك ومن أحق به منك فولاه ذلك وقال له إنك اليوم لدينا مكين ذو مكانة ومنزلة أمين على الخزائن . أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أخبرنى أبو عبد الله الحسين بن محمد الفنجوى ثنا مخلد بن جعفر الباقرجى ثنا الحسن بن علوية ثنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخره لذلك سنة فأقام فى بيته سنة مع الملك » . وبإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما انصرمت السنة من اليوم الذى سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه ورداه وقلده بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكلل بالدر والياقوت وضرب عليه حلة من إستبرق وطول السرير ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ثلاثون فراشا وستون مقرمة ثم أمره أن يخرج فخرج متوجا ولونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فى صفاء لون وجهه فانطلق حتى جلس على السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض إليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه . وجعل يوسف مكانه . قال ابن إسحاق وقال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله إليه وجعل أمره وقضاءه نافذا قالوا ثم إن قطفير هلك فى تلك الليالى فزوج الملك ليوسف راعيل امرأة قطفير فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما كنت تريدين فقالت أيها الصديق لا تلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وجمالك وهيئتك فغلبتنى نفسى وقويت على شهوتى ولم أملك عقلى فى محبتى فيك فتقرب منها يوسف فوجدها عذراء فأصابها فولدت له ولدين إفرائيم بن يوسف وميشا بن يوسف واستوثق ليوسف ملك مصر فأقام فيهم

وقال الربيع بن أنس اجعلنى على خزائن خراج مصر ودخلها (إنى حفيظ عليم) أى حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل معناه إنى حاسب كاتب وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم بما وليتنى وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتينى ، وقال الكلبى حفيظ بتقديره فى السنين المخصبة للسنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك عند ذلك ومن أحق بذلك منك وولاه ذلك وروى البغوى بإسناد الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة» . فإن قلت كيف طلب يوسف عليه الصلاة والسلام الإمارة والولاية مع ما ورد من النهى عنها مع كراهية طلبها لما صح من حديث عبدالرحمن بن سمرة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها» أخرجاه فى الصحيحين . قلت إنما يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها فإذا تعين عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهية فيه فأما يوسف عليه الصلاة والسلام فكان عليه طلب الإمارة لأنه مرسل من الله تعالى والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره وإذا كان مكلفا برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة وجب عليه طلبها ، وقيل إنه لما علم أنه سيحصل قحط وشدة إما بطريق الوحى من الله أو بغيره وربما أفضى ذلك إلى هلاك معظم الخلق . وكان فى طلب الإمارة إيصال الخير والراحة إلى المستحقين وجب عليه طلب الإمارة لهذا السبب . فإن قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله إنى حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم . قلت إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوسل به إلى غير ما يحل فهذا القدر المذموم فى تزكية النفس . أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فإنه يجب عليه أن يقول أنا عالم . ولما كان الملك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله إنى حفيظ عليم على أنه عالم بما يحتاج إليه فى مصالح الدنيا أيضا مع كمال علمه بمصالح الدين . قوله عز وجل (وكذلك

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) وكذلك إشارة إلى ماتقدم ، يعنى وكما أنعمنا على يوسف بأن أنجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه فى عين الملك حتى قربه وأدنى منزلته كذلك مكنا له فى الأرض يعنى أرض مصر ، ومعنى التمكين هو أن لاينازعه منازع فيما يراه ويختاره وإليه الإشارة بقوله (يتبوأ منها حيث يشاء) لأنه تفسير للتمكين . قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة دعاه الملك فتوجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع ووضع له عليه ثلاثون فراشا وستون ماريا وضرب له عليه كلة من إستبرق وأمره أن يخرج فخرج متوجا لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الأكبر إليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه . قال ابن إسحاق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلمها إلى يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز مصر فى تلك الليالى فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لاتلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لايأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين ذكرين إفرائيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف فى ملكه دبر فى جمع الطعام أحسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وأنفق المال بالمعروف حتى خلت السنين المخصبة ودخلت السنين المجدبة بهول وشدة لم ير الناس مثله وقيل إنه دبر فى طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى يايوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط فهلك فى السنة الأولى من أول سنين القحط كل ما أعدوه فى السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم فى السنة الأولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولادينار إلا أخذه منهم وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر فى أيدى الناس منها شىء وباعهم فى السنة الثالثة بالدواب والمواشى والأنعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية إلا احتوى عليها كلها وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والجوارى حتى لم يبق بأيدى الناس عبد ولا أمة وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم فى السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم وباعهم فى السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولاحرة إلا ملكه فصاروا جميعهم عبيدا ليوسف عليه الصلاة والسلام فقال أهل مصر مارأينا كاليوم ملكا أجل ولاأعظم من يوسف فقال يوسف للملك كيف رأيت صنع الله بى فيما خولنى فما ترى فى هؤلاء قال الملك الرأى رأيك ونحن لك تبع قال فانى أشهد الله وأشهدك أنى قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وقيل إن يوسف كان لايشبع من الطعام فى تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع وأمر يوسف طباخى الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار . قال مجاهد ولم يزل

العدل وأحبه الرجال والنساء فذلك قوله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) يعنى أرض مصر ملكناه (يتبوأ) أى ينزل أى (منها حيث يشاء) ويصنع فيها مايشاء ، قرأ ابن كثير وحده نشاء بالنون ردا على قوله مكنا وقرأ الآخرون

بالياء ردا على قوله يتبوأ (نصيب برحمتنا) أى بنعمتنا (من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) قال ابن عباس ووهب يعنى الصابرين قال مجاهد وغيره فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فهذا فى أمر الدنيا (ولأجر الآخرة) ثواب الآخرة (خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) فلما اطمأن يوسف فى ملكه دبر فى جمع الطعام بأحسن التدبير وبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله . وروى أنه كان قد دبر فى طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنة القحط كان أول من أخذه الجوع هو الملك فى نصف الليل فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أوان القحط ففى السنة الأولى من سنين الجدب هلك كل شىء أعدوه فى السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام فباعهم فى أول سنة بالنقود حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق فى أيدى الناس منها شىء وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب حتى احتوى عليها أجمع وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق فى يد أحد عبد ولا أمة وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها وباعهم فى السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم وباعهم فى السنة السابعة برقابهم حتى استرقهم ولم يبق بمصر حر ولا حرة إلا صار عبدا له فقال الناس ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من هذا ثم قال يوسف للملك كيف رأيت صنع ربى فيما خولنى فما ترى فى ذلك فقال له الملك الرأى رأيك والأمر اليك ونحن لك تبع قال فانى أشهد الله وأشهدك أنى قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وروى أن يوسف كان فى الجب لا يشبع من طعام فى تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ، وأمر يوسف عليه السلام طباخى الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك بأن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال وقصد الناس مصر من كل النواحى يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكن أحدا منهم وإن كان عظيما أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس وتزاحم الناس عليه فأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس فى سائر البلاد من القحط والشدة ونزل بيعقوب ما نزل بالناس فأرسل بنيه إلى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه فذلك قوله تعالى (وجاء إخوة يوسف) وكانوا عشرة ، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين بغور الشام وكانوا أهل بادية وإبل وشاء فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال يابنى بلغنى أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا له فاذهبوا لتشتروا منه الطعام فأرسلهم فقدموا مصر (فدخلوا عليه) على يوسف (فعرفهم) يوسف عليه السلام قال ابن عباس ومجاهد عرفهم بأول ما نظر إليهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه (وهم له منكرون)

يوسف يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله سبحانه وتعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء (نصيب برحمتنا من نشاء) يعنى نختص بنعمتنا وهى النبوة من نشاء يعنى من عبادنا (ولا نضيع أجر المحسنين) قال ابن عباس يعنى الصابرين (ولأجر الآخرة) يعنى ولثواب الآخرة (خير) يعنى أفضل من أجر الدنيا (للذين آمنوا وكانوا يتقون) يعنى يتقون مانهى الله عنه وفيه دليل على أن الذى أعد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام فى الآخرة من الأجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله فى الدنيا من الملك قوله تعالى (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) قال العلماء : لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل إلى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطى أحدا أكثر من حمل بعير وإن كان عظيما تقسيطا ومساواة بين الناس ونزل بآل يعقوب مانزل بالناس من الشدة فبعث بنيه إلى مصر للميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه وأبيه وأرسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء إخوة يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وإبل وشياه فدعاهم يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال يابنى بلغنى أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا له واقصدوه لتشتروا منه ماتحتاجون إليه من الطعام فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم . قال ابن عباس ومجاهد بأول نظرة نظر إليهم عرفهم ، وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه وهم له منكرون يعنى لم يعرفوه . قال ابن عباس رضى الله عنهما كان بين أن قذفوه

أى لم يعرفوه قال ابن عباس وكان بين أن قذفوه فى البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وعلى رأسه تاج الملك وقيل لأنه كان بزى ملوك مصر عليه ثياب من حرير وفى عنقه طوق من ذهب فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبرونى من أنتم وما أمركم فانى أنكرت شأنكم قالوا نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم

جئتم تنظرون عورة بلادى قالوا لا والله ما نحن بجواسيس إنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله فقال وكم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبنا إلى أبينا قال فكم أنتم هاهنا قالوا عشرة قال وأين الآخر قالوا عند أبينا لأنه أخو الذى هلك من أمه فأبونا يتسلى به فقال فمن يعلم أن الذى تقولون حق وصدق قالوا أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد من أهلها فقال لهم يوسف فأتونى بأخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين وأنا أرضى بذلك قالوا فان أبانا يحزن على فراقه وسنراود عنه أباه قال فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى بأخيكم الذى من أبيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله عز وجل (ولما جهزهم بجهازهم) أى حمل لكل واحد بعيرا بعدتهم (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) يعنى بنيامين (ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخس الناس شيئا فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم (وأنا خير المنزلين) قال مجاهد أى خير المضيفين وكان قد أحسن ضيافتهم (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) أى ليس لكم عندى طعام أكيله

فى الجب وبين دخولهم عليه مدة أربعين سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وكان على رأسه تاج الملك وقيل لأنه كان قد لبس زى ملوك مصر عليه ثياب حرير وفى عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الأسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه ، وقيل إن العرفان إنما يقع فى القلب بخلق الله تعالى له فيه وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك العرفان فى تلك الساعة فى قلوبهم تحقيقا لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم أخبرونى من أنتم وما أمركم فانى قد أنكرت حالكم قالوا نحن قوم من أرض الشام رعاة قد أصابنا من الجهد ما أصاب الناس فجئنا نمتار ؟ قال يوسف لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادى قالوا لا والله ما نحن بجواسيس إنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله تعالى قال وكم أنتم ؟ قالوا كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبنا إلى أبينا قال فكم أنتم الآن قالوا عشرة قال وأين الآخر قالوا هو عند أبينا لأنه أخو الذى هلك لأمه فأبونا يتسلى به ، قال فمن يعلم أن الذى تقولون حق قالوا أيها الملك إننا ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد قال فأتونى بأخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين فأنا راض بذلك منكم قالوا إن أبانا يحزن لفراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى به فاقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى (ولما جهزهم بجهازهم) يقال جهزت القوم تجهيزا إذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو ما يحتاجون إليه فى وجوههم والجهاز بفتح الجيم هى اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الأكثرون من أهل اللغة وكسر الجيم لغة ليست بجيدة قال ابن عباس حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام وأكرمهم فى النزول وأحسن ضيافتهم وأعطاهم ما يحتاجون إليه فى سفرهم (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) يعنى الذى خلفتموه عنده وهو بنيامين (ألا ترون أنى أوفى الكيل) يعنى أنى أتمه ولا أبخس منه شيئا وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم أكرمكم بذلك (وأنا خير المنزلين) يعنى خير المضيفين لأنه كان قد أحسن ضيافتهم مدة إقامتهم عنده قال الإمام فخر الدين الرازى هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين إنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، وأيضا يبعد من يوسف عليه الصلاة والسلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لأن البهتان لا يليق بالصديق ثم قال يوسف (فان لم تأتونى به) يعنى بأخيكم الذى من أبيكم (فلا كيل لكم عندى) يعنى لست أكيل

(ولاتقربون) أى لا تقربوا دارى و بلادى بعد ذلك وهو جزم على النهى (قالوا سنراود عنه أباه) سنطلبه ونسأله أن يرسله معنا (وإنا لفاعلون) ماأمرتنا به (وقال لفتيانه) قرأ حمزة والكسائى وحفص لفتيانه بالألف والنون وقرأ الباقون لفتيته بالتاء من غير ألف يريد لغلمانه وهما لغتان مثل الصبيان والصبية (اجعلوا بضاعتهم) ثمن طعامهم وكانت دراهم وقال الضحاك عن ابن عباس كانت النعال والأدم وقيل كانت ثمانية جرب من سويق المقل والأول أصح (فى رحالهم) أوعيتهم وهى جمع رحل (لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا) (٢٩٦) انصرفوا (إلى أهلهم لعلهم يرجعون) واختلفوا فى السبب الذى فعله يوسف من أجله قيل أراد أن يريهم كرمه فى رد البضاعة وتقديم الضمان فى البز والإحسان ليكون أدعى لهم إلى العود لعلهم يعرفونها أى كرامتهم علينا، وقيل رأى لؤما أخذ الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه فرده عليهم من حيث لا يعلمون تكرما، وقال الكلبى تخوف أن لا يكون عند أبيه من الورق مايرجعون به مرة أخرى وقيل فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة نفيا للغلط ولا يستحلون إمساكها (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا) إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا أتيتم ملك مصر فاقرئوه منى السلام وقولوا له إن أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم قال أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة؟ فقال لهم ولم هل أخبرتموه قالوا إنه أخذنا وقال أنتم جواسيس حيث كلمناه بلسان العبرانية وقصوا عليه القصة وقالوا ياأبانا (منع منا الكيل) قال الحسن معناه يمنع منا الكيل إن لم تحمل أخانا معنا وقيل معناه أعطى باسم كل واحد منا حملا ومنع منا الكيل لبنيامين والمراد بالكيل الطعام لأنه كان يكال (فأرسل معنا أخانا) بنيامين (نكتل) قرأ حمزة والكسائى يكتل بالياء يعنى يكيل لنفسه كما نحن نكتال وقرأ الآخرون نكتل بالنون يعنى نكتل نحن وهو الطعام وقيل نكتل له (وإنا له لحافظون) قال

لكم طعاما (ولاتقربون) يعنى ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادى وهذا هو نهاية التخويف والترهيب لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده فاذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم فعند ذلك (قالوا) يعنى إخوة يوسف (سنراود عنه أباه) يعنى سنجتهد ونحتال حتى ننزعه من عنده (وإنا لفاعلون) يعنى ماأمرتنا به. قوله عز وجل (وقال لفتيانه) يعنى وقال يوسف لفتيانه وهم غلمانه وأتباعه (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذى أعطوه ليوسف وكانت دراهم وحكى الضحاك عن ابن عباس أنها كانت النعال والأدم والرحال جمع رحل وهى الأوعية التى يحمل فيها الطعام وغيره (لعلهم يعرفونها) يعنى يعرفون بضاعتهم (إذا انقلبوا إلى أهلهم) يعنى إذا رجعوا إلى أهلهم (لعلهم يرجعون) إلينا واختلفوا فى السبب الذى من أجله رد يوسف عليه الصلاة والسلام عليهم بضاعتهم فقيل لأنهم إذا فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم علموا أن ذلك من كرم يوسف وسخائه فيبعثهم ذلك على الرجوع إليه سريعا وقيل إنه خاف أن لا يكون عند أبيه شىء آخر من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة، وقيل إنه رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته لؤم لشدة حاجتهم إليه وقيل أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه لوم ولا عيب، وقيل أراد أن يريهم بره وكرمه وإحسانه إليهم فى رد بضاعتهم ليكون ذلك أدعى إلى العود إليه وقيل إنما فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة إليه إذا وجدوها فى رحالهم لأنهم أنبياء وأولاد أنبياء وقيل أراد برد البضاعة إليهم أن يكون ذلك عونا لأبيه ولإخوته على شدة الزمان (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا) إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرءوا عليه منى السلام وقولوا له إن أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر عنده وأخبروه بالقصة ثم قالوا ياأبانا (منع منا الكيل) وفيه قولان: أحدهما أنهم لما أخبروا يوسف بأخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لأبيهم وأخيهم المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل إشارة إليه وأراد بالكيل الطعام لأنه يكال. والقول الثانى أنه سيمنع منا الكيل فى المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون وقال الحسن يمنع منا الكيل إن لم نحمل معنا أخانا وهو قوله تعالى إخبارا عنهم (فأرسل معنا أخانا) يعنى بنيامين (نكتل) قرئ بالياء يعنى يكتل لنفسه وقرئ بالنون يعنى نكتل نحن جميعا وإياه معنا (وإنا له لحافظون) يعنى نرده إليك فلما قالوا ليعقوب هذه المقالة (قال) يعنى يعقوب

هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف (من قبل) أى كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف مافعلتم (فالله خير حافظا)
قرأ حمزة والكسائى وحفص حافظا بالألف على التفسير كما يقال هو خير رجلا ، وقرأ الآخرون حفظا بغير ألف على المصدر
يعنى خيركم حفظا يقول حفظه خير من حفظكم (وهو أرحم الراحمين ولما فتحوا متاعهم) الذى حملوه من مصر (وجدوا
بضاعتهم) ثمن الطعام (ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى) أى ماذا نبغى وأى شئ نطلب وذلك أنهم ذكروا ليعقوب عليه
السلام إحسان الملك إليهم وحثوه على إرسال بنيامين معهم فلما فتحوا المتاع ووجدوا البضاعة قالوا
يا أبانا ما نبغى (هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى شئ نطلب بالكلام فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن أرادوا تطييب نفس أبيهم (ونمير أهلنا) أى نشترى لهم الطعام فنحمله إليهم يقال مار أهله يمير ميرا إذا حمل إليهم الطعام من بلد آخر ومثله امتار يمتار امتيارا (ونحفظ أخانا) بنيامين أى مما نخاف عليه (ونزداد) على أحمالنا (كيل بعير) أى حمل بعير يكال لنا من أجله لأنه كان يعطى باسم كل رجل حمل بعير (ذلك كيل يسير) أى ما حملناه قليل لا يفينا وأهلنا وقيل معناه نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير لا مؤنة فيه ولا مشقة وقال مجاهد البعير هاهنا الحمار كيل بعير أى حمل حمار وهى لغة يقال للحمار بعير

وهم كانوا أصحاب حمر والأول أصح أنه البعير المعروف (قال) لهم يعقوب
(لن أرسله معكم حتى تؤتون) تعطون (موثقا) أى ميثاقا وعهدا (من الله) والموثق العهد المؤكد بالقسم ، وقيل المؤكد
بإشهاد الله على نفسه (لتأتننى به) وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام اليمين (إلا أن يحاط بكم) قال مجاهد إلا أن تهلكوا
جميعا وقال قتادة إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك وفى القصة أن الاخوة ضاق الأمر عليهم وجهدوا أشد الجهد فلم
يجد يعقوب بدا من إرسال بنيامين معهم (فلما آتوه موثقهم) أعطوه عهودهم (قال) يعنى يعقوب (الله على ما نقول وكيل)

(هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) يعنى كيف آمنكم على ولدى بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه فى يوسف وضمنتم لى حفظه وقلتم وإنا له لحافظون فما فعلتم فلما لم يحصل الأمان والحفظ هنالك فكيف يحصل هاهنا ثم قال (فالله خير حافظا) يعنى أن حفظ الله خير من حفظكم له ففيه التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه فى جميع الأمور (وهو أرحم الراحمين) وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك . قوله تعالى (ولما فتحوا متاعهم) يعنى الذى حملوه من مصر فيحتمل أن يكون المراد به الطعام أو أوعية الطعام (وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) يعنى أنهم وجدوا فى متاعهم ثمن الطعام الذى كانوا قد أعطوه ليوسف قد رد عليهم ودس فى متاعهم (قالوا يا أبانا ما نبغى) يعنى ماذا نبغى وأى شىء نطلب وذلك أنهم كانوا قد ذكروا ليعقوب إحسان ملك مصر إليهم وحثوا يعقوب على إرسال بنيامين معهم فلما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم قالوا أى شىء نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الإحسان والإكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن ، وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم (هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا) يقال مار أهله يميرهم ميرا إذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر إليهم والمعنى إنا نشترى لأهلنا الطعام ونحمله إليهم (ونحفظ أخانا) يعنى بنيامين مما نخاف عليه حتى نرده إليك (ونزداد كيل بعير) يعنى ونزداد لأجل أخينا على أحمالنا حمل بعير من الطعام (ذلك كيل يسير) يعنى إن ذلك الحمل الذى نزداد من الطعام هين على الملك لأنه قد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر من ذلك وقيل معناه أن الذى حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا (قال) يعنى قال لهم يعقوب (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) يعنى لن أرسل معكم بنيامين حتى تؤتون عهد الله وميثاقه والموثق العهد المؤكد باليمين ، وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه (لتأتننى به) دخلت اللام هنا لأجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتننى به (إلا أن يحاط بكم) قال مجاهد إلا أن تهلكوا جميعا فيكون عذرا لكم عندى ، لأن العرب تقول أحيط بفلان إذا هلك أو قارب هلاكه . وقال قتادة إلا أن تغلبوا جميعا فلا تقدروا على الرجوع (فلما آتوه موثقهم) يعنى فلما أعطوه عهدهم وحلفوا له (قال الله على ما نقول وكيل) يعنى قال يعقوب الله شاهد على ما نقول كأن الشاهد وكيل بمعنى أنه موكول

إليه هذا العهد . وقيل وكيل بمعنى حافظ . قال كعب الأحبار لما قال يعقوب «فالله خير حافظا» قال الله تعالى « وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما بعد ما توكلت علي وفوضت أمرك إلي » وذلك أنه لما اشتد بهم الأمر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بدا من إرسال بنيامين معهم فأرسله معهم متوكلا على الله ومفوضا أمره إليه . قوله عز وجل إخبارا عن يعقوب (وقال يابني لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وذلك أنهم لما خرجوا من عند يعقوب قاصدين مصر قال لهم يابني لا تدخلوا يعني مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب وقال السدى أراد الطرق لا الأبواب يعني من طرق متفرقة وإنما أمرهم بذلك لأنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا قد أعطوا جمالا وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فان العين حق وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن العين حق» زاد البخاري «ونهى عن الوشم» (م) عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغتسلوا» عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين» أخرجه أبو داود . قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى قال المازري أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد قولهم أن كل معنى يكون مخالفا في نفسه ولايؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فانه من مجوزات العقول وإذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولايجوز تكذيبه وإنكاره وقيل لابد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين مثبتين للعين تأثيرا أن العين تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الأفعى والعقرب تتصل بالملدوغ فيهلك وإن كان غير محسوس لنا فكذا العين قال المازري وهذا غير مسلم لأنا بينا في كتب علم الكلام أنه لا فاعل إلا الله تعالى وبينا فساد القول بالطبائع وبينا أن المحدث لايفعل في غيره شيئا ، فاذا تقرر هذا بطل ماقالوه ثم تقول هذا المنبعث من العين إما جوهر وإما عرض فباطل أن يكون عرضا لأنه لايقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهرا لأن الجواهر متجانسة فليس بعضها بأن يكون مفسدا لبعض بأولى من عكسه فبطل ما قالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الإسلام منهم إن قالوا لايبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله عز وجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة أجراها الله عز وجل وليست ضرورة ولا طبيعية ألجأ الفعل إليها قال ومذهب أهل السنة أن المعين إنما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بأن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصا آخر ، وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لايقطع فيه بواحد من الأمرين وإنما يقطع بنفي الفعل عنها وإضافته إلى الله تعالى فمن قطع من أطباء الإسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه وإنما هو من الجائزات هذا مايتعلق بعلم الأصول وأما مايتعلق بعلم الفقه فان الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الأمر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك في الموطأ . وأما

شاهد وقيل حافظ قال كعب لما قال يعقوب « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » قال الله عز وجل « وعزتي لأردن عليك كليهما بعد ما توكلت علي » (وقال) لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده (يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وذلك أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا أعطوا جمالا وقوة وامتداد قامة وكانوا ولد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم لئلا يصابوا بالعين فان العين حق ، وجاء في الأثر « إن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر » وعن إبراهيم النخعي أنه قال ذلك لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرق والأول أصح ثم قال

(وما أغنى عنكم من الله من شيء) معناه إن كان الله قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين فان المقدور كائن والحذر لاينفع عن القدر (إن الحكم) ما الحكم (إلا لله) هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله (عليه توكلت) اعتمدت (وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أى من الأبواب المتفرقة وقيل كانت المدينة مدينة الفرماء ولها أربعة أبواب فدخلوها من أبوابها (ما كان يغنى) يدفع (عنهم من الله من شيء) صدق الله تعالى يعقوب فيما قال (إلا حاجة) مرادا (فى نفس يعقوب قضاها) أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى الأمر عليه (وإنه) يعنى يعقوب عليه السلام (لذو علم) يعنى كان يعلم ما يعمل عن علم لا عن جهل (لما علمناه) أى لتعليمنا إياه وقيل إنه لعامل بما علم قال سفيان من لايعمل بما يعلم لايكون عالما وقيل إنه لذو حفظ لما علمناه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ما يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم وقال ابن عباس لايعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه. قوله تعالى (ولما دخلوا على يوسف) قالوا هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به فقال أحسنتم وأصبتم وستجدون جزاء ذلك عندى ثم أنزلهم فأكرم منزلتهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى

(٢٩٩)

صفة وضوء العائن فمذكور فى كتب شرح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هناك فليس هذا موضعه والله أعلم. وقال وهب بن منبه فى قوله لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة أنه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم فى أرض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزى عنه وقيل إن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان قد علم أن ملك مصر هو ولده يوسف عليه الصلاة والسلام إلا أن الله تعالى لم يأذن له فى إظهاره ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال لهم لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى أخيه يوسف فى وقت الخلوة قبل إخوته والقول الأول أصح أنه خاف عليهم من العين ثم رجع إلى علمه وفوض أمره إلى الله تعالى بقوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) يعنى إن كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين فان المقدور كائن ولاينفع حذر من قدر (إن الحكم إلا لله) يعنى وما الحكم إلا لله وحده لاشريك له فيه وهذا تفويض من يعقوب فى أموره كلها إلى الله تعالى (عليه توكلت) يعنى عليه اعتمدت فى أمورى كلها لاعلى غيره (وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) يعنى من الأبواب المتفرقة وكان لمدينة مصر وقيل مدينة الفرماء أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلها (ما كان يغنى عنهم من الله من شيء) وهذا تصديق من الله سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال وما أغنى عنكم من الله من شيء (إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) هذا استثناء منقطع ليس من الأول فى شيء ومعناه لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها وهو أنه أشفق عليهم إشفاق الآباء على الأبناء وذلك أنه خاف عليهم من العين أو خاف عليهم حسد أهل مصر أو خاف أن لايردوا عليه فأشفق من هذا كله أو بعضه (وإنه) يعنى يعقوب (لذو علم) يعنى صاحب علم (لما علمناه) يعنى لتعليمنا إياه ذلك العلم وقيل معناه وإنه لذو علم للشيء الذى علمناه والمعنى إنا لما علمناه هذه الأشياء حصل له العلم بتلك الأشياء وقيل إنه لذو حفظ لما علمناه وقيل إنه كان يعمل مايعمل عن علم لاعن جهل وقيل إنه لعامل بما علمناه قال سفيان من لايعمل بما يعلم لايكون عالما (ولكن أكثر الناس لايعلمون) يعنى لايعلمون ما كان يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم وقال ابن عباس لايعلم المشركون ماألهم الله أولياءه. قوله تعالى (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) قال المفسرون لما دخل إخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به فقد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندى ثم أنزلهم وأكرم نزلهم ثم إنه أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه فقال لهم يوسف لقد بقى هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم فأنا أجلسه معى فأخذه فأجلسه معه على مائدته وجعل

وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه فقال يوسف لقد بقى أحدكم هذا وحيدا فأجلسه معه على مائدته فجعل يواكله فلما كان الليل أمر لهم بمثل وقال لينم كل أخوين منكم على مثال فبقى بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معى على فراشى فنام معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح وجعل روبين يقول مارأينا مثل هذا فلما أصبح قال لهم إنى أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمه إلى فيكون منزله معى ثم أنزلهم منزلا وأجرى عليهم الطعام وأنزل أخاه لأمه فذلك قوله تعالى (آوى إليه أخاه) أى ضم إليه أخاه فلما خلا به قال ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين

قال ابن المشكل وذلك أنه لما ولد هلكت أمه قال وما اسم أمك قال راحيل قال راحيل بنت من قال راحيل بنت لاوى قال فهل لك من ولد قال نعم عشرة بنين قال فهل لك من أخ لأمك قال كان لى أخ فهلك قال يوسف أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك فقال بنيامين ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه وقال (قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس) أى لا تحزن (بما كانوا يعملون) بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله تعالى قد أحسن إلينا ولا تعلمهم شيئا مما أعلمتك ثم أوفى يوسف لإخوته الكيل وحمل لهم بعيرا بعيرا ولبنيامين بعيرا باسمه ثم أمر بسقاية الملك فجعلت فى رحل بنيامين ، قال السدى جعلت السقاية فى رحل أخيه والأخ لا يشعر ، وقال كعب لما قال له يوسف إنى أنا أخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك قال يوسف قد علمت اغتمام والدى بى وإذا حبستك ازداد غمه ولا يمكننى هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يجمل قال لا أبالى فافعل ما بدالك فإنى لا أفارقك قال فإنى أدس صاعى فى رحلك . ثم أنادى عليك بالسرقة ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك قال فافعل كما تريد فذلك قوله تعالى (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه) وهى المشربة التى كان الملك يشرب منها قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن إسحاق قال كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر جعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب منها ، والسقاية والصواع واحد جعلت فى وعاء طعام بنيامين ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم بعث من خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم أذن مؤذن) نادى مناد (أيتها العير)

يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل اثنين منكم يناما على فراش واحد فبقى بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام عندى على فراشى فنام بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح فلما أصبح قال لهم إنى أرى هذا الرجل وحيدا ليس معه ثان وسأضمه إلى فيكون معى فى منزلى ثم إنه أنزلهم وأجرى عليهم الطعام فقال روبيل ما رأينا مثل هذا فذلك قوله آوى إليه أخاه يعنى ضمه وأنزله معه فى منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال ابن المشكل وذلك أنه لما ولدته أمه هلكت قال وما اسم أمك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال فهل لك من أخ لأمك قال كان لى أخ فهلك قال يوسف أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال بنيامين ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه الصلاة والسلام وقام إليه وعانقه و (قال) له (إنى أنا أخوك) يعنى يوسف (فلا تبتئس) يعنى لا تحزن وقال أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس (بما كانوا يعملون) يعنى فلا تحزن بشىء فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن إلينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا وقيل إن يوسف صفح عن إخوته وصفا لهم فأراد أن يجعل قلب أخيه بنيامين مثل قلبه صافيا عليهم ثم قال يوسف لأخيه بنيامين لا تعلم إخوتك بشىء مما أعلمتك به ثم إنه أوفى لإخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير باسمه ثم أمر بسقاية الملك فجعلت فى رحل أخيه بنيامين قال السدى وهو لا يشعر وقال كعب لما قال له يوسف إنى أنا أخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدى على فإذا حبستك عندى ازداد غمه ولا يمكننى هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحمد قال لا أبالى فافعل ما بدا لك فإنى لا أفارقك قال فإنى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليكم بالسرقة ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت فذلك قوله عز وجل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه) وهى المشربة التى كان الملك يشرب فيها قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن إسحاق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر جعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لإناء واحد وجعلت فى وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين إلى بلادهم فأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم أذن مؤذن) يعنى نادى مناد وأعلم معلم . والأذان فى اللغة الإعلام (أيتها العير) وهى القافلة التى فيها الأحمال وقال مجاهد العير الحمير والبغال وقال أبو الهيثم كل ما سير عليه من الإبل والحمير والبغال فهى عير وقول من

وهى القافلة التى فيها الأحمال قال مجاهد كانت العير حميرا وقال الفراء كانوا أصحاب إبل (إنكم لسارقون) قفوا، قيل قالوه من غير أمر يوسف، وقيل قالوه بأمره وكان هفوة منه، وقيل قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه فلما انتهى إليهم الرسول قال لهم ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلتكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم مالم نفعل بغيركم قالوا بلى قالوا وما ذاك قالوا سقاية الملك فقدناها ولانتهم عليها غيركم فذلك قوله عز وجل (قالوا وأقبلوا عليهم) عطفوا على المؤذن وأصحابه (ماذا تفقدون) ما الذى ضل عنكم والفقدان ضد الوجدان (قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير) من الطعام (وأنا به زعيم) كفيل يقوله المؤذن (قالوا) يعنى إخوة يوسف (تالله) أى والله وخصت هذه الكلمة بأن أبدلت الواو فيها بالتاء فى اليمين دون سائر أسماء الله تعالى (لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض) لنسرق فى أرض مصر فان قيل كيف قالوا لقد علمتم ومن أين علموا ذلك قيل قالوا لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض فانا منذ قطعنا هذا الطريق لم نرزأ أحدا شيئا فاسألوا عنا من مررنا به هل ضررنا أحدا وقيل لأنهم ردوا البضاعة التى جعلت فى رحالهم قالوا فلو كنا سارقين ما رددناها وقيل قالوا ذلك لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا إذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم كيلا تتناول شيئا من حروث الناس (وما كنا سارقين)

قال إنها الإبل خاصة باطل وقيل العير الإبل التى تحمل عليها الأحمال سميت بذلك لأنها تعير أى تذهب وتجىء وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر ذلك فى الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله أيتها العير أراد أصحاب العير (إنكم لسارقون) فقفوا والسرقة أخذ ماليس له أخذه فى خفاء. فان قلت هل كان هذا النداء بأمر يوسف أم لا فان كان بأمره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواما وينسبهم إلى السرقة كذبا مع علمه ببراءتهم من ذلك وإن كان ذلك النداء بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة التى نسبوا إليها. قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة: أحدها أن يوسف لما أظهر لأخيه أنه أخوه قال لست أفارقك قال لاسبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى مالا يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضى به فلا يكون ذنبا. الثانى أن يكون المعنى إنكم لسارقون ليوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة عن الكذب. الثالث يحتمل أن يكون المنادى ربما قال ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لايكون كذبا الرابع ليس فى القرآن مايدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الأقرب إلى ظاهر الحال لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) قال أصحاب الأخبار لما وصل الرسل إلى إخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف إليكم الكيل ونفعل بكم مالم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا فقدنا سقاية الملك ولانتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا وأقبلوا عليهم أى عطفوا على المؤذن وأصحابه ماذا أى ما الذى تفقدون والفقدان ضد الوجود (قالوا) يعنى المؤذن وأصحابه (نفقد صواع الملك) الصاع الإناء الذى يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان (ولمن جاء به) يعنى بالصواع (حمل بعير) يعنى من الطعام (وأنا به زعيم) أى كفيل قال الكلبى الزعيم هو الكفيل بلسان أهل اليمن وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم رسول الله ﷺ بها فى قوله «الحميل غارم» والحميل الكفيل. فان قلت كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لايستحق شيئا. قلت لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون جعالة أو لعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان فيحمل عليه (قالوا) يعنى إخوة يوسف (تالله) التاء بدل من الواو ولاتدخل إلا على اسم الله فى اليمين خاصة تقديره والله (لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) قال المفسرون أن أخوة يوسف حلفوا على أمرين. أحدهما أنهم ماجاءوا لأجل الفساد فى الأرض والثانى أنهم ماجاءوا سارقين وإنما قالوا هذه المقالة لأنه كان قد ظهر من أحوالهم مايدل على صدقهم وهو أنهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم أنهم شدوا أفواه دوابهم لئلا تؤذى زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد فى حقه ممتنع، وأما الثانى وهو أنهم ما كانوا سارقين فلأنهم قد كانوا ردوا البضاعة التى وجدوها فى رحالهم ولم يستحلوا

قالوا) يعنى المنادى وأصحابه (فما جزاؤه) يعنى ما جزاء السارق (إن كنتم كاذبين) فى قولكم وما كنا سارقين (قالوا) يعنى إخوة يوسف (جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه) أى فالسارق جزاؤه أن يسلم السارق بسرقته إلى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده (٣٠٢) فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم (كذلك نجزى الظالمين) الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير فقال الرسول عند ذلك لابد من تفتيش أمتعتكم فأخذ فى تفتيشها وروى أنه ردهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه (فبدأ بأوعيتهم) لإزالة التهمة (قبل وعاء أخيه) فكان يفتش أوعيتهم واحدا واحدا قال قتادة ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر فى وعاء إلا استغفر الله تأثما مما قذفهم به حتى إذا لم يبق إلا رحل بنيامين قال ما أظن هذا أخذه فقال إخوته والله لا نترك حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه فذلك قوله تعالى (ثم استخرجها من وعاء أخيه) وإنما أنث الكناية فى قوله ثم استخرجها والصواع مذكر بدليل قوله ولمن جاء به حمل بعير لأنه رد الكناية هاهنا إلى السقاية وقيل الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رءوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين وقالوا ما الذى صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم البلاء متى أخذت هذا الصواع فقال بنيامين بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه فى البرية والله قد وضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم فأخذوا بنيامين رقيقا وقيل إن ذلك الرحل أخذ برقبته ورده إلى يوسف كما يرد السراق (كذلك كدنا ليوسف)

حكمنا

أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلأجل ذلك قالوا لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة (قالوا) يعنى أصحاب يوسف وهو المنادى وأصحابه (فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) يعنى فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين فى قولكم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين (قالوا) يعنى إخوة يوسف (جزاؤه من وجد فى رحله) يعنى جزاء السارق الذى وجد فى رحله أن يسلم برقبته إلى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق وكان فى حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق وكان هذا فى شرعهم فى ذلك الزمان يجرى مجرى القطع فى شرعنا فأراد يوسف أن يأخذ بحكم أبيه فى السارق فلذلك رد الحكم إليهم، والمعنى أن جزاء السارق أن يستعبد سنة جزاء له على جرمه وسرقته (فهو جزاؤه) يعنى هذا الجزاء جزاؤه (كذلك نجزى الظالمين) يعنى مثل هذا الجزاء وهو أن يسترق السارق سنة نجزى الظالمين ثم قيل إن هذا الكلام من بقية كلام إخوة يوسف وقيل هو من كلام أصحاب يوسف فعلى هذا إن إخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف كذلك نجزى الظالمين يعنى السارقين . قوله عز وجل (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) قال أهل التفسير إن إخوة يوسف لما أقروا أن جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف لابد من تفتيش رحالكم فردوهم إلى يوسف فأمر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه لإزالة التهمة فجعل يفتش أوعيتهم واحدا واحدا . قال قتادة ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر وعاء إلا استغفر تأثما مما قذفهم به حتى لم يبق إلا رحل بنيامين قال ما أظن هذا أخذ شيئا قال إخوته والله لا نتركك حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى (ثم استخرجها من وعاء أخيه) إنما أنث الكناية لأنه ردها إلى السقاية وقيل إن الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوة يوسف رءوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ما صنعت بنا فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصواع فقال بنيامين بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه فى البرية أن الذى وضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم قالوا فأخذ بنيامين رقيقا وقيل إن المنادى وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فأخذه برقبته وردوه إلى يوسف (كذلك كدنا ليوسف) يعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو إشارة إلى الحكم الذى ذكره إخوة يوسف باسترقاق السارق أى مثل ذلك الحكم الذى ذكره إخوة يوسف

والكيد هاهنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف فيكيدوا لك كيدا فكدنا ليوسف في أمرهم والكيد من الخلق الحيلة ومن الله التدبير بالحق وقيل كدنا ألهمنا وقيل دبرنا وقيل أردنا ومعناه صنعنا ليوسف حتى ضم أخاه إلى نفسه وحال بينه وبين إخوته (ما كان ليأخذ أخاه) فيضمه إلى نفسه (في دين الملك) أي في حكمه قال قتادة وقال ابن عباس في سلطانه (إلا أن يشاء الله) يعني أن يوسف لم يكن يتمكن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كدنا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك وهو ما أجرى على ألسنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالى (نرفع درجات من نشاء) بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته وقرأ يعقوب يرفع ويشاء بالياء فيهما وإضافة درجات إلى من في هذه السورة والوجه أن الفعل فيهما مسند إلى الله تعالى وقد تقدم ذكره في قوله إلا أن يشاء الله أي يرفع الله درجات من يشاء وقرأ الباقون بالنون فيهما إلا أن الكوفيين قرءوا درجات بالتنوين ومن سواهم بالإضافة أي نرفع به نحن والرافع أيضا هو الله تعالى (وفوق كل ذي علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يريدون أخا له من أمه يعنون به يوسف واختلفوا في السرقة التي وصفوا بها يوسف فقال سعيد بن جبير وقتادة كان لجده أبي أمه صنم يعبده فأخذه سرا وكسره وألقاه في الطريق لئلا يعبد وقال مجاهد إن يوسف جاءه سائل يوما فأخذ بيضة من البيت فناولها السائل وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلا وقال

حكمنا به ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة وهذا في حق الله عز وجل محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فنقول الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف بأن حكموا أن جزاء السارق أن يسترق كذلك ألهمنا يوسف حتى دس الصواع في رحل أخيه ليضمه إليه على ما حكم به إخوته وقال ابن الأعرابي الكيد التدبير بالباطل وبحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف وقيل صنعنا ليوسف وقال ابن الأنباري كدنا وقع خبرا من الله عز وجل على خلاف معناه في أوصاف المخلوقين فإنه إذا أخبر به عن مخلوق كان تحته احتيال وهو في موضع فعل الله معرى من المعاني المذمومة ويخلص بأنه وقع بمن يكيده تدبير ما يريده به من حيث لا يشعر ولا يقدر على دفعه فهو من الله مشيئة بالذي يكون من أجل أن المخلوق إذا كاد المخلوق في ستر عنه ما ينويه ويضمره له من الذي يقع به من الكيد فهو من الله تعالى أستر إذ هو ما ختم الله به عاقبته والذي وقع بإخوة يوسف من كيد الله هو ما انتهى إليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث جرى الأمر على غير ما قدر من إهلاكه وخلوص أبيهم له بعده وكل ذي جرى بتدبير الله تعالى وخفي لطفه سماه كيدا لأنه أشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام عائدا إلى جميع ما أعطاه الله وأنعم به عليه على خلاف تدبير إخوته من غير أن يشعروا بذلك وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) يعني في حكم الملك وقضائه لأنه كان في حكم الملك أن السارق يضرب ويغرم ضعفي قيمة المسروق يعني في حكم الملك وقضائه فلم يتمكن يوسف من حبس أخيه عنده في حكم الملك فالله تعالى ألهم يوسف ما دبره حتى وجد السبيل إلى ذلك (إلا أن يشاء الله) يعني أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره لأن ذلك كله كان إلهاما من الله ليوسف وإخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد (نرفع درجات من نشاء) يعني بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته وفي هذه الآية دلالة على أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأن الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على إخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب في الأمور كلها (وفوق كل ذي علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فوق كل عالم لأنه هو الغني بعلمه عن التعليم وفي الآية دليل على أن إخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الأنباري يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه في الغاية لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه. قوله تعالى (قالوا) يعني إخوة يوسف (إن يسرق) يعني بنيامين الصواع (فقد سرق أخ له من قبل) يعني يوسف ظاهر الآية يقتضي أن إخوة يوسف قالوا للملك إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان سارقا أيضا وكان غرضهم من هذا الكلام إنا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كان على هذه الطريقة وهذه

وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء . وذكر محمد بن إسحق أن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته وأحبته حبا شديدا فلما ترعرع وقعت محبة يعقوب عليه فأتاها وقال يا أختاه سلمى إلى يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة قالت لا والله فقال والله ما أنا بتاركه فقالت دعه عندى أياما أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة لإسحاق كانوا يتوارثونها بالكبر فكانت عندها لأنها كانت أكبر ولد إسحاق فحزمت المنطقة على يوسف تحت ثيابه وهو صغير ثم قالت لقد فقدت منطقة إسحاق اكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدوها مع يوسف فقالت والله إنه لسلم لى فقال يعقوب إن هو فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته حتى ماتت فذلك الذى قال إخوة يوسف إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل (فأسرها) أضمرها (يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم) وإنما أنث الكناية لأنه عنى بها الكلمة وهى قوله (قال أنتم شر مكانا) ذكرها سرا فى نفسه ولم يصرح بها يريد أنتم شر مكانا أى منزلا عند الله ممن رميتموه بالسرقة فى صنيعكم بيوسف لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية وخيانتكم حقيقة (والله أعلم بما تصفون) تقولون (قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) فى القصة أنهم غضبوا غضبا شديدا لهذه الحالة وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شىء وإذا صاح ألقت كل امرأة حامل سمعت صوته ولدها وكان مع هذا إذا مسه أحد من ولد يعقوب سكن غضبه وقيل كان هذا صفة شمعون من ولد يعقوب ، وروى أنه قال

السيرة لأنهما من أم أخرى غير أمنا . واختلفوا فى السرقة التى نسبوها إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال سعيد بن جبير وقتادة كان لجده أبى أمه صنم وكان يعبده فأخذه يوسف وكسره وألقاه فى الطريق لئلا يعبده وقال مجاهد إن يوسف جاءه سائل يوما فأخذ بيضة من البيت فناولها له وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير الذى كان فى بيت يعقوب فأعطاها سائلا وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء . وذكر محمد بن إسحاق أن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته وأحبته حبا شديدا فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فأحبه فقال لأخته يا أختاه سلمى إلى يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال لها والله ما أنا بتاركه عندك فقالت دعه عندى أياما أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة كانت لإسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر أولاد إسحاق فكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة إسحاق فتفتشوا أهل البيت فوجدوها مع يوسف فقالت أنه لسلم لى يعنى يوسف فقال يعقوب إن كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فلذلك قال إخوة يوسف إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون هذه السرقة قال ابن الأنبارى وليس فى هذه الأفعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب (فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم) فى هاء الكناية ثلاثة أقوال : أحدها أن الضمير يرجع إلى الكلمة التى بعدها وهى قوله تعالى (قال) يعنى يوسف (أنتم شر مكانا) روى هذا المعنى العوفى عن ابن عباس والثانى أن الضمير يرجع إلى الكلمة التى قالوها فى حقه وهى قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول أبى صالح عن ابن عباس فعلى هذا القول يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التى قالوها فى حقه ولم يجبهم عليها والثالث أن الضمير يرجع إلى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فأسر يوسف الاحتجاج عليهم فى ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا يعنى منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لأنه لم يكن من يوسف سرقة فى الحقيقة وخيانتكم حقيقة (والله أعلم بما تصفون) يعنى بحقيقة ما تقولون . قوله عز وجل (قالوا) يعنى إخوة يوسف (يا أيها العزيز) يخاطبون بذلك الملك (إن له أبا شيخا كبيرا) قال أصحاب الأخبار والسير إن يوسف عليه الصلاة والسلام لما استخرج الصواع من رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه إلى أذنه ثم قال إن صواعى هذا يخبرنى أنكم اثنا عشر رجلا لأب واحد وإنكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله فى رحلى فنقره ثم قال إن صواعى غضبان وهو يقول كيف تسألنى عن صاحبى وقد رؤيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شىء وكان إذا صاح ألقت كل حامل حملها إذا سمعت صوته وكان من هذا إذا مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الإخوة وأشدهم وقيل كانت هذه صفة شمعون بن يعقوب وقيل إنه قال لإخوته

كم

لإخوته كم عدد الأسواق بمصر فقالوا عشرة فقال اكفونى أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفونى أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل إلا ألقت ولدها وقامت كل شعرة فى جسد روبيل فخرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم إلى جنب روبيل فمسه وروى خذ بيده فأتى به فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال روبيل إن هاهنا لبذرا من بذر يعقوب فقال يوسف من يعقوب وروى أن

كم عدد الأسواق بمصر قالوا عشرة قال اكفونى أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفونى أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل إلا وضعت ولدها وقامت كل شعرة فى جسد روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم إلى جنب هذا فمسه أو خذ بيده فأتى له فلما مسه سكن غضبه فقال لإخوته من مسنى منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل إن هذا بذر من بذر يعقوب وقيل إنه غضب ثانيا فقام إليه يوسف فوكزه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض وقال أنتم يامعشر العبرانيين تزعمون أن لا أحد أشد منكم فلما رأوا مانزل بهم ورأوا أن لاسبيل إلى تخليصه خضعوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا يعنى فى السن ويحتمل أن يكون كبيرا فى القدر لأنه نبى من أولاد الأنبياء (فخذ أحدنا مكانه) يعنى بدلا عنه لأنه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك (إنا نراك من المحسنين) يعنى فى أفعالك كلها وقيل من المحسنين إلينا فى توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة إلينا وقيل إن رددت بنيامين إلينا وأخذت أحدنا مكانه كنت من المحسنين (قال معاذ الله) يعنى قال يوسف أعوذ بالله معاذا (أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) لم يقل سرق تحرزا عن الكذب لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق (إنا إذا لظالمون) يعنى إن أخذنا بريئا بذنب غيره فإن قلت كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذه الأعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ففيه مافيه من العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو منصبه من النبوة والرسالة أن يزور على إخوته ويروج عليهم مثل هذا مع مافيه من الإيذاء لهم فكيف يليق به هذا كله قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة وأحسنها وأصحها أنه إنما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لاعن أمره وإنما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين ولله تعالى أسرار لايعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف فى خلقه بما يشاء وهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب فى طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده . قوله عز وجل (فلما استيأسوا منه) يعنى أيسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه وقيل أيسوا من أخيهم أن يرد عليهم وقال أبو عبيدة استيأسوا أى استيقنوا أن الأخ لايرد إليهم (خلصوا نجيا) يعنى خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم (قال كبيرهم) يعنى فى العقل والعلم لافى السن قال ابن عباس الكبير يهوذا وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرئاسة على إخوته وقال قتادة والسدى والضحاك هو روبيل

غضب ثانيا فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض وقال أنتم يامعشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا يحبه (فخذ أحدنا مكانه) بدلا منه (إنا نراك من المحسنين) فى أفعالك وقيل من المحسنين إلينا فى توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة وقيل يعنون إن فعلت ذلك كنت من المحسنين (قال) يوسف (معاذ الله) أعوذ بالله (أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل إلا من سرق تحرزا من الكذب (إنا إذا لظالمون) إن أخذنا بريئا بمجرم (فلما استيأسوا منه) أى أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ماسألوه وقال أبو عبيدة استيأسوا استيقنوا أن الأخ لا يرد إليهم (خلصوا نجيا) أى خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم والنجى يصلح للجماعة كما قال هاهنا ويصلح للواحد كقوله وقربناه نجيا وإنما جاز للواحد والجمع لأنه مصدر جعل نعتا كالعدل والزور ومثله النجوى يكون اسما ومصدرا قال الله تعالى «وإذ هم نجوى» أى متناجون وقال «ما يكون من نجوى ثلاثة» وقال فى المصدر «إنما النجوى من الشيطان» (قال كبيرهم) يعنى فى العقل والعلم لافى السن قال ابن عباس والكلبى هو يهوذا وهو أعقلهم وقال مجاهد هو

شمعون وكانت له الرئاسة علي إخوته وقال قتادة والسدى والضحاك هو روبيل وكان أكبرهم فى السن وهو الذى نهى الإخوة عن قتل يوسف (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا) عهدا (من الله ومن قبل ما فرطتم) قصرتم (فى يوسف) واختلفوا فى محل ما قيل هو نصب بايقاع العلم عليه يعنى ألم تعلموا من قبل تفريطكم فى يوسف وقيل هو فى محل الرفع علي الابتداء وتم الكلام عند قوله من الله ثم قال ومن قبل هذا تفريطكم فى يوسف وقيل ما صلة أى ومن قبل هذا فرطتم فى يوسف (فلن أبرح الأرض) التى أنابها وهى أرض مصر (حتى يأذن لى أبى) بالخروج منها ويدعونى (أو يحكم الله لى) برد أخى إلى أو بخروجى وترك أخى وقيل أو يحكم الله لى بالسيف فأقاتلهم وأسترد أخى (وهو خير الحاكمين) أعدل من فصل بين الناس (ارجعوا إلى أبيكم) يقول الأخ المحتبس بمصر لإخوته ارجعوا إلى أبيكم (فقولوا يا أبانا إن ابنك) بنيامين (سرق) وقرأ ابن عباس والضحاك سرق بضم السين وكسر الراء وتشديدها يعنى نسب إلى السرقة كما يقال خونته أى نسبته إلى الخيانة (وما شهدنا إلا بما علمنا) يعنى ما قلنا هذا إلا بما علمنا فانا رأينا إخراج الصواع من متاعه وقيل معناه وما شهدنا إلا بما علمنا أى ما كانت منا شهادة فى عمرنا على شىء إلا بما علمناه وليست هذه شهادة منا إنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم وقيل قال لهم يعقوب عليه السلام ما يدرى هذا الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم فقالوا ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا وكان الحكم ذلك عند يعقوب وبنيه (وما كنا للغيب حافظين) قال مجاهد وقتادة ما كنا نعلم أن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وإنما قلنا ونحفظ

وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فى يوسف لأنه نهاهم عن قتله (ألم تعلموا أن أباكم) يعنى يعقوب (قد أخذ عليكم موثقا) يعنى عهدا (من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) يعنى قصرتم فى أمر يوسف حتى ضيعتموه (فلن أبرح الأرض) يعنى الأرض التى أنا فيها وهى أرض مصر والمعنى فلن أخرج من أرض مصر ولا أفارقها على هذه الصورة (حتى يأذن لى أبى) يعنى فى الخروج من أرض مصر فيدعونى إليه (أو يحكم الله لى) برد أخى على أو بخروجى معكم وترك أخى أو يحكم الله لى بالسيف فأقاتلهم حتى أسترد أخى (وهو خير الحاكمين) لأنه يحكم بالحق والعدل والإنصاف، والمراد من هذا الكلام الالتجاء إلى الله تعالى فى إقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام (ارجعوا إلى أبيكم) يعنى يقول الأخ الكبير الذى عزم على الإقامة بمصر لإخوته الباقين ارجعوا إلى أبيكم يعقوب (فقولوا) له (ياأبانا إن ابنك سرق) إنما قالوا هذه المقالة ونسبوه إلى السرقة لأنهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب على ظنهم أنه سرق فلذلك نسبوه إلى السرقة فى ظاهر الأمر لا فى حقيقة الحال ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا إلا بما علمنا) يعنى ولم نقل ذلك إلا بعد أن رأينا إخراج الصواع وقد أخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة فى عمرنا على شىء إلا بما علمناه وهذه ليست بشهادة إنما هو خبر عن صنيع ابنك أنه سرق بزعمهم فيكون المعنى إن ابنك سرق فى زعم الملك وأصحابه لا أنا نشهد عليه بالسرقة وقرأ ابن عباس والضحاك سرق بضم السين وكسر الراء وتشديدها أى نسب إلى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لا تحتاج إلى تأويل ومعناها أن القوم نسبوه إلى السرقة إلا أن هذه القراءة ليست مشهورة فلا تقوم بها حجة والقراءة الصحيحة المشهورة هى الأولى وقوله وما شهدنا إلا بما علمنا يعنى وما قلنا هذا إلا بما علمنا فانا رأينا إخراج الصواع من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة فى عمرنا على شىء إلا بما علمناه وليست هذه شهادة وإنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم وقيل قال لهم يعقوب هب أنه سرق فما يدرى هذا الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم قالوا ماشهدنا عنده أن السارق يسترق إلا بما علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الأنبياء قبله ويعقوب وبنيه . وأورد على هذا القول كيف جاز ليعقوب إخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك . وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون ذلك الحكم كان مخصوصا بما إذا كان المسروق منه مسلما فلهذا أنكر عليهم إعلام الملك بهذا الحكم لظنه أنه كافر (وما كنا للغيب حافظين) قال مجاهد وقتادة يعنى ما كنا نعلم أن ابنك سرق ويصير أمرنا إلى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل وقال ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه إن حقيقة

الحال

آخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل ، وعن ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقال عكرمة وما كنا للغيب حافظين فلعلها دست بالليل فى رحله (واسأل القرية التى كنا فيها) أى أهل القرية وهى مصر قال ابن عباس هى قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر (والعير التى أقبلنافيها) أى القافلة التى كنا فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب قال ابن إسحاق عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته أهل تهمة عند أبيهم لما كانوا صنعوا فى أمر يوسف فأمرهم أن يقولوا هذه المقالة لأبيهم (وإنا لصادقون) فان قيل كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه مع علمه بشدة وجد أبيه عليه وفيه معنى العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة قيل قد أكثر الناس فيه والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى أمره به ليزيد فى بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر ويلحقه فى الدرجة بآبائه الماضين ، وقيل إنه لم يظهر نفسه لإخوته لأنه لم يأمن أن يدبروا فى أمره تدبيرا فيكتموه عن أبيه والأول أصح (قال بل سولت لكم) زينت (أنفسكم أمراً) وفيه اختصار معناه فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ماقال كبيرهم فقال يعقوب بل سولت لكم أنفسكم أمرا أى حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل (فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) يعنى يوسف وبنيامين وأخاهم المقيم بمصر (إنه هو العليم) بحزنى ووجدى على فقدهم (الحكيم) فى تدبير خلقه قوله تعالى (وتولى عنهم) وذلك أن يعقوب عليه السلام لما بلغه خبر بنيامين تناهى حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم (وقال يا أسفا) يا حزنا (على يوسف) والأسف أشد الحزن

الحال غير معلومة لنا فان الغيب لايعلمه إلا الله فلعل الصواع دس فى رحله ونحن لانعلم بذلك (واسئل القرية التى كنا فيها) يعنى واسأل أهل القرية إلا أنه حذف المضاف للإيجاز ومثل هذا النوع من المجاز مشهور فى كلام العرب والمراد بالقرية مصر وقال ابن عباس هى قرية من قرى مصر كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش (والعير التى أقبلنا فيها) يعنى واسأل القافلة التى كنا فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب (وإنا لصادقون) يعنى فيما قلناه وإنما أمرهم أخوهم الذى أقام بمصر بهذه المقالة مبالغة فى إزالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لأنهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) فيه اختصار تقديره فرجعوا إلى أبيهم فأخبروه بما جرى لهم فى سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وأمرهم أن يقولوه لأبيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعنى بل زينت لكم أنفسكم أمرا وهو حمل أخيكم معكم إلى مصر لطلب نفع عاجل فآل أمركم إلى ما آل ، وقيل معناه بل خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق (فصبر جميل) تقدم تفسيره فى أول السورة . وقوله (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) يعنى بيوسف وبنيامين والأخ الثالث الذى أقام بمصر وإنما قال يعقوب هذه المقالة لأنه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لأنه إذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع إلى الفرج ، وقيل إن يعقوب علم بما يجرى عليه وعلى بنيه من أول الأمر وهو رؤيا يوسف وقوله « يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا » فلما تناهى الأمر قال عسى الله أن يأتينى بهم جميعا (إنه هو العليم) يعنى بحزنى ووجدى عليهم (الحكيم) فيما يدبره ويقضيه . قوله تعالى (وتولى عنهم) يعنى وأعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فعند ذلك أعرض عنهم (وقال يا أسفا على يوسف) الأسف أشد الحزن وإنما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك :

يقول أتبكى كل قبر رأيته ... لقد ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعنى فهذا كله قبر مالك

فأجاب بأن الحزن يجدد الحزن وقيل إن يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجده وجدد حزنه على يوسف لأن يوسف كان أصل المصيبة ، وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام فى قوله يا أسفا على يوسف فقال هذه شكاية وإظهار جزع فلا يليق بعلو منصب

ذلك وليس الأمر كما قال هذا الجاهل المعترض لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام شكا إلى الله لا منه فقوله ياأسفا على يوسف معناه يارب ارحم أسفى على يوسف وقد ذكر ابن الأنبارى عن بعض اللغويين أنه قال نداء يعقوب بالأسف فى اللفظ من المجاز يعنى به غير المظهر فى اللفظ وتلخيصه ياإلهى ارحم أسفى أو أنت راءى أسفى أو هذا أسفى فنادى الأسف فى اللفظ والمنادى سواه فى المعنى ولا مأثم إذا لم ينطلق اللسان بكلام مؤثم لأنه لم يشك إلا إلى ربه عز وجل فلما كان قوله ياأسفا على يوسف شكوى إلى ربه كان غير ملوم فى شكواه وقيل إن يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته قال ياأسفا على يوسف أى أشكو إلى الله شدة أسفى على يوسف ولم يشكه إلى أحد من الخلق بدليل قوله إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله (وابيضت عيناه من الحزن) أى عمى من شدة الحزن على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيئا ست سنين وقيل إنه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك أن الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كأنها بيضاء من ذلك الماء الخارج من العين (فهو كظيم) أى مكظوم وهو الممتلىء من الحزن الممسك عليه لايبثه قال قتادة وهو الذى يردد حزنه فى جوفه ولم يقل إلا خيرا وقال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله منه وقال ثابت البنانى ووهب بن منبه والسدى إن جبريل عليه الصلاة والسلام دخل على يوسف وهو فى السجن فقال هل تعرفنى أيها الصديق قال يوسف أرى صورة طاهرة قال إنى رسول رب العالمين وأنا الروح الأمين فقال يوسف فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال ألم تعلم يايوسف أن الله يطهر الأرض بطهر النبيين وأن الأرض التى يدخلونها هى أطهر الأرضين وأن الله قد طهر بك الأرض والسجن وماحوله ياأطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لى باسم الصديقين وتعدنى من الصالحين المخلصين الطاهرين وقد أدخلت مدخل المذنبين قال له إنه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك فى معصية ربك فلذلك سماك الله من الصديقين وعدك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب أيها الروح الأمين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر حزنه قال حزن سبعين ثكلاء قال فماله من الأجر ياجبريل قال أجر مائة شهيد قال أفتراني لاقيه قال نعم فطابت نفس يوسف وقال ماأبالى مما لقيت إن رأيته . قوله عز وجل (قالوا) يعنى إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام لأبيهم (تالله تفتؤا تذكر يوسف) يعنى لاتزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه يقال مافتىء يفعل كذا أى مازال ولا محذوفة فى جواب القسم لأن موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولوقطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لاأبرح قاعدا وقوله (حتى تكون حرضا) قال ابن عباس يعنى دنفا وقال مجاهد الحرض مادون الموت يعنى قريبا من الموت وقال ابن إسحاق يعنى فاسدا لاعقل له والحرض الذى فسد جسمه وعقله وقيل ذائبا من الهم وأصل الحرض الفساد فى الجسم والعقل من الحزن أو الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل يعنى لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم

مملوء من الحزن ممسك عليه لايبثه وقال قتادة تردد حزنه فى جوفه ولم يقل إلا خيرا قال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عاما لاتجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب (قالوا) يعنى أولاد يعقوب (تالله تفتؤا تذكر يوسف) أى لاتزال تذكر يوسف لاتفتر من حبه يقال ما فتىء يفعل كذا أى مازال يفعل ولا محذوفة من قوله تفتؤا قال مافتىء يفعل كذا أى ما زال كقول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولوقطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح (حتى تكون حرضا) قال ابن عباس دنفا . وقال مجاهد الحرض ما دون الموت يعنى قريبا من الموت وقال ابن إسحاق فاسدا لا عقل لك والحرض الذى فسد جسمه وعقله وقيل ذائبا من الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل وأصل الحرض الفساد فى الجسم والعقل من الحزن والهرم أو العشق أو الهم يقال رجل حرض وامرأة حرض ورجلان وامرأتان حرض ورجال ونساء كذلك يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والأسف

والمؤنث لأنه مصدر وضع موضع الاسم (أو تكون من الهالكين) أى من الميتين (قال) يعقوب عليه السلام عند ذلك لما رأى غلظتهم (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) والبث أشد الحزن سمى بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه أى يظهره وقال الحسن بثى أى حاجتى وروى أنه دخل على يعقوب

جار له وقال يا يعقوب ما الذى

والأسف (أو تكون من الهالكين) يعنى من الأموات . فان قلت كيف حلفوا على شىء لم يعلموا حقيقته قطعا . قلت إنهم بنوا الأمر على الأغلب الظاهر أى نقوله ظنا منا أن الأمر يصير إلى ذلك (قال) يعنى يعقوب عند مارأى قولهم له وغلظتهم عليه (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) أصل البث إثارة الشىء وتفريقه وبث النفس ماانطوت عليه من الغم والشر قال ابن قتيبة البث أشد الحزن وذلك لأن الإنسان إذا ستر الحزن وكتمه كان هما فاذا ذكره لغيره كان بثا فالبث أشد الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون المعنى إنما أشكو حزنى العظيم وحزنى القليل إلى الله لا إليكم . قال ابن الجوزى روى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه من حديث أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم يايعقوب ماالذى أذهب بصرك وما الذى قوس ظهرك قال أما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال يايعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحى أن تشكو إلى غيرى فقال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو » وقيل إنه دخل على يعقوب جار له فقال له يايعقوب مالى أراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن مابلغ أبوك فقال هشمنى وأفنانى ماابتلانى الله به من هم يوسف فأوحى الله إليه يايعقوب أتشكونى إلى خلقى فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى قال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك إذا سئل يقول إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله تعالى وقيل إن الله أوحى إليه وعزتى وجلالى لا أكشف مابك حتى تدعونى فعند ذلك قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله تعالى ثم قال أى رب أما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصرى وقوست ظهرى فاردد على ريحانتى أشمهما شمة قبل أن أموت ثم اصنع ماشئت فأتاه جبريل فقال يايعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أبشر فوعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك أتدرى لم وجدت عليك لأنكم ذبحتم شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئا وأن أحب عبادى إلى الأنبياء ثم المساكين اصنع طعاما وادع إليه المساكين فصنع طعاما ثم قال من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك إذا تغدى أمر مناديا ينادى من أراد أن يتغدى فليأت آل يعقوب وإذا أفطر أمر أن ينادى من أراد أن يفطر فليأت آل يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين وقال وهب بن منبه أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدرى لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال يارب لا قال لأنك شويت عناقا وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه وقيل إن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلا بين يدى أمه وهى تخور فلم يرحمها . فان قلت هل فى هذه الروايات مايقدح فى عصمة الأنبياء . قلت لا وإنما عوقب يعقوب بهذا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وإنما يطلب من الأنبياء من الأعمال على قدر منصبهم وشريف رتبتهم ويعقوب عليه الصلاة والسلام من أهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من أنبيائه بمحنة فصبر وفوض أمره إلى الله فإبراهيم

غير حالك مالى أراك قد تهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك قال هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من هم يوسف ، فأوحى الله إليه يايعقوب أتشكونى إلى خلقى فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى فقال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك إذا سئل قال إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله وروى أنه قيل له يايعقوب ما الذى أذهب بصرك وقوس ظهرك فقال أذهب بصرى بكائى على يوسف وقوس ظهرى حزنى على أخيه فأوحى الله اليه أتشكونى فوعزتى وجلالى لا أكشف مابك حتى تدعونى فعند ذلك قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فأوحى الله تعالى إليه وعزتى وجلالى لو كانا ميتين لأخرجتهما لك وإنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه منها شيئا وإن أحب خلقى إلى الأنبياء ثم المساكين فاصنع طعاما وادع اليه المساكين فصنع طعاما ثم قال من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب وروى أنه كان بعد ذلك إذا تغدى أمر من ينادى من أراد الغداء فليأت يعقوب وإذا أفطر أمر من ينادى من أراد أن يفطر فليأت يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين وعن وهب بن منبه ، قال لما أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدرى لم عاقبتك

وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال لا بلى قال لأنك قدشويت عناقا وقترت على جارك واكلت ولم تطعمه وروى ان سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلا بين يدى أمه وهى تخور وقال وهب والسدى وغيرهما أتي جبريل إلى يوسف فى السجن فقال هل تعرفنى أيها الصديق قال أرى صورة طاهر ورائحة طيبة قال إني رسول رب العالمين وأنا الروح الأمين قال فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال ألم تعلم يا يوسف أن الله تعالى يطهر البيوت بطهر النبيين وأن الأرض التى يدخلونها هى أطهر الأرضين وأن الله تعالى قد طهر بك السجن وما حوله يا طاهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال كيف لى باسم الصديقين وتعدنى من المخلصين الطاهرين وقد أدخلت مدخل المذنبين وسميت باسم الفاسقين قال جبريل لأنه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك فى معصية ربك لذلك سماك الله فى الصديقين وعدك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين قال يوسف هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين ؟ قال نعم وهب الله له الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم قال فما قدر حزنه (٣١٠) قال حزن سبعين ثكلى قال فماذا له من الأجر يا جبريل قال أجر مائة شهيد قال أفتراني لاقيه ؟ قال نعم فطابت نفسه وقال ما أبالى بما لقيت إن رأيته قوله تعالى (وأعلم من الله مالا تعلمون) يعنى أعلم من حياة يوسف مالا تعلمون روي أن ملك الموت زار يعقوب فقال له أيها الملك الطيب ريحه الحسن صورته هل قبضت روح ولدى فى الأرواح قال لا فسكن يعقوب وطمع فى رؤيته وقل . واعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنى وأنتم سنسجد له وقال السدى لما أخبره ولده بسيرة الملك أحست نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف فقال يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه . وهو

وروى عن عبد الله بن يزيد بن أبي فروة أن يعقوب عليه السلام كتب كتابا إلى يوسف عليه السلام حين حبس بنيامين من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر أما بعد فانا أهل بيت وكل بنا البلاء أما جدى إبراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار فجعلها الله بردا وسلاما وأما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله ذئب فذهبت عيناى من البكاء عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته إلى وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعيل صبره فأظهر نفسه على ما نذكره إن شاء الله تعالى (يابنى اذهبوا فتحسسوا) تخبروا واطلبوا الخبر (من يوسف وأخيه) والتحسس بالحاء والجيم لا يبعد أحدهما من الآخر إلا أن التحسس بالحاء

عليه الصلاة والسلام ألقى فى النار فصبر ولم يشك إلى أحد وإسماعيل ابتلى بالذبح فصبر وفوض أمره إلى الله وإسحاق ابتلى بالعمى فصبر ولم يشك إلى أحد ويعقوب ابتلى بفقد ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمى بعد ذلك أوضعف بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك إلى أحد شيئا مما نزل به وإنما كانت شكايته إلى الله عز وجل بدليل قوله إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فاستوجب بذلك المدح العظيم والثناء الجميل فى الدنيا والدرجات العلى فى الآخرة مع من سلف من أبويه إبراهيم وإسحاق عليهما الصلاة والسلام. وأما دمع العين وحزن القلب فلا يستوجب به ذما ولا عقوبة لأن ذلك ليس إلى اختيار الإنسان فلا يدخل تحت التكليف بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم بكى على ولده إبراهيم عند موته وقال «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وما نقول إلا ما يرضى ربنا» فهذا القدر لا يقدر الإنسان على دفعه عن نفسه فصار مباحا لا حرج فيه على أحد من الناس وقوله (وأعلم من الله مالا تعلمون) يعنى أنه تعالى من رحمته وإحسانه يأتى بالفرج من حيث لا أحتسب وفيه إشارة إلى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه إليه وروى أن ملك الموت زار يعقوب فقال له يعقوب أيها الملك الطيب ريحه الحسن صورته الكريم على ربه هل قبضت روح ابنى يوسف فى الأرواح فقال لا فطابت نفس يعقوب وطمع فى رؤيته فلذلك قال وأعلم من الله مالا تعلمون وقيل معناه وأعلم أن رؤيا يوسف حق وصدق وأنى وأنتم سنسجد له وقال السدى لما أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله فى جميع أقواله وأفعاله أحست نفس يعقوب وطمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعنى يعقوب (يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) التحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل إن التحسس بالحاء يكون فى الخير وبالجيم يكون فى الشر ومنه الجاسوس

وهو الذى يطلب الكشف عن عورات الناس قال ابن عباس التمسوا قال ابن الأنبارى يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقال هنا من يوسف وأخيه لأنه أقيم من مقام عن قال ويجوز أن يقال من للتبعيض ويكون المعنى تحسسوا خبرا من أخبار يوسف وأخيه ، روى عن عبد الله بن يزيد عن أبى فروة أن يعقوب كتب كتابا إلى يوسف عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر أما بعد فانا أهل بيت وكل بنا البلاء أما جدى إبراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار فجعلها الله بردا وسلاما وأما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى ثم كان لى ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته إلى وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد بكاؤه وعيل صبره وأظهر نفسه لإخوته على ماسنذكره إن شاء الله تعالى فذلك قوله تعالى يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه (ولا تيأسوا) أي ولا تقنطوا (من روح الله) يعنى من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) يعنى أن المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به خيرا ويحمد عند الرخاء فينال به خيرا والكافر بضد ذلك . قوله تعالى (فلما دخلوا عليه) فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعنى على يوسف (قالوا ياأيها العزيز) يعنون ياأيها الملك والعزيز القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا الضر) أى الشدة والفقر والجوع وأرادوا بأهلهم من خلفهم ومن وراءهم من العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة كاسدة لا تنفق فى ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع . وأصل الإزجاء فى اللغة : الدفع قليلا قليلا والتزجية دفع الشىء لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر :

* وحاجة غير مزجاة من الحاج *

يعنى هى قليلة يسيرة يمكن دفعها وسوقها لقلة الاعتناء بها وإنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لردائتها أو لمجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذه البضاعة المزجاة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا وقيل كانت خلق الغرائر والحبال وقيل كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط وقال الكلبى ومقاتل كانت حبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الأدم والنعال وقال الزجاج سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم : فلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها وقيل إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها (فأوف لنا الكيل) يعنى أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافى والمعنى إنا نريد أن تقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام الردئ (وتصدق علينا) يعنى وتفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والردئ ولا تنقصنا ، هذا قول أكثر المفسرين قال ابن الأنبارى وكان الذى يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلف العلماء هل كانت الصدقة حلالا للأنبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان بن عيينة إن الصدقة كانت حلالا للأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم واستدل بهذه

فى الخير وبالجيم فى الشر والتحسس هو طلب الشىء بالحاسة قال ابن عباس معناه التمسوا (ولا تيأسوا) ولا تقنطوا (من روح الله) أى من رحمة الله وقيل من فرج الله (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فلما دخلوا عليه) وفيه إضمار تقديره فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا على يوسف فلما دخلوا عليه (قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى الشدة والجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى قليلة رديئة كاسدة لا تنفق فى ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع فيها . وأصل الإزجاء السوق والدفع وقيل للبضاعة مزجاة لأنها غير نافقة وإنما تجوز على دفع من أخذها واختلفوا فيها فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا وقيل كانت خلق الغرائر والحبال وقيل كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط وقال الكلبى ومقاتل كانت الحبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الأدم والنعال (فأوف لنا الكيل) أى أعطنا ما كنت تعطينا قبل بالثمن الجيد الوافى (وتصدق علينا) أى تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والردىء ولا

تنقصنا ، هذا قول أكثر المفسرين وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا برد أخينا إلينا (إن الله يجزى) يثيب (المتصدقين) وقال الضحاك لم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن وسئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا عليه الصلاة والسلام فقال سفيان ألم تسمع قوله تعالى وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين يريد أن الصدقة كانت حلالا لهم وروى أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق على فقال إن الله لا يتصدق وإنما يتصدق من يبغى الثواب قل اللهم أعطنى أو تفضل على (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) اختلفوا فى السبب الذى حمل يوسف على هذا القول قال ابن إسحق ذكر لى أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة فارفض دمعه فباح بالذى كان يكتمه ، وقال الكلبى إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن ذعر قال إنى وجدت غلاما فى بئر من حاله كيت وكيت فابتعته بكذا درهما فقالوا أيها الملك نحن بعنا ذلك الغلام منه فغاظ يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم فولى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يحزن ويبكى لفقد واحد منا حتى كف بصره فكيف إذا أتاه قتل بنيه كلهم ثم قالوا له إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك حين رحمهم وبكى وقال ذلك القول وقيل قاله حين قرأ كتاب أبيه الذى كتب إليه فلم يتمالك البكاء فقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ فرقتم بينهما وصنعتم ما صنعتم إذ أنتم جاهلون بما يئول إليه أمر يوسف وقيل مذنبون وعاصون وقال الحسن إذ أنتم شبان ومعكم جهل

الآية وأنكر جمهور العلماء ذلك وقالوا إن حال الأنبياء كلهم واحد فى تحريم الصدقة عليهم لأنهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والأخذ منهم ، والصدقة أوساخ الناس فلا تحل لهم لأنهم مستغنون بالله عمن سواه . وأجيب عن قوله وتصدق علينا أنهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وإيفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لا نفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد أن يقول الرجل فى دعائه اللهم تصدق علينا لأن الصدقة لا تكون إلا ممن يبتغى الثواب وروى أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق على فقال إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبغى الثواب قل اللهم أعطنى وتفضل على وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعنى برد أخينا علينا (إن الله يجزى المتصدقين) يعنى بالثواب الجزيل وقال الضحاك لم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن (قال) يعنى قال يوسف لأخوته (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وقد اختلفوا فى السبب الذى من أجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول فقال ابن إسحاق ذكر لى أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته رقة على إخوته فباح بالذى كان يكتم وقيل إنه أخرج لهم نسخة الكتاب الذى كتبوه ببيعه من مالك وفى آخره وكتبه يهوذا فلما قرءوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا يا أيها الملك إنه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال إنكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكى ويحزن لفقد واحد منا فكيف إذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا إن كنت فاعلا ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى وقال هذا القول وقيل إن يوسف لما قرأ كتاب أبيه لم يتمالك أن بكى وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وهذا استفهام يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدرى من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه أراد تفظيع الأمر وتعظيمه ويجوز أن يكون المعنى هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله إياهما من المكروه . واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى «وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون» فان قلت الذى فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذى فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فانهم لم يسعوا فى حبسه ولا أرادوا ذلك . قلت إنهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف ، وقيل إنهم قالوا له لما اتهم بأخذ الصواع ما رأينا منكم يا بنى راحيل خيرا (إذ أنتم جاهلون) هذا يجرى مجرى العذر لهم يعنى أنكم أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يئول إليه أمر يوسف . قوله عز وجل

وجل (قالوا أئنك لأنت يوسف) قرئ على سبيل الاستفهام وحجة هذه القراءة قال ابن عباس لما قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاما أئنك لأنت يوسف، وقرئ على الخبر وحجته ما قال ابن عباس أيضا فى رواية أخرى عنه إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج على رأسه وكان له فى قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا أنت يوسف وقيل قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه حتى (قال أنا يوسف) قال بعض العلماء إنما أظهر الاسم فى قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيما لما نزل به من ظلم إخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذى ظلمتمونى وقصدتم قتلى بأن ألقيتمونى فى الجب ثم بعتمونى بأبخس الأثمان ثم صرت إلى ما ترون فكانت تحت ظهور الاسم هذه المعانى كلها ولهذا قال (وهذا أخى) وهم يعرفونه لأنه قصد به أيضا وهذا أخى المظلوم كما ظلمتمونى ثم صرت أنا وهو إلى ما ترون وهو قوله (قد من الله علينا) بأن جمع بيننا وقيل من علينا بكل عز وخير فى الدنيا والآخرة، وقيل من علينا بالسلامة فى ديننا ودنيانا (إنه من يتق ويصبر) يعنى يتقى الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس وقال مجاهد يتقى المعصية ويصبر على السجن وقيل يتقى الله بأداء فرائضه ويصبر عما حرم الله (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) يعنى أجر من كان هذا حاله (قالوا) يعنى قال إخوة يوسف معتذرين إليه مما صدر منهم فى حقه (تالله لقد آثرك الله علينا) أى اختارك وفضلك علينا يقال آثرك الله إيثارا أى اختارك ويستعار الأثر للفضل والإيثار للتفضيل والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال أبو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل التى أعطاها الله عز وجل له دون إخوته وقيل فضله عليهم بالنبوة وأورد على هذا القول بأن إخوته كانوا أنبياء أيضا فليس له عليهم فضل فى ذلك وأجيب عنه بأن يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان أفضل منهم بهذا الاعتبار لأن من جمعت له النبوة والرسالة كان أفضل ممن خص بالنبوة فقط (وإن كنا لخاطئين) يعنى وما كنا فى صنعنا بك إلا خاطئين ولهذا اختير لفظ الخاطئ على المخطئ والفرق بينهما أن يقال خطئ خطأ إذا تعمد وأخطأ إذا كان غير متعمد وقيل يجوز أن يكون آثر لفظ خاطئين على مخطئين لموافقة رءوس الآى لأن خاطئين أشبه بما قبلها (قال) يعنى يوسف (لا تثريب عليكم) يعنى لا تعيير ولا توبيخ عليكم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يوبخها ولا يثرب» أى لا يعيرها بالزنا بعد إقامة الحد عليها وفى محل قوله (اليوم) قولان أحدهما أنه يرجع إلى ما قبله فيكون التقدير لا تثريب عليكم اليوم والمعنى أن هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وأنا لا أقرعكم اليوم ولا أوبخكم ولا أثرب عليكم، فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم اليوم ويبتدأ

الشباب فإن قيل كيف قال ما فعلتم بيوسف وأخيه وما كان منهم إلى أخيه شىء وهم لم يسعوا فى حبسه قيل قد قالوا له فى الصاع ما رأينا منكم يا بنى راحيل خيرا، وقيل لما كانا من أم واحدة كانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف (قالوا أئنك لأنت يوسف) قرأ ابن كثير وأبو جعفر إنك على الخبر وقرأ الآخرون على الاستفهام قال ابن إسحاق كان يوسف يتكلم من وراء ستر فلما قال يوسف هل علمتم ما فعلتم كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب فعرفوه وقال الضحاك عن ابن عباس لما قال هذا القول تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ المنظوم فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاما أئنك لأنت يوسف وقال عطاء عن ابن عباس إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له فى قرنه علامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها شبه الشامة فعرفوه فقالوا أئنك لأنت يوسف وقيل قالوه على التوهم حتى (قال أنا يوسف وهذا أخى) بنيامين (قد من الله علينا) أنعم الله علينا بأن جمع بيننا (إنه من يتق) بأداء الفرائض واجتناب المعاصى (ويصبر) عما حرم الله عز وجل

عليه قال ابن عباس يتقى الزنا ويصبر عن العزوبة وقال مجاهد يتقى المعصية ويصبر على السجن (فان الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا) معتذرين (تالله لقد آثرك الله علينا) أى اختارك الله وفضلك علينا (وإن كنا لخاطئين) أى وما كنا فى صنيعنا بك إلا مخطئين مذنبين يقال خطئ خطأ إذا تعمد وأخطأ إذا كان غير متعمد (قال) يوسف وكان حليما (لا تثريب عليكم اليوم) لا تعيير عليكم ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم

(يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين) فلما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدى؟ قالوا ذهبت عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه ثم قال (اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) أى يعد مبصرا وقيل يأتينى بصيرا لأنه كان قد دعاه قال الحسن لم يعلم أنه يعود بصيرا إلا بعد أن أعلمه الله عز وجل قال الضحاك كان ذلك القميص من نسج الجنة وعن مجاهد قال أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه وكان ذلك القميص قميص إبراهيم عليه السلام وذلك أنه جرد من ثيابه وألقى فى النار عريانا (٣١٤) فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فكان ذلك القميص عند إبراهيم عليه السلام فلما مات ورثه إسحاق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى قصبة وسد رأسها وعلقها فى عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لايفارقه فلما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبريل عليه السلام وعلى يوسف ذلك التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إياه ففى هذا الوقت جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام . وقال له أرسل إلى أبيك ذلك القميص فان فيه ريح الجنة لايقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفى فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال ألقوه على وجه أبي يأت بصيرا (وأتونى بأهلكم أجمعين ولما فصلت العير) أى خرجت من عريش مصر متوجهة إلى كنعان (قال أبوهم) أى قال يعقوب لولد ولده (إنى لأجد ريح يوسف) روى أن ريح الصبا استأذنت ربها فى أن تأتى يعقوب بريح ذلك يوسف قبل أن يأتيه البشير . قال مجاهد أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام وحكى عن ابن عباس من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخا وقيل هبت ريح الصبا فصفقت القميص فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أن ليس فى الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فلذلك قال إنى لأجد ريح يوسف قبل البشير (لولا أن تفندون) تسفهونى وعن ابن عباس تجهلونى وقال الضحاك تهرمونى فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب

بقوله (يغفر الله لكم) والقول الثانى أن اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لاتثريب عليكم ويبتدأ باليوم يغفر الله لكم كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لاتثريب عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفر الله لكم (وهو أرحم الراحمين) ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال أبيه فقال ماحال أبي بعدى؟ قالوا ذهب بصره من كثرة البكاء عليك فأعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصى هذا) قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة وقال مجاهد أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه وكان ذلك القميص قميص إبراهيم وذلك أنه لما جرد من ثيابه وألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فكان ذلك القميص عند إبراهيم ، فلما مات ورثه إسحاق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى قصبة من فضة وسد رأسها وجعلها فى عنق يوسف كالتعاويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لا تفارقه فلما ألقى يوسف فى البئر عريانا أتاه جبريل وأخرج ذلك القميص وألبسه إياه فلما كان هذا الوقت جاءه جبريل فأمره أن يرسل هذا القميص إلى أبيه لأن فيه ريح الجنة فلا يقع على مبتلى ولاسقيم إلا عوفى فى الوقت فدفع ذلك القميص يوسف إلى إخوته وقال اذهبوا بقميصى هذا (فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) قال المحققون إن علم يوسف أن إلقاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب رد البصر كان بوحى الله إليه ذلك ويمكن أن يقال إن يوسف لما علم أن أباه قد عمى من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر بعث إليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاؤه وينشرح صدره ويفرح قلبه فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر فهذا القدر تمكن معرفته من جهة العقل وقوله (وأتونى بأهلكم أجمعين) قال الكلبى كانوا نحوا من سبعين إنسانا وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين مابين رجل وامرأة (ولما فصلت العير) يعنى خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين إلى أرض كنعان (قال أبوهم) يعنى قال يعقوب لولد ولده (إنى لأجد ريح يوسف) قيل إن ريح الصبا استأذنت ربها فى أن تأتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير وقال مجاهد أصابت يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام وقال ابن عباس من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخا، وقيل هبت ريح فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فعلم بذلك أنه من ريح يوسف فلذلك قال : إنى لأجد ريح يوسف (لولا أن تفندون) أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأى وقال ابن الأنبارى أفند الرجل إذا خرف وفند إذا جهل ونسب

عقله وقيل تضعفونى وقال أبو عبيدة تضللونى وأصل الفند الفساد (قالوا) يعنى أولاد أولاده (تالله إنك لفى ضلالك القديم) لفى خطئك السابق من ذكرك ليوسف لاتنساه والضلال هو الذهاب عن الطريق الصواب فان عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره (فلما أن جاء البشير) وهو المبشر عن يوسف قال ابن مسعود جاء البشير بين يدى العير قال ابن عباس هو يهوذا قال أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأخبره أن ولده حى فأفرحه كما أحزنته . قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج حافيا حاسرا يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا وقيل البشير مالك بن ذعر (ألقاه على وجهه) يعنى ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب (فارتد بصيرا) فعاد بصيرا بعد ما كان أعمى ، وعادت إليه قوته بعد الضعف وشبا به بعد الهرم وسروره بعد الحزن (قال) يعنى يعقوب عليه السلام (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا وروى أنه قال للبشير كيف تركت يوسف قال إنه ملك مصر فقال يعقوب ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) مذنبين (قال سوف أستغفر لكم ربى) قال أكثر المفسرين أخر الدعاء إلى السحر وهو الوقت الذى يقول الله تعالى هل من داع فأستجيب له فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عز وجل وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لأولادى ما أتوا إلى أخيهم يوسف فأوحى الله تعالى إليه أنى قد غفرت لك ولهم أجمعين وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما سوف أستغفر لكم ربى ، يعنى ليلة الجمعة قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقال طاوس أخر الدعاء إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء وعن الشعبى قال سوف أستغفر لكم ربى قال أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفر لكم ربى (إنه هو الغفور الرحيم) روى أن يوسف كان قد بعث مع

ذلك إليه وقال الأصمعى إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو الفنيد والفند فيكون المعنى لولا أن تفندونى أى تنسبونى إلى الخرف وقيل تسفهونى وقيل تلومونى وقيل تجهلونى وهو قول ابن عباس وقال الضحاك تهرمونى فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله (قالوا) يعنى أولاد أولاد يعقوب وأهله الذين عنده لأن أولاده لصلبه كانوا غائبين عنه (تالله إنك لفى ضلالك القديم) يعنى من ذكر يوسف و لاتنساه لأنه كان عندهم أن يوسف قد مات وهلك ويرون أن يعقوب قد لهج بذكره فلذلك قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم يعنى من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب (فلما أن جاء البشير) وهو المبشر يخبر يوسف قال ابن مسعود جاء البشير بين يدى العير قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنهما هو يهوذا قال السدى قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حى فأفرحه كما أحزنته قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج به حافيا حاسرا يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا (ألقاه على وجهه) يعنى فألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب (فارتد بصيرا) يعنى فرجع بصيرا بعد ما كان قد عمى وعادت إليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن (قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) يعنى من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا ، وروى أن يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة . قوله تعالى (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) يعنى قال أولاد يعقوب حين وصلوا إليه وأخذوا يعتذرون إليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا أى اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله (إنا كنا خاطئين) يعنى فى صنيعنا (قال سوف أستغفر لكم ربى) قال أكثر المفسرين إن يعقوب أخر الدعاء والاستغفار لهم إلى وقت السحر لأنه أشرف الأوقات وهو الوقت الذى يقول الله فيه هل من داع فأستجيب له فلما انتهى يعقوب إلى وقت السحر قام إلى الصلاة متوجها إلى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه إلى الله تعالى وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لأولادى ما أتوا إلى أخيهم يوسف فأوحى الله إليه أنى قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس إنه أخر الاستغفار لهم إلى ليلة الجمعة لأنها أشرف الأوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفا وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار إلى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبى سوف أستغفر لكم ربى قال حتى أسأل يوسف فان كان قد عفا عنكم أستغفر لكم ربى (إنه هو الغفور) يعنى لذنوب عباده (الرحيم)

البشير إلى يعقوب مائتى راحلة وجهازا كثيرا ليأتوا بيعقوب وأهله وأولاده فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فخرجوا وهم اثنان وسبعون من بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وتسعين فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذى فوقه فخرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجنود وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال يايهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا إبنك فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام فقال

جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يامذهب الأحزان وروى أنهما نزلا وتعانقا وقال الثورى لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا فقال يوسف ياأبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال بلى يابنى ولكن فارقتك وأنت صغير فخشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك فذلك قوله (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه) أى ضم (إليه أبويه) قال أكثر المفسرين هو أبوه وخالته ليا وكانت أمه راحيل قد ماتت فى نفاس بنيامين وقيل هو أبوه وأمه وكانت حية . وفى بعض التفاسير أن الله عز وجل أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) فان قيل فقد قال فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه فكيف قال ادخلوا مصر بعد ما أخبر أنهم دخلوها وما وجه هذا الاستثناء وقد حصل الدخول قيل إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقاهم قبل دخولهم مصر وفى الآية تقديم وتأخير والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربى إن شاء الله وقيل الاستثناء يرجع إلى الأمن من الجواز ، لأنهم كانوا لا يدخلون مصر قبله إلا بجواز من ملوكهم يقول آمنين من الجواز إن شاء الله كما قال «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين» وقيل إن ههنا بمعنى إذ يريد إذ شاء الله كقوله تعالى «وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» أى إذ كنتم مؤمنين (ورفع أبويه على العرش) والرفع

بجميع خلقه قال عطاء الخراسانى طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته لا تثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربى قال أصحاب الأخبار إن يوسف عليه الصلاة والسلام بعث مع إخوته إلى أبيه مائتى راحلة وجهازا كثيرا ليأتوه بيعقوب وجميع أهله إلى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج إلى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر يعنى ملك مصر وعرفه بمجىء أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك فى أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يد ابنه يهوذا فلما نظر إلى الخيل والناس قال يايهوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يامذهب الأحزان وقيل إنهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالده وبكيا ، وقيل إن يوسف قال لأبيه ياأبت بكيت حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه) يعنى ضم إليه (أبويه) قال أكثر المفسرين هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت أمه قد ماتت فى نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد ، وقيل إن الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقا لرؤياه والأول أصح (وقال ادخلوا مصر) قيل المراد بالدخول الأول فى قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعنى البلد وقيل إنه أراد بالدخول الأول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثانى الاستيطان بها أى ادخلوا مصر مستوطنين فيها (إن شاء الله آمنين) قيل إن هذا الاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله وقيل إنه عائد إلى الدخول فعلى هذا يكون إنه قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر وقيل ان هذا الاستثناء يرجع إلى الاستغفار فعلى هذا يكون فى الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربى إن شاء الله وقيل إن الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد إلا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم إن شاء الله فعلى هذا يكون قوله إن شاء الله للتبرك فهو كقوله ﷺ «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» مع علمه أنه لاحق بهم (ورفع أبويه على العرش) يعنى على السرير الذى كان يجلس عليه يوسف

أى على السرير أجلسهما والرفع هو النقل إلى العلو (وخروا له سجدا) يعنى يعقوب وخالته وإخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض وإنما هو الانحناء والتواضع وقيل وضعوا الجباه على الأرض وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم لا على طريق العبادة وكان ذلك جائزا فى الأمم السالفة فنسخ فى هذه الشريعة «وروى عن ابن عباس أنه قال معناه خروا لله عز وجل سجدا بين يدى يوسف والأول أصح (وقال) يوسف عند ذلك (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) هو قوله «إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين» (وقد أحسن بى) أى أنعم على (إذ أخرجنى من السجن) ولم يقل من الجب مع كونه أشد بلاء من السجن استعمالا للكرم لكيلا يخجل إخوته بعد ما قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولأن نعمة الله عليه فى إخراجه من السجن أعظم لأنه بعد الخروج من الجب صار إلى العبودية والرق وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك ولأن وقوعه فى البئر كان لحسد إخوته وفى السجن كان مكافأة من الله تعالى لزلة كانت منه (وجاء بكم من البدو) والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشى بماشيتهم

والرفع النقل إلى العلو (وخروا له سجدا) يعنى يعقوب وخالته ليا وإخوته، وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الأرض على سبيل العبادة . فان قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه وأعلى منصبا فى النبوة والشيخوخة ؟ قلت يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك لتحقيق رؤياه، ثم فى معنى هذا السجود قولان : أحدهما أنه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا إشكال فيه، والقول الثانى أنه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الأرض وهو مشكل لأن السجود على هذه الصورة لا ينبغى أن يكون إلا لله تعالى، وأجيب عن هذا الإشكال بأن السجود كان فى الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وإنما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وظاهر هذا يدل على أنهم لما صعدوا على السرير خروا سجدا لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لأن ذلك أبلغ فى التواضع . فان قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله «رأيتهم لى ساجدين» وقوله «خروا له سجدا» فان الضمير يرجع إلى أقرب المذكورات وهو يوسف عليه الصلاة والسلام . قلت يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجدا لأجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل أن الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهى أن إخوة يوسف ربما احتملتهم الأنفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا أن أباهم قد سجد له سجدوا له أيضا فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزا فى ذلك الزمان فلما جاء الإسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (وقال) يعنى وقال يوسف عند ما رأى ذلك (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) يعنى هذا تصديق الرؤيا التى رأيت فى حال الصغر (قد جعلها ربى حقا) يعنى فى اليقظة. واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسى وعبد الله بن شداد أربعون سنة وقال أبو صالح عن ابن عباس اثنتان وعشرون سنة وقال سعيد بن جبير وعكرمة والسدى ست وثلاثون سنة وقال قتادة خمس وثلاثون سنة، وقال عبد الله بن سودون سبعون سنة وقال الفضيل بن عياض ثمانون سنة، حكى هذه الأقوال كلها ابن الجوزى وزاد غيره عن الحسن أن يوسف كان عمره حين ألقى فى الجب سبع عشرة سنة وأقام فى العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة وقوله (وقد أحسن بى) يعنى أنعم على يقال أحسن بى وإلى بمعنى واحد (إذ أخرجنى من السجن) إنما ذكر إنعام الله عليه فى إخراجه من السجن وإن كان الجب أصعب منه استعمالا للأدب والكرم لئلا يخجل إخوته بعد أن قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولأن نعمة الله عليه فى إخراجه من السجن كانت أعظم من إخراجه من الجب وسبب ذلك أن خروجه من الجب كان سببا لحصوله فى العبودية والرق وخروجه من السجن كان سببا لوصوله إلى الملك وقيل إن دخوله الجب كان لحسد إخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه (وجاء بكم من البدو) يعنى من البادية وأصل البدو هو البسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد يعنى يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية

وبين إخوتي) بالحسد والبغض (إن ربي لطيف) أي ذو لطف (لما يشاء) وقيل معناه لمن يشاء وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق (إنه هو العليم الحكيم) قال أهل التاريخ أقام يعقوب بمصر عند يوسف أربعا وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش ثم مات بمصر فلما حضرته الوفاة أوصى إلى إبنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق ففعل يوسف ذلك ومضى به حتى دفنه بالشام ثم انصرف إلى مصر. وقال سعيد بن جبير نقل يعقوب عليه السلام في تابوت من ساج إلى بيت المقدس فوافق ذلك موت العيص فدفنا في قبر واحد وكانا ولدا في بطن واحد وكان عمرهما مائة وسبعا وأربعين سنة فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله علم أن نعيم الدنيا لايدوم سأل الله تعالى حسن العاقبة فقال (رب قد آتيتني من الملك) يعني ملك مصر والملك اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير (وعلمتني من تأويل الأحاديث) يعني تعبير الرؤيا (فاطر) أي يا فاطر (السموات والأرض) أي خالقهما (أنت وليي) أي معيني ومتولي أمري (في الدنيا والآخرة توفني مسلما) يقول اقبضني إليك مسلما

(من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) يعني أفسد مابيننا بسبب الحسد وأصل النزغ دخول في أمر لإفساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة قالوا لأن يوسف أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب أن ينسب إليه كما في الإحسان والنعم، والجواب عن هذا الاستدلال أن إسناد الفعل إلى الشيطان وإضافته إليه على سبيل المجاز وإن كان ظاهر اللفظ يقتضي إضافة الفعل إلى الشيطان لا على الحقيقة لأن الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى في الحقيقة «قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فثبت بذلك أن الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل إلا بالقاء الوسوسة والتحريش لإفساد ذات البين وذلك باقدار الله إياه على ذلك (إن ربي لطيف لما يشاء) يعني أنه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الأمور وخفياتها. قال صاحب المفردات وقد يعبر باللطف عما تدركه الحاسة ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم، وقوله إن ربي لطيف لما يشاء أي حسن الاستخراج تنبيها على ما أوصل إلى يوسف حيث ألقاه إخوته في الجب. وقيل إن اجتماع يوسف بأبيه وإخوته بعد طول الفرقة وحسد إخوته له وإزالة ذلك مع طيب الأنفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لأن الله تعالى إذا أراد أمرا هيأ أسبابه (إنه هو العليم) يعني بمصالح عباده (الحكيم) في جميع أفعاله. قال أصحاب الأخبار والتواريخ إن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام عند يوسف بمصر أربعا وعشرين سنة في أهنأ عيش وأنعم بال وأحسن حال فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه إسحاق في الأرض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب عليه السلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده في تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت العيص أخي يعقوب وكانا قد ولدا في بطن واحد فدفنا في قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعا وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع إلى مصر. قالوا لما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بأبيه وإخوته علم أن نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لايدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال (رب) أي يارب (قد آتيتني من الملك) يعني من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لأنه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير (وعلمتني من تأويل الأحاديث) يعني تعبير الرؤيا (فاطر السموات والأرض) يعني خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق. وأصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير إذا شق وظهر وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه (أنت وليي) يعني معيني ومتولي أمري (في الدنيا والآخرة توفني مسلما) أي اقبضني إليك مسلما. واختلفوا هل هو طلب للوفاة في الحال أم لا على قولين: أحدهما أنه سأل الله الوفاة في الحال قال قتادة لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف قال أصحاب هذا القول وإنه لم يأت عليه أسبوع حتى توفي. والقول الثاني أنه سأل الوفاة على الإسلام ولم يتمن الموت في الحال قال الحسن إنه عاش بعد هذه سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفني إذا توفيتني على الإسلام فهو طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام وليس في اللفظ مايدل على أنه طلب الوفاة في الحال، قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لأن اللفظ صالح

(وألحقنى بالصالحين) يريد بآبائى النبيين قال قتادة لم يسأل نبى من الأنبياء الموت إلا يوسف ، وفى القصة لما جمع الله شمله وأوصل إليه أبويه وأهله اشتاق إلى ربه عز وجل فقال هذه المقالة قال الحسن عاش بعد هذا سنين كثيرة وقال غيره لما قال هذا القول لم يمض عليه أسبوع حتى توفى واختلفوا فى مدة غيبة يوسف عن أبيه فقال الكلبى اثنتان وعشرون سنة وقيل أربعون سنة وقال الحسن ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة

وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد لقاء يعقوب ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة وفى التوراة مات وهو ابن مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب المبتلى عليه السلام وقيل عاش يوسف بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر واختلفت الأقاويل فيه وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة فدفنوه فى النيل فى صندوق من رخام وذلك أنه لما مات تشاح الناس فيه فطلب أهل كل محلة أن يدفن فى محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال فرأوا أن يدفنوه فى النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجرى الماء عليه وتصل بركته إلى جميعهم وقال عكرمة دفن فى الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فدفنوه فى وسطه وقدروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان جميعا إلى أن أخرجه موسى فدفنه بقرب آبائه بالشام (ذلك) الذى ذكرت (من أنباء الغيب نوحيه إليه وما كنت لديهم) أى ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب (إذ أجمعوا أمرهم) أى عزموا على إلقاء يوسف فى الجب (وهم يمكرون) بيوسف (وما أكثر الناس) يا محمد (ولو حرصت بمؤمنين) على إيمانهم وروى أن اليهود وقريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا فحزن النبى ﷺ

للأمرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه أن الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وأن نعيم الآخرة باق دائم لانفاد له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به» فإن تمنى الموت عند وجود الضرر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولى وقوله (وألحقنى بالصالحين) أراد به بدرجة آبائه وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قال علماء التاريخ عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفى التوراة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب وقيل عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر . ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه فى النيل فى صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر وذلك أنه لما مات يوسف تشاح الناس فيه فطلب كل أهل محلة أن يدفن فى محلتهم رجاء بركته حتى هموا أن يقتتلوا ثم رأوا أن يدفنوه فى النيل بحيث يجرى الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته إلى جميعهم وقال عكرمة إنه دفن فى الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب وأجدب الجانب الأيمن فدفنوه فى وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان فبقى إلى أن أخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام فى الأرض المقدسة . قوله عز وجل (ذلك) يعنى الذى ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع إخوته ، ثم إنه صار إلى الملك بعد الرق (من أنباء الغيب) يعنى أخبار الغيب (نوحيه إليك) يعنى الذى أخبرناك به من أخبار يوسف وحى أوحيناه إليك يا محمد وفى هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان رجلا أميا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى بلد آخر غير بلده الذى أنشأ فيه ﷺ وأنه نشأ بين أمة أمية مثله ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن ترتيب وأبين معان وأفصح عبارة فعلم بذلك أن الذى أتى به هو وحى إلهى ونور قدسى سماوى فهو معجزة له قائمة إلى آخر الدهر . وقوله تعالى (وما كنت لديهم) يعنى وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب (إذ أجمعوا أمرهم) يعنى حين عزموا على إلقاء يوسف صلى الله عليه وسلم فى الجب (وهم يمكرون) يعنى بيوسف (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى

لذلك فقيل له إنهم لايؤمنون وإن حرصت على إيمانهم (وما تسألهم عليه) أى على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى (من أجر) جعل وجزاء (إن هو) ماهو يعنى القرآن (إلا ذكر) عظة وتذكير (للعالمين وكأين) وكم (من آية) عبرة ودلالة (فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فكان من إيمانهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض قالوا الله وإذا قيل لهم من ينزل القطر قالوا الله ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون. وعن ابن عباس أنه قال إنها نزلت فى تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك وقال عطاء هذا فى الدعاء وذلك أن الكفار نسوا ربهم فى الرخاء ، فاذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء كما قال الله تعالى «وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين» الآية وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون» وغير ذلك من الآيات (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أى عقوبة مجللة قال مجاهد عذاب يغشاهم نظيره قوله تعالى «يوم يغشاهم العذاب من فوقهم» الآية قال قتادة وقيعة وقال الضحاك يعنى الصواعق والقوارع (أو تأتيهم الساعة بغتة) فجأة (وهم لايشعرون) بقيامها قال ابن عباس تهيج الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم (قل) يامحمد (هذه) الدعوة التى أدعوا إليها والطريقة التى أنا عليها (سبيلى) سنتى ومنهاجى وقال مقاتل دينى نظيره قوله « أدع إلى سبيل ربك» أى إلى دينه (أدعوا إلى الله على بصيرة) على يقين والبصيرة هى المعرفة التى يميز بها بين الحق والباطل (أنا ومن اتبعنى) أى ومن آمن بى وصدقنى أيضا يدعو إلى الله هذا قول الكلبى وابن زيد قال حق على من اتبعه أن يدعو إلى مادعا إليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعوا إلى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعنى يقول إنى على بصيرة من ربى وكل من اتبعنى قال ابن عباس يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن . قال عبد الله بن مسعود من كان مستنا فليستن بمن قد مات فان الحى لاتؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا اختارهم الله لصحبة

وما أكثر الناس يامحمد ولو حرصت على إيمانهم بمؤمنين وذلك أن اليهود وقريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ماعندهم فى التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فقيل له إنهم لايؤمنون ولو حرصت على إيمانهم ففيه تسلية له (وماتسألهم عليه من أجر) يعنى على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله من أجر يعنى أجرا وجعلا على ذلك (إن هو) أى ماهو يعنى القرآن (إلا ذكر) يعنى عظة وتذكيرا (للعالمين وكأين من آية) يعنى وكم من آية دالة على التوحيد (فى السموات والأرض يمرون عليها) يعنى لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها (وهم عنها معرضون) أى لايلتفتون إليها والمعنى ليس إعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة الدالة على وحدانية الله تعالى بأعجب من إعراضهم عنك يامحمد (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) يعنى أن من إيمانهم أنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض قالوا الله وإذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الأصنام. وفى رواية عن ابن عباس أنهم يقرون أن الله خالقهم فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره فذلك شركهم ، وفى رواية أخرى عنه أيضا أنها نزلت فى تلبية مشركى العرب وذلك أنهم كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه ومامالك وقال عطاء هذا فى الدعاء وذلك أن الكفار نسوا ربهم فى الرخاء فاذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) يعنى عقوبة مجللة تعمهم وقال مجاهد عذاب يغشاهم وقال قتادة وقيعة وقال الضحاك يعنى الصواعق والقوارع (أو تأتيهم الساعة بغتة) يعنى فجأة (وهم لايشعرون) يعنى بقيامها قال ابن عباس تهيج الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين (هذه سبيلى) يعنى طريقى التى (أدعو) إليها وهى توحيد الله عز وجل ودين الإسلام وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق المؤدى إلى الله عز وجل وإلى الثواب والجنة (إلى الله) يعنى إلى توحيد الله والإيمان به (على بصيرة) يعنى على يقين ومعرفة والبصيرة هى المعرفة التى يميز بها بين الحق والباطل (أنا ومن اتبعنى) يعنى

يعنى من آمن بى وصدق بما جئت به أيضا يدعو إلى الله وهذا قول الكلبي وابن زيد قال حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو إلى مادعا إليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعو إلى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني يعني أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضا على بصيرة قال ابن عباس إن محمدا ﷺ وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن . وقال ابن مسعود ومن كان مستنا فليستن بمن قدمات أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطريقتهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم . وقوله (سبحان الله) أي وقل سبحان الله يعنى تنزيها له عما لايليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء والاضداد والانداد (وما أنا من المشركين) يعنى وقل يامحمد وما أنا من المشركين الذين أشركوا بالله غيره . قوله عز وجل (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) يعنى وما أرسلنا قبلك يامحمد إلا رجالا مثلك ولم يكونوا ملائكة (نوحى إليهم) هذا جواب لأهل مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكا والمعنى كيف تعجبوا من إرسالنا إياك يامحمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك (من أهل القرى) يعنى من أهل الأمصار والمدن لامن أهل البوادى لأن أهل الأمصار أفضل وأعلم وأكمل عقلا من أهل البوادى قال الحسن لم يبعث نبى من بدو ولا من الجن ولا من النساء وقيل إنما لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم (أفلم يسيروا فى الأرض) يعنى هؤلاء المشركين المكذبين (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) يعنى كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا رسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم من عذابنا (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) (يعنى فعلنا هذا بأوليائنا وأهل طاعتنا إذ أنجيناهم عند نزول العذاب بالأمم المكذبة وما فى الدار الآخرة خير لهم يعنى الجنة لأنها خير من الدنيا وإنما أضاف الدار إلى الآخرة وإن كانت هى الآخرة لأن العرب تضيف الشئ إلى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه (أفلا تعقلون)يعنى يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون. قوله عز وجل (حتى إذا استيأس الرسل) قال صاحب الكشاف حتى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كأنه قيل وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرسل عن النصر وقال الواحدي حتى هنا حرف من حروف الإبتداء يستأنف بعدها والمعنى حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم (وظنوا أنهم قد كذبوا) قرأ أهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ماقاله الواحدى أن معناه ظن الأمم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقال أهل المعانى كذبوا من قولهم كذبتك الحديث أى لم أصدقك ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال أبو على والضمير فى قوله وظنوا على هذه القراءة للمرسل إليهم والتقدير وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس إنهم لم يؤمنوا حتى نزل

نبيه ولإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم قوله تعالى (وسبحان الله) أى وقل سبحان الله تنزيها له عما أشركوا به (وما أنا من المشركين وما أرسلنا من قبلك) يامحمد (إلا رجالا) لا ملائكة (نوحى إليهم) قرأ أبو جعفر وحفص نوحى بالنون وكسر الحاء وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء (من أهل القرى) يعنى من أهل الأمصار دون أهل البوادى لأن أهل الأمصار أعقل من أهل البوادى لغلظهم وجفائهم (أفلم يسيروا فى الأرض يعنى هؤلاء المشركين (فينظروا كيف كان عاقبة)آخر أمر (الذين من قبلهم) يعنى الأمم المكذبة فيعتبروا (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) يقول جل ذكره هذا فعلنا بأهل ولايتنا وطاعتنا أن ننجيهم عند نزول العذاب وما فى الدار الآخرة خير لهم فترك ما ذكرنا اكتفاء بدلالة الكلام عليه قوله ولدار الآخرة قيل معناه ولدار الحال الآخرة خير وقيل هو إضافة الشىء إلى نفسه كقوله إن هذا لهو حق اليقين وكقولهم يوم الخميس وربيع الآخر (أفلا تعقلون) فتؤمنون (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا

بهم العذاب وإنما ظنوا ذلك لما شاهدوا من أمهال الله إياهم ولا يمتنع حمل الضمير فى ظنوا على المرسل إليهم وإن لم يتقدم لهم ذكر لأن ذكر الرسل يدل على ذكر المرسل إليهم وإن شئت قلت إن ذكرهم جرى فى قوله أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أى مكذبى الرسل والظن هنا على معنى التوهم والحسبان وهذا معنى ماروى عن ابن عباس أنه قال حتى إذا استيأس الرسل من قومهم الإجابة وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من نصرهم وإهلاك من كذبهم وقيل معناه وتيقن الرسل أنهم قد كذبوا فى وعد قومهم إياهم الإيمان أى وعدوا أن يؤمنوا ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا أنهم قد كذبوا أى كذبتهم أنفسهم حتى حدثتهم بأنهم لاينصرون أو رجاؤهم كقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لانصر لهم فى الدنيافجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب وعن ابن عباس وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قدأخلفوا ماوعدهم الله به من النصر قال وكانوا بشرا وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال صاحب الكشاف فان صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن مايخطر بالبال ويهجس فى القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ماعليه الطبيعة البشرية وأما الظن الذى هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد وحكى الواحدى عن ابن الأنبارى أنه قال هذا غير معول عليه من جهتين إحداهما أن التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول تأول عليه والأخرى أن قوله جاءهم نصرنا دال على أن أهل الكفر ظنوا مالايجوز مثله واستضعفوا رسل الله ونصر الله للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأ عظيما ولا يستحقون ظفرا ولانصرا وتبرئة الأنبياء وتطهيرهم واجب علينا إذا وجدنا إلى ذلك سبيلا وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وظنوا أنهم قد كذبوا بالتشديد ووجهه ظاهر وهو أن معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا يعنى وأيقنوا يعنى الرسل أن الأمم قد كذبوهم تكذيبا لايرجى بعده إيمانهم فالظن بمعنى اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء واستبطئوا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعنى وظنوا بالرسل ظن حسبان أن ربهم قد كذبهم فى وعد الظفر والنصر لإبطائه وتأخره عنهم ولطول البلاء بهم لأنهم كذبوهم فى كونهم رسلا وقيل أن هذا التكذيب لم يحصل من أتباعهم المؤمنين لأنه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعا فالكناية فى وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قوله

تعالى حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أو كذبوا قالت بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت ياعروة أجل لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك من ربهم قلت فما هذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عندذلك وفى رواية عبد الله بن عبيدالله بن أبي مايكة قال قال ابن عباس حتى إذااستيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا خفيفة قال ذهب لها هنالك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ماوعد الله ورسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون معهم من قومهم من يكذبونهم فكانت تقرؤها وظنوا أنهم قدكذبوا مثقلة. وقوله تعالى (جاءهم نصرنا) يعنى جاء نصر الله النبيين (فنجى من نشاء) من عبادنا يعنى عند نزول العذاب بالكافرين فنجى المؤمنين المطيعين (ولا يرد بأسنا) يعنى عذابنا (عن القوم المجرمين) يعنى المشركين قوله تعالى (لقد كان فى قصصهم) يعنى فى خبر يوسف وإخوته (عبرة) أى موعظة (لأولى الألباب) يعنى يتعظ بها أولوا الألباب والعقول الصحيحة ومعنى الاعتبار والعبرة الحالة التى يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهدإلى ماليس بمشاهد والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إخراج يوسف من الجب بعد القائه فيه وإخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته وإظهار دينه وأن الأخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الأخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل إن الله تعالى قال فى أول هذه السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وقال فى آخرها لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب فدل على أن هذه القصة من أحسن القصص وإن فيها عبرة لمن اعتبرها (ما كان حديثا يفترى) يعنى ما كان هذا القرآن حديثا يفترى ويختلق لأن الذى جاء به من عندالله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه أو يختلقه لأنه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء ثم إنه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وأنه ليس بمفتر (ولكن تصديق الذى بين يديه) يعنى ولكن كان تصديق الذى بين يديه من الكتب الالهية المنزلة من السماء من التوراة

جاءهم نصرنا) اختلف القراء فى قوله كذبوا فقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر كذبوا بالتخفيف وكانت عائشة تنكر هذه القراءة وقرأ الآخرون بالتشديد فمن شدده قال معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أى أيقنوا، يعنى الرسل أن الأمم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعده إيمانهم والظن بمعنى اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر ومن قرأ بالتخفيف قال معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أى ظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم فى وعيد العقاب وروى عن ابن عباس أن معناه ضعف قلوبهم يعنى وظنت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر وكانوا بشرا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا ثم تلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله جاءهم أى جاء الرسل نصرنا (فنجى من نشاء) قرأ العامة بنونين أى نحن ننجى من نشاء، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم وفتح الياء على مالم يسم فاعله لأنها مكتوبة فى المصحف بنون واحدة مضمومة فيكون محل من رفعا على هذه القراءة وعلى القراءة الأولى يكون نصبا فنجى من نشاء عند نزول العذاب وهم المؤمنون المطيعون (ولا يرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) أى المشركين (لقد كان فى قصصهم) أى فى خبر يوسف وإخوته (عبرة) عظة (لأولى الألباب ما كان) يعنى القرآن (حديثا يفترى) أى يختلق (ولكن تصديق الذى) أى ولكن كان تصديق الذى (بين يديه) من التوراة والإنجيل

والإنجيل وفيه إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من ذكر قصة يوسف (وتفصيل كل شىء) يعنى أن فى هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شىء تحتاج إليه من الحلال والحرام والحدود والأحكام والقصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك مما يحتاج إليه العباد فى أمر دينهم ودنياهم (وهدى) يعنى إلى كل خير (ورحمة) يعنى أنزلناه رحمة (لقوم يؤمنون) لأنهم هم الذين ينتفعون به والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

تم الجزء الثالث من تفسير الخازن
ويليه الجزء الرابع
وأوله : تفسير سورة الرعد

(وتفصيل كل شىء) مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهى (وهدى ورحمة) بيانا ونعمة (لقوم يؤمنون)

فهرست الجزء الثالث

من تفسير القرآن العظيم للإمام على بن محمد المعروف بالخازن

صحيفة

فهرست الجزء الثالث

من كتاب معالم التنزيل لمحيي السنة أبي محمد الحسين الفراء البغوى
(الذى بهامش الخازن)

صحيفة

